

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل، باذن الله، ما يختلج في بعض الصدور من شكوك، ويريك ان الاسلام دين العقل والمنطق وأن لا تنافي بينه وبين العلم الصحيح، (لا الظنون والأهواء!)

بقلم

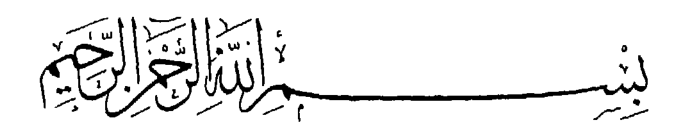
أحمد أمين

خريج كلية التربية وجامعة استنبول

الجزء الأول

دار المعرفة

بيروت - لبنان



قال علي عليه السلام:

عباد الله زِنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا. وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عُنف السياق. واعلموا أنه مَن لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وصلى الله على أفضل خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد،

إن الانسان في عصرنا اليوم، قد اختمرت في ذهنه جملة من الأسئلة والشكوك، وما يؤسف له أن هذا كله يتم دون محاولة منه التحرك والتحقيق والبحث للوصول إلى الحقيقة، حتى تحولت إلى شكوك اجتماعية وقف منها القيّمون على الشأن، موقف الصمت، دون التوجيه لتبصّر أسبابها ودوافعها ودراسة المواضيع التي أثيرت حولها تلك الشكوك والمسائل.

إن عصرنا اليوم عصر الاضطراب السياسي والاجتماعي، عصر التردد والانقسام الثقافي والروحي، عصر التغير والتبدل العقائدي والايديولوجي.

إن عصرنا اليوم عصر التيارات الفكرية المتصارعة المستندة والمدعومة من قوى ومؤسسات بدورها تستند إلى تنظيم يدفعهافي مختلف الاتجاهات.

هذه الآراء والتيارات تغلّفت برداء العلمية والتقدم والتنظيم الاقتصادي فخلبت ألباب كثير من الناس.

هذه التيارات وجدت كلها لمحاربة الاسلام وقد استخدمت كافة الأساليب الملتوية ومارست وتمارس شتى أنواع الخداع للوصول إلى أهدافها.

إن إيصال كلمة الحق اليوم إلى أذهان الناس وعقولهم، عمل ليس باليسير، بعد هذا الغزو المنظم، وفي ظل هذا الانحراف الخطير، وفي خضم هذه الفِكَر الوافدة التي فرزتها مختلف التيارات والتي طالت جوهر عقيدتنا، بل تعدتها إلى النفس الانسانية في الصميم.

هذه الفِكَر والنظم عششت ونمت في المجتمع الغربي، فأخرجته عن فطرته الانسانية وسلخت النفس هناك صفاءها ونقاءها، ومنذ أجيال بعيدة، حتى أصبح الانسان محكوماً بتوجه مادي محض.

ولا ننكر أن هذا الانسان قد استطاع أن يحقق درجات مهمة من التألق والتقدم في مجالات مادية عديدة كالاقتصاد والعلوم وغيرهما لكنه إنطلق بعيداً عن سمو الذات الانسانية التي أضاعتها وغمرتها إنتصارات واكتشافات التطور المزعوم والتقدم العلمي الموهوم.

﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. إن العلوم الحديثة، رغم ما حققته بقيت ضيقة، مبتورة، وناقصة لأنها لم تعتنِ بتنمية السلوك الإنساني ولا بإعداد النشء ولا بتطهير النفس، ولا بتطوير حياة اجتماعية لممارستها في تكوين وإيجاد مجتمع سليم تسوده المحبة والتعاون.

ولم يتطلع، الأوروبي، والغربي عموماً، إلى نفسه إلا من خلال شهواتها وغريزتها وحيوانيتها فاعتبر أن لكل زمن منطقاً ودساتير وقوانين تتغير وتتبدل حسب ميول الناس ورغباتهم.

واعتبر أن لا تسافل ولا تكامل، بل التكامل ما عليه الناس اليوم، وما هو عليه واقعهم، وما هي عليه عاداتهم وتقاليدهم وسبل معيشتهم.

ولقد بلغ من السخافة والجهل وعدم الاطلاع مرتبة ينكر معها الحقائق الأصلية، والعلم الصحيح الذي يهدف إلى تربية الانسان مادياً وروحياً، لنقص متأصل فيه منذ أن اقتلعت نفسه من فطرتها.

هذا النقص الذي أحاط به فسلبه عقله وأضاعه وقد أصبح منذ زمن طويل ينفذ رغبات النفس الأمارة بالسوء والتي مهما أوتيت من عقلٍ وتدبير وتفكير فهي محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها.

ولعب العقل دور المدبر والمنفذ لمتطلبات تلك النفس الغارقة في الشذوذ فابتعد في تقييمه وتحليله واستنتاجاته عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب

البحث واعتمد في ادعاءاته على السفسطة والخيال وابتدع نظريات ومفاهيم لا يدعمها العلم الصحيح، بل إن العلم منها براء.

وقد بلغ الانسان من التسافل مرتبة لم يعد يشعر معها بما هو فيه من تردٍ مرير. بل لم يكتف بهذا الحد فاستهزأ بمن لم يوافقه سلوكه وهذيانه، وافتراضاته، وبمن اعترض وحاكم نظرياته فوصمه بالرجعية والجهل والتخلف. متناسياً قوله تعالى: ﴿. . . هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ وفيه صح قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن ذكر بآيات ربه، فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكِنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وان تدعهم إلى الهدى، فلن يهتدوا إذن أبداً﴾. وقوله في آية كريمة أخرى: ﴿. . . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.

وبذل جهوداً مضنية للدفاع عما أسماه بالمدنية والتي رأى فيها الحياة والنجاة من عقائد بالية وأفكارٍ خرافية لا تتلاءم ومفاهيم ونظم القرن العشرين.

هذه الجهود لم تسهم في معالجة النواحي الأخلاقية التي تعاني منها المجتمعات فأدت إلى انهيار اخلاقي شبه كامل وانحلال اجتماعي أودى بحياة الانسان إلى التسافل والانحطاط.

بهت الشرق من تقدم أوروبا الاقتصادي، واعتقد خطأ، أن تقدمها هذا إنعكس تطوراً وسمواً وتكاملاً في حياة مجتمعاتها العلمية والروحية والانسانية فظن تقديماتها صحيحة واعتبرها دفعاً له وناصراً نحو الانفلات والتحرر والانعتاق من عهود التخلف والظلم.

فاستقى من فلسفاتها الكثير، وإقتبس من نظرياتها، المغلفة بشعارات العدالة والمساواة، القشور والسفاسف قبل أن يمحص وينقب فيأخذ المهم منها.

دب التبلبل في الشرق وتشتت الأفكار والآراء، فنسي الانسان نفسه التي تدانت إلى أسفل سافلين وهي على كلٍ أقرب إلى التأثر بالقذارة والفسق أكثر منها تطلعاً إلى السمو والعلى.

تأثر الشرق بتقاليد أوروبا فابتعد عن روحياته التي تسمو به نحو كمال يكون فيه الانسان أعلى منزلة من الملائكة فترك لنفسه العنان حتى صح فيه قوله تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

هذه البلبلة الفكرية التي غمرت الوسط الاجتماعي، الشرقي والاسلامي، لم ينج منها بعض العاملين في الحقل الفكري والذين تصدوا لطرح الفكر الاسلامي وبلورته ومنهجته. ففسروا الشريعة والعقيدة وقدموها متأثرة بالسموم والأفكار التي تفاعلت في أذهانهم ومفاهيمهم فجاءت تفسيراتهم واجتهاداتهم فارغة من كل محتوى، بل أفرغت الدين من محتواه الانساني والروحي وما يرمي إليه من تربية النفس الانسانية وتهذيبها وإبلاغها إلى أرقى درجات كمالها وتعميق معرفتها لتقترب وتدنو من الله.

وقد نسي هؤلاء أن القوانين والنظم التي ترشحت من الاسلام إنما هي قوانين ثابتة وصالحة لحل مشاكل الانسان، وترد على حاجاته ومتطلبات حياته في كل زمان ومكان.

وامتد التأثير إلى الشبيبة المثقفة بثقافة العصر، وهؤلاء قد التبس عليهم أن التقدم الاقتصادي والمادي والعلمي وحتى النبوغ في هذا المجال لا علاقة له بتربية النفس وكمالها. فالنبوغ في معالجة أمراض النفس وتربيتها وإيصالها إلى حقيقتها، إلى معرفة الخالق عز وجل.

واعتبر هؤلاء أن الدين، دينهم، دين زهد وانزواء وجمود وخمول، وهو لا يصلح ولا يستطيع أن يحقق مدنية فاضلة تؤدي إلى تكامل الأمة وسيرها في ساحات التقدم والرقي.

وقد تركز في عقولهم أن ما طُرح من نظريات أمامهم مؤكدة الصحة، فنفوا احتمال نقضها، أو تبدّلها ولم يدركوا أن كل ما نصادفه من تصورات العقل البشري وإدراكاته نسبي يحتمل الصحة والبطلان وليس صادقاً تماماً. ولم يدركوا أن قصورنا عن ادراك الحكمة، والوصول إلى قوانين علمية معينة، لا يعني انتفاءها وإنما يعني أننا بمستوانا الذهني قاصرون عنها حتى يأتي الوقت المناسب لادراكها.

وقد غاب عن هؤلاء أيضاً أن الايمان التقليدي مردود ومرفوض وأنه يجب الوقوف على أصول الدين بالبرهان العقلي والدليـل المنطقي فتنتفي عنـدئذ حجتهم بأن الدين لم يصل إلى مستوى تقـديم الحلول للمشاكـل العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها الانسان.

ونسي هؤلاء أو تناسوا، أن نبوغ أوروبا وتقدمها في مختلف المجالات وحتى العلمية منها، لم يرقَ بالنفس الانسانية ولم يهذبها بل ساهم في تحطيمها وتدنيسها فانزلقت، وتاه مع انزلاقها العقل وإبتعد بها عن معرفة الله. «فليس بين الايمان والكفر إلا قلة العقل» كما روي عن الامام الصادق (ع): «أن رواة العلم كثير، ورعاته قليل» كما نقل عن الامام علي (ع).

إن العمل الصادق المخلص من أجل قلع واجتثاث الخرافات والأباطيل التي لوثت بل دخلت عمق جذورنا. لضروري تكثيفه.

ونحن نبذل قصارى جهدنا، في مضمار صد ما انزلق إليه الفكر وما لوثت به أحكامنا. . . ونرى في ذلك قضاء لبعض الواجب.

والتزاماً منا في متابعة الرحلة الصعبة الطويلة لنشر الكلمة الحق ومساهمةً في محاولة تطهير النفس من الأدران التي علقت بها بوحي قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير. . . ﴾.

واليوم، إلى قارئنا الكريم، إلى شبابنا المثقف الذي تاه وبهرته المظاهر البراقة الفارغة من أي محتوى.

نقدم كتاب ـ التكامل في الاسلام ـ هذا الكتاب الذي ارتفع فيه مؤلفه بالانسان إلى المكان اللائق الذي يجب أن يكون فيه من سمو النفس وكمال الروح معتبراً أن حياته تجربة واستعداد وتهيؤ وأنها ليست إلا لحظة من لحظات الأبدية. وما هي إلا امتحان لصبره عندما يجيء ذلك اليوم الذي يقف فيه على أعتاب الآخرة.

ابتعد في معالجته عن التعصب والغوغاء وبرهن أن الدين الاسلامي دين تفكر وتدبر، دين تمحيص وتعمق، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن العصبية والخيال.

في موضوعاته أعطى العقل الدور الأهم في حياة الانسـان من خلال هدايته له وإيصاله مهتدياً به إلى أحسن وأفضل السبل للاعتراف بوحدانية الخالق.

ولم يقصر، بل رد على مستغلي الانسان وموجهيه الوجهة المادية والذين استعملوا العقل لاهداف ابتعدت بالانسان في مجاهل تردي حياته الاجتماعية والخلقية. ولم تكن ردوده غوغائية وبعيدة عن المنطق السليم فقد اعتمد ما استطاع آيات كريمة من القرآن الكريم، وأحاديث شريفة تضع العقل في صدر معالجة الانسان لما اعترضه وما قد يعترضه من مشاكل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

إلى أن انتهى بموضوع العقل فاعتبره السلّم الذي يتدرج به الانسان إلى السمو والتكامل. ﴿ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. وما نقل عن الامام علي (ع): «ما عبـد الله بشيء أفضل من العقل».

وعالج فيما عالج قضية النفس الانسانية وتكـاملها، واعتـرض محاكـماً المجتمعات الغارقة في الفساد، والتي تحطمت فيها النفس الانسانية فهوت إلى أدنى مراتب الفجور.

فاعتبر أن قضية الاعتراف بالخالق ليست قضية منطقية وعلمية فحسب، بل هي رشحات النفس الزكية الأصيلة، حتى أنه اعتبر انها بحث نفسية لا أثر للمنطق فيها.

وأوضح أن غاية العلم مهما تألقت وسمت فـدورهـا ينحصر أساساً في الارتقاء بالنفس الانسانية وإيصالها إلى الله، والعمل بما يرضيه، حيث النور والسعادة الأبدية والحياة.

وخلص إلى أن الايمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسي والبلوغ إلى حيث يشاء الله، إن لم يخضع هـذه الايمان والنفس معـه إلى امتحانات دقيقة وصعبة إن تغلبت وانتصرت فيها النفس وابتعدت عن المعاصي والآثام والشرور، عندئذ تسمو فتتكامل. وأوضح أن الدين الاسلامي يربي

المسلم بصورة عملية من خلال اهتمامه بشتى نواحي حياته المادية والروحية والأخلاقية. فإنه إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء. «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» روي عن النبي (ص) ليؤكد إهتمام الدين بتربية الانسان ليصل به إلى الكمال.

فالدين الاسلامي دين صناعة النفس، وتكوينها وهو يهدف إلى إبلاغها أعلى مراتب التكميل بمعرفتها الله.

أخي الكريم،

نقل عن الامام علي (ع): «إن البحث عن العلم جهاد، وسلاح على الأعداء، ونور الأبصار من العمى، وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد».

تدعوك لقراءة هذا الكتاب... لعله ينير أمامك الطريق ويسد بعض الثغرات... ويجيب على بعض الأسئلة والشكوك.

لعله يزيل بعض الأوهام التي علقت في الأذهان.

لعله... كما نستنتج من قوله تعالى:

﴿... إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

﴿... إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

لعلنا نوفق في الوصول.

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل؛ ويوفقنا لمتابعة الطريق...

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إذا صفت النفس الانسانية مما علق بها من أدران وأوساخ، ونظر الانسان نظرة دقيقة فيما جاء في الدين الاسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وسنن وآداب وأوامر ونواه لرأى أنها برمتها ترمي إلى تكميل النفس الانسانية وإبلاغها إلى أسمى مراتب الكمال، كمال منَّ الله تعالى به على البشر، يتفاوت حسب جهودهم ومساعيهم، ﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى﴾، ولئن كانت التجربة مدار العلم الحديث فنحن ندعو رجال الثقافة والتفكير (وأعني به: التفكير في العلوم المادية) للقيام بهذه التجربة الحيويةِ المنجية وأعني بها تطبيق الدساتير الاسلامية دون أن يستثنوا منها شيئاً كتحليل الربا والنظر إلى ما حرّم الله تعالى أو. . . حتى يروا في أنفسهم ذلك التقدم الروحي والتكامل النفسي، فيقيسوا إذ ذاك ما كانوا عليه من البهيمية مع ما بلغوا إليه من حالة قدسية حديثة، فيأسفوا على ما فرطوا معترفين أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور. فقد جاء في الحديث: «الناس كلهم بهائم إلا قليلاً من المؤمنين». وان الله تعالى يقول: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم﴾. ولكن هيهات. لا ينال توفيق هذه التجربة إلا من لم تنقطع صلته بالله وكان له، على الأقل، اتصال ضئيل بربه بعمل صالح كان يأتي به من حين إلى حين. ان الله تعالى يقول: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. إنما تنذر من تبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾. فلا يوفق إلى هذه التجربة إلا من خشي الرحمن في خلواته ولو قليلاً: هيئت له موائد الخمر ولا حرج عليه، فلم يشرب، أو كان وصولاً لأمه وأبيه، أو كان حسن الخلق غير متكبر ولا متجبر، أو كان عطوفاً على جاره ببعض ما يتمكن منه إلى غير ذلك.

ولكن انقطعت صلته بالله تبارك وتعالى وأصبح جرثومة فساد لا يبدو منه عمل صالح لوجه الله أبداً فقد انسدت عليه أبواب الهداية وأصبح لا تؤثر فيه الهداية أبداً.

«ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون».

فمثل هذا الشخص لا يوفق للقيام بهذه التجربة التي بها حياة الانسان وسعادته الأبدية. حتى أنه ليستسخف هذه التجربة ويرى ما فيها من نصوص خرافات. أنه قد عمى قلبه فأمسى لا يبصر شيئاً. ﴿وإن أعمى العمى عمى القلب﴾ كما في الحديث. ان الله تعالى يقول:

﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين﴾. ومعنى ذلك أن قساوة القلب تؤدي إلى الضلال ولا يقسو القلب إلا من ارتكاب الجرائم.

إن الله تعالى يقول: ﴿أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ ولا يأتي هذا العمى إلا من جراء الفسوق. ولا يأتي الكفر إلا من جراء الفجور. لقوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾.

إن القلب ليصدأ من جراء المعاصي والآثام وأعني بذلك النفس أو الروح، فيكون هذا الصدأ حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، لقوله تعالى: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

وإن هناك تلازماً بين العمل الصالح وتكامل النفس، كما أن هناك تلازماً بين المعاصي وتسافل النفس. فلا يجزى الانسان إلا من نوع عمله. صالحاً أو فاسداً ان الله تعالى يقول: ﴿إنما تجزون ما كنتم تكسبون﴾.

وفي آية أخرى: ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾.
وفي أخرى: ﴿وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾.

وإن هذا الحجاب الحاجز عن رؤية الحق قد يكون كثيفاً إلى درجة يجعل صاحبه ساخراً من الذين آمنوا متهماً إياهم بالخرافة والرجعية، والواقع ان الرجعية هي الرجوع عن الحق إلى الجاهلية الجهلاء. ان الله تعالى يقول:

﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾.

ولم يكن ضحكهم هذا واستهزاؤهم إلا لاجرامهم السابق. ثم يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وإذا مرّوا بهم (أي بالمؤمنين) يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين﴾.

وقد يبلغ بهم العمى حتى تحجب عقولهم عن تفهم أبسط عمل يقوم به المؤمن وهو أداء واجب الشكر تجاه خالقه بصلاة يصليها لربه.

﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

نعم، فقد ذهبت عقولهم، ذلك العقل الفطري الذي أودعه الله في الانسان، فيبصر به الحق ويميزه عن الباطل. ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه. إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً» (٥٧ ـ سورة الكهف).

فالله جعل على قلوبهم أي عقولهم أكنة، أغطية وأستاراً حتى أمسوا لا يرون الحق ونسوا أنفسهم وذهلوا عن معالجتها وإصلاحها. إن الله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾.

ومعنى ذلك: أن تماديهم في فسوقهم جعلهم ينسون أنفسهم ويهملوها، وحاش لله أن يكون سبباً لغواية أحد وضلاله وقد أرسل ١٢٤٠٠٠ نبي

لتكميل البشر حتى جعل أول من خلق وهو آدم (ع) نبياً. لتسبق الهداية الخلق اهتماماً بأمر تكامل البشر. ولكنهم لكثرة ذنوبهم وبغيهم أصبحوا لا يعون ولا يشعرون، فلا يفيد فيهم النصح والهداية. إن الله تعالى يقول: «ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون». أي أن التمادي في الجرائم والموبقات حجبت الأنوار الإلهية عنهم حتى صاروا لا يفكرون في مصيرهم موقنين أن ما هم عليه هو الصواب ونتيجة ذلك الاستهزاء بالحقائق الدينية وبما بعد الموت.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء. وقد فتح باب التوبة للمذنبين من عباده حتى جاء في الحديث (التائب من الذنب كمن لا ذنب عليه). فالله تعالى قد أفاض برحماته على البشرية جمعاء. ولكن أكثر الناس أبوا إلا الخروج عن طاعته. أنه يقول:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

وإن ما يصيب الانسان في حياته الدنيوية من فقر وسقم و. . . إنما هو لتطهيره وتزكيته وتكفير ذنوبه. فهي رحمات وألطاف تزكو بها النفوس وتتطهر عما علق بها من أدران الذنوب. وفي الحديث: ﴿ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر﴾ وليس هذا الخدش وذاك الاختلاج إلا أمراً طبيعياً لتطهير النفوس الملوثة. ذلك لأن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. والتطهير هو مقدمة الكمال ولا كمال إلا به. وعن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله (ص) ان الله تعالى يقول: ﴿وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها أما بسقم في جسده أو بضيق في رزقه وأما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة﴾.

دين الاسلام دين التكامل البشري بكل ما في التكامل من معنى سامٍ رفيع. تكامل في عالم النفس والروح لا في عالم المادة فحسب. ذلك لأنّ الانسان انسان بنفسه وروحه وليست المادة من حقيقة الانسانية في شيء.

لذلك جاء في الحديث (الصلاة معراج المؤمن). والتقوى أساس التكامل النفسي قال رسول الله (ص): «ما اتقى الله امرؤ إلا جعل الله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ورزقه من حيث لا يحتسب». والتزكية هي نوع تكامل ولولا التزكية والتطهير لما حصل تكامل أبداً. إن الله تعالى يقول: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. وفي آية أخرى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم أن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾.

فالعمل بما أنزل الله مؤدٍ إلى التزكية والتطهير. وإعطاء الزكاة مزكٍ للمال ومزكٍ للنفوس. والكفارات ورد المظالم مزكية للنفوس عن الذنوب. والحدود والقصاص كذلك. وكلها مراحل يدرج فيها الانسان في ساحات الكمال. ساحات ليس لعقولنا أن تحدَّها. فالكمال الذي منَّ الله به على الانسان كمال لا يعلم مداه إلا الله تعالى. حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسي: ﴿عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون﴾. وذلك باذنه تعالى كما كان لأنبيائه (ص) وأوصياء أنبيائه (ع) باذنه تعالى. وينحط الانسان في أودية الضلال والتيه والتسافل إلى حضيض لا يعلم مدى تسافله إلا الله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾. (١٧٨ : آل عمران). ان الله تعالى يقول: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

أنظروا إلى هٰذا الحديث النبوي لتروا مدى اهتمام الدين الاسلامي بنظرية التكامل والكمال البشري. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من استوى يوماه فهو مغبون. ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون. ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله. ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته».

وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

لذلك يشعر المؤمن القائم بتطبيق ما جاء به الدين الاسلامي الذي أخذ

يجاهد نفسه ويخالفها في مشتهياتها ونزواتها ورغباتها السلبية «ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي» كيف يتكامل يوماً بعد يوم وهو يجاهد نفسه الامارة بالسوء. ان الله تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.

وعن الامام موسى بن جعفر (ع) عن أبيه أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس، ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه». وفي حديث علي عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

إن الله تعالى يقول: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾. كل ذلك يشير إلى أن درجات الهداية والكمال درجات عديدة لا يمكن للبشر تحديدها: ﴿هم درجات عند الله﴾. (١٥٧: آل عمران) وفي آية أخرى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾. (٢ : سورة الأنفال).

فالمؤمنون متفاوتون في درجاتهم عند ربهم حسب مراتب تكاملهم النفسي. تكامل ليس للانسان أن يحيد عنه، فإذا حاد عنه رجع إلى تسافل حيث لا تسافل بعده. وهذه هي الرجعية بالمعنى الصحيح دونما مغالطة. وكان من الذين خسروا أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ (١٠٤: الكهف) فمآله جهنم حتى يطهر في لظاها وسعيرها. لأن الله لا يريد أن يبقى شيئاً فاسداً فيما خلق. فكما أن الجراثيم والمكروبات المؤذية تعقم بالماء المغلى هكذا الجراثيم البشرية تعقم بالنار. ونستجير بالله من ذلك.

فأنت أيها القارىء الكريم ترى في فصول هذا الكتاب بعض ما جاء في

الدين الاسلامي من أحكام، وكيفية تكميل هذه الأحكام النفوس البشرية، لو عملت بها لوجه الله دونما رياء ولا رغبة في مال أو سمعة، وترى كيف تنقشع أمامك بعضُ الشبه التي أولدتها طغيان المادة وما أعقبت من شهوات ونزوات.

وبالختام أسأل الله تعالى أن تستفيد الشبيبة بعد مطالعة هذه السطور فائدة تحرك جوارحهم إلى العمل بما أمر الله تعالى خاشعين خاضعين منيبين مستغفرين نادمين تائبين، فتطهر بذلك نفوسهم وتتكامل أرواحهم فيرون أنفسهم في عالم من القدسية بعيد عن حدود الوصف والبيان. وأن يمنَّ عليَّ بتقديم كتب أخرى على هذا المنوال تتناول عملية تكامل الدين الاسلامي للنفوس البشرية التائهة لا سيما في عصر طغت عليه المادة، فبغت وسحقت المقدسات والفضائل والمكرمات. فأصبح الرجل الديني مهيناً ممقوتاً وذنبه أنه يعبد الله تعالى، مؤتمراً بما أمر الله، متناهياً عمّا نهى الله، والمتجاهر بالفسق موقراً محبوباً. وليعلم الشاب أن الدين الاسلامي دواء الروح وقانون تكامل النفس الانسانية والمجتمع الانساني، وان العمل بنصوص الدين الاسلامي يؤدي إلى تكامل في المعارف الإلهية وإلى تكامل اجتماعي. قال علي (ع): «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم».

وأختم هذه المقدمة بهذا الحديث النبوي: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس توبوا إلى الله توبة نصوحاً قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وأصلحوا ما بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا من الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تحصنوا، وانهوا عن المنكر تنصروا. أيها الناس أن أكيبكم أكثركم للموت ذكراً وأن أحزمكم أحسنكم استعداداً له. وان من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور».

ومنه تعالى نستمد المعونة وبه نستعين.

* * *

لماذا وجدنا؟

سؤال يتبادر إلى أذهان كثير من الناس وكل يجيب عنه بشكل يتناسب مع شعوره وما وصلت إليه نفسه من الكمال وحسب شهواته ومشتهياته. فمنهم من يقول وجدنا لكي نأكل ونشرب ونتلذذ في هذه الحياة ونفنى. لذلك يحاول أن يزداد تلذذاً وسروراً. فيسعى ليأكل لذيذاً ويشرب مريئاً وينام هنيئاً. وليست له غاية سوى الأكل والشرب والنوم. ومنهم من يقول: وجدنا لكي نخدم الغير فهو يعمل في خدمة الآخرين دون أن يخدم نفسه. وقد يكون هو أحوج الناس إلى الاصلاح لما في نفسه من الدنس والرجس. ومنهم من يقول وجدنا للشقاء. فالحياة كلها شقاء. فهو متشائم معذب. ونريد الآن أن نتحقق عن السبب الذي وُجدنا لأجله. فإذا علمنا سبب وجودنا والغاية من خلقنا عملنا وفق تلك الغاية ونلنا السعادة. لأن السعادة إنما تتجلى بالعمل وفق الهدف المقصود والغاية المنشودة.

لننظر إلى ما حوالينا من نبات وحيوان وجماد. نرى أنها كلها خلقت لأجلنا. هذه الأزهار الجميلة والفواكه المتنوعة اللذيذة والأشجار المختلفة والعقاقير وأنواع الزروع كلها خلقت لأجلنا للتذوق والتلذذ والتغذي والتداوي إلى ما هنالك. يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[1]. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[2].

---

(١) أي: ترعون ماشيتكم. ذرا: أي خلق مؤاخر : أي جارية في الماء.

(٢) سورة النحل: ١٠ ـ ١٤.

وأما الحيوانات فقد سخّرت لنا للأكل والركوب والستر. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد من تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم﴾.

وأما الجماد فسخّر لنا للبناء والزينة والتداوي وفوائد أخرى لا تعد. يقول الله: ﴿ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

إذا كانت الحيوانات تنام وتأكل وتشرب وقد خلقت لأجلنا وكذا الجماد والنبات، فلماذا خُلقنا نحن مع علمنا أننا غير مسخرين لموجودات أخرى. وكلها مسخرة لنا، إذن ما الغاية من وجودنا؟.

مع العلم أن الذي خلق الأكوان بهذا الترتيب الرائع البديع، الذي نظم الأفلاك بدساتير رصينة رياضية متقنة يحار فيها علماء الفلك العالي، الذي شكّل الثلج المتساقط من السماء بأشكال هندسية منظمة. أشكال مجسمة منتظمة الوجوه، الذي حرك الشمس بسرعة ٧٢٠٠٠ كيلومتر في الساعة: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ لا يعمل شيئاً عبثاً ولا يلهو أبداً.

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾. ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾. وفي موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾.

فتبين من نظم خارقة رائعة نشاهدها في المخلوقات أن الحكمة متجلية في كل زاوية من زوايا الكون. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾. فكيف يجوز على الله أن يخلق الانسان ويخلق لأجله جميع ما حواليه ولا يقصد من وراء هذا المخلوق غاية سامية رفيعة تتناسب مع عظمته وكماله.

فظهر مما ذكرنا أن وراء خلق الانسان غاية دقيقة وهدفاً عالياً يجب أن نتحراه. نرى أن ما حوالينا من الأشياء في غاية الكمال: فالحشرة كاملة في العالم الذي هي فيه. والذرة كاملة غاية الكمال: الألكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة وبكمال ونظام. يتجاذب الجسمان بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما مقسوماً على مربع المسافة بينهما مضروباً في النسبة الثابتة. ولو أردنا سرد أنواع الكمال المودع من قبل الخالق جل جلاله في هذا الكون، لأمكن إملاء كتب عدة بل كتب لا تتناهى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله أن الله عزيز حكيم﴾. وفي موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

إذن كل شيء في هذا العالم ينادي بكمال الله تبارك وتعالى وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسّبح بحمده﴾.

فكيف يجوز على الانسان أن يحيد عن سنّة الكمال في عالم الكمال وأن يبقى ناقصاً في عالم التكامل.

للانسان جنبتان: جنبة مادية وهي البدن الذي رسمه الله تبارك وتعالى واتقن صنعه. فيه حركات غير إرادية لا دخل للانسان فيها. وجنبة روحية هي حقيقة الانسانية وهي الانسان حقاً. فالانسان انسان بنفسه وروحه لا بعضلاته وأعصابه. نعم، لقد بلغ المذهب المادي في أوروبا في القرن التاسع عشر إلى حد قال أحد رجال المادة فيها: ان الانسان يساوي كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الاوكسيجين وكذا غراماً من الكالسيوم. . . الخ كمعادلة كيمياوية وليس وراء ذلك شيء! . . .

والفرق بين تكامل الإنسان الروحي وتكامل المادة بأن كمال المادة كمال قسري قهري وكمال الانسان الروحي كمال اختياري.

اتضح مما ذكرنا أن الانسان خلق ليتكامل. والآن نتساءل بم يحصل هذا الكمال الروحي؟ وهل هذا الانسان المملوء من الشهوات؟ وهل هذا الانسان

الذي يحمل نفساً أمارة بالسوء يستطيع أن ينظم لنفسه مناهج روحية صحيحة تؤدي به إلى الكمال المنشود، ذلك الكمال الذي خلق الله الانسان لأجله؟. وهل لفيلسوف من الفلاسفة أن يضع منهجاً روحياً يؤدي بالانسان إلى الغاية التي خلق لأجلها ويحقق علة الوجود. فما هذا الاختلاف إذن بين آراء الفلاسفة وما هذا التضارب في أفكارهم؟ وهل الفلاسفة استطاعوا أن يوجدوا انسانية متكاملة، كما يريده الله تعالى أم هل تمكنوا من إصلاح أنفسهم؟!.

إن الكمال النفسي أمر غير عادي، وان الانسان كثيراً ما يوفق في اصلاحات مادية واكتشافات مادية كما شاهدنا ذلك لا سيما في القرن الأخير. ذلك لأن الخواص المادية ثابتة لا تتغير ويصل اليها الانسان بأسلوب مادي وأعني به الاختبار والتجربة والمشاهدة، ولكنه لا يقوى على وضع مناهج روحية صحيحة تأخذ بالروح الانساني إلى ذروة الكمال. وقد قال كوستاولوبون: «علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة». فلا بد لنا من أطباء روحيين عالمين بخصائص الروح كي يأخذوا على عواتقهم تكامل الانسان الروحي، وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين. فهم بمناهجهم المتينة التي تأتي من وراء المادة لاصلاح ما هو وراء المادة (أي النفس) يوصلون الانسان إلى ذروة الكمال، فيعرفون الله ويبينون الحلال والحرام والمدارج التي لو سلكها الانسان لبلغ مرتبة الكمال المنشود، ولتقرب شيئاً فشيئاً من معرفة رب العباد. وقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف».

أترى أن من لم يتبع مناهج الأنبياء الروحية تكون له نفس قمينة بأن يحلّ فيها حب الله، وبأن يعرف الله تبارك وتعالى. فإن معرفة الله تتناسب مع الكمال النفسي: «من عرف نفسه فقد عرف ربه... الحديث» ولا تتأتى هذه المعرفة إلا بعبادة الله تبارك وتعالى. فكلما عبد الانسان ربه بخشوع وخضوع، عبده بصلاة مقبولة وحج مقبول وزكاة مقبولة وصدقات مقبولة وخمس مقبول وجهاد مقبول وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر خالصاً لوجهه الكريم، عبده بأعمال صالحة كان أقرب إلى معرفة الله تبارك وتعالى، قريباً من الغاية التي وجد لأجلها. وما قدمناه شرح للآية الشريفة: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا

ليعبدون﴾. فالعبادة ليست الصلاة والصوم فحسب بل تتجلى العبادة في الصلاة والصوم والزكاة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأعمال الصالحة كقضاء حوائج الناس وصلة الرحم وبر الوالدين والتخلق بالأخلاق الاسلامية والتفقه في الدين والاعتبار بما أودع الله في الطبيعة من قوانين وخواص. نعم تتجلى العبادة في تطبيق السنن والفرائض التي بها يكون الانسان انساناً كاملاً. فتزداد بدرجة تطبيقه وإخلاصه معرفته بالله تعالى. فان الله لم يخلقنا إلا لأجله أي لأجل أن نعرفه ونزداد معرفة به يوماً بعد يوم. فقد جاء في حديث قدسي: ﴿خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي﴾.

فطوبى لمن أدرك الغاية وعمل في تحقيقها ولم تخدعه زبارج الدنيا ومغرياتها ومناصبها فخرج من هذه الدنيا طاهراً مطهراً نقياً فقد ﴿حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات﴾.



ماذا يراد من الدين؟

كثيراً ما يدور على ألسنة بعض الشبيبة المثقفة: أن الدين لم يعلمنا شيئاً عن الكيمياء والفيزياء، ولم يقدم للمجتمع اكتشافات كالتلفزيون واللاسلكي وغير ذلك. وان المكتشفين والمخترعين كنيوتن، وهرتز، وأديسون، ودالامبر قدموا إلى العالم اكتشافات هامة ومخترعات مفيدة ووسعوا أفق العلم وفتحوا أذهان الناس وسخروا الطبيعة، فأفادوا العالم بعلومهم وتنقيبهم وفحوصهم. فأي اكتشاف قدمه أحد الأنبياء؟ وأية ماكنة اخترعها الأوصياء؟ فيصغر في أنظارهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين ويصغر الدين معهم، فيرونه فارغاً خالياً من مادة مفيدة، فيعدونه خرافة وزخرفاً من الزخارف، أو بلاءاً مانعاً عن التقدم. فتراهم يأبون من أن يوردوا اسم الله أو يقولوا «بسم الله الرحمن الرحيم». ويعدونها تقهقراً إلى الوراء أو منقصة في لغة الثقافة الحديثة أو وصمة خرافية يوصم بها قائلها، يعظمون المكتشفين أيما تعظيم ويوقرون الفلاسفة أحسن توقير، فإذا ذكر اسم أحد الأنبياء سخروا منه وتبسموا تبسماً فيه شيء من الازدراء والتوهين. كل ذلك لأنهم ينتظرون من الأنبياء معادلات كيمياوية ودساتير فيزياوية. أو معادلات تفاضلية أو دستور الكسوف في الفلك العالي أو معادلات الحركة في الميكانيك الرياضي!..

وقد فاتهم أن الانسان مكوّن من نفس وبدن فكما أن للبدن أمراضاً وحاجات، فكذلك للنفس أمراض وحاجات. وأن حاجات البدن ترجع إلى قوانين ثابتة مستقرة يصل إليها الانسان بالاختبار والتجربة والمشاهدة عاجلاً أو آجلاً. فان الخاصية المودعة من قبل الله تبارك وتعالى في الأجسام ثابتة لا تتغير، بل يظفر بها الانسان عن طريق الفحص والتتبع والتجربة والصدفة.

(الأجسام تسقط. حجمان من غاز الايدروجين وحجم من غاز الاوكسيجين بعد إمرار تيار كهربائي يتحدان ويشكلان ماءاً. الحرارة تمدد الأجسام. إلى ما هنالك). فالمخترع لا يأتي بشيء جديد بل يفتش عن خواص وقوانين أودعها الله في هذا الكون بتجارب ومحاكمات، وعقل منحه

الله إياه، ولولا العقل والمحاكمات والاستنتاج والاستقراء لما قوى على ذلك. وبالعقل يمتاز الانسان عن الحيوان. وترد نظرية داروين التكاملية وتفند سفسطة الحلقة المفقودة.

وهل يستطيع مخترع أن يأتي بخاصية غير ما أودعه الله في الأجسام؟ كلا. فالاختراعات أمور مادية ثابتة لا تغير فيها، يصل اليها الانسان باختباراته، ولا حاجة إلى نبي يملي على الناس الدساتير الفيزياوية والكيمياوية. والدليل على ذلك وصول الانسان بنفسه إلى كثير منها بنتيجة قوى أودعها الله تعالى فيه ولا يعلم هل تقدم الانسان بنتيجة هذه الاكتشافات روحياً وأخلاقياً أم تقهقر؟ وهل استفادت الانسانية وقطعت بذلك أشواطاً في الكمال النفسي والسمو الخلقي أم لا؟ ثم أترى أن لخواص الأشياء ودساتير الفيزياء حداً ونهاية؟ فان علم الله لا نهاية له، والخواص والدساتير التي أودعها الله في هذا الكون لا نهاية لها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

الأنبياء سلام الله عليهم بعثوا لاصلاح النفس وتهذيب الروح. لأن الانسان انسان بنفسه وروحه، وان أمراض الروح أعقد من أمراض البدن، وإن معالجتها أصعب من معالجة أمراض البدن. إن وصفات الأطباء تعالج الأبدان لو صادفت نفس المرض ونفس الشروط وكان التشخيص صحيحاً. إلا أن الوصفات الروحية تؤثر في كل نفس حسب قابلية تلك النفس. فهي مشتبكة مرتبكة.

إئتوا بثلاثة أشخاص مصابين بالملاريا. فانهم يعالجون بوصفة واحدة عاجلاً أو آجلاً. ولكن لو أعطي لنفس هؤلاء الثلاثة دساتير روحية وطبقوها لا يصلون إلى نفس النتيجة. وكل يصل إلى غير ما وصل إليه الآخر لو عورة أمر النفس وصعوبته. وعدم دخول النفس تحت قوانين ثابتة مطردة سهلة التناول. وعلى فرض وجود قوانين نفسية ثابتة ليس للانسان بما هو انسان أن يكتشفها وإن ما يكتشفه في هذا الحقل خيالات وأوهام. يظنها حقائق ويتلذ

بها. ذلك لأن الأساليب المادية لا تقوى على حل غوامض ما وراء الطبيعة. وقد يمكن تشبيه ذلك بالمعادلات العالية في الرياضيات كـ (ع = جا س) التي لا تقبل فيها (س) و(ع) التضعيف والتنصيف في وقت واحد أو بمعادلات الكميات المبهمة أو المحدثة التي نشاهدها في الهندسة التحليلية أو الجبر العالي، وان بعد التشبيه. نعم إنا كثيراً ما نشاهد في كتب الفلسفة وعلم النفس استعمال الحساب التكاملي Integration عند البحث عن الاحساس والشعور ولكن ذلك غير ثابت ولن يثبت وإنما مجرد اقتراح واحتمال. فلا سبيل إلى قياس القضايا الروحية بمقاييس مادية.

الأنبياء (ع) بُعثوا ليعالجوا ما لا يصل الانسان بنفسه إلى طريق معالجته. بعثوا ليعالجوا أمراض النفس، هذه النفس الأمارة بالسوء التي يرقبها الشيطان في كل آن وهو لها بالمرصاد.

بُعثوا ليقرروا دساتير روحية بها يتكامل الانسان ويخرج من دور الطفولة والبهيمية والوحشية فيكون انساناً كاملاً بل أعلى مرتبة من الملائكة فتكون الملائكة إذ ذاك خداماً له.

بُعثوا ليحرروا النفس الانسانية مما تلوثت به من دنس ورجس وخبث ولؤم. بعثوا ليقرروا الآداب التي لو عمل بها الانسان كان جديراً بأن يخلد مع الأنبياء والصديقين في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾. بعثوا ليعلمونا الطرق المقربة إلى الله، وكيفية عبادته تعالى وطرق الشكر.

بعثوا ليعلمونا الحلال والحرام، لأن النفس الانسانية تتردى وتتدنس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال. بعثوا ليعرفونا آداب المعاشرة والاجتماع. بعثوا ليعلمونا الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس وتخرج من الظلمات إلى النور: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. بعثوا ليبينوا للانسان ما له وما عليه، ليحاسب نفسه كل يوم ولا يتكبر فان الله تبارك وتعالى يقول: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾.

بعثوا ليجعلوا الانسان بين الخوف والرجاء فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح، ويبعد الانسان عن الموبقات والمناهي. فقد جاء في الحديث تنويهاً بالعبد الصالح: «لو وُزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما. وإذا عظم الخوف كان أدعى إلى السلام». وفي حديث آخر:

«إن الله أنزل في بعض كتبه وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين. إذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»، وقوله تعالى في امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام: ﴿انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾. وهي ذكر الآخرة والتهيؤ لها.

بُعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه ليزداد تقرباً بالطاعة. فان الكمال الانساني يتناسب تناسباً طردياً مع التقرب إلى الله جلّ شأنه، ثم يزداد اطمئناناً كلما زادت هذه الرابطة فأنه تعالى يقول: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

بُعث الأنبياء لإبلاغ الانسان إلى ﴿ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾.

فالأنبياء يخاطبون النفس، لأن هدفهم تكامل النفس وما جاء في تعاليمهم صلوات الله عليهم مما يتعلق بالبدن والمأكل والمشرب إنما هو من باب اللطف، أو لأن لذلك أثراً حسناً في تكامل النفس. إذ أنه ما من شيء يدخل في جوف الانسان وما من حركة يقوم بها الانسان إلا ولها أثر في تكامل النفس. ولعلنا نوفق إلى تفصيل ذلك في كتاب آخر إن شاء الله.

وقد بلغني أن شاباً كان يفاضل بين سياسي فتح الامصار وبين نبي هدى الناس سواء السبيل. حين أن ذلك السياسي لم يعمل إلا في تعمير المعدة والامعاء، والنبي (ص) يعمل في تعمير النفوس والأرواح. وما قيمة عمران تفسد فيه الروح. ولو كان في استطاعة الانسان أن يصل بعقله إلى الدساتير المثلى التي بها كمال النفس ونجاتها وفوزها لما أرسل الله الأنبياء ولو كل الانسان إلى عقله. ولكن العقل تغلب عليه الشهوات فينقلب إلى أهواء بصورة عقل ويؤدي بالشخص إلى أسفل درك من الجحيم. يقول الله تبارك

وتعالى: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾. ولقد توالى عدد غير قليل من الفلاسفة ورجال الأخلاق: اختلفت مشاربهم ومآربهم وآراؤهم ولم يتمكنوا إصلاح أنفسهم فكيف بالآخرين.

الأنبياء بُعثوا ليملوا على الناس المثل العليا التي بها كمال الروح والسعادة الأبدية ولكي يكونوا قدوة صالحة.

فمن من هؤلاء الذين هم خطباء الأخلاق، وبتعبير أقرب: كتاب الفضيلة بلغ من الفضيلة مرتبة سامية تؤهله ليكون قدوة لغيره كما يرتضيه الله تبارك وتعالى. فقد رأيت أستاذ فلسفة الأخلاق في احدى الجامعات أبعد شخص عن الأخلاق وأسوأ قدوة للمثل العليا، ما ترك منكراً إلا وارتكبه، فإذا سألته عن سبب، ذلك أجاب بجواب خيالي سوفسطائي شعري لا قيمة له.

وإن بعض الأنبياء علموا الناس من باب اللطف من الصنائع والعلوم ما به يدفع الشر ويجلب الخير. فهذا داود عليه السلام، علم الناس ـ بعد أن علمه الله تعالى ـ عمل الدروع وهو قوله تعالى: ﴿وسلسلة صنعة لبؤس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾. وأن النبي صلى الله عليه وآله قد سئل عن مسائل عدة في فنون مختلفة لا علاقة لها بالدين فأجاب عنها بوحي من الله دونما تفكير. وتفصيل ذلك يحتاج إلى مقال خاص، وان علياً (ع) سئل عن مسائل رياضية صعبة ومسائل في الفيزياء والفلك والحيوان والنبات عجز عنها الناس فحلها بصورة مرتجلة. وان الصادق (ع) أملى على تلميذه جابر بن حيان الكوفي خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية. وكان الكيمياويون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ يروون عن علي (ع) موازين الصناعة. فالنبي على ما نعتقد هو أعلم أهل زمانه حتى في علوم لا تمت إلى الدين بصلة تمييزاً له عن سائر الناس وتفضيلاً له على الآخرين.

فمن أراد الحياة الأبدية، حياة رفيعة متصلة بالكمال الأبدي، حياة ليس فيها خوف ولا حزن، حياة فوق حدود التصور والخيال، فليعمد إلى تطبيق

تعاليم الدين الحنيف ليرى كيف يتجلى يوماً بعد يوم وكيف تترفع نفسه عن حضيض المادة سائراً إلى أوج الملكوت. ﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.



دين العقل

يمتاز الدين الاسلامي عن سائر الأديان بأن كل ما جاء فيه يوافق العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية غير الملوث بالمعاصي والآثام. وقد أعطى للعقل قيمة سامية وجعله آلة التمييز. فقد قال تعالى: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾. ولا يمكن تشخيص أحسن القول إلا بالعقل المجرد عما يلوث النفس ويوبقها ويرديها. فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال: «ولما خلق الله العقل استنطقه ثم قال: أقبل فأقبل. ثم قال: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما أني إياك آمر وإياك أنهي وإياك أعاقب وإياك أثيب». نستنتج من هذا الحديث بقول الله: (أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر): أن العقل بصورة فطرية وطبيعية يطيع أوامر الله تعالى. إذ أن أوامر الله منطقية وطبيعية ولا تخالف الفطرة وان الاطاعة صفة غريزية في العقل. وهذا هو معنى الفطرة. وبهذا أتم الله الحجة على عباده، فلا يغفر الله لمن أشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء: ﴿ان الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾. (سورة النساء: ٥٢). يقول الله إتماماً لحججه على الخلق أجمعين: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾. فالله تبارك وتعالى قد أشهد الناس في عالم الذر على أنفسهم وأخذ منهم الاقرار والاعتراف بربوبيته تعالى. فليس لأحد أن يقول: لو شاء الله لكنت مؤمناً، لأن الله الآمر بالايمان والغارس روح الطاعة والتمسك بالوحدانية في عقل الانسان ونفسه لا يريد بالانسان إلا الايمان به والاطاعة له. ثم جاء في ذيل الحديث: ﴿ولا أكملتك إلا فيمن أحب﴾. أي أن الله لا يكمل إلا عقل من يحبه. وكيف تحصل هذه المحبة؟ أليس بالطاعة؟ أي باجتناب كل ما نهى عنه العقل والشرع، وبالقيام

بكل ما أمر به العقل والشرع. اذن أقرب الناس إلى الله أكملهم عقلاً. وأبعد الناس منه تعالى أضعفهم عقلاً. فالعقل: ﴿ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان﴾ كما جاء في الحديث.

إن الدين الاسلامي دين تفكر وتدبر، دين تمحيص وتعمق، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن كل عصبية ووسوسة. وهو القائل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾. ان الله تبارك وتعالى قد عظم أمر العقلاء وخصص التدبر في آياته بهم بقوله: ﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾. وبقوله: ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾. وبقوله: ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءاً فيحيي به الأرض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾. فالقرآن يدعو الناس إلى التعقل ويخاطب العقل في كثير من آياته. ولا يريد بالناس أن يقبلوا شيئاً دونما تعقل ودونما برهان. فدين الاسلام دين البرهان ودين الدليل. يقول الله تعالى في لزوم اتباع البرهان والدليل: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. نعم، هناك آيات كثيرة في القرآن تأمر بالتعقل، وتحذر العباد من عدم التعقل والتفكر بقوله: ﴿ومنهم من يستمعون اليك، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾. ثم أنه يمدح المتفكرين بقوله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾. فطريقة القرآن في الدعوة إلى الحق هي طريقة العلوم الطبيعية الحاضرة. تستند إلى التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج. نعم، ان موضوع الآيات الكريمة المتقدمة وكثير من آيات أخرى هو نفس موضوع العلم الطبيعي بأوسع معانيه ما عرفه الانسان وما سيعرفه. لأن العلم الطبيعي يبحث عن الأشياء الكونية طبائعها وخواصها والعلاقات التي بينها

ولكنها لا تصل إلى حقيقتها. فالعلم الطبيعي موضوعه آيات الله المودعة في الأشياء كلها. ان القرآن جاء بأصول المشاهدة والطريق البرهاني في وقت كان الغرب فيه جاهلاً هذه الأصول. لأنهم كانوا يعتقدون أن الانسان يصل إلى ما يشاء بطريق عقلي بحت دون أن يحتاج إلى التجربة والمشاهدة. كانوا كثيراً ما يكتفون للوصول إلى الحقائق العلمية وأسرار الكون بالجلوس والتفكر. فكانوا يصلون إلى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق دون أن يدعمها دليل. ثم يبنون على هذه القضايا الموهومة قضايا أخرى هي أوهن من بيت العنكبوت. كان يقول فيثا غورث عن الكون: أنه متفرد كامل كروي، لأن الكرة أكمل الأشياء. وأنه حي عاقل، لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي وعاقل.
فان القرآن ينكر مثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي. وقد أدى بالفلاسفة التخيل الباطل في ساحات العلم حتى قالوا: ان للأجرام السماوية في أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها، وان لهذه الأجرام أثراً كبيراً فيما يصيب الانسان من نحس أو سعود. وقد سرت هذه الفلسفة الزائفة إلى الشرق وأدت إلى تبلبل العقائد وإدخال كثير من الخرافات في الدين الاسلامي. وان فلاسفة الاسلام أخذوا يفسرون الدين الاسلامي على ضوء هذه الخرافات ويؤولون القرآن وفق نظريات أفلاطون وأرسطو. ذلك لأن علماء القرون الوسطى وهم تلامذة الفلسفة اليونانية ما كانوا يعتمدون على عقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم وإنما كان الدليل رأي الفيلسوف. فكل ما وافق رأي الفيلسوف فذاك علم وذاك هو الحق، وما خالف فليس بعلم. إلا إذا أمكن ارجاع ذلك بتأويل ما إلى ما يقوله أفلاطون أو أرسطو مثلاً، دون أن ينظروا في حجة أرسطو وأنه منطقي تؤيده التجارب والمشاهدات والمحاكمات الصحيحة أم لا.
فابتلى الدين الاسلامي بشتى الخرافات وشتى المذاهب أتته من الفلسفة اليونانية. وقد عالج ذلك بعض علماء الاسلام ولكنهم لم يستطيعوا قلعها وقمعها. مع أن الدين الاسلامي ينهي عن كل خرافة وكل ما لا يؤيده العقل والمنطق الصحيح والحجة القطعية وينهي عن اتباع الظنون والتخيلات الواهية، بقوله: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وأن أنتم إلا تخرصون﴾، وقد أمر باتباع العلم الصحيح وأثنى على العلماء ومدحهم في كتابه المجيد بقوله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر

والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾. ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾.

أنظروا كيف يؤيد القرآن طريقة التجربة والمشاهدة واستعمال الحواس الخمس. يقول الله تعالى في لزوم استعمال البصر والعقل: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن﴾. ﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت﴾. ويقول تعالى في لزوم استعمال السمع مع العقل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾. ويقول جل جلاله في لزوم استعمال السمع والبصر مع العقل: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾. ويقول تعالى في لزوم استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾. وهكذا يحث القرآن الكريم على استعمال جميع الحواس والمواهب للوصول إلى أحسن سبل الهداية بقوله تعالى: ﴿فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾. (سورة الزمر).

فالدين الاسلامي يخاطب العقل ويحث على التمسك بالبرهان والدليل وينهى عن الظن والتخيل والخرافات ويأمر باستعمال طرق المشاهدة والتجربة وحسن الاستنتاج وينهى عن المغالطة والتدليس. ولا أعلم ديناً أو مبدءاً أو مسلكاً أو طريقة عدا الدين الاسلامي جعل البرهان شعاراً وطرق التجربة والمشاهدة معياراً وترك الظن والخيال دثاراً. ذلك لأنهم إن فعلوا ذلك أخفقوا ولم يجدوا من تابعين.

(٢)

قد بينا في المقال السابق أن الله تعالى قد أودع في الانسان عقلاً لو لم يلوث بالذنوب والمعاصي ولم يترد ولم يتسافل يهتدي به الانسان إلى أحسن

السبل وأنجعها، ويعترف بربوبيته تعالى وبوحدانيته، وتكون درجة هدايته متناسبة مع درجة طهارة عقله ونفسه. هذا مونتني الفيلسوف المربي قد وصل بعقله أي بطريق المشاهدة والتفكير إلى وحدانية الله تعالى وأنه خالق كل شيء. أنه كان يقول: ليس للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، لأنه عاجز عن أن يتصرف في نفسه، فلا بد أن يكون خالق الذكر هو الذي قد خلق الأنثى لإدامة النسل البشري. وان الله يقول في قرآنه الكريم: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها﴾. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. فقد بلغ مونتني بتفكيره الطبيعي إلى مفاد الآية الشريفة المذكورة. ذلك لأن الله تعالى قد أودع قابلية التفكير والتدبر في خلق السموات والأرض في الانسان بصورة طبيعية: ﴿أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾. فالانسان يصل إلى الاعتراف بالله وبوحدانيته تعالى لا محالة إن لم تدنس نفسه بالجرائم والموبقات والانغماس في الشهوات، فتفسد هذه القابلية وتمحى هذه الموهبة. فيكون أعمى لا يبصر الحق في الدنيا ويحشر أعمى في الآخرة. إذ يقول عند الحشر: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لَمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾.

وقد قلنا في مقال سابق أن الفلسفة اليونانية المملوءة بشتى الخرافات قد أثرت في الدين الاسلامي وأدخلت فيه جملة من الخرافات: كالاعتراف بأثر النجوم وحركاتها وأوضاعها في سعادة الانسان وشقائه. وقد نفى الاسلام ذلك وشدد النكير عليه وعلى أمثاله وفسر القضاء والقدر تفسيراً هو غاية المنطق وتمام الحكمة ولا مجال هنا لتفصيل ذلك. وان امير المؤمنين علياً عليه السلام: أظهر لبعض أصحابه عزمه على المسير إلى الخوارج، فقال له أحدهم: يا أمير المؤمنين ان سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم، فأجابه (ع): «أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر. فمن صدق

بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه. لأنك بزعمك، أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر. ثم أقبل (ع) على الناس فقال: «أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فانها تدعو إلى الكهانة والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار، سيروا على اسم الله». فبدد علي (ع) شمل الخوارج وكان النصر حليفه، خلافاً لما ادعاه من كان يعترف بتأثير النجوم في الفتح والنصر.

إن الدين الاسلامي يشجع كل علم يؤدي إلى انفتاح البصائر وينير الطريق ويهدي الناس إلى الفلاح والصلاح ويحبذ تعلم علم الفلك أو الهيئة، ويُدرس علم الهيئة مع العلوم الدينية في كليات العلوم الدينية على اختلاف مناهجها. وقد ألفت كتب جمة من قبل علماء المسلمين في علم الفلك لمعرفة القبلة والاستهلال والوقوف على بعض ما أودع الله تعالى من نظم ثابتة متقنة ودساتير رياضية محكمة في سير الأفلاك والأنجم. ولكن الدين الاسلامي يستنكر كل خرافة تؤدي إلى الوسوسة ورخاوة الأعصاب والفتور والقنوط كالاعتقاد بتأثير أوضاع النجوم في نحس أو سعود. فعن النبي (ص): من صدق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد (ص). وعن الصادق (ع): «إن المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون» وفي رواية عبد الملك بن أعين المروية عن الفقيه: «قلت لأبي عبد الله (ع): أني قد ابتليت، فأريد الحاجة. فإذا نظرت إلى الطالع ورأيت الطالع الشر جلست ولم أذهب فيها، فإذا رأيت الطالع الخير، ذهبت في الحاجة. فقال لي تقضى، قلت نعم. قال: أحرق كتبك».

إن الدين الاسلامي ينهي عن كل ما يجعل الانسان خيالياً خاملاً ذليلاً في حياته ويأمر بكل ما يجعل الفرد كاملاً نشيطاً، فعالاً، مقداماً في حياته. إنه ينهي عن السحر والعمل به ويعدها من المعاصي الكبيرة. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل

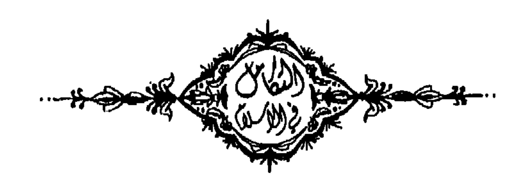
هاروت وما روت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق. ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾.

ان الله تعالى يقول: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾. فتعليم السحر كفر بنص هذه الآية الشريفة، والعمل به وإضرار الناس بسببه معصية كبيرة. وكذا يستفاد من قوله تعالى: فلا تكفر، أن العمل بالسحر على حد الكفر. ثم يقول الله تعالى في الآية الثانية: ﴿إن الايمان والتقوى بابان لنيل مثوبة الله تعالى وطريقان قويمان للسعادة. فلا ينبغي أن يسلك أحد لنيل مآربه المشروعة طرق السحر والخيال، بل ينالها من طريق الايمان والتقوى والعمل الصالح والفعالية والجد في الطرق المشروعة الموافقة للشرع والعقل﴾. ان الدين الاسلامي ينهى عن اتباع الخيال وكل خرافة مبدؤها الخيال والظنون. لذلك يعبر عن السحر بالخيال بقوله جل من قائل: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

إن الدين الاسلامي حرَّم إحضار الأرواح وإحضار الجن والاعتماد على هذه الوسائل الخيالية، على أن هذه الأمور الخيالية التي لا يدعمها دليل قطعي علمي، قد أثرت إلى حد ما في توجيه أوربا نحو الاعتقاد إلى ما بعد الموت وخلود الروح توجيهاً ناقصاً لا يرتضيه العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية.

أنظروا كيف يعظم الدين الاسلامي التفكر والتعقل والتدبر. يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ». وقد جاء في الحديث: «تفكر ساعة خير من عيادة سنة». وكان علي عليه السلام يقول: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرىء حتى تكون فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، فضل ماله مبذول وفضل قوله مكفوف.

نصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، والذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره. والتواضع أحب اليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه. ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر».



العقل والايمان

إن العقل الانساني قد جهز بقابليات ربانية يتوجه بسببها بصورة طبيعية إلى الحق والواقع ويعترف بربوبية الله تعالى وأنه خالق كل شيء وان من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى يجز جزاء حسناً وان من أساء من ذكر أو أنثى يجز حسب عمله، إن لم يمح ذلك بأعمال صالحة أخرى وتوبة واستغفار. ولسائل أن يسأل: فماذا الجحود الذي نشاهده في كثير من الناس، وما هذا الانكار لعظمة الله تعالى؟ ولما يعبد بعض الناس مع مالهم من عقول ما يصنعونه بأيديهم من صنم أو ما يقومون بتربيته وإعاشته من حيوان؟ ألم يمن الله عليهم بعقل أم جردوا من القابليات الفطرية؟ إذن ما معنى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً. فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. لماذا نرى بعض الفلاسفة مع ما أوتوا من قابليات عقلية فائقة ملاحدة جاحدين؟ لماذا بعض علماء الطبيعة أو الفلك غير موحدين؟ لماذا نرى نفراً من الشبان مع دراسات سطحية ناقصة ينكرون الخالق الذي خلقهم وقد تأثروا بسخافات المتطرفين، ونرى شباناً آخرين في مستواهم يعبدون الله تعالى بخشوع وخنوع، يصلون ويصومون، لا تأخذهم في الله لومة لائم؟ نرى علماء درسوا دراسات عالية عميقة متمسكين بالدين غاية التمسك عن دليل وبرهان ويقين، ونرى آخرين مثلهم يحسبون الدين من الأمور الكمالية، لا يفكرون في مصيرهم وما سيؤول إليه أمرهم بعد الموت، ولا يكادون يعتقدون بأمور الآخرة والمعاد؟ ماذا التفاوت وماذا الاختلاف؟ ولقد يحار بعضهم بادىء ذي بدء ويظن أن الله تعالى هدى ثلة من الناس دون بعض، فيسند عدم العدالة إلى الله الذي تنزه عن كل نقص. «سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً». ولو رجع إلى نفسه، تلك النفس التي تلوثت بأنواع المعاصي وضروب الآثام، تلك النفس التي لم تطع الله طرفة عين أبداً وقد ملئت ظلماً وجوراً، تلك النفس التي خالفت كل ما أملى عليها العقل بشأن الوالدين والأهل والأرحام والأصحاب وكل ما يحوط به، لعلم أن نفسه هي التي أغلقت عليه أبواب الهداية وأنه هو سبب ضلال شخصه. نعم قد

هيأ الله تعالى له أسباب الهداية ووسائل التوبة والانابة فأبى إلا أن يشرد ويحجم ويثابر في غيه وطيشبه حتى اسودت من أوساخ الآثام والاجرام نفسه فأصبحت عمياء لا ترى ولا تبصر الواقع. ﴿ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً﴾. ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون﴾. ﴿إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾. فان الاخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الالهية والنفحات القدسية. إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، فما لم يرتفع عنها لم تنضح لها جلية الحق اتضاحاً. وكيف والقلوب كالأواني، فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء. فالقلوب المشغولة بغير الله لا تلج فيها معرفة الله وحبه وأنسه وإلى ذلك أشار النبي (ص): «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض». نعم أن هذه النفوس تضيء وتتلألأ بدرجة تطهرها من الخبائث والأرجاس، فتظهر لها الحقائق بصورة جلية واضحة. فان رسول الله (ص) يقول: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»، فان التعرض للنفحات القدسية الربانية لا يتيسر إلا إذا تجردت هذه النفوس عن الاكدار الناجمة عن الأخلاق الذميمة فكل إقبال على طاعة وإعراض عن سيئة يؤدي إلى جلاء نور القلب فيصبح مستعداً ليفيض بإذن الله علماً ويقيناً وهو القائل: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين». وعن النبي (ص): «من عمل بما علم ورثه علم ما لم يعلم». والضيمر يعود إلى الله. وإن الله تعالى لا يبخل بإفاضاته وأنواره القدسية على عبده وقد وسعت رحمته كل شيء. وإنما العبد هو الذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله تعالى وأبواب هداية الله وأبواب المعارف الربانية لقيامه بذمائم الأخلاق وارتكابه ما يؤدي بنفسه المسكينة إلى أسفل السافلين. أنه يطيعها في مشتهياتها ويأتمر بأوامرها، فتحجب عنه تلك الفيوض الرحمانية التي يرافقها من السرور المعنوي ما لا يقوى على وصفه إلا من تشرف به، سرور يفوق أنواع الملذات المادية وأعلاها. «فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». واليه يشير مولانا أمير المؤمنين علي (ع): «ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على

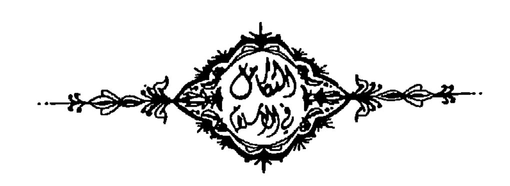
نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه». ويقول صلوات الله عليه في مكان آخر: «قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم الا هماً واحداً، انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس».

أنظروا ماذا يقول الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام في هذا المقام لهشام. انه صلوات الله عليه يقول: «يا هشام، من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله. ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه. يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك».

فللعقل الانساني افاضات وتوجيهات، لو خلي ونفسه ولم يدنس بالموبقات والشهوات باطاعة النفس الأمارة بالسوء افاضات توصل الانسان إلى أعلى عليين، فيكون أعلى منزلة من الملائكة. فماذا ينتظر هذا الغربي المطيع لشهوات نفسه مذ نهوضه من فراشه إلى حين عودته اليه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله، فان الشهوات قد أغلقت عليه أبواب الفيوضات الربانية والأنوار القدسية الالهية، أنه يعصى الله بنظراته وحركاته وسكناته في كل طرفة عين. حتى أصبح لا يشعر أنه يعصى الله. فقد أمسى الانهماك في الملذات المحرمة والشهوات المنهى عنها عادة ثانية وطبيعة راسخة فيه، لا يتصور طبيعة غيرها. لذلك لا يعد نفسه مجرماً أو عاصياً، فيقول اذا اعترف بالله حيناً، لو شاء الله لاهتديت. والله سبحانه كيف لا يريد هداية عبده؟ فقد أتم الحجة على عباده بتزويدهم بالعقل وبالفطرة التي توجه الانسان إلى الاعتراف بالله وجليل قدرته، وبارساله الرسل مبشرين ومنذرين. وبقوله: «وهديناه النجدين» وبقوله: «فألهمها فجورها وتقواها». ولكنه خالف عقله وأفسد الفطرة بذمائم الأخلاق ومدنسات النفس فأمست هذه الذمائم وتلك

المدسات حجاباً كثيفاً يمنع نفوذ نور الهداية إلى نفسه.

يقول الله تبارك وتعالى: «ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن». ومعنى ذلك: أن الاساءات والأعمال التي تفسد النفس ونفوساً أخرى وكل ما يؤدي إلى الفساد في الأرض لها آثار طبيعية، آثارها التكذيب بآيات الله تعالى وكتبه ورسله والاستهزاء بجميعها. «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». فقد رأينا أناساً كانوا يعتقدون بالله وكتبه ورسله، يصلون ويصومون ولكن غلبت عليهم شقوتهم وأطاعوا شيطانهم ومالوا إلى الدنيا وزبرجها، شهواتها ونزواتها، فدنسوا ولوثوا أرواحهم فانسلخ منهم نور الايمان شيئاً فشيئاً، وتركوا الصلاة وودعوا الصيام. فتركهم اليقين وودعهم الصراط المستقيم، فأخذوا يستهزئون بالمؤمنين. «وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا أن هؤلاء لضالون». ويختلقون لهم ألفاظاً كالرجعية والدروشة والتصوف، وأمثال ذلك، حين أنه لا رجعية ولا دروشة ولا تصوف في الاسلام، وإنما رجوع إلى الحق الصريح الذي يؤيده العقل المجرد عن مدنسات النفس، المنزه عن كل خرافة ووسوسة.



منزلة العقل والعلم

في الدين الاسلامي

بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الدين مجموعة تقاليد لا يدعمها برهان ولا يسندها دليل وقد انعزل العقل عن التفكير والتعمق والتدبر والسؤال والاعتراض، في وقت كان شعار قادة الاديان في مشارق الأرض ومغاربها: (أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى).

جاء الاسلام وهو ينادي بصوت رفيع: «الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له». وقد نهى عن التقليد الأعمى وعن قبول شيء دونما برهان ودليل. فقال: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله. قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾. وقال أيضاً: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾.

فأول شيء وجه الاسلام عنايته اليه هو تحطيم القواعد التي يقوم عليها الدين من قبل. وهي التقليد الأعمى وإهمال النظر الشخصي وإغفال التفكير الحر ومنابذة العلم إلا ما كان فيه موافقاً للدين في نظرهم ومؤيداً لسلطان المتحكمين في إرادات الناس وعقولهم. ينادي الاسلام بصوت رفيع أن لا اعتبار إلا للعقل وأن لا سيادة إلا للعلم، ودعا إلى النظر والتفكير وتطلب البرهان بقوله في القرآن الكريم في آيات كثيرة: ﴿أفلا تعقلون، أفلا تذكرون، لعلهم يتفكرون﴾، وقوله: ﴿وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾، وبقوله: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءاً ونداءاً، صم بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون﴾، وقوله: ﴿ومنهم من يستمعون اليك، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾. وعظم أمر العلماء حتى جعلهم من الشهود على وحدانيته: ﴿شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾. وقد وعدهم درجات رفيعة

بقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. وقد دعا الناس إلى التدبر في أسرار هذا الكون بقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾. وبقوله: ﴿وكأين، من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون﴾. وبقوله: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾.

وقد قرر الأصوليون من علماء الاسلام أن الايمان التقليدي مردود. وعلى كل مسلم الوقوف على أصول دينه بالبرهان العقلي والدليل المنطقي. ولا تقليد إلا في الفروع كأحكام الصلاة والصوم والحج والمتاجر والحدود والديات والقصاص إلى ما هنالك. أن علماء الاسلام يعترفون بمستقلات عقلية. أي أن هناك حسناً عقلياً وقبحاً عقلياً يستقلُّ العقل بادراكهما ويقولون: كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل إذا كمل العقل وتجرد عما يلوثه ويدنسه. فان هناك أحكاماً شرعية قد لا يصل العقل إلى معرفة أسرارها وآثارها في تكامل النفس وتزكيتها وتصفيتها حتى تكون قمينة للخلود في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين﴾. ولكن العقل سوف يدرك أسرار تلك الأحكام الشرعية مع تكامل الانسان العلمي والخلقي، فليس من الصواب أن يعترض على بعض الأحكام الاسلامية منَ عليه أن يعترف أنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً وأن مجهولاته أضعاف معلوماته، وقد اشتبه في كثير من محاكماته طوال حياته مرات ومرات وقد خطأ نفسه وفند رأيه بعقله وهو يرى أن القوانين الوضعية البشرية تصلح وتعدل من حين إلى حين مع أن الظروف نفس الظروف لم تتبدل ولم تتغير. ولا يعلم أن هذا التعديل كان اصلاحاً أو إفساداً. فمن لم يفهم حكمة حكم من أحكام الدين الاسلامي ولم يقف على علة أمر من أوامر الشريعة الاسلامية، فليتهم نفسه وليسأل من هم أكثر منه علماً وإيماناً ويقيناً، كي يزداد بصيرة وإطلاعاً واطمئناناً. فقد قال علي عليه السلام: إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

نعم، قد فتح الاسلام البصائر للنظر والعقول للفهم والقلوب للشعور، لذلك يقول المؤرخ الكبير (سديو): «لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في

تلك القرون المظلمة، فنشروا العلم حيث وطئت أقدامهم». وقد روى اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق (ع): «من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة». وعنه (ع): «ليس بين الايمان والكفر إلا قلة العقل». قيل: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟ قال: «إن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق، فلو أخلص نيته لله لآتاه الذي يريد في أسرع من ذلك». وان هذا لدستور تربوي عظيم يبعث على الاعتماد على النفس بعد الاتكال على الله تعالى ويحذر عن الطريقة الاتكالية. أي الاتكال على الغير سوى الله تعالى. تلك الطريقة التي بسببها ذلت أمم وتدهورت أخرى.

وقد أعطى الدين الاسلامي للعقل منزلة فوق ما أسلفنا، فقد جعله ميزاناً للثواب والعقاب. فعن أبي جعفر عليه السلام: «إنما يداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا». وقد ذكر عند أبي عبد الله (ع) عبادة رجل ودينه وفضله. فقال عليه السلام: كيف عقله؟ فقيل له: لا ندري، فقال: «إن الثواب على قدر العقل. ان رجلاً من بني اسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة، كثيرة الشجر، ظاهرة الماء وان ملكاً من الملائكة مرَّ به، فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله ذلك، فاستقله الملك، فأوحى الله اليه أن اصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسي، فقال له مَن أنت؟ فقال: أنا رجل عابد، بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان، فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: ان مكانك لنزه وما يصلح إلا للعبادة، فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيباً، فقال: وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة، فلو كان له حمار، رعيناه في هذا الموضع، فان هذا الحشيش يضيع، فقال له (ذلك) الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك، إنما أثيبه على قدر عقله.

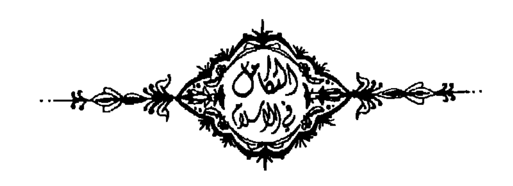
ثم أن الدين الاسلامي قد حذر عن اتباع الوساوس الشيطانية التي تظهر بمظهر العقل والتفكير وهي وبال. فعن عبد الله بن سنان قال: «ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة[1] وقلت هو رجل عاقل،

---

(١) أي كان يعيد وضوءه وصلاته مرات وقد أصيب بمرض الوسوسة فيهما.

فقال (ع): أي عقل لـه وهو يـطيع الشيـطان، فقلت له: وكيف يـطيع الشيطان؟ فقال: سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو، فانه يقول لك من الشيطان». وقد جاء في الحديث: «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً». فترون أن قيمة المرء تتناسب في الدين الاسلامي مع درجة عقله، والعقل حجة الله بينه وبين عباده، فان رسول الله (ص) يقول: «إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة وكثير الصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله».

هذا دين يعلن للناس كافة أن كل ما فيه يوافق آخر ما استطاع أن تصل اليه العقول البشرية، وفيه من الدساتير الحكيمة ما هو فوق العقل البشري، يصل العقل إلى بعض محسناته وفوائده ولا يبلغ كنهه. دين لا يريد بمعتنقيه أن يخفوا ما لديهم من سنن وآداب خشية أن تتحداه بقية الأديان. دين أجدر بعلماء العلوم المادية أن ينكبُّوا على اعتناقه والعمل بنواميسه إن كانوا للعقل والعلم خاضعين، فقد قال رسول الله (ص): «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل فيـه العقل ويكون عقله أفضل من (جميع عقول) أمته. وما يضمر النبي (ص) في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العـاقل، والعقـلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وما يتذكر إلا أولو الألباب﴾.



تأخر العلوم الحديثة عن الدين

إن تقدم العلوم المادية في أوروبا ومعارضة الكنيسة لها أوجدت رد فعل أدى إلى مقت الدين ونبذه ثم إلى معتقدات وظنون بعيدة عن الواقع، ناتجة عن أهواء وشهوات لا يؤيدها أي منطق ودليل. فقلد الشرق الغرب في ذلك، وظن البعض أن دين الاسلام لا يماشي العلوم الحقيقية ويعارضها كما تعارضها الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية اللتين حكمتا على اعدام كل من (سرفيتوس) في ١٥٣٣ م و (جورداتلو برونو) في ١٦٠٠ م، نعم، ان هذا العداء أوجد هذه الفكرة التي أدت بالفيلسوف (كونت) أن يقول: «ويجب أن يتحول الاخلاص الديني من خدمة آله غير معروف إلى خدمة الانسانية! وبهذه الطريقة يصبح الدين وسيلة لضمان وحدة الانسانية وقوتها بدلاً من أن يكون مثاراً للانقسامات والمنازعات». ولم يعلم أنه لم يظفر بدين تطمئن اليه نفسه (وأعني به الدين الاسلامي)، دين يقول لمعتنقيه: (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه)، (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً). ومتى كانت أوروبا تدين بدين؟ أن أوروبا جبلت على حب المادة وطبعت على حب الشهوات والملاذ من أي وجه حصلت. وقد كان فيها منذ زمن بعيد من مجالس الرقص والمجون والتبرج والفسوق والفجور والخمور والميسر والربا والظلم ما لم يكن في بلاد أخرى. ولا مراءَ أن هذه الموبقات تؤثر في النفس تأثيراً بالغاً وتؤدي بها إلى تسافل مرير، فتظلم النفس ويعمى القلب وتفسد الفطرة وينطفىء ضوء العقل الفطري ويحل مكانه: جحود وانكار واستهزاء بالمقدسات وعبادة المادة بشتى الألوان. ونتيجة ذلك تكذيب لما أنزل الله تعالى وتحريف وتغيير. إن الله تعالى يقول: ﴿ويل للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. وفي آية أخرى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة الصف: ٥).

فكل دين، مهما كان مبالغاً في تزكية النفس وآمراً بالتقوى والورع إلى أقصى حد ممكن، إذا حلَّ في أوروبا أثرت فيه مادية أوروبا فأرجعته إلى

مجالس الأنس والملذات والشهوات، تختلف عن مجالس أخرى بأن فيها مسحة دينية ضئيلة، تنطفىء تحت نير الشهوات وحبائك الشيطان. وهذا أحد أسباب عدم ظهور الأديان الحقة في أوروبا. لأن أوروبا (أو الغرب) بمبادئها وشهواتها ومجونها غالبة مغيرة. والأديان كسائر العناصر الحية تتغير وتنحرف وتأخذ أشكالاً تطابق المحيط والبيئة: (Adaptation) إذا كان قد قدر لها ذلك، أو تموت. ولقد سمعت من أحد الوزراء السابقين (وقد توفى رحمه الله) ما مفاده: لماذا ظهرت الأديان في الشرق ولم تظهر في الغرب؟ غير مميز بين الأديان الحقة والأديان المختلفة البشرية، غير فارق بين البيئة الملائمة لنشر التعاليم الآلهية الحقة والبيئة التي تؤثر في تلك التعاليم. فتمسى مضطهدة متأثرة، آخذة طوراً يناسب ذلك المحيط وتلك البيئة. وهذا الفرق يظهر بين البلدان المختلفة التي يعتنق أهلها ديناً واحداً.

إن طابع أوروبا طابع مادي منذ عهد الرومانيين وقبلهم والدين يحتم على الانسان أن يؤمن بما وراء المادة. وأن يعمل حسب التعاليم التي أرسلها الله من وراء المادة على لسان أنبيائه (ص)، دون أن يغير فيها شيئاً. ولكن المدنية الغربية لا تخضع إلا لما تحتمه المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية والقومية وكل ما هو مادي يؤدي إلى الراحة والرفاهية. فأوروبا مادية بكل ما في المادية من معنى وتعبد المادة منذ زمن بعيد وقد ألبستها لباس الحضارة. إن مدنية أوروبا اليوم هي نفس المدنية الرومانية القديمة التي لا تعترف لغير المادة الصماء، فهي نفعية بحتة. ولم توفق المسيحية في أوروبا في تخفيف هذا الجشع المادي الموروث بل أثرت مادية أوروبا فيها. فكانت إسماً بلا مسمى وتقاليد بلا روح. يريد الغربي أن يرى شيئاً عن (ما وراء الطبيعة) وعن الروح وعن مصير الانسان بعد الموت في الطبيعة المادية نفسها أي في مختبراتها. وحيث لا يمكن ذلك، لأنهما من واديين مختلفين وعالمين متباينين، أمسى لا يقر لغير المادة، ولا يعمل إلا في تحقيقها والتزود منها بأوسع مقياس. إن الغربي يريد أن يرى الله تعالى في تحليلاته الكيمياوية وفي أجهزة الاختبارات الفيزياوية! في حين أن الله تعالى مُظهر في ذلك جليل قدرته وعظمة صنعه. ولا ترتيب إلا بمرتب ولا تنظيم إلا بمنظم لا سيما إذا كان هذا الترتيب يحير العقول ويدهش الألباب.

يقول الله تعالى:

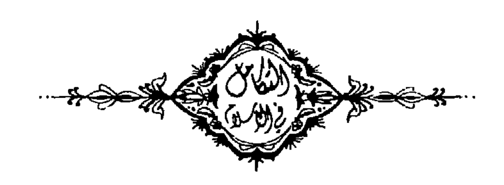
﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءاً فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

فدين الاسلام بهذه الآيات البينات يدعو إلى التفكر والعلم واستماع القول الحق والتعقل. لا إلى خرافات وضعها الاتجاه المادي المتغلغل في أوروبا ولا إلى شهوات من تربوا تربية مادية حتى أدى بهم إلى روح مادية مدلهمة لا تستنبط من خواص المادة ونظمها وقوانينها عظمة واضعها وخالقها. و﴿ان أعمى العمى عمى القلب﴾. كما جاء في الحديث. نعم أخطأ الغربي في التطبيق لظلمة في النفس. وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس ومعايير تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات! ان الغربي أراد أن يجد دساتير الكمال الانساني وقوانين الشريعة التي تبلغ بالانسان ذروة الكمال تحت المجاهر والمخابر. وقلده الشرقي، فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته التي تفوح كمالاً وجمالاً، روحيات بها يسمو الانسان فيكون أعلى منزلة من الملائكة. أجل! استقى الشرق من فلسفة أوروبا المادية أكثر من أن يأخذ من رياضياتها وطبيعياتها وصنائعها، بل أخذ من فساد أخلاقها واستهتارها وخلاعتها ومراقصها ومجونها وطيشها وترفها قبل أن يأخذ من مخترعاتها ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس الانسانية تميل إلى التسافل والتدنس، وان في اقتباس المخترعات والنظريات الدقيقة لتعباً تفر منه النفس الشهوانية الميالة إلى الراحة. كان يفتش الشرقي عن مسلك يستريح به من القيود فوجدها في المدنية الغربية المادية. وهل الدين إلا قيود تتكامل بها النفس، وهل تكمل النفس إلا بارادة قوية تقيدها عن المدنسات وهي كل ما حرّم الله تعالى على لسان نبيه الكريم (ص). ان الله تعالى يقول: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾ (سورة القلم: ٣٥). فجعل

الاسلام مضاداً للاجرام، ومعنى ذلك أن الاسلام الحقيقي موقوف على عدم الاجرام وعدم التصدي إلى الموبقات والمدنسات. لأن الاسلام مطهر الفرد عن كل ما يلوث النفس الانسانية، موصل إياه إلى أعلى مراتب الكمال. وليس الاسلام تسمية وأسماء فحسب، حتى يعد الشخص مسلماً بمجرد حمله هذا الاسم. نعم، ان النفس البهيمية تفهم الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية، فتلبسها لباس المدنية والحضارة، فيكون هذا الاسم الكاذب مبرراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبَّ في الشرق تبلبل في العقائد والأفكار وأخذ يغالي البعض فيريد قلب البلاد الاسلامية إلى بلاد غربية بجميع مظاهرها وويلاتها. نعم قلد الشرقي الغربي تقليداً أعمى لجهله دينه وظنه أن دين الاسلام لا يساير الحياة العلمية وأن لمعطيات القرن العشرين في العلوم القول الفصل، وأن كل ما جاء في الدين مخالفاً للنظريات العلمية مردود. ولم يفرق بين العلم الحقيقي الناصع وبين (الفرضيات!) الموضوعة المتحولة من وقت إلى وقت على قدر جهود المخترعين والمكتشفين. وان نظرة بسيطة إلى تاريخ العلوم والفلسفة ترينا مدى تغير الحقائق العلمية ووضع نظريات جديدة «أو فرضيات!» والغاء نظريات قديمة كان البشر يظنها حقائق راهنة ينازع فيها رجال الدين ويصمهم بالخرافة والجهل. ﴿زيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

كان يرى العلم الحديث إلى عهد قريب أن الشمس ثابتة وكان القرآن ينادي منذ مئات السنين أنها متحركة بقوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. ثم عدل العلم الحديث عما كان يعتقده بعد تقدم العلوم الرياضية وآلات الرصد فقال بحركة الشمس لمستقر لها سائرة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع، على شكل لولبي، وقال بحركة كثير من النجوم الثوابت بعد أن كان يراها ثابتة لا تتحرك. كم مرة عدل العلم عما قرره بعد العثور على حقائق جديدة وكم مرة سوف يعدل في ا لمستقبل عما يقرره الآن لا يعلم ذلك إلا الله. فما جاء في الدين ثابت لا تغير فيه والعلم متأخر عنه، يصل إليه مع تقدم الوسائل والمخترعات إلا ما كان من أمر النفس فانه سيبقى

مجهولاً أبد الآبدين. ﴿ويسألونك عن الروحِ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. ويقول تعالى أيضاً: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾. فما لا يدركه العلم من الدين ويعجز عن تفسيره ليس إلا لقصور فيه وانقباض في سعة مداه الحاضر وقلة الوسائل ووجود الحاجة إلى اكتشافات أخرى ومخترعات جديدة وصفاء في النفس.



تأخر العلوم عن الحقائق الدينية

قد ثبت في العلم الحديث في زمن متأخر ما نطق به القرآن الكريم أن مبدأ الحياة وجد بالماء. والماء من أهم البواعث في تكون الحياة وكان يقول الله تعالى قبل مئات السنين في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾. ثم اكتشف العلم الحديث أن الزوجية متأصلة في الأشياء كلها حتى أن الذرة مركبة من (ألكترون وبروتون): كهربائية سالبة وكهربائية موجبة. وكان القرآن الكريم ينطق بذلك قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. أي لعلنا نتذكر أن الوحدانية له تعالى لا يشاركه فيها أحد. أنه تعالى يقول في آية أخرى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

كان الطب يجهل أدوار الجنين في الرحم إلى زمن غير بعيد، وكان القرآن ينطق قبل أربعة عشر قرناً تقريباً: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم جعلنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. ثم أنه تعالى قد أوضح مراحل تشكل الأمطار في آيات شتى تبهر العقول. يقول جلّ وعلا في سورة فاطر: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾.

إن للرياح أثراً فعالاً في حدوث الأمطار. ذلك لأن الرياح تعمل في تكوين السحاب وتكثيفه مطراً مستعينة بفعل الجبال والكهربائية الجوية. فإذا حملت الرياح السحاب كانت الجبال مكثفات هائلة تساعد على تكثيف السحاب. إن الرياح تزجى السحاب بأمره تعالى فيقترب السحاب الموجب من السحاب السالب مقداراً كافياً يؤدي إلى التجاذب وزيادة في كهربائية مجموعة السحاب بالحث. نعم ان هذا التقارب ليتزايد بصورة تدريجية حتى تتحد كهربائيتهما عن بعد، فيحدث هذا البرق الذي نشاهده. ومن ثم يحدث

المطر. وان دراسة الجو أمر معقد، لتشعب مسائله ولزوم توحيد جهود الأمم وارتباط الحوادث الجوية بعضها ببعض ارتباطاً قوياً، حتى أن حادثة جوية تقع في شرق العالم لتؤثر في الأوضاع الجوية في غرب العالم. فإذا هبت الرياح على بلدة في العراق مثلاً أو هطلت الأمطار عليها فان سبب ذلك لا ينحصر في جو هذه البلدة فحسب بل يجب أن نبحث عن السبب خارج هذه البلدة. نعم، قد يكون من السهل القيام بأعمال رصدية قريباً من سطح الأرض ولكن القيام بأعمال رصدية في مناطق عالية عسير جداً. ذلك لأن معلوماتنا عن حقيقة الرياح ومصيرها وعن الكهربائية الجوية وكل ما يتعلق بالجو قليلة جداً. ولعل الأقمار الصناعية تزيد في معلومات البشر في هذه النواحي المجهولة. على أن هذه المجاهيل تبقى متنوعة وكثيرة أبد الآبدين. وذلك لأننا كلما فتح لنا أفق من العلم تجلت لنا مجاهيل متعددة ومتنوعة لا تحصى. فسبحان الذي نظم هذا العالم بعلم لا يتناهى وقدرة لا تتناهى وحكمة لا تتناهى. وقد علم علماً يقيناً أن الرياح تثير السحاب (كما جاء في القرآن الكريم) أو بخار الماء. أي أنها تظهره بعد أن كان كامناً. يسوق الله تعالى السحاب حيث يشاء، ولم يتكلم العلم الحديث عن كيفية هذا السوق، لتعدد العوامل وتشعبها، ولا رابط بينها إلا الله تعالى.

إن المطر ليحدث بعوامل عدة: منها زيادة تشبع الهواء ببخار الماء، ومنها البرودة في المناطق العلوية ومنها قلة الضغط في المناطق العالية ومجيء الرياح الباردة من المناطق القطبية، ومنها الجبال، ومنها نويات التكاثف كدقائق الغبار الخفية أو المرئية، ومنها تأين الهواء أي تكوين الايونات فيه والـ(إيون) هو الذرة المكهربة أو الجزيء المكهرب أو الهباءة المكهربة وان الجو ليتأين بعوامل مختلفة، البحث فيها من أصعب المواضيع.

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءاً، فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾. إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثراً فعالاً في نزول الماء من السماء وإسقائه الناس. فهذه الآية لا تريد أن تشير إلى أن الرياح لواقح للزرع بل تقول: إن الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين، أي أن الرياح تعمل

في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة، فتقع الملاقحة بين سحابتين. فهذه الآية معجزة خالدة، لأنها تخبر قبل ١٣٩٠ سنة تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث. وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم والدين في الاسلام وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية.

وهناك آية أخرى أدل من الآيتين المتقدمتين على كيفية حدوث الأمطار، يطابق آخر ما وصلت إليه الاكتشافات الأخيرة. وهو قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾. ففي هذه الآية خلاصة كثير من المكتشفات الحديثة في تشكل المطر فخص بالذكر قوله: ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب. وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية. فان التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبرد. وإن عملية الركام تأتي بعد عملية التأليف. على أن الله جلّ جلاله لا يريد بذكر هذه الآيات تعليم الناس شيئاً من العلوم الكونية لأن كلمات الله وما أودعه في الأجسام من خواصٍ لا تتناهى. ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾. ولكن الله يريد أن يُرى العباد جليلَ قدرته وعظيم صنعه إتماماً للحجة. ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون﴾. ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾. ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيًّ عن بينة﴾. نعم، ان الانسان يصل إلى العلوم الكونية عاجلاً أو آجلاً بفكر أودعه الله فيه، ولثابتية خواص الأجسام وقوانينها. وقد عاش الانسان آلاف السنين دون أن يعلم قوانين (لورد كلوين) في الكهرباء ودساتير ليبنيتز (Leibnitz) في التحليل الرياضي أو معادلات (دكارت) في الهندسة التحليلية. أعلم هل تكامل البشر روحياً بعد الوقوف على هذه القوانين، أم رجع القهقرى يأكل

بعضهم البعض؟ والمهم بل الغاية الأسمى التي خلق الانسان لأجلها هي تزكية هذه النفس التي لا تقر على حالة ثابتة خلافاً للجمادات التي لها قوانين ومعادلات ثابتة يظفر بها الانسان بلطف من الله. وكثيراً ما يظفر بها بطريق الصدفة مناً منه تعالى. والبشر المادي أقل من أن يأتي بنظام يكفل سعادة البشر في الدارين. أما الدين فحقائقه ثابتة ترمي إلى غايات بعيدة قد يفهمها العلم وكثيراً ما يتأخر عن فهمها.

ونسأل الله تعالى نفوساً صافية وآذاناً واعية تعي الحق فتتبعه، ولا تغتر بما يكتشف في هذا العصر مما أودع الله من كنوز ومعادلات في هذا الكـون المادي. فان الغرور يبعد الانسان عن رؤية الحق واتباعه أيما تبعيد. ان الله تعالى يقول: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾.



علاقة الدين بالعلم والظن

إن الدين الاسلامي حثّ على تحصيل العلم إلى حد بعيد، ولم تقع معارضة بين الدين والعلم في العالم الاسلامي شبيه المعارضات التي حدثت بين الكنيسة والعلماء الكونيين في القرون الوسطى فأدت إلى الشنق والنفي والسجن. فان الدين الاسلامي يحبذ العلم الصحيح الذي لا شبهة فيه ويؤيده أيما تأييد. ولكنه يندد بأولئك الذين يتبعون الظن ويعتبرونه علماً ويبنون على هذا العلم الباطل أشياء كثيرة لا أساس لها، تفسد بذلك عقائدهم وأخلاقهم فيكونون من الأخسرين أعمالاً. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلاالظن وإن أنتم الاتخرصون﴾ (سورة الانعام: ١٤٨).

فنهى الدين الاسلامي عن اتباع الظنون وهي النظريات التي لا تستند على دساتير رياضية رصينة ولا تؤيدها التجارب بصورة مطردة وإنما هي أهواء ووساوس تتجلى بصورة العلم. يقول الله تبارك وتعالى: «وما يتبع أكثرهم إلا ظناً أن الظن لا يغني من الحق شيئاً، ان الله عليم بما يفعلون». وفي مكان آخر: ﴿وما لهم به من علم، ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾. وقد قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾. فنهى عن الظن بقوله: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾. وبقوله: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾. وبقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله أن يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾ (أي يكذبون).

وقد حثّ القرآن الكريم على التمسك بالعلم القطعي الصحيح واتخاذه أساساً للمعتقدات والحياة الاجتماعية بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾. فخص الله التذكر والوعي الديني والقيام بما فرض الله. بأولي الألباب والعقول: أولئك الذين يتبعون

العلم الصحيح، لا الظنون والأهواء. وان الله تعالى أمر نبيه (ص) مع ما آتاه من العلم والحكمة أن يدعو ربه لمزيد العلم بقوله: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾. وهذا يشير إلى عدم انتهاء مدى العلوم. ويقول جلَّ من قائل: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾. ولا مراء أن العلم الصحيح الناصع الذي يوصل الانسان إلى الاعتقاد بالله والعمل بما يرضيه، فيه النور والحياة والسعادة الأبدية، وهذا هو العلم الذي يهيىء لنا سعادة الدارين.

قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «تعلموا العلم فان تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، وسلاح على الأعداء، وزين الاخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمة يقتدى بهم وترمق أعمالهم وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم، يمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم. لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف. ينزل الله حامله منازل الأبرار ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة. وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام. والعلم أمام العقل والعقل تابعه. يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء».

وقد قال رسول الله (ص): «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» «ألا أن الله تعالى يحب بغاة العلم». وان الاسلام عظم منزلة العلماء الحقيقيين أيما تعظيم حتى جعلهم ورثة الأنبياء. وفي حديث: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».

ما هذا العلم الذي يعطيه الدين الاسلامي هذه المنزلة الرفيعة؟ هو كل علم يوصل الانسان إلى توحيد الله تعالى والخشوع والخنوع بين يديه، علم يؤثر في النفس الانسانية فتنقشع عنها الرذائل والخبائث ويزول عنها الرجس والدنس، فيكون هذا الانسان بشراً على شكل ملك أو ملكاً على صورة انسان، هذا العلم الذي يتخلله التوحيد والاعتبار بعظمة الله تعالى ثم القيام بتكميل النفس.

ولا شك أن الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض وغير ذلك من العلوم نوافذ منها يتمكن العالم أن يبصر عظمة الله وجليل قدرته، فيزداد تسبيحاً وتحميداً لله تعالى.

إذن فما الذي أدى بفريق من الناس حتى أصبحوا من عباد المادة؟رجعوا وثنيين يعبدون المادة الصماء بعد الاطلاع على كثير من خواصها؟ ذلك لأنهم لم يستنتجوا من هذا العلم المادي استنتاجاً يوافق المنطق وإنما اتبعوا الظنون. أثرت فيهم ضوضاء المعامل والانقلاب الميكانيكي فاغتروا بها واستعملوا ذلك في الترف وإيجاد أسباب الراحة والركون إلى الدنيا وشهواتها وملذاتها، فعميت أبصارهم وتحلت إذ ذاك لهم الظنون علماً، فقالوا: لا شيء وراء المادة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾. أي أن هذه الطائفة الضالة غفلت عن اتباع العلم الصحيح واتبعت ظنونها وشهواتها. ذلك لأن النفس الانسانية إذا انطمست في الموبقات والمنكرات لا تبصر الحق ولا ترى سبيلاً إلى العلم الصحيح. لأن الموبقات والمنكرات والمعاصي تشكل حجاباً كثيفاً مدلهماً يحجب النفس الانسانية عن رؤية الحق والواقع، فتظهر لها الظنون بلباس العلم وهي في أسفل درك من الظلمات. يقول الله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

ظهرت المادية بأجلى مظاهرها في أوربا في القرن التاسع عشر، وكان من أبشع مظاهرها ظهور المبدأ الشيوعي، حتى أنكروا وجود الخالق: ﴿أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾.

وقد سمعت من أحد كبار المبشرين بالدين الاسلامي: أنه قد أوفد لينين مندوبه إلى سمرقند ليهدم المساجد والكنائس، ويفهم الناس أن لا شيء وراء المادة، وأن هذه العبادات ليست إلا سخافة. فجاء المندوب وطلب إلى الناس أن يجتمعوا في ساحة كبيرة وقد أخبر العالم الديني (العالم بالدين الاسلامي) في

سمرقند بما سيكون من أمر هذا المندوب، واجتمع إليه رؤساء الدين من أهل الكتاب، وقالوا أن البلية عامة وفوضوا اليه أمر الدفاع. حتى كان اليوم الموعود. فقام الشيوعي قائلاً: ماذا تعبدون؟ إن كان هناك آله فَلِمَ لا نراه بأبصارنا؟ ولم لا نلمسه بأيدينا؟ ولماذا لا نتذوقه بألسنتنا ونشمه بأنوفنا ونسمعه بآذاننا؟ إذن ليس وراء المحسوسات شيء. أهدموا الجوامع والكنائس ودور العبادة.

فقام إليه العالم المسلم، وكان قد أحضر قبلاً كرتين بحجم واحد. احداهما من خشب والأخرى من حديد ملونتين بنفس اللون، وقد وضعهما على المنضدة. فخاطب الشيوعي قائلاً: قل لي أي الكرتين أثقل، استعمل في ذلك حواسك الخمس كما استعملتها لمعرفة الخالق. فأبصرهما الشيوعي، ثم شمهما، ثم لمسهما، ثم ذاقهما، ثم وضع أذنه بالقرب منهما ليسمعهما. فقال: لا أهتدي بالحواس الخمس إلى معرفة أثقلهما، إلا أن عقلي يقول لي: ارفعهما وحركهما بيديك كي تعلم أيهما أثقل.

فقال له العالم المسلم: إذن العقل هو المرجع الوحيد عند قصور الحواس الخمس وعجزها وأخطائها، وبالعقل يدرك الخالق الذي جهزك بأعضاء لو تعطل عضو رئيس منها لما استطاعت المعامل بأجمعها أن تعوض عنه. فكم تخطيء الحواس الخمس ويكون العقل مصححاً لها. هل الشمس بهذا الحجم الذي نشاهده؟ وهل النجوم بهذه الصغر؟ وهل الخطان المتوازيان الممتدان إلى حد بعيد يتلاقيان حقاً؟ وأمثال ذلك من أخطاء الحواس في الهندسة والفيزياء كثير. إن الله تعالى يقول: ﴿ألا أن لله من في السموات ومن في الأرض، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون﴾. ويحق لي أن أكرر الآية الآتية لمطابقتها العصر الحاضر: ﴿وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾.

ونسأل الله توفيق اتباع العلم الصحيح وترك الظنون والأهواء. فـ «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان».

الدين والعلوم الحديثة

عندما يرى الطالب المعلومات الحديثة في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافية والرياضيات ويرى مختلف التآليف وشتى المختبرات يندهش أمام العلم الحاضر ويظن بل يقطع أن العلم الحاضر له القول الفصل في كل ناحية من نواحي الكون. وان ما يقوله حقٌ لا يشك فيه. هذه العقيدة تكون قوية في المدارس المتوسطة أكثر من الثانويات وفي الثانويات أكثر من المدارس العالية، إذا كان الطالب ممن لا يسلم بما يلقى عليه دون تعمق وتدبر. وأما إذا كان من البسطاء الذين لا ينظرون إلى القول، بل القائل أهم منزلة عندهم مما يقول، بقي ثابت العقيدة في أن العلم الحاضر حلال المشكلات، وموصل الانسان إلى أقصى مرتبة من مراتب التحقيق. وما يقوله لا يناقش فيه. ويزداد تعجباً عندما يرى المعادلات التفاضلية التي تستعمل لحل غوامض القوانين الكهربائية ومباحث الحركة والحرارة الحركية من مباحث الفيزياء العالية.

وقد رأيت ذات يوم وأنا أقوم بتجربة فيزياوية: أن طالباً دُهش لما رأى أن التجربة تدل على صحة القانون الفيزياوي وقال: هذا هو العلم! معجباً بالتجربة فرحاً مغروراً، وقد فاته أن ذلك ليس إلا ظاهرة من ظواهر العلم، ظاهرة بسيطة لا تدل على حقيقة إلا بعد استنتاج صحيح، وانك لو سألت من تخصص في الكيمياء: كيف أن الغازين (الأوكسيجين والهيدروجين) يشكلان بالنسبة المعلومة الماء بعد إمرار تيار كهربائي، وما تأثير الكهرباء هنا؟ يبقى حائراً صامتاً لا جواب له. وغاية ما يقول: إن التجربة تدل على ذلك. وما التجربة إلا حادثة أو ظاهرة يجب تفسيرها. وان المدقق المفكر من علماء الكيمياء الاختصاصيين يعترف بأن إرادة ربانية تعمل في تركيب هذه العناصر ولولاها لما حصل هذا المعجز. إذ لا مناسبة بين الاوكسيجين الغازي والماء. وقد زعم آينشتاين وكان من كبار الفيزياويين الرياضيين بل كاد أن يكون

أعظمهم بعد كشف النظرية النسبية (Relativite) : أن أقصر الخطوط هو الخط المنحني وأن الضوء يسير على خط منحن غير مستقيم، وكان فيما يقوله يستند على تجاربه واستنتاجاته السابقة، ثم أُتيح له أن رصد بآلات أتقن من الآلات السابقة وقام بحسابات أخرى فعدل عن رأيه وقال: إن أقصر الخطوط هو الخط المستقيم، وان الضوء يسير على خط مستقيم. فالتجارب الثانية والمشاهدات والحسابات التالية قد أصلحت الأخطاء الناتجة عن التجارب والمشاهدات والحسابات الأولى. إذ ليست التجربة كل العلم وإنما حسن الاستفادة وحسن الاستنتاج هو الذي يجب أن يعتمد عليه. والانسان معرض للخطأ والزلل وقلَّ أن يسلم منهما أحد إلا من عصمه الله.

كما أن النظريات أو بالأحرى (الفرضيات) التي توضع (لا عن تحقيق علمي وإنما لامكان تفسير الحوادث أو التجارب) تتغير من حين لآخر. لأن الفيزياوي يضع (فرضية: Hypothese) تدل مثلاً على ماهية الكهرباء ويفسر الحوادث والمشاهدات الكهربائية على ضوء تلك (الفرضية)، حتى إذا رأى حادثة أو ظهرت له ظاهرة عفواً لا قصداً، تخالف (الفرضية) الموضوعة عمد إلى وضع (فرضية) جديدة صالحة لتفسير الحوادث السابقة واللاحقة، فلو كانت (الفرضية) الأولى صحيحة فما هذه الثانية؟ وان كانت الثانية صحيحة فاذن بقينا في خطأ وضلال طيلة تمسكنا بالفرضية الأولى. ومن يقوى على القول بأن (الفرضية) الثانية صحيحة، ذلك لأنه ستظهر حوادث أخرى لا تفسر بالفرضية الثانية. كما أن (فرضية لابلاس) في تشكل النظام الشمسي ليس بالشيء الذي يعتمد عليه. على أنها لا تضبط بحسابات ودساتير، وقد جرحت وعدلت كثيراً. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿أو لم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ (سورة الأنبياء: ٣١). ويقول الله في مكان آخر: ﴿يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا أنا كنا فاعلين﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٤). على أنه ليس من وظائف الدين تعليم الناس علم طبقات الأرض أو علم الاحياء، بل وظيفته إعطاء الدساتير المؤدية إلى تزكية النفس وتقريب الفرد إلى الساحة القدسية الإلهية وإيجاد سعادة الدارين.

وإن ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التكوينية إشارة إلى خلاصة ما يمكن أن يصل اليه العلماء المحققون وتبيان لعظمته وجليل قدرته تبارك وتعالى. يقول جلّ وعلا في سورة نوح (ع): ﴿ألم تَروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً، والله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها، ويخرجكم إخراجاً﴾.

ولا مراء أن مشاهدات محدودة في ناحية خاصة أو ناحيتين أو ثلاث لا توجب حكماً كلياً علمياً. كقولنا: إذا أضيفت أشياء متساوية إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية، أو مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين. وكل من تتبع العلوم العالية يرى ضعف العلماء وعجزهم عن استقصاء حقائق كثيرة لا تعد ولا تحصى، ويرى اعترافهم بجهلهم أكثر من اعتزازهم بعلمهم. هذا أفلاطون يقول: علمت أني لا أعلم شيئاً. وهذا نيوتون يقول: إن علمي بحقائق هذا الكون أقل بكثير من علم طفل صغير جالس على شاطىء بحر يلعب بالحصى بما في أعماق هذا البحر. كيف لا يكون كذلك وان الخواص التي أودعها الله في تركيب هذا الكون ونظامه تكاد لا تتناهى لقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾. وإن كلمات الله هي الخواص والنظم والدساتير المودعة في مطاوي هذا الكون. تلك النظم التي تربط الكون بعضه ببعض: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرَّتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ (سورة الملك: ٤).

نعم، نرى أن كثيراً من دساتير الفيزياء العالية ناقصة وكثيراً من الاتمامات (Integration) تكاد تكون لغزاً من الألغاز لا يتاح لأحد أن يحلها. ونرى أن العالم الفلاني قد وضع دستوراً لمحاسبة سرعة الصوت مثلاً في وسط معلوم وقد خطأه العالم الآخر وأصلح دستوره، ثم أتى آخر وأصلح خطأ الثاني. ثم أن التخمين ضارب أطنابه في قياس الحوادث والتجارب ولا تكاد ترى نتيجة من النتائج بعدد حقيقي خالٍ عن التقريب. ترى يعطيك الفيزياوي دستوراً لاختلاف الضعف بنسبة الارتفاع إلى حد معين ثم يقف ويعطيك معلومات

مضطربة تقريبية لارتفاعات أعلى ثم يسكت إذا تجاوز الارتفاع حداً معيناً.

فالعلوم الثابتة التي لا مراء فيها والتي يعتمد عليها هي العلوم الرياضية (Mathematiques pures) كالحساب النظري والهندسة النظرية بأنواعها والهندسة التحليلية والحساب الأعلى والجبر العالي والتحليل الرياضي لأنها مجردة عن المادة. وسنعلم أنه لا تنافي بين القسم الصحيح من العلوم غير الثابتة وما جاء في الدين الاسلامي تبياناً لعظمة الله تبارك وتعالى وجليل قدرته.



لا تنافي بين الدين والعلم الصحيح

إن العلوم الثابتة التي لا مراء فيها هي العلوم الرياضية البحتة كالحساب النظري والهندسة التحليلية والتحليل الرياضي (Analyse Mathematique) . وعندما تتدخل فيها المادة تخرج عن كونها علماً قطعياً لا يشك فيه: كالميكانيك الرياضي والفيزياء والفلك، وكذا الحال في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض. لا سيما (الفرضيات): (Hypotheses) أو الموضوعات، فانها ليست حقائق ناصعة وإنما مقترحات يقترحها العالم ظاناً أنها أقرب إلى الواقع من احتمالات أخرى، والاحتمال ليس من العلم الحقيقي في شيء. ثم ان فساد (الفرضيات، أو العنديات) والتخمين يتجليان لـلانسان في العلوم التربـوية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والقانونية أكثر من بقية العلوم. وحقاً أنها علوم غير ثابتة، لأنها تبتني على (فرضية) واضعها فما رآه حسناً أقرَّه. وان البيئة كافية لاثبات ما يدعيه! لسيطرة المادية على النفوس حين أن مدعاه شيء كلي عام، يتجاوز البيئة التي شاهد فيها الحادثة. حتى آل الأمر إلى أن العالم الاجتماعي يقول بالقطع والبت في نظرياته وأفكاره. وهذا ما يعبر عنه عندهم بـ (Determinisme). وقد يبالغ العالم النفسي فيظن أنه وصـل إلى حقائق النفس فيضع منحنيات تقريبية وجداول مشوشة وإحصاءاً ناقصاً تقريباً . حين أن كل ما يعلمه إنما هو في ظواهر النفس، وذاك بشكل ناقص مبتور. والدليل على ذلك تضارب الآراء في مسألة واحدة في وقت واحد.

والنقطة الرئيسة في وضع النظريات: (الفرضيات) أو (العنديات) سواء في التربية والاجتماع وغيرهما هي البلوغ إلى تحقيق غاية قد تكون غير مشروعة وغير صحيحة، فيؤلف العالم أو المتظاهر بالعلم الكتب الضخام ويفسر جميع الحوادث النفسية والاجتماعية تفسيراً يحقق تلك الغاية أو النظرية. فان كان مادياً، فان المادة تتدفق خلال أسطره، حين أن الأصل فاسد منتقض مردود. وإن كان ملحداً يترشح من نظرياته ونتائج تفكراته الالحاد! والمرجع هنا أيضاً تلك المادية المدلهمة الظلماء بشكل خدَّاع.

إن بعض الشبيبة ليندهش عندما يرى تزاحم الكتب وتراكم المجلات، فلا يكاد يجعل لنفسه بين الآراء رأياً أو يتصور لنفسه بين الأوزان الخيالية وزناً. فيفند كل رأي يخالف نظريات (كلابارد) مثلاً أو (بنتهام) أو (شوبنهاور) أو (دوركايم) أو لا سمح الله (بوخنر) المادي المعروف. وإذا طالع الكتب الدينية ظن أن هناك تضارباً بينها وبين العلم الحقيقي الناصع المجرد عن كل شائبة، فيعمد إلى السخرية والاستهزاء بالمتدينين ويحكم بأنهم خرافيون بعيدون عن العلم. حين أنه لا تضارب ولا منافاة بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة وبين العلم الصحيح الثابت، لا النظريات: (الفرضيات) المضطربة والأهواء الباطلة التي ليست من العلم الحقيقي في شيء.

كان يقول الفلكي إلى وقت قريب: أن الشمس ثابتة وكان القرآن الكريم ناطقاً قبل مئات السنين بهذه الآية المنيفة: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. وكان الطالب في المدارس المتوسطة يبقى حائراً لا يعلم هل يأخذ بقول الفلكي فيقول بسكون الشمس، أم بقول الله في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، فيقول بحركتها. فان كان مؤمناً حقاً خطأ نفسه في فهم القرآن الكريم وحاول التأويل. ولكن الحقائق التي بينها الله إظهاراً لعظمته وجليل قدرته لا تماشي أهواء العلماء وأخطاءهم، أنها ثابتة لا تغير فيها. نعم، كان هذا التبلبل سائداً إلى زمن قريب حتى تقدمت العلوم الرياضية بفضل ما ألهم الله تعالى المشتغلين في العلوم الرياضية العالية. فتقدم الميكانيك الرياضي والسماوي (Mecanique Celeste) وأثبت الفلكيون أن الشمس متحركة بحركة خاصة بها وتجري لمستقر لها بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلومتر في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. ووصلوا إلى الحقيقة التي نطق بها القرآن في دور جاهلي ووسط جاهلي حيث لا فيزياء ولا فلك ولا ميكانيك.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، إن الله كان حليماً غفوراً﴾. أي ما أمسكهما من أحد من بعده. هذه الآية الشريفة تدل دلالة واضحة على أن النجوم ثوابتها وسياراتها معلقة وسابحة في الفضاء

ويجذب بعضها البعض بارادته تعالى حسب دساتير متقنة رياضية أودعها الله فيها وهو الذي يمسكها من أن تزول وتنحرف عن مواضعها ومسيرها. فان زالت وتخطت ـ لا سمح الله ـ فليس لأحد بعد الله تعالى أن يمسكها عن الاضطراب والتصادم والتدهور. ولولا قدرته وإرادته جلَّ وعلا لما كان للجسم الجامد الصامت أن يتحرك بانتظام ودستور رياضي في مدار خاص محدود. وقد وقف على القليل منها الفلكيون بعد عناء شديد. وقد كشف اسحق نيوتون دستور الجاذبية العامة وكشفت بواسطته سيارة مجهولة من قبل عالمين في وقت واحد ولكنه عجز هو ومن جاء بعده عن تفهم حقيقة الجاذبية ولا يزال العلم عاجزاً عن فهم حقيقة الجاذبية وحقيقة الكهرباء والضوء والنفس الانسانية وكل شيء قواني (منسوب إلى القوة) وسيبقى عاجزاً إلى الأبد ما دامت هذه النفس مرتبطة بالبدن. فقد جاء في الحديث: (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا). ذلك لأنه لا يمكن قياس ما هو غير مادي بمقاييس مادية. كما لا يمكن قياس طول الغرفة بالغرام وان بعد التشبيه. وان العلم الحديث لا يعمل إلا في كشف خواص المادة والتأثرات المتقابلة المادية بين المواد. وليس له أن يتجاوز حدود المادة وأن يتغلغل في ما وراء الطبيعة ما دام يعمل في الطبيعة نفسها وبمقاييس طبيعية مادية: (غرام، سانتيمتر، ثانية) فتكلم العالم المادي في ما وراء الطبيعة سفسطة وهراء.

وغريب أن بعض شبابنا الذين يرون لزوم الاختصاص في كل شعبة من شعب الطب أو الهندسة مثلاً، يفوتهم أن يعترفوا اختصاصاً للعلوم الدينية أو علوم ما وراء الطبيعة. فيتقبلون ما يمليه عليهم أستاذ الكيمياء مثلاً (من العلوم المادية البحتة) في ما يتعلق بتكامل النفس وأمور ما بعد الموت ومنازل الآخرة. إن شبابنا يرى أن أستاذه يبرهن بمعادلات متقنة على صحة دستور في الفيزياء أو الفلك مثلاً، فتزداد ثقته به ويراه حجة في ما يقول حتى في شيء لم يشتغل فيه ولم يتصدَّ له! بل بعكس ذلك أخذ يتسافل فيه ويبتعد عنه كل البعد. انه يصدِّق استاذه حتى يستهزىء بالمقدسات الدينية وبما أخبره به الأنبياء عليهم السلام عن مراحل الآخرة. ذلك لأن معتمده أي أستاذه في الكيمياء مثلاً أملى عليه فكرة مغلوطة عن المقدسات وما بعد الموت فصار يوافقه على استهزائه

وجحوده. على أني أعتقد أن كلمات الأستاذ في ما وراء الطبيعة (أي في ما لم يختص فيه) وفي الأمور الدينية لا تؤثر في الطالب كثيراً ما لم تكن نفس هذا الطالب مستعدة لقبول هذه الأفكار الفاسدة الملوثة. ولا تكون النفس مستعدة للقبول ما لم تتلوث بالمعاصي والآثام والاجرام وبما يدخل في جوف الانسان من مآكل محرمة مغصوبة أو مشتبهة. وتفصيل ذلك يطول.

على أن للمحيط أثراً فعالاً في التوجيه التكاملي أو التسافلي. فالنفوس تؤثر بعضها في بعض، كتأثير المجال الكهربائي في المجال المغناطيسي. يقول الله تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا أن أرضي واسعة فاياي فـاعبدون﴾. أي هاجروا إلى أرض تتيسر فيها العبادة. وفي الحديث: «عاشروا من يذكركم الله». فلو كانت هيأة المدرسة من مدير ومدرسين وكتاب وخدم متدينين عاملين بأوامر الدين، منتهين عما نهى الدين لألفيت الطلاب على غير ما هم عليه الآن.



لا تنافي بين الدين والعلم الحديث

دين الاسلام دين الفطرة، لذلك يتوصل الانسان إلى التوحيد أي إلى لباب الاسلام وعصارته بالفطرة، دون أن يحتاج إلى معلم أو مرشد، ان لم يدنس الفطرة بما يلوث النفس الانسانية من معاصي وآثام وظلم وبغي ولؤم ونفاق وغيبة ونميمة وكل ما حرم الله تعالى على لسان أنبيائه (ع) وتأباه الفطرة الانسانية غير المدسوسة منها. وليست الفطرة إلا من معطيات العقل، كما أن العلم حديثه وقديمه من معطيات العقل أيضاً. إذن وجب أن لا يكون تناف بين العلم الحديث والدين، إذا كان هذا العلم الحديث قد بلغ من الصحة والتأييد ما يجعله علماً حقيقياً لا غبار عليه وقد خرج عن مرحلة الظن والشكوك. فالفرضيات التي توضع لتفسير بعض الحوادث الفيزياوية أو بعض المشاهدات في عالم الطبيعة ليست من العلم الحقيقي في شيء. لذلك نراها تتغير من حين لآخر وتعدل. فالفرضيات تعيش مدة من الزمن ما دامت مفسرة لجملة من الحوادث. فاذا ما شوهدت حادثة لا تتفق والنظرية الموضوعة عدل العالم الطبيعي إلى وضع نظرية أخرى تفسر الحوادث السابقة واللاحقة. وقد خلط بعض المتعلمين بين الفرضية والعلم الصحيح الثابت الذي لا تبديل له ولا تغيير: كالرياضيات البحتة. فقالوا: .إن هناك تنافياً بين ما جاء في الدين .ومعطيات العلم الحديث. فاتهموا الدين ووصموه بما هو منه براء. ان الله تعالى يقول: ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

فإن الله عدَّ الذين يحيون الليل بالعبادة ساجدين راكعين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم (وهم بين الخوف والرجاء) من العلماء وأولي الألباب. إذن، ما هو ذلك العلم الذي يميز الانسان عن الجاهل ويجعله في عداد العلماء؟ هو العلم بعظمة الله وجليل قدرته، هو ذلك العلم الذي يؤثر في النفس فتؤثر في الجوارح وتنشطها للعبادة. هو ذلك العلم الذي يحمل النفس على الأعمال الصالحة وكل ما من شأنه التطهير والتزكية. هو ذلك العلم الذي

ينمي الفرد ويكمله حتى يكون أعلى منزلة من الملائكة. فالعلم الحديث الذي لا يتجاوز سماء الأرض ولا يبلغ بصاحبه إلى معرفة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه لا يطهر النفس ولا يزكيها، أنه علمٌ ضيق ناقص مبتور. علم مادي حالك، بل وبال على البشرية جمعاء إن لم يستعمل في صلاح النفس وتكاملها. وان قول الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ لا تفسر إلا على ما ذكر. أي أن العلماء الذين أدى بهم علمهم إلى توحيد الله وطاعته وتقديسه واتباع شرائعه هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه. فالعلم الناقص أي العلم الذي لا يبلغ بالفرد إلى المعارف الالهية لا يورث الخشية. وكم رأينا من علماء في الطبيعة والرياضيات وغيرها ملاحدة جاحدين يرتكبون المعاصي ولا يخشون الله. ذلك لأن علمهم مادي لم يتجاوز حدود المادة. فلم يسم بهم إلى ما وراء الطبيعة.

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليعلم الناس الفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والرياضيات وغيرها. ذلك لأن العلوم لا تتناهى، وكلما كشف للعالم شيء بفضل الله أو بطريق الصدفة بفضله أيضاً شاهد وراء ذلك أودية من المجاهيل. إن الله تعالى يقول: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ وإنما أنزل الله تعالى القرآن ليهدي الناس إلى الطريق المؤدية إلى تكميل النفس والبلوغ إلى معرفة الله بدرجة تكاملها. ذلك لأن الكامل على الاطلاق، وهو الله لا يريد أن يرى في ما خلق شيئاً ناقصاً. وقد سنَّ للانسان الناقص سنن الكمال على لسان أنبيائه (ع). وان أكملها وأسماها سنة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾. وما جاء في القرآن الكريم من آيات كونية كقوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ إنما هي عصارات العلوم وخلاصاتها، يصل اليها العلم الحاضر كلما نما وتكامل. كان العلم الحديث إلى زمن قريب يقول: بسكون الشمس وان السيارات تدور حولها. وكان القرآن الكريم ينادي منذ ألف وأربعمائة سنة تقريباً: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1]. حتى إذا تكاملت المجاهر وتقدمت

(١) إنما كررت هذه الآية لأهميتها في تحقيق الموضوع.

الرياضيات العالية بما فيها (الميكانيـك الريـاضي) Mecanique Rationnelle اعترف العلم الحديث بحركة الشمس وقال: إنها تجري بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلو متر في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. أي أنها تقطع مع سياراتها المنجذبة اليها في الثانية ٢٠ كيلو متر ولذلك يتغير مدار الأرض من حين لآخر في الفضاء، والمحور هو الخط الواصل بين الشمس والنسر الواقع.

واعترف العلم الحديث أن ليس هناك شيء ساكن وأن الثوابت (من النجوم) بالرغم مما اصطلح عليه، متحركة وتتحرك في الفضاء بسرعة معينة. وأن سرعة البعض منها تبلغ مئات الكيلومترات في الثانية وان الكواكب لبعدها عنا لا نشاهد لها حركة ولكن الشكل الظاهري أو الصورة الظاهرية للسماء تتغير خلال كل مائة سنة. وهذا مما يدل على تأخر العلوم الطبيعية والرياضية عن الحقائق القرآنية.

فلا ينبغي أن يتسرع الشاب المتعلم في حكمه على الدين الاسـلامي بقوله: ان بينه وبين معطيات العلم الحديث تنافياً. ذلك لأن العلم الحديث ما هو إلا خصائص وقوانين أودعها الله في مخلوقاته في هذا العالم. وليس الدين إلا قوانين ونظماً أرسلها الله تعالى رحمة للعالمين. فالمنبع واحد والمبدأ واحد، ولا يعقل التنافي مع وحدة المنبع الفياض. ثم أنا إن شاهدنا بعض الاختلاف بين بعض المظاهر الطبيعية والحقائق الدينية ما علينا إلا أن نتهم المشتغل في علم الطبيعة في استنتاجه أو قلة عدد التجارب التي قام بها أو عدم الاحاطة بتمام الموضوع. ذلك لأن مشاهدة عدد قليل من النماذج في ظروف خاصة لا تعطي حكماً ثابتاً صحيحاً. فإذا كانت العلوم المستندة على الرياضيات تتغير وتفند من حين لآخر فكيف بالمشاهدات الطبيعية وما يستنتج عنها.

ولنعم ما ناقش به عالم ديني فيلسوفاً كان يخالفه في العقيدة والمبنى. كان يدعى هذا الفيلسوف: أنه نبي وأن كل ما يقوله وحيٌ يوحى إليه، وأن كل عالم أو فيلسوف نبي أيضاً وما يقوله وحي يوحى إليه!... فأجابه هذا العالم الديني قائلاً: إن كان كل ما تقوله أنت أيها الفيلسوف وحياً يوحى اليك، وإن

كل ما أقوله أنا أيضاً وحي يوحى إلي، والمبدأ واحد. إذن فماذا الاختلاف بيني وبينك؟ فلم يحر الفيلسوف جواباً.

ذلك لأن النفوس مختلفة. منها ما هي طاهرة بعيدة عن الخبائث والأدناس ومنها ما هي ملوثة بفسوق سابقة وملذات محرمة: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾. ولكل من هذه النفوس رشحات ومظاهر ومعطيات. فلا يترشح من الناس الخبيثة إلا الخبث والالحاد، ففلسفتها خبيثة مضلة، ولا يترشح من النفس الزكية إلا الخير والصلاح والهدى، ففلسفتها نقية هادية. لذلك أوجب العلماء العصمة للأنبياء (ص) وقالوا بوجوب عصمتهم وطهارتهم عن الذنوب صغائرها وكبائرها.

فالعلم الذي يوصل الانسان إلى المعارف الالهية ويؤدي إلى تكامله إلى حيث لا يعلمه إلا الله هو ذلك العلم الذي يصح أن يقال عنه أنه من الدين ومن مكملات الدين. فلا يرى العالم، الذي لم يدنس عقله بالموبقات والجرائم ولم يلوث الفطرة بالفسوق والكبائر، تنافياً بين العلم الصحيح (ذلك الذي قد خرج من مرحلة الظنون والشكوك) وبين الدين، بل يراه من الدين. لأنه يذكر الانسان بعظمة خالقه: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾. ﴿فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء﴾ ولا يقذف هذا النوع من العلم إلا في قلب أو نفس أخذت تتطهر بعبادات وأعمال صالحات وأخلاق اسلامية رفيعة وخشوع وخضوع لله تعالى وذكر الله بصورة دائمة، حتى صارت قمينة لافاضات ربانية ونفحات قدسية. وقد جاء في الحديث: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها». والنفحات هي الافاضات المعنوية. ونسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بتوفيق العبودية وإفاضات نخرج بها عن حضيض المادة إلى قدسية تجعلنا أهلاً لتقديسه وتسبيحه.

رأس الحكمة مخافة الله

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أهدى المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة تزيده هدى وترده عن ردى». أريد بمقالي هذا أن أزيل بفضل الله بعض الشبهات عن بعض الشبيبة المثقفة علهم يرجعون إلى تعاليم الدين الاسلامي فيعملون بموجبها حرفياً ولا يكتفون باسم الاسلام، فان «الاسم» لا يغني عن الواقع شيئاً.

عندما كنت في الجامعة اعترض أحد طلاب فرع الفلسفة على هذا الحديث: «رأس الحكمة مخافة الله». فقال: كان الأولى أن يقال: رأس الحكمة محبة الله. ولم يرده أحد. وقد فاته أن الحكمة ومعرفة أسرار الكون لا تتجلى إلا في قلوب قد طهرت وتزكت بترك المعاصي واجتناب المحرمات وبعبادات وأعمال صالحات. ولا تترك المعاصي ولا تجتنب المحرمات إلا بخوف الله تبارك وتعالى. لا تترك المعاصي إلا بوازع نفسي وهو خشية الله. فالنفس الملوثة بالذنوب والآثام، النفس المدلهمة بظلمات المعاصي والاجرام لا ترى إلى الحكمة سبيلاً ولا تفتح لها أبواب أسرار الكون. لقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه، انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً﴾.

فترون أن من ذكر بآيات ربه بعد إرسال الرسل سلام الله عليهم أجمعين، وأعرض عنها ولم يؤمن لما اقترفت يداه من الذنوب، تسد عليه أبواب الهداية وتغلق عليه أبواب الرحمة فيكون بينه وبين الحق حجاب حاجز يمنعه عن رؤية الحق فلا يرى الحق وينسى نفسه، وقد قال تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾. فلا يفكر في مصيرها وتهذيبها وتوجيهها إلى الغاية التي خلقت لأجلها، فيكون من الأخسرين أعمالاً. وقال تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾. فالله تبارك وتعالى يسد أبواب الحكمة على من أتم عليه

الحجة ولم ينتبه وتوغل في الذنوب وتدنس بالموبقات، بقوله: ﴿أنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾. أي أنا جعلنا على قلوب الذين عصوا الله ولم يتذكروا بما ذكرهم به أغطية وأستاراً تمنعهم عن أن يفقهوا الدين ويقفوا على أسرار الكون وحكمة الوجود. فيعترضون ويتذمرون وينكرون ويتفلسفون. وليس هذا الاعتراض والتذمر والانكار والتفلسف إلا رشحات نفس تلوثت بالذنوب ومظاهر قلب عمى عن رؤية الحق والواقع. فانه تعالى يقول: ﴿أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. وجاء في الحديث: ﴿إن أعمى العمى عمى القلوب﴾. ونستجير بالله من ذلك.

فلا يمكن أن تتجلى الحكمة في النفس الانسانية إلا إذا طهرت بالعبادة وترك المعاصي والتزكية والتجلية والتحلية. وهذه لا تحصل إلا بعد أن يخاف الانسان ربه ويخشاه فيؤاخذ نفسه على كل صغيرة وكبيرة، ويلومها ويؤنبها ويستغفر الله منها بأنواع الاستغفار.

إن الله تعالى يقسم بالنفس اللوامة تقديراً لها بقوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾. فإذا لام الانسان نفسه وكفر عن سيئاته أخذت نفسه تتزكى وتتطهر شيئاً فشيئاً بنتيجة خوفه من الله تبارك وتعالى، فتنفتح عليه إذ ذاك أبواب الحكمة وتطمئن نفسه وتحلُّ أمامه كل ما يختلج في نفسه من اعتراضات وتنقشع عنه الشكوك والريب والأوهام. إن الصادق (ع) يقول: «ليس العلم في السماء فتستنزلوه أو في الأرض فتستخرجوه، وإنما هو كامن في جبلتكم، تخلقوا بأخلاق الروحانيين يكشف لكم». ومن كان في نفسه شك فيما أقول فليعمد إلى التجربة. فان المريض بأمراض بدنية يطيع الطبيب فيما يقول ويعمل حسب وصفة الطبيب فيبرأ من مرضه. فمن كان يرتاب في ما أقول، فليدرس الدين الاسلامي ليقف على المناهي والمحرمات والمباحات، ليقف على الآداب الاسلامية. ليطلع على العبادات التي بها تزكو النفس، ثم يعمل مستعيناً بالله حسب علمه ليرى بعد زمن قليل كيف تتجلى في نفسه الحكمة وكيف يتقرب يوماً بعد يوم إلى الله تعالى وكيف يدخل في عالم جديد، عالم فرح واطمئنان، عالم كله نور وصفاء.

إن رسول الله (ص) قرأ على ثلة من الشبان سورة الزمر التي فيها:

﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين﴾. ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين. وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض تتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين﴾. فبكوا خوفاً من الله تبارك وتعالى، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. فلماذا نرى علماء لا يخشون الله تبارك وتعالى ويرتكبون أنواع المعاصي؟ نرى علماء في الرياضيات العالية، في الكيمياء العالية، في الفلك العالي، في الفيزياء العالية، في الفلسفة بأنواعها، في التأريخ والجغرافية وفي بقية العلوم يعصون الله تبارك وتعالى ولا يبالون فرحين، كأن ليس وراءهم حساب. فليس إذن مراد الله من كلمة (العلماء) هذا العلم المادي الذي يحصل بعملية تفكير تشبه عمل النجار الذي اعتادت يداه فن النجارة بنتيجة الممارسة والتمرين. وإنما مراد الله من هذا العلم: هو العلم الذي يحصل نتيجة خشية الله ونتيجة خوف الله تبارك وتعالى وأعمال تترتب على هذه الخشية وذاك الخوف. وهذا العلم هو الحكمة التي مدحها الله تعالى في قرآنه الكريم بقوله: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

وقد عرَّف الله الحكمة بقوله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة، أن أشكر الله﴾. فأعلى مراتب الحكمة شكر المنعم وهو بابها. وهذا الشكر يتجلى في جميع العبادات والأعمال الصالحة. فكلها مظهر من مظاهر الشكر، ولا يحصل ذلك إلا بعد خوف الباري جل جلاله. ومن ثم تتجلى الحكمة وتطمئن النفس. إذن «رأس الحكمة مخافة الله».

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾. (سورة النور: ٥٢). وفي موضع آخر: ﴿فذكر إن نفعت

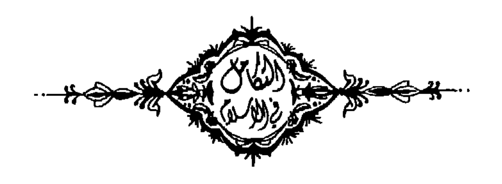
الذكرى، سيذكر من يخشى﴾. فعلق التنبه والهداية والاستبصار على الخوف والخشية بقوله: ﴿سيذكر من يخشى﴾. وهل الحكمة غير الهداية والاستبصار.

ويمدح الله في مكان آخر الذين يخشونه ويخافونه بقوله: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء العذاب﴾. ثم يبشرهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾.

وعن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا اسحاق خف الله كأنك تراه، وإن كنت لاتراه فأنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك».

وعنه عليه السلام، أن النبي (ص) قال: «يا أيها الناس، ان لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. ألا أن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده، ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار».

فمن أراد أن تفتح عليه أبواب الحكمة وأن يتفهم الدين تفهماً يؤدي به إلى تكميل نفسه ليكون بشراً على شكل ملك أو ملكاً بصورة انسان، فليس عليه إلا أن يخاف الله جل جلاله بترك المحرمات جميعاً وأن يكون مسلماً حقاً، عاملاً بكل ما يأمر به الدين المبين، دين العقل والتفكير الصحيح.



أثر الخشية في تكامل النفس

إن خشية الله جل وعلا هي خير صفة يتحلى بها الانسان فتصرفه عن الولوج فيما حرَّم الله تعالى. فهي رادع نفسي يمنع الفرد عن ميول النفس الأمارة بالسوء. وان هذا الرادع ليكون مع الانسان في خلواته وحيث لا يعلم بسرائره إلا الله. فهو يمنعه عن الموبقات والمدنسات وكل ما يؤدي إلى تسافل النفس.

إن الله تبارك وتعالى قد أودع هذه الخشية في الانسان بصورة فطرية بقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريقي الخير والشر، وقوله في سورة الشمس: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أي ألهم الله تعالى الانسان طرق الفجور وسبل التقوى.

وقد أتم الله تعالى على عباده الحجة بهذا الالهام وفتح لهم بعد ذلك باب الاستغفار والتوبة والانابة ليستغفروا ويتوبوا. ألا ترى أن الانسان عند محاولته أول كذبة أو أول افتراء أو أول سرقة أو أول ظلم أو أول دع لليتيم تشمئز روحه ويحتبس طبعه. فوازع باطني يلومه ومؤنب داخلي يؤنبه ويوبخه.

ثم انه إذا تمادى في الفجور والفسوق والمعاصي خفَّ أثر ذلك الوازع شيئاً فشيئاً حتى ينطفىء ويزول أثره. فيقسو القلب إذ ذاك وأعني به النفس الانسانية، فتكون كالحجارة أو أشد قسوة. ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله!﴾. وما قدمناه تفسير لقوله تعالى: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

قال آنس بن مالك: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال يا رسول الله، أشكو اليك قسوة قلبي، فقال له: ﴿اطلع إلى القبور واعتبر بيوم النشور﴾. لذلك يجب على المربين أن ينبهوا الطلاب منذ نعومة أظفارهم بعواقب المعاصي الوخيمة وأن يحذروهم عنها أيما تحذير. وأن يبينوا جسامة كل

من المعاصي عند الله والحدود التي قررها الله تعالى لكل من المعاصي والجرائم، لئلا يرتكبوا المعاصي أبداً. وأن يتجنبوا المعصية الأولى اجتناباً لا مزيد عليه. فأنها مفتاح المعاصي والسبب الرئيس للولوج في معاصي أخرى. يقول الله تبارك وتعالى في مدح الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين: ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيباً﴾.

فالخشية صفة الأنبياء عليهم السلام وبها امتازوا عن سائر الخلق، لأنها طريق الحكمة وطريق الوصول إلى الحق وإلى الكمال المنشود.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الزمر: ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾. فجعل الله تبارك وتعالى الخشية والحذر باب العلم بالحقائق بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. وأراد بالانسان أن يكون بين الخوف والرجاء. فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ويبعد الانسان عن المناهي والموبقات. فقد جاء في الحديث تنويهاً بالعبد الصالح: ﴿لو وزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما وإن عظم الخوف كان أدعى إلى السلام﴾[1].

وفي الحديث: «إن الله أنزل في بعض كتبه: ﴿وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة﴾. وقوله تعالى في امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾. وهي ذكر الآخرة.

وقال الله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾. فصفاء القلب وانابته وتزكيته تتوقف على الخشية. وقوله تعالى أيضاً: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فان الجنة هي المأوى﴾. فعلق كمال النفس والفوز بالجنة على مخافته تعالى. وقال سبحانه عن هابيل يروي قوله لأخيه:

---

(١) قد أكرر الآية أو الحديث لأهمية هناك أو مناسبة. ولا شك أن في هذا التكرار تأثيراً في النفس.

﴿أني أخاف الله رب العالمين﴾. وقال تعالى في مدح قوم: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾. وقال: ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ وقال: «وإياي فارهبون﴾. وقال أيضاً: ﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ .

وقال رجل لرسول الله (ص) في قوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ يعني بذلك: الرجل الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو خائف ؟ قال: لا، ولكن الرجل الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف أن لا يقبل منه . وقد جاء في الحديث: ﴿إياكم ومحقرات الذنوب، فان لها من الله طالباً، وانها لتجتمع على المرء فتهلكه﴾. وقال لقمان (ع) لابنه: «يا بني، خف الله خوفاً لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك».

وقال الصادق عليه السلام: «بينما كان رسول الله ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرائيل كئيباً حزيناً، فقال له رسول الله (ص): يا أخي جبرائيل، ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ جهنم اليوم. فقال: وما منافيخ جهنم؟ قال: ان الله أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت. فهي سوداء مظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الجبال لذابت من حرها، ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها. فبكى رسول الله (ص) وبكى جبرائيل (ع). فأوحى الله اليهما قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار، ولكن هكذا كونا».

وروي أن ابراهيم (ع) كان يسمع منه أزيزٌ كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره. وكان سيدنا رسول الله (ص) كذلك. وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام إذا قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» يتغير وجهه ويصفر لونه فيعرف ذلك في وجهه من خيفة الله تعالى. وقد اعتق الف مملوك من كد يمينه. وكان يغرس النخل ويبيعها ويشتري بثمنها العبيد ويعتقهم، ويعطيهم مع ذلك ما يغنيهم عن الناس. وأخبره بعض مواليه أنه

قد نبع في بستانه عين ينبع منها الماء مثل عنق البعير فقال: «بشر الوارث، بشر الوارث، بشر الوارث. ثم أحضر شهوداً فأشهدهم أنه وقفها في سبيل الله حتى يرث الأرض ومن عليها، وقال: إنما فعلت ذلك ليصرف الله عن وجهي النار».

وشاهد رجل علياً عليه السلام وهو يناجي ربه. وإذا به أضحى كالخشبة اليابسة. فجاء مسرعاً إلى بيت فاطمة عليها السلام يخبرها بأن بعلها قد مات. فقالت: في أية حالة رأيته؟ قال: رأيته يعبد ربه. قالت: انه يغمى عليه كل ليلة مرات من خشية الله تعالى.

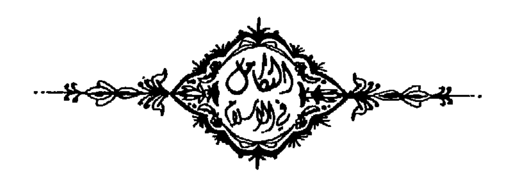
وجاء في الحديث: ﴿حرمت النار على عين بكت من خشية الله﴾. وعن أبي أمامة، قال: قال النبي (ص): «ما يقطر في الأرض قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل من خشية الله لا يرا أحد إلا الله عز وجل». وعنه عليه السلام: «إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها».

وإن فاطمة سلام اللهعليها أوصت بأن تدفن معها قارورة كانت تجمع فيها دموعها من خشية الله جوف الليل. وعن الصادق (ع) قال: حدثني أبي عن أبيه: «أن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم. وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها. وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عز وجل، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار».

كل ذلك مع عصمتهم وطهارتهم سلام الله عليهم بنص من الكتاب والسنة.

فنسأل الله تعالى توفيق الخشية والخيفة، واجتناب الآثام صغائرها وكبائرها، ونستعيذ به من الركون إلى الشهوات والأماني، فكم من أناس خرجوا من هذه الدنيا وهم يمنون أنفسهم بالاستغفار والانفاق في سبيل الله،

فلم تتح لهم الفرص وألهتهم شهواتهم، وأبعدتهم عن توفيق الملافاة والانابة معاصيهم وما اجترحت أيديهم، فذهبوا بلا زاد ولا عمل، فخسرت صفقتهم، فخسروا أنفسهم ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾. أنه تعالى يقول: ﴿والعصر ان الانسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.



قيمة البلايا في تكامل النفس

ما من شخص إلا ويصاب في حياته بنوع أو أنواع من البلايا والنوائب. يختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأفراد. فمنهم من يبتلى بين آن وآخر بضيق في العيش أو مرض بسيط لا يستغرق زمناً طويلاً، بينما نرى الآخر يبتلي طيلة حياته بمرض مزمن أو عاهة مزمنة أو فقر مدقع مستمر أو علة لا مفر منها. أو نراه مقعداً يتمنى المشي أو مصاباً بمرض في المعدة لا يقوى على الأكل كما يجب، ويتمنى لو أنفق نصف ماله فيأكل كما يأكل أحد عماله الذين لا يملكون إلا قوت يومهم.

نرى أشخاصاً يبتلون بأنواع من الأمراض في أواخر عمرهم وهم مترفون في أوائل حياتهم منعمون مع كمال الصحة.

نرى أشخاصاً بعكس ذلك مصابين بأنواع البلايا من فقر ومرض وغيرهما في أوائل حياتهم، مترفين منعمين في أواخر حياتهم الدنيوية مع صحة كاملة. وقد نسمع كثيراً من الشكاوى من الطبقة المريضة أو المبتلاة بالفقر. يقول بعضهم: لماذا فلان مع عدم قيامه بأمور خيرية وأكله أموال الناس منعم مرفه؟ لماذا فلان مع تقواه وورعه مبتلى بأنواع المرض والفقر؟ ما هذا الاختلاف؟ ألا يحب الله الصالحين من عباده فيبتليهم بأنواع الأسقام ومختلف النوائب؟.

ونسمع أيضاً بعض الشكاوى من الطبقة المنعمة لخسارة تصيبهم، أو فقدهم ولداً أو لطمعهم في مال أكثر.

وقد سمعت رجلاً متوسط الثقافة وقد علَّ، ينسب عدم التدبير إلى مدبر هذا الكون ويتهم العالم بعدم الانتظام والتبلبل!!.

وقد ينسب بعضهم الظلم إلى الباري وينفي عنه العدل والرحمة، نستجير بالله من ذلك. ولذلك ظهرت مذاهب فلسفية كمذهب التشاؤم ومذهب التفاؤل. فالفيلسوف المبتلي في حياته بأنواع البلايا والمحن يرى الدنيا كلها محناً ونوائب، والفيلسوف الذي عاش وديع الخاطر، مترفاً منعماً يرى الدنيا كلها

مسرات. فالأول متشائم والثاني متفائل. ولم تفسر لنا الفلسفة علل ذلك. إنما تعزو بعض الموفقيات إلى فعالية الانسان الشخصية لا سيما مذهب (Pragmatisme) . وهذا لا يحل لنا مسألة النوائب السماوية والأمراض والأسقام والأضرار غير المنتظرة مهما بذل الانسان كفاءته وجهوده في دفعها.

ولا شك أن السعي في أمور الدنيا يؤدي إلى نتيجة ملموسة وهذا معنى قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾. وان السعي في أمور الآخرة، من عبادات وأعمال صالحة نافعة وخدمة الغير قربة إلى الله تعالى يؤدي إلى نتيجة محمودة لقوله تعالى: ﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى﴾. (سورة النجم).

ولكن كيف تفسر هذه المحن والأمراض والنوائب. أو في استطاعة الانسان رفعه أو دفع كل ذلك؟ كلا. ولا مراء أن لا حقيقة بعد حقائق القرآن. وقد فسر لنا ربنا جل وعلا كل ما يختلج في صدورنا عن الجهل ويؤدي بنا إلى الاعتراض الواهي: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ (سورة الأنعام). ولكن لبعدنا عن تفهم القرآن والعمل بما فيه أصبحنا مجموعة شكوك واعتراضات واهية، فنسمي هذه الاعتراضات فلسفة وهذه الشكوك حكمة. مع أنه لا مجال إلى الشك والريب بعد تفهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

فهذا قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعاً بصيراً﴾. أي خلق الله الانسان للامتحان والاختبار. وكيف يكون هذا الاختبار؟ هذه اختبارات تختبر بها النفس ولا تشبه اختبارات الحوادث الفيزياوية أو الكيمياوية، وإنما هي امتحانات تتوجه إلى النفس مباشرة. فاما أن تتوفق فيها النفس فتتقبلها بصدر رحب وتعمل فيها حسب أمر الله تعالى، أو تراها ثقيلة فترفضها وتتبع شهواتها وميولها الجامحة الامارة بالسوء، أو تكون بين هذا وذاك، فتكتب له درجة في الكتاب الخاص بها حسب ما تقوم به من أعمال.

يُختبر الغني بالفقير: يأتي الفقير الغني فأما يستقبله هذا الغني استقبالاً شيقاً. استقبالاً فيه من البشر والحنان فيعطيه ما يغنيه، إن أمكن، أو يعطيه حسب وسعه، وأما أن يخفي نفسه في بيته فيقول لخادمه: قل لهذا الفقير العاجز: أني لست في البيت أو مسافر! فيرجع المسكين العاجز خائباً منكسراً يائساً من جود هذا الغني أو بالأحرى من عدم قيام هذا الغني بواجبه، غير يؤوس من رحمة الله تعالى. لذلك يجيب أصحاب الشمال عندما يسألهم أصحاب اليمين: ﴿ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾. فأنهم يذكرون عدم إطعامهم المسكين بعد عدم أدائهم الصلاة مباشرة. وهذا دليل على ما لإطعام المسكين في الاسلام، من أهمية فائقة. لذلك يقول الله تعالى في مقام آخر: ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾.

إن الله يمتحن الفقير بالصبر فإن لم ييأس من رحمة الله وصبر فقد فاز في هذا الامتحان العالمي. وإن تذمر وتضجر واعترض على حكمة الله وأساء الظن في جعله فقيراً بعد عن رحمة الله مع فقره ومسكنته. فالله يقول: كما في الحديث القدسي: ﴿إني عند حسن ظن عبدي﴾. وجاء في الحديث القدسي أيضاً: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك». يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾. فجعل علة الخلق: الابتلاء. أي أن الله إنما خلقنا ليبلونا ويمتحننا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وغيرها.

يكون الانسان في تمام الصحة فيأخذه الغرور ويمنّي نفسه طول العمر، فلا يسعى في تزكية نفسه وتطهيرها ويمني نفسه: انه سوف يكون انساناً صالحاً في أواخر أيام حياته. فالله يمرضه كي ينتبه ويعلم أن ليس هناك وقت معين للموت (كما يخمن الانسان)، فان صبر على ما يصيبه في مرضه وشكر الله على بلائه كان له، كما يقال: (أجر وعافية)، فيكون هذا المرض سبباً لتنبهه واستبصاره وسقوط شيء من ذنوبه السابقة. فقد جاء في الحديث: ان الله تعالى يقول:

«ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته في جسده. فان كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيقت عليه رزقه. فان كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا شددت عليه الموت حتى يأتيني ولا ذنب له ثم أدخله الجنة». «وما من عبد أريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه، فان كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا أمنت له من سلطانه. فان كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هونت عليه الموت حتى يأتيني ولا حسنة له، ثم أدخله النار».

وحاش الله أن يريد بعبد دخول النار إلا إذا أتم عليه الحجة مرات ومرات وتمادى في البغي والفجور والضلال وانقطع الاتصال ويئس من رحمة ربه ولم تفد فيه أية هداية وأية رحمة واستحق العقوبة فأصبح لا يطهره إلا النار. وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾.



أثر النوائب في تطهير النفس وتكاملها

يشكو كثير من الناس عندما تنتابهم النوائب وتكتنفهم المصائب. يشكون متذمرين غير شاكرين ولا صابرين. ذلك لأن حكمة النوائب والبلايا قد خفيت عليهم، ولو أنهم علموا أسباب ذلك لصبروا بل ولشكروا واستغفروا.

فلقد رأينا أحب الخلق إلى الله أنبياءه وأولياءه قد ابتلوا ببلايا جمة ومصائب عدة، لم يبتل بمثلها غيرهم وهم أعزاء الله وخيرة خلقه.

نرى كثيراً ممن أفسدوا في الأرض واستوجبوا سخط الله، مترفين منعمين لا يبتلون في حياتهم بما يبتلي به غيرهم من أصفياء الله وصالحي عباده.

ولو تتبعنا القرآن الكريم وتعمقنا فيه لعلمنا أن النوائب والمصائب، وان شئت فقل، ان الاختبارات والامتحانات تتوجه إلى كل نفس لا محالة لتبدي ما عليها من صبر وشكر واستغفار وعزم وتوكل وانفاق لجبران ما فات، أو لتظهر ما تحمل من غي وطيش وكبر وتذمر وكفر وجحود أي أما إلى تكامل أو إلى تسافل وتدهور ما بعده انحطاط. ان الله تعالى يقول: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

فان الاقرار بالايمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسي والبلوغ إلى حيث يشاء الله، أي في: «ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ولا بد من اجتياز امتحانات صعبة دقيقة أصعب بكثير من الامتحانات المدرسية مهما كان الموضوع صعباً والنجاح فيها عسيراً. كي يعلم الانسان حقيقة نفسه، حتى إذا عوقب بعد الموت أو قبل الموت اعترف بأنه إنما عوقب لسوء سريرته واتباع هوى نفسه وسقوطه في الامتحانات الالهية، تلك الامتحانات التي كان بامكانه أن ينجح فيها.

هذا رجل قد أنعم الله عليه بمال كثير، يأتيه جاره المسكين العاجز، فلا ترق له نفسه ولا يعطيه مما فرضه الله عليه، وهذا مريض بائس، قد أشرف

على الموت وهو طبيب ذو ثراء، فلا ينهض لمداواة أخيه المسلم ولا يعينه من فضول ماله، ألم يكن ذلك في امكانه؟ ما الذي منعه عن ذلك؟ أليست نفسه الأمارة بالسوء؟ ولو حكم عقله في وقت لا يغلب عليه هواه، في وقت أزيح عنه شيطانه، لعلم أنه خان نعماً أنعم الله بها عليه، بل خان نفسه وخسرها. فكان من الذين «خسروا أنفسهم».

إن الله تعالى يقول: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

فكما أن الانسان يُمتحن في حياته بالمال الكثير والعلم الغزير وأنواع الفنون والصنايع وملكات وقابليات ومواهب ونبوغ واستعداد فائق وأمثال ذلك من أنواع الكمال والجمال، يُمتحن أيضاً بكل ما يؤدي إلى الخوف والجوع والفقر وفقد الأولاد والأعزة وقلة الثمرات، ليؤدي امتحانه بالصبر على كل ذلك.

فبالصبر يبرز الإيمان العملي، الايمان الفعلي، كما أن بالنطق يظهر الإيمان القولي، وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿أحسبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟﴾. لأن مجرد القول بالايمان لا يظهر حقيقة الإيمان، ولكن الصبر وتفويض الأمر إلى الله وتطمين النفس بنعيم الآخرة والرجوع إلى الله هو الذي يظهر إيمان الشخص الفعلي الواقعي. لأن حقيقة الإيمان تتجلى بالاعتقاد بالبعث والحياة الآخرة والثواب والعقاب. فمن زاد إيمانه بالبعث والحياة الآخرة قوي على الصبر. فكأن معيار الايمان الحقيقي هو الصبر على النوائب والمصائب على أنواعها. لذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون﴾. ثم أعقبه بمنزلتهم العظيمة ويا لها من منزلة بقوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

نعم: «إن عظيم الأجر مع عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم» ـ كما جاء في الحديث.

فالنوائب والمصائب إنما هي بمثابة الأعمال الكيمياوية التي تجري على قطعة من المعادن المختلفة لاستخراج الذهب الخالص منها، فان الانسان تجري عليه أنواع الامتحانات حسب منزلته ولياقته ليخرج إن كان مؤمناً حقاً من هذه الدنيا بالذهب الخالص. ولنعم ما قال الشاعر: عليٌّ الدر والذهب المصفى.

وعن أبي عبد الله (ع): «أربع لا يخلو منهن المؤمن أو واحدة منهن: مؤمن يحسده، وهو أشدهن عليه، ومنافق يقفو أثره، وعدو يجاهده، وشيطان يغويه».

هذه هي سنة الله في الأولين والآخرين، ان الله تعالى يقول: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾.

تتبعوا أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأحوال الأئمة الأطهار عليهم السلام وأحوال المؤمنين، ثروا أن أقربهم إلى الله كان أشدهم ابتلاء وأكثرهم غرضاً لسهام المنافقين والأعداء. وهم على حسب مراتبهم يتفاوتون في درجات الصبر، وإن نبينا محمد (ص) وهو سيد المرسلين كان أكثر الأنبياء ابتلاءاً. لذلك قال صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين: «ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت».

وممن صبر على المصيبة صبراً لا يقوى عليه غيره، صبراً يتجلى فيه الاباء والبطولة الخالدة: الحسين (ع). وهو القائل: «رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين». ويقول (ع) في مكان آخر مخاطباً رب العباد: «رضى بقضائك لا معبود سواك». فوليٌّ الله جعل دائماً غرضاً لعدو الله، فقد قال أبو عبد الله (ع): «ان الله جعل وليه في الدنيا غرضاً لعدوه».

إن البلايا لتختلف شدة وضعفاً، كما أسلفنا، حسب قابلية الممتحن واستعداده. وهذا من عظيم لطف الله وجزيل سيبه. فلا يمتحن المؤمن كما يمتحن النبي أو الوصي. لذلك يقول لنا أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: «أشد الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل». ولذلك يقول

رسول الله (ص) لسبطه الحسين (ع): «يا بني، أخرج إلى العراق، شاء الله أن يراك قتيلاً وأهل بيتك سبايا، وان لك درجة لن تبلغها إلا بالشهادة». نعم، «إن المؤمن بمنزلة كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عز وجل ولا خطيئة له». كما يحدثنا موسى بن جعفر (ع).

وإن درجة الايمان تتناسب مع تحمل عظيم البلاء، فان الانسان قد يعرض عليه المال الكثير من مورد مشكوك أو محرم أو تعرض عليه رئاسة فيها هتك حرمات الله والتصدي إلى أنواع الجور والظلم فقلَّ من ينجح في هذين الامتحانين بترك المال لحرمته والرضا بالفقر والمسكنة، أو رفض الرئاسة والعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾.

فالتقوى: أن ترى وجه الحيلة ويصدك عن ارتكابها خوف الله. لذلك يقول الحسين (ع) في كلمته الخالدة: «الناس عبيدُ الدنيا والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون».



أثر الصوم في تكامل النفس

الانسان في طريقه إلى التكامل يحتاج إلى ما يطهر نفسه ويزكيها فيخرجه من ماديته الحالكة إلى معنوية وضاءة تؤدي به إلى التقرب إلى الله تعالى وإلى حلول حب الله، جل وعلا، في نفسه. ولا يحلُّ هذا الحب العظيم إلا في نفس لها من الكمال نصيب، ولا كمال إلا بما يبعد الانسان عن أدران المادة.

فالصوم عدا ما فيه من معنوية ذاتية، لو قصد به التقرب إلى الله تعالى، تقرباً لا شائبة فيه وأريد به إطاعة الله وابتغاء مرضاته، يذيب المادية التي تعارض معنوية النفس وسير تقدمها نحو الكمال المنشود. لذلك كان من المستحب أن يصوم الانسان يوماً في أول الشهر ويوماً في وسطه ويوماً في آخره، وثواب ذلك ثواب من صام الشهر كله. فهو بعمله هذا يذيب المادية ويدخل في عالم قدسي فيه حب الخالق جل شأنه والتفكر في عظمته وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها وزبرجها.

فإن تكامل الانسان إنما يتناسب مع درجة تفكره في الآخرة وعدم رغبته في الدنيا. ان الله تعالى يقول: ﴿من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾. (سورة هود: ١٥ و١٦).

وإن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «صوموا تصحُّوا» يشمل الصحة في النفس والصحة في البدن، ولا ريب أن صحة النفس هي الغاية القصوى التي يجب على الانسان أن يسعى لتحقيقها، ولا تصحُّ هذه النفس إلا إذا سلمت من أسر الهوى والشهوات. إذ ذاك يعمل عقله الفطري فيصدق بما أنزل على محمد (ص). يقول علي (ع): «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى»، وإن الصوم خير قامع لهوى النفس والأهواء الفاسدة.

لذلك جاء في الحديث: ﴿خصاء أمتي الصوم﴾. أي أن الصوم خير قامع للشهوات، فلو تعوَّد الشاب في عنفوان شبابه أن يصوم أكثر أيامه، فانه لا يتصدى إلى ما حرم الله تعالى من أعمال قبيحة وفعال شنيعة وينتظر حتى يرزقه الله تعالى زوجة صالحة. فيكون ملكاً على شكل انسان، فيه من الروحانية وصفاء النفس ما لا يوصف. ومن كان غير مصدق فليجرب، فالتجربة سند العلوم الحديثة ومدارها.

ومما لا مراء فيه أن الانسان لم يؤت به إلى هذه الدنيا بهذه الصورة التي يولد إلا ليتكامل. ذلك لأنه ناقص حين يولد. والله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فوجب على الانسان أن يتكامل لا محالة، فان أبى فمصيره النار ليطهر فيها. فإذا تكامل كان أهلاً ليخلد في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين﴾ ولذلك يقول الله تعالى في كتابه المجيد، حين يتساهل مع من لا يقوى على الصوم إلا بمشقة لا تكاد تطاق بقوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾. ذلك لأن ما يستفيده هذا البشر (رغم تحمله مشقة كبيرة) من المعنوية الفائقة والفوز بمعرفة الله تعالى هو أضعاف هذا العناء. فليس للبشر إلا أن يتبع ما سنه الله لتكميله على لسان أنبيائه (ع)، ان أراد الفوز والنجاح في دوره التكاملي، وإلا كان من الأخسرين أعمالاً وممن خسروا أنفسهم، على حد قوله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

ولا ريب أن الشيطان هذا الذي يرانا ولا نراه (وكم من أشياء لا نراها وهي ترانا) هو عدوُّ الانسان اللدود. يقول الله جلَّ وعلا: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾، (سورة فاطر: ٦). ولولا إتباعنا إياه وإطاعتنا له لعرجنا في ساحات القدس.

على أن ليس للشيطان أية سلطة علينا أو نفوذ، على حد قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من إتبعك من الغاوين﴾. (سورة الحجر). وقوله تعالى أيضاً: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾. (النحل: ٩٨ ـ ١٠٠).

فلا سلطان ولا سيطرة للشيطان على الانسان، خلافاً لما يقوله بعض من يريد تبرير موقفه عند ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات. إنما الشيطان يدعونا فحسب ولا يتعدى أمره (الدعوة). فما علينا إلا أن لا نلبي دعوته. وإن الشيطان ليعترف يوم القيامة قائلاً: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾. (سورة ابراهيم: ٢٢). وقد جاء في الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السموات».

إن الشيطان يدخل فينا كالأشعة السينية (Rayons x) وقد جاء في الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش».

إن أول من ظفر بأن في الفضاء أمواجاً كهربائية ـ مغناطيسية تشبه أمواج الضوء المرئي في خواصها وقوانينها هو (جيمز). أنه أثبت بمعادلات رياضية وجود هذه الأمواج في الجو. وما كان ليصدقه أحد لأن غيره ما كان يرى ما يراه (جيمز) بعقله! فان ما لا يرى بالعين المجردة أكثر مما يرى بها وهو موجود. وان الموجات التي لا ترى بالعين أكثر فعالية وتأثيراً مما يرى بالعين. فالكهرباء أكثر فعالية من الخشبة، والشمس أكثر فعالية من الكهرباء، والعقل أكثر فعالية من النفس وهكذا. فكلما كان الشيء دقيقاً لا تراه العيون (المحدودة في قابلياتها) كان أكثر تأثيراً وهيمنة. وكلما كان إلى المادية والتجسم أقرب كان محكوماً لما هو أدق منه خلافاً لما يهذي الماديُّ الطائش.

إن الشيطان موجود كوجود النفس والعقل والجن والأمواج الهرتزية، وهو يرانا من حيث لا نراه، فالله تعالى يقول: ﴿أنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾. وفي آية أخرى يقول الشيطان: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

فالشيطان يدخل في جوف الانسان من طرق شتى ويقوم بمحاكمة مع العقل الانساني. أرأيت أنك إذا أردت أن تعطي مسكيناً عشرة دنانير وأنت

لك حاجة كمالية يمكنك أن تستغني عنها، كيف يحدث بينك وبين ناطق في خلدك محاكمات ونقاش، أنت تريد العطاء وهو يسول لك الدنيا ويزينها ويعدُّ لك حاجات عدة. يدعوك إلى أن تعدها من الواجبات، فتنصرف عن هذا العطاء الذي يقربك إلى الله ويزكي بدنك ومالك ونفسك. هذا الناطق هو الشيطان...

أرأيت إذا كان وقت السحر (قبل طلوع الفجر) وأردت النهوض إلى صلاة الليل والتهجد بين يدي رب العباد، تأخذ بنفسك لتعرج بها إلى الملكوت الأعلى، كيف يخدعك ناطق في جوفك قائلاً: أنك متعب، فنم هُنيهة، النوم عافية، ولا بد لك من أن تحافظ على صحة بدنك فانك إذا قمت إلى صلاة الليل لا تقوى على انجاز الأعمال التجارية في النهار، فتكون متعباً... إلى ما هنالك، حتى جعلك تنام وتندم في آخر ساعة حياتك على ضياع عمرك وعدم زرعك في دنياك ما تحصده: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، الا من أتى الله بقلب سليم﴾. ذلك لأن ﴿الدنيا مزرعة الآخرة﴾ كما جاء في الحديث. ولا ريب أن القلب لا يكون سليماً إلا بأعمال يتعلمها الانسان من خاتم النبيين محمد وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ويعمل بها باخلاص ولوجه الله الكريم.

فلو تمكن الانسان أن يسيطر على هذا العنصر الذي لا يراه بباصرته (هذه الباصرة التي تبصر إلى مسافة محدودة وأجساماً معينة في الصغر ولا تتعداها) وأعني به الشيطان، لولج في عالم من المعنوية والقدسية فيه من السرور ما لا يوصف، ومن الحبور ما لا يحد. ولا تتحقق له هذه السيطرة إلا بما يخفف وطأة المادة في بدنه ومنه الصوم والصلاة وكل ما يؤدي إلى تخفيف الذنوب وتكفيرها ومحوها. لذلك جاء في الحديث: «الصلاة صابون الخطايا».

واني أذكر فقرة من دعاء يقرأ كل يوم من أيام شهر رمضان يتعوذ فيه المؤمن بالله من عدوه الشيطان لأهميته: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وأعذني فيه من الشيطان الرجيم وهمزه ولمزه ونفثه ونفخه ووسوسته وتثبيطه

كيده ومكره وحبائله وخدعه وأمانيه وغروره وفتنته وشركه وأحزابه وأتباعه أشياعه وأوليائه وشركائه وجميع مكائده».

تتكامل النفس الانسانية بمقدار ما تذوب فيها المادية وتقتلع عنها لصفات الرذيلة والأخلاق الذميمة، فمعالجة النفس غير معالجة البدن ولها طرق خاصة ومن أهمها الصوم. فله أثر فعال في تكامل النفس.

أنظروا إلى بعض ما جاء في دعاء اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك. انه معالجة للروح والنفس والقلب. فان القلوب مريضة ومعالجتها لا تكون إلا بما يناسبها. ولا يعلم طرق هذه المعالجة إلا أطباء الأرواح وهم الأنبياء والأوصياء من بعدهم سلام الله عليهم أجمعين بما أوحى أو ألهم اليهم من جانب الله تعالى.

يقول الصائم وهو خاشع ذليل بين يدي ربه في اليوم الخامس من شهر الغفران: «أللهم صلِّ على محمد وآل محمد وانزع ما في قلبي من حسد أو غل أو غش أو فسق أو فرح أو مرح أو بطر أو أشر أو خيلاء أو شك أو ريبة أو نفاق أو شقاق أو غفلة أو قطيعة أو جفاء أو ما تكرهه مما هو في قلبي». إلى أن يقول: «أللهم أرزقني سلامة الصدر وانفتاحه إلى ما تحب وترضى، ونور القلب وتفهمه لما تحب وترضى، وضياء القلب وتوقده في ما تحب وترضى، وحسن القلب وإيمانه بما تحب وترضى. يا من بيده صلاح القلب، أصلح لي. يا من بيده سلامة القلب، فاجعله سالماً لي».

عندما كنت أدرس في الجامعة حاولت أن أحقق أول مادة من هذا الدعاء وهو قلع (الحسد) عن نفسي. فصرت أترجم بعض المسائل الصعبة من كتب مهمة أخرى وأقدمها قبل أن أحلها إلى من كان ينافسني في الصف، وأقدم له الحل إن تعسر عليه، ولا أضنُّ عليه بشيء مما أعلم أو أوفق إلى حله بلطفه تعالى.

إن الصوم والدعاء (والجوف في معزل عن المادة) وما يقوم به المؤمن في ليالي القدر، خير وسيلة لتعمير القلب وإصلاح النفس حتى تصبح

النفس مصداق هذا الحديث: «من سرّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن».

فكما أن لضغط الجو مقياساً (بارومتر) ولحرارة الجو مقياساً (ترمومتر) كذلك لدرجات سمو النفس وتكاملها مقياس بل مقاييس. من تلك المقاييس: الحديث المتقدم. ومنها مفاد هذه الآية الشريفة: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾.

فالوجل والخوف من الله تعالى عند ذكره وانهمال الدموع عند سماع آي الذكر الحكيم من علائم الايمان. ان الله تعالى يقول (عندما يمتدح خواص عباده: الأنبياء عليهم السلام): ﴿وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً﴾.

أتذكر ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك، كنت في روضة علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام بعد منتصف الليل. وكان بجنبي رجل يقرأ دعاء (أبي حمزة الثمالي) من أدعية السحر. رأيته يبكي بكاء الثكلى حتى ابتلت لحيته. وكان يعلوه من الانكسار والخنوع والانقطاع والابتهال ما لا يوصف. ولا يعلم قيمة ذلك إلا من علم ما عليه نفسه من ذنوب وآثام ومعاصي وخطايا وهو نادم عليها. ذنوب احتطبها على ظهره، فأثقلت كاهله.

والانسان ليشعر برفع هذا الثقل عن كاهله إذا ناجى ربه وذرفت عيناه بالدموع. لا سيما إذا قرأ دعاء السحر (دعاء أبي حمزة الثمالي) وخشع في دعائه وجرت دموعه على خديه. أنه ليشعر بعد الانتهاء من الدعاء كيف تخفّ نفسه، كأنه قد وضع حملاً ثقيلاً عن كاهله، وكيف يعلوها سرور وابتهاج بصورة لا شعورية. فان من علائم الايمان دمعة الفرح والانجذاب إلى آيات الله، دمعة هي أمارة التسليم والانقطاع. ان الله تعالى يقول: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. (سورة المائدة: ٨٣).

إن القلب ليصدأ إن لم يبك الفرد على ذنوبه أو حباً لله تعالى. وان صدأ القلب أمر معنوي، وإزالته لا تكون إلا بشكل معنوي، والبكاء أمارة هذا الانقلاب المعنوي. ثم أن الدمعة على ما ثبت في الطب الحديث تدفع مئآت الأمراض عن البدن.

ومما لا ريب فيه أن الله لو أراد أن يهدي عبداً (حين يتوجه إليه العبد مكفراً عن ذنوبه) وأحب أن يغفر له جعله يبكي على ذنوبه جوف الليل وأوقات العبادة. وهذا من علائم التقرب اليه تعالى.

تلا رسول الله (ص) على ثلة من الشبان آياً من سورة الزمر: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا. قالوا بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين. وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾. فبكوا وفاضت عيونهم بالدموع، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً علياً عليه الصلاة والسلام: «يا علي، كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غضّت عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله». ومن جرب القسم الأخير شعر بما يعلوه من سرور وحبور نزيهين طاهرين لا يضاهيهما أي سرور.

يقول الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين حين تتلى عليهم آياته: ﴿ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾. فهذه الدموع في شهر رمضان المبارك عند تلاوة القرآن وقراءة أدعية النهار وأدعية الليل وأدعية السحر وفي صلاة الليل ولا سيما في ركعة الوتر تذيب المادية المتأصلة في النفوس وتزيل الأدران والأرجاس وذمائم الأخلاق فيرى الانسان نفسه، بعد ذلك، في عالم من القدسية جديد. تصفو النفس بهذه الدموع، فإذا صفت رشحت

عليها المعارف الالهية من عالم القدس، فتزداد معرفة بالله تعالى وهي غاية الغايات. فغاية ما يتكامل به الانسان أن يزداد معرفة بالله تعالى، أي أن تكامل الانسان يتناسب طردياً مع درجة معرفته بالله تعالى. فكلما كانت معرفته بالله تعالى أكثر كان سائراً في مدارج الكمال أكثر فأكثر. وان شهر رمضان المبارك يهيىء الوسائل التي تصفو بها النفس لتنال نصيبها من الكمال ومن المعارف الالهية.

وفي الحديث: «أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى، وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة». وفي حديث آخر: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب. فان القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء».

نعم، ان المعارف الالهية لا تحصل إلا إذا أذيبت المادية في الانسان كما جاء في الحديث. فإذا ذابت المادية بالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانفاق والايثار ومجاهدة النفس والأعمال الصالحة إزداد الانسان معرفة بالله وأفيضت عليه المعارف الالهية، فان الصادق سلام الله عليه يقول: «ليس العلم بالتعلم. إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه. فإذا أردت العلم، فاطلب أولاً في نفسك العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك».

فالعبودية أساس العلم ومقدمة للافاضات الربانية والمعارف الالهية. وان الصوم من أجلى مظاهر العبودية، وخير وسيلة لتكامل النفس الانسانية.

أثر الحج في تكامل النفس

نرى جميع ما حوالينا من حيوان ونبات وجماد في غاية الكمال. أي أن العالم المادي بما أودع الله تعالى فيه من دساتير دقيقة وخواص متعددة وقابليات خطيرة قد بلغ الغاية من الكمال. وأن أجزاءه مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بدساتير رياضية رصينة، مما يدل على أن الكمال قد بلغ منتهاه فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

وإن العلم الحاضر لم يكتشف عشر معشار ما أودعه الله تعالى من قوانين وخواص في هذا الكون المادي. وإنما قلت (الكون المادي)، ذلك لأن العلم الحاضر علم مادي بجميع شراشره. لا يعمل إلا في المادة ولا يقف إلا على جزء ضئيل مما أودع الله تعالى من خواص ومعادلات لقوانين تربط عوالم المادة بعضها ببعض.

على أن ما ظفر به المتتبعون والمجربون (بفضل الله تعالى) من بعض الدساتير والخواص المودعة في هذا الكونَ بأمره تعالى، لا يزال في حضيض لا يتناهى (الأصغر غير المتناهى). وسيبقى كذلك أبد الآبدين. ذلك لأن علم الله لا يتناهى، ونسبة المحدود إلى غير المحدود صفر: ($\frac{ب}{\infty}$ = ٠). إن الله تعالى يقول: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

والعالم الحقيقي، كلما فتح الله باباً من أبواب معرفة الحقائق المادية اعترف بعظم جهله وأنه في اللانهاية من مراتب الجهل. ولا يأتي الغرور إلا من ناحية الجهل. ان الانسان مركب من روح وجسم، فجسمه في غاية الكمال ولكن الانسان ليس بجسم فحسب، بل ليس من الجسم في شيء. انه انسان بروحه ونفسه وهو مخلوق الله الكامل على الاطلاق. والكامل (وهو الله تعالى) لا يصدر منه إلا الكمال. ولذلك تفضل الله على الانسان بغية تكميل نفسه

الناقصة، تكميلاً يناسبها، بأنبياء (ص) ومن بعدهم بأوصياء (ع) يهدونه سواء السبيل ويتصدون لتكميل نفوس البشر وابلاغها إلى حيث يشاء الله تعالى من مراتب الكمال. ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

فالغاية الحقيقية من خلق الانسان: هو أن يعرف الله تبارك وتعالى وأن يزداد معرفة به تعالى بتزكية نفسه. ذلك لأن حب الله ومعرفة الله لا يحلان نفوساً مدلهمة حالكة بذنوب وأخلاق ذميمة وفسق وفجور. فوجب تطهيرها وتزكيتها. ولا تزكو إلا بالعبادة وأعمال صالحة. والأعمال الصالحة هي نوع من أنواع العبادة إذا كانت لوجه الله وطلباً لمرضاة الله.

إننا خلقنا لمعرفة الله تعالى كما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف». والعبادة باب معرفة الله تعالى ولا تحصل هذه الغاية الرئيسية من خلق الانسان (وهي معرفة الله) تعالى إلا بالعبادة. قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾ فهم إذا عبدوا الله فتحت عليهم أبواب المعارف الآلهية، وازدادوا معرفة بالله تعالى كلما ازدادوا اهتماماً بالعبادة باخلاص، دونما رياء أو حب لجاه أو طلب للرئاسة.

ومن جملة تلك العبادات المطهرة للنفوس والفاتحة على الانسان أبواب المعارف الالهية: الحج. ولا مراء أن المال يقسي القلب ويؤدي إلى شيء من الغرور والكبرياء ويبعد الانسان ـ بما يترشح منه من ذمائم الأخلاق ـ عن الله تعالى: ﴿ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾. وقد جاء في الحديث القدسي: ﴿وان من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك﴾، فوجب ملافاة ذلك، لئلا توصد على الثري أبواب المعرفة. فشرع الشارع الزكاة والخمس والزكاة المندوبة والصدقات، وأوجب أمراً عبادياً فرضه على أولي الاستطاعة تفضلاً منه عليهم. حتى لا يكون هذا المال حجر عثرة في طريق تقدمهم في مجالات المعارف الالهية الواسعة التي لا تتناهى. فهيأ لهم في بيته الحرام موقف تذرف فيها دموعهم وتخشع فيها قلوبهم وتلطف بها نفوسهم. يشاهدون المقامات القدسية ويتقربون فيها إلى ربهم مخبتين، فلا يبقى حاجب يحجبهم عن الله تعالى لقدسية تلك المواقف. فيذكرون ذنوبهم ثم يبكون عليها

ندماً وحزناً منيبين خاضعين. وان لكل عمل في الحج أثراً في تكميل النفس الانسانية والتساوي بين الوضيع والشريف. فليس هناك اعتبارات دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان. ذلك لأن الله تعالى قد جعل المفاضلة بين الناس بالتقوى فحسب، أي بحسب سمو نفوسهم في حقول التزكية ومجالات التصفية، لقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، على أن في الحج فوائد اجتماعية أيضاً لا تعد ولا تحصى لو استفاد منها المسلمون.

وقد جعل الله المقامات التي يتقرب فيها اليه في مثل مكة وجبالها القاحلة الجرداء لينصرف العبد إلى عبادته، لا يلهيه الشيطان بزخارف الدنيا وجمالها الخداع، لذلك يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام:

«ألا ترى أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر. فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل تتألق الأرض مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشلة (أي قليلة الماء) وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه. فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم. تهوى اليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة. حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له: قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا باعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً. جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته. لو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار، جم الأشجار داني الثمار ملتف البنى متصل القوى، بين بره سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء ولو كان الأساس المحمول عليها والأشجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة ابليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس (أي زال الريب والشك من

صدور الناس). ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم واسكاناً للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه».

فلا بيان بعد هذا البيان، فلقد أوضح صلوات الله عليه علة التكليف وحكمة الحج بأبلغ تبيان. فعباد الله الصالحون كانوا، طمعاً في الثواب الجزيل ومزيداً للخشوع والخضوع، يحجون ماشين على أقدامهم أذلاء صاغرين وان الحسن عليه السلام كان يقول: «أني لأستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته». فمشى عشرين مرة من المدينة إلى مكة على رجليه، وان النجائب لتقاد معه.

فالله تبارك وتعالى قد أوجب الحج على المستطيعين من عباده بقوله: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً، ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾. فالمتخلف عن الحج مع الاستطاعة كافر، لأنه لم يشكر ربه على ما تفضل عليه من نعم وقد مكن له أن يحج بيته الحرام ليزداد تقرباً إليه ومعرفة به. فقد جاء في خبر عن الصادق عليه السلام في تفسير: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ ذاك الذي يسوف الحج أي (حجة الاسلام) حتى يأتيه الموت. وعنه عليه السلام: «من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

وعن الصادق (ع): «من مات ولم يحج حجة الاسلام، ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه، فليمت يهودياً أو نصرانياً». وقد بنى الاسلام على خمس: الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية.

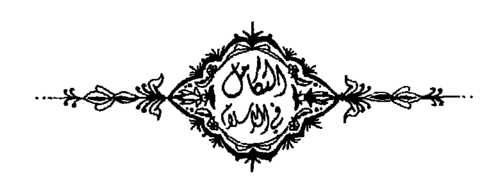
فالحج عظيم فضله، خطير أجره، جزيل ثوابه، جليل جزاؤه. وكفاه ما تضمنه من وفود العبد على سيده ونزوله في بيته ومحل ضيافته وأمنه وعلى الكريم أكرام ضيفه وإجارة الملتجيء إلى بيته. فعن الصادق (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وان دعوه أجابهم، وان شفعوا شفعهم، وان سكتوا بدأهم، ويعوضون بالدرهم ألف ألف درهم» وإن من الذنوب ما لا يكفره إلا الوقوف بعرفة، كما جاء في الحديث.

وقال النبي (ص) لرجل فاته الحج والتمس منه ما به ينال أجره: «لو أن أبا قبيس لك ذهبة حمراء فانفقته في سبيل الله تعالى ما بلغت ما يبلغ الحاج».

وقال: «إن الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات، وإذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه، قال: فعد رسول الله (ص) كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرجَ من ذنوبه. ثم قال: أنى لك أن تبلغ الحاج؟».

ويكره ترك الحج للموسر في كل خمس سنين.

فترون: كيف يتكامل الانسان لما يراه من مواقف قدسية تذهب عنه الذنوب وتطهر النفوس عندما يوفق إلى حج بيت الله. فان هذه المواقف وما يقرأ فيها من أدعية وما يقوم به الحاج من أعمال تذيب المادية التي تصيب الثري من جراء المادة. فما على الحاج إلا أن يحتفظ بهذا الصفاء الذي منَّ الله به عليه في بيته، فلا يلوث نفسه بآثام جديدة، ليذهب من هذه الدنيا إلى حيث الخلود نقي الثوب طاهر الضمير.



كل منا ممتحن لا محالة

يقول الله جل شأنه: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾. فاللام في (ولنبلونكم) للقسم والنون المشددة للتوكيد ومعنى ذلك: إن الله تعالى بصورة حتمية وقطعية يختبر كل فرد، على اختلاف الطبقات: بالطاعة والصبر على الفقر والسقم وفقد الأولاد والأرحام وبأنواع البلايا والمنايا والحوادث المحزنة والمفرحة والرخاء والشدة إلى ما هنالك. كي يتضح لدى شخص الانسان مبلغ جهاده مع نفسه الامارة بالسوء وعدم إطاعته لها وعدم طغيانها في السراء وعدم الجزع في الضراء.

وهذا الجهاد هو الجهاد الأكبر. وان هذا الجهاد على ما نرى لأصعب بكثير من حل أغمض مسألة في التحليل الرياضي Analyse Mathematique أو الفيزياء العالية. ذلك لأن الذي أوتي موهبة فائقة قد يتمكن بتلك الموهبة وبتمارين متتابعة وجد متواصل من حل تلك المسألة الصعبة، ولكن هذا الشخص نفسه لا يقوى على كبح الشهوات إلا بنفس لها من الجلد والعزم وخوف الله تعالى والتقوى الشيء الكثير. لذلك من السهل جداً أن يبلغ الانسان مرتبة (الدكتورا: Doctorat) إذا أتيحت له الفرص (لا سيما في العلوم الاجتماعية) أو يكون عالماً في فرع من الفروع. ومن الصعب جداً أن يكون انساناً كاملاً.

وكم رأينا من علماء متضلعين فيما اختصوا فيه، مغلوبين تجاه شهواتهم، مستضعفين أمام ميولهم.

قد عرفت أستاذاً (شيخاً للمدرسين: Doyen) في إحدى الجامعات كان يدرس الفيزياء الرياضية العالية. وكان قد ألف ثلاثة مجلدات عن ما دوّنه المسلمون في القرنين الثالث والرابع الهجري في الرياضيات.

فاستأذنت منه الولايات المتحدة (في أمريكا) لتقوم بترجمة ما ألف تجاه مبلغ جسيم. فأذن واستلم المبلغ. فلم يشاهد هذا الأستاذ بعد استلامه المبلغ

إلا بعد انتهاء العطلة وهو مبتلي في عقله! فجاء إلى الجامعة ليدرس الفيزياء الرياضية في الصف الذي كان يدرس فيه. وإذا به يقول: أريد أن أدرسكم اليوم (التاريخ)! ويخاطب أحد طلابه فيشتبه فيه ويظنه غيره. وإذا به مجنون! يحمل إلى دار المجانين ويموت هناك وهو مجنون. ذلك لأنه بعد استلامه المبلغ أزاء جهوده ذهب مباشرة إلى دور البغاء والعواهر وابتلى بمرض الزهري (Syphilis) وإن مكروب هذا المرض يهجم على أضعف عضو في الشخص، فهجم على مخه وأدى به إلى الجنون.

فلو كانت الاتمامات(Types) الصعبة التي لا تنطبق على ما دون من نماذج: (Integrations) تكفي لردعه عن المدنسات وعما حرّم الله تعالى لما ابتلى بالجنون.

فالشيطان لا يخشى شيخ الأساتذة في الجامعة ولا من حمل لقب (الدكتورا: (Doctorat ، سواء كان قد حملها بحق أو بغير حق، وسواء ثابر بعد حمله هذا اللقب على التتبع أو اكتفى باللقب فحسب، وسواء بلغ من التتبع درجة يحق له أن يحمل لقب (الدكتورا) ولكن الظروف لم تساعده لعرض آثاره على جامعة من الجامعات، أو لم يبلغ.

إن الشيطان ليهجم على النفس الانسانية مهما كان نوعها. فيدعوها إلى ما يدنسها ويرديها. وان العلم حديثه وقديمه ليس بالشيء الذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان. ذلك لأن (العلم) عملية فكرية وليس بعملية نفسية.

فالذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان، إنما هو خشية الله وخوف الله إنما هو العبادات وعلى رأسها الصلاة المقبولة: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ صلاة فيها خشوع وخضوع وتفكر وتدبر.

جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له». ويراد بهذا العلم: العلم الالهي والمعارف الالهية. أي أن المعارف الالهية لا تحل إلا في نفس تخاف الله كثيراً وتخشاه كثيراً. فالعلم الكثير في غير طاعة الله ممد الذنوب كما أثر عن علي عليه الصلاة والسلام حيث يقول: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة للذنوب».

ويستفاد من الأحاديث الآتية: ان العالم يؤاخذ على ذنبه أضعاف ما يؤاخذ عليه الجاهل. قال رسول الله (ص): «ان الله تعالى يغفر للجاهل أربعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً». وقال أيضاً: «زلة العالم كبيرة». وقال علي عليه السلام: ان الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام: قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون الناس لباس الضأن وقلوبهم قلوب الذئب، ألسنتهم أحلى من العسل وأعمالهم أمر من الصبر، إياي يخادعون وبي يغترون وبديني يستهزئون﴾.

وقال الامام الباقر (ع): «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس، فليتبوأ مقعده من النار، ان الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها». وفي حديث آخر: «لا طاعة إلا بعلم، ولا علم إلا بتعلم، والتعلم من معلم رباني».

عرفت أستاذاً في علم التربية وعلم النفس بلغ مرتبة (الدكتورا) كان يدرس في المعاهد العالية، أنه لم يقو على كبح نفسه عن شرب الخمور فكان يشرب بدرجة تؤدي به إلى تشويه سمعته مع علمه أن: ﴿شارب الخمر كعابد وثن﴾، كما جاء في الحديث.

فقد ذكر لي أحد تلاميذه أنه شاهده ذات ليلة ملقى على قارعة الطريق في الأوحال وهو ثمل لا يشعر ويقول: اني أردت أن اؤدي ما للاستاذ على التلميذ من حقوق، فدعوت سيارة وحملته مع السائق ووضعناه في السيارة ونقلناه إلى فندق كان يسكن فيه. قمت باسعافه قليلاً قليلاً حتى صحا. فقلت: يا أستاذ، أنت تلقي علينا دروساً في ضبط النفس وفي التحلي بالأخلاق الفاضلة ومجاهدة النفس البهيمية. فما هذا الذي أرى بك يا سيدي؟ فأجاب جواباً سوفسطائياً بقوله: إنما أنا أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة! وقد فاته أنه يقتل نفسه.

فترون أن ليس هناك أية علاقة بين ما تحمله الحافظة من معادلات وقوانين وخواص وما يقوى عليه التفكير المجرد من استنتاج واستقراء أو تجريد

وتعميم، وبين اتجاه النفس نحو المبدأ الأعلى وإطاعة الله تعالى وردعها الشهوات المميتة وقمعها المرديات، انهما من واديين مختلفين فالأول من وادي الحافظة والتفكير والذكاء، والثاني من عالم النفس، وبينهما بون شاسع. فلو انطفأ العقل بما يلوث به من موبقات وجرائم حل محله الشيطان والخداع والنكراء ومنى النفس بما يبعدها عن الله تعالى حتى تبلغ أسفل سافلين.

ان الله تعالى يقول:﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾. والهداية عند البعض، في يومنا هذا، أن ينال الشخص شهادة عالية فهو مثقف مهدي.

ان الله تعالى يقول: ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات﴾ فقدم الله تعالى (الايمان) على (العلم)، ذلك لأن العلم الحقيقي وأعني به المعارف الالهية لما يترشح من (الايمان)... فكلما قوي الايمان بتطهير النفس، بالعبادة والأعمال الصالحات، ترشح من هذا الايمان «العلم الصحيح» الموصل إلى معرفة الله تعالى. وإذا أردنا أن نفسر هذه الآية على غير ما قلنا نقع في مشكلة. ذلك لأنا نرى علماء في بعض ما أودع الله في هذا الكون من خواص ودساتير رياضية، مجردين عن المعارف الالهية. بل البعض منهم زنادقة ملحدون. فكيف يرفع الله (حسب الآية المتقدمة) هؤلاء الزنادقة والملاحدة درجات؟!.

ولا فرق في هذا المقام بين العلوم الدينية من فقه وأصول وفلسفة... وغيرها وبين العلوم الرياضية والفلكية والكيماوية الخ... فيجوز أن يكون الشخص قد درس الحكمة الالهية ولكنه مع ذلك ضعيف الايمان، يشوبه كثير من الشكوك، أو درس القرآن دراسة متقنة مع مراجعة كثير من التفاسير ولا يؤمن به كما نرى ذلك في المستشرقين.

ذلك لأن الايمان ليس بالشيء الذي يترشح من الذكاء أو الحافظة بل هو عصارة كف النفس عن المحرمات والقيام بالأعمال الصالحات لوجه الله تعالى. إن الله تعالى يقول: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون﴾ أي أنه لا

يؤمن بآيات الله إلا المتقون الذين يخافون ربهم من فوقهم فلا يعصون الله في السر والعلن.

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير. وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات، ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور، إن أنت إلا نذير﴾. (فاطر: ١٨ - ٢٣). فالمواعظ والارشاد والانذار لا تؤثر إلا في من يخاف الله بالغيب، (أي بينه وبين الله، لا يعلم بذلك أحد) وفي من أقام الصلاة لوجه الله. وهما بابان عظيمان لتزكية النفس.

ومن كان لا يخاف الله ويرتكب المعاصي في السر والعلن، يظلم نفسه ويظلم الناس، فنتيجة ذلك: الجحود وعدم الايمان عاجلاً أو آجلاً. ان الله تعالى يقول: ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. (الانعام: ٣٣). أي أن الظلم لا يترشح منه إلا الجحود بآيات الله تعالى مع تصديقهم بالنبوة أحياناً.

فإذا رأيت شيخاً أو مراهقاً أو شاباً جاحداً مستهزئاً، مكذباً بآيات الله تعالى فاعلم أنه مجموعة ظلم وجور وعقوق وخيانة وفجور وفسوق... سواء أتيحت له الفرص فحقق ما ذكر أو لم تتح. فان عقيدة الانسان خلاصة حالته النفسية سواء أظهرت إلى الوجود أم لم تظهر.

ثم أن معيار الاختبار يجب أن يكون عاماً، يعم أفراد البشر قاطبة بلا تفريق وتمييز، أوتوا بعض المواهب أم حرموا. ولا يمكن ذلك إلا إذا توجه الاختبار إلى النفس التي ألهمت طريقي الخير والشر. بقوله تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾، كي يشترك في ذلك الوضيع والشريف والغني والفقير والرئيس والمرؤوس. فتكون التقوى إذن معياراً للمفاضلة وأساساً لفوز الشخص بسعادة الآخرة، فقد قال تعالى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

الدنيا أشبه شيء بمدرسة يطبق فيها طلابها دروس تكامل النفس. وتعطى

لهم عليها درجات. درجات موجبة لأعمال صالحة بما فيها العبادات ودرجات سالبة لأعمال سيئة بما فيها العقائد. ثم تجمع هذه الدرجات، فان كانت النتيجة موجبة فهو من أصحاب الجنة، وإن كانت سالبة فهو من أصحاب النار، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية﴾. ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾.

ليس في هذه الامتحانات الالهية مجال للاكمال كالامتحانات المدرسية فاما إلى الجنة واما إلى النار. لأن الانسان ينقطع عمله بعد موته. فلا عمل ولا تحضير ولا تزود بعد الموت. (فالدنيا دار عمل ولا حساب، والاخرة دار حساب ولا عمل).

وقد جاء في الحديث ما مؤداه: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاثة: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يستغفر له. ان الصدقة الجارية تحتاج إلى مال ونفس سخية وقل من يوفق اليها، وأما العلم الذي يأخذ بالفرد إلى ساحات القدس والتقرب منه تعالى فقل من يوفق إلى بثه ونشره اليوم، وان ما يكتب اليوم عن الطبيعة والفلك وغيرهما إنما يكتب بأسلوب مادي، ولا يذكر العبد بعظمة الله وجليل قدرته وحسن ابداعه، وأما الولد الصالح فأصبح نادراً جداً. كم ألفيت آباء يحزنون على سلوك أبنائهم، ورأيت البعض منهم يبكون حزناً على ما عليه أبناؤهم من نهج معوج، واتجاه سقيم، لا يصلون ولا يذكرون الله أداء لواجب الشكر. ورأيت بعض الآباء يقدم مبلغاً يعتد به إلى ولده يريد أن يصلي فلا يلبي طلبه! ورأيت آباء آخرين يبغضون أبناءهم غاية البغض لعدم قيامهم بواجباتهم الدينية حتى أنهم لا يريدون أن ينظروا إلى وجوههم. كل ذلك لشدة إيمانهم.

إن الله تعالى يقول: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها

الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾. على أن إطاعة الوالدين أمر واجب بعد توحيد الله تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا اياه وبـالوالـدين إحسانـاً﴾. وفي الحديث: ﴿نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة﴾. وما أقل الأبناء العاملين بهذا الحديث!.

فالعاقل هو الذي لا يعتمد على ما سيقوم به أرحامه وذووه بعد موته من أجله من مبرات وخيرات، فيبادر بتعمير آخرته قبل حلوله أجله.

وقد قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت، قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً في ما تركت، كلا، أنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جمع الأقربين من قريش: «إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم. والله الذي لا اله إلا هو: أني لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالاحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وانها للجنة أبداً أو النار أبداً». ولذلك قال تعالى: ﴿وتزودوا فان خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب﴾.

فتعديل امتحان درجات الله تبارك وتعالى إنما يكون في هذه الدنيا. فمن حصل على درجة (ـ ٥) مثلاً لعدم الصبر على نائبة جزع فيها يعدله بالصبر على فقر يصاب به، فينال فيه (+ ٦) مثلاً، فتكون النتيجة (+ ١) وهو فوق الصفر. وعن علي (ع): «وإذا صبرت جرى عليك القضاء وأنت مأجور، وإذا جزعت جرى عليك القضاء وأنت مأزور».

ومن بخل في مال أعطاه الله إياه ولم ينفق منه فأمست درجتـه لعدم الاتفاق الواجب (− ١٠) مثلاً، فانه يعدله بفقر يصاب به، فيعطي من هو أفقر منه من ماله الضئيل أضعاف ما كان يعطي حين كان غنياً، مع مراعاة النسبة، فينال (+ ١٥) مثلاً، فتكون النتيجة (+ ٥). فيصفي حسابه في دنياه

قبل أن يحاسب في الآخرة. ولا أعني بهذه الأرقام التي جئت بها على سبيل المثال، ان الله يحاسب العباد على طبقها، وإنما تمثيل وتقريب وتفسير.

لا ريب أن حساب الآخرة لدقيق جداً. والدرجات في غايةالدقة أيضاً ولا تقبل الشفاعة فيها إلا إذا كانت الشفاعة مقرونة برضا الله تعالى. لقوله عزّ من قائل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾. فان الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين لا يشفعون إلا إذا اطلعوا على مرضاة الله تعالى. فانهم: ﴿عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾.

وعن علي عليه السلام: «وان من شيعتنا لمن لا تدركه من لا تناله شفاعتنا إلا بعد عذاب الله له ثلاثمائة الف سنة».

قال طاووس: رأيت علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد. فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه وقال: «الهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحاتٌ للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله في عرصات يوم القيامة». ثم بكى وقال: «وعزتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى علي. فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني، فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط، ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحيي من ربي». ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قبائح زرية ... وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: «سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم». ثم خرّ إلى الأرض ساجداً. فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: «من الذي

أشغلني عن ذكر ربي؟» قلت: أنا طاووس، يا ابن رسول الله ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا نحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله (ص) فالتفت إليّ وقال: «هيهات هيهات يا طاووس، دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يُتساءلون﴾، والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح».

فإذا كان علي بن الحسين عليه السلام يفعل مثل ذلك مع عصمته وطهارته بنص من الكتاب والسنة، فكيف بنا ونحن ملئنا معاصي وآثاماً؟ كل ذلك ليعلمونا سلام الله عليهم آداب التقرب إلى الله، آداب الدعاء والخضوع، آداب التوبة والاستغفار، لكي تطهر هذه النفوس الملوثة بدموع تذرفها جوف الليل نادمة على صنيعها، آسفة على فعالها.

إن الأئمة سلام الله عليهم كانوا يعبدون الله تعالى بهذه الآداب العالية أداء لواجب الشكر، لما ميزهم الله تعالى عن سائر البشر.

يدخل جابر رضوان الله عليه على علي بن الحسين (ع) يقول: يا بن رسول الله أما علمت أن الله خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم. فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك. ﴿ذلك لأن زين العابدين عليه السلام قد انخرم أنفه وثفنت جبهته وركبتاه وراحتاه مما أدأب نفسه في العبادة حتى سمي بذي الثفنات)، فيجيبه الامام عليه السلام قائلاً: «يا صاحب رسول الله، أما علمت أنجدي رسول الله (ص) قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد، وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

إن الله تبارك وتعالى قد امتحن أنبياءه وأوصياء أنبيائه عليهم السلام امتحانات صعبة شاقة لا يقوى عليها البشر العادي، هذا ابراهيم (ع) قد

امتحنه الله تعالى بأن ألقي في النار فكان له برداً وسلاماً. وامتحنه بذبح ولده اسماعيل، وامتحنه بأن أرسل له ملكاً على شكل انسان فقال: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح. فافتتن ابراهيم (ع) بهذا النداء اللاهوتي. فطلب إليه أن يعيد ما قال. فأجابه: أنه لا يعيد حتى يعطيه نصف غنمه، فأعطاه. فقالها ثانية: «سبوح قدوس، ربنا ورب الملائكة والروح». ثم أن ابراهيم (ع) طلب إليه أن يقولها ثالثة. فقال: إلا أن تعطيني بقية غنمك، فأعطاه. وقالها ثالثة. فهذه مرتبة من مراتب الولاء». لا يصل إليها البشر العادي.



مراتب الامتحان الالهي

إن الله تبارك وتعالى يختبر عباده حسب عظم نفوسهم وقابلياتهم، فيبوؤهم ما يستحقون من المنازل الدنيوية والأخروية. قال نبينا صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت». فكان ابتلاؤه أعظم من ابتلاء من سبقه من الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين.

وأما علي عليه السلام، فقد امتحن امتحانات تزيد عن العد والاحصاء منها مبيته على فراش النبي (ص) وعرضه نفسه للقتل. ومنها برازه إلى عمرو بن ود الذي كان يعد بألف فارس في غزوة الخندق، وقد قال فيه رسول الله (ص): «برز الايمان كله إلى الشرك كله»، وقال فيه أيضاً كما رواه الحاكم في المستدرك: لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة». وقد روى الحاكم أيضاً أن النبي (ص) قال: «قتل علي لعمرو بن ود أفضل من عبادة الثقلين».

وأما الحسين (ع) فقد امتحن بما لم يمتحن به من قبله ولن يمتحن به من بعده. والأئمة كلهم امتحنوا بامتحانات صعبة جداً لا يقوى عليها البشر العادي، ولا مجال لذكر ما امتحن به الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من امتحانات شاقة جداً يفر منها غيرهم.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أشد الناس بلاء النبيون، ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه، ومن سخف دينه وضعف عمله، قل بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض، ذلك: ان الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر».

والامتحان أو البلاء إما أن يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء (ص) والأوصياء (ع) ثم الأمثل فالأمثل، وإما أن يكون

لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ: ذنوب وآثام. فهو تكفير لما اجترحت الأيدي من ظلم وبغي ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة ونميمة وكل ما نهى عنه الدين.

فعن أبي جعفر (ع) قال: ان الله عز وجل إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب، ابتلاه بالسقم، فان لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فان لم يفعل ذلك به شدَّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه، وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فإن لم يفعل به هون عليه الموت، فيكافيه بتلك الحسنة».

وعن أبي عبد الله (ع) قال: «إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزال الغم والهم بالمؤمن حتى لا يدع له ذنباً».

أنـظروا كيف يأمـرنا الإمـام (ع) بمحاسبـة نفوسنـا. فعن أبي الحسن الماضي (ع)[1]: قال: «ليس منا من لم يُحاسب نفسه في كل يوم. فان عمل حسنة استزاد الله عز وجل، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه».

إن العبد ليمتحن في كل يوم من حياته امتحانات عدة حسب قابليته واستعداده. فطوبى لمن وُفق في امتحانات الله تعالى بعزم ثابت وإرادة قوية مستمداً التوفيق منه تعالى. فهذه هي الارادة الحقيقية التي يجب أن تبحث عنها التربية الحديثة :(Pedagogie Moderne) وأن تعمل في تنميتها.

يقول أحد رجال التربية في الغرب: كان لي صديق وقد زرنا معاً الهند. فرأيته يغيب بعض الليالي. فسألته السبب قال: أني لأجد في إرادتي ضعفاً وأحب تقويتها. أخرج جوف الليل إلى الغابة أو إلى الصحراء وأبارز الأسد وبعض الحيوانات المفترسة وأهيىء ناراً إن أنا تأخرت عن القائها عليها ثانية واحدة كان في ذلك موتي المحتوم، وبهذا أجد أن مقاومتي للشدائد أصبحت أكثر من ذي قبل.

---

(١) انه الامام السابع: موسى بن جعفر (ع).

نعم، إن هذا النوع من الأعمال التربوية تقوي الارادة وإن كتب التربية مشحونة بهذه الأساليب التربوية. ولكن للتوجيه أثراً عظيماً في مستقبل الانسان الديني وتوجهه نحو خالقه أي في تكامل نفسه. فرُبَّ قوي الارادة يصرف إرادته في أمور محرمة وأشياء تافهة.

إن الله تعالى يقول: ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾. أو يصرف إرادته في دنيا محضة أي في تقوية جانب المادة مع إهمال جانب تكامل النفس: الأمر الذي وجد الانسان على وجه البسيطة لأجله. فلو عنيت التربية بناحية التوجيه كما تهتم بناحية تقوية الارادة لجمع الشاب بين سعادة الدنيا والآخرة. ولكن تربيتنا الحاضرة تربية مادية بنتائجها. تنظر إلى الحياة المادية كأنها الهدف الأسمى وتربي الشاب للتزود من هذه الحياة المادية وإن فسدت في الأثناء النفس وانحطت الملكات الأخلاقية والدينية.

وليس تكامل النفس بشيء يمكن قياسه بأسئلة امتحانية تلقى على الطلاب في الامتحانات النهائية، لأن أعمال وملكات أكثر منها نظريات وعبارات أدبية. لذلك انحطت الأخلاق الاجتماعية والاخلاقية الاسلامية الموروثة: أعني الصفات الانسانية الكاملة التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا فناب منابها مجاملات صورية لا تتجاوز الحنجرة وحركات الوجه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾. قد خلق الله جل شأنه من النعم والمآكل والمشارب والملابس والمساكن ما يجذب الانسان ببهجته ورواءه فيطمع الانسان فيها. ولا تتأتى كلها لكل شخص من مورد حلال طيب. فتغلب الشهوة وينقاد اليها الانسان، فإذا به يفسد نفسه ويرتكب الظلم والبغي ليتزود من هذه النعم والمآكل ويتزين بأنواع الزينة فيرسب في هذا الاختبار النفسي العسير. ان الله لم يحرم على الناس الاستفادة من نعيم الدنيا وزينتها وزبرجها إذا كان من مورد حلال شرعي واستعمل حسبما عينه الشرع: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا،

خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾. (سورة الأعراف). ففي هذه الدنيا يشترك المؤمن مع الكافر في التنعم بالطيبات من الرزق وزينة الدنيا الفانية، أما في الآخرة فيكون ذلك للمؤمنين خالصة خاصة بهم، بمقياس لا يحيط به العقل البشري.

فالدنيا بمظاهرها الخلابة وجمالها الفتان وأشجارها ونباتها ومائها وهوائها مواد للامتحان: (كالفيزياء والهندسة المجسمة وعلم الهيئة وحساب الاحتمالات و. . .)، ولا يقوى على ردع النفس عن الشهوات المحرمة إلا من أوتي يقيناً صادقاً وتوجهاً خالصاً ولطفاً ربانياً: ﴿والذين اهتدوا زادهم هـدى وآتاهم تقواهم﴾. (سورة محمد ص: ١٩).

قد يصادف الانسان في عنفوان شبابه مائدة خمر جلس عليها أصحابه فيلحون عليه بالشرب وهو يمتنع لطهارة أودعها الله تعالى فيه بالفطرة، ثم يلحفون عليه ثانية وثالثة والشيطان بالمرصاد. فهنا صراع بين العقل والنفس الأمارة بالسوء أو بالأحرى بين العقل (إن لم يُحجب وبقي على فعاليته) وبين الشيطان. فإن غُلب الشاب على أمره فقد سقط في هوة سحيقة. وان تذكر أمر الله واليـوم الآخر وعزم على الرفض واستعان بالله جل وعلا في خلاصه ونجاته فان الله يهيء له أسباب النجاة. وان ارتداعه هذا في هذا الاجتماع الفاسد وكبحه شهوته بعزم رصين يفتحان عليه أبواب رحمة الله فيزداد بفضله هدى وتقوى وصلاحاً. فقد جاء في الحديث: «لو مشى العبد نحوي شبراً لمشيت نحوه ذراعاً». وما من تقي إلا ويُمتحن في حياته بامتحان وامتحانات نظائر هذا الامتحان.

كثيراً ما تقوى إرادة الانسان على النجاح في أمور دنيوية ولكن نفس هذه الارادة تراها مغلوبة تجاه الشهوات والمغريات، ضعيفة أمام محارم الله تعالى. فالارادة كل الارادة إذا استطاع المرء أن يكبح شهواته ويجعل رزقه من مورد حلال طيب. فان الأموال المحرمة أو المشتبهة لها آثار سلبية في اتجاه الانسان نحو خالقه وفي قمع الشبهات وحصول اليقين.

أرأيت مرابياً بلغ من الايمان مرتبة تذكر، أم رأيت سارقا تخشع نفسه عندما يسمع كلمات الله تعالى. ولا فرق بين السرقة وبين المتاجر المحرمة والمعاملات غير المشروعة والنجاح في مهمة باستعمال المكر والخديعة. فكل عضو من أعضاء الانسان يمكن استعماله في حلال أو حرام. وهذا هو معنى الاختيار. فالعين يمكن استعمالهافي الحرام بالنظر إلى أعراض الآخرين ويمكن صرفها عن الحرام بالتجنب عن النظر إلى المحرمات. فقد جاء في الحديث: «الأولى لك والثانية عليك». أي أن الله يغفر لك النظرة الأولى التي جاءت عفواً وأنت آثم في الثانية مدنس فيها نفسك. واليد يمكن استعمالها في دع اليتيم وضربه ويمكن استعمالها في المسح على رأس اليتيم وأعمال صالحة أخرى كالكسب والعمل في المعامل وأمثال ذلك. وكذلك الرجل يمكن استعمالها في الذهاب للسرقة أو دور البغاء، ويمكن استعمالها في حمل طعام إلى أرملة بائسة أو السؤال عن حال مريض معوز ومساعدته.

وقد بين الله تعالى كل ما من شأنه ارتقاء النفس وكل ما من ورائه انحطاط النفس على لسان نبيه الأمي (ص): ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (سورة النساء: ١٦٣). وقد أوصى النبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين علياً عليه السلام بهذه الوصية:

«سر ميلاً عُد مريضاً، سر ميلين شيع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زر أخاً في الله، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف، سر ستة أميال أنصر المظلوم وعليك بالاستغفار».

قال الله تعالى: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾. (سورة الأنفال: ٤٤).

إنما المؤمنون أخوة

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فانما أداة حصر، أي أن المؤمنين لا يكونون إلا أخوة يتوادُّون ويتحابون. يؤازر بعضهم بعضاً ويعاضد أحدهم الآخر. فالايمان هو الرابطة القوية فيما بينهم. ذلك لأن الايمان شعور مشترك يجمع القلوب فيقرب فيما بينها. فكأن الايمان سيال كهربائي أو خطوط مغناطيسية تؤثر في الكون فتجذب ما يناسبها وان بعد التشبيه.

ذلك لأن الانسان مجموعة طاقات، والمادة تشع فتتحول إلى طاقة. فكما أن المجال المغناطيسي يتأثر بالمجال الكهربائي فيكون بين الجسمين الحاملين لهذين المجالين تقارب أو تباعد كذلك النفوس تتجاذب بعضها مع بعض لو كانت مؤمنة بنفس الدرجة من الايمان أو مع تفاوت يسير وتبتعد بعضها عن بعض لو كان الاختلاف كبيراً. ووفقاً لهذه النظرية اختار النبي (ص) علياً (ع) أخاً له في الدنيا والآخرة وآخى بين المهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار. ولذلك كان يقول علي (ع) كما يحدثنا النسائي: «أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصدِّيق الأكبر».

لو أمررنا تياراً كهربائياً على سلك وعلقنا بجنبه إبرة مغناطيسية لرأيناها تتحرك يميناً أو يساراً حسب جهة التيار، كما هو ثابت في الفيزياء. أي يتأثر المجال المغناطيسي بالمجال الكهربائي، لأنهما من واد واحد على وجه التقريب. كذلك تؤثر النفوس بعضها في بعض، تتباعد أو تتقارب، لأنها أيضاً من مفاهيم القوى.

فكر في رجل يمشي أمامك تفكيراً مجرداً عن كل شيء إلا في نفس ذلك الرجل، فتراه يدير بوجهه اليك. ذلك لأن نفسك قد أثرت في نفسه فوجهته اليك. على أن هناك قواعد يجب أن تراعى: من قوة النفس ودرجة هيمنتها على نفس أخرى.

قد طرد في أمريكا صاحب معمل أحد عماله، وبقي هذا العامل لا شغل

له. وتأثر كثيراً، فعمد إلى عمل لعله يؤذي به صاحب المعمل وكان يعلم شيئاً من آثار النفس، فأحضر تصوير صاحب‌المعمل وأخذ ينظر إليه بحدة ضارباً بمطرقته على سندان بصورة مستمرة، فصار يحس صاحب المعمل بوجع شديد في رأسه ويشعر بضربات في مخه، راجع الأطباء فلم يتمكنوا من معالجته، يئس من الحياة، فأراد أن يسترضي من ظلمه. قيل له: انك طردت عاملاً لك دونما مبرر. فتوجه إلى بيت العامل ورأى ما كان يقوم به العامل، فأرجعه إلى محله وشفي مما ألمَّ به.

إن هذه الحادثة تعلمنا أن هناك خطوطاً مغناطيسية أو ما يشابهها تأثرت بهذه الدقات العنيفة على السندان، فأثرت في رأس صاحب المعمل وكادت أن تقضي عليه.

فالتجاذب والتحابب والأخوَّة من آثار الايمان الحقيقي، فكلما زاد إيمان الشخص أصبح له أخوة مؤمنون بصورة طبيعية وهذا من النظم الروحية التي أودعها الله تعالى في الكون.

وقد روي أنه كان يقاس إيمان الشخص في زمن رسول الله (ص) بحب علي عليه السلام. فكلما كان حب الشخص لعلي (ع) أكثر كان إيمانه أقوى، على أن لا يبلغ هذا الحب مرتبة الغلو والتأليه، فقد قال رسول الله (ص): «يا علي، هلك فيك اثنان: محب غال وعدو قال».

إني أعتقد أن هناك سيالاً إيمانياً (كالسيال الكهربائي) يوصل الفرد المؤمن بعلي عليه السلام وهو شمس الايمان فيحبه. ففي قلب كل مؤمن شعاع من تلك الشمس حسب درجة إيمانه. فقد قال رسول الله (ص) حين برز علي (ع) إلى عمرو بن ود: «برز الايمان كله إلى الشرك كله».

فعلي (ع) الايمان كله على حد تعبير رسول الله (ص) والمؤمنون لهم نصيب من هذا الايمان بدرجة حبهم لعلي، على أن لا يبلغ هذا الحب درجة الغلو، فبعد أن كان موجباً يصبح سالباً، مثال ذلك: (ع = ظاس[1]). وعندما تكون

(١) لا يخفى أن هذا المثال الرياضي لا ينطبق على الموضوع. وإنما ذكر للتقريب والتوضيح.

س = ٩٠°- ، أو ٢٧٠°، ينتقل الظل من + ٨ إلى - ٨) فيكون المغالي مخلداً في النار: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

ويؤيد ما قلنا ما روي عن النبي (ص) في حديث قدسي: «إن الله عهد لي في علي عهداً. قلت يا رب بينه لي. قال: إن علياً آية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، من أحبني أحبه ومن أطاعني أطاعه».

وعن حلية الأولياء عن النبي (ص): «قسمت الحكمة عشرة أجـزاء. فأعطى علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً منها».

ترى شخصاً لا تعرفه من ذي قبل، فتحبه حباً جماً وتود أن تجالسه وتعاشره. كلما تفتش عن السبب لا تهتـدي إليه. السبب: هـو انجذاب الأرواح المؤمنة بعضها إلى بعض بصورة طبيعية.

رآني يوماً مؤمـن من أهل الفضل. فقال: أني كنت أحبك عن بعد. وان حبي إياك يزداد يوماً فيوماً. فلم أقو على الكتمان وأظن أنا قد تحاببنا في عالم الذر. فأرجو أن تجعل فطورك غداً عنـد الصباح في بيتي، وقـرأ لي هذا الحـديث: «الأرواح جنود مجنـدة، ما تعـارف منها أئتلف ومـا تناكـر منها اختلف». فالله تعالى بنص الآية: ﴿إنما المؤمنون إخوة...﴾ أراد بالمؤمنين أن يكونوا إخواناً يساعد بعضهم البعض.

يحدثنا سعيد بن الحسن عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «أيجيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه، فقلت لا، فقال: ليس هؤلاء شيعة.. إلى آخر الحديث»... وهذا غاية الكمال في الأخوة، أو ليس ديننا دين الكمال. أو ليس هذا الدين قد جاء به الرسول الأمين ليخرج الناس «من الظلمات إلى النور باذن ربهم». وليس النور إلا ما يبلغ اليه الشخص من الكمالات النفسية من توحيد الله والقيام بما أمر به الله.

ولم نبلغ من العلم درجة تمكننا من وضع دساتير رياضية لقضايا نفسية. ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾. ومعنى ذلك أن الله يحدث في قلوب المؤمنين حباً ووداً للذين آمنوا به تعالى وقاموا بأعمال صالحة. فان الايمان والأعمال الصالحة لها آثار طبيعية ذاتية، وهي حدوث مودة طبيعية في قلوب المؤمنين. فقد جاء في الحديث: «من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته».

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾. النعمة هي نعمة الاسلام ونعمة الايمان. فالمؤمنون متآخون فيما بينهم بنص القرآن الكريم. لا تباغض بينهم ولا تشاحن بل هم «كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً». هذه أخوة المؤمنين في الدنيا. وهناك أخوة أبدية بعد الموت في عالم الخلود في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾. وهو قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون. أدخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾.

فمن لم يدخل في الأخوة الاسلامية، فليس من الايمان في شيء، وان الايمان لم يلج في قلبه.

وعن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما المؤمنون أخوة بنو أب وأم. فإذا ضرب على رجل منهم غرق سهر له الآخرون». ومعنى ذلك أن المؤمنين يتألم بعضهم لبعض وأنهم يعملون ساهرين، لأجل دفع المكروه عن إخوانهم وإسعافهم وإزاحة الكربة عنهم.

نعم، إن المؤمنين يتألم بعضهم لألم الآخر بصورة غير اختيارية (لا عن شعور). ذلك لأن أشعة الايمان توصل بعضهم ببعض، فيشعر هذا بحزن ذاك فيحزن، ويحس بسروره فيسر.

هذا جابر الجعفي يقول: تقبضت بين يدي أبي جعفر (ع) فقلت: جعلت فداك ربما حزنت من غير مصيبة أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي. فقال: «نعم يا جابر، ان الله عز وجل خلق المؤمنين من

طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه. فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن حزنت هذه لأنها منه». وفي حديث آخر: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه».

إن للإيمان حيوية تربط نفوس المؤمنين بعضها ببعض وتجعلهم كنفس واحدة. وان هذه الرابطة لا يضاهيها أية رابطة أخرى، هي رابطة معنوية رفيعة أودعها الله الصلحاء من خلقه. وهو قول أبي عبد الله عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهم واحدة، وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها». وهذا حفص بن البحتري يقول: «كنت عند أبي عبد الله الصادق (ع) فدخل عليه رجل. فقال لي: تحبه؟ فقلت: نعم. فقال لي: ولم لا تحبه وهو أخوك وشريكك في دينك وعونك على عدوك ورزقه على غيرك». نعم، المؤمنون يخدم بعضهم بعضاً ويفيد بعضهم بعضاً كما هو مضمون الحديث.

إن الدين الاسلامي قد فرض حقوقاً على كل من المؤمنين، عليهم أن يؤدوها وهو قول محمد الباقر (ع): «من حق المؤمن على أخيه أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج كربته ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده».

وهل يتصور البشر أخوَّة أعلى من هذه الأخوة، وهل يتصور سلام في الكون أرفع شأناً من سلام يتأتى من تطبيق الدستور المذكور. نعم يصل الانسان إلى تطبيق هذاالدستور حرفياً لو قوي إيمانه وزاد يقينه وصار مظهراً للتقوى والورع. فالكمال: فرع الايمان ورشحات التقوى وآثار الورع. فمن فتش عن الكمال الانساني في واد آخر فقد تاه وضل. ولا تطمئن نفس امرىء ولا تعترف بفعالية آثار الايمان والتقوى فيها إلا إذا كان ممن جرب وسار في مجالات تكميل النفس بتزكيتها وتحليتها.

هذا معلى بن خنيس يروي عن أبي عبد الله (ع) يقول: «قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: له سبعة حقوق واجبات، ما منهن حق إلا وهو

عليه واجب، ان ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن له فيه نصيب. قلت له: جعلت فداك وما هي؟ قال: يا معلى، أني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل. قال قلت له: لا قوة إلا بالله، قال: أيسر حق منها. أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره. والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته. والحق الخامس: لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى. والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه. والحق السابع: أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادرها مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتنا».

هذه درر من درر هذا الدين القويم ولآلىء من لآلىء هذا الناموس العظيم تتلألأ بكل وضوح وجلاء. لآلىء لا يصل إلى عمقها فيلسوف تربى في أحضان المادة الدكناء ولا تعيها إلا قلوب زكية وأرواح نقية. ونسأل الله تزكية قلوبنا وتطهير أرواحنا وأن يجعلنا مؤمنين متآخين.



التراحم في الاسلام

يصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجّداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود». فالمؤمنون متراحمون فيما بينهم متعاطفون، يرحم بعضهم بعضاً ويعطف كل منهم على الآخر، فانهم راكعون ساجدون «سيماهم في وجوههم من أثر السجود». وان الركوع والسجود باخلاص وإقبال ليؤثران في توجيه النفس إلى الله تعالى فتشعُّ منهما أنوار من أنوار الله القدسية فتلطف النفوس وتندرج في مجالات الكمال فتكتسب الفضائل والمكارم ومنها التراحم والتعاطف. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله، ان الله عزيز حكيم﴾.

فوصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، يتوادُّون ويتحابون ويتراحمون فيما بينهم. فلا ترى فيهم محتاجاً ولا بائساً ولا مسكيناً. لأن المستطيع منهم يبادر إلى مد يد المعونة إلى الضعيف، يفتش عن الفقراء والمساكين ويجهد نفسه في سد حاجاتهم ورفع الكرب عنهم. لماذا؟ لأن المؤمن المتخلق بهذه الأخلاق الكريمة القائم بهذه الأعمال الواجبة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله وإطاعة رسوله (ص) لايكون إلا ولي المؤمن الآخر، يساعده ويؤازره ويضحي بنفسه ونفيسه في سبيل إنقاذه مما أصابه، حتى يكون موضع رحمته تعالى. لقوله تعالى: «سيرحمهم الله» فان الحياة الاجتماعية السعيدة لا تتحقق إلا إذا توادت القلوب وتراحمت وتعاطفت. وإن التراحم لا يحصل إلا إذا تمركز الايمان في قلوب الناس وكانوا مؤمنين حقاً.

إن القوانين المدنية الحاضرة أو التربية الاجتماعية الخالية من الأسس الروحية ومن التوجيهات النفسية الدينية لا تقوى على ربط أفراد المجتمع ربطاً عميقاً يؤدي إلى سعادة الدارين. ذلك لأن هذه القوانين قيود ميكانيكية لا

تلج النفوس ولا تربيها تربية تجعلها متآزرة متحابة متراحمة فيما بينها. ولا شك أن أقل حظ للأمة من الأخلاق ما أمرت به القوانين المدنية وقامت الشرطة بحراسته. فخير رابطة تربط البشر بعضهم ببعض هي رابطة الايمان. يقول (كوستاو لوبون): «من الخطأ الضار محاولة بناء الأخلاق على المعقول وحده كما ذهب إليه كثير من الفلاسفة، لأنه إذا لم يكن للأخلاق سند من المشاعر والروح الديني، فلا بقاء لها ولا قوة». وقد فاته أن ما جاء في الدين الاسلامي من الأسس الأخلاقية، منطقي معقول يتفهمه المؤمن بنور الايمان ويعمل به بتساند عقلي. إذ أن دين الاسلام دين العقل. وكل ما أمر به الدين أمر به العقل المتكامل. فإذا كان العقل لا يدرك حكمة بعض الأوامر الدينية فذلك لنقص فيه. وكم من الأوامر الدينية قد ظهرت حكمها بعد تقدم العلوم والفنون وكان يحار الانسان في تعليلها قبل ذلك.

نعم، ان حضارة الأمة في المقياس الصحيح تتناسب مع مقدار تمكنها من ضبط نفسها وقيامها بواجباتها الأخلاقية. تلك الأخلاق التي أقرها الدين الاسلامي، تلك الأخلاق التي لا يصل البشر إلى تأسيسها مهما تكاملت نفسه، تلك الأخلاق التي تجعل الانسان أعلى منزلة من الملائكة.

قال الصادق (ع): «إن أشد ما فرض الله على خلقه ثلاثة: إنصاف المرء من نفسه حتى لا يرضى لأخيه من نفسه إلا بما يرضى لنفسه منه، ومؤاساة الأخ في المال، وذكر الله على كل حال... ليس سبحان الله والحمد الله ولكن عندما حرم الله عليه فيدعه». يريد الامام (ع) بذلك أنه لا ينبغي للمؤمن أن يكتفي بقوله: سبحان الله والحمد لله، بل عليه أن يذكر الله عند كل ما حرمه الله عليه. من استعمال الحيل في الربا، والكذب ومخادعة المؤمن في المعاملة ومطالبة أخيه المؤمن ما ليس له. ان المؤمن يواسي أخاه المؤمن في المال، ويساعده ويقرضه. فلماذا نرى أناساً يحملون اسم الاسلام، فإذا أتتهم امرأة بائسة بذهب لها يسير، تريد أن ترهنه لديه كي تستقرض مبلغاً لاداء كراء دار حقيرة، فيجيب بخشونة: ليس عندي شيء ولكن إن كنت ترجعين المبلغ وزيادة فأني مستعد لذلك، مع أن لهذا الرجل كسباً يكتسب به أو صنعة يعيش من ورائها، وإن لم يكن هذان متوفرين لديه فأن أبواب الكسب

مفتوحة له. ماذا تصنع هذه المسكينة؟ تأخذ من هذا المرابي (١٢) ديناراً مثلاً وترجع إليه بعد ٣ أشهر (١٥) ديناراً فتكون قد دفعت ربحاً قدره مائة في المائة بحساب السنة. أهذه هي المواساة في المال؟ ألم ينه الله عن الربا وتوعد عليه العذاب الشديد. ألم يقل (جلَّ من قائل): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون، واتقوا النار التي أعدَّت للكافرين﴾. ألم يبلغه هذا الحديث: «درهم ربا عند الله أعظم من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام».

نعم، ان للمؤمن على المؤمن حقوقاً يجب عليه أن يؤديها حتى يستحق لقب الايمان. وليست العبادة الصلاة والصوم والحج... فحسب، بل تتجلى العبادة في كل عمل اجتماعي أمر به الله، فيه التحابب والتوادد والتراحم والتعاطف وإيجاد حياة اجتماعية سعيدة. وهو قول أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن».

هذا دين جعل القيام بأداء حقوق المؤمن أفضل العبادات وأجلها. أفلا يجدر بالعالم أن يتخذ هذاالدين ديناً عالمياً وتربية عالمية لانقاذ هذا البشر مما ينتابه من شرور وويلات؟ أفلا يليق بفلاسفة الأخلاق وعلمائها أن يجتمعوا أياماً وأشهراً وأن يتتبعوا هذا الدين بامعان وانعام وأن يتفقهوه بتبصر وأرواح مجردة عن العصبية والحمية الجاهلية فيقرؤا «الاسلام» كدين عالمي ويجبروا الحكومات على تقبله وتطبيقه.

نعم، من نواميس هذا الدين ما يقول جعفر الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينكم متراحمين، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم... على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله».

هذا دين اجتماعي يجمع بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع، وسعادة الانسان بعد الموت تلك السعادة التي تستغرق ملايين السنين، لا نفاد لها ولا

انتهاء. تلك السعادة التي هي فوق حدود التصور ودائرة التفكير. نعم، لا يمكن الوصول إلى هذه السعادة إلا إذا طبق دستور أبي عبد الله (ع) وهو القائل: «اتقوا الله وكونوا أخوة بررة متحابين في الله، متواصلين، متراحمين، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه».

ونسأل الله التوفيق للايمان الصادق والأخوة الكاملة والتحابب والتواصل والتراحم والتزاور والتلاقي وإحياء أمر الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام.



التآلف في الاسلام

الاسلام دين الألفة والتوادد والتحابب في الله، دين الاجتماع والتعاون والتعاضد، دين لو عمل بنواميسه وطبقت قوانينه ونظمه لرأيت الأرض جنة من الجنان وفردوساً كان يحلم به أفلاطون، بل فوق ما كان يتصوره أفلاطون وغير افلاطون من الفلاسفة بدرجات. ذلك لأن ما كان منبعه فياضاً، منبعه الافاضات الربانية لا ينضب ولا يغور بل يزداد بصورة لا تتناهى نحو الكمال إذ أن المنبع الفياض لا نهاية له ولا أمد. ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾. ﴿وان تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

إن الله تعالى يقول في مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة معظماً شأن الائتلاف: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾. وهو القائل: ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ أي بنعمة الالفة. ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. ان هذا لدستور هام للأمم الاسلامية يأمرهم بوجوب الاتحاد والاتفاق متمسكين بحبل الله المتين جميعاً وهو دينه القويم، عاملين به، غير منحرفين عنه قيد شعرة. وقد قدم التمسك بحبل الله والتدين بدينه القويم على عدم الفرقة، مشيراً إلى أن التمسك بالدين تمسكاً صحيحاً يؤدي إلى عدم الفرقة وتمام الالفة، لأن الايمان يلقي في النفس الانسانية نوراً يتجاذب مع بقية الأنوار الايمانية التي تماثله، فألفة المؤمنين أمر طبيعي وخاصية طبيعية كخواص الأجسام المادية.

أنظروا ماذا يقول سيد البشر المربي الأعظم خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله في هذا المقام: أنه صلوات الله عليه يقول: «المؤمن إلف مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف». وهذا هو السر في أن الدين الاسلامي يرغب الناس كثيراً في التسليم والمصافحة والمعانقة.

قال رسول الله (ص): «أولى الناس بالله تعالى وبرسوله من بدأ بالسلام». فان رسول الله (ص) والأئمة الأطهار (ع) كانوا يبدأون الناس

بالسلام مع مقاماتهم الرفيعة التي انحصرت فيهم، فان البدء بالسلام يكسر كبرياء النفس وغرورها. ولا يبعد العبد عن الافاضات الربانية شيء كالكبرياء والتبختر. وقال علي عليه السلام: «لا تغضبوا ولا تقبضوا، أفشوا السلام وأطيبوا الكلام. وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وقد جاء في الحديث: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين يغسل أحدهما الأخرى» ما تلاقى المؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً.

إن علياً عليه السلام صاحب ذات ليلة مسيحياً في الكوفة، وهو خليفة المسلمين، حتى كانا في مفترق الطريق، فلم يفارقه علي (ع) بل صاحبه ماشياً نحو بيت المسيحي إلى مسافة ما، ثم ودعه وأمَّ الرجوع، فقال له المسيحي: ظننت أن لك في هذه الحارة شغلاً، فقال عليه السلام ما مؤداه: كلا، بل من شأن المصاحب أن يشايع صاحبه إلى مسافة ما. هذه أخلاق خليفة المسلمين مع مسيحي وهو دستور رائع يجب أن يقتدى به. فان الاسلام إنما جاء لاتمام مكارم الأخلاق.

ثم ان الدين الاسلامي قد نص على أن تكون الألفة مع مؤمن يذكر الله ويذكر الله. لأن الألفة كثيراً ما تؤدي إلى الفساد والافساد. فكم من أناس بسطاء اكتسبوا صفات ذميمة وأخلاقاً سيئة بنتيجة الألفة والمصاحبة، لأنهم لم يفكروا في ديانة المصاحب وأخلاقه ونبله، وان هذه النقطة الدقيقة يجب أن تلاحظ في عنفوان الشباب ودور المراهقة حيث تتهيج في الشباب احساسات شتى وميول عدة. فان صادق أصدقاء طيبين أتقياء سلم واجتاز هذه المرحلة العصبية بسلام وإلا وقع في أشراك شياطين الأنس حيث الهوة السحيقة والتسافل المرير. فخير لشاب لا يجد صديقاً تقياً نجيباً أصيلاً أن يبقى وحيداً فريداً لا يعاشر أحداً. فان العزلة خير من الوقوع فيما يدنس النفس الانسانية ويلوثها ويبعدها عن الساحة القدسية الالهية. لذلك يقول رسول الله (ص): «عاشروا من يذكركم الله» وفي حديث آخر: «لا تجالس شراب الخمر فان اللعنة إذا نزلت عمت من في المجلس». وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

فترون أن الألفة مقيدة بذكر الله وطاعة الله وإقامة حدود الله، وقد قال الصادق عليه السلام: «إن المسلم إذا رأى أخاه كان حياة لدينه إذا ذكر الله». وقال (ع) لأبي خديجة: «كم بينك وبين البصرة؟ قال: في الماء خمس، إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان أو نحو ذلك. فقال ما أقرب هذا، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضاً، فإنه لا بد يوم القيامة أن يأتي كل انسان بشاهد يشهد له على دينه».

وقد نهى الدين الاسلامي عن التباغض والتدابر وهو القائل: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا». وقد قال رسول الله (ص): «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، والسابق إلى كلام أخيه أسبقهما إلى الجنة». ويراد من الأخ هنا: الأخ المسلم. وكم رأينا اخواناً من أبوين هجر أحدهم الآخر لأمر تافه. ولو رجعوا إلى عقولهم لعلموا أن الشيطان هو الـذي ألقى بينهم العداوة والبغضاء وأرادهم متفرقين، متباغضين.

جاء في أعمال ليلة القدر أن أول عمل وأفضل عمل يقوم به المؤمنون هو قلع الضغائن والأحقاد من القلوب. قال رسول الله (ص): «لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». وقال أيضاً: «أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلا كانا خارجين من الاسلام ولم يكن بينهما ولاية، فأيهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب». فحري بكل مسلم حدث بينه وبين مسلم آخر احنة أو سوء تفاهم أن يسبق إلى منزله، يسلم عليه ويتفاهم معه ويقلع الاحنة والبغضاء بكلمات طيبة، لا تأخذه في الله لومة لائم، ليكون هو السباق إلى الجنة.

أنظروا ماذا يقول الصادق (ع) في هذا المقام: «لا يفترق رجلان على الهجران إلا استحق أحدهما البراءة واللعنة، وربما استوجب ذلك كلاهما. فقال له، معتب: جعلني الله فداك، هذا الظالم، فما بال المظلوم؟ قال: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته ولا يتعامس[1] له عن كلامه. سمعت أبي (ع) يقول: إذا تنازع إثنان فعادى أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول

---

(١) لا يتعامس: لا يتغافل ولا يتجاهل.

لصاحبه، أي أخي، أنا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فان الله تعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم».

هل يتصور انسان أن هناك دستوراً يؤلف بين الناس أعظم من هذا الدستور الالهي، يأتي الصديق المظلوم إلى صديقه الظالم فيتهم نفسه ويقول أنا الظالم، ليرفع ما بينهما من تشاحن وتباغض، فيحزن الشيطان إذ ذاك، إذ أنه لتباغض المسلمين بالمرصاد. فقال أبو عبد الله (ع): «لا يزال ابليس فرحاً ما تهاجرالمسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله، ونادى يا ويله، لما لقي من الثبور».

قال الباقر (ع): «أن الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد وقال: فزت. فرحم الله أمرأ ألف بين ولين لنا، يا معاشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا».

ومن أفضل أنواع التآلف صلاح ذات البين وإدامة المودة والمحبة بين الأرحام. فان علياً عليه السلام يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وان البغضة حالقة الدين، ولا قوة إلا بالله، أنظروا ذوي أرحامكم، فصلوهم، يهون الله عليكم الحساب».

وقال عليه السلام: «عليكم بالتواصل والتباذل والتبار وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله أن الله شديد العقاب». يقول الله جل وعلا: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾. ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم».

التزاور في الاسلام

الاسلام دين جامع لجميع الكمالات التي تؤدي إلى كمال الفرد وكمال المجتمع، وليس ديناً يأمر بالعبادة فحسب. فالمؤمن مستجمع لجميع الكمالات الفردية والاجتماعية وما به يكون الانسان انساناً كاملاً.

وقد زعم بعض من أخذ طرفاً من مدنية الغرب وآدابها الاجتماعية أن الاسلام: دين زهد وانزواء وجمود وخمول، وأنه لا يصلح لتحقيق مدنية فاضلة تؤدي إلى تكامل الأمة وسيرها في ساحات الرقي والتقدم، وأخذ يلتمس الرقي في تقليد الغرب ـ تقليداً أعمى ـ في حياتها الاجتماعية الخالية من أسس الكمال، تلك الحياة العارية عن الأسس الروحية والفضائل العليا التي يبلغ بها الانسان ذروة الكمال. كل ذلك لجهله نواميس الاسلام وآداب الاسلام وأوامره ونواهيه. ذلك لأن المدارس لم تهتم بهذه الناحية وأهملتها إهمالاً أدى إلى مقت الشاب الدين الاسلامي وطلبه السعادة والنور في أحضان الغرب.

نعم، ان طالبنا ليعلم عن جبال استراليا وجزر الفليبين أكثر مما يعلمه عن دينه: ذلك الدين الذي منَّ الله تبارك وتعالى به عليه من بين سائر الأمم، وبعث نبيه (ص) في خير بقاع الأرض وهي مكة المكرمة. ولا تزال مدارسنا لا تدرس الدين الاسلامي تدريساً يشبع الطالب بحقائقه وجلائل سننه وتعاليمه وكم مدرساً تجدون في العراق قد أحاط بفلسفة الدين الاسلامي وعمل به عملاً يستوجب الاقتداء والاتعاظ.

ولم يحصل هذا التبلبل في العقائد وهذه الاتجاهات الباطلة الفاسدة والمبادىء الهدامة إلا من جراء عدم وجود مدرسين أكفاء يدرسون الدين الاسلامي في المدارس بعقيدة راسخة وإيمان رصين مع تطبيق حقيقي. وعدم تخصيص حصص كافية تتناسب وسعة هذا الموضوع الحيوي.

بديهي أن الانسان لا يخلو من اتجاه، كما لا يخلو مكان على وجه الأرض

من هواء بصورة اعتيادية. فان لم يتجه الفرد إلى الحق والصواب، فهو متجه لا محالة إلى الباطل والفساد: «إن النفس لأمارة بالسوء».

أنظروا إلى ما يقوله هذا الدين القويم في حسن التعارف وإيجاد حياة سعيدة اجتماعية. قال رسول الله (ص): «ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه». هذا دين يوفق بين سعادة المجتمع وسعادة الفرد بربط أعمال الفرد إلى الله وتقريبه إليه. ويقوي رابطة العبد والمعبود إلى حد بعيد. لأن الكمال الانساني يتناسب مع قوة هذه الرابطة. ومن أين يستقي هذا الانسان المخلوق من نطفة مذرة الفضائل والكمالات؟ أليس من خالقه العظيم المنعم المتفضل المنان، وهو القائل: ﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾. الغربي لا يدخل ضمن روابطه الاجتماعية مفهوم التقرب إلى الله والقيام بالأعمال الصالحة لوجه الله، بل روابطه نفعية مادية حالكة، لا يرجو من ورائها إلا المنافع الخسيسة، فهي مظلمة، قاتمة دكناء، ألا ترى أن الغربي إذا فكر في مصيره بعد الموت تختلج أعصابه وترتبك أفكاره، فيزيحها بخمرة أو مجلس قمار أو رقص، فيدنس بها نفسه أكثر مما هي عليه كي لا يشعر بمصيرها: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

وعن أنس قال: «كان الرسول صلى الله عليه وآله إذا افتقد الرجل من اخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فان كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً زاره وان كان مريضاً عاده».

وعن أبي حمزة عن أبي عبد الله الصادق (ع) أنه قال: «من زار أخاه لله لا لغيره التماس موعد الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه ألا طبت وطابت لك الجنة».

هذا خيثمة يقول: دخلت على أبي جعفر «وهو الامام الباقر عليه السلام» أودعه فقال: يا خيثمة، أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأن يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، وأن يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فان في لقيا بعضهم بعضاً حياة

لأمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا، يا خيثمة أبلغ موالينا: أنا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولا يتنا إلا بالورع. وأن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالف إلى غيره».

هذا دين جعل زيارة الاخوان في الله بمثابة زيارة الله على سبيل المجاز تعظيماً لشأن المؤمن واهتماماً بالتربية الاجتماعية. فقد قال جعفر الصادق عليه السلام: «من زار أخاه في الله، قال الله عز وجل: إياي زرت وثوابك علي ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة».

فهذه الزيارة لله وفي الله وابتغاء لوجه الله الكريم. لا يرجى من ورائها تثبيت في وظيفة حكومية أو مقدمة لنيل درجة أو مقام من المقامات أو جلب نفع مادي، بل يؤتى بها أداء لحقوق المؤمن فحسب وتعظيماً لشأنه.

هذه زيارة لا يتخللها غيبة ولا اتهام ولا افتراء. هذه زيارة لا ترى فيها محلاً للقمار والميسر ولا أثراً للخمرة ونظرات السوء. هذه مجالس لا ترى فيها التلذذ بأعراض الآخرين من رقص وغرام وتغزل بالباطل. هذه مجالس يذكر فيها اسم الله تعالى ويتخللها تسبيح وتحميد والتحدث في ما يهم المسلمين وقضاء حوائجهم. هذه مجالس تذكر الآخرة وتوجه الانسان إلى محاسبة نفسه فقد جاء في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوها قبل أن توزنوا». هذه مجالس تكفر عن الذنوب بما يتخللها من انابة واستغفار فقد جاء في الحديث: «عاشروا من يذكركم بالله». هذه مجالس ينظر اليها الله بنظر الرحمة ويتغمدها بعظيم ألطافه.

نعم، في هذه المجالس تزاور يصفه أبو عبد الله عليه السلام بقوله: «من زار أخاه في الله في مرض أو صحة لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادون في قفاه أن طبت فطابت لك الجنة. فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن حتى يأتي منزله. فقال له بشير (وهو أحد أصحابه) جعلت فداك، فان كان المكان بعيداً؟ فقال عليه السلام: نعم يا بشير، وان كان المكان مسيرة سنة، فان الله جواد، والملائكة كثير يشيعونه حتى يرجع إلى منزله».

أنظروا إلى أثر زيارة الأخوان في حسن العاقبة فان الامام محمد الباقر عليه السلام يقول: «ان الله عز وجل جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله».
فان «لقاء الأخوان مغنم جسيم وان قلوا» كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام.

لا أعلم نظاماً اجتماعياً أعلى من هذا النظام يكفل سعادة النشأتين ويبلغ بالانسان إلى أقصى حد من مراتب الكمال، ولا أرى تحاباً فوق التحابب في الله ولله، ولا أرى فضيلة أسمى مما نصت عليه التعاليم الاسلامية الرفيعة.
ونسأل الله تطهير القلوب وتوفيق التحابب والتراحم والتزاور في الله... وما أحوج العالم الاسلامي إلى التفاهم والتآزر وصرف هذه الطاقات، التي يتجلّى فيها الايمان لدعوة شاملة ورفع لواء الاسلام في أصقاع الأرض عالياً، حتى لا تكاد تسمع في أية بقعة من بقاع الأرض إلا قائلاً يقول: لا إله إلا الله... محمد رسول الله...



التعاطف في الاسلام

إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء. لذلك اهتم الدين الاسلامي بتقويم الأخلاق اهتماماً بالغاً فوق حدود التصور والخيال وجاء بدساتير متينة مثالية لا يضاهيها أي دستور بشري. فقد قال رسول الله (ص): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فإنما أداة حصر، أي أن علة بعث الرسل وإرسال نبينا محمد بن عبد الله (ص) إنما هي تكميل مكارم الأخلاق وإبلاغ الانسان إلى آخر حد ممكن من الكمالات الأخلاقية، لكي يخرج من هذه الدنيا زكياً نقياً طاهراً حرياً ليحشر مع «الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

فمن جملة تلك الأخلاق المثالية الفاضلة ما يرويه محمد بن يحي عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن سنان عن كليب الصيداوي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما أمركم الله عز وجل».

هذا دستور اجتماعي قويم لو عمل به المسلمون لأضاؤا العالم بأنوارهم ولكانوا خير وسيلة لاخراج البشر من دياجير المادية الدكناء.

فعلى المسلمين أن يربوا أولادهم منذ نعومة أظفارهم على التراحم والتعاطف والتوادد والتحابب بصورة عملية: يرسل الوالد ولده لمساعدة جاره العاجز في شؤونه البيتية، أو يرسل معه ثيابه التي لا يحتاجها إلى أناس فقراء، أو يرسل معه ما فضل من طعامهم إلى بيت مسكين من المساكين أو يعطيه مبلغاً ليقدمه إلى مقعد أو ذي عاهة لا يطيق عملاً. وليعلم ولده أن يجعل عمله هذا لوجه الله الكريم وأن يرجو بذلك رضا الله تبارك وتعالى. فان كثيراً من الناس يقومون بأعمال صالحة ولكنهم لجهلهم أو ظلمة نفوسهم لا يقومون بها ابتغاء مرضاة الله تعالى بل خدمة للانسان. فان هؤلاء قد يجازون ازاء خدمتهم هذه جزاء حسناً في الدنيا من عز دنيوي ورفاهية وصحة وطول في

العمر ولكن ليست لهم مكافأة أخروية بعد الموت، ولا يفيدهم عملهم الصالح يوم «لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم». في يوم «يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه، كلا أنها لظى نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى». في يوم ﴿يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾. ذلك لأن كمال النفس الانسانية إنما يحصل بتوجهها إلى الله تعالى وشكرها لله وخضوعها لله وربط الأعمال كلها الى الله. وكلما قويت هذه الرابطة ـ أي الرابطة بين العبد والمعبود ـ سطعت من الأنوار الالهية على العبد أنوار قدسية وسار العبد في ساحات الكمال بسرعة متناهية وخرج من عالم الناسوت وتخلص من براثن المادة العمياء، وما بيناه تفسير لقوله تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾. فان رضا الله تبارك وتعالى منوط بأن تكون الأعمال الصالحة ابتغاء لوجهه الكريم وتقرباً اليه، ولا تفيد الخدمات الانسانية المجردة عن روح الشكر والتقرب إلى الله تعالى.

ويا حبذا لو قامت المدارس بتأسيس جمعيات اسلامية أو لجان للارشاد الديني لتطبيق ما جاء في الدين الاسلامي من دساتير التراحم والتعاطف بصورة عملية. تجمع هذه الجمعية أو لجنة الارشاد الديني من الطلاب الأغنياء بعض المبالغ اليسيرة وما خلق (بلى) من ثياب وحذاء فتذهب بها إلى بيوت الأرامل والأيتام، فتقدمها بكل احترام وبآداب اسلامية وتعمل في إقامة الصلاة داخل المدرسة وفي المساجد والقاء خطب دينية، إلى ما هنالك...

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره والمواساة له في ماله والخلف له في أهله والنصرة له على من ظلمه، وإن كان نافلة في المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبه، وإذا مات، فالزيارة إلى قبره، وأن لا يظلمه وأن لا يغشه وأن لا يخونه وأن لا يخذله وأن لا يكذبه وأن لا يقول له أف، وان قال له: أف، فليس بينهما ولاية، وان قال له أنت عدوي فقد كفر أحدهما، وإذا اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء»: (انماث: ذاب).

فترون أن الايمان يتناسب مع القيام بالواجبات الأخلاقية، فكلما قام الانسان بالواجبات الاخلاقية لوجه الله الكريم وطلباً لمرضاته تعالى قوي إيمانه وزاد يقينه وكلما تماهل وتكاسل في تطبيق الأوامر الأخلاقية الاسلامية ضعف إيمانه وتضعضع يقينه.

هذا أبان بن تغلب كان يطوف مع أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) حول البيت والطواف أمر واجب لا يتم الحج إلا به. فعرض له رجل يسأله حاجة يريد به الذهاب معه، فكره أن يدع أبا عبد الله (ع) ويذهب لقضاء حاجة أخيه المؤمن، وقد أشار اليه صاحب الحاجة مرة ثانية. وإذا بأبي عبد الله (ع) يراه، فأمر أبان بن تغلب بقطع الطواف والذهاب إلى قضاء حاجة الأخ المؤمن، ولو كان هذا الطواف طواف الفريضة. ثم يسأل أبان الامام (ع) عن حق المسلم، فيجيب (ع): حق المؤمن أن تقاسمه شطر مالك. ثم نظر على أبان أمارات التعجب. فيقول الامام (ع): يا أبان، أما تعلم أن الله عز وجل ذكر المؤثرين على أنفسهم. فيقول أبان: بلى، جعلت فداك، فيقول الامام (ع): «أما إذا قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر». وقد جاء في حلية الأولياء: أن زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام قاسم الله ماله مرتين.

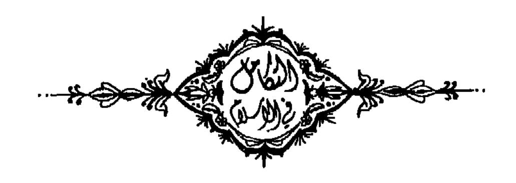
يقول محمد بن عجلان: كنت عند أبي عبد الله الصادق (ع) فدخل رجل فسلم. فسأله كيف من خلفت من اخوانك؟ فأحسن الثناء وزكى وأطرى فقال له (ع): «كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم. فقال: قليلة. قال: فكيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة. قال: فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟ قال: أنك لتذكر أخلاقاً قل ما هي في من عندنا. قال: فقال (ع): فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة».

يقول أبو اسماعيل: قلت لأبي جعفر ـ وهو الامام محمد الباقر (ع) جعلت فداك: ان الشيعة عندنا كثير. فقال: «هل يعطف الغني على الفقير ويتجاوز المحسن عن المسيء ويتواسون. فقلت: لا. قال: ليس هؤلاء شيعة. إنما الشيعة من يفعل هذا».

وقد سأل معلى بن خنيس الصادق عليه السلام عن حق المؤمن فقال: سبعون حقاً. لا أخبرك إلا بسبعة، فاني عليك مشفق، أخشى أن لا تحتمل فقلت بلى، إن شاء الله تعالى. فقال (ع): «لا تشبع ويجوع ولا تكتسي ويعرى وتكون دليله وقميصه الذي يلبسه ولسانه الذي يتكلم به وتحب له ما تحب لنفسك وإن كانت لك جارية بعثتها لتمهد فراشه وتسعى في حوائجه بالليل والنهار. فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا وولايتنا بولاية الله عز وجل».

هذا دين يهتم بشؤون الفرد والمجتمع وإيجاد حياة سعيدة للجميع الى حد بعيد حتى جعل ذلك من صلب الدين وواقعه، وعد ذلك من أفضل العبادات. فان علياً عليه الصلاة والسلام يقول: «إن لله عباداً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها. فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم».

ليست السعادة الحقيقية في جمع المال فحسب، بل في بذله وإنفاقه لوجه الله الكريم. فبذلك تتكامل النفس وتتخلص من براثن المادة وتتصل بالملكوت الأعلى وتكون انساناً كما يرتضيه الله تبارك وتعالى، ونسأل الله أن يوفقنا إلى إتباع سنة الرسول وآله الأطهار عليهم الصلاة والسلام، فنكون متعاطفين متراحمين مؤمنين.



آداب السلام في الاسلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ ومعنى ذلك: لو أن أحداً سلم عليك بقوله: السلام عليك. فيجب عليك إما أن تقول: (السلام عليك ورحمة الله) أو (وعليك السلام ورحمة الله). أو تقول: (وعليك السلام). فإن قلت: (وعليك) ولم تزد فقد عصيت. كل ذلك لأن الدين الاسلامي يحافظ على حقوق الأفراد غاية المحافظة ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مقدرين بعضهم حقوق البعض. فالذي يسلم أولاً هو ذو حق وفضل فينبغي أن يجازى بأحسن مما أتى به. وهذا ما يقره العقل ويأمر به الدين الاسلامي. وهل لأحد أن يجد في الدين الاسلامي أمراً أو نهياً أو تكليفاً يخالف العقل المتكامل. وعن ابن عباس في تفسير الآية المتقدمة: «إذا قال المسلم: السلام عليكم، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقد حييته بأحسن منها وهذا منتهى السلام». وروى: «أن رجلاً دخل على النبي صلى الله عليه وآله، فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال النبي (ص): عليك السلام ورحمة الله وبركاته. فجاءه آخر يقول: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال النبي (ص): وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقيل يا رسول الله: زدت للأول وللثاني في التحية ولم تزد للثالث فقال: أنه لم يبق لي من التحية شيئاً. فرددت عليه مثله».

روى الواحدي باسناده عن أبي امامة عن مالك بن التيهان. قال: «قال رسول الله (ص): من قال: السلام عليكم، كتب له عشر حسنات ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله، كتب له عشرون حسنة. ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتب له ثلاثون حسنة». وقال رسول الله (ص): «السلام تطوع والرد فرض». ثم الرد ربما يكون من فروض الكفاية ومعنى ذلك: لو أن رجلاً دخل مجلساً وسلم لا على شخص معين. فان رد عليه: (السلام) شخص من الجالسين أو أشخاص عدة سقط التكليف عن الآخرين. وإن خص بالسلام أحداً من الحاضرين فقد تعين عليه الرد. وقال أيضاً: القليل

يبدأون الكثير بالسلام والراكب يبدأ الماشي وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير. وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال. كل ذلك لتعليم الغني التواضع للفقير بما أنعم الله عليه. وقد دلت الأخبار أن رسول الله (ص): كان يسلم على النساء ويرددن عليه. وان السلام على الشابة مكروه تخوفاً من استحسان صوتها. فيدخل على المسلم من الاثم أكثر مما يطلبه من الأجر.

وقد مر رسول الله (ص) على صبيان فسلم عليهم. وان الشارع قد أوجب رد السلام وإن كان المخاطب بالسلام في حالة الصلاة الواجبة أو المستحبة. فان كنت في صلاة وسلم عليك رجل او امرأة بان قال أحدهما: سلام عليكم، وجب أن تقول في الجواب. سلام عليكم وان تسمعه. ففي الصلاة تضارب بين حق الله وحق العبد وهو المسلم، فالله تعالى لعظيم لطفه آثر حق العبد على حقه وأمر بأن يرد المصلي السلام وأن يستمر في صلاته من حيث انتهى اليه. وهذا شأن الدين الاسلامي في جميع أحكامه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: إذا مرت الجماعة بقوم أجزأهم أن يسلم واحد منهم وإذا سلم على القوم وهم جماعة أجزأهم أن يرد واحد منهم. وقد قال رسول الله (ص): إبدأوا بالسلام قبل الكلام. فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه. وقال أيضاً: «أولى الناس بالله ورسوله من بدأ بالسلام». وقال أبو جعفر الامام الباقر عليه السلام: «ان الله يحب إفشاء السلام». وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من التواضع أن تسلم على من لقيت»، وقال أيضاً: يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير.

هذه آداب يقرها الدين الاسلامي احتراماً لحقوق الأفراد مهما كانت مراتبهم. ومع الأسف نرى بعض المسلمين يغفلون عن تطبيق هذا الدستور الاسلامي الرفيع. نرى أناساً يردون السلام مع شيء من الكبرياء والتبختر أو لا يردونه رداً تاماً، فيكونون آثمين. نرى قسماً من الناس يردون السلام بصوت خشن قائلين (عليك) أو (عليكم). تكبراً على من تفضل فسلم عليهم. ولا شيء أبغض عند الله من الكبر. فان الله تعالى يسلب إيمان المتكبر لكبره. فالكبرياء خاصة به تعالى. ان الله تعالى يقول: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق». وان الكبر من أصول الكفر

ويؤدي إلى ضعف الايمان بل سلبه. ففي الحديث، أصول الكفر ثلاثة: الحسد والبخل والكبر. ثم يستحسن رد السلام مع البشر والابتسام. فان المؤمن هش بش. وان رسول الله (ص) كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب فلا يحسن بالمسلم أن يرد السلام بإمتعاض وخشونة بل يستحب له أن يجازي المحسن مع زيادة لسابق فضله.

قرأت للأستاذ محمد علي الحوماني مقالاً قبل حوالي خمسة عشر عاماً يقول فيه ما مؤداه: بينما كنت أسير في طرقات لندن، عند الزوال وإذا بي أشاهد رجلاً كبير السن واقفاً على عتبة داره يؤذن لصلاة الظهر، فانتظرت حتى أنهى الآذان. فسلمت عليه قائلاً: السلام عليكم، فأجاب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. عملاً بالآية المباركة: ﴿وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾. ثم تعارف معي وطلب الي الدخول إلى البيت، فدخلت، فرأيت أنه قام مع عقيلته فصلياً صلاة الظهر، ثم جلسا على مائدة الطعام وألحا عليّ أن أتناول معهما الطعام وقد لفت نظري أنهما لم يبدءا بالأكل حتى قالا: (بسم الله الرحمن الرحيم) ولما انتهيا من الطعام، قالا: (الحمد لله رب العالمين). ان الشيخ كان أحد كبار الأساتذة في جامعة لندن، قد اعتنق الدين الاسلامي عن تتبع وتنقيب وبحث عميق. وكم من رجال في الغرب: أولئك الذين لم يلوثوا أنفسهم بالخمور والفجور والمراقص والمجون والربا وأكل لحم الخنزير، اعتنقوا الدين الاسلامي وخرجوا من الظلمات إلى النور. ذلك لأنه لا مجال للضوء والنور (وأعني به الايمان) أن يدخل نفوساً مدلهمة حالكة بالمعاصي والآثام. ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً واستكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ (سورة فاطر: ٤٣)، لا سيما إذا بلغت النفوس مرتبة من التسافل حتى صارت ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، أي بلغت درجة من الانحطاط حتى انطفأت آثار الفطرة، فأمست لا تبصر الحق، بل الحق لديها ما هي عليه من تساهل مرير: «فأنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

ونرى بعض المسلمين إذا دخلوا مجلساً عند الصباح قالوا: صباح الخير. وقالوا عند المساء: مساء الخير. أو رفعوا أيديهم كعلامة للتحية. فلا يحيون الحاضرين بتحية الاسلام، اقتباساً عما جاءنا من الغرب. ما أثر رفع اليد في جلب الخير للمخاطب. وما معنى صباح الخير؟ أي أرجو أن يكون صباحك خيراً. وما قيمة هذا الرجاء إن لم يقترن بمشيئة الله تعالى. وما قيمة الرغبات الشخصية، والأمر كله لله. فقول المسلم: السلام عليكم ورحمة الله، وتعقيب ذلك بـ (صبحكم الله بالخير) هو إرجاع الصحة والسلامة والخير إلى الله تعالى وطلب ذلك كله للشخص المخاطب، من الله تعالى.

وقد سمعت في لبنان يقول أحدهم لآخر عند ملاقاته ليلاً: (سعيدة) أي لتكن ليلتك سعيدة. ما أثر هذا الأمل في جعل الليل سعيداً، لو لم يرد الله تعالى ذلك. فالأمور كلها بيده تعالى. فطوبى لمن توكل عليه وعمل بما أمر به، ليفوز بسعادة حقيقية أبدية. ان المدنية الحاضرة في تحياتها تمثل الدور الجاهلي، فلا تجد لذكر الله فيها أثراً. وان تقليد الغرب في الآداب الاجتماعية هو الارتجاع (أي الرجعية) بالمعنى الصحيح.

نعم، أنا قد تأثرنا بمدنية الغرب المادية في آدابنا الاجتماعية وأصبحنا مقلدين حتى في ما تعودنا عليه منذ ثلاثة عشر قرناً. إذا دخل الرجل منا قال: مرحباً. عوضاً عن أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله. لأنه يرى ذلك أقرب إلى القبول وأطيب إلى القلوب. مع أن الله يريد بنا أن نذكره دائماً كي تتصل أعمالنا وأرواحنا به تعالى ونستقي من ينبوعه الفياض جميع الكمالات التي بها يكون الانسان انساناً. فان «ذكر الله حسن على كل حال». ولم يستثن الشارع موضعاً لا يذكر فيه اسم الله.

ولا ريب أن لذكر الله تعالى أثراً عظيماً في ردع النفس عن غلوائها وشهواتها ونزواتها. فقد جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وجوب التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا﴾. وقوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾. وقال تعالى: «فاذكروني أذكركم».

كثيراً ما نجد أناساً تغلغلوا في المدنية الغربية لا يذكرون اسم الله في كل يوم وليلة ولا مرة واحدة. انهم قد يحترمون آباءهم ويقدسون أمهاتهم وهو ما أمر الله تعالى به، ولكنهم لا يذكرون ولا يعظمون من تفضل عليهم بالآباء والأمهات. وقد جاء في حديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

إن العلامة الفارقة بين المدنية الاسلامية والمدنية الغربية: أن شعار الثانية رفع مفهوم الله عن الحياة الاجتماعية وربط الأمور بحبول مادية مقتضبة خسيسة والاعتماد على الوسائل المادية. ولذلك تتحجر النفس في هذه المدنية فلا تشعر بما وراء الطبيعة ولا تعترف به. «فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعلمون». وان هذا البشر لميال إلى رفع القيود والتدهور والتسافل. فيتقبل ما يؤدي إلى التسافل وينطبع عليه أسرع مما يؤدي إلى التعالي والتكامل. وان المادية بآثارها ومظاهرها ونتائجها وخلاعتها ومجونها وصحافتها ومسارحها ومراقصها واعلاناتها تدهور وتسافل. لذلك تجد قبولاً بسائق الغريزة من أناس غلبوا على أمرهم فخالفوا ما تمليه عليهم عقولهم، فتراءت لهم الشهوات بلباس العقل والفكر والثقافة فاتبعوها حتى صاروا لا يشعرون إلى أين هم سائرون. فطوبى لمن حكم عقله ولم تغره المظاهر الخلابة والمناظر الخداعة، المبعدة عن ذكر الله والآخذة بهذا الانسان المسكين((المغرور بلفظ الثقافة) إلى أسفل سافلين: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

آداب التلاقي في الاسلام

إن الدين الاسلامي قد استوعب كل ما من شأنه ابلاغ البشر إلى أعلى مراتب الكمال. فأعطى حكمه في كل أمر اجتماعي أو خلقي أو حقوقي أو عبادي. حكماً هو غاية الأحكام، حكماً يؤيده العقل السليم، ذلك العقل الذي لم يتلوث بالمدنسات والجرائم، حكماً يصل الانسان إلى كنهه وحقيقته كلما تكاملت معارفه وسمت نفسه. ومن جملة تلك الأحكام وتلك الآداب: ما يقوم به الانسان الاجتماعي عندما يلاقي إنساناً آخر.

فيستحب أن يلاقي المرء أخاه المسلم بالبشر وأن يبدأه بالسلام وان يظهر اليه أنه يوده ويحبه. فعن أبي عبد الله (ع): «مجاملة الناس ثلث العقل». وقد قال رسول الله (ص): «ثلاث يصفين ود المرء لأخيه المسلم: يلقاه بالبشر إذا لقيه، ويوسع له في المجلس إذا جلس اليه، ويدعوه بأحب الأسماء اليه». وان من التواضع: أن يبدأ المسلم أخاه بالسلام لينال الأجر والزلفى. فـ «البادىء بالسلام أولى بالله وبرسوله» و «من أخلاق المؤمن الانفاق على الاقتار والتوسع على قدر الوسع وانصاف الناس وابتداؤه إياهم بالسلام عليهم». كما جاء في الحديث. وقد نهى الدين الاسلامي عن الكلام قبل السلام، فقد قال رسول الله (ص): «إبدأوا بالسلام قبل الكلام فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه».

ومن جملة تلك الآداب المصافحة. فيستحب أن يصافح المسلم أخاه المسلم، فان الذنوب تتساقط عنهما، لأن الله يريد بالمسلمين أن يكونوا متحابين متوادين، متآزرين متعاضدين، وهو القائل: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾. وقد بالغ الدين الاسلامي في ذلك فعد المتباغضين من المؤمنين خارجين عن الاسلام حتى يصطلحا. روى أبو عبيدة الحذاء، قال: «كنت زميل أبي جعفر عليه السلام وكنت أبدأ بالركوب ثم يركب هو، فإذا استوينا سلم وسائل مسائلة من لا عهد له بصاحبه وصافح، وكان إذا نزل قبلي، فإذا أستويت أنا وهو على الأرض سلم وسائل مسائلة من لا عهد له بصاحبه، فقلت له يا ابن

رسول الله، أنك لتفعل شيئاً ما يفعله من قبلنا وان فعل مرة فكثير، فقال: «أما علمت ما في المصافحة، ان المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه، فما تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر اليهما حتى يفترقا». وفي حديث آخر: «ان المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدهما حباً لصاحبه، فإذا أقبل الله عز وجل عليهما بوجهه تحاتت عنهما الذنوب كما يتحات الورق عن الشجر». ومعنى أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما. أي أنزل عليهما عظيم رحماته وجزيل بركاته. على حد قوله تعالى: «يد الله فوق أيديهم». فان الله تعالى لا يشبه مخلوقاته في شيء: «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

فيستحب للمسلم أن يلاقي أخاه المسلم بالتسليم والتصافح وأن يفارقه بالاستغفار، وأن من يلزم التصافح أعظم أجراً من الذي يدع. وكان رسول الله (ص) إذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها. وقد عظم الله تعالى أجر المؤمن حتى جعله أعلى منزلة من الملائكة، وقد جاء في الحديث: «مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة».

كل هذه الآداب، ليستكمل المؤمن مكارم الأخلاق ويتكامل في عالم الوجود. وأهم أدب يتأدب به المؤمن ويقربه إلى الله بل يجعله أهلاً ليكون من المقربين هو التواضع وقلع الكبرياء عن نفسه، فان في كثير من النفوس شيئاً من الزهو والكبر والتبختر والتعجرف، ولا تخضع هذه النفس لله الذي خلقها ولا تسجد له ولا تطيعه في عالم التكامل ما لم تقلع داء الكبرياء عنها، فالبدء بالسلام والمصافحة وتعظيم أمر الأخ المؤمن ممهدات لقلع صفة الكبر وقمعها. وإن طرد ابليس عن الساحة القدسية الالهية لم يكن إلا لتكبره وخيلائه. فـ «أكثر أهل النار المتكبرون» كما جاء في الحديث.

وفي تحف العقول: ان الامام موسى بن جعفر عليهما السلام مر برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثم عرض (ع) عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت له. فقيل يا ابن رسول الله أتنزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهو اليك أحوج؟ فقال عليه السلام:

«عبد من عبيد الله وأخ في كتاب الله وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم (ع) وأفضل الأديان الاسلام ولعل الدهر يرد من حاجتنا إليه فيرانا ـ بعد الزهو لا عليه ـ متواضعين بين يديه، ثم قال (ع):

نواصل من لا يستحق وصالنا مخافة أن نبقى بغير صديق

وكان علي بن موسى الرضا عليهما السلام إذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس. وقد روى الكليني في الكافي أن الرضا (ع) دعا يوماً في سفره إلى خراسان بمائدة له، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقال له بعض أصحابه، جعلت فداك، لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال (ع): «إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد والجزاء بالأعمال».

لنتعلم مكارم الأخلاق من أئمة نوروا الأرض بنور كمالهم وكانوا مثلاً علياً للفضائل وكمال الصفات، لا في إعطاء الدساتير فحسب، بل كانوا في حياتهم العملية فوق ما يملونه من دساتير. فقد روى إبراهيم بن العباس أن الرضا (ع): «ما جفا أحداً بكلام قط ولا قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما رد أحداً عن حاجة قدر عليها، ولا مد رجليه ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا شتم أحداً من مواليه ومماليكه ولا تفل قط ولا قهقه في ضحكه، بل كان يتبسم».

نعم هذه صفات يحق للانسان أن يدعى بها خليفة الله في أرضه. فقد جعل الله للانسان مثلاً أعلى لا يعقل أن يتصور مثلاً أسمى منه مهما حلقنا في جو الخيال واستلهمنا العلم والحكمة، ذلك المثل الأعلى هو انسان قد بلغ مراتب من الكمال، يحق له أن يدعى خليفة الله في أرضه على حد قوله تعالى: «وإذا قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال أني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبؤوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم

بأسمائهم، قال ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» فالأئمة الأطهار عليهم السلام هم المثل العليا وخلفاء الله في أرضه.

إن هذه الآيات الشريفة تصرح بأن أنواع العلوم والمعاني التي لم تصل اليها الملائكة مغروسة في جبلة الانسان، وإذا كان الانسان من سمو الفطرة وشرف التكوين في درجة تسجد له الملائكة فأي وازع أقوى من هذا يزعه عن مقارفة الرذائل ومقارنة الخسائس. وأي دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة وبلوغ النهايات القصوى وذلك بالتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة عليهم السلام.

لو تتبعتم الدين الاسلامي لرأيتم أنه يهدف في جميع دساتيره ونظمه وتعاليمه إلى تكميل النفس الانسانية وابلاغها أعلى مراتب الكمال.

أنظروا كيف يعرف علي (ع) الايمان ويحصره في مقدسات أخلاقية فيها الكمال الانساني. أنه (ع) يقول: «الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك، وأن تتقي الله في حديث غيرك». ولا يخفى أن الانسان لا يبلغ هذه الدرجة من الكمال الأخلاقي إلا بالتقوى ولا تعلم مراتب التقوى ولا تدرك إلا بأداء واجب الشكر لله تعالى، ولا يمكن أداء واجب الشكر إلا بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وإقبال نفسي حقيقي. فمن ظن أنه يبلغ مراتب أخلاقية دون أن يعبد الله حق عبادته فهو كـ «من أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين».

نعم، إن العبادات واجباتها ومستحباتها، والمدنسات محرماتها ومكروهاتها وما قرره الشرع من زكاة وخمس وصدقات واجبة ومستحبة وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر إلى غير ذلك توصل الانسان إلى الغاية العظمى التي خلق من أجلها الانسان وهي الكمال النفسي، ان الفيلسوف قد يعين بصورة ناقصة المثل الأعلى ولكنه لا يقوى أبداً على عرض الوسائل الناجعة التي يبلغ بها الانسان إلى تلك المثل العليا. والدليل على ذلك هو نفس الفيلسوف

الناقصة، تلك النفس التي لم تخط في ساحات الكمال في مجالات تزكية النفس وتطهيرها شبراً. فكيف يريد أن يكون مربياً للعالم وهو أحوج الناس إلى التربية النظرية والعملية في حقل الكمال النفسي.

فطوبى لمن وعى الحق والحقيقة وأقبل على نفسه فأصلحها ولم تأخذه في الله لومة لائم، وارتحل من هذه الدنيا بنفس زكية إلى خلود كله سرور وحبور وجله سعادة وهناء لا يتخلله كدر ولا شقاء.

«وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان أوكانوا يعلمون».



التربية الاجتماعية في الاسلام

الانسان اجتماعي بالطبع، فلا يمكن أن يعيش بصورة منفردة. ولا بد له من الاجتماع والتعاون ولكن إن لم يبنَ هذا الاجتماع على أسس مشروعة صحيحة أدى إلى الفساد والافساد كما نشاهد اليوم. وقد يشذ الانسان عن الاجتماع المرضي عند الله تعالى أو لا يؤدي واجبه نحو المجتمع. أو لا يعلم كيف يقوم بواجبه الاجتماعي في كثير من الأحيان. لذلك عنيت الأديان السماوية بالتربية الاجتماعية والأخوة والتراحم والتعاطف والتوادد وصلة الرحم والرفق واطعام البؤساء والمساكين وإكسائهم. وأكملها وخاتمها الدين الاسلامي. فقد اهتم بالتربية الاجتماعية وشؤون المجتمع إلى حد بعيد.

ففي الحديث: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». وقال رسول الله (ص): «أنسك الناس نسكاً: أنصحهم حباً وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين».

إن المربين لشعورهم بحاجة المجتمع الانساني وحيوية قوة الاجتماع أدخلوا التربية الاجتماعية في مناهجهم وخصصوا لها أبحاثاً وفصولاً وكتباً خاصة. ان التربية الفردية أو الاستقلالية كانت قد تغلغلت في المدارس منذ زمن غير بعيد. ومن مظاهرها تخصيص رحلة خاصة لكل طالب وخزانة خاصة ومختبر خاص ومجموعة خاصة من نماذج النبات والحيوان والأحجار أو قطعة أرض يزرعها الطالب بيده إلى ما هنالك.

لم يكن هنالك اهتمام خاص بالتربية الاجتماعية، ولكن (فروبل) مؤسس جنينات الأطفال قد تنبه إلى هذا النقص، فقال: «إن المجتمع الحاضر يختلف عن الجمعيات القديمة بأن لها روحاً تسمى بالروح الاجتماعي. فعلى الأفراد أن يوحدوا قواهم المعنوية لينجحوا ويحصلوا على نتيجة محسوسة كما هم فاعلون في الحياة المادية وعلينا تقوية التشبث الفردي في التلاميذ بالألعاب على

أن تعقب غاية مشتركة اجتماعية فيكون سرور اللعب مخلوطاً بعمل اجتماعي».

ان الله تبارك وتعالى قد أودع في الطفل جميع القابليات التي من جرائها يكون الطفل فرداً كاملاً مفيداً لنفسه ولمجتمعه. إلا أن الانسان لعدم تفهمه الحياة قد يضغط على هذه القابليات فلا يدعها أن تبرز وتنمو. فالوالدان أو المدرسة كثيراً ما يمنعون الأطفال من الألعاب الاجتماعية أو الفعاليات المشتركة الاجتماعية، ساهين أن ما من طبيعة أو غريزة أودعها الله تبارك وتعالى في الطفل إلا ولها فائدة تعود عليه وعلى المجتمع بالخير لو استعملت واستخدمت حسب قوانين يقرها العقل والشرع. كان علماء التربية إلى زمن غير بعيد يعترفون بمبادىء ثلاثة للطفل: بدنية وعقلية وخلقية وقد فاتهم أن يضيفوا عليها المبدأ الاجتماعي الذي أوشك اليوم أن يسود على المبادىء الأخرى.

يقول (جون دوي) الفيلسوف المربي الامريكي في مقاله: (المدرسة والرقي الاجتماعي): «الجمعية مؤسسة من أفراد يسعون بفكرة واحدة وشعور واحد معقبين غاية مشتركة. فان اشتراك الآمال والحاجات في الجمعيات مما يزيد في تصادم الأفكار ويؤدي إلى تجاذب متقابل. وان ما يمنع مدارسنا عن الرقي الاجتماعي خلوها عن الوحدة الاجتماعية في الألعاب والنزه. فالأطفال حين شروعهم بلعب يقسمون الأعمال فيهما بينهم ويعينون وظيفة لكل واحد منهم. وان أفدح نقص في مدارسنا اليوم اهتمامها بتربية الطلاب في بيئة غير جامعة لمزايا اجتماعية». نعم، ان المدارس الحديثة قد أخذت تربي الطلاب تربية اجتماعية بتوزيع مقدمات الدرس ووسائل الايضاح على ثلة من الطلاب وحملهم على التتبعات المشتركة بشكل اجتماعي. وتشكيل جمعيات مختلفة إلى ما هنالك.

وقد يظن أن التربية الاجتماعية من مكتشفات القرن العشرين، مع أن الدين الاسلامي قد أيد الناحية الاجتماعية إلى حد بعيد. بل ان الدين الاسلامي دين اجتماعي بجميع مظاهره وتعاليمه وذلك بشكل يتناسب مع التكامل الروحي، يتناسب مع الغرض الأسمى الذي خلق الانسان لأجله.

وأي اجتماع خير من اجتماع المسلمين عدة مرات في صلاة الجماعة في جو تعلوه الطمأنينة وتغشاه رحمة رب العالمين.

يعيش الانسان في حياته اليومية في عالم من عدم المساواة وعالم من منازعات وعداء وبغضاء. وان حياة الأخوة الالهية التي تتجلى في صلاة الجماعة تعدل نواقص الحياة الاجتماعية وتلقي دروساً قيمة عن الود والمحبة والمساواة وتدعم قواعد الوحدة ورفاهية الجنس البشري.

إن صلاة الجماعة درس عملي لتطبيق قواعد الأخاء والمودة الالهية وإيجاد مجتمع متآزر متعاضد على أساس الايمان الصحيح. وهكذا تتجلى الأخوة الاسلامية في صلاة العيد وصلاة الجمعة والحج وتشييع الجنائز والتزاور والتلاقي والمصافحة والمعانقة.

والفرق الأساسي بين التربية الاجتماعية الاسلامية والتربية الاجتماعية الغربية أن التربية الاجتماعية الاسلامية ترمي إلى تربية النفس والبدن معاً، فتزكو النفس وتسير إذ ذاك في ساحات الكمال حيث لا حد ولا انتهاء. ولكن التربية الاجتماعية الغربية مادية بحتة ونفعية محضة عليها طابع مادي وهو التقدم في عالم الصناعة وإيجاد وسائل الراحة فحسب، فلا تنفذ إلى الروح الانسانية ولا تعمل في تكميلها وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس. ومن آثارها: هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر.

فجدير بالمسلم أن لا ينخدع بمظاهر الغرب، فان النفوس غير المؤمنة لا يرتجى منها الخير، وأن يعلم أن تراثه في عالم التربية وتكامل النفس غني وغني جداً ولا يحتاج أن يأخذ شيئاً من الغربي في التربية الاجتماعية والاخلاقية والمدنية ففي شريعة الاسلام الغراء يجد الانسان الكمال الأخلاقي بأوسع معانيه الفلسفية السامية. ومما يؤسف له أن ثلة من شبابنا يذهبون إلى الغرب لتعلم بعض العلوم الاجتماعية والتخصص فيها! فيحسبون أن ما يمليه الاستاذ أو الدكتور حقائق ثابتة لا شبهة فيها، ويزعمون أن الدين الاسلامي لم يعالج القضايا الاجتماعية ولم يقل فيها قوله الفصل المؤدي إلى الكمال البشري، فيسخرون من الدين ويهزأون بعلماء الدين ويعبرون عنها بكتب صفراء شأن

الجاهل الذي يعادي ما جهله. ولو أن هؤلاء تخصصوا في الفلسفة الاسلامية وآدابها أو درسوا الدين الاسلامي وعملوا به قبل التخصص في فرع آخر، وورعوا واتقوا وجانبوا المعاصي والآثام، لعدوا هفوات دكاترة الاجتماع وأساتذة الأخلاق، وخرجوا من حدود التقليد الأعمى إلى التفكير الصحيح والجرح والتعديل. ولكن هيهات!.

﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾. (سورة آل عمران: ١٧٩).

ومن هؤلاء الذين يتخصصون في الدراسات الاجتماعية من يركبه الغرور إلى درجة يستهزيء في كتاباته بعبارات المتدينين التي مفادها: التوكل على الله تعالى في الأمور، وتفويض الأمر اليه مع عمل متواصل وجد واجتهاد. فيقول دونما مناسبة: (معاذ الله) وأمثال ذلك. فكأنه غني عن التعوذ بالله تعالى من مكائد الشيطان. وقد فاته أن الدراسات الاجتماعية من أسهل المواضيع تخصصاً، وأسرعها تناولاً، ولو أدخل هذا المتخصص في فرع من فروع علم الاجتماع، جبراً، في فرع من العلوم الرياضية أو الفلكية أو الفيزياوية لرسب حتماً ولما نال هذا اللقب المغري (دكتوراه: Doctorat) ولما تكبر وتجبر ولاعترف بالجهل، والاعتراف بالجهل يفتح على الانسان أبواب الهداية.

إن العلوم الاجتماعية لا تضبط بضابط من حيث الصحة والسقم كالعلوم الرياضية والكيمياوية والفيزياوية. فليس هناك كما يدعى (Determinisme) لتضارب الآراء فيها وتغير هذه الآراء من حين لآخر؛ حتى أنك ترى أن الفيلسوف يغير رأيه في موضوع واحد طيلة حياته مرات مع اتحاد الظروف.

فإذا كان العالم الاجتماعي غير عامل بالدين ومستهتراً بالمقدسات، فلا يترشح من كتاباته في موضوع الدين إلا ما يناسب نفسيته التي أخذت تتسافل بالمعاصي والآثام. لأنه أمسى بذلك لا يبصر الحق ويظن (الشهادة قد نالها) أنه قد بلغ الغاية من التتبع والتحقيق. ان الله تعالى يقول:

﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

فلو أحاطت الخطايا بفرد من الأفراد فلا يترشح منه إلا ما يناسب تلك الخطايا والسيئات. ﴿وكل إناء ناضح بالذي فيه﴾. وبديهي أن الانسان لو حاد بسوء اختياره عن الصراط السوي فان الله تعالى يبعده عن ساحة القدس، وهذه سنة الله في خلقه ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده﴾. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

ولو كان يشك هذا العالم الاجتماعي في ما أقول فليعمد إلى تجربة منجية: فليقم بتطبيق جميع ما أمر به الدين ولينته عما نهى عنه الدين ثم ليأت بشيء من المستحبات، فأنه سوف لا يقول بما كان يقول به قبلاً متبختراً مغروراً. بل يندم على مقالاته المضلة ويبرأ إلى الله تعالى منها، مستغفراً منيباً.

ولنختم هذا المقال بذكر درر من الأحاديث في التساند الاجتماعي. تساند يأمر به الدين الاسلامي ولا يعمل به (مع الأسف) المسلمون إلا أفراداً قلائل.

يقول أبو عبد الله عليه السلام: «عليك بالنصح لله في خلقه. فلن تلقاه بعمل أفضل منه».

ويقول سلام الله عليه أيضاً: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم».

وعن النبي (ص): «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم. ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه، فليس بمسلم».

وعن رسول الله (ص): «الخلقَ عيال الله. فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً».

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «من رد عن قوم من المسلمين عادية: ماءاً أو ناراً، وجبت له الجنة».

وقال الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: «وجعلني مباركاً أينما كنت» قال: نفاعاً.

فيجدر بالمسلم أن يطلع على هذه الكنوز الثمينة من آداب دينه وأن يمليها بلسان فلسفي وتحليل علمي والهام رباني (يأتيه من ناحية التقوى والورع) على أساتذة الغرب وفلاسفتها، فيكون معلماً قبل أن يكون متعلماً. ومؤثراً قبل أن يكون متأثراً. ومن الله التوفيق ولا توفيق إلا بعمل صالح.

الانفاق في الاسلام

إن الأديان السماوية برمتها تأمر بالرحمة والشفقة والرفق والاحسان، وخاتمها وأكملها الدين الاسلامي الذي جاء به خاتم النبيين محمد (ص) رحمة للعالمين لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾. فكل أمة تعمل بنصوص هذا الدين تكون في سلام ودعة وطمأنينة، لا ترى فيها فقيراً ولا مسكيناً ولا بائساً ولا جائعاً ولا عارياً. فالناس كلهم، إذ ذاك، في دعة ورغد ورفاهية تامة كل بحسبه. وهذا شأن الدين الكامل، فأنه يؤسس مدنية فاضلة لا ترى في أية ناحية منها خللاً يحتاج إلى إصلاح بشري.

وقد شاهدنا النظم البشرية والقوانين الموضوعة، تتبدل من وقت إلى وقت ومن حين إلى حين. يشعر الواضعون فيها بالنقص، فيصلحون ما أعوج منها وإذا بهم أمام نقص آخر أو عيب آخر. فالواضعون يضعون القوانين والمصلحون يصلحون والبشر في تعب وعناء وفي خسر ووبال.

أنى لهذا البشر الذي قد حدد عقله أن يأتي بشيء كامل لا نقص فيه، أما أن يأتي بشيء خيالي لا مجال لتطبيقه، وأما أن يأتي بشيء يصلح ناحية ويفسد نواحي عدة، ذلك لأن النفس التي تضع هذا القانون مهما أوتيت من عقل وتفكير محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها وانطباعاتها السابقة والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها.

يقولون: يجب أن يتناسب النظام مع البيئة. أو يجب أن يؤخذ القانون من روح المحيط. فنجيبهم ما قولكم في بيئة فاسدة، في بيئة متفسخة؟ أو هل يصلحها نظام يضعه من هو حامل جراثيم تلك البيئة؟.

يقولون: ان الحاجات تتجدد من وقت إلى وقت، فيجب أن تتغير التعاليم الدينية حسب الحاجات الحادثة. فنقول: ان الله تبارك وتعالى أعلم بحاجات البشر الحقيقية التي تضمن سعادة الدارين من هذا البشر الناقص. وان الحاجات الجديدة تعالج، وتسن لها قوانين على ضوء المبادىء الاسلامية

العامة والأصول المقررة في علم أصول الفقه. نعم، ان النظام يجب أن يكون مجرداً عن الأهواء والتأثيرات الخارجية والداخلية آتياً من منبع فياض زكي نقي لا كدر فيه.

النظام هو نظام الأنبياء، والقانون هو ما سنوه ودونوه. فلا سعادة للبشر ولا هناء إلا إذا اتبعت النظم السماوية. وإن أكملها وأسماها هي النظم الاسلامية الخالدة التي تكفل سعادة الانسان في جميع مرافق الحياة الدنيوية فضلاً عن الحياة الأخروية الخالدة. فان الدين الاسلامي ليس مجموعة عبادات فحسب بل هو مجموعة قوانين رصينة وتعاليم خالدة تعين وظيفة الانسان في معاملاته ومتاجره وفي حياته الشخصية والاجتماعية والمدنية. الا أن الأهواء البشرية قد طغت عليها، فمنعت تعميمها في أرجاء العالم وبذلك بغت على البشرية المسكينة فتاه الناس في دياجير الظلمات وكانت نتيجة ذلك ظهور مبادىء هدامة. وان أشنع هذه المبادىء الهدامة وأفسدها لهو المبدأ الشيوعي، وهذا المبدء هو عصارة المذهب المادي الذي انتشر في اوروبا باسم العلم والعلم منه براء. هو نتيجة شيوع الفحشاء والمنكرات في الغرب، فرجع بثلة من البشرية المسكينة إلى جاهلية جهلاء.

وما أثر العلم إن لم يقترن بالدين، أي يتحد بنفس زكية طاهرة تعمل حسبما أمر به الدين. وان ظهور مثل هذا المبدأ المميت لأمر طبيعي إذا ما درسنا طيش أوروبا وانغمارها في الشهوات والمنكرات طيلة قرون. «فكل اناء بالذي فيه ينضح».

لو أردنا أن نعلم صحة مسلك من المسالك فلننظر إلى واضعيه، فإن كانوا أناساً صلحاء في حياتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية، يخافون الله ويؤمنون باليوم الآخر لا تجرفهم أطماع الدنيا وزينتها وحب الرئاسة جاز لنا أن نفكر في تحقيق هذا المسلك وأن نعرضه على النصوص القرآنية والسنة النبوية والنظم الاسلامية الخالدة فان وافق فذاك، وإلا ضربنا به عرض الحائط.

إن الدين الاسلامي حث على الانفاق والبذل والكرم وإقراء الضيف

والتصدق وإيتاء الزكاة والخمس ضمن آيات عديدة في القرآن الكريم وأحاديث جمة عن النبي (ص) والأئمة (ع). وقد عمل بذلك النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام بمقياس مثالي واسع. فلنقتف آثارهم ليسود السلام في العالم ويهنأ البشر قاطبة.

إن الانفاق في الدين الاسلامي على نوعين: مستحب مؤكد، يكاد يكون واجباً، وواجب مفروض.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾. ماذا يريد الانسان؟ أجزاء أعظم من هذا الجزاء، وهذا هو الانفاق المستحب استحباباً مؤكداً، لو عمل به لأصبح الناس كلهم في رفاهية تامة ولزال الفقر، وهو غير الزكاة الواجبة.

إن الزكاة الواجبة نفسها تكفي الفقراء والمعوزين والمحتاجين. ذلك لأن الامام أبا عبد الله (ع) يقول: «إن الله فرض الزكاة كما فرض الصلاة، فلو أن رجلاً حمل الزكاة وأعطاها علانية لم يكن عليه في ذلك عيب وذلك أن الله فرض في أموال الأغنياء للفقراء ما يكتفون به ولو علم أن الذي فرض لا يكفيهم لزادهم، وإنما يؤتى الفقراء فيما أتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة[1]. يقول الله جل وعلا: ﴿والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. هذا، حسين عليه السلام يفد عليه أعرابي وهو في المسجد فيراه مصلياً يقف بإزائه وينشىء قائلاً:

لم يخب الآن من رجاك ومن ... حرك من دون بابك الحلقه
أنت جواد وأنت معتمد ... أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلكم ... كانت علينا الجحيم منطبقه

فسلم الحسين (ع) من صلاته وقال: «يا قنبر، هل بقي من مال الحجاز

---

(١) معنى يؤتى الفقراء فيما أتوا: أي يبتلون بما يبتلون به.

شيء؟» قال: «نعم أربعة آلاف دينار». فقال: «هاتها، قد جاء من هو أحق بها منا». ثم نزع بردته ولف الدنانير بها وأخرج يده من شق الباب حياءاً من الاعرابي وأنشأ يقول:

خذها فإني اليك معتذر	واعلم بأني عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا الغداة عصا	أمست سمانا عليك مندفقه
لكن ريب الزمان ذو غير	والكف منا قليلة النفقه

فأخذها الأعرابي وبكى، فقال الحسين عليه السلام: «لعلك استقللت ما أعطيناك» قال: «لا، ولكن كيف يأكل التراب جودك».

هذا نموذج من الكمال الانساني في الانفاق، لا يقوى عليه البشر العادي.



المثل العليا في الانفاق

إن الدين الاسلامي حث كثيراً على الانفاق المستحب وهو غير ما فرض الله تعالى من زكاة وخمس. يقول الله جل وعلا: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾. قال أبو عبد الله عليه السلام: «ان الزكاة ليس يحمد بها صاحبها وإنما هو شيء ظاهر، إنما حقن بها دمه وسمى بها مسلماً». فقلت: «أصلحك الله، وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟». فقال: «سبحان الله، أما تسمع الله عز وجل يقول: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم﴾. قال: «قلت: ماذا الحق المعلوم الذي علينا؟» فقال: «هو والله الشيء الذي يعلمه الرجل في ماله، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر، قل أو كثر. غير أنه يدوم عليه». قال: «قلت: قوله عز وجل: ﴿ويمنعون الماعون﴾ فقال: «هو القرض يقرضه، والمعروف يصطنعه ومتاع البيت يعيره وليس منه الزكاة». فقلت له: «إن لنا جيراناً، إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أن نمنعهم؟» قال: «لا، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك». قال قلت له: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً؟» قال: «ليس من الزكاة». قال: «فقلت له: قوله عز وجل: ﴿ان تبدوا الصدقات فنعماً هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم؟﴾ قال: «ليس من الزكاة. وصلتك قرابتك ليس من الزكاة».

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره ما لفظه: «ان الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولديك. فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصواع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت منه خمسة أقراص على عددهم. فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل. فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين،

أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنة. فآثروه وباتوا لم يدوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً. فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه. ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي (رض) بيد الحسن والحسن وأقبلوا إلى رسول الله (ص) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسؤوني مما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك. فنزل جبرائيل عليه السلام وقال خذها يا محمد، هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة وهي سورة الدهر ومنها: ﴿ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً. يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً. ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. . . الخ﴾.

وأما علي عليه السلام فقد روى المفسرون أنه كان لا يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً وبدرهم علانية فأنزل الله فيه: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾، وكان يستقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يداه ويتصدق بالأجرة ويشد على بطنه حجراً.

قال الشعبي: «كان علي أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، وما قال: لا، لسائل قط». وقد قال فيه معاوية: «لو ملك علي بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفق تبره قبل تبنه». وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها وهو القائل: «يا صفراء ويا بيضاء غري غيري». ولم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام. وهو الذي عمل بآية النجوى وتصدق دون غيره.

وأما الحسن بن علي عليهما السلام، فكما روى أبو نعيم في الحلية، قاسم الله ماله ثلاث مرات. وقد روي في المناقب أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار. وقال: أئت بحمال يحمل لك. فأتى بحمال فأعطاه طيلسانه وقال هذا كراء الحمال. وجاءه أعرابي فقال الحسن (ع): : أعطوه ما في الخزانة. فوجد فيها عشرون ألف درهم. فدفعها اليه. فقال الأعرابي يا

مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشرمدحتي، فأنشأ الحسن عليه السلام يقول:

نحن أناس نوالنا خضل يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا خوفاً على ماء وجه من يسأل

وروى المدائني قال: خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر حجاجاً ففاتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزاً في خباء، فاستسقوها فقالت: هذه الشويهة، احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا. واستطعموها فقالت: ليس إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم. فذبحها أحدهم وكشطها ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا عندها. فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه. فإذا عدنا فألمي بنا فانا صانعون بك خيراً. ثم رحلوا، فلما جاء زوجها أخبرته. فقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش.

ثم مضت الأيام فأضرت بها الحال. فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الحسن عليه السلام فعرفها. فقال لها: «أتعرفينني». قالت: «لا» قال: «أنا ضيفك يوم كذا وكذا». فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث معها رسولاً إلى الحسين (ع) فأعطاها مثل ذلك ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك.

والحسن صلوات الله عليه كان مع هذا الجود المثالي في غاية التواضع. يمر على الفقراء وقد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها. فقالوا هلمَّ يا ابن رسول الله إلى الغذاء. فنزل وقال: الله لا يحب المتكبرين. وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته. ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم. فهذا نموذج من الأخلاق الاسلامية المثالية.

وفي المناقب عن يعقوب بن اسحاق النوبختي، قال: «مر رجل بأبي الحسن الرضا (ع) فقال له: أعطني على قدر مروءتك، قال: لا يسعنى ذلك. فقال: على قدر مروءتي. قال: أما هذا فنعم. ثم قال: يا غلام، أعطه مائتي دينار». قال: «وفرق (ع) بخراسان ماله كله في يوم عرفة» فقال له الفضل بن

سهل: «ان هذا المغرم». فقال: «بل هو المغنم. لا تعدن مغرماً ما ابتعت به أجراً وكرماً».

وروى الكليني في الكافي بسنده عن اليسع بن حمزة قال: كنت في مجلس أبي الحسن الرضا (ع) وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوال آدم. فقال: «السلام عليك يا ابن رسول الله. رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك. مصدري من الحج وقد فقدت نفقتي وما معي ما أبلغ به مرحلة. فإن رأيت أن تنهضني إلى بلدي. ولله علي نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك. فلست موضع صدقة». فقال له: «أجلس رحمك الله». وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا وبقي هو وسليمان الجعفري وخيثمة وأنا. فقال: «أتأذنون لي في الدخول». فقال له سليمان: «قوَّم الله أمرك». فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة، ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال: «أين الخراساني؟» فقال: «ها أنا ذا». فقال: «خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها ولا تتصدق بها عني وأخرج فلا أراك ولا تراني». ثم خرج فقال سليمان، جعلت فداك، لقد أجزلت ورحمت. فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال: «مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله (ص): المستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له». أما سمعت قول الأول:

متى آتـه يـومـاً لأطلب حـاجـة رجعت إلى أهـلي ووجهي بمـائـه



الصدقات في الاسلام

إن الدين الاسلامي قد حث الناس على الانفاق حثاً لا مزيد عليه، لو عملوا به لسادت الطمأنينة في العالم ولما وجد على وجه الأرض فقير. وهذا قوله تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين؟ فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾. فجعل الله مآل: دع اليتيم وعدم الاهتمام بطعام المسكين: التكذيب بآياته تعالى ورسله وكتبه. فكأن من دع اليتيم ولم يرفه عنه من فضول ماله ولم يحض على طعام المسكين تنسلخ عنه العقيدة الدينية شيئاً فشيئاً، تتوارد عليه الشكوك والأوهام وهو لا يعلم من أين أتاه هذا الانقلاب، وكيف أمسى مظلماً لا يرى شيئاً وراء المادة الزائلة، فلا تتسلى نفسه إلا باتخاذ مبادىء فاسدة تتناسب ونفسه المريضة الطائشة، ويزعم أنه بلغ من التفكير مرتبة أو وجد طريقاً جديداً يحل به مشاكل الحياة. وهذا عقاب لمانع اليتيم حقه والمسكين طعامه، وابتعاد عن رحمة الله وانطماس في ظلمات ما فوقها ظلمات. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

فتشوا عن أناس سخت نفوسهم فاهتموا بأمر اليتيم وحضوا على طعام المسكين، تروا نفوسهم منيرة وضاءة تحب الله وتحب الحق، تميل إلى الخشوع وتتوجه نحو صانعها وتعبده على قدر ما قامت بالأعمال الصالحة لوجه الله الكريم.

فالايمان إذن عصارة الأعمال الصالحة، والتصديق بالدين مآل الاهتمام بأمر اليتيم والحض على طعام المسكين. لذلك كله قد حث الدين الاسلامي على الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين وندب إلى العطف على الضعفاء والأيتام بإعطاء زكاة واجبة ونفقات مندوبة وصلة الرحم وصدقات مستحبة. وقد يراد بالصدقات: الزكاة الواجبة، ولسنا بصدد بيانها الآن.

ولقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه أربع خصال: يحسن خلقه، وتسمو نفسه، ويمسك الفضل من قوله، ويخرج الفضل من ماله». ولقد كان في وصية رسول الله (ص) لأمير المؤمنين (ع):

أوصيك في نفسك بخصال، احفظها عني، ثم قال: اللهم أعنه... إلى أن قال: «وأما الصدقة فجهدك جهدك، حتى تقول قد أسرفت ولم تُسرف» لذلك يبيع علي (ع) بستاناً له. فيعلم بذلك فقراء المدينة، فيرجع إلى بيته وليس معه شيء. ويستأجر داراً للسكنى في الكوفة وهو خليفة المسلمين، ويحمل الطعام إلى فقراء الكوفة جوف الليل، حتى أن الحسن (ع) بعد رجوعه ليلاً من دفن والده سمع أنين مسكين عاجز في إحدى خرائب الكوفة، فجاءه يسأله عن حاله، فقال: كان لي رجل يأتيني كل ليلة بما احتاجه من طعام وشراب وقد مضت ثلاث ليال لا أراه يأتيني، فقال الحسن عليه السلام: ذاك أبي، قد قتل في محرابه.

وقد جعل الدين الاسلامي التصدق بالليل أفضل من التصدق بالنهار لأن صدقة السر تطفي غضب الرب، كما جاء في الحديث. كان أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام إذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فحمله على عنقه ثم طاف به على أهل الحاجة من أهل المدينة فيقسمه فيهم وهم لا يعرفونه، فلما مضى جعفر الصادق فقدوا ذلك فعلموا أنه كان أبا عبد الله، أي الصادق عليه السلام. نعم، هذا دين يقول «أصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس من أهله فان لم يكن هو أهله فكن أنت من أهله».

هذا دين يقول: «إن الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من البلاء وانها تطفيء غضب الرب».

هذا دين يقول: «يستحب للمسلم أن يعود أهل بيت المسلمين ويختار ذلك على الحج وعلى العتق».

هذا دين يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

هذا دين يقول: «داووا مرضاكم بالصدقة» اهتماماً بأمر الفقراء.

هذا دين يقول: «يستحب لمعطي الصدقة أن يقبل يده بعد العطاء»، ذلك لأن يده قد تبركت وتيمنت ببركة عطفه على الفقير، وفي الخبر: إذا أعطيته فأغنه. وقال علي (ع): «إذا ناولتم السائل فليرد الذي ناوله يده إلى فيه، فيقبلها، فان الله عز وجل يأخذها».

هذا دين يقول: «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة». لذلك يقول الصادق عليه السلام لابنه محمد: «يا بني كم فضل معك من تلك النفقة، قال: أربعون ديناراً. قال: أخرج فتصدق بها. قال: أنه لم يبق معي غيرها. قال: تصدق بها فان الله يخلفها. أما علمت أن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الرزق الصدقة، فتصدق بها. ففعل. فما لبث أبو عبد الله إلا عشرة أيام حتى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار. قال: يا بني أعطينا الله أربعين ديناراً فأعطانا أربعة آلاف دينار.

يأتي شيخ من مهاجرة العرب رسول الله (ص) وهو في المسجد والناس حوله وعلى الشيخ سمل قد تهلهل وأخلق وهو لا يكاد يتمالك ضعفاً وكبراً فيقول: يا رسول الله، أنا جائع الكبد، فأطعمني وعاري الجسد فاكسني وفقير، فأثرني. فيقول له رسول الله (ص): ما أجد لك شيئاً، ولكن الدال على الخير كفاعله. انطلق إلى ابنتي فاطمة. وأمر بلالاً فوقف به على منزل فاطمة (ع) فنادى بأعلى صوته: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة... يا بنت محمد، أقبلت على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة، عاري الجسد، جائع الكبد، فارحميني، يرحمك الله. وكان علي وفاطمة (ع) ثلاثاً ما طعموا طعاماً.

فتعمد فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين (ع) وتعطيه الشيخ قائلة: عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه فيقول الشيخ أنا شكوت اليك الجوع، فناولتيني جلد كبش فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب؟

فتعمد فاطمة (عليها السلام) إلى عقد في عنقها، أهدتها اليها فاطمة بنت عمها حمزة، فتقطعه من عنقها وتنبذه إلى الاعرابي، وتقول: خذه وبعه. فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه. فيأتي الشيخ إلى المسجد ويبيع العقد، فيشتريه عمار بعشرين ديناراً ومائتي درهم وبردة يمانية وراحلة تبلغ الشيخ إلى أهله، فيقول رسول الله (ص): «لو اشترك في شراء هذا العقد الثقلان ما عذبهم الله بالنار».

فينطلق عمار بالاعرابي ويفي بما ضمن له، وعاد الاعرابي إلى النبي (ص) فقال له: أشبعت واكتسيت؟ قال: نعم، واستغنيت بأبي أنت وأمي. فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: فاجز فاطمة في صنعها معك خيراً. فيقول: «أللهم أنت اله ما استحدثناك، ولا إله لنا نعبده سواك، أنت رازقنا، فأعط فاطمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت».

فأمن رسول الله على دعائه وأقبل النبي (ص) على أصحابه وقال: «ان الله قد أعطى فاطمة ذلك وأنا أبوها وما في العالمين مثلي، وعلي بعلها، ولولا علي ما كان لها كفؤ أبداً. أعطاها الحسن والحسين وما في العالمين مثلهما. سيدا أسباط الأنبياء، وسيدا شباب أهل الجنة. وقال: أزيدكم». الملكان في قبرها: من ربك؟ فتقول الله ربي ـ من نبيك؟ أبي ـ ومن وليك ـ فتقول: هذا القائم على قبري علي بن أبي طالب».

ألا أزيدكم من فضلها» فيقولون زدنا.

فيقول رسول الله (ص): «ان الله وكل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهم معها في حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها» يقول جابر بن عبد الله: ان عماراً بعد ذلك طيب العقد بالمسك ولفه في بردة يمانية وبعث به مع عبده (اسهم) إلى رسول الله وقال: «أنت لرسول الله مع العقد». ورسول الله يرسل العبد مع العقد إلى فاطمة قائلاً: «أنت لها مع العقد». فتأخذ فاطمة عليها السلام العقد وتقول للعبد: «إذهب أنت حر لوجه الله». يضحك العبد ويقول: «ما أكثر بركة هذا العقد، أشبع جائعاً وكسى عرياناً واغنى فقيراً واعتق مملوكاً ورجع إلى أهله».

هذا نموذج من الكمال الانساني في التصدق والانفاق من فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين (ع)، وان حياتها كلها لنماذج رفيعة من الكمالات المثالية التي هي فوق متناول الفيلسوف وفوق مستوى التفكير البشري. فطوبى لمن تأسى بها وتخلق بأخلاقها فان «قيمة كل امرىء ما يحسنه» على ما جاء في كلام علي عليه السلام.

ويمكن تشبيه محصلة القوى الموجبة والسالبة المؤثرة في نقطة ما (في جسم) بقيمة المرء. ذلك لأن القوى المؤثرة في نقطة م على امتداد محور (س سَ) والمتوجهة إلى اليمين تعتبر (كما في علم الميكانيك) موجبة، فمحصلتها موجبة أيضاً. والقوى المؤثرة في نفس النقطة م والمتوجهة إلى اليسار على نفس الامتداد تعتبر سالبة، فمحصلتها سالبة أيضاً. ثم تركب هاتان المحصلتان أو تطرح أحداهما من الأخرى (إن كانت على استقامة واحدة، حسب الفرض) فتكون المحصلة النهائية أما متوجهة إلى اليمين، فصاحبها اذن من أصحاب اليمين، فمصيره الجنة، أو متوجهة نحو اليسار (أو الشمال حسب ما جاء في القرآن الكريم) فصاحبها إذن من أصحاب اليسار، فمصيره النار.

يقول الله تبارك وتعالى: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود، (لا شوك له) وطلح (شجر الموز) منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب (جار أبداً)، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، أنا انشأناهن انشاء، فجعلناهن أبكاراً عرباً (متحببات إلى أزواجهن) أتراباً (مستويات في السن أو مثل أزواجهن في السن) لأصحاب اليمين، ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال، في سموم وحميم وظل من يحموم (دخان أسود) لا بارد ولا كريم أنهم كانوا قبل ذلك مترفين (منعمين لاهين عن الطاعة) وكانوا يصرون على الحنث (الذنب) العظيم، وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون. أو آباؤنا الأولون؟ قل ان الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم».

فكل عمل صالح يقوم به الانسان لوجه الله تعالى، له أثر فعال في معتقده وسيره التكاملي، وكل عمل سيء يأتي به الانسان له أثر فعال في تسافله وولوج الشكوك والريب في نفسه. فالايمان محصلة الأعمال الصالحة والأعمال السيئة. فالأعمال الصالحة تشكل القوى الموجبة المؤثرة في نقطة (م) والأعمال السيئة تشكل القوى السالبة المؤثرة في نقطة (م) أيضاً فالمحصلة إذن اما أن تكون موجبة أو تكون سالبة. ان الله تعالى يقول: ﴿فأما من ثقلت موازينه (بأن رجحت حسناته) فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه (بأن رجحت سيئاته) فأمه هاوية (مأواه النار) وما أدراك ماهية، نار حامية﴾.

إن الأعمال الصالحة لها الأثر الكلي في اتجاه الانسان الديني. فمن أعطى الحقوق المترتبة على أمواله (مثلاً) يرى أن نفسه تميل إلى العبادة ومعرفة الخالق جل جلاله ومجالس الوعظ والارشاد. ذلك لأنه بإعطائه الحقوق يجعل ما يدخل في جوفه طاهراً لا شبهة فيه. وإن هذا المأكل الطاهر له أثره الفعال في توجيه النفس، فقد جاء في الحديث: «إن الحجر المغصوب في الدار رهن على خرابها». وفي حديث آخر عن النبي (ص): «ترك لقمة حرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً، ورد دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة». وفي حديث آخر: «من أراد أن يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه ومكسبه».

نعم، لو كان بعض ما يتجر به الشخص شيئاً محرماً فأن الأموال التي تجنى بهذه الوسيلة تكون مخلوطة بالحرام، فتؤثر في سير الانسان الديني والتكاملي.

ولقد جربت ذلك في أشخاص. فعندما كان يتجر به احدهم حلالاً طيباً، يوافق ما جاء في الشرع المحمدي. كان هذاالشخص مصلياً، صائماً يذهب إلى دور العبادة وإلى «بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. يسبح له فيها بالغدو والآصال». وبعد أن أدخل في ما يتجر به ما حرم الله، أخذت نفسه تتسافل شيئاً فشيئاً، فصار يصلي عند الصباح ولا يصلي عند الظهر، أو يصلي عند الظهر ولا يصلي صلاة الصبح. ولكنه إذا اعترته حاجة شديدة، نذر نذراً، فسافر لأداء نذره ويصلي في اليوم الذي يفي بنذره فقط. ثم يترك صلاته غير مبال بما سيصيبه من جراء هذا العصيان مع تقادم عمره.

فإذا جاءت ليلة القدر هرع إلى محال العبادة لانطباع سابق، فإذا ذهبت ليالي القدر ترك صلاته وهكذا. إلا أنه مع ذلك يعتقد بأصول الدين. وهكذا لو ثابر هذاالشخص على عدم إخراج الحقوق المترتبة على أمواله[1] ضعف

(١) إنما ذكرت (إخراج الحقوق كالخمس والزكاة) على سبيل المثال. فكل معصية صغيرة أو كبيرة، تؤثر تأثيراً مباشراً في سير الانسان التسافلي، لو لم يعقبها حالاً بتوبة عملية وقلبية. انصتوا إلى ما يقوله زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام. كيف أن

يقينه بأصول الدين بصورة تدريجية فيزول اعتقاده بوجود الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه وأنه حي يرزق، ثم يشك في المعاد، ثم في النبوة ثم في العدالة الالهية. وقد يبلغ به الأمر (لو بالغ في ارتكاب كبائر المعاصي والظلم والبغي) إلى الالحاد، ثم يزعم، فيوقن أنه كان في واد من الخرافة وقد دخل اليوم في عالم من الثقافة جديد، وواد من نور، وتخلص من براثن الجاهلية الجهلاء.

فإذا صادف أناساً يحبذون الدين ويؤيدونه إلى حد ما، أخذ يفسر الدين كما تشاء له نفسه المتسافلة ظاناً أنه جاء بفلسفة جديدة! « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم، ثم رددناه إلى أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

وقد يكون السير سيراً تكاملياً بعكس ما قلنا، يأتي الانسان بعمل صالح هام في محله، فيؤثر هذا العمل الطيب في نفسه، ففي معتقده، ثم يقوم بعمل صالح آخر فآخر، فتمحو هذه الأعمال الصالحات بعض السيئات «إن الحسنات يذهبن السيئآت» فيتنور قلبه شيئاً فشيئاً، فتتبدد عنه غياهب الشكوك ويسير في طريق الهداية رويداً رويداً».

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ (سورة محمد (ص)) فيدخل في عالم من الصلاح والفلاح الحقيقي سائراً نحو تزكية النفس فمعرفة الخالق وهي غاية الغايات من تكامل هذا الانسان على وجه الأرض.

هذا التحليل له اليوم مصداق في ثلة من الناس. فليعقب من شاء سير بعض الأفراد العقائدي والديني خلال ٢٠ عاماً مثلاً، رابطنا هذا السير بما بدا منه من أخلاق وأعمال وكسب وتجارة وأمور تطابق الشرع أو تخالفه ليرى صدق ما ذهبت اليه. ومن الله التوفيق. ولا بد من عمل صالح في حدود الاختيار لجلب توفيقه تعالى.

الذنوب تميت القلوب وكيف أن التوبة تحييها. انه صلوات الله عليه يقول معلماً أيانا: «الهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد عنك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي ويا سؤالي ومنيتي».

الزكاة وأثرها في تكامل النفس

إن الدين الاسلامي قد استهدف في جميع نظمه وسننه تهذيب النفس الانسانية وابلاغها أقصى مرتبة من مراتب الكمال، بل أن الغرض الأسمى من شريعة محمد صلى الله عليه وآله هو تكوين نفس طاهرة زكية خالية من الأدران والأوساخ متحلية بالكمال.

فالنفس الانسانية أشبه شيء بقطعة حجر فيها معادن خسيسة لا قيمة لها وفيها الذهب الثمين. فان الكيماوي يجري على هذه القطعة أنواع العمليات والصناعات ويضعها في أنواع المحاليل كي يظفر بالذهب الخالص. كذلك الدين الاسلامي: فأنه بقوانينه ودساتيره يجري على النفس الانسانية انواع الامتحانات والرياضات النفسية كي تصفو رويداً رويداً عما علق بها من رديء الصفات وذمائم الأخلاق، فتتوجه نحو مكارم الصفات وفضائل الأخلاق، وتتمرن عليها لتكون لها طبيعة ثانية: طبيعة فيها من المكارم والفضائل ما يجعل الانسان قميناً ليتنعم «مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً»، جديراً بالخلود في «جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين».

فحري بالانسان أن يجاهد نفسه ليخرج من هذه الدنيا بالذهب الخالص ولنعم ما قال الشاعر: «علي الدر والذهب المصفى».

فان الانسان ناقص عندما يولد، وفيه من ذمائم الصفات ما لا يوصف. ولا بد له من أن يدخل في هذا السير التكاملي بتطبيق ما جاء في الدين المحمدي وان يتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة (ع). فلا كمال ولا نجاة إلا بالتمسك بهما والعمل بما أمرا به، لوجه الله الكريم. ومن وفق إلى هذه التجربة المنجية فقد شعر بتلك التجلّيات القدسية والكمال النفسي نادماً على ما فرط في جنب الله، متأسفاً على ما سوّف من توبة واستغفار وتلافي ما فات.

إذا تتبعتم العبادات بأنواعها وما أمر به الدين الاسلامي من زكاة وخمس وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وما نهى عنه من خمر وميسر وانصاب وأزلام وزنا وكذب وغيبة ونميمة وبهتان وافتراء وسرقة وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وبغي وظلم إلى ما هنالك لرأيتم أنها برمتها تستهدف تنزيه النفس الانسانية مما علق بها من أدران المادة والصفات الرذيلة واللؤم والخبث وحب المال والركون إلى المادة وتحليتها بالفضائل والمكرمات والصفات الانسانية الكاملة كي تكون لائقة للقاء الله تعالى حرية بالخلود في نعيم أبدي سرمدي.

ولا مراء أن الله تعالى جل عن أن يلاقى، وإنما يكون العبد بقطعه مراحل التكامل موضع عطفه ورفده، فيكون مقرباً اليه. أنه تعالى يقول «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾. (سورة القيامة). أي تنال هذه الوجوه من مراتب الزلفى بحيث تكون كأنها ناظرة إلى ربها. ويقول الله في آية أخرى: ﴿كلا انهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون﴾ (سورة المطففين) أي مبعدون معذبون منسيون.

ان الله تبارك وتعالى وهو معطي الكمالات قد خلق الموجودات المادية كلها في أكمل وجه، وأراد بالانسان أن لا يشذ عن سنة الكمال، ونبه على ذلك بقوله: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾. فأرسل أنبياء ورسلاً يملون على الانسان طرق الكمال النفسي. وجهز الانسان بعقل يأمره باتباع سنة الكمال (بصورة فطرية) لو لم يدنس الانسان نفسه باتباع الشهوات ويلوثها بارتكاب الموبقات. فالدين الاسلامي دين صناعة النفس، دين تكوين النفس وإبلاغها الكمال المنشود.

ومن جملة تلك الصناعات الخطيرة التي لا يمكن أن يتوصل اليها العقل البشري بذاته، هو الزكاة. فالزكاة ـ كما يقول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم (ص): ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ ـ وسيلة لتطهير النفس عن رذيلة البخل والشح. لأن النفس الانسانية مجبولة على البخل بالمال، مادية مظلمة. فتتنور بتقديمها من فضول ما أنعم الله عليها، فتصفو شيئاً فشيئاً وتتخلق بالكرم والجود وترتاض في هذا الحقل فتؤدي الامانات إلى أصحابها وتوصل الحقوق إلى مستحقيها.

فالفرق بين المدنية الاسلامية والمدنية الغربية، إن المدنية الاسلامية تنظر إلى النفس وتستهدفها وتعمل ضمن تحقيق الحياة المادية السعيدة من أجل تكامل النفس وارتقائها. لذلك يستحب للشخص أن يعطي الزكاة المندوبة سراً دون أن يعلم أحداً بذلك. كي لا يخلط عملية التزكية العجب وحب الثناء وحب الجاه وامثال ذلك. فلا يسرى أثر الزكاة والعطاء إلى نفس المعطي مع العجب وحب الثناء وحب الشهرة. فلو لم يتوخ في عطائه هذا وجه الله لن تزكو نفسه ولن تسير في مجالات الكمال خطوة واحدة.

وهكذا يمزج الاسلام بين المدنية والروحية والمادية، بل الهدف الأسمى من الدين الاسلامي هو المدنية الروحية. وإنما يحقق الاسلام المدنية المادية للبلوغ إلى مدنية روحية رفيعة. إذ «الدنيا مزرعة الآخرة». والآخرة هي الحياة الحقيقية التي يحق أن يطلق عليها لفظ (الحياة). ذلك لأن السبب الرئيسي من وجودنا في هذه الدنيا: بلوغنا إلى أسمى مدنية روحية فيها كمال الملكات أي كمال النفس الانسانية، وهذا الكمال ينتهي إلى معرفة الله تعالى. لا يفهم حقيقتها ومدلولها إلا من تذوق الكمال النفسي. وإن طريقة هذه المعرفة السامية: (معرفة الله تعالى) هي العبادات والأعمال الصالحات. أنه تعالى يقول: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (سورة العنكبوت: ٦٤).

لننظر إلى بعض حكم الزكاة وآثارها المادية: نرى بعض الأغنياء يشكون البطنة من كثرة الأكل، ونرى فقراء يشكون الجوع. فلو أعطى الأغنياء ما فضل عن حاجتهم من الطعام هؤلاء الفقراء، لما شكى واحد منهم سقماً ولا ألماً. فجدير بالغني أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفي غلته. ولكن لحبه لنفسه ومغالاته بها يضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير، فيعاقبه الله في الدنيا بالبطنة حتى لا يهنىء للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه وفي الآخرة عذاب أليم! وإن أصحاب النار ليعترفون (بعد دخول النار) بعدم إطعامهم المسكين بعد اعترافهم بتركهم (الصلاة) وذلك بقولهم: ﴿لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين﴾ وان الله جل وعلا جعل أحد عوامل التكذيب بدينه عدم حث النفس أو حث الغير على تهيئة طعام المسكين بقوله تعالى: ﴿أرأيت

الـذي يكذب بـالدين، فـذلك الـذي يـدع اليتيم ولا يحض عـلى طعـام المسكين﴾.

لذلك يعلمنا المثل الكامل علي عليه السلام عندما يخاطب سهل بن حنيف عامله على البصرة بقوله: «أما بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت اليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل اليك الجفان[1]! وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو[2] وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هـذا المقضم[3]. فما اشتبـه عليك علمـه فالفظه[4] وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه. ألا وان لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه. ألا وان إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[5] ومن طعمـه بقرصيـه. ألا وأنكم لا تقدرون عـلى ذلك. ولكن أعينـوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً[6] ولا أدخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً[7]. ولا حزت من أرضها شبراً (ولا أخذت منه إلا كقوت اتان دبرة[8] ولهى في عيني أو هى وأهون من عفصة[9] مقرة[10]بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنا نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك. والنفس مظانها في غد جدث[11]تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها. وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها لاضغطها

(١) الجفان، جمع جفنة: قصعة.

(٢) العائل: المحتاج. مجفو: مطرود

(٣) المقضم: المأكل.

(٤) فالفظه: فاطرحه.

(٥) الطمر ـ بالكسر ـ الثوب البالي.

(٦) فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ.

(٧) ثوباً.

(٨) أتان دبرة: حمارة أصيبت بقرحة تحدث من الرحل ونحوه.

(٩) عفصة: نتوء يكون على شجرة البلوط.

(١٠) مقر: نبات مر.

(١١) الجدث: القبر.

الحجر والمدر. وسد فرجها التراب المتراكم. وإنما هي نفسي، أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى!! أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد[1]

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟! أو أكون أسوة لهم في جشوبة[2] العيش؟! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها[3]، تكترش[4] من اعلافها وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى واهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة أوأعتسف طريق المتاهة... إلى أن قال: وايم الله ـ يميناً استثني فيهابمشيئة الله ـ لا روضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً. ولأدعن مقلتي كعين ماءنضب معينها مستفرغة دموعها. إلى أن قال: طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها[5]، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى[6] عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت[7] عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم. ﴿أولئك حزب الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾.

فاتق الله يا ابن حنيف. ولتكفك أقراصك، ليكون من النار خلاصك.

---

(١) جلد السخلة كان يؤكل في الجدب.

(٢) خشونة.

(٣) التقاطها القمامة أي الكناسة.

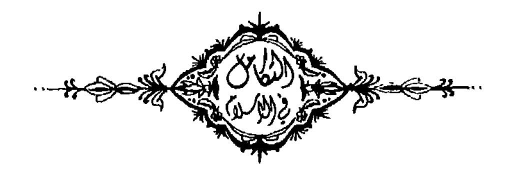
(٤) تملأ كرشها.

(٥) عركه بالجنب: الصبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه.

(٦) النعاس أو النوم.

(٧) تنحت.

ولا أظن ان هناك موعظة تؤثر في النفوس كهذه الموعظة. فان علياً (ع) يضع لنا منهاجاً قويماً لو عملنا به لأوصلنا إلى ﴿ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾. فطوبى للعاملين على ضوئه والناهجين وفق دستوره.



الزكاة الباطنة

عن المفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله (ع) فسأله رجل: في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال له: الزكاة الظاهرة أو الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعاً. فقال: «أما الظاهرة ففي كل ألف خمسة وعشرون. وأما الباطنة: فلا تستأثر على اخيك بما هو أحوج إليه منك».

ولسنا الآن بصدد بيان الزكاة الظاهرة، لظهورها. ونريد أن نتكلم عن الزكاة الباطنة. وقد حث الدين الاسلامي على هذا النوع من الزكاة: بصلة الرحم والتصدق والانفاق، بقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾.

فلماذا يبخل هذا الانسان وقد وعده الله تعالى أنه يخلف له ما أنفقه وهو أصدق الصادقين. أليس ذلك لضعف في الايمان وخلل في التقوى وانحطاط في النفس وتسافل نحو المادة وركون إلى الأرض الفانية وشح مميت؟! وقد جاء في الحديث: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم (أي الشح) بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

قال علي (ع): «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها»... إلى أن قال: «ثم أن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الاسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها فأنها تجعل له كفارة، ومن النار حجاباً ووقاية. فلا يتبعنها أحد نفسه ولا يكثر عليها لهفة. وان من اعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ماهو أفضل منها، فهو جاهل بالسنة مغبون بالأجر، خالي العمل طويل الندم». وقال: «سوسوا إيمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء، فبالصدقة يساس الايمان ويصان، ومع عدم أدائها يضعف الايمان ويزول».

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ أهو سوى الزكاة؟ فقال: «الرجل يوتيه

الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر، فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه». وقد قال ايضاً: «المعروف سوى الزكاة، فتقربوا إلى الله بالبر وصلة الرحم». حقاً: ليس هناك شيء يقرب العبد إلى الله في السر والعلن ويشوقه الى المناجاة والاستغفار والانابة والشكر والتسبيح والرضا والتسليم كالبر وصلة الرحم. نعم، ان البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء، كما جاء في الحديث.

ولقد قال رسول الله (ص): «من منع الماعون من جاره إذا احتاج اليه، منعه الله فضله يوم القيامة ووكله إلى نفسه، ومن وكله الله إلى نفسه هلك ولا يقبل الله تعالى له عذراً».

وهذا علي الرضا عليه السلام يقول: «سئل رسول الله (ص) هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، بر الرحم إذا أدبرت وصلة الجار المسلم، فما آمن بي من بات شبعان وجاره المسلم جائع». ثم قال: «وما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يورثه». وهو القائل: «أتدرون ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وان استنصرك نصرته، وان استقرضك أقرضته وإن مرض عدته، وإن مات شيعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا باذنه، ولا تؤذه، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، وان لم تفعل فادخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار[1] قدرك إلا أن تغرف له منها. ثم قال: أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله».

وهذا علي الهادي عليه السلام يدخل عليه أبو عمر وعثمان بن سعيد واحمد بن اسحق الأشعري علي بن جعفر الهمداني. فيشكو اليه احمد بن اسحق ديناً عليه، فيقول الامام (ع) يا أبا عمرو ـ وكان وكيله ـ ادفع اليه ثلاثين ألف دينار، وإلى علي بن جعفر ثلاثين ألف دينار، وخذ أنت ثلاثين ألف دينار، وقد اشترى له اسحق الجلاب غنماً كثيرة يوم التروية فقسمها في أقاربه.

وهذا علي بن الحسين (ع) يدخل على محمد بن اسامة بن زيد في مرضه

(١) القتار: رائحة الطعام.

فجعل يبكي. فيقول له الامام: ما شأنك؟ يقول: علي دين خمسة عشر الف دينار. فيقول الامام عليه السلام «فهو علي».

وعن الزمخشري في ربيع الأبرار: أنه لما أرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة لقتال أهل المدينة واستباحتها، كفل زين العابدين (ع) اربعمائة امرأة مع أولادهن وحشمهن وضمهن إلى عياله بنفقتهن وإطعامهن، إلى أن خرج ابن عقبة من المدينة. فأقسمت واحدة منهن: انها ما رأت في دار أبيها وأمها من الراحة والعيش الهنيء ما رأته في دار علي بن الحسين (ع). وما كان يأكل الطعام حتى يبدأ فيتصدق بمـلثه (بثلثه).

وروى أحمد بن حنبل ان علي بن الحسين (ع) كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة، في كل بيت جماعة. وروى في الحلية أنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجراب إلى المساكين.

وفي الحلية بسنده عن ابن عائشة عن أبيه: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين (ع).

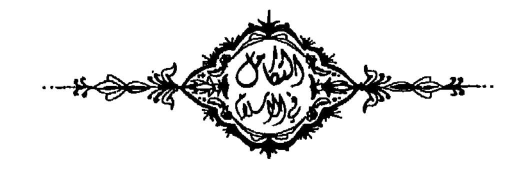
وقد روى الصدوق في العلل بسنده عن سفيان بن عيينة: رأى الزهري علي بن الحسين (ع) في ليلة باردة ممطرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشي فقال: يا ابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أريد سفراً أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز». قال: فهذا غلامي يحمله عنك. فأبى. فقال: أنا أحمله عنك فأني أرفعك عن حمله. . قال الامام (ع): «لكني لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه. أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني». فلما كان بعد أيام قال له: يا بن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً. قال: «بلى يا زهري، لست ما ظننت ولكنه الموت وله أستعد. إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندى في الخير». وكان ذلك الدقيق قد حمله ليتصدق به ويعده زاداً لسفر الآخرة.

كيف لا يكون كذلك، وهو خريج مدرسة علي عليه السلام. فعلي كان يأكل أكلة العبد ويجلس جلسة العبد، وإن كان ليشتري القميصين السنبلانيين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس هو الآخر. فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز

كعبه حذفه، ولقد ولي أمرة المسلمين خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطعية، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير بالزيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضى إلا أخذ بأشدهما على بدنه.

ولقد أعتق عليه السلام ألف مملوك من كد يده، تربت فيه يداه وعرق فيه وجهه، وما أطاق عمله من الناس أحد. وإن كان ليصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.

نستنتج من كل ذلك أن دواء البشر الوحيد هو الدين، ففيه علاج الفقر وعلاج الشقاء وعلاج المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والمدنية، وفيه صفاء القلوب واطمئنان النفوس وراحة الوجدان والضمير.



الزكاة الواجبة

إن الدين الاسلامي قد عالج كل نقص في الحياة الروحية والاجتماعية والمادية، فأوجد التوازن بين الروح والبدن، ولم يهمل ناحية دون ناحية. فبينما يأمر بالصلاة لتزكو بها النفس الانسانية، فتؤدي بها واجب الشكر وتتطهر مما علق بها من صفات خبيثة وخصال مميتة لتسمو فتبلغ ذروة الكمال، يأمر الفرد في الوقت نفسه باعطاء الزكاة، وتقديم شيء يسير من فضول المال إلى اخوانه المسلمين الذين حرموا من المال لحكمة يعلمها الله تعالى وهي في صالح الانسان لو تعمق وتدبر. لذلك ترون أن الله تعالى يكرر في قرآنه الكريم الصلاة والزكاة متعاقبتين ويصف المتقين بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾.

فعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «فرض الله الزكاة مع الصلاة» أي أن الزكاة قرينة الصلاة وفي مرتبتها.

وقد روى عبد الله بن سنان في حديث له، أنه نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله في المسلمين: «زكوا أموالكم تقبل صلواتكم».

وقد منع رسول الله (ص) جماعة كانوا يصلون في المسجد عن الصلاة، ذلك لأنهم ما كانوا يزكون أموالهم. فليعلم مانعو الزكاة أن صلاتهم لا تقبل ولا يموتون على الاسلام. فعن أبي عبد الله (ع): «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً». وقد روى أبو بصير، قال: قال أبو عبد الله (ع): «من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، ولا تقبل له صلاة». وهو قوله تعالى: ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ ذلك لأن مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت.

إن الله تعالى قد بالغ في الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين حتى قال جل من قائل: ﴿الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾.

وقد سئل أبو عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾. فقال: «ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نـار في عنقه ينهش من لحمـه حتى يفرغ من الحساب».

ثم الله تعالى هو معطي المال وهو المهيىء أسباباً ينال بها الشخص المال الكثير، وقد وعد جل جلاله: أنه سيعوض المزكي أضعاف ما يزكي من ماله، بقوله: ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجـه الله فأولئـك هم المضعفون﴾. وبقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله. وما تنفقوا من خير يوفـء اليكم وأنتم لا تظلمون﴾. وبقوله: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾.

والزكاة منمية للمال حافظة لها من التلف والغرق (وهناك حوادث كثيرة تبرهن على صدق ما قلنا لا مجال لذكرها). كما أن عدم دفع حق الفقراء والمساكين يؤدي إلى انفاق ذلك في الباطل. فقد قال الصادق عليه السلام: «من منع حقاً لله أنفق في الباطل مثليه».

ولقائل أن يقول: فلماذا ترى أناساً لا يؤدون حق الله ولا يزكون أموالهم وهم يزدادون يوماً فيوماً غنى وثراء؟ جواب ذلك: ان الله تعالى يهيىء وسائل الهداية والرشاد لكل عبد من عباده، فيتم عليهم الحجة، فان تمادوا في غيهم وثابروا على هتك حرمات الله واستهتروا بما سنه الله وقرره، تركهم وأنفسهم وأملى لهم باعطائهم من الأموال والأولاد الشيء الكثير وفي الآخرة عذاب أليم. وقد قال جل من قائل: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾. وفي موضع آخر: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفـروا في البلاد، متـاع قليل ثم مـأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

وبالزكاة تحصن الأموال وتحفظ، فقد قال موسى بن جعفر عليهما السلام: «حصنوا أموالكم بالزكاة». وإن من لم يزك ماله عد في لسان الشرع سارقاً. «والسراق ثلاثة: مانع الزكاة، ومستحل مهور النساء، وكذلك من استدان ديناً ولم ينو قضاءه». . . الحديث.

إن العقل ليحكم بصورة طبيعية فطرية أن شكر المحسن أمر واجب. وشكر كل شيء زكاته. فان منَّ الله على عبد بعظيم نعمه فليس لهذا العبد إلا أن يقوم بواجب الشكر تجاه خالقه لما ميزه عن بعض مخلوقاته وخصه بلطفه ورفده.

ويلزم أن يتناسب الشكر مع النعمة التي أولانا الله بها. فقد قال علي عليه السلام: «زكاة السلطان: إغاثة الملهوف، وزكاة الجمال: العفاف، وزكاة القدرة: الانصاف، وزكاة الشجاعة: الجهاد في سبيل الله».

فيكون إذن زكاة المال أن تعطي شيئاً ضئيلاً من مالك إلى من فضلت عليهم بمنه تعالى. هذا أمر طبيعي يحكم به كل ذي وجدان سليم، لم تدنسه الذنوب والآثام ولم تخرجه عن حالته الفطرية الطبيعية الموبقات والاجرام. ولذلك شدد الله النكير على مانعي الزكاة وأبعدهم عن ساحته وتوعدهم بالعذاب الأليم. وقد قال الصادق (ع): «ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشد عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم».

ما أقل ما فرض الله على عباده! فقد فرض في النقدين: الفضة والذهب، ٢,٥٪: (إثنان ونصف في المائة). أي من كانت له ١٠٠ دينار وبقيت على حالها ومضى عليها حول كامل، عليه أن يزكيها بإعطاء دينارين ونصف دينار منها.

ولا فرق، على رأي بعض العلماء، بين النقود الفضية والذهبية، وما يقوم مقامها من الأوراق النقدية. ذلك لأن الأوراق النقدية بمثابة أسناد و(صكوك) تعطي بيد الناس تنوب عن النقود الذهبية والفضية المودعة في المصارف (البنوك). وقد توضع في البنوك ازاء هذه الأوراق النقدية سبائك ذهبية وأحجار ثمينة تبدل إلى نقود أيضاً. فالشخص إنما يرجح أخذ الأوراق وحفظها لسهولتها. وليس معنى ذلك أنه يحتفظ بأوراق لا قيمة لها، حتى تعتبر أوراقها لا علاقة لها بالنقود. ذلك لأن الشخص الذي يستلم هذه الأوراق لو علم أنها لا تستبدل بنقود ذهبية وفضية لما حفظها لديه ولما خاصم خصمه عليها ولما راجع المحاكم. وان دين الله لا يقبل الالتواء. إذن، الأوراق النقدية تقوم

مقام النقود الذهبية والفضة دونما ريب، لإمكـان تحويلها اليها متى شـاء الشخص ذلك ولأنها مدار العيش وتتوقف عليها حياة الفقير.

ولا مراء أن الغرض الرئيسي من فرض الزكاة هو تزكية الأموال المتكدسة وإيجاد راحة الفقير العاجز المسكين. فلو جمدنا على الألفاظ ولم نتطرق إلى حكمة التشريع فقد ألغينـا الغرض الـذي وضعت لأجله الزكـاة وكأنها لم توضع، وأبطلنا أعظم حكم من أحكام الاسلام وحرمنـا الفقراء والمسـاكين حقوقهم مع ما هنالك من تأكيد لا مزيد عليه في الكتاب والسنة.

إن عامة الناس تطلق على الأوراق النقدية: النقود. فتقول: إن فلاناً يملك نقوداً كثيرة مع علمها أنه لا يملك غير الأوراق النقدية. وليس من المعقول أن يقال: ان المعاملات قد تقع على الأوراق النقدية مجردة عن قيمتها الحقيقية النقدية. ذلك لأن الذي يتعامل بها لو علم أن الحكومة قد أعلنت سقوط هذه الأوراق عن درجة الاعتبار يلغي المعاملة حالاً ويراها لا قيمة لها. ففي الأوراق النقدية زكاة كما في النقدين إذا بلغ كل منهما حد النصاب حفظاً لحق الفقير وعملاً بالتأكيدات الواردة في الشرع، تأكيداً لا يقل عن الصلاة!.

وتستحب الزكاة في الحبوب مما يكال أو يوزن، وفي الثمار والبقول وفي مال التجارة والخيل والأملاك والعقارات.

يقول أحد كبار علماء الاقتصاد في الغرب: ما أحسن ما سنه الـدين الاسلامي من زكاة الأموال، فهو العلاج الوحيد لرفع البحران الاقتصادي والتضخم المالي.

أنظروا إلى هذه النسبة الضئيلة التي فرضها الله في زكاة الأنعام الثلاثة: الابل والبقر والغنم، فهو لا يتجاوز ٢,٥٪ ففي خمس من الابل شاة، وفي ست وعشرين بنت مخاض: وهي الداخلة في السنة الثانية، وفي ست وسبعين بنتاً لبون. وشرح ذلك مسطور في كتب الفقه المختصرة والمفصلة.

وأما زكاة الغلاة فالعشر: إذا كان السقي بالماء الجاري أو المطر أي بلا واسطة ميكانيكية. فان كان السقي بواسطة ميكانيكية فنصف العشر أي ٥٪

وذلك بعد اخراج الضرائب والمـؤن من أجرة الحارث والساقي وأجرة الأرض إن كانت مستأجرة وأجرة الحفظ والحصاد إلى غير ذلك.

نعم، ان الله قد علم أن هذا المقدار الضئيل من الزكاة كـاف لسد حاجات المحتاجين وإيجاد حياة سعيدة في هذه الأرض، ومـانع عن تـذمر المتذمرين وإفساد المفسدين. وقد قال الصادق عليه السلام:

«إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء. ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولأستغنى بما فرض الله. وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء. وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله. وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة. وما صيد صيد في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وان أحب الناس إلى الله أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما فرض الله لهم في ماله».

نعم، ان الدين الاسلامي يربي الفرد بصورة عملية على الصفات الحميدة والخصال المجيدة للبلوغ إلى الكمال الانساني، ومنها السخاء ومفتاحه الزكاة. فان رسول الله (ص) قال لرجل من المشركين: «لولا أن جبرائيل أخبرني عن الله عز وجل أنك سخي، تطعم الطعام لشردت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك. فقال له الرجل: وإن ربك ليحب السخاء؟ فقال: نعم. قـال: (المشرك إذ ذاك): أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله».

ولجباية الزكاة آداب سامية يعلمنا علي (ع)، فأنه كان يقيم عماد الحق ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها، دقيقها وجليلها. ومن جملة وصاياه لمن كان يستعمله على الصدقات:

«إنطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله. فإذا قدمت على الحي، فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم. ثم امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم. فتسلم عليهم ولا تخدج (أي لا تبخل) بالتحية لهم. ثم تقول:

عباد الله، أرسلني اليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم. فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فان قال قائل: لا، فلا تراجعه... الخ».

ويقول (ع) في مكان آخر مخاطباً عامله على الصدقات: «وإن لك في الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة، وأنا موفوك حقك، فوفهم حقوقهم، وإلا فانك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل. ومن استهان بالأمانة ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه في الدنيا الذل والخزي وهو في الآخرة أذل وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأئمة».



كيف يجب أن نكون؟

سؤال يجيب عنه كثير من علماء الأخلاق والفلاسفة في الغرب بطرق عدة، كل حسب ما توصل اليه من المعتقدات. ولا يتوصل الشخص إلى معتقدات إلا بدرجة تكامل نفسه وتجردها من الرجس والأدناس. «وكل اناء بالذي فيه ينضح».

فالمعتقدات مرآة النفس، فإذا شئت أن تحكم على أخلاق شخص ودرجة تكامله النفسي عليك أن تبحث عن معتقداته ودرجة عمله في تحقيق مصاديق تلك المعتقدات مع نفسه ومع غيره. فهذا البحث يهديك إلى تقدير درجة نفسية أو درجة كمالية لذلك الشخص.

اني لا أريد أن أبين هنا شيئاً عن آراء شتى الفلاسفة وعدد من الأخلاقيين في الغرب، لتضارب آرائهم وجرح بعضهم البعض. ذلك لأن آراءهم خرجت عن التفكير الفطري المجرد عن كل شائبة خارجية أو داخلية وإنما أريد أن استنبط جواب هذا السؤال ببحث علمي بحت.

يرى المطالع في أحوال الكون: أن الأنجم تسير في أفلاك معينة لا تحيد عنها، وكل هذه الأفلاك أو المدارات التي تضبط بمعادلات رياضية متقنة تشير إلى النظام الرائع والانتظام البديع الذي أودعه الله في هذا الكون.

يرى أن للخسوف أو الكسوف حسابات خاصة ودساتير معينة على وجه يمكن حساب زمان وقوعهما قبلاً ومدة دوامهما.

يرى أنه لولا ميلان مدار الأرض عن دائرة الكسوف ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة لما حدث اختلاف الليل والنهار الذي ينتج منه الحر والبرد واختلاف الفصول وفوائد لا تعد ولا تحصى. ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾. (سورة الحج).

يرى لولا حركة الأرض الوضعية لكان النصف من الكرة الأرضية في

ظلام دائم والنصف الآخر في ضياء دائم واحتراق شديد. ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾. (سورة النحل). ﴿قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون؟ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟﴾. (سورة القصص).

يرى أن الحكمة البالغة جعلت السيارات (الكواكب) تدور على مسير اهليلجي (قطع ناقص) حول الشمس على أن تكون الشمس أحد محراقيه (بؤرتيه).

يـرى أن الشعاع الحـامل الـذي يوصـل الشمس بأحـدى السيـارات (الكواكب) يقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية. وفي ذلك من الحكمة الفائقة.

يرى أن مربعات أزمنة الدور النجومي للسيارات (الكواكب) تتناسب مع مكعبات نصف المحور الأطول لمداراتها وفي ذلك الحكمة العالية.

يرى أن نظرية (لابلاس) في تشكل المنظومة الشمسية موجودة بشكل صحيح لا يقبل الجرح والتعديل في القرآن الكريم: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾.

يرى أن تشكل المطر أو الودق قد جاء ذكره في القرآن لتوجيه الناس إلى عظيم صنع الله بقوله: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً (أي يسوق السحاب أو البخار) ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد، فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾. والجبـال التي فيها من بـرد هي الثلاجات (Glacier) أو(Lceberg) تتوجه من نوروج إلى خليج مكزيك في المحيط الأطلسي.

يرى أن قوة خارقة تسير السيارات (الأنجم) بانتظام خاص وتمنعها عن الميدان والانحراف والاضطراب. وهذا ما يعبر عنه: بالجاذبية العامة. ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، أنه كان حليماً غفوراً﴾ (سورة فاطر).

يرى أن الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة أي عند تقليل درجة الحرارة، إلا الماء. ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى، فإذا قللنا درجة الحرارة عن(٤ْ ـ م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه، فيكون ١ سم٣ من الماء في درجة الصفر المئوي أقل وزناً عن ١ سم٣ من الماء في ٣ْم، بخلاف بقية الأجسام، لذلك يكون الجليد أخف من الماء مع اتحاد الحجم، فيطفو على سطح الماء. وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المئوي = ١,٠٩١ سم٣، فإذا ساح إلى الماء في درجة الصفر أيضاً أصبح حجمه = ١,٠٠٠١٢ سم٣. فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر.

ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى في تغير الكثافة أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر (لا في ٤ْم) كبقية السوائل لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب في القعر. وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء إلى الأعلى وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى إلى الأسفل ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة في أعماق البحار والبحيرات. ولإنقلب البحر برمته إلى ثلاجة ما كان يكفي لذوبانها حرارات الفصول، لا سيما في المناطق الباردة، ولإنتفى عند ذلك انتفاع الإنسان بالبحر.

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى في (٤ْم) فإذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+ ٤ْم) نزل هذا الماء إلى القعر لثقله بالنظر إلى وزن الماء في الطبقات السفلى وهكذا حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+ ٤ْم). ثم إذا نقصت درجة الحرارة انجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة، ولما أمكن نزول هذه

القشرة إلى القعر لخفته وبقي القسم الأسفل من البحيرة سالماً من الانجماد تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور.

فيرى أنه لو أطرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أي لولا هذا الشذوذ رأفة بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله إلى جليد في فصل الشتاء ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده ولامتنعت التجارة البحرية ولانقلب الجو بارداً بتأثير الثلوج البحرية ولتعسرت الحياة البشرية.. فيستنتج من ذلك كله أن ليس للطبيعة العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية فتجعل كثافة الماء (+ ٤٠م) في النهاية العظمى خلافاً لبقية الأجسام!.

يرى قوانين رياضية دقيقة منظمة لا تعد ولا تحصى في ربط الحوادث الفيزياوية بعضها ببعض كلها تحت أغراض حكيمة ومصالح دقيقة.

يرى مثلاً أن التيار المتناوب يفسر بالكميات المبهمة أو المحدثة في معادلاتها في الفيزياء العالية.

يرى أن أشعة رونتكن لها من الخواص ما يبهر العقول، وأن أشعة: أورانيوم وتوريوم وراديوم تنقسم حسب نفوذها في المادة إلى أشعة آلفا وبتا. لكل منهما خواصها.

يرى أن أشعة (أس) كيف يحصل عليها من أشعة (أكس) ويحار في انتظاماتها وقوانينها.

يرى أن الأشعة الكونية لها من الآثار والقوانين ما يعجز عن استقصائها العلماء وإن اشتغلوا مئات السنين، حتى يقول الفيزياوي نحن في ساحل بحر من المجهولات لا تدرك نهايته: ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾. (سورة الحجر).

يرى أن الأجزاء الصغيرة من الماء المعلقة في الهواء أو الأبخرة عند انقلابها إلى الثلج (الصقيع) تأخذ أشكالاً هندسية منظمة بديعة يعجز عن نحتها المهندسون.

يرى ويندهش من النظام المودع في مختلف أجزاء بدنه ووظائف كل من أعضائه وكذا في بقية الحيوانات: ﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، ان الله على كل شيء قدير﴾ (سورة النور).

يرى أنه لو كتب عشرات الكتب في ما أودع الله من خواص وقوانين في عين الانسان لكان هنالك أيضاً حقائق لا تعد ولا تحصى يجب أن تدون.

يرى أن الحيوانات قد جهزت بوسائل للدفاع عن نفسها إلى درجة معينة لغرض خاص وانها أقل من أن تفكر لنفسها في ما يسد رمقها ولكنها ترزق وتعيش على الرغم منها: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم، وهو السميع العليم﴾.

يرى أن في الأرض أدوية متنوعة لأمراض الانسان، فلا يدري هل وجد الداء قبلاً أم الدواء وما المناسبة بينهما وفي أي محل عقدا مؤتمر حفظ النسل الانساني من الأمراض الفتاكة؟ ومن أين أتت الحيوية (الحياة) إلى هذه الجراثيم الحية المولدة لشتى الأمراض؟.

يرى عجائب لا تعد ولا تحصى في عالم النبات من بري وبحري والأمراض التي تعتريها وطرق معالجتها، وان الرياح تلعب دوراً في تحقيق مهمة اللقاح ولم يكن هناك توافق نظر بين الرياح والنباتات!

يرى الخوارق في حياة النملة وكذا في كثير من الحيوانات وتلك النقوش البديعة على أجنحة الطيور والحشرات يستوحي منها كبار المصورين ويعجز عن ابتداعها الفنانون!.

يرى في الكيمياء النظام الرائع في تركيب العناصر وتشكل أجسام جديدة شتى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار﴾ (سورة الرعد).

يرى ويحار من توزيع الالكترونات حول البروتونات في بطن الذرة بطرز هندسي عجيب ويرى أن الالكترون يسير بارادة عالية حكيمة من الخارج ولا يتبع المصادفات بوجه من الوجوه.

يرى أنه لو كتب آلاف الكتب في تحقيق خواص الذرة ومعادلاتها لبقيت هنالك أيضاً حقائق مجهولة يجب الاعتراف بجهله لها: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

يرى المطلع في أحوال الكون أن الاختلاف ضارب أطنابه في كل شيء على وجه يؤدي إلى كمال الأشياء وانتظامها في سير متكامل لا يشوبه نقص. وهو دليل على إرادة الله تعالى في تنظيم الأجزاء المختلفة من هذا الكون. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين﴾ (سورة الروم).

يرى المتتبع أن الجنين في رحم أمه لا يحتاج إلى عين أو اذن إلا بعد الولادة، وليس للطبيعة العمياء أن تفكر في المستقبل، بل من الخطأ أن تنسب الحكمة والتدبير إلى الطبيعة (وهي مخلوقة). فيستنبط من هنا أن الكمال شيء مطرد في الممكنات مستدام في جميع أدوارها.

يرى المفكر في أحوال الكون أن كل شيء قد أخذ قسطاً من الكمال بقدر استعداده وقابليته: ﴿أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها﴾. (سورة الرعد). وإن الكمال سائد في كل شيء ولا يشذ عنه شيء. فالذرة كاملة والبروتون كامل والنيوترون كامل والايونات كاملة والوردة كاملة وشعاع رونتكن كامل: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، انه كان حليماً غفوراً﴾ (سورة بني إسرائيل). أي أن كل شيء في تمام كماله وكمال تكامله، وانه يشير إلى تنزه الباري جل جلاله من كل نقص وإلى حسن ابداعه وجليل اتقانه الخلق: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. ولكننا لا نفقه درجة هذا الكمال وحقيقة هذا التنزيه إلا بقدر ما توصلت إليه معلوماتنا ومعارفنا، ولم تصل معلوماتنا إلى حد نفقه بها تسبيح الأشياء والكمال المودع فيها إلا

ظواهر ومعلومات ضئيلة نسلي بها أنفسنا، يغتر بها المغرور فيتردى إلى أسفل سافلين.

ولا ريب أن عدم تفقهنا تسبيح الأشياء إنما هو ناشيء عن الذنوب التي نرتكبها، فترين على قلوبنا (نفوسنا) فتكون حجاباً حاجزاً عن مشاهدة الحق والواقع. على أن الكثيرين ممن تطبعوا على المدنية الغربية لا يقيمون للذنب وزناً ولا يعتبرونه. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. إلا أن الله جل جلاله كما يرى في نهاية الآية المتقدمة حليم غفور ﴿انه كان حليماً غفوراً﴾، فلا يترك عبده يتخبط في دياجير الظلمات بل يهيىء له (تفضلاً منه) دواعي التنبه ويقيض له وسائل الهداية والرشاد في أهله ونفسه وصحبه ومجتمعه وبيئته، إتماماً للحجة وقطعاً لدابر العذر: ﴿قلْ فلله الحجة البالغة﴾.

ثم يرى المدقق ان الله تبارك وتعالى قد خلق كل هذه الأشياء الكاملة في صنعها لهذا الانسان، فهل يجوز أن يكون الانسان: (هذا الذي قد خلق لأجله جميع الأشياء في غاية الكمال) ناقصاً يفسد في الأرض، يظلم ويبغي، يزني ويفسق. ينهب أموال الناس ويرابي. ثم يرى - بحصر عقلي - إن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فكيف يجوز على الله أن يرى بين هذه المخلوقات المتكاملة مخلوقاً ناقصاً وأعني به الانسان؟ فلا بد وان الله تعالى يقيض لهذا (الانسان) الذي خلق لأجله كثيراً من الموجودات وسائل عدة بغية تكميله وإيصاله إلى الغاية التي خلق لأجلها.

إذن بطريق عقلي بحت، يصل المتتبع في أحوال الكون إلى وجوب بعث الرسل وعدم خلو الأرض من حجة بالغة من قبل الله تعالى عملاً بسنة الكمال.

على أن الله تعالى قد أودع في النفس الانسانية بذور التكامل والهداية بصورة فطرية. فانه تعالى يقول: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسَّاها﴾. ويقول في موضع آخر: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريقي الخير والشر. ألا ترى أن من لم

يطلع على العلوم الطبيعية وغير الطبيعية قد تكون له عقيدة راسخة في الدين تفوق عقيدة من توغل في كثير من العلوم، لأن كثرة العلم لا توجب الهداية بصورة مطردة. ولا تناسب درجة الهداية مع كثرة العلم، وان الهداية شعاع يشع من نفس تعمل بالفطرة فلا تفسد في الأرض ولا تبغي ولا تجور، من نفس كلها عاطفة وإيثار وأخلاق فاضلة حميدة:

نعم، إن ما تقوم به الأيدي من أعمال وما تكسبه هذه النفس من درجات هو الذي يسلك بالانسان طريق الفلاح والصلاح. إن الأمي يكفيه نمو النبات وهبوط الأمطار ليعترف بوجود الخالق ويزداد يقيناً به تعالى ويعلم أنه إنما خلق لغاية سامية وغرض رفيع وأنه سائر نحو تحقيق تلك الغاية وذلك الغرض. ﴿يا أيها الانسان أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾. (سورة الانشقاق).

ان الله تعالى يقول: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه». فالمولود يولد موحداً معترفاً بخالقه، لكنه لذنوب يرتكبها ومآكل محرمة يتناولها، يتغلب عليه شيطانه، فيجعله متبعاً طريق والديه المعوج. وأنه لو لم يدنس نفسه بالمعاصي والآثام، أو تمكن من غسلها بأعمال صالحات وتوبة واستغفار، لتوجهت نفسه إلى حيث النور، إلى حيث الكمال المنشود: الا وهو الدين الاسلامي: دين الفطرة. فكم رأينا أفراداً ولدوا من آباء وأمهات غير مسلمين ولكنهم وفقوا إلى اعتناق الدين الاسلامي لأهلية في نفوسهم وصفاء في أرواحهم.

إن الفيلسوف حسب وظيفته يبحث كثيراً عن المثل الأعلى (Superman) للانسان، ولكن أنى لهذا الفيلسوف أن يصل إلى ما يريده الله تعالى وهو بعيد عن الله وملوث بشتى الجراثيم التي تهلك النفس وتفسد السريرة. أبعد القرآن يحق للفيلسوف أو لغير الفيلسوف أن يبدي نظرية في الكمال

النفسي؟ أو يخط للبشر خطة تؤدي إلى سعادته في النشأتين؟ ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾. ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة. أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾.

إن من يرى ليالي باريس وما هنالك من مخازي ومفاسد يحكم بأن الانسان هناك مسرف متجاوز الحد الذي عين لتكامله وهو في سيره السلبي يتدهور إلى أسفل السافلين.

ومن يرى التقوى والورع والخشوع لله لدى المؤمنين واجتنابهم المعاصي كبائرها وصغائرها خوفاً من الله تعالى، واهتمامهم في قضاء حوائج الناس وقيامهم بأعمال صالحة وما هم عليه من فضائل الأخلاق يحكم بأن هذا الانسان قمين بأن يخلق له كثير من الموجودات وهو سائر في سير تكاملي يريده الله لعباده في الأرض.

فالانسان إذا اتبع سنة محمد وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وجعل التقوى نصب عينيه، لا تأخذه في الله لومة لائم ولا تزحزحه عن طريق الحق مخالفة أهل زمانه، ثم ابتهل إلى الله جل وعلا بخشوع وخضوع وتذلل في إزاحة كيد الشيطان ووساوسه عن نفسه الشريرة الجموحة العادلة عن الصراط المستقيم ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ وقام جوف الليل محاسباً نفسه مستغفراً منيباً، فصلى وانقطع إلى الله باخلاص تام، تنفتح بصائر قلبه، فيهتدي إلى الحق، يمقت الملاهي المفسدة للنفس، وتشمئز نفسه من الأغاني المحرمة وإن لم يكن قد بلغه حرمة ذلك. ﴿وذلك لصفاء في نفسه﴾، فيترك مجالسة أهل الفسق والفجور ويمتعض من معاشرة أهل البغي والسوء، ثم يبحث عن أشخاص هم أقرب إلى التقوى وقمع الشهوات فيرتاح إلى مجالستهم ويستفيد من غرر كلماتهم وجميل بياناتهم. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾ (سورة العنكبوت).

فإذا رأيتم رجلاً يستبيح ما حرم الله وهو يدعي الايمان، اعلموا أن

إيمانه ناقص مبتور وان في نفسه من الأمراض المعنوية أمراضاً منعته أن يرى الحق فينطبع عليه.

تولستوي الفيلسوف الروسي المعروف، بسبب عطفه على الفقراء والمساكين والبؤساء وبذله أموالاً طائلة في سبيل خدمة الآخرين، قد رأى بصيصاً من الحق. ولكن نفسه ـ أو قل ـ نتائج أعماله السابقة كانت أقل من أن تدعه ليرى الحق كله جلياً أو يهتدي إلى صراط الله القويم (ألا وهو دين الاسلام). فكان تولستوي يبحث عن الحق وبينه وبين الحق حجاب. وكان الحجاب نفسه. حتى كان مآل أمره أن خرج من مزرعته هائماً على وجهه في برد قارس كان فيه هلاكه.

إن من ينظر إلى ولد لم يبلغ الحلم وهو يصلي بخضوع وخشوع، يركع ويسجد للمنعم المنان، يعلم بل يقطع أنه عامل حسب ما لأجله خلق. لأن من شأن العبد والمنعم بنعم المولى أن يشكر مولاه. وذلك أمر فطري لا ينكره كل من كان له مسحة من العقل. إلا إذا كان من الذين رانت ذنوبهم على قلوبهم فأصيبوا بعمى القلب. وهو أشد عمى يصاب به الانسان المسكين بما كسبت يداه. ﴿فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (سورة الحج). فيستهزيء بالمصلي ويرى الصلاة شيئاً زائداً أو (لا سمح الله) عملاً خرافياً، ولكنه يفرح ويبتهج لو رأى امرأة مسكينة في مقطع أحد الشوارع تنظم سير السيارات تحت الثلوج، حين أن زوجها وأخاها لا شغل لهما ويفتشان عن عمل فلا يلتفت إليهما. وهذا هو التبلبل الاجتماعي بعينه.

نعم، لو زاغت النفس عن الفطرة يرى الفرد الحق باطلاً والباطل حقاً، فتتردى هذه النفس لذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. ان الله تعالى يقول ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً﴾ (سورة الفرقان).

نعم، ان الغربي ليقدر وفاء الكلب إذا وفى لصاحبه وحرسه بكل نشاط وإخلاص ويكتب في إطرائه والثناء عليه كتابات قيمة كثيرة. وأنك لا ترى

كتاباً للمطالعة إلا وفيه وصف لوفاء الكلب وأنه يقابل الاحسان بالاحسان ويشكر صاحبه بأعماله ووفائه. أجدير بالانسان وهو أشرف المخلوقات أن يكون أحط من الكلب في تقدير نعم الخالق التي لا تعد ولا تحصى والقيام بواجب الشكر بصلاة وزكاة... ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار﴾.

يتعجب الانسان ويندهش عندما يرى رجالاً من الغرب يتقلبون في نعم الباري جل جلاله في قصور مشيدة وأبنية فخمة ومناظر جذابة مع خدم مطيعين في خفض عيش ودعة وسرور وحبور مع ذلك كله لا يخطر ببالهم أن يفكروا في من أولاهم هذه النعم ومن أين أتتهم، فيقوموا تجاهه بواجب الشكر.

وقد يكون أحد هؤلاء ذلك الفيلسوف الذي يريد أن يضع دساتير سعادة البشر! متبختراً بفلسفته الواهية الحالكة، مغروراً ببياناته السخيفة، يريد أن يسن للبشر سنن الرقي والتكامل وهو في آخر درك من النقصان.

هذا (بنتهام) فيلسوف من فلاسفة الغرب يقول: «إن الأخلاق يجب أن تقوم على المنافع المتقابلة». وهل هذه أخلاق أم تجارة بأخس معانيها أم بهيمية أو شيء أحط من البهيمية؟ ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا، فلا يغررك تقلبهم في البلاد. كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾. (سورة المؤمن).

قد يقول الشخص أمثال (روكفلر) و(فورد): إنا قد حصلنا ما حصلنا عليه بجد واجتهاد وغيرنا لم يتمكن من ذلك. وقد فاته ان الله هو الذي قد هيأ له أسباب هذه الثروة الطائلة وأوجد له امكانيات، وهيأ له ظروفاً خاصة ولولا توفيق الباري جل وعلا لكان حاله حال أحد عماله. وقد يكون أحد عماله أقرب إلى الله. وكم بين عماله من هم أشد منه قوة وذكاءاً واجتهاداً وسهراً على المصالح الدنيوية!!.

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما ان

مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه لا تفرح، ان الله لا يحب الفرحين. وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، ان الله لا يحب المفسدين . قال: إنما أوتيته على علم عندي، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾. (سورة القصص: ٧٦، ٧٨).

ذكر لي أحدهم وكان من الذين درسوا الفلسفة الغربية: انه استقال من وظيفة هامة وعمد إلى تجارة الأفرشة والسجادات وكـان يملك شيئاً من المال. فكانت تتوارد عليه الأرباح مع جهله بنوعية الأفرشة. وبعد ثلاث سنوات وقف على أنواع الأفرشة جيدها ورديئها وصار يميـز بينها تمييـزاً صحيحاً. فقدر لنفسه أنه سوف يكون مع هذا الاطلاع أحد كبار الأثرياء بعد قليل. ولكن انعكس الأمر، فتراكمت عليه الخسارة وحوادث مؤلمة تباعاً، وأفلس قسم من التجار الذين كانوا يتعاطون معه، فكان عاقبة أمره الافلاس أيضاً. وصار يحتاج إلى قوت يومه. وقد رأيته ذات يوم وهو في هذه الحالة، فدنا مني قائلاً: أمسيت في حالة أخشى أن تضع الناس في يدي فلساً زاعمين أني سائل مسكين! ثم سكت وقال: أني علمت الآن ان الله هو مدبر الأمور وهو الموفق وليس الفن كل شيء، وإن هناك يداً خفية لها أثرها في تسيير الأمور. فمهما كان الانسان موهوباً، لا بد من يد خفية تساعده في النجاح وتهيء له الفرص على أن المواهب كلها منه تعالى.

ثم قال: إن ما درسته من الفلسفة الغربية هواء في شبك، وعلمت بعد التجارب أنها تفكير بشري لا توافق الواقع وأيقنت أن نصيحة أمي ـ وأنا طفل صغير ـ هي كل الحقيقة وتمام الحقيقة. أنها كانت تقول لي: «ولدي، كل شيء بيد الله تعالى».

* * *

وصادف رجلاً آخر كان قد ترك الصلاة واندمج في زمرة من لا يخشى الله. ففصل عن وظيفته وبقي لا عمل له، فباع كل ما لديه ليقتات بثمنه،

فنفد ما لديه. وبقي حائراً يعالج الجوع. والجوع خير مرب في كثير من الأحيان. ففكر في نفسه وفي الغاية التي خلق لأجلها بمدة سنتين وهو في حالة يرثى لها. حتى أيقن أنه محتاج، وان الحاجة لا تعرض إلا على أغنى الأغنياء ومعطي الغنى وهو الله. فابتهل إليه جل وعلا وخشع وتذلل وبدأ يصلي ويصوم ويقدس المقدسات. فحسنت أخلاقه وتحسنت سريرته وطابت نفسه. ثم أني أحببت أن أستقصي سبب هذا الانقلاب التكاملي. فكنت ذات يوم في بيته عند الغروب، رأيته حاملاً أمه العرجاء وقصد بها إلى السطح، وكان يأتي بها هكذا عند الصباح إلى ساحة الدار، يقدسها أيما تقديس. رأيته عطوفاً على أخيه المسكين الذي كان عالة عليه، وصولاً أرحامه. رأيته يساعد الفقراء والمساكين. فعلمت أنه لم يقطع صلته بالله تعالى في زمن كان قد ترك الصلاة فيه. فصرت أنصحه. فوجدته يوم الجمعة في روضة الامامين موسى والجواد عليهما السلام يصلي. فهنأته على رجوعه إلى صلاته وهديه.

ثم أنه دعاني يوماً إلى الطعام. فجيء بالمائدة وانتظرته قليلاً حتى حضر. سألته عن سبب التأخير. قال: آليت أن لا أتناول ما منَّ الله به عليَّ من عظيم الرزق حتى أشكره بصلاة قبلاً. وأصبح رجلاً ديناً يشار إليه بالبنان.

نعم، هكذا تعمل النوائب في تكميل بعض النفوس، فان اخراجه من الوظيفة وتجرعه آلام الجوع والفقر فتحا عليه أبواب الهداية. لأن المعدة المملوءة قد تكون حجاباً حاجزاً عن الوصول إلى الحق، وان أبخرتها الكثيفة تغشي الحقائق فلا يشعر الانسان إلا بشهوة نفسه. وهذا أحد الأسباب التي سنَّ الله تعالى من أجلها الصوم. وأحد أسباب استحباب الزهادة في الدنيا.

ولا بأس بذكر هذا الحديث في المقام: قال سعد لسلمان المحمدي في مرضه: كيف تجد نفسك؟... فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: «والله ما أبكي حزناً على الدنيا ولكن بكائي لأن رسول الله (ص) قال: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب». فأخاف أن أكون قد تجاوزت ذلك. وليس حوله في بيته غير مطهرة وإجانة وقصعة.

وقد يتعجب البعض من ذكرى هذا الحديث في عصر قد بلغت فيه

الكماليات أقصى الحدود حتى لم تبق وقتاً للعبادة. كأنه نسي قول الله تعالى: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. ان الدين يعطينا المثل الأعلى في الكمال النفسي لأفراد (Superman) هم أوتاد الأرض. وكل يأخذ من هذا الدين حسب اختياره بمقدار ما يشاء.

* * *

إن الله تبارك وتعالى يتم الحجة على العباد بغية تنبيههم وإرشادهم إلى سبل الرشاد بمرض أو ضنك في عيش أو غرق أو عواصف وزلازل وبلايا أخرى. لعل العبد يفكر في عاقبة أمره فيعالج نفسه المريضة. إن الله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾. وفي آية أخرى: ﴿وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون﴾. وفي أخرى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾.

* * *

يتجلى الكمال النفسي في الدرجة الأولى في (الشكر). فمن كان شكره أكثر كانت نفسه أسمى وأكمل. فلا يجب أن ينخدع الشخص بعلم الأستاذ لأنه أستاذ ورب أستاذ لأنعم الله جاحد!. إذ لا رابطة بين العلم والكمال النفسي.

يقول زين العابدين (ع) مخاطباً رب العباد: «فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر. فكلما قلت: لك الحمد، وجب عليَّ لذلك أن أقول: لك الحمد».

وإنما كان الأنبياء (ع) أنبياء، لعظيم شكرهم وكمال إخلاصهم. فقد فدى إبراهيم (ع) بجميع غنمه عندما سمع من ينادي: «سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح». ويقول الله جواباً لأولئك الرؤوساء الذين تعجبوا من إيمان من آمن من الضعفاء أنهم إنما آمنوا لشكرهم: ﴿وكذلك فتنّا بعضهم

ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.

إن الصلاة المفروضة نوع شكر. وقد ورد في الأخبار: يستحب للعبد أن يقول كل يوم ٣٦٠ مرة: «الحمد لله رب العالمين». وهذا قليل مما ينبغي أن يقوم به العبد من واجب الشكر تجاه خالقه وبارئه.

وقد يقول الجاهل المغرور: ليس لنا من الوقت ما يكفي لاقامة الفرائض فضلاً عن المستحبات. ولكنه يقضي ساعات عدة في المقاهي، يتعاطى فيها الميسر، يغتاب فيها الناس ويقوم بالنميمة، فيصرف أوقاتاً غير قليلة في اللهو واللعب: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾.

ان الله تعالى أكد في تحريم الخمر والميسر وعظم أمرهما بجعلهما من الرجس وقرنهما بالأصنام والأزلام وجعلهما من عمل الشيطان. فمن تعاطى الخمر أو القمار كأنه عبد الأصنام وقدسها. والحق، ان من كان محبوبه الخمرة والميسر لم يكن له طريق إلى المقامات القدسية وتدهور إلى أسفل السافلين، فيكون مآله ومثواه ما يناسب نفسيته المتسافلة ألا وهو الجحيم.

فعلى الأباء أن يمنعوا أولادهم من ارتياد المقاهي ومجالس القمار واللهو والرقص... إلى ما هنالك، وأن يحظروهم مجالسة الأوغاد والسفلة من الناس وأن يجبروهم على أداء الصلاة والقيام بالفرائض الدينية ويعرفوهم كبائر الذنوب وصغائرها، وأن يعودوهم مساعدة الفقراء والمساكين والأعمال الصالحة وحسن المعاملة وصلة الرحم ومراعاة الجيران؛ وأن يحذروهم عواقب الخيانة على حساب الآخرين. فان ذلك أوجب وأهم من الطعام والثياب. ذلك لأن عاقبة مروق الولد من الدين نار مسعرة: ﴿أنها لظى، نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى﴾.

ان الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون﴾.

وكم نرى في زماننا هذا آباء يعظون أبناءهم، يرشدونهم ويهدونهم سواء

السبيل، ولكن أبناءهم يسخرون منهم في قلوبهم ويصمونهم بالخرافة والرجعية! فإذا رأوهم صلوا، وإذا غابوا عنهم رجعوا إلى غيهم: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: أنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾.

إن كثيراً من الأبناء اليوم لعوامل شتى هم مصداق هذه الآية: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي. وهما يستغيثان الله، ويلك آمن، ان وعد الله حق، فيقول: ما هذا إلا أساطير الأولين﴾.

من تلك العوامل: خلو التعليم عن دراسة دينية صحيحة وتربية أخلاقية متينة وعدم إدخال دروس الدين في المدارس العالية، وعدم اعداد مدرسين أكفاء لتدريس الدين وعدم تعيين مفتشين للدين بصورة خاصة للمدارس الابتدائية والثانوية والعالية وإعطائهم صلاحيات واسعة، وتقليد الغرب في فلسفتها المادية وأخلاقها النفعية.

عندما يدرس الانسان الدين الاسلامي ويتتبع أوامره ونواهيه في المأكل والمشرب ومعاملة الجار والأرحام وفي جميع مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينظر في ما أمر به من عبادات بدنية ومالية وما نهى عنه من معاملات في المتاجر والمكاسب يقطع أنه هو دين الله في أرضه، هو دين يأخذ بهذا الانسان الناقص إلى حيث الكمال المنشود.

الترتيب لا يولد الحياة

جاء في مقال: (الحياة في علم الحياة) في العدد السادس من مجلة الاعتدال الغراء نقلاً عن مذهب الماديين: «أن العلماء الحديثين قد ذهبوا مذهباً آخر في تعليل كيفية حلول الحياة في مادة (البروتوبلازم)(protoplasm) وذلك بأن المقدرة على القيام بالأعمال الحياتية ناتجة عن ترتب خاص واندماج أو تألف معلوم بين العناصر التي تكوّن مادة البروتوبلازم الحية».

وبما أن هذه النظرية عارية عن الصحة لا يعترف بها الفلاسفة المحيطون بمبادىء كافة العلوم وأكثر العلماء الحديثين، أحببت أن أرد هذا الرأي، مع علمي أنه ليس من رأي كاتب المقال ولا معتقده، دفعاً للشبهات ودرءاً لزلة الشبان، وانجذابهم إلى المذهب المادي الفاسد(Marterialisme) .

إن الدليل الذي يقيمه الماديون على أن الترتيب هو الباعث لحلول الحياة في مادة البروتوبلازم، كما جاء في المقال، هو أن: (ترتيب ذرات الهيدروجين والأوكسجين والكاربون، حسب نظريات الكيمياء العضوية الثابتة، ينتج مواد عضوية كالسكر والخشب والنشأ وما أشبه).

وليت شعري هل السكر بعد قطع علاقته من النبات شيء حي له أعمال حياتية كالتنفس والافراغ والتغذي والنمو والتوالد وهكذا الخشبة والنشأ. فمن شاهد تنفساً وتغذياً ونمواً للخشبة الموضوعة فوق منضدة الكتابة طوال السنين له أن يدعي بأن فيها حياة تشبه ما عرفناه آنفاً. وهكذا لا حياة للحوامض الحاصلة عن ترتيب خاص لذرات الأوكسجين والهيدروجين مع عنصر الكبريت أو الكلور على ما هو معلوم في الكيمياء.

نعم، ان الحوامض تمتاز بخاصيات مختصة بها، ولكن هذه الخاصيات عوارض مادية فاقدة الحياة. ولا شك أن ترتيب الذرات بنهج خاص يسبب خواص جديدة، ولكن هذه الخواص هي آثار مادية غير حياتية، ولا تشبه آثار النبات والحيوان من حيث التغذي والتمثل والتنفس إلى غير ذلك. وبما أن

عملية الترتيب عملية مادية، فالمعلول يكون أمراً مادياً أيضاً ولا يتجاوز حدود المادة، لأن الحيوية مفهوم غير مادي وليس للمادة أن توجد ما ليس فيها.

ومعلوم: أنا إذا رتبنا آلات مضخة الماء الرافعة (مثلاً) حسب ما يجب فهل تتحرك بنفسها دون أن تحركها قوة خارجة عنها مسيطرة عليها مؤثرة في آلاتها وأدواتها؟ كلا. ولا مراء أن روح تلك القوة بما هي قوة ليست من جنس المادة من حيث هي مادة وبينهما بون عظيم. وإذا استطاع العالم بعلوم الحياة: (Biologue) أو(Biologiste) أن يقتل حشرة ويأخذ المواد المشكلة لها كالأوكسيجين والهيدروجين والكاربون والآزوت (نيتروجين: Nitrogene) إلى غير ذلك بمقدار ما هو موجود فيها، ويرتب هذه العناصر على الترتيب الذي يراه فيشكل منها تلك الحشرة الحية، له أن يعترف أن الباعث للحياة هو الترتيب والتأليف: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فأستمعوا له، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾. (سورة الحج: ٧٣).

فالترتيب عملية موجودة في جميع العناصر غير الحية. ولولا الترتيب لما أمكن وجود العناصر المختلفة بصرف النظر عن وجود الحياة. فان النظريات الحديثة التي لا تزال في تزلزل وسقوط، تدعى اليوم: أن كل آتوم (ذرة) مركب من بروتـون: (الكهربـائية المـوجبة) المجتمعـة في الوسط والمحـاطة بالالكترون: (الكهربائية السالبة) المحدودة وعدد آخر من الالكترونات بحيث يساوي زيادة عدد البروتونات على الالكترونات المحيطة المحددة. وبذلـك يتساوى عدد الالكترونات وعدد البروتونات في كل ذرة، إلا أن البروتونات كلها مندمجة في الوسط. فمثلاً: ذرة الليثيوم مركبة من (٧) بروتونات و(٤) ألكترونات محددة.

وإذا رسمنا مكعبات حول المركز (البروتون) في إمكاننا أن نضع (٣) ألكتـرونات في رؤوس المكعب ليكـون عدد الالكتـرونـات مسـاويـاً لعـدد البروتونات. وان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو عدد الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر. وان هذه النظرية المسماة بنظرية (أو

كنت) أبديت من قبل (لويس) و(لانكمو) الأمريكيين. إلا أن هناك نظرية أخرى، تدل على أن الالكترونات، التي توضع في رؤوس المكعب كما رأينا في ذرة الليتيوم والتي نسميها أقماراً، تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

وإذا سلمنا بالنظرية الأولى نرى أن العناصر كلها من كلور، حديد، ليثيوم(Lithium) كاليسيوم، هيدروجين، هليوم... الخ. مركبة من (بروتون) و(ألكترون). ومع اختلاف خواصها فانها مركبة من شيئين متساويين في العدد، مجهولين من حيث الماهية ومرتبين بترتيب خاص. ولولا هذا الترتيب والاختلاف في العدد لما وجد عناصر مختلفة ولما حصل اختلاف في الخواص المادية. فالترتيب واختلاف العدد يوجبان تبدل الخواص الكيمياوية فحسب، لا الحياة!.

على أن الترتيب لا بد لهِ من مرتب. فلا يأتي الترتيب المؤدي إلى وجود عناصر مختلفة وإلى وجود ارتباط بين أجزاء العالم ارتباطاً وثيقاً، عفواً. ومحال أن يعترف العقل الانساني بأن الترتيب المؤدي إلى وجود ما لا يعد ولا يحصى من الموجودات. وهي في غاية النظام وتمام الاتقان - يأتي جزافاً دون تروٍّ وحكمة.

* * *

يقول أحد علماء الطبيعة رداً على نظرية الترتيب والصدفة: أننا لو وضعنا في كيس عشر قطع متماثلة من المعدن وقد كتب عليها الأرقام من (١) إلى (١٠) بالترتيب، فالاحتمال في أن نعثر على رقم (١) هو واحد من عشرة. ولو أردنا أن نظفر بالرقمين (١، ٢) بصورة متتالية فالاحتمال يكون: واحداً من مائة، وإذا أردنا أن نظفر بثلاثة أرقام متتالية، فمرتبة الاحتمال تكون واحداً من ألف، وإذا أردنا أن نوفق إلى سحب الأرقام من ١ إلى ١٠ بصورة متتالية فمرتبة الاحتمال تكون: واحداً من عشرة آلاف مليون. وإذا علمنا أن الأجزاء التي ترتب هذا الكون مختلفة، ومتعددة جداً، وان ما خلق الله من

الموجودات تكاد لا تتناهى، وان الترتيب في هذه الموجودات يختلف بعضه عن بعض، إذن ستكون مرتبة الاحتمال:

$$\frac{١}{١٠^{ن}}$$

فإذا كانت ن = ∞ (أي ن تساوي اللانهاية)

إذن:

$$\underset{ن \to \infty}{غـــا} \frac{١}{١٠^{ن}} = ٠$$

أي أن: غاية $\frac{١}{\infty}$ = ٠ لا محالة...

يستنتج مما سبق أن قيمة الاحتمال أو الصدفة تساوي الصفر. أي ليس هناك صدفة أبداً[١].

فليس في الامكان: أن أجزاء لا تتناهى من هذا الوجود من مادية وغير مادية تترتب ترتيباً بديعاً محيراً للعقول، يؤدي إلى انتظام رائع نشاهده في هذا الكون، لا سيما وجود هذه الحيوية في النبات والحيوان ووجود هذا العقل الإنساني! ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾. (سورة الرعد). وفي آية أخرى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾. (سورة الروم). (الودق: المطر).

---

(١) على أن ما فكر فيه هذا العالم من نظرية الاحتمال لا تنطبق تماماً على هذا الكون. لأن الأشياء لم تكن موجودة كلها قبلاً وإنما وجدت بأمر الله تباعاً وبترتب بديع وتحت نظم ودساتير. ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾. ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾. ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾.

تقول نظرية لابلاس: أن الأرض كانت في الابتداء قطعة نارية في درجات عالية من الحرارة. فما كان يمكن أن يعيش على سطحها إذ ذاك لا حيوان ولا نبات ولا مكروب. فمن أين إذن جاءت هذه الحيوية (أو الروح) للحيوان والنبات والميكروبات لولا خلق الله إياها؟: ﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، ان الله على كل شيء قدير﴾.

أنى للصدفة أن تضع معادلات دقيقة وقوانين محكمة تربط أجزاء العالم بعضها ببعض وأنى لها أن تخلق الروح والعقل. ثم كيف وجدت هذه الأجزاء المترتبة؟ هل وجدت في آن واحد: (وهذا ما لا يوافق عليه العقل لما يشاهد من موجودات جديدة)، أم وجدت تباعاً؟.

فمن الذي أوجدها تباعاً ووضع دستور التتابع والتسلسل في أجزاء لا تتناهى بحكمة فائقة ونظام رائع. ثم ان الجزء الأول هل وجد من تلقاء نفسه وهو في غاية الحاجة والافتقار ومؤلف من عناصر عدة، في فضاء لا بد له من خالق؟ ومن رتب هذه العناصر ترتيباً حكيماً محيراً للألباب؟!

ثم من الذي وهب له روحاً تحركه وتعطيه قابلية الايجاد والخلق والتنظيم بقوانين ودساتير رياضية رصينة. أم ماذا؟ ﴿فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فانى تصرفون. كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾. (سورة يونس ع).

* * *

يتألف محرك الصاروخ من (٣٠٠ ٠٠٠) قطعة. فإن كان صنع إحدى هذه القطع يخالف الهندسة التي يجب أن تصنع بحسبها مخالفة بسيطة ولم تبذل الدقة المتناهية في إنتاج كل قطعة أخفق الصاروخ عند إطلاقه وفشل. فكيف بهذا العالم المؤلف مما لا يتناهى من قطع في عالم الجماد والنبات والحيوان، ثم ارتباط هذه العوالم بعضها ببعض عدا عوالم الأرواح والعقول.

كما أن للمفكر أن يفكر من الذي هندس القطع التي يتألف منها محرك الصاروخ أم وجدت من تلقاء نفسها، حتى يأتي دور الصدفة! على أن درجة

الاحتمال في هذا الترتيب هي الصفر لا سيما إذا كانت الأجزاء لا تتناهى.

إذن وجب بحصر عقلي أن يعترف العقل أن هناك خالقاً قديراً وقد أعلى الوجود، وأوجد الأشياء بقدرته ورتبها بحكمته. ﴿سبحانَ الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

وفي خلق الله تعالى جميع ما في الكون من حيوان ونبات وجماد[1] بصورة زوجية حكمة بالغة، كي يوقن هذا الانسان أن الوحدة خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها أحد، وإن كل شيء من المخلوقات لا بد له من شريك ومزاوج: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وإذا سلمنا بالنظرية الثانية: (وهي أن الالكترونات في الذرة تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالمنظومة الشمسية)، نرى أن الحركات حول المركز كلها متماثلة، إذن لزم أن يكون كل ما في الكون متحركاً من الابتداء! فما هو إذن هذا التفاوت في الموجودات يا ترى؟ ثم من أين أتت هذه الحركة: حركة الأقمار أو الالكترونات حول البروتونات. ومن المحرك لها؟ ومن جاء بهذا الترتيب وهذا النظام حتى وجدت هذه العناصر؟.

وسواء سلمنا بالنظرية الأولى أو الثانية فان الالكترون (الذي هو القوة بعينها) موجود في ذرات الأجسام، إذن ليست الذرة بشيء مادي بحت.

فكيف إذن: انقلبت الطاقة أو القوة إلى مادة؟ وقد ثبت حديثاً أن المادة تتحول إلى طاقة وقوة: أما بالاشعاع أو بطرق أخرى. وأول من عثر على هذه النظرية (مدام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (سوربون) حينما وضعت في (جيبها) قطعة من الراديوم أدت إلى خدشة في صدرها بنتيجة الاشعاع وقد خف وزنها بعد مدة.

---

(١) الذرة تتألف من الكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). وتدور الالكترونات حول البروتونات كما في المنظومة الشمسية. وإن كل نجمة نراها في مسافات شاسعة هي في الواقع نجمتان، تدور احداهما حول الأخرى. تحقيقاً للزوجية في عالم التكوين.

ولسائل أن يسأل: من أين جاءت هذه الطاقات الهائلة التي تكاد لا تتناهى حتى شكلت هذا العالم المادي. وقد وضح الله تعالى ذلك في القرآن الكريم بقوله: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء. ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم﴾.

وقد صرّح الدكتور (كوستاولوبون) في آرائه الفلسفية: أن تحول المادة إلى القوة مما أوجب إفلاس الماديين(Materialistes) وتقهقرهم.

فوجب إذن أن نعترف بأن قوة خفية مدبرة عظيمة تسيطر على المادة (التي مخلوقة لها)، فتعطيها الحياة وتجعلها نباتاً، فحيواناً، فإنساناً وهو الله تبارك وتعالى، وأن جوهر الحياة ليس بمادي. كما أنا نرى أن للانسان نفساً مجردة عن البدن حاكمة عليه. (يعترف بذلك العلم الحديث بعد انكشاف بعض حقائق الذرة).

إن الإنسان يرى في منامه أنه يسافر إلى بلاد شاسعة ويقوم بأعمال غريبة وقد تستمر أعماله ليالي وأياماً، وبدنه المادي ملقى على فراشه. أليس الذاهب إلى البلاد النائية والقائم بأعمال مختلفة هو نفسه التي بين جنبيه؟ مع أن النوم لم يستمر إلا سويعات ولكن الأعمال قد تستمر أكثر من ذلك.

وقد اكتشف حديثاً: أن الماء ليس مركباً من الأوكسجين والهيدروجين فحسب بالنسبة المعلومة، بل فيه ما لا يدخل تحت المجهر (ميكروسكوب) والأدوات والمواد والمؤثرات التحليلية الموجودة في المختبرات، وهو قوة حيوية مفيدة. فإذا كان في الماء شيء غير مادي، موجب للحياة، فكيف لا يوجد في (البروتوبلازم) وقد قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

يقول (بركسون) الفيلسوف الفرنسي: «ان ما حدا بالانسان إلى النزعة المادية في تفكيره، هو ارتباطه بالمكان ارتباطاً وثيقاً». وان من يقف على أفكار هذا الفيلسوف الدقيق لا يلبث أن يستهزىء بمبادىء الماديين السخيفة الذين

أخذوا في هبوط مستمر بعد تقدم علم النفس وتسخير الأرواح أو تحضيرها في الغرب. (على أن إحضار الأرواح عمل حرمه الدين الاسلامي. وعده من كبائر الذنوب كالسحر والتنجيم).

* * *

أرى أنه من واجب كل مسلم أن يعلم أن ليس للغرب مع اندماجه في حياة مادية مدلهمة أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة على حد قول (كوستاولوبون)، فأنه كانَ يقول: «لقد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة».

ولكنه لو تمسك بدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الله وأطاعه وقام بأعمال صالحات لوجهه تعالى وجرّد نفسه مما علق بها من غرور ودنس ورجس وأوساخ مادية وترك عبادة المادة والزخارف الدنيوية حتى يبلغ مرتبة المخبتين وتكون نفسه مطمئنة بعد أن كانت أمارة بالسوء، فلوّامه لآمن بما جاء في الدين مما يتعلق بما وراء الطبيعة، وكان من الذين «يؤمنون بالغيب» ولدخل في زمرة أولئك الذين يقول علي (ع) فيهم: «وهم والجنةكمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم في النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة. وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة يسرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها. وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن. يرتلونه ترتيلا. يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم. الخ. . ».

ذلك لأن ليس للانسان أن يدرك المجرد ويوقن به قبل أن يتجرد مع كونه في عالم الشهود. فان الذنوب والآثام والشهوات والنزوات ظلمات بعضها فوق بعض، تحجب النفس الانسانية عن رؤية الحق والواقع وتمنعه من أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة فيكون من الذين لا يؤمنون بالآخرة وتزين له أعماله ويظن بل يوقن أنه سائر سيراً حسناً وأنه من المهتدين! : ﴿ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون. أولئك لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾.

فليجرب من كان يرتاب في ما أقول. فلقد شاهدت أناساً كانوا منحرفين وقد وفقوا بفضل من الله أن يخطوا في ساحات الكمال بعزم رصين، فصاروا ممن يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكـاة وذلك بتـرك المعاصي والآثام. وكم شاهدت من أطباء وغير أطباء يحضرون مجالس الوعظ والارشاد ومجالس تفسير القرآن الكريم بخشوع ورغبة، ورأيت من بين هؤلاء متهجدين متعبدين، يقومون بأعمال صالحات.

* * *

واني أكرر هنا دستور تكامل النفس بصورة بسيطة: كل ردع لهذه النفس عن مشتهياتها المحرمة يفتح على الانسان باباً من أبواب الهداية، فقد جاء في الحديث: «النظرة سهم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله أتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه». ويراد بالنظر: النظر إلى من حرم الله من النساء. وكل ذنب يقترفه الانسان يسد عليه باباً من أبواب العقل الفطري الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فيسد عليه باباً من أبواب الهداية. فيلج إذ ذاك شيئاً فشيئاً في أودية من الضلال والظلمات. دليل ذلك: ما قاله علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً».

إن التركيب والتحليل وما في المختبرات من أجهزة دقيقة فنيـة للقيام بتجـارب في الفيـزيـاء العـامـة(Physique generale) و(Bacteriologie) و (Biologie) لا تكفي للاطلاع على حقيقة الحياة أو الحيوية الموجودة في النبات أو الحيوان. على أن التجربة وحدها لا تفيد علماً يقيناً إذا لم تكن مستجمعة للشروط اللازمة من الوضع والمكان ومختلف الحالات. كما أن أخذ النتيجة من التجربة على فرض صحتها ليس داخلاً في التجربة نفسها. فالتجربة شيء والاستنتاج أو الاستقرار شيء آخر. أي أن التعليل وربط المشاهدات والنتائج ليس بأمر مادي.

إن مظاهر التجربة أمور مادية والاستنتاج أمر عقلي. وقد يقوم الشخص بتجربة فيستنبط منها نتيجة مغلوطة لنقص في المحاكمة أو لاستيلاء الميول الخاصة على القوة المفكرة، فتصبح النتيجة غير صحيحة. فينساق إلى قبول

هذه النتيجة المغلوطة أناس عقولهم بعين الدرجة من ضعف المحاكمة لظلمات في النفس، ونفسياتهم متفقة مع نفسية هذا المجرب المنحرف أو قريبة منها[1]، فتصبح النتيجة المغلوطة برهة من الزمن كحقيقة راهنة ثابتة! : ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾، (سورة الروم) حتى يقيض الله من يقوم بتجارب أخرى مع استنتاج صحيح فيردها ويجرحها. وقد وقع ذلك في أوروبا مراراً. فقد أخفق المادي مرة بعد أخرى! ولكن آثامه حجبت عليه طريق الهداية وأخذ يتشدق باسم العلم! وبينه وبين العلم مسافات لا تحد. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. (سورة المطففين: ١٤).

فالنظريات تتبدل من حين إلى حين ولا ينبغي أن يعتمد عليها وتتخذ كحقيقة يستحيل عليها التزلزل، ذلك لأنها ليست كالرياضيات البحتة حقائق ثابتة.

* * *

إن الفلاسفة الواقعيين يعترفون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام (المادة) ناقصة وستبقى ناقصة إلى الأبد. ويقولون: (أننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة»، فأنى لهم بعد اعترافهم هذا أن يتوصلوا إلى حقيقة الحياة وحقيقة الروح.

يقول دكارت: «فإذا سلمنا أننا لا نستطيع معرفة الواقع مباشرة امتنعت علينا معرفة الواقع على الاطلاق».

أنى للمحاط (الانسان) أن يحيط بالمحيط (وهو الله). لذلك يقول علي عليه السلام: «تكلموا في خلق الله ولا تكلموا في الله. فان التكلم في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً». وقال عليه السلام أيضاً: «كيف أصفه بالكيف وهو

---

(١) فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو آذان يسمعون بها، فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. (صورة الحج: ٤٦). فلا يفيد السير في الأرض في سلوك النفس التكاملي مع قلوب متحجرة ونفوس مدلهمة مظلمة بذنوبها وآثامها.

الذي كيف الكيف حتى صار كيفاً. فعرفت الكيف بما كيف كيف لنا من الكيف» (يريد به الله تعالى).

* * *

أنى لهذا الانسان أن يحيط بالله تعالى وقد كان في ابتداء أمره جرثومة (نطفة) ولم يكن له أدنى تصرف في توجيه هذه الجرثومة وتحولاتها في الرحم وبعد الخروج من الرحم. وكان لا يزال مسيراً إلا ما كان من إرادته[1] في اتباع طريق الخير وطريق الشر. فـ«لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين». ويؤيده قول علي عليه السلام: «عرفت ربي بفسخ العزائم ونقض الهمم. لما هممت فحيل بيني وبين همي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي علمت أن المدبر غيري».

وفي القرآن الكريم: ﴿ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾. وفي آية أخرى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾. وفي آية أخرى أيضاً: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾. وفي آية أخرى: ﴿قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾.

كل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أننا نحن المسؤولون عن سلوكنا واتجاهاتنا وعن أعمالنا السيئة. والله قادر على تغيير سلوكنا وهدايتنا لو جعلنا نفوسنا لائقة إلى قبول فيوضاته القدسية بالمداومة على أعمال صالحات. وفي استطاعته تعالى أن يسد علينا أبواب رحمته وهدايته وأن يبعدنا عن ساحات القدس، ان لوثنا أنفسنا بالذنوب والآثام وذمائم الأخلاق.

* * *

أنظروا كيف يصف الله تعالى مراتب تكامل الجنين في رحم أمه: ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة. فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم انشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وقد جاء في

---

(١) أي من إرادة الانسان نفسه.

تفسير: ﴿أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي أن الله تعالى أنشأه خلقاً آخر بنفخ الروح فيه.

ما معنى نفخ الروح في جسم مشكل من عظام ولحم. ذلك لأن الروح ليس من المادة في شيء. ولعل الروح هي مشيئة الله تعالى وإرادته سبحانه. فهذه المشيئة أو الارادة بقوله تعالى: «كن» تنقلب إلى طاقة وقوة. والقوة لها مظاهر وأنواع حسب مشيئته تعالى. فتارة تكون هذه الطاقة أو القوة: (أي الارادة الالهية المتحولة إلى الطاقة بأمره تعالى) عقلاً وتارة تكون روحاً ونفساً انسانية أو نفساً حيوانية، وتارة تكون هذه الحيوية التي نلمسها في (البروتوبلازم) وتارة تكون مادة. أي أن هذه الطاقة تنقلب إلى مادة بأمره تعالى على ما ثبت في العلم الحديث، وذلك بعد التعرف إلى فلق الذرة (تحطيمها) أو دمج الذرات أو نواها. فانهما يتيحان لنا من القوة العظيمة ما يجل عن الفهم والتقدير. فالطاقة التي تخرج من رطل واحد من اليورانيوم تعدل طاقة الحرارة التي تخرج من مئات الأطنان من الفحم أو من ألوفها والطاقة التي تخرج من دمج نوى ذرات الهيدروجين أعظم.

وقد ذهب (آينشتاين) أن الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء. أي:

$$ط = ك \times س^{٢}$$

وبما أن سرعة الضوء = ٣٠٠ ٠٠٠ كيلو متر في الثانية، فان الطاقة في ذرة ما تشكل مقداراً هائلاً. أي:

$$ط = ٩٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ك = ٩ \times ١٠^{١٠} \times ك$$

فإذا ما فلقت (حطمت) أي أخرجت الطاقة الكامنة فيها إلى الخارج جاءت بالتدمير والتحطيم.

ويمكن حساب الطاقة المتحررة من تفاعل نووي: من معرفة النقص الحاصل في الكتلة. ذلك لأن العلم لم يتوصل بعد إلى إخراج جميع ما في الذرة من طاقة إلى الخارج. ففي انفلاق نواة اليورانيوم يتحول نحو عشر

الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا لتكوين ذرة هليوم عند انصهار أربع نوى من الهيدروجين يتحول سبعة أعشار الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا. . .

إن مشيئة الله بالنسبة إلى إيجاد الشيء جليلة ودقيقة على حد سواء. إن الله تعالى يقول: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾. ولقد قال جل من قائل: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾. فالمشيئة الربانية هي الموجدة للأشياء بقوله تعالى: «كن» أي الارادة وحدها أو الطاقة المنبعثة من هذه الارادة هي الموجدة لهذه العوالم من: عقلية ونفسية وحيوانية (وحيوية) ومادية.

إن عمى القاصر قد بلغ إلى هذه المرتبة من التحليل. ولعل الله تعالى يقيض من يوصلنا إلى حقائق أخرى إبداء لعظمته تعالى وإظهاراً لجليل قدرته. ولقد جاء في حديث قدسي: «والذين عملوا بما علموا لنهدينهم إلى ما لا يعلمون».

* * *

على أن الايمان بالله وبما وراء الطبيعة وبالأنبياء والمرسلين وأوصيائهم عليهم السلام ليس أمراً صعباً يستدعي الاطلاع على شتى العلوم والمعارف الكونية. وإنما الايمان أمر معنوي قلبي يترشح من نفس طاهرة وقلب زكي. وأن لهذا الايمان درجات تتناسب مع درجة طهارة النفس. كما أن الايمان بأن الروح والحيوية وأن كل شيء في هذا الوجود أوجده واجب الوجود ـ وهو الله تعالى ـ ليس متوقفاً على معرفة حقائق علم الكيمياء وعلم الحياة: (Biologie) فقد يصل الأمي إلى إيمان رصين لا يبلغه من بلغ مرتبة (الدكتورا) في أصعب الفروغ. والفرق بينهما ناشيء عن درجة طهارة النفس.

إن هذه الحقيقة (أو النظرية) لا تستدعي الشك والارتياب. والتجربة تبرهن على صدق ما ذهبت إليه. فليجرب من شاء. فان الطريق واضحة جلية لا غبار عليها. وكتب الدين كثيرة والمراجع متوفرة. وان الذنوب تحجب القلب (النفس) عن رؤية الواقع لذلك جاء في حديث عن النبي (ص): «ان مثل الصلاة كمثل نهر جار يمر بباب أحدكم. فيغتسل به في اليوم والليلة خمس

مرات، فلا يبقى عليه شيء من الأدران. وكذلك الصلاة لا تبقى على الانسان شيئاً من الذنوب».

وغير خاف أن النبي (ص) إنما عني بهذه الصلاة. الصلاة المقبولة، وهي التي تمحو الذنوب فتطهر النفس بقوله (ص): «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً». وعن الامام الصادق (ع): «من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم يقبل؟ فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقدر ما منعته قبلت منه».

وأهم ما يجب أن يقوم به هذا المجرب أن يرد إلى الناس حقوقهم ويطهر مأكله ومشربه عن الحرام والمشتبهات، وأن يترك ما كان يقوم به من موبقات ومدنسات. وأن يعاشر أهل التقوى والورع ويترك معاشرة تاركي الصلاة ومانعي الزكاة... الخ ليرى كيف تتجلى له الحقائق وتنقشع عنه سحائب الشكوك والأوهام...

* * *

ولقد ذكر لي من أثق به: أن رجلاً قروياً كان يسكن في قرية قريبة من (رشت) وكان يعيش من كد يمينه، لم يخالط مأكله ومشربه شيء من الحرام أبداً. وكان يهيىء ما يحتاجه من مأكل ومشرب وملبس في بيته ومزرعته. وكان مع ذلك متقرباً إلى الله بأعمال صالحة: يتعبد ويشكر الله تعالى على ما أولاه من نعم، يعطي فضول ماله إلى الفقراء والمعوزين ويطبق ما كان يعلم من الآداب الاسلامية. فأشكلت عليه مسألة شرعية. جاء إلى عالم ديني في مدينة (رشت) ليتبصر فيها. فدخل المدينة عند الظهر. وسمع المؤذن يؤذن. فبادر إلى صلاة الظهر في أفضل أوقاتها وأخذ طريقه إلى بيت العالم الديني. فدخل عليه قائلاً: أني أرى شيئاً غريباً في هذه البلدة. فسأله العالم وما الذي تراه؟ قال: لم أر في شوارع المدينة إلا بهائم حميراً وبغالاً... ولم أصادف في طريقي إلا شخصين على شكل انسان. أين ذهب الناس؟!.

أدرك العالم الديني، لطهارة نفسه وتضلعه في شتى العلوم، السبب في هذه الرؤية الباطنية. وأن الرجل لطهارة مأكله ومشربه وحسن سريرته وتطبيقه

أوامر الشرع تطبيقاً صحيحاً أخذ ينظر بنور الله، وتتمثل له بعض الخلائق حسب حالتهم النفسية الصحيحة وما بلغوا من التسافل والتكامل من جراء أعمالهم وما اجترحت أيديهم. ثم ان العالم الديني خاطب القروي قائلاً:

ـ هل تناولت طعام الظهر؟

قال: كلا. فدعا العالم خادمه وقال له: اذهب إلى السوق وأئت بطعام إلى هذا المؤمن، (مع وجود طعام في البيت). أطاع الخادم أمر سيده وجاء بطعام من السوق وقدمه إلى القروي. فأكل القروي وجلس في مجلس العالم وأخذ يسأله عن مسائل شتى، حتى مضى شطر من الوقت، ثم أمر خادمه بأن يأخذ هذا القروي إلى الشوارع ويعود به إلى البيت. قاد الخادم القروي وصار يسير معه في الشوارع ورجع به إلى البيت فسأله العالم: ماذا رأيت؟ قال: «رأيت الشوارع مملوءة بالناس». فقال العالم: «ان الطعام الذي تناولته قبل ساعات مشتبه فيه، فيه الطاهر والخبيث. وان طعاماً مخلوطاً بالحرام أو النجس ليؤثر في النفس تأثيراً سيئاً وإن كانت النفس لا تعلم ذلك. فيخرج هذا الطعام الانسان عن الحالة الملكوتية أو العالم القدسي، فلا تتجلى له الحقائق كما كانت تتجلى قبلاً. إلا أنك سترجع إلى حالتك السابقة بعد رجوعك إلى قريتك إن شاء الله».

* * *

نعم، لقد جاء في حديث: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا». ذلك لأن علاقتهم المادية: (هذه العلاقة التي تكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع) ترتفع مع الموت، فتتجلى، للروح المجردة عن المادة، الحقائق.

ويقال عن أحد المؤمنين أنه اشترى مقداراً من التمر من تمار. فلم ترقه تمرة واحدة، فاستبدلها بغيرها عند الانصراف دون أن يستأذن التمار. فلم يتوفق تلك الليلة إلى صلاة الليل ونام حتى الصباح. وقد رأى في ما يرى النائم أن رجلاً يقول له: إن تلك التمرة أثرت في نفسك فحرمت مناجاة ربك.

إن ظلمات بعض النفوس اليوم تعزى في الدرجة الأولى إلى تلوث المآكل

والمشارب بكثير من المحرمات، سواء باختلاط يحصل من جراء المعاملات الربوية في المصارف والبنوك أو بشراء بضاعة بصكوك يعلم معطيها أنها تنزل في البنوك حتماً بحساب الربح البسيط أو المركب، أو بكذب في المعاملات والعقود، حتى عند الزواج، أو خديعة عند عرض السلعة التجارية أو الجهل بما أمر الله في المعاملات، وعدم الحضور في مجالس العلماء للتفقه في المكاسب والمتاجر المحرمة إلى غير ذلك.

ومما لا شك فيه. أن كل خديعة أو تمويه أو كذب في مقدمات النكاح أو في الأوصاف التي يقع عليها الرضا بالزواج، لتؤثر في إتجاه النسل نحو اليمين أو اليسار.

يقول علي عليه السلام: «يا كميل أنظر فيم تصلي وعلام تصلي، فان لم يكن من وجهه وحله فلا قبول. يا كميل، القلب واللسان ينومان بالغذاء، فان لم يكن ذلك من وجهه وحله لم يتقبل الله لك تسبيحاً ولا شكراً».

فالانجذاب إلى ما وراء الطبيعة والايمان بالغيب والاعتراف بوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله أمر قلبي. سواء اعترف بهذه الحقيقة من سلك مسالك مادية أو لم يعترف. فلا بد من تعمير القلب (النفس) وتزكيته وتطهيره ليكون حرياً للاعتراف بما وراء المادة العمياء.

إن الله تعالى يقول: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾. (سورة آل عمران).

* * *

أنظروا إلى ما يقوله علي (ع) حين يسأله دعلب اليماني قائلاً: «هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟» فيقول عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى». فقال: «وكيف تراه؟». فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان. قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة تعنو (تذل) الوجوه لعظمته، وتجب (تضطرب) القلوب من مخافته».

يقول الحسين بن علي (ع) مخاطباً رب العباد: «سبحانك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك. عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً».

فالعالم مهما بلغ من العلم بأحوال الكون لا يمكن أن يؤمن إلا إذا طهرت نفسه وصلحت أعماله وطاب مأكله ومشربه. فيكون علمه إذ ذاك مؤيداً لعقيدته، يستدل به على خصمه. فقد جاء في الحديث: «البلاهة أدنى إلى الاخلاص من فطانة بتراء».

على أني لا أنكر أن كثرة الاطلاع في أحوال الكون والوقوف على أسراره وغوامضه وما أودع الله فيه من دقائق يزيد المؤمن إيماناً وتثبتاً ويمنحه خشوعاً وتقديساً لله تعالى. ولا يخفى أن لا بد هناك من نفس بلغت مرتبة ولو ضئيلة من الطهارة ومن إيمان يترشح من تلك النفس. فيرسخ هذا الايمان بكل ما يرى الانسان من مظاهر عظمة الله تعالى في ما خلق من أشياء مادية ونفسية، وقوى وطاقات ومعاجز وكرامات إلى ما هنالك.

فقد كان في جامعة بيروت الأمريكية أستاذ للفلك العالي، كان إذا تكلم عما أودع الله من معادلات وقوانين مدهشة في نظام الكواكب والأنجم، فاضت عيناه بالدموع، فيسأل عن السبب، فيجيب: لو رأيتم ما أرى لذبتم خضوعاً وخشوعاً لمن أقام هذا السماء بهذا الترتيب البديع الذي يحار في استقصائه أولو الألباب!.

* * *

قلت: أن العلم بأحوال الكون لا يولد العقيدة بل يؤيدها. ان الله تعالى يقول: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾. (سورة التوبة: ١٢٨).

فحال العالم بالعلوم الحديثة والجاهل بها في مقام الايمان على حد سواء. لأن القضية قضية استعداد في القلب وصفاء في النفس وخلوها من الكبر. ان

الله تعالى يقول: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾، وان الكبرياء وحده يجر الانسان إلى انكار المعاد، على حد قوله تعالى: ﴿وقال موسى: أني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾.

فإذا ادلهم القلب وتلوث، فلا قبول ولا إيمان، بل جحود وكفر. لذلك جاء في حديث قدسي: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة». فترون أن ينابيع الحكمة والمعارف الالهية إنما تفيض على الانسان من جراء الاخلاص والخشوع والخضوع والتذلل بين يدي رب العباد.

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

إن معرفة النفس طريق لمعرفة الخالق. فقد جاء في الحديث: «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه». وعن علي (ع): «من عرف نفسه فقد عرف ربه». وقال المسيح (ع): «اعرف نفسك تعرف ربك». ونسأل الله تعالى أن يطهر نفوسنا حتى نتعرف اليها فنزداد معرفة بالله تعالى. وأني أختم هذا المقال بهذا الحديث ففيه الحكمة البالغة. فقد قال علي عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه... إلى أن قال: قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به. فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى. وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى. قد أبصر طريقه وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس».

فمفاد هذا الحديث حقيقة ما بعدها حقيقة. يعلم ذلك من وفق إلى تحقيقه، فسار في عوالم الكمال.

ولا تكامل لهذا الانسان إلا بالاسلام.

[إنتهى، ولله الحمد، الجزء الأول. وسيليه الجزء الثاني، إن شاء الله تعالى].

فهرس الجزء الأول

التكامل في الإسلام

يجد القارىء في هذا الجزء: أجوبة شافية رداً على مزاعم الماديين
وأدلة قطعية على وجود الصانع جل جلاله وما يفيد
الشباب في سيرهم التكاملي من عقيدة وعمل

بقلم
أحمد أمين
خرّيج كليّة التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيّات العامّة والفيزياء الرياضيّة العالية

الجزء الثاني

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

لا مالَ أعودُ من العقـل، ولا وحدةَ أوحشْ من العُجب، ولا عقـلَ كالتدبير، ولا كرَمَ كالتقوى، ولا قرينَ كحسن الخلق، ولا ميراثَ كالأدب، ولا قائدَ كالتوفيق، ولا تجارةَ كالعمل الصالح، ولا ربحَ كالثواب، ولا وَرَعَ كالوقوف عند الشبهة، ولا زهدَ كالزهد في الحرام، ولا علمَ كالتفكُّر، ولا عبادةَ كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حَسب كالتواضع، ولا شرفَ كالعلم، (ولا عزَّ كالحلم)، ولا مظاهرةَ أوثق من المشاورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد نفذت، والحمد لله، نسخ الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب في مدة وجيزة، مما يدل على أن الرغبة الدينية وحب الاطلاع على حقائق الاسلام متأصلان في النفوس، وأن الدين حاجة ملحَّة للمجتمع لا يمكن أن ينفك عنه بحال من الأحوال وبأية قوة من القوى. وأن تساهل البعض في تطبيق الأحكام الشرعية وتعاليمها إنما هو أمر عارض يـزول باصلاح المجتمع من حيث التمسك بالفضائل والمكرمات ومراتب التقوى.

نعم، إن الدين أمر طبيعي ارتكازي فطري في روح البشر، لا ينفك عنه أحد إلا إذا غيِّر الفطرة بالفسوق والعصيان. ولذلك عمدت كنيسة روما إلى ادخال الخمور والفجور في الأندلس العربية المسلمة بشتى الوسائل ليفر الدين من جراء تلويث النفوس. فيمكن الاستيلاء على البلاد المفتوحة من قبل المسلمين. وقد نجحوا في ذلك وأصابوا الهدف.

فالرجل مهما أراد انتزاع نفسه عن الدين، لا يمكنه ذلك، إلا إذا سعى بشتى الوسائل في إذهاب أو إضعاف العقل الفطري، المرتكز فيه التوجيه الديني على حدِّ قوله تعالى: ﴿فطرةَ الله التي فطر الناس عليها﴾.

استمعوا لما يقوله الامام موسى بن جعفر عليهما السلام، عن كيفية هدم العقل وانسحابه لهشام أحد أصحابه:

«يا هشام، من سلَّط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه. وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه».

«يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك».

أنظروا كيف يصف الله تعالى العقلاء وأولي الألباب. فليعرض من شاء نفسه على مفاد هذه الآيات البينات، فإن وجد أن أعماله مصداق هـذه الآيات فليحكم: أن عقله يعمل عمله وهو غير منسحب عن فعاليته. وإن لم توافق نفسه وأعماله منطوق هذه الآيات، فليعلم أن عقله الفطري قد فارقه وانسحب عنه، وأن الشيطان تمركز فيه وحلّ محل العقل.

ان الله تعالى يقول: ﴿أفمن يعلم أنما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، ويدرؤون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾. (سورة الرعد: ٢٢).

فالعقل الطبيعي غير الملوث بالذنوب هو العقل الذي يعمل بكل ما جاء في الآيات الكريمة المتقدمة من صفات وأعمال. والذي يخالف بعض ما جاء في الآيات المتقدمة إنما هو ناقص العقل، والذي يخالف جميع ما جاء فيها إنما هو مسلوب العقل، هدم عقله بسوء اختياره وفساد أعماله[1].

ومن المؤسف أن أوربا لم تتشرف بالديانة الاسلامية. دين الحياة ودين تصفية النفوس استعداداً لـ «جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين». وقد توجهت اليها المسيحية المحرفة التي لا قواعد فيها لتأسيس دولة عادلة، فعارضت العلم واستبدت وضغطت على الحريات بأساليب لا تبررها

---

(١) وقد قال الله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾!.

المسيحية الروحية البحتة، فأدى ذلك إلى عداء بين العلماء المحدثين ورجال الكنيسة. وأخذ يستفحل هذا العداء حتى أدى إلى تبلبل في العقائد وفصل الدولة عن الكنيسة وبالتالي معاداة الكنيسة ونمو الالحاد والزندقة وظهور مذاهب مادية شتى، فأنجبت فلاسفة! ماديين أمثال: (فورباخ، بوخنز، نيتشه، شوبنهاور. . .).

ولو أن الفلاسفة الماديين استطلعوا تعاليم الاسلام وفلسفته العادلة التي تطابق المنطق الطبيعي ولا تقر نظرية الكبت في المسيحية، وجانبوا إلى حدٍ ما الطيش والشهوات المميتة للنفوس والمفسدة للمجتمع لتغيرت فلسفتهم ولأخذت تؤيد الاسلام كدين عالمي خالد.

وكم رأينا من الفلاسفة تغيرت وجهات نظرهم في مقتبل العمر وفي نهايته، فبعد أن كان أحدهم موحداً بالفطرة أصبح ملحداً، أو اهتدى من جديد فغدا موحداً.

فحين يقول أحد هؤلاء الفلاسفة: «إن الأخلاق الدينية تعارض ميول الانسان الطبيعية». إنما يعني الأخلاق الدينية التي تعلمها عن المسيحية المحرفة. ولو تتبع الدين الاسلامي لعلم أنه دواء الروح، وأنه دين يستجيب لكل الغرائز وجميع الميول بشكل لا يؤدي إلى فساد الدنيا والآخرة. وليس في الاسلام كما في المسيحية المحرفة: طبقة سيدة وأخرى مسودة. ولا يقر الاسلام الظلم والاضطهاد. بل جاء لرفعهما بقوله: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. وبقوله كما في الحديث: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»، ﴿ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى﴾. وأقر القصاص والديات بين جميع الطبقات.

ولو أن كنيسة روما كانت قد ساعدت على دخول الاسلام إلى أوربا وتابعت الواقع والحق، لرأيت بلاد أوربا من أحسن بلاد الله تطبيقاً لتعاليم الاسلام في السياسة والعلم والاقتصاد والحياة الاجتماعية وما وجد الالحاد طريقه إلى مدارس الغرب.

وعسى أن يستيقظ العالم في يوم من الأيام من رقدته وينتبه من سباته تاركاً العصبية العميـاء وراء الظهور، فيعتنق الدين الاسلامي ديناً عالمياً كما تنبأ بذلك (برنارد شو) مطبقاً إياه في جميع شؤون الحياة حتى يصل إلى طمأنينة وحياة وادعة، لا في الدنيا فحسب، بل بعد الموت أيضاً في عالم خالد يستمر ملايين السنين.

وليس الاستدلال الفلسفي أو على حد تعبير البعض: (العلمي!)، إلا رشحـات النفس الانسانيـة، سواء أكـانت متكاملة أم متسـافلة. فـالنفس المتسافلة فلسفتها فلسفة رجعية أي هي فلسفة تعاكس الفطرة، تعاكس ما أودع الله تعالى في نفس الانسان من توحيده والاعتراف بعظمتـه، وترك الظلم والجور والبغي. والتعاطف والتراحم[1]... الخ. وهي تبرهن، على ما تزعم بطرق علمية على أنها في طريق الحق وعلى صراط مستقيم وما عداه ضياع وكبت!؟...

والنفس المتكاملة، أو بالأحرى: النفس السائرة نحو الكمال، فلسفتها فلسفة بناءة، متكاملة، وبراهينها براهين توافق الفطرة وتطابق الواقع والعقل الفطري غير الملوث بالاجرام والفسوق.

فحالة النفس من حيث التكامل والتسافل تسبق موضوع الدليل والاستدلال مهما سمي علمياً أو فلسفياً... فيجب قبل أن ينظر في الدليل أو سير الاستدلال، أن ينظر في حالة الفيلسوف النفسية وأخلاقه الشخصية مع ذويه وأصدقائه، وصفاته الكمالية في صغره وبعد كبره، كما يُفعل مع الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين.

ذلك لأن الفلسفة ليست بشيء ثابت ثبوت الرياضيات البحتة، حتى لا تقبـل التحريف والانحـراف. فـطريق الحق والـواقـع واحـد لا يتعـداه،

---

(١) عن أبي عبد الله (ع): «من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها فمنعه إياها، قال الله عز وجل: ﴿ملائكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، فعزتي فلا يسكن جناني أبداً﴾.

والفيلسوف الحقيقي المتكامل، هو الواجد لهذا الطريق المستقيم الذي لو انحرف الانسان عنه قيد شعرة لما أصاب الواقع في الصميم.

وإن التجارب تدل على أن الشخص إنما يصل إلى عقيدة فلسفية خاصة حسب درجة صفاء نفسه وأخلاقه وسلوكه في سره وعلنه وفي ظروف مختلفة. ففلسفة الفرد هي رشحات نفسه من حيث النعمة والكمال. والعقيدة هي عصارة السلوك الشخصي وغايته. وان هذه الحقيقة لمن أهم المواضيع الفلسفية التي يجب أن يُعنى بها المفكرون من فلاسفة وعلماء، كي لا ينخدعوا بفلسفة المتفلسفين وهراء المتطفلين، دون تمحيص للنفسيات والصفات المتغلغلة في النفوس في ظروف مختلفة وما تجترح الأيدي من ذنوب وآثام. وهذا هو السر في تحتيم طائفة من المسلمين: (العصمة) في الأنبياء (ع) والأوصياء (ع) من بعدهم. فبالعصمة يعلم أن ما يترشح من المعصوم صاف نقي لا كدر فيه.

على أنا نعترف أن الفلسفة المادية لا تقيم وزناً للغذاء الروحي ولا ترى قيمة للنفس الانسانية وحاجاتها الطبيعية من سمو وكمال، فالنفس الانسانية في نظرها كالخشبة الجامدة لا تحتاج إلا إلى صبغ وتدهين!.

والحقيقة الثانية التي يجب أن يُعنى بها الفلاسفة والمفكرون، ان النفوس تتصل بعضها ببعض وتتصادق وتقترب اقتراباً طبيعياً، (لا لأغراض خاصة مؤقتة) حسب درجاتها من الكمال أو التسافل. فالنفس الشريرة تميل إلى مثلها والنفس الطاهرة تميل إلى مثلها أيضاً مع حفظ الدرجات في التكامل والتسافل. وقد قالوا قديماً:

«عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي»

ولقد جربت ذلك في حياتي وتتبعت الموضوع بشتى جوانبه عند كثيرين، فوقفت على صدق ما أذهب إليه. ولعل للنفوس خطوطاً مغناطيسية أو مجالات كهربائية من نوع خاص غير مادي. تختلف من حيث نوع الخطوط أو المنحنيات حسب الصفات والخصال، أو حسب درجات التكامل أو التسافل فتميل بعضها إلى بعض أو بعضها عن بعض، كالابرة

المغناطيسية بالقرب من ابرة مغناطيسية أخرى. ذلك لأن العالم حسب آخر ما توصل اليه العلم المادي مجموعة من قوى جاذبية ومغناطيسية وكهربائية، سواء كانت ظاهرة أو باطنة. وقد خلق الله تعالى أيضاً عدا هذه القوى المادية، أنواراً مختلفة وقوى متنوعة لا تمت بالمادية في شيء «الله نور السموات والأرض». وان لكل نفس فلسفة (على ما قدمنا) تتناسب ودرجة تكاملها أو تسافلها. وهي تصر على صحة فلسفة تتبناها وتبرهن عليها بشتى البراهين. وتظهر لها أن هذه البراهين صحيحة، لأنها توافق ما عليه نفسه من ضعة أو كمال. وليست هذه البراهين بدساتير رياضية كي يرى الخطأ واضحاً فيها أو في تطبيقها. فيلفق هذا الفيلسوف في البرهان ويأتي بمقدمات باطلة ويبني عليها بناء أوهن من بيت العنكبوت. انها هي نفسه والبراهين هي من نوعها. بل هي هي...

فلسائل أن يسأل: إذن، كيف يتجلى الحق والواقع؟ يتجلى الحق والواقع بعد الاطمئنان بكمال نفس الفيلسوف (أو معطي النظرية) أو سيرها في عوالم التكامل وتحليتها بالفضائل والمكرمات المتفق عليها عند العقلاء والأفاضل: كالصدق والوفاء وعدم الغيبة أو النميمة، وحب الخير والقيام بحاجات الناس لوجه الله، وعدم الانحراف عن الفطرة: أي الايمان بالله الخالق المتعال...

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ونفس وما سوَّاها، فألهمها فجورها وتقواها﴾. فالفضيلة والرذيلة أمور ارتكازية راسخة في النفوس، مهما كانت هذه النفوس بدائية، يشعر بها فاعلها عند القيام بها من ارتياح أو انكماش، ولكنه لو ثابر على الرذيلة تصبح هذه طبيعة ثانية، ووجداناً ثانوياً (Conscience) بانسحاب العقل، فلا يشعر فاعلها إذ ذاك بعتاب وجداني أو وخزة الضمير كقاطع الطريق. وقال تعالى: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾. وحاشا لله أن يريد بعبده التسافل. إنما ينسب هذا الرد إليه، لأنه تعالى هو الذي سن هذا القانون العام، على حد قوله تعالى: «فلما زاغوا[١]

(١) عدلوا عن الحق ومالوا عنه.

أزاغ[1] الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة الصف: ٦).

وإن علم النفس الحديث أو بالأحرى: علم آثار النفس يقول بانحراف الوجدان أو الضمير(Conscience) من وقت إلى آخر، حسب البيئة والأعمال التي يقوم بها الانسان، فبعد أن كان يرى السرقة رذيلة، يراها بعد ممارستها طويلاً فضيلة ومكسباً. ونحن نقول عندما كان يرى الوجدان السرقة رذيلة كان الحاكم هو العقل الطبيعي وبعد ممارسته السرقة طويلاً انسحب العقل وحلَّ محله الشيطان والنفس المطيعة له، فصار يرى الرذيلة مكسباً وفضيلة.

وأنت أيها القارىء الكريم، سترى في فصول هذا الكتاب بعض حقائق الاسلام: دين الحق والفطرة. فتتجلى لك عظمة الاسلام فتشكر الله إذ ذاك على ما منَّ عليك وعلى البشر أجمع بهذا الدين الحنيف والشريعة السمحاء: دين الكمال البشري الخالد.

وأختم هذه المقدمة بخطبة لسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومقتدانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقد خطب ذات يوم، فقال:

«أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم. وان لكم نهاية، فانتهوا إلى نهايتكم. ألا أن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى، لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة والنار».

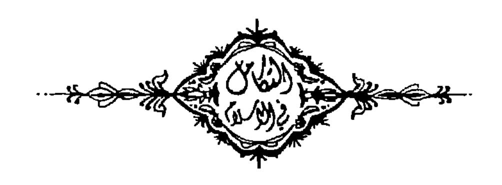
وأورد أيضاً هذين الحديثين، ليعلم ان الاسلام، (وإن لم يعمل به المسلمون!)، قد عالج القضايا الاقتصادية، بشكل يؤدي إلى تكامل النفس والسير في عوالم الكمال والتقرب منه تعالى. لا ضغط فيه ولا إجبار، ليربي النفس الانسانية تربية تكاملية واقعية ويحقق لها (الاختيار). ليستند الثواب والعقاب على اختيار الفرد.

---

(١) تركهم وسوء اختيارهم.

قال رسول الله (ص): «ان الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم».

وعن أبي عبد الله (ع): «أيما مؤمن حبس مؤمناً عن ماله وهو محتاج إليه، لم يذقه الله من طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم».



أفي الله شك فاطر السماوات والأرض

إن كان هناك شيء من أوضح الواضحات وأجلى البديهيات فهو: وجود الله تعالى، الموجد لهذه النفوس والمعطي لها هذه القابليات الخارقة البديعة. فالطفل يشعر بهذا الشعور: وهو وجود موجد له وصانع، لما يرى حوله. ذلك، لأن الله تعالى قد أوجد فيه قابلية التفكير. فهو إذا بلغ السنة الرابعة أو الخامسة، يبدأ، فيسأل: لماذا؟ ولأي سبب؟ من صنع هذا؟ من أوجد هذا؟ ومِن أين وُجد ذاك؟.

إن الله تعالى قد أتم الحجة على عباده بأن غرس فيهم قابلية التفكير وإرجاع الأشياء (المسببات) إلى أسبابها. فالطفل على سذاجته وطبيعته الفطرية يعترف بوجود خالق له. كيف لا، وهو يرى أن ليس له أن يتصرف في نفسه وهو في غاية العجز وأنه لم يصنع عضواً من أعضاء بدنه. ثم أن الله قد جهز عقله بارجاع كل معلول إلى علة. وكل مسبب إلى سبب. وهو القائل: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» أي ان الانسان بالفطرة وبصورة طبيعية يعترف بوجود خالقه وموجده. ولذلك، سُمِّي دين الاسلام بدين الفطرة، أن أن كل ما فيه فطري وضروري، يعترف به العقل بصورة طبيعية ارتكازية. وان هذا الاعتراف بوجود الخالق شيء مرتكز من قبل الله تعالى في عقل الانسان منذ نعومة أظفاره. وعدا ذلك، فان الله بقوله جل من قائل:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣)، قد أتمّ الحجة على عباده.

فحسب مفاد هذه الآية المنيفة: ان الله تعالى قد أحضر في عالم الذر

كل انسان ذكراً أو أنثى وجعلهم شهوداً على أنفسهم وأخذ منهم الاعتراف على وجوده ووحدانيته. بقوله: الستُ بربكم. فقالوا: بلى. شهدنا.

أي: أخرجهم الله من أصلابهم على نحو توالدهم نسلاً بعد نسل إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذر، فعرَّفهم نفسه وأراهم صنعه كما جاء في بعض التفاسير. وإنما فعل ربنا جل جلاله ذلك كي لا يقول قائل: أنا كنا عن الاعتراف بوجود الله ووحدانيته غافلين، أو يعتذر المعتذر عند الاشراك أو الكفر بالله وبما أنزل قائلاً: «إنما أشرك آباؤنا»، وأما نحن فـ(كنا ذرية من بعدهم)، فلا ينبغي أن نعاقب ونهلك. قالوا ذلك اعتراضاً على الله وختموا مقالهم بقولهم: «أفتهلكنا بما فعل المبطلون». أي أن آباءنا قد أشركوا وذهبوا مذهباً باطلاً، فما ذنبنا حتى نهلك؟.

وقد قال بعض المحققين: ان فيَ قوله تعالى: «ألست بربكم». إشارةً لطيفة: فانه سبحانه استفهم الاقرار منهم بربوبيته لا بوجوده، تنبيهاً على أنهم كانوا مقرين بوجوده في بداية عقولهم وفطرة نفوسهم.

نعم، ليس لأحد أن يعتذر بهذا العذر. وأن يقول: أني أتبعت دين أبي وأمي، فصرت أدين بما دانوا أو أشركت «والعياذ بالله»، لأن أبي كان مشركاً. وانكرت وجود الله، لأن أبي كان منكراً لوجود الله. فان مخالفة الفطرة أمر يأتيه الفرد من تلقاء نفسه وسوء اختياره. بل لافساده سريرته وطبيعته الفطرية المتوجهة إلى الحق والواقع بالفطرة.

انظروا، ماذا يقول علي عليه السلام. أنه صلوات الله عليه يقول: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده». هذا غاية ما يبلغ الانسان من معرفة ربه، إذا كان قد بلغ من طهارة النفس مرتبة من مراتب الكمال. ومن مثل علي (ع) في ترويض النفس وتكميلها. فقد كان يغمى عليه مرات في الليل من خوف الله تعالى.

إن الانسان ليعصي ربه باختياره وإرادته، دون أن يجبره على ذلك أحد. أنه يفسق ويظلم ويبغي وينهب أموال الآخرين ويهتك أعراضهم. أنه يكذب، ويغتاب، فيفسد في الأرض، ثم لا يرتدع ولا يتوب ولا يندم. وقد

يكون ما يدخل في جوفه ليس من مورد حلال طيب لسوء اختياره. كل هذه ترين على نفسه وقلبه وعقله ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾، فتفسد لوحة نفسه الصافية البيضاء. فتصبح مظلمة حالكة دكناء. لا تبصر الحق ولا تعي. فهذه الذنوب وتلكم المعاصي تمسي حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، ثم أن الشيطان له بالمرصاد، فيمنيه حسن العاقبة وأنه على صواب من أمره. انه تعالى يقول:

﴿ومن يَعش[1] عن ذكر الرحمن نقيض[2] له شيطاناً فهو له قرين، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين﴾[3].

فالله تعالى يجعل لأولئك الذين تمادوا في غيهم وبغيهم وظلمهم وفجورهم وفسوقهم ولم يعقبوها بتوبة وعمل صالح، قرناء من الشياطين يصدونهم عن السبيل، لأنهم بلغوا مرتبة من التسافل لا يجدي معها أي توجيه وارشاد. ثم أنه يطمئن إلى ما هو عليه من مذهب أو مسلك جديد. فيزعم أنه قد بلغ مرتبة سامية من الهداية. وانه كان قبل هذا في ضلال وخرافة، يحمل عقائد سخيفة، أولدتها جهالة القرون الأولى وسذاجة عقولهم، وها هو في عصر الذرة. حين أن بركسون(Bergson) الفيلسوف الفرنسي الموحِّد الذي أتعب نفسه في العلوم الرياضية برهة من الزمن، عندما ينظر إلى تلك المعادلات والخوارق في الذرة، يقول: ان الله موجود في الذرة، يبدعها إبداعاً، وينظمها تنظيماً.

فـ(بركسون) عندما يرى في الذرة حركات في غاية الحكمة لا ربط لها بالصدفة. يذعن أن يداً ربانية موجودة في الذرة نفسها، تعمل في هذا الترتيب الحكيم.

نعم، أن الأخلاق المذمومة، الكذب والأفك والآثام، على اختلاف

---

(١) أي ومن يعم.

(٢) نقدر ونتح.

(٣) سورة الزخرف: ٣٧.

أنواعها، تجعل للشيطان مجالاً للولوج في نفس هذا الانسان الذي سلك طريق الغواية والضلالة بأعماله. فتجعله منكراً للبديهيات وأولها: وجود الخالق جل جلاله.

انه تعالى يقول: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم، يُلقون السمعَ وأكثرهم كاذبون﴾. (سورة الشعراء).

فإذا استولى عليه شيطانه يكون الهه هواه على حد قوله تعالى:

﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا﴾. (سورة الفرقان).

نعم، إن التمادي في الظلم يؤدي إلى الظلمات، فيزيح عن الانسان الاعتراف بأوضح البديهيات وهو وجود الله تعالى. ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾. (سورة الروم).

انه ينسى أن أبيقور(Epicure) وهو الفيلسوف اليوناني كان ينكر وجود الخالق ولا يعترف بما وراء الطبيعة وذلك قبل الميلاد بـ (٣٠٠) سنة.

أسفاً على الفلسفة حين يُدعى منكر أوضح البديهيات فيلسوفاً! نعم، كان لهذا الملحد (أبيقور) أتباع ملاحدة منحرفون.. كل ذلك لتبديلهم الفطرة (لوحة نفسهم البيضاء) بآثام وأجرام وفسوق وفجور وشهوات ونزوات، إلى نفسية جاحدة جامحة، لا ترى الحق ولا تبصره.

هذه حقيقة من أوضح الحقائق. فليجرب علماء النفس وليتتبعوا أحوال الناس، كي يروا صدق ما أقول. فالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ومراعاة حقوق الآباء والأمهات والأرحام تؤدي إلى الاعتراف بوجود الخالق والتوجه إلى الدين الصحيح، ذلك الدين الذي يدعمه العقل ولا يختلف معه في شيء، ذلك الدين الذي لا يحيد عن المنطق الصحيح قيد شعرة. فان المسلك الذي يختاره الانسان أو الدين الذي يكون عليه إنما يتناسب مع درجة طهارة نفسه وكمالها. ان الله تعالى يقول: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، من يعمل سوءً يجزَ به، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا

نصيراً، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً﴾[١]. (سورة النساء).

إن المنطق الانساني يبقى ثابتاً في حل المعادلات الرياضية أو الفيزيائية أو المحاكمات الهندسية... الخ. أي في كل ما يتعلق بالأمور المادية الحسية. ولكن هذا المنطق يحيد عن الطريق السوي والاعتراف بالله عند الزيغ والانحراف عن السبل القويمة واجتراح السيئات، أي أن العقل الفطري يكون محجوباً عند اسوداد النفس وإدلهمامها. فيقوم مقامه عقل شيطاني، يملي على هذا المسكين المنحرف ما يشاء: من إنكار الخالق وعدم بعث الأنبياء وعدم الاهتمام بأمر الصلاة والصوم والزكاة والخمس. إلى ما هنالك. وقد قال الله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن ذُكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، أنا جعلنا على قلوبهم أكِنة[٢] أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا[٣] وان تدعُهم إلى الهدى، فلن يهتدوا إذن أبدا﴾.

إن الله تعالى يتم الحجة على عباده بتذكيرهم بآياته وما يجب عليهم أن يقوموا به. ولكنهم يُعرضون منكرين. فيفسقون ويفسدون، فتظلم نفوسهم وتدلهم قلوبهم فتكون إذ ذاك محجوبة عن رؤية الحق والواقع كأن عليها أغطية وكأن في آذانهم وقراً وصمماً، فلا يفقهون الحق ولا يرون الواقع البديهي. فلا تفيد فيهم الهداية مهما دعوا. فيأتي إذ ذاك، دور الاستهزاء بالمقدسات، وما أنزل الله من أوامر ونواهٍ. فقد قال تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. (الروم: ١٠).

﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا يستهزئون﴾. (سورة الزخرف).

قلنا أن الانسان ليتسافل لسوء سريرته وفساد أعماله وعقوقه وشروره الخ... الى مرتبة يختم الله معها على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة كي لا يبصر الحق. وذلك، لأنه أمسى جرثومة فساد لا تطهره إلا نار جهنم.

(١) النقير هي النقرة التي في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف.
(٢) أكنة: أغطية.
(٣) وقرا: صمما.

فإذا تدهور الانسان إلى هذا الحضيض كان من المنكرين لوجود الخالق، على أن له تعالى في كل شيء آية تدل على أنه واحد لا شريك له. لذلك يقول الله تعالى في سورة الجاثية:

﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾.

نستجير بالله من هذه المرحلة أو الهوة السحيقة. نعم، ان الله تعالى لا يضل فرداً من الأفراد إلا بعد إتمام الحجة عليه بأنواع الهداية والارشاد بعقله الفطري أولاً وبأنبياء ومرسلين وكتب سماوية ومرشدين ثانياً، فان أبى وكفر واتبع الطرق الشيطانية من فساد وإفساد، يسد إذ ذاك على نفسه أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. ان الله بكل شيء عليم﴾. (سورة التوبة).

أجل: ان الافك والاثم وارتكاب كل ما نهى الله تعالى عنه يؤدي إلى الكبرياء ومن ثم إلى الاستهزاء بالمقدسات على حد قوله تعالى:

﴿ويلٌ لكل أفاك[1] أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين﴾. (الجاثية: ٩).

وقد يؤدي ذلك إلى الاستنكاف من سماع ذكر الله وآياته على حد قوله تعالى: ﴿أنهم كانوا إذا قيل لهم لا اله إلا الله يستكبرون﴾.

فقد لاقيت شخصاً في احدى العواصم الاسلامية قبل حوالي ثلاثين عاماً كان يشكو أذان الصبح عند الفجر. كان يقول: ان هذا المؤذن في هذا الجامع يوقظني بأذانه عند الفجر من نومي. أليس هناك رادع أو مانع! نعم، ان من يقضي ليله في سفاسف الأمور ويسهر في أمور باطلة إلى بعد منتصف الليل، في أمور تذهب بدينه ودنياه، يريد أن ينام عند الفجر إلى بعد طلوع الشمس بساعات. وقد يأتي إلى فراشه ثملاً، لا يعي ولا يشعر، قد تلوثت نفسه بهذا

---

(١) كذاب.

المسكر الذي أقل ما يفعله بالشخص أنه يزيل إيمانه بالمقدسات ويجعله يستهزىء بها، ففي الحديث: «شارب الخمر كعابد وثن». أي: أن المثابرة على استعمال المسكرات تؤدي إلى إنكار المقدسات، فيترك شيئاً فشيئاً عبادة الخالق جل جلاله ويؤول أمره إلى عبادة المادة وحب الدنيا الفانية، فيكون كمن عبد الأوثان. أي يرجع بمدمن الخمر إلى جاهلية جهلاء. «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون»[1]. نعم، قد يؤدي بهؤلاء الأشخاص الحال: أنهم يستعضون من سماع ذكر الله وآياته. فيكونون مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿وإذا ذُكر الله وحده إشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾. (سورة الزمر: ٤٥).

إن الله تعالى كما في الآية الآتية يحصر الاعتبار بالآيات والاتعاظ بعصارات العلوم الطبيعية وما خلق الله في هذا الكون من عجائب وما وضع من دساتير وقوانين، في من كان متصفاً بالصبر والشكر. انه يقول:

﴿ألم ترَ أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته. ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[2].

وقد جاء في الحديث: «الايمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر». ولا يعلم معنى هذا الحديث وأثره في تكامل النفس إلا من جرب ذلك وأخذ يسير في ميادين تطهير النفس وتزكيتها. ولكن من تسافلت نفسه وتلوثت بأنواع المظالم والموبقات يرى الحق باطلاً والباطل حقاً. فيتذرع تبريراً لموقفه بالمنطق الحديث! ظناً منه أن الدساتير الأخلاقية تتغير حسب ميول الناس وشهواتهم. فإذا تسافلوا، فما هم عليه من التسافل في الأخلاق هو المنطق! لكنه: حديث وجديد! لزعمهم أن لكل زمان منطقاً! ان هذا النوع من الاعتقاد ناشىء عن الاعتقاد بان الله تعالى لم يرسل نبياً لتكامل الانسان ورفع نواقصه، وأن البشر يسير حسبما يحب ويرى فلا تسافل ولا تكامل! بل

---

(١) السجدة: ١٨.

(٢) سورة لقمان آية: ٣٠.

التكامل ما عليه الناس في كل وقت. عادات مهما كانت متسافلة في متن الواقع.

هناك فرق بين المنطق(Logique) وما عليه الناس من عادات وأفكار مملوءة بالشهوات: (Mentalité) أو الذهنية. فان المنطق يجري في حل المسائل الهندسية والفيزيائية والكيميائية، وقد أودعه الله تعالى في الانسان تفضلاً منه ورحمة ولا تبديل يعتريه. ولكن العادات والذهنية الحاكمة وما عليه الناس من أخلاق تتسافل وتتكامل وتتغير، فلا يجوز أن يعبر عنها بالمنطق الحديث والمنطق منه براء.

ولقد سمعت وأنا أدرس في الجامعة من أحد المهوسين المدافعين عن أخلاق الغرب مدحاً كثيراً، لا سيما عن الحرية التي شاهدها في حياتهم. وذكر لي شاهداً على صحة قوله: أن رجلاً من رجال الغرب كان يفسق في غرفته، فاستأذن عليه صديق له، فأذن له بالدخول. ودخل، فلم يكترث ولم يرتبك كأنه يقوم بعمل طبيعي، ذلك لأن الفسق في نظره عمل طبيعي: أهذه حرية أم سلوك بهيمي؟!

إن سنن الكمال ثابتة لا تغير فيها حسب الزمان والمكان. سواء ارتضى الغربي أو لم يرتضِ. فليس هناك مجال للقول بالمنطق الحديث والمنطق القديم. فلا قديم ولا حديث. والحق ثابت على لسان الأنبياء (ع).

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾. (سورة الأعراف: ٢٥).

فطوبى لنفوس تقيدت بالفضيلة وسارت بارادة وعزم رصينين في ساحات الكمال لتصل إلى الغاية التي قد خلقت لأجلها ولم تتأثر بزخارف الغرب ومدنيتها المادية الشهوانية، فزادت إيماناً بخالقها وبارئها.

* * *

وكم قرأنا في تاريخ الاسلام: أن أناساً أسلموا بمجرد سماع آيات الله البينات: القرآن الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، فقالوا:

ما هذا بكلام الآدميين، وإنما هو كلام سماوي أنزله رب العالمين. كل ذلك لصفاء في نفوسهم وفطرة لم تتلوث بالظلم والموبقات.

وهذا خير دليل على أن الانسان لو خلي ونفسه ولم يلوث نفسه بالجرائم والموبقات يعترف بخالقه ويكل ما أنزل الله، بصورة فطرية. ويرى ذلك من أوضح الواضحات ومن البديهيات، ولا يشك في ذلك قيد شعرة، على حد قوله تعالى: ﴿أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض﴾. الا أن الذنوب وعلى رأسها الخمور تؤدي به إلى هذا الجحود أي مخالفة الفطرة. فقد جاء في الحديث القدسي: «وكل عبادي خلقتهم حنفاء، فأحتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروا بأن يشركوا بي غيري».

وقد جاء في بعض ما نشر عن أسباب استيلاء الغربيين على الأندلس: أن كنيسة روما كانت مضطربة أيما اضطراب من جراء دخول المسلمين الأندلس وانتشار الاسلام في تلك الأصقاع. فكانت تعقد الجلسات والاجتماعات لمعالجة هذا الأمر. حتى استقر رأيهم على أن يرسلوا كميات وافرة من الخمور بصورة سرية إلى الأندلس وأن يؤسسوا تحت الأرض معامل سرية لاستحصال الخمر، فيقدموا للمسلمين ولا سيما رجال الحكم الخمرة بثمن بخس أو متبرعين. فانتشرت الخمرة بين المسلمين، لا سيما أصحاب النفوذ والثراء، وانتشر نتيجة لذلك الترف والفساد بأنواعه، فضعفت العقيدة وذهبت الغيرة والتضحية في صيانة الدين وصيانة وطن المسلمين. وكانت نتيجة ذلك أن ارتحل الدين الاسلامي من أسبانيا وأصبح في خبر كان.

نعم، ان الاعتراف بوجود الخالق لمن أوضح الواضحات وهو من أشكل المشاكل وأوعرها لو تدنست النفس بفجورها وخمورها، بغيها وظلمها.

* * *

أنظروا إلى دكارت (René Descartes) وهو الفيلسوف الفرنسي الرياضي (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) كيف توصل إلى وجود الخالق جل جلاله، لعدم تلويثه نفسه بما يبعدها عن الاعتراف بأوضح الواضحات.

انه شك أولاً في وجود نفسه، فقال: «أنا أفكر، إذن أنا موجود». ثم

قال: ان لدي فكرة الكمال وأنا غير كامل، فلو كنت مخلوقاً من قبل ذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملاً، لأنني أمتلك فكرة الكمال، ولأن إعطائي لذاتي ضروب الكمال، سيكون ولا ريب، أقل صعوبة من أن أجذب نفسي من العدم، وبما أني غير كامل، فأنا إذن، لم أخلق نفسي بنفسي».

يقول علي عليه السلام عن الله تعالى: «شيء لا كالأشياء» ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يشبه ما نراه من الأشياء أو نتصورها.

يستنتج من كلام علي (ع) ما يلي: أنا محدود، فعليه يجب أن يكون الله تعالى غير محدود. ذلك لأن المحدودية قيد ولا بد أن يكون هناك من يقوم بهذا التحديد. والله جل من أن يحده أحد أو يحده شيء وهو خالق الأشياء وسابق عليها[1]. ثم ان علمي محدود. وعلمي من الله تعالى، ولولا إعطاء الله إياي القوى العقلية والفكرية لما علمت. فيجب أن يكون علم الله تعالى غير محدود. لأنه الكمال المطلق. ولا يشبهه شيء. وهكذا نقول في قدرة الله تعالى: ان قدرتي محدودة، إذنْ قدرة الله تعالى غير محدودة ولا تتناهى. أنا أبصر بعين والله تعالى هو معطي العين وهو لا يشبهني في شيء ولا يحتاج إلى آلة لأنه هو خالق الآلات، إذن، لا يحتاج الله تعالى في الابصار إلى عين (أي إلى آلة). وقد جاء في الأدعية الرجبية: «يا من لا يُنعت بتمثيل، ولا يمثل بنظير، ولا يُغلب بظهير».

ويستحيل على العقل أن يعترف للخالق بخالق آخر، إذ لا بد من خالق أزلي لم يُخلق، لا يحده زمان وهو خالق الزمان والمكان وموجدهما، كان قبل أن يكون شيء غيره.

قيل لعلي بن موسى الرضا عليه السلام وهو الامام الثامن من الأئمة

---

(١) وقد جاء في دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا موصوفاً بغير كنه، ومعروفاً بغير شبه، حاد كل محدود، وشاهد كل مشهود. وموجد كل موجود، ومحصي كل معدود، وفاقد كل مفقود، ليس دونك من معبود. أهل الكبرياء والجود، يا من لا يكيف بكيف، ولا يؤين بأين. يا محتجباً عن كل عين. يا ديموم، يا قيوم وعالم كل معلوم».

الاثني عشر المعصومين (ع): يا ابن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟ قال: «أنت لم تكن ثم كنت، وقد علمت أنك لم تكوِّن نفسك، ولا كونك من هو مثلك. وقال عليه السلام: «أني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه، وجر المنفعة اليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً بناه، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات، علمت أن لهذا مقدراً منشئاً».

إن هذا المادي المتطفل على العلم، والعلم منه براء، يريد أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء، يريد من شخصيته المحدودة في كل قابلية وفي كل ملكة، المحدودة في الجسم والنفس. يريد منها أن تحيط بخالقها الذي لا تتناهى كل صفة من صفاته التي هي نفس ذاته.

ما أعظم هذه الفقرات من دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا من سما في العز ففات خواطر الأبصار، ودنا في اللطف فجاز هواجس الأفكار، يا من توحد بالملك فلا ند[1] له في ملكوت سلطانه، وتفرد بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه. يا من حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الأوهام، وانحسرت دون ادراك عظمته خطائف أبصار الأنام».

أترى أن ذرات التباشير على السبورة تشعر بتشكيلات أعضاء من رسمها على السبورة، تشعر بعقل الراسم ونفسه ومحاكماته، هل لهذه الذرات (ذرات التباشير) أن تحيط براسمها ومصورها. كلا... على أن الراسم على السبورة لم يكن قد أوجد ذرات التباشير من العدم والموجد لها غيره وهو الله تعالى، بل رتب الذرات أو الأجزاء بشكل آخر. (مع عدم جواز التشبيه). فكيف بهذا الانسان المغرور، يريد أن يحيط بخالقه الذي أوجده من العدم. كان نطفة، فعلقة، فمضغة... الخ. وقد سار في أدوار التكامل التكويني مراحل عديدة جداً كما رسمها الله، وقف على بعضها العلم الحديث.

إن الاعتقاد بوجود الخالق أمر ارتكازي في الانسان. ولكن هذا الانسان

---

(١) الند: المثل، جمعه: أنداد.

بارتكابه المعاصي وباتباعه أوامر الشيطان يحيد عن الفطرة، فينكر خالقه ويتخذ لنفسه مما صنع بيده آلهة، فيعبد الأوثان والحيوانات إلى ما هنالك.

لذا يسأل أتباع موسى (ع) نبيهم موسى (ع) أن يجعل لهم الهاً!

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون[1] على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال أنكم قوم تجهلون. ان هؤلاء متبر[2] ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾. (سورة الأعراف: ١٣٤).

سئل اعرابي عن الدليل على وجود الصانع (الله)، فقال: «البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على الصانع الخبير».

وسئلت عجوز عن الدليل على وجود الصانع، فقالت: دولابي هذا، إن حركته تحرك وإن لم أحركه سكن.

كل ذلك لأن فكرة الاعتراف بوجود الخالق مرتكزة في النفس الانسانية من القديم. أي أن الله تعالى ودع هذه الفكرة في النفس الانسانية عند خلقه إياها. فهي إن لم تتلوث تعترف لا محالة بخالقها بالفطرة. وان هذا الاعتراف أمر فطري خارج عن ارجاع المعلول إلى العلة. على أن الطرق لمعرفة الخالق كثيرة جداً وأهمها ارجاع المعلول إلى العلة. فالانسان المفكر (غير الملوِّث فطرته) لا بد وانه يؤمن بموجد أزلي لم يوجده شيء وهو الله الكامل على الاطلاق. لا يشابه ما خلق في شيء من الأشياء.

ولولا إيداع الله تعالى في العقل الانساني ملكة البحث عن علة الأشياء لصعب علينا السير في ساحات العلم. ولكن هذا البشر العادي عندما يلوث نفسه بالمعاصي والموبقات، يحجب عقله الفطري الذي يعترف بعظمة خالقه وكمال صنعه بصورة طبيعية، فلا تفيده الأدلة ولا ربط المعلولات بعللها. على حد قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (سورة التوبة: ٦٨). وقوله تعالى:

---

(١) يعكفون: يقيمون ويلازمون.

(٢) متبر: مدمر ومهدم.

﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ (سورة الكهف: ٢٨).

وقد يسأل بعضهم: لماذا يسد الله تعالى على بعض عباده أبواب الهداية. ذلك، لأن نفوس هؤلاء تبلغ من التسافل والانحطاط مرتبة لا ينفع معها أي ارشاد ووعظ. فتستحق الخذلان، فتسد عليهم أبواب الهداية. ان الله تعالى يقول: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون﴾. (سورة الأنعام: ٢٨).

ومع الأسف، أن طبقة الضالين والمنحرفين هم أكثر عدداً على وجه البسيطة من المؤمنين بالله تعالى. فانه تعالى يقول: ﴿وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾[1]. ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. (سورة يوسف: ١٠٣).

أسفاً لبعض هؤلاء الذين قد بلغوا مرتبة مرموقة من ثقافة العصر، ثم هم ينكرون أوضح ما في الوجود، ألا وهو الله تعالى، لأدلهمام في النفس وظلمات بعضها فوق بعض. ولأنهم (مع مزيد الأسف) قد بلغوا مرتبة من تسافل النفس من جراء ما ارتكبوا من موبقات حتى صاروا لا يشعرون بما هم فيه من انحطاط نفسي مرير. ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم أن كيدي متين﴾. (سورة الاعراف: ١٨٢).

* * *

يقال عن بعض الفضلاء أنه لما أراد أن يكتب رسالة في إثبات وجود الخالق (واجب الوجود)، قالت له زوجته: ماذا تريد أن تكتب؟ فقال: أريد أن أكتب رسالة في إثبات الخالق. فقالت له: «أفي الله شك فاطر السماوات والأرض». فعدل عن تأليف ما أراد.

نعم، ان نفس هذه الأمرأة كانت صافية نقية، لم تلوث بكثير من

---

(١) الانعام: ١١٧... (يخرصون: يكذبون).

المعاصي والآثام. ومن أين كانت تأتي الذنوب إلى بنات كن يتربين تربية دينية في البيوت ثم ينتقلن إلى بيوت أزواجهن دون أن يشاهدن رجالاً آخرين. فهل كان يأتيهن الذنوب من جراء التبرج ومخالطة الشبان أم من جراء الحضور في مجالس القبول مع ما هنالك من ميسر ورقص واستماع إلى الأغاني المحرمة و. . . أم من جراء الحضور في مجالس اللهو واللعب. أم من جراء الاتصال بالرجال في حدائق عامة حتى الصباح حيث تطفأ المصابيح! لذلك كانت تبقى النفس صافية لا يتخللها رجس يزيح الانسان عن الاعتراف بهذا الأمر البديهي وهو وجود الخالق جل جلاله. ولا شيء ككبائر الذنوب يزيح الفطرة عن عملها، ويبعد العقل عن الاعتراف بأوضح الواضحات وهو الله تعالى.

أجل لو تلوثت النفس الانسانية ومرضت بالذنوب، أخذت تشك في أوضح الواضحات وتريد دليلاً على وجود الخالق وقد لا يفيدها أي دليل وذلك لظلمات في النفس وذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. ان الله تعالى يقول: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾. وقد سد المفسد على نفسه باب الايمان بالله ورسله. ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة: ٩/١٣٥). ويؤيد الآية المتقدمة قوله تعالى: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾. (سورة التوبة: ٩/١٣٦). (يُفتَنون: يُبتلون).

وإنما سمي الخالق تعالى بواجب الوجود، إذ لا يمكن تصور وجود هذه المخلوقات بهذه الخواص العجيبة والأنظمة المدهشة والقوانين المتقنة والمعادلات الرصينة والدقة المتناهية وارتباط بعضها ببعض إلا بتدبير خالق واجب وجوده أزلي سرمدي لم يوجده غيره، وهو واجب الوجود جل جلاله وإلا لما وجد كل شيء.

* * *

يقال: ان ملكاً من الملوك كان يشك في وجود الصانع وهو الله تعالى وكان قد تنبه إلى ذلك وزيره. فأراد أن يزيل عن الملك ما يختلج في صدره

من شك. فأمر بصورة سرية ببناء قصور عالية وإجراء مياه جارية وإحداث بساتين عامرة وحدائق غناء في مفازة من الأرض. ولم يُعلم الملك بذلك. ثم ذهب الوزير بالملك إلى تلك المفازة على سبيل المرور ببلدة ما، فلما رأى الملك ذلك سأل الوزير قائلاً: من الذي بنى هذه القصور ومن هو الذي نظم هذه الحدائق؟ فأجاب الوزير قائلاً: قد حدث كل ذلك من تلقاء نفسه! وليس لها بانٍ ولا صانع!

غضب الملك وقال بامتعاض: أفيمكن ذلك؟ أفيجوز أن تنظم هذه الحدائق بهذا النظام البديع وتبنى هذه الغرف بهذا الترتيب الجميل دون أن يكون هناك منظم ومرتب؟. ما هذا الجواب السخيف؟ فأجابه الوزير قائلاً: إن كان ممتنعاً وجود هذه القصور والحدائق دون بانٍ لها وصانع ومرتب، فكيف يصح وجود هذه المخلوقات المتنوعة مع ما فيها من جمال وكمال وترتيب، وهذه السماوات والأرض بهذا النظام البديع والدقة المتناهية دونما صانع وخالق قدير متعال؟ فتنبه الملك وأيقن بالحق والواقع وزال شكه.

إن التصديق بوجود الخالق أمر فطري. ولا يعتريه الشك أو لا يزيحه إلا الكبائر من الآثام والذنوب وقد قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾[1]. فقد ورد في تفسيرها: أنهم فطروا على المعرفة أي على معرفة الخالق جل جلاله. وقال رسول الله (ص): كل مولود يولد على الفطرة. ولذلك ترى الناس عند اشتداد الأمور وتعسر الأحوال وفي الأهوال يتوجهون إلى مَن خلقهم، يرجون منه كشف ما توجه اليهم من النوائب والبلايا بصورة فطرية. لأنهم مجبولون على ذلك.

كم رأينا من الطيارين عند حدوث عطل في طياراتهم وعلمهم بالسقوط لا محالة، تضرعوا إلى الله تعالى وتوسلوا به بإخلاص لا مزيد عليه. فنجوا

---

(١) سورة الروم: ٣١.

بشكل خارق لم يكن بالحسبان. نقرأ ذلك في كثير من المجلات. ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله﴾. وفي آية أخرى: ﴿قل أرأيتم[1] إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون اليه إن شاء، وتنسون ما تشركون﴾ ٦/٤١.

وفي آية أخرى: ﴿هو الذي يسيِّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك[2] وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم. دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم إذا هم يبغون[3] في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، متاع الحياة الدنيا، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾. (سورة يونس: ٢١).

وكم رأينا مصداق هذه الآية في الحرب العالمية الثانية. حتى الملحدين الذين كانوا يتجاهرون بالالحاد والزندقة والمسلك المادي ويدعون إليه، كانوا يطلبون إلى الناس وإلى رجال الدين: أن يتوسلوا بالله تبارك وتعالى في المعابد والكنائس، ليمنَّ الله عليهم بالنصر والتفريج. وقد فعل سبحانه. ولكنهم رجعوا بعد ذلك إلى طيشهم وخمورهم وفجورهم وبغيهم! ونشر الالحاد والزندقة بشتى الطرق والأساليب. وأخذوا يتذرعون بما وجدوا (على زعمهم!) من قوانين غير ثابتة في حياة النبات والحيوان في سيرهما التكاملي! مطبقين إياها خطأ على الحياة الاجتماعية للانسان، ظناً منهم أنهم قد توصلوا إلى فلسفة الحياة!.

---

(١) أرأيتم: أي أخبروني.
(٢) الفلك: السفن.
يبغون: يظلمون.

- لهذا آمنت بالله[٣] -

يقول الدكتور: أ. ج. كرونين: «كنت ملحداً عندما كنت أدرس الطب في جامعة لندن، وعندما كنت أقف أمام جسم انساني في غرفة التشريح أحس بأنني أمام جهاز شديد التعقيد، وفي الوقت نفسه، كنت أفكر في الروح الخالدة في الله وكانت ابتسامة الاستخفاف والسخرية ترتسم على وجهي، وكنت أرى في ذلك كله أسطورة قديمة بالية. وكان يشاركني في هذا الشعور أكثر طلاب الجامعة».

« بقيت هكذا إلى أن أصبحت طبيباً وسافرت إلى منطقة المناجم بجنوب (ويلز)، وصرت أجدني أنفذ في مملكة الروح الانسانية. لقد شاهدت معجزة ميلاد الانسان وجلست إلى الموتى واستمعت في الظلام إلى رفرفة أجنحة الموت فتخلى عني غروري، فصرت أؤمن بالله».

«ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله. ولا يمضي أسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيد إيمانهم بالله وتوكلهم عليه».

«لن أنسى ذلك اليوم ما حييت. فقد حدث انفجار مروع أدى إلى سقوط المنجم على ١٤ عاملاً، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة. وظلت القرية تصلي لله لأجلهم، وأخيراً استطاع رجال الاسعاف أن يشقوا طريقهم إلى المنكوبين واستمعوا إلى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض: أنه صوت العمال، يترنمون بأنشودة: «يا أرحم الراحمين».

«أخرجوا أحياء من تحت الأنقاض وهم منهوكو القوى والتف حولهم ألوف من العمال وراحوا يرددون: «يا أرحم الراحمين في كل حين».

«وعندما وقفت إلى جوار هؤلاء المنكوبين، اجتاحتني هذه الموجة من

---

(٣) نقل هذا المقال من مجلة المختار لشهر كانون الثاني ١٩٥٦ لأهميته.

الدعاء والصلوات. انها دليل آخر على أن إيمان الانسان، قد تجاوز كل كلام وكل تعبير».

«وبعد سنة انتقلت للعمل في منطقة أخرى، والتقيت بممرضة كانت تشتغل ليل نهار في التمريض والاسعاف مدة عشرين عاماً وهي تدور مسافة طولها عشرة أميال يومياً بلا توقف للقيام بما هو فوق واجبها. فقلت لماذا لا تطلبين زيادة لراتبك؟ فأنك تستحقين أكثر مما يعطى لك... - فقالت بعد صمت يسير: إذا كان الله يعلم أنني أستحق هذه الزيادة، فهذا كل ما أطمع فيه».

«حادث المنجم وإيمان هذه الممرضة الساذجة. كل ذلك قد أخرجني من عذاب الشك والقلق وأوقفني على أرض ثابتة عالية من الايمان».

«نحن لا نستطيع أن نبرهن على وجود الله كما نبرهن على المعادلات الرياضية. ولكن إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلا بد أن نفكر في إله خالق. مَن ذا الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية ويرى النجوم اللانهائية وهي تتألق بعيداً، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء».

«وعالمنا هذا وهو يدور في الفضاء في حركة دقيقة منظمة وفي فصول متتابعة، هذا العالم لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة، قد نزعت من الشمس وألقيت في الفضاء، بلا معنى ولا سبب».

«إطرح عن رأسك، إن شئت، كل ما قالته الكتب المقدسة عن الله وعن العالم، وان الله قد سوى العالم بيده في ستة أيام، واقبل، إن شئت، نظرية التطور كاملة، وتتبع الخليقة منقوشة على الحفريات، وتتبع سير الأنواع، وترقيها حتى بلغت صورة الانسان، واقبل - إن شئت - كل النظريات العلمية التي قامت عليها، فانك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً، لا يمكن أن تقول أن هذا كله قد صدر من العدم، فلا شيء يخرج من لا شيء».

«ومنذ بضع سنوات، عندما كنت في لندن نظمت نادياً للشبان ودعوت إليه أحد المشتغلين بعلم الحياة، ليلقي محاضرة للأعضاء. وقد اختار هذا

الباحث الممتاز موضوع محاضرته عن «بداية عالمنا» وتحدث بأسلوب العالم الملحِد! وجعل يصف عصور «الأيون» السابقة على التاريخ. وكيف تحولت الأرض على مر هذه العصور من الغازية إلى السيولة، إلى الصلابة، وكيف أن الأرض كانت مطمورة في مياه المحيطات، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط على القشرة الأرضية، وكيف أن القشرة الأرضية قد تكونت نتيجة تفاعلات طبيعية كيميائية. وكيف أن هذا التفاعل مع الزبد قد أدى إلى تكوين سطح الأرض التي نعيش عليها، ومن هذه الأرض ظهرت الحياة الأولى على هيئة بروتوبلازم».

«وعندما فرغ المتحدث من محاضرته، صفق له الحاضرون تصفيقاً مهذباً، ولكن تلميذاً وقف في صورة عصبية وسأله: لا تؤاخذني يا سيدي، لقد حدثتنا عن الأمواج الهائلة التي كانت تضرب الشواطىء، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الأمر؟».

«وساد صمت كله حرج واحمر وجه الأستاذ المحاضر، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة، أغرق الموجودون في الضحك. لقد انهار منطقه الحديدي بسؤال من تلميذ صغير».

«والحقيقة هي أنه لا يوجد في كل هذه الأبحاث العلمية عن الطبيعة والحكمة منها والعمليات المروعة الرائعة التي تجري فيها. أساس واحد سليم لإنكار وجود الله بل أن الانسان ليجد نفسه مضطراً إلى القول بأن هناك عقلاً كبيراً وراء هذا الخلق والحياة وقوانين الطبيعة».

«والعقبة الكبرى التي تقف في وجه الإيمان، أمام أناس كثيرين، هي وجود الشر والألم بين الناس. كيف يمكن الإيمان بالله مع وجود العواصف المهلكة والفيضانات المغرقة، والمجاعات والأوبئة والزلازل والبرق المحرق، والرعد الصاعق والموت في أقسى صورة...؟ إن هذه الأشياء لا تدل على وجود إله كامل خير!»[1].

---

(١) لم يبلغ (كرونين) ما قاله سيد المرسلين محمد (ص): «ان الله إذا أحب عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه» وفي هذا تصفية للنفوس الملوثة وتزكية للأرواح المدنسة. فالدنيا

«ومما يؤسف له حقاً: أننا في هذا العصر المادي لا يشغلنا إلا البحث عن اللذة. وننسى أن اللذة ليست هي كل شيء، وليست نهاية كل شيء في هذا الوجود. فإذا نحن آمنا بالله وآمنا بخلود الروح الانسانية، فاننا ندرك أن حياتنا ليست تفاهة عابرة، وإنما هي تجربة واستعداد وتهيؤ. وإن حياتنا ليست إلا لحظة من اللحظات الأبدية. وامتحاناً لصبرنا، عندما يجيء ذلك اليوم الذي نقف فيه على أعتاب الآخرة».

«وحين نرضى عن الشقاء والألم واليأس والأسف، فاننا نخضع لإرادة الله، وهذا الرضاء والايمان المشرق، هو الذي يرينا الله. فان العقل مهما تبلغ قدرته، لا يبلغ إلا قشرة واهنة من الأبدية. والله يتجلى للقلب لا للعقل».

«حدث، بعد أن زرت معبداً في إيطاليا ورأيت فيه لوحات فنية رائعة تمجد الله. وبعد أن تجولت في حديقة الدير، أن رأيت عجوزاً قد أقعده الروماتيزم يعمل في هذه الأرض منذ ٣٠ عاماً، ورحت أسأله عن حياته،

مدرسة تكامل وتطهير وما يبتلي به الانسان من فقر ومرض وفقد الأولاد وزلازل وحريق ورعد وصواعق إنما هي مواد وضعت من جانب الله ليمارسها الانسان في هذه المدرسة الكونية، يطهر بها نفسه فيكفر عن ذنوبه وينال بها درجات في الصبر والرضاء والتسليم. ويقول الله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾. الدنيا دار تكامل وتصفية. ولا يتكامل الانسان إلا بعبادة ربه. وبالعبادة يزداد معرفة بالله. وان الأعمال الصالحات من أهم مراتب العبادة. وقد قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾. والعبودية: (كما جاء في الحديث) تتجلى في خمسة أشياء: (١) خلاء البطن. (٢) تلاوة القرآن. (٣) صلاة الليل. (٤) التضرع عند الصبح. (٥) البكاء من خشية الله. فمن أراد أن يزداد إيمانه وتصفو نفسه، فتنكشف له حقيقة الحياة وفلسفة النوائب فليطبق ما يتحقق به العبودية. ليرى كيف تنقشع عنه الشبهات ويدخل في عالم من الطمأنينة جديد. ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾!.

فقال وهو يشير إلى الحديقة: «أنني أرى أشجار الكريز وهي براعم، ثم أرى أزهارها وبعد ذلك ثمارها، فيزداد إيماني بالله».

وقابلت ذات مرة رجلاً في شمال انجلترا، كان يفخر طول حياته بأنه رجل ملحد! وحرم ابنته الوحيدة من الميراث. لأنها تزوجت مدرساً شديد الايمان بالله. وفي نهاية حياته أصيب بمرض عضال. فحاول جهده أن يبرر موقفه بالنسبة لزوج ابنته... وكان زوج ابنته يستدرجه بين الحين والحين إلى مناقشة تنتهي عادة بقوله: «لا تخدع نفسك، أنني لست نادماً على شيء، فما زلت أكفر بالله».

وفي يوم ردت عليه ابنته قائلة:

ـ «ولكن الله يا أبي يؤمن بك!».

وأمام هذه العبارة سقطت آخر مقاومة لهذا الرجل الملحد.

«فمهما نفكر ونفعل، فنحن من صنع الله، وكلمة واحدة تكفي لشكره وحمده».

«وأنا لنلمح خلال القرون التي لا تحصى، عدداً لا نهائياً من الناس قد عاشوا حياتهم نبيلة طيبة، وكان الله مثلهم الأعلى. لقد أعطى الخائف شجاعة ومنح الضعيف قوة، وأنزل السكينة على قلوب الحائرين، وملأ بالأمل قلوب البائسين، أنه في كل واحد منا، إذا نحن بحثنا عنه».

لقائل أن يقول: لماذا كان (أ. ج. كرونين) يسخر من الاعتقاد بالله عندما كان في الجامعة. وما هي العوامل التي جعلته يؤمن بالله إيماناً رصيناً بعد تعيينه في منطقة المناجم. فإن ما شاهده من مناظر وحوادث تشاهد من قبل كثيرين من الملاحدة ولا تؤثر إلا في القليل منهم جداً.

إن للإيمان بالله عوامل شتى. منها طهارة المأكل والمشرب، البر بالوالدين، صلة الرحم، العمل الصالح لوجه الله، اجتناب الفسوق

والخيانة، والانفاق وأظنه أهمها: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾[1].

ولا شك أن الشاب ينهمك في ملذات غير مشروعة في شبابه إلا من عصم الله. وان حياة الجامعة واختلاط الجنسين حافزان قويان للولوج في ما نهى الله عنه، ثم أن الغرور الذي يصيب الطالب الجامعي لثقافة ينالها يجعله لا يبالي بوالديه وأرحامه، وهذه وغيرها أسباب حقيقيـة تؤدي إلى أسوداد القلب وظلمة النفس وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق. انه تعالى يقول: ﴿فلا تطع المكذبين، ودُّوا لو تُدهن فيدهنون. ولا تطع كل حلاف مهين، همَّاز مشَّاء بنميم. منَّاع للخير معتد أثيم، عُتلٍّ بعد ذلك زَنيم. أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ (أساطير: خرافات).

ولا ريب أن النفس الانسانية في عنفوان الشباب طاغية باغية. منقادة للشيطان الذي يزين له عمله، أمارة بالسوء أكثر من وقت آخر إلا من عصم الله تعالى، وان النفس كثيراً ما تميل عن الطاعة لما هنالك من مشقة وهكذا شأن الدواء. وتميل إلى المعصية، لما هنالك من لذة ورغبة، كمريض يتناول ما يضره لما فيه من لذة. لذلك جاء في الحديث: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». وقول علي (ع): «واعلموا أنه ما من طاعة لله شيء إلا ويأتي في كره. وما من معصية لله شيء إلا ويأتي في شهوة. فرحم الله رجلاً نزع شهوته وقمع هوى نفسه». ولا مراء أن الفسق يؤدي إلى ظلمات في النفس، فشكوك، فجحود، فالحاد! على حد قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. (سورة البقرة: ٩٨).

لكن الدكتور عندما انتقل إلى معالجة المرضى في منطقة المناجم صار بعيداً عن تلك الحوافز التي تسوِّد القلب، وأخذ يقوم بمعالجة المرضى وأعمال أخرى صالحات، مما جعل تلك النقاط السوداء التي تلبَّدت على قلبه تزول رويداً رويداً، فصار يؤمن بالله تعالى: ﴿للذين أحسنوا، الحسنى وزيادة﴾. (سورة يونس: ٢٧).

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٦١.

لذلك يعمل الدين الاسلامي في إبعاد وسائل اللعب وكل ما يؤدي إلى الفساد وتسافل النفس في كل بلدة، وذلك بجعل ثلة من الناس (وهم المحتسبون) يقومون لوجه الله بالوعظ والارشاد مطبقين أحكام الحِسبَة، متجولين في الأسواق والشوارع، يمنعون الناس من النقص في المكيال والميزان والغش ومزاحمة المارة وبيع السلع المضرة والمحرمة والتجاوز على حقوق الآخرين وما يضر بالأخلاق العامة[1]، وبذلك يكون المحيط (البيئة) محيطاً صالحاً لا يتأثر فيه الشاب تأثراً سلبياً يؤدي به إلى التسافل.

وإن ما جاء في الدين الاسلامي من دساتير وقوانين كلها تعمل في دفع الظلم عن هذا الانسان. فالكذب ظلم، والزنا ظلم، وقتل النفس المحترمة ظلم، وعقوق الوالدين ظلم، وشرب الخمر ظلم، والبخل ظلم، والحسد ظلم، والكبر ظلم، وعدم إعطاء حقوق الفقراء والمساكين ظلم: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم!﴾[2]. وعن الصادق (ع): «اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة». وفي حديث آخر: «اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كان كافراً، فانها ليس دونها حجاب». فبالظلم يسوِّد القلب وتدلهمُّ النفس. فيأتي دور الجحود والإلحاد! على حد قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفَّار﴾. (١٤/٣٤).

وإن الآية الآتية تشرح لنا بوضوح كيف أن الذنوب تؤثر في النفس، فتبعدها عن رؤية الحق والواقع: ﴿أوَ لم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها، أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾[3]. كما أن الآية الآتية تدل دلالة واضحة: أن الفسق مزيل للايمان: ﴿تلك القرى نقصُّ عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾[4].

---

(١) ويراقبون السراق ويجمعون اللقطة وهو كل ما يرى مطروحاً لا صاحب له.
(٢) سورة المعارج. الآية: ٢٤
(٣) سورة الأعراف: ٩٩.
(٤) سورة الأعراف: ١٠٠.

وقد يكون الانسان مجموعة ظلم وطيش وفسق وفجور. فلا يفيده أي وعظ وإرشاد، فلا شيء يجعله موقناً بالله إلا نار جهنم: ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون، أصلوها، فاصبروا أو لا تصبروا، سواء عليكم، إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾[1]. فيكون إذ ذاك مصداق هذه الآية: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾[2]. ونستجير بالله من هذه المرحلة المتسافلة.

فلا ينبغي للمؤمن أن يبهره ما لهؤلاء الجاحدين من مال وبنين وحياة طيبة وادعة(Confort) . ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾[3]. فإن الله قد زيَّن لهم أعمالهم في الدنيا وتركهم وما هم عليه من ظلمات، بقوله: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم، فهم يعمهون﴾[4]. (سورة النمل: ٤). وقربهم إلى الهلاك مستدرجاً إياهم بتواتر النعم عليهم على حد قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين﴾. (سورة الأعراف: ١٨١).

---

(١) سورة الطور: ١٦.

(٢) سورة الأنفال: ٢٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٥٤.

(٤) يعمهون: يتحيرون ويترددون في ضلالهم.

أدلة أخرى في إثبات الصانع

سئل الصادق (ع) (وهو الامام السادس): عن الله تعالى: فقال للسائل: «يا عبد الله، هل ركبت سفينة قط؟ قال: بلى، فقال: «فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟» قال: بلى. قال: فهل تعلّق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادر أن يخلصك من ورطتك. قال: بلى. قال الصادق (ع): «فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجي، وعلى الاغاثة حين لا مغيث».

فلو لم تكن فكرة التوجه إلى الخالق متمركزة لدى الانسان لما توجه إلى خالقه عند نزول كارثة من الكوارث.

ان الله تعالى يقول: ﴿وإذا مسَّ الإنسانَ الضر دعانا لجنبه[1] أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسَّه كذلك زين المسرفين ما كانوا يعملون﴾[2].

فالمسرف، أي الفرد الذي خرج بأعماله عن حد الاعتدال فاتخذ الربا مكسباً عوضاً عن أرباح المكاسب المحللة واتخذ الزنا أو اللواط ديدناً بدلاً من زوجة شرعية صالحة... إلى غير ذلك، ينسى خالقه بعد كشف الضر عنه. فينسَى أن تمادى في النسيان. ان الله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[3].

وقد ذكر لي أحدهم وكان أمياً، أن سخلة له جاءها المخاض، فعسر عليها الأمر وشق كثيراً وطال معها الوجع مدة غير قليلة من الزمن. ثم أنها رمقت ببصرها نحو السماء مستنجدة مستغيثة مما ألمَّ بها وإذا بها تضع

---

(١) مضطجعاً.

(٢) سورة يونس: ١٣.

(٣) سورة الحشر: ١٩.

حملها صحيحة سالمة. فإذا كانت الحيوانات تتوجه إلى خالقها بصورة فطرية، فما بال هذا الانسان! وهو أشرف المخلوقات! هذا الانسان الذي يتسافل بعض أفراده من جراء نفوسهم الملوثة وما اجترحت أيديهم فيكون أحط من الحيوان على حد قوله تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون أن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[1]. ﴿إن شرَّ الدوابِّ عند الله الصمُّ البكم الذين لا يعقلون. ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾[2]. وهذا معنى قوله تعالى في سورة التين: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾. وحاشَ الله أن يظلم أحداً أو أن يردَّ أحداً، دونما ذنب، إلى أسفل السافلين. وإنما الانسان نفسه، يأخذ بنفسه المسكينة لسوء اختياره وكثرة فحشائه إلى أسفل الدركات ولكن الله ينسب، ارجاع العبد إلى أسفل السافلين اليه بقوله: (رددناه)، لأنه هو الذي سنَّ هذا القانون ووضع هذا النظام العادل ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[3].

قال الباقر عليه السلام، وهو الامام الخامس، في تفسير قوله تعالى: ﴿حنفاء غير مشركين به﴾: هي الفطرة التي فطر الناس عليها. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ لا تبديل لخلق الله﴾ أي فطرهم الله على المعرفة. وقد جاء في روايات كثيرة: «أن الفطرة هي التوحيد». ولذلك يسأل أحدهم عن الدليل على وجود الصانع، فيجيب: أغنى الصباح عن المصباح.

وحكى الفخر الرازي عن رجل أنه اتفق في بعض الأزمنة جدب وقحط شديد. فخرج الناس إلى الصحراء للاستسقاء ودعوا فلم يُستجب لهم. قال الرجل: فصعدت إلى الجبال. فرأيت ظبياً يسرع إلى المياه من شدة العطش، فلما انتهى إلى الغدير، رآه جافاً من الماء، فتحير وجعل يكرر النظر إلى السماء ويحرك رأسه مراراً، فظهرت سحابة وارتفعت وأمطرت، حتى امتلأ ذلك الغدير. فشرب الظبي ورجع.

---

(١) سورة الفرقان. الآية: ٤٧.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

(٣) سورة السبأ: ٣.

وروي عن سليمان بن داود (ع) أنه خرج يستسقي. فمر بنملة ملقاة على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: «أللهم، أنا خلق من خلقك ،ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا». فقال سليمان عليه السلام: «إرجعوا فقد سقيتم بغيركم».

ونقل عن صياد: أنه رأى ظبية ترضع ولدها. قال: فلما قصدت أن أصيدها فرت مني وتركت ولدها. فأخذته. فلما رأته في يدي رفعت رأسها إلى السماء وكأنها تستغيث وتستعين بالله تعالى، فإذا بحفرة في طريقي، فوقعت فيها، وانفلت ولدها من يدي... فأخذته أمه وذهبت به.

ولسائل أن يسأل: لماذا ترفع الأيدي إلى السماء حين يريد الانسان أن يسأل الله تعالى قضاء حاجة ملحة وحين يتضرع ويستغيث. ويمكن أن يقال في جواب ذلك: لا شك أن الله تعالى منزه عن المكان وهو خالق المكان وما كرة الأرض في هذا الفضاء اللانهائي إلا جرم صغير جداً من ملايين ملايين ملايين بل من عدد لا يتناهى من الأجرام التي خلقها الله في هذا الكون، فلا أسفل ولا أعلى لصغرها بالنسبة إلى عظمة الكون. ولكن لما كانت السماء منشأ الخيرات وتوحي رفعتها وعظمتها وعلوها (حسب ظن الانسان الخاطىء)، عظمة الله القادر الجليل ﴿والله هو الذي خلقها وكونها من العدم، وهو الذي يوحي ويعرِّف الانسان عظمته﴾، وحيث لا شيء أكبر من الله وأن الله لا يحدُّه شيء وهو غير متناه في جميع الملكات لذلك كله، فطرت طبيعة الخلائق تعظيماً لله تعالى على التوجه إلى السماء، لعلوها، عند طلب الرزق وسائر الخيرات وعند الالتجاء في الشدائد والملمات. مع العلم أن الله لا يوجد في جهة دون جهة. وهو في كل مكان ولا يخلو منه مكان. «وهو معكم أينما كنتم».

وقد قال بعض الأبدال في إثبات الخالق جل جلاله: «انك لم تخلق جسدك ولا روحك ولا حياتك ولا عقلك ولا ما خرج من اختيارك من الآمال والأحوال والآجال ولا خلق ذلك أبوك ولا أمك ولا من تقلبت بينهم من الآباء والأمهات. لأنك تعلم يقيناً أنهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات ولو كانت لهم قدرة على تلك الماهيات ما كان قد حيل بينهم وبين مرادهم

فصاروا من الأموات. فلم تبق مندوحة أبداً عن وجود صانع واحد منزه عن إمكان الحادثات، خلق هذه الموجودات التي قد كانت معدومات، فصارت موجودات».

إذا نظر الانسان إلى هذا الكمال الرائع الذي أودعه الله في تمام مخلوقاته من «آميبا(Ameoba)[1] إلى الانسان: في الجماد والنبات والحيوان، ثم إلى ربط التنظيمات الأرضية، بالتنظيمات السماوية ربطاً لا ينفك بعضها عن بعض ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[2]. ثم إلى هذه القوانين التي تربط الحوادث الكونية من فلكية وفيزيائية وكيميائية بعضها ببعض، ثم إلى المعادلات التي يراها في ما يشكل الذرة من ألكترون وبروتون ونيوترون وغيرها، ثم ما يعترف به من عجز في تفهم حقائق لا تتناهى في هذا الكون: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، ان الله عزيز حكيم﴾[3] يقطع بأن المنظم لهذا الكون حكيم قادر متعال. وليس للانسان إلا أن يخضع له إجلالاً وتعظيماً، خشوعاً وخنوعاً.

لذلك كله، فإن الطريقة في إثبات وجود الخالق جل جلاله هي طريقة نظر وتدبر واعتبار وتفكر. انظروا إلى هذه الآية المنيفة وتدبروا فيها، كيف توضح عظمة الخالق بأوضح بيان وأجلى تبيان. انه تعالى يقول:

﴿إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[4]. (سورة البقرة: ١٦٠).

---

(١) الكائن الحي ذي الخلية الواحدة.

(٢) سورة الملك: ٤.

(٣) سورة لقمان: ٢٧.

(٤) قال رسول الله (ص): «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها».

حقاً إن اختلاف الليل والنهار وما ينتج من ذلك من فوائد جمة لأمر عجيب... فليرجع من شاء إلى كتب الفلك وعلم الأحياء والجغرافية الطبيعية ليدرك إلى حد ما كيف ربط الله تعالى أجزاء العالم بعضها ببعض لحدوث الحياة على وجه الأرض. ثم ليدع ربه ليجعله من قوم يعقلون. فيقول: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك[1] فقنا عذاب النار﴾. ان الله قد عظم أمر (اختلاف الليل والنهار) بقوله: ﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون﴾. فعقبه بعد الاحياء والاماتة لاهميته الفائقة. فلا عقلَ لأولئك الذين لا يوحِّدون الله في آياته.

وها نحن نذكر نبذة يسيرة عما ينتج من دوران الأرض حول نفسها كمثال لما أودع الله من نظم خارقة لادامة الحياة على وجه الأرض وارتباط هذه الأنظمة بعضها ببعض بحيث لا يدع مجالاً للقول: بالصدفة، وأنى للصدفة أن توجد من الجماد نباتاً وحيواناً (حيوية) وإنساناً فعقلاً الخ ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾.

ولولا دوران الأرض حول نفسها بهذا النظام البديع لاستحالت الحياة على وجه الأرض. ذلك لأن للأرض جاذبية تجذب المياه نحو مركزها. وتحدث من دوران الأرض حول نفسها قوة طاردة تطرد الأجسام عن سطح الأرض إلى خارجها (قوة عمر كزية). ولكن سرعة الدوران تختلف في نقاط الأرض المختلفة، لكروية الأرض. فالمدينة التي على خط الاستواء تقطع بنتيجة دوران الأرض حول نفسها في الساعة الواحدة، ألف ميل وتـزيد قليلاً. ولكن مدينة مدريد عاصمة أسبانيا (التي هي على عرض ٤٠°) لا تقطع في ٢٤ ساعة محيط الأرض كله. فسرعة دورانها نحو ٨٠٠ ميل في الساعة. وكلما صعدنا إلى الشمال (نحو القطب) تكون سرعة المدن أقل فأقل من جراء حركة الأرض حول نفسها. فإن الله جعل الأرض في القطبين متفرطحة، أي ليست الأرض كرة تماماً. لذلك: فالقطب أقرب إلى مركز الأرض من مدينة واقعة على خط الاستواء. فتكون الجاذبية على القطبين أكثر.

(١) سبحانك: تنزيهاً لك، وسبح الله، أي نزهه وقدسه.

وإن زيادة الجاذبية عند القطبين عن الجاذبية عند خط الاستواء تؤدي إلى دفع المياه من خط الاستواء إلى القطبين. ولكن زيادة قوة الدافعة (القوة الطاردة) عند خط الاستواء منها عند القطبين تدفع بالمياه من القطبين إلى خط الاستواء. وقد تعادلت القوتان: (قوة الجاذبية والقوة الطاردة الناتجة من حركة الأرض حول محورها)، من حيث زحلقة البحار والمحيطات إلى القطبين أو إلى خط الأستواء، بحيث توزعت مياه هذه المحيطات توزعاً عادلاً كما نرى. ولولا هذا التعادل لغرق ما على أواسط الأرض من أشياء وأحياء. وهذا تقدير قدره الله تعالى بقدرته. ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزِّله إلا بقدر معلوم﴾. (سورة الحجر: ٢١).

ولو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدوره الآن لتناثرت المنازل وتفككت الأرض وتناثرت الأرض نفسها في الفضاء. وذلك بتأثير القوة الطاردة الحاصلة من حركة الأرض حول نفسها بصورة سريعة، كما ينقطع خيط المقلاع في يد الطفل إذا أداره بسرعة كبيرة بتأثير القوة (عن مركزية) الطاردة.

$$قم = \frac{ك\ س^{٢}}{نق}$$ (بالوحدات المطلقة)

ولو تباطأت الأرض في دورانها حول نفسها أي أخذت تكمل دورتها حول نفسها في (١٠٠) ساعة مثلاً بدلاً من ٢٤ ساعة، لمات ما على الأرض من حيوان ونبات. ذلك لأن نصف الأرض يصبح معروضاً للشمس مدة طويلة مما يؤدي إلى إماتة ما على الأرض من جراثيم وحيوان ونبات بتأثير حرارة الشمس المهلكة. وإذا أراد المتتبع أن يستعرض ما هنالك من حكم فائقة في دوران الأرض حول نفسها بهذه السرعة الحالية وربط الحياة به لاحتاج إلى تأليف كتاب خاص بل كتب عدة. ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾. (النمل: ٩٠).

وقد قال تعالى أيضاً: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ فلا سكون في هذا العالم على حد قوله تعالى: ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾.

* * *

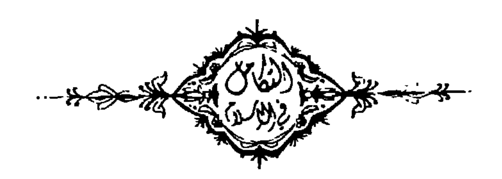
ثم لولا كثافة الماء بمقدار يعتد به (١ غم/سم٣ في ٤٠م) لما أمكن أن تسير السفن والفلك في البحار والأنهار. ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون﴾.

وإن نزول الأمطار أمر عجيب يعزى إلى تأيُّن الجو وأسباب أخرى عدة قد رتبها الله تعالى ليس هنا موضع ذكرها وقد بينا شيئاً يسيراً منها في الجزء الأول من هذا الكتاب. ثم أمر الرياح والعواصف يستدعي بحثاً عميقاً، ولدوران الأرض من الغرب إلى الشرق أثر خطير في ذلك. وفي كل ذلك: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾.

فما بال الملحدين والماديين ينكرون وجود الخالق؟ أليست لهم عقول؟ نعم، كانت لهم عقول، عقل فطري معترف بوجود الخالق وجليل عظمته قبل أن يولدوا، ولكن انسحب وأسدل عليه ستار من الظلمات من جراء الفسوق والفجور، فانكمش واختفى وقام مقامه الشيطان، يملي عليه ما شاء من زندقة وإلحاد. والدليل على ذلك: أن هذا الملحد، لو تمكن من توبة، ورجوع إلى الله تعالى وأعمال صالحات يكفِّر بها عن سيئاته ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، لرأى أن عقله يرجع إليه. معتبراً بما خلق الله، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، خاشعاً تجاه عظمته وجلاله.

ولقد كنت أفكر في أمر هؤلاء الماديين، فصرت أعتبرهم أناساً شذوا عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب البحث، واعتمدوا في إدعاءاتهم على السفسطة والخيال و«من عنديات» لا يدعمها العلم الصحيح، فلا ربط في ما يستندون اليه من أدلة واهية، وأرى: أن علاج هؤلاء: أن يجبروا على دراسة الرياضيات العالية، ونظريات آينشتاين ونظريات السطوح (القسم المجسَّم من الهندسة التحليلية) فالفيزياء الرياضية العالية فنظرية الأعداد

فحساب الاحتمالات فالفلك العالي. فانهم ولا شك يتخبطون خبط عشواء عند حل تلك المعادلات التي بقيت لا تحل وأمست لغـزاً من الألغاز، فيعتـرفون إذ ذاك بجهلهم. لأنـه لا بد للمعـادلـة التفـاضليـة (Equation différentielle) من حل صحيح لا يتعداه، وليست القضية ها هنا، قضية: (أرى، وأظن، ولعلَّ وسوف يكشف لنا العلم!)، هذه الكلمات التي يرددها المادي. فإذا شاهد عجزه وتصاغره تجاه عظمة العلم بل عظمة ما أودع الله من قوانين ودساتير في ربط أجزاء هذا العالم، عند ذلك يعترف بجهله، وان هذا الجهل يدفع عنه الغرور، فيجعله معترفاً بمن أودع هذه المعادلات والقوانين الرياضية الصعبة في هذا الكـون، إن أزاح عن نفسه الخمـور والفجور ولو بصورة مؤقتة.



ما من دابة إلا أمة

نتقل هنا فقرات مما جاء في مقال كتبه الدكتور عبد المحسن محمد صالح، المدرس بكلية العلوم في جامعة القاهرة عن النمل الأبيض وما أودع الله تعالى فيها من غرائز تفسيراً لهذه الآية الكريمة: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا[1] في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون﴾. (سورة الأنعام: ٣٨). ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات...﴾.

«النمل الأبيض حشرة تعيش في جماعات على مستوى عالٍ من الحياة الجماعية، ولكنه مع هذا الرقي وباء مدمر. وتخريبه في الأقليم الجنوبي يعتبر هيناً إذا ما قورن بما يحدث في المناطق الاستوائية الحارة حيث يبني مستعمرات ضخمة تضم الواحدة منها عدة ملايين. يعيش في سراديب أرضية دون أن يرى، ويخرب دون أن يحس به أحد. فهو يقوم بعمل سراديب أو أنفاق كثيرة مختفية في الشبابيك والأبواب وسقوف المنازل. فهو يأكل الخشب والتبن الذي يدخل في (اللبن) أي في الجدار المصنوع من الطين.

منذ أيام استيقظ أهل قرية من قرى مركز «أبو حمص» بمديرية البحيرة «عزبة شلبي» ليجدوا أنفسهم بلا قرية وبلا مساكن سلط عليهم العدو: «النمل الأبيض» أسلحته الفتاكة وتركهم بلا مأوى.

والآن تعال معي لزيارة مستعمرة من تلك المستعمرات الضخمة التي بناها النمل الأبيض في أواسط أفريقيا:

ستجد برجاً شامخاً في الهواء، يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ستة أمتار. ومحيط قاعدته قد تصل إلى خمسة عشر متراً.

---

(١) ما فرطنا: ما تركنا.

انها كحصن من حصون العصور الوسطى، مصمَّمة بطريقة خاصة. فهي على هيأة أعمدة مخروطية متصلة عند قواعدها بالمستعمرة الأصلية. ومادة البناء مكونة من الطين الذي يخلطه النمل بلعابه فتصير متينة قوية كأنها الخرسانة المسلحة. وهذا المبنى الضخم مقفل كأنه القبر، ساكن سكون الموتى... لكنه يموج من الداخل بملايين الأفراد، هذه واحدة من المستعمرات.

وتجد في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة. إذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك بأنه «البوصلة».

وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحارى والجبال! ذلك لأن لها سطحين عريضين. أحدهما يشير إلى الشرق والآخر يشير إلى الغرب، وسطحين ضيقين متجهين إلى الجنوب وإلى الشمال؟؟.

ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل. ولهذا يثق الأهالي في ذكائه الغريب. ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام.

وإذا سرت في مكان ثالث. فستجد المستعمرات المعلقة. وهي التي يبنيها بعض أنواع النمل ويثبتها على أفرع الأشجار وغصونها.

وقد بلغ الذكاء حداً بعيداً عند بعض الأنواع التي تقطن في المناطق التي تكثر فيها الأمطار. فيبنون ستائر أو حواجز تتدلى من أعلى المستعمرة تماماً، كما تبنى أسقف المنازل في البلاد المطيرة مثل انكلترا أو غيرها. فإذا ما هطلت الأمطار، انحدرت على الستائر لتسقط بعيداً، فلا يبتل البناء.

وهناك أنواع تسكن المناطق الجافة ذات الحرارة الشديدة، فيبني النمل فيها أنفاقه، وعندما يجد الجفاف قد حل بالمستعمرة، تتفتق عنده حيلة أو غريزة[1] للتغلب على مثل هذا الأمر، فيقوم بعمل أنفاق أرضية تمتد إلى

---

(١) وهي ما أودعه الله تعالى فيه.

عدة أمتار تحت الأرض حتى تصل إلى مستوى الماء الجوفي بالتقريب. وعندئذ يخرج منه بخار الماء لينتشر في أنحاء المستعمرة. فيخلق جواً رطباً كأنه جهاز صمم لتكييف الهواء.

والآن تعال بنا لنزور إحدى هذه المستعمرات المبنية فوق سطح الأرض من الداخل.

ستجدها مدينة منظمة يسكنها عدة ملايين من الأفراد يحكمها ملكة وملك، ورعية تتكون من العساكر والشغالة. لكل وظيفة معينة لا يتعداها.

ولكل مبنى نظام خاص. يحتفظ به الجنس على مدى الأجيال. ليتناقله الخلف عن السلف كأنه سر لا يبوح به لأحد سواه.

سآخذك الآن إلى القاعة الكبرى التي تتوسط المستعمرة، أنها حجرة فسيحة نظيفة جهزت لعودة الملكة من حفلة زفافها في الهواء.

وعندما يتم التلقيح تعود ومعها الملك ليدخلا الحجرة الملكية ولا يتركانها بعد ذلك أبداً لعدة سنوات قد تصل إلى الثلاثين أو الخمسين عاماً.

ويفقد الملك والملكة أجنحتهما، ثم تأتي الرعية أو الشغالة لتتمسح بملكتها كما يتمسح السذج بأضرحة الأولياء[1] ويحيط الملك والملكة حرس خاص من جنود أقوياء لا يغفلون عن الحراسة أبداً.

---

(١) لا نوافق الكاتب فيما ذهب إليه. فان استلام الحجر الأسود بمكة، واستلام أضرحة الأولياء أو التمسح بها، إنما هو لاظهار الولاء والحب، مع العلم أن ليس للمادة أثر في تقرب العبد إلى الله تعالى، وإنما يتقرب العبد إلى ربه بحب أوليائه، لأنهم عباد الله المخلصون، وبتقوية الرابطة بينه وبينهم بهذا الاستلام. لأنهم كانوا أذلاء لله مطيعين، وإنما يتقرب العبد إلى الله بالقيام بما قرب أولياء الله إلى الله من أعمال ليكون: ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾. (سورة النساء: ٧١).
على أن هذا الحب (حب الأولياء) من رشحات الايمان. يعترف بذلك من جرب تكامله الايماني طيلة حياته.

ويأتي الشغالة ليقدموا للملك والملكة غذاء ملكياً خاصاً. . . وتظهر على الملكة أعراض الحمل. فتنتفخ بطنها حتى تصل إلى مائة مرة من حجمها الأصلي. فلا تستطيع أن تنتقل من مكان لآخر. وتتحول بعد هذا إلى آلة سريعة لوضع البيض، فهناك نوع يضع حوالى ٣٦ ألف بيضة في يوم واحد أو ١٣ مليون بيضة في كل سنة.

أما أعظم الملكات نشاطاً فهو جنس (ماكروتيرمس). ففي كل ثانية تمر، تكون الملكة قد وضعت بيضة. وتستمر هذه العملية دون توقف لمدة ثلاثين عاماً تكون قد وضعت فيها ما يقرب ٩٤٦ مليون بيضة.

ووراء الملكة يقف نفر من الشغالة لا تهدأ حركتهم. فعندما تضع الملكة البيض يحمله هؤلاء إلى حجرات خاصة تشبه حجرات التمريض حتى يتم فقسه.

فإذا ما تركت الحجرة الملكية من أي باب من أبوابها العديدة، لوجدت أمامك ما يشبه الشوارع والحارات التي تتصل بآلاف الحجرات.

فهناك ركن خاص للخدم يقومون بتنظيف المستعمرة، وركن خاص بالتمريض وفيه يربى الأفراد الجدد، ويقدم لهم طعام خاص، حتى يصيروا أفراداً جدداً ينضمون إلى رعية الملكة.

وتوجد عدة حجرات مغلقة، وهي سجن المستعمرة التي يساق إليه الأسرى من الحشرات الأخرى الحية. ثم تزج داخل هذه السجون تحت

فها هنا إضافة تشريفية، كجلد المصحف، فيقبل الجلد لاحتوائه المصحف، وكتقبيل الحجر الأسود، لقضية تاريخية لا مجال لذكرها. ونذكر الكاتب بقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وإن هذا التمسح ليدل أيضاً على احترام الأفراخ للأمهات. فليتعلم الانسان هذا الأدب الرفيع من هذه الحشرة فـ﴿الجنة تحت أقدام الأمهات﴾.

حراسة قوية، وبعدها يهجم عليها النمل الأبيض ليأكلها كما تفعل قبائل نيام نيام مع الجنس البشري.

وقد تجد في بعض المستعمرات مخازن لمواد التموين التي يحتاجها النمل من وقت لآخر. فإذا ما توجهت إلى أعلى المستعمرة وجدت صالة كبيرة تتصل بعدد وفير من الحجرات، وقد شيدت هذه القبوة الكبيرة لتجديد الهواء في المستعمرة.

إذا ثقبت عدة ثقوب في المستعمرة، لوجدت عدة فكوك قوية قد ظهرت أمامك، أنهم حرس المستعمرة الذين يسهرون على حراستها بالليل والنهار وهم يقفون على هذه الفتحات كأنهم يتأهبون لأي هجوم.

ثم تأتي الشغالة فيفسح الحرس لها مكاناً تنتقل فيه، لتقوم بعملية ترميم في هذه الثقوب، حتى تعود إلى ما كانت عليه من قبل.

وللحراس وظيفة أخرى عامة. فهم يصحبون شغالتهم إذا ما تركوا مستعمراتهم سعياً وراء الرزق. فتراهم يحيطون بها من كل جانب ليدفعوا عنهم أي مكروه قد يصيبهم من أعدائهم.

وعندما يعود الشغالة إلى بيوتهم يقف حرس خاص على الأبواب ليمنع أي حشرة دخيلة قد تندس بين أفراد المستعمرة.

والمستعمرات تختلف في تعميرها على حسب النوع الذي يسكنها.. فهي قد تعمر سنوات قليلة، وقد يصل عمرها إلى ثلاثين عاماً أو أكثر وقد يصل إلى ١٠٠ عام.

فقد جاء في أحد التقارير أنه في عام ١٨٧٢م كانت هناك مستعمرة ضخمة قائمة، عاقت الفنيين عند مدهم لأسلاك التليفون في بعض جهات استراليا. وكان لا بد من تحطيمها حتى يمكن أن يتمموا عملهم، فحطموها بالديناميت. وكان عمر المستعمرة في ذلك الوقت لا يقل عن ٣٥ عاماً. وبالرغم من هدم المستعمرة في عام ١٨٧٢، فقد وجدوها تزخر بالحياة حتى عام ١٩٣٥ ـ أي عاشت حوالي مائة عام».

* * *

وقد فات الكاتب أن يكتب شيئاً عن منطق النملة وطرق محـادثتها. وأخلاقها ونفسياتها. فإن العلم الحديث لا يزال بعيداً عن التوغل في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في صميم المادة. ان الله تعالى يقول: ﴿وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين، وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على واد النمل، قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها، وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

وقد كشف أخيراً شيء عن منطق النحل بحركات تقوم بها. فإن النحلة تذهب للكشف عن أزهار فإن كانت هذه الأزهار قريبة رجعت ترقص رقصاً خفيفاً، تريد أن تفهم قرب الأزهار. وإن كانت الأزهـار بعيدة، رجعت ترقص رقصاً متواصلاً سريعاً. ولعل هذه الحركات ترافق منطقها الذي لم يقف عليه العلم الحديث. بل وقف على الحركات فظنها منطقاً.

من الذي أودع تلك الحياة الاجتماعية الرائعة في حياة النملة وهذا المنطق والحركات في النحلة. كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر المتعال الذي أودع في كل زاوية من هذا الكون من وسائل الاعتبار والتدبر ما يبهر العقول. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ ولكن الله حصر الاعتبار، فالتوجه إلى الحق في الخاشعين المنيبين الطائعين بقوله: ﴿تبصرةً وذكرى لكلِ عبد منيب﴾. فلا يعتبر من اسودَّ قلبه بـالاجرام ولا يسلم إسـلاماً حقيقيـاً، على حد قـوله تعـالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾. فلا يلتقي الاسلام مـع الاجرام. فإذا جاء الاجرام انسحب الاسلام. وكان المجـرم منسياً يلهـو ويلعب كما يشاء، ﴿نسوا الله فنسيهم﴾. ﴿فذرهم يخـوضوا ويلعبـوا﴾. فيكون شيئاً فشيئاً مصداق هذه الآية، ونستجير بالله من ذلك: ﴿ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾.

* * *

كيف يتسرب الشك إلى النفوس

كيف يتسرب الشك إلى النفوس وتندك الفطرة فلا تعمل عملها. راقبوا أشخاصاً عندما كانوا فقراء بائسين وما كانوا عليه من اعتقاد بالله وصلاة وصوم وإحسان إلى الآخرين. ثم راقبوهم وهم قد خرجوا من مرحلة الفقر إلى غنى وثراء لا يعطون حقوق الله، يتجبرون ويتكبرون[1] ويتكلمون فوق ما هم مدركون. ظناً منهم أنهم قد بلغوا غاية الفهم ووصلوا إلى الحقيقة! حين أنه لا تناسب بين كثرة المال والمعرفة والكمال. فتراهم يتكلمون كثيراً ولا يريدون أن يصغوا إلى ما يفيدهم وينجيهم من عذاب أليم. راقبوهم في حالاتهم الخاصة تجدوهم لا يخضعون إلا لمادة أضخم وأرقى وأعظم. ولو أن هؤلاء أنفقوا مما منَّ الله عليهم من مال وجاه، وقاموا بحوائج الناس ولم يتكبروا وعاملوا الناس بأخلاق فاضلة، حضروا الجماعة وتفقدوا أحوال الفقراء وأوجدوا لهم عملاً يقتاتون من ورائه، لم يتسرب الشك إلى نفوسهم بل ازدادوا إيماناً ويقيناً بالله وأصبحوا ملائكة تتنور الأرض بنور إحسانهم وتضيء ببركات أعمالهم ولنالوا سعادة الدارين.

ولعلك تقول أني أجد شباناً في مقتبل العمر، لم يملكوا شيئاً من الثراء، ولم يركنوا إلى ركن وثيق، ولكنهم مع ذلك منحرفون غير عاملين بما أمر به الدين. نفوسهم مدلهمة، مظلمة، لا يصلون ولا يخشعون، ولكن إذا اعترتهم كارثة عظيمة توشك أن تؤدي بحياتهم تمسكوا بالخالق العظيم. فما سبب انحراف هؤلاء؟

وقد حققت عن سلوك هؤلاء وحالاتهم النفسية وأخلاقهم الشخصية. فألفيتهم ضواري وحيوانات مفترسة عند الاستطاعة وسنوح الفرصة، لا يبالون

---

(١) ان الله تعالى يقول: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾. وفي الحديث: «أكثر أهل النار المتكبرون».

بارتكاب المعاصي وأنواع الفسق إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. غير وصولين آباءهم وأمهاتهم وأرحامهم. هتاكين للحرمات، فهم في خلواتهم غير ما هم في محاضرهم.

وإنما الايمان رشحات الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والقيام بأداء الحقوق الواجبة (بل المستحبة).

لذلك ترى الايمان عند هؤلاء ضعيفاً بل قد تجده عند البعض منهم معدوماً فهم لا يصلون ولا يقدسون المقدسات. بل ملء صدورهم الشكوك والريب، يستهزئون بالمقدسات إذا خلوا بمن يوافقهم في طيشهم ومروقهم.

فلا يفيد في هؤلاء النصح والوعظ والارشاد بل إصلاح هؤلاء يكون، اما بنظام صارم يبعدهم عن ارتكاب الموبقات ويفرض عليهم القيام بما أمر به الدين، فتلين قلوبهم شيئاً فشيئاً، (لأن الرياء، كما يقال، قنطرة الحقيقة). وأما بترك ما هم عليه من مدنسات وآثام وعقوق وكذب وأخلاق فاسدة ومعاملات غير مشروعة «الدين المعاملة» بصورة تدريجية. فإن نفوساً مدلهمة مظلمة لا تستطيع تقديس الله تعالى وتعظيمه، وإن حب الله تعالى لا يحلُّ إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت[1] السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنَّ[2] عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل[3] قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً[4] قال هذا ربي. فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم أني بريء مما تشركون، أني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، حنيفاً، وما أنا من المشركين﴾[5].

---

(١) أي عجائبها وبدائعها.

(٢) أي ستره الليل بظلامه.

(٣) غرب.

(٤) طالعاً.

(٥) سورة الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩.

إن هذه الآية تعلمنا الطريقة التي يجب أن نسير عليها لارجاع المنحرفين إلى الفطرة. فإن ابراهيم (ع) يفرض أن ربه وخالقه كوكب رآه في الليل، ثم رآه آفلاً غائباً عن الأنظار فعلم أنه متغير ومتحول من مكانه. والتحول لا بد له من محوِّل، فهو إذن محتاج إلى غيره مُسَيِّر بارادته. وان شيئاً كهذا غير قائم بنفسه لا يكون رباً بل هو مربوب: والرب هو المحرِّك لهذا الكوكب والمنظم لحركاته، لأفوله وشروقه وحركاته الأخرى...

يستنتج من كل ذلك أن لا بد للمحدث من محدِث ولا بد للنظام من منظِم، لا سيما إذا كان هذا النظام بالغاً أسمى مراتب الدقة، فيه من المعادلات والدساتير ما لا يحيط به البشر مهما تسامى في عالم التفكير. «ومن أين جاءه هذا التفكير؟».

إذن وجب أن يكون هناك خالق قدير عليم، خلق هذا الكون بقدرته، وجعل فيه من النظم والدساتير، ما لا يصل إليه البشر، بعلمه. خالق لم يخلقه غيره، خالق أزلي قديم، لم يسبقه شيء من الأشياء، وهو خالق كل شيء، معطي الوجود، ولم يعطه الوجود غيره.

إن العقل المجرد عن الشوائب والمدنسات ليحكم بصورة فطرية أن لا بد من إله موجود من تلقاء نفسه، أزلي ليس بحادث، قديم لم يسبقه شيء، هو موجد جميع ما في الكون المادي والمعنوي بهذا النظام البديع. كان ولم يكن معه شيء.

فطوبى لأولئك الذين لم يحجبوا الفطرة بتلويث نفوسهم ولم يحجبوا العقل السليم بسوء فعالهم ﴿صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة﴾. فصاروا إلى جنات الخلد مهنئين فرحين مستبشرين.

* * *

فمن أحسَّ بشك أو شكوك في نفسه. فما عليه إلا أن يبدأ حالاً بمعالجة نفسه: بأن يترك ما نهى الله عنه من موبقات لقوله تعالى: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[1]. وأن ينتهي عما كان عليه

(١) سورة يونس: ٣٤.

من اجرام وظلم لقوله تعالى: ﴿كـذلك سلكنـاه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

وأن يطهر مأكله ومشربه ويجعلهما من مورد حلال طيب، وأن يجانب الترف لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها أنا بما أرسلتم به كافرون﴾. وقد قال رسول الله (ص): «لا تجالسوا الموتى، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: كل غني مترّف».

وأن يساعد الفقراء والجيران ويتفقد أحوالهم فقد قال رسول الله (ص): «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع». وفي حديث آخر: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله».

وأن يبذل من فضول ماله». فقد قال الله تعالى: ﴿ومن يوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. أي ومن يُحفظ من شُحٍّ نفسه. والشح أشـد البخل.

وأن يترك الكذب. فقد جاء في الحديث: «الكذب يجانب الايمان». وفي حديث آخر: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار». وفي حديث آخر: «إياكم والكذب. فإنه جمّاع الآثام». وقد قال أحد الفلاسفة: بترك الكذب يوقن الانسان بخالق معبود عظيم».

وأن يترك الغيبة والنميمة والافتراء والخيانة. فقد جاء في الحديث: «الغيبة أشد من الزنا». وفي حديث آخر عن الرسول (ص): «يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته فيقول: الهي، ليس هذا كتابي. فإنه لا أرى فيه طاعتي. فيقول الله تعالى له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتى بآخر يدفع اليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي، ما هـذا كتابي. ما عملت هذه الطاعات. فيقول الله سبحانه: ان فلاناً، اغتابك فدفعت حسناته اليك».

---

(١) سورة الشعراء: ٢٠١.

وأن يبرَّ والديه ويصل أرحامه. فقد جاء في الحديث: «ووالديك فبرَّهما وأطعِمهما حيَّين وميِّتين، فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان». وفي حديث آخر: «لا صدقة وذو رحم محتاج».

وأن يترك مجالسة الأوغاد ويترك مجالس اللهو وسماع الأغاني المحرمة. فقد جاء في الحديث: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار». الا إذا كان بغية الارشاد والهداية. وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله». وقال علي عليه السلام: «جالس أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر ومن يصدُّك عن ذكر الله، تبِن عنهم».

وأن يجالس الفقراء والمساكين ويسير في حوائجهم. فقد جاء في الحديث: «إن الفقراء هم صفوة الخلق، وان من أراد الله فليطلبه عند الفقراء». وقد قال محمد الباقر (ع) وهو الامام الخامس: «إياكم ومجالسة الأغنياء، فإن الانسان يجالسهم وهو يرى أن لله عليه نعمة، فما يقوم حتى يرى أن ليس لله عليه نعمة».

إن الشك لا يأتي إلا من جراء ذهاب العقل ولا ينسحب العقل إلا من جراء رجس في النفس والرجس أساسه الذنوب وعدم القيام بما أمر الله من عبادة وأخلاق فاضلة وتراحم وتعاطف على حد قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾. (سورة يونس: ٩٩).

وإن كل عمل صالح يؤدي إلى قليل من الهداية، فقليل من الايمان، ثم ان الله تعالى يزيد في إيمان الشخص تفضلاً منه ورحمة. فيزداد العبد إيماناً ويقيناً على حد قوله تعالى: ﴿أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾. (سورة الكهف: ١٣). فالناس مجزيون بأعمالهم ومؤاخذون حسب أفعالهم. فقد قال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أعمالكم تَرِد إليكم».

فطوبى لأولئك الذين قاموا بإصلاح نفوسهم بعزم رصين وأزالوا عنها

الشكوك والأوهام، فازدادوا إيماناً ويقيناً وخرجوا من الظلمات إلى النور: ﴿أو مَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾[1].

إن العقل لو لم يلوث بالمعاصي والآثام وبقي على فطرته لا يصيبه أي شك فيعترف بصحة كل ما جاء في الدين الاسلامي الحنيف، على حد ما قاله سيد الوصيين علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل، لو سلم من أسر الهوى». فلا شيء ترتاح إليه النفس الانسانية، كدين الاسلام، إن بقي العقل على فعاليته. ولا شيء كالضلال ترتاح اليه النفس إن انسحب العقل عن فعاليته: ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَن فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾.



(١) سورة الأنعام: ١٢٢

تفنيد أقوال الماديين

﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾[1].

فالله تبارك وتعالى بعظيم قدرته: تلك القدرة التي ليس للبشر أن يصل إلى شيء من حقيقتها، يفلق الحب والنوى، فيكون نباتاً وشجرة ذات جذور وساق وأغصان وأوراق وأزهار. ولو كتب في هذا السير التكاملي للنبات مئات الصفحات، للزم أن تدون أيضاً آلاف الصفحات. أفيكون كل هذا من تلقاء نفسه، هذا ما لا يقره حيوان فكيف بإنسان؟ ولكن، مع الأسف يغلق هذا الانسان على نفسه الاعتراف بوجود الله، بما كسبت يداه، إن الله تعالى يقول: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، حتى يروا العذاب الأليم﴾. (سورة يونس). ولا تحق كلمة الله عليهم إلا لما اجترحت أيديهم من معاصي وآثام تقشعر منها الجلود وتستك منها الآذان.

فهل علم العلم الحديث كيف يخرج الله الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وما حقيقة الحيوية؟ وكيف تتولد هذه الحيوية ومن المعطي لها؟ إن ما يقوله الماديون لا يستند على تفكر علمي مركز خال من الهذيان. إنما هو تخيلات يرافقها خبث وظلمات وتصورات باطلة لا يدعمها دليل علمي أو تأييد تجربي. بل هو اتباع للهوى ولما يمليه عليهم شيطان سيطر على عقولهم، ﴿أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾. (٢٥/٤٣).

إن الماديين يتذرعون بما قاله داروِن عن تكامل الأنواع. وهو ليس ممن أنكر الخالق. وقد قال: «أني لا أعلم كيف جهز هذا الانسان بالعقل

---

(١) سورة الأنعام: ٩٥.

والمنطق. وقال أيضاً: ان الأنواع مشتقة كلها من أصل واحد، أو أصول معدودة، نفخ فيها الخالق روح الحياة».

فـ(دارون) يعتقد بأن الأنواع استمدت الحياة من خالق أوجدها، ثم أخذت بالتنوع على مقتضى نظرية الانتخاب الطبيعي. وقد ردت نظرية الانتخاب الطبيعي من قبل علماء آخرين جاؤا من بعده.

قال العلامة المشهور (روسل دلاس) نديد (دارون) في كتابه (عالم الحياة): «إن الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية طبيعية وكيماوية، بحيث أنه من العبث المحض أن يحاول علماء الأحياء الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية الحياة بوضوح تام وبعبارات علمية».

وقال أرنست هيكل الألماني:

«إن كل خلية لها روح تدبرها ولكنها لا تشعر بوجودها».

وقال توماس هكسلي:

«الحياة هي علة الأجسام، لا أنها نتيجة لها. لأنه لا يصادف الباحث في الأميبا: (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركيب الجثماني فيها. فإن هذه الأحياء لا شكل لها ومجردة عن الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة ومع ذلك فإنها تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة. حتى أنها تستطيع أن تبني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال».

نعم، إن (دارون)، كما قلنا لم يكن منكراً لمبدع هذا الكون إلا أن الماديين المتهوسين، هؤلاء الذين طغت نفوسهم، فبغت، فلفقت هذه الأفكار الزائفة التي لا يرافقها المنطق بحال، نسبوا إليه نظرية النشوء بشكل يعطل تصرف الله تعالى في هذا الكون. كمدمن الأفيون يعزو كل كمال وصحة إلى الأفيون!.

قال بعض العلماء المحدثين: إن كل كائن حي غير مولود ولا متكامل عن حي آخر. وان كل حي قد خلق بصورة مستقلة وان كان هناك تشابه في بعض الأصناف.

وقال القسم الآخر من علماء العصر الحاضر: «إن الله تعالى خلق عدداً معيناً من الكائنات الحية وأودع في قسم منها قابلية التكامل، فتكامل البعض منها بإذن الله وبما أودع الله فيها من قابليات وإمكانيات، فوجدت أصناف مختلفة وفصائل متعددة والأمر كله لله».

وقد ثبت أخيراً أن البيئة لا تؤثر في خلق عضو أو إيجاد كائن حي أكمل وأرقى. وإن أثر البيئة ضئيل جداً وأثرها ينحصر في العوارض الخارجية كاللون. حتى أن الطول يعزى إلى عامل وراثي ولولاه لما اختلفت الأطوال.

ثم زاد هؤلاء الماديون فقالوا: «ان الاستعمال مولد للعضو وموجد إياه» (Fonction fait organe) وقالوا: «إن الحاجة تولد العضو». حين أنه قد ثبت: أن عضواً من الأعضاء، مهما استعمل في ناحية من النواحي ومهما دعت الحاجة لا يأتي بعضو جديد. فمن ولد مثلاً مقطوع الكفّ، مهما استعمل يده، لا يولد له هذا الاستعمال كفاً وإن توالت الدهور.

إن المادي ليعترف أن لا حد لقدرة الطبيعة، وأن هذه الطبيعة تخلق كل شيء ولها منطق وعقل وتدبير، تنظم الأشياء وترتبها خير ترتيب، وتربط بينها بدساتير رياضية متقنة، تؤدي إلى دوام واستمرار. إذن، فليقل لنا المادي، دونما مغالطة، ما هي على وجه التحديد هذه الطبيعة التي تخلق كل شيء ولا حدود لقدرتها على حد تعبير داروِن؟.

فإن لم تكن الطبيعة شيئاً معيناً له حدود معلومة وماهية مفهومة، فما المبرر المنطقي أو العلمي لترك فكرة الإله والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة. أليست القضية، قضية عاطفة متحجرة وقلب أعمى، يبصر الحق فينكره. وقد جاء في الحديث: «ما ضُرِب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب». ولعل المادي يريد أن يرى الهاً يشبهه من حيث الأعضاء، أي الهاً محتاجاً إلى أعضاء ومركباً من أجزاء. ولكن المحتاج مصنوع بيد من يرفع حاجته،

والرافع للحاجات لا يشبه خلقه في شيء، وهو غير محتاج إلى غيره وهو الله سبحانه. «سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً».

غريب أمر هؤلاء الماديين. يرون حادثة أو حادثتين فيفسرونها تفسيراً خاطئاً، حسب ميولهم، لأنهم ملحدون قبل العثور على مكتشفات العلماء: تلك التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على عظمة الخالق جل جلاله. فيستنتجون من هذه الحادثة أو الحادثتين استنتاجاً باطلاً يوافق أهواءهم.

نعم، انهم قبل العثور على هذه الحادثة أو الحادثتين كانوا ماديين منحرفين عن الصراط السوي. ورأوا أن هذا الظرف من الزمان هو ظرف العلوم والمكتشفات، ومن لا يسند ادعاءه، بل هوى نفسه إلى العلم ولا يتفكر كلمة(Science) يعد جاهلاً وتُردَّ نظريته!، فأخذوا ينسبون أفكارهم الزائفة التي هي من رشحات أهوائهم وانعكاسات نفوسهم إلى العلم، والعلم منها براء. وقد يبلغ ببعضهم الطيش درجة قاصية، فيسمى هذيانه (من عنديّاته) فلسفة. حين أن مرحلة الفلسفة متأخرة عن العلم، الفلسفة: هي الربط بين عصارات العلوم وحقائقها. فما لم يثبت علمياً كيف يجوز أن تُحاك منه فلسفة في عصر الذرة.

وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (صفحة ١٩٩): عدم إمكان القول بالصدفة، مع ما نرى من أجزاء لا تتناهى قد ترتبت بعضها أثر بعض بطريق منطقي. وهل رأيت سيارة توجد مرتبة أجزاؤها ترتيباً محكماً بالصدفة؟ أو صاروخاً يحدث صدفة، وأيهما أعقد؟ المكروب مع ما فيه من حياة، أم القمر الصناعي المسير بقوة الصاروخ أولاً، ثم حسب ما أودع الله في الكون من قوة جاذبية ثانياً؟ وما قيمة القمر الصناعي تجاه قدرة الله تعالى؟ على أن الانسان لو لم يجهز بعقل فعال... ولم يكن قدخلق الله قبلاً ما يصنع منه الصاروخ من عناصر ومواد وقوى. فهل كان من الممكن الوصول إلى القمر الصناعي؟ فماذا الجحود؟ ثم مَن هو الذي أوجد المادة الأولى وأوجد فيها تلك القابلية الهائلة، حتى تنبثق منها هذه القوى الهائلة المدبرة المرتبة. ومن جهزها بعقل حتى تودع هذا السير التكاملي في النبات والحيوان وتعطي الحياة للكائنات الحية وتجهز الانسان بعقل مرتب منظم،

فإن فاقد الشيء لا يعطيه! فلا بد وأن العاقل الأزلي، العاقل الذي لا يدرك مدى عقله وحكمته هو الذي خلق العقل وهو الله سبحانه. «تعالى الله عما يشركون».

كان يقول (لافوازيه) الكيميائي المعروف ببقاء المادة: (Rien ne se perd, rien ne se crée) أي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث. أنه اعترف بقوله: (أن المادة لا تخلق من تلقاء نفسها: Rien ne se crée أن لا بد من وجود خالق أزلي حكيم هو خالق الأشياء كافة، أودع فيها نظماً ودساتير عميقة، وأن المخلوقات تتأثر بعوامل شتى وليس الله بمتأثر بشيء وهو المؤثر وحده. وهو خالق الزمان والمكان، ولا يمكن أن يتصور وقت لم يكن الله فيه موجوداً، فهو أزلي أبدي سرمدي.

قد فُند قانون (لافوازيه) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرة، فيجب أن يسمى الروم بقانون تبادل الألكترونات. فإن قانون (لافوازيه) المذكور لا ينطبق في الانفعالات النووية وفعالياتها، بل ينطبق على فعالية الالكترونات وتغييراتها الخارجية ولمدة موقتة أي بمقدار عمر الأرض.

إن نظرية (دالتون ـ (لافوازيه) تدرس منذ ٢٠٠ سنة في الجامعات، وقد أدت إلى تحريف أفكار بعض الشبان لتفسير البعض إياها تفسيراً خاطئاً يوافق ميول الملحدين مع ما فيه من خطأ فاحش. ذلك لأن نفوساً ضالة جعلتهم يظنون أن المادة (الصماء) شيء أزلي وأبدي وهي باقية دائمة لا نفاد لها ولا زوال. فاستنتجوا خطأ قِدم العالم المادي وعدم وجود خالق له.

لقد تحطم قانون لافوازيه مع تحطيم الذرة وفلقها ومعرفة الالكترون والبروتون المشكلين للذرة. وثبت أن هذا العالم المادي مجموعة طاقات تكدست على شكل لا يعلمه إلا الله تعالى حتى صارت مادة بأنواع مختلفة وترتيب يؤدي إلى وجود هذا العالم بهذا النظام البديع. ولا يمكن حدوث هذه المراحل اللانهائية الدقيقة المترتبة والمؤدية إلى هذه الحياة إلا بالاعتراف بعاقل جبار لا نهائي وهو الله تعالى. ففي ملعقة من الزئبق طاقة تتمكن من تسيير قطار كبير سبع مرات حول محيط الأرض. وان الجهد الكهربائي الذي يمكن الحصول عليه عند انفلاق الذرة يعادل ستة ملايين

فولت حين أن جهداً كهربائياً مقداره ٢٢٠ فولتاً يؤدي إلى هلاك الانسان. وان قانون أينشتاين: $E. = MC^2$ الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة، مضروبة في مربع سرعة الضوء) يجعلنا نعلم مقدار ما كدَّس الله تعالى من طاقات لايجاد هذه العوالم.

وقد أثبت العلم الحاضر أن جميع ما في الكون من مواد وعناصر ستتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله الكريم ﴿كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون﴾[١] وذلك لأنهم رأوا أن الالكترون الموجب يتصادم مع الالكترون السالب في بعض الأحيان فينعدم كلا الالكترونين ويفنيان وهذا ما يدعى(Annihilation de la matière) أي انعدام المادة أو موت المادة. ان الله تعالى يقول: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾ (٥٥/٢٧).

ما أعظم القرآن حين يقدم لهذا البشر خلاصة ما يمكن أن يتوصل إليه العلماء بعد جهد جهيد.

أين (بخنر) هذا المادي المعروف حتى يرى ما توصل إليه العلم، حيث جعل أساس الموجودات: القوى (أو الطاقات) وأثبت أن الموجودات: كلما ابتعدت عن المادية، كلما كانت كثيرة التأثير وكثيرة الفعالية، كالكهرباء والنفس والعقل والملائكة... إلى ما هنالك.

أين (بخنر) حتى يرى أن مئات الأطنان من مواد وعناصر تنعدم في كل ثانية في الفضاء وتتحول إلى أشعة وأمواج وينقص بصورة تدريجية من وزن الأرض ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾[٢].

أو لم يفكر هذا المادي من أين جاء لهذا الانسان هذا المنطق والاستنتاج والاستقراء والتعميم والتجريد. وكيف تمكن من النطق وربط ما

---

(١) سورة القصص: ٨٨.

(٢) سورة الرعد. الآية: ٤١.

في الدماغ بالناطقة. أفيحدث كل ذلك بأعمال انعكاسية؟ وما معنى الانعكاس في حل المسائل المجردة وما تأثيره؟ ان هذا لهذيان!.

وهل التفكير عمل ميكانيكي وهل هو نتيجة الفيتامينات التي تأتينا مما نأكل ونشرب. فلماذا لا يمكن معالجة الغباوة والبلاهة وإيجاد نبغاء بالفيتامينات، فإن كان ذلك ممكناً لأمكن أن يكون الناس كلهم علماء في الرياضيات العالية! وفهموا جميعاً «نظرية النسبية» بدساتيرها.

وقد جرحت نظرية «العقل السليم في الجسم السليم» فقد شاهدت في الجامعة شاباً نحيفاً ضعيف المزاج، كان بارعاً في الفيزياء الرياضية العالية. وما قولك في الرياضيين برياضات بدنية(Athlètes) ، فلقد وجدتهم أبعد الناس عن التفكير المجرد. وهل علم العلم المادي كيف يحدث النبوغ وما سببه. هل هو مادي بحت، أم ماذا؟.

ثم من أين جاء لهذا الانسان الحدس(Intuition) وما علاقة (الحدس) بالأعمال الانعكاسية؟ ان الرياضي ليعترف أن (الحدس) يلعب دوراً هاماً في حل المسائل الهندسية والحسابية وكشف النظريات، وقد يصل الانسان إلى حل مسألة بإلهام خاص.

ثم أن الصدفة (المصادفات) تلعب دوراً هاماً في المكتشفات الحديثة، فبينما يعمل المكتشف في تجربة ما ليعلم ماذا سيحدث بنتيجة هذه التجربة وإذا به يسهو فيربط الأسلاك على غير ما يريد، فتحدث حوادث جديدة وخواص غريبة فتفتح على المكتشف أبواباً جديدة من العلم. وهكذا كشف ربط الاسلاك بصورة متوازية في الأعمدة (بحث الكهرباء) وكشفت الأشعة السينية(Rayon x) وكثير من مخترعات أخرى لا مجال إلى ذكرها. ذلك لأن الاكتشاف هو الظفر بما أودع الله من خواص ودساتير في الكون. وهل للمادة الصماء أن تضع دساتير؟.

- ذكر لنا مدرس الهندسة التحليلية في الجامعة، أنه قد أشكلت عليه مسألة، فكلما فكر فيها لم يقوَ على حلها. وذات ليلة رأى في ما يرى النائم أنه يحل المسألة بصورة صحيحة. فانتبه من نومه فزعاً وقال لزوجته أئتيني

بالسراج حالاً لأدوَّن الحل، فأتت له بالسراج ودّون الحل وكان الحل صحيحاً.

يقال: ان العقل الباطن كان يعمل طيلة ليلته في حل المسألة. ما حقيقة العقل الباطن؟ وما الذي جعل العقل الظاهر مع ما بذل من جهد جهيد طيلة أيام أن يتقاعس أو يعجز عن الحل، حتى تصل النوبة إلى العقل الباطن؟ وما النسبة بينهما؟ أللانسان عقلان؟ ثم ما حقيقة الحدس؟ وكيف يلهمنا حلولاً عجيبة لم تكن بالحسبان. وما علاقة العقل الباطن أو الحدس بالالهام؟ وما مبلغ علم البشر بهذه الحالات النفسية، فإنه لا يتجاوز عن بعض الظواهر بصورة ناقصة! ونظريات تجرح وتعدَّل من وقت إلى وقت.

* * *

قد قطع قسم كبير من ظفر (أديسن) أثناء قيامه بتجربة في مختبره. فزاره صديقه المهندس وتأسف لما حدث. فقال له (أديسن): سأعرض ظفري هذا على طبيب حاذق، وسيعيده على ما كان عليه بعد مرور ٤٠ يوماً. فقال المهندس متعجباً: «ومن هذا الطبيب الحاذق؟» فقال أديسن: هو الله.

غريب أمر هؤلاء الماديين فانهم مع جهلهم وإخفاقهم في فهم العلوم المادية. كنظرية (أينشتاين) النسبية، يعطون أحكاماً سخيفة لا تتفق والواقع في شيء. هل كان أحد هؤلاء الماديين يقوى على حل ما صعب من معادلات تفاضلية(Equations différentielles) وهل كان أحدهم يقوى على حل غوامض نظرية السطوح في الهندسة التحليلية؟.

غريب أمر هذا المادي. أنه يرى أن المكتشف يصرف سنين من الوقت للعثور على قانون أو نظرية مع ما أوتي من قوة في التفكير والمحاكمة والحافظة وتفوق على الأقران. ثم يقول بعد ذلك كله: ان المادة (الصماء) هي التي صنعت بنفسها هذا القانون وشقت طريقها لتنال كمالاً أو لتتكامل! أو أن تكامل هذا الكائن الحي كان نتيجة طفرة!Mutation أو طفرات

عَجيبة! . (Mutations tératologiques) . ولا يفكر أن إرادة الله هي التي مكنت لهذا الكائن الحي أن يأخذ بهذه الطفرة المرادة من جانب الله شكلاً خاصاً. وأن إرادة الله تعالى ومشيئته هي التي أوجدت الامكانيات.

أنى لهذا الكائن الحي وهو في غاية الضعف وتمام الاحتياج (كالانسان) أن يجد لنفسه من العدم شيئاً ويؤسس لنفسه طريق التكامل. فما بال الانسان لا ينوي على ذلك؟... ليجعل نفسه غير محتاج إلى كثير من الأشياء. مكنهم في النفوس تضل وترتد بسوء اختيارها ومجونها وطيشها.

إن الله تعالى يقول: ﴿ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون. قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾.[1].

ويقول الله تعالى في مكان آخر: ﴿ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾[2].

وفي آية أخرى: ﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون[3]. لقالوا إنما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾[4].

كانت فرضية(Hypothèse) التطور: (Evolution) وأعني بها فرضية: (لامارك ـ دارون). قد أثرت في نفوس كثير من الناس، ففسروها تفسيراً خاطئاً حسب ميولهم النفسية، مما أدى إلى الاعتقاد بأن الكائن الحي في تغير مستمر من تلقاء نفسه وليس له حالة ثبات ولا استقرار، وأن هذا الكائن

---

(١) سورة يونس: ١٠١.

(٢) الأنعام: ١١١.

(٣) يعرجون: يصعدون.

(٤) سورة الحجر: ١١ ـ ١٥.

الحي يتلاءم(Adaptation) في نموه مع البيئة، فيتغير بحسبها. وان البيئة هي المؤثرة في تغير وتطور هذا الكائن الحي بما فيها من مؤثرات وعوامل! حتى أنهم أرادوا تفسير ما يدرس في علم طبقات الأرض من مواضيع حسب هذه النظرية المغلوطة. حتى أن البعض منهم فسروا أخلاق الأمم ومعتقداتها حسب هذه النظرية وعزوها إلى اختلاف البيئة أو المحيط!.

ولكن سرعان ما وجد علماء آخرون شكوا في صحة تطبيق نظرية (دارون) وفحصوا الكائنات الحية على اختلاف أنواعها فحصاً دقيقاً وجربوا واختبروا كثيراً فلم يظفروا بما قاله (دارون) من حلقات رابطة بين الكائنات الحية جميعها. وعلموا أن الكائنات الحية قد خلقت كل حسب فصيلتها ونوعها بصورة مستقلة دون أن يتكامل عن (آميبا) = الكائن الحي ذي الخلية الواحدة.

وعلموا أيضاً أن التركيب الوراثي(Génotype) والتركيب الحيوي (Biotype) هما أساساً الأنواع. وهما يبديان مقاومة دائمية عنيفة تجاه الحوادث الخارجية أي لا أثر للبيئة عليهما أبداً. ولقد ثبت أيضاً أن ما هنالك من استعداد وقابليات للتكامل والنمو في الدواب والكائنات الحية، موجود ومعبأ في العامل الوراثي(Géne) أي في ذرات النطفة بصورة ثابتة ولا تأثير للبيئة في حصول هذه التطورات والتغييرات.

كما أنه لا تأثير للبيئة في حدوث الطفرات(Mutations) التي نشاهدها في ذرات النطفة أي في(Gène) . وأخفقت النظرية القائلة: «أن تغيرات البيئة التدريجية هي السبب الرئيسي في حدوث الطفرات».

يقول أميل كوينو(Emil Guynot) : «ان الطفرات تحدث دونما علة أو سبب، بل بالصدفة». وهذا دليل على أن هنالك خالقاً قد أمر بهذه الطفرة وكوّنها. وهذا ما أدى إلى هانري بركسون(Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسي أن يكون موحداً.

«وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحد»

عبثاً يحاول هذا المادي أن يبرهن ويثبت، وأن سمى المادية مادية نظرية

أو جدلية. ذلك إنه يعترف في كتاباته حين يعجز عن الاستدلال: أن العلم لا يؤيد ما يقول. وإنما العلم سيكشف له في المستقبل صحة ما يدعيه الآن، وصحة ما يعجز عن فهمه وتطبيقه وفق معطيات العلم في الوقت الحاضر! وهل يجوز التمسك بقواعد نظرية تخالف العلم، رجاء أن يأتي زمان يكشف فيه العلم صحة النظرية!.

فأنت أيها المادي جئت، مع جهلك بحقائق الكون، جهلاً غير متناه، بنظرية ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر[1] الجبال هدا﴾ (سورة مريم: ٩٣).

* * *

ولنعد إلى ما يقوله المادي(Matèrialiste) أنه يقول: الوجود قديم، وان المادة قديمة، وهي مصدر كل ما وجد في العالم، تلازمها خصائص لا تنفك عنها وهي ترقى من الجماد إلى أكبر عالِم ألمعي! والمادة مقودة بنواميس غير متزلزلة، ولا عقل للمادة ولا شعور. ولكنها تعمل في خلق أشياء في غاية الاتقان وكمال النظام! لا تنفك عن حكمة وعقل جبار. وان ما يُرى من آثار التدبر والتعقل في سير الحوادث وارتباطها ينتهي بالتحليل العلمي! إلى المادة الأولية وما فيها من خصائص ذاتية. ولا شيء وراء المادة. وما يقال عن ما وراء الطبيعة ونزول كتب سماوية وإرسال أنبياء إنما هو كلمات فارغة تمسك بها الجهال وبعض الناس لأغراض خاصة ومصالح معينة، وسوف لا يمضي قرن أو قرنان حتى نرى العالم أجمع يدينون بالمبدأ المادي ويسيرون على المحجة المادية البيضاء! ويخرجون من دياجير الظلمات والخرافات إلى حيث الحق والواقع!.

هكذا يتخبط المادي في إدعاءآته ومن عندياته ومتناقضاته. انه يقول: الوجود قديم ويريد به المادة. ويقول المادة قديمة. هل من الطريق العلمي أن ندعي شيئاً دونما دليل. فإذا كان المادي يتبنى فلسفة حسية فكيف يجوز له أن يدعي شيئاً لم يحسه ولم يره. وأن يقول بقدم المادة وأنها غير

(١) تخر: تسقط.

مخلوقة، مع اعترافه أنه يجهل أصول الكائنات ومصائرها. وهل يتمكن المادي أن يتسلسل بصورة غير خيالية، بصورة غير ظنية ولا حدسية من المادة الأولى إلى وجود العقل الانساني، فيوضح لنا بصورة متقنة وأدلة متينة مراحل هذا التسلسل وعللها. هل له أن يقول مثلاً عن علة حدوث الماء بنتيجة اتحاد الأوكسجين والهايدروجين بنسبة معينة بعد إمرار تيار كهربائي. ما أثر هذا التيار وما حقيقته؟ هل تمكن المادي من أن يفسر لنا حقيقة الجاذبية ومن أين أتت وكيف صارت وهكذا يفسر لنا حقيقة الكهرباء وحقيقة (الابصار)، وحقيقة السماع، وحقيقة العقل، (ولعله لا يعترف بالعقل) ألم يتوغل هذا المادي في أعماق العلوم كي يرى هنالك من مجاهيل لا تتناهى عدداً وإحصاءاً، ألم يعلم عندما اكتشفت (الأشعة الكونية) نادى العلماء بصوت رفيع: أننا أصبحنا أمام أودية من المجاهيل... ماذا يقول المادي، لو سألناه: هل مجهولاتنا بالنسبة إلى ما في هذا العالم من خصائص ومعادلات وحقائق أكثر أم معلوماتنا الناقصة التي تصحح وتعدل يوماً بعد يوم؟.

أليس الأفضل أن يتمسك المادي بآخر ما توصل اليه العلم الحديث من حقائق الذرة، فيعترف بأن المادة مخلوقة. وأنها طاقات تكدست فأصبحت مادة بمقدار معين على ما ثبت أخيراً في علم الذرة. ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾[1]. ذلك لأن الشيء غير مؤثر في نفسه وغير قادر أن يغير شيئاً من ذاته. فالتمسك بما أثبته العلم بعد جهد جهيد أولى من التمسك بأمر خيالي لا يدعمه دليل. فإذا كان الأصل هو الطاقة (لا المادة) وأن الطاقات تكدست فكانت عناصر مختلفة كالحديد والأورانيوم والألمنيوم و... وأشياء أخرى لا نعلمها بنسب معينة وبنظام خارق ومعادلات متقنة: ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[2]، إذن وجب أن نعترف للطاقة بعقل جبار وفعالية غير متناهية وإدراك وشعور. وهذا ينافي ما يدعيه المادي. وبما أن الشيء حسب قانون القصور الذاتي الثابت في علم الفيزياء، غير مؤثر

---

(١) سورة القمر: ٤٩.

(٢) سورة الرعد: ١٠.

في نفسه، فلا بد من مؤثر خارجي قد أثر في هذه الطاقات بحكمة فائقة وتدبير خارق، وهو لا يشبهها في شيء، حتى كان هذا العالم الذي نراه.

ثم نسأل المادي: أليست المعادلات ووضعها نتيجة عقل مفكر جبار، لا سيما إذا كانت متعددة تكاد لا تحد، أليس تنظيم أجزاء وأعضاء الحشرة أو الحيوان دليلاً على عقل فعال، لا سيما إذا كانت هذه التنظيمات في الجماد والنبات والحيوان متعددة إلى حد تكاد لا تتناهى وبأشكال مختلفة ونظم حكيمة متباينة، هذا عدا ولوج الروح فيها.

ثم هل الترتيب بين الأجزاء يولد الحياة وما العلاقة بين الترتيب والحياة؟ وليس هناك إلا دعوى وخيال وهوى نفس ضلت عن الطريق بآثامها وقساوتها. ﴿انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. ان المادي يقول بنظرية لابلاس: ان الشمس والكواكب التابعة لها كانت في البداية قطعة من السديم، ثم انتزعت منها هذه الكواكب وإلى مسافات معينة وصارت تدور حول الشمس بحكم الجاذبية، وان الأرض كانت ابتداء قطعة من نار: (معادن مذابة) كما يظهر لنا ذلك عندما ننزل إلى باطن الأرض مسافة يعتد بها. فإن درجة الحرارة تزيد (٣٠) درجة مئوية لكل كيلو متر عمقاً. وهكذا تبلغ نحو عمق (٥٠) كيلو متراً من سطح الأرض درجة انصهار الصخر وهي تقع ما بين ١٢٠٠ درجة مئوية و ١٨٠٠م. والبراكين وما يخرج منها من صخر منصهر خير دليل على ذلك. فالكرة الأرضية، بناء على هذا، تتألف من قشرة كروية جامدة سمكها نحو ٥٠ كيلو متراً، تلتف حول قلب الأرض التي هي نار حامية: من صخر مصهور ومعنى هذا أن لب الأرض سائل ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[1].

فإذا كانت الأرض عند انتزاعها عن الشمس ناراً حامية فلا يبقى فيها كائن حي ولا أساس للحيوية. فكيف يفسر لنا المادي وجود الكائن الحي على وجه الأرض وكذا النبات وما فيه من نظم وجمال.

---

(١) سورة الأنبياء: ٣١.

وكيف بالتحليل العلمي يمكن ارجاع عقل الانسان إلى المادة الأولى الأزلية، لا سيما بعد الاعتراف بأن الأرض كانت قطعة نار سيالة حامية. ومن أودع في المادة الأولى هذا العقل الجبار لتضع دساتير رياضية رصينة في هذا الكون، وتتسلسل هذه المادة وتتدرج مراحل تكاد لا تتناهى: مراحل معقولة حكيمة، ثم تنظر في حاجة ما سيوجد في المستقبل، فتهيئها قبلاً، وهل للمادة الصماء غير العاقلة (على ما يقوله المادي) أن تفكر في مستقبل الأشياء وحاجاتها وتعين مثلاً أوقاتاً لخروج السن والشعر في الانسان والحيوان... الخ.

حقاً إن التفكير المادي تفكير عامي لا يمت إلى الأسلوب العلمي بصلة: ﴿ان هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾[1].

يقول (روبينيه) في كتاب «الفلسفة الحسية»:

«إن الفلاسفة الحسيين يريدون الابتعاد عن كل وهم وخيال، وبناء فلسفتهم على المشاهدة المحسوسة. ولكنهم بعيدون عما يدعون كل البعد. وهل من الفلسفة الحسية أن يقال جزافاً بقدم المادة وأبديتها، وهل من الفلسفة الحسية الحكم بعدم وجود عالم أرفع منها وهل منها: الاعتماد على افتراضات علمية غير ثابتة ومتزلزلة وبناء مذهب إلحادي عليها».

وهل يصدق الحس في ما يعطي من معطيات وما المصحح له، أليس العقل؟ فكيف يجوز الاعتماد على فلسفة حسية أساسها الحواس. وكيف يجوز الاعتماد على نظريات علمية لا ثبات لها ولا استقرار. وكيف يجوز أن تبنى فلسفة الحياة الاجتماعية: من اقتصادية وأخلاقية وإدارية على نظريات تتبدل من حين إلى حين. ألم يدرس المادي تاريخ العلوم. ألم يتتبع تغير النظريات وتحولها. وهل الفرضية: (Hypothèse) دستور رياضي مجرد لا يقبل الشك والارتياب... وهل وجود أتباع كثيرين لنظرية ما يدل على صحتها. ﴿وإن

---

(١) سورة النجم: ٢٣.

تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ [1]. (سورة الأنعام: ١١٦).

إن المادي يقول: ان المادة مقودة بنواميس ثابتة غير متزلزلة. من الذي قاد هذه المادة حتى أمست مقودة تبعاً لهذه النواميس؟ هل المادة نفسها فكرت، فوضعت هذه النواميس والقوانين؟... فما بال الانسان وهو ذو عقل لم يعلم لحد الآن إلا شيئاً يسيراً جداً عن حقائق حياة النبات والحيوان والدساتير الرياضية المودعة في هذا الكون. إذن، عقل المادة في الأزل أعظم بكثير من عقل هذا الانسان المتكامل علمياً يوماً بعد يوم. ومع ذلك يشكو جهلاً مريراً لا نهاية له.

ثم ان القوانين والمعادلات الرياضية التي تعمل في تنظيم هذا الكون وربط الأرض بالسماء وربط أجزاء السماء بعضها ببعض بمعادلات لا تعد ولا تحصى، (وقد وجدت تباعاً)، كيف كانت موجودة في الأزل في المادة؟ والمادة كانت مشكلة من ماذا؟ ومن الذي شكلها؟.

إن العلم الحديث يقول بعدم وجود مادة في الأزل. وإنما طاقات أوجدها الله تعالى. تكدست بإرادته، فصارت مواداً كما يشاء سبحانه. وتتلاشى هذه المواد فتكون طاقات وهذه بدورها تتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والاكرام.

ثم كيف قطعت الطاقات هذه المراحل الحكيمة التي هي في غاية الاتقان وتمام الدقة وتكاد لا تتناهى. ذلك لأن الكون على حد تعبير (آينشتاين) مجموعة دساتير رياضية.

وأين الدستور والعقل من المادة. وان المادي ينفي العقل عن المادة خشية أن يقال: ان العاقل الفعال والمسيِّر للمادة هو الله تعالى. وهكذا يستدل الفيلسوف الفرنسي (بركسون) على وجود الله جل جلاله. ثم ليقل لنا المادي، إذا كانت المادة فاقدة العقل، فكيف تحدث هذه العوالم المعقولة المتقنة بدساتيرها وخصائصها من مادة بلا عقل.

---

(١) يخرصون: يكذبون.

كيف يجوز الاعتماد على ما يقوله المادي: وهو ادعاء لم تثبت أركانه، ادعاء أوهن من بيت العنكبوت، ذلك لأنه حيث لا يجد جواباً مقنعاً يتذرع بكبريائه وغروره، أي بهذا العلم الذي لم يقطع فيه البشر إلا مراحل ضئيلة وضئيلة جداً، يعترف بذلك كبار العلماء الباحثين، لا أولئك الذين انحصرت دراستهم في مدارس بسيطة أياماً قليلة، وتركوا البحث والتنقيب وصاروا يكتبون دونما تدقيق وتحقيق. يتذرع المادي بالعلم تذرعاً واهي الأركان، متفكك العرى والأوصال، بعيداً عن المنطق الطبيعي والفطري، ذلك لأن العلم مهما كان ناقصاً يدل على موجد قادر متعال. وخلاصة القول: ان المادي ينسب (من عندياته) واقتراحاته وادعاءآته بل هذيانه إلى العلم اعتباطاً، ويسمي مدعياته وهوى نفسه نظريات علمية! وبينها وبين العلم الواقعي الصحيح مسافات. وان قضية تاريخية أو قضيتين، كافية لتجعل للمادي دليلاً وبرهاناً دون ملاحظة ما هنالك من عوامل.

إن المادي كلما عجز عن جواب مسألة تعرض عليه قال: «إن كنا نجهل السبب الآن، فإن العلم سيكشف لنا ذلك». إذن كيف يجوز أن تملى على الناس نظرية إلحادية واهية الأركان، ويعوِّل في إثباتها على ما سيكشف العلم في المستقبل من مكتشفات.

ثم من الذي ألهم الحيوانات، لا سيما الدنيئة منها، ما به قوام حياتها قبل أن ينتقل بطريق وراثي؟ وما حقيقة الانتقال الوراثي على الوجه الصحيح؟.

إن المادي يقنع بالتعريف فحسب، فيقول: جاذبية، وراثة، دون أن يتوغل فيقول لنا عن الماهية والواقع. وان الوصف اللغوي أو الاصطلاح لا يغني عن الحق والواقع شيئاً.

حقاً، أن المادي قد حجب نفسه عن المنطق الصحيح، (هذا المنطق الذي يستعمله في حل المسائل الكيميائية أو الفيزيائية)، حين يأتي دور ارجاع المخلوقات المترتبة غاية الترتيب إلى مرتب حكيم عليم. ذلك لأن قضية الاعتراف بالخالق ليست بقضية منطقية فحسب، بل هي رشحات النفس الزكية. فالقضية قضية نفسية بحتة، لا أثر للمنطق في ذلك، ومعنى ذلك: أن

منطق هذا المادي منطق صحيح في العلوم المادية، ولكنه ينسحب عندما يأتي دور الاعتراف بالله تعالى لظلمات في النفس: ﴿انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً﴾. (سورة الكهف: ٥٦).

إن المنطق الانساني منطق طبيعي ثابت الأركان، لا تبدله الأهواء والنفوس مهما اصطلح عليه من اصطلاحات وعُبر عنه بتعابير مختلفة، فالانسان إنما يعترف بخالقه بنور منه. والمنطق الطبيعي، إذ ذاك، يؤيد ذلك. ولولا هذا النور لما أمكن الاعتراف وان قوي الشخص على حل أصعب المسائل الرياضية. ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. (سورة النور: ٤٠). ولا يحل هذا النور القدسي إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء. وقد اعتادت إلى حد ما على عمل صالح وأخلاق فاضلة، بعيدة عن الخمور والفجور...

نعم، قد يصبح الانسان بفجوره وفسقه، فبظلمات نفسه أحط من الطير والجماد. فهما يسبحان الله ويقدسانه، على حد قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسبِّح له من في السموات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾. (سورة النور: ٤١).

فنحن نقترح على المادي أن يرتب لنفسه منهاجاً للقيام بأعمال صالحات لا لنيل مقام دنيوي أو طلب شهرة أو صيت، ثم ليترك ما هو عليه من ارتكاب المحرمات، لا سيما الكذب، ليرى كيف تزكو نفسه شيئاً فشيئاً، فتحل فيها معرفة الخالق، فخشوع، فطمأنينة ما بعدها طمأنينة ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (سورة الرعد: ٢٨).

ليعلم المادي أن هذه النظريات الفلسفية، التي اخترعها والتي يعتمد عليها الآن هي نظريات متحولة، متبدلة، سيظهر له فسادها بعد حين، كما ظهر فساد كثير من النظريات العلمية والفلسفية منذ العهد اليوناني إلى يومنا هذا، وسيأتي يوم يكون فيه أكبر عالم في يومنا هذا تلميذاً لأولئك الذين سيظهرون بفضله تعالى بعد أعوام أو قرون.

ثم ان النفس الانسانية ليست من المادة في شيء. فلا يجوز تطبيق

خواص المادة وقوانينها في تكميل النفس الانسانية وسير الانسان التكاملي، وجعل الاقتصاد أساساً لكل فضيلة. ولا يعلم حقيقة النفس وطرق تكاملها إلا خالق النفس وهو الله تعالى. فوجب إذن، أن يبعث الله أنبياء ومرسلين حاملين دساتير نفسية من عنده تعالى لتكميل البشر.

إن كل ما يسنه البشر لتكميل نفسه ملوث، مبتور، آت من رشحات نفس ملوثة ناقصة. إذن ما يترنم به المادي لظلمات نفسه: من عده انزال كتب سماوية وإرساله أنبياء، إنما هو كلام فارغ لا يدعمه دليل. ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[1].

فجدير بالمادي أن يتنازل عن غروره وأن يقطع بأن خالق الكون يريد بهذا الانسان الكمال، ذلك لأن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا العالم، فلا ينبغي أن يستثنى منها هذا الانسان، وما يسنه الناقص ناقص. والله أعلم بما خلق، وأعلم بطرق تكامل نفس خلقها، وهي النفس الانسانية. وأن يقطع أن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين بغية تكميل هذا الانسان، ومعهم جميع ما يحتاجه الانسان في شتى الحقول، من نفسية وعبادية، واجتماعية وقضائية وإدارية واقتصادية، وأن دين الاسلام وهو خاتمة الأديان مستجمع لجميع ما يؤدي إلى تكامل هذا البشر ولم تمسه يد التحريف، فجدير به أن يتخلى عن غروره، وطيشه وغلوائه، وفجوره وخموره. وأن يتمسك بدين محمد خاتم النبيين (ص)، لكي يعلم بعد قليل ما كان عليه من خطأ فاحش وظلمات بعضها فوق بعض.

* * *

إن الفلاسفة الواقعيين يعتقدون أن علينا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام تبقى ناقصة إلى الأبد وأننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة.

إن القرن التاسع عشر كان قرناً متسماً بالمادية، فقد ساد الاعتقاد في الأوساط المادية أن المادة هي كل شيء وان الانسان يساوي كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الماء

(١) سورة البقرة: ٩.

(بما فيه من أوكسجين وهايدروجين)... الخ... وليس وراء ذلك شيء! ولم يُحسب للروح أو النفس والعقل حساب. وصاروا يدعون أن العقل وليد المادة والمادة هي التي تخلق النفس والعقل!. (ولا تنسَ قول علي عليه السلام: كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب).

حتى إذا تقدمت العلوم المادية بما فيها الفيزياء الرياضية وعلم الـذرة وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي، وتطورت الفلسفة على ضوء هذه المكتشفات التي هي مفخرة القرن العشرين، أخـذ يقول الفلاسفة الواقعيون والعلماء الحقيقيون (أولئك الذين لم تلوث نفوسهم): أن العقل هو الكل في الكل، والعقل هو مسير المادة، وصاروا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، وأن هذا العالم وحدة روحية أو عقلية وأن العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وان المادة هي من مخلوقات العقل، بخلاف ما كان يقال قبل ٥٠ سنة حين طغيان المسلك المادي. والنفس هي الأساس والمادة خادمة لها وان الروح أو النفس لا تفنى بعد موت الانسان.

كل ذلك لما رأوا من عجائب ما أودع الله تعالى في الكون تحت دساتير رياضية رصينة، وحقائق لمسوها في بنيـة الذرة لا يمكن أن تفسـر إلا مع الاعتراف بخلاق عظيم وعقل فعال[١].

وهكذا يتكامل الفيلسوف في معتقداته وفي فلسفة يتبناها لو تكامل نفسياً. والدكتور جود(Dr. C. M. Joad) خير مثال في ما نذهب إليه. أنه يقول: عندما تخرجت من الجامعة كنت لا أعي ولا أفهم شيئاً عن حقيقة الكون وكنت أعتقد أن المادة، الحياة والقيمة: (Matter, Life and Value) هي أمور مختلفة، مستقلة بعضها عن بعض، اجتمعت لتتفاعل بعضها مع الآخر، ثم عدلت عن هذه العقيدة، وعلمت أن هذه الأشياء الثلاثة هي على الأرجح وجهات لوحدة واحدة أو مظاهر لفعل إله خالق.

---

(١) وكان لاحضار الأرواح (على ما يعبرون)، هيبنوتيزم(Spiritism) , (Hypnotism) أثر في التوجيه الروحي.

لو سألت أحد هؤلاء الماديين لماذا يجذب المغناطيس الحديد ولا يجذب الرصاص، يعجز عن الجواب وغاية ما يقول: أن هناك خاصية في هذا الجسم دون غيره. ونحن نسأل كيف اكتسب هذا الجسم هذه الخاصية دون غيره. وما حقيقة هذه الخاصية وما حقيقة الجذب؟ ومن هو الواهب لهذه الخاصية؟ هذه أسئلة يجيب عنها المادي بكلمة واحدة: «لا أعلم» أو «سوف يكشف لنا العلم ذلك». وهل يجوز لمن يدعي العلم أن يتكهن بقوله: «ان العلم سيكشف لنا» ويبني نظريات مغلوطة على أساس واهن. ثم يقول نفسه: «قد انصرم دور الكهانة ونحن نعيش في عهد الحقيقة والواقع، عهد العلم والحقائق وقد خرجنا عن دور الاحتمال!».

إن الله تعالى يقول: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾[1].

انظروا كيف يفصل الله جل جلاله ما خلق من أنواع النبات والابداع الكامن فيها. انه تعالى يقول:

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان[2] دانية[3] وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه[4]. ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[5]. وان ما دوِّن في كتب النبات تفسير لبعض ما جاء في هذه الآية الكريمة. وسوف تدون كلما تفضل الباري جل جلاله على هذا البشر بالكشف والتنقيب آلاف الصفحات. ولكن لا يعتبر بكل ما دوِّن في الموسوعات الخاصة بالنبات وما سيدون إلا المؤمنون، على حد قوله تعالى في نهاية الآية: ﴿ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾. ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾.

---

(١) سورة النساء: ١٥٦.

(٢) قنوان: جمع قنو: عنقود التمر.

(٣) قريبة التناول.

(٤) حينما ينضج.

(٥) سورة الأنعام: ٩٩.

نعم، لا بد للمعتبر بهذه الآيات البينات من قليل من التقوى، فقليل من الايمان. ولا يعطي الشخص قسطاً من الايمان إلا إذا كان له عمل صالح يقوم به من وقت لآخر: بصلة رحمه ولو بمقدار ضئيل، أو مساعدته بعض الفقراء والمعوزين ولو كانت هذه المساعدة قليلة جداً، أو تفقده حال المساكين والبؤساء، ولو بين فترات متباعدة إلى ما هنالك. فإن هذا العمل الصالح على قلته وضآلته مصباح ضعيف الضوء ينير القلب، فلا يطفأ العقل. فالعقل، إذ ذاك، يقوم بوظيفته الطبيعية في حدود معينة وهو توجيه صاحبه إلى الخالق المعبود: ﴿يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾[1]. ان التقوى (اجتناب المعاصي) والمأكل الحلال الطيب يفتحان على الانسان أبواب الهداية، فيفرق بين الحق والباطل ويؤدي ذلك أيضاً إلى القيام بتكفير الذنوب وجلب غفران الله تعالى. تدبروا مفاد هذا الحديث لتروا كيف أن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء وأراد بالناس جميعاً الاهتداء. فقد قال رسول الله (ص): «أبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافرحقاً وأبى أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً».

أنظروا كيف يوضح الله تعالى أن العمل الصالح مقدمة لنيل الفيوضات الربانية ودرك أنوار الهداية الالهية. انه تعالى يقول: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[2] ومعنى ذلك أن الله يهدي الفرد إلى سبيل الهداية والسلام وإلى طريق يؤدي إلى روح وريحان، ان اتبع هذا الفرد رضوان الله تعالى بالاجتناب عما حرم الله والعمل بما أمر الله. نعم، انه لينطفىء العقل انطفاء تاماً أو ينسحب انسحاباً كاملاً إذا غدا الفرد جرثومة فساد وقسوة. ﴿كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام: ٢٩.

(٢) سورة المائدة: ١٦.

(٣) سورة المؤمن: ٣٤.

فليست الآيات البينات والمعجزات الباهرات هي الكل في توجيه الشخص نحو خالقه. بل لا بد من نفس بقي فيها شيء من الصفاء والنور، لتبصر به الحق. انه تعالى يقول: ﴿أنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾[1]. وهو القائل أيضاً: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[2]. وفي آية أخرى: ﴿ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[3]. وفي أخرى: ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. (الأنعام: ٣٣). وقد سد طريق الهداية على أولئك الذين خسروا أنفسهم بالمعاصي. ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾. (سورة الأنعام: ٢٠).

فانحصر توفيق الاهتداء في أناس لم يبلغوا من الفسق والظلم مرتبة تسد عليهم أبواب الهداية، فتنطفىء بذلك عقولهم. فيخرجون من زمرة أولي الألباب. أنه تعالى يقول: ﴿ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾. فالذي لا يعتبر بما خلق الله وبما أودع من نظام في اختلاف الليل والنهار لا يعد من أولي الألباب. وما على من وجد في اتجاهه الروحي زيغاً وانحرافاً إلا أن يفتش عما قام به وما يقوم به الآن من ظلم وجور فيقلع عما هو فيه من اعتداء وتجاوز، كي يسير في سيره التكاملي، وتتجلى له الحقائق وينكشف له الواقع. فلا يمكن مد الأيدي إلى ما وراء الطبيعة إلا من زاوية تزكية النفس وتطهيرها من الأرجاس والأدران. وقد نصَّ على ذلك كثير من الفلاسفة الواقعيين.

أنظروا كيف يصف الله تعالى ما أودع من نظام رصين في سير الشمس والقمر، لا يعلم مدى ذلك إلا من درس الرياضيات العالية ومعادلات الحركة في الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي. على أن وراء ما توصل إليه الفلك العالي، معادلات ودساتير كثيرة جداً بل دساتير لا تتناهى سوف يمن الله تعالى على المتتبعين من علماء الفلك بالكشف والعثور. انه تعالى يقول:

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سورة الصف: ٥.

(٣) سورة الأنعام: ١٤٥.

﴿هو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصِّل الآيات لقوم يعلمون﴾[1].

حقاً، ان المنغمرين في علم الفلك العالي على ضوء ما توصل إليه العلم الحديث، قلَّ أن ينحرفوا عن الاعتراف بعظمة الله الذي وضع هذه النظم الدقيقة والقوانين الرياضية. ورأيت منهم من تفيض عيناه بالدموع فرحاً وخشوعاً لله تعالى، ولكنك ترى كثيراً من الملحدين، ممن لا يستطيعون فهم معادلات الفلك العالي وقوانينه مهما حاولوا، منحرفين عن الصراط السوي لكبر في النفس وقساوة في القلب. فقد جاء في الحديث: «إن أعمى العمى عمى القلب». وقد أوضح لنا ربنا تعالى فلسفة الايمان بقوله: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾[2]. أمثال بوخنز، فورباخ، كارل ماركس اليهودي، إنجلز، شوبنهاور وغيرهم. ان الله يصف هؤلاء بقوله: ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾. (سورة الكهف). ويصفهم بالجدل، جدل إن دل على شيء فإنما يدل على فساد فلسفتهم وفساد ما بني عليها من قوانين. وذلك بقوله تعالى: ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل. وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾. (سورة الكهف). وبقوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتَّبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾. (سورة الحج: ٣).

ألا أن المادي سوف يعترف بالواقع لا محالة حين لا يفيده الندم على ما فرط في جنب الله: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار. أليس هذا بالحق. قالوا: بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. (الأحقاف: ٣٣).

أنظروا كيف يتم الله تعالى الحجة على عباده ويأتي بدليل قاطع على وجوده

---

(١) سورة يونس: ٥.

(٢) سورة المؤمن: ٣٧.

بقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة. ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

أنى للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، ومن أين جاءت هذه الحاجة وكيف فكر هذا الذكر أن يجعل الأنثى بشكل يؤدي إلى استدامة النسل مع تعقد المراحل في تشكل الجنين. هذا ما يقوله الفيلسوف (مونتني) حقاً، ان انكار الله تعالى ضرب من الجنون. فهؤلاء المنكرون هم مجانين جنوا على أنفسهم وعلى من هم على شاكلتهم ببغيهم وظلمهم وفسقهم، فذهبت عقولهم. ومن ليس له عقل يدرك به خالقه فهو مجنون لا محالة.

في عهد الرسالة، صادف رسول الله (ص) في طريقه رجلاً خولط في عقله، فقال له أحد أصحابه: أنه مجنون، فأجابه رسول الله (ص) ما مؤداه: أنه مريض، والمجنون من لا يفكر في آخرته.

هل توصل هذا المادي إلى فلسفة اختلاف الألسنة والألوان بصورة صحيحة عميقة، دون الاكتفاء بالظواهر. وهل درى عوامل اختلاف الألسنة، وكيف تكلم الانسان وكيف ارتبط اللسان بالفكر، حتى أمسى معبراً عما يختلج في نفسه. وان الله تعالى يقول: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[2].

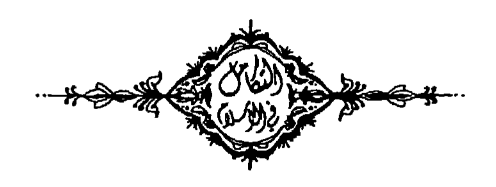
فحصر سبحانه وتعالى الاعتبار بالآيات الكونية وما أودع من حالات مختلفة تضبط بقوانين رياضية متقنة بالعقلاء دون غيرهم. أي أن العقلاء هم وحدهم يعترفون بعظمة الخالق ويتدبرون في أحوال الكون والحوادث الكونية ولذلك يقول تعالى في سورة الحشر: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾. ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾. فلا بصيرة ولا لب لغير المؤمنين. وجلُّ ما عند هؤلاء

---

(١) سورة الروم: ٢٠.

(٢) سورة الروم: ٢٧.

الملاحدة ذكاء أو تفكير يقوم بلطفه تعالى في إدارة شؤونهم والهام العلاقات الموجودة بين الحوادث (سواء أكانت النفس ملوثة أم لم تكن)، كل ذلك تفضلاً منه تعالى، ﴿قتل الانسان ما أكفره﴾، ولكن الاستبصار والتوجه إلى مقامات القدس لا يتم إلا في نفس زكية طاهرة. فهؤلاء هم أولو الألباب حقاً، لخروجهم من حضيض المادة إلى تفهم ما وراء الطبيعة والعروج إلى حيث الطمأنينة والخلود، إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر.



هل من حاجة إلى الدور والتسلسل في إثبات الصانع

جاء في بعض الكتب الكلامية بشأن إثبات وجود الخالق: أننا لو فرضنا أن ب مثلاً خلق أ، وحـ خلق ب، ود خلق حـ، وهكذا... ينتهي بالفرض إلى ما لا نهاية له من الموجودات، خلق المتقدم منها المتأخر. وهذا تسلسل، والتسلسل باطل، لأنه لا بد من خالق لم يخلقه آخر. حتى ينتهي الأمر إلى خالق هو في الحقيقة خالق جميع الأشياء.

ومما لا شك فيه: أن المخلوق ليس فيه قابلية الخلق. لأنه إن كان فيه قابلية الخلق لأوجد شيئاً من العدم. أو تصرف في نفسه فحقق ما يريد. والمصنوع ليس بصانع شيء من العدم. أما صانع التلفزيون مثلاً فهو قد جمع أجزاءه مما وجده قبلاً. ووجد أن له عقلاً يعقل ويستنتج وهو لا يعلم كيف أتاه. يرى نفسه يأكل وتخرج فضلاته وتقوم أجهزته بأعمال دقيقة مختلفة وهو لا يحيط بكل ما هنالك من أسباب وعلل. ولا يعلم كيف كان كل ذلك. فليس للمخلوق أن يخلق شيئاً من العدم. ومن أين يأتي لهذا المخلوق قابلية الخلق من العدم، وهو عاجز عن التصرف في نفسه. فإذا قلنا باستحالة خلق المخلوق شيئاً من العدم، لم يبقَ مجال للقول بهذا التسلسل من المخلوقات أو من الخلاقين وجعلِ المتقدم خالقاً للمتأخر. د، حـ، ب، أ. فلا ضرورة لهذا الفرض الباطل: (التسلسل)، بل لا يبقى مجال لتصوره.

وأما الدور: فهو أن يكون وجوداً متوقفاً على وجود ب ووجود ب متوقفاً على وجود أ، فأصبح وجوداً متوقفاً على وجود أ. أي وجود أ متوقف على نفسه. ويقولون أن هذا (دور)، والدور باطل، أي توقف وجود شيء من الممكنات على نفسه باطل. لأن الممكن لكونه ممكناً أي مصنوعاً ومخلوقاً من قبل غيره ليس له أن يوجد نفسه بنفسه حتى يكون وجوده متوقفاً على نفسه. والله تعالى هو الذي متوقف وجوده على نفسه لم يُسبق بعدم وهو واجب الوجود، أي لا بد من وجوده لوجود هذه المخلوقات بهذا النظام البديع.

لا أظن أن رجلاً قبل أن يدرس علم الكلام يفكر في الدور كما يفكر في ذلك المشتغل في علم الكلام. ذلك، لأنه يرى أن كل ما في الكون من نبات وحيوان وجماد مفتقر غاية الافتقار، وذو حاجات شتى ونواقص عدة ومحل للحوادث، ومضطهد تحت نير الحوادث والكوارث. وليس له أدنى تصرف بل ليس له أن يغير شيئاً من تركيبه الأساسي من تلقاء نفسه. فلا يفكر أن هناك خالقين يتوقف وجود كل منهما على الآخر. حتى يأتي: دور توقف وجود الشيء على نفسه. بل يقطع أنه لا بد من خالق لا يشبه خلقه في شيء. لما يرى من عجز وافتقار في من سواه. خالق لا تؤثر فيه المؤثرات ولا الحوادث بل هو خالق المؤثرات والحوادث وموجدها. هو الذي خلق الأشياء برمتها ونظمها ورتبها ووضع فيها قوانين ليس للعلم أن يقف إلا على جزء ضئيل منها. وذلك أيضاً بمشيئة الله والهامه المكتشفين تفضلاً منه ورحمة.

فلا أرى كثير فائدة من تمسك علماء الكلام بالدور والتسلسل في إثبات الصانع جل جلاله. لأن هذا النوع من التفكير ليس بطبيعي ولا فطري، وليس بمعقول. ولا تؤيده الحوادث. وان الانسان قد جهز بفضله تعالى بعقل يحكم بوجود خالقه بصورة طبيعية دون اللجوء إلى تعلم مناقشات الكلاميين والحكماء. بل قد يكون العامي أقوى اعتقاداً من الكلامي بوجود الصانع لنورانية في نفسه حصل عليها من جراء ما قام به من أعمال صالحات لوجه الله تعالى وعبادات خالصة دونما رياء. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[1].

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت: ٧٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٢.

استحالة معرفة الله معرفة تامة

إذا كان الانسان لا يقوى على معرفة نفسه ولا يتمكن من أن يتعرف إلى حقيقة النفس أو الروح ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1]. فأنى له أن يعرف خالق الروح معرفة تامة.

إذا كان الانسان لا يقوى على معرفة حقيقة الجاذبية الأرضية أو حقيقة القوة الكهربائية أو حقيقة الالكترون فأنى له أن يعرف حقيقة خالق الجاذبية وخالق الضوء والكهربائية وخالق الألكترون. وهل ترى أن المتناهي وهو هذا الانسان، في مقدوره أن يحيط باللامتناهي وهو الله تعالى.

وما من شك أن ما خلق الله تعالى من عوالم، تكاد لا تعد ولا تحصى. وقد علم أنه تتشكل في الكون كرات جديدة وتبيد أخرى. وان العلم الحديث ليعترف بالعجز عن الاحاطة بما أودع الله من خواص وقوانين رياضية ومعادلات رصينة تربط حوادث الكون وأجزاءه بعضها ببعض. وان علم البشر بالنسبة لهذا العلم اللانهائي: (الخواص والقوانين الكونية) شيء ضئيل وضئيل جداً: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[2]. وان علم الله تعالى الذي وضع هذه الخواص والقوانين لا يتناهى ولا يحاط به. اذن نتج من هذه المحاكمة أن علمنا (علم البشر كله)، بالنسبة إلى العلم المودع في هذا الكون يكون صفراً، بل هو صفر. ذلك لأن نسبة المحدود إلى غير المحدود صفر. فإذا فرضنا علم البشر = ب. والخواص والقوانين التي أودعها الله تعالى في هذا الكون (أو الأكوان) = لا نهاية = ∞ .

$$\frac{ب}{\infty} = ٠$$

---

(١) سورة بني إسرائيل: ٨٧.

(٢) سورة الكهف: ١٠٩.

إذن وجب أن نقول (بطريق أولي) أن علم البشر بالنسبة إلى علم الله تعالى، ذلك العلم الذي لا يدرك غوره، صفر أيضاً.

فلنفرض علم الله = ∞

أي لا نهاية = ∞ مرفوعة إلى قوة ∞

$\frac{ب}{\infty}$ = ٠ دون أي ريب صفر

فكيف يرجو هذا البشر أن يعرف الله تعالى معرفة تامة وأن يحيط به إحاطة كاملة وهو في الحضيض، (لكنه مغرور لما منَّ الله عليه بمعرفة بعض الدساتير وبعض المكتشفات!).

إن الماديين تذرعوا بسخافات عجيبة، وأرادوا أن يروا الخالق في تحاليلهم الكيميائية أو تجاربهم الفيزيائية أو بعين مجردة، أو مجهزة بمكبرة وغيرها. حين أن الله، وهو الذي لا يحده مكان ولا زمان، هو خالق كل هذه الآلات وهو خالق العقل الذي قام بترتيب هذه الآلاتTelescope .

أنى للحواس الخمس أن ترى الله تبارك وتعالى وهي محدودة القوى والقابليات وكثيرة الأخطاء. والعقل هو المصحح لهذه الأخطاء. أو ما رأيت في بعض كتب الفيزياء خطوطاً مستقيمة مقطوعة بخطوط أخرى، ونظرت اليها لألفيتها تتقاطع ولكن لو اختبرتها وجدتها متوازية. وترى أيضاً خطين مستقيمين أحدهما أطول من الآخر، ولكن لو دققت لوجدتها متساويين في الطول وهذا دليل على خطأ العين. والعقل وأعني به الذكاء أو التفكير هو المصحح له.

أو ما رأيت كيف يعوج القضيب حين يوضع قسم منه في الماء. وذلك لانكسار الضوء واختلاف سرعة الضوء في وسطين مختلفي الكثافة (الهواء والماء). ما الذي يصحح خطأ العين ويريك أن ليس هناك اعوجاج حقيقي إنما هو العقل.

وهكذا السراب فانك ترى أن هنالك ماء وأشجاراً فإذا وصلت إلى ذلك

المكان، لم تجد شيئاً، كل ذلك بتأثير انكسار الضوء لاختلاف كثافة طبقات الهواء وترى النجمة في غير موقعها الحقيقي لنفس السبب.

هل رأيت كيف: أن الدرهم الملقى في قعر اناء فيه ماء كيف يرى في مستوى أعلى من القعر حسب قوانين الانكسار(Refraction) .

أرأيت كيف يحصل القوس والقزح. والألوان الزاهية على (وغف) الصابون المعروض لضوء الشمس بنتيجة التكاسر: (Différaction) وكيف يحلل الضوء بهذا أو بالمنشور. هل العين حين تشاهد هذه الألوان تعتقد أن هنالك تكاسراً أو تعتقد أن ألواناً مختلفة وجدت في (وغف) الصابون. ما الذي يصحح هذا الخطأ؟.

إن الأذن لا تقوى أن تسمع صوتاً تردده[١] في الثانية أقل من (٢٠) أو أكثر من (٢٠٠٠٠) ذبذبة وان الاهتزاز وجميع ما يؤدي إلى حدوث الصوت موجود لكن الأذن لا تسمع ولا تحس. لأن قابليتها محدودة.

إذن لا يمكن الاعتماد على الحواس الخمس في إثبات وجود الخالق وذلك لأن الحواس كثيراً ما تخطىء ولا يصحح هذا الخطأ إلا العقل. فالعقل هو الذي يعتمد عليه في التعرف إلى الأشياء. وبالعقل يعرف الله ويوحّد.

هل للحواس الخمس أن تشعر بتيار ضعيف على سلك؟ كلا، بل الـ (كلفانو متر) هو الذي يعرفنا وجود هذا التيار الضعيف. ان الأخطاء البصرية كثيرة، فلا يعتمد على البصر فحسب، أي دون مداخلة العقل والتجربة لمعرفة الأشياء. أو ما ترى أن الأرقام البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء. ولا يمكن الاعتماد على حاسة اللمس دائماً. فإذا أمررنا كرة بين السبابة والابهام وهما متقاطعان فاننا نحس أن المار كرتان لا كرة واحدة. وعضو السمع لا يعطي الأثر نفسه في جميع الناس. فالموسيقيون يستطيعون تمييز النغمة الموسيقية الخاطئة فوراً. إذن لا يمكن أن نجزم أن الملاحظة السطحية المباشرة تطابق الحقيقة بصورة دائمة.

---

(١) التردد هو عدد اهتزاز الجسم المهتز في الثانية. أو عدد تذبذب الشركة الرنانة ذبذبات كاملة في الثانية.

أنظروا إلى ما يقوله علي عليه السلام في هذا المقام: «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر. الدال على هدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبه له».

فما هو الذي يجعل هؤلاء الماديين مع دراستهم للفيزياء وكثير من علوم الطبيعة أن ينكروا الخالق. نعم! ان المؤثر الحقيقي في ذلك، إنما هو شهواتهم ونزواتهم وبغيهم وظلمهم حتى منعوا بذلك الفطرة أو العقل من القيام بعمله الطبيعي، وحجبوه من أن يؤثر أثره. ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[1].

﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت[2] سنة الأولين[3]. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مستورون﴾[4].

ويتصور البعض بأنهم لا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الله تعالى لأنهم عاجزون عن إدراكه، فالانسان السوي الذي لم يلوث الفطرة بما كسبت يداه والذي يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج إلى رؤية الله أكثر من حاجة الفيزيائي إلى رؤية الألكترون. وكل محاولة في كلتا الحالتين باطلة ولا قيمة لها. فالألكترون لا يمكن ادراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. ثم أن العلم يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الالكترونات. فراغ ذي ثلاثة أبعاد لكل الكترون وثلاثين بعداً لكل عشرة الكترونات. ويعترف أن هذا الالكترون ما هو إلا موجة احتمال، ويعترف بوجود جزيئات كالنيوترونات (الكهارج) والاتينيوترونات التي افترض وجودها لأسباب تناظرية

---

(١) يونس: ٣٥.
(٢)خلت: مضت.
(٣) سورة الحجر: ٤.
(٤) سورة الحجر: ١٥.

رياضية بحتة. ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهرياً ولكنه يرفض ومع الأسف (باصرار) ان يتقبل وجود ذي قوة خارقة خلاقة، كوّن هذه الأشياء التي يعترف بها مع عدم إمكان رؤيتها بأية واسطة من الوسائط. ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) وهو الامام الثامن وعنده جماعة، فقال أبو الحسن عليه السلام: «أيها الرجل، أرأيت ان كان القول قولكم، وليس هو كما تقولون، ألسنا وإياكم سواء شرعاً لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكّينا وأقررنا. فسكت الرجل. ثم قال أبو الحسن عليه السلام: وإن كان القول قولنا، وهو قولنا، ألستم قد هلكتم ونجونا. فقال. رحمك الله. أوجدني كيف هو؟ وأين هو؟ فقال: ويلك، ان الذي ذهبت اليه غلط. هو أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا بكيف، فلا يعرف بكيفوفية ولا بأينونية، ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء. فقال الرجل: إذن أنه لا شيء (إذ) لم يدرك بحاسة من الحواس. فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك، لما عجزت حواسك عن ادراكه أنكرت ربوبيته. ونحن إذا عجزت حواسنا عن ادراكه أيقنا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء. قال الرجل فأخبرني متى كان؟ قال أبو الحسن عليه السلام: «أخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان». قال الرجل: فما الدليل عليه؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «أني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجر المنفعة إليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات، علمت أن لهذا مقدراً ومنشئاً».

ومن الواضح أنه لا يعرف الله تعالى أحد حق معرفته إلا هو. فقد جاء في الحديث: «سبحان من لا يعلم كيف هو إلا هو». أنه تعالى يقول: «ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم». فليس للبشر أن يعرف كيف خلق الله السموات والأرض وكيف خلق هذه النفوس. وبطريق أولى يستحيل عليه أن يعرف الله تعالى معرفة كاملة. لذلك يقول رسول الله صلى

الله عليه وآله: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك». ومعنى سبحانك: أي ننزهك ربنا عن كل نقص ومن كل عيب، فأنت الكامل الذي لا نقص فيه.

إذن كيف يجوز للناقص وهو هذا الانسان أن يعرف ربه معرفة تامة. إلا أن هذا الانسان الناقص، لو تكامل بتزكية نفسه وتطهير خلده واتباع أوامر مولاه (وهو الله تعالى)، واجتناب ما نهى عنه، يتكامل شيئاً فشيئاً تكاملاً عين الله تعالى له حدوده. فقد جاء في الحديث:

«أعلمكم بالله أخوفكم له».

فيزداد هذا الانسان معرفة بالله تعالى حتى يكون مصداق هذا الحديث، حيث قال رسول الله (ص) يوماً لعلي عليه السلام: «يا علي، لم يعرف الله إلا أنا وأنت، ولم يعرفني إلا الله وأنت، ولم يعرفك إلا الله وأنا». كيف لا يكون كذلك، وأن علياً عليه السلام كان يغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات. ولا شك أنه يراد من هذه المعرفة: أسمى مرتبة من معرفة يتمكن البشر من الوصول إليها بأذن الله تعالى. وأما المعرفة الحقيقية فمستحيلة. لقول علي (ع): «لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن». ولقوله عليه السلام: «لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتوهمه الفطن فتتصوره». وقوله (ع): «فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا أنا نعلم أنك حي قيوم». وقوله عليه السلام: «عظم من أن تثبت ربوبيته باحاطة قلب أو بصر».

قال رسول الله (ص): «ان الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار. وان الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم».

وقال موسى بن جعفر (ع): وهو الامام السابع من الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام: «ان الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه وصفه، فصفوه بما وصف نفسه وكفوا عما سوى ذلك».

وقال علي عليه السلام: «لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته». لذلك نعرف الله ونوحده بالفطرة معرفة تتناسب مع امكانياتنا.

وقال عليه السلام أيضاً: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه بحقائق الايمان». وقال عليه السلام: «فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره».

أنى لهذا البشر العادي أن يعلم كيف هو خالقه، فإذا كان علي (ع) وهو أكمل الخلق بعد رسول الله (ص) يقول: «كيف أصفه[1] بالكيف وهو الذي كيَّف الكيف حتى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كيف لنا من الكيف» فكيف بالآخرين. لا سيما أولئك الذين قيدوا أنفسهم بقيود من شهوات وبخل وحسد كبير. فقد جاء في الحديث: «أصول الكفر ثلاثة: البخل والحسد والكبر».

فمهما أوتي الانسان من علم وحكمة ليس له أن يصف الله تعالى حق الوصف، لأنه محدود في كل ما يفكر والمحدود لا يحيط بغير المحدود. والمحاط لا يحيط بمن يحيط به «سبحانه وتعالى عما يصفون». ولقد قال رسول الله (ص): «لا أحصى ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقد قال علي عليه السلام: «وكمال الاخلاص نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة». وقال (ع) أيضاً: «لا تقع الأوهام على صفته».

فمخلوقات الله خير دليل على وجود الله تعالى وهو القائل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾. (سورة فصلت: ٥٣).

قال بعض العلماء: «المتفرد بالوجود هو الله سبحانه، إذ ليس موجود معه سواه. فإن ما سواه أثر من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم به فلم يكن موجود معه. لأن المعية توجب المساواة في المرتبة والمساواة في المرتبة نقصان في الكمال. بل الكمال لمن لا نظير له في رتبته وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاً في الشمس بل هو من جملة كماله وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في المرتبة، كذلك وجود العالم

(١) أي كيف أصف الله تعالى.

كله إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً. إذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال».

على أن في هذا التشبيه نظراً، يجب أن لا يفوت القارىء اللبيب، ذلك لأن الشمس باشعاعها وإشراق ضوئها (أو نورها) تفقد طاقة، وليس الله تعالى كذلك، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

إن الله تعالى يقول: ﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾. ذلك لأن كل إله يريد ما لا يريده الآخر. وهذا مما يؤدي إلى الاختلاف والفساد في النظم التي تربط الأرض بالسماء. وان توافق الالهان، فإن تأثير أحدهما كافٍ لايجاد ووجود هذا الكون. فيمنع تأثير الآخر فيه مرة أخرى. مع ما هنالك من اتصال وثيق بين ما نراه من دساتير فيزيائية وفلكية في السماء والأرض تربط البعض بالآخر ربطاً وثيقاً لا يجعل مجالاً للشك بأن المرتب واحد لا شريك له:

﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، إله مع الله، بل هم قوم يعدلون، أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، إله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (النمل: ٦٢).

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام في وصاياه: «واعلم يا بني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه اله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً».

وان الله وهو الكامل على الاطلاق قد أخبر عن نفسه: أنه واحد لا شريك له. «ومن أصدق من الله قيلاً».

وقد ذكر الصدوق قدس سره في كتاب التوحيد: «أن اعرابياً قام يوم

---

(١) سورة الشورى: ١٠.

الجمل إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول أن الله واحد؟ فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟ فقال أمير المؤمنين دعوه، فإن الذي يريده هو الذي نريده من القوم.

ثم قال: يا أعرابي أن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوز على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه. فأما اللذان لا يجوز فقول القائل: واحد، يقصد به باب الأعداد. فهذا لا يجوز. لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، ألا ترى كفر من قال: «ثالث ثلاثة».

وقول القائل: هو واحد الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه. لأنه تشبيه، وجل ربنا عن ذلك وتعالى.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: انه واحد ليس له في الأشياء شبيه، كذلك ربنا... وقول القائل: انه عز وجل أحدي المعنى، يعني بأنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا عز وجل.

غريب أمر هذا الانسان، كان فاقداً جميع ما عليه الآن من ملكات وقوى. ولولا أن الله تعالى منَّ عليه بهذا الفكر لكان حيواناً أو جماداً. فهو يفكر ويدبر بقدر ما أوتي من جانب الله تعالى من قوى.

فمن السخافة أن أراد هذا الانسان أن يعلم كيف أعطاه الله هذا المقدار من الفكر، وكيف هو علم الله، وكيف قدرته، وكيف يقول للشيء كن فيكون... وهو لا يحمل إلا هذا الشيء القليل المحدود من الفكر بفضله تعالى. وإذا سلط الله على عقله جرثومة ضئيلة لأمسى مجنوناً ومهزلة للناس أجمعين. إلا أن الله يمهل ويؤخر هؤلاء المغرورين من الماديين المتحجرة عقولهم: (تلك العقول التي كانت مضيئة بالفطرة)، لظلمات في النفس، جاءتهم من جراء شتى المعاصي، يؤخرهم: ﴿ليوم تشخص[1] فيه الأبصار.

---

(١) تفتح فيه الأبصار فلا تغمض هولاً وفزعاً.

مهطعين[1] مقنعي[2] رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم[3] وأفئدتهم هواء﴾. (سورة ابراهيم: ٤٤).

وهو القائل: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون. يوم يخرجون من الأجداث[4] سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون[5] خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾[6].

يقول الامام محمد الباقر الامام الخامس عليه الصلاة والسلام: «ما سمي (يعني الله تعالى) عالماً قادراً إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين. وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع من قبلكم مردود اليكم». ومعنى ذلك أن هذا الانسان الناقص يتصور تبارك وتعالى كمالاً يتناسب مع نقصه. لأن الناقص لا يترشح منه إلا شيء ناقص. كما أن الكامل وهو الله تعالى لا يترشح منه إلا الكمال. فكلما فكر الانسان في الله تعالى لا يتجاوز تفكيره حدوداً معينة محدودة تقل عن الواقع مسافات لا تحد. فأفكارنا بشأن عظمة الخالق أفكار ناقصة مخلوقة من قبلنا مردودة الينا، لا توافق الواقع في شيء.

وقال بعضهم: لعل النمل الصغار تتوهم أن الله تعالى زبانيين، لأنهما كمالها، وتتصور أن عدمهما نقصان. هكذا حال بعض الناس في وصف خالقهم!.

* * *

قد اختلف جماعة من اللاهوتيين والأخلاقيين والعقليين والماديين في ما هم عليه من عقائد ونزعات. فأحبوا أن يتحاكموا إلى (آينشتاين) ليروا رأيه

---

(١) مسرعين.

(٢) رافعيها إلى السماء.

(٣) أي لا تطرف أعينهم بل تبقى شاخصة.

(٤) القبور.

(٥) إلى نصب: إلى كل ما ينصب للعبادة. يوفضون يسرعون.

(٦) سورة المعارج: ٤٢.

في الله جل جلاله. فأجاز لهم أن يمكثوا عنده ١٥ دقيقة لكثرة أشغاله. فعرضوا عليه سؤالهم قائلين: ما رأيك في الله؟.

فأجاب قائلًا: «لو وفقت أن أكتشف آلة تمكنني من التكلم مع الميكروبات، فتكلمت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات رأس انسان وسألته أين تجد نفسك؟ لقال لي: أني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. عند ذلك أقول له: ان هذه الشعرة التي أنت على رأسها إنما هي شعرة من شعرات رأس انسان، وان الرأس عضو من أعضاء هذا الانسان ـ ماذا تنظرون؟ هل لهذا الميكروب المتناهي في الصغر أن يتصور جسامة الانسان وكبره؟ كلا، أني بالنسبة إلى الله تعالى لأقل وأحط من ذلك الميكروب بمقدار لا يتناهى. فأنى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء بقوى لا تتناهى وعظمة لا تحد».

فقام هؤلاء المتشاجرون من عند (آينشتاين) وعلموا أن الحق مع جماعة اللاهوتيين. أنه تعالى يقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾[2].

إن المادي هو مصداق هذه الآية المباركة: ﴿ان الانسان لربه لكنود[3]، وانه على ذلك لشهيد، وانه لحب الخير الشديد﴾.

* * *

ما أعظم ما يقوله علي (ع) حين يصف عظمة الله تعالى بقوله: «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون؛ ولا يؤدي حقه المجتهدون. الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود».

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٤.

(٢) سورة النساء: ١٢٦.

(٣) كنود: كفور، يجحد نعمة الله.

مالبرانش: (Malobranche) (١٦٣٨ ـ ١٧١٥ م) فيلسوف فرنسي موحد.
له نظريات في التوحيد، لا بأس بذكر البعض منها:

انه يقول: نحن ننتقل من فكر إلى فكر، ومن تصور إلى آخر، ومن ممكن إلى ممكن، حتى ننتهي بوجود عظيم، ممتنع ادراكه تماماً لعظمته ويستحيل معرفته معرفة تامة لعدم تناهيه. ذلك لأن كل موجود من الموجودات (سواه) قائم به. أما هو، فمستغن عن أي مقوِّم. وهو قائم بذاته منذ الأزل. وهذا الوجود (أي الله تعالى) وجود لا نهائي.

انه يقول: بما أني في استطاعتي أن أتصور وجوداً لا نهائياً، إذن وجب أن يكون هذا الوجود موجوداً، لأنه لا يمكن تصور شيء معدوم[1]. اذن، ربنا غير متناه ولا يحده شيء. ذلك لأني استطيع أن أتصور اللانهائي بقدرته. فالله هو واجب الوجود.

انه يقول: لا يمكن رؤية الله تعالى ولا فهمه حق الفهم ولا تفهيمه حق التفهيم. ويكفي في يقيننا أننا نؤمن بوجوده بآثاره.

أنه يقول: «نحن ندرك وجود الله دونما واسطة، حين أن الأشياء كلها (عدا الله تعالى) إنما تدرك به تعالى وبما أودع الله من وسائط وأدوات. فلا حاجة لتجلي مفهوم الله تعالى في أذهاننا إلى واسطة أو أدوات. نحن لا نعرف الله بفكر وسيط. فانه هو الفكر! وهو فكر الأفكار ومعطي الأفكار».

هذا ما يقوله مالبرانش. ولكن، انظروا إلى ما يقوله سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المقام في دعاء الصباح حين يخاطب رب العباد. أنه صلوات الله عليه يقول:

«يا من دلَّ على ذاته بذاته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته وجلَّ عن ملائمة كيفياته».

---

(١) خلافاً لما يقوله (فورباخ) المادي، حيث جعل ما هو دليل وجود الله دليلاً على عدمه، لظلمات في نفسه. وقد سئل صديق لي عن الدليل على وجود الباري. فقال: «سؤالك هذا خير دليل على وجود الله».

على أن لـ (مالبرانش) في القضاء والقدر ومسائل أخرى نظريات لا تتفق مع الواقع وما جاء في الدين الاسلامي. وأنى لفيلسوف لم يستق الحقائق من خزائن آل الرسول سلام الله عليهم أجمعين أن يصل إلى حقائق ثابتة غير متزلزلة.

ان (مالبرانش) يوافق صدر المتألّهين صاحب الأسفار بقوله: «الوجود خير محض والشر أمر عدمي».

فطوبى لنفوس لازمت التقوى وجانبت الآثام وسفاسف الأمـور حتى المكروهات فتجلت فيها الحقائق بفضل منه تعالى واضحة جلية، لا غبار عليها ولا شكوك، فعرجت إلى عوالم القدس والحقيقة الأبدية...

فقد قال علي عليه السلام: «ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهـدى في قلبه».

وطوبى لنفوس تطلعت إلى رحمات الله تعالى باخلاص وخشوع وأعمال صالحات، فقد جاء في الحديث القدسي: «ان لربكم في أيام دهـركم لنفحات، ألا فتعرَّضوا لها»!...

لا تقاس الناس بالمال ولا بالجاه ولا بعلم لا يعمل به. بل تقاس بدرجة معرفتها خالقها أو بدرجة تزكيتها نفوسها. ولا تـزكو النفـوس إلا بالتقوى. فتتعرف إلى الخالق سبحانه بدرجة ما تقوم به من تزكية. ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. وفي الحديث: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، لو أقسم على الله لأبرَّه».

* * *

إن مقياس الكمال عند الماديين هو: المادة!... فمن كانت مادته من حيث المال والجاه أعظم، كان إلى الكمال أقرب. لذلك يخاطب (فرعون) قومه هؤلاء الذين لم تفد فيهم دعوة موسى عليه السلام لفسوقهم وفجورهم كما تخبرنا الآية الآتية: ﴿ونادى فرعون في قومه، قال: يا قوم، أليس لي ملك مصر. وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون، أم أنا خير من

هذا الذي هو مهين. ولا يكاد يبين، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين، فاستخفَّ قومه فأطاعوه، انهم كانوا قوماً فاسقين﴾[1]. حين أنه لا قيمة للدنيا ولا للمادة، عند الله تعالى، في مجالات التكامل. فان النفس غير المادة بل تضاد المادة: ﴿الدنيا والآخرة ضرتان﴾. إلا أن المادة تؤثر في الكمال النفسي إذا وقعت وسيلة خير وعطف ورفع حاجة الآخرين لوجه الله. وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء». والكافر هو الجاحد لنعم الله، الذي لا يقوم بما أوجب الله عليه من واجب الشكر: من عبادات وأعمال صالحات. وهل هناك دين يعلم البشر كيفية القيام بواجب الشكر كدين الاسلام. ولذلك عد غير المعتنق لدين الاسلام وغير العامل به كافراً. ﴿ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾. (سورة آل عمران: ٧٩).

يرى الأستاذ جب: «أن الاسلام ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة. بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية».

ويقرر الأستاذ (برج): أن فلسفة الاسلام الاجتماعية تقوم دائماً على وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية. وذلك على عكس أوروبا التي تزعم أنها مسيحية. ويقرر في موضع آخر أن مبدأ الأخاء الانساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الاسلام. ولذلك يؤكد الأستاذ أن ليس هناك مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للاسلام في توحيد الأجناس الانسانية المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة. ويرى الأستاذ أن لا بد لأوروبا أن تتعاون مع الاسلام في سبيل تقدمها الروحي والثقافي.

---

(١) سورة الزخرف: ٥٠ ـ ٥٣.

هل هناك تولد ذاتي؟

قد برهنت العلوم الطبيعية على أن ليس للبيئة أو الطبيعة أدنى أثر أو تأثير في خلق البشر أو الكائنات الحية، وأن الكائنات الحية برمتها قد وجدت بالقدرة الالهية المتجلية في فعالية النطفة والعوامل الوراثية (جينات(Génes والكروموزومات.

إن ثلة من الناس (ومع الأسف) كانوا يظنون أن البيئة هي الخلاقة لبعض الحشرات أو الحيوانات. وكانوا يعتقدون أنه لو وضعت لبنتان نديتان احداهما فوق الأخرى تتولد بعد مدة يسيرة عقارب كثيرة بينهما.

إن هذه العقيدة كانت سائدة من لدن عهد (أرسطو) إلى القرن السابع عشر. وان بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الديدان والضفادع والعلق تتولد من تلقاء أنفسها في اللحوم الفاسدة العفنة أو في المياه النتنة الآسنة. ويظن البعض أن البيئة هي الخالقة لهذه الكائنات الحية، وهذا ما يسمى بنظرية التولد الذاتي: (Gènération Spontanée) .

كما أن البعض يظنون أن (الأميبات) أو الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة والأسماك والقواقع وغيرها إنما تتولد في المياه بتأثير حرارة الشمس وضوئها ومواد أخرى موجودة في الماء. ودليلهم على ذلك أن السمكة لو اخرجت من الماء، فأنها تموت حالاً.

ولقد برهن العلم الحديث على أن البيئة ليست بخلاقة للحياة وإنما هي عامل مساعد للنمو واستمرار الحياة. فقد أثبت (ردي Redi) سنة ١٦٨٨ م، بعد إجراء تجارب عدة عميقة. أن الديدان التي تتولد في اللحوم العفنة إنما تتولد من بويضات الذباب الموجودة في اللحوم، ولولا هذه البويضات لما وجد كائن حي.

كان يقول الطبيب البلجيكي (وان هلمونتVan Helmont) قبل (٣٥٠)

سنة: أنه لو مليء كوز بالدقيق وسد فوهة الكوز بقماش بال ملوث عتيق، فإن الفأرة تتولد في وسط ذلك الدقيق. وان هذه الفأرة تأخذ بالتوالد بعد ذلك شيئاً فشيئاً.

إلا أن (ردي) فنَّد هذه النظرية: بأن جاء بدورق زجاجي ذي عنق ملتوٍ طويلٍ، بعد أن وضع فيه قطع لحم، فعقم داخل الدورق وسد فوهته سداً محكماً. وجاء أيضاً بدورق آخر وضع فيه قطعة لحم ولم يسد فوهته، فرأى أن الديدان تتولد في اللحم الذي وضع في الدورق المفتوح فقط من جراء ما تضعه الذباب من بويضات على اللحم. وقد أجرى هذه التجربة مع لحوم مختلفة ومتنوعة فرأى أنه يتولد نوع واحد من الذباب مهما اختلفت اللحوم وتنوعت، وفي نوع واحد من اللحم تتولد أنواع مختلفة من الذباب لاختلاف البويضات التي تقع على ذلك اللحم من الخارج. فأثبت بهذه التجربة أن التوالد الذاتي فكرة سخيفة وأن التولد لا يكون إلا عن بويضة سابقة أو تلقيح سابق: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له: ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾. (سورة الحج: ٧٢).

ثم أن (ليون هوك(Leewen Hoek) اكتشف المجهرMicroscope واكتشف بذلك الميكروبات (الجراثيم الحية) التي لا ترى بالعين المجردة. وضع (ليون هوك) قطرة ماء تحت مجهره فرأى أن الأحياء المجهرية: (الابتدائيات ذات الخلية الواحدة) تسير في هذه القطرة يميناً ويساراً. فأدى ذلك إلى تنازل الماديين عن رأيهم السابق بالنسبة إلى تكون الحيوانات والحشرات من البيئة أو بتأثير البيئة والمحيط. ولكنهم أخذوا يقولون بعد ذلك: ان المكروبات والكائنات الحية تتولد من تلقاء أنفسها في المياه العفنة.

ولقد حدث شجار عنيف بين الموحدين والماديين:(Matérialistes) منذ سنة ١٦٧٦ م. وهي السنة التي أثبت فيها (ليون هوك) أن ليس في المطر (حين تحول البخار إلى سائل) كائنات حية، وإنما تدخل فيه كائنات حية حين هطوله وملاقاته (أي المطر) الأرض واختلاطه بالغبار والتراب. واستمرت إلى سنة ١٨٧٦ م وهي السنة التي أيد فيها تندال(Tyndall) نظرية هوك. حتى

جاء (باستور) وبرهن بصورة قطعية، أن لا تولد ولا توالد إلا من كائنات حية سابقة وأن الكائنات الحية هي موجودات مستقلة تدخل في المطر من الخارج عند هطوله أو بعد سقوطه على الأرض وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً. ففندت نظرية التولد الذاتي تفنيداً قطعياً. مع ذلك، جاء (برتلوBerthelot) فادعى أن الكائنات الحية(Bactéris) التي تحصل نتيجة تخمير العنب إنما هو أمر مادي وليس هناك موجودات حية سابقة كانت سبباً لوجود هذه الكائنات الحية. وقال بالتكون الذاتي(Autodynamisme) أو الحركة الذاتية. ولكن (باستور) قام بتجربة على أشجار العنب تشبه تجربته السابقة من حيث التعقيم ومنع تسرب كائنات حية من الخارج. فأرى أنه لا تحصل (باكتري) أو جراثيم للتخمير. وأن (الخلايا: Cellules) التي توجب التخمير إنما تقع على حبات العنب من الخارج قبل النضج والحلوان بأيام وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً أبداً.

لكن الماديين ما برحوا ينتهزون الفرص لاثبات نظريتهم السقيمة. حتى إذا اكتشف المجهر الالكتروني(Microscope Electroniqe) وتمكن العلماء من معاينة الجراثيم ما بعد الذرية(Ultravirousses) التي كل واحدة منها أصغر من حبة الدخن (٧٠٠٠٠) أو مائة ألف مرة، أخذوا يقولون: «إن هذه الجراثيم إنما تتولد من المادةالميتة نفسها وليس هناك عامل حيوي أو موجود حي سابق تولدت منه وان الأحياء المترشحة وما بعد المترشحة(Virous, Utltra virous) إنما هي مواد كيميائية سامة وليست هناك حيوية سابقة». وتنازلوا عن القول بأن الفأرة تتولد من مادة ميتة! ولكنهم بقوا مصرين على أن الحيوية إنما تأتي من الشمس على وجه الأرض وإن الأحياء المترشحة وما بعد المترشحة (الجراثيم ما بعد الذرية) هي مولودة المحيط والبيئة وان البيئة (الجامدة الصماء) هي المولدة لها!.

إلا أن علماء الأحياء برهنوا على فساد هذه النظرية أيضاً بتجارب دقيقة أخرى، وأخفق الماديون إخفاقاً نهائياً، وعلم أن كل كائن حي إنما يتولد من كائن حي آخر أو بانتقال النطفة بالتلقيح.

إذا كانت نظرية التولد الذاتي صحيحة وأن التفاعل الكيميائي وأشعة الشمس وذرات آلفا وكاما وأمواج كاسميك وما فوق البنفسجي وآزوت وبخار

الماء وغيرها تكفي لحدوث الحياة على وجه الأرض دون خالق للحياة والحيوية لزم أن نرى رأس قرد مثلاً يتشكل في القفار والصحارى بصورة تدريجية، ثم تتشكل له ساق فأطراف وهكذا. . .

فعلم من كل ذلك أن ليس للبيئة أن تخلق كائناً حياً وان الحيوية شيء قد جاء من الخارج وليس بأمر مادي بحت. وإن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الكائنات الحية وأعطاها نفساً وروحاً بقدرته ولا يمكن ادخال النفس والروح في المعادلات الكيميائية أو التحليلات الرياضية. ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

وزيادة في التوضيح نقول: انا لو ملأنا حوضاً كبيراً بالماء واتخذنا الاحتياطات اللازمة لعدم دخول بويضات السمك أو الضفدع فيه، فلا نشاهد، مهما انتظرنا، سمكة أو ضفدعاً في ذلك الحوض وإن طالت الأعوام. مع أن الشمس على ما يعتقده الماديون: (أنها أساس الحياة وموجدها) تعمل عملها وترسل أشعتها. ولكنها غير خالقة للحياة، بل الشمس عامل من عوامل النمو واستمرار الحياة على هذا الترتيب الذي نراه.

إن الماديين: هذه الطبقة الجاحدة وجود الخالق! يحاولون أن يجعلوا العوامل الطبيعية المادية مبدءاً وسبباً للحيوية والحياة. الا أن العلم يخالفهم في طيشهم وهذيانهم وضلالهم وهم ينسبون (ومع الأسف) نظرياتهم الفاسدة إلى العلم، والعلم من ذلك براء.

وكم من أشياء ينسبها هؤلاء إلى العلم ويدعون أنها نتيجة درس وتمحيص علمي والعلم بعيد عنها كل البعد: ﴿انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. ويراد بها النفوس.

وما يقال عن تبديل الطاقة بالمادة(Matérialisation) إنما هو في النواحي المادية فحسب. ان الطاقات المادية الكهربائية أو الحرارية أو الحركية. وغيرها تتكدس فتشكل مادة، وهذا لا يعني أن هذه الطاقات المشعة مثلاً من الأورانيوم أو الراديوم تتكدس فتولد حيوية وروحاً ونفساً. وقد ثبت في

الفسلجة أن الخلية(Cellule) إنما تتولد من خلية حية أخرى إذن ثبت أن الروح من أمره تعالى، ﴿قل الروح من أمر ربي﴾.

يستنتج مما تقدم أن المادة لا عقل لها كي ترتب وتنظم ولا منطق لها لتفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه. وما أعظم قوله تعالى حين يقول: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون، ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء، ما يمسكهن إلا الله، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وما القمر الصناعي إلا نتيجة فكر أودعه الله في بعض عباده ومواد وعناصر أودعها الله في أرضه وتوالي أيادي كثيرة من العلماء منذ ٤٠٠ سنة قبل الميلاد إلى يومنا هذا. وهل قوبل هذا الفوز والاكتشاف بالشكر؟ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

ولقد قالوا: ان المثل العليا تابعة إلى ما يحدث من نظم اقتصادية وكذا الحياة الاجتماعية نتيجة من نتائج الوضع الاقتصادي!. وهكذا تسافلت البشرية نفسياً من جراء تركها ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع) حتى صارت لا تؤمن إلا بالمادة وما يحقق شهواتها. فأمست فلسفتها فلسفة بهيمية. فلسفتها أن تقول: «لا تهمني أخلاق فلان وإنما تهمني أعماله». حتى أمست تعتقد أن هنالك تنافياً بين ركوب الطائرة أو الاستماع إلى المذياع أو النظر إلى التلفزيون[1]، وبين السمو بالنفس إلى أعلى مراتب الكمال حسب ما رسمه الله لنا في قرآنه الكريم.

حتى أمست أمريكا بلد الحرية الشخصية المطلقة! والبلد الذي نادت بفصل الفضائل والأخلاق عن الحياة العملية تفصل ٣٣ موظفاً في وزارة خارجيتها لاصابتهم بالشذوذ الجنسي! لأن هؤلاء لا يمكن ائتمانهم على أسرار الدولة!.

حتى أمسى الولد الثري لا ينفق على أبويه العاجزين!.

---

(١) في ما لا يثير الشهوات ويؤدي إلى تسافل النفس وترك ذكر الله تعالى من أغانٍ ومناظر.

حتى أن جلسة من جلسات الكونكرس(Congress) الأمريكي تتعطل، لأن امرأة كانت تسكن في عمارة مواجهة للمجلس وقفت في شرفتها عارية تماماً، لا يستر جسدها شيء، فينشغل الأعضاء بفتنتها الشيطانية وتتعطل أعمال الدولة، ريثما يبعث رئيس المجلس يرجو، السيدة الفاضلة أن تدخل غرفتها أو تكتسي شيئاً، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم.

حتى تأتي فتاة أمريكية إلى باريس فتنزع ثيابها كاملة وتضعها في حقيبة لها يدوية وتمشي وهي عارية في شوارع باريس لتري الناس الدرجة التي وصلت اليها أمريكا في الحرية والتقدم الخلقي!.

كل ذلك من جراء هذا الاختلاط البريء! والانتهاء إلى فساد وإفساد في الأرض. ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنَّ، بل أتيناهم بذكرهم، فهم عن ذكرهم معرضون﴾[1].

فطوبى لنفوس اتبعت الحق والواقع وترفعت عن أدران المادة العمياء والملذات المميتة للنفوس واستجابت لله وللرسول لما فيه حياتها وسعادتها في الدارين:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنكم إليه تحشرون﴾ (سورة الأنفال: ٢٤).

* * *

تكاد لا تجد فيلسوفاً، درس الرياضيات العالية أو الفيزياء الرياضية العالية أو الفلك العالي وتوغل فيها، ملحداً ينكر وجود الخالق. فـ(بركسون) و (أينشتين) و (كاميل فلامريون) وأمثالهم موحدون. ذلك لأنه عندما يرى أحدهم أن جميع أجزاء الكون مرتبطة بعضها ببعض بدساتير رياضية متقنة، وأن الرياضيات مفتاح فهم ظواهر الطبيعة، عند ذلك يعلم أنه لا بد من عاقل قد ربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض. وان هذا العاقل الجبار هو

---

(١) سورة المؤمنون: ٧٣.

الله تعالى: واهب الوجود ومرتب أجزاء هذا الوجود ترتيباً محكماً بقوانين رياضية رصينة لم يصل العلم الحديث إلا إلى جزء ضئيل وضئيل منها جداً.

لذلك كان يحاول (أينشتين) أن يستنبط من معادلة المجال المتواصل وحدها عموم الفيزياء بما فيها عالم الذرات والخصائص الكمومية (Quantiques).

وكان يقول: «لولا الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا لما قامت للعلم قائمة. فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل اكتشاف علمي وسيبقى كذلك إلى الأبد».

وهو القائل: «ما من شك أن كل بحث علمي عميق يقوم على عقيدة تشبه الشعور الديني: مؤداه أن العالم مؤسس على العقل ومن الممكن تفهمه».

لكن الفلاسفة الذين رسبوا كثيراً في الرياضيات في تحصيلهم الابتدائي والثانوي وفروا من الرياضيات العالية لعدم فهمهم لها، وإنما صاروا يذكرون اصطلاحات منها في كتبهم، أخذوا يصدرون أحكاماً جزافاً عن الكون دون إرجاعها إلى أصول ثابتة رياضية ومبادىء عقلية عميقة وسموا إعتباطاً نظرياتهم الفاسدة بل أهواءهم فلسفة! وجاؤا باصطلاحات جديدة لا يؤيدها العلم، فخدعوا العوام والسذج من الناس.

إن هؤلاء الذين لا يقبلون نقاشاً لهذيانهم، صاروا يأخذون الفلسفة من وسطها وبيد واحدة ـ ان هؤلاء، بنفوسهم الملوثة وصفاتهم الذميمة وما يترشح من هاتين، شوشوا على الناس الحقائق الفطرية الحقة وأفسدوا على ثلة من عباد الله عقائدهم بالمبدأ الأعلى. انهم اخفقوا في النمو وكسب الشهرة والصيت في الأوساط العلمية، فعمدوا إلى ترويج الزيغ والالحاد وما يترشح من نفوسهم المتسافلة: «وكل إناء ناضح بالذي فيه».

القصور الذاتي

القصور الذاتي أو الاستمرارية(Inertie) موضوع معروف في الفيزياء، يعترف به الفيزياويون وهو: أن الجسم لو كان ساكناً لبقي ساكناً على حالته الأصلية، فلا يتحرك من تلقاء نفسه إلا بمحرك آخر، ومع ذلك يحاول أن يبقى على حالته السابقة. لذلك لو كنت جالساً في قطار ساكناً، والقطار ساكن وتحرك القطار بسرعة، تأخر القسم الأعلى من بدنك في متابعة حركة القطار عن القسم الملتصق بسطح القطار. كل ذلك ليحافظ على سكونه أي على حالته السابقة. فإذا استمر القطار في حركته أخذ بدنك يتحرك مع القطار. فان وقف القطار فجأة، فان القسم الأعلى من بدنك ليحافظ على حالته السابقة (أي الحركة)، فيتحرك قليلاً إلى الامام عند وقوف القطار فجأة.

مثال آخر: أنا لو وضعنا فوق اناء (كأس) قطعة من المقوى (الورق السميك) ووضعنا على المقوى درهماً مثلاً، وسحبنا المقوى بسرعة نرى أن الدرهم لا يتابع الحركة الفجائية بل يحاول أن يحافظ على حالته السابقة أي على سكونه فيسقط في الاناء.

كان الأتراك يسمون القصور الذاتي بـ(العطالة). ذلك لأن كل جسم في ذاته عاطل لا يقوى على تغيير في ذاته، فالساكن ساكن إلى أن يحركه غيره والمتحرك يبقى على تحركه وعلى نفس السرعة التي يتحرك بها إلى أن تتدخل قوة، فتزيد من سرعته أو تنقصها. فالشيء بذاته عاطل لا يؤثر في نفسه كرجل عاطل لا خير فيه. ﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير أنك على كل شيء قدير﴾[1].

يقول زين العابدين علي بن الحسين (ع) في دعاء علمه أبا حمزة الثمالي:

---

(١) سورة آل عمران: ٢٥.

«من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك، ولا الذي أساء واجترأ عليك خرج عن قدرتك».

فالأشياء جميعها فيها قصور ذاتي، فلا تتمكن من أن تؤثر في نفسها. بل تبقى عاطلة أو محافظة على ما هي عليه من حالة سابقة: سكون أو حركة. فإذا كان علم الفيزياء يعترف بذلك، فما بال من يتصور للنبات والحيوان حركة تكاملية ذاتية من تلقاء نفسها! وأنها هي التي تكمل اعضاءها بنفسها أو تتكامل من آميبا حتى يكون قرداً! مثلاً مع اعترافه عند دراسته الفيزياء بالقصور الذاتي. ثم إذا كان الآميبا قد تكامل (ولا مؤثر ولا مكمل إلا الله) فصار دجاجة فما بال الآميبا نراه موجوداً ليومنا هذا مع اتحاد الظروف. ومن الذي أوجد الظروف وكيف وجدت، ومن جاء باختلاف الظروف؟ ومن الموجد لها الاختلاف؟.

وإذا كان الانسان (مع اعترافهم أن فيه عقلاً لا يدري كيف جهز به) هو نتيجة تكامل القرد، فما بال القرد موجود ليومنا هذا مع اتحاد الظروف، على أنهم يقولون: أن هناك حلقة مفقودة بين القرد والانسان يجهلها العلم. فكيف تبنى النظرية على الجهل! ثم أن هذا القرد كيف فكر أن يدفع عنه ذنبه ويجعل بدنه على شكل انسان! وقد ثبت أن لا أثر للمحيط في إيجاد عضو ما.

وغني عن البيان أن محو الذنب عمل جبار لا يقوى عليه الانسان العبقري، فكيف بهذا القرد الذي لا يتمكن من دفع أقل مكروه عن نفسه. ولما لم يجهز القرد نفسه بوسائل من الدفاع إذا كان يستطيع أن يخلق أعضاء ويغير أعضاء ويحذف أعضاء. ﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا﴾.

وأما ما يقال عن الطفرة (Mutation) فإن مؤهلاتها وموجباتها وإمكانياتها إنما جاءت من الخارج. ثم إن كانت هذه الطفرة هي من تلقاء الكائن الحي، فلِمَ لا يغير هذا الكائن الحي في جسمه ما يزيل به عنه حاجاته، ولم لا يجهز نفسه بأعضاء يقوى بواسطتها على ابصار وسماع... الخ اكثر مما هي عليه

الآن كي لا يحتاج إلى صنع آلات يستعين بها في ابصار ما لا يبصر بعينه المجردة، كالتلسكوب والميكروسكوب... الخ. ان الله تعالى يقول: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات، فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾. (سورة النحل: ٦٨، ٦٩).

ولكن الاجرام والمظالم تسد على الانسان أبواب الاعتبار بآيات الله والتدبر والتفكر، فيعزو الخوارق إلى الطبيعة العمياء الصماء: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته، أنه لا يفلح الظالمون﴾. (سورة الأنعام الآية: ٢١).

فالظالم هو الذي سد على هذا البشر المجرم الباغي آفاق الاهتداء، فصار يفتري على الله الكذب ويكذب بآياته وكتبه ورسله. فليتنه عن اجرامه من يشك أن ترك الاجرام وأن الانابة والاستغفار والأعمال الصالحات تفتح على الانسان أبواب الهداية، ليرى كيف تنقشع عنه الشكوك، فيعود الايمان الفطري إليه وتطمئن نفسه بما أنزل الله من آيات. ﴿ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب﴾.

* * *

عرفت رجلاً قد لوث نفسه في صباه وفي شبابه وفي شيخوخته، ولم يوفق إلى التكفير عن ذنوبه ولا إلى توبة ما. انه لم يدع منكراً إلا وقد ارتكبه. كان مجموعة ظلم وبغي وجشع، فصرت أعقب حياته، وإذا به أمسى جرثومة فساد، ينكر وجود الباري جل جلاله، ويستدل على ذلك بأدلته الواهية!. ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[1]. ولكن الله أراد أن يعذبه في الدنيا (ولعذاب الآخرة أشد). فحكم عليه بالاعدام، فطلب وهو في السجن مصحفاً يتبرك به ويجعله شفيعاً لينجو من العقاب، ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾، ﴿إنما

---

(١) سورة الروم: ٩.

التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار. أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾[1].

أعدم هذا الطاغي وقد شوهد وجهه على المغتسل مسوداً كريهاً بعد أن كان أبيض ناصعاً. ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾[2].

وكم شوهد من أشخاص حالة الاحتضار اسودت وجوههم من جراء أعمالهم في الدنيا وما يحملونه من عقائد فاسدة، وكم شوهد أشخاص ابيضت وجوهم حالة الاحتضار: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم﴾. ﴿الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا﴾.

فالفيلسوف أو المتتبع هو ذلك الذي يعقب بدقة حالات بعض الناس وأعمالهم من خير وشر دونما تجسس، يتتبع ذلك في أدوار الحياة المختلفة ليرى كيف أن الجرائم والموبقات والنزوات تؤدي إلى إنسحاب الفطرة وزوال العقيدة، فالالحاد، فالزندقة.

ولقائل أن يقول: لو بلغ هذا الفيلسوف مرتبة من التسافل وضعة في النفس حتى أمسى في نظره المنكر معروفاً والمعروف منكراً، لا يستطيع إذ ذاك، القيام بهذه التجربة كي يوفق بين عقيدة الانسان وسلوكه! . لأنه قد بلغ حداً من التردي حتى ضاعت لديه الموازين: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

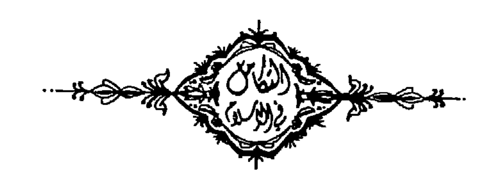
نعم، قد يبلغ بالشخص التسافل مرتبة لا يشعر معها بما هو فيه من ترد مرير. فيأتي دور الاستهزاء بمن لا يوافقه في سلوكه وهذيانه! فيصمه بالخرافة والرجعية والجهل! .

(١) النساء: ٢٢.

(٢) الزمر: ٦٠.

أسفاً على بعض أفراد هذا البشر حين يسمي أحدهم المعارف الالهية والتدبر في آيات الله الكونية جهلاً وخرافة!!.

انها لعمري فلسفة شيطانية! فلسفة رجعية! ترجع بالفرد إلى جاهلية جهلاء. فيظن، بل يوقن قد بلغ من التفكير والوصول إلى الواقع مرتبة لا تقبل الرد والنقاش! ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام: ١٢٢).



معالجة الشكوك

لا يخلو شخص من شك في حياته عدا الأنبياء والمعصومين عليهم السلام. وما جاء في القرآن من آيات بهذا الشأن: ﴿لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ إنما هو لمزيد اليقين وتنبيه الآخرين. ذلك لأنه ليس هناك أحد عدا المعصومين (ع) إلا وقد أذنب في حياته ذنوباً من غيبة أو نميمة أو كذب أو بهتان أو افتراء أو ازدراء لأخيه المؤمن أو كبر أو حسد أو بخل أو لهو أو فسق أو أكل مال الغير أو الربا أو غير ذلك. وان هذه الذنوب لها أثرها الفعال في تحريف النفس الانسانية عن الفطرة. وان الشيطان أيضاً لعامل مهم في هذا المضمار. يملي على الانسان، ان سيطر عليه من جراء ذنوب اقترفها، أنواع الريب والشكوك. وقد قال الله تعالى عنه: «ولأضلنهم ولأمنينهم». وفي موضع آخر: ﴿لأزيِّننَّ لهم في الأرض ولأغوينَّهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (الحجر: ٤٠). فمن خالف الشيطان في إغواآته اهتدى ومن وافقه هلك: ﴿فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾. إلا أن المادي لا يعترف بوجود الشيطان مع اعترافه بأشياء كثيرة لا ترى بالحواس كالأمواج الهرتزية والألكترون إلى ما هنالك. وكذلك لا يعترف المادي بوجود الجن وما هو غير مادي، مع اعترافه بقوة الجاذبية والكهربائية والعقل الانساني!.

لقد قال لي صديق وكان ممن يحرص على الدين ويتوجه إلى الحق: «ان من الأدلة القطعية على أحقية ما أنا فيه من عقيدة اسلامية ومبدأ صحيح ما يعتريني من شكوك من حين لآخر». كان يقول: «أني أشك في معتقداتي في وجود الحجة القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه، أشك في النبوّات... إلى ما هنالك، فيصيبني حزن وانقباض عميقان وأشعر بكآبة لا أستطيع وصفها. وأعلم إذ ذاك أن شيطاناً يريد أن يغويني ويزيل عني ما أنا فيه من حسن العقيدة والمبدأ. فاستغفر الله من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها أدعو الله

بفنون الدعوات، أتصدَّق وأصلي وأصل رحمي وأقوم ببعض الأعمال الصالحة وإذا بالشكوك تنكشف وتزول ويصيبني بعد ذلك فرح وابتهاج عميقان.. كان يقول: هل رأيت أحداً من أهل الباطل أصابه شك في ما يعتقد. ذلك لأن الشيطان يرتضي له ذلك ويؤيد له ما هو فيه. كان يقول: أني عاشرت أصحاب عقائد فاسدة، وسبرت أعمالهم فعلمت أن أعمالهم تلك، هي التي أوصلتهم إلى هذه العقائد منحرفة عن الحق، وكنت أرى أنه لا يصيبهم شك في ما يعتقدون من عقائد منحرفة عن الحق، ما داموا لم يزكّوا أنفسهم وما وما أمر به الشرع، فهذا لا يخلو من حالين. أما له أعمال صالحة سرية لا نعلمها تربو على عمله الفاسد: ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾. وأما هو سائر نحو الظلمات بعد قليل ومآله الخسران. على أن هناك أيضاً عوامل أخرى ضمن رحمة الله وعدالته وعظيم فضله، لا نعلمها.

لا أعلم، هل قام علماء (آثار) النفس بهذه التجربة الروحية الخطيرة؟

كل فرد من أفراد الانسان يصيبه في حياته شك أو شكوك، ذلك لأنه لا يبقى على حالة واحدة من التقوى والورع واجتناب المعاصي. فهو في شبابه غير ما هو عليه في وقت آخر. وقد يكون في شيخوخته منحرفاً عن الحق وفي شبابه متوجهاً إلى الحق. ولكن قلَّ من يفكر في الأسباب فيعالج نفسه معالجة تؤدي به إلى النجاة والزلفى.

نعم، لا منجى لأحد من شك أو شكوك، قليلة أو كثيرة. تتوارد هذه الشكوك برهة ثم تختفي إذا عقب هذه الشكوك استغفار وعبادات وأعمال صالحات. فإذا طهرت هذه النفس بما يطهرها من مأكل حلال طيب وأداء للحقوق من: زكاة وخمس وانفاق، وصلاة مقبولة وتهجد جوف الليل وتضرع وبكاء ندماً على الذنوب، وبرِّ الوالدين وصلة الرحم وقضاء حوائج المؤمنين واستغفار وتسبيح وذكر الله تعالى في كل حال، يقوى عند ذلك الايمان، فلا يزحزحه شيء ويبلغ من اليقين مرتبة لا تؤثر فيه تسويلات الشياطين من الجن والأنس ووساوسهم. لذلك، يقول علي عليه السلام «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

فلا ينبغي أن يرتبك الشخص عندما يختلج في نفسه بعض الشكوك. بل

عليه أن يبادر حالاً إلى تطهير نفسه والتكفير عن ذنوبه. عليه أن يفتش عن نفسه وعن أعماله في ذلك اليوم أو في ذلك الأسبوع أو الشهر، أو السنة. هل كان ظالماً لأحد؟ هل اغتاب أحداً. هل كان عاقاً[1] لوالديه. عليه أن يعالج ما اعوج من سلوكه الديني. فإذا فعل ذلك يرى جلياً أن ما اعتراه من شكوك ينقشع رويداً رويداً.

إن طريق الحق واحد وطرق الباطل متعددة، وقد أراد رسول الله (ص) ذات يوم أن يفهم أصحابه ذلك. فخطّ لأصحابه خطاً وقال: «هذا سبيل الله». ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله. فقال: «هذه سبل. على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم تلا قوله سبحانه: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. (٦٠/١٥٣).

ولما كانت النفس ميالة إلى الشهوات وإلى الباطل، لذلك كانت طرق الشيطان موافقة لميول النفس ومتعددة ومفتوحة. فما على الانسان إلا أن يعرض ما يختلج في ذهنه على كتاب الله وسنة نبيه وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام، ويتذكر عظيم حق الله وجزيل ثوابه وشديد عقابه. ويتذكر أن الصبر على هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار جهنم. ويتضرع إلى الله تبارك وتعالى في أن ينجيه من هذه الوساوس بأعمال صالحات ويوفقه إلى انجازها ويكثر الذهاب إلى بيوت الله (المساجد) ومراقد أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ويكثر من ذكر الله، لأن ترك الذكر يؤدي إلى وسوسة الشيطان على حد قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾. (٤٣/٣٦).

وقد جاء في حديث عن الرسول (ص): «ان الله يبغض الشاب الفارغ». ذلك لأن الشاب إذا فرغ من عمل مفيد تسلط عليه شيطانه، فأوقعه في المهالك. وما أكثر ذلك.

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

---

(١) عق الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان إليه واستخف به.

فلو اجتمع شبان كل محلة في محل كل ليلة أو ليلة واحدة في الأسبوع على الأقل واستمعوا إلى مواعظ وارشادات دينية تثلج الصدور وتبعث الاطمئنان إلى النفوس لرأوا أنفسهم في عالم قدسي جديد. وقد شاهدت أمثال هذه الاجتماعات في بعض المدن الاسلامية، فيها تهذيب النفوس وتطهيرها من براثن الضلال. ورأيت المداومين فيها يزدادون نوراً وإيماناً يوماً بعد يوم.

كما أنه يجب تأسيس نوادٍ دينية، يداوم فيها الشبان. يتلقون فيها دروساً دينية، يصلون فيها أوقات الصلاة ويطالعون فيها صحفاً دينية، ويقومون في نفس الوقت بخدمات دينية ويكونون دعاة لبث حقائق الاسلام.

تزول الوساوس:

أولاً: بسدِّ الأبواب العظيمة للشيطان في القلب وهي الشهوة. والغضب والحرص والحسد والعداوة والعجب والحقد والكبر والطمع والبخل والجبن وحب الدنيا وحطامها الزائل وحبّ التزيُّن بالثياب الفاخرة وخوف الفقر والتعصب لغير الحق وسوء الظن بالله وبالناس. فإذا سدَّت هذه الأبواب لم يجد الشيطان باباً يدخل منه إلى النفس الانسانية.

ثانياً: تحلية النفس بأضداد ما ذكر: أي بكرائم الأخلاق وفضائل الصفات وملازمة التقوى والورع والاشتغال بالعبادة والمواظبة عليها.

ثالثاً: كثرة ذكر الله بالقلب واللسان فان الذكر اللساني وحده لا يكفي في إزالة وساوس العدو الأكبر وهو الشيطان. ألا ترى أن الشيطان يهجم على الانسان حين اشتغاله بصلاة يصليها لربه، فإن الشيطان يعمل بجد ونشاط عظيمين لاغواء الانسان وصرفه عن مناجاة ربه بقلبه. ولكن إذا طهر القلب من الأخلاق الذميمة أي إذا تخلى القلب عن الرذائل وتحلى بالفضائل طابق الذكر القلبي الذكر اللساني وطرد الشيطان إذ ذاك. فلا مدخل له ولا مجال.

ولا مؤاخذة على مجرد ما يخطر في قلب الانسان من وساوس، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «يا رسول الله هلكت. فقال له: هل أتاك الخبيث، فقال لك، من خلقك، فقلت: الله تعالى. فقال لك:

الله من خلقه؟ . . . ـ فقال له الرجل: «أي والذي بعثك بالحق، لكان كذا».
فقال: رسول الله (ص) «ذاك والله محض الايمان».

وفي حديث آخر أن رجلاً أتى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله نافقت. فقال رسول الله (ص)) «والله ما نافقت ـ ما أتيتني تعلمني ـ ما الذي رابك؟ . . . أظن أن العدو الحاضر أتاك، فقال: من خلقك! . . . فقلت: الله تعالى خلقني . . . فقال لك: من خلق الله؟.

فقال[1]: أي والذي بعثك بالحق، لكان كذا . . . فقال أن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال، فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم. فإذا كان كذلك، فليذكر أحدكم الله وحده».

وسئل الصادق (ع) عن الوسوسة وان كثرت، فقال: «لا شيء فيها. تقول: لا إله إلا الله». وعن جميع بن دراج، قال قلت للصادق عليه السلام: أنه يقع في قلبي أمر عظيم . . . فقال: «قل لا اله الا الله» قال جميل: فكلما وقع في قلبي، قلت لا إله إلا الله . . . فيذهب عني.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: وضع عن أمتي تسع خصال: الخطأ والنسيان وما لا يعلمونه وما لا يطيقونه، وما اضطروا إليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد».

وإن الانسان ليؤاخذ حتماً على أعمال القلوب من كبر وعُجب ورياء ونفاق. لما ورد عن رسول الله (ص): «إنما يحشر الناس على نياتهم».

وقد روي عن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «ان الله تعالى جعل لآدم في ذريته: من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة. ومن همَّ بحسنة وعملها كتبت له عشر (حسنات)، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همَّ بها وعملها كتبت عليه سيئة».

---

(١) أي الرجل.

وهكذا يتجلى فضل الله ورحمته مع عباده المحسنين والمسيئين. وما أعظم قوله تعالى حين يقول: ﴿ففروا إلى الله أني لكم منه نذير مبين﴾. (٥١/ ٥٠).

ويفيد في إزالة الشكوك عدا القيام بملافاة ما اجترحت الأيدي من معاصٍ وآثام لا سيما إرجاع حقوق الناس اليهم، ما يلي:

(١) قراءة سورة الناس (قل أعوذ برب الناس)، كثيراً. حتى في الطريق حال المشي.

(٢) أن يقول: لا إله إلا الله كثيراً، حتى في محل عمله حين يفرغ من مراجعة الناس أو الكتابة.

(٣) تلاوة سورة الاخلاص: (كل هو الله أحد) كثيراً. فان الملائكة قد شيعت جنازة سعد بن معاذ (رضوان الله عليه) ومشى رسول الله (ص) خلف جنازته حافياً وأدخله قبره بيده المباركة، لأنه كان يواظب على تلاوة سورة الاخلاص ليل نهار.

(٤) أن يقرأ كثيراً لا سيما في القنوت، «يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا مقلِّب القلوب، ثبت قلبي على دينك».

(٥) أن يقول عند عروض الشك: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم».

(٦) وقد روي عن الصادق عليه السلام: يمسح الشخص بيده على صدره ثم يقول: «بسم الله وبالله، محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم امحُ عني ما أجدُه» ثم تمسح بيدك على بطنك وتقول ذلك ثلاث مرات.

(٧) ويفيد في إزالة الشكوك والوساوس الشيطانية أيضاً: غسل الرأس بماء السدر وشرب ماء نيسان والصوم ثلاثة أيام من كل شهر: أول خميس من الشهر وآخر خميس منه ويوم الأربعاء المصادف أواسط الشهر.

(٨) المواظبة على صلاة الليل (التهجد).

هذه دساتير روحية ليس لأحد لم يمارسها أن يشك في صحتها ويرتاب. وما عليه إلا أن يقوم بالتجربة حتى يرى أثر ذلك جلياً ولا توفيق إلا بالله: ﴿ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.



أثر الذنوب في اتجاه النفس

ما من شيء يبعد الانسان عن الاعتقاد بالله وكتبه ورسله ويجعله يمقت الدين والمتدينين ويزدريهم ككبائر الذنوب!... فان هنالك علاقة متينة بين اتجاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها عن المعاصي والآثام. كما أن هنالك رابطة قوية بين توجه النفس نحو عقائد سخيفة والحاد وزندقة، وتوغلها في كبائر الذنوب والآثام.

وإن هذا الموضوع لمن أهم المواضيع التي يجب على علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس أن يبحثوا عنها ويرسموا لها خطوطاً بيانية ومنحنيات تقريبية! فإن الايمان يتغير حسب كثرة الآثام. وقلتها بنسب لا يعلمها إلا الله.

إن الفيزيائي يرى علاقة متينة بين التعجيل الأرضي وزمن السقوط والمسافة التي يقطعها الجسم الساقط في زمن ما:

$$م = \frac{1}{2} ح . ن^{2}$$

وهكذا هناك علاقة متينة بين طول الرقاص والتعجيل الأرضي وزمن الذبذبة الواحدة للرقاص (في الفيزياء):

$$ن = 2 ط \sqrt{\frac{ل}{ح}}$$

ولكن العلاقة بين توجه النفس الانسانية نحو خالقها وبين ما تقوم به هذه النفس من جرائم وموبقات لهي أمتن من العلاقات الفيزيائية أو الكيميائية بدرجة لا تقاس. قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». فإذا انسحب العقل الطبيعي تدخل الشيطان فسوّل لصاحبه ما يريد من موبقات وعقائد باطلة. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان». ويقصد بذلك العقل الفطري: ذلك العقل الذي لم ينسحب من جراء الذنوب والآثام.

وجاء في ما قال الصادق عليه السلام بهذا الشأن: «أن الرجل يذنب

الذنب فيحرم صلاة الليل وان العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم».

وقال الباقر (ع): ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته. ان القلب ليواقع الخطيئة. فما يزال به حتى يغلب عليه، فصير أعلاه أسفله». ويراد بالقلب هنا: النفس الانسانية. فالذنب حجاب بين العبد والمعبود.

لذلك كله، يقوم المستعمرون أعداء الاسلام بادخال وسائل الفجور والفسوق ونشر الخمور والربا والفواحش والميسر ومجالس اللهو واللعب والرقص وغيرها في البلاد الاسلامية بأي ثمن كان: بالصحافة والاذاعة ودور السينما والملاهي والتلفزيون إلى ما هنالك... فينكب الشباب وغيرهم باسم الحرية على ارتكاب هذه الموبقات والمدنسات، فتتدنس نفوسهم وتظلم قلوبهم. فينسحب منها الايمان الفطري رويداً رويداً ويأتي دور الاستخفاف والازدراء تحت عنوان الثقافة! والثقافة من كل ذلك بعيدة غاية البعد.

ولذلك يعمل علماء الدين أيدهم الله تعالى في إبعاد وسائل اللهو واللعب وما من شأنه تلويث النفس من موبقات وملهيات عن المساجد والمشاهد، حفظاً للنفوس من أن تتدهور إلى أسفل سافلين، فإن للبيئة أثرها الفعال في توجيه النفس. لذلك يقول الله تعالى:

﴿قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (٣٩/١٠ الزمر) فعلى المؤمن أن يهاجر إلى حيث يتمكن من إقامة شعائر دينه ويصبر على العناء لينال أجراً بغير حساب. ذلك لأن الانسان إنما خلق ليتكامل. ولا تكامل إلا بتطهير النفس ولا تطهر النفس إلا بالعبادة (بما فيها من أعمال صالحات والقيام بالاحسان إلى الغير) وباقامة الشعائر الدينية. فوجب إذن أن يبذل المؤمن النفس والنفيس حتى يجد محلاً يتمكن فيه من اقامة شعائر دينه. ومن هنا وجب حفظ الأوطان وصيانة الثغور ما دامت هذه الأوطان تقام فيها الشعائر الدينية. فان لم يتمكن من اقامة شعائر الدين فما عليه إلا أن يهاجر إلى حيث يتمكن فيه من إقامة الشعائر كما هاجر

النبي (ص) من مكة إلى المدينة. وهاجر قسم من المسلمين من مكة إلى الحبشة.

ونحن نذكر ها هنا بعض كبائر الذنوب وبعض الحدود ليكون المسلم على علم منها فيجتنبها، ويتوب من أغواه الشيطان فارتكب البعض منها. فقد جاء في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

ويحسن بالمسلم إذا أراد النوم أن يقول ثلاث مرات: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». ويواظب عليه، فانه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

ومن الكبائر ما يلي:

(١) الكفر بالله. وقد قال تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (سورة البقرة: ٢٥٧).

(٢) اليأس من رحمة الله وروحه. وقد قال تعالى: ﴿لا تيأسوا من روح الله، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾. (سورة يوسف: ٧٨).

(٣) الكذب على الله أو على رسوله أو على أوصيائه (ع). وقد قال تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾. (الزمر: ٣٠).

(٤) قتل النفس التي حرمها الله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾. (النساء: ٩٣).

(٥) عقوق الوالدين[1]. إذ قال تعالى في كتابه المجيد عن عيسى (ع) ﴿وبَرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾. (مريم: ١٩/٣٢). فالعاق هو الجبار

(١) الاساءة اليهما وعدم الاحسان اليهما.

الشقي. وقد قال تعالى: ﴿وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾[1]. (١٤/١٦ إبراهيم عليه السلام).

(٦) أكل الربا: ﴿درهم رباً عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم﴾ كما جاء في الحديث. وقد قال تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (سورة البقرة: ٢٧٥).

(٧) ترك الصلاة. إذ قال تعالى: ﴿ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين﴾. (سورة المدثر: ٤٢).

(٨) الزنى ـ وحده مائة جلدة للمرة الأولى، وكذا مئة جلدة للمرة الثانية وفي المرة الثالثة: القتل. هذا في غير المحصن (غير المتزوج). إذ قال تعالى: ﴿ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾[2]. (٣٨/٢٥ الفرقان). وأما في المحصن فحده الرجم للمرة الأولى.

(٩) اللّواط : وحدُّه أحد أمور يتخير ولي الأمر (الحاكم) فيها. وهي اما القتل أو الرجم أو القاؤه من شاهق تنكسر عظامه أو إحراقه بالنار. وهكذا يعاقب المفعول به أيضاً إن كان بالغاً مختاراً، وإن كان صغيراً عُزِّر.

وقد جاء عن النبي (ص): «ان من قبَّل غلاماً بشهوة لعنته ملائكة السماء

---

(١) هو الصديد الذي تنزل من جلود أهل النار.

(٢) وإذا تاب بينه وبين ربه فقد تاب الله عليه. مع العزم على عدم العودة أبداً والندم العميق على ما كان منه. ويجلد (القواد) خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر وينفي ويثبت بشاهدين عدلين أو بالاقرار مرتين.

وأما السحق أو المساحقة فتجلد كل من الفاعلة والمفعولة مائة جلدة ولا يبعد الرجم مع الاحصان (أي بأن تكون ذات بعل).

وملائكة الأرض وملائكة الرحمة وملائكة الغضب وأعد له جهنم وساءت مصيراً﴾.

(١٠) شرب الخمر والفقاع وكل ما كان مسكراً، إذ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾. (٥/٩٠ المائدة). وحدُّه: ثمانون جلدة عارياً على ظهره وكتفه ولو تكرر الحد ولم يرتدع قتل في الرابعة. ولو شربها مستحلاً فهو مرتد يجب قتله. ويستتاب بائع الخمر، فان تاب، وإلا قتل.

(١١) إنكار ما أنزل الله تعالى.

(١٢) الأمن من مكر الله وبطشه.

(١٣) محاربة أولياء الله

(١٤) معونة الظالمين والركون اليهم، إذ قال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾. (١١/١١٣ هود).

(١٥) قطيعة الرحم، إذ قال تعالى: ﴿فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. (٤٧/٢٢ محمد (ص)).

(١٦) الفرار من الزحف في الجهاد أو الدفاع الواجب. والزحف هو السير نحو العدو. إذ قال تعالى: ﴿ومَن يُولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾. (٨/١٦ الأنفال).

(١٧) شهادة الزور.

(١٨) كتمان الشهادة. إذ قال تعالى: ﴿ومن يكتمها فانه آثم قلبه﴾. (٢/٢٨٣ البقرة).

(١٩) السحر ويليه تسخير الجن والأرواح والكواكب. إذ قال تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابَل هاروت وماروت. وما يعلِّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون

منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله، ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق[1]، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾. (سورة البقرة: ٩٦).

(٢٠) اليمين الكاذبة، إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهـد الله وايمانهم ثمناً قليلاً، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾. (آل عمران: ٧٧).

(٢١) نقض العهد والنذر واليمين. وكفارةاليمين: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة. مخيراً بين الثلاثة. فان عجز فصيام ثلاثة أيام متتابعة. وكفارة النذر أو العهد هي كفارة إفطار شهر رمضان. فان عجز لجأ إلى الاستغفار.

(٢٢) أكل مال اليتيم. إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾. (النساء: ١٠).

(٢٣) أكل الميتة. إذ قال تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلَّ به لغير الله. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه، ان الله غفور رحيم﴾. (البقرة: ١٧٢).

(٢٤) أكل الدم. للآية المتقدمة.

(٢٥) أكل لحم الخنزير. للآية المتقدمة.

(٢٦) أكل السحت. (المال الحرام).

(٢٧) الخيانة

(٢٨) السرقة.

(٢٩) تنقيص المكيال والميزان. إذ قال تعالى: ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن

---

(١) من نصيب.

أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾. (سورة المطففين: ٦).

(٣٠) حبس الحقوق، كالخمس والدين وغيرهما.

(٣١) ترك الصوم مع القدرة.

(٣٢) الاضلال عن سبيل الله. إذ قال تعالى: ﴿ثاني[١] عطفِه ليضلَّ عن سبيل الله، له في الدنيا خزي، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾[٢].

(٣٣) التخلف عن الدفاع الواجب أو الجهاد. إذ قال تعالى: ﴿فرح المخلفون[٣] بمقعدهم اخلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون﴾[٤].

(٣٤) الاسراف والتبذير. إذ قال تعالى: ﴿إن المبذرين كانوا أخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ (الاسراء: ٢٧).

(٣٥) اللهو: (الاشتغال بالملاهي).

(٣٦) الغناء. إذ قال تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين﴾[٥]. وقد جاء في الحديث: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

حقاً، ان استماع الأغاني وما تلقنه من اتجاهات سلبية تأخذ النفس إلى التسافل. وإن الدوام على ذلك ينسي ذكر الله. فلا ترتاح النفس إلا إلى سفاسف الأمور ومعان رخيصة متسافلة. تزول مع الغناء صفة الخشوع والخضوع تجاه القادر المتعال ويحرم الشخص نفسه بذلك من لذيذ مناجاة الله تعالى جوف الليل حيث لا واسطة بين العبد والمعبود. مناجاة فيها من

---

(١) أي متكبراً.

(٢) سورة الحج: ٩.

(٣) الذين تخلفوا عن الذهاب مع الرسول (ص) في غزوة تبوك.

(٤) سورة التوبة: ٨٢.

(٥) سورة لقمان: ٦.

العروج إلى معالم القدس وسرور فائق ما لا يشعر به إلا عباد الله الفائزون. انها دموع ساخنات، تثلج الصدور وتبعث على الاطمئنان واليقين.

(٣٧) الميسر (القمار) ولو كان دون أخذ شيء من المغلوب.

(٣٨) القذف. ويراد به الاتهام بالزنا وما شابه. وحدُّه ثمانون جلدة. إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾[١]. وفي آية أخرى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾[٢].

(٣٩) منع الزكاة. إذ قال تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكنزون﴾[٣].

(٤٠) ترك الحج مع الاستطاعة. إذ قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا، ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾. (آل عمران: ٩٧). وعن أبي عبد الله (ع) قال: «من مات ولم يحج حجة الاسلام، ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه. فليمت يهودياً أو نصرانياً».

(٤١) الغيبة: إذ قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله أن الله تواب رحيم﴾. (سورة الحجرات: ١٢).

(٤٢) القيادة: وهو الجمع بين أهل الفجور.

(٤٣) اساءة الخلق. وقد جاء في الحديث: «إن سوء الخلق ليفسد

---

(١) النور: ٢٣.

(٢) النور: ٤.

(٣) سورة التوبة: ٣٥.

الايمان والعمل كما يفسد الخل العسل». و «أن لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق».

(٤٤) النميمة: فعن الباقر عليه السلام: «الجنة محرمة على القتاتين المشائين بالنميمة». القتّات: النمام

(٤٥) ضرب المسلم بغير حق.

(٤٦) السعاية إلى الظالم.

(٤٧) قطع الطريق: إذ قال تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلبُوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف[1] أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ (سورة المائدة: ٣٧).

(٤٨) الظلم: إذ قال تعالى: ﴿أنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها[2] وان يستغيثوا بماء كالمهل[3] يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ (الكهف: ٢٩).

(٤٩) الكبر: إذ قال تعالى: ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ (النحل: ٣٢).

(٥٠) كتمان ما أنزل الله من الأحكام الشرعية وغيرها: إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾. (سورة البقرة: ١٦٩).

(٥١) المنع من المساجد: إذ قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد

---

(١) أي تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى.

(٢) فسطاطها: خيمتها.

(٣) القيح أو صديد الميت خاصة أو ما ذاب من صفر أو حديد أو زيت.

الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[1].

(٥٢) الاستهزاء بالمؤمنين.

(٥٣) إشاعة الفاحشة: إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾[2].

(٥٤) الحكم بغير ما أنزل الله: إذ قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

(٥٥) لبس الرجل الحرير.

(٥٦) لبس الرجل ألبسة منسوجة بالذهب أو خاتماً من الذهب.

(٥٧) الأكل والشرب في الأواني المصنوعة من الفضة أو الذهب.

(٥٨) ترك الزوج حقوق الزوجة أو بالعكس.

(٥٩) الرياء في العبادة: فعن الصادق (ع) أنه قال: «كل رياء شرك، أنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله».

(٦٠) المراء: وهو الجدل في المباحثات بالباطل، لقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

(٦١) أن يلبس الرجال ألبسة النساء وبالعكس.

(٦٢) الرشوة والارتشاء: (إعطاء الرشوة وأخذها).

(٦٣) نحت المجسمات وصنعها على شكل انسان أو حيوان. فقد جاء في الحديث: «أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرين».

(٦٤) التعرض للذل: وقد قال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾. (المنافقون: ٨).

---

(١) سورة البقرة: ١٠٨.

(٢) سورة النور: ١٨.

(٦٥) الشعبذة: وهي ما يرى الناس بها ما ليس له حقيقة بسبب حركات سريعة توجب الالتباس وهي محرمة كأجرتها وتعلمها وتعليمها إلا أن يكون التعلم لغرض صحيح كردٍّ من ادعى النبوة ونحوها بها.

(٦٦) طلب الرياسة مع عدم الأمن من العدل وقد ورد عنهم عليهم السلام: «ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك». و«وإن من طلب الرياسة هلك». «وأنه ملعون من ترأس، ملعون من همَّ بها، ملعون من حدث نفسه بها».

(٦٧) ظن السوء بالمؤمن: فقد قال الله تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم﴾. (الحجرات: ١٢).

(٦٨) العُجب: وقد ورد عنهم عليهم السلام: «من دخله العجب هلك. وان اعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله».

(٦٩) الغش: فقد ورد عنهم (ع) أنه: «ليس منا من غش مسلماً».

(٧٠) الكذب: وقد عدَّه الصادق والرضا عليهما السلام من الكبائر. وقد ورد: «أن الله عز وجل، جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الخمر والكذب، والكذب شر من الخمر».

(٧١) مجالسة أهل المعاصي والبدع. لما ورد من النواهي الأكيدة عن ذلك. قال تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم، وأما ينسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾. (الأنعام: ٦٨).

(٧٢) اتيان البهائم.

(٧٣) منع المؤمن أخاه المؤمن شيئاً يقوى عليه من عنده أو من عند غيره وحبس الحقوق من غير عسر[1]. فعن أبي عبد الله (ع)، قال: «أيما مؤمن منع مؤمناً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره

(١) كنا ذكرنا حبس الحقوق في موضع آخر. ولا بأس بتكراره هنا مع حديث في هذا المقام الخطير.

أقامه الله يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار».

وعن ابن سنان عن يونس بن ظبيان، قال: قال أبو عبد الله (ع): يا يونس، من حبس حق المؤمن أقامه الله عز وجل يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه حتى يسيل عرقه أودية، وينادي مناد من عند الله عز وجل: هذا الظالم الذي حبس عن الله حقه. قال فيوبخ أربعين يوماً، ثم يؤمر به إلى النار.

وهناك كبائر أخرى نرجىء ذكرها إلى محل آخر. ونختم هذا البحث بما جاء عن علي عليه السلام:

«من كفارات الذنوب العظام: إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب». وقال عليه السلام مخاطباً كميلاً: يا كميل، مُر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم. فوالذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا وجعل الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا أصابته نائبة جرى اليها كالماء بانحداره حتى يطردها كما تطرد غريبة الابل».

وقال سلام الله عليه: «أدنى الانكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغير بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان».

* * *

كيف نتوب

يجدر بنا أن نذكر بعض ما ينبغي أن يقوم به الشخص عند ارادته التوبة. فانه ما من عبد (عدا المعصومين سلام الله عليهم أجمعين) إلا وقد أذنب، وما عليه إلا أن يتوب من ذنبه عاجلاً كي لا تتراكم عليه ذنوبه فيسود قلبه، فيعمى إذ ذاك عن رؤية الحق والواقع. ولا شك أن الاستغفار على نوعين، عملي وعبادي. فالاستغفار العملي هو ارجاع ما للناس على الفرد من حقوق إلى أصحابها، والاجتهاد في طلب رضاهم، وقضاء ما فاته من عبادات. وأما العبادي:

(١) فقد قال رسول الله (ص): ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهر وصلى ركعتين واستغفر الله إلا غفر له وكان حقيقاً على الله أن يقبله. لأنه سبحانه قال: ﴿ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

(٢) وفي الاقبال أنه: خرج رسول الله (ص) في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة فخاطب الناس قائلاً: «أيها الناس من منكم يروم التوبة؟». فقالوا: كلنا نروم التوبة. فقال: «اغتسلوا وتوضأوا وصلوا أربع ركعات واقرأوا في كل ركعة سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة التوحيد (الاخلاص) ثلاث مرات والمعوذتين (قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس) مرة واحدة، واستغفروا بعد الانتهاء من الصلاة سبعين مرة وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) سبع مرات. ثم قولوا: «يا عزيز يا غفار، أغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات، فأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ثم قال رسول الله (ص): «ما من أحد من أمتي يأتي بهذا العمل إلا ومناد يناديه من السماء عن الله تعالى: عبدي، استأنف العمل، فقد غفرت لك. وان ملكاً آخر ينادي من تحت العرش: بوركت أنت ومن يلوذ بك

وذراريك. وملك آخر يقول: سوف يرضى عنك خصماؤك يوم القيامة. وآخر يقول: يا عبد الله، ستموت على الايمان ولا تعدم الايمان ويفرج لك في قبرك وينور قبرك. وآخر ينادي: سوف يغفر لأبويك وذريتك ويوسع لك في رزقك. وان عزرائيل يخاطبه، فيقول: سوف أرفق بك عند قبضي روحك».

ثم سأل سائل رسول الله (ص) لو أن رجلاً جاء بهذا العمل في غير ذي القعدة ما نتيجة ذلك؟ فقال (ص): عين ما كان له من النتيجة في شهر ذي القعدة، ثم قال: ان جبريل قد علمني هذا العمل عند معراجي إلى السماء.

(٣) أن يقول بعد كل فريضة قبل أن يثني رجليه ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا اله إلا هو الحي القيوم ذو الجلال والاكرام وأتوب إليه».

(٤) المواظبة على صلاة الليل وهي ١١ ركعة، ٨ ركعات منها نافلة الليل تصلي رَكعتين ركعتين كصلاة الصبح تؤتي بنية نافلة الليل. وركعتان تسميان: (الشفع) وركعة واحدة تسمى (الوتر). ووقتها بعد إنتصاف الليل إلى الفجر. وكلما كان قرب الفجر كان أفضل. ويُستحب أن يقال في قنوت (الوتر): الركعة الأخيرة سبعين مرة: استغر الله ربي وأتوب اليه. وهناك مستحبات أخرى لا مجال لذكرها.

ان الله تعالى يمتدح المستغفرين بالأسحار بقوله: ﴿إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، انهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون[1]. وبالاسحار يستغفرون. وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾. (سورة الذاريات: ١٤ ـ ١٨).

فطوبى لنفوس فكرت في عقباها. فلازمت التقوى وما يؤدي إلى الزلفى ووفقت إلى أنواع الاستغفار. فطهرت من أدرانها وتزكت مما علق بها من دنس ورجس. فذهبت إلى نعيم خالد وحياة كلها سرور وحبور. ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا

---

(١) ينامون في قليل من الليل أو نوماً قليلاً.

يعلمون﴾. أي أن الدار الآخرة هي الحياةالحقيقية الأبدية. ليس فيها حزن أو قلق أو خوف. ﴿ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

حقاً، ان الحياة الدنيا بما فيها من مشاكل وأعمال كثيرة لا طائل تحتها وملهيات أخرى لا تفيد في تكامل النفس لهي لهو ولعب. فالانسان في دنياه وإن كان في دوره التكاملي، إلا أن حياته فيها أشبه شيء بحياة الطفل بالنسبة إلى حياة الرجل المتكامل. وسيعلم ذلك، (إن وفق إلى تطهير نفسه)، في ﴿جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. (٥٧ ـ ٢١).



جواب على شبهات الماديين

نورد هنا ما عثرنا عليه من شبهات الماديين التي لم تتوارد في أذهانهم إلا لأنهم أزاحوا الفطرة بأعمالهم عن فعاليتها وتأثيرها الطبيعي. فأملى عليهم الشيطان شكوكاً وشبهات هي في غاية السخافة في نظر من كان محافظا على فطرته الطبيعية ولم تدنسه الموبقات. ولو أنهم وقفوا حين جهلوا لم يكفروا، على ما جاء في كلام علي عليه السلام حيث يقول: «ولو ان الناس إذ جهلوا وقفوا ولم ينكروا ولم يكفروا». ولكن هيهات، فان المدنسات لم تدع لهم مجالا للتوقف أو التردد وازاحتهم عن التفكير الطبيعي وهو الاعتراف بالخالق المبدع الرؤوف الرحيم.

على أني موقن أن هذه الردود التي نوردها جواباً على الشبهات لا تفيد المادي الذي أعمى الله قلبه لظلمات في نفسه، فاكتسبها من جراء ذنوبه. لأن المنطق ليس هو الشيء الوحيد الذي يردع هذا الانسان (الكنود) عن غوايته ويهديه إلى النور وإلى صراط مستقيم. فقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب». فان عمي القلب فلا منطق ولا هداية ولا قبول. ان الله تعالى يقول: ﴿ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾. (البقرة: ٧). ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾. (سورة حم ـ السجدة: ٦).

وإنما نورد في ما يلي بعض الردود، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ولكي يتمكنوا عند المجادلة مع الملاحدة من الرد والاجابة «وكان الانسان أكثر شيء جدلاً». ولعل الله يمن على من لم تنقطع صلته به تعالى بعمل صالح كان يأتي به من حين لآخر، بعد الاطلاع على هذه الأجوبة، بتوفيق الهداية والرشاد والرجوع إلى الفطرة بفضله تعالى.

الشبهة الأولى: إن لم يكن العالم المادي أزلياً وقلنا أنه حادث مخلوق لزم من ذلك القول بأن العالم قد وجد من العدم وان الله قد خلق الأشياء من عدم وهذا أمر محال لا يتفق مع معطيات العلم الحديث.

الجواب: إن العلوم الحديثة تؤكد لنا أنه لا يمكن وجود شيء من العدم وهذا دليل على وجود الله تعالى. إلا أن بعض الأعراض قد تحصل من انفصال شيء عن شيء آخر. كما أن اتصال شيء بشيء يؤدي إلى وجود أعراض جديدة. ولكن العرض ليس بجوهر ولا بد لوجودها وجود أشياء أخرى قبلاً.

ولا شك أن الله تعالى قد أبدع الأشياء بقدرته ولولا قدرته والطاقات التي أوجدها بقوله «كن» لما وجد شيء أبداً. ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان[1] الذي بيده ملكوت[2] كل شيء وإليه ترجعون[3]﴾.

ولكن، كيف قول الله تعالى (كن) يؤدي إلى إبداع السموات والأرض ووجود هذه الطاقات الهائلة التي قد أُكتشف أخيراً أنها هي الأساس في تكون هذا الكون. هذا مما لم يجعل الله تعالى للبشر مجالاً إلى معرفته. ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾. أنه تعالى يقول: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[4] ويقول أيضاً: ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾. فحقيق بالكيمياوي المؤمن، ذلك الذي لم يلوث الفطرة بموبقات ومهلكات أن تفيض عيناه بالدموع عند تلاوة هذه الآية المباركة: ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾ لما يشاهد تلك التفاعلات بين العناصر بمقادير معينة واتجاهات ثابتة تؤدي إلى وجود هذا العالم المملوء بالعجائب

---

(١) فتنزيهاً لله عن النقص، سبح الله أي نزهه عن النقص.

(٢) الملكوت، مصدر ملك، مختص بملك الله تعالى.

(٣) سورة يس: ٨٣.

(٤) سورة القمر: ٥٠.

والغرائب. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور﴾[١].

إن الطاقات التي أوجدها الله بقوله (كن) أي أن الطاقات والقوى التي أوجدها الله تعالى بارادته ومشيئته تكدست حسب النظريات الأخيرة في علم الفيزياء فكانت مادة. وان هذه المواد شكلت كما يشاء الله هذه العوالم. إذ علم أن: $E = MC^2$: الطاقة الكامنة في كتلة ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في تلك الكتلة. فسبحان من منح هذه الطاقات هذه العوالم بعظيم قدرته ورتبها خير ترتيب. وليس لهذا الانسان مع عقله المحدود وقابلياته المحدودة أن يعرف كيف أن الله بقوله: (كن) يوجد هذه الطاقات. فان نسبة قابلية الانسان المحدودة في جميع الحقول إلى قدرة الله تعالى كنسبة $\frac{ب}{\infty}$

ومآل هذه النسبة: الصفر. فأنى للصفر أن يفهم اللانهاية فهماً تاماً ويقف على كيفية خلق الله الخلق وانقلاب إرادته تعالى إلى طاقات هائلة. وان هذه الشبهة إن دلت على شيء فإنما تدل على نفس متحجرة وكبر وغرور وطيش وانسحاب للعقل الفطري.

الشبهة الثانية: ان كل موجود لا بد له من مكان يستقر فيه ولا بد له من زمان يقع فيه. وان العلوم الطبيعية الحاضرة تقول: بأن المادة موجودة في الزمان والمكان. إذن ليس في الامكان أن نتصور وجود الخالق الأزلي خارجاً عن الزمان والمكان؟.

الجواب: ان الله تعالى غني عن الزمان والمكان، لأنه ليس بمادة وقد كان موجوداً من الأزل دون أن يكون له ابتداء. وهو الذي أوجد وأبدع الزمان والمكان. ولا مراء أن المكان والزمان مفهومان يتفرعان عن المادة. ولولا خلق الله تعالى السموات والأرض والقمر لما كان هنالك زمان ولا مكان. وان الله تعالى موجود في كل مكان وزمان. وعندما نقول: ان الله لا زماني ولا مكاني، نقصد بذلك أنه لا يشبه سائر ما خلق من الموجودات، بسبب

(١) فطور: صدوع وخلل.

احتياج هذه الموجودات جميعاً إلى زمان وإلى مكان. أي أن المكان لا يحيط به وان الزمان لا يحيويه ولا يكون له ظرفاً، لأنه تعالى هو خالق هذين الظرفين (الزمان والمكان). على أن تطبيق ما يقال عن المحدود على غير المحدود (اللانهائي) وهو الله تعالى من الغباوة والقساوة بمكان. وهو هراء لا فلسفة!.

وقد قال علي عليه السلام: «ومَن قال في مَ؟ فقد ضمنّه ومن قال: علام. فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة»...

الشبهة الثالثة: ان العلم الحديث يقول: أنه لا بد للمادة من زمان ومكان. وأن المادة لا توجد إلا في زمان. وبما أنكم أيها اللاهوتيون تقولون: الله هو خالق العالم. وحيث لم يكن عندما خلق الله العالم زمانٌ، إذن ليس الله هو الذي خلق العالم، لعدم وجود زمان إذ ذاك ليخلق المادة فيه، إذ لا يمكن خلق المادة دون وجود زمان لخلقها فيه.

جوابُ ذلك: ان الزمان والمكان إنما حدثا مع وجود المادة وهما من عوارضها. وليس لنا أن نحكم بما كان قبل خلق المادة وكيف كان. فالزمان من عوارض المادة ووجوده بوجودها، ولم يسبق أحدهما الآخر. أي أن الزمان إنما وجد مع خلق الله تعالى الشمس أو الأرض وحركتيهما أو حركة إحداهما وان الزمان مفهوم استمراري لوجود المادة وهكذا المكان.

وان الله تعالى حين خلق المادة الأولى سواء كان (أثر) على ما يقول بعضهم أو غير ذلك وجد مفهوم الزمان والمكان مع تلك المادة. فلا زمان ولا مكان بالمعنى الذي نفهمه قبل أن يخلق الله شيئاً.

الشبهة الرابعة: يقول بعض الماديين: لو كان لهذا العالم خالق لكان له هدف وغاية من هذا الخلق. ولكننا لا نفهم القصد والغاية من هذا الخلق. ومنهم: (هودسن تونل) الأمريكي، حيث يقول: «إن القمر يدور حول نفسه

مرة حين يكمل حركته الانتقالية حول الأرض. وهو يوجه جهة واحدة منه نحو الأرض ـ ألسنا محقين لو سألنا عن السبب؟ فلا قصد ولا غاية من ذلك. إذ لو كان هناك قصد لظهر لنا وبان!». ويقول (بوخنز) الألماني المادي المعروف: «لو كان لهذا العالم خالق لعلمنا الغاية من وجود هذا الفضاء الوسيع (السماوات) والغرض من سبح الأنجم والسيارات فيه ولاستفادت أرضنا من الأنجم السيارة في المنظومة الشمسية وحيث لا نستفيد ولا نعلم الغاية من ذلك، إذن ليس هنالك خالق خلق الأشياء تحت غاية معينة!».

جواب ذلك: إن جهل المادي للغايات والخواص لا يكون دليلاً على عدم وجود غايات حكيمة وخواص في غاية الاتقان. وان العلم البشري لا يزال في مراحله الأولى. أو ما ترى كيف أن الاكتشافات الحديثة توضح وتعلل كثيراً ما كان يجهله البشر سابقاً ويقف على كثير من المقاصد والغايات السامية التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته. راجع تاريخ العلوم لتعلم كيف أن البشر كان يجهل ثم علم. وأن موقع الشمس من الأرض وموقع القمر من الشمس والأرض والمسافات التي رتبها الله بين الكواكب وما هنالك من حركات تشير إلى حكم سامية لا يعلمها إلا علماء رياضيون فلكيون. فلو تغير موضع الشمس عما هو عليه الآن لاستحالت الحياة، وهكذا بالنسبة إلى موضع القمر وبقية الأنجم، ﴿الشمس والقمر بحسبان[1] والنجم والشجر يسجدان[2] والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان﴾.

فإذا بلغ المادي من السخافة والجهل وعدم الاطلاع والطغيان مرتبة ينكر معها الحقائق فإنما الذنب ذنبه، لنقص متأصل فيه. وان أمثال هودسن وبخنر أقل من أن يدركوا المعادلات التفاضلية المعقدة والمعادلات العالية الصعبة الحل وقوانين الفلك العالي المستندة على عصارة الرياضيات العالية.

---

(١) أي يجريان بحساب مقدر.

(٢) أي أنها جميعاً تسجد لله مطيعة حسب ما أودع الله فيها من قوانين وخواص.

فطوبى لمن طهرت نفسه، فإذا نظر إلى السموات العلى، قال خاشعاً خاضعاً وعيناه تفيضان بالدموع: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار»[1]. إنما هذه الدموع رشحات نفس زكية.

الشبهة الخامسة: يقول المادي بما أنا لم نشاهد حدوث المادة ولم نشعر به، إذن فالمادة شيء أزلي وغني عن خالق يخلقها ويوجدها.

جواب ذلك: هل أحس هذا المادي بأزلية المادة وعلم بها علماً يقينياً. ومن المخزي أن يأخذ المادي بالحط من منزلة الفلسفة فيحصرها بالحس والمشاهدة دون ربط عقلي ومحاكمة دقيقة. هل الحكم بأزلية المادة نتيجة لمحاكمات منطقية دقيقة وتعقلات سديدة أم هوى وجحود. ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. وما لهم بذلك من علم. ان هم[2] ألا يظنون﴾[3]. وفي آية أخرى: ﴿وما لهم به من علم. ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾[4]. وفي أخرى: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون﴾[5].

ان الله تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[6]. فالله تبارك وتعالى لم يُرنا كيف خلق السموات والأرض ولم يرنا كيف خلق نفوسنا، لاستحالة ذلك. فكيف يجوز لنا أن نعلم كيفية خلقنا ونحن لم نوجد بعد. فالمعدوم لا يشعر ولا يحيط بشيء.

أو لا يفكر هذا المادي أن المادة شيء مركب وفيها من القوانين والدساتير على ما ثبت في علم الذرة ما يدهش العقول ويحيِّر الألباب. من الذي وضع

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٨.

(٢) إن هم: ما هم.

(٣) الجاثية: ٢٣.

(٤) النجم: ٢٨.

(٥) الأنعام: ١٤٨.

(٦) الكهف: ٥٢.

هذا النظام الخارق وتلك الدساتير والمعادلات في الذرة؟ وكيف كان هناك الكترونات وبروتونات ونيوترونات. حتى كان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر.

من أوجد هذا التعادل؟ ومن حرك الالكترونات حول البروتونات؟ ومن الذي وزعها توزيعاً علمياً؟ حتى كانت هذه العناصر من ذهب وفضة وهيدروجين وأوكسيجين إلى ما هنالك. ومن الذي بنى بناء الذرة الرصين. هذا البناء الذي هو أدق من أعظم الابارتمانات!(Appartment) انه مهندس عالمي، هو الله جلت قدرته: ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

الشبهة السادسة: يقول المادي: أن الالهيين يؤمنون بخالق لا يُدرك بحواسنا، وما لا يدرك بحواسنا معدوم.

الجواب: قد أسهبنا في الفصول السابقة أن هناك كثيراً من الأشياء موجودة ولا تدرك بحواسنا ولكن العقل يحكم بوجودها كالالكترون. يقول الله تعالى في سورة الحاقة. ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون. أنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾. وان الانسان الذي جهز بحب الاستطلاع، إن لم يلوث الفطرة بخموره وفجوره، يعترف بصورة طبيعية بالله تعالى كما يعترف الفيزيائي بوجود الالكترون. ومعلوم أن الالكترون لا يمكن إدراكه مادياً وما ذلك فهو معروف بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. ان المادي ينكر وجود الجن والخوارق. ذلك لأنه يريد أن يرى الجن بحواسه الخمس: فتلمسه يده. (ولكن الجن ليس بمادة). وتسمعه أذنه ولكن ليس للجن حركات في الهواء تؤدي إلى حدوث أمواج هوائية تصطدم بالأذن فبعظمها فالأعصاب، فالمخ حتى تسمعه. ووخلاصة القول ليس الجن من هذه المادة التي تُدرك بالحواس الخمس. ولكنه موجود يعترف به من اعترف بمعاجز الأنبياء (ص)، فالقرآن. ويعترف به من قام برياضات خاصة، فأعطي قابلية خاصة لمشاهدة الجن وشرح ذلك يطول.

---

(١) الحج: ٤٦.

وهكذا الاعتراف بالخوارق، اعتراف بقدرة الله تعالى وبما وراء المادة. وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. واعتراف المادي بروحه وعقله وهما لا يُريان كاف لاثبات ما نذهب إليه. ووجود هذا المادي بهذه الملكات في هذا الكون من أكبر المعاجز والخوارق. فليعترف بنفسه إن كان يصعب عليه الاعتراف بخوارق أخرى. ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

الشبهة السابعة: (١) قد أخذت العلوم الحديثة في الأيام الأخيرة توضح ما في هذا الكون من ظواهر وحوادث دون اللجوء إلى وجود الله!.

(٢) وان الانسان قد وقف بعد هذه المكتشفات العلمية على علل الحوادث الكونية وعلم أن الكون سائر حسب قوانين ودساتير عدة، فليس هناك من حاجة إلى الاعتراف بوجود صانع أزلي وقوة مطلقة عالية.

جواب ذلك: ـ أولاً ـ إن علماء الفيزياء وغيرهم من الذين يعملون في كشف الدساتير والقوانين التي تربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض يعترفون بجهلهم سر الجاذبية الأرضية وحقيقتها وحقيقة الكهرباء والمغناطيس إلى ما هنالك. ويقولون: إنما نعمل في كشف القوانين التي تربط الحوادث بعضها ببعض إما بإلهام أو حدس أو تجربة أو صدفة ولا نعلم السبب الحقيقي لهذه القوانين ونعجز عن تفهم حقيقة هذه المعادلات الفيزيائية وأسبابها. انهم يعترفون بجهلهم العلل والأسباب ويقولون: إنما نرى تعاقب الحوادث بعضها إثر بعض ونظن أنها معللة، حين أنه ليس هناك تعليل وإنما مشاهدة لتسلسل الظاهرات والحوادث.

وهكذا علماء الكيمياء يعملون في وضع الروابط والعلاقات التي تربط العناصر بعضها ببعض حين التركيب والتحليل وكذا علماء النبات يعملون في التعرف على شرائط نمو النبات وتصنيفها وقل مثل ذلك في بقية العلوم، معترفين بأنهم لا يستطيعون تغيير شيء مما يشاهدونه وبجهلهم الأسباب والعلل الحقيقية. وهم في معزل عن البحث عن خالق وضع هذه الدساتير وجهز العناصر بخواص التركيب والتحليل، إلا المؤمن التقي منهم. ذلك لأن البحث عن الخالق موضوع نفسي يترشح عن تكامل النفس وعن صفات يتصف بها الشخص من ورع وتقوى وأخلاق فاضلة. والتقوى كما جاء في

الحديث: «أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك». وأين علماء أوربا من العمل بهذا الحديث. فان معرفة الله لا تحل نفوساً مدلهمة حالكة. وان التفكير في الفيزياء أو الكيمياء تفكير مادي واستعمال للقوى المنطقية Logique التي منَّ الله بها هذا الانسان. وان التفكير في ما وراء المادة تفكير فلسفي لا ربط بينه وبين هذا التفكير الميكانيكي. مثال ذلك: لو أضيفت مقادير متساوية إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية. . . إلى ما هنالك. وإن عملية الضرب ٣٧٥ × ٤٣ مثلاً يقوم به المؤمن والملحد على السواء ولا أثر للاعتقاد بالله في صحة عملية الضرب. إنما هو تفكير مادي يقوم به الحافظة والذكاء (مع جهل الانسان كيفية ذلك) وهو في معزل عن رشحات النفس الزكية وتوجهها إلى الحق.

فقضية البحث عن الخالق وعزوجميع ما في الكون من نوانين وخواص اليه تعالى قضية نفسية بحتة تترشح من نفس زكية. هي رشحات الأعمال الصالحة والتقوى. فان حب الله تعالى أو العشق الالهي لا يحل إلا في نفس مطهرة من الدنس والرين. ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1]. وأين القلب من معادلة تفاضلية في التحليل الرياضي أو دستور الرقاص في الفيزياء.

إن قطع النجار الخشبة إلى أقسام (مثلاً) يحتاج إلى قابلية يدوية وبدنية وليستا من تكامل النفس في شيء. فالنفس أمر مما وراء الطبيعة (Métaphysique) وتقسيم الخشبة وقطعها إلى أقسام عمل ميكانيكي بحت لا أثر للعقيدة في حصوله. فان المكائن التي لا روح فيها تقوم بهذه العملية أيضاً كالانسان من ناحيته الميكانيكية. فهذا خلط بين النفس والمادة واعتبارهما شيئاً واحداً. وهذا شأن من خسر نفسه وكان من الأخسرين أعمالاً. على حد قوله تعالى: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾[2]. وفي آية أخرى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول

---

(١) سورة الشعراء: ٨٩.

(٢) الأنعام: ١٢.

الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

كان يقول (كوستالوبون): «حسب الماديون أن مذهبهم يحل محل الدين، غير أن المادة أصبحت سراً من الأسرار»!.

ثانياً: وأما من يقول بالمقال الثاني: (وهو أن العالم يسير حسب دساتير معينة وقوانين منظمة، فلا حاجة إلى الاعتراف بصانع أزلي)، فهو مجنون، ليس له نصيب من التفكير والمنطق الصحيح. أو مغفل لا يعد في زمرة العقلاء. ذلك لأنه يجعل ما هو دليل واضح على وجود الصانع دليلاً على عدمه. كمن يرى أشعة الشمس بجميع ما هنالك من وسائل تحقيقية وتجريبية ثم ينكر وجود الشمس. أنه ممن ختم الله على قلبه لكثرة ذنوبه، فأمسى جرثومة فساد لا تفيد معه الهداية والاصلاح. ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[2]. نعم، «بل طبع الله عليها بكفرهم» وجحودهم وعدم قيامهم بواجب الشكر تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى.

أليست القوانين نتيجة تدبُّر وتفكر وتعقل؟ وهل يجوز أن يوجد الترتيب والتنظيم دون مرتِّب ومنظم؟ وهل من الممكن أن توجد عوالم الجماد والحيوان والنبات وما في السموات والأرض وحركة الكواكب والليل والنهار والأمطار والأنهار، وأن ترتبط هذه الأشياء بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً دون مدبِّر حكيم؟. وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب على انتفاء الصدفة. وأنه لا يحصل انتظام وترتيب في ما لا يحصى من أشياء متسلسلة مستندة بعضها على بعض بالصدفة، ومع ذلك فلا بد من موجد لهذه الأجزاء المرتبطة بعضها ببعض، والتي تكاد لا تحصى، بقوانين تحير العقول حتى يأتي دور الصدفة. كيف حصل العقل من المادة! (على ما يقوله الماديون؟) وكيف وجد الروح؟

---

(١) الأعراف: ٥١.

(٢) سورة البقرة: ٦.

هل القوة كانت قبلاً أم المادة؟ وكيف انقلبت القوة إلى مادة؟. فلو قلنا أن هناك يداً خفية[1] تعمل في حدوث شيء من شيء آخر وتكامل بعض النباتات والحيوانات، فذاك هو الله تعالى.

إن العلم الحديث لا يزال في عنفوان اكتشافاته للدساتير الرياضية التي أودعها الله تعالى في هذا الكون رابطاً بها أجزاء العالم بعضها ببعض. والعلماء يعترفون أنهم كلما اكتشفوا شيئاً كالأشعة الكونية مثلاً رأوا أنفسهم أمام أودية من المجاهيل. ولكن المتطفلين على العلم الحديث: هؤلاء الذين لم يكتشفوا نظرية رياضية ولا آلة كهربائية يظهرون خباثة بواطنهم الملوثة فيهذرون ويخرصون ويشوهون سمعة العلماء، والعلم مما يقولون براء.

يقول جون جاك روسو(Jean Jacques Rousseau)

«ليس لنا أن نعتقد أن مادة ميتة تقوى على إيجاد هذه الكائنات الحية الكثيرة، وأن الضرورة العمياء تتمكن من خلق الموجودات العاقلة! وأن شيئاً عديم العقل يستطيع أن يوجد أشياء مدركة: (عقلاً). ومن البديهي أن الحركة ليست بأمر ذاتي في الجسم. فلا بد من محرِّك ومتصرف. وأن سلسلة الحركات الكونية كلها تنتهي إلى المحرك الأول وهو الله تعالى».

وأما هرشل فيقول: «كلما توسع أفق العلم، كلما ازددنا معرفة بالله. ذلك لأن العلم يزودنا ببراهين قطعية على وجود الخالق الأزلي القدير الذي لا حد لقدرته».

وأما لينه(Linné) العالم الطبيعي المعروف، فإنه يقول: «يمر أمام عيني ربي الذي خلق كل شيء. أني لا أراه ببصري ولكن نفسي تراه حين تشع عليها آثار عظمته وجلاله وترى ما أودع في هذا الكون من جلائل الأعمال وخوارق لا تعد. يكفيني أن أرى الكائنات الحية الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة كيف جهزها الله بجوارح وأعضاء تحير العقول».

يقول فولتير(Voltair) :«ان الموجودات برمتها تنادي برفيع صوتها أن لها

---

(١) ولا بد منها.

بارئاً قد برأها وصانعاً قد اتقن صنعها». وقد أخرج رواية تتكلم فيها الطبيعة مع فيلسوف، قائلة: «يا بني، ان حيرتك هذه قد جاءتك من أن الناس قد سمتني خطأ: (الطبيعة)، حين أني صانع عظيم، متقن الصنع غاية الاتقان، هل هذه العوالم من حيث الصنع والنظام والترتيب أقل من مكينة ساعة تدق الدقائق. فكما أنه لا يمكن أن يتصور وجود ساعة دون صانع قد صنعها، هكذا لا يمكن أن يتصور هذه العوالم دون صانع قد صنعها واتقن صنعها».

ويقول (جان لاك): «ان العقل هو الذي يرشدنا إلى وجود الخالق، ذلك، لأنا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديماً. ونرى أن العقل يحكم أن ليس للعدم أن يوجد شيئاً، إذن نجزم يقيناً أن ذاتاً أخرى قد أوجدتنا وكونتنا. وهذه الذات، وهي ذات الباري، كانت موجودة بصورة دائمية، أي أن الخالق أزلي سرمدي. وبما أننا مخلوقون من قبل الغير فكل ما فينا من قابليات وإمكانيات فهي منه. إذن وجب أن يكون الموجد في كمال القدرة. وبما أن لنا عقلاً ندرك به الأشياء فوجب أن يكون لموجدنا عقل أيضاً.

ويأتي هذاالفيلسوف بدليل آخر، فيقول: «بما أن جميع ما في هذا الكون حادث ولم تكن قبلاً، فلا بد من وجود قديم أزلي أوجد هذه الأشياء ولم يوجده شيء آخر».

* * *

لقائل أن يقول: لماذا (جان لاك) يعترف بوجود الخالق جل جلاله في محيط غربي مفعم بالشهوات والمعاصي، وقد لا يعترف بذلك من وجد في محيط خير من محيطه، وكيف يترشح من نفسية (جان لاك)، هذه الأفكار التي هي مرآة العقل السليم والفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد لا تترشح من غيره.

ان هذا الموضوع يسترعي الانتباه والتفكير. وقد أوضح الله لنا ذلك في قرآنه الكريم بقوله تعالى في سورة الأنفال: ٢٩ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا

الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾.

فبالتقوى يفرق الانسان بين الحق والباطل وبالتقوى يكفر الله عنه سيئاته ويغفر له ذنوبه، فما من فرد، عدا المعصومين إلا ويحمل ذنوباً: «أحصاه الله ونسوه» لا سبيل إلى تكفيرها ومحوها إلا بالتوبة والتقوى، فتتجلى لهذا الفرد الحقائق بدرجة تطهير نفسه من الذنوب والأرجاس ومن كل ما دنس به نفسه وجعلها متسافلة. فالايمان رشحات النفس التقية الزكية. ولا بأس ان أكرر كلمة أحد الفلاسفة المعاصرين حين يقول: «بترك الكذب يعترف الانسان بمعبود هو الله القادر المتعال».

وأما: «التقوى: أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك». كما جاء في الحديث[1].

ولا بد لمثل (جان لاك) نصيب من التقوى حتى صار يعترف بوحدانية الله تعالى ويقدسه. وان درجة هذا التقديس لتتناسب مع درجة التقوى. يقول الله تعالى:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[2].

وإن أعظم الجهاد هو الجهاد مع هذه النفس الأمارة بالسوء وردعها عن شهواتها ونزواتها وأطماعها[3]. وكلما نجح الفرد في هذه المجاهدة الثمينة المجاهدة مع النفس، كلما زاد يقينه حتى عد من الراسخين، أولئك الذين يصفهم علي عليه السلام بقوله:

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصبحوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى»!...

---

(١) قد أكرر الحديث لأهميته. ولكي يرسخ في الذهن وهكذا بعض الآيات.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) يراد بالأطماع: غير المشروعة منها.

ولا مراء: ان اليقين الحقيقي، يلزمه نور وبهجة وسرور وعدم الالتفات إلى ما سوى الله والاستغراق في أبحر عظمة الله والمثول بين يدي الله صاغراً ذليلاً، يلزمه القيام بالأعمال الصالحة وبر الوالدين وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواضع واحترام الكبير والرفق بالصغير ومعاملة الأهل معاملة ملؤها الشفقة والحنان. «خيركم أبركم بأهله». يلزمه بذل كثير وإنفاق دائم وتصدق مستمر حتى يقال: انه أسرف، وخدمة الجار وإيجاد عمل للعاطلين في حدود الامكان، (وما أكثر امكانيات هذا الانسان لو لطفت نفسه ورقت روحه)، يلزمه: الاهتمام بأمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يلزمه تهجد ومناجاة وبكاء واعتراف بالذنوب وتذلل وخشوع، يلزمه استغفار عملي واستغفار عبادي.

والاستغفار، كما يقول علي عليه السلام: «درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُّحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: ان تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك، تقول: أستغفر الله.

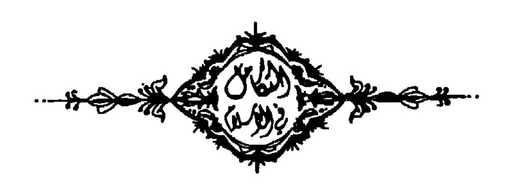
وقد يستشم مني البعض التقشف عند ذكري بعض الأحاديث التي بعد الناس عن مصاديقها وتطبيقها ولكن الاسلام يجب أن يعرض كما هو، فيستقى من ينبوعه الفياض كل بحسب قابليته وجده وجهده: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ (سورة النجم: ٤٠).

* * *

يقول أحد علماء الألمان: «الاسلام جوهرة وغطاؤها المسلمون».

ويقول أحد فلاسفة الغرب: «إن المسلمين بعدم مباشرتهم هذه القواعد يقترفون جرماً عظيماً، لأنها هي الغايات التي تتمناها الفلاسفة».

ويقول ليوبو لدفايس[1] في كتابه «الاسلام على مفترق الطرق»: «ان تقليد المسلمين ـ سواء أكان فردياً أم اجتماعياً ـ لطريقة الحياة الغربية لهوَ بلا ريب أعظم الأخطار التي تستهدف لها الحضارة الاسلامية». ويقول أيضاً: «أننا نحلم بنور الاسلام ينتشر على البلاد المترامية، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفرُّون عن آمالنا!».



(١) انه نمسوي الأصل، اعتنق الدين الاسلامي سنة ١٩٢٦ م، وتسمى باسم (محمد أسد). فحسن إسلامه وأصبح من دعاة الاسلام.

علة بعث الأنبياء (ع)

إن هذا العالم بأسره بما فيه من نظم ثابتة وقوانين محكمة تدل دلالة صريحة على أن صانعها مدرك حكيم عليم. فان السيارات تدور في أفلاك ومنحنيات لا يمكنُ لأكبر رياضي فلكي أن يعين حدودها ويضبطها بدساتير دقيقة إلا القسم اليسير منها جداً. وإن ما ندرسه في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض أكبر شاهد على أن صانعها عالم حكيم خبير قد اتقن الصنع إلى حد بعيد. وان آلاف الكتب في العلوم المادية تدل دلالة واضحة على سعة علم الصانع واتقانه الخلق إلى أبعد الحدود. ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾. ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

فلا يعقل بعد هذه المقدمة أن الله تبارك وتعالى يخلق شيئاً عبثاً: ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾. وفي آية أخرى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. (سورة الدخان: ٣٨، ٣٩).

فالانسان لم يخلق عبثاً، وإنما خلق للتكامل والاختبار والابتلاء. ليرى نتيجة عمله، فان أصبح من الفائزين دخل الجنة ونعم الثواب، وإن أمسى من الهالكين دخل النار وبئس المصير.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾. انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج[١] نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾. ﴿إنا هديناه السبيل اما شاكراً وما كفوراً﴾.

---

(١) اخلاط، لأنه من مجموع ماء الزوجين.

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرضه على الماء ليبلوَكم أيُّكم أحسن عملاً﴾.

يدخل في هذا الاختبار الفقير والغني: يدخل فيه الوزير والعامل والموظف والكاسب. ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

فالدنيا مدرسة يديرها الله وتعطى درجات لطلابها، فالراسب فيها مصيره جهنم والناجح فيها مصيره الجنة. فلا أسف لمن سقط في امتحان المدارس. فمجالات الحياة متنوِّعة، ولعل كثيرين نجحوا في امتحان المدارس ورسبوا في الامتحان الالهي وكانوا من الخاسرين مدى الدهور.

وكان من عدل الله ولطفه أن يلهم البشر طريقي الخير والشر. وقد فعل ذلك، وألهم البشر عندما خلقه طريقي الخير والشر: ﴿ونفس وما سوَّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسَّاها﴾. ويقول الله في محل آخر من القرآن المجيد: ﴿وهديناه النجدين﴾. أي طريقي الخير والشر.

فالانسان عالم بالخير والشر بصورة فطرية ولكنه ظلوم كفار! ميال إلى الشهوات. فأرسل الله تعالى الأنبياء عليهم السلام لا ليقوِّموا اعوجاجه فحسب، بل ليدربوه على اتباع الطريق الذي يؤدي به إلى التقرب إلى الله عز وجل ليكون أعلى منزلة من الملائكة. ففتح الله للبشر الطريق، على لسان أنبيائه، للتقدم في الدرجات العلى، درجات لا يستطيع تصورها من لم يمارس تزكية النفس وتطهير القلب من الدنس والرجس.

فالانسان في هذه الدنيا أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها معادن خسيسة رديئة وفيها معدن نفيس ثمين، فعليه أن يطهر نفسه من الأوساخ أي من المعادن الخسيسة بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وبكاء وبأعمال صالحة لوجه الله تعالى دونما رياء، ليذهب من هذه الدنيا بمعدن نفيس ثمين وليكون أهلاً للقاء الله تعالى أي ليكون قميناً للتقرب من الساحة القدسية الإلهية.

نرى أن الخلق على نوعين: خلق تكويني، كخلق الكواكب والأنجم

والمعادن والنباتات والحيوانات، وخلق أمري: كخلق الأنفس والأرواح: «قل الروح من أمر ربي».

فالمخلوقات الكونية لا اختيار لها. انها مطيعة منقادة لقوانين أوجدها الله فيها. فالجاذبية الأرضية تجذب والبخار يتصاعد وان حجمه يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط وطردياً مع الحرارة. هذا شيء ثابت لا تغير فيه في العالم الدنيوي. كما أن زمن الذبذبة الواحدة للرقاص (باندورل) يتناسب تناسباً طردياً مع الجذر التربيعي لطول الرقاص وعكسياً مع الجذر التربيعي للتعجيل الأرضي لمحل وضع فيه الرقاص. وكذا تركيب الماء، أسيد آزوتيك، أسيد سولفوريك، ثابت لا يتغير. ونرى عين هذه الحالة في عالم الزراعة والالقاح والعضويات. فمن درس الكيمياء وكتاب الطبيعة علم أن البشر لا يخترع بل يكتشف خواص موجودة قبلاً وقابليات مخلوقة سابقاً. فالله يساعد الانسان بما أودع فيه من قابليات فكرية: من حدس والهام واستقراء واستنتاج وتجريد وتعميم لكشف هذه الخواص.

لكن النفوس والأرواح مختارة... في امكانها أن تسرق وأن لا تسرق. وفي امكانها أن تزني وأن لا تزني، أن تشرب الخمر وأن لا تشرب. فهي اذن: بحاجة إلى مرشد يرشدها وهاد يهديها إلى الطريق السوي.

حين أنه ليس هناك من ضرورة إلى مرشد ليجعل حجم البخار يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط.

فالبشر بحاجة إلى معدل يعدله ومقوِّم يقومه. فالأنبياء (ع) والأوصياء من بعدهم معدِّلون ومقوِّمون.

ونظرة بسيطة إلى الاختلاف الحاصل في القوانين البشرية وأنظار الفلاسفة أو تناقضها وتغيرها في كثير من الأحيان مع اتحاد الظروف والأوساط تجعلنا نعترف بأن البشر ناقص ليس من شأنه أن يسن قانوناً لا نقص فيه يؤدي به إلى سعادة النشأتين.

البشر يريد أن يعامل بالربا ويريد أن يظلم ويريد أن يزني ويريد أن

يشرب الخمر ويريد أن يقوم بكل ما يفسد النفس، هذه النفس الأمارة بالسوء ولكن الله لا يريد أن يرى ناقصاً في ما خلق ويريد تكميل هذا الانسان.

ذلك لأنه لا يترشح من الكامل على الاطلاق، وهو الله تعالى، إلا الكمال. ولأن كل ما في هذا الكون في غاية الكمال. وان المعادلات الرياضية التي تربط أجزاء العالم بعضها ببعض لأكبر شاهد على وجود هذا الكمال. وان ما نرى من خواص وجمال وتناسق في الأزهار والأوراق وما نرى من أشكال هندسية دقيقة في الثلج المتساقط من السماء وما نرى في الذرة وغير الذرة من كمال خارق وقوانين رصينة تنزه الله تعالى عن كل نقص وتقدّسه. وتسبّح الله بأنواع التسبيح: «وان من شيء ألا يسبّح بحمده»: أي تنادي بصوت رفيع: أن الذي خلقها قد خلقها في غاية الاتقان ويستحيل عليه النقص. على أن هناك تسبيحاً آخر لا نفقهه، على حد قوله تعالى: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. وقوله تعالى: ﴿يا جبال أوّبي معه والطير﴾. وقوله تعالى: ﴿لو نزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله﴾. فلا يجوز لهذا الانسان أن يحيد عن سنة الكمال التي أودعها الله تعالى في كل ما خلق، وما عليه إلا أن يتكامل ويسير نحو ما قرّر له من كمال منشود. فإن حاد وزاغ فقد خسر نفسه ومأواه النار. فجهنم آخر محل لتطهير من تلوث وفسد أو تعذيبه.

وإنما أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تحقيقاً لسنة الكمال في هذا العالم. ولولا الأنبياء لما عرفنا الله ولما تكاملنا ولما تمكنا من أن نتقرب اليه تعالى. فالأنبياء ومن بعدهم الأوصياء سلام الله عليهم أجمعين أنوار نستضيء بهم ونهتدي بهداهم.

فالله الذي خلق ما لا يعد من الأنجم وجعلها لا تصطدم بعضها ببعض ورتبها ترتيباً متقناً ما بعده ترتيب: ﴿ولئن زالتا أن امسكهما من أحد من بعده﴾ حتى أصبحت لا تصطدم بعضها ببعض، لا يخلق ما خلق عبثاً، لا يخلق هذا الانسان ليسعى في الأرض فساداً، فلا كمال ولا حساب!: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

وقد حسب «جيمس جينز» أن اصطدام نجم معين بنجم آخر يحتمل مرة واحدة في كل (٦٠٠٠٠) مليون مليون سنة أي في (٦ × ١٠^١٦) سنة. وباعتبار ما للنجوم من أعمار وهي على الأرجح أكثر من ١٠٠٠٠٠ مليون عام أي (١٠^١١) سنة. ينتج أن الذي يكون قد تصادم من بين الكواكب لا يزيد عدده من نجم واحد في كل خمسين مليون نجم.

كان يظن الفلكي في القرون الماضية أن هناك نجوماً ثابتة لا تتحرك وأن هناك نجوماً سيارة سميت بالكواكب وهي التي تدور حول الشمس كالأرض والمريخ. وقد علم أخيراً أن كل ما في الكون متحرك، فالنجوم كلها تتحرك وتجري تحت قوانين معينة ثابتة وهي تدور أيضاً حول نفسها. وعلم أن النجوم الزرقاء أسرع دوراناً حول نفسها من الصفراء.

ولأجل أن نعلم سعة هذا الفضاء الذي خلقه الله تعالى نقول: أن أقرب نجم إلى الشمس يبعد عن الشمس ٢٦ مليون مليون ميل. وهذا مما يدل على المسافات الشاسعة والفراغ الكبير بين الأنجم. وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل. ولا نعلم أفمن أجل هذا كثر التزاوج بين النجوم استيحاشاً واستئناساً. ان رابطة الجاذبية تربط النجمين، فلا يستطيعان فكاكاً. وحيثما وجهنا المنظار إلى السماء وجدنا أزواجاً، انها ألوف الوف، انها الثنائيات النجمية، ومداراتها أهليليجية، ذات تفرطح عظيم وقد وجب أن تكون هكذا وهذه هي الزوجية التي يقول عنها القرآن الكريم: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. فالوحدانية له تعالى وحده والزوجية متجلية في الذرة: (الالكترون والبروتون)، وفي السماء، وفي النبات والحيوان. فالله الذي جاء بهذا الكمال العالمي، لا يريد بهذا الانسان إلا الكمال والتكامل. لذلك كان طبيعياً أن يرسل أنبياء هادين مهديين.

نظرة واحدة إلى هذا الكون الذي فيه ملايين من المجموعات الشمسية ومجرات تبعد عنا (٧٥٠ , ٠٠٠) سنة ضوئية ومجرات تبعد عنا مئات الملايين من السنين الضوئية[1] تكفي ليتصاغر الانسان أمام عظمة الله تعالى، فيفكر في

---

(١) سرعة الضوء ٣٠٠ ٠٠٠ كيلومتر في الثانية وبما أن السنة ٣١٥٣٦٠٠٠ ثانية. فالسنة الضوئية ٩٤٦٠٨ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ كيلومتر.

نفسه وعلة وجوده، فلا يركبه الغرور على ما منَّ الله عليه من مخترعات، بل يزداد يقيناً بخالقه وخالق المخترعات. فتقوده فطرته إلى هذه النتيجة: ان الله الذي اتقن خلق العوالم جميعاً جل أن يلهو فيريد بالانسان اللهو واللعب! بل ان غايته وأهدافه تتناسب مع عظمته، فلا بد للانسان من تكامل، ولا بد من إرسال من يقدمون لهذا البشر دساتير هذا التكامل وطرق هذا السير التكاملي وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

الله الذي جعل لبنات ثلاثاً في بناء الذرة: (١) الألكترون. (٢) البروتون، (٣) النيوترون. وأودع فيها من نظام ثابت بديع مثل ما تتدرج نغمات الموسيقى الثمان في مفاتيح البيان(Octave) حتى تمكن العلماء بذلك النظام من إيجاد عناصر جديدة، استخدموا بعضها في القنبلة الذرية، وتمكنوا من هدم العناصر وبنائها من جديد وإحالة الراديوم إلى هليوم وإلى رصاص، واحالة النتروجين إلى أوكسجين وإلى كاربون وإحالة النحاس إلى زنك ثم إلى نيكل الخ، لحقيق بأن يودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم. ومن أهم هذه الأجزاء هو هذا الانسان الذي يظنه البعض لظلمات في نفوسهم أنه حرٌ في الافساد وإيجاد الفساد! فلا حساب ولا كتاب! ﴿ولا تبغِ الفسادَ في الأرض﴾[1].

ان الانسان قد عمل لحد اليوم إلى حد ما كي يجيب عن (كيف؟) في فهم أسرار الكون. ولكنه لا يزال بعيداً جداً من أن يجيب عن (لماذا؟).

يقول أينشتين: «ان أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام. ان الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، حي كميِّت. انه خفاء لا نستطيع أن نشقَّ حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة، أحكم ما تكون، ونحسُّ أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون، وهي حكمة، وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور لهما بدائية أولية. وهذا الادراك للحكمة، وهذا الاحساس بالجمال في روعة، هو جوهر التعبد عند الخلائق».

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

انه يقول: «إن ديني هو اعجابي، في تواضع. بتلك الروح السامية التي لا حد لها! تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع ادراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للافهام. وان هذا الايمان يؤلف عندي معنى الله»!.

فالله الذي يعترف به «أينشتين»، (وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره، وأحقهم بالكفر إن كان علم يدعو إلى كفر، وأولاهم باتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق، من إغفالهم ذكر الله)، أعلى وأجل من أن يلهو وأن يريد بهذا الانسان فوق البسيطة، النقص: نقصاً في الخلق، نقصاً في المعاملات والحياة الاجتماعية، نقصاً في العفاف والعفة، نقصاً في البذل، نقصاً في التوجه إلى خالقه ومعبوده، نقصاً في النفس. وقد ظهرت بأمره وقدرته روائع الكمال في جميع أجزاء هذا الكون.

فكان حقيقاً على الله أن يتصدى إلى تكميل الانسان بارسال الرسل ويجعلهم في الأرض أئمة أدلاء على مرضاته لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1].

* * *

إن الله قد وهب الانسان من الفكر والذكاء حتى تمكن، بما أودع من نظم ودساتير متقنة عند خلق هذا الكون، من أن يعلم أن كوكب (السماك الرامح) تبعد عنا ٣٨ سنة ضوئية ويعلم أنه إذا أريد الاتصال به (بالسماك الرامح) بالراديو الآن لوصلت اليه رسالتنا بعد ٣٨ سنة ويجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى كي يأتينا الجواب من الكوكب المذكور. ويعلم أن سرعة أمواج الراديو كسرعة الضوء: (٣٠٠٠٠٠ كم/ثانية)، ويعلم أننا نرى اليوم سنة ١٣٧٩ هـ أو ١٩٥٩ م طيفاً وخيالاً نقله إلى أعصابنا البصرية شعاع انطلق من مصدره سنة ١٣٤٠ هـ أو ١٩٢١م فقبل حلول سنة ١٤١٨ هـ أو ١٩٩٧ م وهو موعد

---

(١) سورة الأنبياء: ٧٣.

وصول جوابنا إلى الكوكب المذكور لا نستطيع أن نقطع فيها إذا كان (السماك الرامح) موجوداً حقاً. على أنا يجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى لوصول الجواب الينا. عند ذلك نعلم أن الكوكب المذكور كان موجوداً سنة ١٤١٨ هـ أو ١٩٩٧ م. ذلك لأن كواكب تتشكل من جديد وأخرى تفنى وتبيد.

كل ذلك كافٍ بأن يحمل هذا الانسان، قبل أن يلوث نفسه، على التفكير في عظمة موجد هذا الكون وموجد هذا الانسان، ويستنتج من كل ذلك أن أهداف الخالق يجب أن تتناسب مع عظمته وكماله. وهذا يؤدي إلى القول: بأن الله المنظم لهذه الكائنات تنظيماً لا يتخلله أي نقص لجدير بأن يأخذ بهذا الانسان إلى التكامل والتقدم الروحي والخلقي فيرسل أنبياء ومرسلين لتهطير الناس مما علق بهم من أدران: ﴿ان الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين﴾، ينيرون لهم ما ادلهم عليهم من سبيل ويضيئون لهم الطريق، فيأخذون بنفوسهم إلى حيث الكمال والخلود. فقد قال رسول الله (ص): «إنما بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق». وقد خاطبه الله تعالى: «وانك لعلى خلق عظيم».

* * *

الله الذي سخر لهذا الانسان ما في السموات[١] وما في الأرض[٢] والشمسَ والقمر[٣] والليل والنهار[٤] والبحر[٥] والفلك[٦] والأنهار[٧] جلَّ أن يريد بهذا الانسان أن يكون آلة فساد في هذه الدنيا يتسافل يوماً بعد يوم بظلمه وطيشه وغروره حتى يقول المتطفل على العلم الحديث متبختراً: ان العلم ينتزع الفضاء وان العلم يسخر من الطبيعة وان العلم هو حلّال

(١) سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. (الرعد: ١٢).

(٢) سخر لكم ما في الأرض. (الحج: ٦٥).

(٣) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين. (ابراهيم عليه السلام: ٣٢).

(٤) وسخر لكم الليل والنهار. (ابراهيم عليه السلام: ٣٢).

(٥) وهو الذي سخر البحر. (النمل: ١٤).

(٦) وسخر لكم الفلك. (ابراهيم عليه السلام: ٣١).

(٧) وسخر لكم الأنهار. (ابراهيم عليه السلام: ٣١).

المشكلات، فيجعله معبوداً له، دون أن يتوجه إلى معطي العلم وواضع العلم في هذا الكون، بخشوع وخضوع.

فالله تبارك وتعالى إنما سخر لهذا الانسان ما سخر وهيأ له أسباب التعرف إلى بعض ما أودع في هذا الكون من خواص وقوانين لكي يتكامل نفسياً فتتحقق انسانيته ولكي يتطهر مما علق به من رجس ودنس. وبما أن الوصول إلى هذه الغاية العظمى التي هي غاية الغايات غير حاصل إلا على أيدي الأنبياء الطاهرين وبما جاؤوا به من سنن تكامل النفس من جانب الله تعالى، لذلك أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل يهدون البشر سواء السبيل.

ولا مراء أن الله أعرف بطرق تكامل النفس من هذا البشر الملوث، لأنه هو خالق النفس ومبدعها. فلا تفيد متابعة رأي الفيلسوف أو علماء النفس في سير الانسان التكاملي لأنه بشري غير سماوي، ولأنه يحمل من نفس الفيلسوف غير المتكامل ما يناسب نفسيته وهو غير ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع)، فلا تكامل ولا نجاة إلا باتباع سنن الأنبياء (ع) ودساتيرهم تلك التي لم تمسها يد التحريف.

* * *

كان نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وأكملهم خلقاً وخلقاً، جاء بشريعة سمحاء، لا تتغير ولا تتبدل، من لدن رب العالمين، «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»، وقد هدى البشرية إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم بتعاليمه وأعماله. وقد قال الله تعالى فيه: ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

فلا أخلاق أعلى من أخلاق الرسول وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين. عبادتهم فوق العبادات وخشوعهم لا يقاس بخشوع غيرهم من البشر. فمنْ أراد أن يتطهر ويتزكى، فعليه أن يقتفي آثارهم ويسلك مسالكهم.

فاقرأوا الأدعية الواردة عنهم، لتروا كيف يجب أن يقابل العبد مولاه.

نعم، إن الديانة الاسلامية لا تقتصر على العمران الدنيوي فحسب وقد

أدت حقه بنظمها المتينة وقوانينها العادلة، ولكن للديانة الاسلامية غاية أعلى وأرفع وهي ايصال الفرد إلى الدرجات العالية من التقرب إلى الله تعالى والدنو من الساحة القدسية.

فكلما طهر الانسان من الرجس وكلما عمل صالحاً يرتضيه الله ولوجه الله، تقرب إلى الله وأحبه الله وقرّبه منه، حتى يصبح مصداق هذا الحديث: «عبدي أطعني، أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». وفي الحديث القدسي يخاطب الله الإنسان بقوله: «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي». وفي القرآن الكريم: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾.

قال رجل للصادق (ع): ما علامة المؤمن؟ فقال (ع): «أن يقول للشجرة تأتي، فتأتي». فشقّت الشجرة الأرض وتوجهت نحو الصادق (ع).

فللانسان قابلية سامية تعلو جميع القابليات: قابلية الخلق والابداع باذن الله تعالى وذلك بعد تزكية النفس، ولكن لاعلى ما يتصوره الغربي، ذلك لأن الغربي يعلم شيئاً من ظواهر الطبيعة فحسب وذلك بصورة ناقصة، كما يعترف بذلك كبار علمائهم. كان يقول (كوستاولوبون): «قد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة». فهذا مبلغ علماء أوروبا من العلم بما وراء الطبيعة.

قام في الغرب، مهد الفجور والفسوق، ثلة من الناس أرادوا أن يسنوا سنن تزكية النفوس وأسموها تطهير العقل أو غسل الدماغ(Brainwashing) وأخذوا يوصون أتباعهم بالنوم على الأرض والأكل القليل والتقشف والتخشن والصمت، ظناً منهم أن هذه الدساتير البشرية توصل الفرد إلى كمال ما[1]، أو إلى الحقيقة الواقعية، وضنوا على أنفسهم بأن يستقوا من تعاليم محمد وآل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين، تلك التعاليم التي قد جاءت من جانب

---

(١) إن ما ذكر من الأعمال قد توصل الفرد نتيجة رياضات خاصة إلى ما يميزه عن اقرانه من ملكات وقابليات جزاءاً منه تعالى في الدنيا. ولكنها أرضية بشرية لا تصفي النفوس ولا تزكيها ولا تجعلها مستعدة لآخرة سعيدة. وشرح ذلك يطول.

الله تعالى من وراء الطبيعة، لاصلاح نفوس ليست من المادة في شيء وتهيئتها لسعادة الدارين.

وما معنى تطهير العقل أو غسله؟ إن التزكية أمر نفسي تتصل بفعال النفس مباشرة. والعقل الفطري لا يحتاج إلى غسل أو تطهير. ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾. وقول علي (ع): «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى» بل العقل يعمل عمله ما دامت النفس أكنة أن يفقهوه﴾ وقام مقامه الشيطان ونفس مطيعة لهواها ولما يملي عليها شيطانها. فقد قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً». إلا أن التوبة وملافاة ما فات ترجعان إلى الانسان عقله الطبيعي الفطري، ذلك العقل الذي يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان.

إن هذا النوع من الخلق والابداع خلق فجائي باذن الله تعالى دون مقدمات. وهي معاجز قد أظهرها الله تعالى على أيدي الصفوة من عباده. فمحمد (ص) ليس مصلحاً فحسب، بل هادٍ وموصل بعض الأفراد إلى الدرجات العلى، درجات لا يعلمها ولا يدركها إلا من قطع هذا الطريق. موصل إلى مقامات لا تدخل تحت مختبر الكيميائي ومجهر العالم الطبيعي، مقامات قد ينكرها بادىء بدء كل من مارس الحياة المادية وعلومها وقوانينها المادية ولم يمد يداً إلى عوالم تطهير النفس ولم يشم رائحة من روائح ما وراء الطبيعة الفواحة.

إنما بعث الله الأنبياء لتكميل البشر بصورة تدريجية في عوالم النفس، ذلك لأن الانسان انسان بنفسه وروحه لا بعظامه وعضلاته وبزّته وأثاثه. وليس من وظائف الأنبياء (ع) تعليم الناس الفيزياء والرياضيات والكيمياء. ذلك لأن قوانين الفيزياء والدساتير الرياضية لا تمتُّ إلى النفس الانسانية بصلة ولا علاقة بينها وبين مراحل تكميل النفس الانسانية. فالمهندس يعمل حسب ذكاء أودعه الله فيه ويضع التصاميم الهندسية سواء كان مؤمناً أو كافراً أو وثنياً. ثم أن قوانين العلوم الحديثة تكاد لا تتناهى، لعدم تناهي علم الله تعالى، لذلك أوكل الله تعلم هذه القوانين إلى ذكاء الانسان نفسه، وعلمه طرق الملاحظة

والتجربة والاستنتاج والاستقراء، فكانت هذه الدساتير التي نراها في طيات الكتب وهذه العلوم والمكتشفات.

ولقد سمعت أحدهم، كان يفاضل بين أديسن «هذا الذي كان يؤمن بالله وبالنبي عيسى (ع)» وأحد الأنبياء ظناً منه أن الحياة لا تستقيم إلا بالكهرباء. والناس كانوا موتى قبل ذلك!...

لم يؤتِ بهذا الانسان إلى هذه الدنيا لكي يتنعم بالكهرباء فحسب، (مع قلق لا مزيد عليه)، بل الغاية الأسمى من وجوده في هذه المرحلة الدنيوية: التكامل: التكامل في عالم النفس، في عالم الأخلاق، في عالم الروح، والتطهر من كل رجس ودنس. ولا يقدر بل لا يفهم ما أقول من كان بعيداً عن هذا العالم القدسي، منغمراً في أحضان المادة العمياء. ولا ينظر إلى هذا العالم إلا من الناحية المادية أو الاقتصادية فحسب. فقد جاء في الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة». وفي القرآن الكريم: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. فالنبي (ص) يعلم البشر سنن التقوى، سنن التكامل، سنناً بها يكون الانسان ملكاً من الملائكة.

فهنا حرثان(Culture) حرث دنيوي وحرث أخروي، فلو اقتصر الفرد على الحرث الدنيوي تسافل إلى حضيض المادة «إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً» ولكن لو أخذ نصيبه من الحرثين، بل آثر حرث الآخرة على حرث الدنيا كان من الفائزين المقربين: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾. ولذلك يذكر الله تعالى عباده بالحياة الآخرة ولزوم التهيؤ لها حين يأمر بالعمل في هذه الدنيا من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها بقوله وإليه النشور: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور﴾.

ان الله تعالى أرسل الأنبياء لتزكية الناس وتطهيرهم مما علق بهم من أدران وأوساخ على حد قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. (سورة الجمعة: ٢).

بعثهم ليعلِّموا الناس الحلال والحرام، لأن النفس الانسانية تتردى وتتدنَّس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال.

بعثهم ليعلموا الناس آداب المعاشرة والاجتماع ليعيش الناس في دعة وسلام مؤمنين مُحبتين.

بعثهم ليعلِّموا الناس الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس فتخرج من الظلمات إلى النور: «إن الحسنات يذهبن السيئات».

بعثهم ليجعلوا هذا الانسان (لو اتبع الحق وأطاع) انساناً كاملاً بالمعنى الصحيح ولتأسيس الانسانية الكاملة في هذا العالم. لا في تلك المرتبة التي يفهمها من كلمة Humanité انسانية) الفيلسوف الغربي.

وليس للبشر أن يعدِّل ما سنَّه الله على لسان أنبيائه، مع اختلاف الظروف والأوساط والأزمنة. ذلك لأن الله تعالى أعرف بحاجات البشر وطرق تكامله، ولا تنظر هذه السنن الالهية إلى حاجات بهيمية مؤقتة أو أمور دنيوية عاجلة فحسب، بل تهدف إلى تكميل النفس الانسانية وجعلها قمينة بالخلود في ﴿ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر﴾. على أن الفقهاء يستنبطون أحكام ما جدَّ من أمور وحوادث على ضوء النصوص والقواعد العامة ولا يخرجون عن فحواها وحقيقتها.

إن البشرية مغرورة في يومنا هذا في أفكارها مع كثرة جهلها النواحي الروحية وانغمارها في كثير من الملاهي والمفاسد. وان الاصلاح الحقيقي ينحصر في الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه الأمين وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين. لا إدخال ما جاء من أوروبا المضطربة من المدنية الغاشمة الفاسدة في دين محمد (ص) الطاهر. فتحليل الربا وتجويز البغاء ومجالس اللهو والطرب ليس من الاصلاح الحقيقي في شيء.

ان الله يريد أن يطهر النفوس الانسانية ويقربها إليه، ﴿خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1]. ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم

(١) سورة التوبة: ١٠٤.

آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.
فلا إمكان لنيل هذه الغاية الشريفة إلا أن يكون الانسان مصداق كلام علي (ع) حيث يقول: «صبروا أياماً قليلة. أعقبتهم راحة طويلة». ولا أعني بالصبر، الصبر على الضيم والأذى. «فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين». والمؤمن يعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فانه منهم، ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة المائدة: ٥٦). بل يراد بهذا الصبر، الصبر عن الشهوات والنزوات والجلد تجاه النوائب والكوارث.

إن دين الاسلام وهو خاتمة الأديان دين تزكيه وتطهير، بنواميسه وقوانينه وواجباته مستحباته: «الذي يؤتي ماله يتزكى». ﴿قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها﴾. ﴿ومن يتزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾.

إن تقهقر المسلمين ليس إلا لأنهم تركوا العمل بما أمر به الله ورسوله (ص) وقلدوا الغرب في كثير من شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية. فليس الشرق بمحتاج إلى الغرب إلا في العلوم المادية، من صناعية وزراعية وميكانيكية وهندسية... الخ. ولكن الشرق (ومع الأسف) قد تأثر بكتب الغرب الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية والمادية والالحادية أكثر من صنايعها واكتشافاتها في عوالم المادة. فصار الشاب (إلا من عصم الله) يزدري بعض ما كان يعتقد سابقاً من عقائد دينية وهو لم يبلغ من العلم المادي مبلغاً يذكر وهو حين يزدري يظن بل يوقن أنه قد انفتح عليه باب من أبواب العلم الحقيقي وقد بلغ مرتبة مرموقة من ثقافة العصر!. وقد تبلغ به الحالة إلى الالحاد!. ومع الأسف، فقد باع بعض الأمم الاسلامية تلك المدنية الاسلامية القويمة لاقتناء هذه المدنية المادية الحالكة ظناً منهم أنهم بلغوا مرتبة مرموقة من التقدم والتطور. حين أنهم أضاعوا المقدسات واندكوا في القومية الغربية. على أن هنالك امارات تبعث على الاعتقاد بأنهم سوف يرجعون إلى تطبيق قواعد الاسلام عن قريب إن شاء الله، معترفين بأن الكمال النفسي ليس من المادية في شيء.

إن التطور ذو جنبتين: تكامل إلى العلى، وتدهور إلى أسفل سافلين.

لكن العصري المتجدد، يزعم أن الحياة في تقدم مستمر وكل شيء في تقدم. فلا تردي ولا تدهور. فذهاب العصمة والعفة مثلاً ليس إلا نوعاً من التطور. ويجب أن تتابع القوانين الموضوعة (الوضعية) هذا التطور وإلا فالحياة غير ممكنة! كلا. لا تطور للاسلام. الاسلام دين ثابت وأوامر الله ثابتة لا تتغير، وهو أعرف بطرق تكامل من خلق من عباد. فإذا رأينا أن التيار اللاديني (لا سمح الله) أخذ في وقت من الأوقات في ازدياد، علينا أن نسلّم لهذا الحديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

فيكون، إذ ذاك واجب المسلم الغيور على دينه، من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أعظم. ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾. (سورة آل عمران: ١٠٠) وقد فسِّرت: (الخير) في الآية، بالاسلام.

ففي هذا اليوم، في كل بقعة من بقاع الأرض، شرقها وغربها عدد غير قليل من المسلمين، يؤدون الفرائض، يصلون ويصومون، وقد جاء في مجلة العرفان، عن طالب كان يدرس في الغرب: أنه بينما كان يسير في شوارع إحدى العواصم الغربية وإذا به يرى رجلاً شيخاً واقفاً على عتبة داره يؤذن للظهر بصوت رفيع، يقول هذا الطالب: تريثت حتى أتم الشيخ أذانه، سلمت عليه فرد عليَّ السلام وزيادة قائلاً: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته». عملاً بهذه الآية الشريفة: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردوها﴾. ثم تعارف معي وأدخلني داره. فقام هو وزوجته يصليان صلاة الظهر. ثم طلبا إليّ أن أتناول طعام الظهر معهما. فلم يبدءا بالأكل حتى قالا: «بسم الله الرحمن الرحيم». وبعد الانتهاء من الطعام، قالا: «الحمد لله رب العالمين»، فسألت عن وظيفة يقوم بها الشيخ المؤذن المسلم. فقال: انه استاذ في الجامعة. وبلغ مرتبة(Doyen) شيخ الأساتذة.

فدين الاسلام، دين يعتنقه كبار المفكرين من الذين صلحت أعمالهم وطابت نفوسهم. وهذا (برنارد شو)، يقول: «لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً». وكان يقول كارليل: «باتباع التعاليم الاسلامية يصبح الانسان إماماً كبيراً لهذا المعبد: (الكون)». وقال أيضاً:

«كان العرب يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون. فلما جاء النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان. وكثروا بعد القلة وعزوا بعد الذلة، ولم يمضِ قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم».

ولو قام المسلمون بتأسيس جمعيات للنشر والتبشير في أصقاع الغرب لأسلم ملايين من الناس ولأصبح الاسلام ديناً عالمياً.

كان جابر الجعفي من كبار المجاهدين في الكون وكان ينشر أخبار محمد وآل محمد (ص)، وكان قد حفظ سبعين ألف حديث سمعها من الامام محمد الباقر (ع). فما راق الحاكم ما كان يقوم به جابر، لأن أهل البيت (ع) كانوا مضطهدين في العصر الأموي. وأحس جابر بأن الحاكم قد أمر بالقبض عليه، فلم يرَ بداً من أن يضع على رأسه قلنسوة من خوصٍ ويتخذ عصاً كحصان له ويركض في الطرق والشوارع كالمجانين، فحسبه الحاكم مجنوناً وتركه، ثم ان جابراً رجع إلى جهاده ونشر أخبار أهل بيت العصمة عليهم السلام بعد سنتين وبلغ مراده.

فلنقتفِ آثارِ أولئك الأبطال الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل نشر هذا الدين: ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾. (سورة الكهف: ٢٩).



كيف يختار الله أنبياءه عليهم السلام

ان الله تبارك وتعالى هو معطي الكمالات، فلا ترى أيَّ خلل في ما خلق، وان جميع المخلوقات من مادية وروحية مرتبطة بعضها ببعض، تشير إلى أن خالقها واحد لا شريك له: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

وان من توغل في فلسفة العلوم التي تربط عصارات العلوم ونتائجها بعضها ببعض يرى ذلك جلياً ويقوى إلى حد ما على تفسير الآية المتقدمة التي يجب أن تدون في تفسيرها كتب عدة.

النبوة ليست إلا سفارة ربانية يودعها الله أكمل عباده خلقاً وخُلقاً، أي أكملهم في البدن والروح أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال.

ان الله وهو الكامل على الاطلاق لا يرجح أحداً على أحد دونما سبب وحكمة، وهو معطي الحكمة وحاشَ أن يلهو وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ (سورة الأنبياء: ١٧). فلا يسند أمر السفارة بينه وبين خلقه إلا إلى أكمل عباده.

والله تعالى عادل، إذ العدل صفة ملازمة للكمال، وان الكامل غير محتاج، ولا يحيد عن العدل إلا من كان محتاجاً إلى الجور والظلم، والكامل غني عن ذلك كله، لعدم وجود حاجة لديه إلى شيء. إذن وجب أن نبحث عن الصفات التي توفرت في ثلة من الناس حتى أسند اليهم منصب السفارة الالهية كي يقوموا بتكميل البشر وإيصاله إلى الكمال المنشود.

الصفة الأولى: هي طهارة المولد. ذلك لأن لهذا النوع من الطهارة أثراً

فعالاً في الاتجاهات النفسية كما تؤيده التجارب. فالأنبياء كلهم وأكملهم نبينا محمد (ص) كانوا يتقلبون في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة ﴿طابت وطهرت بعضها من بعض﴾. «فأسرة محمد (ص) خير أسرة[1]، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة، وثمارها متهدلة، كلما قسم الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما. لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر».

وفي إثبات الوصية للمسعودي شرح واف في كيفية انتقال النبوة والسفارة الالهية والوصية من لدن آدم من بطن إلى بطن حتى انتهت إلى محمد (ص). فنور محمد (ص) توارثته الأنبياء حتى إنتهى إلى عبد الله بن عبد المطلب.

* * *

ثم أن الله تعالى لا يجتبي أحداً ولا يرجح بين عباده إلا بالتقوى. ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. فالأنبياء (ع) هم أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم. وان محمداً (ص) كان منذ صغره وطفولته مثالاً رفيعاً للتقوى والكمال. لم يتأثر ببيئة كانت تعبد الأصنام وتأتي بأنواع الفجور والفسوق والبغي والظلم خلافاً لما يقرره علماء التربية وعلم النفس في عصرنا: «ان الطفل يتأثر ببيئته إلى حد كبير». فلم يسجد لصنم ولم يحضر مع قومه في أي عيد من أعياد الأصنام. ولم يأكل قط مما كان يذبح قرباناً للأصنام. فكان منذ صغره حسن الخلق، طاهر العقيدة، لم يتلوث تفكيره بعقائد الجاهلية ولم يحاكِ أترابه في لهوهم وسمرهم. ولما صار زوجاً لخديجة كان على درجة من رغد العيش تمكنه من أن يعيش عيشة هنيئة كما يعيش عظماء مكة وأغنياؤها، لكنه مع ذلك كان زاهداً في الحياة الدنيا ولذاتها، متقشفاً مؤثراً بساطة العيش فحببت اليه العزلة. لقد اختار غار (حراء)، في جبل يبعد عن مكة ثلاثة أميال. كان يخلو فيه بنفسه أياماً وليالي متتابعة، فيفكر في عظمة الخالق جل جلاله وما أودع في هذا الكون من خواص وأنظمة ما يحير الألباب ويتعبد فيه لربه. انه صلوات الله عليه لم يشرب الخمرة في شبابه خلافاً لمن هم في سنه من الشبان. وكان متحلياً بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعفة ووفاء إلى حد بعيد. ان عزلة

---

(١) من نهج البلاغة، الجزء: ٢ ص: ٧٧.

محمد (ص) كانت للتفكير والتأمل وذلك بالهام منه تعالى كي يزداد صفاءاً وتقرباً إلى الله جلت عظمته، حتى تصبح نفسه الزكية على أتم استعداد لتلقي أعباء الرسالة العظيمة التي اختاره الله لها.

كل ما ذكرنا مؤهلات لأن تجعل محمداً (ص) فوق من على البسيطة في ذلك الوقت بل وفي كل وقت وزمان فتنحصر فيه الرسالة بجدارة لا يضاهيه فيها أحد أبد الآبدين.

* * *

إن عصارة التقوى تتجلى في الشكر، ولا صفة تقرِّب العبد إلى الله تعالى كالشكر. يأتي النبي (ص) إلى بيت احدى زوجاته، ينهض من فراشه ولا ينام. يتوضأ بماء قليل، يستقبل القبلة ويصلي. وكلما تستيقظ زوجته تراه مصلياً، وشاكراً ربه. فتقول: «ألا تنام، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»، فيقول صلوات الله عليه: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

إن الشكر على ضربين: شكر لساني وقلبي، وشكر عملي. فاما اللساني: أن يذكر العبد مولاه في كل لحظة ويحمده على عظيم نعمائه وحسن بلائه، وأن لا يفتر عن ذلك. وأما الشكر العملي، فيتجلى في الأعمال الصالحة والقيام بمبرَّات وأعمال خيرية والايثار والجهاد في سبيل الله والقيام بأداء الحقوق من مادية ومعنوية وأمثال ذلك. وان رسالة الحقوق لمولانا الامام زين العابدين عليه السلام توضح ذلك. فهنيئاً للعاملين «وقليل ما هم».

نفس النبي فوق النفوس المتعارفة وما تجمعت فيه من الأخلاق المثالية فوق الأخلاق العادية. ولا تودع السفارة الالهية نفوساً لها من الثراء والمال والجاه والمكانة شيء مرموق، لأن هذه الأمور لا تمتّ إلى النفس بصلة وإنما النبوة قضية نفسية بحتة، كما أن الايمان لا يلج نفوساً لها شيء من المكانة والاعتبارات الدنيوية فحسب، بل تدخل نفوساً شاكرة لله، نفوساً لها من الصفاء والجلاء ما يجعلها لائقة لقبول الحق، فلا تتكبر عن الاذعان بما هو حق ولا تحسد ولا تبخل. فان أصول الكفر ثلاثة: «البخل والحسد والكبر» كما جاء في الحديث.

كان محمد (ص) مشهوراً بين قومه بأمانته وطهارة نفسه وعفته، وكان متحلياً بمكارم الأخلاق على عكس غيره من شبان زمانه. والمعروف أن فترة الشباب من عمر الانسان هي الفترة التي يندفع فيها الشبان إلى الشهوات. ولكن حياة محمد (ص) في هذه الفترة كانت حياة مثالية نموذجية حتى لقبه قومه بالأمين. ولذلك لم يجد قومه عندما اشتد الخصام بينهم وبينه، شيئاً يمس شرفه أو يطعن في عفته، مع أنهم كانوا حريصين على النيل منه في هذه الناحية. فقد كانت دعوته قائمة على إشاعة طهارة النفس والمحافظة على العفة، ومقاومة التيارات النفسية الخبيثة. فإذا نفذوا إلى شيء مما يريدون استطاعوا أن يشككوا العرب في دعوته حتى ينفضوا عنه. وكان من المألوف آنذاك الانحراف الخلقي، ومع ذلك فلم يقف أعداؤه على حادثة واحدة يجرحونه بها. وإذا أضفنا إلى ذلك ما يقوله علماء النفس من أن فترة الشباب فترة خطيرة تثور فيها الغرائز الجنسية[1] استطعنا أن نفهم قوة إرادة محمد (ص) في ضبط نفسه في شبابه وتحكمه في ميوله الجنسية تحكماً جعله مثالاً للطهارة والعفة. وطهارة النفس وخلوّها من الشهوات المحرمة والنزوات لمن أهم العوامل التي تجعل الفرد قميناً بلطف الله وعنايته وجديراً بأن يكون هادياً للناس أجمعين. يقول (السير وليم موير): «ان النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها».

فمن كان في شبابه مثالاً لطهارة النفس والعفة إلى حد بعيد، يستحيل أن يجري وراء الشهوة واللذة بعد بلوغه سن الاكتمال والرزانة. وهو يخوض معارك طاحنة مستمرة. فقد اكتفى بخديجة (ع) وهي أكبر منه ١٥ سنة إلى أن بلغ ٥٤ من عمره. ثم تزوج بسودة ثم بعائشة تلبية لرجاء أبي بكر حيث

---

(١) لذلك يستحب التبكير في الزواج. وفي الحديث: «من تزوج أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر». وفي آخر: «ما بنى بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج». ويكره أن تحيض البنت في بيت أبيها. ويستحب لمن أراد التزويج أن يصلي ركعتين ويقول بعد الانتهاء: «اللهم أني أريد أن أتزوج، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً وأحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعن رزقاً وأعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيباً تجعله خلفاً صالحاً في حياتي وبعد موتي».

شاهد الرسول (ص) مغموماً على فراق خديجة (ع)، ثم تزوج بالعجائز والأرامل اللاتي فاتهن سن الشباب وقد أصبحن بلا عائل لأنه قد استشهد أزواجهن في الغزوات ولقد تنبه بعض كتاب المسيحية المنصفين فقالوا: «أنه لا يمكن أن يكون الدافع لمحمد على الاكثار من زوجاته في هذا الوقت إلا الرحمة والشفقة. ومن البعيد جداً أن يكون قد قصد من هذا اللذة والمتعة، لأن من تزوج منهن كنَّ متقدمات في السن وأرامل فقيرات».

لا سيما وان الرسول قد أمر بالتهجد وإحياء بعض الليل بصلاة. وتلاوة القرآن ومناجاة ربه، وما أعظمها، وذلك لقوله تعالى: ﴿يا أيها المزَّمِّل[1] قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً﴾. ثم يقول: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه، وطائفة من الذين معك، والله يقدر الليل والنهار﴾. وقد ثبت من حياته صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ القرآن وهو قائم في صلاته حتى تتورم قدماه. فأين الوقت الذي يبقى بعد ذلك حتى يبلغ فيه مراده من اللذائذ مع ما هنالك من غزوات وحروب؟

وكان في استطاعة الرسول (ص) أن يمتلك الجواري والعبيد ويعيش في قصور وتكون له أبهة كسرى وعظمة هرقل، لكن رضى ببساطة المسكن والملبس، وكان يشد على بطنه حجر المجاعة. ولما رأت زوجاته أن نساء المسلمين قد تغيرت أحوالهن وأصبحن تتقلبن في النعيم شكون إليه، وكنَّ يعتقدن أنهن صاحبات حق في التمتع بما يتمتع به غيرهن، بسبب الرخاء الذي أصاب الدولة الاسلامية، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تردن الحياة الدنيا وزينتها، فتعالين أمتعكن وأسرِّحكنَّ سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فان الله أعد للمحسنات منكنَّ أجراً عظيماً﴾.

* * *

(١) أي المتزمل. ادغم التاء في الزاء. من تزمَّل: أي تلفف بثيابه. خوطب به (ص) لأنه ارتعد بدء مجيء جبرئيل. فقال: زمِّلوني. أو من: تزمل. الزمل أي تحمل الحمل، أي المتحمل لأعباء النبوة.

وقد قلنا أن من أهم الصفات التي تجعل الفرد قريباً إلى الله تعالى وموضع لطفه ورفده إنما هو (الشكر). ذلك لأن الكمال الانساني إنما يتجلى بأدائه واجب الشكر تجاه المنعم، لذلك يقول الله تعالى وهو الحق: ﴿وكذلك فتنًّا بعضهم ببعض، ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.

إن المشركين أخذوا يزدرون الذين آمنوا، يعترضون على إيمانهم، لأن هؤلاء المؤمنين ما كانوا يملكون من المال والجاه شيئاً وذلك بقولهم ازدراءاً: «أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا». وقد فاتهم أن الايمان روحي، يتوجه إلى النفس الانسانية مباشرة، ولا علاقة له بالمال والجاه. الايمان يحلّ في النفوس الشاكرة. فكلما كانت النفس شاكرة أكثر كان إيمانها أقوى وأمتن. حتى ينتهي إلى الوصاية والنبوة. والنفس الشاكرة ليس لها امارات خارجية وعلامات فارقة مادية كالثياب الفاخرة وأعوان وأنصار ومنصب وجاه. وقد تجد هذه النفس الشاكرة في رقاع ولا تجدها في قارون.

نعم، ان هؤلاء المتكبرين كانوا يقولون: «لو كان خيراً ما سبقونا اليه». أي لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا اليه هؤلاء الفقراء المهينون ونحن أرفع منهم. كأن الخير يتبع المال والمنال والجاه والمنصب. حين أن هذه الأمور عوائق تعوق النفس الانسانية عن أن تتوجه نحو الحق والواقع لو لم تستعمل في ما أمر الله به، ولم تؤدَّ حقوقها وواجباتها، وقل من يقوى عليها إلا من رحم الله.

روي أن أبا جهل قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذاب شديد بما كانوا يكسبون﴾. فان هؤلاء المعترضين كانوا مع إجرامهم وآثامهم وفسوقهم يريدون أن يكونوا أنبياء. حين أنهم يستحقون الصغار والهوان والعذاب والخزي بما كسبت أيديهم. ﴿وان الله ليس بظلاَّم للعبيد﴾. فالبشر كلهم في نظر الله على حد سواء. من أطاع منهم بلغ مراتب

عالية حتى تنتهي إلى النبوة أو ما يقارب النبوة، وقد جاء في الحديث القدسي، أن الله تعالى يقول: ﴿عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون﴾. أرأفة أعظم من هذه؟ يعطي الله عبده إذا أطاعه صفة الخالقية والايجاد باذنه تعالى: يقول للشيء كن فيكون. وهذه هي المعاجز التي ظهرت على أيدي الأنبياء والأوصياء (ع) باذن الله تعالى وقدرته جل وعلا.

ثم يجب أن تكون نفس النبي نفساً متعلقة بالحق لا تفتر عن التوجه إلى الله ومناجاته تعالى وذكره جل وعلا طرفة عين أبداً. لا ترى شيئاً إلا وترى الله معه وقبله وبعده.

إن النبي (ص) كان لا يقوم بعمل إلا ويذكر الله تعالى. يراقب الله في جميع الأمور ويخشاه. فإذا جاءه أمر يحبه، قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات». وإذا أتاه أمر يكرهه، قال: «الحمد لله على كل حال». وإن قصد فعل شيء، قال: «اللهم خر لي واختر لي». وإن أراد سفراً، قال: «أللهم بك أصول وبك أجول». وإذا أراد نوماً، قال: «أللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه». وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». وإن لبس ثوباً جديداً، قال: «الحمد لله الذي رزقني ما أتجمَّل به في حياتي». وإن أكل، قال: «الحمد الله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين». وإن شرب قال: «الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا». وإذا أفطر قال: «الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت». وإذا رفع بصره إلى السماء قال: «يا مصرِّف القلوب، ثبِّت قلبي على طاعتك». وإذا أصابه همٌّ قال: «حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل».

فهذه الصفات هي بعض ما يجب أن يتوفر في من يناط به تكميل الناس أجمعين.

ثم ان قدسية النفوس لتؤثر في سيماء الأبدان فتضفي عليها نوراً وبهاءاً، من شاهدها ابتهج وسكن اليها وآمن بها، يعلم ذلك من خالط الأتقياء والصالحين من عباد الله. فكان وجه رسول الله يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر.

ولذلك كان يأتيه بعض الأعراب، فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيَّاه: «والله ما هذا الوجه بوجه كذاب».

ولا مراء، أن الصدق يصاحب الخير والبر، والكذب يساير الفجور والشر. وعلى ذلك كانت خديجة سلام الله عليها، تعلم من النبي (ص) أنه الصادق البار. تقول للنبي (ص) حين جاءه الوحي: «والله لا يخزيك الله أبداً. أنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتُقري الضيف وتكسي المعدم وتعين على نوائب الحق».

قال ابن سعد في الطبقات: «كان محمد (ص) قبل النبوة، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى وما رؤى ملاحياً[1] ولا ممارياً[2] أحداً حتى سماه قومه الأمين».

وكان رسول الله وهو الذي بعث رحمة للعالمين: يجلس على الأرض تواضعاً وينام عليها ويخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم إذا أعيي، ويضع طهوره بالليل بيده ولا يجلس متكئاً، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم ولا يثبت بصره في وجه أحد، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويلبس الغليظ من القطن والكتان ويشيِّع الجنائز ويعود المرضى في أقصى المدينة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشر بالبر اليهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم إلا بما أمر الله، يقبل معذرة المعتذر إليه. وكان أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن، لا يرتفع على عبيده وامائه في مأكل ولا في ملبس، يأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق، لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمَة إلا قام معه في حاجته، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يغفر ويصفح، ويبدأ من لقيه بالسلام، وإذا لقي مسلماً بدأه بالمصافحة. وكان لا

---

(١) منازعاً: وفي المثل من لا حاك فقد عاداك.
(٢) مجادلاً.

يجلس إليه أحد إلا خفف صلاته وأقبل عليه وقال: «ألك حاجة؟». وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك. وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة. وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه. ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته، وكان في الرضا والغضب لا يقول إلا حقاً، وإذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها. وإذا لقيه أحد فقام معه أو جالسه أحد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف.

كان صلوات الله عليه أشجع الناس قلباً وأشدهم بأساً وأكثرهم حياء.

لا أعلم أن رجلاً يقوى على أن يثابر على صفة واحدة من هذه الصفات السامية طيلة حياته مهما عظمت نفسه وتكاملت روحه، إلا إذا كان نبياً أو وصي نبي أو بالأحرى من كان جزاؤه النبوَّة أو الوصاية. نعم إن صفات الكمال لا تصدر إلا عن نفس قدسية وروحٍ ملكوتية قد تخلصت من قيود الأهواء وتحررت من عبودية الشهوة، وحبِّ الصيت واستمدَّت من النور الالهي والهداية الصمدانية.

يجب أن تكون نفس النبي بالغة من القدسية درجة يتحمل معها الوحي ويقوى على الاتصال بالمبدأ الأعلى. وكان نبينا صلوات الله عليه مع تلك القدسية البالغة يرجف ويعرق حين نزول الوحي عليه ويقول: «زمِّلوني» فكان يغطى إلى أن يذهب عنه الروع. لذلك خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله: «يا أيها المزمِّل قم الليل إلا قليلاً».

ولما قدم (جارود) على النبي (ص) قال: «إن كنت نبياً فأخبرني عما أضمرت». فخفق الرسول خفقة كأنها سِنة، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه فقال: «أنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة في الاسلام. ألا وأن دم الجاهلية موضوع، وحلفها مردود. ولا حلف في الاسلام، ألا وأن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة».

* * *

وقد تأثر بعض علماء المسلمين بروح الغرب المادية، ففسروا القرآن

متأثرين بالمادية العصرية وأنكروا نزول الوحي بواسطة جبرائيل عليه السلام. وأنكروا وجود الجن. وقالوا أن روح محمد قد بلغت مرتبة من السموّ حتى صارت تتجلى لها الحقائق، وخالفوا صريح القرآن والسنة المتواترة والعقل. وقاسوا الأمور الروحية وما هو وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية ولم يحتملوا أنه سيأتي يوم، يعترف فيه فلاسفة عظام بما وراء المادة. ذلك لأن الروح الانسانية مهما تعرفت على حقائق المادة، ليس لها إذا أرادت التكامل في عوالم النفس إلا أن تستفيض من ما وراء الطبيعة. ولا بد لها أن تستقي من المبدأ الأعلى الفياض بواسطة سفراء بين الله وعباده وهم الأنبياء (ع): ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء، أنه عليم حكيم﴾. (سورة الشورى: ١٥).

* * *

إن النفس القدسية التي لا تجاريها النفوس المتعارفة أو ما هي فوق المتعارفة لا تميل إلى الدنيا وزخارفها وتتوجه إلى الله تعالى بكلها. فنبينا محمد (ص) أعرض عن زخرف الدنيا وغضارتها ولم يستمتع بحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار[١] الفرات ومن أقصى اليمن إلى شَحر[٢] عمان وهو أزهد الناس في ما يُقتنى ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر. أتى يوماً إلى داره، فرأى ستاراً قد علق على الباب، فقال: «ارفعوه، انه ليذكرني الدنيا»!...

ويقول فيه السير (وليم موير): «امتاز محمد (ص) بوضوح كلامه ويُسر دينه، وأنه أتمَّ من الأعمال ما يدهش الألباب. فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الانسانية في زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وآله وسلم».

نعم، يجب أن يكون النبي محقِّراً للدنيا، متوجهاً إلى العالم الأعلى، نفسه

---

(١) العذار من النصل: شفرتاه. أو جانب اللحية أو الشعر الذي يحاذي الأذن.

(٢) شحر عمان: ساحل البحر بين عمان وعدن.

في اللاهوت وبدنه في الناسوت. فالدنيا، كما يقول علي عليه السلام: «دار مجاز والآخرة دار قرار، فطوبى لمن أخذ من ممره لمقره».

أنظروا كيف يصف علي (ع) نبينا محمداً (ص) أنه يقول: «قد حقَّر الدنيا وصغَّرها وأهونها وهوَّنها وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً. فأعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً أو يرجو منها مقاماً. بلَّغ عن ربه مُعذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً. نحن شجرة النبوة ومحطُّ الرسالة ومُختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم. ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة».

لقد دخل على رسول الله (ص) بعض الأعراب فارتاع من هيبته. فقال: «خفِّض عليك، فإنما أنا ابن أمرأة كانت تأكل القديد بمكة»، وكان صلوات الله عليه يمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميز عنهم إلا باطراقه وحيائه وجليل سَمته وروائه.

وكان صلوات الله عليه جالساً ذات يوم في بعض أسفاره تحت شجرة، فاخترط أعرابي سيفه عليه، فأرعدت يده وسقط منها السيف ومع ذلك عفا عنه. فرجع الأعرابي إلى قومه قائلاً: «جئتكم من عند خير الناس».

ومن صفاته الخارقة أنه صلوات الله عليه كلما رجع إلى بيته ألقى يهودي من أعلى بيته على رأسه الشريف طبقاً من رماد، فافتقده رسول الله (ص) بعد أيام، إذ رأى أنه لا يقوم بعادته! فقيل أنه مريض. فعاده في مرضه، فذاب هو زوجته حياءاً وخجلاً وأسلما.

فمن أراد الكمال وأراد أن يتخلص من براثن المادة وظلماتها التي تجعل الانسان كالبهيمة أو أحط منها، فليتمسك ببعض هذه الصفات الجليلة، ليرى كيف يتسامى عن حضيض المادة وكيف يزداد معرفة بالله تعالى.

لا بد لهذا الانسان من أن يسير سيره التكاملي، ولا تكامل إلا بجعل سيرة النبي محمد (ص) مثالاً رفيعاً يقتدى به. فالانسان إن لم يكن محمدياً في صفاته وأعماله فهو غير متكامل نفسياً لا محالة. ولا مراء أن الانسان انسان

بنفسه لا بماله وبدنه وما حوله من أجهزة وآلات وما يسكنه من بيوت وقصور. إذ التكامل أمر نفسي فطوبى لمن لم تعرَّه المادة وتشويهات الماديين الذين إذا استعمروا النفس فقد استعبدوا الانسان استعباداً ما بعده استعباد.

* * *

قد سبق في علم الله أنه سوف لا يأتي بعد محمد صلى الله عليه وآله شخص يطيعه إطاعة تامة كاطاعة محمد (ص) ويقوم بواجب الشكر كما يقوم به محمد (ص). وتجمع نفسه من الكمالات والفضائل ما جمعته نفس محمد (ص). لذلك يخاطبه الله تعالى: ﴿وأنك لعلى خلق عظيم﴾[1]. فيختم به النبوة والرسالة، ويرسل معه دساتير خالدة ما بعدها دستور، دساتير تؤدي إلى سعادة الدارين: ﴿حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة﴾. وذلك بقوله: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾[2].

وحاشا لله أن يصدَّ سائر الناس عن البلوغ إلى هذه المرتبة من الكمال (أي النبوة) بعد محمد (ص). ولكنه تعالى علم بما سيكون. وان العلم بما سيكون من لوازم كمال الله تعالى. والعلم بما سيكون لا يوجب أن يكون شخص مطيعاً وآخر عاصياً. إذ العلم بالشيء غير الجبر في تحقيقه. فان العلم لا ينافي الاختيار. ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان، بل كنتم قوماً طاغين﴾ (سورة الصافات). وهذا رد على المجبرة القائلين بالجبر. فالله لطيف بعباده، يهديهم سواء السبيل، ولكنهم لعدم إطاعتهم يبتعدون عن ساحة الله القدسية ويقولون: «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم، حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وان أنتم ألا تخرصون». (أي تكذبون ـ الأنعام: ١٤٧). ولكن من اتبع سنة محمد وآله الأطهار سلام الله عليهم أجمعين يبلغ مرتبة من

---

(١) سورة القلم: ٣.
(٢) سورة الأحزاب: ٤٠.

الكمال حتى يكون كأحد أنبياء بني إسرائيل. كما في الحديث: «علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل».

* * *

يقول علماء الاجتماع: أن النبوغ نتيجة تكامل اجتماعي. أي أن العظيم يأتي متأثراً بعوامل البيئة وظروف الوسط الاجتماعي. أنهم يقولون: إذا ظهرت في بيئة ما مشكلة من المشاكل العقلية مثلاً وأخذت تشغل الأذهان واشتد الجدل حولها بين الناس واضطربت الأفكار، ظهر الفيلسوف الحكيم! لحلٍّ غوامض هذه المشكلة وبيان وجه الصواب. وإذا طغت موجة من موجات الفتح في بيئة ما ظهر القائد الذي يقود الجيوش ليستولي على البلاد. وهكذا في كل ضرب من ضروب النشاط الانساني. ويقولون إن العظيم إنما يبرز في ناحية واحدة.

فكيف، إذن ظهر محمد (ص) في بيئة تصفها فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقوله: «وكنتم على شفا حفرة من النار. مذقة[1] الشارب ونهزة[2] الطامع وقُبسة العجلان[3] وموطىء الأقدام[4]، تشربون الطرق[5] وتقتاتون القِد[6]، أذلة خاسئين. تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد بعد اللتيا والتي[7]»، وبرز صلوات الله عليه في نواح متعددة خلافاً لما يقوله علماء الاجتماع. ذلك أمر رباني ومعجزة إلهية.

إن قوانين علم الاجتماع لا تنطبق على ما هو خارج عن نطاق البشر

(١) أي شربته.
(٢) لنهزة، بالضم أي الفرصة.
(٣) القبسة، بالضم: شعلة من نار تقتبس من معظمها والاضافة إلى العجلان لبيان القلة والحقارة.
(٤) مثل يضرب للمغاوبية والذلة.
(٥) الطرق، بالفتح: ماء السماء الذي تبول فيه الابل وتبعر.
(٦) سير بقد من جلد غير مدبوغ. أو الشيء المقدود. قدد اللحم: جعله قطعاً وجففه.
(٧) كنايتان عن الداهية الصغيرة والكبيرة. واللتيا تصغير (التي).

العادي أو فوق العادي بقليل. وان الله تعالى إتماماً للحجة يبعث النبي الكامل في وسط فاقد الكمال، كي لا يقال: ان التدريج الاجتماعي أو التكامل الاجتماعي هو الذي أدى إلى إيجاد نابغة من النوابغ أو جهبذة من الجهابذة. على أن التكامل الاجتماعي الذي يقول به علماء الاجتماع تكامل في عالم المادة والعلوم المادية أكثر منه في عالم تكامل النفس، كما نشاهد ذلك في الغرب. بل يكاد أن لا تكون علاقة بينه وبين التكامل الروحي والأخلاقي.

ثم يجب أن لا يغرب عن البال أنه لا نسبة بين النوابغ والأنبياء (ع). إذ النبوغ على ما يعرفه علماء الاجتماع: نبوغ فكري في خواص المادة والوقوف على بعض ما أودع الله فيها من خواص وذلك تفضلاً منه. ولا يخرج هذا النبوغ عن التفكير في خواص المادة والأوضاع البشرية من النواحي المادية. حين أن النبوة سمو روحاني وتقرب إلى الله تعالى إلى درجة تؤدي بلطف الله ومشيئته وأذنه إلى خوارق يعجز عنها النوابغ كلهم أجمعون.

النبوغ كما يصفه (بوفون) دقة متناهية، فهي لا تخرج عن حدود المادة أي استعمال الحياة العقلية (أعني الفكرية) بدقة فائقة في الأمور المادية. فكم رأينا من النوابغ هم من أحط الناس في عالم تكامل النفس. إذ لا رابطة بين النبوغ والتفكير الفائق في خواص الأشياء وربط بعضها ببعض. وبين الكمال النفسي. إلا إذا كان هذا النبوغ في عوالم تزكية النفس وتحليتها بالفضائل. وان المشاهدات الآتية تبرهن لنا صحة ما أقول مع أن القضية ثابتة بطريق عقلي:

نقل لي أحد طلاب دار المعلمين العالية في إحدى العواصم أنه رأى ذات ليلة أستاذه الدكتور في الفلسفة والتربية ملقى على قارعة الطريق بحالة يرثى لها، ثملاً فاقد الشعور، قال: فلم استطع أن أرى أستاذي في هذه الحالة المخزية، فحملته في سيارة إلى فندق كان يسكنه وأخذت أعالجه حتى صحا. فقلت ما هذا يا دكتور؟؟ ووصفت له ما كان به، فقال: «أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة!». وقال أيضاً: رأيت دكتوراً آخر في الأداب كان يرتاد محلات البغاء والفجور بصورة علنية لا يبالي كأنه جاء بأمر معتاد. وكان في احدى الجامعات أستاذ بلغ في الرياضيات العالية مرتبة النبوغ، ذا مؤلفات مهمة

عميقة، وقد قام بتأليف كتاب يشتمل على ٤ مجلدات، يحقق فيه ما قام به المسلمون في العهد العباسي من خدمات جمة في عالم الرياضيات. وقد طلبت إليه وزارة المعارف في أمريكا أن يمنحها رخصة الترجمة بازاء مبلغ جسيم، فأذن بذلك وقبض الدراهم وأصبح لا يرى مدة شهرين. فعلم بعد ذلك أنه خلا بالعاهرات والبغايا فأصيب من جراء ذلك بمرض زهري مميت (سيفيليس) فأدى به إلى الجنون ومات في دار المجانين.

نستنتج مما ذكر أن النبوغ والشهادات العالية لا تعمل في كبح الشهوات وتقوية الارادة بصورة موجبة، تلك الارادة التي تراقب الله وتستعمل في ترك محارم الله وتقاوم رغبات النفس الأمارة بالسوء وتضادها. فان النفس الانسانية أينما وجهتها تتقوى في تلك الجهة. فان وجهتها نحو الرياضيات الروحية والتخلق بالأخلاق الفاضلة قويت في هذه الناحية وإن وجهتها نحو تتبعات علمية مادية وأهملت أمر تكامل النفس وتزكيتها وتحليتها بالملكات الفاضلة نبغت في الناحية العلمية المادية مع نفس قد تكون أحط من نفس البهائم. ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾.

فلا علاقة بين النبوغ في ناحية علمية للتطلع على خواص المادة أو على طباع المجتمع (نفسيات المجتمع) ومظاهر الفرد، وبين سمو النفس وتكاملها. وقد التبس الأمر في ذلك على كثيرين لا سيما الشبيبة المثقفة بثقافة العصر. يرى الشاب أن أستاذه الغربي يقول (مثلاً) مجموع زوايا مثلث يساوي زاويتين قائمتين، أو أن ضغط كتلة معينة من الغاز يتغير تغيراً عكسياً مع حجمه عندما تبقى درجة الحرارة ثابتة أو أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس إلى إحدى السيارات يرسم ويقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية. ويستدل له على ذلك كله ببراهين صحيحة. فيزعم أو يوقن شابنا المتعلم أن كل ما يقوله أستاذه الغربي في عالم تكامل النفس وعوالم الروح والدين صحيح، مع علمه أن هذا ليس من اختصاصه. فينقاد إلى رأي استاذه في ما لم يختص فيه ويتابعه في عقائده ونفسياته المادية. ومن هنا أوتي الشرق وأصيب بما أصيب به من تبلبل في العقائد والأخلاق والآداب الاسلامية المثالية.

نعم، قد بُهت الشرقي عندما رأى الحياة الصناعية في أوروبا وأمريكا

تسندها دساتير رياضية وتجارب علمية دقيقة وحياة قد توفرت فيها أسباب الراحة بصورة ظاهرية لا سيما إذا نظر اليها من الخارج، فظنَّ بل أيقن أن كل ما يقوله الغربي في الدين والأخلاق والفلسفة صحيح، فاستقى من فلسفته المادية الزائفة أكثر من أن يأخذ من رياضياته وطبيعياته وصنايعه، بل أخذ أخلاقه واستهتاره بالمقدسات وخلاعته ومراقصه ومجونه وطيشه وترفه قبل أن يأخذ من مخترعاته ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس ميالة إلى التسافل والتدنس. وفي اقتباس الاختراعات أو القيام بشيء من الاكتشافات من الصعوبات التي لا تلائم النفس الميالة إلى الشهوات أو الراحة. والنفس الأمارة بالسوء ميالة إلى التجرد من القيود. وليست وسائل تكميل النفس إلا قيوداً! والنفس تستسيغ الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية. فتلبسها لباس المدنية والحضارة ويكون هذا الاسم المغري مبرراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبَّ في الشرق التبلبل وتشتت الأفكار والآراء: بين مغال يريد قلب البلاد الاسلامية إلى بلدة غربية بجميع مظاهرها وبين محافظ على الطرق الصناعية القديمة البائدة في الحياة المادية. فأخذ المتطرف من المسلمين يشك في النبوات والقضايا الروحية ويقيسها بمقياس مادي مقتضب، فقد قال لي من أكمل دراسته العالية في باريس (باري) لماذا ظهر الأنبياء كلهم في الشرق ولم يظهر نبي في الغرب؟ وان ما أسلفناه من الشروط والشروح كاف لمن توخّى الحقيقة.

ولا ريب أن شروط النبوة ليست بشروط صناعية ميكانيكية حتى توجد في أوروبا وأمريكا وإنما هي روحية بحتة. «ثم ان أوروبا كانت وسطاً مادياً منذ زمن الرومانيين وقبلهم[1] وان الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بأن هنالك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً وأننا نحن البشر مجبرون على اتباعه ولكن المدنية الغربية لا تقر الحاجة إلى خضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو

(١) من كتاب «الاسلام على مفترق الطرق» تأليف (ليوبولدفايس) الذي قد تشرف باعتناق دين الاسلام.

قومية. ان معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية: (Confort) وان هذا موروث عن المدنية الرومانية القديمة. وليس هناك وجه شبه بين الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية الرومانية، وان عدل الرومانيين كان عدلاً لأنفسهم وحدهم وكان الاتجاه مبنياً على اتجاه مادي خالص للحياة وللحضارة. ادراك مادي هذبه ذوق فكري. ولكنه على كل حال بعيد عن القيم الروحية. ان الرومانيين لم يعرفوا الدين وان آلهتهم الحقيقية لم تكن سوى خرافات يونانية وبعيدة عن أن تمنح البشر شرائع خلقية. تلك كانت التربية التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة. والحقيقة الثابتة أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف[1] الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية. وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً غير ديني، فكذلك هو الجو في الغرب الحديث. ولم تؤثر المسيحية في أوروبا ولم تلطف شيئاً من جوها المادي، إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق وكأن الغربي يقول: بما أننا لا نعرف شيئاً من طريق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب، لا عن أصل الحياة الانسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد، فان من الخير لنا أن نحصر قوانا في وجوه إمكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية!».

فأخطأ الغربي في التطبيق والقياس لظلمات في النفس وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات! نعم أراد الغربي أن يجد دساتير الكمال الروحي ومعالم الدين تحت المجاهر والمخابر. وقلده الشرقي فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته الفواحة التي بها يسمى الانسان انساناً.

فكيف ـ مع ما قدمنا من مقدمات ـ ينتظر أن يظهر نبي من أوروبا أو أمريكا؟.

---

(١) استشرف: رفع بصره لينظر إليه باسطاً كفه فوق حاجبه.

الشرق مهد الثقافات الدينية ومعهد تكامل النفوس الانسانية ومهبط الوحي. نبغ فيه بنتيجة تربية الأنبياء (ع) أناس أفذاذ تطهروا من الدنس والرجس يباهي بهم الله ملائكة السماء.

* * *

والوصي، وهو الذي يقوم بعد النبي بأعمال النبي (عدا تلقي الوحي) وليس بنبي، مستجمعٌ لصفات النبي وكمالاته. فهو معصوم، يأتمر بأوامر الله وينتهي بمناهيه، ذلك لأن من يرتكب المعاصي حتى صغائرها تسقط منزلته من النفوس، فلا يكون رادعاً لها. فالعصمة في الأوصياء أمر طبيعي لا يشك في وجوبها من له المام بروحيات المجتمع والجماعات. وقد دلت الأخبار القطعية أن الأئمة: من لدن أمير المؤمنين (ع) إلى الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه كانوا في غاية الكمال منزهين عن كل عيب خلقي أو خُلقي، معصومين عن كل ذنب، ﴿كانوا مصابيح الدجى[1] وأعلام التقى وذوي النهي وأولي الحجى[2] وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى والدعوة الحسنى وحجج الله على أهل الدنيا، كانوا الأدلاء على مرضات الله والتامين في محبة الله والمخلصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. قد اصطفاهم الله بعلمه وارتضاهم لغيبه واختارهم لسره واجتباهم بقدرته وخصهم ببرهانه، كانوا خزنة لعلمه ومستودعاً لحكمته وتراجمة لوحيه ومناراً في بلاده وأدلاء على صراطه﴾ يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام: «أنه ليس على الامام إلا ما حُمِّل من أمر ربه، إلا البلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والاحياء للسنّة وإقامة الحقوق على مستحقيها وإصدار السهمان[3] على أهلها». ويقول علي (ع) في موضع آخر عن آل البيت عليهم السلام: (هم) موضع سره ولجأ أمره

---

(١) مقتبس من زيارة: (الجامعة).

(٢) النهي أو الحجى: العقل.

(٣) جمع سهم بمعنى الحظ والنصيب وإصدار السهمان اعادتها إلى أهلها المستحقين لها لا ينقصهم منها شيئاً.

وعيبة[1] علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه، إلى أن قال (ع): «لا يقاس بآل محمدٍ (ص) في هذه الأمة أحد ولا يسوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين وعماد اليقين، اليهم يفيء الغالي[2] وبهم يلحق التالي. ولهم خصائص حق الولاية. وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله».

وقد قال علي (ع) أيضاً[3]: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا. أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم. وأدخلنا وأخرجهم. بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى. إن الأئمة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم. ولا تصلح الولاة من غيرهم».

وقد قال (ع) أيضاً: «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه».

وقال عليه السلام: «نحن الشعار[4] والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها. فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً. فيهم (يعني آل النبي) كرائم[5] القرآن وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يُسبقوا»[6].

وقال عليه السلام يصف فيها آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «هم

(١) الوعاء.
(٢) يريد أن المغالي يرجع اليهم ليعتدل. فان النجاة بالرجوع اليهم.
(٣) من نهج البلاغة ص/٣٦. الجزء الثاني.
(٤) ما يلي البدن من الثياب والمراد بطانة النبي (ص).
(٥) جمع كريمة والمراد أنه قد نزلت في مدحهم آيات كريمات والقرآن كريم كله وهذه كرائم.
(٦) في الجزء الثاني من نهج البلاغة في الصفحة: ٥٨.

عيش العلم وموت الجهل. يخبركم حلمهم عن عملهم (وظاهرهم عن باطنهم) وصمتهم عن حِكَم منطقهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه. هم دعائم الاسلام وولائج[1] الاعتصام. بهم عاد الحق في نصابه وانزاح الباطل عن مقامه. وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقلَ وعاية، لا عقل سماع ورواية، فان رواه العلم كثير ورعاته قليل»[2].

وهكذا تعمل سنة الكمال بأمره تعالى في ختم النبوة بمحمد (ص) وختم الوصاية بالأئمة (ع) من بعده. فرسول الله محمد (ص) أكمل الأنبياء وخاتم النبيين. وأوصياؤه، وهم إثنا عشر إماماً، أكمل الأوصياء وخاتمة الوصيين.

وكان من لوازم سنة الكمال أن يكون الأوصياء من ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم. لأنه من أعطي صفة الكمال يجب أن يكون كاملاً في جميع النواحي وبه يختتم الكمال البشري. إن الكمال سلسلة متصلة الحلقات بين نبينا محمد (ص) وأولاده المعصومين (ع). وقد نص عليهم رسول الله في مواضع عدة. فطوبى لنفس اهتدت بهداهم واستقت من معين علومهم واستفادت من ينبوع كمالهم وعملت بما أمروا به وانتهت عما نهوا عنه، فسلكت مسالكهم وتابعت خطاهم. وقد روى أحمد والترمذي: قال رسول الله (ص): «أني تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا بِمَ تخلفوني فيهما». وقال ابن حجر في صواعقه: قال رسول الله (ص): «أني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ان تبعتموهما: وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي» وزاد الطبراني: «أني سألت ذلك لهما، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم». وفي حديث آخر: «إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»[3]. فلا كمال لهذا البشر إلا بانتهاج

---

(١) ولائج جمع وليجة وهي ما يدخل فيه السائر اعتصاماً من مطر أو برد أو توقياً من مفترس.

(٢) الجزء الثاني من نهج البلاغة في الصفحة: ٢٥٩.

(٣) رواه أحمد بن حنبل في مسنده وغيره بطرق عدة.

مناهجهم والسير وفق تعاليمهم ولا تكامل للنفس إلا بولائهم ومودتهم: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[1].



(١) سورة الشورى: الآية: ٢٣.

دروس النبي (ص) في ساعاته الأخيرة[1]

في مثل هذا اليوم يفارق خاتم النبيين محمد بن عبد الله (ص) هذه الدنيا الفانية، ويلقي على أمته درساً هو من أهم الدروس في توجيه الأمة نحو السعادة الأبدية. وقد علم رسول الله (ص) بدنوِّ أجله بامارات كانت تشير إلى ذلك. منها أن جبرائيل، كما روى ابن سعد في الطبقات، كان يعرض عليه القرآن في كل سنة مرة. فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين. ومنها نزول آية: ﴿انك ميت وأنهم ميتون﴾، فقد قال بعدها ليتني أعلم متى يكون ذلك، فنزلت سورة النصر: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبِّح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً﴾. فكان يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزولها، فيقول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب اليه. فقيل له في ذلك. فقال: أما أن نفسي نعيت إلي ثم بكى بكاءاً شديداً. فقيل له يا رسول الله أو تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟. قال: فأين هول المطلع؟ وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد؟ وأين القيامة والأهوال؟... لذلك اعتكف[2] صلوات الله عليه في السنة التي قبض فيها عشرين يوماً حين أنه كان يعتكف كل سنة في شهر رمضان: العشر الأواخر.

وروى أبو اسحاق الثعلبي أن رسول الله (ص) لما مرض قال لابنته فاطمة (ع): أدني مني. فأكبَّت عليه، فناجاها، فرفعت رأسها وعيناها تهملان، فقال لها أدني مني فدنت فأكبت عليه. فناجاها، فرفعت رأسها وهي تضحك، فعجبنا لما رأينا، فسألناها، فأخبرتنا: أنه نعي اليها نفسه، فبكت،

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في ٢٨ صفر ١٣٦٧ هـ.

(٢) الاعتكاف: هو اللبث في المسجد بقصد العبادة. وهو مستحب مؤكد له شروط مشروحة في الرسائل العملية والكتب الفقهية الاستدلالية.

فقال يا بنيَّة، لا تحزني. فأنيِّ سألت ربي أن يجعلك أول أهل بيتي لحاقاً بي. فأخبرني انه استجاب لي، فضحكت.

ثم دعا رسول الله (ص) الحسن والحسين، فجاءا يصيحان ويبكيان، فوقعا عليه. فقبلهما وشمهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان، ثم أغمي عليه، فأراد علي (ع) أن ينحيهما عنه فأفاق. وقال يا علي، دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودا مني، أما أنهما سيُظلمان بعدي ويُقتلان.

وأمر صلوات الله عليه بلالاً وهو على فراش المرض بأن يجمع الناس، فاجتمعوا، فخرج معصباً بعمامته متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: معاشر أصحابي، أي نبي كنت لكم، ألم أجاهد بين أظهركم، ألم تكسر رباعيتي، ألم يعفَّر جبيني، ألم تسل الدماء على حر وجهي حتى لثقت[1] لحيتي، ألم أكابد الشدة والجهد مع جهال قومي، ألم أربط حجر المجاعة على بطني، قالوا بلى يا رسول الله، لقد كنت على بلاء الله صابراً وعن المنكر ناهياً. فجزاك الله عنا أفضل الجزاء. قال: وأنتم فجزاكم الله، ثم قال: ان ربي عز وجل حكم وأقسم: أن لا يجوز ظلم ظالم، فناشدتكم بالله، أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتصَّ منه في دار الدنيا، فهو أحب الي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء. فقام إليه رجل من أقصى القوم، يقال له سوادة بن قيس، فقال له: فداك أبي وأمي، يا رسول الله، أنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق[2]، فرفعته وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، ولا أدري عمداً أو خطأً، فقال معاذ الله أن أكون قد تعمدت. ثم أرسل بلالاً إلى بيت فاطمة (ع). فأتى بالقضيب وناوله رسول الله (ص). فقال رسول الله (ص): أين الشيخ، فقال ها أنا ذا يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: فاقتص مني حتى ترضى. فقال الشيخ فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه. فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله،

---

(١) لثقت: نديت.

(٢) الممشوق الطويل الدقيق.

أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار، فقال رسول الله يا سوادة أتعفو أم تقتص. فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال (ص): اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد.

وقد ألقى النبي (ص) درساً بليغاً حين خرج إلى المسجد، كما يخبرنا المفيد عليه الرحمة، معصوب الرأس معتمداً على أمير المؤمنين بيمنى يديه وعلى الفضل بن العباس باليد الأخرى، حتى صعد المنبر، فقال: «معاشر الناس، قد حان مني خفوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها. ومن كان له عليَّ دين فليخبرني به، معاشر الناس. ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل، أيها الناس لا يدَّعِ مُدع ولا يتمن متمن، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل مع رحمة ولو عصيت لهويت».

وان رسول الله (ص) بعد تحققه من دنو أجله، جعل يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين، يحذرهم الفتنة بعده والخلاف عليه، ويوصيهم بالتمسك بسنته والاجتماع عليها ويحثهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم. روى ابن سعد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال: «أني أوشك أن أدعى فأجيب، وأني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وقال في مقام آخر، على ما جاءت به الرواية على اتفاق واجماع: «يا أيها الناس، أني فرطكم وأنتم واردون عليَّ الحوض، إلا أني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فان اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني. وسألت ربي ذلك فأعطانيه. ألا وأني قد تركتهما فيكم: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم». ثم أن رسول الله قام بأمور مهمة أخرى حالة مرضه، لتوجيه المؤمنين بل العالم أجمع إلى طريق الحق والسعادة الأبدية، لا مجال لذكرها.

وأخذ يثقل حال رسول الله في مرضه، فقال ادعوا لي علياً، على ما يرويه

الطبري، فدُعي، فلما دنا منه. أومأ إليه فأكبَّ عليه، فناجاه طويلاً، ثم قام فجلس ناحية، حتى أغفى رسول الله (ص). فلما أغفى خرج، فقال له الناس: ما الذي أوعز اليك يا أبا الحسن؟ قال: علمني ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب. ولا يمكن تحقيق هذا النوع من الالقاء بمقاييس عادية متعارفة، لأن قياسات أمور هي مما وراء الطبيعة تختلف عن قياساتنا العادية، وليس لنا أن نقيس عوالم الروح بمقاييس مادية متعارفة، لا سيما إذا كنا ممن لم يقطع في عالم تكامل النفس أشواطاً ولم يبلغ مرتبة في عوالم التزكية والتحلية.

ثم حضر رسول الله (ص) الموت وعلي عنده، فلما قرب خروج نفسه قال له: ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك وتولَّ أمري وصلِّ عليَّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله.

وكانت وفاته صلوات الله عليه يوم الاثنين عند الزوال لليلتين بقيتا من صفر، وأخذت فاطمة تقول: واأبتاه من ربه ما أدناه، واأبتاه جنان الخلد مأواه، واأبتاه ربه يكرمه إذا أتاه. ثم أخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول:

ماذا على من شمَّ تربة أحمد أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليا
صبَّت علي مصائب لو أنها صبَّت على الأيام عُدنَ لياليا



سيدة النساء (ع)[1]

كثيراً ما يعرض علينا الكتاب مُثلاً عليا من رجال نبغوا في عالم التقوى وتكميل النفس وعالم العلم والفن، وقلما نجد مُثلاً عليا عن السيدات. فهذه فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) هي إحدى النساءالكاملات الأربع اللواتي بلغن أقصى مراتب الكمال الانساني. فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران. وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». وفي الاستيعاب عن ابن عباس قال: «قال رسول الله (ص): سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون». وروى مسلم في صحيحه والامام أحمد في مسنده في حديث مسارة النبي (ص) فاطمة (ع) أنه قال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة». وفي الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي من المسند للامام أحمد بن حنبل عن حذيفة بن اليمان وذكر حديثاً إلى أن قال: «قال رسول الله (ص): هذا ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربه في أن يسلم عليّ ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء العالمين».

ولم تزل فاطمة (ع) بعد أبيها رسول الله (ص) بادية الحزن، معصبة الرأس، ناحلة الجسم، لم تُرَ ضاحكة ولا مبتسمة، فلم تعش بعد أبيها إلا خمسة وسبعين يوماً. وهي تفارق هذه الدنيا الدنية في مثل هذه الأيام. وتقام تخليداً لذكراها وإظهاراً لفضائلها ومناقبها مجالس واحتفالات. فيجدر بنا أن نذكر طرفاً من مكارمها وعلو منزلتها كي تتأسّى بذلك المؤمنات في أنحاء العالم. فان الناس إلى تكميل نفوسهم أحوج من املاء بطونهم. وان المدنية

---

(١) ألقيت في ١٤ ج ١٣٦٧/١ هـ.

الحاضرلا تعمل إلا لأجل اصلاح الظاهر واملاء البطون. بل قد تأخذ بالناس باسم الحرية والانطلاق إلى الجاهلية الجهلاء وعبادة المادة الصماء.

قد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي ثعلبة الخشني: كان رسول الله (ص) إذ رجع من غزاة أتى المسجد فصلى فيه ركعتين، ثم ثنّى بفاطمة، ثم يأتي أزواجه. وبسنده عن ابن عمر أن النبي (ص) كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا قدم كان أول الناس به عهداً فاطمة. وفي الاستيعاب بسنده، سئلت عائشة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله (ص) قالت: فاطمة، قلت فمن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمته صواماً قواماً».

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله (ص) من فاطمة. وكانت إذا دخلت عليه قام اليها فقبّلها ورحّب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبلت يده.

وقد أخرج الطبراني عن أنس أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصلاة، يا أهل البيت،الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس».

وقال الحسن (ع) رأيت فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمّيهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك، فقالت: يا بني، الجار ثم الدار.

وروى البخاري في صحيحه بسنده أن رسول الله (ص) قال: فاطمة بَضعة مني، فمن أغضبها أغضبني، وعن كنز الدقائق : «ان الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها». ومن كرامتها على الله كما روى الحاكم في المستدرك أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجب: يا أهل الجمع، غُضوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد (ص) حتى تمر. كيف لا يكون كذلك وان فاطمة (ع)، كما روى الصدوق في العلل عن علي (ع)، قد استقت

بالقربة حتى أثرت في صدرها وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حت دِكنت ثيابها (أي اسودت)، فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقال لها علي (ع) لو أتيتِ أباكِ فسألته خادماً[1] فجاءت فوجدت عنده جماعة فاستحيت وانصرفت. فعلم النبي أنها جاءت لحاجة، فغدا علينا. ونحن في لحافنا، فأردنا أن نقوم، فقال مكانكما، فجلس عند رؤوسنا، فقال يا فاطمة، ما كانت حاجتك أمس؟ فأخبره علي (ع) فقال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم، إذا أخذتما منامكما، فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين، فأخرجت فاطمة رأسها وقالت: (رضيت عن الله ورسوله) ثلاث مرات. وروى ابن حجر في الاصابة نحوه، ثم قال: قال علي فوالله ،ما تركتهن منذ علمنيهن، فقال له ابن الكوا ولا ليلة صفين فقال: قاتلكم الله ولا ليلة صفين.

وفي المناقب عن الحسن البصري أنه قال: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة، كانت تقوم حتى تورَّمت قدماها. وعن أبي جعفر (ع) قال: ما عُبد الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله (ص) فاطمة (ع). وقد روى أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) رأى ذات يوم مسحاً (وهو كساء معروف) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين (ع) قلبين (أي سوارين) من فضة، فرجع ولم يدخل عليها. فظنت أنه من أجل ما رأى، فهتكت الستر ونزعت القلبين عن الصبيين فقطعتهما، فبكى الصبيان فقسمته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله (ص) وهما يبكيان، فأخذه رسول الله منهما وقال: «يا ثوبان، إذهب بهذا إلى بني فلان، واشترِ لفاطمة قلادة من عصب (هو سن دابة بحرية) وسوارين من عاج، فان هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»...

وروى الصدوق في الأمالي، قال: كان النبي (ص) إذا قدم من سفر بدا بفاطمة، فدخل عليها، وأطال عندها المكث، فخرج مرة في سفره فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب، لقدوم أبيها

(١) الخادم يطلق على المذكر والمؤنث والمراد هنا: المؤنث.

وزوجها، فلما قدم رسول الله (ص) دخل عليها، فوقف أصحابه على الباب، فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه، حتى جلس عند المنبر، فظنت فاطمة أنه إنما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر، فنزعت ذلك وبعثت به إلى رسول الله (ص)، وقالت للرسول قل له: «تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول اجعل هذا في سبيل الله» فلما أتاه، قال: (فعلت فداها أبوها)، ثلاث مرات. ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء». ثم قام: فدخل عليها.

وعن جابر الأنصاري (رض): أنه رأى النبي (ص) فاطمة وعليها كساء من أجلال الابل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله (ص)، فقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»، فقالت: «يا رسول الله: الحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه. فأنزل الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

وقال لها النبي (ص) ذات يوم: أي شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمها اليه وقال: ذرية بعضها من بعض، ولا يعلم حقيقة هذا الدستور وفلسفة هذا النظام إلا من سار في مدارج الكمال النفسي وتقرب بأعماله الصالحات وطاعاته دون عجب ورياء إلى الله تقرباً يجعله أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً.

وكانت صلوات الله عليها كأبيها فصيحة بليغة غزيرة العلم. فإذا خطبت أتت بالدر المنثور. ومن قولها سلام الله عليها: «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نعم والاها، جمٌّ عن الاحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الادراك أبدها. (إلى أن قالت): الممتنع عن الابصار رؤيته، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوَّنها بقدرته وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها. إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته وإظهاراً لقدرته وتعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته ووضع

العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم إلى جنته». (إلى أن قالت): «كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه. ومؤدٍّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة وبيناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للاخلاص والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وامامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للاسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة وترك السرقة إيجاباً للعفة»[1].

فإلى التأسي بهذه المكارم الرفيعة والأخلاق الملكوتية أدعوا اخواني وأخواتي المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، ففي اتباعها الكمال النفسي المرجو، ذلك الكمال الذي لا بد للانسان من أن يقطع مراحله وأن يسمو بنفسه إلى حيث أراد الله تعالى. فان الله لم يخلق هذا الانسان إلا ليتكامل نفسياً. ولذلك أرسل أنبياء (ص) وعيَّن أوصياء (ع). وإن فاطمة الزهراء (ع) المعصومة من كل رجس وزلل خير مثال «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

وللاسلام فلسفته الخاصة، قد لا تروق لمن بهرته زبارج الغرب وزخارفه، فلسفة ترمي إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وللاسلام تعاليمه الأخلاقية ونظمه الاقتصادية، قد جاءت من وراء المادة، ليسير على ضوئها البشر لينال سعادة الدارين. والاسلام يعارض كل نظام أو عمل يفسد الحياة الأخروية التي هي الحياة الحقيقية السرمدية: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان

---

(١) إن هذا الخطاب لطويل. إقتسمنا منه شيئاً يسيراً.

الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾. أي أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية.

فطوبى لمن أيقن أن النظام الآتي من وراء المادة لإصـلاح وتكميل ما هو من وراء المادة أيضاً وأعني به النفس الانسانية ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. وليس للبشر أن يأتي من تلقاء نفسه بهذا النظام مهما تسامى. وأن النظم البشرية ناقصة لا تؤدي إلى الكمال المنشود، لأنها صادرة عن بشر ناقص مفتقر إلى الكمال!...



المأثور عن رياضيات علي عليه السلام

قد أجمع المسلمون من الصدر الأول إلى اليوم أن علياً عليه السلام أعلم الصحابة وأعلاهم كعباً وأكثرهم زهداً. فقد قال عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب». ان هذا النوع من التعليم لا يتوصل إليه إلا من زاول تزكية النفس وتطهيرها. ولا يعلم كيفية انفتاح ألف باب من العلم من كل باب إلا من أيقن أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء. وذلك بتطهير نفسه من الدنس والرجس وما أصعب ذلك. ولا يقوى عليه إلا الأفذاذ الأقلون. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. وقد قال الله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. وجاء في حديث: «المؤمن ينظر بنور الله» فعلم علي علم يسطع من نور أودعه الله فيه. فقد قال رسول الله (ص): «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خلته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيي في ورعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب، فان فيه سبعين خصلة من خصال الأنبياء».

وقال علي عليه السلام بحضرة المهاجرين والأنصار: «إن ها هنا علماً جماً لو أصبت له حملة». وقال عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». وقال (ع): «سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم. هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله زقاً». وقال أيضاً: «سلوني، فان عندي علم الأولين والأخرين. أما والله لو ثنيت لي الوسادة وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم فيَّ بحكم الله ويقول: يا رب، ان علياً قضى بقضائك» إلى آخر ما قاله عليه السلام.

وقد روى الشيخ سليمان الحنفي أنه قال رسول الله (ص): «لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني. فما علمت شيئا إلا علمته عليا، فهو باب علمي».

وقال رسول الله (ص) أيضاً: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب».

وقد قال علي عليه السلام ذات يوم وهو على المنبر: «سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا أخبرتكم بناعقها وسائقها». قام إليه رجل، فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر. فقال عليه السلام: «والله لقد حدثني خليلي أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وان في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله (ص)». وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو وهو سنان بن أنس النخعي.

فعلم علي عليه السلام من علم رسول الله. وهو علم ينتقل من نبي إلى وصي أو من ولي إلى ولي. بطريق لا يعرفه أو لن يعرفه علماء العصر الحاضر ما داموا في حضيض المادة. إن هذا النوع من العلم نور الهي، لا يعلم حقيقته علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس(Psychologues) في الوقت الحاضر. أنه مجهول كجهل علماء الذرة حقائق الذرة وأسرارها مهما بلغوا من العلم وكجهلهم حقيقة الأشعة الكونية. ذلك لأنهم يحومون حول الظواهر وهم في معزل عن الواقع والحقيقة، انه علم يترشح من إذابة المادية والترفع عن حضيض المادة والعروج إلى أوج الملكوت. انه علم لدني لا يحتاج إلى وضع معادلات أو حك واصلاح فلا يتدخله سهو أو شك. انه علم إرتجالي دون تروٍّ أو تفكر. ذلك لأن النبي أو الامام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه في كل فن وفي كل علم. وما ينقل عن البعض خلاف ذلك بشأن النبي (ص) مردود بحكم العقل. ذلك لأن الله تعالى لو لم يجهز النبي بجميع الكمالات لسقطت منزلته ولما أثر في النفوس ذلك التأثير الذي يجعل الأفراد منقادين اليه مطيعين.

فلا تثبت الامامة إلا بامتحانات عدة في عوالم النفس وفي شتى العلوم وفي اتيان الخوارق والمعجزات، تلك التي يعجز أهل ذلك الزمان من الاتيان بها مع الشروط العادية والعلوم البشرية المكتسبة.

ولقد امتحن المسلمون جعفراً (أخا الامام الحسن العسكري (ع)): حين ادعى الامامة في مسائل عدة فأخفق في الجواب. وقد طلبوا منه أيضاً أن يذكر أسماء أصحاب الكتب وعن مقدار المال الذي كانوا قد حملوه إلى الامام (ع)، أي إلى خليفة الحسن العسكري (الامام الحادي عشر من أئمة الهدى (ع))، فقام جعفر ينفض أثوابه قائلاً: «يريدون منا أن نعلم الغيب»، فعلموا أنه ليس بامام.

وها نحن نذكر بعض ما أثر عن علي عليه أفضل الصلاة والسلام في حل بعض المسائل الرياضية:

(١) يسأل علي عليه السلام، عن عدد يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ وهو راكب فرساً له، فيقول مرتجلاً: «إضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك». ثم يهمز فرسه وينصرف[1].

ذلك لأنا لو ضربنا ٣٦٠ (عدد أيام السنة على ما كان معروفاً في ذلك الوقت) في ٧ (عدد أيام الأسبوع)، لكان العدد: ٣٦٠ × ٧ = ٢٥٢٠.

فالعدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٢ لأنه عدد زوجي له نصف كامل.

* * *

ويقبل العدد ٢٥٢٠ القسمة على ٣، ذلك. لأنه مجموع أرقامه (القيمة المطلقة) = ٩ = مضاعفات ٣.

توضيح ذلك:

١٠ = ٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠ = ٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠٠ = ٩٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

---

(١) لم يحتج علي عليه السلام إلى إيجاد المضاعف المشترك البسيط للأعداد المذكورة. فان علمه بالأشياء يختلف عن علمنا. انه علم الامامة، وهو أعلم الناس أجمعين. وهكذا كل إمام من أئمة الهدى عليهم السلام.

وبما أن العدد ٢٥٢٠ مؤلف من ٢٠ + ٥٠٠ + ٢٠٠٠
إذن:

٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢
٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٥
٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢
٢٥٢٠ = مضاعفات ٣ + ٢ + ٥ + ٢ = مضاعفات ٣ + ٩
٢٥٢٠ = مضاعفات ٣
إذن: ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٣.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤، ذلك لأن ٢٠ وهو العدد الذي يتألف من رقمي العشرات والآحاد يقبل القسمة على ٤.
ومعلوم أن: ٢٠ = مضاعفات ٤.
وان العدد ٢٥٢٠ = ٢٠ + ٢٥٠٠
= ٢٠ + ٢٥ × ١٠٠ = ٢٠ + ٢٥ × مضاعفات ٤
= ٢٠ + مضاعفات ٤
= مضاعفات ٤
∴ العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٥ لأن العدد منته بالصفر (أي أن رقم الآحاد، تجوزاً، صفر) ذلك لأن العدد المنتهي بالصفر يساوي:
٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

وبما أن ١٠ = مضاعفات ٥
إن: ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × مضاعفات ٥
فالعدد يقبل القسمة على ٥.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٦، ذلك لأن ٦ = ٢ × ٣، (حاصل ضرب عددين أوليين). وقد علمنا أن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على كل من ٢، ٣.

إن: $\frac{٢٥٢٠}{٢ \times ٣}$، يختصر مع ٢ أولاً، ثم مع ٣. فلا يبقى باق.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٧، لأنه من مضاعفات ٧، ذلك لأنا ضربنا ٣٦٠ في ٧ فكان ٢٥٢٠.

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ لأن العدد ينتهي بثلاثة أرقام تؤلف العدد: (٥٢٠) وهو يقبل القسمة على ٨ أي $\frac{٥٢٠}{٨}$ = ٦٥

والدليل على ذلك كما يلي:

٢٥٢٠ = ٥٢٠ + ٢٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × ١٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × مضاعفات ٨

= مضاعفات ٨

∴ ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٩ لأن قيمته المطلقة أي ٢ + ٥ + ٢ = ٩، أو (مضاعفات ٩).

برهان ذلك:

الآحاد: = ٠ (تجوزاً)

العشرات: = ٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (٩ + ١) = ٢ × ٩ + ٢ = مضاعفات ٩ + ٢.

المئات:

= ٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (٩٩ + ١) = ٥ × ٩٩ + ٥ = مضاعفات ٩ + ٥.

آحـــاد الألـــوف = ٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (٩٩٩ + ١)

= ٩٩٩ + ٢ = مضاعفات ٩ + ٢.

∴ العدد

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٢ + ٥ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٩ = مضاعفات ٩ + مضاعفات ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩

فالعدد يقبل القسمة على ٩.

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ١٠ لأن رقم آحاده (تجوزاً) = ٠

∴ ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

٢٥٢٠ = مضاعفات ١٠

فثبت أن العدد (٢٥٢٠) يقبل القسمة على كل من الأرقام الطبيعية وعلى ١٠.

* * *

(٢) رجلان: أ، ب. كان لأحدهما: (أ) خمسة أقراص من الخبز وللآخر (ب) ٣ أقراص، فجاءهم رجل ثالث وأخذ يأكل معهم. فلم يبقَ شيء. ودفع اليهم بعد الانتهاء ٨ دراهم.

فقال (أ) لـ(ب): خذ أنت ٣ دراهم وأعطني ٥. فأجابه (ب): لا، أبيتُ إلا العدل ومر الحق، خذ ٤ وأعطني ٤ دراهم. فأجابه (أ) قائلاً: كان لي ٥ أقراص وكان لك ٣. فكيف تأخذ نصف المبلغ. فأجابه (ب): لنتحاكم عند علي عليه السلام.

فجاءا علياً (ع) وعرضا عليه القضية. فخاطب علي (ع) الرجل (ب)، وهو الذي كان معه ثلاثة أقراص قائلاً: إقنـع بما منحك صاحبك (أ). وأقبل منه ٣ دراهم. فقال (ب): لا والله، لا رضيت منه إلا بمرِّ الحق، فقال (ع): «ليس لك في مرِّ الحق إلا درهم واحد وله سبعة». فقال (ب): سبحان الله يا أمير المؤمنين، هو (أي أ) يعرض عليَّ ٣ دراهم فلم أرضَ. وأشرتَ عليَّ بأخذها فلم أرض وتقول لي الآن: لا يجب لي في مر الحق إلا درهم واحد.

إن علياً عليه السلام لم يفكر كما يفكر الرياضيون في حل المسألة وإنما ارتجل ارتجالاً بعلم لا يشبه علم البشر العادي.

وإن الرياضي يحل المسألة المذكورة بعد التفكير ما يلي:

أكل الرجال الثلاثة ٨ أقراص. إذن أكل كل واحد منهم ٨/٣ = ٢ ٢/٣ من الأقراص وبما أن (أ) كان له ٥ أقراص وقد أكل منها ٢ ٢/٣ إذن بقي من أقراصه:

٥ - ٢ ٢/٣ = ٢ ١/٣ وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (أ).

وإن (ب) كان له ٣ أقراص وقد أكل هو ٢ ٢/٣ (قرصين وثلثي القرص) إذن بقي مما كان عنده: ٣ - ٢ ٢/٣ = ١/٣ من القرص وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (ب) فيجب أن تقسم ٨ دراهم بنسبة: ٢ ١/٣، ١/٣. أي بنسبة ٧/٣، ١/٣. وبما أن المخرجين متحدان، إذن تقسم ٨ دراهم بنسبة الصور (البسوط) أي بنسبة ٧، ١.

∴ مجموع الحصص ٧ + ١ = ٨

فحسب قواعد التقسيم المتناسب

٨ دراهم
ـــــ = ١، درهماً (الحصة الواحدة).
٨ حصص

وبما أن لـ (أ)، أي الرجل الذي كان لديه خمسة أقراص، ٧ حصص

∴ ٧ × ١ = ٧ دراهم، نصيب الرجل (أ)

وبما أن لـ (ب)، حصة واحدة

١ × ١ = ١: درهم واحد وهو نصيب الرجل (ب).

* * *

(٣) جاء إلى علي (ع) رجال ومعهم ١٧ جملاً، فقالوا قسم بيننا هذه الجمال بنسبة، النصف، والثلث، والتسع.

فأجاب عليه السلام: أضيفوا إلى ١٧ واحداً، ثم أعطوا نصف ذلك إلى

(أ) فيكون نصيبه ٩ جمال. وأعطوا ثلث ذلك إلى (ب) فيكون نصيبه ٦ جمال، وأعطوا تسع ذلك إلى (حـ) فيكون نصيبه جملين.

وهكذا قسم علي عليه السلام ١٧ جملاً بين الأشخاص الثلاثة مع حفظ النسبة في ما كان لكل منهم ٩ + ٦ + ٢ = ١٧.

توضيح ذلك:

من المعلوم: أنه لو أريد تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية، يجب أولاً: توحيد المخارج (المقامات)، وذلك بإيجاد المضاعف المشترك البسيط للمخارج، (٢ ، ٣٥، ٩) وهو ١٨ وان ١٨ يربو على ١٧ بواحد أي:

١٧ (عدد الجمال) + ١ = ١٨ (على سبيل الصدفة)، أي أن هاهنا حالة خاصة كما يعبر عنه الرياضيون. فتكون الكسور الأصلية حسب المخرج المشترك الجديد: (١٨) كما يلي:

حصة أ $= \frac{١}{٢} = \frac{١ \times ٩}{٢ \times ٩} = \frac{٩}{١٨}$

حصة ب $= \frac{١}{٣} = \frac{١ \times ٦}{٣ \times ٦} = \frac{٦}{١٨}$

حصة حـ $= \frac{١}{٩} = \frac{١ \times ٢}{٩ \times ٢} = \frac{٢}{١٨}$

فحسب قواعد التقسيم المتناسب مع الكسور، يجب تقسيم المقدار: (١٧ جملاً) حسب الصور أو البسوط وهي ٩, ٦, ٢, لأنها مأخوذة من نفس المخرج. (أي من نفس الأساس). ومعنى ذلك أن الحصص التي يستحقها الأشخاص الثلاثة تكون البسوط أو الصور الجديدة، ومجموعها: ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ حصة.

وذلك لأن:

$$\frac{\text{أ}}{\text{ب}} = \frac{\text{٩}}{\text{١٨}} \div \frac{\text{٦}}{\text{١٨}} = \frac{\text{٩}}{\text{١٨}} \times \frac{\text{١٨}}{\text{٦}} = \frac{\text{٩}}{\text{٦}} = \frac{\text{٣}}{\text{٢}}$$ في النسب الجديدة

$$\text{و}\frac{\text{أ}}{\text{ب}} = \frac{\text{١}}{\text{٢}} \div \frac{\text{١}}{\text{٣}} = \frac{\text{١}}{\text{٢}} \times \frac{\text{٣}}{\text{١}} = \frac{\text{٣}}{\text{٢}}$$ في النسب الأصلية

$$\text{و}\frac{\text{ب}}{\text{ج}} = \frac{\text{٦}}{\text{١٨}} \div \frac{\text{٢}}{\text{١٨}} = \frac{\text{٦}}{\text{١٨}} \times \frac{\text{١٨}}{\text{٢}} = \frac{\text{٦}}{\text{٢}} = \text{٣}$$ في النسب الجديدة

$$\text{وأيضاً}\ \frac{\text{ب}}{\text{ج}} = \frac{\text{١}}{\text{٣}} \div \frac{\text{١}}{\text{٩}} = \frac{\text{١}}{\text{٣}} \times \frac{\text{٩}}{\text{١}} = \frac{\text{٩}}{\text{٣}} = \text{٣}$$ في النسب الأصلية

وهكـذا يمكن الاستدلال على أن $\frac{\text{أ}}{\text{ج}}$ في النسب الجديـدة والأصلية واحدة. فتكون البسوط (الصور) الجديدة متناسبة بنسبة الكسور الأصلية، ١/٢، ١/٣، ١/٩، فلو قسمنا ١٧ جملاً بنسبة البسوط فقد حفظنا النسبة بين ما للأشخاص الثلاثة من جمال:

$$\therefore \frac{\text{١٧ جملاً}}{\text{١٧ حصة}} = \text{١ الحصة الواحدة.}$$

وبما أن لـ (أ) ٩ حصص: ٩ × ١ = ٩ جمال لـ (أ).
وبما أن لـ (ب) ٦ حصص: ٦ × ١ = ٦ جمال لـ (ب)
ولما أن لـ (حـ) ٢ حصتان: ٢ × ١ = ٢ جملان لـ (حـ).
فالمجموع = ١٧ جملاً.

ويجوز ضرب المقادير المتناسبة ١/٢، ١/٣، ١/٩ في عدد واحد (١٨)

وهو المضاعف المشترك البسيط للمقامات، فان النسبة لا تختل، فيكون الناتج، ٩, ٦, ٢ فيقسم عدد الجمال بنسبة الأعداد الصحيحة وهنا حالة خاصة إذ أن المضاعف يزيد على عدد الجمال بواحد، وان عدد الجمال = مجموع الأعداد المتناسبة.

(٤) جيء إلى علي عليه الصلاة والسلام برجل قد حلف أن يزن الفيل فقال (ع): لِمَ تحلفون على ما لا تطيقون، فقال الرجل: قد ابتليت. فأمر عليه السلام بقرفور (أي سفينة طويلة) فيه قصب. فأخرج منه قصب كثير، ثم علم صبغ الماء، بعدما عرف صبغ الماء قبل اخراج القصب، ثم صير فيها الفيل حتى رجع إلى مقداره الذي كانت انتهى إليه صبغ الماء أولاً. ثم أمر بوزن القصب الذي أخرج، فلما وزنه، قال هذا وزن الفيل.

توضيح الحل: معلوم في الفيزياء أنه لو غمر جسم في سائل فانه ينقص من وزنه مقدار يعادل وزن سائل بحجم ذلك الجسم المغمور. ذلك لأن الجسم المغمور يكون تحت ضغطين متعامدين من ذلك السائل. أحدهما من الأسفل إلى الأعلى يعادل عموداً من ذلك السائل طوله من سطح السائل إلى نهاية الجسم المغمور، والآخر من الأعلى إلى الأسفل، يعادل عموداً من السائل طوله من سطح السائل إلى سطح الجسم المغمور. فلو طرح الضغط الثاني (قوة الدفع من الأعلى إلى الأسفل) من الضغط الأول (قوة الدفع من الأسفل إلى الأعلى) لحصلنا على مقدار من القوة الدافعة من الأسفل إلى الأعلى يعادل مقداراً من السائل بحجم الجسم المغمور.

فلو فرضنا وزن الجسم المغمور = و، ووزن السائل الذي بحجمه = وَ. لظهر ها هنا حالات ثلاث:

(١) و > وَ أي يكون وزن الجسم أكبر من وزن سائل بحجمه. أي و – وَ > ، فينزل الجسم إلى قعر السائل ويستقر في القعر.

(٢) و = وَ أي يكون وزن الجسم مساوياً لوزن سائل بحجمه فالجسم ينغمر في السائل ويكون سابحاً في وسطه ولا يستقر في القعر.

(٣) و < وَ أي أن و – وَ < . أي أن وزن الجسم يكون أقل من

وزن سائل بحجمه عند ذاك يطفو الجسم على السائل (أو الماء) ولا ينغمر كله في السائل بل يزيح هذا الجسم من ذلك السائل مقداراً يعادل وزنه. أي أن مقدار الماء المزاح (أو السائل) يعادل وزن.الجسم الطافي.

إذن، أن السفينة التي وردت في السؤال (٤) تزيح من الماء بقدر وزنها (بما فيها من القصب). وقد وضعوا علامة على صفحة السفينة حيث بلغ الماء (وهذا ما يسمى بصبغ الماء).

لنفرض أن وزن السفينة في الابتداء = و، فوزن الماء المزاح = و، أيضاً ولنفرض أنا قد أخرجنا منها أولاً مقداراً من القصب = وَ.

فقد أصبح الوزن الجديد للسفينة:

و - وَ

ووزن الماء المزاح حديثاً = و - وَ أيضاً.

فإذن نزلت السفينة في هذه المرة في الماء أقل من المرة الأولى ثم نضع الفيل في السفينة فتثقل السفينة وتنزل مقداراً في الماء ونفرض أن وزن الفيل = س إذن يكون وزن السفينة و - وَ + س.

ثم نضع مقداراً من القصب في السفينة حتى تنزل في الماء إلى العلامة الأولى ونرمز عن هذا المقدار من القصب بحرف: ب، فيكون وزن السفينة و - وَ + س + ب.

وبما أنه قد نزلت السفينة إلى حد العلامة الأولى فوزنها يساوي وزنها الأصلي = و.

∴ و - وَ + س + ب = و.

وبعد حذف (و) من طرفي المعادلة، ونقل وَ إلى الطرف الآخر

وَ = س + ب

أو س = وَ - ب

أي أن وزن الفيل (س) يساوي وزن ما أخرج من القصب أولاً ناقصاً منه ما وُضع في السفينة من القصب ثانياً.

ويظهر مما ورد في السؤال أنهم لم يخرجوا ابتداء كثيراً من القصب، بل بعد أن أخرجوا قليلاً من القصب، وضعوا الفيل في السفينة فثقلت السفينة ونزلت أكثر مما نزلت ابتداءً ثم أخرجوا مقداراً آخر من القصب حتى ترتفع وتصل إلى العلامة الأولى ـ عند ذاك وزنوا القصب فكان وزنه يعادل وزن الفيل.

ولو فرضنا ما أخرج من القصب أولاً وثانياً = وَ.

ووزن الفيل = س.

∴ و − وَ + س = و

أو وَ = س وهو المطلوب.

(٥) وقال علي عليه السلام في رجل مقيد حلف أن لا يقوم من مكانه حتى يعرف وزن قيده: أن توضع رجله في أجانة فيها ماء حتى إذا عرف مقداره (أي مقدار ارتفاع الماء) مع وضع رجله فيه، يرفع القيد إلى ركبته، ثم يعرف مقدار صبغه (أي مقدار ارتفاع الماء). ثم أمر عليه السلام: فألقي في الماء الأوزان حتى ارتفع الماء إلى ذلك الصبغ (الحد) الذي كان سابقاً والقيد في الماء. فنظر: كم وزن الذي ألقي في الماء من الأوزان. فلما وزنه قال: هذا وزن قيدك.

توضيح الحل: معلوم أن القيد كان يزيح من الماء بقدر حجمه. فعند وضع رجله مع القيد في الماء ارتفع الماء. فوضع علامة إلى حيث ارتفع. وعند رفع القيد نزل الماء قليلاً. ثم ألقي في الماء من الأوزان التي وزنها النوعي (أو الكثافة) عين الوزن النوعي[1] للقيد، حتى ارتفع الماء إلى حيث كان أولاً. ذلك لأن حجم هذه الأوزان كان بحجم القيد وكثافتها عين كثافة المعدن الذي كان قد صنع منه القيد. وطبيعي أن الماء يرتفع إذ ذاك إلى نفس العلامة لاتحاد الحجم.

---

(١) يراد بالكثافة وزن وحدة الحجم من معدن ما. أي وزن سانتيمتر مكعب من ذلك المعدن مثلاً. ولو فرض وزن مقدار من معدن ما = و. ووزن ماء بحجم ذلك المعدن = وَ. فالوزن النوعي لذلك المعدن = و ÷ وَ. وهو عدد مجرد. ويرينا أن ذلك المعدن كم مرة أثقل من الماء مثلاً.

فاذا عين مقدار الأوزان الملقاة في الماء كان وزن القيد.

* * *

(٦) وسأل ابن الكوَّا علياً (ع): «كم بين السماء والأرض؟».
فأجاب عليه السلام قائلاً: دعوة مستجابة.
توضيح ذلك:

أن في الفلسفة القديمة بحثاً يقول بتناهي الأبعاد. ويستدل على ذلك ببرهان يدعى برهان السلَّم. وذلك أنا لو أخذنا نقطة مثل (م) على الأرض ومددنا منها خطين مستقيمين تتشكل زاوية بينهما. ثم إن وصلنا بين نقطتين: أ، ب. مأخوذتين على ذينك المستقيمين (ضلعي الزاوية) بمستقيم، فان المستقيم أ ب يبقى محصوراً بين المستقيمين م أ، م ب. ومهما مددنا المستقيمين م أ، م ب. فإن المستقيم أ ب يبقى محصوراً أيضاً بين ضلعي الزاوية. إذن: الأبعاد تتناهى والفضاء محدود!!.

إن هذا البرهان أوهن من بيت العنكبوت. إذ لا يمكن أن يقاس ما يقع في عوالم اللانهاية بما يقع في مسافات محدودة. لو مددنا الضلعين م أ، م ب إلى ما لا نهاية له لا نعلم ماذا سيحدث بالمستقيم أ ب ومن درس حسابات اللانهاية يعلم صدق هذا المقال، مثال ذلك:

نفرض أن حـ 〉 ب، أي (حـ) أعظم من (ب).
أي حـ لا تساوي ب، حـ ∓ ب
لنضرب طرفي هذه المتباينة في ∞ ، نرى أن:

(١) . . . حـ × ∞ = ب × ∞ (لأن ∞ = ∞).
وبعد تقسيم طرفي المعادلة (أ) على ∞ يخيل الينا أن:
حـ = ب.
وليس كذلك.
فلا تبقى المتباينة على ما كانت عليه. وذلك لعدم إمكان تفسيرنا

التقسيم على ∞ في الكميات المحدودة، حين أنه في الكميات المحدودة تبقى المتباينة على ما كانت عليه.

مثال ذلك: ١٠ 〉 ٧

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ٥

٥ × ١٠ 〉 ٥ × ٧

أي ٥٠〈٤١٠ ٣٥

فيعلم من هنا أن النتائج التي تترتب على الكميات المحدودة لا تترتب على الكميات غير المحدودة.

مثال آخر:

٢٠ 〈 ١٥

لنقسم طرفي هذه المتباينة على ∞ (اللانهاية).

$$\frac{٢٠}{\infty} = \frac{١٥}{\infty}$$

لأن $\frac{٢٠}{\infty} = ٠$

و $\frac{١٥}{\infty} = ٠$

∴ ٠ = ٠، فيجب إذن أن يكون ٢٠ = ١٥ وليس كذلك.

مثال آخر:

من المعلوم في الهندسة التحليلية إن مقدار الانحناء لمنحن ما هو (ر نصف قطر الانحناء). فمثلاً لو كان نصف قطرة دائرة ٢ سم، فان مقدار الانحناء = ١/٢ ولو كان نصف القطر ١٠٠ سم، فان مقدار الانحناء = أي أقل من الحالةالأولى بمقدار كثير.

فلو فرض ر = ∞

فيكون مقدار الانحناء: $\frac{١}{ر} = \frac{١}{\infty} = ٠$

عند ذاك لا يوجد انحناء. أي لو فرض مثلاً نصف قطر الكرة مقداراً غير محدود، فان سطح الكرة يكون سطحاً مستوياً، فلا كروية ولا انحناء (استدارة).

ومعلوم في الهندسة التحليلية أن خطين مستقيمين:

$١ س + ب ع + حـ = ٠$

$أَ س + بَ ع + حَـ = ٠$

فالمستقيمان يلتقيان لو كان $\frac{أ}{أَ} \pm \frac{ب}{بَ} \mp \frac{جـ}{جـَ}$ (يراد: ب∓عدم التساوي

مع العلم أن أ، أَ، ب، بَ، حـ ، حَـ مقادير غير مبهمة.

وإن المستقيمين المذكورين يتوازيان، لو كان:

$\frac{أ}{أَ} = \frac{ب}{بَ}$ فقط.

وإن المستقيمين المذكورين ينطبقان أي أنهما مستقيم واحد لو كان:

$$\frac{أ}{أَ} = \frac{ب}{بَ} = \frac{جـ}{حَـ}$$

هذا إذا كانت المعاملات (Coefficients) والمقداران المعلومان مقادير محدودة غير مبهمة. ولكن، لو كانت، أ، أَ. . . الخ مقادير مبهمة فيها العامل ٧ - ١ : وهو (المقدار المبهم) نرى أن الحالة تختلف وتعطي حالات غريبة جداً لا توافق ما رأيناه في الكميات المحدودة.

وهكذا هو حال المادي حين ما يقيس ما يتعلق بما وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية.

انه يظن الروح ويظن الخالق جل جلاله من نوع المادة، فلما لم يَرَه في مجهره أو ميكروسكوبه أو مكبرته أنكر ذلك. حين أنه لا يزال لا يعلم

لماذا يرى وكيف يرى. فإذا سُئل اجاب بجواب سوفسطائي قائلاً: ان الرؤية هي ردّ فعل أو عمل انعكاسي للمادة أو العين عندما تتأثر بالأشعة الواردة عليها من جسم ما! وأما الرؤية الحقيقية أو الاحساس والشعور فلا جواب له عليه. وقد يجيب بنفس الجواب السوفسطائي قائلاً أنه ردٌّ فعل أيضاً! يقف عقل هذا المادي، المحجوب عن رؤية الحق لظلمات في نفسه وذنوب لا تحصى قد رانت على قلبه، عند هذا الحد. فلا يتجاوزه. فلا يسأل نفسه عن معنى رد الفعل أو العمل الانعكاسي وحقيقته وكيف يحدث وما علاقة رد الفعل بالرؤية والعقل والنفس. وهل حقيقة الرؤية والتحسس أمر مادي بحت. أو المادة عامل مساعد للتحسس كآلة الراديو.

فلولا الأمواج الهرتزية والقوة الكهربائية لما سمعنا شيئاً من هذه الآلات، وان بعد التشبيه.

وما قيمة الحواس تجاه العقل أوَ ليس العقل هو المصحح لأخطاء الحواس الخمس. هل القمر بهذا الكِبر. وكم تخطى الشامّة والباصرة!!. فيصححها العقل بتجاربه واختباراته ومحاكماته، استقرائه واستنتاجه. ما هذا الاستقراء ومن هو الذي ركز في الانسان قوة الاستنتاج. وقد حرم منه القرد. مع ما في تنظيمات أعضائه من دقة متناهية.

إن المادي مادي بذنوبه وآثامه وهو عندما يرى أن الوقت يستلزم التكلم بأسلوب علمي يتطفل على العلم ويعزو هذيانه وتخيلاته الباطلة إلى العلم والعلم من كل ذلك براء. ثم تزداد طفولته غباوة عندما يسمي هذره وهذيه فلسفة!.

نستنتج مما سبق أنه ليس في استطاعتنا تحديد العالم والقول بأنه متناه. نحن نتصور غير المتناهي ولكن ليس لنا أن نحيط به. فلا يعلم مدى ما خلق الله من أبعاد وأجواء. وان الله تعالى لا يخلو منه مكان. وهو القائل: ﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا

---

(١) سورة ق. الآية: ١٥.

خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾[1].

يقول علي (ع): «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»[2].

هذا: (لاكرانز) الذي يعرِّفه (نابليون بونابرت) بقوله: هو الهرم الشامخ للعلوم الرياضية يقول: «لا أعرف» معترفاً بالجهل. . .

وقد حاول (آينشتاين) أن يعين وزن جميع ما في الكون من كرات وسيارات وكواكب وأجرام مادية. ولكنه عدل، عندما شاهد أن هناك كرات جديدة تتشكل، لا يعلم مداها إلا الله. وقد قال (آينشتاين) بنظريات أخرى ثم عدل عنها، ليس هنا محل ذكرها. وكم من العلماء قالوا بأشياء وعدلوا عنها معترفين بجهلهم.

فظهر مما سبق أنه لا يمكن أن يجاب على سؤال ابن الكوَّا إلا بما قاله علي عليه السلام: «دعوة مستجابة».

ذلك لأن هذه الدعوة تسير في هذه المسافات التي لا تتناهى والتي لا يخلو منها ربُّنا تعالى. فقد قال الله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة﴾.

ومعلوم أن سرعة الضوء في الثانية = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر وأن الروح أسرع من الضوء ولا يعلم درجة سرعته إلا الله تعالى. لا سيما أرواح الملائكة وروح جبرائيل عليه السلام. فإذا كانت الملائكة تصعد أو تعرج إليه في يوم مقداره خمسون ألف سنة، فكم تكون هذه الأبعاد؟ ذلك لأن خمسين ألف سنة = ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠٠ ١٥٥٥ ثانية أو= ١٥٥٥٢ × ١٠^٨ ثانية. فلو تصورنا أن الضوء سار في هذه المدة مع قلة سرعته بالنسبة إلى سرعة الملائكة، فأنه يقطع:

---

(١) سورة المجادلة. الآية: ٨.

(٢) المزايلة: المفارقة والمباينة.

$٣٠٠٠٠٠ \times ١٥٥٥٢ \times ١٠^{٨} = ٤٦٦٥٦٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠ =$
٤٦٦٥٦×١٠^{١٣} كم.

فكيف بالملائكة؟... إذن ليس لأحد أن يحدَّ ما خلق الله من أجواء وأبعاد وفضاء. وان قول علي (ع): «دعوة مستجابة» دليل على عدم إمكان تعريف المسافة بين السماء والأرض بشكل يفهمه السائل. ذلك لأن كوكبنا الأرضي ليس إلا كحبة رمل صغيرة بالنسبة إلى المجموعة التي تشمل الشمس والكواكب والأقمار وهذه المجموعة لا تعدُّ شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الفراغ الهائل الخارج عن نطاقها وفيه تتناثر ملايين النجوم. وليست النجوم إلا كتلاً متأججة من النيران المتلاطمة. ولكننا لا نحس حرارتها التي قد تكون أشد كثيراً من حرارة الشمس نظراً لبعد النجوم الشاسع الذي يعجز عن تصوره العقل البشري. ولو أن أسرع طائراتنا وهي الطائرة النفاثة سارت بغير توقف قاصدة أقرب هذه النجوم لما بلغتها إلا بعد ستة ملايين من السنين.

ويقول (آينشتاين): «لقد وجدت بعد التجربة الطويلة أن أرضنا بتاريخها في عمرها الجئولوجي(Geologique) وعمر انسانيها المديد أقرب شيء من ذرة رمل من رمال (ريورا) الكثيفة».

وقد سئل علي عليه السلام عن المسافة ما بين المشرق والمغرب. فقال عليه السلام: مسيرة يوم للشمس.

وقد ثبت أخيراً أن الشمس تتحرك في الفضاء بمجموعتها على شكل لولبي بسرعة ٢٠ كم/ ثانية متجهة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع.

وقد سئل عليه السلام: ما اخوان ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد وعمر أحدهما مائة وخمسون سنة وعمر الآخر خمسون سنة؟ فقال (ع): هو عزيز وعزير. لأن عزيراً أماته الله مائة عام ثم بعثه.

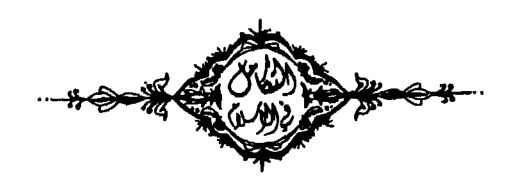
وقد قال لي أحد المتتبعين أنه سئل علي (ع) عن مقدار قطر الشمس. فأجاب مرتجلاً: تسعمائة في تسعمائة ميل. ومعلوم أن الميل في صدر الاسلام كان يساوي أربعة آلاف ذراع بذراع اليد الذي هو من المرفق إلى

رؤوس الأصابع. فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالاينجات(Inch) فحولنا (٤٠٠٠) ذراع إلى اينجات فياردات فأميال لوجدنا أن ما أخبر به علي عليه السلام: ٩٠٠ × ٩٠٠ = ٨١٠٠٠٠ ميل وأعني: (الميل الذي كان معروفاً في صدر الاسلام) تساوي ما عليه اليوم علماء الفلك من أن قطر الشمس = ٨٦٥٣٨٠ ميلاً وأعني: الميل الذي = ١٧٦٠ يارداً.

حقاً، ان الانسان ليزداد تحيراً عندما يرى: كيف أن تزكية النفوس تؤدي إلى علم لدني منبعه نور يقذفه الله في قلوب أوليائه وصالحي عباده: وقد حقق الله ذلك حين استجاب دعاء إبراهيم (ع): ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت العزيز الحكيم﴾. (سورة البقرة: ١٢٣).

وبالختام نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى تكميل نفوسنا وتزكيتها باتباع القرآن والعترة الطاهرة (ع). فلا تكاملَ إلا بالتمسك بهما ولا نجاة إلا باتباعهما والعمل بما أمرا به والانتهاء عما نهيا عنه.

«إنتهى الجزء الثاني وسيليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى».



فهرس الجزء الثاني

التكامل في الإسلام

التكامل في الإسلام

من أراد أن يقلع ما في نفسه من شكوك وأن يعلم
أن الدين الإسلامي يطابق آخر ما توصل إليه
العلم الحديث فليطالع هذا الكتاب

بقلم
أحمد أمين
خرّيج كليّة التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيّات العامّة والفيزياء الرياضيّة العالية

الجزء الثالث

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين[1]، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين. والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين، العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، ولا علم مستفاد. المقدر لجميع الأمور بلا رؤية ولا ضمير، الذي لا تغشاه الظلم ولا يستضيء بالأنوار ولا يرهقه[2] ليل ولا يجري عليه نهار. ليس إدراكه بالإبصار، ولا علمه بالاخبار.

---

(١) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) يرهقه: يغشاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى أن منَّ عليَّ بتقديم الجزء الثالث من هـذا الكتاب: (التكامل في الاسلام)، وعلى هذا الإقبال الذي ألفيته من القراء الكرام والتشجيع الذي لمسته منهم مع مزيد الاعتزاز بهم وبتأييدهم.

وقد قرظ الكتاب، نظماً ونثراً، لفيف من المؤمنين الأفاضل الذين كنت عند حسن ظنهم، فإني إذ أقدم جزيل شكري لهم، أعتذر عن تدوين ما تفضلوا عليَّ بما لا أستحقه، دفعاً لتزكية النفس واعترافاً بالواقع وما أنا فيه من قصور وتقصير.

ان الله تبارك وتعالى قد أودع في هذا الانسان غريزة بها يتوجه العبد بصورة فطرية إلى ربه، متفكراً في ملكوت السماوات والأرض، فيعزو بصورة طبيعية هذا النظام الرائع: النظام الكوني الدقيق إلى الله العلي القدير. وهو القائل: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقي الخير والشر. وفي آية أخرى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً[1]، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2] ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾[3]. وفي الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض».

إلا أن الانسان يلوث نفسه بنفسه، فيخمد بيده هذه الغريزة الثمينة، غريزة التوجه إلى الخالق المتعال، وتقديسه وتعظيمه، حتى تتحجر النفس

---

(١) حنيفاً: أي مائلاً عن العقائد الزائفة.

(٢) سورة التوبة: ٣٧.

(٣) سبحانك: أي تنزيهاً لك، سبح الله أي نزهه وقدسه. آل عمران: ١٩١.

من جراء شتى المعاصي والآثام، فتسود وتحجب عن رؤية الحق[1] والواقع، فتتوارد عليه شكوك وأفكار مادية حالكة، واتجاهات سلبية، فيتراءى له: أنه قد بلغ شأواً قاصياً من الثقافة، وأنه كان خرافياً، فأمسى متحرراً عما يشين العقل البشري أو يعوقه عن سيره التقدمي، فيعد نفسه تقدمياً وغيره رجعياً.

لقد أجمع علماء النفس أن التدين أمر فطري عند البشر، وان المفاهيم البشرية كالمادية وغيرها من نزعات، قد تعيش برهة من الزمن نتيجة لطغيان هذه النفس الطائشة الأمارة بالسوء، إلا أنها سرعان ما تموت وترجع الفطرة إلى فعاليتها الطبيعية وتدين بما وراء الطبيعة بدرجة تكاملها وقطعها مراحل في عوالم تطهير النفس وتزكيتها. فانه تعالى يقول: ﴿ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾[2]. فلا بد من تقوى .واجتناب للمحرمات حتى يعتبر الانسان بما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب!.

فالظلم والاعتداء هما اللذان يحجبان الفرد عن رؤية الحق وهو غافل عما ينتهي إليه من جراء بغيه وطيشه على حد قوله تعالى: ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾[3]. وفي آية أخرى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾[4].

فلا ينبغي أن يقنط المؤمن إذا ما رأى أمواجاً وقتية تناهض الدين وتقاومه، فانها أمواج ترشحت من نفوس معدودة استولى عليها شيطانها نتيجة لآثامها، فضغطت على حريات غيرها من نفوس كثيرة جداً لا توافقها في الرأي وهي تؤمن في أعماق نفوسها بخالق أزلي أبدي، منظم هذا الكون أبدع تنظيم.

---

(١) عن النبي (ص): «شر العمى عمى القلوب».

(٢) سورة يونس: ٦

(٣) سورة يونس: ٧٤

(٤) سورة العنكبوت: ٤٩

وقد أملى بعض هذه النفوس على الآخرين أفكاراً لا توافق الواقع في شيء منها: أن هناك تنافياً بين الدين ومعطيات العلم الحديث التي تسندها التجارب، وتحددها المعادلات، فلا ينبغي الالتفات إلى ما يملي علينا الدين!.

إن صح هذا بالنسبة إلى بعض الأديان السماوية التي مستها اليد البشرية المحرفة. فلا يصح بالنسبة إلى الدين الاسلامي، لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾.

ففي هذا الجزء يجد القاريء آيات كثيرة مما جاء في كتاب «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» سبقت العلم الحديث في إعطائها عصارة ما توصل اليه العلم المادي، حيث لا تلسكوب ولا ميكرسكوب: (مرقب ومجهر).

فلا تكاد تجد في الاسلام ما كان في عوالم الكنيسة في القرون الوسطى. فقد سلمت الكنيسة (جوردانو برونو) إلى غرفة التعذيب وأذيق أمر أنواع العذاب ثم أوثق إلى قاعدة خشبية وأحرق حياً عام ١٦١٠ م لتصريحاته العلمية.

ونشر (مجمع الكرادلة المقدس) قرار الجرم لمن يقول بدوران الأرض واعتبار القائل كافراً زنديقاً.

وإن غاليليو[١] قد وعد الكاردينال بالطاعة المطلقة، مسلماً بأن ما قاله عن دوران الأرض باطل، كما أقسم بالأناجيل المقدسة سنة ١٦٣٣ م: أن الأرض لا تدور حول الشمس!.

قد جعل الاسلام (المنطق) حاكماً عند عرض تعاليمه من واجبات

---

(١) هو ابن أحد نبلاء (فلورنسا) وأحد رواد العلم العظماء. وهو الذي وفق إلى اعداد مرقب الرصد الذي أرانا به عوالم السماوات، وقد كان يسر في تطبيق التحليل الرياضي على المعضلات الطبيعية، وهو في عمله على نواميس الحركة قد عبد الطريق لـ (نيوتن).

ومستحبات ومحرمات ومكروهات ومباحات بقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها﴾. وبقـوله: ﴿إن في ذلـك لآيات لقـوم يتفكرون﴾، ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾، ﴿لعلهم يتفكرون﴾. وبقوله: ﴿إنه فكر وقدَّر، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾.

دين الاسلام يخاطب العقول، تلك العقول التي لم تحجب عن رؤية الحق والواقع بالآثام والفسوق، أنه يدعو إلى المنطق الصحيح ولا يفرض شيئاً دون أن يرافقه برهان ودليل وذلك بقوله: ﴿ولقد ذرأنا[1] لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعـون بهـا. أولئـك كـالأنعـام بـل هم أضــل، أولئـك هم الغافلون﴾[2].

فما من فرد إلا وأودع الله فيه عقلاً يعرف به أصول المعارف الإلهية، ﴿العقل ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان﴾، لكن الانسان لسوء اختياره وفسوقه وفجوره يسدل ستاراً على ذلك العقل الفطري. فيكون إذ ذاك كمن لا عقل له، فلا يعمل بالنصوص الدينية، فيكون كمن لا دين له، فيكون مصداق هذا الحديث: «لا دين لمن لا عقل له» على حد قوله تعالى: ﴿وإذا نـاديتم إلى الصلاة اتخـذوها هـزواً ولعباً، ذلـك بـأنهم قـوم لا يعقلون﴾[3]. فالعقل نبيٌّ باطني لمن لم تبلغه الرسالة. فيحاسب حسبما يملي عليه عقله الفطري غيـر الملوث بالـذنوب والآثـام. فمن كان في (آلاسكا) مثلاً ولم تبلغه الرسالة، محاسب يوم القيامة وفق ما أودع الله في عقله من معارف أولية. فان ظهور آثار الدين في المرء إنما هو ظهور آثار العقل فيه.

إذن، فلا يعتبر بآيات الله إلا من صلح عمله وطابت سريرته وطهرت إلى حد ما نفسه. إن نفساً كهذه تنجذب إلى آيات الله وإلى ما وراء الطبيعة

---

(1) ذرأنا: خلقنا.

(2) سورة الأعراف: ١٧٨

(3) سورة المائدة: ٦١.

بصورة فطرية، وتزداد فرحاً وسروراً عند قراءة ما يؤيد عظمة الله تعالى في هذا العالم الواسع الأرجاء: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا[١] سجداً وسبحوا[٢] بحمد ربهم وهم لا يستكبرون. تتجافى[٣] جنوبهم عن المضاجع[٤] يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾[٥].

فلا تكفي لتكامل هذه النفس العبادة والتهجد فحسب ما لم ينفق الفرد مما رزقه الله تعالى.

فالاسلام دين يحقق للناس سعادة الدارين وفي الوقت الذي يأمر بالتسبيح والعبادة يأمر في الوقت نفسه بأن يعطي الغني من فضول ماله لتزكو نفسه، ولئلا يبقى على وجه البسيطة فقير.

فقد قال الصادق سلام الله عليه: «إن الله فرض في أموال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزدهم».

وفي البحار عن الصادق (ع): «المال مال الله جعله وديعة عند خلقه، وأمرهم أن يأكلوا منه قصداً[٦]، ويلبسوا منه قصداً، وينكحوا منه قصداً، ويركبوا منه قصداً، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المسلمين. فمن تعدى ذلك كان أكله حراماً، وما لبس منه حراماً، وما نكح منه حراماً، وما ركب منه حراماً، يتقلب في حرام. وبئس العبد عبد يعيش فيما حرم الله عليه، يصبح ويمسي والرب ساخط عليه. هذا حاله في الدنيا. وأما آخرته: يخرج من قبره ويكون من الذين يأتيهم النداء من الله: ﴿أذهبتم طيباتكم في

---

(١) خروا: سقطوا

(٢) سبحوا: أي نزهوا ربهم عن النقص حامدين له نعمه.

(٣) تتجافى جنوبهم: ترتفع وتتنحى.

(٤) المضاجع: الفرش ومواضع الاضطجاع

(٥) سورة السجدة: ١٦

(٦) قصداً: في حدود الاعتدال، قصد يقصد قصداً: أي استقام واعتدل. ومنه الاقتصاد أي الاعتدال والتوسط.

حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾.

إنه تعالى يقول: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم إتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ان الله يحب المحسنين﴾[1].

ويقول الصادق (ع) أيضاً: «ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولاستغنى بما فرضه الله له، وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء».

فلو كان المسلمون مؤمنين حقاً مطبقين أحكام الاسلام دونما تبعيض وتفريق لما رأيت من يشكو الفقر والمرض والجهل. ولرأيت الأرض جنة عدن. ذلك لأن الاسلام لم يدع أمراً فيه حياة الناس وسعادتهم إلا وقد أمر به، ولم يدع أمراً فيه هلاك الناس وانحطاطهم وتسافلهم إلا وقد نهى عنه.

فدين الاسلام دين الكمال الانساني. وما جاء فيه من دساتير أخلاقية وعبادية وقضائية وإدارية واقتصادية واجتماعية كلها ترمي إلى تكميل النفس الانسانية وابلاغها أسمى مراتب الكمال.

فما علينا الآن إلا أن نقوم بتطبيق قواعد الاسلام وتعاليمه الرفيعة على أنفسنا أولاً ثم نعمل مجاهدين مخلصين لأجل نشر هذه التعاليم في أرجاء الأرض وإفهام الناس حقائق الاسلام: دين الفطرة، بأساليب عصرية لا تخالف روح الاسلام ودساتيره المشروعة في شيء.

فالله تعالى يقول: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن، فلا كفر ان لسعيه وإنا له لكاتبون﴾[2].

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: ٩٦. (٢) سورة الأنبياء: ٩٤.
(٣) سورة النساء: ٩٩

﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾[٣].

وقد قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين وفريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب وتحلّ المكاسب وتردُّ المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم أمر الناس».



(١) سورة البقرة: ٢١٨

العلم والايمان

قال علي (ع): «بالعلم يُعرف الله ويوحد». فالعلم خير وسيلة لمعرفة الخالق جل جلاله والتعرف على ما أودع الله تعالى من دقائق الصنع وخواص مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً لايجاد عوالم من الجماد والنبات والحيوان ولتسيير هذه الأفلاك بهذا النظام الرائع البديع. نظام يجعل عيني الفلكي الذي لم يقس قلبه بالموبقات، تفيضان بالدموع خشوعاً وتقديساً لله تعالى لما يرى هنالك من دقيق المعادلات وبديع القوانين. نظام يجعل (هانري بركسون: Henri Bergson) مؤمناً بوحدانية الله تعالى معظماً إياه حين يتتبع نظام الذرة وما فيها من معادلات وقوانين تبهر العقول. هذه الذرة التي قد بلغت من الصغر بحيث لو وضعت (١٠٠٠٠٠٠٠) منها، على شرط الكروية، بعضها جنب بعض لكان طولها مليمتراً واحداً. نظام يجعل الطبيب الذي لم يلوث باطنه بسكر أو فسق يركع أمام عظمته تعالى حين يرى أنه تعالى قد رتب في المخ البشري (٢٠٠٠٠٠٠٠) عصب موضوعة بعضها جنب بعض بحساب دقيق بحيث لو جُس أحد هذه الأعصاب لحدثت عوارض تخص هذا العصب المجسوس دون غيره.

نظام يخشع تجاهه العالم بالميكانيك السماوي والفيزياء، حين يرى: كيف رتب الله تعالى الأبعاد بين الأجرام السماوية ومنها بُعد أرضنا عن الشمس وبعد القمر عن الأرض وهو القائل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[١].

فلو كان بعد الأرض عن الشمس ضعف ما عليه الآن لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس إلى (ربع) ما عليه الآن[٢] ولقلت سرعة حركة الأرض

---

(١) سورة الواقعة: ٧٥, ٧٦

(٢) حسب قانون فيزياوي: شدة الحرارة على سطح ما تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة عن مصدر الحرارة.

حول مدارها إلى النصف[1] ولطال فصل الشتاء إلى ضعف ما عليه الآن ولا نجمد نتيجة لذلك جميع ما على الأرض من كائنات حية ولاستحالت الحياة عليها.

ولو كان بعد الأرض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة حول المدار ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الأربعة: (الربيع، الصيف، الخريف الشتاء) إلى النصف[2]، ولتبخر ما على الأرض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدة الحرارة وذلك لقربها من الشمس.

ولولا أن الله تعالى قد أحاط أرضنا بغلاف غازي (جوي) ثخنه (٨٠٠) كم لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية (٢٠٠٠٠٠٠٠) حجارة في كل ثانية، بسرعة ٥٠ كم/ثانية[3] لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة. على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثراً هاماً في إيصال حرارة الشمس إلى الأرض بدرجة من الاعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والانسان. وكذلك في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات (البحر المحيط) إلى القارات. فلولا هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات إلى أرض قاحلة.

ولو كانت الأرض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الآن، لما كانت قوة الجذب عليها (أي سطح الأرض) تكفي لجذب المياه والهواء، ولما

---

(١) ذلك لأنه يتناسب محيط الدائرة تناسباً طردياً مع نصف القطر: م = ٢ نق ط.
وإن حاصل ضرب السرعة الزاويوية في المسافة عن المركز مقدار ثابت: لا × نق = ث.

(٢) إن كان بالامكان حصول تغيير فصلي إذ ذاك.

(٣) أي تقطع هذه الأحجار السماوية مسافة قدرها خمسون كيلومتراً في الثانية، أي أن سرعتها في الساعة (١٨٠٠٠٠) كيلومتر.
وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الأقمار والصواريخ على أن حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الأرض كل يوم.

استقر الماء على سطحها. لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الأرض اليوم[١]. ولارتفعت درجة الحرارة إلى حد يؤدي إلى إبادة الحياة عليها.

ولو كان قطر الأرض ضعف ما عليه الآن، لكان سطح الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن[٢] وكانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الأرض الحالية، ولقل ارتفاع الجو إلى حد مخطر ولارتفع الضغط الجوي من كيلوغرام واحد على كل سانتيمتر مربع إلى كيلوغرامين ولأشكلت الحياة على وجه الأرض.

ولو كانت الأرض من حيث الكبر بقدر الشمس لأمست قوة الجذب عليها (١٥٠) مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون (نيوتون) ولنقص ارتفاع الجو حوالي (١٠) كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوي على كل سانتيمتر مربع من السطح أي على (١ سم^{٢}) = ١٥٠ كيلوغراماً. أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلوغراماً واحداً = ١٥٠ كيلوغراماً، ولكان طول الانسان بطول السنجاب (في الوقت الحاضر) ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات.

وهكذا نرى أن الله تعالى قد جعل أرضنا هذه من حيث الكبر والبعد عن الشمس والقمر وسائر الأنجم ومن حيث الكتلة وقوة الجذب بدرجة تتيسر معها الحياة على سطحها، فان زلَّ أحد هذه الأشياء أو غيرها مما نعلمه أو لا نعلمه لاستحالت الحياة عليها.

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، انه كان حليماً غفوراً﴾[٣].

* * *

---

(١) قوة الجذب: ق = ي × $\frac{\text{ك كَ}}{\text{م}^{٢}}$ ، ولا بد من ملاحظة نصف القطر.

(٢) ان سطح الكرة يتناسب طردياً مع مربع نصف القطر: سطح الكرة = ٤ ط نق ٢.

(٣) سورة فاطر: ٤١، إن أمسكهما: أي: ما امسكهما.

البروتين(Protéine) جزء هام من مادة البروتوبلازم(Protoplasme) [١]، وهي المادة التي منها تتكون جميع الخلايا وكل الأحياء. فالبروتين هو المادة الابتدائية الأولى التي تشكل، مع الجزء الأصلي، الخلايا الحية. وهذه مؤلفة من عناصر خمسة: الكاربون والايدروجين والنيتروجين والأوكسيجين والكبريت. وعلم أنه يوجد في الجزيء[٢] الثقيل منها: ٤٠٠٠٠ ذرة (Atome).

فإن ادعى مدعٍ أن في الطبيعة ٩٨ عنصراً قد وزعت أو وجدت دونما نظام وترتيب، بل وجدت ورتبت بالصدفة، فللعلوم الرياضية أن تحقق إمكان حدوث هذه الصدفة! وأن تحسب مرتبة الاحتمال أو درجة الصدفة التي يمكن أن تحدث لإمكان انضمام عناصر خمسة (الكاربون والايدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت)[٣] لايجاد ذرات المادة الأولى: البروتين (Protéine) وان تحسب مقدار المادة التي يجب أن تكون موجودة قبلاً وفي حالة خلط ومزج دائم، وأن تحسب المدة التي يجب أن تنقضي لحصول هذا التركيب أي لاجتماع هذه العناصر الخمسة.

فالعالم السويسري: (شارل أوزن كوي) تمكن من حساب مرتبة الاحتمال لحدوث ما في البروتين(Protéine) من تركيب.

فقال: أن مرتبة الاحتمال لحدوث هذا التركيب للعناصر الخمسة فقط هي: $\frac{١}{١٠^{١٦}}$ أي في كل ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ حادثة تركيب يحتمل أن يحصل تركيب يشبه تركيب المادة الأولى: البروتين.

وإذا قلنا أنه يوجد في الكون مثل هذا التركيب وأعقد منه تراكيب لا تتناهى، وذلك لحصول هذا النظام البديع في عوالم الجماد والنبات

---

(١) كان يعرف: البروتوبلازم: انه المادة الزلالية الحية التي تتكون منها خلية الأجسام النباتية والحيوانية فهو مصدر كل حياة.

(٢) Molécule

(٣) على أن للانسان أن يسأل: كيف وجدت هذه العناصر الخمسة ابتداءاً وما هو الأساس وهل للمادة العمياء أن ترتب وتنظم وتنظر إلى المستقبل؟.

والحيوان، لأصبحت إذن مرتبة الاحتمال $\frac{1}{\infty}$ (أي: واحداً منسوباً إلى اللانهاية) ومآل ذلك: الصفر. إذن فلا صدفة وانتفى كل احتمال.

* * *

وقد حسب أيضاً العالم السويسري (شارل) أن المقادير اللازمة من المواد المذكورة التي يجب أن تقع بالصدفة بعضها جنب بعض لتشكيل (البروتين)، وذلك بعد تبدلات وتحولات كثيرة جداً، هي ملايين مرة أكثر من جميع ما في هذا الكون المادي من مواد.

كما علم أنه لا بد وأن ينقضي $١٠^{٢٤٣}$ [عشرة مرفوعة إلى قوة ٢٤٣، أو ١٠ متبوعة بـ٢٤٣ صفراً] من السنين لحدوث ترتيب البروتين المؤلف من عناصر خمسة فقط، فكيف بالمدة اللازمة لحدوث عناصر أخرى، لا تعد ولا تحصى.

إن البروتينات مكونة من مواد متسلسلة تسمى بالحوامض الأمينية Amino acides ويحار الانسان إذا ما رام أن يستقصي هذه المواد المتسلسلة وكيف ترتبت وتسلسلت ذرات هذه المواد. فان الذرات، لو كانت قد اتصلت وانضمت بعضها ببعض بصورة خاطئة لشكلت مواد سامة مهلكة.

وقد حسب البروفسور (ج. ب. ليز) أنه: تتشكل سلسلة بروتين بسيط بـ($١٠^{٤٨}$) شكلاً مختلفاً. ويقول أنه لا يمكن أن ينتظم جزيء من البروتين الحالي بالصدفة مع ضآلة هذا الاحتمال.

على أن البروتين(Protéine) مادة كيمياوية فاقدة الحياة. وان الحياة أو الحيوية أمر هام خطير جداً تأتيها من الخارج وان الله تعالى هو الذي نفخ فيها الروح وجعلها حية بعد أن كانت مادة ميتة لا حياة فيها ولا حيوية، لا سيما مع تلك الدرجات العالية من الحرارة حين تشكل الأرض، عندما كانت سديما[١]، على ما ثبت في علم طبقات الأرض: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان. فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا أتينا طائعين﴾[٢]

(١) السديم: الضباب، ويراد به هنا غاز عالق به مواد صلبة.

(٢) سورة فصلت: ١١

فما أعظم قول الله بالنسبة إلى ولوج الحياة في الخلية الميتة(Cellule) حين يقول:

﴿يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾[1].

* * *

إن العلم بأحوال الكون يجعل الفرد المؤمن يركع لله تعالى خشوعاً، ويسجد له تواضعاً وخنوعاً وتفيض عيناه بالدموع حباً وتسبيحاً وخضوعاً، لو كان قد بلغ مرتبة من اليقين لأعمال كان يقوم بها صالحة مع تهجد وتزكية وتحلية وتطهير وهو القائل: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. حقاً، لا يستفيد في مجالات تكامل النفس العالمون ببعض ما أودع الله من دساتير وخواص ودقائق الصنع في هذا الكون إلا الموقنين منهم. ولا يقين إلا بعد تزكية وتطهير وترك للموبقات والاجرام، عند ذلك يوقن من وفق إلى التزكية بهذه الآية المنيفة حين يقول تعالى: ﴿أفغير دين الله يبغـون، وله أسلم مَن في السمـاوات والأرض طوعـاً وكرهـاً وإليـه يرجعون﴾.

وقد أتم الله الحجة على عباده بقوله: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.

نفي الصدفة بتوضيح آخر:

لو أرادت الصدفة (دون مدبِّر عاقل) أن ترتب حروف هاتين الكلمتين: (انسان يقظان) المؤلفتين من ١٠ حروف وكان عدد العلب (أو الخانات)

---

(١) سورة الحج: ٧٣.

الجاهزة في المطبعة لهذا العمل ١٠٠ علبة[١]، فدرجة الاحتمال لظهور حرف (أ) (أولاً) من بين ١٠٠ علبة تكون $\frac{١}{١٠٠}$ (واحداً من مائة).

ولأجل أن يظهر حرف (ن) من كلمة انسان، بعد حرف (أ) مباشرة تكون درجة الاحتمال لهذا الظهور = $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ (واحداً من عشرة آلاف).

ذلك لأنا مع كل سحبة من السحبة الأولى لظهور حرف: أ (أولاً)، يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة كي يظهر حرف (ن) بعد (أ) مباشرة. وبما أنه يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة لظهور حرف (أ) أولاً ومع كل سحبة يحتمل أن نسحب أيضاً ١٠٠ سحبة لظهور حرف (ن)، إذن درجة احتمال ظهور حرف (ن) بعد (أ) مباشرة تكون واحداً من عشرة آلاف، أي واحداً من:

$$١٠٠ \times ١٠٠ = \frac{١}{١٠٠٠٠} = \frac{١}{١٠^{٤}}$$

ولأجل ظهور أو مجيء حرف (س) بعد حرف (ن) مباشرة (من لفظ: انسان) تكون درجة الاحتمال واحداً من مليون أي:

$$\frac{١}{١٠٠ \times ١٠٠ \times ١٠٠} = \frac{١}{١٠^{٦}}$$

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور أو مجيء حرف (أ) بعد حرف (س) من لفظ انسان، مباشرة، تكون: $\frac{١}{١٠^{٨}}$

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور حرف (ن) بعد (أ) من كلمة (انسان) مباشرة، تكون: $\frac{١}{١٠^{١٠}}$

ودرجة الاحتمال لترتب حروف: (انسان يقظان) بالصدفة (دون أن يكون للعقل أو الحافظة دخل في الموضوع) تكون واحداً من مائة مليون مليون مليون، = $\frac{١}{١٠^{٢٠}}$ أي نحتاج إلى ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٠ سحبة.

---

(١) باعتبار الحرف الأول والحرف الوسط والحرف الأخير والحرف المفرد.

وإذا كان عدد حروف صفحة من كتاب رتبت حروفها بالصدفة العمياء ٢٠٠٠ حرف، فتكون درجة الاحتمال:

$$\frac{١}{١٠^{٢} \times ٢٠٠٠} = \frac{١}{١٠^{٤٠٠٠}}$$

وإذا فرضنا أن كتاباً عدد صفحاته ٤٠٠ وان الصدفة العمياء هي التي نـظمت ورتبت حروف هـذا الكتاب. فتكـون درجة احتمـال وقوع هـذه الصدفة = $\frac{١}{١٠^{١٦٠٠٠٠٠}}$.

وبما أن المقام صار يقترب من اللانهاية ∞ ، فإن درجة احتمال ترتب حروف مكتبة تضم مائة ألف مجلد أو أكثر تساوي واحـداً منسوبـاً إلى اللانهاية: أي $\frac{١}{١٠^{\infty}} = \frac{١}{\infty} = ٠$.

ثم، ألا ينبغي للقائل بالصدفة أن يسأل نفســه: كيف وجدت هـذه الحـروف: (الحـرف الأول بشكله الخــاص والحـرف الـوسط بشكله الخاص... الخ) بهذا النحت الجميل عن تدبير وهندسة خاصة في بادىء الأمر حتى يأتي دور الصدفة وترتب اللفظين: (إنسان يقظان) بـالصدفـة العمياء دون إرادة وعلم!.

فالتنظيم ضارب أطنابه ابتداءاً واستمراراً وأبداً في هذا الكون، فلا بد من موجد ومنظم ابتداءاً واستمراراً وأبداً وهو الله جلت عظمته، ووسعت رحمته.

فلنأت بعد ذلك إلى هذا الكون الرحيب وما فيه من ذرات وجزيئات وعناصر ومركبات لا تتناهى في السماوات وفي الأرضين، سواء في عالم الجماد أو النبات أو الحيوان وفي عوالم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، لنرى انعدام الاحتمال بطريقة الصدفة لحدوث هذا النظام الرائع في ما لا يتناهى من أجزاء مترتبة بعضها أثر بعض عن حكمة وتدبير. فدرجة الاحتمال في هذه الحالة = $\frac{١}{\infty} = ٠$، تساوي الصفر لا محالة ودون أي ريب.

فلا بد إذن من مدبر منظم حكيم عارف بقوانين الميكانيك والتفاعلات

الكيمياوية والرياضيات العالية والطبيعيات إلى ما هنالك، وهو الله تعالى: ﴿ألا يعلمُ مَن خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

على أن للسائل أن يسأل: كيف وجدت هذه الأجزاء ابتداءاً، وكيف تسلسلت متكاملة بعضها عن بعض ثم استمرت وهي متكاملة. ومن الموجد لها أولاً قبل أن تترتب؟ وما هو أساس الوجود المادي؟ وما هو أساس الوجود الروحي؟ وكيف جاءت هذه الحيوية وما حقيقتها؟.

فلا مناص من الاعتراف بمن هو واجب وجوده من الأزل لايجاد هذا الكون الرحيب بهذا الترتيب البديع وهو الله تعالى واجب الوجود.

﴿سبح[1] اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى[2]، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاءاً[3] أحوى﴾[4].

﴿أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾. (سورة النحل: ١٢٥).

* * *

جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة». «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به وأنه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر». و«إن العلماء ورثة الأنبياء».

ما هو هذا العلم الذي تضع الملائكة أجنحتها لطالبه رضا به؟ هل هو

---

(١) سبح: أي قدس ونزه ربك عن النقائص.

(٢) قدر فهدى: أي قدر كل ما خلقه تقديراً مناسباً للحكمة ومؤدياً للاغراض التي خلقه من أجلها على أحسن حال.

(٣) غثاء: ما يلقيه السيل من ورق بال وزبد.

(٤) أحوى: ما به حوة، والحوة سواد إلى خضرة.

هذا العلم المادي الذي يقطع العالم به علاقته بواضعه وموجده وخالقه؟ هل هو العلم بأحوال الكون وقوانينه دون عزو ذلك إلى مرتبها وواضعها، بل صار يكفر العالم بها بمن أوجدها ونظمها غاية التنظيم؟ هل هو هذا العلم الذي يعتبره المنحرفون والمنجرفون معبوداً جديداً وإلهاً قهاراً، حلالاً للمشكلات، يدفع المعضّلات ويقهر كل شيء ويسير العالم حسب أهواء الضالين والمضلين؟ فلا حاكم ولا قاهر خارج حدود هذا العالم إلا العلم؟! ولا مسيطر ولا مدبر في الكون كله دونه (أي دون العلم؟!). . . أهذا هو ذلك العلم الذي يقول عنه علي عليه السلام: «أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به». فأي كمال رأينا في نفوس بعض العلماء الماديين وبعض الفلاسفة الماركسيين!». فهم أعداء الله في أرضه ولا غنى لهم عن رزقه. فلو سلط الله تعالى على مخ أحدهم جرثومة ضئيلة لا ترى بالعين المجردة لأمسوا مجانين ولعلموا ما هم عليه من فلسفة زائفة ضالة هدامة!.

على أن هذا العلم لا يستطيع أبداً أن يكون بديلاً عن الايمان بالله في حياة الانسان، يملي على الانسان سنن الكمال. ذلك لأن هذا العلم إنما خرج من نفوس لم تزكَّ ولم تتطهر. فلا يزال عليه طابعها: ذلك الطابع المادي الحالك. ولأن هذا العلم متغير ومتطور من لحظة إلى أخرى وأن نتائجه التي تؤكد اليوم من قبل العلماء تنقض غداً بفعل الاختبارات والتجارب في كثير من ميادين العلم. وهكذا سيظل (العلم) له خاصية التغير والتبدل ويخضع لعامل التطور، إلا ما كان مجرداً بحتاً كالرياضيات البحتة وذلك في حدود معينة محدودة.

أهذا العلم الذي يقول به المادي دون أن يتجاوز بفكره حدود الأرض والجسد، هو ذلك العلم الذي يقول عنه رسول الله (ص): «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، «ألا إن الله يحب بغاة العلم». أترى أن الله يحب العلماء المفسدين في الأرض، وهو القائل: «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار»[1].

---

(١) سورة ص: ٢٨.

انظروا إلى هذا الحديث، لتعلموا ماذا يراد بالعلم في لسان الشرع وماذا يراد بالفضل؟

فعن أبي الحسن موسى عليه السلام: قال دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد. فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال ما هذا؟ فقيل علاّمة... فقال: «ما العلامة؟» فقالوا له: «أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية». قال: فقال النبي (ص): «ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه». ثم قال النبي (ص): «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة وما خلاهن فهو فضل».

فترون أن المراد في لسان الشرع من (العلم) هو ذلك العلم الذي يوحد به الله تعالى في أرضه وسمائه فيعبد ويقدس. هو ذلك العلم الذي يأخذ بالنفس الانسانية إلى ساحات القدس بعد تزكيتها وتطهيرها من الدنس والرجس بما يقدِّم للبشر من تعاليم إلهية ودساتير ربانية، وكذلك العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية والفلكية، وكل علم مُظهر لعظمة الله في أرضه وسمائه، إذا كان هذا العلم لا ينفك عن عزو جميع المكتشفات إلى الله المبدع العظيم.

لذلك يقول (إسحق نيوتن) وهو أعظم علماء القرن الثامن عشر وله الفضل الأكبر في تقدم العلوم المادية في القرن العشرين إلى هذه المرتبة، أنه يقول: «لا شك في الخالق. فان هذا التنوع في الكائنات وما فيها من ترتيب أجزائها ومقوماتها وتناسبها مع غيرها ومع الأزمنة والأمكنة لا يعقل أن تصدر إلا من حكيم عليم».

وهو القائل أيضاً: «لا أدري كيف يُنظر إلى العالم. ولكن أتراءى لنفسي كما لو كنت غلاماً يلهو على شاطىء البحر وأسلي نفسي بين الحين والآخر بالعثور على حصاة أكثر ملاسة، أو صدفة أجمل من المعتاد. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامي دون كشف»...

ويقول أيضاً في محل آخر: «ما من شك أن خالق العالم هو محيط بأسرار علم الميكانيك إحاطة تامة كاملة».

(باستور) كان ينكر إله الكنيسة. إلا أنه كان مؤمناً بالخالق المعبود، إنه العالمين، خالق الجراثيم... على حد تعبيره.

* * *

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونية تشرح بايجاز: عصارة ما أودع الله تعالى من كمال في العالم المادي من سماء وأرض وفي عالم النبات والحيوان، وآيات أخرى تذكر شيئاً عن عوالم النفوس والأرواح. كل ذلك. ليوقن هذا الانسان، لو نال قسطاً من طهارة النفس، أن هذه القوانين النظم التي لم يتوصل الانسان إلا إلى جزء ضئيل منها، إنما هي خير دليل على وجود صانعها ومبدعها العلي القدير وخير مرشد إلى مدبر ومسير أوحد جميعها بقدرته، بقاؤها بإرادته، زوالها بأمره. فليس (للعلم)، هذا العلم الذي يعتز به المادي وهو من صنع الله، أن يدير العالم، لو تخلف هذا العالم عن إرادة الله تعالى ومشيئته طرفة عين. ﴿إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده﴾.

لذلك يقول أبو جعفر عليه السلام: «الكمال كل الكمال: التفقه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة».

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين».

وفي حديث آخر: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «يغدو الناس ثلاثة أصناف: عالم ومتعلم وغثاء، فنحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غثاء»[1].

وقال أبو عبد الله (ع): «من تعلم العلم وعمل به وعلم لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً. فقيل: تعلم لله وعمل لله وعلم لله».

وقد جاء في تفسير: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾: من صدَّق فعله قوله. ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم.

---

(١) الغثاء: الزبد والبالي من ورق الشجر.

فالمادي الذي قد تعلم شيئاً من قوانين الطبيعة وخواصها، أو وفقه الله تعالى إلى كشفها ولم يتأثر بما أودع الله من دساتير رياضية لا تحصى في هذا الكون ومن دقيق الصنع ولم يخشع قلبه ولم يخش الله في حركاته وسكناته، ولم يكن لنفسه نصيب من الخضوع لله ﴿الذي خلقه، فسوَّاه فعدله. في أي صورة ما شاء ركبه﴾، ليس ذلك العالم الذي عناه الله في الآية المتقدمة.

فقد قال أبو عبد الله (ع): «أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم».

ما أعظم هذا الدستور أنه أدب التعليم الرفيع. لو عُمل به لما بقي على وجه البسيطة من يشك في وجود الله جل جلاله، أو ينحرف عن الصراط السوي.

وقال عيسى (ع): «بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر»... وقد قال الحواريون لعيسى (ع)، على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا روح الله، من نجالس؟». قال: «من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله».

وإن قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات﴾ يدل دلالة صريحة أن الذي أوتي قسطاً من العلم ولم يكن مؤمناً لا ترفع له درجة بل بنص هذه الآية هو من الخاسرين: ﴿ومَن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[1]. ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾[2].

وإن قوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ يدل دلالة واضحة على أن أولي العلم في هذه الشهادة العظيمة إنما هم من العلماء الذين بلغ بهم علمهم وتقواهم معاً إلى توحيد الله والاعتراف بعدالته.

---

(١) سورة آل عمران: ٨٥

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

وما أعظم هذا الحديث القدسي وما أجل معناه: «يا موسى عظم الحكمة فاني لا أجعل الحكمة في قلب إلا وأردت أن أغفر له، فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها، كي تنال كرامتي في الدنيا والآخرة».

فلا يستفيد العالم بأحوال الكون ودساتيره من علمه ما لم يكن قد جعل التقوى لنفسه شعاراً والأخلاق الفاضلة دثاراً. لذلك جاء في الحديث عن الرسول (ص): «قطع ظهري رجلان: عالم متهتك يصد الناس عن علمه بفسقه، وجاهل متنسك يدعو الناس إلى جهله بنسكه». وقال علي (ع): «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك».

وقد جاء في حديث آخر: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع».

ومن جملة صفات العلماء على ما ورد في أصول الكافي: «لا حقود ولا حسود ولا وثاب ولا سباب ولا عياب ولا مغتاب، يكره الرفعة ويشنأ السمعة، سهل الخليقة لين العريكة، هشاش بشاش، لا بعباس ولا بجساس، كظام، بسام».

فطوبى لأولئك العلماء الذين يدعون إلى الله بعمل صالح ويرفعون لواء الاسلام عالياً بجهادهم المتواصل: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال أنني من المسلمين﴾[1].

* * *

إن الله تبارك وتعالى أكد في آيات جمة أن تتبع الكون وما أودع فيه من نظم وقوانين تربط أجزاء الكون بعضها ببعض، كي نزداد معرفة به تعالى. فنخشع له وذلك بتقديسه وتسبيحه والعمل بما أمر به، فنزداد بصيرة وذلك غاية الغايات. فقد جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له» شريطة أن لا يتجرد هذا العلم (أي العلم بأحوال الكون) عن طاعة الله تعالى، وأن لا

(١) سورة حم، السجدة: ٣٣

يكون آلة هدم وتخريب. فقد قال علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

انه تعالى يقول: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[1]. فانه تعالى يصرح: أن التعرف على ما أودع الله من قوانين ومعادلات في الكون المادي[2] وما أودع فيها من قوى وطاقات، وما يربط هذه الطاقات أو المواد بعضها ببعض من قوانين وخواص لا تفيد الذين تخلوا عن طاعة الله ولا تؤثر في تكميل نفوسهم: هؤلاء الذين لازموا الشهوات والنزوات وحضروا المراقص والملاهي ومجالس الفسق والفجور وأفسدوا في الأرض بأنواع البغي وضروب الظلم. وهذا ما نشاهده اليوم. ويشهد لنا التاريخ في الأمم الغابرة. ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾[3].

نرى اليوم من ينكر وجود الخالق جل جلاله ويستهزيء برسالة الأنبياء (ع) وقد درس شيئاً من قوانين الفيزياء أو الكيمياء، أو درس شيئاً من علم الحيوان والنبات إلى ما هنالك، مع اعترافه ببعض ما أودع الله من خواص ودساتير في هذا الكون. وان البعض من هؤلاء مع جهلهم المرير بالعلوم الحقيقية كالرياضيات العالية والفيزياء الرياضية العالية وحقائق الكيمياء وما ثبت هناك من دساتير يتبنون فلسفة مادية، فلسفة تجعل المادة الصماء كل شيء في هذا الكون. وتعتبر الاقتصاد محوراً أساسياً لكل الفضائل والمكرمات والمعتقدات والمثل العليا، حين أن الفلسفة لا تبنى على جهل. ففلسفة تبنى على جهل بحقائق الكون، فلسفة فاشلة، واهية مضلة. أنها فلسفة الشهوات، والتفكك من قيود يتحقق بها شرف الانسان وكماله. أنها فلسفة إباحية همجية ترجع بهذا الانسان المسكين إلى جاهلية جهلاء، أنها فلسفة هدم وتخريب!.

---

(١) سورة يونس: ١٠١

(٢) يوجد في الكون مثل شمسنا مائة ألف مليون شمس. وان كلا من هذه الشموس المضيئة لا بد وان تجمع حولها كواكب أخرى ذات أقمار تضيء ساعة وتظلم أخرى.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٨، (خلوا: مضوا).

﴿فان لم يستجيبوا لك، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[١].

يقول (بوانكارة) وهو من أعلام الرياضيين: «نحن الرياضيين إنما نعمل للفيزياء والفلسفة». ومعنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تبنى على آخر ما توصل اليه العلم الحديث، لا على مفتريات وأكاذيب لا تدعمها المكتشفات الحديثة وما ثبت من أحوال الأمم الماضية.

فالتجربة ليست كل شيء في نمو الانسان الرياضي، خلافاً لما يقوله الماديون. ففي الانسان ملكة التعليل والتسبيب، وملكة التعميم والتجريد، دون أن يكون للتجربة دخل فيها. لذلك يقول (البرت آينشتاين): «كيف أمكن للرياضيات أن تكون أداة مناسبة بشكل يستحق الاعجاب لواقع الأشياء مع أنها ثمار التفكير الانساني مستقلاً عن التجربة».

وقول (فيثاغورث): «العدد يحكم العلم» دليل على وجود خالق مبدع ربط أجزاء هذا العالم بحكمة فائقة تحت حساب دقيق يمكن أن يعبر عنها بمعادلات وأعداد وقوانين:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب. صنع الله الذي اتقن كل شيء، انه خبير بما تفعلون﴾[٢]. ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[٣].

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿فلينظر الانسان ممَّ خلق﴾[٤]. وهو يحثنا على تعلم علم الاحياء(Biologie) وعلم الحيوان(Zoologie) وعلم وظائف الأعضاء (Physiologie) ففي جسم الانسان أكثر من ٢٠٠ عظم ولكل واحد منها شكل

---

(١) سورة القصص: ٥١

(٢) سورة النمل: ٩٠

(٣) سورة الطارق: ٥

(٤) سورة الطلاق: ٣

خاص، ولولا هذا الشكل الخاص لما تمكن الانسان من الحركة. وفي جسم الانسان ٥٠٠ عضلة: كل منها، تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تديرها أعصاب كثيرة. والقلب، وهو بين هذه العضلات، ينبض في السنة (٣٠) مليون مرة.

وأما طبقات العين فهي الطبقة القرنية والعدسية، ثم طبقة مائية زجاجية تنتهي في الشبكية. وإن الطبقة الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة، وهي تتألف من تسع طبقات، أبعدها تتألف من (٣) ملايين أسطوانة و(٣) ملايين مخروط.

وقد حسب أحد علماء الفسلجة أنه توجد في المادة السنجابية التي هي في تلافيف الدماغ: ست ملايين خلية وإن كل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وأن كل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر. انه تعالى يقول: ﴿قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[1] ثم يذكرنا الله بالآخرة لنستعد لها لأنها هي الحياة الحقيقية التي تستحق أن يطلق عليها: كلمة الحياة، وذلك بقوله في بقية الآية: ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة، ان الله على كل شيء قدير﴾[2].

لقد سبق القرآن العلم الحديث في التكلم عن بداية الخلق وهي (الخلية الحية). فهي جوهر الحياة. وذلك لأن كل مشكلة تتعلق بالحياة تبحث في النهاية في الخلية وان كل كائن حي ما هو إلا خلية.

يقول الدكتور (كلارنس كوك لتيل): «إننا قد نفهم النشاط العظيم المتنوع في مدينة كبيرة، ولكنا قد لا نصدق أنه من الممكن أن تقوم أجسامنا بعملية أكثر تعقيداً وأشد غرابة في هدوء ودأب لا يعرف الكلل، عملية فيها صناعة تخزين وإصلاح ومواصلات ونقل وأعمال بوليسية وتخلص من نفايات وإدارة إنتاج للغذاء وضبط للحرارة. وان هذا هو ما يحدث حقاً في الخلية الواحدة». فما أعظم ما أودع الله بحكمة فائقة من أعمال شتى متنوعة في غاية الدقة.

---

(١) سورة العنكبوت: ٢٠
(٢) سورة العنكبوت: ٢٠

أعمال ميكانيكة مختلفة، في هذه الخلية التي تبلغ من الصغر ما لا يمكن للعين المجردة مشاهدتها.

يقول (راتكليف): «في اللحظة التي يتم فيها الاخصاب، تقرر الخلية الصغيرة بدقة تامة نوع المخلوق البشري الذي يجري إنتاجه، حتى لون عينيه وتموجات شعره، وان العلم ما زال قاصراً عن إدراك الأسباب والدوافع التي تدفع بالبويضة إلى أن تتخلص من نصف مادتها بعد أن تبلغ درجة النضج وتصل إلى الرحم. وان يتخلص الحيوان المنوي كذلك من نصف ما به، حتى إذ اتحد النصفان كونا خلية واحدة صغيرة بالغة من الصغر حداً كبيراً. إذ يبلغ وزنها ١٥ جزءاً من عشرة ملايين جزء من الغرام. وتصل يوم الميلاد إلى حوالي ثلاثة كيلوغرامات وذلك بانقسام هذه الخلية الواحدة إلى عددمن الخلايا تبلغ حوالي (٢٠٠) مليون خلية».

فالخلية على الرغم من صغرها كيان عضوي معقد أشد التعقيد. ففي الخلية خصائص ظاهرة وخصائص خفية كثيرة وكثيرة جداً، لم يظفر بها العلم الحديث، تعمل في التغييرات الطبيعية الكيميائية في الوسط الانساني لتواجه الحالات الجديدة الطارئة في حالات الصحة والمرض تبعاً لما تستلزمه حالة الجسم.

يقول الدكتور (روسكو سبنسر): «ليس في الطبيعـة شيء أعجب من الحكمة التي تقسم بها الخلية نفسها إلى جماعات شتى، لكل جماعة وظيفة تؤديها، وكل جماعة منها تختلف لهذا الغرض عن الأخرى قواماً وتركيباً، ولكنها كلها أصلها واحد وان الله تعالى قد زود الخلايا بقوى عجيبة وبخصائص مدهشة كل ذلك لتشييد الكيان العضـوي الحي». ﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون﴾[1]. (أي يميلون عنه).

* * *

---

(١) سورة النمل: ٦٧.

وقد أمر الله تعالى بدراسة النبات كي يعتبر الانسان بهذه الحيوية التي أوجدها الله في خلايا النبات وهذا النمو الذي نشاهده فيه، أنه (أي النمو) لأمر عجيب، أنه نمو بأمر الله ومشيئته، إذ العطالة أو القصور الذاتي: (Inertie) شيء لا ينفك عن أي جسم أو أية مادة في هذ العالم المادي على ما ثبت في علم الفيزياء. فلا بد من يد غيبية تعمل بحكمة في ترتيب هذا النمو تحت آلاف بل ملايين من عوامل وخواص وتأثيرات مترتبة بعضها إثر بعض بحكمة فائقة وبشكل بديع وجمال رائع، أنه تعالى يوضح لنا ذلك بقوله جل من قائل: ﴿فلينظر الانسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً[١] وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً[٢]، وفاكهة وأبًا[٣]، متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[٤].

أنه تعالى يقول في سورة أخرى: ﴿فأين تذهبون﴾[٥]. إلى أين يذهب هذا الانسان وهو تحت هيمنته تعالى وبين يدي جبروته سبحانه. فمن الغفلة أن لا يطيع الانسان ربه ولا يؤمن برسالة رسله (ع)، حسب التسلسل، وأن يبقى جاحداً لرسالة خاتمهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإمامة الأوصياء من بعده عليهم السلام. حقاً أن الآية المتقدمة ﴿فأين تذهبون﴾: ﴿لذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[٦].

فإلى أين يفر وإلى أين يتوجه هذا المخلوق الضعيف بين يدي ربه، المغرور بما منَّ عليه خالقه من علوم ومعارف، فلا ملجأ إلا إليه. على حد قوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله أني لكم منه نذير مبين﴾[٧]، فطوبى لمن أقلع عن طيشه وغروره وفكر في عقباه ومصيره، فشمر عن ساعد الجد لاصلاح نفسه

(١) قضباً: كل شجرة طالت واسترسلت أغصانها.
(٢) حدائق غلبا: بساتين ذات أشجار غليظة.
(٣) أبا: تبنا، أو العشب رطبه ويابسه، مرعى.
(٤) سورة عبس: ٢٤ ـ ٣٢.
(٥) سورة التكوير: ٢٦
(٦) سورة ق: ٣٧
(٧) سورة الذاريات: ٥١

والمثول بين يدي ربه واستعد ليوم ﴿لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾[١]. ﴿ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[٢]

* * *

إن الله تعالى قد حث على تعلم علم الفلك بقوله جل من قائل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[٣]. فما أعظمها من آية. أنه تعالى يعظم مواقع النجوم والأبعاد المقدرة بينها بحكمته، فانها من الدقة بمكان، بحيث لو تغير بعضها عن مواضعها شيئاً يسيراً بالنسبة إلى الفضاء اللانهائي، لاختل نظام السماء لما هنالك من تجاذب من جميع الجهات حسب الدستور الآتي:

$$\text{ق} = \text{ي} \times \frac{\text{ك كَ}}{\text{م}^{2}}$$

أي تتجاذب الكتلتان في الفضاء بنسبة حاصل ضرب الكتلتين: (ك، كَ) مقسوماً على مربع المسافة بينهما (م) بعد ضرب الناتج في نسبة ثابتة معلومة = $\frac{1}{15\,000\,000\,000}$ من ثقل الغرام[٤].

اكتشف (ليفربيه Leverier) استناداً إلى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ(نبتون Neptune) وعين موضعه قبل أن يراه، فحرر الراصدون تلسكوباتهم إلى هذا الموضع المزعوم. فرأوه رأي العين بعد أن كان (ليفربيه) رآه رأي الفكر ورأي العلم والحساب، ثم رأى الفلكيون أيضاً أن هناك أيضاً اختلافاً يسيراً في مدار الكوكب (أورانوس). زعموا من أجله أن كوكباً أبعد من (نبتون) ما زال مختبئاً في السماء فإكتشفوه وأسموه (بلوتو) سنة ١٩٣٠ ميلادية. وهكذا يتنبأ العلم والدساتير عن أشياء لا ترى بالعين،

---

(١) سورة الانفطار: ١٩

(٢) سورة المطففين: ٥, ٦

(٣) سورة الواقعة: ٧٥، ٧٦.

(٤) $\text{ي} = 6,67 \times 10^{-8}$ من ثقل الغرام = $\frac{1}{15\,000\,000}$ من الداين.

فتكشف لتبرهن مرة أخرى على ما أودع الله من نظام رياضي متقن في سير الكواكب والأنجم: مداراتها وحركاتها.

* * *

حقاً أن في مثل جزيرة العرب التي لا تربط حواضرها بعضها ببعض إلا أراض واسعة جرداء غير ذات زرع، ما كان ليمكن أن ينمو العلم وان تكون فيها حياة علمية. فللاسلام فضل كبير في إيجاد وسائل الحضارة في البلاد العربية، ومن ثم وجود علماء في شتى العلوم والفنون ومكتشفات جمة كانت أساساً للمكتشفات الحديثة.

لم يكن للعرب في الجاهلية أي أثر للعلوم ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر الحياة العقلية. ومنذ بزوغ فجر الاسلام لم يكن في قريش إلا (١٧) رجلاً يكتبون ويقرأون. ولذلك كان يلقب من يجيد الكتابة والرمي بـ (الكامل!).

فالقرآن هو أول كتاب دعا الأعراب إلى التفكر في أحوال السماوات والأرض والجماد والحيوان والنبات بقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾.

إن العلم الحديث كان يجهل حقيقة قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1] إلى قبل ٥٠ سنة تقريباً. حتى تقدم الميكانيك الرياضي وأسست مراصد كبيرة واخترعت مراقب جسيمة، فعلم أن ما كان يعتقده الفلكيون من ثبوت الشمس في محلها خطأ فاحش، وأن للقرآن القول الفصل في شرح حقائق السماء والميكانيك السماوي كعصارة للعلوم. كما ثبت أخيراً أن لكل كوكب أو نجمة فلكاً خاصاً لا يتعداه، وأن الجاذبية التي أودعها الله بين الكرات لا تدع مجالاً ليزلَّ بعضها عن مكانها وما رسم لها

---

(١) سورة يس: ٣٩

من أفلاك ومدارات وحركات قيد شعرة. ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[1].

* * *

دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، المسلمين إلى تعلم الكتابة والقراءة وأمرهم بكتابة القرآن وتعلمه ونشره. حتى أنه جعل، في غزوة بدر، فداء بعض الأسرى: أن يعلموا صبيان المدينة القراءة والكتابة، على أن يعلم كل واحد من الأسرى عشرة من المسلمين.

كما أنه أمر رسول الله (ص) بعض المسلمين بتعلم لغات أخرى. فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية. وهكذا أمر بعضهم بتعلم لغات أجنبية، وذلك لبث الدعوة في الأقطار النائية وإرسال كتب إلى بعض الملوك.

ويا حبذا لو أسست جامعة دينية كبرى، تدرس فيها شتى العلوم الدينية مع شيء من العلوم الحديثة، لا سيما الرياضيات والطبيعيات والفلسفة الحديثة على ضوء الفلسفة الاسلامية الحقة وردَّ نواحي الضعف فيها (وما أكثرها!) بالحجج الدامغة المنطقية على ضوء العلم الحديث. وتدرس فيها لغات شتى. يتعلم كل عشرين طالباً مثلاً حسب رغباتهم لغة أجنبية خاصة بصورة متقنة، حتى يتمكنوا من الكتابة والخطابة فيها. ثم يوفدون ويوزعون على بعض مدن العالم لبث الدعوة الاسلامية الحقة وذلك بعد أخذهم شهادة عالية، شهادة التخرج من هذه الجامعة الدينية الكبرى، فينيروا الأرض بجهودهم المشكورة عند الله تعالى كما فعل آباؤهم من قبل.

وقد حث الرسول (ص) على التعلم والتزود من العلوم الموجودة في كل وقت حتى قال: «أطلبوا العلم ولو في الصين». فهو أول من دعا، بقوله هذا، إلى الهجرة إلى البلاد النائية طلباً للعلم وأول من أسس مشروع البعثات. ولكن هذا النوع من البعثة لا يشبه ما نحن فيه من البعثات في الحال الحاضرة بحال. لأن المسلم عندما كان يهاجر من بلده إلى الخارج لتحصيل بعض

---

(١) سورة يس: ٤١.

العلوم، إنما كان يهاجر وهو مملوء إيمانا بالله وتقوى وورعاً وخوفاً من الله تعالى. لا يدفعه ولا يزيغه عن طريقته إلحاد الملحدين وتشكيك الضالين ودسائس المستعمرين باسم الثقافة والتقدم! بل كان مجهزاً بعقيدة راسخة عن براهين قطعية وتعاليم إسلامية رائعة. حافظاً للقرآن ،عاملاً به، مؤتمراً بما أمر الله من صلاة وصوم وزكاة وواجبات أخرى. متناهياً عما نهى الله عنه من رقص وسكر وفجور!.

ولكن شبابنا اليوم بعيد عن روح الاسلام وحقيقته وتعاليمه، فالبعض منهم يمقت الاسلام ويظنه ضرباً من الرجعية والخرافة نتيجة سموم بثها المستعمرون وأعداء الاسلام.

وقد يصلي بعض هؤلاء الشبان خوفاً من أوليائهم أو إرضاءاً لآبائهم وأمهاتهم إن كانوا مصلين يحثون أولادهم على أداء الصلاة. إنهم يصلون ما داموا مراقبين، ولكنهم يتركونها عند رفع هذه المراقبة. يفرح الأب عندما يرى أن ولده يطيعه ويصلي، لأنه يعلم علم اليقين أن مآل ولده النار إن ترك صلاته. وقد فاته أن السموم المبثوثة ها هنا وها هنا قد أثرت فيه. وعلى رأسها ما يقوم به ولده من أعمال غير مشروعة. فصار لا يأنس بمناجاة ربه والمثول بين يديه خاشعاً تائباً من ذنوبه.

وقد حث رسول الله (ص) المسلمين على الحضور في مجالس علماء الدين بصورة خاصة ليتعلموا معالم دينهم ويتأدبوا بآدابهم. وكانت المساجد محلاً للعبادة والدراسة معاً حتى القرن الرابع الهجري. فأسست دور خاصة بالتدريس في فاس. يقول (أدلفان): أن جامعة (القروين) هي أول جامعة في الدنيا، وقد تخرج في هذه الجامعة عشرات من الطلاب الأجانب من غير المسلمين ومنهم الراهب (جربرت) الذي أدخل الأعداد العربية إلى أوروبا. وقد ترجم كل ما دوَّنه المسلمون من علوم.

وقد تعلم (سبتابي بن ابراهام) اليهودي الذي قد أسر من قبل المسلمين في النصف الأول من القرن العاشر اللغة العربية في بغداد وبقي فيها يدرس الطب، ثم عاد إلى أوروبا وقاد هناك حركة علمية مرموقة.

وهكذا (قسطنطين) الذي كان يعيش في (قرطاجنة) اتقن اللغة العربية وذهب إلى إيطاليا حيث ترجم كثيراً من كتب المسلمين في علوم شتى.

وإن المسلمين هم الذين أنشأوا أول كلية طبية في (ساليدن) في إيطاليا، وأسسوا أول مرصد فلكي في (أشبيلية). وهكذا كان للمسلمين اليد الطولى في الهندسة المعمارية والنحت والزخرفة. وإن (كنيسة نوتردام دوباري) إنما بنيت من قبل مهندسين مسلمين.

وكذلك المسلمون هم الذين اخترعوا طريقة الكتابة بالحروف البارزة لتعليم العميان القراءة.

لذلك يقول (أرنست رنان): «إن الآثار والأسفار المحتوية على شتى العلوم والفنون التي أضفاها علماء الاسلام على الكون ونقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الغرب وما سبق ذلك من احتكاك بين العرب وأوروبا عن طريق الأندلس، أدى كل ذلك إلى إفعام المكتبات الأوروبية الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذي أنتجته قرائح العرب. وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوروبية بأسرها، كما رفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدين الذي نشاهده عليها اليوم».

ويقول (هـ ج. ويلز): «قد سبق العالم الاسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه. فقد أسست في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة سلسلة من الجامعات العظيمة، فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الاسلامي إلى مسافات بعيدة واجتذب اليها الطلاب من الشرق والغرب».

ويقول (نهرو) رئيس وزراء الهند الراحل وهو هندوكي العقيدة: «كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة... إلى أن يقول: ان قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ. لقد امتازوا بالروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث».

فهل يحق لأحد بعد قراءة هذه الفقرات أن يقول: إن الدين أساطير وتقاليد تقف في سبيل الحياة؟.

فالاسلام يناصر العقل والعلم ويرحب بالأفكار والنظريات العلمية الصحيحة والمكتشفات العلمية التي تخدم البشرية في مجالات تكميل النفوس البشرية ويحارب الجهل والخرافة وكل ما يخالف العقل.

فالمسلمون بتمسكهم بدينهم أصبحوا مكتشفين ومنقذين قسماً من العالم من الجهل والخرافة بعكس أوروبا التي لم تظهر الحضارة الحاضرة فيها إلا بعد أن تغلب العلم الحديث على الكنيسة ورجال الدين فيها!.

* * *

يقول المستشرق الايطالي (ليبرتيني) في كتابه: (الاسلام في أمجاده)[1]: «إنني أكاد أعتبر أقطاب الأندلس وجزيرة العرب - عندما أضاء سناء الحضارة العربية بفضل جهادهم والعلم المنتشر في ربوعهم - أكبر أعداء العالم. لأنهم لم يكتفوا بإفناء بعضهم بعضاً، بل تعدوا ذلك إلى وأد ألمع حضارة أوجدها انسان على وجه الأرض. وكانت لم تزل تترعرع في أحضان النهضة الاسلامية الخارقة. فلو أتاح لها أربابها والعاملون على إشعال قبسها الوضاء الباهر أن تمشي في سبيلها إلى التكامل لما بقي على وجه الأرض إلا كل عربي أو مستعرب. ولما كان غير الاسلام ديناً للمجموعة البشرية, فاكتفى الناس شر الفتن والحروب والانقسام إلى دول ونحل وملل لا يحصيها قلم أو تجمعها جامعة مهما سمت بجبروتها ومتين انسجامها».

يقول (نيتزه Nitsa) : «إن القسيسين عوضاً من أن يفتحوا أبواب أوروبا للمسلمين والمبشرين بالدين الاسلامي وأن يخضعوا وينحنوا لهم تعظيماً وإجلالاً شهروا سيوفهم في وجوههم، فأمسى الدين في عرفهم عبارة عن مجموعة خرافات فحسب».

وقد بدأت ترجمة معظم كتب المسلمين في الفلسفة والطب والفلك

---

(١) المسلمون والعلم الحديث: للاستاذ عبد الرزاق نوفل.

والرياضيات إلى اللغة اللاتينية منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وفي مقدمة هؤلاء (رايموند(Raymond رئيس أساقفة (توليدو) وحاكم مدينة (كاستيل): (١١٣٠ ـ ١١٥٠ م) الذي شكل هيأة من المترجمين تولى رئاستها وأسماها: (Dominican Gondeslavi) .

وأما المسيحيون فقد جهلوا طوال العصور الوسطى محمداً (ص) نبي الرحمة، وظلّوا قروناً يعتقدون أن محمداً هو (إله) المسلمين. فكانوا يقولون بوجود وثن ذهبي يسمى محمداًMohom وأنه يمثل رسول الله. وإن كتاب العصور الوسطى قد نعتوا محمداً (ص) بنعوت كاذبة عجيبة، فقالوا: «ليس محمد نبياً كاذباً وشاباً ماجناً فحسب بل رجل مخادع مخرب، قاد نفوساً ضعيفة بعيداً عن جادة الصواب، بعد أن مناهم بكثير من المتع، معظمها متع شهوانية»!؟.

وإن معظم هذه الاتهامات ترجع إلى البيزنطيين الذين هوجموا من قبل المسلمين، فعمدوا إلى تشويه سمعة الاسلام باتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

ومما يثير الدهشة أن قساً إسبانياً يُدعى(Euloguis of Cordova) رغم وجوده مدة طويلة بين المسلمين وتعرفه على كثير من حقائق الاسلام، يذكر فيما كتب: «أن محمداً قد أخبر أن الملائكة ترفعه إلى السماء بعد وفاته بأيام ثلاثة ورغم ذلك فقد التهمت الكلاب جثمانه العفن»[1].

إن هذه الاتهامات قد شوهت سمعة الاسلام في الغرب، فأحدثت انطباعات سيئة أبعدت الغربيين عن الميل إلى الاسلام واستقصاء ما فيه إلا من ساقه حب البحث والاطلاع كـ (كارليل) و (تولستوي) و (كوستاولوبون) و (برنارد شو) وغيرهم. فكتبوا شهادات حقيقية عن الاسلام وبعض حقائقه.

فالواعظ (نيكلدوس) الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع

---

(١) الحضارة الاسلامية: تأليف، خدابخش، المؤرخ الهندي، وترجمه الدكتور علي حسني الخربوطلي مدرس التاريخ الاسلامي بجامعة عين شمس.

القرن الرابع عشر طلب من اخوانه المسيحيين أن يتخذوا من الاسلام وصفات المسلمين مثلاً علياً لهم وكان معجباً بدراسة القرآن في مدارس بغداد وأثنى كثيراً على نظام الزكاة والوقف لأغراض الخير، وشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات وفكرة التوحيد الناصع في الاسلام وكتابة المسلمين (بسم الله الرحمن الرحيم) في أعلى الرسائل وخلعهم الأحذية قبل دخول المساجد وكرمهم وحسن ضيافتهم.

ولا ننسى كتاب (الاسلام على حقيقته) تأليف (شارل فوستر) سنة ١٨٢٩ وما كتبه (كوسان) و(ويل) و(فون كريمر) و(وليام ميور) وغيرهم مما أزاح كثيراً من الاتهامات.

ولنذكر دليلاً على عدالة المسلمين هاتين الشهادتين:

نقل (توماس أرنولد) طرفاً مما روته كتب الفتح في كتابه الدعوة إلى الاسلام:

(١) أنه لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في (فحل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب الينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا».

ومن ذلك أيضاً:

(٢) إن أهل حمص أغلقوا أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين: أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم وإن كانوا على دينهم.

ولولا الكتب التي نشرت في أوروبا في القرن الحادي عشر للميلاد، وهي مليئة بالاتهامات والشتائم وافتراءات غريبة وما قام به القوالون في الطرق والشوارع، لكانت نظرة أوروبا إلى الاسلام غير ما نراه اليوم.

فواجب الشباب المسلم اليوم واجب خطير جداً. عليه أن يقوم بإزاحة ما

ترسب من أكاذيب ومفتريات عن الاسلام في الغرب وعرض الاسلام كما هو ببيان واضح وبلغات مختلفة وبذل النفس والنفيس في هذا المضمار. فلا شيء يقرب العبد إلى الله كهداية عباد الله وإنقاذهم من الضلال.

ومما يبشر بمستقبل زاهر أنه قد تأسس في (جنيف(Génève مركز إسلامي :(Islamic Centre 333) لنشر حقائق الاسلام في الغرب وكذلك تأسست جمعيات اسلامية في (اليابان): (زابن) تدعو الناس إلى الاسلام.

* * *

ومما هو دليل على تقدم المسلمين في الهندسة إلى حد بعيد هو: أن أعظم جسر أقيم على نهر (التيمس) كان من صنع مهندسي العرب. وأن قباب معظم الكنائس الشهيرة في (بافاريا) كانت من صنع العرب. وأن الأسطول البحري الهولندي الذي قهر الأساطيل الانكليزية في معركة (ليزبونة) عام ١٥١٢ م كان من صنع العرب. وأن الورق العبادي الذي كانت تستخدمه البلاد الأوروبية لتأليف الكتب ونسخ[١] المناشير الرسمية كان من صنع العرب. وإن علم الجبر والفلك والجغرافية والمثلثات والتشريح والكيمياء كانت من وضع المسلمين. وأن أول خريطة وضعت للكرة الأرضية كانت من صنع الإدريسي العربي الأندلسي، كل ذلك: إستجابة لقوله تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾[٢]. (سورة ق: ٦ ـ ٨). واستجابة لقوله تعالى: ﴿قل أنظروا ماذا في السماوات والأرض﴾. واستجابة لقوله تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

ويقول العلامة (دوسن): «إن المدنية الأوربية بل المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين. ومن المدهش أن يصبحوا ـ وكانوا أول أمرهم على الفطرة ـ عنصراً فاتحاً، ويعتبروا سادة لنصف العالم في مائة عام. ومن أشد

---

(١) استنساخ.
(٢) منيب: أي راجع إلى ربه.

العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم. حتى وصلوا إلى مستوى عالٍ في مائة سنة. بينما نرى الجرمانيين، لما فتحوا الامبراطورية الرومانية، قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم».

وفي مكتبات أوروبا اليوم آلاف الكتب التي ألفها المسلمون في شتى العلوم. مما يدل على أن الاسلام دين يرافق العلم ويحث على العلم ولا تنافي بينه وبين العلم أبداً.

فالمسلمون قد نبغوا في شتى العلوم. فهم الذين قد أبدعوا في علم الكيمياء والطب وأوجدوا القوانين والدساتير التي هي أساس العلم الحديث. وبثوا المراصد واكتشفوا قواعد علم الفلك ونظموا الخرائط الجغرافية. وكان الأدب والشعر يلعب دوراً هاماً في التعبير عن المكتشفات. فهم كانوا يعبرون أحياناً عن دستور رياضي أو قاعدة نحوية أو قانون هندسي إلى غير ذلك بالنظم، عدا النثر. وقد قرأت قبل أكثر من ثلاثين سنة قطعة شعرية، هي دستور لحل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية في كتاب ألفه أستاذ الفيزياء الرياضية بجامعة استانبول: صالح زكي في أربعة مجلدات أسماه: (الآثار الباقية).

والمسلمون هم الذين أوجدوا (علم الجبر)، ولا يزال يعبر عن هذا العلم في الغرب بنفس ما اصطلح عليه المسلمون: (Algèbre, Algebra) كما أن أسماء كثير من النجوم في علم الفلك لا تزال باقية في كتب الافرنج على ما اصطلح عليه المسلمون. والمسلمون هم أول من عرفوا أصول الرسم على سطح الكرة الأرضية وقالوا بدوران الأرض على محورها وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل أفلاكها في أفلاك أخرى. وهم أول من عملوا الأسطرلابات وبنوا مراصد كثيرة. ولهم اكتشافات هامة في المساحات والحجوم وتقسيم الزاوية. وهم واضعو الهندسة التحليلية. وقد أدخلوا تحسينات جمة على حساب المثلثات الكروية وأضافوا عليها وألفوا في البصريات وحسبوا زاوية الخسوف. وكانوا قد تعرفوا إلى استعمال التخدير في العمليات الجراحية. حين أن الكنيسة كانت تحرم إذ ذاك ممارسة الطب انتظاراً منها لإتمام الشفاء على يد

المناسك الدينية التي يقوم بهاالقساوسة تاركين ما خلق الله من أنواع العقاقير والأدوية لدفع ما يصيب الانسان من أمراض. وقد صنعوا الورق وأبدعوا في صناعة المنسوجات وصنعوا السكر من القصب ونبغوا في طرق الري والزراعة العلمية.

يحدثنا العلامة: (هوليارد) أستاذ الكيمياء بكلية (ايتون) والـذي يُعتبر أعظم الأساتذة في الكيمياء في أوائل القرن التاسع عشر فيقول:

إن سبب نبوغه في الكيمياء هو تعلمه اللغة العربية وتضلعه منها ودراسته ما اخترعه المسلمون في علم الكيمياء.

* * *

وهذا: (جابر بن حيان) أملى عليه الإمام الصادق (جعفر بن محمد) عليهما السلام، خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية وكان الكيمياويون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ هـ يروون عن علي عليه السلام موازين الصناعة.

إن جابر بن حيان يُعد من أساطين علم الكيمياء وحجة فيه بلا نزاع... وقد نبغ في علوم أخرى أيضاً كالطب والفلسفة وقد ألف (٢٠٠) كتاب، (٨٠) منها في علم الكيمياء. وقد جاء بنظريات هامة في علم الكيمياء تحققت صحتها من قبل علماء الغرب عندما بدأوا في توسيع علم الكيمياء. وقد علمه الإمام الصادق عليه السلام طريقة تحضير (مداد مضييء)، يستخدم في كتابة المخطوطات الثمينة، لإمكان قراءتها في الظلام. وعلمه أيضاً طريقة صنع صنف من الورق غير قابل للاحتراق.

وهكذا (عز الدين الجلدكي) قد جاء بقوانين هامة في علم الكيمياء: منها قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي ومن كتبه: (نهاية الطلب)، (التقريب في أسرار التركيب)، ويبلغ كل منهما نحواً من ألف صفحة.

وهكذا قاد (أبو القاسم المجريطي) أكبر حركة كيميائية في الأندلس.

فهل كان ذلك كل ذلك لأن الدين يعارض العلم ولا يوافقه في شيء؟!...

تلك هي سلعة غربية، جاءت من معارضة الكنيسة للعلم وإعدامها كثيراً من العلماء فسرت إلى الشرق وإلى شبابنا المثقف، فتأثروا بها وتغيرت وجهة نظرهم إلى دينهم القويم، دون أن يتحملوا أعباء البحث والتنقيب!.

* * *

وقد نبغ المسلمون في علم الطب، حتى ترى أن (وليم أوسلر) يقول في كتابه: (تطور الطب): «إن المسلمين أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية. وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد من المكانة والأهمية ما لا تكاد تجد له مثيلاً في التاريخ».

ولا بأس بذكر ما جاء في التاريخ العام للأفيس ورامبو:

«إن انكلترا، كانت في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها، منقطعة الصلات بغيرها، تعترض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشي والسائمة. وكانت أوروبا غاصة بالغابات الكثيفة. وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في المدن روائح قتالة، لم يعرف أهلها النظافة». ويقول (درابر): «وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوروبا وساورتها الأوهام. فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة[1] ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين.

---

(١) إن لشفاعة أنبياء الله (ع) والأئمة (ع) والصلحاء من عباد الله (رض) وفي التوسل بهم إلى الله تعالى أثراً بالغاً في دفع المكروه وقضاء الحوائج. مع العلم أنهم «لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون». (سورة الأنبياء: ٢٨). إنهم أبواب الله والوسيلة إليه بإذنه تعالى... انهم: «عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون».

وقد كتبت الجرائد معجزة للإمام علي بن موسى الرضا (ع) قبل سنين: وذلك ان امرأة قد أصيبت بداء السرطان، وقد أثبت ذلك معهد الأشعة السينية(X. R.) ويئس الأطباء من شفائها وقالوا أنها تموت قريباً لا محالة، فنذرت لله وتوسلت إلى الله تعالى بالإمام الرضا (ع). فرأت، ذات ليلة في ما يرى النائم يقال لها: قد شفيت وما بك من داء. قامت من فراشها فرحة مستبشرة، وعرضت نفسها على الأشعة والأطباء، فلم يروا أثراً للسطران، فتعجبوا من ذلك وقالوا: «إن ما حدث ليس بحادث طبيعي وليس للطب العادي أن يفسر ذلك». =

وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة وأغفلوا أمر النظافة، وكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً».

المسلمون هم أول من مارسوا العمليات الجراحية. مع العلم، أن أوروبا كانت ترى، في القرن الثاني عشر الميلادي، أنه لا يجوز للإنسان أن يغير ما خلق الله وأن يتصدى إلى عملية جراحية! حين أن المسلمين قاموا في ذلك الحين بتأليفات جمة في علم الجراحة وشرحوا الآلات التي كانوا يستعملونها في كتبهم وهي تزيد على مائتي آلة عدا تأسيسهم مستشفيات، بعضها للرجال وبعضها للنساء، مقسمين المستشفى إلى أقسام متعددة حسب نوع المرض، وأقاموا معازل لعزل المرضى المصابين بأمراض مُعدية.

والمسلمون هم أول من أسسوا المستشفى السيار. فكان ينتقل هذا المستشفى من بلد إلى بلد، مجهزاً بالأدوات والأدوية والأطعمة والأشربة وملابس وصيدلية كاملة مع أطباء، لا سيما حين حدوث وباء أو مرض معدٍ. والمسلمون هم أول من اكتشفوا وسائل التخدير واستعملوها في العمليات الجراحية.

* * *

= ليس المراد من الاستشفاء أوالتوسل إلى الله تعالى بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، أن تترك ما خلق الله من أدوية للأمراض تفضلاً منه وما علم البشر من عمليات جراحية. فقدجعل الله تعالى لكل شيء سبباً. والشفاعة أو التوسل عند تعسر الأمور وغلق الأبواب العادية سبب من الأسباب، ان أذن الله بذلك. والحديث القائل: داووا مرضاكم بالدعاء والصدقات، ليس معناه أن تترك الطرق العادية التي هيأها الله لنا وألهمها ثلة من عباده، ولكن ندعو ونتصدق مع المعالجة من طرقها والالتزام بالنظافة والتعقيم إلى حد بعيد، كي لا يحدث خطأ في المعالجة ولا يحدث اشتباه في تشخيص المرض ومقدار الدواء وتسمم حين إجراء عملية جراحية واشتباه غير منتظر إلى ما هنالك، فالدعاء والتصدق والتوسل والمعالجة والتعقيم والنظافة كلها أسباب هيأها الله تعالى لقضاء الحوائج والشفاء تفضلاً منه ورحمة... أنه تعالى يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾. (سورة البقرة: ٤٦).

وإن أجمل بناء من أبنية جامعة (برنستون) الأمريكية يحمل اسم طبيب مسلم هو: محمد بن زكريا الرازي. وأنه أول من أسس الطب التجريبي، وذلك بإجراء تجاربه الطبية العلاجية على الحيوان قبل تجربتها على الانسان. وقد وضع (٢٢٩) كتاباً في الطب ترجمت إلى معظم اللغات العالمية، وتقرر تدريسها في كليات الطب، كما أنه اشتغل في الكيمياء وألف فيها كتباً عدة.

كان الرازي رجلاً متديناً، يعالج الفقراء مجاناً ويشتري لهم الدواء من ماله. ولذا مات فقيراً رغم شهرته الواسعة.

نعم، إن رجال العلم في الاسلام ما كانوا لينفكوا عن دينهم، بل كان تعلقهم بدينهم تعلقاًشديداً. يتعبدون في أوقات معينة ويستعينون بالله في حل مشاكلهم العلمية، بصلاة يصلونها، أو دعاء أو صدقات.

* * *

وهكذا ابن سينا[1]، كان كلما أشكلت عليه مسألة، توجه إلى القبلة، صلى ركعتين ودعا الله تعالى، متضرعاً، فيلهمه الله تعالى ما يزيل مشكلته. كان قلبه متعلقاً بالمسجد، وقد يعتكف فيه إذا أعيته مشكلة أو عسرت عليه مسألة.

وابن سينا هو أول من قال: إن الاضطرابات النفسية تسبب اضطرابات مِعدية، وقد تسبب قرحة المعدة. وهو الذي اكتشف الدورة الدموية في الانسان قبل (وليم هارفي) بـ(٦٠٠) سنة. وقال في معالجة السرطان ما توصل إليه العلم الحديث. وكتابه «القانون»، هو من أكبر الموسوعات الطبية. وكان يدرَّس في مختلف كليات الطب. وكان أهم مرجع طبي لكل من أراد التخصص في علم الطب.

وضع ابن سينا نظريات في تكوين الصخور والجبال اتخذت أساساً لعلم طبقات الأرض(Géologie) في الوقت الحاضر.

ويقال عنه، انه قال عند دنوِّ أجله: «إن الذي كان يمدني بقوة قد أمسك

(١) هو: أبو علي بن عبد الله بن سينا المعروف بالرئيس.

عني». فاغتسل غسل التوبة وأنفق ما كان لديه واعتق مواليه وعبيده وصار يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، حتى وافته منيته.

* * *

إن المسلمين اشتغلوا في العلوم الطبيعية وتمكنوا من حساب الوزن النوعي للعناصر. ووجدوا أن الوزن النوعي للرصاص ١١,٣٣. ويقرر العلم الحديث أنه ١١,٣٥. فالاختلاف يسير جداً.

كما أنهم اخترعوا بندول الساعة والآلات الدقيقة. واستعملوا (البوصلة)، ووضعوا قوانين الصوت والضوء، ونظريات في كلا الموضوعين لا زالت تدرس حتى الآن. ويقال أن الغربيين اندهشوا عندما شاهدوا (ساعة) أهديت إلى (شارلمان) ملك فرنسا. وقالوا: إن فيها جنياً يحركها.

وقد ألف ابن الهيثم (٤٧) كتاباً في الرياضيات والطبيعيات و(٥٨ كتاباً في الهندسة وكتباً أخرى في مواضيع شتى وهي مما مهد الطريق للمكتشفات الحديثة.

* * *

وإن كمال الدين الفارسي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري يعتبر حجة في علم الضوء بلا منازع.

وقد وضع أبو الريحان البيروني في كتابه: (الآثار الباقية) والذي يبحث عن (الإيدروستاتيكا) مثل صعود مياه الفوارات والعيون إلى الأعلى وعن تجمع مياه الآبار بالرشح الجانبي إلى غير ذلك. ولا مجال لذكر ما وضع من كتب في مباحث علم الفيزياء.

وقد نبغ المسلمون في الزراعة وعلم النبات وأعمال الري وتربية الدواجن، ووضعوا فيها كتباً مفيدة. ومن أساطين هذا العلم: عبد اللطيف البغدادي، وضياء الدين البيطار، ورشيد الدين الصوري.

والمسلمون عند دخولهم إلى بلد جديد كانوا يهتمون بأمرين في وقت واحد: (١) تنظيم الحدائق، (٢) بناء المساجد.

ولا مراء أن محمد بن موسى الخوارزمي، يُعد واضع علم الجبر وقد ترجم كتابه في الجبر إلى لغات عدة.

والمهـم أن العلماء المسلمين ما كانوا لينفكوا عن ذكر الله تعالى في عملهم العلمي وتجاربهم العلمية. سـواء حين التـدريس أو الكتابـة أو العمل في المختبر. لذلك يقول الخوارزمي في أول صفحة من كتابه: «يقول الخوارزمي بعد حمد الله هادينا وحامينا». ويقول في مقام آخر: «وبالله توفيقي في هذه وغيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».

وأما خواجه نصير الدين الطوسي. فهو معروف في أوساط الغرب إنه نابغة من نوابغ الرياضيات. يعتبر الطوسي كما قال بعض العلماء متفوقاً في الهندسة لا على معاصريه فحسب، بل وعلى علماء الهندسة في العصر الحاضر.

وأما (ثابت بن قرة) فقد أخذ يستعمل الهندسة في حل المعادلات من الدرجة الثالثة. وقد أخذ العـالم الايطالي (جيـرو لامو كـاردان) في القرن السادس عشر عن (ثابت) طريقته هذه في حل المعادلات من الدرجة الثالثة.

و(ثابت بن قرة) هو أول من وضع حساب التكامل والتفاضل وأوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافىء حول محوره.

ولعمر الخيام حلول قيمة في الهندسة ترجمت إلى لغات أجنبية.

والمسلمون هم واضعو علم الفلك بأسلوب علمي صحيح مستعملين في ذلك الهندسة والجبر وحساب المثلثات. وقد أسسوا مراصد عـدة وكان في (مراغة) مرصد كبير، اشتهر بآلاته الدقيقة وأجهزته المتعددة.

وأما التاريخ والجغرافيا، فقد نبغ المسلمون ودونـوا فيهما كتبـاً مفصلة وموسوعات مشهورة وهم واضعو علم الاجتماع.

يقول المؤرخ (كوتيه) عن الشريف الادريسي: «إن الشريف الادريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا وهو الذي علم أوروبا هذا العلم وبقي معلماً لها ثلاثة قرون ـ ولم يكن لأوروبا مصور للعالم إلا ما رسمه الادريسي».

ولو أردنا أن نستقصي علماء الجغرافيا والتاريخ من المسلمين وما ألفوا من

مؤلفات وما قامـوا به من اكتشافات لاحتجنا إلى وضع كتب متعددة في هذا المقام.

وأبو عبد الله القزويني اشتهر بأنه من علماء العلوم الطبيعية ومع ذلك فهو يعد من أساطين علمي التاريخ والجغرافيا وله مؤلفـات في الفلك والعلوم الرياضية مما يجعله في القمة.

كان أبو عبد الله القزويني رجلًا متديناً، وهو القائل: «ليس المراد من النظر تقليب الحدقة، فإن الحيوان يشارك الانسان في ذلك. ومَن لم يرَ من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها فهو مشارك الحيوان. وأدنى حالاً وأشد غفلة، بل المراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها لتظهر حقائقها».

وكم من رجال العلم قاموا برحلات موفقة واستكشافات ناجحة وضحوا بحياتهم بغية العثور على ما في الأرض من بقاع مجهولة.

* * *

ومما يدل أن للمسلمين كفاءة مرموقة في الاختراع والاكتشاف حتى في العصر الحاضر نبوغ بعض علماء المسلمين في بعض المواضيع الحديثة. ومنهم المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة المصري. فقد وضع رسالة علمية أثبت فيها خطأ وقع فيه (أينشتين) وصحح فيها خطأه، ولذلك فد اختاره (أينشتين) ليساعده في أبحاثه. وهو الوحيد الذي زامل هذا العالم في أبحاث المادة والذرة[1].

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة على جانب عظيم من التقوى وحب الله تعالى وتقديسه. وهو القائل: «إن المجد لا يبنى على القوة، حتى، ولا على العلم، إنما يبنى على شيء آخر، وهو ذلك القبس المقدس الذي نشعر جميعاً بأنه يميز الانسان على سائر الحيوان، تلك القوة الروحية التي تحرك فينا حب الحق وحب الخير وحب الجمال. وعلى قدر استجابة البشر لذلك الداعي تأتي عظمتهم ورفعة شأنهم. وعندي إن ما وصل إليه الانسان من العلم وما ترتب

---

(١) المسلمون والعلم الحديث: الأستاذ عبد الرزاق نوفل.

على ذلك من قدرة واختراع إنما جاء على قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق كما أن حب الحق وحب الخير إنما يتفرعان من حب الجمال. فالحق والخير جميلان. ولذلك من أحب الجمال أحبهما جميعاً. ووددت لو استطعت أن أصور للقارىء فيض ذلك الجمال الذي يدركه طالب الحقيقة العلمية: ذلك التناسق البديع بين أجزاء الكون!».

وهو القائل: «اليوم، وقد امتزج العالم بحياة الأمم والأفراد صار لزاماً على رجال العلم أن يتعدوا عن الفلسفة المادية في جميع صورها وأشكالها. كما صار لزاماً على الشعوب أن يتقبلوا رسالة العلم وأن يستعينوا بها على محاربة الشر، وقد بينت أن الأرض لا تزال رحبة تتسع للناس جميعاً وأن القوى الموجودة على سطحها قوى عظيمة، فإذا استعان بها الناس على قضاء حوائجهم وسخروها لخيرهم ورفاهيتهم مستعينين بالعلم والروح العلمية، كان لنا أن ننتظر للبشر مستقبلاً يكفل طمأنينتهم وسعادتهم وسموهم».

إسمعوا ماذا يقول (أينشتاين) نابغة القرن العشرين في الفيزياء وعلم الذرة عن التوجه الديني وأثره في الاكتشافات. إنه يقول: «إن بصيرتنا الدينية هي المنبع وهي الموجهة لبصيرتنا العلمية». لذلك كان كلما حاضر محاضرة في النظرية النسبية يطلب إلى المسؤولين أن يكون الناس أحراراً في القيام بطقوسهم الدينية وتطبيقها.

* * *

يكفي في تأييد الاسلام النواحي العلمية أن قد ورد في القرآن الكريم لفظ العلم في أكثر من (٥٥٠) موضعاً مما يدل على الحفاوة البالغة في الدين الاسلامي بمفهوم العلم ومشتقات لفظ العلم. ولكن القرآن لا يدع مفهوم العلم مفهوماً مجرداً من التعليل والتوصل إلى النتيجة العقلية الحتمية التي يجب أن تؤخذ من العلم بأسرار هذا الكون: ألا وهو الوصول إلى (واضع العلم) وخالقه ومبدعه وهو الله جلت قدرته. أي يريد القرآن أن لا ينظر الفرد نظرة مادية إلى ما أودع الله من دقيق الصنع والقوانين في هذا الكون دون إرجاع هذا الصنع إلى صانع حكيم قدير.

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم هي: «إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم»[1]. فالله تعالى هو الذي علم الانسان بما أعطاه من مواهب وقابليات أن يكتب بالقلم وأن يتعرف إلى أشياء كثيرة من قوانين أودعها الله في هذا الكون الواسع الأرجاء.

لذلك يقول (رينورت): «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة الرياضية التي أنعشت أوروبا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن».

* * *

ومما يؤيد اهتمام الاسلام بالعلم إلى حد بعيد، حل علي سلام الله عليه كثيراً من المسائل الرياضية والفيزيائية، ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب، ووضعه أسس علم النحو. وقوله لكميل (رض): «يا كميل، لو شئت أن أصير من هذا الماء نوراً لفعلت». يقول علي (ع) هذا القول في وقت لم تعرف الكهربائية وكيفية استخدام الشلالات في تحريك (الدينامو) وإيجاد التيار الكهربائي ومن ثم تأسيس المصابيح الكهربائية. ولم تعلم القوى النووية وتحطيم الذرة وتحرر طاقات هائلة: حسب دستور أوجده (أينشتاين): ط = ك × س^{2} . . . أي أن الطاقة المتحررة من تحطيم ذرةٍ ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة.

لذلك يخاطب رسول الله علياً عليه السلام قائلاً: «ليهنئك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً».

وقول علي عليه السلام: «لو شئت أوقرت سبعين بعيراً من سورة الفاتحة». دليل على أن الاسلام يرافق العلم ويعظمه.

* * *

وقد كان للمسلمين الفضل الأكبر في إيجاد الطريق التجريبي في الاكتشاف العلمي لذلك يقول: (كوستاو لوبون) أحد فلاسفة أوروبا: «إن

---

(١) سورة العلق ١ ـ ٤

القاعدة عند العرب هي: جرِّب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً» حين أن القاعدة كانت عند الأوروبي إلى ما بعد القرن العاشر المسيحي. إقرأ في الكتب وكرر ما يقوله الأساتذة تكون عالماً!».

ويقول (كوستاو لوبون) في كتابه حضارة العرب: «إن العرب لم يظلوا طويلاً معتمدين على كتب اليونان التي نقلت لهم. فقد أدركوا بعد لأي أن التجربة والترصد والمشاهدة خير من أفضل الكتب. ولذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التي تُعزى إلى (بيكون)[1] أنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركنا المناهج العلمية الحديثة. فالمسلمون هم أسبق إلى نظام التجربة في العلوم».

لذلك يقول (كوستاو لوبون): «إن المسلمين العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم المسيحية عدة قرون. ونحن الغربيين لم يتح لنا الاطلاع على التراث اليوناني والروماني إلا بفضل العرب ولم يستغن التعليم في جامعاتنا عما نقل إلى لغاتنا من كتب العرب إلا في أزمان متأخرة».

والحق ان ما يعرف اليوم باسم الطريقة (البيكونية) التي قوامها كما يقول (بيكون): «أننا لا نستطيع أن نخضع الأشياء ما لم نخضع لها أولاً» أي لا نتمكن من الاستفادة منها ما لم نكتشف قوانينها، ترجع أصولها إلى المسلمين المكتشفين الطريقة التجريبية. فتأثر بها (بيكون) وغير (بيكون). لذلك يقول (سيديو): الفرنسي في كتابه عن تاريخ العرب: «إن ما يميز مدرسة بغداد هو الروح العلمية الحقة التي تسيطر على أعمالها. فالمضي من المعلوم إلى المجهول، وملاحظة الظواهر ملاحظة دقيقة من أجل الصعود بعد ذلك من النتائج إلى الأسباب، ورفض كل شيء لم يؤيد بتجربة. تلك هي المبادىء التي سادت والتي أشاعها كبار معلمي تلك المدرسة».

ويقول (جيب) في كتابه عن «الاتجاهات الحديثة في الاسلام»: «إن انصراف الفكر إلى الحوادث الجزئية، هيأ للعلماء العرب أن يذهبوا بالطريقة

---

(١) باكون(Bacon) : راهب فرنسيسكاني انكليزي، من كبار علماء القرون الوسطى، ومطبقي الطريقة الاختبارية (التجريبية).

التجريبية إلى أبعد بكثير مما فعله سابقوهم من يونان ورومان، وأنهم الأصل في دخول الطريقة التجريبية إلى أوروبا». ويقول (همبولت: (Humbolt : «من الواجب أن يعد العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الفيزيائية».

يقول المؤرخ (جيبون): إن ولاة الأقاليم والوزراء (يعني في البلاد الاسلامية)، كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلب العلم. وكانت نتيجة ذلك: أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من (سمرقند) و (بخارا) إلى (فاس) و (قرطبة). فقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين ـ هو نظام الملك ـ مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد. وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها ما يعادل خمسة عشر ألف دينار في السنة. وكان عدد الذين يغذَّون بالمعارف فيها (٦٠٠٠) تلميذ. فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الناس فيها. غير أن الفقير يُنفق عليه من الريع المخصص للمدرسة. وإبن الغني يكتفي بمال أبيه. وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة».

وإن الفيلسوف الأمريكي (درابر) يعجب من وجود آراء علمية في كتب العرب كان الغربيون يعتقدون أنها لم تولد إلا في عصرنا الحديث.

وإن علماء أوروبا يقدرون ما للمسلمين من خدمات جمة في الفلسفة، لذلك يقول (رينان): «إن (آلبرت الكبير) مدين لـ (إبن سينا) في كل شيء وإن (سان توما الأكويني) مدين في فلسفته لـ (إبن رشد)[1]. وفي الوقت الذي نرى أن المسلمين يعملون في توسعة العلم الانساني نرى بمزيد الأسف أن (الكاردينال: أكزيمنيس) يأمر بإحراق ثمانين ألف مخطوطة عربية في الأماكن العامة بغرناطة».

وها هو المستشرق النمساوي المسلم (ليوبولد فايس) يقول: ـ وما أصدقه ـ : «إن أوروبا لتعرف هذه الحقيقة حق المعرفة: أن ثقافتها مدينة

---

(١) على انا لا نوافق (ابن رشد) في نظرياته الفلسفية كلها. ففيها نقاط ضعف لا توافق النصوص القرآنية وفلسفة الاسلام الحقة في شيء، لا مجال إلى ذكرها وردها هنا.

للاسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس، ولم يقف الاسلام يوماً ما سدًّا في وجه التقدم العلمي. أنه يقدر الجهود الفكرية في الانسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة. وما من دين ذهب أبعد من الاسلام في تأكيد غلبة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة».

* * *

يظهر من كل ما ذكر بشأن علماء المسلمين ومكتشفاتهم وما كانوا عليه من تمسك بالدين وتعبد وتهجد: أن العلم لا يعارض الدين في شيء. بل إن الدين وتعلق الفرد بربه واستمداده من علم الله الذي لا يتناهى، وطلب المعونة منه تعالى لكشف بعض أسرار الكون، يفتح على المتتبع أبواب المعرفة. ثم ان الله تعالى يهيىء له بلطفه مصادفاتٍ واتفاقات غير منتظرة، وعجيبة جداً، يظفر بسببها العالم المتتبع بحقائق جديدة وخواص مجهولة قبلاً، لم تكن بالحسبان. كل ذلك لتوجهه إلى الله تعالى ومكافأة له إزاء تعبه وتضحيته.

وأي تناف بين دستور يجده المتتبع في ربط العناصر بعضها ببعض أو ربط أجزاء العالم بعضها ببعض وبين عبادة الله في أرضه والقيام بتزكية النفس وما أمر الله به من صلاة وصوم وزكاة وحج وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإنفاق وأعمال صالحات وما أكثرها... الخ.

بل هناك علاقة متينة بين ما يجده العالم من دساتير وبين واضع هذه الدساتير في هذا الكون الرحيب. ثم الخشوع والخضوع، بصلاة وتسبيح تجاه عظمة مَن وضع هذه الدساتير بهذا الاتقان المحير للعقول وهو الله جلت عظمته. إذ أن إرجاع المعلول إلى العلة أمر فطري في البشر ما لم تتلوث هذه الفطرة بخمور وفجور وبغي وظلم. أي ما لم تتلوث هذه النفس التي هي أعز الأنفس علينا بما يبعدها عن ساحات القدس. فقد جاء في الحديث: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه. فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه. وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب».

فما على هذا الانسان إلا أن يقلع عن ذنبه حالاً، كي لا تتراكم ذنوبه،

فيسودَّ قلبه، فلا يبصر الواقع والحق وتتغلب إذ ذاك عليه المادية الخالكة، فيتمسك ـ لا سمح الله ـ بالمادية العمياء، وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً! لذلك يستحب أن يستغفر العبد ربه، عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». كما يستحب له أن يستغفر الله بصوت خافت بعد التسبيحات الأربع في الركعةالثالثة والرابعة من صلاة الظهر والعصر والعشاء.

* * *

وهكذا الفلسفة التي يتبناها الفيلسوف وغير الفيلسوف وهي رشحات نفسه، فإن كانت نفسه طاهرة زكية بعيدة عن الفسوق والعصيان مؤمنة بالله والبعث كانت فلسفتها تناسب نفسه، فلسفة قريبة إلى الواقع وإن كانت نفسه نفساً لئيمة، خبيثة، مكارة، غدارة، قاسية، متحجرة، ففلسفتها تكون فلسفة هدامة، سفاكة، مخربة، لا ينبض فيها شيء من محاسن الأخلاق، شيء من العطف والحنان، ففلسفة كل انسان مرآة نفسه.

وقد أخطأ (تنمان(Tenne mann في قوله: «إن جملة عوائق وقفت تقدم المسلمين في الفلسفة، وهذه العوائق ترجع إلى كتابهم المقدس الذي يتعارض ونظر العقل الحر». وذلك لأن القرآن الكريم يدعو الناس إلى التفكير الحر وينهى عن التقليد الأعمى بقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها﴾[1]. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[2]. وبقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[3]. و﴿لآيات لقوم يعقلون﴾[4]. ﴿إن في خلق السماوات واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب﴾[5]. ﴿أفلا

(١) سورة محمد (ص): ٢٤

(٢) سورة الرعد: ٣١

(٣) سورة النمل ١٢، وسورة الروم: ١٣.

(٤) سورة البقرة: ١٦٣

(٥) سورة آل عمران: ١٩٠

تعقلون﴾[1]، ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾[2]. وبقوله: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾.

وقد ذم الله تبارك وتعالى أولئك الذين لا يعقلون بقوله: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[3]. وبقوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[4]. وبقوله: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب﴾[5] .

الاسلام يريد منا أن لا نتقبل شيئاً دون تمحيص وتمييز وذلك بقوله: ﴿فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[6] .

وقد عظم أمر العقل والتفكير إلى حد بعيد بقوله: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾[7] .

وقد جاء في حديث: «إنما يُداق الله العبادَ في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا».

وإذا أردت أن تعرف مَن هو ذلك العاقل الذي يتبنى فلسفة حقة لا تزيغ به الأهواء فيميل إلى هاهنا وهاهنا من مسالك ضالة مضلة. فانظر إلى ما يقوله الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حين يعرفنا (العاقل) أنه يقول مخاطباً هشاماً أحد أصحابه: «يا هشام، إن العاقل هو الذي لا يشغل الحلالُ شكره

---

(١) سورة الأنعام: ٣٢، وسورة القصص: ٦٠

(٢) سورة العنكبوت: ٤٣

(٣) سورةالبقرة: ٦٥

(٤) سورة الأنفال: ٣٢

(٥) سورة البقرة: ٢٦٩

(٦) سورة الزمر: ١٨

(٧) سورة آل عمران: ١٩١

ولا يغـلب الحرام صبرَه». فمن كان مصداق هذا الحديث فانه يزَّيف كل فلسفة بشرية، ولا ترتاح نفسه إلا إلى فلسفة الاسلام الحقة.

وإن كانت التجربة سند العلم الحاضر، فليجرب من كان يشك في صحة هذا المقال، ليرى كيف يخرجه الله تعالى من الظلمات إلى النور بمنه. ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾.

القرآن وما فيه من فلسفة حقة لم يدع مجالاً لظهور فلاسفة في الشرق بالمعنى الذي يريده (تنمان)، إلا إذا انحرف هذا الفيلسوف عن النصوص القرآنية وجاء بنظريات هوجاء تعبر عن هوى نفسه! ذلك لأن حقيقة الوجود وما أودع الله فيه من كمال ووظيفة الانسان وما سخر له من عوالم شتى من جماد ونبات وحيوان وربط العوالم المختلفة بعضها ببعض كل ذلك مسطور في كتاب الله الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1] ـ بتعبير واضح. ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[2]. ﴿وما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[3].

إلا أن هذه الفلسفة الحقيقية التي يضمها القرآن الكريم، هذه الفلسفة الإلهية التي منَّ الله بها على عباده من عالم الغيب أي من عالم غابت عنا حقيقته وليس لنا أن نصل إلى كنهه، لا يصل إلى تفهم عمقها وأثرها في تكامل البشر فيلسوف لم يخرج بعد عن ماديته الضيقة وهو ينظر إلى الوجود نظراً سخيفاً متأثراً ببيئته، فيلسوف ظن أن الاصطلاحات والظنون والمزاعم الباطلة، أو تلفيق وجهات نظر فلاسفة متعددين (أو متفلسفين) تؤلف فلسفة حديثة أو تقدم معطيات جديدة في عالم الفلسفة والعلم.

إن فلسفة هؤلاء، هذه الفلسفة التي طابعها المادية، هي وليدة نفوس متحجرة، بعيدة كل البعد عن فلسفة الاسلام الحقة، وان هذا البعد نفسه

(١) سورة السجدة: ٤٢

(٢) سورة النحل: ٨٩

(٣) سورة الأنعام: ٣٨.

يجعل الفيلسوف الغربي ومنهم (تنمان) يزعم أن ليس في القرآن فلسفة أو أن القرآن يتعارض ونظر العقل الحر، أنه يريد اصطلاحات وتلفيقات ليس من ورائها الوصول إلى صلب الحقيقة والواقع وإنما هي ظنون وأهواء!!.. ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[١].

* * *

إذا كان موضوع الفلسفة البحث عما وراء الطبيعة وكان ما هو وراء المادة أو الطبيعة مجهولاً لهذا الانسان لعدم وجود مقياس مشترك بين هذين العالمين، فمن العبث أن يزعم أو يوقن هذا الانسان إن ما تمليه عليه نفسه (هذه النفس التي تتحول معطياتها من وقت إلى وقت) هو الواقع الصحيح. أما الفكر البشري، فيعمل لأجل البحث عن خواص المادة والقوانين التي تتحكم فيها وليس له أن يقيس ما وراء الطبيعة على ما هو في الطبيعة، فيعمم ما يجده من قوانين ومعادلات في الطبيعة على ما وراء الطبيعة، وان قول الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ هو غاية ما يمكن أن يقال عن الروح مع ما نحن فيه من جهل مرير.

فما تقوَّله الفلاسفة عن الوجود، وعن الله تعالى، وعما وراء الطبيعة لا يخلو عن مقترحات تنمُّ عن مرتبة نفوس أصحابها في ساحات الكمال أو أودية التسافل وهو ليس من الواقع الحقيقي في شيء. ذلك لأن العقل الفطري ينحجب عن فعاليته وإعطاء الحكم الصحيح عند تلوث النفس. ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه، فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن تدعهم إلى الهدى، فلن يهتدوا إذن أبداً﴾[٢]. ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين[٣]، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾. فهناك رابطة وثيقة بين معطيات العقل عن الفلسفة الحقة ودرجة تكامل النفس وتسافلها.

---

(١) سورة النجم: ٢٣

(٢) سورة الكهف: ٥٨

(٣) سورة الحجر: ١٢

وأما فلسفة القرآن أو الحقائق التي أوحاها الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فهي الحق الصريح الذي لا غبارعليه ولا ريب فيه، بعد إثبات نبوة محمد خاتم النبيين بالعقل والمنطق. ذلك لأن هذه الحقائق إنما جاءت من منبع صافٍ فياض. جاءت بوحي منه تعالى: ﴿ألا يعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1]. ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾[2].

* * *

وقد أضرت فلسفة اليونان وفلسفات أخرى بالاسلام ضرراً بالغاً. على أنه قد نبغ في المسلمين من تفهم الفلسفة اليونانية وصححها على ضوء فلسفة الاسلام الحقة، ومع ذلك كله لم ينج هؤلاء الفلاسفة من الزلل في القول والابتعاد عن صريح القرآن. فالاسلام في غنى عن استجداء فلسفة بشرية حالكة. فقد جاء في (أصول الكافي)، عن الصادق عليه السلام: «قال رسول الله (ص) القرآن هدى من الضلالة وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة. فيه كمال دينكم. وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار».

ولا يعلم صحة ما قاله رسول الله (ص) إلا من سلك مسالك الصلحاء ونهج مناهج الأتقياء، عند ذلك يعلم أن لا فلسفة تطابق الواقع والمنطق إلا فلسفة القرآن الحقة.

* * *

وكم للمنصفين من الغربيين من شهادات تنص على عظمة القرآن وأنه كتاب الله المنزل ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾.

---

(١) سورة الملك: ١٤

(٢) سورة النمل: ٧٥

فقد قال «أدموند يورك» الخطيب السياسي الانكليزي: «القانون المحمدي (القرآن) قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه، وهو قانون نسج بأحكام نظام قضائي وأعظم قضاء علمي، تشريع لامع ما وجد قط مثله في هذا العالم من قبل».

وقد قال الكاتب (مراشي): «من يتأمل آي القرآن يجد أن أساس الاسلام التوحيد وقطبيه التآخي وتحسين شؤون العالم تدريجياً بواسطة العلم. فهذه هي الأسباب الحقيقية لظهور الاسلام».

وقال (المستر بيكتول): «القرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم ومكنهم من إنشاء امبراطورية فاقت امبراطوريات أسكندر الكبير، والامبراطورية الرومانية، سعة وقوة وعمراناً وحضارة ودواماً».

وقال (كوستاو لوبون): «إن القرآن لم ينشر إلا بالاقناع لا بالقوة، فاستطاع بذلك أن يجذب إليه الشعوب وتدين به تلك الشعوب».

وقال (ريتو نبورث): «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة مقتبسة من القرآن، فجميع العلماء مدينون له».

ويقول أحد الغربيين الذين اعتنقوا الدين الاسلامي: «هل يتأتى لجميع فلاسفة العالم أن يثبتوا غلطة واحدة في القرآن، ولو ارتكنوا على كل ما في أيديهم من العلوم العصرية، لا يتأتى لهم ذلك. ولو وجدوا فيه خطأ صغيراً ما كانوا إلا مظهريه. ولكن أنّى لهم ذلك؟؟ والعلوم كل يوم في تبدل وتغير. وفي كل لحظة تظهر معانٍ باهرة لآيات قرآنية، ما كنا لنفهم معناها إلا بعد تقدم العلوم».

«لأضرب لكم مثلاً: كان الفلكيون يدعون أولاً أن الأرض ثابتة والشمس متحركة[1]. ثم قالوا: بل الأرض متحركة والشمس ثابتة، ثم جاءوا

---

(١) لقد قال فيثاغورث قبل الميلاد: أن الأرض تدور حول الشمس، أي أن الشمس ثابتة والأرض متحركة. وقد فات الكاتب أن يضيف ذلك... وقد بينا حركة الشمس في الجزء الأول مع شيء من التفصيل.

اليوم يقولون: علمنا الآن أن كلا في فلك يسبحون، وان الشمس تجري لمستقر لها. فمن هنا علمنا أن العلوم تتغير وتترقى والقرآن ثابت لا يتغير بالحوادث».

«فإن وجد في الكتاب الحكيم شيء لا نفهمه، وجب علينا أن ننتظر رقي العلوم، ولا نشك لحظة في صحة القرآن».

ثم يقول: «قصدت في سياحاتي مدينة (بو تارليه) لمقابلة الدكتور (جرينه) المسلم الفرنسي الشهير، الذي كان عضواً في مجلس النواب، للسؤال عن سبب دخوله في الاسلام، فعند الوصول والسؤال منه، قال لي: «تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعية والصحية والطبية التي درستها من صغري وفهمتها جيداً فوجدتها منطبقة كل الانطباق مع معارفنا الحديثة، فأسلمت، لأني تيقنت أن محمداً (ص) أتى بالحق الصراح، من قبل ألف سنة، من غير أن يكون له مدرس من البشر. ولو أن صاحب كل فن من الفنون أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما يعلمه جيداً، كما قارنت أنا، لأسلم دون ريب، إن كان عاقلاً، خالياً من الأغراض»[1].

* * *

يقول المؤرخ الكبير (لوثرب ستودارد) في كتابه (حاضر العالم الاسلامي):

«قد سارت الممالك الاسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠ م) أحسن سير. فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً، مرصعة بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً، وما انفك الشرق الاسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل إلى الغرب نوراً».

ويقول (كولدزيهر) تحت عنوان (الدين والمروءة): «إن الاسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية. وهذان المثلان لا

---

(١) من مقال للأستاذ السيد أحمد الحسيني في مجلة «صوت المبلغين» التي تصدر بكربلاء.

يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان، فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لا حد لها والكرم إلى حد الاسراف، والاخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية، أما في الاسلام: فالخضوع لله والانقياد لأمره، والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة، وعدم التفاخر، وتجنب الكبر والعظمة هي المثل الأعلى للانسان في الحياة».

ويقول (ليودوروش): «إن الاسلام دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعاً فيه، بل إني عدت إلى الشريعة التي يسميها (جول سيمون): (الشريعة الطبيعية)، فوجدتها كلها أخذت عن الاسلام، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب».

ويقول (ماسينيون): «يمتاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر من موارد الجماعة، والاسلام ينبذ التبادل غير المقيد، كما يناوىء الأموال المصرفية في حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوجة والملكية ورؤوس الأموال التجارية. فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية. وللاسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام ماضٍ كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات، ولقد برهنت الطوائف الاسلامية الكبرى في أفريقيا والهند والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان على أن الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها».

* * *

ولكي نعرِّف الاسلام أنه دين الفطرة والتسامح، لا بأس بذكر شهادة

(سيرت. و. أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الاسلام): «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة. وان العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح ».

حقق الله على أيدي العاملين المجاهدين: أن يدين العالم أجمع بدين الفطرة، دين الاسلام، دين العقل والمنطق، فيقول كل فرد من أبناء العالم:

«ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم، فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار»[1].

* * *

وهكذا نرى (الاسلام) دين العلم والعمل الصالح، قد حقق على أيدي المسلمين كثيراً من المكتشفات في شتى الحقول حتى عدوا مؤسسي النهضة العلمية الحديثة في أوروبا، ولم يكتف الاسلام بالحث على العلم فحسب، بل أراد للبشر الاستمرار في البحث والاستزادة من العلم دوماً وذلك بقوله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾.

غاية ما هنالك: يريد (الاسلام) أن يرافق الورع والتقوى العلم والمكتشفات، كي يترشح منها[2] اليقين بالله وكتبه ورسله وبعوالم القدس وحياة لا ظلم فيها ولا فساد. وذلك بقوله جل من قائل:

﴿أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٣

(٢) التقوى والعلم.

(٣) سورة الزمر: ٩. قانت: طائع، مواظب عل الطاعة.

من حقائق القرآن

﴿والسماءَ بنيناها بأيدٍ وانا لموسعون﴾

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونية، هي عصارة ما توصل إليه العلم الحديث، لا سيما في القرن الأخير. وأنها معجزة خالدة ما بعدها معجزة. كل ذلك، لكي يعتبر هذا الانسان بهذا الكتابِ السماوي ويعلم أنه منزل من ربه لهدايته، ويعلم أنه لم يُخلق عبثاً وإنما خُلق لغاية سامية تتناسب وعظمة خالقه: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. (سورة الدخان: ٣٨ ـ ٣٩).

إنه تعالى يقول نحن بنينا السماء بقوتنا وقدرتنا ونحن نوسع السماء ونوسِعها حيث لا يعلم مدى هذا التوسع والإمتداد إلا الله تعالى.

كان (أينشتاين) يريد أن يحسب وزن العالم: (الكتلة) أي وزن ما في الكون من كواكب وأنجم وأجرام، ثم عدل عن هذاالرأي لما رأى أن نجوماً تتشكل حديثاً ونجوماً أخذت تقطع مراحل الكهولة وقد أوشكت أن تبيد.

وقد ثبت أخيراً أن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة مخيفة، وأن الكون آخذ بالتوسع بسرعة فائقة.

يقول علماء الفلك: إن مجموعتنا النجمية تشمل مائة بليون من النجوم أو أكثر. وإن ما بين النجوم ممتلىء بالغازات ومواد مختلفة، خلاف ما كان يتصوره بعض الناس قبل ذلك. وان التحليل الطيفي للنجوم البعيدة جداً قد دل بصورة قطعية على وجود الغاز الكوني بين النجوم والمجرَّات بحالة تخلخل شديد جداً، إذ قدرت كثافته بنحو ميليغرام واحد في كل مليون ميل مكعب من الفضاء. وهذا الغاز مكون كله تقريباً من غازي الايدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية.

قـد ثبت أن النجوم كلهـا متحركـة «كل يجـري لأجل مسمى» وأن مواضعها بالنسبة لبعضها البعض قد تغيرت. ولكن لكونها بعيدة عنا جداً أي بعيدة عنا ملايين السنين من السنين الضوئية لا نشعر بحركتها، فلا تتبدل خارطة السماء إلا في بعض مئات من آلاف السنين. وأما السنة الضوئية فهي ما يقطعه الضوء بسرعته الكبيرة خلال سنة واحدة من أميال أوكيلومترات. وبما أن الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل أو (٣٠٠ ٠٠٠) كيلومتر تقريباً. وان السنة تعادل (٣١ ٥٣٦ ٠٠٠) ثانية. إذن؛ ٦٠ × ٦٠ × ٢٤ × ٣٦٥ × ١٨٦٠٠٠ ميل = ٠٠٠ ٠٠٠ ٦٩٦ ٥٨٦٥ ميل وهو ما يقطعه الضوء من أميال خلال سنة واحدة. أي ٦ مليون مليون من الأميال على وجه التقريب. أو ١٠ مليون مليون كيلومتر تقريباً.

وقد علم أن متوسط سرعة النجوم في حركتها إلى جهات شتى هو (٢٠) كيلومتراً في الثانية. فالشمس مع سياراتها (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانس، نبتـون، بلوتو) وتـوابعها من أقمـار تتحرك بسرعة تبلغ (١٩,٥) كيلومتراً في الثانية الواحدة بالنسبة للنجـوم القريبة حولها أي أن الشمس مع سياراتها وتوابعها تتحرك بهذه السرعـة الهائلة: (سبعين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً) على شكل لولبي نحو نجمة في السماء تسمى بالنسر الواقع. وتتحرك بسرعة أخرى في فلك حول مركز المجرة.

والمجرة هي منطقة طويلة من النجوم تمتد فوق رؤوسنا كالقوس ويمتد من أفق إلى أفق وقد تركزت فيها النجوم أكثر تركز وتكثفت فيها بعضها فوق بعض أكبر تكثف، أو هي كالطريق في السماء ازدحم بسالكيه ازدحاماً وما سالكوه إلا النجوم. على أن في السماء مثل هذه المجرة التي فوق رؤوسنا مجرات متعددة لا تعد ولا تحصى.

وقد دلت الأبحاث على أن نجوم كل مجموعة في المجرة فضلاً عن دورانها في أفلاكٍ بعضها حول بعض، فانها جميعاً تتحرك بحركة مشتركة حول المحور الأصلي العمودي على الدائرة الاستوائية للمجرة.

فالأجرام تدور في مجموعتها في أفلاك ثابتة بالنسبة لبعضها البعض وفي

الوقت ذاته تدور كل مجموعة بأجرامها المتلازمة حول المحـور الأصلي للمجرة في فلك خاص.

وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفي للمجرات الخارجية على أنها تتباعد عنا، أي يتباعد بعضها عن بعض باستمرار وسرعات عظيمة جداً تقدر بآلاف الأميال في الثانية الواحدة. فعلم أن الفضاء يتمدد بين المجرات ويتسع باستمرار. وان هذا التمدد يقدر بمائة وخمسة أميال في الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية. وعُلم أن حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أميال حجمه منذ بداية تمدده. أي أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف ما كان عليه أولاً. وعُلم أيضاً أن هناك من النجوم حجومها ملايين المرات قدر حجم الشمس.

ولقد أمكن باستعمال أجهزة خاصة التعرف إلى نجوم قد أرسلت ضوءها منذ ملايين السنين ولكنه لم يصل الينا لحد الآن. فعلينا أن نتصور سعة الكون الذي خلقه الله تعالى وهو يتسع يوماً بعد يوم بأمره تعالى كما اتسع بأمره حتى بلغ ما عليه اليوم.

وعُلم أيضاً بعد مشاهدات دقيقة أن هناك ملايين من مجرات خارجية منتشرة في الفضاء كما بينا وأن كل مجرة مؤلفة من بلايين النجوم.

يقول (سير جينز): إن أكثر هذه المجرات منتشرة انتشاراً منظماً في طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر نحو مليـون ونصف من السنين الضوئية مع العلم أن الضوء يقطع ٦ مليون مليون من الأميال (تقريباً) في سنة واحدة.

يقول الأستاذ (كامو): إن (هَبل) مدير مرصد (مونت ولسن) الذي له أبحاث هامة عن المجرات الخارجية قد سبر أغوار الفضاء بمرقب مرصده الكبير وتوغل فيها فتمكن من النظر إلى مسافات سحيقة تقدر نحو خمسمائة مليون سنة ضوئية. وقد أحصى من المجرات الخارجية نحو مائة مليون مجرة وإنه يحتمل وجود مجرات أخرى على مسافات أعظم من هذه التي شاهدها (هَبل).

ويقول: إن أبعاد هذه المجرات الخارجية تتضاءل بجانبها أبعاد النجوم في مجرتنا التي يبلغ قطرها نحو مائة ألف سنة ضوئية وسمكها نحو عشرة آلاف سنة ضوئية.

وقد دل الحساب الرياضي من المشاهدات الدقيقة: على أن أبعاد المجرات الخارجية عن مجرتنا مذهلة. إذ وجدوا أن أقربها منا، ويدعى سديم: (أندرو ميدا العظيم) يبعد بنحو ستمائة وثمانين ألف سنة ضوئية. ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين، ثم عشرات الملايين، ومئات الملايين من السنين الضوئية. فما أوسع فضاء هذا الكون وما أعظم خلق الله العلي القدير.

إذا كانت شمسنا هذه تبعد عن أقرب نجمة اليها ٢٦ مليون مليون ميل، فإن الصاروخ يجب أن يسير بسرعة الضوء أي بسرعة (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية، مدة أربع سنوات وأربعة أشهر تقريباً كي يصل إلى أقرب نجمة الينا. وأنى للصاروخ أن يسير بهذه السرعة العظيمة وأن نقطع في الثانية الواحدة (١٨٦٠٠٠) ميل أو (٣٠٠٠٠٠) كيلومتر. مع العلم أن أسرع ما وجد من الأجسام المادية السريعة (عدا الأرواح طبعاً) هو الضوء. وكل ما كان أكثف من الضوء كانت سرعته أقل. ويقال إن سرعة الأمواج الهرتزية هي بقدر سرعة الضوء تقريباً وهي طاقة كهربائية. فلا يمكن أن توجد واسطة مادية سرعتها بقدر سرعة الضوء على ما ثبت في الفيزياء. وعلى فرض الإمكان فنحتاج من العمر مئات الملايين من السنين كي نصل إلى بعض النجوم التي نشاهدها بآلاتنا الحاضرة، شريطة أن نسير بسرعة الضوء. ومما لا شك فيه أنه مع تقدم العلم سوف يمكن (بإذن الله) كشف آلات أدق وأمتن، فيرى إذ ذاك من النجوم والمجموعات النجمية والمجرات ما لا يمكن رؤيته في الوقت الحاضر.

إن الله تعالى يقول: ﴿تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[1]، فيصعد الملك أو جبرائيل في ما خلق الله من أكوان

---

(١) سورة المعارج: ٤.

في يوم مقداره خمسون ألف سنة، وبما أنه لا يمكن قطع ما خلق الله تعالى من مسافات شاسعة وأكوان متعددة بسرعة الضوء وان استمر السير ملايين ملايين من السنين، إذن وجب أن نقول أن سرعة الملك أضعاف أضعاف سرعة سير الضوء.

وقد عُلم أخيراً أن في الفضاء منظومات شمسية تعد بالملايين تشبه نظامنا الشمسي، أي أن كلا منها له سيارات فُتقت منه وتدور حوله وتوابع أقمار فتقت من سياراتها وتلف حولها وأنه بسبب أبعاد النجوم الساحقة وضآلة الضوء المنعكس من السيارات وضعف قوة المراقب(Telescopes) الحالية لا يمكن إثبات وجود هذه الأنظمة (المنظومات الشمسية) بالمشاهدة الفعلية.

فانظر كيف تتحقق الآية الكريمة: ﴿والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون﴾ وقد نزلت في وقت لم تكن هناك مراقب (تلسكوبات)، ولم يكن يعلم أحد أن هذه السماء تتوسع يوماً بعد يوم بنظام خاص أودعه الله فيها وطاقات هائلة جهزها الله بها. فقد حدث انفجار في الشمس سنة ١٩٥٦م قدرت الطاقة المتحررة، فكانت تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينية مع العلم أن طاقة قنبلة هيدروجينية تعادل طاقة ألف قنبلة ذرية. والقنبلة الذرية لا تبقي ولا تذر! فسبحان الذي خلق هذه الطاقات الهائلة بارادته وشكلها كما يشاء بحكمته، وأودع فيها من النظم والقوانين والمعادلات كما أراد بتدبيره. وهو القائل: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[١].

إن الانسان ليندهش حين يرى أن علياً عليه السلام يجيب عندما يسأل عن المسافة بين السماء والأرض. بقوله: «دعاء مستجاب». ذلك لأنه ليس هناك عدد يمكن أن يُعبر به عن هذه المسافة التي لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى. إلا أن يقال: «دعاء مستجاب». فإن الله تعالى لا يخلو منه مكان وهو القائل: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٢]... ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك

---

(١) سورة الكهف: ٥٢

(٢) سورة ق: ١٦

ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة. إن الله بكل شيء عليم﴾[1].

فهل يجدر بهذا الإنسان أن يركبه الغرور، فيترك عبادة ربه، هذه العبادة التي تأخذ بمجامع قلبه وتجعله سائراً في عوالم الملكوت، سائراً في ساحات القدس، حيث لا دنس ولا رجس. سائراً في عوالم من الاطمئنان والحبور ما لا يمكن أن يقاس بأفراح هذا العالم المادي وما يترشح من المادة الصماء، منغمراً في موسيقى العالم اللانهائي تاركاً العالم المادي الضيق الحالك وراء ظهره.

فطوبى لنفوس عرفت لماذا خُلقت، فازدادت معرفة بالله تعالى وحققت الغاية الرفيعة التي خلقت لأجلها. وهو القائل كما جاء في حديث قدسي مخاطباً ابن آدم: ﴿خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي﴾. ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[2].

أيجدر بهذا الانسان أن يعثو فساداً في الأرض والله تعالى يقول: ﴿كلوا واشربوا ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾. كل ذلك: لأنه جاء بصاروخ أدواته من خلق الله، وتركيبه بعقل أوجده الله. مع علمه أن هذا الصاروخ مركب من (٣٠٠٠٠٠) قطعة مرتبة ترتيباً هندسياً دقيقاً لو تخلفت احدى القطع عن الترتيب الهندسي لفشل الصاروخ ووقف عن الانطلاق فكيف لا يعظم ولا يقدس خالقه الذي جهز مخه بـ(٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠) عصب لكل واحد منها وظيفته، فلو جسَّ أحدها حدثت عوارض تختلف عما لو جس غيره. ولو حسبنا بحساب رياضي (حساب الاحتمالات) نرى أن ليس هناك أية صدفة تجعل عشرين مليون عصب تترتب بهذا الترتيب الدقيق حتى تتوارد عليها الاحساسات فتشعر الروح بواسطتها بما حدث. فهي دونما تشبيه كآلة الراديو. فكما أن الراديو ليس هو الصوت والمتكلم هكذا هذه الأعصاب

---

(١) سورة المجادلة: ٧

(٢) سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨

الكثيرة في المخ الإنساني ليست هي الروح والانسان وإنما واسطة لتحسس الروح أو النفس. وحسب ما هو مقرر في حساب الاحتمالات: إن الاحتمال الذي يجعل عشرين مليون عصب تترتب ترتيباً هندسياً فيؤدي إلى إنتاج مطلوب هو واحد من ١٠ متبوعة بعشرين مليون صفر إلا صفراً واحداً، أي: واحد من ١٠ مرفوعة إلى قوة عشرين مليون. ومعلوم أن من نسبة

$\frac{١}{٢٠\,٠٠٠\,٠٠٠}$ أو: $\frac{١}{١٠^{١٠^{٧}} \times ٢}$ هوالصفر.

ولما كان ما خلق الله من عوالم مختلفة من جماد ونبات وحيوان وما رتب لكل منها ترتيباً دقيقاً لا يُعد ولا يحصى إذن تصبح النسبة:

$\frac{١}{\infty} = \frac{١}{\infty} = ٠$ فلا صدفة أبداً.

على أن للمفكر أن يقول: ومن أين جاءت هذه الأجزاء التي كل منها بدورها مشكل من جزيئات أخرى بصورة دقيقة وهندسية وهكذا دواليك حتى ينتهي بنا إلى جهل الواقع.

﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[١].

كيف لا يفكر هذا الانسان أن من يأتي بتركيب هذا الانسان العجيب لا يخلق عبثاً ولا يوجد لاهياً، وأن وراء هذا الخلق غاية رفيعة سامية. إلا وهي معرفة الله تعالى وهو القائل كما جاء في حديث قدسي: ﴿كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف﴾. فلا بد من أنبياء ولا بد من دساتير تقرب النفوس إلى الله تعالى. وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[٢].

ولكنها الذنوب والفجور والخمور، تراكمت دون توبة واستغفار على قلب هذا الانسان فحجبته عن رؤية الحق والواقع وأعمته: ﴿إن أعمى العمى عمى القلب﴾ فصار لا يؤمن إلا بالمادة العمياء، وسول له شيطانه

---

(١) سورة الحج: ٤٦

(٢) سورة الأنبياء: ١٧

مزاعمه وصار يتشدق ويعزو كل شيء حتى الأخلاق إلى المادة والوضع الاقتصادي وكأنه جاء بفلسفة! وفهم سر الحياة متهماً غيره بالرجعية والخرافة! ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾[1].

ما أعظم هذا الحديث، حيث يشرح تأثير الذنوب في النفس: ﴿إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه. وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب﴾. لذلك يستحب أن يستغفر كل منا عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً ثلاث مرات: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». كي لا تتراكم ذنوبه بعضها على بعض فيسود قلبه، فيأتي دور الإنكار والجحود: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾[2].

﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا، به الحق، واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾[3].

ولكن مهما يكن من شيء فإن الغلبة للمؤمنين في هذا العالم على قلتهم ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[4]. فلا بد من تضحية ولا بد من جهاد. وهو القائل: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[5].

---

(١) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨

(٢) سورة العنكبوت: ٤٩

(٣) سورة الكهف: ٥٧

(٤) سورة الحجر: ٩

(٥) سورة العنكبوت: ٦٩

فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون

- ١ -

إن الله عز وجل يُقسم بما نراه وبما لا نراه مما خلق من عوالم شتى: عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الانسان وعـالم الأرواح وعالم الجن وما في السماء من عوالم لا تُرى حتى بأدق الآلات.

والقسم بما خلق قسمٌ بعظمته تعالى وبالدقة المتناهية التي أودعها في مخلوقاته، وارتباط هذه المخلوقات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً يحير الألباب: ﴿ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت. فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾. ذلك لأن الانسان كلما تقدم في تحقيقاته وتجاربه، كلما ظفر بدساتير جديدة كانت تخفى عليه، وخواص عجيبة وسعة لا تتناهى ودقة لا تستقصى، أودعها الله في أرجاء هذا الكون الرحيب.

فيحق لله تعالى أن يقسم بعظمته التي لا تتناهى ـ هذه العظمة التي تتجلى في ما نبصره وما لا نبصره.

إن قابلية الانسان في الإبصار قابلية محدودة، لذلك يستعين بآلات شتى: (المجهر: Microscope) كي يُبصر الدقيق من الأشياء، كالميكروبات والجراثيم التي يجب أن تكبر آلاف المرات بل عشرات الآلاف، كي يمكن رؤيتها، أو يستعين بالمرقب: (Telescope) ليرى في مسافات شاسعة ما خلق الله من كواكب وأنجم وشموس ومجرات وما أودع الله في الفضاء من مادة غازية قليلة الكثافة جداً.

قـد بلغ ببعض الأفراد في أوروبـا التسافـل في النفس حتى صاروا

يجحدون الروح والنفس والملائكة، يجحدون الخالق جل جلاله وكل ما لا يرى بالعين ويؤمنون بكل ما يرى بالعين.

حين أن العين ذات قابلية محدودة. فهناك كثير من الأشياء كان ينكرها المادي سابقاً لعدم وجود آلات يبصرها بها، ثم اعترف بها بعد اكتشاف آلات تساعد على الرؤية. وكذلك اليوم، هناك كثير من الأشياء لا ترى حتى بأدق الآلات ولكنها سوف ترى في مستقبل قريب عندما تكتشف آلات جديدة ودقيقة جداً.

لذلك تنقسم الموجودات إلى: منظور وغير منظور. فكل ما يراه الانسان بعينه المجردة أو بالمجاهر أو بالمراقب أو الأجهزة المقربة وكل ما في السماء وما تحت الأرض وما في قاع المحيطات وما في السحب: كل ذلك من العالم المنظور. وأما العالم غير المنظور فهو ما لا يمكن رؤيته بالآلات أو بالعين المجردة ولكنه موجود، يحكم العقل بوجوده أكثر مما يحكم بوجود المنظور كالخشبة.

فهناك أشعة لا ترى بالعين ولا بالآلة: أشعة غير منظورة. أي أن هناك أشعة مرئية وأشعة غير مرئية. وإن الأشعة المرئية هي جزء صغير من الصورة الكلية للضوء. والأشعة غير المرئية أكثر تفرعاً وتأثيراً من الأشعة المرئية. لذلك أخذ يقول علماء الضوء: إن كلمة (ضوء) أو (حزمة ضوئية) أو (إشعاع) قد لا تدل على حقيقة الضوء، والأولى أن يقول: (الطاقة المشعة)، لتدل على جميع أنواع الإشعاع: المرئي منها وغير المرئي.

على أن العلم الحديث لم يصل إلى حقيقة الضوء كما لم يصل إلى حقيقة القوى أو كل شيء قواني (منسوب إلى القوة)، لم يصل إلى حقيقة القوة الجاذبة وحقيقة الكهرباء. إنما تُفرض فروض فيفسر بها بعض الظواهر، ثم تخمد تلك الفروض بعد برهة من الزمن ويُعوض عنها بفروض أو فرضيات (Hypothèses) أخرى يمكن تفسير الظواهر القديمة والجديدة بها معاً وهكذا دواليك...

فالعلم الحديث لا يتيسر له الولوج إلى أعماق الأشياء والوصول إلى

حقائقها التي لا حقيقة بعدها. وهو يعمل دوماً للوقوف على أسرار الأشياء وإذا به يقف أمام أودية جديدة من المجاهيل تدهش الألباب.

فمن تلك الأشعة غير المرئية: الأشعة السينية(X Rays) ، أو أشعة (رونتكن). هذه الأشعة تخترق الأجسام التي لا يمكن أن يخترقها الضوء العادي! وقد اكتشفت بالصدفة. إنها قوية جداً ذات موجة قصيرة. فإن طول موجتها (١٠٠٠٠) مرة أقصر من طول موجة (الضوء المنظور).

ومن الأشعة التي لا ترى بالعين (ولو بالآلة) الأشعة الجيمية (أشعة كاما). وهي ذات موجة قصيرة أيضاً، أقصر من طول موجة الأشعة السينية.

ومن الأشعة التي لا ترى: الأشعة (فوق البنفسجية(Ultra — Violet فان طول موجتها أطول من طول موجة الأشعة السينية وأقصر من طول موجة الضوء المرئي.

ومن الأشعة غير المرئية: الأشعة (دون الحمراء) في شعاع الشمس. وهي موجات حرارية نحس بها ولا نراها وهي تصل إلى الأعصاب والعضلات، ولا يحس فيها الفيلم العادي للتصوير.

وقد استخدم الإنسان الأنواع المذكورة من الأشعة في الكشف عن أمراضه ومعالجة كثير منها وقد استخدمها أيضاً في الغذاء والدواء.

وقد علم أن الأشعة فوق البنفسجية التي هي في شعاع الشمس، تقتل كثيراً من الجراثيم المضرة. وقد جاء في الشرع المحمدي (ص): أن أحد المطهرات هو الشمس. فتطهر الأرض النجسة أو الأبواب أو الجدران أو الأشجار أو الثمار التي عليها (من غير المنقول) والحصران والبواري (من المنقول) بعد زوال العين، بإشراق الشمس عليها حتى تجف، وإن كان ما ذكر جافاً فيصب عليه الماء حتى تجففه الشمس بالاشراق عليه.

وهكذا موجات الراديو، وموجات الرادار الذي يكتشف وجود الأشياء في الفضاء ويحدد مكانها بالضبط من النوع غير المنظور.

* * *

وقد تكون بعض الأجسام المادية، في وقت، من نوع غير المنظور، لعدم وجود آلات تكشف عنها. وبعد اكتشاف آلات جديدة ودقيقة وتقدم الفيزياء والرياضيات العالية، تصبح من النوع المنظور.

مثال ذلك: ما كان يعلم قبل (١٠٠) سنة أن في كل مجرة عدداً كبيراً جداً من النجوم تكاد تعد بالملايين تسودها أنظمة كالنظام الشمسي. أي أن كلا منها شمس في حد ذاتها وقد فتقت منها سيارات وفتقت من السيارات هذه توابع وأقمار تدور حول الأم وتدور في الوقت نفسه حول نفسها. فإذا تقدمت الآلات الفلكية، سيأتي اليوم الذي يتلافى فيه ضآلة الضوء المنعكس من الأنجم التي تقع في مسافات لا نهائية وسوف نشاهد انجماً وعوالم كانت سابقاً من نوع غير المنظور.

لذلك يقسم الله تعظيماً لشأن ما خلق من عوالم لا تتناهى، عوالم لا ترى بالعين المجردة ولا بالآلات بقوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾.

كما أنه كان يعد سابقاً الغاز الموجود في الفضاء بين النجوم والذي اكتشفه اخيراً العلم الحديث من غير المنظور، وقد أمسى منظوراً أو ملموساً محسوساً. ذلك لأن كثافة هذا الغاز تساوي ميليغراماً واحداً في كل مليون ميل مكعب من الفضاء.



فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون

- ٢ -

ومما لا يمكن إبصاره: الذرة، فانها من الصغر بحيث لا يمكن للانسان أن يبصرها حتى بأدق الآلات. وقد أصبح اليوم التعرف إلى (الذرة) وما أودع الله فيها من تركيب وقوانين ومعادلات من أهم العلوم الحديثة وأدقها وأصعبها. وأصبح علم الذرة علماً هاماً يتخصص فيه بعد دراسة الفيزياء العالية على ضوء الرياضيات العالية. لذلك يجدر بنا أن نتكلم عن الذرة - وهي من النوع (غير المنظور) مما خلق الله تعالى - بشيء من التفصيل.

كان يقول (ديموقراطيس(Démocrite الفيلسوف اليوناني منذ زمن بعيد[1]: إنه لو قسمت قطعة من الحديد مثلاً إلى جزئين، ثم قسم أحد الجزئين إلى جزئين آخرين أيضاً وكررت هذه العملية مرات متعددة جداً، فأننا سنصل إلى مرحلة لا نتمكن فيها تقسيم الجزء الأخير إلى جزئين آخرين مع الاحتفاظ بخواص الحديد، أي أنه لو قسم الجزء الأخير أيضاً لا نحصل على الحديد بل يكون شيئاً غير الحديد، فصار يسمى الجزء الأخير الذي لا يمكن تجزئته بـ (جزء لا يتجزأ). وهذا ما يسمى اليوم بالذرة: (آتوم Atome) ومعناها في اليونانية غير المنظور.

إن البحوث الأخيرة في علم الفيزياء أيدت هذه النظرية وبرهنت على صحتها. وذلك أن كل عنصر كالحديد أو الذهب يمكن تجزئته إلى أجزاء متعددة إلى مرحلة يقف إمكان التجزئة فيها مع الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر، حتى نبلغ إلى جزء لا يتجزأ أي جزء لا يمكن تقسيمه وتجزئته مع

(١) قبل الميلاد بخمسة قرون.

الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر، أي لا يكون بعد ذلك جزيء الحديد حديداً أو جزيء الذهب ذهباً. والذرة هي هذا الجزيء الذي لا يتجزأ.

إن العالم المادي مكون من عناصر مختلفة: كالحديد والذهب والفضة والكاربون وغاز الهيدروجين (أو الايدروجين) وغاز الأوكسيجين الخ... وأصبح عدد هذه العناصر التي اكتشفها العلم الحديث: (١٠٠) عنصر لحد اليوم.

وقد أعلن في عام ١٨٩٧ (السير تمسون) وغيره انهم تمكنوا من أن يفصلوا من جميع أنواع الذرات التي هي في حالة تعادل جسيمات متساوية في الوزن وذات شحنات كهربائية سالبة متساوية، أطلقوا عليها اسم (الالكترونات) بالنسبة لشحنتها السالبة، وان ذلك يدل على أن (الذرة) المتعادلة، لا بد أن تكون مكونة من جزيئين أحدهما موجب التكهرب والآخر سالب التكهرب، ومن شحنتين كل منهما مساوية ومضادة للأخرى. وكان ذلك أول اكتشاف علمي عن إمكان تجزئة الذرة. ولكن وقفت الاكتشافات العلمية في هذه الناحية مدة من الزمن حتى كشفت المواد المشعة ودرست أحوال انحلالها الذاتي.

ويقال عن (مادام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (صوربون) إنها قد وضعت في جيب ثوبها بالقرب من الصدر قطعة من الراديوم قد نسيتها وبعد مدة شعرت بخدشة في صدرها وكانت تعلم وزن تلك القطعة قبلاً، فلما فتشت عن سبب تلك الخدشة علمت أن الراديوم هو الذي أثر في صدرها بإشعاعاته ووزنت القطعة من جديد، فوجدت نقصاً فيها وعلمت ان قسماً من المادة قد تحولت إلى طاقة: (إشعاعات).

كما أن (بيكريل) العالم الفرنسي كشف في آخر القرن التاسع عشر بمحض الصدفة! ودون ترتيب سابق إشعاعاً غريباً غير مرئي ينبعث من أحد مركبات عنصر (اليورانيوم) ـ أثقل العناصر المعروفة ـ، ورأى أن هذا الإشعاع الغريب يؤثر في مادة اللوح الفوتوغرافي كأشعة الشمس، وعلاوة على ذلك ينفذ هذا الاشعاع خلال الأجسام غير الشفافة.

فعلم بعد هذا الاكتشاف أن كل ما في الكون من مظاهر مادية وجميع ما هنالك من عناصر: (كالحديد والراديوم) وجدت من شيء واحد هو الطاقة: (Energie) ، وان هذه الطاقة هي القوة الكهربائية السالبة التي تتجلى في الالكترونات(Electrons) وفي القوة الكهربائية الموجبة التي تتجلى في (البروتونات)(Protons) وكهربائية متعادلة: موجبة وسالبة وتتجلى في النيوترونات (Neutrons) وعلم أن العالم المادي هي قوة كهربائية: موجبة وسالبة أو طاقات هائلة تكدست فكانت ذرات وأجساماً، فليس هناك مادة بالمعنى الذي يفهمه المادي. وإنما هي قوى وطاقات خلقها الله بقدرته وإرادته، ورتبها ترتيباً بديعاً، خاضعاً لمشيئته تعالى، فكانت هذه الذرات وهذه العناصر وهذه الأجسام والمواد.

وخلاصة ما قلنا إن الذرة مكونة من:

١ ـ بروتونات موجبة.

٢ ـ الكترونات سالبة، شحنتها مساوية ومضادة لشحنة البروتونات.

٣ ـ ومن نيوترونات، كل منها مكون من اتحاد بروتون موجب والكترون سالب.

فتكون الذرة في مجموعها مكونة من جزئين، أحدهما موجب التكهرب: (كهربائية موجبة) والآخر: سالب التكهرب (كهربائية سالبة). وشحنتاهما متساويتان ومتضادتان.

وهذا مما يجعلنا أن نتصور العالم مكوناً من جسيمات مكهربة. لذلك كان يقول (أينشتاين): إن العالم مجموع قوى كهربائية ومغناطيسية أو (كهرطيسية). فأين المادة التي يتشدق بها المادي؟. ضارباً يده على منضدته قائلاً: هذه هي المادة!.

تصوروا دائرة كبيرة (أو بالأحرى كرة كبيرة) نصف قطرها طويل جداً فهذه هي الذرة. توجد في مركز هذه الذرة دقائق صغيرة متجمعة تسمى بنواة الذرة وفيها البروتونات وهي الكهربائية الموجبة أي شحنتها موجبة، وان وزن الذرة أو وزن المادة هو وزن هذه النواة أي البروتونات (أو الكهربائية الموجبة) تقريباً.

إن عدد البروتونات في ذرة كل عنصر يختلف عن الآخر. فمثلاً عدد البروتونات في نواة ذرّة الحديد لا يساوي عدد البروتونـات في نواة ذرة الأورانيوم (يوراتيوم). ففي نواة كـل ذرة من كل عنصـر عدد معين من البروتونات.

وفي محيط الدائرة (أو الكرة التي تصورناها) عدد معين من الالكترونات (كهربائية سالبة) مجموع شحناتها مساوٍ لشحنة النواة وفي حالة تعادل معها وتتحرك بسرعة عظيمة حول النواة تبلغ مئات الأميال في الثانية لكي تمنع سقوطها عليها تحت تأثير التجاذب بينهما. وان كتلة النواة تبلغ بضعة آلاف المرات قدر كتلة مجمـوع (الالكترونـات). ويفصل بينهمـا أي بين النواة والالكترونات الدائرة حولها فراغ هائل. وان حجم كل منهما ضئيل جداً بالنسبة لحجم الذرة الذي كله فراغ تقريباً. وقد صور (رذر فورد) تكوين الذرة بصورة المجموعة الشمسية وقد أدخل عليها بعض التعديلات. وهذا دليل على عدم تناهي ما أودع الله من خـواص وقوانين في دقـائق هذا الكون!!.

قلنا إن الالكترونات وهي عديمة الوزن تقريباً تدور بسرعة هائلة حول مركز الذرة (البروتونات) وهي تقع عن المركز بفواصل معينة كما في النظام الشمسي. وإن الأبعاد بين الالكترونات الدائرة ونواة الذرة هي تقريباً تساوي الأبعاد بين الشمس والكواكب السيارة حولها مع حفظ النسبة. فإذن كل ذرة هي مجموعة شمسية.

وقد ذكر الفيلسوف العربي فريد الدين العطار: أن ذرات العالم في عمل مستمر وانه توجد في كل ذرة شمس ظاهرة وروح باطنة.

وقال هاتف الأصبهاني الذي توفى سنة ١١٩٨ هجرية:

دل هـر ذره را كـل بشكـافي آفـتـابيش در مـيـان بـيـنـي

أي إذا كشفت عن باطن كل ذرة لألفيت شمساً في وسطها.

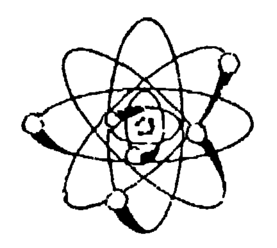
فهو قد توصل إلى كشف هذه الحقيقة بإلهام رباني ونور قذفه الله تعالى

في قلبه. فقد جاء في الحديث وما أعظمه: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

وكم قذف الله من أنوار في قلوب المخترعين والمكتشفين وكم هيأ لهم صدفاً تمكنوا بها من العثور على حقائق جديدة. وكم كان شكرهم وخضوعهم قليلاً! تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى...

وكذلك، فالألكترونات وهي شحنات كهربائية سالبة يختلف عددها في كل ذرة باختلاف العناصر. كالحديد والفضة والذهب مثلاً. وعدد هذه الالكترونات التي تدور بسرعة هائلة في محيط الذرة يساوي دائماً عدد البروتونات التي هي وسط الذرة. وإن لحركات الالكترونات وسيرها في أفلاكها الخاصة بسرعة فائقة آثارها العجيبة لا مجال إلى ذكرها. وان حركة الالكترونات هي من الانتظام والدقة مما يجعل أن يعترف الفيلسوف الفرنسي (هانري بركسون): (Henri Bergson) بخالقه وأن يقول: «إن يداً غيبية تعمل في تنظيم هذه الحركات المنظمة لإيجاد أو حدوث تيار كهربائي وأمواج كهربائية مختلفة وتفاعلات كيميائية إلى غير ذلك مما سيكشفه العلم الحديث».

تصوروا الذرة عادة على أنها كرة غلافها الخارجي سحابة زغبية من الألكترونات تكوّن معظم حجم الكرة تقريباً، وبالرغم من ذلك فانها لا تكاد تكون شيئاً من وزن الذرة. ويحدد عدد الالكترونات في هذه السحابة خواص الذرة الطبيعية والكيموية.



شكل (١) الذرة.

الذرة: هي أصغر جزء من المادة وتتركب من نواة بها بروتونات ونيوترونات ويحيط بها الكترونات.

قلنا إن الذرة تبلغ من الصغر بحيث لا يمكن رؤيتها بأدق الآلات وهي من «ما لا تُبصرون» أي من نوع غير المنظور. ذلك لأنه لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض على شرط الكروية يكون طول ذلك كله ميليمتراً واحداً. ومعنى ذلك أن معدل قطر الذرة هو $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠}$ من المليمتر. وإن قطر (نواة الذرة) يساوي واحداً من مائة ألف جزء من الذرة أي يساوي $\frac{١}{١٠^{١٢}}$ من الذرة. إذن قطر نواة الذرة يساوي $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ أي واحداً من ترليون جزء من الميليمتر أو $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ مم. وإذا جمعنا من نوى الذرة مليارد نواة فلا يمكن رؤيتها مع أقوى المجاهر(Microscopr) ، ومع ذلك فقد عبأ الله تعالى في هذه النواة طاقة (قوة) عجيبة خارقة تدعى: (بطاقة النواة). وإن الطاقات (القوى) المدمرة عند انفلاق القنبلة الذرية إنما هي نتيجة تحرر هذه القوى الخارقة من نواة الذرة الضئيلة. فإن كيلوغراماً واحداً من الأورانيوم: ٢٣٥ يطلق حين تحطيمه طاقة بقدر ما يطلق ٢٥٠٠٠٠٠ كيلو غرام من الفحم!.

فسبحان الله الذي أودع هذه القوة الخارقة في نواة (الذرة) وأجرى الالكترونات التي لا يمكن أن ترى بأية آلة حولها، وهذا مما يقسم الله تعالى به بقوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾. لما هنالك من عظمة خارقة وإتقان في الخلق ما بعده إتقان.

* * *

قلنا إن نواة الذرة مؤلفة أو مكونة من نوعين من الدقائق:

١ ـ البروتونات وفيها شحنة كهربائية موجبة. والبروتون جسيم صغير ثقيل نسبياً، يبلغ وزنه $١,٦٧٣ \times ١٠^{-٢٤}$ من الغرام (وهو محمل بشحنة كهربائية موجبة).

٢ ـ نيوترونات. وهي متعادلة من حيث الكهربائية أي تتعادل فيها الشحنة الموجبة مع الشحنة السالبة. ووزن النيوترون = $١,٦٧٤ \times ١٠^{-٢٤}$ من الغرام.

وأما الالكترونات فتدور حول النواة بسـرعة هـائلة تبلغ (٣٦٠٠٠٠) ميل في الساعة وهي ذات شحنة سالبة ووزن الألكترون = ٩×١٠^{-٢٨} من الغرام.

وهنـاك فضاء واسـع أو فراغ رحيب بين النـواة (نـواة الـذرة) وبين الالكترونات التي تدور حولها.

يختلف عدد البروتونات في نوى ذرات العناصر المختلفة وكذا عدد الالكترونات التي تدور حول النواة، مع العلم أن عدد الالكترونات في ذرة كل عنصر يساوي دائماً عـدد البروتـونات في ذرة نفس العنصـر. فيعتبر عددالبروتونات الموجودة في نواة كل ذرة عدداً دالاً على عددها الذري أو رقم تـرتيبها في الجـدول الدوري. أي أن العـدد الذري يسـاوي عـدد البروتونات الموجودة بها.

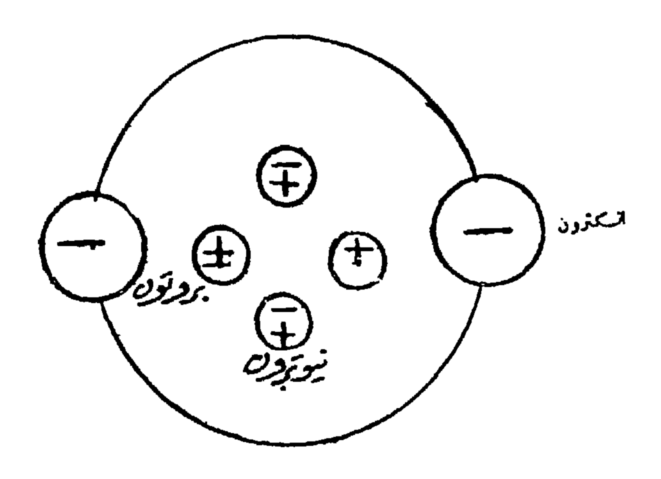
وفي مركز الذرة، كما قلنا، توجد البروتونات والنيوترونـات مكدسـة بعضهـا مع بعض في وسط الـذرة، إذ أن حجمها عبـارة عن جـزء من ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من حجم الذرة كلها. فإذا كان حجم الذرة في حجم منزل كان حجم هذه المجموعة لا يتجاوز حجم رأس دبوس. ولبيان مدى تكدس هذه الجسيمات، فأن حجماً يزن ٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ مرة قدر وزن نفس الحجم من الماء.

تصوروا دائرة كبيرة ضعوا بروتوناً واحداً في مركزها، وضعوا الكتروناً واحداً على محيط الدائرة. فهذه تمثل لنا ذرة الايدروجين (وهو غاز فيه قابليةالاحتراق) وأحد عنصري الماء.

ففي ذرة الايدروجين وهو أخف العناصر يوجد: بـروتون واحـد في الوسط والكترون واحد في المحيط يدور حول البروتون بسرعة هائلة وبينهما فضاء أو فراغ واسع رحيب.

ويليه من حيث الوزن: (الهليوم) وهو غاز غير محترق يُملأ به المناطيد (بالون).

ففي ذرة (الهليوم) يوجد (بروتونان) في الوسط و(نيوترونان) في الوسط أيضاً ويوجد في مدارها الخارجي الكترونان. شكل: ٢.

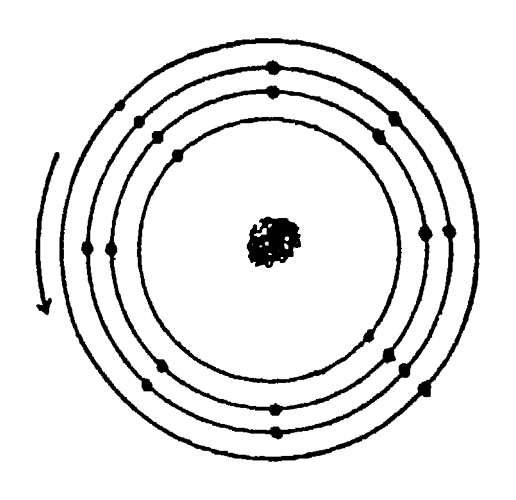


شكل (٢) ذرة الهليوم

الكترونان يدوران حول بروتونين وفي النواة أيضاً يوجد نيوترونان

وأما العنصر الثالث من حيث الترتيب فهو: (ليثيوم). يوجد في نواة ذرة الليثيوم ٣ بروتونات ومعها ٤ نيوترونات، وتدور في الأطراف حول النواة ٣ الكترونات: الكترون واحد على المحيط تماماً وإثنان منها على محيط دائرة أخرى من الداخل بالقرب من المحيط الأصلي.

وهناك عنصر آخر يسمى بـ(نئون). فان في ذرتها (١٠) الكترونات، يدور إثنان منها على محيط دائرة قريبة من المحيط الأصلي وتدور (٨) الكترونات على المحيط الأصلي تماماً. وإن الدائرتين متقاربتان. ومتحدتا المركز.



شكل (٣) ذرة الكالسيوم

شكل مبسط لذرة الكالسيوم، (٢٠) الكترونا تدور
في دوائر مختلفة بنظام خاص حول النواة (المركز).

وإذا أردتم أن تتصوروا ذرة الكالسيوم فارسموا أربع دوائر متحدة المركز. وضعوا: الكترونين في نقطتين متقابلتين على الدائرة الأولى من الداخل وضعوا على كل من الدائرتين الثانية والثالثة (من الداخل إلى الخارج) ٨ الكترونات في نقاط متقابلة أي (طرفي القطر)، وضعوا في الدائرة الرابعة (وهي محيط الذرة الخارجي) الكترونين في نقطتين متقابلتين، وهذه الالكترونات تدور حول البروتونات بسرعٍ هائلة ونظام بديع كما أمرها الله تعالى: «ألا له الخلق والأمر».

وأما ذرة (الأورانيوم) أو (يورانيوم) فيوجد في نواتها (٩٢) بروتوناً ومن (١٣٦) إلى (١٤٧) نيوتروناً تصاحب البروتونات فيها. ويوجد (ذرياً) ١٢ نوعاً من الأورانيوم يُشبه بعضُها البعض، ولها تقريباً نفس الخاصية. وفي نواة كل من هذه الأنواع (وهي ١٢ نوعاً) يوجد ٩٢ بروتوناً ولكنها تختلف من حيث عدد النيوترونات. وتسمى هذه الأنواع من العناصر المتشابهة: (النظائر Isotope) أو (المماكِنات).

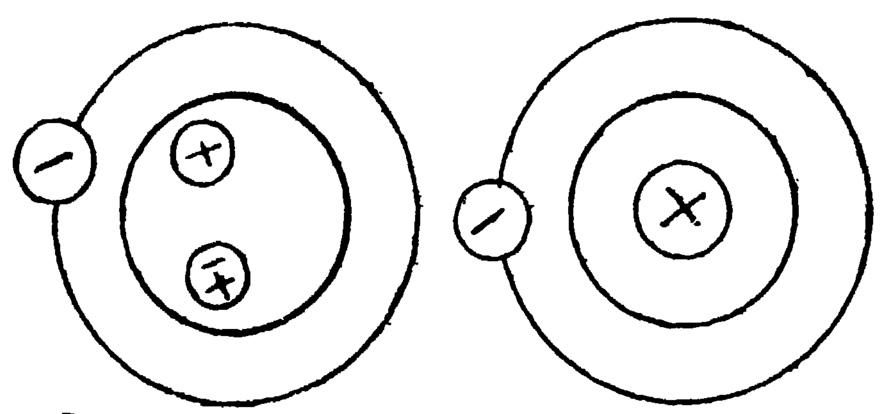
والنظائر هي العناصر التي تتساوى ذراتها من حيث عدد البروتونات

وعدد الالكترونات ولكنها تختلف قليلاً في عدد النيوترونات التي في نواها. وفي الحقيقة هي عنصر واحد. وهذا الاختلاف في عدد النيوترونات لعنصر واحد يؤدي إلى اختلاف في أوزانها الذرية.

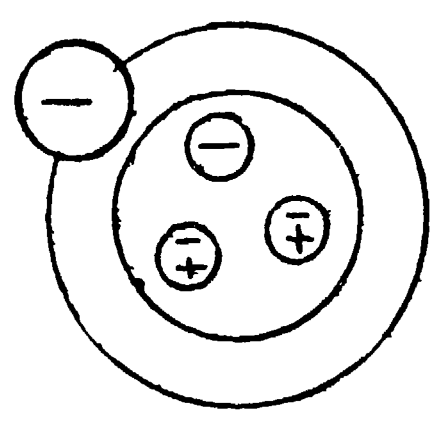
وإذا جمعنا عدد النيوترونات مع البروتونات فالمجموع يعطينا العدد الكتلي(Mass Number) أو الوزن الذري. كما أن الفرق بين الوزن الذري والعدد الذري يساوي عدد النيوترونات.

وأن النظائر أو التوائم أو المتشابهات الخاصة بعنصر معين لها جمياً نفس التفاعلات والخواص الكيميائية. وبما أنه ما يحدد هذه الخواص الكيميائية هو عدد الالكترونات الخارجية وبالتالي عددالبروتونات التي في النواة، وعلى ذلك، فالنظائر الخاصة بعنصر ما لها عدد ذري واحد، وإنما تختلف في أوزانها الذرية أي تختلف بإختلاف عدد النيوترونات فيها. والوزن الذري = عدد البروتونات + عدد النيوترونات... إذن فالنظائر لعنصر ما كالأيدروجين مثلاً هي ذرات نفس العنصر تختلف بعضها عن بعض بسبب اختلاف عدد النيوترونات الداخلة في نواة كل ذرة أو توأم أو نظير من النظائر المختلفة الخالصة بذلك العنصر.

وقد علم أنه يوجد ٣ نظائر للأيدروجين و٣ نظائر للفوسفور و ٥ نظائر للكبريت و ٦ نظائر للكالسيوم ويمكن توضيح النظائر الثلاثة الخاصة بالايدروجين بالأشكال (٤, ٥, ٦):



شكل (٤) الايدروجينHydrogen شكل (٥) الايدروجين الثقيلDeuterium



شكل (٦) الايدروجين الثلاثيTritium

إن هذه النظائر الثلاثة تشترك جميعاً في شيء واحد هو: أن فيها جميعاً الكتروناً واحداً في مدارها الخارجي، وكذا بروتوناً واحداً في نواتها، أي أنها جميعاً لها عدد ذري واحد. بينما نرى أنها تحتوي على عدد مختلف من النيوترونات في النواة.

فالايدروجين العادي لا يحتوي على نيوترونات إطلاقاً، بينما يحتوي الايدروجين الثقيل(Deuterium) على نيوترون واحد إلى جانب البروتون. ويحتوي الايدروجين الثلاثي(Tritium) على نيوترونين. وهكذا نرى أن هذه النظائر الثلاثة لها عدد ذري واحد هو الواحد الصحيح. بينما نرى أن لها ثلاثة أوزان ذرية مختلفة. فالايدروجين العادي وزنه الذري = ١ والايدروجين الثقيل وزنه الذري = ٢، وعند اتحاد الايدروجين الثقيل بالأوكسيجين نحصل على ما يعرف الآن باسم الماء الثقيل.

وعند اكتشاف الايدروجين الثلاثي(Tritium) وجد أنه أثقل فعلاً من كل من الايدروجين العادي والثقيل لأن وزنه الذري = ٣. تلك هي النظائر العادية.

وأما النظائر المشعة هي تلك النظائر الخاصة بالعنصر الواحد، والتي لها نشاط إشعاعي، وهنا نسأل ما هو النشاط الاشعاعي؟

يعرف النشاط الاشعاعي بأنه نشاط ينتج عن اضطراب نواة الذرة نتيجة

اختلاف نسبة ما فيها من (النيوترونـات) إلى (البروتـونات) عن (النسبة اللازمة) لاستقرار نواة الذرة. وذلك كأن تواجه النواة بإدخال بعض البروتونات أو النيوترونات اليها. وبديهي أن مثل هذا العمل يؤدي إلى اختلاف (نسبة النيوترونات إلى البروتونات) عن الحد اللازم لاستقرار النواة، ولهذا السبب تضطر النواة إلى محاولة إصدار نوع أو آخر من الاشعاعات المختلفة حتى تصل إلى حالة الاستقرار.

وقد وجد في الهواء الجوي أن غاز (النتروجين) مكون معظمه من ذرات وزنها الذري ١٤ مخلوطة بقدر ٣ في الألف من ذرات وزنها الذري ١٥. والأوكسجين في الجو كذلك معظمه مكون من ذرات وزنها ١٦ مخلوطة بذرات بقدر ٣ في كل ١٠٠٠٠ منها وزنها الذري ١٧.

وإن الجدول الآتي يوضح لنا تركيب ذرات بعض العناصر:

تتركب ذرة الهليوم من:

(٢ بروتون موجبة + ٢ نيوترون متعادلة) + ٢ الكترون سالبة.

تتركب ذرة الليثيوم من:

(٣ بروتون موجبة + ٣ نيوترون متعادلة) + ٣ الكترون سالبة.

تتركب ذرة الكاربون من:

(٦ بروتون موجبة + ٦ نيوترون متعادلة) + ٦ الكترون سالبة.

تتركب ذرة النتروجين من:

(٧ بروتون موجبة + ٧ نيوترون متعادلة) + ٧ الكترون سالبة.

تتركب ذرة الأوكسيجين من:

(٨ بروتون موجبة + ٨ نيوترون متعادلة) + ٨ الكترون سالبة.

تتركب ذرة اليورانيوم من؛

(٩٢ بروتون موجبة + ١٤٦ نيوترون متعادلة) + ٩٢ الكترون سالبة.

وقد دلت التقديرات العملية على أن وزن الذرة يساوي تقريباً وزن نواتها[1].

وإن القنبلة الذرية هي نتيجة انفجار نواة نوع واحد من ذرة (اليورانيوم) تدعى: (يورانيوم ٢٣٥). ففي نواتها يوجد: ٩٢ بروتوناً و١٤٣ نيوتروناً. فلا تصنع من بقية أنواع اليورانيوم القنبلة الذرية. فيكون الوزن الذري: ٩٢ + ١٤٣ = ٢٣٥.

فتحطيم الذرة (أو التفاعلات النووية) هو عبارة عن تفاعلات بين جسيمات نواها، وتغيير في أوضاع الألكترونات حولها تنشأ عنها نوى ذات عناصر جديدة يحيط بكل منها العدد اللازم من الألكترونات.

ومن الواضح أن التفاعلات العادية بين العناصر كالأكسيجين والايدروجين في تكوين الماء مثلاً تحدث بين ذرات كاملة من الأكسيجين وذرات كاملة من الايدروجين (مثلاً) في حالة تعادل دون حدوث تغيير في نواها. أي لا يحدث حين تكون الماء من الغازين (الأكسيجين والايدروجين) أي تغيير في نواة ذرة الاكسيجين وذرة الايدروجين. ذلك لأن تفاعل ذرات الأكسيجين والايدروجين المتعادلة لتكوين الماء عبارة عن اتحاد ذرة كاملة من الأول بذرتين كاملتين من الثاني. ويعزون مثل هذه التفاعلات إلى حدوث انتقال بعض الالكترونات في المحيط الخارجي لذرات العناصر المتفاعلة من بعضها إلى بعض، فيُصبح بهذا الانتقال بعضها موجب التكهرب وبعضها سالب التكهرب فيحدث الاتحاد بينهما تحت تأثير التجاذب الكهربائي. وان الطاقة التي تنتج من مثل هذه التفاعلات العادية تكون غالباً على صورة حرارة: تكافىء الفرق بين طاقة تماسك الالكترونات بالنوى في الذرات قبل التفاعل وبعد التفاعل.

إلا أن التفاعلات النووية في الانحلال الذاتي أو بين نوى الذرات في أعمال التحطيم (وهو موضوعنا الذي نبحث عنه)، فيحدث عنها تغيير في (تكوين النوى) من الجسيمات التي تتركب منها وهي: (البروتونات

---

(١) في نهاية الكتاب جدول يبين أسماء العناصر المكتشفة مع أوزانها الذرية.

والنيوترونات) علاوة على التغير في توزيع أوضاع الالكترونات المحيطة بها. ولذلـك تكون الطاقة المنبعثة من (التفاعلات النوويـة) أعظم بكثيـر من التفاعلات العادية عند تركيب العناصر في الكيمياء وتبلغ مئات الألوف من المرات قدر الطاقة التي تنبعث من التفاعلات العادية بين الذرات والجزيئات الكاملة. ويصدر معظم هذه الطاقة من باطن الذرات على صورة إشعاع وطاقة حركية وتكون جزء من الطاقة المختزنة فيها والتي تربط جسيماتها بعضها ببعض.

وقد قال (أينشتاين): «إن في الذرة طاقة كبيرة يمكن تسخيرها والإفادة منها. وإن المادة صورة من صور الطاقة. وان الغرام الواحد من المادة يتحول إلى ألف مليون مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة: (أرك: Erg) أو إلى ٢٥ مليون كيلو وات ساعة، أي ما ثمنه نحو ٥٥٠ ألف دينار».

* * *

كانت أمنية أهل القرون الوسطى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة كالفضة والذهب بطريق كيماوي. لكنهم أخفقوا في ذلك ولم يوفقوا رغم ما بذلوا من مساع جمة. فاستحال عليهم تحقيق ما أرادوا. فنبذوا الفكرة في القرن الثامن عشر واستبدلوا بها بفكرة ثانية في القرن التاسع عشر وهي: عدم إمكان تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

ولكن قد حدث في عام ١٩١٩ تحطيم ذرات (النيتروجين) وتحويلها إلى ذرات الأكسيجين والايدروجين. وهكذا توالت بعد ذلك تجارب تفتيت الذرة باستخدام قذائف من جسيمات (ألفا) أي نوى الهليوم ومن جسيمات أخف ولكن أكبر أثراً منها. وهي (البروتونات) أي (نوى الايدروجين) بعد إعطائها سرعة عظيمة. فتمكنوا بذلك من تحطيم وتحويل ذرات عدد من العناصر بعضها إلى بعض: مثل تحويل عنصر (الايدروجين) إلى عنصر (هليـوم) وتحويـل [الصوديـوم] إلى (مغنسيوم) و(الليثيـوم والبورون) إلى (هليوم). فتحقق فعلاً أمر تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

ومما لا ريب فيه أن البشر لا يخلق شيئاً، فلا يتمكن من خلق ذرة

جديدة غير موجودة في الطبيعة. أي غير مخلوقة بيد الله تعالى. (وأعني بقدرته تعالى) والبشر لا يقوى على إيجاد بروتون أو نيوترون من العدم دون أن يستعير من عناصر بسيطة أخرى (أي من ذراتها).

وإن أبسط الأفكار ليعترف أن العناصر وما في ذراتها من ترتيب دقيق وتوزيع البروتونات والنيوترونات وحركة الالكترونات الدقيقة الهائلة حولها لم توجد من تلقاء نفسها، ذلك لأنه بيان شامخ قد روعي فيه تمام الحكمة وكمال التدبير[1].

كما أن العلم ليعترف أن الحيوية في الكائنات الحية لم تكن نتيجة ترتيب مادي بين المواد وإنما جاءتها من الخارج بأمر من الله تعالى.

فليس للبشر أن يخلق بروتوناً أو الكتروناً، إلا أنه يستعيرهما من بعض العناصر ويدخلهما في عنصر آخر لتحويل بعض العناصر إلى عناصر أخرى موجودة قبلاً في الطبيعة (الكون). وهذا ما يسمونه بتحويل العناصر: (Transmutation).

وزيادة في التوضيح نقول إذا رمزنا بعدد من البروتونات في نواة ذرة الرصاص مثلاً بـ (ب) ورمزنا بعدد من النيوترونات في تلك الذرة أي ذرة ذلك العنصر بحرف (ن)، فسيكون دستور النواة:

ب + ن

فإذا أردنا أن نزيد في عدد البروتونات من (ب) إلى (ب + ١)، شريطة أن يبقى عدد الالكترونات ثابتاً، لزم أن ندخل نواة الايدروجين في نواة الرصاص. ولتحقيق هذه الغاية يجب أن نوجه بروتونات سريعة السير جداً نحو نواة الرصاص كي يدخل بروتون واحد (بطريق الصدفة) في نواة الرصاص، وعند ذلك يكون عدد بروتونات ذرة الرصاص (ب + ١). وبهذه

---

(١) قد علم أخيراً أن سرعة الالكترونات في ذرة الهيدروجين قد بلغت ألفي كيلو متر في الثانية. وهذا في ما يعرفه العلم والعلماء أقصى سرعة أمكن أو يمكن معرفتها على وجه الأرض.

الطريقة نتمكن من أن نصنع من الرصاص ذهباً. وأن نصنع من الزئبق ذهباً. ذلك لأن هذين العنصرين: (الرصاص والزئبق) قريبان من عنصر الذهب من حيث عدد البروتونات. ولكن يجب أن لا ننسى أن علينا أن نصرف ١٠٠٠ غرام من الذهب للحصول على غرام واحد من الذهب بطريقة تحويل العناصر. وهذا ما لا يجوزه الاقتصاد.

فعلم مما سبق أن الذرة ليست بجزءلا يتجزأ على ما كان يعتقده البعض، لأنها تتحلل إلى قسيمات أخرى فقوى وهي عالم برأسها لها قوانينها وخواصها، وهي ليست بمادة كما يزعم المادي. وبذلك قد فندت نظرية (دالتون). وكم من نظريات مادية سخيفة فُندت بعد كشف بعض حقائق الذرة. إلا أن المادي (الشيوعي) مع الأسف يتحكم على العلم والعلماء بدكتاتوريته. فيقتل العلماء ويبيدهم إن لم يوافقوه في هذيانه في عصر حرية الأفكار وفي عصر الانطلاق الفكري.

وكذلك فُنِّدت نظرية (تومسون: Thomson) التي كانت تقول: إن الذرة مملوءة مصمتة وان الالكترونات موضوعة على البروتونات ملتصقة بها كذباب على ظهر فيل، فعُلم أخيراً أن الذرة خالية فارغة وفيها فضاء واسع رحيب.

وعلم أن أصل الموجودات على وجه الأرض شيء واحد. إنما هو البروتونات التي تشكل نواة الذرة. والبروتونات هذه هي عينها من حيث الخواص والماهية في ذرات جميع العناصر، وليس هناك أي اختلاف بين بروتون ذرة عنصر وبروتون ذرة عنصر آخر. خلافاً لما يتقوله الماديون من نظرية التبدل والتغير.

وإن عملية تبديل العناصر وتحويل بعضها إلى بعض(Transmutation) تثبت لنا هذه الحقيقة. كما أنه لا فرق بين الكترون ذرة راديوم والكترون ذرة الحديد منذ ملايين السنين ولم يحدث أي تغير وأي تبدل خلافاً لما يهذيه المادي الخيالي البعيد عن العلم الصحيح. وهل هناك وئام بين الديكتاتورية والعلم؟!.

فلو كان هذا (التغير) الذي يقول به المادي صحيحاً لوجب أن تتبدل

ذرات الايدروجين كلها إلى (هليوم) وأن تتبدل ذرات (الهليوم) إلى (ليثيوم) وهكذا حتى تصل النوبة إلى (اليورانيوم)، فلا نرى في عالمنا اليوم عنصراً عدا عنصر (اليورانيوم) مثلاً! ولكنا نرى أن العناصر كلها موجودة إلى يومنا هذا. وهي من الانتظام والدقة والترتيب بحيث يتمكن العلم من إيجاد عناصر مجهولة إستناداً إلى النظام الذي أودعه الله في سلسلة العناصر، كما أن الأميبا (الكائن الحي ذا الخلية الواحدة) لا يزال موجوداً على وجه الأرض مع وجود حشرات وحيوانات وإنسان لها من الأعضاء والتشكيلات الداخلية وقوانين دقيقة ومعادلات ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا قليلاً: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾.

قلنا إن النظام الذي أودعه الله في تسلسل ذرات العناصر المختلفة كان سبباً لكشف عناصر مجهولة، كما أن دستور (نيوتن) في الجاذبية بين الأجسام كان سبباً لكشف كوكبين مجهولين (نبتون) و(بلوتو) ذلك لأنا نتمكن من أن نحسب حسب هذا الدستور:

$$ق = ط \times \frac{ك\,كَ}{م^{٢}}$$

قوة الجذب بين الأجرام ومواضع هذه الأجرام ومداراتها، ولا بأس بتوضيح هذا الدستور:

ك تشير إلى مقدار كتلة نجمة في الفضاء (غرام ـ كتلة)
كَ تشير إلى مقدار كتلة نجمة أخرى في الفضاء (غرام ـ كتلة)
م تشير إلى المسافة بين النجمتين (بالسانتيمترات)

ط النسبة الثابتة وهي = $\frac{١}{١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من ثقل الغرام تقريباً

إذن، قوة الجذب بين نجمتين في الفضاء أو كتلتين، تساوي حاصل ضرب كتلتيهما في النسبة الثابتة مقسوماً على مربع المسافة بينهما.

* * *

واضح أن دقائق النواة في الذرة (أي البروتونات) التي شحنتها موجبة

يجب أن تتباعد بعضها عن بعض لاتحاد نوع الكهربائية، ذلك لأن شحنتها موجبة، مع ذلك، فإن الله تعالى قد جهزها بطاقة فائقة تتغلب على الخاصية الكهربائية المودعة في الطبيعة بإذن الله وهي: (تباعد كهربائيتين من نوع واحد بعضها عن بعض). وإن هذه الطاقة التي جُهزت بها نواة الذرة لا يمكن أن تعزى إلى الطبيعة، لأن من شأن الطبيعة أن تُباعد بين كهربائيتين من نوع واحد، أي بين البروتونات لأن شحناتها موجبة. فالله هو الذي قد أودع في النواة هذه الطاقة الهائلة لتقريب البروتونات وجعلها كتلة واحدة، وهي إذا تحررت بوسائل شتى (بتحطيم الذرة) هدَّمت ما حواليها فلا تبقى ولا تذر.

قد وفق «آينشتاين» لحساب هذه الطاقة الهائلة في بنية النواة في الذرة وعلم أنها تساوي: مربع سرعة الضوء مضروباً في كتلة المادة. فإذا فرضنا الطاقة = ط، وكتلة اليورانيوم مثلاً = ك، وسرعة الضوء = س.

فالطاقة المتحررة أو المودعة في كتلة ك تساوي:

$ط = ك \times س^{٢}$.

إذن في نواة الذرة يدٌ غيبية تعاكس متطلبات الطبيعة وتفند ما يتخيله المادي الجاهل من نظرية (التغير المستمر)، حيث (على ما يعتقد) لا نظامَ ولا ترتيب.

* * *

ومن جملة ما لا يُرى بالعين من (ما لا تبصرون) المارد الذري الذي كان يرهب العلماء منذ ٢٥ سنة، فقد أعلنت الجهات العلمية في ٢٠ تشرين الأول ١٩٥٥، أن الدكتور (ايرنست لورنس) قد توصل إلى اكتشاف المارد الذري، هذا المارد الذي كانوا يحسون بوجوده ولا يرونه، وهو جزيء ذري يسمى (البروتون السالب). ويستطيع إفناء المادة من جميع أشكالها افناءاً تاماً. خلافاً لما كان يقوله (لافوازيـه): إن المادة لا تفنى! وكم من نظريات كان يُنظر اليها كحقائق ثابتة لا تقبل النقاش ولا التبدل، فذهبت أدراج الرياح. فهل بعد هذا يجوز أن يجعل العلم معبوداً يُعبد ويستغنى الفرد في

سيره التكاملي عن رسالة السماء؟ . . . ليست القضية قضية علم ونظريات. إنها قضية نفوس. فإن النفوس لو تردت وتسافلت ومرضت لا تذعن إلا بما تحقق شهواتها فتبرر موقفها متذرعة بالعلم! هذا العلم الذي تفند معطياته من وقت إلى وقت ويعوض عنها بمعطيات ونظريات أخرى وهكذا دواليك!.

نعم، لقد وقف العلم الحديث على إفناء المادة إفناءً تاماً بالبروتون السالب. وهو موجود في طبقات الجو العليا. وان عمره لقصير جداً، فلا يزيد على $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من الثانية[١].

فتسليط البروتون السالب على الذرة يفني البروتون الموجب وان هذه العملية (عملية الإفناء) تحرر $\frac{٩٩٠}{١٠٠٠}$ من الطاقة الموجودة في الذرة.

وقد علم أن (البروتون السالب) منطلق في الفضاء حول الكرة الأرضية، ومن شأنه إفناء جميع أنواع المادة التي تصطدم بها. ومن الصعوبة السيطرة على هذا البروتون السالب. فإذا تمكن العلم من ذلك، فيكون إذ ذاك بالإمكان: توليد طاقة من رطل واحد من أية مادة ذرية باصطدامها بالبروتون السالب تساوي الطاقة المتولدة من مليون ونصف مليون طن من الفحم. فيمكن إذ ذاك إفناء العالم بقنبلة زنتها عشرة أرطال فقط.

فالله تبارك وتعالى حفظ الكرة الأرضية من أن تصطدم بالمارد الذري (البروتون السالب) المنتشر فوقنا في الفضاء، وذلك بجعله: ﴿السماء سقفاً محفوظاً﴾ بقدرته. وهو القائل: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ ﴿وكأيِّن من آية في السماء والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾[٢].

* * *

إن (البروتون السالب) أو المارد الذري هو (البروتون) المضاد للبروتون الذي نعرفه في أرضنا هذه والتي تتكون منها الذرات، فالعناصر، فالأجسام.

---

(١) واحد من ألف مليون جزء من الثانية.

(٢) سورة يوسف: ١٠٥.

كما أنه اكتشف أخيراً (الألكترون الموجب) وهو الالكترون المضاد للاكترون الذي نعرفه وقد تكلمنا عنه في بحث الذرة. ففي الوجود نوعان مختلفان من المادة تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها: تلك التي استخدمت في الأصل في ربط جسيمات: نويات وذرات تلك المواد[1].

ولنرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة والالكترونات السالبة بالحرف (م) مثلاً، ولنرمز للنوع الثاني من المادة المضادة للأولى. أي ذات البروتونات السالبة والالكترونات الموجبة بالحرف (س). فعندما يتصادم (بروتون موجب) مع (بروتون سالب)، أو عندما يتصادم (ألكترون سالب) مع (ألكترون موجب) يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود، بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب الدستور الآتي:

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعة الضوء.

وهكذا نرى أنه عندما تدخل ذرة من نوع المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو بالعكس تفني الالكترونات أولاً، ثم تفني البروتونات.

ويظهر مما ذكر أن الزوجية متأصلة بأمر الله تعالى في أصغر موجود في هذا الكون وهو الذرة، ففيها ألكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). حتى أن المادة نفسها على نوعين أي أن الزوجية متأصلة فيها: فالبعض منها الكترونها سالب وبروتونها موجب، كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها (١٠٢)، تبدأ بالايدروجين وتنتهي بـ (نوبليوم). والبعض الآخر ألكترونها موجب، وبروتونها سالب.

ثم أن الزوجية متأصلة في النبات، (ففي الزهرة عضو التأنيث وعضو

---

(١) يؤدي تحطيم بعض الذرات إلى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وإن النيوترونات المتحررة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرات أخرى. فينتج عن هذا تفاعل متسلسل مستمر.

التذكير) ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾[1]. وتشاهد الزوجية في الحيوان وفي الانسان، حتى في النجوم! فإن بعضها تدور حول البعض الآخر بعلقة الجاذبية، كانجذاب الذكر للأنثى أو بالعكس. وهكذا نرى أن الآية: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون﴾[2] تتجلى بعد ١٤ قرناً تقريباً، وكذلك قوله تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسكم ومما لا تعلمون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[4].

حتى أنه تعالى جعل عدد تردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية وعدد تردد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرفع وأجمل من صوت الرجل حصولاً للانجذاب الزوجي، وتحقيقاً للزوجية في هذا الكون، لتكون الوحدانية له تعالى لا يشاركه فيها شيء من مخلوقاته حتى الجماد: ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾[5].

وها نحن نسأل المادي، هل وُجد (الالكترون) قبلاً ثم خلق لنفسه بروتوناً أم بالعكس؟ وأين انعقد مؤتمر تنظيم العناصر والقانون الدوري والمعادلات التي تربط جسيمات الذرة بعضها ببعض وتتحكم فيها؟.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[6].

* * *

---

(١) سورة الحجر: ٢٢

(٢) سورة الذاريات: ٤٩

(٣) سورة يس: ٣٦

(٤) سورة الروم: ٢١.

(٥) سورة الشورى: ١١ (يذرأكم): أي يكثركم.

(٦) سورة الحج: ٤٦

ويُرى أن العالم، مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادة والذرة والطاقة ومطابقة ذلك مع ما جاء في كلام الله المجيد قبل أربعة عشر قرناً، يتقرب يوماً بعد يوم من الاسلام. ويأتي قريباً ذلك اليوم الذي يسود فيه الاسلام في العالم كله كما تنبأ (برنارد شو) قبل بضع سنين، لو تخلى عن بغيه وطيشه ومجونه، رغم جهود عناصر الغي والضلال في الشرق والغرب لا سيما الصهيونية الكافرة! ﴿الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً﴾[1]. لذلك يقول (تشارلس ستانيمتز) وهو من أعظم العلماء، حين يُسأل عن نوع البحث الذي سيحظى بأعظم تقدم في النهاية. أنه يقول: «سيحدث أعظم الاكتشافات في النواحي الروحية. فسوف يأتي اليوم الذي يعلم فيه الناس أن الأشياء المادية لا تجلب السعادة وأنها قليلة النفع في جعل الرجال والنساء أقوياء قادرين على الابداع. وعندئذ سوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى دراسة الله والصلاة. وعندما يأتي هذا اليوم يشاهد العالم في جيل واحد من التقدم أكثر مما شاهده في الأجيال الأربعة السابقة».

أنظروا ماذا يقول الكاتب (هراس ليف) عن الاسلام. إنه يقول:

«ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد، فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها. وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لا بد كذلك داخل المساجد الاسلامية. ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن. وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحقٍ أخوياً. ولم أكن شاهدت مثل ذلك. ترى في المسجد (نوبياً) من بلاد (ممباسا) يصافح عظيماً من رجال الأعمال في مصر أو سياسياً من بلاد العرب، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع. فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً. وإنك لا

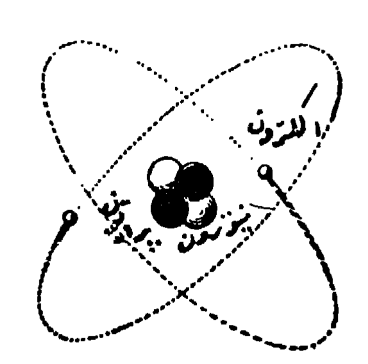
---

(١) سورة الكهف: ١٠٥

تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد. لأنه ليس هناك أي مكان ممتاز. فالكل عند الله سواء. لا فضل لأحد على سواه. وعندما صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل اليهم كدت لا أصدق أذني. وكان هذا جديداً استفدته عن الاسلام. لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عالمياً».

فلا بد للمسلمين من تضحية مخلصة ولا بد للدعاة من التجهز بأسلحة القرن العشرين من أساليب الدعوة والارشاد ومن معطيات العلم الحديث والتزود بالتقوى إلى أبعد حد. والتجرد عن كل نزعة عدا الاسلام. فان فاقد الشيء لا يعطيه، إنه تعالى يقول:

﴿وتزودوا فان خير الزاد التقوى، واتقونِ يا أولي الألباب﴾[1].



أحدث شكل لذرة الهليوم، الكترونان في الأطراف يدوران حول النواة وفيها بروتونان ونيوترونان.

شكل (٧)

قلنا إن من جملة ما لا يمكن إبصاره حتى بالآلات الدقيقة هو (الذرة)[2]. ومع ذلك كله، فان العلم الحديث قد استخدم ما كان يعرفه من: قوانين

---

(١) سورة البقرة: ١٩٧

(٢) حجم الذرة بالنسبة إلى تفاحة كحجم التفاحة بالنسبة إلى الأرض. وحجم كل من البروتون أو النيوترون أو الالكترون بالنسبة إلى الذرة كلها كحجم حبة من العدس بالنسبة إلى الهرم الكبير.

الكتلة والطاقة في استنباط صفاتها وتركيبها وخواصها مع كونها غير منظورة. ولقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما كشف من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

إن العلم الحديث قد استدل على تلك الظواهر التي تتعلق بالذرة بآثارها وهي من «ما لا تبصرون» معتمداً في ذلك على الاستدلال المنطقي الصرف وعلى ما كان معلوماً من حقائق أولية بسيطة تتعلق بهذه الظواهر والأشياء.

فحري بالمادي الذي يعترف بالذرة ويستخدمها في حقول شتى ويستدل بالآثار على وجودها ووجود الالكترونات فيها وهو لم يرَ شيئاً منها حتى بالآلات، أن يتبع نفس الطريقة في الاستدلال على وجود الله تبارك وتعالى وأن لا يقول: لا سبيل إلى الاعتقاد بغير المنظور... مع العلم أن غير المنظور في هذا الكون المادي أشد تأثيراً وفعالية من المنظور: كالكهرباء والمغناطيسية وأمواج (هرتز) إلى ما هنالك. فالعالم المادي كله قوى كهربائية ومغناطيسية وجاذبية، وكل أولئك من النوع غير المنظور.

وما أعظم قول الله تعالى حين يقول: ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

فلا يستفيد من هذه الآيات التي أودعها الله أرضه وسماءه إلا من كان له شيء من الايمان. فان حب الله ومعرفة الله أعلى وأسمى من أن يحل نفوساً مدلهمة، ظلماء بذنوبها وآثامها ومجونها وبغيها.

وهكذا يقول جلَّ من قائل: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض، وما تُغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[2]. فلا بد من إيمان (ولو كان هذا الايمان ضعيفاً جداً)، كي يعتبر الفرد بما أودع الله من نظم وقوانين في أرضه وسمائه. ولكن المادي، لظلمات في نفسه، لا يؤمن إلا بما تمليه عليه

---

(١) سورة الحج: ٤٦

(٢) سورة يونس: ١٠١

نفسه المتسافلة المريضة، ومهما سمي ذلك فلسفة! أو نظرية علمية ديالكتيكية فهو مرض ولوث ورجس، بعد تفنيد العلم الصحيح كل ذلك. ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[1].

فلا دينَ على وجه الأرض منذ خلق الله تعالى الأحياء عليها، إلا الاسلام. بحكم العقل وبحكم العلم الصحيح وبنصوص من الكتاب، لا الظنون والأهواء ونظريات تجرح بعد زمن يسير. لذلك يقول تعالى:

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرجعون﴾. ومن معاني الاسلام هنا: أن ليس ما في السماوات والأرض شيء غير محتاج في وجوده وبقائه وفنائه إلى قدرة الله وإلى قول الله تعالى: (كن) وإلى مشيئة الله وإرادة الله: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان رحيماً غفوراً﴾[2].

فما من شيء في الكون إلا وهو ينادي، لما فيه من نظام وجمال وكمال، بعظَمة الله تعالى، يسبحه ويقدسه. أليست هذه القوة: قوة الجذب بين الكرات. هذه القوة التي يجهل حقيقتها العلم الحديث، تدل على أن الكون يسير بإرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته؟ ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما[3] من أحد من بعده إنه كان حليماً غفورا﴾[4].

وما أعظم ما جاء في دعاء علمه أمير المؤمنين علي (ع) كميلاً حين يقول: «أللهم أني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء... (إلى أن يقول) وبعظمتك التي ملأت كل شيء، وبسلطانك الذي علا كل شيء، وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء، وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء، وبعلمك

---

(١) سورة التوبة: ١٢٦

(٢) سورة الاسراء: ٤٤.

(٣) ان امسكهما: أي ما امسكهما

(٤) سورة فاطر: ٤١

الذي أحاط بكل شيء، وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء، يا نور، يا قدوس، يا أول الأولين ويا آخر الآخرين».

حقاً: إن من يتتبع العلوم الحاضرة وما اكتشف من حقائق وعوالم ونظم ودساتير وخواص لا تعد، يعلم أن ما جاء في الدعاء المتقدم يفسر تماماً حالة الأجسام اعتباراً من الذرة إلى السماوات العلى، فكل شيء (لو حُلل تحليلاً نهائياً) يضيىء بنور الله ويقدس الله تعالى وينزهه من كل نقص، وينادي بصوت رفيع: أن لا إله إلا الله العلي القدير خالق الطاقات ومرتبها ترتيباً حكيماً حتى كانت هذه الذرات وتلك العناصر بهذا النظام الخارق الدقيق: ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[1]، وهكذا السماوات، فالمجرات، فالأرضون، فالنباتات، فالحيوانات فالانسان... وأما كيفية خلق الله تعالى الملائكة والانسان والسماء والأرض، فذلك ما نجهله. إذ يبدو التطلع على ذلك مستحيلاً على حد قوله تعالى: ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[2].

تدبروا هذا الدعاء وهو دعاء لطلب العافية، علمه النبي (ص) علياً (ع)، لتروا كيف أن كل ما في الكون يسبّح الله وينزهه عن كل نقص:

«أللهم أني أسألك بأنك سبوح، قدوس، يسبحك سواد الليل وضوء النهار وشعاع الشمس ودوي الماء وحفيف الشجر ونجوم السماء وثرى الأرض وأمواج البحار وصخور الجبال ودواب البحر.

أسألك يا ربِ، يا أحد يا فرد يا صمد. في السماء ميعادك وفي الأرض قضاؤك وعلى العرش استواؤك، وفي الجنة رحمتك وفي النار عذابك، والملائكة جنودك، يسبحونك ويقدسونك ويهللونك الليل والنهارَ لا يفترون. لا إله إلا أنت الملك الجبار الحنان المنان الديان الرحمان، بديع السماوات والأرض ذو الجلال والاكرام.

---

(١) سورة الرعد: ٩

(٢) سورة الكهف: ٥٢

أسألك بأسمائك الحسنى وأمثالك العليا وبرهانك العظيم وحجتك البالغة أن تصرف عني شر ما أجد من الدواء وشر ما أخاف وأحذر».

* * *

بعد أن عرفنا شيئاً عن تركيب الذرة(Atome) هذا التركيب الذي يحيِّر العقول وهو أساس لجميع ما في هذا الكون المادي من عناصر ومركبات، يجدر بنا أن نتساءل حامل الفكرة المادية الديالكتيكية (المادية العلمية النظرية!) كيف يوفق بين حقائق الذرة وبين نظريته الهوجاء.

يقول (ستالين)، وهو الذي لم يدرس شيئاً عن علم الذرة وحقائقها وان ذكاءه المحدود كان أقل من أن يمكنه من أن يتخصص في الفيزياء الرياضية العالية أو الميكانيك الرياضي أو الميكانيك السماوي(Mécanique Céleste) إنه يقول[1]: «إن الديالكتيك معناه دراسة التضاد في ماهية الأشياء. وان النمو إنما هو نتيجة صراع بين الأضداد»؟!.

ما هو هذا التضاد الذي نشاهده في الذرة وما هو هذا الصراع؟. إنما نحن نرى أن هناك التياماً وتآلفاً و(تفاهماً؟!) بين الالكترونات والبروتونات، تحت نظام بديع وان الالكترونات تدور حول البروتونات بنظام وهي مجذوبة اليها كما في المنظومة الشمسية[2]، لا اختيار لها ولا إرادة. وان ارادة خارجية وهي إرادة الله، جلت عظمته، جعلت هذه الالكترونات تدور حول النواة وأن تتوزع على مدارات معينة بفواصل معينة، تحت حكمة فائقة، بحيث لو اختل النظام المودع فيها، لما كانت في الوجود: ذرة (هليوم) أو (ليثيوم) أو حديد أو (كالسيوم)... إلى ما هنالك.

حقاً إن (لينين) و (ستالين) لو كانا من حيث الدراسة في مستوى عالٍ، (وكيف يكون السفاك محققاً وعالماً؟) لما جاءا بهذه النظريات التافهة الواهية رغبة في القضاء على من لم ينتم إلى مذهبهم الرجعي، المذهب الجنوني. هذا

(١) نقلاً عن مذكرات لينين الفلسفية!..

(٢) «ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت».

المذهب الذي لا يقره ولا يعترف به (لو كان حراً) من له أدنى المام بالعلوم الحاضرة، إلا إذا كان ممن تلوثت نفسه بما كسبت يداه من جرائم وآثام.

لذلك يقول (لورد كيلفن) وهو الفيزيائي البارع: «إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فان العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد بوجود الله»[1].

فأنت لا ترى في حركة الالكترونات حول البروتونات حركة عشواء أو سلوكاً جنونياً (كسلوك المادي) دون قصد وغاية.

وقد وجد (مانداليف)[2] بلطف من الله تعالى منذ ١٠٠ سنة قانوناً في ترتب العناصر، وذلك أن العناصر الكيمياوية (كالايدروجين والحديد والراديوم. . . الخ) قد رتبها الله تعالى تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً. وإن العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة وتكون لها خواص متشابهة. ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد عُلم بها قبلاً. حتى أن العلم قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماماً للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه. وهل يمكن أن يسمى ما اكتشفه (مانداليف) بالمصادفة الدورية؟ أو يحق لنا أن نسميه بـ (القانون الدوري).

وكم من قوانين ومعادلات وما أجري عليها من أعمال رياضية قد أنبأت عن حقائق جديدة وسببت مكتشفات حديثة، يعلم ذلك من درس الفيزياء الرياضية العالية، وما يستعمل هنالك من معادلات تفاضلية دقيقة. فهل للطبيعة العمياء أن تسن آلاف القوانين وأن تنظمها تنظيماً يحيِّر الألباب، حتى يكون هذا العالم الذي نشاهده ونراه.

---

(١) وهو القائل: «إن كل حادثة فيزيائية لا يمكن أن يعبر عنها بدستور رياضي ليست بحادثة معروفة فيزيائياً». وهذا خير دليل على وجود الله تعالى وعظمته سبحانه.

(٢) وقد أعلن سنة ١٩٥٥ م كشف العنصر ١٠١ (أي الرقم الذري: ١٠١) وسمي تقديراً لـ (مانداليف): واضع أسس التصنيف الدوري للعناصر: ماندالويوم (Menedelvium Mv 101) أي أن في هذا العنصر ١٠١ بروتون و ١٥٥ نيوتروناً فيكون الوزن الذري ١٠١ + ١٥٥ = ٢٥٦.

﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون[1] أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، أإله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾[2].

إذا كان كما يقول (كارل ماركس): إن الأشياء إنما وجدت نتيجة التكامل في الأضداد! فليوضح لنا كيف أن الشيء أوجده ضده، وكيف أن الرجل أوجد لنفسه أنثى لذلك يقول (مونتني) وهو أحد فلاسفة فرنسا: «مهما يكن من شيء، فليس للرجل أن يخلق لنفسه امرأة لها عضو التناسل إبقاء للجنس البشري. فالله تعالى هو الذي خلق المرأة كما خلق الرجل وهكذا بقية الحيوانات والحشرات والنباتات».

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[3].

أنى للكهربائية السالبة: (الألكترون) أن توجد لنفسها كهربائية موجبة، ثم تترتب ترتيباً بديعاً لا تحيد عنه ولا تتغير، منذ خلق الله الذرة، خلافاً لما يقوله المادي من (نظرية التغير) التي لا يحققها العلم الحاضر. ان هي إلا نظرية عشواء كواضعها ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمـن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾[4]. [يعشو: يتعامى]، [نقيِّض: نهيىء].

نحن لا نرى أي تضاد في الذرة، فهل المرأة ضد الرجل، بل نرى في الذرة وفي كل زوجين خلقهما الله تعالى تكاملاً وتوافقاً. فلا تتم الحياة ولا تستقر ولا تستمر إلا بذكر وأنثى. ولا تتم الذرة ولا تتحقق إلا بالالكترون

---

(١) يعدلون بالله غيره، أو يعدلون عن الحق.

(٢) سورة النمل: ٦٠ ـ ٦١

(٣) سورة الروم: ٢١.

(٤) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧

والبروتون. فهذه هي الزوجية التي أودعها الله تعالى في جميع ما خلق حتى في الجمادات لتبقى الوحدانية له تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[1]. ولذلك يقول الدكتور (جورج ابرل دافيز) رئيس البحوث الذرية: «إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله. وانها تدل على وجود الله حتى دون حاجة إلى الاستدلال: بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها».

وقد علمنا أن ذرة (الايدروجين) مركبة من ألكترون واحد يدور حول بروتون واحد. فكيف يفسر لنا المادي حدوث الهليوم: المشتمل على الكترونين يدوران حول (بروتونين) من ذرة الأيدروجين حسب قانون التغير! أو نظرية التضاد؟!. فكان يجب إذن أن تتحول جميع ما في الكون من إيدروجين إلى هليوم وأن لا نرى في العالم في وقت من الأوقات إلا (الهليوم). فلا يبقى على وجه الأرض (ايدروجين) فتجف البحار وتيبس الأشجار. لأن جميعها مركبة من ايدروجين وعناصر أخرى. ثم أين التحول الذي يقول به المادي وهو: «إن التغيرات الكمية تتحول إلى تغيرات كيفية!». وهل للمادة الصماء أن تغير نفسها حتى يحدث نتيجة لذلك عالم كله نظام وانتظام وقوانين ثابتة ومعادلات لا يصل إلى كنهها العقل البشري مهما أوتي من قوة وكمال.

ليس العلم بهذه الدرجة من الضعة حتى يتغير حسب أهواء الفلاسفة الماديين المتطفلين على العلم. وليس العلم مجرد مقترحات تكشف عن نفس متسافلة، رائدها الهدم والتخريب!.

ألا يفكر هذا المادي أنه حسب نظريته المادية الديالكتيكية السخيفة يجب أن لا يكون اليوم في الكون إلا عنصر واحد وهو (أورانيوم) مثلاً، ذلك لأن حسب (هواه) قد تكاملت العناصر كلها وفق قانون الأضداد والتغير الذي يقول به وتحولت إلى عناصر أخرى. فإذن يجب أن لا يبقى إلا عنصر واحد وهو (الأورانيوم)!.

وهكذا القول في الأحياء، حسب هذه النظرية السخيفة، يجب أن لا

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩

يبقى في الكون إلا الانسان الذي قد تكامل من (آميبا): وهو الكائن الحي ذو الخلية الواحدة. وأن لا يكون في الوجود من الكائنات الحية غيره...

ثم كيف يفسر لنا المادي نظرية التضاد في تركيب الماء(H2O) ، ما هو هذا التضاد الذي نشاهده بين الأوكسيجين والايدروجين وما العداوة التي نشاهدها بين (الكلور) و(السوديوم)CLNA في ملح الطعام وبين الكلور والايدروجين في (آسيد كلوديدريك)Hcl . بل هناك تركيب علمي وتقارب وتوافق أودعها الله تعالى في جزيئات هذه الأجسام لحدوث هذا العالم.

* * *

ثم أن المادي الديالكتيكي لا يرتضي للانسان هذا المنطق العظيم الذي وهبه الله إياه، فكان السبب بإذنه تعالى لكل ما اكتشف من علوم تدل على عظمة الخالق، هذا المنطق الذي بُنيت عليه القضايا الهندسية والرياضيات العالية والفيزياء العالية وعلم الفلك العالي والكيمياء ومكتشفات الذرة، فيسمى هذا المنطق مع الأسف: المنطق الشكلي، ثم يأتي بمنطق في غاية السخافة (منطق الهدم والردم). منطق المتناقضات ويسميه بالمنطق الديالكتيكي.

أسفاً على ما بلغ اليه العلم في القرن العشرين، علم يتحكم فيه جبابرة طغاة بنظريات سخيفة تبريراً لموقفهم التخريبي في العقائد والنفوس.

يقول هذا المنطق السخيف: المنطق الديالكتيكي، إن الشيء يكون صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت، ويمثلون لذلك (فرضية دالتون) في تركيب العناصر. وإن هذه النظرية فندت لثبوت ما فيها من أخطاء وقام مقامها نظرية (روتفورد) بشأن الذرة. فالمنطق الديالكتيكي يقول إن فرضية (دالتون) كانت صحيحة ومغلوطة في نفس الوقت. وهذا مما يضحك الثكلى، فالدستور لا يكون صحيحاً وخطأ في نفس الوقت، ذلك لأنه لو كان خطأ كانت النتائج التي تؤخذ بتطبيق ذلك الدستور خطأ لا محالة. ان المنطق الديالكتيكي يقول أن دستور نيوتون في الجذب العام بين الكرات والأنجم:

$$ق = ي \times \frac{ك كَ}{م^{٢}}$$

كان صحيحا وخطأً في نفس الوقت. وفاتهم أن (أينشتين) رأى أن هذا الدستور لا يعطي النتائج الصحيحة لو طبق في مسافات بعيدة، فأدخل البعد الرابع وهو الزمان في دستور وضعه، ذلك لأنه رأى أن سرعة الأجسام دخيلة في حساب مقدار الكتلة، والسرعة يدخل فيها مفهوم الزمان. فلذلك صحح دستوراً وضعه (نيوتون) وجاء بدساتير أخرى دقيقة لا مجال إلى ذكرها. فكيف إذن يكون الشيء صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت؟!.

إنما يعترف المادي بهذا المنطق الديالكتيكي السخيف، كي يثير العمال والناس فيحرك عواطفهم ويخلق منهم أعداءاً يفتك بعضهم ببعض. إن رائده الفتك والبطش. انه يعترف بهذا المنطق الواهي: ان ما يوجد من دساتير وقوانين صحيحة وخاطئة في نفس الوقت، كي يبرر موقفه في وضع قوانين اجتماعية مغلوطة تخالف ما طبع عليه الانسان، تخالف ما ثبت في علم النفس من غرائز وخصال، وحمل الناس جبراً على تقبلها، كل ذلك تبريراً لديكتاتورية فئة قليلة تريد أن تحقق لنفسها شهوة الحكم والسيطرة باسم إنقاذ العمال والفلاحين! وهم ومع الأسف في أسوأ حال، بعيدون عن الحكم كل البعد. فئةٍ تريد سيطرة اليهود على العالم بعد سحق الفضائل والمقدسات والدين.

يقول المادي: إن النظام الرأسمالي صحيح وخطأً في نفس الوقت، انه يحفر قبره داخل كيانه حتى يزول فتأتي الشيوعية وهي التي تسود العالم في النهاية وتلك نهاية العالم، فلا نظام بعد ذلك. فلماذا يتوقف هذا المنطق الفاسد: (صحيح وخطأً في نفس الوقت) عند هذا الحد؟ فلماذا لا تحفر الشيوعية قبرها بيدها داخل كيانها؟ فتزول ويسود في الأرض، بإذن الله، نظام عادل، لا رأسمالية ولا شيوعية، نظام ارتضاه الله لعباده في أرضه: وهو نظام الاسلام.

* * *

نعم، إن ما رتبه المادي من قوانين وإن سماها، لإغواء الناس، علمية، نظرية! ولكنها تخريبية، صهيونية حقاً، يريد من ورائها سحق الفضائل والمقدسات والأخذ بهذا الانسان إلى جاهلية جهلاء وإلى أسفل سافلين.

أجل، لو تسافلت الانسانية في بعض بلدان العالم حتى جعل الأولاد والبنات بضاعة مادية يتصرف فيها الديكتاتوريون باسم المجتمع والبروليتاريا[1] كيفما شاؤوا وأخمدت الحريات باسم التقدم! وأمسى الفرد آلة صماء لا حرمة له ولا إرادة، وكان رائد المجتمع وبالأحرى رائد الديكتاتوريين مادياً بحتاً لا ينبض فيه شيء من المعنويات، والمقدسات، فعلى مثل هذا المجتمع السلام!.

فلا نجاة لهذا العالم إلا باتباع الاسلام وتطبيق تعاليمه الخالدة خلود الدهر.

* * *

وإن الروح من غير المنظور، وكل منا يعترف بالروح ولا يقوى على مشاهدتها كما يشاهد الخشبة. إلا أن وجودها أثبت وأوضح من وجود الخشبة. لتعلقها بنا تعلقاً لا يقبل الانفكاك.

فالمخ والجهاز العصبي كالآت الراديو. فكما أن آلات الراديو ليست من حقيقة الصوت الانساني في شيء، كذلك الأقسام المادية في المخ الانساني والجهاز العصبي، فهي ليست من الروح المجردة في شيء. فالروح التي لا ترى بعيوننا تقوم بما تقوم به من أعمال مستعينة بالمخ والمخيخ... الخ. كما يستعين الشخص بالراديو لايصال صوته إلى حيث يريد. فإذا أصيبت آلة الراديو بعطب لا تقوى على التقاط الصوت وكذلك المخ، وليس المخ من الروح في شيء، كما أن النفس غير المخ، فان النفس لا تفنى بعطب يصيب بعض أجزاء المخ، كالنسيان (مثلاً).

وقد قال الفلاسفة، وكذلك الالهيون: إن الروح جوهر مجرد عن المادة وعوارض المادة وإن اتصال الروح بالبدن هي اتصال تدبير وتصرف، أي أن الروح أو النفس تتصرف بالبدن وتقوم بتدبيره. وعندما يموت الانسان ينقطع هذا الاتصال بين الروح والبدن.

وقالوا: إن نفس الانسان جوهر روحاني مجرد قائم بذاته، ذلك لأن نفس

---

(١) البروليتاريا: Prolétariat : طبقة العمال.

الانسان تعرف وتعرف أنها تعرف أيضاً وهكذا... وان المعرفة ليست من خواص الجسم. فإذن وجب أن تكون النفس شيئاً مجرداً عن المادة. ثم قالوا: إن المادة لو انتقشت عليها صورة تبقى هذه الصورة منقوشة عليها إلى أن تنقش عليها صورة أخرى. فيحصل اضطراب من انتقاش الصورتين فيكون شكلاً غريباً، حين أن النفس ليست كذلك. تنتقش فيها أنواع المعارف والمعلومات دون أن يؤدي إلى شكل غريب أو ارتباك أو يؤدي إلى محو الصورة الأولى. فهي إذن ليست من نوع المادة، ومعلوم أن الانسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً.

وقد قال الماديون: إن المخ إذا أصيب بعطب تأثرت العقليات بل الأخلاق وغيرها. وجعلوا ذلك دليلاً على أن المادة هي كل شيء، ونفوا وجود الروح وهي من أوضح الواضحات. وقد فات هؤلاء أن المادة ضرورية لاظهار شيء خفي عنا. ومثلها مثل عدة (التليفون). فإنها ضرورية لسماع صوت مَن يتكلم، وإذا أصيب التليفون بعطب اختل الكلام ووقف. ولكن التليفون وأعني الآلة أو (المسرة) ليس منشأ الكلام مطلقاً.

ثم ألا يرى الانسان نفسه، في حلمه (في عالم الطيف)، في أماكن بعيدة أو في بلاد أخرى نائية، وهو ملقى على فراشه، نائم في غرفته. فمن هذا الذي سافر إلى بلاد أخرى وهو مضطجع في فراشه؟ هذه هي روحه التي بين جنبيه[1]، روحه التي يُسأل عما قريب عن أفعالها وأعمالها، عن كل صغيرة وكبيرة جاءت بها في ﴿يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

إن الفسق والظلم يسدان على النفس الانسانية أبواب الرحمة وهذا بدوره يؤدي إلى اتباع هوى النفس وما يُملي عليها شيطانها على حد قوله تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلَّ الله وما لهم من

---

(١) ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. (سورة الزمر: ٤٢).

ناصرين﴾. وليس هناك جامع بين الفسق والإيمان: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾. (سورة السجدة: ١٨).

فلنفس المؤمن التقي رشحات. كما أن لنفس الفاجر المفسد رشحات أيضاً. ان الله تعالى يقول: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار﴾. (سورة ص، ٢٨).

فرشحات نفس المؤمن: الايمان بما غاب عنه عن تعليل صحيح ومنطق واضح جلي يتجلى لعقل الانسان الفطري غير الملوث بالآثام. ورشحات نفس الآثم الفاجر الفاسق: الركون إلى المادة العمياء والاخلاد إلى الأرض ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[1] والاعتقاد بالمحيط والبيئة عوامل أخرى مادية وإنكار ما وراء المادة أو الطبيعة.

وليس المنطق والدليل في هذا المقام بعد ادلهمام النفس وظلماتها بالشيء الذي يزيح المادي عن غيه وطيشه. فهو مأنوس بما وصلت إليه نفسه البهيمية البعيدة عن رحمة ربها من انحراف وميول سلبية ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾. (سورة الروم: ٣٢). فالضال لا يعي ما هو عليه من ضلال: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[2].

وهكذا يوضح الله تعالى حال أولئك الذين نسوا تذكير الله إياهم وفرحهم واغترارهم بالنعم التي تغدق عليهم أي بهذا الاستدراج الإلهي (ونستجير بالله من ذلك) وذلك بقوله: ﴿فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ (أي متحيرون، آيسون) (سورة الأنعام: ٤٤).

إنه تعالى يقول: ﴿ولا تطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فُرطا﴾[3]. فان قلباً كهذا بعيد عن تلقي كل ما يهدي إلى الصواب إلا

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ ـ أخلد إلى الأرض: أي مال اليها ودام فيها واتبع ميله الشهواني.

(٢) يعمهون: يتحيرون، عمه: تحير وضل ـ سورة الحجر: ٧٢

(٣) فرطاً: إسرافاً، خارجاً عن طريق الحق.

إذا تاب وأناب وتخلى عن طيشه وغروره وأعقب أعماله السيئة بحسنات: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾[1].

هذه هي فلسفة الهداية والضلال الحقة بشكل واضح لا تعقيد فيه. إنه تعالى يقول: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾. ﴿وإن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾. ﴿وإن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾. ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾. ﴿فإن تولّوا فان الله أعلم بالمفسدين﴾.

وإن الله تعالى لا يضره كفر الكافرين وجحد الجاحدين. ذلك أنه تعالى يقول: ﴿من كان يريد العاجلة[2] عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾[3]. ثم يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة[4] لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج[5] عليها يظهرون[6] ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً[7] وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا[8] والآخرة عند ربك للمتقين﴾[9].

* * *

إن دين الاسلام دين تطهير ودين تزكية النفوس. فما لم تأخذ هذه النفس في التدرج في مراحل التطهير، لا تفتح لها أبواب الهداية. وكل ما جاء في

---

(١) سورة هود: ١٥

(٢) أي الحياة العاجلة وهي الدنيا.

(٣) مدحوراً: مطروداً

(٤) أي لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة

(٥) معارج: مصاعد جمع معرج.

(٦) يظهرون: يعلون إلى فوق.

(٧) زخرفاً: زينة.

(٨) ولكن كل ذلك تمتع قليل في الحياة الدنيا.

(٩) سورة الزخرف: ٣٣.

الدين الاسلامي من أوامر ونواه ومستحبات ومكروهات: كلها ترمي إلى تطهير هذه النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ معنوية. وبمقدار طهارتها يحصل لها يقين بالمقدسات وبما غاب عنها من عوالم، فيراها حقائق ناصعة لا غبار عليها. فتكون البراهين مؤيدة لما يترشح من نفسه الطاهرة.

انه تعالى يقول: ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون﴾. ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾. ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يطهروا، والله يحب المطهرين﴾.

فدين الاسلام دين تطهير النفوس لو عمل به وطبق تطبيقاً تاماً.

وإن أعداء الاسلام يعملون لأجل إشاعة الفواحش بأنواع الوسائل: بالصحف والمجلات بما فيها من تصاوير خلاعية وكتب غرامية وأفلام سينمائية وتمثيليات شهوانية ثم بتهيئة حانات الخمور وإيجاد محلات الزنا والفجور، كي تتلوث النفوس. فإذا تلوثت لم يكن في النفس عندئذ محل يحل فيه حب الله تعالى وذكره، تحل فيه المقدسات والفضائل. ومن ثم يأتي دور الانكار والجحود! فترسخ أقدام المادية في النفوس وتكون المادة معبودة لها، كما كان فريق من الناس يعبدون الأصنام من ذي قبل ولحد اليوم.

* * *

وقد قرأت ما كتبه شاب في إحدى المجلات وقد بلغ من العمر١٩ سنة: «إن أكثرية الشباب الساحقة منصرفون إلى أعمال منكرة، أعمال تقشعر منها الجلود بإفراط لا مزيد عليه وبصورة غير مشروعة. إن هذا الانهماك في الفسوق لا يدع مجالاً للشاب كي يفكر في مصيره وتكميل نفسه والتوجه نحو المقدسات. فان اختلاط الجنسين في شتى المجالات وغيره من عوامل شتى قد فسحا مجالاً واسعاً للإشباع الجنسي بشكل فظيع. وهذا بدوره يجعل الشاب غير ميال بالقيم الأخلاقية والفضائل والمقدسات وبالدين بعد تلويث نفسه بيده. فلا بد من معالجة جذرية تبعد الشاب عن هذه المزالق لو أريد بالشاب

الهداية والكمال الخلقي وتقديس المقدسات. فان النصيحة وحدها لا تكفي لردع الشاب عن غوايته!».

ومن هنا يعلم قيمة ما وضعه الاسلام من قوانين صارمة تمنع اختلاط الجنسين وما يؤدي إلى التفسخ الخلقي ومن ثم إلى تلويث النفوس واستهزائها بالمقدسات! . ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾. (سورة الروم: ١٠).

* * *

نعم، قد أخذ الماديون في أوروبا، هؤلاء الذين قد تحجرت عقولهم بعد أن تلوثت نفوسهم، ينكرون كل ما لا يقع تحت أبصارهم أو حواسهم الخمس. مع العلم أن هذه الحواس ناقصة إلى حد بعيد في قابلياتها وإمكانياتها. وهي تعمل على قدر ما أودع الله فيها من كفاءات. لذلك يستعان بآلات أخرى تزييداً لقابلية بعض الحواس من إبصار وسماع. . . إلى ما هنالك. وكلما زادت حساسية هذه الآلات كلما تعرف الانسان إلى أشياء كان يعتقد أنها غير موجودة من ذي قبل. حتى استعمل (ميكروسكوب الكترونيك) حيث تكبر الجرثومة بواسطتها (٧٠٠٠٠) مرة. ولعل الله تعالى يوفق في المستقبل بعض المتتبعين إلى تكبير بعض الميكروبات الصغيرة جداً إلى مليون مرة أو أكثر. وهكذا تتجلى للانسان بما يلهم الله تعالى بعض المشتغلين في الفيزياء وعلم الأحياء عوالم عجيبة كانت تعد إلى زمن قريب من (غير المنظور).

ويجب أن لا يغرب عن البال أن الحواس الخمس إنما هي آلات يستعان بها (على ضوء ما تعطي من معطيات) على ربط الحوادث بعضها ببعض، ثم الاستقراء فالاستنتاج. . . الخ. والمهم هو هذا العقل الانساني الفعال: هذا الذي يضع دساتير العلوم ويربط بين معطيات الحواس (بقدر ما توصل إليه العلم المادي) بالفطرة دون اللجوء إلى تجربة سابقة. ولا ريب أن هذا العامل المهم في الربط وأعني به العقل، هو من (غير المنظور). لذلك يقسم الله بغير

المنظور بقوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾. كما أن قوة الجاذبية من (غير المنظور).

والنفس الانسانية هذه التي يعبر عنها بـ(أنا) من النوع غير المنظور. فـ(أنا) هو غير هذه العظام التي تؤلف الهيكل العظمي (اسكلت) والجهاز العصبي والدورة الدموية... الخ. ذلك لأنك عندما تقول (أنا) تغفل تماماً عن كل ما في بدنك من دم وعظم وعصب. فـ(أنا) ليس من المادة في شيء، وهو من غير المنظور.

* * *

وها نحن نذكر بعض ما حدث من الوقائع التي أيدت لعلماء الغرب وجود الروح. ولا يخفى أن هذا البحث لمن أهم المباحث لشبابنا المعاصر المحاط بظروف مادية حالكة، وتشكيلات محرفة مضللة:

ذكرت دائرة معارف بريطانيا أن امرأة في لندن شاهدت ذات يوم عند الصباح زوجها الذي كان قد اشترك في حرب (ترانسوال) بباب الغرفة. فتعجبت، وتقربت منه، فلاحظت أن ليس له جسم كأجسام البشر. وهو لا يتكلم بشيء. فأخبرت بعض الجهات المختصة وتمكنوا من تصويره! وإذا به ضابط قد قتل في تلك الساعة في حرب (ترانسوال) في جنوب أفريقيا وجاءت روحه تزور الزوجة: رفيقة الحياة.

يقول الدكتور الطبيب (أوين فردريك باورز) أستاذ الأمراض العصبية في جامعات أمريكا أنه قد أمضى أكثر من عشرين سنة وهو يبحث ويدقق ويرى اللوحات السالبة لصور الأرواح الفوتوغرافية!.

وقد بلغ العالم الحديث مرتبة تمكنه من تصوير سيارة في المكان الذي كانت فيه بعد أن غادرته. ذلك لأن الاهتزازات الخاصة بها (بالسيارة) لا تزال موجودة في المكان الذي كانت فيه، إلا أنها غير مرئية. فباستخدام آلة خاصة للتصوير أمكن تصويرها!.

وإن القرآن الكريم يوضح لنا أرواح الملائكة التي ليست من المادة والجسم

في شيء بقوله: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ وذلك في (سورة هود: ٧٠) وهو قوله تعالى:

﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى. قالوا سلاماً قال: سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (مشوي) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس[١] منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾.

ويقول الله تعالى بالنسبة إلى سرعة الملائكة التي ليست من الأجسام البشرية في شيء، سرعة لا تقاس بسرعة ما يحصل عليه بأعمال مادية بواسطة الأمواج الكهربائية، بل هي سرعة فائقة لا يعلم مداها إلا الله: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾. ولا شك أن سرعة الملائكة أعظم من سرعة الضوء أي (٣٠٠٠٠٠ كم/ثانية) أضعافاً مضاعفة لعدم تناهي الأبعاد! فما أبعدها من مسافات شاسعة تقطعها الملائكة في خمسين ألف سنة بتلك السرعة الهائلة!.

* * *

تغلغلت المادية في أوروبا في القرن الماضي من جراء تلوث النفوس بأنواع المعاصي والآثام وضروب الفساد والظلم[٢]. فصاروا يعزون كل شيء إلى المادة وهم لا يعلمون عن حقيقة المادة شيئاً، وجهلهم بالمادة أكثر من جهلهم بأنفسهم. حتى صار يُعرف بعضهم المادة: بضرب يده بقوة على المنضدة قائلاً مع خيلاء تلازمه: (هذه هي المادة). وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً.

حقاً، إن هؤلاء المتطفلين على العلم الحديث ذوي الأدمغة المتحجرة والنفوس الضالة أصبحوا عالة على العلم والبشرية جمعاء فضلوا وأضلوا. حتى صاروا يضغطون على علماء الذرة والأحياء أن يعدلوا نظرياتهم التي تبرهن بجلاء وجود الصانع جل جلاله، وجعلها مؤيدة للمادية الهوجاء.

(١) أوجس: أضمر منهم خوفاً.
(٢) ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾. (سورة الجاثية: ٢).

أنى للنفس المتحجرة أن تذعن للدليل ودونها حجاب يصدها عن رؤية الحق والواقع! ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾. (سورة الروم: ٢٩).

إن ما أذكره من حوادث قد لطف الجو المادي المدلهم في أوروبا في القرن التاسع عشر وبعده. فصار يعتقد ثلة من العلماء الذين لم تتلوث نفوسهم بلوث المادية العمياء، أن وراء هذا العالم المادي، (والعالم المنظور) عالماً آخر غير منظور.

منها: أن قائداً لفرقة موسيقية في بارس قد سمع ذات يوم بصورة جلية واضحة، وهو في بناية خاصة بالفرقة المذكورة، أن شخصاً غير منظور يقول له بوضوح: إن هذه البناية ستنهدم بكاملها يوم الاثنين المقبل في الساعة التاسعة صباحاً. يبحث القائد عن صاحب هذا الصوت، فلا يجد أحداً، يرجع إلى مكانه وإذا بنفس الصوت يؤكد ما قال أولاً. فلا يرى أحداً فيبقى متحيراً، من هذا الهاتف، يا ترى؟.

■ حتى كان اليوم الموعود. يخرج القائد قبل الساعة التاسعة مع من كان في البناية على سبيل الاحتياط وإذا بها تنهدم عن بكرة أبيها.

* * *

يذكر لنا أحد علماء الغرب في بعض مؤلفاته: أن رجلين هاجرا وطنهما وذهبا إلى (استراليا) بغية الاشتغال في رعي الغنم والمتاجرة بها. فازدهرت تجارتهما في مدة وجيزة وأصبحا ثريين. إلا أن أحدهما فقد شريكه فجأة بعد مدة. وصار يفتش ويبحث عنه بشتى الوسائل، فلم يعثر على أثره.

وفي يوم بينما كان هذا الرجل يعود إلى بيته جاعلاً طريقه على ضفاف بركة عميقة في شارع ضيق، شاهد شريكه المفقود جالساً على ضفة البركة جلسة القرفصاء يرمق ببصره الماء.

همَّ الرجل أن يبدي فرحه وسروره، لأنه قد ظفر بضالته بعد مدة مديدة وتعب شديد، لكنه رأى أن كآبة تعلو وجه صديقه المفقود، وهو يتضاءل كلما همَّ أن يدنو منه حتى انمحى ولم يبق منه أثر.

يقول الرجل: فوقفت في محلي ولم أقترب وإذا بصديقي المفقود يبدو من جديد مشيراً بيده إلى محل في البركة ثم يغيب. فعلمت أن لا بد في البركة من شيء يجب إخراجه. ففتشنا المحل الذي قد أشار إليه الصديق المفقود وإذا بجثته ملقاة في قعر البركة، مغطاة بأوراق الشجر وقد قتل بفأس وجدوها في قعر البركة أيضاً، دفنوا الجثة وظفروا بالقاتل، فأعدم بعد الاقرار. وهكذا استدلوا على بقاء الروح بعد الموت.

* * *

كان قد دعي بروفسور (يواهم) أستاذ الرياضيات إلى طعام ليلاً في بلدة (ماربوك). فبينما هو جالس مع رفاقه يتجاذبون أطراف الحديث، وإذا به يرى نفسه تدفعه حثيثاً ليذهب إلى بيته ويعتريه من جراء ذلك قلق شديد لا يدعه يستقر في مكانه. يذهب الأستاذ إلى بيته، يفحص زوايا البيت، فلا يجد شيئاً يقلقه، ولكنه يرى شخصه ما زال قلقاً حتى ينتهي إلى غرفة المنام. يغير مكان نومه مستعيناً بخادمه فيضع سريره في الجانب الآخر من الغرفة ويعود إلى بيت صديقه لتناول طعام العشاء. وبعد تناول الطعام يرجع الأستاذ إلى بيته وينام في غرفته، وإذا به يرى بعد منتصف الليل أن السقف ينهدم من ذلك الموضع الذي كان ينام تحته كل ليلة. فلو لم يكن قد لبى القلق النفسي أو الالهام الغيبي (الهاتف) لأصيب بضرر بالغ ولعله كان يقضى عليه.

ومن هنا استدلوا على أن وراء المادة عالماً آخر، وأن اللهتبارك وتعالى يتصرف في العوالم كلها حسبما يشاء وكيفما يشاء. فينجي من الهلكة من يشاء، ﴿كل يوم هو في شأن﴾.

* * *

يكتب لنا (مسيو كومرا) أحد الصيادلة المشهورين أن دخله اليومي ما كان ليتجاوز (٤٠ ـ ٤٥) فرنكاً في صيدلية كان قد فتحها في (تولوز).

ولكنه رأى ذات ليلة في ما يرى النائم: أنه مكتوب في نهاية الصفحة أن مجموع دخله اليومي (٧٦) فرنكاً وثلاثين سانتيماً. وقد انتقش المبلغ في ذهنه.

حتى كان اليوم الثاني وذهب إلى الصيدلية وقص قصته على معاونه. فقال له معاونه: لعل ما رأيته في منامك هو دخلنا ليومين.

يقول (مسيو كومرا) مضى النهار على العادة حتى جن الليل ففوجئنا بزبائن جدد اشتروا كميات من الأدوية وعندما خرج آخر زبون من المحل كانت الساعة العاشرة والنصف. بادرنا بغلق المحل وإذا بنا نجد الدخل اليومي ٧٦ فرنكاً و ٣٠ سانتيماً كما أخبرت في عالم النوم!.

لا أعلم كيف يفسر المادي هذا الاخبار بالغيب، أليس هناك عالم آخر قد يفيض على هذا الانسان بأخبار عن عالم الغيب ليزداد ثقة بما وراء الطبيعة. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد﴾[1]. ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم، ألا انه بكل شيء محيط﴾ (مرية: شك).





(١) سورة السجدة: ٥٣، ٥٤.

الروح باقية بعد الموت

ذكرت إحدى مجلات إيطاليا أنه كان يدور حديث (بقاء الروح بعد الموت) منذ زمن غير بعيد بين (كنت كالاتري) و (موسيو ديرزيني) أحد الضباط في الجيش الطلياني. فتعاهد كل منهما مع الآخر أن يخبر صديقه بعد موته إن كانت روحه حية، بأن يأتي إلى صديقه الحي فيحك أسفل قدمه. وقد مضت على هذه المعاهدة خمس سنوات حتى أوفد (ديرزيني) في جيش إلى أفريقيا، فوادع (ديرزيني) صديقه وسافر. . .

وبعد مضي ٨ أشهر على هذه الموادعة، صارت تشعر (زوجة كالاتري) في الليل بحك شديد في رجلها وهي نائمة بجنب زوجها. فصارت تقول لزوجها (كالاتري): لماذا المزاح، ولِمَ تؤذيني؟.

فأجابها زوجها: وهل أنت تحلمين؟ أني لم أصنع شيئاً من هذا القبيل.

ولكنها كانت تشعر أن هناك من يحك أسفل قدمها بصورة متكررة.

ثم أسرجا السراج، وفتشا فلم يعثرا على شيء. عند ذلك قالت زوجته: «أما ترى هذا الضابط، واقفاً تحت رجلي وهو يرتدي قبعة جميلة مع أوسمة. أنه طويل القامة، ها هو ينظر اليك مبتسماً، وقد أصيب في صدره بجرح خطير وكذلك في ركبته. أنه يحييك تحية عسكرية، ألا تراه. ولكنه الآن غاب عن بصري».

فلم تمض الأيام حتى أخبرت جرائد إيطاليا أن الضابط (ديرزيني) أصيب في حرب مع الأحباش في صدره وركبته ومات في اليوم الذي جاء إلى صديقه (كنت كالاتري) يخبره أنه حي بعد الموت وأن الروح لا تفنى بموت البدن وذلك وفاءاً بالوعد.

* * *

تقع كثير من هذه الحوادث عندنا في الشرق ولكنا قل ما ندون لاعتقادنا بما غاب عنها وبالالهام الرباني وبما وراء الطبيعة.

منها: ان امرأة مات زوجها. فكانت تريد أن تتصدق عنه، فصارت تصنع طعاماً ليلة الجمعة وترسل به مع ولدها اليتيم إلى فقير في أحد الأكواخ القريبة.

إن الولد كان يأخذ الطعام الذي هيأته أمه إلى ذلك الكوخ وهو يشعر في الوقت نفسه بجوع شديد. يرجع الولد إلى بيته جائعاً، فينام وهو جوعان!.

وهكذا صنعت الأم مرة ثانية (ليلة الجمعة) طعاماً وأرسلت به مع ولدها إلى نفس ذلك الفقير. قدم الولد الطعام إلى الفقير ورجع إلى البيت وهو يكابد ألم الجوع، نام وهو جوعان!.

وفي المرة الثالثة صنعت الأم ليلة الجمعة أيضاً طعاماً تقدمه صدقة عن زوجها المتوفي وأرسلت به مع ولدها إلى نفس الفقير، أخذ الولد الطعام وصار يتقدم نحو الكوخ. إلا أن الجوع كان قد أضر به ضرراً بالغاً. فلم يستطع الصبر. فأكل ما كان في الاناء ورجع إلى البيت، نام وهو شبعان.

رأت الأم زوجها في المنام يقول لها: «لم يصل إليّ الطعام إلا في هذه الليلة».

انتبهت الأم من نومها قبل طلوع الشمس، متعجبة، فأخذت تسأل ولدها: ولدي، إلى من كنت تأخذ الطعام ليلة الجمعة الماضية وقبلها؟ فقد رأيت والدك في المنام يقول لي: لم يصل إليه الطعام إلا في الليلة الماضية. فقال الولد: قد قدمت الطعام إلى الفقير مرتين مع ما كنت أشعر به من شدة الجوع. ونمت جائعاً. إلا أني في الليلة الماضية لم أطق أن أتحمل ألم الجوع، وكان قد أضر بي كثيراً. لذلك أكلت ما في الإناء ونمت وأنا شبعان.

فعلمت الأم أن ولدها اليتيم كان أولى بأكل هذه الصدقة من ذلك الفقير في كوخه. فقد جاء في الحديث: «لا صدقة وذو رحم محتاج».

وفي آية أخرى: ﴿فلا اقتحم العقبة[1] وما أدراك ما العقبة فك رقبة[2] أو إطعام في يوم ذي مسغبة[3] يتيماً ذا مقربة[4] أو مسكيناً ذا متربة﴾[5].

* * *

ولا بأس بذكر هذه الواقعة أيضاً، لتروا كيف أن الله تعالى يريد أن يقوي رابطة الانسان بما غالب عنه من عوالم، ليزداد يقيناً به تعالى وبعوالم غيبية، فيخشع قلبه، ﴿ألم يأنِ[6] للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾[7] ثم لا يركبه الغرور، فيقسو قلبه: ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد: ١٦).

فقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من قسوة قلب». وفي حديث آخر: «شر العمى عمى القلوب» وفي آخر «أعمى العمى الضلالة بعد الهدى» وكم لهذا الحديث الأخير من مصاديق في يومنا هذا، مع الأسف الشديد.

ثم ان الله تعالى يمدح الذين يؤمنون بالغيب ويخصهم بالهداية دون غيرهم بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[8].

قد ذكر لي من أثق به: «أنه كان قد غادر مدينة طهران مستخدمان بالبريد يريدان زيارة الحسين عليه السلام. وبما أن حكومة الوقت كانت قد منعت السفر إلى العتبات المقدسة، لذلك سلكا طريقاً غير معبد. فأصبحا في

---

(١) الاقتحام: هو الدخول في أمر شديد. العقبة: الطريق في الجبل.

(٢) أي تحرير رقبة: رق، أو أسير. وبهذا وأمثاله قضى الاسلام على الرق.

(٣) أي ذي مجاعة.

(٤) يتيماً ذا قرابة

(٥) ذا متربة: أي ذا فقر. يقال: ترب أي: افتقر.

(٦) ألم يحن.

(٧) سورة الحديد: ١٦.

(٨) سورة البقرة: ٤

أرض قفراء سبخة وقد أضر بهما العطش ضرراً بالغاً، حتى هلك أحدهما في تلك الصحراء وتمكن الآخر بإذن الله بعد توسل وابتهال من أن يرجع إلى أهله سالماً تفضلاً منه تعالى. وبعد مدة رأى صديقه في منامه وهو في بستان في وضع مريح، فسأله عن حاله. فأجاب: إني بحمد الله في تمام الراحة، إلا أن عقرباً تأتيني كل يوم فتلسعني في إبهامي هذا (وأشار إلى رجله)، فأشعر إذ ذاك بألم تكاد تخرج روحي من جرائه[1]. وقد أخبرت أن ذلك لأني كنت قد سرقت سكينة جميلة صغيرة من بيت صديقي (فلان) في يوم كنا نأكل الخس معاً في بيته (وقد ذكر اسمه). وأني قد أخفيت السكينة في بيتي في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى. فأرجوك أن تذهب إلى بيتي وتقرأ زوجتي مني السلام وتقول لها: إن زوجك قد قال لي في عالم الرؤيا أن تعطيني السكينة التي وضعتها في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى كي أرجعها إلى صاحبها القصاب وأطلب منه أن يغفر لزوجك زلته، لعل الله يمن عليه بالعفو والغفران. يقول هذا المستخدم ففعلت كما أخبرت بالمنام، فكان كما أخبرت.

يقول: ورأيت صديقي مرة أخرى في عالم المنام وإذا به يشكرني وهو في تمام الدعة والطمأنينة.

وهكذا هناك من الأطياف ما لا يعد، تنبىء عن مغيبات تدل بصراحة أن وراء هذا العالم المنظور عوالم غير منظورة لها من الخطورةوالأهمية ما لا يوصف.

* * *

ومما قيل في الاعتقاد ببقاء الروح بعد الموت، تفنيد آراء شتى قيلت في سبب النوم وانتصار الرأي الأخير القائل: «إن هناك روحاً آدمية في الانسان

---

(١) ان الله تعالى يقول: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وفي آية أخرى: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾. وفي الحديث: «إنما أعمالكم ترد عليكم». فإذا استغفر العبد وتاب وأناب وأرجع إلى الناس حقوقهم من زكاة وخمس وصلة رحم إلى ما هنالك، أمن من العذاب وذهب من هذه الدنيا ولا ذنب عليه ولا حساب يؤاخذ به. فطوبى لمن طهرت نفسه في هذه الدنيا قبل أن يطهر بعد الموت بعذاب لا يطاق.

قائمة بذاتها تنسحب كثيراً أو قليلاً من الجسم خلال ساعات النوم». لذلك صار يعد العلماء (اعتبار النوم طرحاً روحياً مؤقتاً) نصراً عظيماً، لأنه بذلك أمكن تفسير الأحلام التي يراها الانسان في نومه والتي تتحقق بعد يقظته عاجلاً أو آجلاً. كما أمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة غريبة أو أشخاص غرباء لم يكن قد رآهم قبلاً ثم مشاهدته في عالم الشهود واليقظة بعد سنين أو مدة يسيرة نفس الأمكنة وعين الأشخاص دون أي اختلاف. وهذا تطابق بين حالة الرؤيا في النوم والمشاهدة في اليقظة.

وهكذا تؤيد مكتشفات العلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم قبل ١٤ قرناً أن النوم طرح روحي مؤقت. تعمقوا في معنى هذه الآية لتروا صحة ما أقول أنه تعالى يقول:

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1]. ومعنى ذلك أن الله تعالى يقبض أرواح عباده إذا حان حينهم وجاء أجلهم وهكذا يقبض أرواح عباده الذين لم يموتوا في منامهم: يقبضها بقطع علاقة تلك الأرواح بالأبدان. فالعبد الذي جاء أجله وهو نائم أي (من قضى عليها الموت) لا ترد روحه إلى بدنه. بل يمسكها الله تعالى ويرسل روح العبد الذي لم يأت أجله إلى بدنه، وذلك إلى أجل مسمى (معين). لا يعلمه إلا الله، حقاً، إن في ذلك لآيات على قدرته تعالى لكل من تفكر في هذا الوجود الانساني المؤلف من روح وبدن.

يقول الدكتور (جورج لندسي جونسون)، انه أجرى عملية جراحية في عيني فتاة وهي في التاسعة عشرة من عمرها. ولم تكن قد رأت شيئاً قبل ذلك، لأنها كانت لا تبصر شيئاً. ولكنها صارت تتبين كل فرد في الغرفة وتميز بين الألوان المختلفة بعد العملية الجراحية وتماثلها للشفاء. وهذا ما يؤكد أن روح الفتاة كانت تنطلق في منامها فترى أشياء ما كانت تستطيع أن تراها بعينيها قبل العملية.

---

(١) سورة الزمر: ٤٢.

وأما الرياضي المعروف: (بوانكاره)، فقد رأى في منامه معادلات رياضية أدت إلى استكشافه قوانين رياضية هامة. وكان مؤمناً بالالهام والحدس ووجود الروح.

وكم من أناس ضاعوا في الصحراء ولم يجدوا ملجأ إلا إلى الله تعالى، فابتهلوا إلى الله مخبتين، فنجاهم الله بأن أراهم الطريق في منامهم أو أرسل الله لهم مَن ينقذهم من الهلاك. ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾. ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾. فهو جل جلاله يرحم حتى غير الشاكرين من عباده لعلهم يهتدون، وما أقلهم!.

انه تعالى يراقب أعمالنا ويسمع نداءنا وتضرعنا في البحار والقفار، فينقذنا من الهلكة إذا انقطعنا اليه خاشعين. فلكل واحد منا شواهد من حياته على ما أنعم عليه حين التضرع من عظيم النعم وهو القائل: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

انه تعالى يقول: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه في قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[1].

(١) سورة يونس: ٦١

حرمة إحضار الأرواح

إن الدين الاسلامي قد حرَّم (إحضار الأرواح) و (إحضار الجن) وعدهما من الكبائر، لما في ذلك من تدليس وتمويه وكذب وإفتراء. وان بعض المسلمين صاروا يعتقدون بما يقام به في الغرب من إحضار بعض الأرواح! في الظلام باستعمال الخباء وأنواع الخداع والوسيط الكذاب وباستعمال كوب صغير أو فنجان يتنقل بين حروف قد رسمت فوق منضدة، فتكون إجابات الأرواح المستحضرة من مجموع الحروف بحسب ترتيب تنقله بينها! أو بمؤشر كمؤشر الساعة يدور حول محور وسط نضد دائري رسمت الحروف الأبجدية على محيطه، وباستعمال طريقة السلة... الخ.

ومن النتائج الكاذبة في إحدى الجلسات: «أن جبريل معنا» ومحاولة البعض من التقاط صورة لجبريل عليه السلام، وأكاذيب على الرسل عليهم السلام وغيرهم إلى ما هنالك!..

وقد علم أخيراً أن أيدٍ هدامة (صهيونية) تريد أن تجعل هذه الروحية الكاذبة(Spiritualism) ديناً جديداً يهدم أسس المجتمع وينشر فيه الفوضى بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية، لتسود الصهيونية بالأخير في العالم. وهذا لا يختلف عما في (بروتوكولات حكماء يهود) وما قصده (فرويد) و (كارل ماركس) وغيرهما من اليهود.

ولا نريد أن نبرهن على فساد ما يذهبون إليه من إحضار الأرواح وكيف أن عوامل مختلفة تؤثر في الموضوع، فيخيل إلى حاضر الجلسة أن روحاً حضرت وانها تتكلم إلى آخر ما هنالك من خداع في الظلام وتحت الخباء ووسائل ووسائط للتمويه. ولا أشك أن لشياطين الجن دوراً هاماً في تلفيق الأكاذيب أو الاخبار بما غاب عن الأنظار كما سنبين ذلك في البحث عن الجن.

ويكفي أن نقول أنه قد جاء في دعاواهم العريضة ان احد المشتغلين

بالأمراض العصبية في جامعة من جامعات امريكا قد استطاع أن يجسد روح أمه وأن يقص خصلة من شعرها، ثم يفحص بعدئذ الشعر فحصاً هستولوجياً ميكرسكوبياً!.

ومن جملة ذلك: ما هو مكذوب على لسان القس (سنتون موزي) ما تلقى عن عالم الأرواح:

«نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم. فإلهنا هو إلههم، إلا أن إلهنا أظهر من الههم وأقل صفات بشرية وأكثر صفات الهية. لا تخضع لأية عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل، ولا تأخذ بلا تحفظ وحياً جاء لأحوال خاصة في عصر من العصور! وليس هو بامتياز لأمة دون امة ولا لشخص دون شخص، والله يكشف نفسه للانسان شيئاً فشيئاً!».

ومن جملة كلمات المشتغلين بشعوذة إحضار الأرواح(Spiritisme) قولهم: «إن الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله».

ومن أقوالهم: «إن لب الدين هو بذل الخير لخلق الله، ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك. وإن طقوس الأديان على اختلاف صورها ليست إلا أساليب لبلوغ هذه الغاية. وان الناس على اختلاف أديانهم بعد سواء: مسلمهم ومسيحيهم ويهوديهم وبوذيهم، كلهم يعيشون إخواناً فيما وراء الموت، وإن باب التوبة مفتوح أمام الكافر والفاسق والمخطيء بعد الموت. وإن فرصة الترقي متاحة له دائماً. وإن الجنة والنار حالة عقلية أو حالة نفسية أو هما واقع يجسمه الفكر ويصنعه الخيال الذي يعكس باطن صاحبهما وحالته النفسية».

وهذا ما يسمع كل يوم في أوكارهم ومنظماتهم ومجلاتهم: يوهمون للناس أن الناطق بكل ذلك روح كبير[1]!.

---

(١) الروحية الحديثة، حقيقتها وأهدافها: للدكتور محمد محمد حسين، أستاذ الأدب العربي الحديث، بجامعة الاسكندرية الطبعة الأولى: ١٣٨٠ هـ.

ومثل ذلك قولهم في وصف الانسان: «إنه عامل ومساعد وشريك لرب العلا وأقوى من الحكام الذين يحكمون بالعصا. أنت في الرب ومع الرب ولأجل الرب الأمثل»!!...

وهناك من المسلمين من استساغ هذه الأوهام والشرك الصريح وأراد تطبيقها على النصوص القرآنية مع الأسف الشديد!.

وبالختام نرى أن مجلة روحية تمجد الشيوعية، وهذا مما يدل أن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين الروحية (الكاذبة) والشيوعية الهدامة! وليدة الصهيونية. ولا مجال لأسرد كل ما جاء من كفر وإلحاد على لسان الروحيين ووسطائهم. ويكفي أن نقول: ان الصهيونية تبنّت هذه الحركة وصارت تغذيها لأغراضها الهدامة.

ومن المعروف أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة في القرن الأخير بل منذ الثورة الفرنسية. وهي التي تخترع هذه الأباطيل وتنسبها للأرواح هدماً للأديان.

فحري بالمسلمين أن لا ينخدعوا بأباطيل هؤلاء وأن يطبقوا أمر الشارع الأعظم في حرمة إحضار الأرواح.

* * *

ومن جملة ما هو غير منظور هو «الجن». فقد أنكر بعض المثقفين بثقافة العصر من رجال الغرب وجود الجن، لعدم إمكان رؤيته بالباصرة أو لمسه باليدوذلك لتغلب مفهوم المادية على النفوس. وقد تأثر الشرق بمادية الغرب عن طريق الصحافة وغيرها، حتى أن أحد علماء المسلمين صار يفسر الجن في القرآن الكريم، بالميكروبات التي لا تُرى بالعين. ورأيت أن البعض منهم يرى الجن وجوداً خيالياً تخيَّله البشر، وليس شيئاً إلا الخيال ولا وجود له في الخارج.

بيد أن أوساط أوروبا قد تأثرت في ابتداء القرن الحالي بإحضار الأرواح على ما فيه من التمويه والتنويم المغناطيسي، فصارت تعترف بالجن وأنه كائن

حي، لا يشبه الانسان في كيانه وقد دونت في الغرب كتب عدة في هذا الموضوع.

وإن القرآن ليصرح بوجود الجن وأن منهم المؤمن ومنهم الكافر الجاحد.

إنه تعالى يقول: ﴿قل أوحي إلى أنه استمع نفر[1] من الجن، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً[2] يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾. فالجن يستمعون القرآن ويؤمنون به كما نؤمن وليس الجن بجراثيم صغيرة تخفى على العين، كما قال بعضهم.

ثم يقول الله تعالى عن لسان الجن: ﴿وأنه تعالى جدُّ ربنا[3] ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ أي أن الجن يعترفون بوحدانية الله تعالى وأنه ما اتخذ لنفسه زوجة ولا ولداً.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون[4] برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[5]... الخ. ومعنى ذلك: أن رجالاً من الأنس كانوا يلجأون إلى رجال من الجن طلباً لاستخدامهم في حاجاتهم فزادوهم ضلالاً وغياً. فيعبِّر الله تعالى عن الجن برجال، كما عبر عن الأنس أيضاً. فعلم أن الجن عالم قائم بنفسه كالإنس. إلا أن النظرية المادية: «كل ما لا يرى بالعين فهو غير موجود» قد أثرت في بعض النفوس التي ضعف إيمانها لتساهلها في تطبيق تعاليم الاسلام تطبيقاً شاملاً، فصارت تنكر الجن تأسياً بالماديين أو فراراً من وصمة الرجعية والخرافة أو تشهياً للقب (العصري)، أو (المثقف)!... لئلا يُعد متأخراً عن ركب المدنية الحاضرة بما فيها من علل وويلات!... أو صار يظن أن الجن ميكروبات أو بهائم أو حشرات دونما

---

(١) نفر: جماعة من الجن. و(نفر) من الواحد إلى العشرة.

(٢) عجباً: بديعاً.

(٣) تعالى جد ربنا: أي تعالت عظمته.

(٤) يعوذون: يستجيرون.

(٥) ضلالاً

تحقيق ودون إرجاع الموضوع إلى صريح الآيات القرآنية والأحاديث المستفيضة والمشهورة.

ثم قال تعالى عن لسان الجن: ﴿وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً﴾[1]. فيقول الله: إن من الجن رجالاً صالحين أبراراً وان منهم مقتصدين أي أقل من أولئك رتبة وهم طرائق متفرقون. كما يقول جل من قائل في آية أخرى عن الجن: ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون[2] فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً[3] وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾. فمن الجن من هو كالإنس مسلم، ومنهم من هو ظالم لنفسه مبين، ومأواه جهنم وبئس المصير. فلا فرق بين الجن والانس من هذه الناحية فيحرق الظالم والكافر من الجن بالنار، إن لم يتوبا، كما أن الانس كذلك يحرق الظالم والكافر منهم بالنار دون توبة وتطهير النفس من أوساخ الذنوب والمظالم والرذائل.

أنه تعالى يقول: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.

ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون﴾[4]، ومعنى ذلك: أن المشركين جعلوا بين الله وبين الجنة نسباً (ويراد بالجنة هنا الملائكة). ولقد علمت الملائكة أن المشركين أو الكفرة لمحضرون أي مقودون إلى العذاب المهين، وفي تفسير آخر: أن المراد بالجنة هو الجن، ذلك لأن المشركين قالوا: إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة، فالله تعالى يقول: إن الجن علموا أنهم لمحضرون للعذاب إلا عباد الله المخلصين[5] منهم (أي من الجن).

---

(١) قداداً: أي متفرقة، مختلفة.

(٢) القاسطون: الظالمون.

(٣) تحروا رشداً: أي توخوا رشداً.

(٤) سورة الصافات: ١٥٨

(٥) وذلك لقوله تعالى في الآية ١٦٠: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾.

ويقول تعالى في سورة السجدة: ١٣: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هُداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.

* * *

ثم أن الله تعالى يخبرنا في مكان آخر من كتابه الحكيم بقوله: ﴿وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا أنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يُجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾(١).

وهؤلاء، على ما جاء في التفسير، هم جن (نصيبين) باليمن أو جن (نينوى) وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ببطن نخلة، يصلي بأصحابه الفجر، فصاروا ينصتون إلى القرآن حتى إذا فرغ من قراءته، رجعوا إلى قومهم ينذرونهم ويخوفونهم العذاب ان لم يؤمنوا وقد كان هؤلاء الجن يهوداً فأسلموا.

فظهر مما سبق أن الجن على نوعين: مسلم ومؤمن بنبوة محمد (ص) وكافر بها، وإن الانس قد يعوذون بالجن لأغراض سيئة فيؤدي بهم إلى خسران وسوء العاقبة.

ثم ان الله تعالى يقول في سورة الرحمان: ﴿يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا(٢) من أقطار السماوات والأرض، فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

ويبين لنا سبحانه وتعالى مم خلق الجن بقوله: ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ وهو لهبها الخالص من الدخان.

---

(١) سورة الاحقاف: ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) أن تنفذوا: أن تخرجوا

ثم ان الله تعالى يتحدى الجن كما يتحدى الانس بقوله: ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[1].

وإن الجن مدعوون إلى عبادة الله تعالى كالانس على حد قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمونِ ان الله هو الرزاق ذو القوةالمتين﴾[2].

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ ولا نعلم شيئاً عن حقيقة هذه النار. فانها طاقات وقد علم أن الذرة في الأصل طاقات كهربائية تكدست بإذن الله بترتيب بديع تحت نظام رائع حتى كانت هذه الذرة، ثم تشكلت بأشكال شتى، حسب اختلاف عدد الالكترونات (شحنة كهربائية سالبة) والبروتونات (شحنة كهربائية موجبة) حتى كانت هذه العناصر المختلفة: الايدروجين، الكالسيوم، الحديد، الرصاص الخ...

فالعالم كله قوى كهربائية ومغناطيسية وجاذبية وطاقات أخرى نجهلها كجهلنا كثيراً من الأشياء، أشياء لا تتناهى. وهكذا الجن مخلوق من نار السموم أو من (مارج من نار) والمارج: لهب النار الخالص من الدخان. فهذه طاقات خلق الله منها الجن لا نعلم حقيقتها كما لا نعلم في الوقت الحاضر حقيقة أية طاقة من الطاقات. بل العلم الحديث إنما يعمل في كشف الآثار والاستفادة منها في الحياة الاجتماعية.

فالجان ليس من هذه الأجسام المتعارفة التي نبصرها بأعيننا وإنما هو من طاقة أخرى لا نتمكن من مشاهدتها لعدم وجود قابلية فينا لرؤيتها. يقول تعالى: ﴿أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ فالانسان لم يُعط ملكة يقوى بها على رؤية الجن ولكن الأنبياء والأولياء (ع) قد يتمكنون من رؤية الجن بفضله تعالى، لما أعطاهم من ملكة خاصة نجهلها.

---

(١) سورة بني اسرائيل: ٩٠

(٢) سورة الذاريات: ٥٦, ٥٨

وهكذا ليس في استطاعة الانسان أن يرى الملك بقابليته الحاضرة وملكاته الطبيعية التي وهبها الله إياه، لذلك يقول تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾[1].

توضيح ذلك يقول الله تعالى في الآية المتقدمة: إنا لو جعلنا الرسول ملكاً لاضطررنا لقلبه رجلاً ليتمكنوا من رؤيته.

وكان الجن يعملون بين يدي سليمان (ع) فقد قال تعالى: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ[2] منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾[3]. ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب[4] وتماثيل[5] وجفان[6] كالجواب[7] وقدور راسيات[8] إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته[9] فلما خر[10] تبينت[11] الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين[12] و[13].

(١) سورة الأنعام: ٨ ـ ٩.
(٢) يزغ: يعدل.
(٣) سورة سبأ: ١٢
(٤) محارب: أبنية مرتفعة يصعد اليها بدرج.
(٥) جمع تمثال أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حراماً في شريعته.
(٦) جفان: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة.
(٧) الجوابي: جمع جابية وهي حوض كبير، فكان يجتمع على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها.
(٨) قدور راسيات: القدور: جمع قدر، وقدور راسيات أي قدور ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها.
(٩) منسأته: أي عصاه. المنسأة: هي العصا.
(١٠) خر: سقط ميتاً.
(١١) تبينت الجن: انكشف لهم.
(١٢) في العذاب المهين: العمل الشاق المهين لهم.
(١٣) سورة سبأ: ١٣ ـ ١٤

وقد سمعت أحدهم يقول: «إن الجن هي الحيوانات أو الحشرات» وكان يقول: «إن نفيي للجن لا يحتاج إلى دليل ولكن على المثبت أن يأتي بالدليل». فقلت له: على من يؤمن بالقرآن أن يعترف بالجن كمخلوق مكلف بتكاليف عبادية كالانس، حسب الآيات المتقدمة. ثم كيف توفق بين ما تعتقده وقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات﴾. وقوله تعالى: ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾. فهل للبهيمة أو الحشرة أو الميكروب أن تقوم بهذا العمل الجبار؟!.

* * *

قلنا إن الجن قد يشاهدون من قبل الأنبياء (ع) والأوصياء (ع). وهم يتطورون ويتشكلون في صور الانس وغير الانس على ما أعطاهم الله من ملكات وإمكانيات. كل ذلك في دائرة محدودة وبأمر من الله. وقد يتجسم الجن على شكل أو صورة بني آدم. وفي امكان الجن أن يدخلوا الغرف والأبواب مغلقة. وذلك من شقوق الأبواب والمنافذ، كأمواج الراديو.

وقد سمعت محاضرة لأحد علماء مصر، كان ينكر وجود الجن، ثم سافر إلى المغرب واتصل ببعض من كان يحضر الجن وشاهد ما يصدر على أيدي الجن من أعمال شتى تحير العقول. وقد رفع قبلاً كل ما من شأنه الخداع والتلبيس. فآمن بالجن بعد أن كان منكراً أشد الانكار.

وقد جاء في تفسير الآية الآتية أن الشيطان أتى قريشاً في صورة (سراقة ابن مالك بن جشعم الكناني) لما أرادوا الخروج إلى بدر. قال الله تعالى: ﴿وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال أني بريء منكم أني أرى ما لا ترون أني أخاف الله والله شديد العقاب﴾. كما أنه روي أن الشيطان تشكل في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول صلى الله عليه وآله هل يقتلونه أو يحبسونه أو يخرجونه كما قال الله تعالى: ﴿وإذ

يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾(١).

* * *

وقد رُوي أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان ذات يوم يخطب على منبر الكوفة، إذ ظهر ثعبان من جانب المنبر وجعل يرقى حتى دنا من أمير المؤمنين (ع) فارتاع الناس لذلك وهموا بدفعه، فأومأ إليهم بالكف عنه، فلما صار على الرقاة التي عليها أمير المؤمنين، انحنى أمير المؤمنين إلى الثعبان وتطاول الثعبان اليه حتى التقم أذنه، وسكت الناس وتحيروا، فنق نقيقاً سمعه كثير منهم، ثم زال عن مكانه وأمير المؤمنين يحرك شفتيه والثعبان كالمصغي اليه، وانساب وكأن الأرض ابتلعته، وعاد أمير المؤمنين إلى خطبته فأتمها، فسألوه عنه. فقال: أنه حاكم من حكام الجن التبست عليه قضية، فصار الي يستفهمني عنها، فأفهمته إياها ودعا لي بخير وانصرف.

وينبغي أن لا يُستبعد وقوع ما ذكر لعلي عليه السلام، فقد جاء في القرآن الكريم: أن سليمان بن داود على نبينا وآله وعليهما السلام لما أرسل إلى بلقيس قال لأصحابه: «يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك» أي من مجلسك الذي تجلس فيه كل يوم للقضاء، وكان يجلس فيه إلى الظهر. فالله تعالى قد اعطى العفريت من الجن قوة يستطيع بها أن يحضر عرش بلقيس من بلاد نائية. فالعفريت ليس بأعز على الله من علي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد قام الاسلام بسيفه وتضحياته التي لا تعد ولا تحصى!.

وقد جاء في الأخبار أن علياً عليه السلام حارب أعداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الجن وانتصر عليهم، والقضية مشهورة في كتب الفريقين لم ينكرها أحد.

ثم ان الجن يحشرون ويحاسبون يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠

استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾. وفي آية أخرى:

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

وفي أخرى: ﴿قال أدخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أدركوا فيها جميعاً، قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

وفي أخرى: ﴿قال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾.



السلوك الرحماني والسلوك الشيطاني

ذكر لي أحدهم: أن هناك طريقين في السلوك: سلوك رحماني وسلوك شيطاني. فالسلوك الرحماني هو سلوك حسب ما أمر الله تعالى به وما أملاه علينا الرسول (ص) والأئمة من بعده عليهم السلام. من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وإنفاق وأعمال صالحات والقيام بحوائج الناس وأعمال عبادية مستحبة بصورة مستمرة وبكثرة دونما فتور من صلاة جوف الليل وأوراد وتضرع وتسبيح بين الطلوعين وقبل الغروب وتطهير المأكل والمشرب وذكر الله تعالى على كل حال وصمت إلا في ما يرضي الله. فعند ذلك تتجلى له كثير من الحقائق وتخدمه قسم من مؤمني الجن إن شاء الله تعالى.

وهذه الطريقة وأعني بها السلوك الرحماني من الصعوبة بمكان، لا يقوى عليها إلا الأوحدي.

وهناك سلوك شيطاني يتلخص في إطاعة الشيطان الغاوي أو بالأحرى إطاعة إبليس عليه اللعنة في كل ما يريد من ترك الصلاة والصوم والحج، بل وعبادة الشيطان نفسه ومخالفة أمر الله تعالى حيث يقول: «ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان، انه لكم عدو مبين. وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جِبِلاً[1] كثيراً أفلم تكونوا تعقلون»[2]. والاهانة بالمقدسات بل وتلويثها.

وقد علم من أحد السالكين السلوك الشيطاني أنه كتب إلى صديق له (درويش) يقطن في شعب من شعاب جبال (همذان) بصورة سرية: «أنه قد بلغ به الأمر حيث يلعن علياً عليه السلام ليلة الجمعة على تل في النجف الأشرف (١٠٠) مرة. فكانت نتيجة ذلك أن خدمته أبالسة الجن فائتمرت

---

(١) جبلاً: خلقاً.

(٢) سورة يس: ٦٠ ـ ٦٣

بأمره وإطاعته في ما يريد. وقد قال تعالى: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾. (سورة الزخرف: ٣٣).

وقد سمعت ممن يوثق بكلامه: أن شاباً كان قد صاحب درويشاً سلك مسلكاً شيطانياً وتعلق به تعلقاً وثيقاً، لما كان يرى من خوارق ظاهرية تجري على يديه.

يقول هذا الشاب: خرجت مع هذا الدرويش ذات يوم قبيل الظهر من مدينة (تبريز)، حتى إذا ابتعدنا عن البلدة مسافة يعتد بها، قال لي الدرويش: ما أجمل المكان وما أطيبه! لو كانت لنا هنا غرشة (نارجيلة) فقلت له: سيدي قد ابتعدنا كثيراً عن البلدة، ولا يوجد بالقرب منا مقهى... فقال الدرويش مغضباً: أو ضعف إيمانك بي؟! ونادى بصوت رفيع. غرشة! وإذا بغرشة توضع بين يديه، فصار يشرب. حتى إذا فرغ، استأنفنا الطريق. فبعدنا عن البلدة مسافة لا يستهان بها، فبلغنا مكاناً في غاية الجمال... وقف الدرويش عن السير وقال: ما أجمل هذه المناظر، لو تناولنا غداءنا في هذا المكان.

فقلت له: ومن أين نجد طعاماً في هذا المكان النائي؟

فقال: وهل ضعف يقينك بي؟ فنادى بصوت عال: غذاء! وإذا بمائدة جاهزة توضع بين يديه، وفيها من الطعام ما لذ وطاب.

فصرت أنظر اليها وأنا متعجب، حائر، وألعن الشيطان!... وإذا بالرجل يلطمني على وجهي بكل ما أوتي من قوة...

فقلت: ولماذا ؟ ما الذي صنعت حتى أغاضك؟ إنما ألعن الشيطان، لعنة الله! فلطمني ثانية، قائلاً: أتلعن من هو ولي نعمتي، المتفضل علي بعظيم النعم، إنه هو معبودي ومقصودي ولولاه لما كانت هذه المكرمات، ومن جملتها هذه المائدة. فتقديسي لابليس وعبادتي إياه وإطاعتي له جعلتني موضع عنايته، فيهيء لي ما أريد وما أشتهي، يقول الشاب: علمت إذ ذاك أن الدرويش كافر مشرك، فتركته وسافرت إلى العتبات المقدسة تائباً مما كان مني أثناء غفلتي...

فشياطين الجن يقومون بتحقيق رغبات من يوافقهم في كفرهم وجحودهم ويخدمونهم حتى يوردوهم جهنم وبئس المصير. ان الله تعالى يقول:

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[1].

فمن الناس من يعبد الجن ويحقر المقدسات ويقوم باهانتها ليتميز عن الآخرين بما سيهيىء له ابليس ما يدهش الألباب من أعمال يعجز عنها الانسان حسب ملكاته الخاصة به. أنه تعالى يقول عندما يصف أحوال يوم القيامة: ﴿ثم يقول للملائكة أهؤلا أياكم يعبدون؟ قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾.

* * *

وقد نقل أحد كبار العلماء أنه كان في أصفهان رجل تصدر منه الخوارق ويخبر عن أشياء خفية لا يعلمها إلا أصحابها.

فإذا كان موسم الحج. سافر من أصفهان في ٧ ذي الحجة، فيرى في مكة وهو يصافح الحجاج ويرجع قبلهم مع عدم وجود طائرة في ذلك الوقت. ان الرجل كان معززاً مكرماً حتى وافته منيته.

وبعد مضي مدة على وفاته رأى ولده ذات يوم في موسم الحج أي في ٧ ذي الحجة وهو جالس في بيته إذ دخل عليه رجل قائلاً له: إني كنت آتي أباك كل سنة في مثل هذا اليوم، لآخذه إلى مكة، وكان قد أحضر دابة، فقال لي: اركب. فركبت، وبعد مدة وجيزة جداً صرنا في البر، فنزل ونزلت، فقال: أنا الشيطان!... أسجد لي كما سجد لي أبوك من قبل..

يقول الولد فقلت له: لست بساجد لأحد غير الله تعالى، إنما أسجد لله وحده لا شريك له. فطفق يلح ويلحف، حتى أعيى، فلم ألب طلبه، فتركني في الصحراء وانصرف. ثم أني صرت أدعو الله جل شأنه لينجيني مما

---

(١) سورة فاطر: ٦

ألم بي ويوصلني إلى بلدتي. فمن الله علي بالنجاة وذلك بإلهامي الطريق المؤدي إلى بلدتي.

فكان الولد يلعن بعد هذه الحادثة أباه، لأنه كان من عباد الشيطان.

* * *

وإنما نهى الشارع عن إحضار الجن والأرواح وعدَّ ذلك كبيرة لما يؤدي ذلك إلى إطاعة الشيطان وعبادته وسوء العاقبة، أعاذنا الله منها.

وان مثل هذه الواقعة التي ذكرناها وقائع كثيرة، فمن طاوع الشيطان في كفره والحاده وتوهينه المقدسات وسبه أولياء الله والولج في شتى المعاصي واطاعه كان الشيطان عوناً له في الاخبار عما خفي عن الناس وتهيئة ما يريد من أشياء ووسائل.

وقد سمعت ممن اتصل بامرأة كانت تحضر الجن، أنه أراد أن يقوم باحضار الجن بطريق غير شيطاني. فعلمته الأمرأة (واسمها صغرى) أن ينزل إلى السرداب ويرسم دائرة ويجلس في وسطها ويقرأ الأوراد المعية. يقول الرجل: «إمتثلت ما قالت الامرأة وصرت أقرأ الأوراد، فظهر أمامي أنواع الحيوانات المخيفة، بأشكال شتى، ثم ظهر أمامي بحر خضم فيه تمساح كبير أراد أن يلتقمني. ففزعت وصحت: صغرى، صغرى، أدركيني. فقالت اخرج إلى سطح الدار، يا ضعيف النفس!.

فخرجت إلى سطح الدار ولم أنجح في تطبيق ما أمرتني به»...

قد يستغرب مما أقول من تطبع على التجارب الفيزيائية أو الكيميائية ولكن لا ينبغي لعالم مفكر دقيق أن ينكر ما لم يدرسه ولم يجربه ولم يتتبع فيه بل المفكر الحقيقي هو ذلك الذي يجعل كل ما طرق سمعه في دائرة الاحتمال، فيسأل ويتتبع ويعقب ويجرب ويطبق ليصل إلى واقع الأمر والحقيقة، من وجود أو عدم وجود ما ينكره، حتى يكون حكمه مبنياً على الاستقصاء والتتبع والمداقة.

وما أكثر أحكام المتطفلين على العلم الحديث وأوهنها وأضعفها وأبعدها

عن الحقيقة. انها هوى النفس، وكبرها وطيشها ومروقها. أنها مظهـر من مظاهر النفس البهيمية ورشحات من نزواتها ومجونها تلبست بلباس العلم، والعلم منها براء.

* * *

إن ما يشاهد ويحدث من حوادث غريبة في الهند وغير الهند يجعل غير المعتقد بما وراء الطبيعة في حيرة من أمره، لا يعلم كيف يجيب وكيف يحلل الموضوع.

أنقل لكم ما حدث أخيراً عن امرأة هندية، تجيب على أصعب العمليات الحسابية بسرعة عجيبة: فقد سئلت عن جذر عدد كبير أصم، ووضع السؤال أيضاً في آلة معدة لحساب جذور الأعداد. فأجابت الامرأة ارتجالاً أسرع من الآلة، فلم يطابق جوابها ما استخرج من الالة من جواب. فأعادوا عليها السؤال فأجابت نفس الجواب، فعلم أن الخطأ إنما كان في ما استنتج من الآلة، وهي محقة في جوابها.

فهناك في الهند مرتاضون يأتون بالأعاجيب وأظنهم لا يعلمون كيف تحدث على أيديهم هذه الأعاجيب والخوارق.

فقد ذكر لي أحد أرحامي وكان يتاجر في الهند، أن رجلاً هندياً كان يأتي بالغرائب، فيلتقط من الفضاء موزاً وكل ما يراد منه، وذات يوم كان راكباً في قطار، فطولب ببطاقة، فقال: ليس لي بطاقة فأريد منه النزول، فقال انزل ولكن القطار سوف لا يتحرك. وكان كـما قال: فلم يتحـرك القطار حتى ركب!.

وذكر لي أحدهم، أنه كان يريد حمل مقدار من الأفيون دون مراجعة دائرة «الكمارك» إلى خارج إيران.

وسمع أن في احدى قرى طهران رجلاً يخبر عما سيقع. فذهب اليه لعله يعلم بما سيحدث من أمر الأفيون حين نقله خارج الحدود. فما أن دخل عليه، حتى رأى الرجل المرتاض! يخاطبه قائلاً: لا تحمل الافيون من الطريق الفلاني، واحمله من طريق آخر (وذكر الطريق) فأنت تفوز بمرادك.

يقول الرجل، أخذني العجب الشديد من هذا التنبؤ، فقلت في نفسي، أبقى هذه الليلة في هذه القرية بالقرب من الرجل. لأراقب حاله وما عليه من رياضات.

يقول: «ذهبت إليه ما بين الطلوعين وصرت بالقرب منه، وهو تحت شجرة، فأومأ الي فدنوت منه، فلم أجده ممن يصلي أو يقوم بذكر وأوراد بل ألفيته وسخاً ذا أظافر طويلة، لا ترتاح لرؤيته النفس.

فقلت له: كيف تخبر عما سيكون. فقال: أنا أيضاً لا أعلم، كيف يحدث ذلك. وإنما تجري على لساني ألفاظ، فأرى الناس يرونها مطابقة لما يدور في خلدهم ويتحقق كل ما يقال على لساني. ولست إلا آلة صماء، لا أعلم لماذا يتحرك لساني وماذا سيجري عليه.

يقول: ثم رأيته أخرج قنينة صغيرة، فقال هذا سم، أتناول قليلاً منه ثم أخرج ثعباناً صار يلدغه، حتى أغمي عليه. ثم صحا وأخذ يشرب في اناء وسخ مقداراً كثيفاً من الشاي مع السكر (النبات على ما هو المصطلح). قال، هذه رياضتي، وهذا قوتي، وبعملي هذا بلغت ما بلغت ولا أعلم كيفية ذلك.

فهل للعلم الحديث أن يحلل هذه القضية على ضوء ما توصل اليه العلم المادي. انهما من عالمين مختلفين، عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة، فلا يمكن أن تحلل قضايا غير مادية، قضايا مما وراء الطبيعة على ضوء مكتشفات مادية طبيعية، لأنهما من واديين مختلفين.

إن الرجل الذي تقدم ذكره، قد سلك طريقاً شيطانياً غير مرضي عند الله تعالى، وآذى نفسه، فجوزي بأمر من الله في دنياه بهذه الميزة التي لا يعلم كيف تتجلى له على حد قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[١].

ولكن، هناك سلوك رحماني وهو سلوك الأنبياء (ع) والصالحين من عباد

---

(١) سورة هود: ١٥ ـ ١٦

الله، سلوك يطابق المنطق ويوافق العقل. فكم من آيات في القرآن تدل على إخبار بالغيب بإلهام من الله وعظيم لطفه. ومما قاله يوسف (ع) وهو في السجن: «قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما مما علمني ربي. أني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. وأتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء. ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. ولكن أكثر الناس لا يشكرون»[1].

وقال عيسى (ع): ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم. إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»[2].

وقد جاء في الأخبار أن رجلاً مرتاضاً هندياً أتى الصادق عليه السلام وأظهر أنه يعلم كل ما يخفي الصادق سلام الله عليه في يده، وكان كما ادعى. ثم سأله الصادق عليه السلام بعد أن أخفى في يده أشياء عديدة: سأله ماذا في يدي؟. فقال: قد تناولت من أقصى الهند بيضة كانت قد باضتها حمامة في أعلى الشجرة الفلانية. وتعجب مما قام به الصادق عليه السلام.

فسأله الامام عليه السلام: بمَ وصلت إلى ما وصلت اليه؟ فقال: بمخالفة النفس! . . . ثم عرض عليه الصادق عليه السلام الإسلام. فأبى. فقال له الصادق عليه السلام: أنت أخذت على نفسك أن تخالف هواك. فخالِف هواك كما عاهدت نفسك. فقبل الرجل وأسلم.

ثم ان الصادق سلام الله عليه، أخفى في يده شيئاً وأراد من الرجل أن يتنبأ فلم يستطع وقال: ضاع عني ما كنت عليه ولا أُلهم بشيء.

فقال له الصادق عليه السلام، ما مؤداه: أنك كنت ضالاً ومتبعاً خطوات الشيطان، فجازاك الله لمخالفتك هوى نفسك بهذا الالهام وميزك عن غيرك بهذه الميزة في دنياك، وكنت في الآخرة من أصحاب النار. ولكن الآن، بعد أن

---

(١) سورة يوسف: ٣٧ ـ ٣٨

(٢) سورة آل عمران: ٤٩.

تشرفت بالاسلام عاملاً بنصوصه، ذهب عنك ما توصلت إليه بطريق شيطاني مضل. وقد هيأ الله تعالى لك آخرة سعيدة وحياة أبدية هنيئة.

وكم قرأنا في المجلات أن أناساً أعطوا من الالهام بحيث يجيبون على عملية ضرب في الحساب: عشرة أرقام في عشرة أرقام بسرعة عجيبة، دون أن يشعروا كيف يجري ذلك على لسانهم.

إن عوالم ما وراء الطبيعة عوالم عميقة تستدعي التحقيق والتفكير وهي ليست من عوالم المادة، (سانتيمتر، غرام، ثانية) في شيء، فلا معنى لتحليل ما هو غير مادي بمقاييس مادية مقتضبة. وان الله تعالى، وله الحجة البالغة، يهيىء لهذا الانسان بين الفينة والفينة حوادث لتذكيره ان وراء هذا العالم المادي عالماً آخر لا يُشبه العالم المادي في شيء، وليس هناك مقياس مشترك بينهما كما في الحوادث المادية (الفيزيائية أو الكيميائية) كي يزداد هذا الانسان إيماناً بربه وخالقه، وقدرته التي لا تحد، وعظمته التي لا تتناهى. مع العلم أن ليس للانسان المحدود في جميع قابلياته أن يحيط بالله الذي لا يحده بشيء. وأنى للمحدود أن يدرك غير المحدود إدراكاً تاماً وأن يحيط به، إنما يؤمن ويوقن بوجوده وهيمنته بقدر ما في نفسه من طهارة وصفاء.

* * *

إن العلم الحديث ليعترف بالأشعة الكونية وهي لا ترى ولها آثارها العجيبة ويعترف بالبث الالكتروني وبأمواج الراديو واللاسلكي والتلفزيون وكل أولئك قوى وطاقات لا ترى بالعين وموجودة في الفضاء ولها آثارها. فلا يصعب على العلم الحديث وحاملي لوائه الاعتراف بموجود هو من نوع طاقات خاصة، قد منَّ الله عليه بعقل وإرادة وكلفه بتكاليف وهو مسؤول أمام الله تعالى (وأعني بذلك الجن)، وهو القائل: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدونِ﴾. (سورة الذاريات: ٥٦).

* * *

قلنا آنفاً إن المادية قد تغلغت في أوساط أوروبا وسرت إلى أصقاع أخرى، كل ذلك لتوفر وسائل الترف والفساد والإفساد وهتك الأعراض

والحرمات وشيوع الربا والخمور وأنواع الظلم والفجور، فأظلمت النفوس، وتحجرت العقول، حتى صارت لا تبصر الحق والواقع، فقد جاء في الحديث: »إذا أذنب العبد كان نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر، صفا قلبه منها، وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب».

ولو تتبعت نفوس هؤلاء الماديين المنحرفين، لوجدتهم أبعد الناس عن العطف والحنان والأخلاق الفاضلة وأقرب الناس إلى الشهوات والملذات والافساد والبغي والظلم، تشهد بذلك حياة (كارل ماركس) في صغره وشبابه ومع والديه وأخواته. فقد كان ينقطع عن الجامعة ويذهب إلى السكر والدعارة، يترك (بون) مقر الجامعة ويذهب إلى (كولون) في جوارها ويبتغي فيها ملاهي السمر. سيق إلى الشرطة لافراطه في السكر والعربدة! وقد استخدم الأسلحة النارية. كان فيه شهوة الهدم والتخريب، كان أنانياً يختلق التهم، حسوداً، مغروراً. كان يعامل من يخالفه معاملة ملؤها التحقير والازدراء. ويقول لكل من يخالفه في الرأي: (بورجوازي). كان مغروراً بآرائه ويقول آرائي وأفكاري... ولا يقبل أي نقاش. كان مسلوب العاطفة. فلم يذهب إلى بلده حين مات أبوه وبقي في برلين وهو رب الأسرة بعد والده. واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث، فمال إلى نصيب امه واخوته. وكان قبلاً قد أرهق أباه في طلب المال. وقد انتحرت بنتاه (لورا وأختها) عقد مقاولة مع الجرائد وأخذ مبلغاً ولم يف بمنطوق العقد. وعقد اتفاقية مع (ألكسي) على كتابة نظرياته الاقتصادية (هذه التي لم تنل نصيباً من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع الحياة)، وقبض (١٥٠٠) فرنك وعقد في نفس الموضوع اتفاقية أخرى مع شخص آخر ولم يف بكلتيهما!.

نعم، إن رجلاً هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشح منه هذه الأباطيل. بأن يقول: «إن الديانات والعقائد جميعاً إنما هي انعكاسات الضرورات الاقتصادية». إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونية عن طريق الهدم والافساد، وسحق المقدسات! «أولئك الذين لم يرد الله أن

يطهر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾. (سورة المائدة: ٤١).

إنه تعالى يقول: ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[١]. وفي آية أخرى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾[٢]. فقد أغلق الله تعالى على الفساق أبواب الهداية حتى يؤوبوا ويتوبوا. هذه هي سنة الله في أرضه وسمائه: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[٣].

حقاً لو تعمقنا في ما سنه الله تعالى وأقرّه لألفينا في ذلك كل المنطق وتمام العدل. وذلك لأنه بالتقوى والورع يعمر القلب وتتكامل النفس، فتصبح قمينة للفيوضات الرحمانية والألطاف الربانية، وبالفسق والفجور يتحجر القلب وتظلم النفس، فلا تجد لمعرفة الله تعالى طريقاً ولا لرفده سبيلاً. ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ والانسان الظالم لنفسه، هو الذي قد سد على نفسه أبواب المراحم الالهية والنفحات القدسية الصمدانية: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[٤]. وفي آية أخرى: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾[٥].

* * *

إن أوروبا لا تزال منهمكة في فجورها وخمورها وما دامت كذلك، فلا تجد لهداية الله سبيلاً، إلا أفراداً قلائل ممن لم تغرهم المادة الصماء، فتابوا وأنابوا واستضاؤا بنور الاسلام: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[٦].

فقد ذكر لي أحد الأصدقاء أنه ذهب إلى ألمانيا في الصيف الماضي، وقد

(١) سورة البقرة: ٩٩
(٢) سورة البقرة: ٢٦
(٣) سورة الفتح: ٢٣
(٤) سورة الزخرف: ٧٦
(٥) سورة الأعراف: ١٤٤
(٦) سورة الأحزاب: ٤٦

زار أخاه في احدى المدن وكان أخوه قد سافر قبلاً لتكميل تحصيله وأخذ درجة الدكتوراه. فرأى أخاه على غير ما كان عليه من قدسية مرموقة، وصلاة مع الجماعة ودعاء وابتهال ليالي الجمعة في الحرم الشريف. رآه قد انغمر في ما حرم الله وأخذ الايمان يتضاءل في نفسه، والجحود يأخذ طريقه إلى خَلده. وكان يتحدث له أخوه: أن في الغرب، يرحِّب الأخ بمن يتصل بأخته بطريق غير مشروع ويراه أمراً طبيعياً لا غرابة فيه!..

فصار يصف لي عوالم الليل، قائلاً: إن أكثر مدن ألمانيا مليئة بالحدائق العامة الكبيرة وتكاد تكون بعض المدن مجموعة من الحدائق. فإذا جنَّ الليل، لا تجد في هذه الحدائق إلا بصيصاً من الضوء، بقدر ما يميز الشخص طريقه. والناس من رجال ونساء،ينزوي بعضهم على بعض حتى الصباح.

قارن، أيها القاريء الكريم، بين هذه الحياة البهيمية وحياة قدسية أخرى في بعض المدن الاسلامية: ترى المؤمن يقوم قبيل الفجر بساعة أو أكثر من فراشه قائلاً: (كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)، «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». فيتوضأ متوجهاً بكله إلى الحق المتعال. قائلاً بخشوع: «بسم الله وبالله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»، فيأخذ طريقه إلى الحرم الشريف أو إلى مسجد قريب: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد... الحديث»، فيستقبل القبلة، متهجداً[١]، بخضوع لا مزيد عليه، فيصلي لربه ركعات، ثم يستغفر الله تعالى مائة مرة في قنوت ركعة الوتر[٢]. فإذا انتهى من صلاته بكى[٣]

(١) ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾. (سورة بني اسرائيل: ٨٢).

(٢) ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا أننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾. (سورة آل عمران: ١٤ - ١٦).

(٣) روى أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل مخافة من الله، لا يراد بها غيره».

نادماً على ما اجترحت يداه من ذنوب، وناجى ربه بخشوع، محاسباً نفسه على كل صغيرة وكبيرة: فقد جاء في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوها قبل أن توزنوا»، حتى إذا أعلن المؤذن دخول وقت صلاة الصبح، قام فصلى ركعتي النافلة، ثم يبدأ بصلاة الصبح مع الجماعة إن وُجدت، وإلا فيصلي فرادى؛ ثم، يقوم بالتعقيبات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام. فيخرج من المسجد، وهو مملوء فرحاً وسروراً لهذا الاتصال المعنوي القدسي، فهو تقرب إلى الله جلت عظمته، وان هذا التقرب المعنوي هو غاية الغايات في الحياة الدنيا[1]. فالانسان يعد فائزاً في دنياه بقدر ما ينال من هذا التقرب القدسي من نصيب. وبعد ذلك يستقبل الحياة متوكلاً على الله تعالى بتقوى لا مزيد عليها ونفس زكية تتجنب الغش والخديعة، بل جل غايتها خدمة الغير. وإرضاء ربها. «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم... الحديث».

فأي الفريقين أقرب إلى الله تعالى؟ وأيهما أولى بولوج الفكرة المادية في نفسه.

إنها الذنوب ومن ورائها الشيطان يزيِّن لهذا الانسان الطائش فكرته المادية وما يقوم به من إفساد في الأرض، بل يجعله أن يقول بالتأكيد أن العقائد والشرائع كلها خرافات وأوهام، وأفكار بورجوازية!(Bourgeoisie) . فلا حقيقة في الكون إلا المادة. هذه المادة التي لا يقوى المادي على تعريفها وبيان حقيقتها وكشف أسرارها وقوانينها إلا اليسير منها جداً، وهل للمادة أن تضع لنفسها قوانين فتطيعها ولا تتخلف عنها. لعل هذا المادي قد أحاط بالكون، فسافر إلى مسافات تبعد عنا ملايين ملايين ملايين... ملايين من الأميال بسرعة تفوق سرعة الضوء بمقدار لا يتناهى ووقف هناك على ما تقوم به: (المادة) من خوارق ومعاجز وما تنظمه من قوانين ومعادلات في تنظيم هذا الكون المادي! بعقل جبار!.

---

(١) وقد جاء في ما أوحى الله إلى موسى بن عمران (ع): «يا ابن عمران، هب لي من عينك الدموع ومن قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع، ثم أدعني في ظلم الليالي تجدني قريباً مجيباً».

فطوبى لنفوس توجهت إلى الحق بنفس لم تتلوث بآثامها ومظالمها، فآمنت بكل ما أنزل الله من آيات بينات وبمن أرسل من رسل وأنبياء مبشرين ومنذرين وآمنت بوحي من نفسها وعقل لم يدنسه شيطانها ولم تُزحه أجرامها بما غاب عنها: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[1] وصارت تعمل على ضوء تعاليم محمد والأئمة من بعده عليهم الصلاة والسلام للسير في مدارج الكمال البشري حتى تكون قمينة للخلود في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ وقد جاء في الحديث: «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة».

حقاً، إن الوعظ والارشاد لا يؤثران إلا في نفوس تخشى الله في خلواتها، نفوس تراقب الله في السر كما تراقبه في العلن، تعمل وفق ما تمليه عليه الفطرة (فطرة الله التي فطر الناس عليها). ان نفوساً كهذه قمينة بأن تسير في معارج الكمال فتقطع مراحل التزكية وما ألذها! انه تعالى يقول: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه، وإلى الله المصير﴾[2].

ونختم هذا المقال بقوله تعالى:

﴿إعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (سورة الحديد: ٢٠ ـ ٢١).

فالله تبارك وتعالى قد هيأ لصالحي عباده جنة عرضها كعرض أرضنا وما يتلوها من سماء أي من أنجم وكرات وما بينها من مسافات شاسعة وذلك في

---

(١) سورة فاطر: ١٨

(٢) سورة فاطر: ١٨

فضاء لا يتناهى خارج هذا الفضاء الذي هو سماؤنا، أو بشكل آخر فعلم الفلك الحديث يخبرنا أنه قد اكتشفت مجموعة من مجموعات الكواكب تبعد عن الأرض ١٠^٢١ × ٦ ميل. وإن شعاعه لا يصل الينا إلا بعد: (ألف مليون سنة ضوئية) ومعلوم أن الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل. فيجب أن يسير الضوء أو الشعاع الصادر من تلك المجموعة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل/ثانية خلال الف مليون سنة حتى يصل إلى كرتنا الأرضية.

فالله الذي قد عبأ في الشمس طاقة هائلة حتى كان الانفجار الذي قدحدث فيها قبل بضع سنين قد قدرت طاقته (الطاقة الناجمة نتيجة ذلك الانفجار) بقدر طاقة مائة مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة، قادر أن يخلق جنة عرضها كعرض السماء والأرض في ما لا يتناهى من مسافات وأبعاد خلقها بقدرته ودبرها بتدبيره.

فليس لهذا الانسان المحدود في تفكيره وملكاته ومحاكماته أن يقيس العوالم اللانهائية بمقياسه المقتضب المحدود، فمن درس أبحاث اللانهاية في الرياضيات العالية، يعلم أن من الخطأ الفاحش قياس العوالم اللانهائية بمقياس عالمنا المحدود بجميع ما فيه من مواضيع. وان فلسفة تبنى على مقاييسنا المحدودة، فلسفة واهية ليس لها من الواقع نصيب.

* * *

وهكذا تجعلنا العلوم الحاضرة أن نعتقد بما غاب عنا مما لا يدرك بالحواس الخمس أو لا يرى بالعين. وكلما تقدمت هذه العلوم مماشية طهارة النفس والتقوى تحقق لهذا البشر أن المادية ليست إلا نزعة شيطانية جاءت من جراء تلوث النفوس ولا حقيقة لها في عالم العلم والمكتشفات، وإن انسانية الانسان لا تتحقق إلا بالتجرد عن هذه المادية في العقيدة والسلوك والتمسك بالمقدسات والايمان بالغيب واتباع سنة الرسول الأمين وأهل بيته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

* * *

فلسفة المعاد

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾.

هكذا يخاطبنا الله تعالى في كتابه الكريم فمن شاهد هذه القوانين المحكمة الرصينة في عالم الوجود: عالم الذرة، وعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعـالم الانسان، في الفيـزياء والكيميـاء والفلك العالي، وفي علم الأحيـاء والمستحاثات (المتحجرات)، يقطع بأن الذي رتبها ونظمها لا يلهو ولا يلعب. وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[2]. وفي آية أخرى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[3].

فإذا تتبع الانسان حياته النفسية في هذه الدنيا وما عليه نفسه من مساوىء أخلاقية: حسد وبغضاء وحقد، ونميمة وغيبة، ظلم وبغي وبطش بغير حق، ثم ما يراه من حيف وظلم وقسوة وجفاء وبهتان وغيرها من آخرين وما يرى من تشاجر وتطاحن لأمور مادية سخيفة أو لجشع بين الأمم، وما يرى من ظلم واستعمار وغمط للحقوق بين الدول، وما يشاهد من حروب لا تبقي ولا تذر، يقطع بأن الله الذي خلق هذا العالم المادي من سماء وأرض، وما خلق فيه من جماد وحيوان، وما أودع فيه من كمال ما بعده كمال، لا يريد بهذا الانسان إلا (الكمال)...

---

(١) نشر هذا البحث «فلسفة المعاد» في رسالة مستقلة من قبل «مكتب منابع الثقافة الاسلامية» بكربلاء.

وقد رأيت، مع تقديري وشكري للمكتب المذكـور، أن أضيف شيئاً إلى البحث وأجعله من مواضيع الجزء الثالث لكتاب: «التكامل في الاسلام».

(٢) سورة الأنبياء: ١٧

(٣) سورة الدخان: ٣٩، ٤٠.

ذلك لأنه يقطع بأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال، ويقطع بأن البشر غير كامل في هذه الدنيا من النواحي النفسية والأخلاقية والاجتماعية. وهو في هذه الحالة ـ إلا من شذَّ فصار يتكامل على ما رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أشبه بالحيوانات الضارية، يضر بعضه البعض، إن وجد إلى ذلك سبيلاً. يقطع بأن الله الذي أكمل كل شيء من مخلوقاته سوف يجعل لهذا الانسان عالماً آخر كله اطمئنان وخلود وكله حبور وسرور، عالماً فيه ﴿ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾[1]، عالماً لا تطاحنَ فيه ولا تشاجر ولا تجاوز ولا اعتداء، ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون[2]﴾. عالماً يقول عنه تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ اخواناً على سرر متقابلين﴾[3].

عالماً ليس فيه ما يلوث النفس الانسانية من ميسر (قمار) ولحم خنزير وفسق وفجور وخمرة تذهب بالعقل بل ﴿يطاف عليهم بكأس من معين[4] لا فيها غول[5] ولا هم عنها ينزفون[6] وعندهم قاصرات الطرف[7] عين[8] كأنهن بيض مكنون﴾[9]

---

(١) سورة الزخرف: ٧١

(٢) سورة الأعراف: ٤٣

(٣) سورة الحجر: ٤٦.

(٤) أي من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون أو نابع من العيون.

(٥) فساد كما في خمر الدنيا، أي ليس فيها غائلة تغتال العقل، واغتاله أي أخذه غيلة أو خلسة وهو غافل.

(٦) يسكرون: من أنزف الشارب أي ذهب عقله.

(٧) أي قصرن نظرهن على أزواجهن، فهن قاصرات العيون.

(٨) عين: أي واسعات العيون.

(٩) سورة الصافات: ٤٥ ـ ٤٩

عالماً فيه حياة اجتماعية رفيعة، لا تشبه ما نحن فيه من هذه الحياة الملوثة بالآثام والاجرام والاحن والبغضاء والتطاحن والتشاجر.

عالماً يقول فيه الفائزون: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن، إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب[1] ولا يمسنا فيها لغوب»[2][3].

فلا حزن ولا تعب ولا نصب ولا لغوب في ذلك العالم، بل كله طمأنينة وصفاء وراحة لا تقاس بالراحة التي ينالها الفرد بصورة مؤقتة وغير كاملة في الحياة الدنيا. وهذه من صفات ذلك العالم القدسي، المنزه من كل ما يشين النفس أو يزعجها أو ينغص راحتها: ﴿تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[4].

هل ترى في هذه الدنيا فرداً راضياً من حياته الدنيوية؟... لا من حيث ما منَّ الله عليه من نعم، فهي أعظم مما يستحقه هذا الانسان بمراتب لا تعد ودرجات لا تحصى: ﴿وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم﴾[5]، وهي بمقدار من الوفور والكثرة بحيث لا يقوى الانسان على أن يؤدي تجاهها ما يجب عليه من شكر مهما بلغ من مراتب الكمال. ولكن من حيث ما يشعر به من حياة ملؤها المشاكل، مشاكل اجتماعية، مشاكل خلقية، مشاكل عائلية، مشاكل مرضية، وما هنالك من نوائب وكوارث... فهو يشكو طوال حياته مشاكل كثيرة وسيود لو كانت هنالك حياة أخرى خالية عن هذه المشاكل وهذه النواقص وهذه النوائب وهذه التأثرات!...

نعم، كان حتماً في استطاعة الله تبارك وتعالى أن يجعل الحياة الدنيا، هذه التي نعيشها، حياة كاملة لا كدر فيها ولا أحزان، ولا تطاحن فيها ولا

(١) نصب: تعب.
(٢) لغوب: اعياء من التعب أو كلال.
(٣) سورة فاطر: ٣٥
(٤) سورة يونس: ١٠
(٥) سورة النحل: ١٨.

نقصان. إلا أن الله تبارك وتعالى أراد بهذا الانسان أن يتكامل في هذه الدنيا نفسياً، وأن يميز الخبيث من الطيب (مع علمه بها قبلاً) اتماماً للحجة: «ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة»، ليذهب هذا الانسان بعد هذه التصفية الحقيقية (بجهود يبذلها وبجدارة واقعية) إلى عالم الخلود، حيث الصفاء والسرور.

﴿فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر﴾. ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾(١). أنه تعالى يقول: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها مَن لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾(٢).

* * *

ثم إن المفكر في مخلوقات الله تعالى وما صدر عن الله من خوارق، وأعني بها هذه القوانين الفيزيائية التي تبهر العقول، يقطع بأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى جل أن يلهو، يخلق هذا الانسان، بهذه الكثرة المتكاثرة، ليفسد في الأرض ويلوثها ويكتفي بهذا وليس وراء ذلك هدف ولا غاية. وهو القائل: ﴿أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾(٣). ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، ان رحمة الله قريب من المحسنين﴾(٤).

يقطع بأن هذا لهو ولعب وجل أن يلهو ربنا سبحانه مع قوله تعالى: ﴿وذرِ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا﴾.

يقطع من تفهم سنّة الكمال وشاهدها بصورة جلية واضحة في كل زاوية من زوايا هذا الكون: أن هذه الدنيا دار اختبار وامتحان: ﴿الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل﴾.

---

(١) سورة الشورى: ٥
(٢) سورة طه: ١٥ ـ ١٦
(٣) سورة ص: ٢٨
(٤) سورة الأنعام: ٦٩

يقطع بأن الدنيا مدرسة يتكامل فيها حسب دساتير الأنبياء والأوصياء من بعدهم عليهم السلام.

يقطع أن سنة الكمال توجب أن تكون هناك، بعد هذه الحياة الملوثة! حياة التهيؤ والتزود: «الدنيا مزرعة الآخرة» حياة خالدة، لا كدر فيها ولا اختبار ولا ابتلاء. حياة فيها: ﴿ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر﴾!.

يقطع هذا الانسان الذي يرى كمال الله تعالى متجلياً في كل ما خلق من مخلوقات أن وراء هذه الحياة الدنيا المضطربة، حياة البغي والجور: جنة «عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله»، جنة يصفها علي عليه الصلاة والسلام بقوله:

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت[1] نفسك من بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار[2] غُيبت عروقها في كثبان[3] المسك على سواحل أنهارها. وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها[4]، وأفنانها[5]، وطلوع تلك الثمار مختلفة في أغلف أكمامها[6]، تجني من غير تكلف، فتأتي على مُنية مُجتنيها، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة[7] والخمور المروقة[8]، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلوا دار القرار وأمنوا نقلة الأسفار».

---

(١) عزفت: زهدت

(٢) تضارب أوراقها بالنسيم بحيث يسمع لها صوت.

(٣) جمع كثيب وهو التل.

(٤) جمع عسلاج وعسلوج وهو ما اخضر ولان من قصبان الشجر.

(٥) جمع فنن وهو الغصن.

(٦) أكمام جمع كم (بكسر الكاف) وهو وعاء الطلع وغطاء النور.

(٧) المصفاة.

(٨) المروقة: المصفاة.

«فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة(١) لزهقت(٢) نفسك شوقاً اليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها. جعلنا الله وإياكم ممن سعى (بقلبه) إلى منازل الأبرار برحمته».

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿لقد خلقنا الانسان في كبد﴾. والكبد معناه التعب والشدة، إذ يكابد الانسان الشدائد منذ احتباسه في ضيق الرحم إلى الموت وما بعده، إن لم يُطهر ولم يكمل في دنياه: عالَم التكامل والتزود بالتقوى فلا بد لهذا الانسان أن يجهد نفسه وأن يتغلب على شهواته وأن يخالف هوى نفسه، كي ينال السعادة الأبدية: ﴿في جنات ونَهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر﴾(٣).

وهو القائل أيضاً: ﴿يا أيها الانسان أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾(٤). والكدح معناه بذل أقصى مراتب الجهد. فالدنيا دار جهد وعناء وعمل متواصل لنيل درجات رفيعة والبلوغ إلى راحة أبدية سرمدية: ﴿لا يمسهم فيها نصبٌ وما هم منها بمخرجين﴾(٥).

هذه هي فلسفة الحياة الحقة على وجه العموم. فلا تبديل لسنة الله وما قنن وقرر: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾(٦). وان ما قرره الله تعالى حق تعلوه ورحمته: ﴿وسعت رحمته كل شيء﴾ يعترف بذلك العقل المتكامل والنفس غير الملوثة.

نعم، لم يخلق هذا الانسان عبثاً: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما

---

(١) المونقة: المعجبة

(٢) زهقت: خرجت.

(٣) سورة القمر: ٥٤ ـ ٥٥

(٤) سورة الانشقاق: ٦

(٥) سورة الحجر: ٤٨

(٦) سورة الفتح: ٢٣

بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾. (سورة: ص: ٢٩).

فعدم القيام بما أمر الله تعالى من واجبات الشكر: من إنفاق وبذل واهتمام بإطعام المساكين ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾[١]، وبر الوالدين وصلة الأرحام وتواضع للفقراء والبؤساء والقيام بحوائجهم وحوائج سائر الناس، وصلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر وإرشاد الناس إلى معالم الدين، كل ذلك نتيجته الكفر والجحود. فإذا حل الكفر اضطربت المحاكمات المنطقية الصحيحة بشأن فلسفة الحياة وانسحب نتيجة لذلك العقل الذي يُعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان. وصار يقول هذا الفرد المتردي: ليست هنالك غاية من خلق هذا الكون ويتهم من لا يوافقه في الرأي بالرجعية، أو تكون هذه الكلمة (الرجعية) أقوى دليل لهرائه، دون أن يجعل للمنطق مجالاً للتحليل والتحقيق.

حتى إني سمعت ممن كونته المدنية الحاضرة، قبل حوالي ٣٢ عاماً وهو على فراش المرض، سمعته يقول: ما هذا النظام الأهوج في هذا الكون؟ ما هذا التبلبل، وما هذا التسيب؟ وكان يصم العالم بالانحلال والتبعثر وعدم وجود حكمة تربط ما في الكون بعضه ببعض، أو نظام تنتظم بموجبه أجزاء الكون بعضها مع بعض.

إنها رشحات نفسه الجاحدة لأنعم الله الكثيرة، المارقة عما حدد الله وسنه في جميع مجالات الحياة...

انه لا يجرؤ باتهام نفسه البهيمية ولا يعتبر بما أصابه من مرض وأوجاع كي يرجع عن طيشه وعيه، لكنه لذنوب كثيرة تلوثت بها نفسه أمسى جرثومة لا يفيد معها أي منبه أو إرشاد أو اصلاح، ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[٢]. ونستجير بالله من هذه المرحلة التي مآلها النار، لا محالة.

---

(١) سورة الفجر: ١٨

(٢) سورة المطففين: ١٤

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾[١].

إنه يسلي نفسه المتسافلة بقوله: «إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين». وبقوله: «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم، ان هم الا يظنون». حقاً، انهم ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾. (سورة الروم: ٧).

وأظنك قد فكرت كثيراً: لماذا هذه الأمراض في هذه الدنيا؟ ولِمَ هذا الفقر في بعض الأوساط أو لبعض الأشخاص بصورة موقتة أو دائمية؟... ولماذا هذه الابتلاءات والنوائب؟ لماذا هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر؟ لماذا هذه الحرارة في الجو إلى درجة لا يستريح معها الفقير لعدم وجود وسائط لديه، ولماذا هذه البرودة في الشتاء إلى درجة يعجز عن مقاومتها البائس المسكين؟ أليس الله بقادر أن يجعل هذه الأرض فردوساً يتنعم فيه الانسان فيرتع فيه ويمرح بهناء؟.

فإنك بأسئلتك هذه قد شعرت أنه لا بد بعد هذه الدنيا الملوثة عالم آخر كله صفاء وكمال. ولعلك تصل إلى هذه النتيجة أن ليس في هذه الحياة الدنيا من نقص من جانب الله تعالى، وإنما سخر لهذا الانسان كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾[٢]. وما يراه هذا الانسان نقصاً إنما هي مواد امتحانية من صميم النفس يريد الله- أن يختبر بها عباده في النوائب والكوارث. يختبر صبرهم في النوائب[٣] فيطهرهم بها، ويختبر كذلك درجة شكرهم تجاه النعم

(١) سورة الاحقاف: ٢٠

(٢) سورة لقمان: ٢٠

(٣) ولا بأس بذكر هذا الحديث: «من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر، أعطاه الله ثواب الشاكرين».

من إنفاق وإيثار كي ينال كل فرد في الآخرة درجة تتناسب وعمله: ﴿لهم درجات عند الله والله بما تعملون بصير﴾. (آل عمران: ١٥٧). على أن هناك مسرات وأفراحاً مشروعة لا تعد ولا تحصى. لا يقوى الانسان على أن يقوم بأداء شكر جزء ضئيل منها: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

فإذا كنت أنت مع ما فيك من نقائص كثيرة، ترى ضرورة حياة كاملة مستكملة للشرائط، متوفرة فيها وسائل الراحة، يكافأ بها المؤمن تجاه صبره وشكره واجتيازه المواد الامتحانية بطاعة واختيار، فكيف بالله الذي: ﴿خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾ (سورة الانفطار: ٧).

إن الله قد جعل تلك الحياة السعيدة وأعني بها الحياة الآخرة المستكملة لشرائط الراحة جزاءاً موفوراً لصالحي عباده، أولئك الذين نجحوا في امتحاناتهم الدنيوية وجاهدوا في تزكية نفوسهم وتطهيرها من الدنس وسعوا للتكفير عن ذنوبهم لتسير نفوسهم نحو أوج الكمال.

انه تعالى يقول: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾. فيعرفنا الله تبارك وتعالى أن الغاية من إيجادنا بعد أن لم نكن شيئاً ومكثنا في الحياة الدنيا إنما هي للامتحان والاختبار ومعرفته تعالى ولكي ينال كل منا بعد الموت درجة يستحقها نتيجة عمله. وهو القائل: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولي الألباب﴾ . وفي آية أخرى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

فقد جاء في الحديث: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات. وفي حديث آخر: «لا يزال الهم والغم بالمؤمن حتى لا يدع له ذنباً».

وفي حديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته». وكذلك عن أبي جعفر (ع): «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه». وكذلك عن أبي عبد الله عليه السلام: «المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا وعرض له أمر يحزنه يذكر به».

وفي حديث آخر: «إن المؤمن لو كان في جحر ضب لسلط الله عليه من يؤذيه». وفي حديث آخر: «ان الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الطبيب المريض بالدواء». وفي حديث آخر: «ان الله إذا أحب عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه». كل ذلك ليطهر الله تعالى عبده الآثم مما علق به من دنس ورجس كي يذهب من هذه الدنيا طاهراً نقياً لا اثم عليه. ونذكر تأييداً لهذه الحقيقة هذين الحديثين:

فعن الصادق (ع) قال قال رسول الله (ص): «ان الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى استوفي منه كل خطيئة عملها أما بسقم في جسده، أو بضيق في رزقه واما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت، حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة».

وعن الصادق عليه السلام أيضاً قال النبي (ص): قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أعذبه حتى أوفيه كل حسنة عملها، أما بسعة في رزقه أو بصحة في جسمه واما بأمن في دنياه فإن بقيت له بقية هونت عليه الموت حتى يأتي ولا حسنة له، فأدخله النار».

وهذا مصير مَن أتم الله عليه الحجة مرات، وأغدق عليه من النعم ما لا يُحصى فلم يُفده كل ذلك وتمادى في طيشه وغيه وظلمه وبغيه، فأمسى جرثومة فساد لا تصلحه ولا تزكيه إلا النار!.

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً، فإذنب ذنباً إتبعه بنقمة وذكره الاستغفار وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً اتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار». وقد بينا سبب ذلك. يقول الله تعالى: ﴿وذرني والمكذبين أولى النعمة وأمهلهم قليلاً﴾. (سورة المزمل: ١٠).

وقد روي علي بن ابراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله (ص) يوماً لأصحابه: «ملعون كل مال لا يتزكى، ملعون كل جسد لا يُزكي ولو في كل أربعين يوماً مرة، فقيل يا رسول الله: أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة

الأجساد؟ فقال لهم: أن تصاب بآفة». قال: فتغيرت وجوه الذي سمعوا ذلك منه، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم، قال لهم: أتدرون ما عنيت بقولي؟ قالوا لا، يا رسول الله، قال: بلى، الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويقد القدة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «في كتاب علي عليه السلام: إن أشد الناس بلاء النبيون ثم الوصيون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه، وذلك أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر. ومن سخف دينه وضعف عمله قلَّ بلاؤه، وإن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض».

وفي حديث آخر: «مَن صَفت له دنياه فاتهموه في دينه». كل ذلك يدل أن لا بد من من اجتياز مراحل هذا الاختبار الالهي العام، وهذا لا يتم إلا بنقص في العيش والصحة والهناء والأولاد والأنفس والثمرات إلى ما هنالك. فإنه تعالى يقول: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: انا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾. (سورة البقرة: ١٥٧) ولا يكون إكمال هذا النقص الامتحاني إلا بآخرة سعيدة «وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين».

وهكذا يعتبر القرآن الدنيا متاع الغرور بقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. وبقوله: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾. وفي الحديث: «الدنيا والآخرة ضرتان».

ولا بأس بذكر الأحاديث الآتية لنزداد إيماناً ويقيناً بالآخرة: ففي حديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وفي آخر: «مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، حلاوة الدنيا مرارة الآخرة». ويراد بهذه المرارة تلك التي تطهرك من ذنوبك وتكفر بها عن سيئاتك. ويراد بالحلاوة تلك التي تأتيك من مورد

غير مشروع وبشكل غير شرعي. انه تعالى يقول: ﴿قلَ من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾. (سورة الاعراف: ٣١).

فالدنيا دار التصفية، ولا تصفية الا باختبار ولا اختبار لهذه النفس الانسانية إلا بالابتلاء، على حد قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾. (سورة محمد (ص): ٣١).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تقص علينا ما كان من اختبار الماضين وامتحانهم من جانب الله تعالى ومنها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم، ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾. (سورة المائدة: ٩٧). ومعنى ذلك أن الله يمتحن عباده بأن يهيىء لهم ما يتمكنون من اصطياده في وقت يحرم عليهم الصيد، أي في حالة الاحرام. ذلك لأن الصيد حرام مع الاحرام. فالله تعالى يريد أن يعلم (وهو العالم بما سيكون)، بل يريد أن يعلم الانسان شخصه درجة نجاحه في هذا الاختبار الدنيوي أو الاختبار العالمي العام، كي يوقن بدرجة فضل الله عليه عندما يغدق عليه من عميم نعمه وعظيم رفده فيوفقه إلى توبة خالصة، ليدخله بها الجنة برحمته، فسبحانه من رحمن رحيم ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾. (سورة المؤمن: ٣).

وعن السجاد زين العابدين عليه السلام: (بكل ذلك يصلح شأنهم ويبلو أخبارهم وينظر كيف هم في أوقات طاعته ومنازل فروضه ومواقع أحكامه. ﴿ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾.

وقد يبلغ ضعف النفس في بعض الأفراد مرتبة يهرب بسببها عن مواجهة مشاكله الحياتية بكأس من الخمرة، ظناً منه أنه يستريح بذلك من مشاكل الحياة وما يكابد من عناء، فتتسافل نفسه ويقع في مهالك لا تقاس بمشاكله من قبل، ويمسي بهيمة من البهائم، بعيداً عن رحمة ربه، آثماً، ملوثاً نفسه بلوث الطيش والغرور.

وقد فاته أن الاسلام يكره الهروب من الواقع. انه دين مواجهة وجلادة، دين غلبة وجَلد وجهاد. وأعظم الجهاد هو جهاد هذه النفس الأمارة بالسوء. أنه تعالى يقول: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر. ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون﴾. ويقول الرسول صلى الله عليه وآله: «اجتنبوا الخمر، فهي أم الكبائر». وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله: «والذي بعثني بالحق نبياً؛ إن شارب الخمر يموت عطشاناً وينادي واعطشاه ألف سنة، فيؤتى بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب، فينضح به وجهه وتتناثر أسنانه وعيناه في ذلك الاناء».

وقد يفرُّ هذا الانسان من ضعف إيمانه بالله تعالى ـ وان رحمته وسعت كل شيء ـ فيعمد عند تراكم المصائب عليه إلى الانتحار. والمؤمن لا ينتحر، معتقداً أن ما يصيبه من كوارث إنما هو لتزكيته وتطهيره. أنه يقول، كلما أصيب بمصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويعلم أن مآله ومآل كل أمر إلى الله تعالى. ولا يعبأ براحة هذه الدنيا الموقتة إن سلبت منه برهة من الزمن بغية الاختبار والتطهير. ولذلك يقع في كل سنة في أوساط الغرب (من شرقية وغربية) حوادث الانتحار. بعشرات الآلاف، رغم ما يتشدق به الغربي من تربية الارادة: (Volonté) ودراسات عميقة في التربية. تحدث في أمريكا في كل دقيقتين حادثة انتحار ويبتلي في كل ٣٠ ثانية شخص بمرض عقلي، ولا تسل عن عدد الجرائم التي تحدث في كل ثانية. والمجرمون جلهم من حملة الشهادات؟! كل ذلك، لضعف الايمان بالله وعدم الاعتقاد بنعيم الآخرة بعد تحمل شدائد الدنيا. كل ذلك لاخفاق هذا التوجيه المادي في التربية. تربية لا تعمل لربط الفرد بعوالم الآخرة.

لقد خُلقنا للاختبار والامتحان، ولا بد من اجتياز هذه المراحل الامتحانية بصبر وأناة، وليس لأحد أن يفر من هذا الامتحان الالهي وهو القائل: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً﴾ (سورة الملك: ٢٠).

فالانسان لم يخلق سُدى، يفسد في الأرض فلا حساب ولا كتاب، بل

لا بد له من أن يقطع مراحل التكامل النفسي، كما تقطع بقية الموجودات مراحلها التكاملية، كل بحسبه، وعلى ما أقره الله تعالى تفضلاً منه ورحمة. وهو القائل: ﴿أيحسب الانسان أن يُترك سُدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾[1]

يقول علي عليه السلام: «واعلموا أنه ما من طاعة لله شيء إلا ويأتي في كره، وما من معصية لله شيء إلا ويأتي في شهوة، فرحم الله رجلاً نزع شهوته، وقمع هوى نفسه. لأن هذه النفس أبعد شيء منزعاً. لا تزال تنزع إلى معصية في هوى، واعلموا أن المؤمن لا يُمسي ولا يصبح إلا ونفسه ظنون عنده، لا يزال زاوياً عليها ومستريباً بها، فكونوا كالسابقين أمامكم والماضين من قبلكم، توضوا للدنيا متقوين الراحل وطووها طي المنازل».

وهكذا يؤدِّ بنا الامام الرابع علي بن الحسين عليهما السلام، بقوله في دعاء له: «إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد. ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا بوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عرضت وسوَّلت لي نفسي وغلبني هواي، وأعانني عليها شقوتي. فالآن من عذابك مَن يستنقذني، وبحبل مَن أتصل إن أنت قطعت حبلك عني. ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ومنعك إياي عن القنوط لقنطت، فهب لي من لدنك رحمة، أنك أنت الوهاب. فوعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك. إلى مَن يذهب العبد إلا إلى مولاه، وإلى من يلتجيء المخلوق إلا إلى خالقه».

* * *

أو ترى أن الله، وهو أرحم الراحمين، وهو الغفور الودود، أو ترى أن الله القائل: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ والقائل: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾. لا يريد لهذا الانسان حياة سعيدة وادعة تجاه مجاهدته في

---

(١) سورة القيامة: ٣٦ ـ ٤٠

الدنيا. فان عظيم رحمته وكمال لطفه يوجبان أن يوجد عالماً آخر عالماً سرمدياً أبدياً في غاية الكمال. يخلد فيه هذا الانسان جزاء لصبره وشكره وأعماله الصالحات، وعبادته لربه في هذه الدنيا ولو بعد عقوبة وتطهير. ويظهر من الآية المتقدمة: ان الله تعالى بقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ قد أوجب على نفسه إيجاد عالم آخر كله هناء ودعة وخلود ما بعده موت: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يُطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾[1].

* * *

إن الانسان ليعتقد بصورة فطرية: «إن كان ممن لم يلوث نفسه بالموبقات والمدنسات، أن وراء هذا العالم الدنيوي عالماً آخر، يقتص الله تعالى فيه من الظالمين، ويثيب الصالحين، لذلك يقول سُقراط لتلاميذه حين يقدم اليه السم: «أني ذاهب حيث يوجهني الله، وأني ذاهب إلى عالم سرمدي آخر، لا تحزنوا عليَّ». فيتناول السم بكل ارتياح لشدة يقينه. كيف لا يكون كذلك؟ وهو الذي كان يقول بوحدانية الله تعالى وعظيم لطفه. كان يقول: «إن الله أزلي أبدي غير متناهٍ، سميع، رقيب، بصير، مدبر حكيم».

ولكن إن تلوثت هذه النفس الانسانية وأظلمت وأمسى الفرد قليل الاعتقاد بالمعاد وما سيكون بعد الموت من سؤال وجواب وثواب وعقاب. فبمقدار ظلمات النفس يزول هذا الاعتقاد وقد ينعدم، فيعزو هذا المتسافل الاعتقاد بالمعاد والايمان بالعوالم التي ستكون بعد الموت لا محالة، إلى ضعف النفس وعدم تمكنها من المكافحة والمقاومة، وقد يصف ذلك بـ(أفيون الشعوب)، ويعتبر ذلك تسلية للعاجز المسكين، هذا ما يسوله له شيطانه، حتى يجعله لا يفكر في آخرته، فيرتكب ما شاء كيفما شاء: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ (سورة الزخرف: ٣٦).

---

(١) سورة الزخرف: ٧١

وقد تقوى هذه النظرية الخاطئة: أي عدم الاعتقاد بما بعد الموت، عند الماديين العوام[1] إلى درجة أنهم يسندونها إلى العلم والعلم كله منه براء.

كيف ومتى تمكن العلم: هذا العلم المادي الذي يدرس في جامعات العالم أن يتوصل إلى ما وراء الطبيعة وعوالم لا تُبصر بالآلات والأدوات ولا تُستقصى بمعادلات وقوانين حتى يحق له أن يقول: بأزلية المادة ونفي الخالق جل وعلا؟.

فالانسان الذي قد انفتحت بصائره لصفاء نفسه ولأعمال صالحة قد قام بها وعلى رأسها: البر بالوالدين وصلة الرحم، حتى من حملة شهادة الدكتوراه، ليوقن: أن الله الذي أودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم، من الذرة إلى الملائكة، في عالم المادة وفي عالم القوى والأرواح وقد ربط بعضها ببعض ربطاً دقيقاً متقناً بخواص ودساتير متقنة وقوانين رياضية رصينة: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾. سوف يكمل هذه الحياة الدنيوية: الناقصة من جهات شتى: نقصان في الكمال النفسي نقصان في النواحي الأخلاقية (من حيث التطبيق)، نقصان في النواحي الاقتصادية (من حيث التطبيق أيضاً)، نقصان في النواحي السياسية (ذلك لأن الاسلام دين ودولة)، نقصان في الروابط الدولية والانسانية: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين[2]﴾، نقصان في النواحي الصحية، نقصان في الطمأنينة والراحة الفكرية، (حتى بين بعض المتدينين)، نقصان في النواحي العلمية لجهل الانسان كثيراً من حقائق الكون، وفوق كل ذلك قلق في نواح

---

(١) إنما قلت: الماديين العوام: ذلك لأن المادي (في عقيدته) ان لم يكن قد درس الرياضيات العالية والفيزياء العالية، ولم يربط عصارات العلوم الحاضرة بعضها ببعض ربطاً فلسفياً فهو مادي علمي، لا يستند في هذيانه إلى ركن وثيق أو إلى برهان عميق. ولكن، لو تضلّع هذا المادي (في العقيدة) في شتى العلوم ونبغ فيها وترك شيئاً من خموره وفجوره فهو موحد لا محالة، ﴿ومن يدع مع الله آلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون﴾.

(٢) سورة البقرة: ٣٦

شتى، سوف يكمل هذه الحياة الناقصة بحياة سعيدة أخرى، كاملة من جميع الجهات، ألا وهي الحياة الآخرة: حياة ملؤها رفاهية وسرور وحبور، حياة كلها كمال: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾. وفي مكان آخر: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين﴾. (سورة الطور: ٢٠)[١]. كمال في النفس وتكامل للتطلع والوقوف على حقائق وأسرار الأكوان والعوالم المتنوعة بصورة سرمدية، كمال في الصحة، كمال في الحياة الفردية، كمال في الحياة الاجتماعية، كمال في الحياة الاقتصادية (إن قلنا بحياة اقتصادية هناك)، وفوق كل ذلك خلود ما بعده فناء ولا زوال: ﴿وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾[٢]. (سورة هود: ١٠٩).

﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وإيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا أنك على كل شيء قدير﴾. (سورة التحريم: ٨).

فإتمام النور للمؤمنين، هو الكمال الموعود، ذلك الكمال الذي به تزول نواقص هذا العالم الفاني، عالم العمل والاختبار. ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[٣].

فالكامل وهو الله تعالى حاشا أن يخلق شيئاً ناقصاً إلا ويريد لهذا الناقص (بسنن قد سنها) الكمال. وقد سنَّ طرق الكمال وسنن التكامل لهذا الانسان على لسان أنبيائه عليهم السلام، فما أوحى الله تعالى إلى أنبيائه كله سنن ودساتير تؤدي بصورة تدريجية إلى تكميل النفس الانسانية، كي تكون قمينة للانتقال إلى عالم آخر كله كمال.

---

(١) لا بد من زواج وازدواج حتى في عوالم الآخرة، تحقيقاً للزوجية في الكون ولتبقى الوحدانية خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها احد

(٢) غير مجذوذ: غير مقطوع

(٣) سورة النور: ٤٠

ولا مراء أن الله إنما أرسل الأنبياء عليهم السلام لتكميل البشر، لعلمه تعالى بما هنالك من نقائص شتى في هذا العالم الدنيوي وفي النفس الانسانية والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلى ما هنالك. ذلك لأن هذه الحياة حياة تهيؤ واستعداد، وما فيها من نقائص هي، في الحقيقة، مواد امتحانية يجتازها الانسان لبلوغ الكمال والانتقال إلى عالم آخر، عالم سرمدي خالد كله كمال في كمال. فما نسميه في هذه الحياة الدنيا نقائص هي ليست، في الحقيقة، نقائص، رغم تسميتنا إياها نقائص، وإنما هي: مراحل يتقدم فيها الانسان كما يتقدم الطالب في مدرسة ما من صف إلى صف.

فالانسان مريض في هذه الدنيا بأمراض معنوية، لنقائص كثيرة في نفسه، ولذلك يقول علي عليه السلام: «أرسل اليكم رسولاً ليزيل به علتكم».

وعن الرضا عليه السلام: خاطب رسول الله يوماً أصحابه قائلًا: «ألا أخبركم داءكم عن دواءكم، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: داؤكم الذنوب ودواؤكم الاستغفار!».

فالأنبياء عليهم السلام هم معدِّلو هذه النقائص بصورة تدريجية، لو أطيعوا، فطبقت دساتيرهم واتبعت تعاليمهم.

وأما المواد الامتحانية التي تظهر للانسان أنها نواقص أو نقائص فتبقى ثابتة تميز بين الفرد الصالح والفرد الطالح. ومن لم يتبع دساتير الأنبياء (ع) ومن بعدهم الأوصياء (ع) يذهب من هذه الدنيا وهو متسافل النفس، أعمى... ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. (سورة الأسراء: ٧٢).

ولما كان الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال، وجب أن يكون، بعد الموت، عالم آخر كله كمال، خاص بعباد الله الصالحين. ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق

قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة[1] يوم القيامة﴾. (سورة الاعراف: ٣١).

﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

وان الله يجازي الكافرين بعد أن أتم عليهم الحجة بعقل فطري: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾، وبإرسال الرسل: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾، وذلك بقوله: ﴿كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾[2].

فطوبى لنفوس تطهرت في هذه الفترة القصيرة الامتحانية وتكاملت في هذا العالم الدنيوي، فذهبت إلى رَوح وريحان بنفس مطمئنة: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

فما علينا إلا أن نستجيب لربنا[3] ونعمل كي لا نكون مصداق هذه الآية: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾. (سورة الكهف: ١٠٦). ولنتذكر هذه الآية دوماً: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾. (سورة الشورى: ٤٧).

---

(١) أي خالصة للمؤمنين يوم القيامة، فلا يشاركهم فيها احد. لا كما في الدنيا حيث يشارك المؤمنين وغيرهم من غير المؤمنين.

(٢) سورة فاطر: ٣٧

(٣) ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه إليه تحشرون﴾. (الأنفال: ٢٤).

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾. (سورة الشورى: ٤٤).

فليجرب المجربون وليختبر المختبرون ليروا صحة ما أقول. فكلما كان الانسان أقرب إلى التقوى والأعمال الصالحات، نقي الثوب، طاهر الضمير، كان اعتقاده بما بعد الموت وبالمعاد أقوى وأمتن. حتى وإن لم يكن قد بلغته دعوة الاسلام. وكلما تردى وتسافل كان اعتقاده بالمعاد أوهى وأضعف. ﴿ولا تطع كل حلاف مهين همّاز مشّاء بنميم مناع للخير مُعتدٍ أثيم عُتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾[1]. (همّاز أي كثير الطعن. عُتل: جاف غليظ. زنيم: دَعيٌّ، منسوب لغير قومه ـ أساطير: ما سطروه من خرافاتهم).

لذلك يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله، بعد نزول سورة النصر، فيقال له: يا رسول الله، أوَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيقول: «أين هول المطّلع وأين ضيقة القبر، وظلمة اللحد وأين القيامة والأهوال». وهو القائل: «معاشر الناس: إنه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل. أيها الناس لا يدع مدع ولا يَتمنَّ مُتمنٍّ، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل صالح مع رحمة، ولو عصيت لهويت».

فقضية إيمان الفرد بما بعد الموت من عوالم الآخرة والايمان بسؤال الملكين: (منكر ونكير) في القبر عن ربه وعن دينه وإمامه وصلاته و. . . الخ. وكذلك الايمان بالصراط[2] والميزان[3] وتكلم الجوارح[4] وتطاير

---

(١) سورة القلم: ٨ ـ ١٦.

(٢) الصراط: هو جسر جهنم، يمر عليه جميع الخلائق، فالمطيع يجوزه إلى الجنة، والعاصي هوى به في النار.

(٣) الميزان هو ما يقابل فيه بين الحسنات والسيئات، وليس هو بميزان مجسم. قال الله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾. (سورة الأعراف: ٨).

(٤) تكلم الجوارح: أي أن أعضاء الانسان تتكلم يوم القيامة بأمر الله وأذنه، وتشهد على =

الكتب[1] والحساب يوم البعث[2] والجنة والنار والشفاعة والحوض[3] وهكذا الايمان بكتابة الأعمال[4] إنما هي قضية طهارة النفس وتزكيتها. فكلما كانت النفس طاهرة، زكية صالحة نقية، زاد اعتقادها بالآخرة وعوالمها وتمنت الموت. وكلما كانت النفس ظالمة حالكة مظلمة، كانت جاحدة عوالم الآخرة، فلا تتمنى الموت. ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم

= صاحبها بما فعله في الدنيا من الذنوب، وهو على كل شيء قدير قال تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾. (سورة يس: ٦٥).

(١) ومعنى تطاير الكتب: هو أن الله تعالى بعد أن يحاسب العباد يوم القيامة يخرج لكل واحد منهم كتاباً يلقاه منشوراً. فيطير كل كتاب إلى صاحبه، فيجد فيه كل ما عمل في دار الدنيا «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها». فيقال له: إقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً». (سورة الاسراء: ١٤)... ﴿وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلى أهله مسروراً. وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً﴾ (سورة الانشقاق: ١١). (والثبور معناه: الهلاك، أي يدعو الله أن ينزل عليه الثبور).

(٢) معناه: ان الله تعالى يحاسب العباد بعد بعثهم من قبورهم وإحيائهم بعد موتهم على أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا. ثم يجزى المحسن بإحسانه والمسيء باساءته: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. (سورة الزلزال: ٧ ـ ٨).

(٣) هو حوض النبي (ص) يوم القيامة. عرضه ما بين ايلة (بلد بين مصر والشام وصنعاء). فيه من الأباريق عدد نجوم السماء. والساقي عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

(٤) ومعنى ذلك: ان الله تعالى وكل بكل مكلف من عباده ملكين بالنهار وملكين بالليل، احدهما على اليمين، يكتب الحسنات، والآخر على الشمال، يكتب السيئات، فيكتبان جميع أعمال العبد. قال تعالى: ﴿وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾. ومن هم بحسنة كتبت له حسنة، فإذا فعلها كتبت له عشر حسنات. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، فان فعلها أمهل سبع ساعات فإن تاب منها لم تكتب عليه، وإن لم يتب منها كتبت عليه سيئة واحدة قال الله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾. (سورة الأنعام: ١٦٠).

بالظالمين﴾. (سورة الجمعة: ٧) ومنهم من ينسب جحوده هذا إلى العلم الحديث تبريراً لموقفه. والعلم قديمه وحديثه من كل ذلك براء.

نعم آفة العلم الحديث أنه لا يرافق التقوى والايمان بالله. وإنما تلقى مواضيعه على الطلاب مع نزعة الحادية مجردة عن عزو ذلك إلى قدرة الله تعالى وجليل صنعه. عدا ما هنالك من مجالات وحريات! تفسد الشاب وتذهب بحيائه الطبيعي، فإذا ذهب الحياء ذهب الايمان معه، وقد جاء في الحديث: «لا إيمان لمن لا حياء له».

* * *

أرأيت رجلاً عليه سيماء الخشوع والخضوع، ترتاح نفسك عند النظر اليه، يُلهمك التقوى ويجعلك تفكر في مصيرك وعاقبتك، ويذكرك الله وتطمئن إليه نفسك. أرأيت كيف يأخذ بمجامع قلبك، فلا يختلج في صدرك عند النظر إليه ما يفسد القلب ويلوث النفس!.

أرأيت رجلاً يخشع قلبه عند سماع ذكر الله تعالى وتدمع عيناه، أرأيت رجلاً غزير الدمعة جوف الليل من خوفه تعالى كيف يؤمن بالآخرة ويراها واضحة لا غبار عليها. أنه أحد أولئك الذين يصفهم علي عليه السلام بقوله: «وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعَّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذَّبون». لذلك ورد في دعاء يقرأ بعد نافلة المغرب: «أللهم أني أعوذ بك من نفس لا تقنع وبطن لا تشبع وعين لا تدمع وقلب لا يخشع وصلاة لا تُرفع وعمل لا ينفع ودعاء لا يُسمع. . . الخ».

كان يأتي بعض الأعراب محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيَّاه: «والله ما هذا الوجه بوجه كذاب». ولقد جربت ذلك في بعض من مَنَّ الله عليهم بتوفيق الهداية. فبعد أن كان وجه أحدهم مكفهراً ذا تقاطيع خاصة لا ترتاح إليها النفوس أصبح بعد التوبة والانابة وضاء يستلهم الناظر منه الخير والطمأنينة.

ولكن نفساً يتطاير منها الشر والشرر والطيش والجور والبغي، نفساً متكبرة متحجرة، تشمئز منها نفسك، إن كانت قد بلغت مرتبة من التقوى.

فلو نظرت إلى وجه هذا الشخص لألفيته وجهاً مكفهراً، حالكاً لا ترتاح النفوس عند النظر إليه. إن نفساً كهذه لا تؤمن بالآخرة ولا تصدق بالبعث، بل ديدنها الاستهزاء بالمقدسات وشعارها التكذيب بآيات الله تعالى.

﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين﴾. (سورة النحل: ٢٢، ٢٣)...

وهكذا لا تؤمن بالآخرة نفوس دَيدَنها الخديعة والمكر والغدر. نفوس تنتهز الفرص لإيقاع الآخرين في المهالك. إن نفوساً كهذه لتفرح عندما تنجح في مكرها وخداعها وتظن أنها قد فتحت جبهة من الجبهات أو جاءت بأمر خطير. وقد فاتها أنها خانت نفسها وأبعدتها عن ساحة القدس. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس منا من ماكر مسلماً». وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس».

أوَ ترى نفساً هذا دَيدنها تؤمن بالحساب والجزاء وتوقن باليوم الآخر. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. ﴿قتل الخراصون[١] الذين هم في غمرة[٢] ساهون يسألون أيانَ يوم الدين؟ يوم هم على النار يُفتنون[٣] ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾. (سورة الذاريات: ١٠ - ١٤).

فقضية التصديق بالبعث ليست قضية عقل ومنطق فحسب، وإنما العقل يحجب الذنوب، فتنكر النفس الملوثة كل ما كان التصديق به أمراً طبيعياً فطرياً. ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾[٤].

ومنطق هذا الانسان إن كان قد لوث نفسه بالذنوب قد يصدق بالله

---

(١) الكذابون.

(٢) غمرة: جهل يغمرهم.

(٣) يفتنون: يعذبون

(٤) سورة الروم: ١٠

واليوم الآخر ويعترف بالمقدسات برهة ضئيلة من الزمن عندما تُملى عليه البراهين. إلا أنه سرعان ما يغلب على النفس المتسافلة شيطانها فيأتي دور الانكار والجحود بقوة وشدة لا مزيد عليها: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾[1].

﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[2].

فقضية التصديق بالبعث هي قضية تقوى ونفس زكية قبل كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾.

وقد أخذ بعض علماء النفس المحدثين يعترف للنفس الانسانية ببعد رابع: وهو الاعتقاد بالله واليوم الآخر بصورة فطرية. وهذا يشبه (الزمان) الذي جعله (آينشتاين) بعداً رابعاً لقياس المسافات الشاسعة ومقدار الكتلة والحجوم في تلك المسافات النائية، عدا الأبعاد الثلاثة. وان العلم الحديث أخذ يقترب مما أملاه الأنبياء عليهم السلام على البشر وما أخبرونا به عما وراء الطبيعة.

* * *

وإني لأتذكر جيداً، أني قرأت ذات يوم خطاب رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعا عشيرته الأقربين:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو: إني لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتنَّ كما تنامون. ولتُبعَثنَّ كما تستيقظون. ولتُحاسُبنَّ بما تعملون، ولتجزون بالاحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وأنها للجنة أبداً أو النار أبداً». على مدرس في إحدى الثانويات، فوضع إصبعه على هذا السطر: (ولتبعثن كما تستيقظون) قائلاً: «إن في قلبي شيئاً

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٥

(٢) سورة النمل: ١٤

من صحة هذا الكلام»! وأظهر أنه غير موقن بالمعاد. فسألت عن عمله، فعلمت أنه اندمج أخيراً في زمرة مَن بعدَّهم الله عن رحمته. ولكن الله تعالى شاء له أن يموت على الايمان. فضاقت أموره وتردَّت صحته، فرجع شيئاً فشيئاً عن غيِّه وطيشه، فصار يؤمن بالبعث: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾[1].

وكم في النكبات من فوائد وعبر ورجوع إلى إصلاح النفس ومعالجتها وأوبها إلى التوبة والانابة. فعن الرسول صلى الله عليه وآله: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل همٍّ فرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب».

وفي حديث آخر: «من تاب قبل أن يغرغر[2] تاب الله عليه». وهذا خير دليل على عظيم لطفه تعالى وفتحه باب التوبة إلى آخر لحظة من حياة الفرد. إلا أن الفرد سوف لا يوفق إلى التوبة إن رانت الذنوب على قلبه وغلبت وطبعت عليه. ﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ (٩/٨٨). والرين أو الدنس إن استولى على القلب فلا يدع مجالاً لرؤية الحق والواقع ومعالجة النقص المتأصل في النفس. فيرى الفرد إذ ذاك الحقائق أساطير وخرافات على حد قوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (٨٣/١٤).

وقال تعالى: ﴿بل قالوا مثلَ ما قال الأولون قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون لقد وُعِدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع وربُّ العرش العظيم؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾[3].

فبالتقوى يعمر القلب ويزول عنه الصدأ ويرتفع حجاب الظلمات، فلا

---

(١) سورة الاعراف : ١٦٧

(٢) غرغر : جاد بنفسه عند الموت

(٣) سورة المؤمنون : ٨٢ ـ ٨٨

يعتبر بآيات الله وما أنزل على رسله إلا المتقون، ﴿إلا من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾. وهو القائل: ﴿وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ (سورة يس: ١٠ ـ ١١).

ولا بأس بذكر هذا الحديث لأهميته، يستفيد منه من مَنَّ الله عليه بتوفيق الطاعة، فأدرك فلسفة الدين، فلسفة قد لا تتفق في جوهرها مع ما عليه كثير من الناس، اليومَ، من معاني الدين. ولكنها تفسير لما ذكر الله تعالى في كتابه المنزل.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان في ما وعظ به لقمان ابنه: يا بُني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا، ولم يبقَ من جمعوا له. وإنما أنت عبد مستأجر. قد أمرت بعمل ووُعدت عليه أجراً. فأوفِ عملك واستوفِ أجلك. ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر، فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها[1] عند سمنها. ولكن إجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جُزَت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر. إخربها ولا تعمرها، فانك لم تؤمر بعمارتها، واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع: شبابك في مَ (فيمَ) أبليته[2] وعمرك فيمَ أفنيته، ومالك مِمَّ اكتسبته وفيمَ أنفقته، فتأهب لذلك وأعدَّ له جواباً. ولا تأس على ما فاتك من الدنيا، فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤها. وكثيرها لا يؤمن بلاؤها، فخذ حذرك وجدَّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، واكمش[3] في فراغك، قبل أن يقصد قصدك[4] ويُقضى قضاؤك ويُحال بينك وبين ما تريده».

ولقد عرفت شخصاً ذرَّف على الستين، كان في ريب من وجود الإمام

---

(١) حتفها : هلاكها.

(٢) الثوب البالي هو الذي استعمل حتى اشرف على الاندراس. ابلى الثوب: صيره بالياً.

(٣) الكمش: السعي، أي أسرع وعجل

(٤) قصدك: نحوك، كناية عن توجه ملك الموت اليه ليقبض روحه أو توجه امراض وبلايا من الله اليه

الثاني عشر: الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه، وانه حي يُرزق، وسيظهر حين يأمره الله تعالى، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وكان يخالجه شك عندما يفكر في كيفية المعاد. وعندما رجعت إلى ما أعلمه من معاملاته السابقة، علمت أن ضعف عقيدته ناتج عما قام به من أعمال غير مرضية عند الله تعالى. إلا أنه، والحمد لله، قام بإصلاح نفسه أخيراً للتكفير عما اجترحت يداه من ذنوب بعزم رصين. ويوشك أن يرجع إلى ما كان عليه في صغره من عقيدة راسخة بحياة الحجة عجل الله تعالى فرجه. وبالمعاد. وذلك بعد تطهير نفسه وجعلها غير مشوبة بالذنوب، فقد جاء في الحديث: «التائب عن الذنب كمن لا ذنبَ له».

* * *

يرى هذا الانسان من الكمال الذي أودعه الله تعالى في خلقه: أن جعل تردُّد[1] صوت الرجل (١١٠) في الثانية وتردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أجمل وألطف من صوت الرجل. فينجذب الرجل اليها وتكون بينهما مودة ورحمة، فيسكن اليها وتسكن اليه[2]. فلا يتصدى الرجل إلى ما حرم الله ودنّسه من فسوق وفجور وشذوذ جنسي يدل على ضعة النفس وتدنسها وتلوثها وبُعدها عن الكمال كل البعد فيتسافل إلى أسفل سافلين وبئس المصير. فكل ما حرم الله تعالى إنما هو في ذاته ملوِّث، دنس يضاد الكمال وطهارة النفس، فقد جاء في الحديث: «من قبَّل غلاماً بشهوة ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». ولذلك يقول الله تعالى لردع الناس عن الشذوذ ومنعهم عما يضاد طهارة النفس ويؤدي إلى التسافل وإلى شذوذ جنسي:

﴿وأتوهنَّ من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب

---

(١) التردد في الثانية: هو عدد اهتزازات الجسم الصائت او (المهتز)، أو عدد ذبذباته الكاملة في ثانية واحدة. كما نشاهد ذلك في الشوكة الرنانة.

(٢) «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون». (سورة الروم: ٢٠).

المتطهرين﴾. فمنع الله تعالى بكلمة (المتطهرين) عن كل شذوذ وكل ما يخالف الذوق السليم الطاهر ويخالف سنة الكمال الذي يريده الله لعباده ولجميع ما خلق. وأيد ذلك تحقيقاً للكمال الانساني وتوضيحاً لقوله: ﴿من حيث أمركم الله﴾ بقوله: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾. فنهى الله بقوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ عن كل شذوذ يخالف تحقيق مفهوم (الحرث)، وحذر الأزواج عن هذا الشذوذ المقيت، المحرم مع نسائهم بقوله تعالى: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾. وبقوله: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ كي لا يتسافل هذا الانسان بتدنيس نفسه وتلويث فراشه، فيتعدى حدود التكامل الذي أراده الله لعباده في هذه الدنيا. وكذا الحال في كل ما نهى عنه الله تعالى في محكم كتابه الكريم. فروح الاسلام هي التكامل والكمال في جميع مرافق الحياة: من اجتماعية وفردية وغيرهما. هذا ما نلاحظه في كتابنا المقدس القرآن العظيم الذي ﴿فيه تبيان لكل شيء﴾ وهو القائل: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[1]. (سورة الأنعام: ٣٩).

* * *

إن التكامل غاية الغايات في هذا الكون[2]. فمن أيقن به علم أنه لا بد وأن تكون وراء هذه الحياة القلقة (المضطربة) حياة طمأنينة ودِعة وهدوء وسرور، وأن وراء هذه الحياة الناقصة حياة كاملة، بكل ما في الكمال من معنى، ليس لهذا الانسان أن يتصور مداه ما دام في هذه الدنيا.

لذلك يخبرنا الله تعالى عن حتمية يوم البعث في هذه الآية التي تدل على ما أودع الله من تكامل تدريجي عجيب في كل جزء من أجزاء هذا الكون، لا سيما تشكلات الجنين الذي هو معجزة الله في أرضه من معاجز لا تتناهى.

---

(١) ما فرطنا: ما تركنا من شيء.

(٢) قال رسول الله (ص) مخاطباً علياً (ع): يا علي، اربع من يكن فيه فقد كمل اسلامه: الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق.

أنه تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة[1] وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يُحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث مَن في القبور﴾[2].

فطوبى لنفوس تُدرك الكمالَ المودع في هذا الكون وكيف أن الله أحاط الجنين بظلمات ثلاث، أي بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء والضوء والحرارة[3] وذلك بقوله: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾[4]. ان نفوساً كهـذه تنزه الله تعـالى عن كل نقص وتسبِّحه ليلَ نهار، لا سيما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب:

﴿وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾[5]. ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾[6].

وذلك لأن التسبيح يوحي أن الله تعالى منزه عن كل نقص وعن كل عيب وأنه في غاية الكمال وما يصدر عنه أيضاً في غاية الكمال، فمعنى (سبحان الله) أي أن الله منزه عن كل نقص وعيب وهو في غاية الكمال، وما يصدر عنه كامل لا نقص فيه. فتكامل هذه الحياة الدنيوية بالحيـاة

---

(١) مصورة تامة الخلق

(٢) سورة الحج: ٤

(٣) وهذا ما توصل اليه اخيراً العلم الحديث: وتسمى الاغشية المذكورة باسم: المنبارية والآمنيونية والخوربونية.

(٤) سورة الزمر : ٦

(٥) سورة ق : ٣٩

(٦) سورة طه : ١٣١

الأخروية الدائمة السعيدة. ولذلك كانت التسبيحات الأربعة: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر) في الركعتين الأخيرتين من صلاتي الظهر والعصر وصلاة العشاء أفضل من تلاوة سورة الفاتحة.

* * *

ثم إن البعض يستبعدون إمكان البعث، بعد أن تبلى الأجساد من الناحية المادية. حين أن الله تعالى قد خلق في هذا الكون مقادير هائلة من الايدروجين والأوكسيجين والكاربون والكلس والحديد إلى ما هنالك من عناصر لتكوين القسم المادي من البدن الانساني وخلق طاقات بمقادير لا تحد. فباستطاعة الله تعالى أن يُرجع لكل انسان بدنه المكون من نفس العناصر فلا فرق بين عنصر وعنصر وبين ايدروجين وايدروجين آخر. وبين حديد وحديد آخر. فيكوِّن الله تعالى مما خلق أو ما يريد خلقه بمقدار لا يتناهى من حديد وايدروجين وعناصر أخرى الأجسام أو الأبدان التي كانت الأرواح تحل فيها وتسيطر عليها لمحاسبتها يوم البعث. ولا يُحاسب إلاالروح. أما البدن فيعذَّب إن كانت الروح التي تحل فيه عاصية لله. فتشعر الروح بهذا العذاب. ومما لا مراء فيه أن عمليات الهدم والبناء في الكيان العضوي لا تدع مجالاً لبقاء عضو محافظاً على نفس الخلايا والأنسجة، ذلك لأن الخلايا والأنسجة تتجدد وتتبدل من حين إلى آخر فلا يبقى البدن الانساني على ما هو عليه من حيث العناصر أو الخلايا والأنسجة. أي أن الخلايا والأنسجة بما فيها من عناصر تتبدل من حين إلى آخر.

يقول الله تعالى في (سورة المؤمن: ١٢): ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين﴾. أي من خلاصة سلَّت من بين الكدر ومن خلاصة أخذت من الطين. ومعنى ذلك أن الانسان إنما خلق من مجموعة عناصر شتى: (كاربون، أوكسيجين، ايدروجين، فوسفور، كبريت، آزوت، كالسيوم، بوتاسيوم، صوديوم، كلور، مغنيسيوم، حديد، مانغانيز (منكانز) نحاس، يود (أيود)، فلورين، كوبالت، التوتيا: (Zinc)، سلكون، المنيوم. وان هذه العناصر هي العناصر المكوِّنة للتراب.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿خلق الانسان من صَلصال كالفخار﴾ والصلصال هو الطين اليابس. والطين هو التراب الذي أضيف اليه الماء وفي آية أخرى: ﴿من صلصال من حماء مسنون﴾.

ولا شك أن اتحاد الحيوان المنوي، الذي يفرزه الذكر، بالبويضة، التي تفرزه الأنثى، هو الذي يكوِّن نطفة الانسان. أي أن نُطفة الانسان تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي (من الذكر) بالبويضة (من الأنثى). والحيوان المنوي والبويضة كلاهما يتولدان من الدم، والدم يتولد من الغذاء الذي يتناوله الانسان، وهذا الغذاء اما نبات أو حيوان أو ماء. وكلها متكونة من عناصر التراب. أي من (ايدروجين، فوسفور، كبريت، سلكون. . . الخ). إذن قد خُلق الانسان من تراب. ذلك لأن ما في بدن الانسان من عناصر شتى (تلك التي ذكرناها) كلها موجودة في التراب. وهكذا أثبت العلم الحديث أن الانسان مخلوق من تراب على ما جاء في كتاب ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. وهذه إحدى معجزات القرآن الكريم.

وهو القائل: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[١]. وفي آية أخرى: ﴿أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. وليس للعلم الحديث أن يتوصل إلى أن قول الله تعالى (كن) كيف يؤدي إلى وجود موجودات شتى وكيف قوله: (كُن) أوجد التراب بعد مراحل شتى، أرادها الله تعالى عند قوله: (كن) أي أراد الله تعالى أن تتحقق كل هذه المراحلِ فيتكون إذ ذاك هذا التراب. ثم كيف قول الله تعالى للتراب أو للطين:. (كُن)، أوجد هذا الانسان بروحه وعقله الجبار: ﴿ما أشهدتُهم خلقَ السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[٢]. (سورة الكهف: ٥٠).

---

(١) سورة الروم : ١٩

(٢) يرى العلم الحديث ان الكون بدأ من سديم : بدأ من ضباب رقيق ، من غاز وتراب وعفر. وتجاذبت جزيئاته وتجاذبت حباته بحكم قانون الجاذبية العام ، فتقاربت وهي من بعد تقارب تكتلت والتكتل انضغاط والانضغاط حرارة. وحسب رأي العالم =

ذلك لأن العلم الحديث، لا يتجاوز حدود المحسوسات، وأنى له أن يتعرف إلى ما وراء الطبيعة وإلى حقيقة الروح وكيفية خلقها من جانب الله تعالى وكذلك العقل. وما معنى التحليل العلمي في أمور تتعلق بما وراء المادة والطبيعة، ذلك لأن العلم الذي يُستند إليه في التحليلات العلمية إنما هو علم مادي ناقص، فلا يمكن تحليل القضايا غير المادية على ضوء العلم المادي الناقص! كما أن ما وصل اليه العلم الحديث في بعض الأمور النفسية إنما هو مظاهر وآثار لا ربط لها بحقيقة النفس وعوالم الأرواح وما وراء الطبيعة، وهو مع ذلك في آخر درجة من النقص! فلا معنى إذن لاستعمال كلمة: (التحليل العلمي) بالنسبة إلى ما هو مما وراء الطبيعة، إن كان يراد بهذا العلم: العلم المادي، أو العلم بظواهر المادة وظواهر الحوادث المادية من فيزيائية وكيميائية.

وزيادة في التوضيح نقول: إن العلم الحديث لا يزال عاجزاً عن التعرف إلى حقيقة الجاذبية وهي ظاهرة يعترف بها وبقوانينها ودساتيرها: (دستور اسحاق نيوتن، دساتير آينشتاين المعدلة لدستور نيوتون... الخ)... وهكذا نرى ليس للعلم الحديث أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة ويعطي رأياً صحيحاً عنه، وهو يعترف بالعجز عن التعرف إلى ما هو غير مادي وحتى إلى حقيقة المادة أو حقيقة العناصر: كالآزوت والايدروجين...

الفلكي السويدي: (هانس) ان المجالات المغناطيسية لعبت دوراً هاماً في تكتل السدم. وقد تأينت العناصر في هذه السدم وتحركت في المجالات المغناطيسية، فنجم عنها الحركة الميكانيكية التي هي أساس التكتل والتشكل وصياغة المجاميع الشمسية. وقد انتهى في تحقيقه وبحثه ان: تكون الكواكب لأغلب الشموس. هو الحال السوي الطبيعي لها. وقال: «ان الحساب يشير الى ان نجماً بحجم شمسنا يكون له كواكب، ثالثها يكون بمثل حجم الأرض، ومكوناً من مثل عناصرها، وعلى حال كحالها». ومعلوم ان الارض ثالث كواكب الشمس، «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» (سورة الملك :) والكواكب كلها تدور حول نفسها وكذا الشمس، وكلها تدور حول نفسها في اتجاه واحد من الغرب الى الشرق!.

فالحديد مثلاً مؤلف من ذرات وكل ذرة مكوَّنة من الكترونات وبروتونات ونيوترونات، والعلم الحديث يعترف بعجزه عن بيان حقيقة الالكترون وماهيته وكذا عن حقيقة البروتون وحقيقة النيوترون وكلها قوى وليست من المادة في شيء.

فإذن: العلم الحديث عاجز عن أن يُبدي رأياً صحيحاً عن حقيقة المادة!؟

فالماديون يتمسكون بشيء هم عاجزون عن التعرف اليه وتفهم حقيقته: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾. (سورة النجم: ٢١).

* * *

ثم ان الله تعالى يُنطق يومَ القيامة هذه الأعضاء من: لسان ويد ورجل! وهي هي دونما فرق. لأن الكاربون الذي يشكل البدن هو نفس الكاربون الذي كان يشكل بدن هذا الانسان وهو في عالم الدنيا. وهكذا بالنسبة إلى بقية العناصر التي كان يتكون منها البدن الانساني: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ (سورة النور: ٢٥).

﴿ويوم يُحشر أعداءُ الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾. (سورة فصلت: ١٩ ـ ٢١).

والدليل على عدم بقاء نفس هذه العناصر المؤلفة للبدن الانساني قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً﴾. (سورة النساء: ٦٠).

ويقول الله تعالى رداً على أولئك الفلاسفة الجهلاء الذين كانوا يرون

إعادة الأبدان مستحيلاً يومَ البعث بعد البلى والاندثار: ﴿أفعيينا بـالخلق الأول[1] بل هم في لَبس من خلق جديد﴾[2]. (سورة ق: ١٥).

* * *

وأرى من المناسب أن أذكر هنا فضيلة صلاة علَّمها رسول الله (ص) جعفراً الطيار (رض). فهي صلاة لها تأثيراتها العجيبة في النفوس من حيث الاعتقاد بالمعاد وبكل ما يؤدي إلى تكامل هذا الانسان. وأوصي كل من يشك في عوالم الآخـرة: من سؤال منكر ونكيـر والبعث وتطايـر الكتب والميزان والصراط... الخ أن يواظب عليها، لا سيما يومَ الجمعة قبل الزوال. فإنها العلاج الوحيد لقمع الشكوك والأوهام أو بالأحـرى: لطرد الشيطان ووساوسه وشركه وحبائله، ولحصول اليقين بيوم الجزاء وبكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فليجرب من شاء. فإن التجربة سند العلوم الحديثة والأساس الذي تبتني عليه المكتشفات. فليجرب من شاء وليعلن نتيجة تجربته كي يقتفي به الآخرون، فيكونوا من الناجين[3]، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى

---

(١) أي: عجزنا من ان نخلق الاشياء من العدم، ذلك لأن المخلوقات كلها انما خلقت من جانب الله تعالى لا من شيء سابق بل من العدم وبقوله تعالى: كن. وقد قال علي (ع) عند وصفه كيفية خلق الله الخلق: «الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه». وقال ايضا: «أنشأ الخلق انشاء وابتداه ابتداء بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها». وقال عليه السلام في صفة خلق آدم عليه السلام: «ثم جمع سبحانه من حزن الارض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت.. الخ».

(٢) اي بل هم في شك من ان نخلق من جديد ما بلى واندثر وهذا دليل الى ان البدن يخلق عند البعث من جديد.

(٣) في ما اوصى النبي (ص) علياً (ع): يا علي، ثلاث موبقات، وثلاث منجيات. فأما الموبقات: فهوى متبع وشح مطاع واعجاب المرء بنفسه. واما المنجيات: فالعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخوف الله في السرّ والعلانية كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك». (القصد: نقيض الافراط: اي الاعتدال).

الله بقلب سليم﴾. ﴿يومَ تشخص[1] فيه الأبصار مهطعين[2] مقنعي[3] رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم[4] وأفئدتهم هواء[5]﴾.

تسمى صلاة جعفر الطيار رضي الله عنه بصلاة التسبيح. وهي من المستحبات المؤكدة. فعن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر، ألا أمنحك، ألا أعطيك، ألا أحبوك. فقال جعفر: بلى يا رسول الله. قال: فظن الناس أنه يعطيه ذهباً وفضة. فتشوق الناس لذلك. فقال له: «أني أعطيك شيئاً إن أنت صنعته كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها. فإن صنعته بين يومين غفر لك ما بينهما أو كل جمعة أو كل شهر أو كل ستة أشهر غفر لك ما بينهما».

وهي أربع ركعات بتسليمتين. أي كأنه يصلي صلاة الصبح مرتين: كل ركعتين بسلام.

ينوي قائلاً في خَلَده: أصلي ركعتين قربة إلى الله تعالى. يقرء في الركعة الأولى سورة الفاتحة (الحمد) وسورة أخرى والأفضل أن يقرأ في الركعة الأول بعد الحمد سورة (إذا زلزلت الأرض زلزالها)، وبعد الانتهاء من السورة يقول: ١٥ مرة، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر».

ثم يركع ويقول هذه التسبيحات: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر» عشر مرات.

ثم يرفع رأسه من الركوع ويقول نفس التسبيحات وهو واقف: ١٠ مرات.

ثم يسجد السجدة الأولى ويقولها ١٠ مرات.

---

(١) لهول ما ترى. يقال : شخص بصر فلان ، أي فتحه فلم يغمضه.
(٢) مهطعين : مسرعين .
(٣) مقنعي : أي رافعي
(٤) طرفهم : بصرهم
(٥) سورة الحجر: ٤٥

ثم يجلس بين السجدتين ويقول التسبيحات نفسها: ١٠ مرات.
ثم يسجد للسجدة الثانية ويقولها ١٠ مرات.
ثم يرفع رأسه من السجدة الثانية ويقولها وهو جالس: ١٠ مرات.
يكون مجموع التسبيحات في الركعة الأولى: ٧٥ مرة وهكذا في الركعة الثانية، وهكذا في الركعة الأولى من الصلاة الثانية، وهكذا في الركعة الثانية من الصلاة الثانية. فيكون مجموع التسبيحات في الركعات الأربع: ٤ × ٧٥ = ٣٠٠ تسبيحة.

ويفضل أن يقرأ في الركعة الثانية (من الصلاة الأولى) بعد الحمد سورة (العاديات).

وبعد الانتهاء من الصلاة الأولى يقوم ينوي كما نوى أولاً للصلاة الثانية: (أصلي ركعتين قربة إلى الله تعالى). ويعمل كما عمل في الصلاة الأولى. إلا أن ها هنا يفضل أن يقرأ في الركعة الأولى، بعد الحمد، سورة النصر (إذا جاء نصر الله والفتح) وفي الركعة الثانية، بعد الحمد، سورة الاخلاص: (قل هو الله أحد).

ويستحب أن يقول في السجدة الأخيرة (أي في السجدة الثانية من الركعة الأخيرة (أي الركعة الرابعة):

«سبحان مَن لبس العزَّ والوقار، سبحان من تعطَّف بالمجد وتكرَّم به، سبحانَ من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان مَن أحصى كل شيء علمه. سبحانَ ذي المنِّ والنعم، سبحان ذي القدرة والكرم. أللهم أني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة التي تمت صدقاً وعدلاً أن تصلي على محمد وأهل بيته وأن تفعل بي كذا وكذا... ويذكر حاجاته». فإذا انتهى من صلاته يستحب أن يقرأ هذا الدعاء:

«أللهم إني أسألك توفيقَ أهل الهدى، وأعمالَ أهل التقى، ومناصحة أهل التوبة، وعزمَ أهل الصبر، وحذرَ أهل الخشية، وطلبَ أهل الرَّغبة وعرفانَ أهل العلم، وفقه أهل الورع، حتى أخافك اللهمّ مخافةً تحجزني

عن معاصيك، وحتى أعمل بطاعتك عملاً استحق بـه كرامتـك، وحتى أناصحك في التوبة خوفاً منك، وحتى أخلص لك في النصيحة حباً لك، وحتى أتوكل عليك في الأمور كلها بحسن ظني بك».

سبحان خالق النور. سبحان الله وبحمده.

أللهم صلِّ على محمد وأهله وتفضل عليَّ في أموري كلها بما لا يملكه غيرك ولا يقف عليه سواك. واسمع ندائي وأجب دعائي واجعله من شأنك. فانه عليك يسير وهو عندي عظيم، يا أرحم الراحمين».

وروى لنا مفضل بن عمر أنه رأى ذات يوم الامام الصادق عليه السلام يصلي هذه الصلاة، فبعد أن أتم صلاته رفع يديه فقال: (يا ربِّ، يا رب) حتى انقطع نفسه، ثم قال: (يا رباه، يا رباه) حتى انقطع نفسه. وهكذا: (ربِّ، ربِّ)، (يا الله، يا الله) (يا حيُّ، يا حي) [يا رحيم، يا رحيم] حتى انقطع نفسه، ثم قال: (يا رحمان) سبع مرات، ثم قال (يا أرحم الراحمين) سبع مرات. ثم قال: «أللهم أني أفتتح القول بحمدك، وانطق بالثناء عليك وأمجدك ولا غاية لمدحك. وأثني عليك، ومَن يبلغ غـاية ثنـائك وأمـد مجدك، وأنى لخليقتك كنه معرفـة مجدك، وأي زمن لم تكن ممـدوحاً بفضلك، موصوفاً بمجدك، عواداً على المذنبين بحلمك. تخلَّف سكان أرضك عن طاعتك، فكنت عليهم عطوفاً بجودك، جواداً بفضلك، عوَّاداً بكرمك، يا لا إله إلا أنت المنان، ذو الجلال والاكرام».

يروي لنا المفضل: أن الصادق عليه السلام بعد أن انتهى من الدعاء، قال لي يا مفضل، إن كانت لك حاجة، صلِّ صلاة جعفر وادع الله بهذا الدعاء وسل منه قضاء حاجتك، فانها تُقضى إن شاء الله.

ويجوز الفصل بين الصلاتين إذا أعسرته حاجة، فانه يصلي ركعتين ويقضي حاجته، ثم يصلي ركعتين أخريين.

ويجوز تأخير التسبيحات إلى ما بعد الصلاة مع الاستعجال. أي يصلي الأربع ركعات ثم يسبِّح.

ولو سَها عن بعض التسبيحات أو كلها ولم يأت بها في محلها أتى بها في محل آخر مضافاً إلى وظيفته، وإن ذكر بعد الصلاة قضاها بعدها.

* * *

إن الأنبياء عليهم السلام كلهم أخبرونا عن الله تعالى: أن هناك عالماً آخر بعد الموت. وأن الناس يحشرون جميعاً يوم القيامة، فيؤخذ بالمحسن إلى الجنة وبالمسيء إلى النار. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد ذلك. منها: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾[1]. ومنها: ﴿أوَ ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾[2]. ومنها: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[3].

فإذا ثبتت نبوة الأنبياء بمعاجزهم وصحة دساتيرهم وتعاليمهم ومطابقتها مع العقل السليم ثبتت صحة ما أخبرونا به ومنه المعاد.

* * *

وفي الآيات ما يدل دلالة واضحة على وقوع المعاد الجسماني، أي أن الناس يُحشرون بأجسادهم وبأرواحهم. منها قوله تعالى: ﴿أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوِّي بنانه﴾. وإنما خص البنان دون سائر الأعضاء لدقة هناك ولاختلاف ما على البنان من خطوط ونقوش على عدد الناس: «سبحانه وتعالى عما يشركون».

ومنها قوله تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لِم شهدتم علينا﴾. ومنها: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾.

وأما ما قاله بعض القدماء من الفلاسفة من أن المعاد لا يقع جسمانياً وإنما هو روحاني بحت، فذلك لمحدودية ما كان لديهم من معلومات عن

---

(١) سورة الكهف : ٤٦

(٢) سورة يس : ٨١

(٣) سورة الروم: ٢٧

الكون المادي والقوى المسيطرة باذن الله على هذا الكون، وقياس الأمور على ما كانوا يرونه في حياتهم من ممكنات. ولو كانوا أحياء في مثل هذا العصر، عصر الذرَّة والمعادلات التفاضلية، عصر النظرية النسبية والنظائر المشعة، لعلموا أن آفاق العلم لا تحد وما يراه الانسان في عالم الممكنات مستحيلاً في وقت، يراه ممكناً بعد تقدم البشر في التعرف إلى بعض مظاهر الكون وما أودع الله فيه من نظم وخواص وقوانين تبهر العقول.

﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

* * *

ثم إن الانسان ليرى أن هناك ثلة من الناس بالغوا في الظلم والطغيان حتى أنهم أنكروا وجود الله جل جلاله، وان الله لم ينتقم منهم في دنياهم ولم يقتصَّ للمظلوم من الظالم، فيحكم، لعلمه بعدالة الله تعالى: أن هناك عالماً آخر يُكافأ فيه المحسن ويُعاقب فيه الظالم.

* * *

إن للكبر أثراً عجيباً في ردع الانسان عن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر. إن الله تعالى يقول: ﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون أنه لا يحب المستكبرين وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم[2] كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾[3].

فالنفس المتحجرة المتكبرة لا تخشع ولا تخاف عقاب الله تعالى،

---

(١) سورة الرعد: ٥

(٢) الوزر: الأثم، الحمل الثقيل. يزرون يحملون

(٣) سورة النحل: ٢٥

فتعصى الله تبارك وتعالى في أرضه. فيقسو القلب نتيجة ذلك الانكار والاستهزاء بما أنزل الله من آيات فتتصورها أسطورة وخُرافة ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ وإن هؤلاء بفعالياتهم السلبية يضلون كثيراً من الناس دون سند علمي: «بغيرعلم» فيحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم.

لذلك يسأل أبو عبد الله عليه السلام عن أدنى الالحاد؟ فيجيب (ع): «إن الكبر أدناه».

وعنه سلام الله عليه: «إن المتكبرين يجعلون في صور الذرِّ، يتوطَّأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب».

إن المتكبر يعزو جميع المواهب والقابليات إلى نفسه، وهكذا كل ما يتفضل الله عليه من نعم لا تعد ولا تحصى. وهذا جحود وكفر. والكافر مطرود عن ساحة القدس. مبعد إلى حيث يستحق من الدرك الأسفل من النار.

إن الظلم وما يتبعه من كبرياء يسدَّان على البشر أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1].

وهكذا أثر الغش في إبعاد البشر عن الايمان بيوم المعاد. ﴿ويومَ يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ (سورة الأحقاف: ٢٠).

إن هؤلاء المتكبرين[2] يصمون معطيات العقل السليم بالخرافة. والمنطق بالقدم. ويزعمون أن المنطق البشري قابل للتغيير: فالشيء يكون صحيحاً وخطأً في وقت واحد، ويجتمع الضدان في وقت واحد وفي صقع واحد إلى ما هنالك من خرافات بل جنون ما أنزل الله بها من سلطان. ويعدون هذا منطقاً جديداً! وأما المنطق الفطري: هذا المنطق الذي كان هو

---

(١) سورة الاحقاف : ١٠

(٢) واعني بهم : الشيوعيين

الأساس في ما اكتشفه البشر من مكتشفات منذ تدوينه علوماً شتى، أي منذ ٢٥٠٠ سنة حتى اليوم، فهو في نظرهم منطق شكلي! يا لها من مغالطة خادعة! تخدع السُذَّج والقلوب المريضة وذوي العاهات. انهم يخدعون السُذج بكلمة: جديد!... تقدم!... وكلمة: قديم!... بالٍ، خرافة، رجعية!... تأخر...

ولولا ما دوَّنه اليونانيون ومن بعدهم المسلمون من رياضيات وطبيعيات وطب وعلوم أخرى، استناداً على المنطق الطبيعي. (هذا المنطق الذي يموِّه فيه الشيوعي الواقع والحق فيسميه منطقاً شكلياً)، لما وجد هذا الصاروخ الذي يتشدق به خطيب من خطبائهم حُرم موهبة التفكير الرياضي والتحقيق العلمي، لما في نفسه من كبر وغرور.

وقال موسى: «أني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب». (سورة المؤمن: ٢٩). وفي آية أخرى: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾. (سورة المؤمن: ٣٨).

أسفاً لنفوس تلوثت بشتى الجرائم. فوجدت الشيوعية وكراً تستتر تحتها مما حل بها من نقص وضعة في النفس. أسفاً لنفوس أمست محجوبة عن رؤية الحق والواقع ومطرودة عن مقامات القدس لما اجترحت من موبقات ومنكرات، فصارت تتشدق مستكبرة، مترنمة بكلمة: تقدم، ثقافة. كأن من لوازم الثقافة والتقدم الانحلال الخلقي، والتسافل، والتفكك في كل مقياس وإنكار الفضائل وبالتالي إنكار المعاد!.

لم تفد هؤلاء ما مَنَّ الله عليهم من سمع وبصر وقلب، لأنها أمست لجرائم لا تعد محجوبة عن التطلع إلى ما وراء المادة الصماء. فهم ومع الأسف مصداق هذه الآية المباركة: ﴿ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[1].

---

(١) سورة الاحقاف: ٢٦

إن الله تعالى جلَّ أن يظلم أحداً. وإنما يصل الفرد إلى نتيجة عمله: إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وفي الحديث: «إنما أعمالكم تَردُ عليكم». وقد قال الله تعالى: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾[1].

وقد جاء في الحديث أيضاً: «من لقي الناس بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من قفاه وآخر من قدامه يلتبهان ناراً». وفي حديث آخر: «من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار». وفي آخر أيضاً: «إن في الجنة غرفاً يسكنها من أطاب الكلام وأطعم الطعام وأفشى السلام».

إذن، فطريق الجنة: العمل الصالح مع عبادة مقبولة. وطريق النار هو الفسق والكذب والنميمة والغيبة وترك العبادة وما إلى ذلك.

* * *

إن العوالم القدسية ثابتة منذ الأزل، ولا تتبدل حسب الأهواء: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾. ﴿وإن تطع اكثر مَن في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله﴾. ﴿الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين﴾. نعم جل ما عند هؤلاء: كلمات فارغة لا يستطيعون تحديدها تحديداً علمياً، لا شائبة فيه: الرجعية، أساطير، خرافة، قديم، بالٍ، أفيون الشعوب، إلى ما هنالك من كلمات مسلِّية!.

فالصدق عند هؤلاء أسطورة. والفضيلة خرافة والاعتقاد بما وراء الطبيعة رجعية، والصلاة تناقض المادية! إلى ما هنالك مما يخالف المنطق السليم الذي نجده في قلب سليم. نجده في نفس فيها شيء من الحياء والتواضع والاذعان للحق وفيها شيء من الفضيلة ومرتبة من السمو. أنه تعالى يقول: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

ولقد تتبعت هؤلاء المهوِّسين، الذين لا يركنون في أهوائهم إلى ركن ركين، تتبَّعتهم فألفيتهم منفلتين عن الفضائل، منغمرين في أنواع الرذائل:

---

(١) سورة الاحقاف: ٣٥

فأمسوا لا يرون ما هم عليه من كثرة النقائص والمفاسد، فهم حقاً من ذوي العاهات! ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[1].

انهم عما قريب مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرَّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾.

فلكل نفس رشحات تتناسب مع درجة كمالها، ومرتبة تسافلها، فتكون فلسفتها في الحياة وفيما بعد الممات تابعة لهذه الدرجة وتلك المرتبة: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. هذه حقيقة الحقائق، حقيقة ما بعدها حقيقة، تنكرها النفس المتسافلة وتسلِّم بها النفس المتكاملة.

فالذي كان دأبه الإفك والاثم وسوء الخلق وجرح الخواطر وإيذاء الناس والكذب، تكون عاقبة أمره: إنكار آيات الله تعالى والاستهزاء بما أمر الله، على حد قوله تعالى: ﴿ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ماكسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم﴾[2]. أفَّاك = كذاب).

* * *

إن الشيطان ليعقب أولئك الذين لم يطهروا أنفسهم تطهيراً كاملاً قبل نفاد عمرهم إلى آخر ساعة من حياتهم فهو لهم بالمرصاد. فقد قال أبو عبد اللهعليه السلام: «ما من أحد يحضره الموت إلا وكل به ابليس من شياطينه مَن يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه. فمن كان مؤمناً لا يقدر عليه. فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حتى يموتوا».

---

(١) سورة الحشر: ١٩

(٢) سورة الجاثية: ٧ ـ ١٠

ومما يؤثر كثيراً في أن يوفق الشخص للاقرار بالشهادتين المواظبة على الصلوات الخمس باخلاص عند مواقيتها كما جاء في مفاد حديث. فـ«الناس هَلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم... الحديث».

قد ذكر لي أحدهم: أنه كان عند صديق له عندما حضرته الوفاة، وكان صديقه هذا ممن يصلي ويصوم ويؤدي ما في ماله من حقوق، ويتقي الله في أموره، وكان عنده ساعة موته أصدقاؤه الآخرون. فلُقن شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن علياً ولي الله، فلم ينطق بها وأبى، وأخذ يبصق. ولكن الله تعالى لم يشأ أن يموت الرجل على هذه الحالة، فعادت بإذن الله، اليه روحه، فصحته. وسئل بعد ذلك عن عدم إقراره بالشهادة، فأجاب: «أني كنت أسمع ما القن بـه من شهادة... ولكني أمسيتُ في تلك الآونة عطشاناً إلى حدٍّ لا يُطاق. فقرَّب الي شخص قدحاً مملوءاً ماءاً، وأخذ يقول لي: لا تقرَّ بالشهادة، كي أرويك من هذا الماء. فصرت أبصق في القدح كي لا أستسيغه. وأشكر الله على إنجائه إياي من ذلك الموقف الحرج».

وهكذا حصل لرجل آخر حينما حضرته الوفاة. فأبى الاقرار بالشهادتين وصار يرمق ببصره إلى رف في غرفته فيه اناء مرصع. ثم رُدَّت بإذن الله اليه روحه، وسئل عن عدم اقراره بالشهادتين، فقال: «أني كنت شديد العلاقة بالاناء المرصع، ورأيت شخصاً[1] رافعاً الاناء وهو يقول لي: إياك أن تقر بالشهادتين. فإني سأرمي به على الأرض إن أنت أقررت بهما. ولذلك ترددت في الاقرار رغبة في ذلك الاناء المرصع، وأشكر الله على إنقاذه إياي».

وفي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». فطوبى لنفوس تهيأت

(١) انه الشيطان، يرافق الانسان الى آخر لحظة من حياته.

ليوم: ﴿يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولاً﴾[1]، فلم يقو الشيطان على اغوائها حين خروج الروح.

وقد جاء في أخبار آل محمد عليهم السلام: «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين غضّت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله». وفي خبر آخر، في ما أوصى به النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام: يا علي، كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله».

وفي الكافي: «إذا قبضت الروح فهي مُظلَّة على الجسد».

* * *

ولا بأس بذكر هذه الحادثة، فهي مفاد الحديث المتقدم. يقال: ان أحد العظماء صاحب المؤلفات العظيمة والخدمات المشكورة تعاهد مع أحد أصدقائه: أن يأتي كل من مات قبلاً إلى حلم (طيف) صديقه، ليخبره عما شاهده حين موته وبعد الموت. وقد مات هذا العالم الكبير قبلاً، فلم يَرَه صديقه في منامه حتى مضت سنة كاملة. عند ذلك رآه في حلمه. فعاتبه على تأخره هذه المدة. فأجاب قائلاً: «علامَ تعاتبني يا أخي، كنت مشغولاً بالحساب، أحاسب حساباً دقيقاً عسيراً». فأجابه صديقه: «أوَ تحاسب أنت، مع ما لك من خدمات جمة». فأجاب قائلاً: «كلها لم تفدني».

ثم قال: «عندما حضرتني الوفاة، جاءني ملك الموت، فمسح على رجليَّ فذهب ما بهما من وجع، وهكذا بقية أعضاء بدني، فخرجت روحي وصارت تُشرف وتُطل على البدن. وأهلي يبكون. فصرت أقول لهم: ما لكم تبكون، وقد ذهب عني ما كان بي من ألم. ثم أمرت بتعقيب البدن، فصرت أتبع بدني حتى واروني في رمسي. فبدأ السؤال، وصار الملكان

---

(١) سورة المزمل: ١٧، (يوم يجعل الولدان شيباً: اي كيف تدفعون شر يوم تشيب لهوله الولدان، تنشق فيه السماء، ويتحقق وعد الله).

يستنطقانني، فأجبت بلطفه تعالى عما سألا. ثم بدأ الحساب، وأيَّ حساب!.

فصرت أشرح ما قمت به من أعمال، قلت: ألفت كتاباً ضخماً، وموسوعة إسلامية. فقيل لي: إنك فرحت وسُررت عندما مدحوك لأجل ذلك المؤلَّف الضخم ومؤلفاتك الأخرى، فذاك جزاؤك... إلى ما هنالك. فأوشكت أن أقنط، فقيل لي، قد أدخرنا لك عملين كانا لوجه الله تعالى لا شائبة فيهما:

إنك عندما ذهبت لمقابلة الملك، استقبلك رجال الملك، وأخذت الشرطة تنحي الناس بعنف، فقلت إذ ذاك، إن كان هذا لي، فأني لا أرضى بذلك، ورفضت الاستقبال.

ثم ان الملك قدم لك تفاحة في غير موسمها. خرجت من عند الملك، فبينما أنت سائر في طريقك وإذا بولد يتيم صار ينظر إلى تلك التفاحة، فدفعتها إليه لوجه الله[1]. فهذان عملان لك، لم تقم بهما إلا لوجه الله، قد أدَّخرناهما لك، تدخل بهما الجنة».

يقول عدد من الفيزياويين المحدثين: «إن هنالك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، إن العالم الآخر وحدة روحية أو عقلية وما المادة سوى مظهر من مظاهرها، ان العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وان المادة هي من مخلوقات العقل!؟». وصاروا يعلنون هذا الرأي بنفس القوة التي أعلن فيها أسلافهم الماديون قبل ٥٠ سنة، وذلك: أن المادة وحدها هي الشيء الحقيقي، وان العقل ما هو إلا انبعاث طفيف من انبعاثات المادة!!.».

ويظهر بعد هذا الاعتراف من علماء الفيزياء مع ما فيه من جوانب ضعيفة وخاطئة، أنهم سوف يؤمنون يوماً ما بالبعث والمعاد، كما اعترف

---

(١) «وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى». (سورة الليل: ٢٠ ـ ٢٢)

الكثير منهم بخلود الروح وأنها لا تفنى بعد تفسخ المادة. ولقد أصبحت دراسة الروح والنفس موضوعاً هاماً مرموقاً في جامعات العالم. وأخذ العالم يلفظ رويداً رويداً الفكرة المادية الخاطئة معترفاً بالروح وخلودها، وأن المادة مسخرة من قبل النفس والنفس تستخدمها لأغراضها.

لقد ثبت في الفيزياء أن المادة تتحول إلى قوى وطاقات بنتيجة الاشعاع. أي أن المادة تشع فتتحول إلى طاقات. كما أن الطاقات (القوى) تتكدس بإذن الله تعالى فتكون مادة (عنصراً من العناصر) أو جسماً من الأجسام. وهكذا النفس الانسانية هي من أجل مظاهر الطاقة. طاقة تختلف عن الطاقات الناشئة عن إشعاع المادة وتحولها إلى قوى. فإن النفس تبقى خالدة إلى ما شاء الله، ولا تتلاشى بتلاشي الجسد. لأنها ليست مادة حتى تتحول إلى طاقات بالاشعاع، ولأنها هي التي تدير الجسد وتؤثر فيه.

ولا تناسبَ بين الروح والجسد تناسباً يؤدي إلى اختلاف كمال النفس باختلاف الجسد من حيث قوة العضلات وجسامة الأعضاء. والنفس في غنىً عن الجسد في حالات شتى تبرهن ذلك الأحلام (الأطياف) وحوادث جمة.

* * *

وقد ذكر لي صديق لي وهو ممن يوثق بكلامه: أنه كان لأحد أرحامه خادمة من أسرة فقيرة عمرها ١١ سنة، اسمها: أنور، كانت تصدر منها الأعاجيب. كانت تأخذ من الفضاء ما يطلب منها من فواكه نادرة في غير موسمها، وتأخذ من الفضاء دراهم كثيرة بصورة سريعة دون أن يكون مما تأخذ من الفضاء أثر في البيت. وهكذا تلبي طلب من يطلب اليها احضار شيء من الخارج بصورة سريعة جداً إلى حد يدهش الألباب.

وفي يوم من الأيام حبسها سيدها في الغرفة كي لا تقوم بما تقوم به من العجب العجاب، وإذا بها ترى وسط البيت، فتسأل عن كيفية خروجها من الغرفة والباب مغلق، فتجيب قائلة: أنها قد خرجت من بين شقوق الباب!.

كان يصدر من (أنور) أنواع الأعاجيب والخوارق، حتى إذا تزوجت

وأصبحت امرأة كغيرها من النساء ذهبت عنها هذه الميزة والملكة الموهوبة وتلك الخوارق العجيبة.

هل للعلم الحديث أن يفسر لنا ما كانت عليه هذه الخادمة من ملكات محيرة للعقول وما كانت تأتي به من أعمال خارقة. وكم من حوادث كهذه الحادثة وأعجب منها تحدث من نساء ورجال في الهند وفي غير الهند وليس للعلم الحديث أن يتكلم فيها بكلمة واحدة.

نحن نعيش في أودية من المجاهيل لا سيما في عوالم النفس ومما يتعلق بما وراء الطبيعة، ولكن الغرور لا يدع مجالاً لهؤلاء الماديين للاعتراف بالله خالق الأشياء ومرتبها ومنظمها إلى أقصى حد من التنظيم، تنظيماً يحير الألباب، وللاعتراف بالآخرة وعوالم ما بعد الموت...

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

* * *

إن العلم الحديث يوضح لنا بقدر ما اطلع على العالم المادي (وهو ضئيل وضئيل جداً بالنسبة إلى ما أودع الله من حقائق ودساتير لا تتناهى في هذا الكون)[2] ما سيقع قبل يوم المعاد، ويفسر لنا إلى حدٍ ما قوله تعالى: «إذا الشمس كُوِّرت».

ذلك، لأن الذرة على ما هو معروف مؤلفة من نواة في الوسط (وهي مجموعة نيوترونات وبروتونات) والكترونات في المحيط أو الأطراف، تدور حول النواة.

ومعدل قطر الذرة = $\frac{1}{10\,000\,000}$ من المِيلّيمتر، أي = $\frac{1}{10^{7}}$ مم ومعنى

(١) سورة السجدة: ٥٣

(٢) «ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفذت كلمات الله».

ذلك: لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض (شريطة أن تكون كرويَّة كلها) كان طول هذه الذرات الموضوعة بهذا الشكل ميليمتراً واحداً.

وإن قطر نواة الذرة: (أي مجموعة البروتونات والنيوترونات) = $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ من قطر الذرة. ومعنى ذلك أن

قطر النواة = $\frac{١}{١٠^{١٢}}$ مم (من الميليمتر).

ولا يمكن أن ترى الذرة وهذه النواة مع أقوى الميكروسكوبات الحديثة.

وقد عبَّأ الله تعالى قوة هائلة في جوف النواة، تعرف بالطاقة النووية. فإذا حُرِّرت هذه الطاقة بوسيلة ما، هدمت ما حواليها، فلا تبقي ولا تذر.

إن ذرة الـ(أورانيوم) مثلاً تنشق، فتتفرق أجزاؤها، فتنتج مع هذا الانشقاق الحرارة والطاقة الهائلة، أما الأجزاء التي انقسمت اليها الذرة فهي عناصر دون الأورانيوم وزناً، وإذا فرضنا أننا جمعنا هذه الأجزاء ووزناها لكانت أقل مما استخدم من الـ(أورانيوم) وزناً. فأين ذهب الشيء الناقص؟ أنه تحول إلى (طاقة)، إلى (حرارة) وإلى (نور) إلى (إشعاعات أخرى). أي أن المادة تحولت إلى طاقة وقوى. إن الغرام الواحد من المادة يتحول إلى طاقة، فينتج منها ما يعادل ٢٢ مليون مليون سعرة[1] من السعرات الحرارية.

فذرة (الأورانيوم) تعطي من مادتها، فتنتج الطاقة بالتقسيم والتجزؤ والتفرق. وذرة (الايدروجين) تعطي من مادتها لا بالتشقق والتفرق، ولكن بالتجمع، وهكذا تتحول بعض المادة أو كلها (مع تقدم العلم الحديث) إلى طاقات هائلة جداً.

وقد ثبت أن المادة إنما وجدت من تكدس طاقات هائلة أوجدها الله تعالى بقوله: (كن). فترتبت بأمره عناصر تحت نظام بديع وقانون ثابت، وان هذه العناصر تختلف بعضها عن بعض من حيث عدد البروتونات

---

(١) السعرة: مقدار الحرارة اللازم لرفع درجة حرارة (غرام واحد من الماء) درجة واحدة مئوية، أي من درجة ١٤ مئوية مثلا الى درجة ١٥ مئوية.

والالكترونات. أي تختلف من حيث بنية النواة وما يدور حولها من الكترونات. فكانت، فاذن الله وأمره، هذه العناصر المختلفة كالايدروجين والاكسيجين والحديد والراديوم والأورانيوم إلى ما هنالك، فقد عبَّأ الله تعالى في ملعقة واحدة من الزئبق: طاقة تكفي لتسيير قطار كبير حول الكرة الأرضية سبع مرات.

وقد جعل الله فضاء واسعاً بين النواة والالكترونات التي تدور حولها. ومعنى ذلك أن الالكترونات في الذرة تبعد عن النواة مسافة شاسعة (مع حفظ النسبة بين صغر الالكترون والنواة والمسافة التي بينهما وقطر الذرة). وهذه المسافة (مع مراعاة النسبة) بين النواة والالكترونات هي كالمسافة بين الشمس وبين أبعد كوكب سيار يدور حولها.

فإذ انفصلت الالكترونات في يوم من الأيام عن الذرات في الكرة الأرضية، وذلك بأمر الله تعالى، واندمجت البروتونات بعضها ببعض، ستصبح أرضنا هذه كبرتقالة ثقيلة جدا، وزنها بقدر وزن أرضنا هذه التي نعيش عليها ولكن حجمها بحجم البرتقالة.

وإن علماء الفلك المحدثين يخبروننا أن الشمس سيكون مصيرها التلاشي وذلك باندماج نواة ذراتها بعضها ببعض. فيتحقق قوله تعالى: ﴿وإذا الشمس كورت[1] وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت﴾[2]. وذلك من مقدمات يوم المعاد. ﴿يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾. (سورة إبراهيم ١٥ : ٤٨).

وإن قوانين (ديناميكا الحرارية)، أو علم الحرارة الحوكية من أبحاث الفيزياء تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجه من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق! ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة. وهكذا تدل الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة على أن لها بداية... وقد أثبت

---

(١) سورة التكوير : ١ . ومعنى كورت هنا اي رفعت.

(٢) انكدرت : اظلمت . سيرت : أي ذهبت .

العلم فوق ذلك أن لهذا الكون بداية وأنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة.

* * *

وهكذا سيكون مصير (القمر) على ما استنبط ذلك بعض علماء العصر الحاضر. فأنهم يقولون: يأتي يوم فيتجزأ القمر بالتأكيد، فيصبح قمرين فأكثر. ثم تنفجر هذه الأجزاء انفجاراً هائلاً وتستحيل إلى ألف شظية أو أكثر، فإذا قربت هذه الشظايا من الأرض تستحيل إلى آلاف من الشهب الصغيرة. وقد قال تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾. فتبدأ في الأرض سلسلة من الزلازل ويشتد نشاط البراكين وتقذف ما فيها إلى الخارج وتعمل الهزات في القشرة الأرضية عملها، فتسوى أعالي الجبال وقممها إلى سوية قاع البحار. ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعيَ لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمان ورضى له قولا﴾.

* * *

ولقد توصل ثمانية من العلماء، من رجال الفلك بمرصد: (مولارد) نتيجة بحث استغرق ٨ سنوات: أن هذه الأرض إنما هي شظية من إحدى الشظايا التي تطايرت نتيجة لانفجار هائل حدث قبل عشرة آلاف مليون سنة على حد قوله تعالى في (سورة الأنبياء: ٣٠)، أو لم يَرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً (أي كانتا مرتوقتين: مضمومتين ملتحمتين، أي أن السماوات والأرض كانتا جميعاً كتلة واحدة فَفَتقناهما (أي ففصلنا بعضها عن بعض وجعلناها شموساً وكواكب ونجوماً وأقماراً «توابع للنجوم» ومجرات إلى ما هنالك).

وقد استعمل هؤلاء في استكشاف الفضاء عدة أجهزة جبارة من بينها تلسكوب (مِرقب) وجهاز التقاط للاشارات، وحكموا أن الكون سوف ينتهي

في يوم من الأيام. ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾. (سورة ابراهيم عليه السلام: ٤٩).

واعترفوا أن في الكون مسافات هائلة يعجز الذهن عن تخيلها: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وانا لموسعون﴾[١].

كما أثبتوا أن هناك أجساماً شمسية ميتة فوق حافة الكون، وهذا ما يؤكد أن الكون يقترب من نهايته. وهذا هو عين ما درسته عندما كنت طالباً في الجامعة في فرع (الفيزياء الرياضية العالية): من أن الشمس آخذة بالأفول والتضاؤل والاندثار.

﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير﴾. (سورة لقمان: ٣٤).

وإن هؤلاء العلماء الثمانية توصلوا أيضاً إلى أن كل الأجسام الموجودة في الكون من كواكب ونجوم وشموس وغير ذلك تنطلق في الفضاء بسرعة خيالية تاركة ثغرة في الوسط.

وأنه قد كانت لهذا الكون بداية قطعاً، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير﴾[٢]. وان الكون لن يدوم إلى الأبد وانه يتغير مع الزمن حتى تقترب النهاية، لشروع عالم آخر تتحقق فيه عوالم يوم القيامة.

وهكذا ذهب هؤلاء العلماء يعتقدون أن الانفجار الهائل الذي وقع منذ الوف الملايين من السنين في عدة كتل من المادة أسفر عن انتشار شظايا مادية في مختلف الاتجاهات، ثم تطورت هذه الشظايا إلى الكواكب والنجوم التي نراها اليوم.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧

(٢) سورة العنكبوت : ١٨ ، ١٩

فنرى أن العلم الحديث يقترب من الاعتراف بما جاء في القرآن الكريم عن البداية والنهاية كلما أتيح له من آلات دقيقة ومعلومات رياضية عميقة. وان مُعطياتِ العلم لم تكن لتخالف ما جاء في كتاب الله المجيد إلا لضآلة ما وصل اليه العلم وعجز الآلات المكتشفة عن الاستقصاء.

* * *

يعترف العلم الحديث: أن الذرات قد استحدثت منذ زمان لا يتجاوز جملة قليلة من بلايين السنين، وأن عمر أكثر النجوم ٣ بلايين من السنين، كما أن عمر المحيطات عدد قليل من بلايين السنين وأن النظام النجمي كان موجوداً قبل زمن يتراوح بين بليونين وخمسة ملايين من السنين وأن عمر الصخور المختلفة ـ ونعني بذلك الزمان الذي انقضى منذ أن تصلبت بعد أن كانت مائعة ـ (١٩٨٠) مليون سنة. وقد قدر ذلك بكل دقة بواسطة «الطريقة الزمنية للنشاط الاشعاعي» (Radioactve — Clock method).

كما عُلم بنفس الطريقة أن عمر قشرة الأرض لا يقل عن بليونين من السنين. ومن هنا نرى أن البحث عن عمر أية ناحية من نواحي الكون ينتهي إلى جواب تقريبي واحد: هو بضعة بلايين من السنين قدماً.

وقد رفض العلم الحديث «فرضية الكون الثابت غير المتغير»، ويعتقد اليوم جازماً أن الكون لم يكن فكان، وأخذ يتطور تحت نظام وحساب دقيق وتدبير عميق منذ بضعة بلايين من السنين، وأن الكون كان في الماضي السحيق أقل تعقداً مما هو الآن. كما يعترف العلم أن صورة مجموع الفضاء الكوني وما يأهل به من بلايين (المجرات) هو في حالة انتشار سريع وأن كل أعضائه يبتعد بعضها عن بعض بسرعة مرهقة. ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[1].

كما أن العلم الحديث يقدر أنه: عند بلوغ سنة ٤٧٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ بعد الميلاد سوف تتلقى شمسنا وثيقة إعدامها.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

ومن الأمور المعروفة عند علماء الطبيعة والفلك أن مادة الكون الصلدة آخذة في الانحلال والتلاشي أثناء تحولها إلى إشعاع. وأن وزن الشمس يقل كل يوم ٣٦٠ ألف مليون طن. أي أن هذا القدر من مادتها يتلاشى لكي تشع كل ما تشعه يومياً. وهذه الأشعة التي تنطلق منها تسير في الكون، وستظل سائرة فيه إلى نهاية الدنيا. وتحول المادة إلى اشعاع عمل جار الآن في كل النجوم. وان الأرض تخسر من وزنها يومياً بالاشعاع تسعين رطلاً!.

والله تعالى يقول: ﴿أو لم يَروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقِّب لحكمه وهو سريع الحساب﴾. (سورة الرعد: ٤٢). وفي آية أخرى: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر. أفـلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾. (سورة الأنبياء: ٤٦). فتشير الآيتان الكريمتان أن الأرض منذ أن خلقها الله تتناقص من أطرافها وهي ظاهرة كونية لم يلتفت إليها العلماء إلا في السنوات الأخيرة إذ أثبتت الأبحاث العلمية عن شكل الأرض: أن قطرها الواصل بين القطبين يتناقص بكمية ضئيلة جداً، إلا أن عملية التناقص هذه مستمرة مـذ أن خلق الله الأرض، حتى أن شكلها تطور بمرور الزمن من الشكل الكروي إلى الشكل البيضاوي تطوراً مستمراً لا إنقطاع فيه.

وقد علم أنه ليس لهذا التحول الذي ذكرناه ما يقابله من تحول الاشعاع إلى مادة حسب قواعد الفيزياء. أي ليس ما تفقده الأرض والشمس والنجوم في ناحية من نواحي الكون يعوض في ناحيـة أخرى: بتحـول الاشعاع (الطاقة) إلى مادة. أي ليست القضية كتحول المياه إلى بخار ثم تحول البخار إلى مياه وهكذا دواليك. ذلك لأن المادة حين الاشعاع تتحول من قوة ذات موجة قصيرة إلى قوة أخرى ذات موجة أطول منها. ويتعذر تحول قوة ذات موجة أطول إلى قوة ذات موجة قصيرة حسب قواعد الفيزياء. وان هذا الانحطاط ـ أو التحول ـ في القوة لا يمكن أن يمضي كذلك إلى الأبد، إذ لا بد أن يجيء وقت تتحول فيه آخر وحدة من القوة الصالحة للعمل إلى قوة غير صالحة للعمل وعندئذ تجيء نهاية الكون ويخبرنا الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إذا السماء

انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت﴾[1]. وبقوله: ﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقت﴾[2].

ويعترف العلم الحديث أن الطاقات (الاشعاعات) التي حدثت نتيجة تحول المادة (كل ما في الكون) إلى طاقات لا يمكن أن ترجع إلى مادة من جديد إلا بقوة خارجة عن الكون. ذلك لأن الكون، حسب قواعد علم الفيزياء، خاسر يوماً ما كل القوة الصالحة للاستعمال التي كانت فيه والكون الذي لا توجد فيه قوة صالحة للاستعمال، كون ميت. فنهاية الكون تحين متى انحل كل جوهر من جواهر المادة وانطلق في الفضاء اشعاعاً قوياً قصير الأمواج. ولا بد من قوة خارجية هي: إرادة الله تعالى لارجاع هذه الطاقات إلى عوالم أخرى من جنَات عدن «عرضها السماوات والأرض» وغيرها من عوالم لا يعلمها إلا الله ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾. (سورة ابراهيم (ع): ٤٨). ويقول الله تعالى في سورة التكوير: ﴿و إذا السماء كشطت﴾ أي أزيلت.

فكل شيء آئل إلى زوال وفناء، حتى يبدأ بعد ذلك باذن الله وإرادته عالم من جديد: ﴿كل مَن عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾.

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿فارتقب يومَ تأتي السماء بدخان مبين﴾[3]، وفي هذه الآية إشارة إلى يوم القيامة، وتخبرنا بعلامة من علاماتها. فالمعروف علمياً أن كل نجم أو شمس كشمسنا لا بد وأن تطرأ عليه حالة يتمدد فيها سطحه قبل أن يصل إلى حالة الاستقرار. وشمسنا بالذات لم تمرَّ بعد بهذا الدور وهي لا تزال في مقتبل عمرها. وعندما تتمدد يصل لهبها وغازات جوها المستعرة إلى الأرض حسب قوله تعالى: ﴿وجمع الشمس والقمر.

---

(١) سورة الانفطار: ١ ـ ٣
(٢) سورة الانشقاق: ١ ـ ٢
(٣) سورة الدخان: ١٠

يقول الانسان يومئذ أين المفر؟ كلا لا وزرَ إلى ربك يومئذ المستقر﴾[1]. ﴿فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير﴾[2].

إن الله يصف حالة هؤلاء الكافرين بعد أن أُدخلوا نار جهنم، يصفهم بقوله: ﴿وهم يصطرخون فيها ربَّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾[3]، فيجيبهم الله تعالى بقوله: ﴿أوَ لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾. نستجير بالله من سوء العاقبة! من ﴿لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى﴾[4]. جمع الأموال، فلم ينفقها في سبيل الله.

* * *

إن الله يصف حالة الأرض بعد أن يبلغ أهلها ذروة الطيش والغرور وكيف أنها تكون هباء منثوراً في طرفة عين بقوله جل من قائل: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك تفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

العلم الحديث يخبرنا بالمارد الذري السابح في الفضاء وهو (البروتون: Proton) السالب الذي إذا اصطدم بشيء من الأشياء أرجعه في طرفة عين إلى اشعاعات وطاقات! بل جعله نسياً منسياً. وقالوا: إن هذا المارد يفني ما يصطدم به من مادة، فيتحقق «إفناء المادة»[6] بهذا الاصطدام، فلا يبقى شيء.

ثم ان الله تعالى بقوله في الآية المتقدمة: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾.

---

(١) سورة القيامة: ٩ ـ ١١
(٢) سورة المدثر: ٩ ـ ١٠
(٣) سورة فاطر: ٣٧
(٤) سورة المعارج.
(٥) سورة يونس: ٢٤

(6) Annihilation de la Matiére .

يشير إلى حركة الأرض حول نفسها، وذلك: لأن الليل والنهار يكونان على الكرة الأرضية في وقت واحد. والله تعالى لا يتردد في علمه ولا يتردد في وقت يريد فيه إفناء الأرض: هل يكون ذلك ليلاً أم نهاراً؟ وهو خالق كل شيء والعالم بما سيكون. فيشير قوله تعالى: ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ إلى أن قسماً من الأرض يتلقى أمر الإفناء من جانب الله تعالى، ليلاً، والقسم الآخر في نفس اللحظة، يتلقى هذا الأمر نهاراً. وهذا لا يتم إلا بحركة الأرض حول نفسها وحدوث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران!...

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾. (سورة الحج: ٣).

وقال تعالى: ﴿وإذا البحار سجرّت﴾، وقد ثبت أنه عندما تنطلق ذرة الايدروجين المتحدة مع الاوكسجين نتيجة للانفجار الذري يجعل كافة البحار ناراً في أقل من لمح البصر.

وإذا انضمت ذرتان من ذرات الايدروجين نتج عنهما (الهليوم) ونتج عن ذلك أتون مشتعل يشمل الكون وما فيه، فتصبح السماء ناراً: ﴿فإذا انشقّت السماء فكانت وردة كالدهان﴾[1].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾. وقد أخبرنا الفلكيون أن نجمة (سيريوس) التي تشاهد كل ليلة باستخدام التلسكوب قد استحالت في طرفة عين أو أقل إلى نجمة صغيرة جداً، مظلمة، وان نواة ذراتها قد اندكت بعضها ببعض.

وهكذا سيكون مصير منظومتنا الشمسية ويتحقق كل ما أخبرنا الله تعالى في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم

---

(١) سورة الرحمان: ٣٧. (اي ان السماء صارت حمراء مذابة كالدهن).

حميد﴾[1]. يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾[2].

* * *

وهكذا يخبرنا الله تعالى في سورة زمر: ٦٧:

﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. ومعنى ذلك: أنه إذا كان يوم القيامة تكون الأرض جميعاً مقبوض عليها في يده تعالى (أي تكون تحت قدرته وطوع إرادته). ذلك: لأن الله ليس بجسم حتى تكون له يد، وتكون السماوات على أبعادها غير المتناهية مطويات بيمينه، فسبحانه أي فتنزيهاً له عما يشركون. وهذا يدل أن هناك تبديلاً هائلاً في الكون عند حلول يوم القيامة؛ يخبر عنه ربُّنا جلَّ جلاله في آيات عدة، كي نتزوَّد بالتقوى، ونتهيأ في دنيانا هذه لـ ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين﴾.

إن الله تبارك وتعالى يبيِّن لنا أيضاً بوضوح ما سيقع في الأرض أولاً ثم ما سيقع ثانياً حين تتبدل هذه الأرض بأرض أخرى وكذا السماء بسماء أخرى أيضاً وذلك بقوله تعالى في (سورة زمر: ٦٨). ﴿ونفخ في الصور فصعق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يُظلمون ووُفِّيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾[3] ومعنى ذلك: أن (إسرافيل) ينفخ في بوق يوم القيامة، فيموت كل حيٍّ، ثم ينفخ مرة أخرى، فيقومون للبعث. وإن النفخ في البوق لا يشبه ما نفهمه نحن اليوم من كلمتي النفخ والبوق، وإنما علم ذلك عند الله. وهذا إيذان بمجيء يوم القيامة ثم إيذان بالبعث. (ومعنى صعق: أي خرَّ ميتاً أو مغشياً عليه).

فلا سبيل لهذا الانسان إذا أراد تصحيح معتقداته إلا التمسك بالعمل

(١) سورة فصلت : ٤٢

(٢) سورة الانبياء: ١٠٤

(٣) سورة الزمر : ٦٨ ـ ٧٠

المبين، وأما الذين كفروا، أفلم تكن آياتي تُتلى عليكم، واستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين، وإذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها، قلتم ما ندري ما الساعة، إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾[1].

* * *

نسأل الله تعالى تطهير نفوسنا وتكفير ذنوبنا، لنخرج من الظلمات إلى النور باذنه، فنتذكر يوم المعاد: ﴿يومَ يقوم الناس لرب العالمين﴾ عند كل عمل نقوم به، فلا يصدر منا إلا ما يُرضي الله تعالى، كي نذهب من هذه الدنيا، طاهرين، مطهَّرين، زكيين، نقيين، إلى رَوح ورَيحان وخلود في جنان، دونما قلق واضطراب وذلك هو الفوز المبين.

﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾[2][3].

(١) لا بأس بذكر الحديثين عن رسول الله (ص): لأهميتها، لا سيا في مثل هذه الظروف. فإن عاقبة الانسان منوطة بعمله ودرجة تطهير نفسه. قال رسول الله (ص): «من زوج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم ألف لعنة ولايصعد له عمل إلى السماء ولا يستجاب له دعاء ولا يقبل منه صرف ولا عدل».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اي امرأة رضيت بتزويج فاسق فهي منافقة وجلست في النار. وإذا ماتت فتح في قبرها سبعون بابا من العذاب . وان قالت : لا اله الا الله، لعنها كل ملك بين السماء والارض وغضب الله عليها في الدنيا وكتب الله عليها في كل يوم وليلة سبعين حطيئة».

(٢) نكير: اي ما تستطيعون من انكار لما اقترفتموه من الذنوب.

(٣) سورة الشورى: ٤٧.

من آثار الايمان باليوم الآخر

للإيمان باليوم الآخر آثار ثمينة جداً. منها:

(١) إن الانسان يراقب نفسه في كل عمل يقوم به خوفاً من العقاب الأخروي، فلا يتصدى إلى ما حرم الله من ظلم وفسق وإجحاف بحقوق الآخرين. وإن أغواه الشيطان يوماً، فهو يتوب حالاً ويعالج بصورة فعلية وعملية ما كان منه من إجحاف بحقوق الغير أو جرح الخواطر إلى ما هنالك.

(٢) أنه يرى أن الحياة ليست بالشيء الذي ينقطع مع الموت، بل هي خالدة مستمرة إلى ما بعد الموت بصورة دائمة، وأن «الدنيا مزرعة الآخرة»، كما جاء في الحديث، فيقوم في هذه الدنيا بأعمال صالحات وما يقربه إلى الله من عبادات كي يجني ثمرها الجني في الحياة الآخرة، ان هذه العقيدة نفسها خير مؤدِّب للفرد وعامل قوي لايجاد حياة اجتماعية سعيدة يعلوها الهدوء والاطمئنان. فمن تجرد عن عقيدة المعاد لا يردعه شيء عن إرتكاب ما تهواه نفسه الطائشة إلا هذه القوانين الوضعية. وان هذه القوانين البشرية لا أثر لها في تعديل الأخلاق الشخصية الفردية والأخلاق العائلية والاجتماعية، لأنها أبعد من أن تستوعب كل ذلك. فالعقيدة بالمعاد خير حافز لاصلاح النفس الانسانية وقطعها مراحل الكمال الانساني.

(٣) إن المعتقد بالمعاد يقوم بما أوجب عليه الاسلام بالنسبة إلى الوالدين والأرحام والأصدقاء وبقية المؤمنين من برٍّ وإحسان وخدمات اجتماعية «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» وهذا مما يؤدي إلى تساند اجتماعي وتكوين مجتمع متكافل هو مصداق هذا الحديث: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

الصالح[1] وبر الوالدين[2] وصلة الرحم[3]، وصدقات، وإحسان وقضاء حوائج الناس[4] والتفاني (إن أمكن) في هذا المضمار. وتطهير المأكل والمشرب مما حرم الله، وإرجاع حقوق الناس اليهم، وتجنب الحسد والبخل والكبر وهي أصول الكفر كما جاء في الحديث. وتجنب الغيبة[5] والنميمة والخداع والكذب وكل ما يلوث هذه النفس من خمر وميسر (قمار) وفسق وفجور وغمط حقوق الناس واعتباره مكسباً. والقيام بصلاة[6] فيها خشوع وخضوع، ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[7]. وصوم لوجه الله (لا إرضاء للوالدين أو حياءاً من الناس) وحج أداء للواجب الديني[8] وأداء خمس الأرباح[9] وأداء الزكاة الواجبة[10] والزكاة الباطنة ﴿وفي

---

(١) قال رسول الله (ص): « ان على كل مسلم في كل يوم صدقة ، قالوا ومن يطيق هذا ؟ قال (ص): اماطتك الاذى عن الطريق صدقة ، وإرشادك الطريق صدقة ، وعيادتك المريض صدقة ، واتباعك الجنازة صدقة ، وامرك بالمعرف ونهيك عن المنكر صدقة ، وردك السلام صدقة ». (الاذى في الطريق كالشوك والحجارة).

(٢) وعن النبي (ص) : « وأبويك فبرهما واطعمعا حيين وميتين ، فان امراك ان تخرج من اهلك ومالك فافعل ، فان ذلك من الايمان ».

(٣) في الحديث : « صلة الارحام تطيل الاعمار وتعمر الديار وان كانوا كفارا ». وفي خبر : « اتقوا الحالقة ، فانها تميت الرجال ، قيل وما الحالقة يا ابن رسول الله ؟ قال : قطيعة الرحم . وفي حديث آخر : « لا صدقة وذو رحم محتاج ». وفي حديث آخر : « ان الله خلق الجنة وطيبها وطيب ريحها ولا يجد ريحها عاق او قاطع رحم ».

(٤) عن أبي عبد الله عليه السلام : « لقضاء حاجة امرىء مؤمن احب الى الله من عشرين حجة كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة الف ».

(٥) قال رسول الله (ص) : اجتنبوا الغيبة فانها ادام كلاب النهار. وقد سئل النبي (ص) ما كفارة الاغتياب ؟ فقال : « تستغفر الله لمن اغتبته كلما ذكرته ».

(٦) عن النبي (ص) : « من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ملة الاسلام ».

(٧) سورة المؤمنون : ١ ـ ٢ .

(٨) عن النبي (ص) : من وجد الى الحج سبيلا ، فلم يحج، فليمت ان شاء يهوديا او نصرانيا .

(٩) عن النبي (ص) : ان مانع الخمس يحشر مع الظالمين لال محمد حقهم .

(١٠) عن النبي (ص): من ضيع قيراطا من الزكان فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانياً.

أموالهم حق للسائل والمحروم﴾(1)، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(2)، إلى ما هنالك من واجبات ومستحبات أخرى، كي يرى كيف تذهب عنه الشكوك رويداً رويداً وتنقشع عن نفسه الشبهات شيئاً فشيئاً، بل يدخل في عوالم القدس، حيث اليقين والطمأنينة، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(3) فيكون إذ ذاك مصداق هذه الآية المباركة: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾(4).

وهذا غاية التكامل لهذا الانسان.

* * *

ولكن إذا تمادى الشخص في طيشه وإجرامه ومكره وظلمه(5) ونكرانه ما عليه من حقوق الناس وواجب الشكر تجاه خالقه، وارتدى رداءً الكبرياء وثابر على فسوقه وفجوره، كان من المبطلين الذين خسروا أنفسهم على حد قوله تعالى حيث يقول: ﴿يوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية(6) كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته، ذلك هو الفوز

---

(1) سورة الذاريات : ١٩.

(2) قال رسول الله (ص) : ان الله ليبغض المؤمن الضعيف ، قيل يا رسول الله ، من المؤمن الضعيف ؟. قال : الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر. وفي حديث آخر : « ويل لقوم لا يدينون بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ».

(3) سورة الرعد: ٢٨

(4) سورة الفجر : ٢٨ ـ ٣٠.

(5) قال رسول الله (ص) : « اجتنبوا دعوة المظلوم ولو كان كافرا . فانه ليس دونها حجاب » وفي حديث آخر : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم ، فقد خرج من الاسلام » وفي حديث آخر ايضا « من اعان ظالما ليدحض بباطله حقا فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ». وفي حديث آخر : « من ارضى سلطانا بما اسخط الله خرج من دين الاسلام ».

(6) سورة الجاثية : ٢٦ ـ ٣٣: (جاثية : باركة على ركبها).

وقد قال بعضهم: إن الاعتقاد بالآخرة يعوق الفرد عن السير في أمور الدنيا قدماً بجدٍّ ونشاط. ولكنا نرى أن المسلمين الأوائل قد قاموا بأعمال جبارة في حقول شتى من تجارية وصناعية وزراعية وعمرانية وان أكثر من ربع المعمورة كانت للمسلمين، وما كان ليُعيقهم الاعتقاد بالآخرة للعمل في عمارة الدنيا بشكل لا يؤدي إلى فساد في الأرض وتسافل النفوس ونسيان الآخرة. فقد قال رسول الله (ص) لأصحابه: «إن أخوف ما أخافه عليكم إثنان: اتباع الهوى وطول الأمل. فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق وإما طول الأمل فيُنسي الآخرة»...

على أن الانسان بطبيعته ميال إلى الدنيا، يحرص على عمرانها والتزود منها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. لذلك يحث الدين الاسلامي الانسان على التفكير في حياة أخروية خالدة والتهيؤ لها كي لا تميل النفس إلى المادة فحسب، فتتسافل. وفي الخبر «تذكروا هادمَ اللذات».

وإن للاعتقاد بالمعاد أثراً بالغاً في تهدئة النفوس إذا ما حُرموا (لحكمةٍ ما) من بعض زخارف الدنيا أو أصيبوا ببعض النكبات. فالله تبارك وتعالى سوف يعوِّضهم عن ذلك جزاءً موفوراً في نعيم خالد لا يُقاس بنعيم الدنيا بحال. يقدر ذلك علماء النفس.

وصفوةُ القول: إن الاعتقاد بالمعاد خير رقيب لهذا الانسان يصده عما يؤدي إلى فساد أو إفساد. ويحثه على ما هو خير وصلاح. فتكون الحياة الاجتماعية قد بلغت شأواً قاصياً من تحابب وتوادٍ وتراحم... «إنما المؤمنون اخوة».

فما على المسلمين في أرجاء البسيطة إلا أن يقوموا بتطبيق تعاليم الاسلام لتحقيق حياة اجتماعية سعيدة على وجه الأرض وجعل الاسلام ديناً عالمياً خالداً كما تنبأ بذلك كثير من العلماء.

* * *

﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت

الـوهاب ربنـا إنك جـامعُ النـاس ليـومٍ لا ريبَ فيـه إن الله لا يُخلف الميعاد﴾[1].

«إنتهى الجزء الثالث، والحمد لله، وسيليه الجزء الرابع إن شاء الله تعالى».



(١) سورة آل عمران : ٨. (الزيغ : العدول عن الحق).

جدول بأسماء العناصر المستكشفة لحد الآن

مع العلم أن كل ما عرفناه من مواد يتكون من واحد أو أكثر من العناصر الآتية:

العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط	العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط
أيدروجين	١	١,٠٠٨	زرنيخ	٣٣	٧٤ ,٩٦
ليثيوم	٣	٦,٩٤٠	هيليوم	٢	٤,٠٠
بورون	٥	١٠,٨٢	بيريليوم	٤	٩,٠٢
نيتروجين	٧	١٤,٠٠٨	كربون	٦	١٢,٠١
فلور	٩	١٩,٠٠	أوكسيجين	٨	١٦,٠٠٠
صوديوم	١١	٢٢,٩٩٧	نيون	١٠	٢٠,١٨
ألومنيوم	١٣	٢٦,٩٧	ماغنيسيوم	١٢	٣٤,٣٢
فوسفور	١٥	٣٠,٩٨	سليكون	١٤	٢٨,٠٦
كلور	١٧	٣٥,٤٥٧	كبريت	١٦	٣٢,٠٦٤
بوتاسيوم	١٩	٣٩,٠٩٦	أرجون	١٨	٣٩,٩١
سكانديوم	٢١	٤٥,١٠	كالسيوم	٢٠	٤٠,٠٧
فاناديوم	٢٣	٥٠,٩٦	تيتانيوم	٢٢	٤٧,٩٠
منجنيز	٢٥	٥٤,٩٣	كروم	٢٤	٥٢,٠١
كوبلت	٢٧	٥٨,٩٤	حديد	٢٦	٥٥,٨٤
نحاس	٢٩	٣٦,٥٧	نيكل	٢٨	٦٨,٦٩
جاليوم	٣١	٦٩,٧٢	خارصين	٣٠	٦٥,٣٨
جرمانيوم	٣٢	٧٢,٦٠	لوتيسيوم	٧١	١٧٥,٠

العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط	العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط
سيلينيوم	٣٤	٧٨,٩٦	تاتنالوم	٧٣	١٨٠,٨٨
بروم	٣٥	٧٩,٩١٦	رينيوم	٧٥	١٨٦,٣١
روبيديوم	٣٧	٨٥,٤٤	كربيتون	٣٦	٨٣,٨
يتريوم	٣٩	٨٨,٩٢	سترنشيوم	٣٨	٨٧,٦٣
نيوبيوم	٤١	٩٢,٩١	زركوليوم	٤٠	٩١,٢٢٠
تكنيتيوم	٤٣	٩٩,٠٠	مولبدنوم	٤٢	٩٥,٩٥
روديوم	٤٥	١٠١,٩١	روتينيوم	٤٤	١٠١,٧
فضة	٤٧	١٠٧,٨٨٠	بلاديوم	٤٦	١٠٦,٧
إنديوم	٤٩	١١٤,٨	كدميوم	٤٨	١١٢,٤١
أنتيمون	٥١	١٢١,٧٧	قصدير	٥٠	١١٨,٧٠
يود	٥٣	١٢٦,٩٣	تليريوم	٥٢	١٢٧,٥٩
سيزيوم	٥٥	١٣٢,٩١	زينون	٥٤	١٣١,٣
لاتنانوم	٥٧	١٣٨,٩٠	باريوم	٥٦	١٣٧,٣٧
براسيوديميوم	٥٩	١٤٠,٩٢	سيريوم	٥٨	١٤٠,٢٥
ألينيوم	٦١	١٤٦,٠	نيوديميوم	٦٠	١٤٤,٢٧
أوربيوم	٦٣	١٥٢,٠	سماريوم	٦٢	١٥٠,٤٣
تيربيوم	٦٥	١٥٩,٢	جادولينيوم	٦٤	١٥٧,٢
هولميوم	٦٧	١٦٤,٩٤	ديسبروزيوم	٦٦	١٦٢,٥
ثوليوم	٦٩	١٦٩,٤	أربيوم	٦٨	١٦٧,٧
يتربيوم	٧٠	١٧٣,٦	أينشتنيوم	٩٩	٢٥٣,٠٠
هفنيوم	٧٢	١٧٨,٦	مندلفيوم	١٠١	٢٥٦,٠٠
تنجستون	٧٤	١٨٣,٩٢	بلاتين	٧٨	١٩٥,٢٣
أوزميوم	٧٦	١٩٠,٢	زئبق	٨٠	٢٠٠,٦١

العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط	العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط
إيريديوم	٧٧	١٩٣,١	رصاص	٨٢	٢٠٧,٢١
ذهب	٧٩	١٩٧,٢	بولونيوم	٨٤	٢١٠,٠٠
ثاليوم	٨١	٢٠٤,٣٩	رادون	٨٦	٢٢٢,٠٠
بزموت	٨٣	٢٠٩,٠٠	راديوم	٨٨	٢٢٦,٠٥
استاتين	٨٥	٢١٨,٠٠	ثوريوم	٩٠	٢٢٣,١٢
فرانسيوم	٨٧	٢٢٣,٠٠	يورانيوم	٩٢	٢٣٨,٠٧
اكتينيوم	٨٩	٢٢٧,٠٠	بلوتونيوم	٩٤	٢٣٩,٠٠
بروتاكتينيوم	٩١	٢٣١,٠٠	كيوريوم	٩٦	٢٤٢,٠٠
نيبتونيوم	٩٣	٢٣٧,٠٠	كالفرنيوم	٩٨	٢٤٤,٠٠
أمرسيوم	٩٥	٢٤١,٠٠	فرميوم	١٠٠	٢٥٤,٠٠
بركليوم	٩٧	٢٤٣,٠٠	نوبليوم	١٠٢	٢٥٧,٠٠

فهرس الجزء الثالث



بقلم

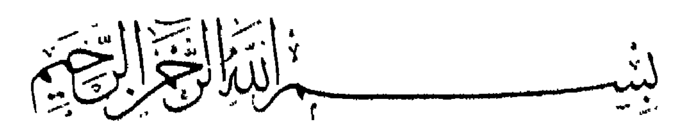
أحمد أمين

خريج كلية التربية وجامعة استنبول

الجزء الرابع

دار المعرفة

بيروت - لبنان



الحمد لله الذي انحسرت الأوصافُ عن كُنه معرفته(1) ورَدَعَت عظمته العقول فلم تجد مساغاً إلى بلوغ غَاية ملكـوته. هـو اللهُ الملك الحقُّ المبين. أحقُّ وأبينُ مما تراه العيون. لم تبلغْهُ العقـول بتحديـدٍ فيكونَ مشبَّهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون مُمثَّلاً. خلقِ الخلقَ على غير تمثيل ولا مشورةِ مُشير، ولا معونة معين. فتمَّ خَلقُه بأمره. وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدفع وانقاد ولم ينازع.

---

(1) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام. انحسرت: تقطعت وكلَّت واعيت.

الدين أمر فطري

منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض كان يدين بما يمليه عليه عقله من أن لهذا الكون موجداً وخالقاً مدبراً، خلق الانسان بهذا الشكل الخارق العجيب، وخلق قبلاً الهواء والماء والنبات لاستقرار حياته. فكما أن الله تعالى ألهم الانسان أن يستفيد من تجاربه لادامة حياته، فيأوي إلى الكهف لاتقاء البرد أو يلبس من جلود الحيوانات ويجرب الأمور البسيطة من الزراعة والصناعة، كذلك ألهمه أن يفكر في تلك القدرة العظيمة، قدرة الله التي لا تتناهى وعظمته التي لا تحد. وقد قال تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[1].

وقد أثبتت الحفريات والآثار أن الدين قد رافق الانسانَ منذ بدء الخليقة. يقول الأثري الدكتور سليم حسن: «دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة مهما كانت ثقافتهم منحطة ديناً يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه».

يقول الفيلسوف اليوناني الكبير سوقراط: «يشعر الانسان بحاجته الماسة إلى الهواء والماء والطعام، وكذلك تشعر روحه أنها في حاجة مبرمة أيضاً إلى غذاء روحي. وهذا الشعور هو في عرفنا: الدين الذي اهتدى إليه أول إنسان. يدلك على ذلك: أننا إذا تتبعنا حياة طفل أتينا به من أقاصي البلاد المتوحشة وتركناه يترعرع بدون أن نلقنه عقيدة دينية مهما كان نوعها، فانك لتجده عندما يصبح رجلاً كامل الشعور يتحرى في أعماق تفكيره عن شيء مجهول، ويظل باحثاً منقباً تحت تأثير عامل نفسي وغريزي حتى يعثر على بادرة تكون في أول أمرها مائعة اللون تتمركز في دماغه، ثم لا تلبث حتى تتجسم وتتخذ شكلاً صوفياً بارزاً يأخذ في التطور رويداً رويداً إلى الشيء

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

الذي نسميه (عقيدة) أو (ديناً) لأن هنالك ضرورة خفية وقوية تدفعه إلى هذا التدرج، حتى يصل إلى النوع الذي يحلو له للعبادة».

يقول المؤرخ الاغريقي الشهير (بلوتارك) منذ نحو ٢٠٠٠ سنة: «من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح، ولكن لم ير الانسان قط مدينة بلا معبد أو لا يمارس أهلها عبادة».

فنحن نقرأ في أسفار الهند المعروفة بالكتب الفيدية: «إن الاله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة، فأمرها بأن توجد، فبرزت على الفور إلى حيز الوجود».

ونقرأ في كتب الصين واليابان القديمة جداً: «أن إله السماء هو الذي يصرف الأكوان ويدبر أمور الانسان».

ونقرأ في كتب الفرس القديمة ما نصه: «هو أقوى القوى في عالم الملكوت، وهو واهب الانعام المكين، الكامل القدس، الحكيم الخبير، الغني المغني السيد المنعم، القهار، محق الحق، البصير، الشافي، الخلاق، العليم بكل شيء».

ونجد عند الفراعنة من النصوص التي تدل على الابتهال إلى الله العلي القدير والتي تثير في النفس شعوراً فياضاً بالايمان والتوحيد. منها

«أيها الاله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه، يا خالق الجرثومة في المرأة، ويا صانع النطفة في الرجل، ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه، ويا من يهدئه فلا يبكي، ويا من يغذيه حتي وهو في الرحم... يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً... ألا ما أعظم تدبيرك يا رب الأبدية».

إقرأوا وصية الملك (آني) من ملوك مصر القدماء لابنه (خنسو حوتب) «لا تأثم، خفِ الله واتقِ غضبه، وإذا صليت لله فمن العبث أن تجهر أو تصيح، صلِّ بقلب مؤمن يخاطب الله في غير إعلان يقض الله حاجتك ويستجب دعاءك».

ولسائل أن يسأل: كيف عبد الناس الأوثان والهوام والبقر والشمس وتسافلوا حتى صاروا يتبركون ببول البقر!.

انه تعالى يقول: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[1] فجعل الله تعالى تقابلاً بين الايمان والفسق. ومعنى ذلك أن الفسق يضاد الايمان ويعاكسه، فلو تلوثت النفس الانسانية بالفسق فر الايمان من وجهه فلا يعود حتى تطهر النفس من فسوقها وإجرامها.

انه تعالى يقول: «أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون»[2] وفي آية أخرى: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به، وربك أعلم بالمفسدين﴾[3]. ومعنى ذلك أن طريق الايمان قد سد على المفسدين. وفي آية أخرى: ﴿ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾، فالكذب يزيل الايمان. وفي آية أخرى: «ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. فالفاسق يكفر بآيات الله بصورة طبيعية.

كان الناس بالفطرة يؤمنون بالله، يوحدونه، حتى غلبت عليهم شياطينهم ففسقوا وفجروا وظلموا وأساؤوا، فانسحب الايمان وسوَّل لهم الأبالسة عبادة الأصنام والحيوان على حد قوله تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

فالالحاد أو الوثنية أمر عارض يناقض الفطرة ويعاكسها. إنه تعالى يقول: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

فالله تبارك وتعالى قد غرس أصول التوحيد والايمان في النفس الانسانية

---

(١) سورة السجدة: ١٨.
(٢) سورة القلم: ٣٥، ٣٦.
(٣) سورة يونس: ٤٠.

في عالم الذر، في عالم الأرواح إتماماً للحجة: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾[1].

فهناك رسولان، رسول باطني، وهو العقل، جعل الله الانسان مسؤولاً تجاهه. فـ﴿العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان﴾ ورسول ظاهري: وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

فالناس كانوا في قديم الزمان، في وقت لا يحدده التاريخ مؤمنين بالله يوحدونه ويقدسونه، ولكن الشيطان قد سول لهم فأطاعوه بتلويث نفوسهم بالفسق والظلم، فأظلمت نفوسهم وزاغت عن الصراط: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[2]، فصاروا يشركون بالله ويعبدون غير الله تعالى أو أمسوا ماديين... وقد قال تعالى:

﴿كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وإتماماً للفائدة نذكر هذا الحديث:

عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾؟ قال: «الحنيفية من الفطرة التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ثم قال: فطرهم على المعرفة به...».

نرى أن من (٢٩٠) فيلسوفاً ٩١٪ منهم مؤمنون و ٥٪ منهم لا أدريون (لا يعلمون) و ٤٪ منهم ملاحدة. ذلك لأن العلم وما أودع الله من دقيق الصنع وشتى المعادلات في تكوين هذا الكون يجر الانسان الباحث إلى الاعتقاد بالله العلي القدير. كان يقول (باستور): «لا تنافي بين العلم والايمان بالله، وكلما زاد علم الانسان زاد إيمانه بالله». ويقول الكيميائي الشهير الدكتور

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٩.

(٢) سورة الصف: ٥.

(ولز): «وإذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها».

فلا يلوث النفس الانسانية ولا يزيل هذا الاتجاه الطبيعي وأعني به: التوجه نحو الخالق المتعال، إلا متابعة هوى النفس على حد قوله تعالى: ﴿كذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾.

وقد جاء في الحديث: «أغلب الناس من تغلب على هواه».

ويقول الله تعالى بالنسبة إلى المنحرفين من الناس: ﴿إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

وأما قول (روبرت هتشنس): «ولقد بلغ العالم في آن واحد إلى الأوج في المعرفة والتكنولوجيا والتحكم في الطبيعة وإلى الحضيض في حياته الأخلاقية والسياسية، فذلك لتركهم التعاليم الدينية والأخلاقية التي هي من الدين وإنغماسهم في الشهوات وأنواع الترف.

فالعلم المادي يقوى الاعتقاد بالله إن لم تتلوث النفس بفسوقها وإجرامها وإلا فتتخذ النفس الملوثة هذا العلم على سبيل التمويه آلة لإثبات صحة ما سلكت من مسالك معوجة، وهيهات!.

فيجدر بدعاة الاسلام أينما كانوا أن يستفيدوا من هذه الغريزة التي أودعها الله النفوس البشرية وهي توجهها بصورة فطرية إلى الخالق المتعال لنشر الاسلام والتوحيد في أرجاء الأرض وإبعاد الناس عما يلوث نفوسهم من معاصٍ وآثام، كي تكون قمينة لحلول معرفة الله فيها، فتقبل الاسلام كدينٍ عالمي خالد: فيه سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. فقد قال علي (ع) معظماً أمر الدعوة إلى الاسلام والارشاد الديني أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة[1] في بحر لجي»[2]....

---

(١) نفثة: (المره من نفث). وهي ما تلقيه من فيك من بصاق.
(٢) بحرٍ لجي: واسع اللج. واللج: معظم الماء.

علة بعث الرسل (ع)

إن نظرة واحدة إلى هذا الكون الرحيب تجعلنا نجزم أن هناك دقة متناهية وانتظاماً رائعاً وقوانين رصينة ودساتير متقنة لا يمكن أن تستقصى في كل جزء من أجزاء هذا العالم، دقة يحار فيها أكبر رياضي وأعظم فيزياوي وأفطن كيماوي وأذكى عالم بالطبيعيات.

كيف لا، وهو يرى أن الكواكب تسير حول الشمس على شكل اهليلجي (قطع ناقص) بحيث تقع الشمس في إحدى بؤرتي هذا المنحني المغلق. ومعلوم أن رسم الشكل الاهليلجي من الصعوبة بمكان. ذلك لأنك يجب أن تعين نقاطاً تبعد عن البؤرتين بحيث يكون مجموع البعدين مساوياً للقطر الطويل لهذا الشكل: أي عليك أن ترسم منحنياً يكون محلاً هندسياً لنقاط يكون بعدُ كل منها من البؤرتين مساوياً إلى بعد معلوم (أي إلى قطر الشكل). ومن المعلوم أن موضوع المحل الهندسي من المواضيع الهامة التي يفهمها الطلاب بعد جهد جهيد في موضوع المنحنيات. ففي الرياضيات العالية في أبحاث الهندسة التحليلية يصعب على الطالب الجامعي حل مسائل تتعلق بالمحل الهندسي إلا إذا كان من الأذكياء. فأي عقل جبار رسم هذا المحل الهندسي وأعني به مدار الأرض حول الشمس بهذا النمط البديع عن حكمة فائقة؟ ومنَ الذي وضع هذه الدساتير الرياضية الثابتة في حركات الأرض حول الشمس وحركات القمر حول الأرض وفي الوقت نفسه حول الشمس، حتى تمكن العالم الفلكي الرياضي من أن يحصل على معادلة الكسوف (وما أصعبها) بعد عناء شديد؟.

وأصعب من رسم المنحنى الاهليلجي، رسم المنحنى اللولبي، وهو مسار الشمس في الفضاء مع كواكبها بسرعة سبعين ألف كيلومتر في الساعة متجهةً نحو نجمة في الفضاء تعد لبعدها الشاسع من الثوابت! وهي النسر

الواقع. هذا ما اكتشفه العلم الحديث قبل خمسين عاماً ليبرهن مرة أخرى على الاعجاز القرآني. وهو قوله تعالى قبل أربعة عشر قرناً: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

كيف لا يحار الانسان ولا يندهش عندما يشاهد هذا الاتقان الذي أودعه الله في ما خلق من مخلوقات، حتى جعل سطح ذرات الثلج المتساقط من السماء مشكلاً من مخمسات منتظمة أو مثلثات متساوية الاضلاع بحيث لو وضعت ذرة من هذا الثلج تحت المجهر (الميكروسكوب) لرأيت عالماً عجيباً وشكلاً في غاية الانتظام!.

ومعلوم أن رسم المخمس المنتظم من الصعوبة بمكان. ذلك لأن على من يحاول رسم ذلك أن يرسم أولاً معشراً منتظماً ثم يصل بين رأسين غير متجاورين من هذا المعشر للحصول على مخمس منتظم، وأما رسم المعشر فأمر عسير وما أعسره! عليه أن يقسم نصف قطر الدائرة إلى قسمين تكون نسبة الكل (نصف القطر) إلى القسم الأكبر كنسبة القسم الأكبر إلى القسم الأصغر، أي عليه أن يجعل القسم الأكبر وسطاً هندسياً بين الكل والقسم الأصغر، وهذا التقسيم أيضاً من الصعوبة بمكان، وهكذا دواليك.

فسبحان الذي رسم هذه المخمسات المنتظمة على سطح أجزاء الثلج بحيث كانت الأضلاع متساوية والزوايا كذلك متساوية، ومقدار كل منها ١٠٨ه (درجة).

نرى هذا الكمال المحير للعقول متجلياً في الذرة وفي المعادن وفي شبه المعادن أي في (١٠٣) عنصر حسبما اكتشف لحد الآن وفي النبات والحيوان على كثرة تنوعهما وتصانيفهما المختلفة، وفي الانسان نراه متجلياً كذلك في هذا العقل الانساني الذي منح هذا المنطق الجبار: التعميم، التجريد، الاستقراء، الاستنتاج، وهذا التقدم في العلوم الرياضية العالية دون استناد إلى تجربة مادية سابقة على حد قول (اينشتاين) أعلم علماء القرن العشرين.

كيف لا يحار الانسان في عظمة خالقه حينما يرى أنه توجد في المادة

السنجابية التي في تلافيف الدماغ ٦٠٠٠٠٠٠ خلية وتتألف كل خلية من ألوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر.

كيف لا يحار الانسان عندما يرى أن دقة الصنع قد بلغت منتهاها في حركة عضو من أعضاء البدن الانساني، فهي تفوق دقة الصنع في القنبلة الذرية التي هي نتاج العقل الانساني بلطف من الله خلال ٢٥٠٠ سنة.

* * *

إن العقل الانساني، هذا العقل الموهوب من جانب الله تعالى، هذا العقل الذي لا يعلم هذا الانسان كيف منَّ الله به عليه وكيف ركب فيه على حد تعبير (دكارت)، يرشد الانسان بصورة فطرية: أن منظم هذا الكون لا يلهو ولا يلعب[1]. ذلك لأن التنظيم يخالف اللهو وينافي اللعب فلا يخلق هذا المنظم العظيم شيئاً عبثاً وإن غايته في الخلق تتناسب مع عظمته وان هدفه في الصنع ليتناسب مع كماله المطلق.

يرشد هذا الانسان أن يقول جازماً: لا بد لخلقه من غاية ولا بد لإيجاده من هدف سام رفيع. فأنه بعد تفكر بسيط يجزم قائلاً: بما أن كل ما في هذا الكون المادي قد بلغ الحد الأقصى من الكمال، إذن وجب أن لا يشذ هذا الانسان، وهو من مخلوقات الله تعالى ـ على حد تعبير دكارت ـ عن سنَّة الكمال، فعليه أن يتكامل.

ذلك لأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يريد أن يرى في ما خلق شيئاً ناقصاً[2] فهو يريد الكمال لكل ما خلق ولو بصورة تدريجية، يرى ذلك أمراً طبيعياً.

يرى أن الطفل يولد وأن تشكيلات أعضائه من الكمال بحيث لو كتبت آلاف الصفحات في وصف خواصها وقوانينها ودساتيرها لاحتيج أيضاً إلى آلاف الصفحات وأكثر لاستيعاب هذا الكمال المودع في النواحي المادية من بدنه وقد لا ينتهي إلى نهاية البحث: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة

---

(١) ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾.

(٢) ﴿ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ سورة طه: ٥٢.

أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

لكنه يرى أن هذا الطفل فيه صفة البطش والغش والكذب والخيانة والحرص والبخل وصفات كثيرة أخرى تضاد الكمال. وفيه في الوقت نفسه بعض الصفات الطيبة، فهو أشبه شيء بخليطة من المعادن: فيها معادن خسيسة كـ(السيليسيوم) والكالسيوم والحديد والنحاس... إلى ما هنالك، وفيها الذهب الخالص. فيقول في نفسه: إن هذه الصفات الذميمة تخالف الكمال الذي يريده الله لمخلوقاته. فيجب أن تزول وأن يدخل في دور الكمال كما يعمل الكيماوي في تلك الخليطة من المعادن: يضعها في محاليل مختلفة لازالة المعادن الخسيسة والظفر بالذهب الخالص. فإذن يجب أن تزول هذه الصفات الذميمة في الطفل وفي كل انسان كي يظهر الذهب الخالص فيه.

فما هو هذا الذهب الخالص يا ترى؟ ومن هو ذلك الكيماوي الذي يعرف هذا الانسان المخلوط من صفات خسيسة وقابليات طيبة معرفة حقيقية فيعرِّفه الحق والواقع، يعرفه إلى خالقه وبارئه، يقربه إليه تعالى بدساتيره القيمة وتعاليمه الالهية ويبلغ بهذا الانسان مراتب الكمال الانساني، يوصله إلى درجات من عوالم القدس حتى يصبح أعلى مرتبة من الملائكة.

مَن هو هذا الكيماوي الذي يتفضل على هذا الانسان بدساتير الكمال دونما أجر (إلا المودة في القربى) ومن أين يجب أن يستقى سنن الكمال التي يتحقق بها الكمال الانساني

إن الكيماوي (دونما تشبيه) هو النبي المرسل والذي يوحي سنن الكمال إنما هو الله جلّت عظمته. ذلك لأن الله هو خالق الأرواح ومنشئها وهو العالم بخواصها وصفاتها وقابلياتها وطرق تكاملها.

فليس لهذا الانسان الناقص ـ مهما سمى نفسه فيلسوفاً ـ أن يأتي بسنن تكامل النفس، إلا إذا كان مغروراً بعيداً عن إلهام الفطرة جاهلاً غراً ملوثاً بما اجترحت يداه. كـ(كارل ماركس) وأضرابه. فقد كان يقول مغروراً برأيه: «آرائي... أفكاري». ويقول لمن يخالفه في الرأي: برجوازي...

كان أنانياً يختلق التهم، حسوداً يعامل من يخالفه في الرأي معاملة ملؤها التحقير والازدراء، كان فيه شهوة الهدم والتخريب وقد استخدم الأسلحة النارية وسيق إلى الشرطة لافراطه في السكر والعربدة! كان ينقطع عن الجامعة ويذهب إلى السكر والدعارة، يترك (بون) مقر الجامعة ويذهب إلى (كولون) في جوارها ويبتغي فيها ملاهي السمر.

كان (كارل ماركس) مسلوب العاطفة فلم يذهب إلى بلده حين مات أبوه وبقي في برلين وهو عميد الأسرة بعد والده. واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث فمال إلى نصيب أمه واخواته. وكان قبلاً قد أرهق أباه في طلب المال. وقد انتحرت بنتاه (لورا وأختها).

عقد (كارل ماركس) مقاولة مع الجرائد وأخذ مبلغاً ولم يف بمنطوق العقد. وعقد اتفاقية مع (ألكسي) على كتابة نظرياته الاقتصادية هذه التي لم تنل نصيباً من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع (الحياة) وقبض (١٥٠٠) فرنك وعقد في نفس الموضوع اتفاقية أخرى مع شخص آخر ولم يف بكلتيهما.

نعم، إن رجلاً هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشح منه هذه الأباطيل بأن يقول: «إن الديانات والعقائد جميعاً إنما هي انعكاسات الضرورات الاقتصادية». إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونية عن طريق الهدم والافساد!.

وكم رأينا من الفلاسفة جاؤا بنظريات مضلة تبعد البشر عن جادة الصواب، فكان بعضهم يقول في مقتبل العمر شيئاً ثم إذا بلغ الخمسين قال شيئاً يناقض ما قاله أولاً حتى إذا ناهز السبعين خالف ما قاله أولاً وثانياً مع ما هنالك من اختلاف في الآراء فيما بينهم!.

(أوكوست كنت) فيلسوف فرنسي، كان قد بلغ من الذكاء مرتبة مرموقة، كان إذا طالع كتاباً مرة واحدة استوعب ما فيه. كان يحضر في مجلس درسه (في بيته) علماء من الدرجة الأولى لاستماع محاضراته وألَّف كتاباً ضخماً في ٦ مجلدات في تحقيق الفلسفة. إلا أنه مع ذلك كان ناقصاً من نواحٍ شتى، كان سيِّء العشرة لا يأتلف بالناس. ثم إنه عشقِ فتاة في أواخر أيام

حياته وماتت هذه الفتاة قبل الوصال فتأثر وبنى معبداً ورتب له عبادات وأسس ديناً جديداً أسماه «دين الانسانية» وتفرق عنه تابعوه وأخذ الناس يسخرون منه.

وكان الفيلسوف الدكتور (جود) ملحداً فأصبح موحداً وكان يقول إني كنت لا أفهم شيئاً عن الكون عند تخرجي في الجامعة بل كنت حيواناً على شكل إنسان.

كما كان الفيلسوف الانكليزي (جيمس جانيس) ملحداً فغدا موحداً.

وكم من فلاسفة تبنوا النظرية المادية! لظلمات في نفوسهم وقالوا بأزلية المادة (دون دليل وبرهان) قالوا: إن المادة هي التي تخلق العقل وتنظم العالم أيما تنظيم وتضع قوانين فيزياوية وكيمياوية ودساتير فلكية ومعادلات رياضية دقيقة إلى ما هنالك. وقالوا إن المادة هي العقل الجبار المنظم لهذه العوالم المختلفة بهذه الدقة المتناهية التي لم يصل إلى حقائقها العقل البشري ولا يزال يعترف أنه «لا يعلم شيئاً»، من هؤلاء الماديين أيبكور، كارل ماركس، بوخنر، فورباخ. إنهم خالفوا الفطرة وتجليات العقل البشري ودنسوا العالم بترويجهم نبذ الفضائل وسحقها والانحلال الخلقي والاباحية والشذوذ الجنسي كفرويد وغيره.

حتى قال بعضهم: إن الفيلسوف إذا كان فقيراً فان فقره وعجزه يجعلانه أن يعتقد باله خلاق. ولكن لو كان ثرياً فأنه لا يؤمن بذلك ويكون مادياً، ذلك لأن فكرة الآله إنما أتت من النواحي الاقتصادية من الفقر والاضطرار؟.

انهم كذبوا في ما قالوا. فان (دكارت) الفيلسوف الفرنسي كان موحداً وكانت له أملاك في فرنسا وعاش طيلة حياته عيشة هنيئة وكذلك أفلاطون.

أبيقور كان فيلسوفاً مادياً وقد تربى في بيت فقر وبؤس وعاش كذلك ومثله: روسو.

فليس الفقر والغنى والبيئة عوامل تؤثر في توجيه الفرد نحو المادية أو التوحيد كما يدعي الماديون وإنما العامل الحقيقي عمل الانسان وما يترشح

منه من حسنات وسيئات: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

* * *

فالله تبارك وتعالى وهو معطي الكمال لا يترك هذا الانسان سدى: ﴿أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾.

فالله يهيىء لهذا الانسان من يتصدى إلى تكميله وتقريبه إلى ربه ومعرفة خالقه وتلك غاية الغايات. فقد جاء في حديث قدسي، أنه تعالى يقول: ﴿كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف﴾.

وإن باب المعرفة هو العبادة فبالعبادة بما فيها من أعمال صالحات وتجنب المحرمات وتطهير النفوس، تصبح النفس قمينة لمعرفة خالقها، كي تنال الحب الآلهي وذلك أسمى الغايات. لذلك حصر الله تعالى علة خلق الجن والانس في العبادة، ذلك لأن العبادة هي سبيل معرفة الخالق ووسيلة التكامل الانساني في الحياة الدنيا، بقوله جل من قائل: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾.

الانسان مريضٌ نفسياً في هذه الدنيا لما يحمل من صفات ذميمة وخصال مذمومة وبطش وطيش. فالأنبياء (ع) هم معدلو هذا الانسان ومانعوه عن طيشه وغوايته لذلك يقول علي (ع): «أرسل رسولاً ليزيل به علتهم» ويقول (ع) في مقام آخر: «أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم، ويهدوهم إلى معايش تحييهم».

فالأنبياء لم يمنعوا الناس عن تعلم العلوم! بل أثاروا فيهم دفائن العقول حتى كانت هذه المكتشفات في شتى النواحي العلمية من فلك ورياضيات وطبيعيات وطب وكيمياء إلى ما هناك في الحضارة الاسلامية، وأصبحت أوربا مدينة في مكتشفاتها للحضارة الاسلامية الزاهرة في القرون الوسطى. وبقوله عليه السلام: «ويهدوهم إلى معايش تحييهم» أراد أن الأنبياء (ع) هم

منظمو الحياة الاقتصادية بدساتيرهم العادلة وتعاليمهم الخالدة.

فالأنبياء هم مطهرو هذا الانسان مما ألم به من دنس ورجس وموصلوه إلى أقصى مراتب الكمال. لذلك يقول الله تعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

وبقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾.

وبقوله: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾.

وبقوله: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾.

وبقوله: ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون﴾.

وبقوله: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾.

وبقوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾.

وهكذا سنَّ الله تعالى وهو العارف بحقيقة هذه النفوس التي خلقها وصفاتها وطرق تكاملها، سنن التزكية والتطهير لهذا الانسان وأوصى بها أنبياءه (ع)، وأمرهم أن يبلغوا رسالاته حتى جعل الحجر المغصوب في الدار سبب خرابها. فقد جاء في الحديث: (الحجر المغصوب في الدار رهن خرابها).

وكل ما جاء في الدين الاسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات كلها ترمي إلى تطهير النفوس وتزكيتها وإبلاغها أسمى مراتب الكمال لتزداد معرفة بالله. ذلك لأن الله قد سخر كل شيء من شمس وقمر وغيرها لهذا الانسان ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر﴾. ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

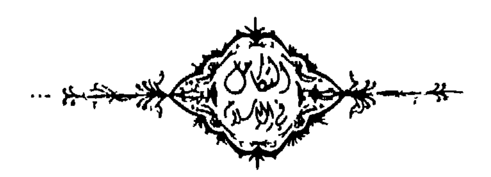
وخلق الانسان لمعرفته تعالى كما جاء في حديث قدسي: ﴿خلقت الأشياء لأجلك وقد خلقتك لأجلي﴾.

ولذلك جعل الله أول منِ خلق من الأناسي ـ وهو آدم (ع) ـ نبياً، اهتماماً

بأمر التكامل الانساني وتحقيقاً لسنة الكمال في الكون.

فطوبى لنفوس عرفت أسرار الخلق فتقربت إلى ربها بعبادات يتخللها خشوع وخضوع[1] وأعمال صالحات وإيثار وتفانٍ في هداية الناس إلى الدين الاسلامي الحنيف.

فقد قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.



---

(١) لا بأس بذكر هذا الحديث، فالعمل به مزيل للأدران النفسية والهواجس الشيطانية في مثل هذه الظروف الحالكة:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى مناد: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً. فيقومون وهم قليل ثم يحاسب مَن بعدهم».

هل الاسلام سير تقدمي أم رجعي

تدور كثيراً على الألسن كلمة (الرجعية) بمناسبة ودون مناسبة. فلو أن رجلاً حمد الله تعالى وشكره تجاه نعمه التي لا تعد ولا تحصى بصلاة يصلّيها لربه بإخلاص، قيل إنه رجعي، يجترُّ ما أنتجته العصور الأولى! حين أن شكر المنعم أمر ضروري يحكم به الفطرة والعقل، ذلك العقل الذي لم يلوث بالذنوب من الآثام. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عُبِد به الرحمن واكتُسِبَ به الجنان».

حتى إني لأتذكر جيداً عندما كنت أدرس في النجف الأشرف قبل حوالي ٣١ عاماً أبى قسمٌ كبير من الطلاب المصلين من أداء صلاتهم عند الظهر في سفرة مدرسية إلى الكوفة، خوفاً من أن يوصموا بالرجعية والخرافة وكم رأيت من مدرسين ومدراء معارف كانوا يخفون صلاتهم عمن يصمونهم بالرجعية حفظاً لمراكزهم وابتعاداً عن هذه الوصمة: وهي عدم مواكبة مفاهيم التقدم في القرن العشرين.

وإني لأتذكر أيضاً أن شاباً من أسرة مرموقة كان قد رجع قبل حوالي ٢٧ عاماً من الجامعة الأمريكية ببيروت، (وهي جامعة أسسها قسٌ من القسيسين بعد أن جمع مالاً كثيراً في أمريكا) كان يصم جميع الأعمال الدينية من صلاة وصوم وزكاة... بالخرافة والرجعية، وكان يقول بضرس قاطع: «إن بلاء الشرق دينه، فلو أزيح هذا الدين فهناك التقدم وهناك الازدهار!».

ولكن يقول بعض الشباب لمن يحضر مجالس البالو ويرقص مع الفتيات ويحتك بهنّ من طريق غير مشروع إنه تقدمي قد واكب الحضارة الراهنة وإذا قبّل فتاة أجنبية في الترام أو في الشارع العام قيل له أنه عصري خرج عن المفاهيم البالية. وهذا ما نشاهده في الغرب.

* * *

علينا أن نحلل مفهوم الرجعية تحليلاً دقيقاً على ضوء العقل والعلم الصحيح.

للانسان جنبتان: جنبة مادية بحتة: الأكل والشرب ووسائل النقل والاستضاءة ووسائل النسج والحياكة ووسائل التكلم من بعيد إلى ما هنالك، ومنها الجنبة العلمية وهي العلم بالعلوم المادية التي تدعمها التجارب والعلوم الرياضية. فهي أيضاً مادية.

وهناك جنبة روحية، نفسية بعيدة عن عوالم المادة سوف نأتي عليها بعد قليل.

ومما لامراء فيه أن الانسان بفضلٍ من الله تعالى وإلهامه صار يتقدم منذ آلاف بل ملايين السنين، (على ما اكتشفه علم الاشعاع) في العلم المادي أي في تطوير وسائل الزراعة ونوع الزراعة وتطوير وسائل النسج والحياكة والاضاءة... الخ. حتى بلغ مرتبة صار يستفيد من تحطيم الذرة وما عبأ الله تعالى فيها من طاقات هائلة والاشعاع الذري... إلى ما هنالك.

فلو أن رجلاً آثر أن يستضيء بنور المصباح الزيتي (دون ضرورة طبية) في وقت تتوفر فيه الكهرباء فهو رجعي في تطبيق هذه الوسيلة المادية.

ولو أن رجلاً أراد أن يسافر في عصرنا هذا إلى بلد ما، في عصر تتوفر فيه السيارات والطائرات وآثر أن يركب البغال والحمير فهو رجعي في استعمال وسائط أكل عليها الدهر وشرب دون مبرر عقلي.

وهكذا في النواحي العلمية وأعني بها (العلم المادي). فلو أن رجلاً بقى يعتقد بعد إطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية وسير رجال الفضاء حول الكرة الأرضية مرات ومرات، صار يعتقد: أن الأرض لا تزال تستند على قرن ثور والثور على بطن حوت: هذه الخرافة التي جاءتنا من بين الأساطير اليونانية فهو رجعي في اتجاهه العلمي في النواحي المادية من هذا الكون الرحيب.

ذلك لأن العلم الحديث في النواحي المادية قد خرج عن طريقة الحدس والتخمين والظن إلى الطرق التجريبية والمشاهدة والاستنتاج.

كان العالم اليوناني أو الفيلسوف الاغريقي يعتقد أن أكمل الأشكال الدائرة، ولذلك صار يقول: (دون أي حساب أو مشاهدة) إن الأفلاك دائرية، أي: أن الشمس مثلاً تدور حول الأرض على شكل دائري. وصار يقول: إن أكمل الأشكال المجسمة هو: الكرة، ولذلك يجب أن تكون الكرة الأرضية على شكل كرة! حين أن الأرض (على ما ثبت، بعد اكتشاف التلسكوب وتقدم الرياضيات)، تدور حول الشمس على شكل اهليليجي (قطع ناقص) وإن الشمس هي إحدى بؤرتي هذا المنحنى المقفل. وإن شكل الأرض ليس بكروي تماماً، وإنما يقرب من الكرة وبحث ذلك يطول.

وأما في عوالم تكامل النفس وأعني بها الناحية النفسية، فهل اتباع ما أمر الله تعالى به ورسوله من الرجعية في شيء. وهل اتباع ما أمر الله من دساتير أخلاقية في دائرة العفاف وصيانة شرف الأسرة وصيانة المجتمع من الفساد والانحلال الخلقي سير رجعي، يجب أن ننبذه ونفكر في شيء جديد.

فإذا كان ينهانا رسول الله (ص) عن النظرةالشهوانية الخبيثة إلى المرأة الأجنبية، هذه النظرة التي تجلب معها الفساد في الأرض، فتؤدي إلى تلويث النفس ومن ثمَّ إلى تلويث العقل، فتلويث العقيدة على حد قوله تعالى: ﴿كذلك حقَّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ إذا كان ينهانا صلوات الله عليه من نظرات السوء بقوله: «الأولى لك والثانية عليك» فهل اتباع هذا الأمر سير رجعي، يجب أن تقوم مقامه مراقص راقية تكون المرأة فيها نصف عارية، يحتضنها رجل أجنبي عنها، وتحتك جميع أجزاء جسمه بجميع أجزاء جسمها ويضمها إلى صدره ويراقصها، وقد تطفأ الأنوار عمداً من حين لآخر ليتمكن الراقصان مما لا تسمح به الأضواء. وقد تجد زوجها قابعاً في ناحية من المرقص وكله إعجاب بما تؤديه زوجته ويؤديه زميلها من حركات رشيقة، ولا يفوته أن يهنئهما بعد فراغهما تهنئة حارة لنجاحهما في رقصتهما.

هذا في المراقص الراقية. وأما في المراقص الشعبية، في مراقص العاملات والخادمات والعمال والمسيطرين على النساء، المتاجرين

بأعراضهن، فحدث عنها ولا حرج، فانه لا يكاد يكون فيه شيء محظوراً[1].

وقد يعلم الزوج أن هناك لزوجته خَدناً أو أخداناً وقد تعلم الزوجة أن لزوجها خليلة أو خليلات، ولكن يسمح كل منهما للآخر بما يرتكبه من فسق وفجور، وقد يخرج الرجل من بيته ويدع ضيفه الكريم يفعل ما يشاء!.

وقد يكون للزوجة زوج وعشيق ويعيش الثلاثة في بيت واحد دونما اكتراث. وهذا ما يُدعى بالتعايش الثلاثي(Le menage a trois) والكاتب الإفرنسي الكبير (أناتول فرانس) كان عشيقاً من هذا النوع.

وقد بلغ الاستهتار بالأعراض في أمريكا حتى أنك لا تجد فتاة بلغت سن الرابعة عشرة إلا ولها خدن يظل يعاشرها معاشرة الزوج لزوجته. حتى بلغ التسافل إلى درجة: أن الفتاة إن لم تكن قد اتخذت قبل الزواج خدناً يذهب بعرضها لا تُعد فتاة اجتماعية قد عركت الحياة!!.

فلا رجعية عندما ترتكب الفاحشة علناً على الأرصفة في بعض أزقة باريس أو أزقة لندن، وترتكب أيضاً في حدائق الجزيرة في القاهرة على الحشائش وخلف الأشجار كما تفعل البهائم! ولا رجعية في لبس المرأة (المايوه) وأخذ تصويرها من قبل المصورين بشكل مخزٍ منافٍ للآداب والفضيلة على مرأى من العابرين! ولا رجعية حين يرتكب وكيل وزارة الخارجية الانكليزية الفاحشة علناً مع جندي من جنود الحرس الملكي في أثناء تأدية هذا الجندي لوظيفته في منتزه عام وعلى قارعة الطريق.

كل ما هو من هذا النوع يمثل الرجعية أجلى تمثيل، لأنه رجوع إلى الحالة البدائية الأولى قبل بعث الرسل (ع) كما يحدثنا التاريخ وهو رجوع إلى ما يقوم به بعض القبائل المتوحشة في يومنا هذا في آلاسكا وأواسط أفريقيا. مع العلم أن ما نراه في بعض الأمم المتحضرة في هذا اليوم من تقدم مرموق في صقع

(١) من مجلة حضارة الاسلام، السنة الثالثة.

هتـك الأعراض هو تقدم لم تبلغ الأمم البدائية الأولى ولا الأمم المتوحشة في هذا العصر شأوَه.

إن اختراع السينما من مفاخر العصر وكذا الراديو والتلفزيون. كل ذلك من النواحي العلمية: (العلم المادي). ولكن لو استعمل كل أولئك في تعليم الشاب طرقَ المغازلة وهتك الأعراض والانغماس في الشهوات، فقد استعملت في إرجاع البشر إلى رجعية مُهلكة أو (ارتجاع مميت) وإلى حيوانية بدائية. نعم تتجلى التقدمية في هذه الآلات وغيرها من الناحية العلمية: (العلم المادي)، إلا أن الرجعية كذلك تتجلى فيها بأعمق مظاهرها حين تستعمل للافساد في الأرض: ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

انه تعالى يقول: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[1].

﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾[2]. ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة[3].

* * *

فكل ما يؤدي إلى الافساد في الأرض وتلويث النفوس وإزالة العقائد التي يدعمها العقل والمنطق الصحيح عمل رجعي يأخذ بهذا الانسان المسكين إلى أسفل السافلين وإن سماه البعض تقدماً!.

وإن الدساتير الأخلاقية الاسلامية التي بها تتكامل النفس الانسانية هي دساتير ثابتة لا تقبل التجديد والتحريف. حتى تكون في زمن ما من النوع التقدمي وفي زمن آخر من النوع الرجعي. ذلك لأن الله تبارك وتعالى أعرف بحقيقة النفس الانسانية وطرق تكاملها: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[4]. ذلك لأن النفس من صقع ما وراء الطبيعة، وليست من المادة في

(١) سورة ص: ٢٨.
(٢) سورة الانفطار: ١٤.
(٣) سورة عبس: ٤٢.
(٤) سورة الملك: ١٤.

شيء، والله الذي خلق الأرواح يعلم طرق تكاملها والدساتير التي تؤدي إلى تطهيرها وتزكيتها ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

والفيلسوف بصفته فرداً من الأفراد مملوء بالنقائص. فمهما وضع من دساتير في النواحي الأخلاقية والتكاملية لا يأتي بشيء كامل لا نقص فيه، لنقائص في نفسه ولتأثره ببيئته ومحيطه، وإن تاريخ الفلسفة يؤيد ما أقول. فقد تضاربت آراء الفلاسفة ومشاربهم ونوازعهم وكلها بشرية بعيدة عن معالجة الأرواح المريضة. فبعد أن كانت نفس الفيلسوف مريضة بأنواع المرض وشتى النقائص، أنىًّ له أن يصلح نفوساً أخرى مريضة، وقد قالوا: «فاقد الشيء لا يُعطيه».

فالاسلام يشجع كل جديد في مجالات العلوم المادية على اختلاف أنواعها سواء في العلوم الرياضية أو الفيزيائية أو الكيميائية أو الفلكية أو الطبيعية أو الطبية أو غيرها فقد كانت مكتبة (دار الحكمة) ببغداد في العهد العباسي تحوي ٤٠٠٠٠٠٠ كتاب وان مكتبة أحد الخلفاء الفاطميين بمصر: (العزيز بالله) كانت تحوي مليوناً ونصف مليون كتاب. وقد اكتشف المسلمون الفوسفور وطريقة استحضار الأوكسيجين والهيدروجين وحامض الآزوت وحامض الكبريت. وهم مؤسسو أول مرصد فلكي في أشبيلية باسبانيا، وهم واضعو نظام الامتحانات في كلية الطب.

وما نراه من عدم اعتناء بعض المسلمين اليوم بالنظافة لا يدل على أن الاسلام سير رجعي، فقد جاء في الحديث: النظافة من الايمان.

وقد قال الطبيب المؤرخ الأمريكي (ويكتور روبنسن): «إن أوربا كانت في ظلام حالك بعد غروب الشمس، بينما كانت (قرطبة) تضيئها المصابيح العامة، كانت أوربا قذرة، بينما شيدت في قرطبة ألف حمّام. كانت أوربا تغطيها الهوام، بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة. كانت أوربا غارقة في الوحل، بينما كانت قرطبة مرصوفة بالشوارع. كانت سقوف القصور في أوربا مملوءة بثقوب المداخن، بينما كانت قصور قرطبة (في الأندلس) تزينها الزخرفة العربية العجيبة. كان أشراف أوربا لا يستطيعون كتابة أسمائهم، بينما كان أطفال

قرطبة يذهبون إلى المدارس. وكان رهبان أوربا يلحنون في تلاوة سِفر الكنيسة، بينما كان مسلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الاسكندرية العظيمة».

ومن عجائب الرهبان في القرون الوسطى أن البعض منهم كان يعذب جسمه كمثل كامل في الدين والأخلاق! فالراهب (ماكاريوس) نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام. وكان يحمل دائماً قنطاراً من حديد، وصاحبه الراهب (يوسيبيس) كان يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر.

وقف عبد الراهب (يوحنا) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً وإنما يستترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر. ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش. وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء. وأزهد الناس وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس.

يقول الراهب (اتهينس): إن الراهب (انتوني) لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره. وكان الراهب (ابراهرام) لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة وقد قال الراهب الاسكندري بعد زمن متلهفاً: واأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات!.

وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً[1].

يقول العلامة (سديو): «كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلَّت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوربا، فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها».

---

(١) من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

يقول الأستاذ (بيري): «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون».

* * *

فلا بد لهذه النفس الانسانية بصفتها من عالم المجردات من غذاء يتناسب وواقعها. وغذاؤها الروحي هو توجهها إلى الحق المتعال بعبادة وأخلاق ملكوتية وأعمال صالحات. وهذا الغذاء سبب لاحيائها، على حد قوله تعالى:

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾[1].

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تُحشرون﴾[2].

إن الاسلام بصفته دين العقل والمنطق الصحيح يعطينا هذا الغذاء الروحي الذي عليه يتوقف حياة النفوس وإحياؤها. وإن هذا الغذاء لا يتنافى مع الغذاء المادي الذي تحققه المكتشفات الحديثة بل إن هذه المكتشفات تؤيد عظمة الله في أرضه وسمائه، وكلها على ما فيها من دقة نوع تسبيح لله تعالى إذ أن التسبيح إنما هو تنزيه الله تبارك وتعالى عن كل نقص وكل عيب وإسناد كل كمال إليه.

ففي المخترعات تتجلى ما أودع الله من عظيم الصنع وهندسة دقيقة رائعة في هذا الكون الواسع الأرجاء. ولولا ذلك لما تمكن المخترع من جمع هذه الشتات وتركيبها بفكر وتدبُّر وحسابات رياضية. وما الفكر إلا موهبة ربانية لا دخل لجسامة المادة وصغرها في تقويته وتضعيفه.

كان يقول (باستور) الموحِّد: «لا تنافي بين العلم والايمان، وكلما زاد علم الانسان زاد إيمانه».

واني أضيف على كلام (باستور) قائلاً: شـريطة أن لا تتلوث النفس

(١) سورة الانعام: ١٢٢.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

الانسانية بفسوقها وآثامها. فان الفسوق والآثام تحجب العقل الفطري من أن يعمل عمله: وهو توجيه الفرد إلى الله المتعال. إنه تعالى يقول: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[1].

فالشاب الذي يريد تلويث نفسه إنما يتخذ كلمة (الرجعية) وسيلة للانفلات عن كل فضيلة، ولكي يُدخل نفسه في زمرة المثقفين، فيبرر موقفه مما هو فيه من انحلال خلقي! حين أن الفضيلة هي هي لا تتبدل بصياغة كلمات فارغة تأبى الانطباق مع واقع الاسلام وما جاء به الدين الاسلامي من قوانين ودساتير تكاملية للنفوس البشرية التائهة في شتى الحقول.

فلو رجعنا إلى ديننا وما أمرنا بالتمسُّك به من أخلاق وفضائل وأعمال صالحات ومن تجدد في العلوم المادية ومواكبة الحضارة الحاضرة في المخترعات والمكتشفات ولفظنا ما جاء به الغرب المادي في حقول الفلسفة والأخلاق والاجتماع لعلمنا إذ ذاك أننا تقدميون بأسلوب إيجابي، غير رجعيين إلى جاهلية جهلاء.

ولو كان سير التدريس سيراً يقرب الفرد إلى الله تعالى ويذكره عظمة الله ويخوفه من عذاب الله، لرجع العالم الاسلامي إلى ما كان عليه من حضارة زاهرة، لا في عوالم النفس فحسب بل في عالم المادة أيضاً.

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[2].

ولا بأس بذكر هذه الأحاديث، ليُعلم أن الاسلام سير تقدمي لا في حقل المادة فحسب بل في حقل تكامل النفس أيضاً وذلك لابلاغها أسمى مراتب الكمال وإلى الهدف الذي أوجد الله النفس في أرضه لأجله.

فقد جاء في الحديث: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[3]... وجاء أيضاً: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة

---

(١) سورة الروم: ١٠.

(٢) سورة التحريم: ٦

(٣) من لا يحضره الفقيه ٣/٩٤.

فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم».

وورد عنه (ص) أنه قبل يداً ورمت من كثرة العمل وقال: «إن هذه يد يحبُّها الله ورسوله».

وعن النبي (ص): «اتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة».

وعن جعفر بن محمد عليهما السلام[1]: «إزرعوا واغرسوا، فلا والله ما عمل الناس عملاً أحب ولا أطيب منه». وأيضاً عنه (ع): «لا تكسل عن معيشتك فتكون كلاً على غيرك».

وفي خبر آخر: «ملعون من ألقى كلَّه على الناس».

في الوسائل في الجزء الثاني ص ٥٧٤ في حديث عن علي (ع): «يا معشر التجار، اتقوا الله. . . إلى أن قال: «تناهوا عن اليمين وجانبوا الكذب وتجافوا عن الظلم وأنصفوا المظلومين ولا تقربوا الربا وأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين».

وقد قال علي (ع) كما في نهج البلاغة في كتابه (ع) للأشتر النخعي: «فامنع من الاحتكار، فان رسول الله (ص) منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع».

وعن علي (ع): «أعلموا أن أبواب الرزق مقفلة، فافتحوها بالحركات فان في الحركات بركات».

وعن رسول الله (ص): «من وَلِيَ لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليست له زوجة فليتخذ زوجة، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليست له دابة فليتخذ دابة».

«من كان معه فضلُ ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومَن كان له فضلُ زاد فليعد به على من لا زاد له».

---

(١) في الكافي ص ٤٠٤.

ولا بأس بذكر ما قاله: (أرثر هاملتون) عن الاسلام. إنه يقول:

«لو توخّى الناس الحق، لعلموا أن الدين الاسلامي هو الحل الوحيد لمشاكل الاشتراكية، هو الذي يتسع للغني والفقير والقوي والضعيف جنباً إلى جنب».



لا رجعية في الاسلام

الرجعية هي الرجوع إلى الوراء في الوسائل المادية للحضارة والبقاء على النمط القديم في فن الزراعة والصناعة ووسائل النقل والتنوير إلى ما هناك من الوسائل المادية. أما ما يتعلق بتكميل الروح الانسانية وتهذيبها أو توجيهها إلى خالقها وصانعها فذلك ما ليس للبشر أن تناله يده، ذلك لأن اليد البشرية مهما كانت سليمة ونظيفة، فهي في واقع الأمر ملوثة بميول شتى وشهوات ونزوات وغرائز لا مفر منها. ولقد شاهدنا ذلك فيما كتبه الفلاسفة في الأخلاق والمثل العليا وما تبنوا من فلسفات زائفة، متضاربة، إن كانت قد أصلحت جانباً فقد أفسدت جوانب شتى لا تعد.

فوجب بحصر عقلي أن تأتي السنن والنواميس الكمالية والخلقية من منبع فياض نمير، من خالق هذه النفوس، من الله العلي القدير، لتهدي الناس إلى سبل السلام.

يقول آينشتاين: «العلم يخبرنا بما هو كائن، ولكن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكـون»، ويريـد آينشتاين هنـا بالعلم: العلم المادي...

فلا رجعية في الرجوع إلى ما سنَّ الله تعالى من قوانين ونظم في شتى الحقول التكاملية لهذا البشر الذي دأب أن يفسد في الأرض، ﴿والله لا يحب الفساد﴾[1]. وهو القائل: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[2]. فسن قوانين في حقل الكمال البشري، في الأخلاق والشؤون الاجتماعية والعائلية من قبل

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) سورة الأعراف: ٥٦.

الفلاسفة وغيرهم إنما هو مخالفة لما أراده الله من كمال للناس في هذه الأرض، إنما هو إفساد وعُتُوٌّ في الأرض، والله تعالى يقول: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[1]. ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[2]. ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[3].

نعم، لعلماء الدين أن يسنوا بعض القوانين على ضوء القرآن والسنة النبوية مستخدمين في ذلك علم الأصول فيما يستجد من حوادث، شريطة أن لا تعارض النصوص السماوية الصريحة في شيء.

وللبشر أهواء، تتغير من حين لآخر، فيرى ما أمر الله به، في يوم، صحيحاً، وفي يوم آخر، غير صحيح، فيتبادر له أن لكل زمان قانوناً خاصاً به ويجب أن تتبدل القوانين حسب الأزمنة.

ليت شعري، هل الفضيلة، في يوم من الأيام، يجب أن تنقلب إلى رذيلة؟ حتى يقوم مقام الزواج الشرعي الزواج الحر[4]، كل ذلك لأن هناك تطوراً يجب اتباعه، والجمود هو الموت بعينه!.

أو يقوم مقام الزواج الشرعي الزواج الثلاثي:

وهو أن يعيش الزوج مع زوجته في بيت ورجل ثالث معهما كما بينا سابقاً. أي تكون الزوجة خليلة لرجل آخر غير الزوج، وهم يعيشون معاً في دار واحدة.

---

(١) سورة البقرة: ٦٠.

(٢) سورة الرعد: ٢٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٤) الزواج الحر: هو الزواج دون أي عقد أو ميثاق. ويقول المتطرفون الحب أفضل دافع للزواج، فموته سبب الطلاق. وقد أخذ يتفشى، ومع الأسف، هذا النوع من الزواج في المجتمعات الغربية لا سيما في الولايات المتحدة.

وهل من التقدم تعاطي الخمور وقد نهى عن ذلك الدين الاسلامي والطب الحديث، فقد جاء في الحديث: «شارب الخمر كعابد وثن».

وهل أكل الربا من التقدم في شيء وإن درهماً منه يعادل (من حيث الاثم) سبعين زنية مع المحارم في بيت الله الحرام، كما هو مؤدى حديث نبوي.

وهل ترك الصلاة من التقدم في شيء، وهي مناجاة بين العبد والمعبود وشكر تجاه نعم المنعم جل جلاله، تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار﴾[1]، وهي خير وسيلة لإزالة القلق والاضطراب النفسي ومنع الانتحار[2].

وهل الصوم يعارض التقدم، وهو لاذابة المادية في نفس الانسان كي يشعر بجوع البائس المسكين، وهو نوع اقتصاد للتوفر على قوت الفقير، لو طبق تطبيقاً صحيحاً.

وهل الحج رجوع إلى الوراء، وهو مؤتمر اسلامي رفيع لو أستفيد منه وعروج إلى مقامات القدس في تلك المواقف القدسية الرهيبة في بيت الله الحرام.

وهل الوضوء أو الغسل خرافة من الخرافات وهي طهارة معنوية يستقبل بها العبد مولاه، يستقبله بهذه النظافة الظاهرية التي تؤثر في طهارة النفس، ذلك لأن العبد لا يأتي بهما إلا تقرباً إلى الله تعالى.

وهل الذهاب إلى المساجد يناقض التقدم؟ وهو كسب إفاضات ربانية ينشط بها العبد كي يستقبل أمور الدنيا استقبالاً لا جشع فيه ولا بغيّ ولا فساد.

---

(١) سورة ابراهيم (ع): ٣٤.

(٢) في كل ثانية تقع حادثة انتحار في أمريكا. فالغرب مصاب بقلق نفسي وأمراض عصبية وجنون من جراء فقدان الايمان أو ضعفه.

وهل قطيعة الرحم من التقدم في شيء، حين أنٍ صلة الرحم خيرٍ وسيلة للتساند الاجتماعي، وهل تحقير الأبناء آباءهم، لأنهم لا يعلمون شيئاً عن العلم الحديث، أمر تقدمي، أم دليل على الخبث ونكران الحق وعدم الوفاء وتكبر وتجبر على من أولاه أنواع العطف من نفسه وماله؟.

وهكذا نرى، ليس في الاسلام ما يؤدي إلى التأخر الخلقي والتسافل النفسي، بل كل ما فيه تقدم في حقول شتى، في حقل النفس والأخلاق والتقرب إلى الله المتعال وفي حقل الاجتماع والقضاء والسياسة والاقتصاد وفي حقل العلوم المادية.

* * *

الاسلام دين التقدم والازدهار، فقد كان للمسلمين الأوائل الفضل الأكبر في التقدم العلمي في مختلف مجالاته، سواء في ذلك: المجال العقلي والفلسفي والمجال الأدبي والاجتماعي ومجال العلوم الكونية كالطب والكيمياء والفيزياء والعلوم الطبيعية والرياضية، إلى ما هنالك.

فقد ظلَّ العالم العربي المحصور ضمن حدود شبه الجزيرة العربية عالماً غُفلاً لم يبدِ أي ازدهار ثقافي أو ما يدل على ذلك إلى أن تم انتشار الاسلام. تشهد بذلك الجامعات في بغداد و(سالرنو) و(القاهرة) بل وفي (قرطبة) من بلاد الأندلس.

فقد أشاد رسول الله (ص) بنيان العلم أيما إشادة، وهو القائل: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب». وقد سئل علي (ع) عن مواضيع شتى في شتى العلوم فأجاب بالبديهة وهو المكتشف لقانون (أرخميدس) وقانون الأجسام الطافية. يظهر ذلك مما حل من مسائل[1] لذلك كله، يحق لمؤرخ غير متعصب من مؤرخي فرنسا أن يقول:

«لو لم يكن حادث اغتيال علي لكان العالم الاسلامي قد شهد تحقق تعاليم محمد في المزاوجة بين العقل والشرع وفي تجسيد المبادىء الأولى للفلسفة الحقة والعمل الايجابي الخلاق».

---

(١) راجع كتاب: التكامل في الاسلام، الجزء الثاني ص ٤١٩ - ٤٢٢

لاحظوا الروح التقدمية في كلمات الصادق (ع)[١]، فقد قال ما مؤداه: «إن استنارة القلب هي روح العلم»، ثم يقول بالنسبة إلى العلم نفسه: «الصدق هدفه، والالهام دليله، والعقل مستقره، والله موجهه».

حقاً، إن المكتشفات الحديثة قد تجلت فيها ما أبانه الصادق سلام الله عليه في بيانه: فإن تاريخ العلوم يذكر لنا أنه قد كان للالهام أثر بالغ في الاكتشافات والمخترعات.

ومما لا مراءَ فيه: أنه قد كان لأهل بيت الرسول (ص) الفضل الأكبر في تدعيم قواعد الفلسفة الحقة وتفهيم الناس حقائق القرآن كما يريده الله تعالى.

نعم، إن الفلاسفة كـ (غالينوس) و (ديموقراطيس) و (ثمستيوس) و (أرسطوطاليس) و (أفلاطون) و (أقليدس) و (بطليموس) و (أبولونبوس) قد بُعثوا بفضل علماء الاسلام من جديد: وان علماء الاسلام قد صححوا أخطاء هؤلاء الفلاسفة بالنسبة إلى المبدأ والمعاد على ضوء فلسفة القرآن الحقة وعلم الكلام، كي لا يتسرب الالحاد والفلسفة البشرية الحالكة إلى معالم الاسلام.

كان المسيحيون يؤمون الكليات الاسلامية من أقاصي أوروبا ويرجعون إلى بلادهم حاملين مشاعل العلم والمعارف. وكانت المدارس والأكاديميات زهرات زكية الرائحة تنتشر في أكثر المدن الاسلامية، فتؤتي أكلها كل حين، وقد كانت مزودة بمكتبات عامرة تضم عدداً كبيراً من الكتب.

كـان في مكتبة القاهرة أكثر من مليون مجلد، ستة آلاف منها تبحث في الرياضيات والفلك.

نعم، قد سبق المسلمون (روكر بيكون) في الطريقة التجريبية عـدة قرون. فقد قال علي (ع): «في التجارب علم مستأنف» وقد قال رسول الله (ص) مخاطباً علياً (ع): «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من

(١) هو الامام السادس: الامام جعفر بن محمد (ع).

العقل ولا وحدة أوحش من العُجب، ولا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف عن محارم الله، ولا حسب كحسن الخلق، ولا عبادة مثل التفكير». وكانت الطريقة التحليلية والاستقرائية والاستنتاجية معروفة في التحقيقات العلمية لدى المسلمين.

أما في أوروبا، في القرون الوسطى، فقد أغلقت معاهد الدراسة إلى الأبد من قبل قسطنطين وأحرقت المكتبات العامة التي أسسها الأباطرة الوثنيون، وكانت العلوم تعتبر نوعاً من السحر ويُعاقب من يتعاطاها بتهمة الخيانة. كانت النزعة الدينية تعارض العلم، في أوروبا، كل المعارضة، وكانت هذه النزعة تتمثل في قولهم: «الجهل أبو الاخلاص لله». حين أن علياً (ع) كان يقول منذ قرون: «بالعلم يُعرف الله ويوحد».

لقد نفت الكنيسة من روما جميع المشتغلين بالدراسات العلمية وأحرقت مكتبة (بلاتين) وأعدمت عشرات الآلاف من العلماء الكونيين.

ولقد سبق أبو الحسن (كاليلة) في اختراعه التلسكوب أو المرقب، واستعمل كل من مرصد القاهرة ومرصد مراغة التلسكوب بنجاح.

إن المسلمين قد نبغوا نبوغاً مرموقاً في الفلك وجاؤوا بجداول هامة، وإن نصف أسماء الأنجم لا تزال عربية، وقد أدخل المسلمون (علم المثلثات) في الفلك وأخذ علم الفلك طوراً رياضياً دقيقاً.

وقد تمكن المسلمون من حساب حجم الأرض وتصحيح أخطاء (بطليموس) في الفلك.

وللمسلمين اكتشافات هامة في انكسار الضوء وتعيين موقع النجم الصحيح، وكذلك في علم الميكانيك.

لقد بنى العرب المسلمون أول مرصد في أوروبا، وها هو جابر بن عافية العالم الرياضي الكبير يضع تصميماً، فيبني برج أشبيلية ليراقب منه أفلاك السماء، فيحوله الاسبان بعد طرد المسلمين إلى حظيرة العجول!.

وكذلك كانت حواضر غرب أفريقيا: طنجة، فاس ومراكش تنافس قرطبة وأشبيلية وغرناطة في كلياتها وتخريج علماء متضلعين.

لقد أقامت أوروبا المسيحية الدنيا وأقعدتها لمجرد اتهام باطل: ذلك أن المسلمين هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية أيام الفتح، حين أن حرق هذه المكتبة قد تم زمن (يوليوس القيصر). إلا أن الكتّاب الأوروبيين لا يتلفظون بشيء عما قام به الصليبيون بعد خمسة قرون!.

لقد اكتشف المسلمون المثلثات الكروية وطريقة حل المعادلات من الدرجة الرابعة (في الجبر) وعلم تخطيط البلدان وطريقة تسطيح الأرض. وقد طبقوا علم الجبر على الهندسة، وهو فتح جديد للهندسة التحليلية.

وكانت أوروبا تعتقد أن الأرض منبسطة. بينما كان العلماء المسلمون يعتقدون بكروية الأرض وكروية المدارات الفلكية وعلى هذا الأساس بنوا علم الفلك.

وأما العلوم الطبيعية فقد بُذل في ترقيتها جهد كبير وطبقت الطريقة التجريبية. وكانوا يستعملون حدائق تجريبية (مستنبتات) في كليات الزراعة وكليات العلوم الطبيعية (فرع النبات)، فكان الأساتذة يستعينون بها.

أما الكيمياء، فالمسلمون هم المخترعون لها، ذلك لأن تلميذ الصادق عليه السلام وأعني به جابر بن حيان، هو الأب الأصيل لعلم الكيمياء الحديثة ولا يزال اسمه خالداً في حقل الكيمياء في دائرة معارف العلوم في لغات مختلفة ولا تقل أهميته عن (برسلي) و(لاووازية)، وقد صنف جابر ألفي صفحة في الكيمياء من إملاء الصادق (ع) على ما ذكره ابن خلكان في تاريخه.

أما اشتهار المسلمين في علم الطب وعلم الجراحة فحدث ولا حرج، فقد بلغوا شأواً قاصياً في هذين الفرعين.

لقد ظل المسلمون طوال قرون عديدة يتدارسون الجسم البشري بموضوعية مثالية وانكباب عظيم. وكانت دراسة المواد الطبية، تلك الفكرة التي ارتاع لها (ايوكريدس) في مدرسة الاسكندرية ابداعاً اسلامياً محضاً.

إن المسلمين هم الذين اخترعوا علم الصيدلة وهم أول من أسسوا

مخازن لتوزيع الأدوية، فكانت توزع الأدوية مجاناً دونما عوض والموزعون يتقاضون رواتبهم من الدولة الاسلامية. وإن أسعار الأدوية وأصنافها كانت محدودة من قبل الدولة الاسلامية. وكان على مَن يروم أن يعمل في حقل الصيدلة أن ينال إجازة رسمية، تقابل الشهادة الجامعية في يومنا هذا.

كما أن المسلمين أسسوا مستشفيات عامة (دور الشفاء) وكان المرضى يعالجون فيها مجاناً.

وها هو أبو جعفر: (أحمد بن محمد الطالب) يؤلف كتاباً في الماء الأزرق في العين.

وأما ابن سينا فكان أبرع أطباء عصره، كان ذا عقل موسوعي فهو فيلسوف ورياضي وفلكي وشاعر وطبيب. فليس بمستغرب أن يسميه رجال الفكر في أوروبا (أرسطو طاليس) الشرق.

وكتاب (حياة الحيوان) للدميري مشهور. فهو تاريخ الحيوانات، سبق مؤلفه (بوفون) بسبعة قرون.

وكان (الجيولوجيا)[١]: علم طبقات الأرض يدرس باسم (علم تشريح الأرض).

وقد نبغ المسلمون في الفن المعماري وان آثارهم تتجلى فيما بنوا من مساجد وقصور وجسور وما هنالك من زخرفة ونحت جميل في حدود الشرع الشريف.

وللمسلمين اليد الطولى في البحث والتنقيب التاريخي والجغرافية وكذلك في الزراعة والتجارة وكثير من الصنائع.

أما العمل فمقدس في الاسلام أيما تقديس، انه تعالى يقول. ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾. وفي آية أخرى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش، قليلاً ما تشكرون﴾. وفي آية أخرى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾. وهو القائل جل جلاله:

(١) Geologic

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[1].

واقرأ معي أحاديث أهل البيت (ع) في الحث على العمل:

فعن الصادق: جعفر بن محمد (ع) كما في أصول الكافي ص **٣٥١** «إن الله عز وجل يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ». وعن موسى بن جعفر عليه السلام: «إياك والكسل والضجر، فانهما يمنعانك حظك من الدنيا والآخرة». وفي الوسائل في الجزء الثاني ص **٥٣٤** عن جعفر بن محمد (ع): «لا تكسلوا في طلب معايشكم، فإن آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها». وعن النبي (ص): «ملعون من ألقى كلَّه على الناس».

وفي الكافي ص **٣٥٠** عن جعفر بن محمد (ع): «إقرؤوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا عليكم بتقوى الله عز وجل وبما ينال به عند الله. اني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا. فعليكم بالجد والاجتهاد. وإذا صليتم الصبح فانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال، فان الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه».

وفي الكافي الجزء الثاني ص **٤١٥** عن جعفر بن محمد (ع): «لا تدع طلب الرزق من حلِّه واعقل راحلتك وتوكل».

وفي الوسائل ج **٢** ص **٥٣١**. عن فضل بن أبي قرة قال: دخلنا على أبي عبد الله (ع) وهو يعمل في حائط له. فقلنا: جعلنا الله فداك، دعنا نعمله لك أو تعمله الغلمان. قال: «لا، دعوني، فإني اشتهي أن يراني الله عز وجل أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي».

وعن علي بن أبي حمزة[2] قال: «رأيت أبا الحسن (ع) يعمل في أرض له، قد استنقعت قدماه في العرق. فقلت: جعلت فداك أين الرجال؟ فقال: «يا علي، قد عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه. فقلت ومن هو؟ فقال: رسول الله وأمير المؤمنين وآبائي كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم

---

(١) سورة القصص: ٧٣

(٢) الكافي: جـ ٢ ـ ص ـ ٥٣١.

وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين».

بمثل هذه الأحاديث، وجد نشاط عديم النظير في العالم الاسلامي في حقل التجارة والزراعة. وإن الحكام والقواد ما كانوا ليأنفوا من أن يلقبوا أنفسهم بأسماء المهن التي كان يتعاطاها أجدادهم. كيف لا، وان الرسول الأمين (ص) يقول: «إن الله يحب عبداً يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس، وإن الله يحب العبد المحترف».

وفي الوقت الذي يحث الدين الاسلامي الناس على العمل المثمر يريد بهم أن لا يشذوا عن طريق الحق والصواب. وان تكون الفضيلة هي الحاكمة في المعاملات.

فعن النبي (ص): «ليس منا من غش مسلماً أو ضره أو ماكره». وعن أبي عبد الله (ع): «غبن المؤمن حرام».

وفي حديث عن جعفر بن محمد (ع): عليك بصدق اللسان في حديثك ولا تكتم عيباً يكون في تجارتك ولا تغبن المسترسل فإن غبنه لا يحل، ولا ترض للناس إلا ما ترضى لنفسك وأعط وخذه ولا تحف.. إلى أن قال: «التاجر فاجر إلا من أعطى الحق وأخذه».

وفي الوسائل ج٢ ص ٥٦٢: عن النبي (ص : «من غش مسلماً في شراء أو بيع فليس منا، ويحشر يوم القيامة مع اليهود، لأنهم أغش الخلق للمسلمين».

وقد حث الاسلام الناس على تشغيل أموالهم وعدم تجميدها. ففي الوسائل، عن زرارة عن أبي عبد الله (ع)... قال: «ما يخلف الرجل بعده شيئاً أشد عليه من المال الصامت. قال: قلت له عليه السلام، كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط والبستان والدار».

يقول الراوي سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لا خير في من لا يحب جمع المال من حلال: يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه».

واسمع ماذا يقول معلّى بن خنيس عن أبيه. قال: سأل أبو عبد الله عليه

السلام عن رجل وأنا عنده. فقيل له: أصابته الحاجة. قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه. قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «والله، الذي يقوته أشد منه عبادة». وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام. قال: «من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً من الناس وتوسيعاً على أهله وتعطفاً على جاره لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر».

وعن جعفر الصادق (ع): مكتوب في التوراة: «أنه من باع أرضاً أو ماء ولم يضعه في أرض أو ماء ذهب ثمنه محقاً: (أي بطل ثمنه وذهبت بركته)». وعنه (ع): «مشترى العقدة مرزوق، وبائعها ممحوق». (العقدة أي العقار).

لقد أنشأ المسلمون كثيراً من قنوات الري في البلاد التي فتحوها، وخير دليل على ذلك: آثار القنوات في أسبانيا.

لقد حفَر المسلمون مناجم النحاس والحديد والزئبق والكبريت في أسبانيا، كما نشروا هنالك صناعة نسج الحرير واستخلاص الورق ووشي الخزف والفخار ودبغ الجلود.

ولا تزال الأواني الصينية التي عرفت بها (قرطبة) والمنسوجات الصوفية التي اشتهرت بها (مرسية) وحرائر (غرناطة) و(المرية) و(أشبيلية)[1] والحلى الذهبية من (طليطلة) والكاغذ في (سالبة) مضرب المثل حتى في أوروبا الحديثة.

وقد كان لحكام أسبانيا أسطول تجاري ينوف عل ألف سفينة كما كان لهم وكلاء ومصانع أقاموها على ضفاف الدانوب.

نعم، كان للمسلمين منجزات هامة في حقل الفكر، ذلك لأن تعاليم نبينا محمد (ص) كانت تعاليم تدعو الناس إلى التفكر والتدبر في أسرار الكون، كيف لا وان القرآن الكريم ينادي منذ أربعة عشر قرناً: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على

---

(١) روح الاسلام: للسيد أمير علي.

كل شيء قدير﴾[1]. ﴿فلينظر الانسان مم خلق﴾[2]، ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[3]، ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾[4]، ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾[5].

نعم، خلال قرون الجدب الأدبي والفكري في أوروبا كان الاسلام يحمل مشعل المدنية ويتقدم إلى الأمام، فهل الاسلام إذن دين رجعي أم تقدمي؟.

ومنذ القرن الرابع حتى القرن السابع عشر الميلادي ظلت سحب الضباب تنعقد في سماء أوروبا بعضها فوق بعض، وقد سادت طوال هذه العصور العصبية الدينية المقيتة في أوروبا، وكان الاسلام بثقافته الحرة ينفذ إلى مجاهيل العالم ليثير فيها حب الخالق والمخلوق وليدفع الانسانية إلى عتبة مرحلة جديدة في مضمار التقدم والارتقاء. وهكذا كانت تظهر معالم التقدم في أكاديميات سالرنو وبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة.

كان الحكام يساعدون على نمو الفكر الحر في الحقل العلمي ولم يتعرضوا إلى بقية الأديان، بل كان التسامح شعارهم، فازدهرت العلوم الطبيعية كنتيجة حتمية لحرية الفكر في الاسلام. ولكن الضغط على حرية الفكر في أوروبا كان قد بلغ أقصاه. وبعد أن كان المسلمون قد حولوا إسبانيا ألى حديقة غناء للعلوم والمعارف جاءت المسيحية فجعلتها صحراء مقفرة، فخلت الحواضر من الكليات والمدارس وحولت إلى كنائس وأحرقت الكنوز الأدبية والعلمية هناك.

* * *

لقد أخطأ (أرنست رنان) في كتابه: «الاسلام والعلم» حيث قال: «إن الاسلام قد حارب العلم والفلسفة» لعله في كلامه هذا أراد أن يقرن الاسلام

(١) سورة العنكبوت: ٢٠.
(٢) سورة الطارق: ٥.
(٣) سورة يونس: ١٠١.
(٤) سورة الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.
(٥) سورة النحل: ٤٨.

بالمسيحية التي حاربت العلم في القرون الوسطى وأبادت كثيراً من العلماء الكونيين، حتى أنك ترى أن (لاروس) يستهزىء في قاموسه بالدين حين يريد أن يفسر كلمةReligion [1]، ويقول: «الدين إنما هو مجموعة مقررات تنافي العقل والفكر الحرا». حين أن الاسلام يقول: «لا دين لمن لا عقل له». ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[2] ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[3].

يقول علي (ع): «إنه أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم يهدوهم إلى معايش تحييهم». وهذا دستور يحقق سعادة الدنيا في حقل الفكر والعلم والمخترعات وفي حقل الاقتصاد والاجتماع ويحقق سعادة الآخـرة في حقل التوجه إلى الله وتزكية النفوس والفلسفة الحقة.

إن القرآن الكريم قد عظَّم أمر العلماء في جملة آيات بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾. ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتو العلم درجات﴾. ﴿شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾. وندب إلى البرهان وأراد بالناس أن لا يتقبلوا مبدأ أو عقيدة أو مسلكاً من المسالك دونما دليل بقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. وبقوله: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم الا تخرصون﴾ (سورة الأنعام: ١٤٨).

وحظر عن الظن والعمل به في العقائد والمسالك بقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الـظن وإن هم إلا يخرصون﴾، وأراد بالناس اتباع العلم الصحيح لا الظنون والأهواء. فقال رداً على الدهريين: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾. وبقوله: ﴿وما لهم به من

(١) الدين.
(٢) سورة أسرى: ٣٦.
(٣) سورة الفرقان: ٤٤.

علم أن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (سورة النجم: ٢٨).

* * *

كان العلم في القرون الوسطى منحصراً فيما كان قد قاله أرسطو أو افلاطون أو أحد الفلاسفة القدماء دون تمحيص أو تحقيق في أقوالهم. وإن أكبر برهان عندهم أن يقال: قال ماجستر[1] كذا وكذا... يقصد بذلك أفلاطون أو أرسطو أو غيرهما من الفلاسفة القدماء. حين أن نظريات فلاسفة اليونان عن الكون كانت تخيلية بحتة، ومن جملة أقوالهم: ان حركة الشمس حول الأرض يجب أن تكون دائرية، لأن الدائرة أكمل الأشكال! وهكذا...

ولكن القرآن كان ينادي قبل ذلك بعدم قبول شيء دونما دليل أو برهان. وأسس للناس أسس الفلسفة الوضعية(Positivisme) التي لم تعرف في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، فلسفة تبتني على الحقائق العلمية الثابتة لا الظنون والتخيلات الواهية. لذلك كان يقول (بوانكاره) العالم الرياضي: «نحن الرياضيين إنما نعمل لأجل الفيزياء والفلسفة». كل ذلك لأن الفلسفة في القرن التاسع عشر صارت تستفيد من المكتشفات الحديثة لتقول كلمتها عن الكون والوجود.

وها هو (بركسون) صار من كبار الموحدين، وكان يستدل في توحيده تعالى بما أودع الله تعالى من نظام خارق دقيق في بطن الذرة، نظام محيِّر للعقول لا يتأتى إلا عن حكيم خبير. نظام دقيق الصنع ذي دساتير ثابتة وسرع معينة ومنحنيات عجيبة بعيد عن الصدفة كل البعد، نظام يذيب الشك ويفني كل تردد. إنه تعالى دعا إلى التوحيد بطريق برهاني بقوله: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون﴾[2]. ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة، قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾[3] وفي آية أخرى: ﴿ونزعنا من كل

---

(١) ماجستر Magister
(٢) سورة المؤمنون: ١١٨
(٣) سورة الأنبياء: ٢٤

أمةٍ شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

وكفى الاسلام فخراً أنه دعا إلى حرية الفكر وتقبل أصح الآراء وأسدها وذلك بقوله: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾[2] ومنع من التقليد الأعمى بقوله: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولَو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[3].

وكم من آيات في القرآن الكريم تحث الناس على التفكر والتعقل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[4]، ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾[5]. ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرضِ لآيات لقوم يعقلون﴾[6] ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾[7].

ولنذكر ما قاله بعض كبار الغربيين عن الاسلام: يقول (لواندر كوذرد) «ليس في الاسلام كهنوت ولا سلطة كنيسة، لكنه يضع للحكومات دستوراً» ويقول (جيبون): «الدستور الاسلامي دستور شامل موحد بين الجميع من الرأس المتوج إلى أبسط الأشخاص، لأنه يقوم على حكمة انتجها أوسع العقول معرفة وعلماً بهذه الحياة».

---

(١) سورة القصص: ٧٥

(٢) سورة الزمر: ١٨

(٣) سورة المائدة: ١٠٤.

(٤) سورة محمد (ص): ٢٤

(٥) سورة الروم: ٢١

(٦) سورة البقرة: ١٦٤

(٧) سورة النحل: ٦٧

ويقول (دافيد يوو): «القرآن دستور اجتماعي، مدني، تجاري حربي، قضائي وهو فوق ذلك كله قانون سماوي عظيم».

ويقول (كارليل): «من المسلم به أن محمداً لم يكتب ولم يقرأ، ولم يتلق تعليماً مدرسياً، لكنه عُرف منذ نشأته بالرجولة وسمو التفكير والأمانة واصالة الرأي في كل ما يقول وما يعمل. وتاريخ حياته يثبت أنه كان دائماً رجلاً اجتماعياً وصديقاً صدوقاً ومخلصاً ودوداً».

ويقول (وليم موير): «جميع حجج القرآن طبيعية ودالة على عناية الله بالبشر».

ويقول (برنارد شو): «لا بد ان تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الاسلامية قبل نهاية هذا القرن، ولو أن محمداً بُعث في هذا العصر وكانت له ديكتاتورية على هذا العالم الحديث لنجح تماماً في حل جميع المشكلات العالمية وقاد العالم إلى السعادة والسلام».

فإذا كانت الرجعية معناها: كل عائق عن التقدم أو الرجوع إلى الأصول البالية المانعة عن الارتقاء والازدهار فأي أمر من أوامر الاسلام أو أي نهي من نواهيه وأي تعليم من تعاليم القرآن أو السنة النبوية. يقف حجر عثرة دون التقدم في تفهم الانسان الحياة والكون والوجود تفهماً يعوقه عن الارتقاء في حقول التكامل النفسي والاجتماعي. أو حقول المكتشفات والمخترعات؟.

إذن: القضية ليست قضية الرجعية أو التقدمية بالمعنى الصحيح. وإنما مرض في النفس، يريد صاحبها أن ينفلت من دساتير وآيات بينات أرسلها الله تعالى لتكميل البشر على ألسنة أنبيائه (ع). إن الله تعالى يصف هؤلاء بمرض في القلب أو النفس. بقوله: «في قلوبهم مرض»[1].

والمرض النفسي لا بد من معالجته، معالجة روحية. وليس هذا المرض الروحي من النوع الذي يعالجه علماء النفس أو الأطباء النفسانيون. وإنما هو مرض روحي عقائدي جاء من جراء الذنوب والآثام: ﴿كذلك حقت كلمة

---

(١) سورة البقرة: ١٠

ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[1]. نعم، الاجرام هو الذي سد عليهم أبواب الايمان وجعلهم مرضى في النواحي النفسية: ﴿ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها، إنا من المجرمين منتقمون﴾[2]. والفسق هو السبب الرئيسي للضلال بقوله تعالى: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾[3]. وبقوله: ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾[4] وبقوله: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[5].

إن أطباء هذا المرض النفسي هم الأنبياء (ع) وخاتمهم نبينا محمد (ص) فما لم يعالج هذا النوع من المرض بوصفات أو علاجات قد عينها نبينا محمد صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يرجع المريض عن غيه، فيرى الحق حقاً والباطل باطلاً، يرى ما هو رجعي حقاً رجعياً وما هو تقدمي حقاً تقدمياً. ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[6].

فطوبى لأولئك الشبان الذين لم تخدعهم بهرجة الغرب بروائها وجمالها الخداع، فميزوا بين الباطل والحق، بين نظام يدعو إلى الشهوات ونظام يدعو إلى تساند اجتماعي فيه الكمال الانساني والفوز بسعادة النشأتين: الا وهو نظام الاسلام... فتمسكوا به تمسكاً ملؤه الاخلاص وصاروا يضحون من نفوسهم ونفائسهم لاعلاء كلمة الله في الأرض، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، محققين مصداق هذه الآية الشريفة: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[7]. راجين في عملهم رحمة الله ومرضاته تعالى: جاعلين هذه الآية الشريفة هدفاً لهم: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾[8].

---

(1) سورة يونس: ٣٣
(2) سورة الم ـ السجدة: ٢٢
(3) سورة الأحقاف: ٣٥
(4) سورة البقرة: ٢٦
(5) سورةالبقرة: ٩٩
(6) سورةالحج: ٤٦
(7) سورة العنكبوت: ٦٩
(8) سورة البقرة: ٢٠٧.

الزوجية في الكون

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

إن هذه الآية تتحقق أكثر من ذي قبل كلما تقدمت العلوم الحديثة وتعرف العلماء إلى باطن الذرة وما فيها من عالم عجيب: عالم قائم بذاته من حيث الأنظمة والقوانين، لا يعتريها أي تغير وانثلام.

فترى أن الله تعالى قد أودع في الذرة، (وهي ما لا ترى بالعين المجردة ولا بالمكبرات: المجاهر: ميكروسكوب)، ألكترونات في الأطراف وهي كهربائية سالبة: (-) تدور بصورة اهليليجية حول المركز بسرعة فائقة، بسرعة ألفي كيلومتر في الثانية، وهذه أعظم سرعة عرفت لحد الآن على وجه الأرض، وترى في مركز الذرة: (النواة) قد تكدست البروتونات وهي كهربائية موجبة (+).

وقد جعل الله في هذه الذرة خلاء يحير العقول وذلك بين الالكترون والبروتون، بحيث لو وقع هذا الخلاء لكانت الأرض بحجم البرتقالة ولكن وزنها وزن الأرض تماماً.

فالبعد بين الالكترون الذي يدور في أطراف الذرة والبروتون المستقر في مركز الذرة كالبعد بين الأرض والشمس في منظومتنا الشمسية تقريباً. فكأن كل ذرة من حيث التشكيلات والأبعاد والمسافات كالمنظومة الشمسية مع حفظ النسبة. ذلك لأن نواة الذرة تحتوي على ٩٩,٩ في المائة من الوزن الذري، كما أن الشمس تحوي ٩٩,٩ في المائة من وزن المجموعة الشمسية: ﴿الذي

---

(١) سورة حم ـ السجدة: ٥٣

خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1] فأبسط الذرات، إنما هي ذرة (الايدروجين).

(الأيدروجين) غاز مشتعل (قابل للاشتعال) يشغل قسماً عظيماً من هذا الكون الرحيب!. ولذلك سمي: بالغاز الكوني. وهو أهم عنصر في الماء الذي نشربه. إذ أن دستور الماء في علم الكيمياء: H 2O. أي يوجد في كل جزيء من الماء حجمان من الايدروجين وحجم واحد من الأوكسجين وهو غاز نتنفسه، ولولاه لاستحالت الحياة..

يوجد في ذرة (الايدروجين) الكترون واحد (−) يدور حول بروتون واحد (+) في المركز. وهو أبسط العناصر.

ويأتي في ترتيب العناصر، بعد الايدروجين، العنصر المسمى بـ (هليوم) وهو غاز غير محترق تملأ به المناطيد (البالون).

يوجد في أطراف ذرة (الهليوم) الكترونان (−)، (−) يدوران حول المركز. أما في مركز الهليوم فيوجد بروتونان: (+)، (+) وبجنبها نيوترونان: (∓)، (∓).

النيروترون، جسم صغير جداً مؤلف من شحنة كهربائية موجبة وشحنة كهربائية سالبة وهما متعادلتان. فالنيوترونات متعادلة من حيث الكهربائية.

وأما العنصر الثالث من حيث (العدد الذري) أو ترتيب العناصر. فهو: (ليثيوم). ففي نواته: أي في مركزه يوجد ٣ بروتوناته (+)، (+)، (+) وبجنبها ٤ نيوترونات: (∓)، (∓)، (∓) (∓)، وتدور في الأطراف (أي في أطراف عنصر الليثيوم) ٣ الكترونات: (−)، (−)، (−).

وأما ذرة الكالسيوم ففيها ٢٠ الكتروناً تدور في الأطراف في مدارات مختلفة وبسرع معينة وبنظام دقيق حول النواة: (المركز) وفي المركز: ٢٠ بروتوناً وبجنبها ٢٠ نيوتروناً.

ثم، نحن إذا جمعنا عدد النيوترونات مع عدد البروتونات في كل ذرة،

---

(١) سورة الملك٣.

يعطينا هذا المجموع: الوزن الذري(mass number)

إن ذرة الايدروجين يختلف بعضها عن بعض حسب عدد النيوترونات الموجودة في المركز.

فإذا كان في المركز (نيوترون واحد)، سمي هذا الايدروجين بـ (الايدروجين الثقيل). ففي نواة الايدروجين الثقيل يوجد نيوترون واحد. وان المعادلة الآتية توضح الوزن الذري للايدروجين الثقيل: ١ بروتون + ١ نيوترون = ٢. فيقال: الوزن الذري للايدروجين الثقيل = ٢.

وعند اتحاد الايدروجين الثقيل بالأوكسجين نحصل على ما يعرف الآن باسم: (الماء الثقيل).

فدستور الماءالخفيف الكيماوي هو H 2 O حين أن دستور الماء الثقيل: H2 O2 .

فالايدروجين تختلف طبيعة ذراته، منها ما هي خفيفة تبلغ كثافتها نصف كثافة الذرات الثقيلة. فإذا اتحدت الذرات الثقيلة من الايدروجين مع الأوكسجين كوَّنت ماءاً يختلف عن الماء العادي، ولهذا تأثير سام على الكائنات الحية، ويوقف نمو البذور ويميت أجنة الأحياء وهي في مهدها هذه هي صفات الماء الثقيل.

ثم هناك نوع ثالث من الايدروجين. فيوجد في مركز هذا النوع من الايدروجين: نيوترونان بجنب البروتون. ويسمى بالايدروجين الثلاثي. ووزنه الذري: ٣ ذلك لأن: ١ بروتون + ٢ نيوترون = ٣.

إذن هنالك ثلاثة أنواع من الايدروجين. وتسمَّى هذه بالنظائر العادية.

وقد تكون للعنصر الواحد عدة نظائر لاختلاف عدد النيوترونات في النواة لنفس العنصر. ومعنى ذلك: أنه قد يكون لعنصر واحد: (مثلاً كاربون) عدة أوزان ذرية، لاختلاف عدد النيوترونات في النواة في نفس العنصر.

وقد وجدوا (للأورانيوم) ١٢ نظيراً. وأما عدد النظائر التي وجدوها لمختلف العناصر فتتجاوز الألف. وان العلم يعمل اليوم لأجل كشف هذه

النظائر لمختلف العناصر. ويظفر العلم يوماً بعد يوم بما أودع الله تعالى في بطن الذرة، (هذه التي لو جمعتٍ عشرة ملايين منها لما تجاوزت رأس الابرة) من خصائص ونظام. نظام محيِّر للألباب، نظام يجعل الفيلسوف الفرنسي بركسون: (Bergson) يؤمن بالله تعالى حينما يرى عالماً عجيباً في شيء بالغ في الصغر، بحيث لا يرى بأدق الآلات. عالماً يستدعي التفكير والبحث أبد الآبدين: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، ان الله عزيز حكيم﴾[1].

وأما النشاط الاشعاعي فهو نشاط ينتج من اضطراب نواةالذرة بسبب اختلال النسبة التي أرادها الله تعالى أن تكون بين عدد النيوترونات وعدد البروتونات حال الاستقرار.

وإن هذا الاضطراب إنما ينتج بادخال بعض البروتونات أو النيوترونات في النواة. وذلك: بأن تواجه النواة بإدخال بروتونات جديدة أو نيوترونات جديدة فيها. فتختل النسبة التي كانت موجودة في النواة حالة الاستقرار بين البروتونات، ولهذا السبب تضطرب النواة وتضطر إلى محاولة لاصدار نوع خاص من الاشعاعات المختلفة حتى تصل إلى حالة الاستقرار.

هذا هو أساس تحطيم الذرة وتفتيتها. وهذا هو الأساس لتبديل العناصر بعضها الى بعض، وهذا هو أساس تحول المادة إلى الطاقة.

فإن الطاقة المتحررة من كتلة: ك تساوي مربع سرعة الضوء في الكتلة أي أن الطاقة أو ط ‏ ‏ ‏ ط = ك س ٢.

وبما أن سرعة الضوء = ٠٠٠ ٣٠٠ كيلو متر في الثانية أي ٠٠٠ ٣٠٠ كم/ثانية إذن: الطاقة المتحررة عندتحطيم ذرة كتلتهاك من الغرامات، أي:

ط = ك × ٠٠٠ ٣٠٠ × ٠٠٠ ٣٠٠ = ك× ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٩٠=٩×١٠^١٠ ك.

فالمادة إذن صورة من صور الطاقة. وان الغرام الواحد من المادة يتحول إلى ألف مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة. ووحدة الطاقة تسمى

---

(١) سورة لقمان: ٢٧.

بـ (أركت: Erg) أو أن الغـرام الواحـد من المادة يتحـول إلى ٢٥ مليـون كيلووات/ساعة من القوة الكهربائية. أي ما ثمنه نحو (٥٥٠) ألف دينار.

* * *

وقد علم مما سبق أن النظرية المادية قد فندت من أساسها بعد تحول المادة إلى طاقات هائلة. فيحكم العقل بصورة فطرية: ان الله تبارك وتعالى قد خلق طاقات هائلة في بادىء ذي بدء بقوله: (كُن)، ثم أمرها أن تنكدس تحت ترتيب خاص ونظام دقيق فتكون بإذنه تعالى سُدمـا (جمع سـديم)، فهذه العنـاصر، فـالأجسام، فـالمجـرّات، فـالأجـرام، فـالشمس، فـالكـواكب، فالأقمار.. الخ..

يلاحظ أن العالم كله مشكل من نوعين من الكهربائية، كهربائية موجبة: (+)، وكهربائية سالبة: (-). وأما النيوترون الذي هو بجنب البروتون في نواة الذرة فهو خليط من كهربائية موجبة وسالبة متعادلة: (∓)، إذن العالم مشكل من نوعين من الطاقات: كهربائية موجبـة: (+) وكهربائية سالبة: (-) وواضح أن السالب غير الموجب، كما أن الأنثى غير الذكر. وهكذا نرى أن الـزوجية متـأصلة بـأمـر الله حتى في أدق الأشيـاء. فـالغـاز الكـوني: (الايدروجين) وهو من أبسط العناصر مشكل من الكترون واحد (-) وبروتون واحد (+). وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[١].

ونرى أن القوة أو الطاقات التي تتألف منها العوالم هي بالمآل أما كهربائية أو مغناطيسية. فالكهربائية أيضاً تحصل على مغناطيسية وذلك بلـف سلك حول قطعة من حديد وإمرار تيار كهربائي في هذا السلك. فتتمغنط قطعة الحديد ويحدث فيها قطبان: القطب الشمالي والقطب الجنوبي كقـطعة من مغناطيس طبيعي. وبتدوير ملف من الأسلاك في مجال مغناطيسي (كما في الداينامو) نحصل على الكهربـاء. (التيار الكهـربائي). لـذلك كـان يقول (آينشتاين): إنما العالم مجموعة قوى (كهربائية - مغناطيسية) أو (كهرطيسية). فأين المادة التي كان يتشدق بها لينين؟.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

نحن نشاهد الزوجية حتى في القوى والطاقات، وفي الجن أيضاً، كل ذلك، لتبقى الوحدانية خاصة بالله تعالى لا يشاركه فيها أحد.

وإن الزوجية معروفة في النباتات، ذلك لأن في الزهرة عضو التذكير (الأعضاء الذكرية) وعضو التأنيث (العضو الأنثوي). وبعد أن تنضج الأعضاء الذكرية والأنثوية في الزهرة، يحصل التلقيح وتبدأ الثمرة بالتكوّن من الجزء الأنثوي.

وإن الزوجية متجلية في الحيوانات وكذلك في الانسان. إنه تعالى يقول: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (سورة يس: ٣٦). فالله تبارك وتعالى أخبرنا قبل ١٤ قرناً أن هناك زوجيةً في ما لا نعلم من أشياء. وقد اكتشف حديثاً أن الزوجية متأصلة بأمر من الله تعالى حتى في الذرة التي لا ترى بالعين.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع العليم﴾ (سورة الشورى: ١١). (يذرؤكم أي: يكثركم).

لذلك يقول (مونتني) الفيلسوف الفرنسي: إن أعظم دليل على وجود الله هو وجود المرأة (الأنثى) للرجل. فهل يعقل أن الرجل خلق لنفسه أنثى لادامة النسل البشري؟.

وإن الله تعالى تحقيقاً للزوجية وهذا الانجذاب الجنسي جعل تردد صوت المرأة: (٢٢٠) في الثانية كما هو معروف في الفيزياء وجعل تردد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرقّ وأجمل من صوت الرجل. فيتحقق الانجذاب الجنسي إدامةً للنسل البشري.

وبصورة عامة لا يكون التوالد وتوليد المثل إلا باختلاط وانضمام خليتين احداهما ذكر وتسمى (اسبرماتوزوئيد) والأخرى أنثى وتسمى: (أوول).

* * *

إن دراسة الطائر المسمى بـ(اكسبكلوب) وما يقوم به من عمل دقيق

لادامة نسله خير دليل على وجود الصانع وإيحاء الله تعالى الطائر الطريقة الناجحة لابقاء النسل. ذلك لأن هذا الطائر لا يرى نسله ويموت فور إلقائه البيض. كما أن الأفراخ لا ترى وجه الأم. ذلك لأن الأفراخ هي كالديدان بعد الخروج من البيض، لا تقوى على تهيئة غذائها والدفاع عن نفسها ودفع الطوارىء التي تهدد حياتها. وعليها أن تقضي سنة كاملة في مكان وادع رصين وأن يكون الغذاء بجنبها وفي متناولها. ولذلك، فإن الأم حين شعورها بأنه قد قرب أوان بيضها تحصل حالاً على قطعة من خشب وتحدث فيها ثقباً عميقاً. ثم تقوم فتفتش عن غذاء (لأفراخها التي لا تراها بعد موتها) من الأوراق والأوراد ما يكفى لسنة كاملة وتضع هذا الغذاء في منتهى الثقب وتضع فوق هذا الغذاء بيضة واحدة وتبني عليها سقفاً محكماً من عجين الأخشاب ثم تذهب لتجمع غذاء لسنة كاملة أيضاً، فتأتي به وتضعه في الثقب على ذلك السقف وتضع عليها بيضة وتبني عليها سقفاً ثانياً، وهكذا تصنع عدة طبقات وكل طبقة فيها غذاء لسنة كاملة وفوقه بيضة وهي تموت بعد إتمام العمل فوراً ولا ترى أفراخها. لا تقع للأم هذه الحادثة إلا مرة واحدة طوال عمرها وفي فصل الربيع فقط.

حقاً، لولا الالهام الالهي لما قامت الأم التي تموت حالاً بعد البيض، (الأم التي لا ترى أفراخها) بهذه العملية لادامة نسلها، فإن قلنا أنها تعلمت فكيف حدث هذا الحادث لأول مرة، دون تجربة سابقة؟.

ثم إن الله تعالى جعل شريكاً للانسان وهو الجن، فالانسان لا يُحشر وحده يوم القيامة وإنما يُحشر معه الجن أيضاً. يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الأنس﴾. وفي آية أخرى: ﴿يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا﴾. وقوله تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمّة لعنت أختها﴾. وفي آية أخرى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس﴾... إلى ما هنالك من آيات أخرى، كلها تدل على أن الجن محاسبون يوم القيامة كالأنس وكلاهما مكلفان في هذه الدنيا بتكاليف وبأوامر ونواهٍ. وان محمداً (ص) قد

بُعث للانس والجن كافة: ﴿وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولَّوا إلى قومهم مُنذرين﴾ وفي سورة الرحمن: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، فهنا يخاطب الله تعالى الانس والجن معاً.

* * *

وقد عُلم أن الزوجية تتحكم حتى في النجوم. فهناك تزاوج ظاهري في النجوم.

ومع كثرة النجوم في هذه السماء الواسعة غاية الوسع فإن الفواصل بين النجوم فواصل هائلة وأبعاد شاسعة جداً. وان أقرب نجم إلى شمسنا هذه يبعد عنها ٢٦ مليون مليون ميل. إذن يحق لنا أن نقول: ما أفرغ هذه السماء وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل! ولكن شاء الله تعالى، أن يجعل الأشياء كلها حتى النجوم مزدوجة! تتحكم فيها الزوجية ليكون التفرد والوحدانية خاصة به تعالى «ليس كمثله شيء».

فإذا نظرت إلى السماء بالمنظار لرأيت نقطتين مضيئتين مقتربتين في السماء أشدَّ الاقتراب. واحدة زرقاء والأخرى برتقالية أو حمراء. انهما نجمان يشد بعضهما بعضاً ويدور أحدهما على الآخر. أي ينجذب أحدهما من قبل الآخر تحقيقاً للتزاوج. ونحن حيثما وجهنا المنظار (التلسكوب) إلى السماء وجدنا أزواجاً من النجوم. أنها ألوف ألوف. انها الثنائيات النجمية، مداراتها اهليليجية ذات تفرطح عظيم. هذه هي هندسة الكون: مدارات اهليليجية وكم من الصعب رسم منحن اهليليجي في الفضاء ثم جعل النجوم تدور بموجبه دونما حيد. انها هندسة دقيقة تدل على عظمة واضعها وهو الله الواحد القهار.

ومن أشهر هذه الأزواج (الشعرى اليمانية) وصاحبتها بل صاحبها فإذا نظرت إلى الشعرى اليمانية في فصل الشتاء في أوسط السماء، قرب كوكبة الجبار لا ترى منها إلا نجماً واحداً لامعاً أشد اللمعان، وهكذا نرى الأزواج من الكواكب رأي العين شيئاً واحداً. حتى إذا وجهنا نحوها المناظير

(التلسكوبات) القوية رأيناها نجمين أو عدة نجوم. وقد نظر إلى (الشعرى اليمانية) صانع مناظير، يجرب منظاراً قد صنعه: قطره (١٨) إنجاً، فرأى صاحبها أول مرة وقد كان ذلك عام ١٨٦٢ م.

ويدرس العلماء (الشِعرىَ) وصاحبها، فيكشفان عن مدار اهليليجي لهما، شديد التفرطح، وهما يقطعانه في خمسين عاماً. والفرق بين حجميهما هائل. الشعرى أكبر من الشمس، وصاحبها قزم من أقزام النجوم أبيض أكبر من الأرض ٣ مرات أو أكثر. ولكنه شديد الكثافة، فإن كثافته تبلغ ٣٠٠٠٠ مرة مثل كثافة النجوم. فالوزن النوعي (للشعرى) يساوي عدة آلاف من الوزن النوعي للذهب الأبيض وهو من أثقل العناصر.

إن الله تعالى يعظم شأن نجمة (الشعرى) بقوله جل من قائل: ﴿وإنه هو أغنى وأقنى[1] وانه هو رب الشعرى وانه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى﴾ (سورة النجم..).

وقد علم بأن نجمة (الشعرى) تبعد عنا ١٠ سنوات ضوئية، أي حوالي مائة مليون مليون كيلومتر. عل أن هناك ملايين المجرات في كل منها بلايين من النجوم تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية. فما أعظم ما خلق الله من عوالم وما أكثرها وأوسعها.

فيحق للمسلم وكل عبد لم يذهب بعقله الفطري ما اجترحت يداه من آثام أن يستقبل القبلة بأذان أو اقامة قائلاً، ليل نهار: الله أكبر، الله أكبر.

والجاذبية قد تجمع بين أكثر من نجمين. فالنجمة القطبية هي في الحقيقة ثلاثة نجوم، وزوجان يدوران بعض حول بعض في نحو من ٤ أيام. وهما معاً يدوران حول نجم ثالث في أكثر من ٢٠ عاماً. ونحن لا نرى منهما في السماء إلا شيئاً واحداً.

ومجمرعة أخرى تتشكل من أربعة نجوم وهي ترى كنجمة واحدة، إنها (راس التوأم المؤخر). وقد عرف أنه يتألف من زوج وزوج، ثنائيان اثنان في

---

(١) أقناه: اغناه وأعطاه ما يقتني، والقنية ما يؤثل من الأموال.

كل منهما. ككل ثنائي يدور أحد نجميه حول صاحبه، ودورة الثنائي الأول ٣ أيام، ودورة الثنائي الثاني ٩ أيام، إلا أن الزوج الثاني يدور كذلك حول أخيه الزوج الثاني مرة في حدود ٣٠٠ عام.

وهكذا نرى أن قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ متجل حتى في النجوم على بعدها وكثرتها.. فـ(سبحان الله باري النسم[1]، سبحان الله المصور، سبحان الله خالق الأزواج كلها، سبحان الله جاعل الظلمات والنور، سبحان الله فالق الحب والنوى، سبحان الله خالق كل شيء، سبحان الله خالق ما يرى وما لا يُرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين).

* * *

ونرى أن الله تعالى قد أودع الزوجية في (العناصر) أيضاً. فهناك نوعان من العناصر: النوع الأول هو هذه العناصر التي نراها في أرضنا هذه: كالايدروجين والحديد والأورانيوم... الخ. فكل ذرة منها مؤلفة من الكترونات سالبة تدور حول بروتونات موجبة في النواة.

ولكن عُلم أخيراً أن هناك: (بروتونا سالباً) منطلقاً في الفضاء حول الكرة الأرضية ومن شأنه إفناء جميع أنواع المادة التي تصطدم بها. كما اكتشف أخيراً: (الألكترون الموجَب) وهو الكترون يضاد الالكترون الذي نعرفه في أرضنا. ففي الوجود نوعان مختلفان من العناصر تُبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي هي الأصل في ربط جسيمات ذريات وذرات تلك المواد.

وإن تحطيم بعض الذرات يؤدي إلى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وان النيوترونات المتحررة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرات أخرى فينتج من هذا تفاعل متسلسل مستمر.

---

(١) النسم: جمع النسمة: الانسان أو كل دابة فيها روح.

ولنرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة والالكترونات السالبة بالحرف (م) مثلاً، ولنرمز للنوع الثاني من المادة المضادة للأولى: أي ذات البروتونات والألكترونات الموجبة بالحرف (س). فعندما يتصادم (بروتون موجب) مع (بروتون سالب)، أو عندما يتصادم (الكترون سالب) مع (الكترون موجب) يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود. بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب الدستور الآتي:

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعة الضوء. وهكذا نرى عندما تدخل ذرة من نوع المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو بالعكس تفنى الالكترونات أولاً، ثم تفنى البروتونات.

فاتضح مما ذكر أن الزوجية متأصلة بأمر الله تعالى في أصغر موجود في هذا الكون الرحيب وهو الذرة. ففيها الكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). حتى ان المادة نفسها على نوعين أي أن الزوجية متأصلة فيها، فالبعض منها الكترون سالب وبروتونها موجب كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها (١٠٢) تبدأ بالايدروجين وتنتهي بـ (نوبليوم)(Nobelium) وفي (نوبليوم) ١٠٢ ألكترون (سالب) تدور حول ١٠٢ بروتون (موجب) وبجنب البروتونات توجد (١٥٥) نيوتروناً ويرمز اليه هكذا: $\frac{257}{102}$ No ... . (٢٥٧ - ١٠٢ = ١٥٥ نيوتروناً).

والبعض الآخر: الكترونها موجب وبروتونها سالب؛

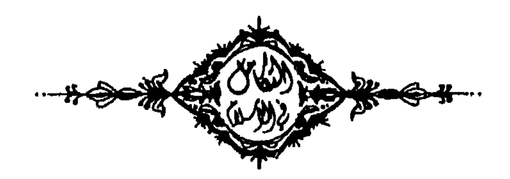
فسبحان من لا تبيد معالمه، سبحان من لا تنقص خزائنه، سبحان من لا اضمحلال لفخره، سبحان من لا ينفد ما عنده، سبحان من لا انقطاع لمدته، سبحان من لا يشارك أحداً في أمره، سبحان من لا إله غيره.

فيرى المتتبع في أحوال الكون: أن الله قد أودع الزوجية في كل شيء، كي يعتبر الانسان بهذه الزوجية ويعلم أن الله لا يُشبه ما خلق من جماد ونبات وحيوان وانسان وقوى وطاقات في شيء، هو الله الذي لا إله إلا هو.

ولنختم هذا المقال بهذه الآيات البينات، ليعلم أن لا متصرِّف في الكون إلا الله تعالى، وأن ليس هنالك إلا خالق ومخلوق، والاعتقاد بوحدة الوجود أو

وحدة الموجود بضاعة يونانية مُضلة جاءت من فلسفة بشرية حالكة تتنافى مع عظمة الله وقدسيته.

﴿أفرأيتم ما تُمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[1]. ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[2]. ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[3]. ﴿أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾[4]. صدق الله العظيم...



(١) سورة الواقعة: ٥٧، ٥٨.

(٢) سورة الواقعة: ٦٣, ٦٤.

(٣) سورة الواقعة: ٦٨، ٦٩ ـ المزن: السحاب.

(٤) سورة الواقعة: ٧١، ٧٢ ـ تورون: تقدحون.

الكون الرحيب

إن الله تعالى يأمرنا بأن نتتبّع السماء والأرض وأن ننظر إلى ما خلق من عوالمَ شتى: من كواكب وشموس ومجرات وسُدم، وكيف تتكون الأنجم وكيف تبيد. وذلك بقوله جل من قائل: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾... (سورة سبأ).

﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ (سورة آل عمران...).

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت﴾. (سورة الغاشية).

إن الله تبارك وتعالى يريد منا أن نتوغل في عوالم السماء وما خلق من عوالم أخرى، لكي نزداد يقيناً به تعالى: ﴿الله الذي رفع السماء بغير عمدٍ ترونها، ثم استوى على العرش وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجل مسمى يدبر الأمر يفصِّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[1].

حقاً، إن علم الفلك اللاسلكي والميكانيك الرياضي فتحا على الانسان أبواب المعرفة بالنسبة إلى ما لا يتناهى من شموس ومجرات وسُدم ونيازك. إلى ما هنالك من عوالم تدهش الألباب.

فإن التلسكوب اللاسلكي يلتقط إشارات عن مسافة قدرها ثمانية آلاف مليون سنة ضوئية. والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء (بسرعة ٠٠٠ ٣٠٠ كيلومتر في الثانية) خلال سنة كاملة، أي هي المسافة التي طولها ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٩٤٦٠كيلومتر، أو ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٨٧٩ ميل.

---

(١) سورة الرعد: ٣.

فإن القمر لا يبعد عنا إلا بقدر ثانية وثلث الثانية من السنة الضوئية، والشمس تبعد عنا ٨ دقائق و ٢٠ ثانية من السنة الضوئية. والشمس خلال هذه المدة: (أي ٨ دقائق و ٢٠ ثانية) وهي المدة التي يجب أن تنقضي لوصول شعاعها إلينا تقطع في الفضاء في سيرها الطبيعي المقرر من جانب الله تعالى خمسة ملايين كيلومتر، مع العلم أن الضوء يسير من أقصى الأرض إلى أقصاها خلال ١/١٤ من الثانية.

وإن أقرب نجمة منا وهي (بزوكسيما) الواقعة تقريباً بحذاء القطب الجنوبي من أرضنا تبعد عنا ٤ سنوات من السنين الضوئية.

ونجمة (جدّي) وهي التي تحاذي القطب الشمالي من أرضنا على وجه التقريب تبعد عنا (٥٠) سنة ضوئية ونجمة (عيوق) تبعد عنا تسعين سنة ضوئية ونجمة (ثريا) تبعد عنا ١٤٠ سنة ضوئية.

وإن قطر المجرة التي تعلونا عندما ننظر إلى السماء (وكأنها سحابة) يعادل ما يقطعه الضوء بسرعته الفائقة خلال (٠٠ ٨٠٠) سنة ضوئية. وإذا أردنا أن نسير من رأس هذه المجرة التي هي فوق رؤوسنا (تقريباً) إلى منتهاها علينا أن نقطع مسافة الضوء بسرعتها الهائلة خلال (٠٠٠ ٢٠٠) سنة ضوئية.

إنه تعالى يقسم بـ(الطارق) بقوله: ﴿والسماء والطارق﴾ ويُراد بها نجمة زحل.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾... وهي نجمة مضيئة تبعد عنا ١٠ سنوات من السنين الضوئية على وجه التقريب. والوزن النوعي لهذه النجمة: (الشعرى) أكبر من الوزن النوعي للذهب الأبيض عدة آلاف مرة ومعلوم أن الذهب الأبيض عنصر ثقيل جداً. ولنجمة (الشعرى) قمر خاص بها يدور حولها خلال خمسين سنة.

* * *

تختلف النجوم حسب درجات الحرارة، فمنها الأحمر الداكن ومنها الأحمر القاني ومنها البنفسجي والأصفر والأبيض وتتدرج من الداكن إلى الضعيف

وتتراوح درجاتها الحرارية من ١٤٠٠م (درجة مئوية) إلى ٣٩٠٠م.

وقد قيس وزن النجوم بالنسبة لشمسنا هذه ولم يعثر على نجمة وزنها أقل من ١٠/١ من وزن الشمس. وهناك نجوم وزنها ١٤٠ مرة بقدر وزن الشمس ولها حركاتها وقوانينها ومعادلاتها.

وقد علم أن سرعة الأمواج اللاسلكية تعادل سرعة الضوء تماماً. ولأجل أن نعلم مقدار معدل سرعة أقرب نجمة من هذه النجوم نقول: إن سارت الطائرة النفاثة دونما توقف مدة (٦) ملايين من السنين لها أن تصل إلى أقرب نجمة من كرتنا الأرضية.

وإذا نظرنا إلى السماء وتأملنا إحدى هذه النجوم القريبة، يجب أن نعلم أن الذي نراه في الواقع ليس إلا صورة متخلفة لما كان عليه هذا النجم منذ أربع سنوات. وإذا أردت أن تشاهد حفلة زواج والدك قبل ثلاثين سنة (مثلاً) عليك أن تركب صاروخاً يسبق سرعة الضوء[١] فينقلك إلى نجمة (النسر الواقع) لتشاهد هنالك حفلة زواج والدك وبعد سنة كيفية ولادتك أنت.

* * *

إن شمسنا هذه ما هي إلا نجم متوسط الحجم من نجوم مجرة (درب التبانة) التي يبلغ عددها مائة ألف مليون نجم تقريباً. وشمسنا هذه غير واقعة في منتصف المجرة وليست بمركز، ولكنها واقعة قرب الطرف في موقع مدحور ليس من العظمة في شيء.

ويوجد في هذا الكون الواسع الرحيب من المجرات بعدد النجوم الموجودة في مجرتنا: (درب التبانة). فإذا ما هي قيمة هذا الانسان بالنسبة لما خلق الله من عوالم لا تتناهى ولا تحد؟ لا سيما بعد أن عرفنا أن أرضنا هي هباءة بسيطة في حافة إحدى المجرات الكثيرة العدد التي لا تعد ولا تحصى. فليدع الانسان عنه هذا الغرور وليتوجه إلى عبادة ربه وتقديسه وتسبيحه. إنه تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾[٢].

---

(١) وهذا محال، إذ ليس هناك شيء أسرع من الضوء حسب النظرية النسبية لـ(البرت آينشتاين).

(٢) سورة الأحزاب: ٤١، ٤٢.

﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾[1].

يقول أحد الماديين: «أني طفت بالصاروخ حول الأرض سبع مرات فلم أر الله».

فأجابه الموحد قائلاً: ليس الله من الصغر بحيث تراه أنت. . .
حقاً، أنى للمتناهي والمحدود أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء ولا يحيط به شيء.

يقول علي (ع) في وصف الله تعالى: «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه».

وإن أعلم علماء القرن العشرين في الفيزياء وأعني به (آينشتاين) يقول: «يجب أن نتعرف إلى ألفباء عالم الوجود!».

ويقول في مقام آخر: «ليس من المعقول أن يقال: يمكن التعرف إلى العالم كله».

وكان يقول باسكال: (Blaise Pascal) قبل حوالي ٣٤٠ سنة: «ما هو هذا الانسان في هذه الطبيعة؟ إنه عدم «تجاه اللانهاية» قد قال هذا القول في يوم لم يكن قد إتسعت آفاق العلم هذا الاتساع الذي نلمسه اليوم، انه اتساع علمي موضوعي محير العقول، فما الذي يجب أن نقوله اليوم؟.

إن ما عثر عليه العلم الحديث من النجوم هو بمقدار من الكثرة بحيث يفوق عدد حروف نصف مليون كتاب في مكتبة ما. ولو كنا نعد النجوم كلها بسرعة ١٥٠٠ نجم في الدقيقة لاستغرق عدنا ٧٠٠ سنة. اما الأرض فهي أقل كثيراً جداً من نقطة على حرف في مكتبة تضم نصف مليون من الكتب من الحجم المتوسط. أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين في أي كتاب من كتب هذه المكتبة.

* * *

(١) سورة ق: ٣٩، ٤٠.

يبلغ حجم الواحدة من معظم الكواكب التي اكتشفت لحد الآن قدر حجم الأرض آلاف المرات في بعضها وملايين المرات في البعض الآخر وملايين الملايين في أكثرها. وان من النجوم أكثرية مطلقة يبلغ حجم الواحدة منها حجم عدة ملايين من الأرض وما يزال يتسع لملايين.

* * *

إن هذه النجوم على كثرتها لا تصطدم بعضها بالآخر وهي سائرة في أفلاكها ومنحنياتها. وإذا شبهنا النجوم بالسفن في المحيطات (كالمحيط الهادي) فان بعضها يبعد عن البعض الآخر ما يزيد على مليون من الأميال.

وفي سنة ١٠٠٠ الميلادية اقتربت نجمة من المذنبات من الأرض وأيقن الناس أنها ستصطدم بالأرض لا محالة، وتكون نهاية العالم ويحل اليوم الموعود: يوم القيامة. فاتجه الناس إلى الكنائس تائبة من ذنوبها وآثامها. ولكن مرت النجمة ذات الذنب بالقرب من الأرض دون أي اصطدام!.

ومجرة (درب التبانة) التي شمسنا هذه إحدى نجومها منطلقة في الفضاء كباقي المجرات وتتباعد عن أخواتها. وتختلف سرعة تباعد المجرات عنا ما بين (٦٠٠ - ٤٠٠٠) ميل في الثانية. وإذا وصلنا إلى هذه المرحلة فمن الصعب أن نقول: فيما إذا كانت المجرات الأخرى هي تهرب منا وتتباعد بهذه السرعة أو نحن نتباعد ونهرب منها بالسرعة نفسها أو أن كلامنا هارب من الآخر بنصف السرعة المذكورة. إننا هنا لا نستطيع أن نتكلم عن سرعات كهذه إلا بمفاهيم (النسبية). وهكذا نرى أن هذا الكون آخذ في الاتساع اتساعاً هائلاً حسب قوله تعالى:

﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وانا لموسِعون﴾.

* * *

ليس هناك شيء ثابت أو ساكن في هذا الكون، فكل ما في الكون متحرك أما بحركة واحدة أو حركات متعددة. وهذا ما حدا بـ (آينشتاين) أن يؤسس معادلات النظرية النسبية.

فإن الانسان يتحرك مع سطح الأرض حين تدور الأرض حول نفسها وسرعة الانسان وهو على سطح الأرض باتجاه دوران الأرض: ربع الميل في الثانية، أو (٩٠٠) ميل في الساعة إذا كان هذا الانسان على خط الاستواء. وسرعته تكون أقل كلما قارب القطبين.

والانسان يتحرك مع هذه الأرض نفسها في دورتها السنوية حول الشمس. والأرض تسير في حركتها هذه بسرعة ١٨,٥ ميلاً في الثانية أو ٣٠/كم ثانية. والشمس وكواكبها سائرة بالنسبة إلى جاراتها من النجوم نحو نقطة ما بين مجموعة (هرقل: (Hercules) ومجموعة القيثار: Lyra بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية، ويراد بالجارات هنا: النجوم التي تبعد عنا بضع مئات من السنين الضوئية.

وأما الشمس فهي احدى نجوم مجرَّة (درب التبانة) وهذه المجرة كالمجرات الأخرى تدور حول نفسها بسرعة هائلة، وشمسنا تدور حولها طبعاً وسرعتها في هذا الاتجاه ١٢٠ ميلاً في الثانية، أي (٤٣٢٠٠٠ ميل/ساعة).

وهكذا نشاهد هذه الحركات المنظمة وفق دساتير معينة ومعادلات رصينة في الأجرام السماوية بحكمة إلهية عالية لذلك يقول الفلكي الكبير: (فاي): من الخطأ أن نقول: بأن العلم يفضي بصاحبه إلى نكران وجود الله».

ذلك لأن نكران وجود الله تعالى إنما هو نتيجة الفسوق والفجور على حد قوله تعالى: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾. (سورة يونس: ٣٣). وفي آية أخرى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾. (سورة يونس: ١٧).

فالاسلام يضاد الاجرام وهو القائل: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾.

يقول (باستور): «لا تنافي بين العلم والايمان، وكلما زاد علم الأنسان زاد إيمانه بالله». وأني أضيف إلى كلمة (باستور) قائلاً: شريطة أن لا تتلوث النفس بفسوقها ومجونها وآثامها وبغيها وظلمها.

يقول الدكتور (وتز Wets) الكيميائي وهو عضو أكاديمية العلوم وعميد كلية الطب: «إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله تـزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها».

وكذلك يقول الجيولوجي الذائع الصيت (أدموند هربرت) المدرس بجامعة (صوربون): «العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر ولا إلى المادية ولا يفضي إلى التشكيك».

وقد قال العلامة في التاريخ الطبيعي (فاير). «كل عهد له أهواء جنونية، فإني اعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية وهو مرض العهد الحالي. وأيسر عندي أن ينزعوا جلدي من أن ينزعوا مني عقيدتي بالله».

لذلك جاء في إحصاء: أن بين (٢٩٠) فيلسوفاً ٩١٪ منهم مؤمنون و ٥٪ منهم لا أدريون و ٤٪ منهم ملاحدة؟!.

أنظروا إلى كلمة نابغة القرن العشرين: آينشتاين حين يقول معترفاً بالوحي أنه يقول: «العلم يخبرنا عما هو كائن إلا أن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون».

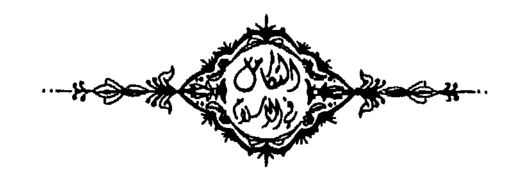
فالعلم لا ينافي الايمان بحال وإنما يؤيده ويقويه. ما لم تتلوث النفس بما حرم الله وما دامت هذه النفس قائمة بالتزكية والتطهير والانابة والاستغفار.

وقد يصل الرجل الأمي بمشاهدة سطحية لما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب إلى إيمان رصين قلَّ ما يصل إليه عالم بـالحشرات أو الجراثيم، وذلك لقيامه بتزكية نفسه وتصفيتها عن الأدران ورده إلى الناس ما لهم عليه من حقوق ولتخلقه بالأخلاق الفاضلة وصلته رحمه وقيامه بقضاء حوائج الناس. يقول الله تبارك وتعالى في وصفهم: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائـل والمحروم وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات: ١٧ ـ ٢١.

فدين الاسلام دين إحياء القلوب بتعاليمه ودساتيره التي جاءت من قبل خالق النفوس وموجدها: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾[1].



(١) سورة الأنعام: ١٢٢.

حالات النفس مع الله تعالى

حقاً، إن للنفس الانسانية غذاءاً خاصاً بها تتناسب مع تجردها وبعدها عن المادية الحالكة. وهذا الغذاء روحي بحت ليس من نوع المآكل والمشارب وليس من متع الدنيا في شيء. إنه غذاء فيه تكامل النفس وبلوغها أسمى مراتب القرب إلى الله تعالى، وهو غاية الغايات من وجودنا في هذه الدنيا المؤقتة الناقصة في جميع مراحلها الفردية والاجتماعية، وذلك لنيل حياة أبدية كاملة في جميع مراحلها الاجتماعية والفردية، ألا وهي الخلود في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

إن هذا الغذاء روحي بحت لا مجال فيه للشهوات والنزوات وكل ما يفسد النفس مما حرم الله تعالى على لسان نبيه محمد (ص). فلا تضاهيه أنواع الموسيقى ومجالس الأنس، وليس من نوعه أوركسترا وما يترنم فيه من مزمار وعود وطنبور. إنه عروج إلى السماوات العلى، إلى عوالم القدس إنه ارتقاء نفسي عن حضيض المادة العمياء إلى حيث الصفـاء المحض، إلى حيث الطمأنينة الكاملة: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

فطوبى لنفوس وفقت أن تخلو بخالقها، وتناجي بكل خشوع وخضوع ربها، معترفة بذنوبها، مستغفرة عن آثامها، نادمة على ما كان منها من بغي وظلم، باكية على خطاياها، راجية رحمة بارئها: ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ تالية لأجزاء القرآن: ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً﴾.

وقد قال على (ع) في وصفهم: «أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم، وظنوا

أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء. . .».

فأنك لو قمت في جوف الليل، والناس نيام، وقلت كما كان يقول رسول الله (ص): «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». واستقبلت القبلة وصليت ركعات، محاسباً نفسك محاسبة دقيقة: «زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وحاسبوها قبل أن تُحاسبوا»[1] وعددت ذنوبك وخطاياك وتوجهت بكلك إلى الله الرحيم المتعال، لشعرت إذ ذاك بروحانية فائقة تفوق أعظم ما في الحياة المادية من ملاذ وشهوات ولأحسست بعروج نفسك هذه إلى عوالم القدس، حيث الراحة المطلقة والدعة المتناهية والفرح الكثير وارتياح لا يضاهي ما نحن فيه من ارتياح مادي بحال، وصرت ترى أنك تخف ساعة بعد ساعة عما أثقل كاهلك من ذنوب ذهبت لذاتها وأقامت تبعاتها. وإنك لترى جلياً في ذلك الوقت: حيث يسود العالم صمت وهدوء كيف يُقذف في قلبك من أنوار المعارف الإلهية، ما يزيل عنك الشكوك ووساوس الشيطان، أنوار توصلك إلى اليقين بل إلى حق اليقين: فـ (العلم نور يُقذفه الله في قلب من يشاء) كما جاء في حديث مشهور.

وإنك لو تلوت القرآن في وقت كهذا، في وقت هجعت فيه العيون في وقت فتح الله على العباد أبواب رحمته، لألهمت معاني سامية رفيعة، ما كنت لتتوصل اليهافي غير هذا الوقت ولأحطت بفلسفة هذا الكون والحياة، فلسفة لا يصل اليها فيلسوف عاش في أحضان المادية الهوجاء، فلسفة نيرة شرحها الله تعالى في كتاب ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. بقوله جل من قائل: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

فهذا العلم هو علم يترشح بإذن الله من نفس قد خضعت لربها وتجردت عن أدرانها، هذا العلم علم اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله، إنه العلم

---

(١) من كلام لعلي عليه السلام.

بالحقيقة التي يبحث عنها الانسان منذ آلاف السنين، هذا العلم هو معرفة النفس، ومعرفة النفس طريق إلى معرفة الله تعالى. فقد سألوا رسول الله (ص) كيف الطريق إلى معرفة الرب. فقال (ص): «معرفة النفس» وعن الصادق عليه السلام: «لو علم الناس ما في فضل معرفة الله ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم عنده أقل مما يطأونه بأرجلهم. فليتنعموا بمعرفة الله تعالى وليتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله. إن معرفة الله أنس من كل وحشة وصاحب من كل وحدة ونور من كل ظلمة وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم».

إن موضوع معرفة الله تبارك وتعالى وحالات النفس مع الله جل جلاله لموضوع هام خطير لا يمكن أن يعبر عنه تعبيراً يجلو غوره وحقيقته ما لم يدخل الانسان نفسه في هذه الحياة الروحية الرفيعة. ولعله يشبه من يريد أن يتصور للأشياء المادية بُعداً رابعاً وهو الزمان، وهو بعد لم يقطع شوطاً في الرياضيات العالية والنظرية النسبية، فان لغة الكلام لا تصلح أبداً لأن تجول في مثل هذه الأمور. وان موضوعاً عميقاً كهذا فوق متناولها، ولا يمكن للكلمات المشحونة بالصور الحسية أن تعبر عما يعنو على الحس ويسمو إلى التجريد المحض.

* * *

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾[1].

وكفى بما في القيام جوف الليل والمثول بين يدي رب العباد من تأثير قوي في سير الانسان التكاملي أمرُ الله تبارك وتعالى نبيه الكريم (ص) بقوله: ﴿يا أيها المزمل[2] قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هي أشد وطأ (و ط ء أ) وأقوم قيلا﴾.

وقوله جل من قائل إلى الرسول الأمين (ص): ﴿وتهجد من الليل نافلة لك، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾. فمن توخى مقاماً محموداً فليتأس

(١) سورة الحديد: ١٦

(٢) سورة المزمل.

بنبي الرحمة محمد (ص). وهكذا يمتدح الله تعالى المستغفرين بالأسحار بقوله: ﴿ان المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم أنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[1].

وبقوله: ﴿تتجافى[2] جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾[3] ويقوله: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾[4].

* * *

وقد يستغرب البعض من ذكري صلاة الليل في ظرف لا يصلي فيه الفرائض كثير من الشبان المثقفين. ولكن هذا الشاب المصلي لو لم يكن له رادع في أوساط أوربا وأمريكا عن الولوج في الشهوات لترك الصلاة شيئاً فشيئاً وضعف إيمانه بصورة تدريجية ولعله يصبح بعد قليل من المستهزئين بالمقدسات. ولكن لو تسلح بسلاح يمنعه عن الولوج في المحرمات وهو القيام جوف الليل بتضرع بين يدي رب العباد لا تؤثر فيه الخلاعة وفسوق الفاسقين، فيرجع إلى وطنه ثابت العقيدة، متمسكاً بالمبدأ الاسلامي القويم ذلك لأن قوة (الايمان) تتناسب مع درجة ضبط النفس عن المحارم. وقال علي عليه السلام: «وأغلب الناس من تغلب على هواه». وان الايمان ليزول وترد على الانسان الشبهات بقدر ولوجه في المحارم. ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[5]. يقول علي (ع): «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». وعن رسول الله (ص): «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فان أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء».

وروي أن الشيطان قال لموسى (ع): «لا تخل بامرأة لا تحل لك، فانه ما

(١) سورة الذاريات: ١٥ - ١٩.

(٢) تتجافى: ترتفع.

(٣) سورة ألم - السجدة: ١٦.

(٤) سورة آل عمران: ١٧.

(٥) سورة يونس: ٣٤.

خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون اصحابي حتى أفتنه بها».

وعن رسول الله (ص): «لكل عضو من أعضاء بني آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر». وقال أيضاً: «لا تدخلوا على المغيبات التي غاب عنها زوجها، فان الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم». وقال عيسى (ع): «إياكم والنظرة، فانها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة» وفي حديث نبوي: «المقيم على الزنا كعابد وثن». وفي حديث آخر: «إذا زنى الرجل خرج منه الايمان، فكان عليه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الايمان».

نعم قد أصبحنا في زمان لا يستطيع الشاب أن يبقى محتفظاً بتقواه إلا بعصمة من الله تعالى. وما من شيء يعصم الشاب من الانزلاق في بيئات يكثر فيها الفحشاء صباح مساء وفي كل حين في شوارعها وأسواقها وغاباتها وعلى ضفاف الأنهر وسواحل البحار ويشجع المنكر في كثير من كتبها ومجلاتها وجرائدها ومناظرها وحدائقها العامة إلا المواظبة على صلاة الليل. ففي حياة الحيوان للدميري عن الرسول (ص): «يأتي على أمتي زمان يردون المساجد على المياثر[1] نساؤهم كاسيات عاريات. رؤوسهن كأسنمة الابل البخت، العنوهن فإنهن ملعونات».

وفي حديث آخر عن علي (ع): «يظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة وهو شر الأزمنة نسوة كاشفات عاريات متبرجات، من الدين خارجات، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرمات، في جهنم داخلات».

وقد شكا لي شاب جامعي قبل حوالي أربعين عاماً، أنه ابتلي بكبيرة من الكبائر، ولا يقوى على التخلي منها وقد أثرت في صحته كثيراً. فقلت له عليك بصلاة الليل. فسألني عن كيفيتها. فقلت له: أنها بسيطة جداً إنما هي ١١ ركعة، تصلى بعد منتصف الليل. وكلما كان قريباً من السحر كان أفضل. وللشاب أن يصليها قبل المنام إذا علم أنه لا يقوى على النهوض قبيل الفجر. وله أن يقضيها في النهار إذا لم يوفق لأدائها في الليل. ففي ذلك الأجر الكثير.

---

(١) جمع الميثرة: شيء كالمرفقة أو المخدة يجعل على السرج.

وهذه الصلاة تؤثر كثيراً في كف النفس عن المحرمات وفي جلب الرزق. وكان رسول الله (ص) مأموراً بأدائها طوال حياته.

ينوي: أصلي ركعتي النافلة قربة إلى الله تعالى. يصليها كصلاة الصبح وهكذا أربع مرات. فيكون قد صلى ٨ ركعات (وله أن لا يقرأ السورة إذا شاء).

ثم ينوي، فيقول: أصلي ركعتي الشفع قربة إلى الله تعالى.

ثم ينوي، فيقول: أصلي ركعة الوتر قربة إلى الله تعالى. فإذا رفع يده للقنوت قال في قنوته: ٧٠ مرة: استغفر الله ربي وأتوب اليه. ويستحب أن يقول ٧ مرات: هذا مقام العائذ بك من النار وأن يستغفر لأربعين مؤمناً. وان يقول بعد ذلك ٣٠٠ مرة العفو العفو. وان يقول بعد ذلك: رب اغفر لي وارحمني وتب علي، أنك أنت التواب الغفور الرحيم. ويستحب أن يقول في قنوته أيضاً: «رب اسأت وظلمت نفسي وبئس ما صنعت، وهذه يداي يا رب جزاءاً بما كسبت وهذه رقبتي خاضعة لما أتيت، وها أنا ذا بين يديك، فخذ لنفسك من نفسي الرضا حتى ترضى، لك العتبى، لا أعود».

فجاءني الشاب الجامعي بعد اسبوع قائلاً: رأيت شيئاً عجيباً، فقلت له: وما الذي رأيت؟

قال: رأيت كأن قوة سحرية عجيبة تمنعني عن ارتكاب المحرم. فلم أرتكبه!.

ثم جاءني بعد شهر وشكرني على تعليمي إياه صلاة الليل. وهكذا صلحت سريرته وتقدمت صحته ونجح في الامتحانات الجامعية.

* * *

فصلاة الليل تنير القلب وتبعد الشيطان وتقوي الايمان. فقد سئل علي بن الحسين(ع): ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجهاً. قال: «إنهم خلوا بربهم، فكساهم من نوره».

وعن أبي عبد الله (ع): «صلاة الليل تحسن الوجه وتحسن الخلق وتطيب الريح وتدر الرزق وتقضي الدين وتذهب الهم وتجلو البصر» وفي مجمع البيان

عن النبي (ص) قال: «إذا أيقظ الرجل أهله وصليا من الليل كتبا من الذاكرين الله والذاكرات».

وعن علي (ع): «صلاة الليل مصحة للبدن ومرضاة للرب عز وجل وتعرض للرحمة وتمسك بأخلاق النبيين».

وقد قال رسول الله (ص): «ما اتخذ الله ابراهيم (ع) خليلاً إلا بإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام».

وعن الصادق (ع): «إن العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا رب يا رب. ناداه الجليل جل جلاله: لبيك عبدي، سلني، اعطك، توكل علي أكفك... ثم يقول جل جلاله لملائكته: «أنظروا إلى عبدي، فقد تخلى بي في جوف هذا الليل المظلم والبطالون لاهون والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له».

وعن الصادق (ع): «إن من روح الله ثلاثة: التهجد بالليل وإفطار الصائم ولقاء الاخوان».

وقد ورد أدعية عدة عن الأئمة عليهم السلام يناجي بها العبد ربه، مسطورة في كتب الأدعية. منها مناجاة التائبين لمولانا وإمامنا علي بن الحسين عليهما السلام وكذلك مناجاة الشاكين ومناجاة الخائفين ومناجاة الراجين ومناجاة الراغبين ومناجاة الشاكرين ومناجاة المطيعين ومناجاةالعارفين[1] ومناجاة الذاكرين ومناجاة المعتصمين ومناجاة الزاهدين ومناجاة المريدين ومناجاة المتوسلين ومناجاة المفتقرين. فطوبى لمن وفق أن يناجي بها ربه ليرى كيف يتقرب إلى الله تعالى وذلك الفرح النفسي وتلك الحالات القدسية التي تجلّ عن الوصف والتعريف.

---

(١) «إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك. إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم. . .».

يقول علي بن الحسين (ع) في مناجاة المخبتين: «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا». إلى أن يقول: «أللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك وعيونهم ساهرة في خدمتك ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم متعلقة بمحبتك. . .».

وانظروا كيف يخاطب علي (ع) ربه: «إلهي، كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب، فاجعلني كما تحب».

ومن مناجاة علي عليه السلام:

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلى | تباركت تعطي من تشاء وتمنع
إلهي وخلّاقي وحرزي وموئلي | اليك لدى الأعسار واليسر أفزع
إلهي لئن أعطيت نفسي سؤلها | فها أنا في روض الندامة ارتع
إلهي أذقني برد عفوك يوم لا | بنون ولا مال هنالك ينفع
إلهي إذا لم تعف عن غير محسن | فمن لمسيء بالهوى يتمتع
إلهي ينحي ذكر طولك لوعتي | وذكر الخطايا العين مني يدّمع
إلهي حليف الحب في الليل ساهر | يناجي ويدعو والمغفل يهجع

إن هذه المناجاة بصوت رخيم خافت، بصوت ملؤه الحزن والفرح، حزن على ما فرط العبد في جنب الله وقدم من ذنوب، وفرح لهذا التوفيق العظيم وهو المثول بين يدي رب العباد والاستغفار، لتضفي على النفس الانسانية من الحبور والشغف والارتياح ما لا يمكن وصفه بهذه المقاييس المادية الحالكة في عالم الناسوت، أنه سرور لا يقاس بما يصيب الانسان المسكين من سرور تسافلي في مجالس الأنس والطرب بما فيها من موسيقى وأوركسترا، مهما كان هذا الموسيقي ساحراً أخاذاً للنفوس، ذلك لأن النفس مهما كانت متسافلة تؤنب الفرد بعد الفراغ من هذه المجالس وتوبخه. فإن الله تعالى قد أودع فيها شعوراً يدرك معه أصول المحرمات وأصول الحسنات على حد قوله جل من قائل:

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾[1] وفي آية أخرى: ﴿وهديناه النجدين﴾[2].

إنها مناجاة يشعر الانسان معها كأنه يتطهر ثانية بعد ثانية ويتقرب إلى مقامات القدس آناً بعد آن. لا سيما إذا تخللها شيء من الدموع فقد جاء في الحديث عن النبي (ص):

«من بكى من ذنب غفر له، ومن بكى من خوف النار أعاذه الله منها، ومن بكى شوقاً إلى الجنة أسكنه الله فيها وكتب له أمان من الفزع الأكبر، ومن بكى من خشية الله حشره الله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

وعن كتاب الغايات عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: أخبرني جعلت فداك، أيّ ساعة يكون العبد أقرب إلى الله والله منه قريب. قال: »إذا قام في آخر الليل والعيون هادئة فيمشي إلى وضوئه حتى يتوضأ بأسبغ وضوء. ثم يجيء حتى يقوم في مسجده، فيوجه وجهه إلى الله. ويصفّ قدميه ويرفع صوته ويكبر، ويفتتح الصلاة، فيقرأ أجزاء، ويصلي ركعتين ويقوم ليعيد صلاته، ناداه منادٍ من عنان السماء، عن يمين العرش: «أيها العبد المنادي ربه، إن البر لينشر على رأسك من عنان السماء. والملائكة لمحيطة بك من لدن قدميك إلى عنان السماء. والله ينادي عبدي لو تعلم من تناجي إذن ما انفتلت».

وقد روي: «أن البيوت التي يصلي فيها بالليل ويتلى فيها القرآن، تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض».

وقال رسول الله (ص): «إن الله تعالى منادياً ينادي في السحر: هل من داع فأجيبه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من طالب فأعطيه».

فطوبى لنفوس انقطعت إلى الله تعالى جوف الليل فنالت من الزلفى

---

(١) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة البلد: ١٠.

والقربى ما يتحقق به العبودية والتخلق بالأخلاق التي يرتضيها الله تعالى لعباده، فأصبحت أنواراً يستضاء بها، ونبراساً للحق والواقع. وطوبى لنفوس وفقت إلى المناجاة خاضعة أمام عظمة الله التي لا تتناهى ونالت من الفيوضات الالهية ما لا يمكن وصفه. ففي المناجاة انجذاب نحو المبدأ الأعلى وخروج عن حضيض المادة إلى عوالم القدس.

فقد ذكر لي شاب جامعي أنه كان قد ترك صلاته وتسبيحه، وتأثر بالحضارةالمادية البحتة، حتى اتفق أنه بات ذات ليلة في قرية نائية، فسمع قبيل الفجر صوتاً رخيماً من أعلى منارة لجامع قريب يناجي فيها عبد من عباد الله ربه، ويعدد ما هو فيه من خطايا وذنوب ويرجو رحمة ربه تأثر بهذا الصوت الملكوتي، فرجع إلى صلاته وتسبيحه وأعمال صالحات.

* * *

ومن المستحب أن يجهد من يصلي صلاة الليل نفسه لتخرج من عينيه دمعة هي إمارة الحب والخشية والانجذاب إلى عوالم القدس. فقد جاء في الحديث: «البكاء من خشية الله مفتاح الرحمة وعلامة القبول وباب الإجابة». وقد قال الصادق (ع): «إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك ووجل قلبك فدونك دونك، فقد قصد قصدك».

وقد روي: «أن بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها إلا البكاؤون من خشية الله».

وقال الصادق (ع): «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثة أعين: عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله».

ليس هذا النوع من البكاء بكاءاً يورث الذل والمسكنة، انه سرور محض وعروج إلى ساحات القدس وتطهير للنفس من كل رجس وخبث ومن ذمائم الأخلاق. أنه تزكية للنفوس وخروج عن الادران، فإن أقرب ما يكون العبد إلى الله المتعال حال كونه ساجداً يبكي. كما في مؤدى حديث.

وقد روى أبو حمزة عن أبي جعفر (ع): ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل مخافة من الله لا يراد بها غيره.

وقد أوحى الله إلى موسى على نبينا وآله وعليه السلام: «إن عبادي لم يتقربوا إليّ بشيء أحب إليّ من ثلاث خصال». قال موسى: يا رب وما هن؟... قال يا موسى: «الزهد في الدنيا والورع عن المعاصي والبكاء من خشيتي...». قال موسى: يا رب، فما لمن صنع ذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: «يا موسى، أما الزاهدون في الدنيا ففي الجنة، وأما البكاؤون من خشيتي ففي الرفيع الأعلى لا يشاركهم فيه أحد، وأما الورعون عن معاصي فاني أفتش الناس ولا أفتشهم».

وإن البكاء من خوف الله يؤدي إلى معرفة الله وكسب مرضاته. فقد خاطب إبراهيم (ع) ربه قائلاً: «إلهي ما لعبد بلّ وجهه من الدموع من مخافتك؟ قال تعالى: جزاؤه معرفتي ورضواني يوم القيامة».

كما أن البكاء مكفر للذنوب، فقد قال الباقر (ع): «ما اغرورقت عين بمائها من خشية الله إلا حرّم الله وجه صاحبها على النار فإن سالت على الخدين دموعه لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة، فإن الله تعالى يكفر بها بحور الخطايا...» إلى آخر الحديث.

* * *

وإني إذ أختم هذا المقال أسأله تعالى أن يوفق شبابنا الجامعيين وغيرهم أينما كانوا في البلاد الاسلامية وغيرها أن يواظبوا على صلاة الليل ولو قبل منامهم أو بقضائها في النهار وأن يناجوا ربهم فإن دمعة تنسكب على وجوههم تدفع عنهم مضلات الفتن وتعصمهم عن الانزلاق في أحضان المادية الهوجاء وتنجيهم عن الانجراف في هذا السيل الجارف من النزعات المضلة وتنقذهم من الويل والثبور في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فقد ثبت أنه لا يحفظ إيمان الفرد شيء في هذا الجو المدلهم بالشهوات الجو الجامعي وغير الجامعي إلا المواظبة على بعض المستحبات: كصلاة الليل، وصلاة جعفر الطيار في يوم الجمعة وبعض الزيارات والأدعية فليجرب المجربون.

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾[1].



(١) سورة آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦.

المدرسة الاسلامية

المدرسة الاسلامية هي مدرسة تجعل هدفها الوحيد توجيه طلابها إلى توحيد الله تعالى وتطبيق تعاليم الاسلام والتربية الاسلامية الحقة.

فالطالب عندما يدخل هذه المدرسة يرى قطعاً قد كتب عليها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. «إن الدين عند الله الاسلام» ﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾. يرى طلاباً متخلقين بأخلاق إسلامية، فلا كذب ولا خديعة ولا غش، بل يجدهم متآخين، متراحمين فيما بينهم، عملاً بهذا الحديث: «الخلق كلهم عيال الله، فأقربهم إلى الله أحبهم لعلياله» وهم مصداق هذه الآية: ﴿إنما المؤمنون اخوة﴾.

يرى المدرسة في غاية النظافة والجمال. عملاً بالحديث النبوي القائل: «النظافة من الايمان». والطلاب متعاونون فيما بينهم، يعلم بعضهم البعض وكل يحب التقدم لصديقه، عملاً بالحديث النبوي: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه». فلا حسد ولا تباغض ولا تطاحن، بل حياة كلها دعة وطمأنينة وهناء. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

يرى الطلاب جادين في دروسهم مجتهدين، ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى﴾.

ثم يرى أبدان الطلاب سالمة وهم يعملون في تقوية أبدانهم برياضات خاصة، عملاً بهذا الحديث: «إن لبدنك عليك حقاً» وتحقيقاً لأمر الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

فإذا ذهبوا إلى بيوتهم، سلموا على آبائهم وأمهاتهم، وقبلوا أيديهم وقاموا

بمساعدتهم وخدمتهم في شؤون البيت وما يأمرونهم به، فهم يطيعون آباءهم وأمهاتهم إطاعة تامة لعلمهم أن: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

يرى أن المعلم كلما شرح موضوعاً عن الحيوان أو النبات أو الكيمياء أو الفيزياء عزا ذلك إلى عظمة الله تعالى ودقيق صنعه، وجعل الطلاب يتوجهون بكلهم إلى الله العلي القدير، وتسبيحه تعالى وتقديسه، فهم يشاهدون عظمة الخالق في العلوم الطبيعية وما أودع الله تعالى من دقيق الصنع في هذا الكون الرحيب. وهكذا في علم الجغرافية وعلم الهيأة (وحركات النجوم). . .

يرى الطلاب يتهيأون بكل جد ونشاط لحياة سعيدة حرة ويتسلحون بسلاح العصر ويتزودون من علوم مادية مفيدة لكي يستغنوا بها عن الناس أجمعين عاملين بهذا الحديث: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه». . .

يرى أن الطلاب بعد رجوعهم من تناول طعام الظهر، يتهيأون للصلاة، لأداء واجب الشكر تجاه الله تعالى. يراهم يتوضأون ويصطفون، وإذا بأحدهم، يؤذن بصوت عال رخيم، قائلاً: الله أكبر. . . الله أكبر. . . والطلاب كلهم يعلوهم خشوع وخضوع. فيركعون لربهم ويسجدون، منجذبين بكلهم إلى الخلاق العظيم الذي لا تحصى نعمه. ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

وبعد الانتهاء من هذه الصلاة المقبولة عند الله من أطفال معصومين يذهبون إلى الصفوف لتزود من علوم تجعلهم مسلحين بسلاح العصر للحصول على معيشة هنيئة وللتمكن من نصرة هذا الدين، دين الله القويم، تجاه تيارات الفكر والالحاد وللقيام لبث الدعوة الاسلامية في أرجاء هذا العالم. فما أحوج هذا العالم إلى دين الفطرة: «الاسلام». إنهم يستعدون ليكونوا دعاة حقاً لدين الله في أرضه، عملاً بقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.

إن طلاب هذه المدرسة يترحمون على الطيور وأنواع الحيوانات، ديدنهم الرفق والعطف إلى كل ما خلق الله تعالى عملاً بالحديث النبوي. فقد قال

صلى الله عليه وآله: «إتقوا الله في ما خولكم وفي العجم من أموالكم. قيل وما العجم؟ قال (ص): الشاة والبقر والحمام وأشباه ذلك».

إن طلاب هذه المدرسة يعملون دوماً في مساعدة الأخرين عملاً بهذا الحديث: «الله في عون المؤمن ما دام المؤمن في عون أخيه». ويقومون في قضاء حوائج الجيران لأنه قد جاء في الحديث: «ما زال يوصي رسول الله بالجار حتى ظننا أنه سيورثه».

وقد بلغهم هذا الحديث عن رسول الله (ص): «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». وقد بلغهم قول رسول الله (ص): «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين ولم يجبه فليس بمسلم». انهم يعطون من فضول أموالهم إلى الفقراء والمساكين بصورة سرية ومع احترام وتوقير. لأن الصادق (ع) يقول: «إن الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم».

وهكذا نرى أن هذه المدرسة الاسلامية تبدأ في مفتتح أعمالها (عند الاصطفاف)، بتلاوة أي من الذكر الحكيم وهكذا عند الانتهاء من الدروس عند الانصراف، وهم يمتازون عن غيرهم باستظهارهم القرآن الكريم ومعاني الكلمات وكثيراً من الأحاديث. وفي أناشيدهم تحريض لخدمة الغير والتضحية لأجل رفع لواء الاسلام عالياً في أرجاء العالم. حتى يكون الاسلام ديناً عالمياً، فلا تسمع في أرجاء العالم كله إلا من ينادي أوقات الصلاة بصوت رفيع: الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله...

وفي المدرسة لجان شتى، لجنة الارشاد الديني ولجنة العلوم الاجتماعية ولجنة الرياضة البدنية ولجنة النظافة ولجنة تنظيم الحدائق ولجنة البر والاحسان إلى ما هنالك من لجان مفيدة أخرى.

أما لجنة الارشاد الديني فلها اجتماعاتها الخاصة، وبرامج معينة ووظائف موزعة على الأعضاء. فكلما اجتمعت اللجنة تقرأ المقررات السابقة ويقدم كل عضو تقريراً عما قام به من أعمال ارشادية داخل المدرسة وخارجها وتوزع الأعمال على الأعضاء من جديد.

وأما لجنة البر والاحسان فتقوم كل خميس بعد الظهر بتوزيع ما تمكنت من جمعه من نقود وثياب وأحذية وأفرشة وأوان إلى ما هنالك وذلك بالذهاب إلى بيوت الأرامل والأيتام والفقراء والمساكين، فتقدم ما جمعت اليهم بكل توقير واحترام وذلك بعد أداء التحية الاسلامية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . .

فهنيئاً لطلاب مؤمنين يتربون في هذه المدرسة الاسلامية تربية إسلامية حقة، فيكونون قد جمعوا بين سعادة النشأتين. سعادة الدنيا ونعيم الآخرة طوبى لهم وحسن مآب. . .



اعتراف ماركسية بعجزها

يقول علماء الذرة وكبار العلماء في العلوم الطبيعية وغيرها: أنه لا يوجد في كل ما اكتشف من قوانين وخواص في عالم الطبيعة شيء يدل على عدم وجود الخالق جل جلاله، بل كلما نزداد بحثاً وكشفاً للحقائق الكونية والمعادلات والدساتير والخواص المودعة في أجزاء هذا الكون وارتباط هذه الدساتير والخواص بعضهابعض نزداد يقيناً بالخالق جل جلاله، بإله متناه في إتقانه الخلق بدقة وحكمة فائقتين. وقد قيل قبلاً:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهكذا يخاطبنا الله تعالى بقوله: ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. إنه تعالى يقول: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.

إن الماديين، اليوم، قد اتخذوا (المادة) إلهاً من دون الله وقالوا بقدم المادة وأنها تعمل بحكمة فائقة لأجل تنظيم هذا العالم وتكوينه بدساتير متقنة ومعادلات رصينة وخواص مناسبة وتدرج وتسلسل وتوالد في أوقات معينة وإيجاد ظروف ملائمة إلى ما هنالك! وقالوا إن المادة هي التي تخلق الروح والنفس والعقل وهي فعالة لما تشاء ولكنها لا تحيد عن حكمة فائقة ومنطق رصين! وهي التي تودع في مخ الانسان أسس التفكير: من تعميم وتجريد واستنتاج واستقراء وحدس وإلهام . . .

فما أعظمها من مادة خلاقة بعقل جبار يفوق عقول من كانوا على وجه البسيطة من حكماء ومكتشفين، كآينشتاين ونيوتون وافلاطون ودالامبر وبون كاره، وبركسون وغيرهم . . .

لذلك يخاطب الله تعالى هؤلاء الذين اتخذوا إلههم من مادة وأصنام وحيوان وشمس إلى ما هنالك، دون الله تعالى يخاطبهم قائلاً: ﴿أم اتخذوا من

دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1].

فالمؤمنون بالفلسفة المادية يطلبون من أتباعهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ من هذه المادة، في دورات متسلسلة تنحل كل دورة منها في نهايتها لتعود إلى التركيب في دورة جديدة، وهكذا دواليك، ثم دواليك إلى غير انتهاء...

ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض، متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية. فإذا زالت الطبقات الاجتماعية في هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بدايةالفردوس الأبدي، الذي يدوم ما دامت الأرض والسماوات وتنتهي اليه أطوار التاريخ.

ولكن لم يتحقق كل ما أرادوا، فسرعان ما رجعوا عن طيشهم بعد قليل وغيروا وبدلوا، رجعوا إلى الديانة يستجدونها ويتمسحون بها واجتمع رؤساء القساوسة في حضرة زعماء المذهب الشيوعي، ليعلنوا العودة بمجلس الكنيسة إلى نظامه القديم.

* * *

رأيت من المناسب أن أنقل صورة كتاب أرسله شاب مسلم عامل بنصوص الدين من ألمانيا الشرقية، كان يحضر مع إخوانه الشباب المتدينين في مجلس ديني في الكاظمية تلقى فيه محاضراتٍ دينية، وكان يعمل مجاهداً لبث حقائق الاسلام بين الطلاب في مدرسته وخارجها، لكي نقف على الجهود التي تبذل لغرس المبادىء المادية في تلك البلاد وكيف أن هذا الشاب لتشبعه بالروح الاسلامية الطاهرة ومطالعته بعض الكتب الدينية والفلسفية يجيب ويدافع عن الحق ويعمل لأجل خدمة الدين في تشكيل جمعية إسلامية وهو في أحضان المادية الصماء.

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٤، ٢٥.

فجدير بشبابنا وهم في بلد إسلامي أن ينهجوا نهجاً يتناسب ومسؤولياتهم تجاه دينهم ومقدساتهم وأن يعملوا مجاهدين مخلصين لأجل تشكيل جمعيات ولجان، لتثقيف الشباب تثقيفاً إسلامياً على ضوء القرآن والسنة النبوية وتعاليم أهل بيت العصمة عليهم الصلاة والسلام.

فلا يمكن أن نغرس تعاليم الاسلام في النفوس ونبرهن للعالم، على أن الاسلام هو دين العصر ودين يستجيب لكل ما يحتاجه البشر من دساتير تؤدي به إلى سعادة الدارين في جميع الحقول، من اعتقادية وعبادية وقضائية واقتصادية وإدارية وسياسية وعمرانية وأخلاقية إلى ما هنالك إلا بتشكيل لجان وجمعيات طلابية تقوم بتوزيع نشرات دينية وإلقاء خطب وترتيب دعوات خاصة ودعوات عامة وترتيب نواد إسلامية للشباب، فيها مسجد صغير، تقام فيه الصلاة. ويا حبذا لو بنيت هذه النوادي بجنب الحسينيات التي قد بنيت وتبنى من وقت إلى آخر. تؤثث هذه النوادي الاسلامية بالأثاث المناسب وما يحقق راحة الشباب وتؤسس فيها مكتبات اسلامية يقضي الشاب المسلم فيها أوقات فراغه باستماع آي من الذكر الحكيم ومحاضرات دينية ومطالعة كتب ومجلات إسلامية وإقامة الصلاة والاشتراك في اجتماعات اللجان والمذاكرة في ما يجب أن يقام به لبث الدعوة الاسلامية ونجاحها بين الشباب في العراق وخارجه وإرسال وفود من الشباب وغيرهم إلى القرى والأرياف لتعليم الاسلام وتطبيقه في تلك الربوع بصورة عملية وتقديم تقارير عما قاموا به خلال أسبوع واحد أو شهر واحد، ثم الاتصال بالمدارس لالقاء محاضرات على الطلاب والعمل لأجل إقامة الصلاة بين جدران المدرسة إلى ما هنالك. أنه تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.

* * *

إن هذا الشاب المؤمن الغيور على دينه يقول:

«اننا شكلنا جمعية إسلامية في ألمانيا الشرقية وسنعمل إن شاء الله على دمجها بالجمعية الاسلامية في ألمانيا الغربية، ثم نتصل بالجمعيتين الاسلاميتين في انكلترا والنمسا، لنكون من جميع ذلك اتحاداً عاماً. ولا يخفى ما في ذلك من أثر في إطلاع الرأي الأوربي العام على التعاليم الاسلامية القويمة ونظرته

إلى الكون والحياة خاصة، لا سيما وان الأوروبيين شديدو الرغبة في حب الاستطلاع على الاسلام، ذلك لأن الاسلام يمثل ديناً رئيسياً في العالم أجمع».

«أدرس كما تعلمون هنا (التخطيط الاقتصادي). إلا أن ذلك لا يعني سوى: (الماركسية ـ اللينينية)، و(المادية الديالكتيكية)، والاقتصاد السياسي، ولا يخرج ذلك أبداً عن نطاق. قال: لينين، وقال ماركس، وانكلز... وإذا ناقشت أو طرحت رأياً آخر، أو سألت سؤالاً يدل على أنك لا تصدق بذلك، فإن ذلك يعني أنك تحتاج (إلى مراقبة أشد) وإلى اجتماعات معك أكثر»[1].

«المقدمة: إن لدينا أربعة طرق للدراسة»:

«١ ـ المحاضرات التي يلقيها البروفسور أوالدكتور في قاعات كبيرة تحوي ما لا يقل عن مائتي طالب. وهنا تلقى المحاضرة دون مناقشة أو سؤال أو اعتراض أو شيء آخر. إلا أننا نكتب عن ذلك ملاحظات في دفتر خاص وهدا ما يسمى: بـ(فورليزونك Vorlessung) ، تستغرق هذه عادة ساعتين، تتخللها فرصة واحدة أمدها ١٥ دقيقة».

«٢ ـ ما يسمى باجتماع الزمنار: Seminar ، وفيه ينبغي أن يسأل الطلبة

---

(١) ان الله تعالى يقول: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾. ويقول أيضاً: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وفي آية أخرى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾.

فالاسلام لا يفرض تعاليمه على البشر فرضاً ولا يجبرهم على القبول جبراً، وإنما يخاطب العقل الفطري على ضوء المنطق الصحيح ويجعل العقل معياراً للقبول ويفسح المجال للنقاش والجدل بالتي هي أحسن. وكم من نقاش حدث بين الزنادقة والامام الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام وكذا بين الملاحدة والامام علي بن موسى الرضا عليهما السلام.

ليس الاسلام بدين يقول: كن أعمى حتى تبصر الحق وكن أصم حتى تسمع الواقع. كما يصنع الماركسيون ومن يدعي النبوة زوراً وبهتاناً. وهذا ديدن من تعوزه الحجة وينقصه الدليل، ضغط ومراقبة شديدة وتجسس وسجن وتبعيد وتشريد وقتل وإبادة!..

عن مدى فهمهم للمادة وعن آرائهم بها، وعما إذا كان لديهم رأي آخر مناقض لذلك. إلا أن هذا لا يحدث بصورة عملية. إذ أن الطلبة الألمان قد اعتادوا على تقبل المادة دون مناقشة أو تمحيص. ثم إنهم يخافون إن ناقشوا، أن يؤثر ذلك على درجاتهم وعلى نظرات الأساتذة اليهم، وأنا حسب التنظيم الدراسي، مع كروب (جماعة) يتكون فقط من طلبة الألمان بينما أنا الوحيد أجنبي بينهم».

«وفي أول اجتماع لنا قدمت الأستاذة مقدمة، قائلة: إنهم يرومون تربية الطلبة اشتراكياً كيما يتكون لهم كادر (ملاك)[1] في المستقبل يخدم الحكومة عن وعي. وانهم سوف لا، ولن يدرسونا أي نظام أو مبدأ آخر لئلا تشوب الفكرة الاشتراكية من ذلك شائبة».

«أما عن الرأسمالية، فسوف لا ندرس إلا نقاط النقد التي ضرب ماركس على وترها... ثم استمرت في شرح الموضوع في ألمانيا وفي المقارنات بين الدولتين الألمانيتين».

«وملاحظتي على ذلك، أنني أتمكن من أن أقول: إن معظم بل جل دراستنا عن ذلك: كيف أن ألمانيا الغربية رأسماليةوإن الشرقيةاشتراكية وتستند إلى المعسكر الاشتراكي الجبار وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي، وأنها لا تخاف ألمانيا الغربية التي سلحها حلف شمالي الأطلسي والرأسمالي الأمريكي».

«إن كان هذا صحيحاً أولاً، فأمر لا يهمني كما تهمني الدراسة، ان هذا لا يعطينا تجارب ومعارف إلا في حقل ضيق جداً، حين أنه يشغل أكثر من نصف دراستنا».

«وهكذا بدأ (الزمنار Seminar) الأول، وبدأنا نناقش المادية الديالكتيكية. فشرحت الأستاذة كيف أن العالم ينقسم إلى معسكرين من المفكرين: ماديين

---

(١) أي دخولهم في ملاك الدولة في عداد الموظفين.

وخياليين: Materialistes, Idealistes ثم هاجمت الكنيسة[1] لأكثر من ربع

(١) قد تكون الأستاذة محقة في مهاجمتها الكنيسة، فان الدكتور: (وولتر أوسكار لندبرج) أستاذ الفسلجة والكيمياء يقول: «إن جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو على صورة انسان! بدلاً من الاعتقاد بأن الانسان قد خلق خليفة لله على الأرض على حد قوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم، إن ربك سريع الحساب وانه لغفور رحيم﴾... (سورة الأنعام: ١٦٥). وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو أي منطق مقبول، وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية، وعندما يصلون إلى هذه المرحلة ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين وما ترتب عليها من نتائج نفسية، لا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله».

ولكن الدكتور (وولتر)، قد فاته أن النفس الزكية التي لم تلج في الموبقات وبقيت نقية طاهرة أو وفقت إلى توبة واستغفار بعد التلوث: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ تصل بالفطرة إلى معرفة صحيحة عن الله تعالى فتصحح انطباعاته الخرافية بإلهام من الله تعالى وترجع إلى الفطرة من تقديس الله تعالى وتعظيمه وإطاعته، ولا تنبذ الدين. إنما ينبذ الدين من ربته المراقص ودور الخمور وتعاطي الربا ولحم الخنزير. وهم الأكثرية الساحقة في الغرب والشرق.

نعم، علينا أن نقول، ليس في الاسلام من (الأسرار) كما في المسيحية. تلك الأسرار التي لا يصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم أن يدركها إدراكاً عقلياً صحيحاً، ولهذا يطلبون من أتباعهم الايمان بها دون محاولة فهمها.

كما أن فكرة (الحجاب) في المسيحية بين الله وعباده فكرة لا يستسيغها العقل. فلا حجاب بين الله وبين أحد من خلقه حتى يتحتم توسيط رجل بينه وبين خلقه. فالاسلام يرى أن لكل أحد الحق في أن يتجه إلى الله ويتوسل به ويرفع حاجته إليه. ﴿وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

وأما الشفاعة، فلا يراد منها سد الطريق بين الله وعباده، بل العبد يدعو ربه ويخلو به=

ساعة وكيف أن كل فكرة غير مادية تستخدمها الطبقة المستغلة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لتزيد من استغلالها للطبقة العاملة»[1].

= جاعلاً أعز خلقه اليه شفيعاً لديه. على أنه تعالى يقول: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾، ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه﴾.

إن الاسلام يمنع أن يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله: ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾. ويقول عن الكتابيين: ﴿إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

فالمؤمن حينما يجعل أحد الأئمة شفيعاً عند الله تعالى في قضاء حاجته إنما يريد أن تقضى حاجته من جانب الله وحده دون غيره وهو يوحد الله في دعائه توحيداً ما بعده توحيد.

ثم لا يعلم معنى التثليث وسره في المسيحية وكذا القربان وتحوله إلى لحم المسيح ودمه ولا يعلم سبب اعتقادهم أن الانسان ولد وجاء إلى هذه الحياة مثقلاً بـ (الخطيئة الأصلية) التي لا يستطيع منها فكاكاً. ويعنون بها أن الانسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم عليه السلام حين خالف أمر ربه وأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه. حين أنه تعالى يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾... ومن ثم تطلب المسيحية من الانسان أن يؤمن (بالصلب والفداء)، أي صلب (المسيح ـ الإله) تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية.

هذه الخرافات وأمثالها التي ما أنزل الله بها من سلطان، لم تكن في الكتب المقدسة حين أوحى الله تعالى ما فيها إلى أنبيائه (ع)، إلا أن الكنيسة لابتعادها عن النصوص وانحرافها عما أنزل الله أوجدتها بهذا الشكل. فيأبى الشاب الذي مارس المنطق الصحيح بدراسة نظريات هندسية واشتغاله في المختبرات تقبلها، ويراها خرافات. فيمقت الدين لما يرى معتقدات تخالف الواقع إذا كان من أولئك الذين تلوثت نفوسهم بالموبقات. ولذلك من السهل جداً بث تعاليم الاسلام في أوساط الغرب العلمية لمطابقتها مع العلم الصحيح وخلوها من كل ما يخالف المنطق الصحيح ومن كل خرافة.

(١) أما الاسلام، فيهتم بالطبقة العاملة إلى أبعد حد، ولا يفرق بين العامل وصاحب =

«ثم بدأت تشرح المادة كأساس للمذهب المادي: «إن المادة كانت قبل كل شيء[1] ثم تطورت خلال ملايين السنين إلى هذا العالم. أما الانسان فقد تطور عن حيوان، وقد لعب بذلك العمل البشري دوراً كبيراً».

= المعمل إلا بالتقوى. فقد قال أبو عبد الله (ع): «من أراد أن يدخله الله في رحمته ويسكنه جنته، فليحسن خلقه وليعط النصف من نفسه، وليرحم اليتيم وليعن الضعيف وليتواضع لله الذي خلقه. (النصف: الانصاف والعدل)».

وعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «سيد الأعمال: إنصاف الناس من نفسك ومواساة الأخ في الله وذكر الله على كل حال».

وعنه أيضاً: «من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه فذلكم المؤمن حقاً».

فعلى صاحب العمل أو المعمل أن يعطي العامل ما يسد به حاجته وحاجة بيته حتى بعض الكماليات منها كي يكون مصداق الحديث المتقدم.

(1) مما لا ريب فيه أن الكيمياء علم يبحث فيه عن التركيب والتغييرات التي تطرأ على المادة ويبحث فيه عن تحول المادة إلى طاقة (قوى) وتحول الطاقة إلى مادة. وإن الكيمياء من العلوم المادية والبحث عن موجد الكون عن الله تعالى بحث روحي بحت. فلا رابطة بين هذا البحث وبين الكيمياء (العلم المادي). فليس من شأن الكيمياء أن تبحث في أن هذا العالم بما فيه من نظم ثابتة ودساتير متنوعة وتدبير وحكمة فائقة قد وجد بمحض المصادفة وإن جميع ما يحدث فيه يتم بالطريقة العشوائية أو بطريقة أخرى

ولا يرى المتتبع في ما وجد من قوانين عند دراسة المادة والقوة محلاً للمصادفة، بل بعكس ذلك، يرى أن هنالك نظاماً ثابتاً وقانوناً لا تحيد عنه المادة والطاقة والتفاعلات الكيميائية والحوادث الفيزيائية ويرى أيضاً أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة مهما صغر أو تضاءل حجمه ليس بسلوك أعمى بل يخضع لقوانين معينة دقيقة مترابطة.

ويرى أن في كثير من الأحيان يتم اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة غير طويلة من الزمن، حتى أنهم تمكنوا من العثور على كثير من الخواص الكهربائية نتيجة ما يجري من الأعمال الرياضية على المعادلات التفاضلية (في الرياضيات العالية). فأنى للمصادفة أن تضع دساتير وأن يظفر الانسان نتيجة إجراء أعمال رياضية بمكتشفات أخرى في حقل الكهرباء وغيرها. =

«وسألتها قائلاً: إنه من الأحسن لنا أن نبدأ من البداية ونتساءل من أي شيء تتكون المادة؟ ومن أي شيء تكونت وخلقت؟ وكم كان حجمها؟ وكيف بعثت لها الحياة؟».

= وإن الترتيب الدوري الذي اكتشفه (مانداليف) وهو الترتيب الذي أودعه الله تعالى في العناصر الكيميائية دليل قطعي على عدم وجود أية مصادفة هناك.

وإن اكتشاف تركيب الذرة(Atome) أثبت أن ما نشاهد من تفاعلات كيميائية وما نلاحظ من خواص تنتظم تحت قوانين خاصة وليست هنالك مصادفة عمياء. فالمصادفة لا تولد آلاف الدساتير في مختلف الحقول ثم تربط هذه الدساتير بعضها ببعض لانتظام الكون المادي ومن ثم الحياة.

فالعناصر بما فيها الملون وغير الملون والهش والصلب والخفيف والثقيل والمغناطيس وغير المغناطيس والباقي مدة والفاني بعد فترة محدودة إلى ما هنالك تابعة لنفس قانون (مانداليف) الدوري.

فمن الذي جعل هذه العناصر في غاية الاختلاف من حيث الخواص لما هنالك من حاجة ماسة لوجود وانتظام هذا الكون ثم اخضاعها لنفس القانون. هل للصدفة أن تقوم بهذا العمل المنظم المحير للألباب في ما لا يحصى من مراحل وأشياء.

ثم ماذا كانت هذه المادة في القديم؟ هل كانت طاقة ثم تكدست فكانت مادة؟ وماذا كانت هذه الطاقة، هل كهربائية موجبة أم سالبة؟ أم ماذا؟ ثم لماذا ولأي سبب وكيف تكدست تلك الطاقات الهائلة فكانت مادة... أي عناصر... ولماذا هذا الاختلاف في العناصر من حيث التركيب والخواص مع العلم أن كل ذلك لا بد من وجوده بهذا الترتيب لانتظام هذا الكون الرحيب.

ثم نحن إذا دخلنا في بناء الذرة نشاهد عالماً من الخواص والنظم والقوانين ما يحير العقول.

وهذه الذرة (ليست بذرة واحدة وعلى نمط واحد) كيف صارت أنواعاً مختلفة تحت قانون دوري، وكلها موجودة حتى اليوم: هايدروجين، هليوم، أورانيوم، الخ.

من أين جاءت الكهربائية السالبة (الكترون) وثم الكهربائية الموجبة (البروتون) وكلتاهما موجودتان في بنية الذرة مع تنافرهما.

فهل الذرة هي الله تعالى؟! فهي مركبة ومحتاجة إلى أجزائها، ثم من أين جاءت هذه الأجزاء ومن الذي ركبها بهذا التركيب المعقول تحت قوانين ثابتة معقولة. ثم لنحقق=

فتململت قليلاً، ثم أجابت: «إن المادة لا ترى ولا تفنى، إذ أنها تتشكل بأشكال مختلفة، في كل جسم شكل»، «أما من أي شيء خلقت المادة، فهذا ما لم يتوصل إليه العلم بعد»!!... «ومن خواص المادة أنها غير قابلة للتصور، أي أن الانسان لا يتمكن أن يتصورها أو يلمسها».

كلاً من الأجزاء، فنراها مركبة أيضاً أم هي طاقات لا نعلم حقيقتها وهكذا دواليك، فلنتسلسل إلى الأخير فلا مناص من الاعتراف بالله الخالق المتعال، ذلك لأنا لا بد لنا إما أن نعترف بعقل جبار داخل الذرة أو أن نعترف بخالق حكيم، قد أوجد هذه الأجزاء المختلفة الخاصية والماهية ورتبها خير ترتيب، وبما أن المادة ليست من العقل في شيء إذن لا بد من الاعتراف بالصانع العظيم وهو الله تعالى.

ثم لا يعقل أن المادة توجيد نفسها بنفسها ثم تضع كل هذه الدساتير والقوانين، ذلك لأن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة، فان ذلك كله يتم طبقاً لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها.

ومن الثابت علمياً أن الفرق بين ذرة عنصر معين كعنصر الحديد مثلاً وعنصر الرصاص يرجع إلى الفرق في عدد البروتونات والنيوترونات التي بالنواة وإلى عدد وطريقة تنظيم الالكترونات التي هي خارج النواة والتي تدور حول النواة بسرعة هائلة وتحت دساتير معينة وأبعاد محدودة. إذن كل ما في الكون من مواد مختلفة والتي تعد بالملايين أي كل ما في الكون من عناصر ومركبات، تتألف من جزيئات كهربائية ليست في الواقع إلا مجرد صور (أو مظاهر) من الطاقة أي طاقة الاشعاع المخزونة. إذن، المادة ليست إلا صورة من صور الاشعاع ولا يزال العلم يعمل لأجل تفهم حقيقة الطاقة والاشعاع وسوف يعمل إلى مئات السنين ولن يصل إلى حقيقة الطاقة أو القوة كما لم يصل لحد اليوم إلى حقيقة (الجاذبية) وحقيقة الروم. ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

لذلك يقول الفيلسوف والعالم الطبيعي الدكتور (ماريت استانـلي): اننا نحتـاج في محاولتنا لوصف الخالق (ومن يقوى على وصفه، هو كما وصف نفسه) ومعرفة صفاته إلى مصطلحات ومعانٍ تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي نستخدمها عندما نصف عالم الماديات. فالصفات المادية والتفسيرات الميكانيكية التي تقوم على نظريات السلوكيين تعجز أن تعيننا على تحقيق هذه الغاية، وبخاصة بعد أن تبين لنا أن هذا الكون الذي=

فابتسمت لذلك قائلة: إنكم (بصيغة الاحترام) تؤمنون بوجود شيء لا يمكن أن يتصوره أو يلمسه الانسان، ثم أنكم لا تعلمون من أي شيء يتركب هذا الشيء وكم حجمه... إن هذه هي الروحانية التي تسمونها

= نعيش فيه لا يمكن أن يكون مادة صرفاً وإنما هو مادة وروح، أو مادة وغير مادة، ولا نستطيع أن نصف الأشياء غير المادية بالأوصاف المادية وحدها».

ثم يقول الدكتور (ماريت استانلي): «كثيراً ما طلبت إلى تلاميذي أن يصفوا لي شيئاً غير مادي مثل (الفكرة)، وطلبت اليهم أن يبينوا لي التركيب الكيموي (للفكرة) وطولها بالسانتيمترات ووزنها بالغرامات ولونها وضغطها وأن يصفوا لي شكلها وصورتها. وقد عجزوا جميعاً عن تحقيق ذلك. وصار من الواضح أنه لكي نصف أمراً غير مادي لا بد من استخدام مصطلحات وأوصاف أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التي نستخدمها في دائرة العلوم».

أنه يقول: «إننا لا نستطيع أن نسخر من هذه المشكلة أو نفر منها، فلو لم يكن هذا الكون ثنائياً (يعني المادة وغير المادة كالفكرة والروح) لاستطعنا أن نعرّف الفكرة تعريفاً مادياً صرفاً، وهو ما لم يحدث أبداً. والنظريات المادية التي قدمها ديموقراطيس وهوبز والسلوكيون، وكذلك النظريات المثالية الصرفة التي تفسر هذا الكون تفسيراً معنوياً خالصاً مما قدمه (ليبنتز) و(بيركلي) و(هيجل)، نقول إن هذه النظريات الآحادية جميعاً لا تعدو أن تكون مجرد افتراضات تقوم على التخمين ولا تستند إلى أي أساس من الوجهة التجريبية. ولا بد لأية فلسفة تحاول أن تفسر الطبيعة والكون من أن تختبر أولاً لمعرفة مدى قدرتها على تفسير سائر أنواع الحقائق والعوامل والعناصر التي يتألف منها هذا الكون أو تظهر فيه».

ويقول الفيلسوف (ماريت استانلي): «إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الانسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته. وأوصافه واستنتاجاته. ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود. فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ. وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك وليس باليقين. ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل بالاضافة والحذف وليست نهائية، وإننا نرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجد من التعديلات»[١] =

Idealisme: الخيال. . . إذ أننا نعتقد بوجود الله تبارك وتعالى. وهذه الصفات التي ذكرتموها هي بالضبط صفات الله. أي أنه غير قابل للتصور وغير قابل للمس أو المسك، لا يحويه مكان أو فراغ. وليس له شكل وهو خالد لا يفنى. . .

= وهناك من يقول بقدم المادة، لكن التجارب الكيميائية تدلنا على أن بعض المادة تزول وتفنى. وبعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، فالمادة تفنى، فهي ليست بأبدية، إذن يجب أن لا تكون قديمة أو أزلية، فلها إذن بداية.

وتدل التجارب والشواهد من الكيمياء ومن علوم أخرى إن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية، كما يقول به الماديون، بل وجدت بصورة فجائية حتى أن العلوم تستطيع أن تحد الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد. وقد ثبت علمياً أن هذا الكون المادي لم يكن مخلوقاً ثم خلق وليس بقديم كما يظن الماديون جهلاً منهم أو مكابرة. وهو يسير تحت قوانين معينة ودساتير ثابتة أودعها الله هذا الكون: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما (أي ما أمسكهما) من أحد من بعده، انه كان حليماً غفوراً﴾. (سورة الفاطر: ٤٠).

وبعد أن علمنا أن ليس لهذا العالم المادي أن يخلق نفسه ويسن لنفسه هذه القوانين الرياضية الدقيقة وهذه الخواص المتنوعة التي بها تتحقق الحياة، إذن وجب أن نؤمن أن هناك خالقاً غير مادي وهو الله تعالى. ثم أن ما نلمسه من حكمة فائقة في تنظيم هذا الكون يدلنا على أن خالقه عاقل حكيم. إلا أن العقل لا يوجد هذه الخوارق العظيمة اللانهائية ولا بد أن تكون هناك إرادة ومشيئة، إذن ثبت أن موجد هذا الكون عاقل، حكيم، مريد، فعال: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ (سورة الرحمن: ٢٩).

وقد اعترف العلم الحديث الذي يحدد وقت حدوث المادة (أي الوقت الذي خلقها الله تعالى): أن حدوث الحياة وبدايتها حدث عجيب في تاريخ الكرة الأرضية واعترف بالعجز عن معرفة بداية (الحياة) وكيف كان ظهورها ويقول: العلم عاجز عن معرفة كل ذلك. ويعترف بشيء من التوكيد أن الحياة بدأت في المحيط الدافئ، الماء: وقد =

---

(١) قد أسهبنا القول في ما يقوله الدكتور (ماريت استانلي) في الجزء الأول من هذا الكتاب. قبل الظفر بمقاله هذا، فيرجى المراجعة.

«أما المادة التي تسبهونها (بالفواكه) مثلاً فهي غير موجودة، إذ أن شيئاً اسمه (الفواكه) لا يوجد. نعم، يوجد تفاح. فيه بعض خواص الفواكه وليس

= قال الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً (أي متصلة) ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾.

قد حسب أحد علماء الفسلجة(Physio logiste) أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ فيها نحو: ٦٠٠٠٠٠٠ خلية وكل خلية تتألف من الوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر. ثم أن هذه الجواهر تتألف مما سيقف عليه العلم في مستقبل قريب وهكذا نرى أن العلم كلما تقدم خطوة أصبح أمام أودية من المجاهيل حتى يضطر بالاعتراف بالله الخالق المدبر القادر المتعال.

ثم نرى أن طبقات العين، فيها القرنية والعدسية، وطبقات العين المائية الزجاجية تنتهي في الشبكية وأن الطبقة الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة وتتألف مع ذلك من تسع طبقات، أبعدها يتألف من ثلاثة ملايين مخروط ونحو من ثلاثة ملايين اسطوانة.

فكيف يوفق المادي بين الصدفة وهذا النظام البالغ من الدقة أقصى المراحل. وإن حساب الاحتمالات ينفي إمكان وجود ملايين من الأجزاء في عضو بصورة مرتبة ومنظمة على سبيل الصدفة لتحقيق غاية معقولة. ولكن المادي لا يوافقه حساب الاحتمالات، Probabilite . وما فيه من دساتير. أو هو أقل من أن يستوعب حساب الاحتمالات أو يكتشف في موضوعه بعض القوانين. ﴿فلينظر الانسان مم خُلق﴾...

كيف يفسر المادي ما نرى من مظاهر في (الأظافر) وقل من يهتم بها. فقد كان يقول (أبقراط) مرجع الطب والحكمة منذ أكثر من الفي سنة: «إن الأظافر كالمرآة تنعكس فيها حالة الانسان الصحية». ولحد اليوم ترى أن الطبيب لو استعصى عليه تشخيص مرض فأنه يمسك بأظافر مريضه ومنها يشخص نوع المرض: فالأظافر الباهتة تدل على فقر الدم والمائلة للزرقة تؤكد مرض القلب وتقعر الأظافر يدل على اضطراب الدورة الدموية.

وقد وجد أن عدد الكائنات الحية في الغرام الواحد من التربة يصل إلى بضعة ملايين! فما أعظم هذه (المادة) التي خلقت كائناً حياً بالغاً في الصغر فوق تصور الانسان وفيه أعضاء وأجزاء ودقائق... سيظفر بها العلم في المستقبل. ولكن لن يصل العلم إلى حقيقة الحياة، إلا إذا فوض الأمر إلى موجد قادر متعال وهو الله تعالى، انه تعالى يقول: ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾.

كلها، نعم، يوجد برتقال، فيه قسم آخر من خواص الفواكه، وليس كلها. نعم يوجد (كمثري) فيه خواص أخرى من خواص الفواكه وليس كلها. أما شيء حسي فيه كل خواص الفواكه، فأمر لا يوجد. إلا أنه توجد كلمة (فواكه) في القاموس. على أن ذلك لا يعني وجودها في الحقيقية الواقعية. إن (مثال الفواكه) ليس مني ولست أنا الذي أتيت به، إنما الذي أتى به هو أنتم مع قولكم أن (الفواكه) في هذه الحالة تشبه المادة في حالتها. فإذا ثبت لنا عدم وجود (الفواكه) فإن ذلك يعني باعترافكم: عدم وجود المادة التي أبنتم خواصها قبل دقائق».

«هذا هو أساس دراستنا، واستمر النقاش مدة نصف ساعة أو أكثر بقليل، ثم قالت ما نصه: سيد. . . ، (ذكرت اسم الطالب): إن لدينا برنامجاً خاصاً يجب تنفيذه خلال مدة (الزمنار Seminar)، واننا لا نريد أن ندخل البلبلة إلى أفكار طلابنا! أما إذا كان لديكم شيء من هذا القبيل، فبإمكانكم أن تذهبوا معي إلى البروفسور المختص بالمادية الديالكتيكية ونعمل اجتماعاً ثلاثياً نطلع فيه بمعزل عن الطلبة على نظرتكم الجديدة إلى الكون؟. . . فكان جوابي الموافقة طبعاً. . .

«أما الدراسات الأخرى: فتحضير مؤتمر الأحزاب الشيوعية، وأحزاب العمال في موسكو وتطبيقه على الوضع في ألمانيا، على سبيل المثال».

«والخلاصة أننا يجب أن ندرس في السنة الدراسية الأولى كتاب (رأس المال) لـ(كارل ماركس) بالألمانية بأجزائه الثلاثة، ثم كتاب الاقتصاد السياسي، ثم كتاب أسس الماركسية اللينينية، ثم كتاب (أسس الفلسفة الماركسية)، ثم كتاب: (التكنولوجي: Technologie) [1] ثم الرياضيات الاقتصادية».

«أما الشكل الدراسي الثالث: فتؤلف مجاميع من الطلبة، تدرس كل مجموعة على حدة خارج الوقت الدراسي المشترك ويعاون أفراد المجموعة بعضهم البعض».

---

(١) علم يوضح تاريخ وأصول البحث المتبعة في الفنون والصنايع.

«والطريقة الرابعة هي دراسة ذاتية داخل البيت أو المكتبات وقاعات المطالعة».

* * *

وهكذا نرى أن هذا الشباب المؤمن بإلهام رباني وإفاضات نفسه الطاهرة يحرج الأستاذة حتى لا تستطيع جواباً، فتقول وملؤها الشك والارتياب: «المادة لا ترى ولا تفنى وتتشكل بأشكال مختلفة» فإذا كانت المادة لا ترى (كما تقول الأستاذة الماركسية) فكيف علم المادي بوجودها مع أنه لا يعترف إلا بما يقع تحت إحدى حواسه الخمس التي لا يعلم كيف تكونت لديه وكيف جُهز بها.

ولعله يقول: إن العقل هوالذي دلنا على أن المادة لا ترى ولا تُلمس، فإذا كان العقل هو المدار للاعتراف بما لا يرى بالعين ولا يلمس، فبالعقل وبإرجاع السبب إلى المسبب يعترف الانسان السوي بإله مرّتب لهذا العالم أبدع ترتيب، إله تتجلى حكمته في كل جزيء من جزيئات هذا العالم، المنظور وغير المنظور. إله لا يشبه مخلوقاته في شيء، لافتقار هذه المخلوقات بما فيها المادة إلى أجزاء مختلفة لم تكن قبلاً (كما ثبت علمياً) رُتبت بتدبير فائق. فالله الذي لا يشبه مخلوقاته في شيء هو واجب الوجود وهو أزلي قديم، لم يسبقه شيء من الأشياء. وبغير هذا المنطق السليم لا يمكن أن تحل مشكلة هذا التنظيم المادي وخلق العقول والأرواح والملائكة والجن والحيوية إلى ما هنالك.

قد ثبت على أن التطور لا يحدث في الجسم عفواً ومن تلقاء نفسه، وإن العلم ليعترف أن هناك قصوراً ذاتياً في جميع الأجسام. ولولا إرادة فائقة ومشيئة ربانية لما حصل أي تطور وأية طفرة وأي تحول فجائي، ولما وجدت هذه الحيوية والخوارق التي نلمسها في أعضاء الجسم الانساني. إن التجارب في شتى العلوم تؤيد ما قلنا. إلا أن النفوس إذا تحجرت فرضت إرادتها الديكتاتورية على العلم، فأبادت العلماء، أولئك الذين خالفوها في الرأي على ضوء ما قاموا به من تجارب والمنطق الصحيح كما حدث ذلك في الاتحاد السوفيتي، مع الأسف الشديد.

تقول الماركسية: «وأما الانسان فقد تطور عن حيوان لعب بذلك العمل

البشري دوراً كبيراً جداً»، فهل لها أن تقول: كيف وجد الحيوان وكيف وجد الأميبا (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) بأسلوب علمي صحيح دونما مغالطة. لكنها تجيب حالاً: «إن العلم لم يصل بعد إلى مرحلة يتمكن معها من الاجابة على هذا السؤال».

فهل من المعقول التمسك بنظرية واهية وإزهاق النفوس من أجلها وهي بعد لم تتحقق علمياً.

إن العلم يؤكد بصورة قطعية: أن الحيوية إنما وجدت على وجه الأرض بإرادة الله تعالى ومشيئته، ذلك لأن التجارب تدل أن ليس في إمكان المادة أن تؤثر في نفسها وأن تكون من تلقاء نفسها نباتاً، فحيواناً فإنساناً.

إن العلم ليعترف أن الأرض كانت قطعة نارية في درجة عالية من الحرارة فهل كان بالامكان أن تعيش على سطحها خلية من الخلايا أو جرثومة من الجراثيم أو نبات أو حيوان، فماذا الهذيان؟ فالمادية هراء ما بعده هراء ودس ما بعده دس وتضليل ما بعده تضليل.

* * *

تقول الأستاذة الماركسية: «إن من خواص المادة أنها غير قابلة للتصور». فلسائل أن يسأل: كيف عرفنا أن عدم إمكان التصور من خواص المادة، فالمادة إذن ليست بشيء متصور ملموس، فهي إذن ليست بشيء يحس بالحواس الخمس ولا يمكن أن تتصور، فما هي المادة إذن؟ لعلهم يريدون أن يقولوا: إن المادة هي القوة، أو الطاقة. فإذا كانت المادة على ما يزعمون! هي القوة نفسها على ما ثبت في الفيزياء إذن: المادة، كما تؤيده التجارب، صورة من صور الطاقة: (القوى) ومظهر من مظاهر الاشعاع. فلم تبق المادية كما يفهمها الماديون، وإنما المادة كانت في الابتداء طاقات وقوى تكدست تحت نظام خاص حتى كانت هذه العناصر: (الحديد راديوم، أورانيوم..).

لقد قال (آينشتاين: (Einstein : «في الذرة طاقة كبيرة يمكن تسخيرها والافادة منها وإن المادة صورة من صور الطاقة. وإن الغرام الواحد من المادة يتحول إلى (ألف مليون مليون مليون) وحدة من وحدات الطاقة وهي

الأركث: (Erg) أو إلى ٢٥ مليون كيلوات/ساعة أي ما ثمنه ٥٥٠ ألف دينار كما قلنا سابقاً. فإذا استطاع الانسان أن يستخدم الذرة لتؤثر في الجو فيسقط مطراً حين يريد، فذلك لما أودع الله تعالى من نظام ودستور في تشكل الأمطار وحدوثها وتراكم السحب أو حدوثها عند انفلاق الذرة. فالسحب ليست إلا طاقة مكدسة في بطن الذرة، فإذا انفلقت الذرة تحررت، فأمطرت مطراً غزيراً بإذن الله تعالى على ضوء ما وضع من خواص ودساتير. فماذا الغرور؟.

«يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين﴾ (سورة الانفطار: ٦ ـ ٩).

ثم لنا أن نسأل ما هذا الاختلاف بين القوة التي تتألف منها المادة:
(١) الكترون: شحنة كهربائية موجبة. (٢) بروتون: شحنة كهربائية سالبة. (٣) نيوترون: كهربائية موجبة وكهربائية سالبة متعادلتان.

هل وجدت الكهربائية الموجبة قبلاً أم الكهربائية السالبة؟ وهو عين ما يقال في الأزواج كلها، من نبات وحيوان وإنسان... هل وجد الذكر قبلاً أم الأنثى؟.

انه تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً﴾. وفي آية أخرى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. فالله يدعونا إلى التفكر في هذه المرحلة الخطيرة التي ترد النظرية المادية(Materialisme) في الصميم ولا يدع مجالاً للنقاش.

فالذي جعل بين الذكر والأنثى مودة ورحمة جعل بين قوتين مخالفتين: الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة بعد خلقهما مودة ورحمة وتوافقاً ووئاماً: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾. (سورة يس: ٣٧). ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. (سورة الذاريات: ٥٠).

فإن قلنا إن الكهربائية الموجبة كانت موجودة قبلاً، فكيف خلقت لنفسها

كهربائية سالبة وكيف أحست بهذه الحاجة لتكوين الذرة وهي أساس الموجودات المادية على اختلاف أنواعها.

فلا مفر من الاعتراف بخالق أوجد قوتين مخالفتين إما في وقت واحد (والله العالم) أو في زمنين متعاقبين... ووفق بينهما. وإن هذا التوفيق لهو أعظم دليل على وجود الله جلت عظمته. خلافاً لمنطوق نظرية الاضداد التي يتشدق بها الماديون: كارل ماركس وأتباعه... دونما تعمق أو لاغواء الناس انتصاراً للصهيونية!.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. (سورة الحج: ٤٦). ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب﴾ (سورة الحج: ٣٠ - ٣٢).



مولد الرسول الأعظم (ص)

(علاقة الاسلام بالعلم والحياة[1])

إن نظرة بسيطة إلى هذا الكون تجعلنا نعلم أن ما خلق الله من عوالم ومخلوقات شتى على ضربين منها تابعة إلى نظم ثابتة وخواص معينة لا تتعداها ومنها ما هي مختارة، لها من الارادة في أن تفعل وأن لا تفعل، في أن تتصدى للخير أو لا تتصدى، في أن تكون مصدراً للشر أو لا تكون.

فهذه الجاذبية التي تضرب بأطنابها في هذا الكـون الرحيب والتي لهـا قوانينها ودساتيرها مؤتمرة بأمر الله تعالى لا تحيد عنها قيد شعرة (ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده).

وهذه الذرة التي تبلغ من الصغر بحيث لا ترى بأدق الآلات والتي لو جمع عشرة ملايين منها على شرط الكروية لا تتجاوز مليمتراً واحداً هي عالم في نفسها، فالالكترونات تدور حول المركز أي البروتونات بنظام خاص وبشكل اهليلجي بسرعة (٢٠٠٠) كم في الثانية ولا تتخلف عما رسم لها من جانب الله تعالى.

وهناك في المركز نيوتـرونات وآنتي نيـوترونـات يحكم بوجـودها العقـل الرياضي، ونظام خاص في عدد الالكترونات والبروتونات ينشـأ من ذلك اختلاف هذه العناصر التي شكلت العالم المادي، وقد عبّـأ الله تعالى طاقات في هذه الذرة لو تحررت لأفنت العالم في بضع دقائق. كل هذه تابعة إلى نظم ثابتة ودساتير معينة ليس لها أن تتحول عنها بارادتها إلى غيرها. وهكذا في عوالم النبات والحيوان، إلا هذا الانسان، فقد منَّ الله عليه بارادة جزئية

---

(١) كلمة ألقيت في حفلة ميلاد الرسول (ص)

وجعله مسؤولاً بهذه الارادة تجاه الأوامر التي بلغه اياها بواسطة سفرائه وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام دفعاً للفساد والافساد ولكي يأخذ هذا الانسان سيره التكاملي في هذا الكون. ذلك لأن الذي أعطى الكمال لكل شيء مادي في هذا الكون يريد بالانسان أن لا يحيد عن سنن الكمال. وهو القائل ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. فوجب حسب هذا المنطق الطبيعي أن لا يحيد هذا الانسان عن اتباع أوامر الله تعالى في أرضه وان لا يفسد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾ كي يقطع سيره التكاملي في هذا الكون.

وآخر هؤلاء السفراء بين خالق البشر والبشر وأكملهم هو نبينا نبي الرحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقد بعث في وقت كانت البشرية مضطهدة تحت نير العبودية والرقية والاستبداد وعبادة الأوثان والفحشاء إلى حد بعيد، فالرسول لم يأت نتيجة تكامل اجتماعي ـ كما يقول بذلك علماء الاجتماع وإنما هو خارق لنواميس علم الاجتماع. فقد بعث في بيئة بلغت من التسافل أقصاه وهذا خير دليل أنه سفير موفد من جانب الله تعالى ليس للتكامل الاجتماعي أثر في وجوده، فقد خالف منذ صغره ما كان عليه قريش من المجون والتسافل ولم يحضر مجالسهم بل كان يفكر ويتعبد بطهارة نفس مرضية وأخلاق ملكوتية حتى سماه قومه بالأمين.

كما أن هذا الانقلاب العظيم الذي قام به نبينا محمد (ص) في حقول شتى من روحية واجتماعية واقتصادية وعسكرية وإدارية وأدبية وعلمية والذي تمّ خلال ثلاثة وعشرين عاماً لا يمكن حدوثه بالقوة البشرية العادية المحدودة فلا بد من تأييد رباني ونصر إلهي حققا هذا الانقلاب بشكل معجز.

كانت رسالة محمد (ص) تحطيماً لطاغوت الشرك بالله وطاغوت التعصب الديني ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وطاغوت التعصب الجنسي ﴿يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ وطاغوت التفرقة الاجتماعية ﴿كلكم لآدم وآدم من تراب﴾ وطاغوت الظلم والبغي والطغيان وطاغوت الرق وطاغوت الرجل طغيانه على المرأة، فقررت للمرأة حقوقها الانسانية في صورة

شريفة لا رجعة فيها ولا نكسة ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾.

فرسالة محمد (ص) رسالة شاملة عامة تجمع بين سعادة الفرد في دنياه وآخرته، رسالة روعي فيها الجانب الروحي والجانب المادي على ضوء العقل والمنطق (لا ضرر ولا ضرار)، فالاسلام في صميمه حركة تحريرية من براثن الشرك والطبقية والبغي والتفريق العنصري وكل ما يلوث النفس الانسانية من شهوات ونزوات.

إلا أن أوروبا عارضت هذا الدين عندما أشرق نوره على أوساط الغرب أشد المعارضة وشوهت سمعة الاسلام ووصمته بالشرك وان محمداً إله يعبد، لذلك يقول أحد فلاسفة الغرب: «إن أوروبا قد ارتكبت أعظم الجرائم عندما سدت أبوابها على المسلمين الفاتحين وحرمت العالم من تعاليم هذا الدين القويم دين الاسلام، ولولا هذه المعارضة الأثيمة لرأيت العالم اليوم يوحد الله في أرضه ويطبق أوامر الله وتعاليمه التي أوحى بها إلى نبيه الكريم، فلا تطاحن ولا تباغض».

ولم تكتف أوربا بخلق الأكاذيب فحسب، بل أخذت تتهم الاسلام بأنه دين لا يساير العصر في نظمه وتعاليمه، فأملوا على شبابنا بعد أن ولجوا في أحضان المادة بما فيها من مآثم وشهوات، شبهاتٍ واتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

فقالوا: إن الاسلام لا يساير العلم، حين أن المسلمين ـ حسب اعتراف فلاسفة الغرب وكبار علمائهم ـ هم مؤسسو النهضة العلمية الحاضرة لأوربا، وهم مكتشفو الطريقة التجريبية التي تعرف اليوم بالطريقة البيكونية، وهم واضعو الهندسة التحليلية والتحليل الرياضي وعلم الجبر والفلك العالي، ولهم مكتشفات هامة في الحجوم والمساحات، وإن نصف أسماء النجوم في علم الفلك اليوم هي أسماء عربية وهم واضعو الاسطرلابات، وقد بنوا مراصد هامة في مختلف البلدان ولا سيما في الأندلس، وعندما أهدى الخليفة العباسي ساعة إلى شارلمان حسبوا أن فيها جنياً يحركها.

غاية ما هنالك كان الدين والتقوى يرافقان العلم ولا ينفكان عنه، فالمكتشف كان لو أشكلت عليه مسألة أو عسر عليه اكتشاف ما يريد اكتشافه توسل إلى الله وصلى ركعات وسأل الله عز وجل في حل مشكلته، وهذا مما أدى إلى أن لا يكون العلم آلة هدم وتخريب للمعتقدات والفضائل، بخلاف ما نشاهده في جامعات العالم اليوم.

وقالوا ان الاسلام يدعو إلى الكسل والانزواء، حين أن الاسلام يأمر بالعمل والجهد المتواصل بشكل لا يؤدي إلى الافساد في الأرض وإهمال النواحي الروحية والعبادية. وهو القائل: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾. إن رسول الله (ص) قبل ذات يوم يد عامل قائلاً: «إنها يد يحبها الله» تقديراً لمقام العامل في المجتمع. وقد جاء في حديث: «إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حقٍ حقه».

وفي حديث قال رسول الله (ص): «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته أو ترك آخرته لدنياه، بل خيركم من أخذ من هذه وهذه».

وقالوا لِمَ أقر الاسلام الرق؟ الاسلام لم يقر الرق وإنما نظام الحروب في العصر الجاهلي كان يحتم ذلك والاسلام قد ألغى الرق بصورة تدريجية في جعل أحد وجوه مصروفات بيت المال عتق الرقاب. بقوله تعالى: ﴿وفي الرقاب﴾.

وقالوا إن الاسلام قام بالسيف، حين أن الاسلام كان مدافعاً عن مبدئه وان مائتي مليون في الصين وأندونيسيا والهند اسلموا بمجرد الدعوة، وهكذا أضافوا أكاذيب أخرى، الاسلام منها براء، ولا مجال لذكرها. فما على المسلمين لا سيما الشباب المؤمن إلا أن يقوموا بتطبيق قواعد الاسلام وإزاحة هذه الرواسب البعيدة عن الحق والواقع وأن يرفعوا لواء الاسلام عالياً بجهاد متواصل ليتحقق ما تنبأ به بعض علماء الغرب من جعل الاسلام ديناً عالمياً، فلا تسمع في جميع بقاع الأرض إلا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

* * *

ليلة الميلاد[1]

ما أبهجها من ليلة وما أسعدها، أنها ليلة حافلة بالخيرات والبركات للناس كافة، ليلة تضم بين جوانبها رجلاً عظيماً يفوق العظماء ومنقذاً للبشرية جمعاء لا كسائر المنقذين[2].

إنها ليلة يولد في صبيحتها في بيت الله الحرام سيد الوصيين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين عليٌّ أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

أنىَّ لانسان عادي أن يصف مَن بلغ مرتبة النبوة كمحمد (ص) أو مرتبة الامامة كعلي (ع)، إنهما من عوالم القدس، حيث ليس للمقاييس المادية أن تخطو هنالك خطوة واحدة. إنه عالم تكاملي نفسي، ولا يمكن تفهم هذا الصُقع الشامخ من عوالم النفس بمقاييس متعارفة بشرية. لذلك يقول الغزالي، ليس للطفل أن يتفهَّم ما يقوم به فيلسوف متبحِّر من محاكمات واستنتاجات واستقراءات. وذلك أشبه شيء بمن يريد تفهم الرياضيات العالية بمقاييس الرياضيات العادية.

فليس علي (ع) من يمكن وصفه بمقاييس معلومة يفهمها الناس، وإنما شأنه شأن الأنبياء (ع)، يمكن التعرف اليه بما صدر عنه من آثار وابداع.

حقاً أنه لمن الصعوبة بمكان، بل من المستحيل أن يقوى أحد على وصف رجل يقول فيه رسول الله (ص) مخاطباً إياه:

«لو كانت السماوات قرطاساً والأشجار أقلاماً والبحار مداداً والأنس كتاباً والجن حساباً، لما أحصوا معشار فضائلك، يا علي».

أنى لرجل أن يصف علياً عليه السلام وهو الذي قال فيه رسول الله صلى

---

(١) القيت ليلة ميلاد الامام علي عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) عدا نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الله عليه وآله وسلم: «لولا أني أخشى على أمتي أن تقول فيك ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك قولاً ما مررت بقوم إلا وأخذوا التراب من تحت قدميك يتبركون به». وهو الذي قال فيه رسول الله (ص): «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خُلته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيى في ورعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب، فإن فيه سبعين خصلةمن خصال الأنبياء».

كيف يوصف من يقول فيه رسول الله (ص) على ما يروي لنا عمر: «لو وُضع إيمان علي في كفة والسماوات والأرضون في كفة لرجح إيمان علي». . . .

كيف لا يكون علي كذلك وهو الذي كان يُغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات. وكان يكتفي بالملح أداماً، وكان يحمل على ظهره الطعام جوف الليل إلى بيوت الأرامل والفقراء. وقد طلق الدنيا ثلاثاً وهو مصداق هذه الآية: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾.

فإن قوة إيمان الشخص ليتناسب مع درجة تطهير نفسه وقيامه بأعمال صالحات، ومن مثل علي في هذا المضمار؟ فحقيق أن يقول بشأنه رسول الله (ص): «برز الايمان كله إلى الشرك كله».

وقد جاء في الحديث: ﴿عبدي أطعني، اجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون﴾. ولذلك ظهر على يد علي عليه السلام كثير من المكرمات والمعاجز مما يحيِّر الألباب.

فنهج البلاغة كتاب حوى أصول الفلسفة الحقة عن الكون والحياة ومصير الانسان وواقعه وأصول الاقتصاد، حيث لا يضحى بالفرد على حساب المجتمع ولا بالمجتمع على حساب الفرد، حوى أسس إدارة شؤون البلاد وما يربط الشعب بالهيأة الحاكمة من حقوق، فهو كتاب فلسفي، اجتماعي، عرفاني، اقتصادي، أدبي، وفيه فصل الخطاب في كل حقل يحتاجه الانسان في سيره التكاملي.

فليس لله بعد رسول الله (ص) آية اكبر من علي (ع)، في جميع الحقول من علمية وفلسفية وغيرهما.

يسأل علي عليه السلام: عن المسافة بين السماء والارض، فيجيب (ع): دعاء مستجاب حقاً، ان هذا الجواب، آخر ما يمكن أن يقال بشأن هذا الفضاء اللانهائي الرحيب، فقد اكتشف أخيراً أن هنالك مجرات وكواكب تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية وأنها تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة وان الكون يتسع كل يوم ولا يُعلم مدى ذلك وهو قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾. ومعلوم أنه لا يخلو مكان منه تعالى وهو القائل: «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد». فقول علي: «دعاء مستجاب» يسري في جميع أنحاء هذا الكون الواسع الأرجاء.

ثم يُسأل صلوات الله عليه: كم بين المشرق والمغرب؟ فيجيب: «مسيرة يوم للشمس». ولم يكن ليعلم أن للشمس حركة إلا قبل حوالي ٥٠ عاماً حيث تقدمت العلوم الرياضية العالية والميكانيك السماوي والمراقب. فعلموا إن الشمس مع توابعها من عطارد وزهرة وأرض ومريخ ومُشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو كلها تسير في الفضاء بسرعة سبعين ألف كيلومتر في الساعة بشكل لولبي نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. وهو قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

يُسأل عليه السلام عن مسائل رياضية، فيجيب ارتجالاً دونما حساب وتفكير. يسأل عن عدد يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤، ... إلى ١٠ فيقول وهو يهمز فرساً له: «إضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك».

يُسأل عن مسائل فيزيائية، فيحلها بشكل عملي ومعلوم أن علم الفيزياء لم يكن معلوماً في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

يسأل عن قطر الشمس، فيجيب، ٩٠٠ في ٩٠٠ ميل بقي ٨١٠٠٠٠ ميل ومعلوم أن الميل: ٤٠٠٠ ذراع لرجل متوسط القامة، فلو حولنا الذراع إلى انجات فأقدام، فياردات، فأميال، لحصلنا على عين ما عليه الفلك العالي اليوم من أن قطر الشمس ٨٦٥٣٨٠ ميلاً (الميل = ١٧٦٠ ياردة).

وهكذا نرى علياً قد زق العلم زقاً، وهو القائل: «هذا لعاب رسول الله هذا ما زقني رسول الله» علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب»... هذا هو تعظيم الاسلام للعلم.

يقول علي عليه السلام: «بالعلم يُعرف الله ويوحَّد». ويقول في مقام آخر: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

لو قارنا بين هذين الحديثين لعلمنا أن العلم لا يمكن أن يكون موصلاً للحق والواقع وطريقاً للهداية ما لم يكن مقروناً بطاعة الله تعالى، ما لم يكن مماشياً مع التقوى. فإن تباعد العلم عن التقوى وصار في معزل عن تهذيب النفس، أصبح وبالاً على الفرد بل على البشرية جمعاء، كما نشاهد ذلك اليوم.

فضعف العقائد والاستهزاء بالمقدسات أو تسخيف الدين إنما هي نتيجة ثقافة عارية عن أساليب تكامل النفس وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس. ولم يكن شيوع المذاهب الباطلة من مادية ووجودية وغيرهما في أوروبا وغير أوروبا إلا نتيجة انفصال العلم عن تكامل النفس الانسانية وجعل العلم المادي وحده معبوداً يُعبد، حلالاً للمشكلات الاجتماعية والنفسية وغيرهما.

على أن عدداً يسيراً من رجال الفكر في أوروبا أخذوا ينددون بهذه الحضارة المادية التي لا تنبض إلا بشهوات ونزوات، ولا تصدر إلا عن مادية مظلمة حالكة. ولكن تيارات الشهوات الجارفة لم تدع أذناً صاغية لنداءاتهم، حتى صرنا نجابه عالماً مسلوب الفضيلة والعاطفة شأنه الطيش والبطش.

فما الذي يُرجع العالم إلى طمأنينة ودعة. إنما هو علم يمازجه التقوى، يمازجه عبادة الله في أرضه. إنما هو علم مع إيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فالعالم بحاجة إلى هُداة مهديين يهدون الناس سواء السبيل، فقد قال علي عليه السلام: «أرسل رسولاً ليزيل به علتهم». فالناس مرضى والأنبياء عليهم السلام ومن بعدهم الأوصياء هم المعدلون.

ويقول علي (ع) في موضع آخر: «أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم ويهدوهم إلى معايش تحييهم». فالأنبياء مع إتمامهم مكارم الأخلاق ليحثون الناس على تعلم شتى العلوم ويهدونهم إلى طرق اقتصادية تتحقق فيها

العدالة الاجتماعية والايثار. ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.
﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾.

فما واجب المسلم تجاه الوضع العالمي الراهن؟ عالم يسوده الزيغ والانحراف. وأما في الوطن الاسلامي، فتيارات مختلفة تجرف عقائد شبابنا وتجعل منهم أعداء لدينهم ومقدساتهم.

فهنا واجبان خطيران: أولاً: هداية الشباب بطرق عصرية مجدية من فتح نواد اسلامية بشكل جذاب وإلقاء محاضرات عليهم وتفهيمهم أن الاسلام هو دين الحضارة الحقة وتعليمهم آداب دينهم، فالشاب المسلم يقضي أوقات فراغه في هذه النوادي لتهذيب نفسه وأخذها إلى مراتب الكمال ويتعلم كيف يرشد الناس إلى الدين القويم.

ثانياً: أن ينبري ثلة من رجالات الاسلام لتشكيل جمعية ذات فروع تأخذ على عاتقها تهيئة دعاة للاسلام من الشباب المؤمن. دعاة تسلحوا بسلاح التقوى وسلاح العلم من ديني وعصري، فيوزعون في أرجاء العالم لدعوة البشر إلى دين الاسلام تحت نظام خاص ومناهج منظمة ومسؤوليات معينة. وهكذا يستنير العالم بهداهم ويكون الاسلام دين الفطرة ديناً عالمياً كما تنبأ (برنارد شو) من قبل.

﴿والذين جاهدوا فينا لنَهدينّهم سُبلنا وان الله لمع المحسنين﴾. فإلى العمل، إلى العمل المتواصل أدعو كل مسلم غيور.

* * *

مسألة رياضية يحلها علي عليه السلام

قال السيد الداماد في بعض مؤلفاته في كتاب قس الأنوار في الأوفاق الحروفية والعددية: كان علي بن أبي طالب عليه السلام يقول بالحروف وكان أحسن الناس، ثم نقل هذه الرواية: أن يهودياً أتاه، فقال: يا علي، أعلمني أي عدد يتصحح من الكسور التسعة جميعاً من غير كسر وكذلك من كل كسوره التسعة إلا من خمسة، فيكون له كل من الكسور التسعة مصححاً من غير كسر إلا: الثمن لربعه والربع لثمنه والسبع لسبعه والتسع لتسعه والثمن لثمنه، قال عليه السلام: إن أعلمتك تسلم؟ قال: نعم. فقال: إضرب أسبوعك في شهرك، ثم ما حصل لك في أيام سنتك، تظفر بمطلوبك. فضرب اليهودي سبعة في ثلاثين فكان المرتقى: (٢١٠)، فضرب ذلك في ثلاثمائة وستين، فكان الحاصل: (٧٥٦٠٠) فوجد بغيته، فأسلم.

حلٌّ وتوضيح: بما أنه يجب أن يكون للنصف، نصف وثلث وربع وخمس وسدس وسبع وثمن وتسع وعشر. إذن يجب أن يكون للعدد المطلوب ١/٢ × ١/٢ = ١/٤ = ٢١/٢.

أي يجب أن يقبل العدد القسمة على ٢ × ٢ = $٢^{٢}$. ويجب أن يقبل القسمة على ٢ × ٣ لأنه يجب أن يكون للنصف ثلث أي ١/٢ × ١/٣ = ١/٦. أي يجب أن يكون للعدد سدس.

وهكذا يجب أن يكون لنصف العدد المطلوب ربع أي: ١/٢ × ١/٤ = ١/٨. فيجب أن يقبل العدد القسمة على: ٢ × ٤ = $٢^{٣}$ وعلى ٢ × ٥ وعلى ٢ × ٦ = ٢ × ٢ × ٣ أو $٢^{٢}$ × ٣.

وعلى ٢ × ٧

وعلى ٢ × ٨ = ٢ × $٢^{٣}$ = $٢^{٤}$

وعلى ٢ × ٩ = ٢ × $٣^{٢}$

وعلى ٢ × ١٠ = ٢ × ٢ × ٥ = $٢^٢$ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لثلث العدد نصف وثلث وربع... وعشر فيجب أن يقبل القسمة على: ٣ × ٢ = ٣ × ٢ (لأنه ١/٣ × ١/٢ = ١/٦)

وعلى ٣ × ٤ = ٣ × $٢^٢$

وعلى ٣ × ٥ = ٣ × ٥

وعلى ٣ × ٦ = ٣ × ٣ × ٢ = $٣^٢$ × ٢

وعلى ٣ × ٧ = ٣ × ٧

وعلى ٣ × ٨ = ٣ × $٢^٣$ ب

وعلى ٣ × ٩ = ٣ × $٣^٢$ = $٣^٣$

وعلى ٣ × ١٠ = ٣ ×٢ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لربع العدد نصف وثلث وربع وخمس... الخ (١/٤ × ١/٢ = ١/٨).

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة:

على ٤ × ٢ = $٢^٢$ × ٢ = $٢^٣$

وعلى ٤ × ٣ = $٢^٢$ × ٣

وعلى ٤ × ٤ = $٢^٢$ × $٢^٢$ = $٢^٤$ (ج)

وعلى ٤ × ٥ = $٢^٢$ × ٥

وعلى ٤ × ٦ = $٢^٢$ × ٢ × ٣ = $٢^٣$ × ٣

وعلى ٤ × ٧ = $٢^٢$ × ٧

وعلى ٤ × ٨ = $٢^٢$ × $٢^٣$ = $٢^٥$

وعلى ٤ × ٩ = $٢^٢$ × $٣^٢$

وعلى ٤ × ١٠ = $٢^٢$ × ٢ × ٥ = $٢^٣$ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لخمس العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ. ولما كان (١/٥ × ١/٢ = ١/١٠).

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة:

على ٥ × ٢

وعلى ٥×٣

وعلى $٥ \times ٤ = ٥ \times ٢^{٢}$

وعلى $٥ \times ٥ = ٥^{٢}$

وعلى $٥ \times ٦ = ٥ \times ٢ \times ٣$ (د)

وعلى $٥ \times ٧ = ٥ \times ٧$

وعلى $٥ \times ٨ = ٥ \times ٢^{٣}$

وعلى $٥ \times ٩ = ٥ \times ٣^{٢}$

وعلى $٥ \times ١٠ = ٥ \times ٥ \times ٢ = ٥^{٢} \times ٢$

وبما أنه يجب أن يكون لسدس العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة:

على $٦ \times ٢ = ٢ \times ٣ \times ٢ = ٢^{٢} \times ٣$

وعلى $٦ \times ٣ = ٢ \times ٣ \times ٣ = ٢ \times ٣^{٢}$

وعلى $٦ \times ٤ = ٢ \times ٣ \times ٢^{٢} = ٢^{٣} \times ٣$

وعلى $٦ \times ٥ = ٢ \times ٣ \times ٥$

وعلى $٦ \times ٦ = ٢ \times ٣ \times ٢ \times ٣ = ٢^{٢} \times ٣^{٢}$

وعلى $٦ \times ٧ = ٢ \times ٣ \times ٧$

وعلى $٦ \times ٨ = ٢ \times ٣ \times ٢^{٣} = ٢^{٤} \times ٣$ (هـ)

وعلى $٦ \times ٩ = ٢ \times ٣ \times ٣^{٢} = ٢ \times ٣^{٣}$

وعلى $٦ \times ١٠ = ٢ \times ٣ \times ٢ \times ٥ = ٢^{٢} \times ٣ \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لسبع العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة

على ٧×٢

وعلى ٧×٣

وعلى $٧ \times ٤ = ٧ \times ٢^{٢}$

وعلى ٧×٥ (و)

وعلى $٧ \times ٦ = ٧ \times ٢ \times ٣$

وعلى $٧ \times ٧ = ٧^{٢}$

وعلى $٧ \times ٨ = ٧ \times ٢^{٣}$

وعلى $٧ \times ٩ = ٧ \times ٣^{٢}$

وعلى $٧ \times ١٠ = ٧ \times ٢ \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لثمن العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس. . . الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة

على $٨ \times ٢ = ٢^{٣} \times ٢ = ٢^{٤}$

وعلى $٨ \times ٣ = ٢^{٣} \times ٣$

وعلى $٨ \times ٤ = ٢^{٣} \times ٢^{٢} = ٢^{٥}$ (ز)

وعلى $٨ \times ٥ = ٢^{٣} \times ٥$

وعلى $٨ \times ٦ = ٢^{٣} \times ٢ \times ٣ = ٢^{٤} \times ٣$

وعلى $٨ \times ٧ = ٢^{٣} \times ٧$

وعلى $٨ \times ٨ = ٢^{٣} \times ٢^{٣} = ٢^{٦}$

وعلى $٨ \times ٩ = ٢^{٣} \times ٣^{٢}$

وعلى $٨ \times ١٠ = ٢^{٣} \times ٢ \times ٥ = ٢^{٤} \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لتسع العدد نصف وكذلك ثلث وربع... الخ دون باقٍ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة

على $٩ \times ٢ = ٣^{٢} \times ٢$

وعلى $٩ \times ٣ = ٣^{٢} \times ٣ = ٣^{٣}$

وعلى $٩ \times ٤ = ٣^{٢} \times ٢^{٢}$

وعلى $٩ \times ٥ = ٣^{٢} \times ٥$

وعلى $٩ \times ٦ = ٣^{٢} \times ٢ \times ٣ = ٣^{٣} \times ٢$ (ح)

وعلى $٩ \times ٧ = ٣^{٢} \times ٧$

وعلى ٩ × ٨ = $٣^{٢}$ × $٢^{٣}$

وعلى ٩ × ٩ = $٣^{٢}$ × $٣^{٢}$ = $٣^{٤}$

وعلى ٩ × ١٠ = $٣^{٢}$ × ٢ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لعشر العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة

على ١٠ × ٢ = ٢ × ٥ × ٢ = $٢^{٢}$ × ٥

وعلى ١٠ × ٣ = ٢ × ٥ × ٣

وعلى ١٠ × ٤ = ٢ × ٥ × $٢^{٢}$ = $٢^{٣}$ × ٥

وعلى ١٠ × ٥ = ٢ × ٥ × ٥ = ٢ × $٥^{٢}$ (ط)

وعلى ١٠ × ٦ = ٢ × ٥ × ٢ × ٣ = $٢^{٢}$ × ٥ × ٣

وعلى ١٠ × ٧ = ٢ × ٥ × ٧

وعلى ١٠ × ٨ = ٢ × ٥ × $٢^{٣}$ = ٥ × $٢^{٤}$

وعلى ١٠ × ٩ = ٢ × ٥ × $٣^{٢}$

وعلى ١٠ × ١٠ = ٢ × ٥ × ٢ × ٥ = $٢^{٢}$ × $٥^{٢}$

فالمضاعف المشترك البسيط لجميع هذه الأعداد هو:

$٢^{٦}$ × $٣^{٤}$ × $٥^{٢}$ × $٧^{٢}$ = ٦٤ × ٨١ × ٢٥ × ٤٩ = ٦٣٥٠٤٠٠

فلو رجعنا إلى حل المسألة كما في المنطوق وقمنا بالعملية الآتية: ٧ × ٣٠ × ٣٦٠ (عدد أيام الأسبوع في عدد أيام الشهر في عدد أيام السنة).

٣٠ = ٢ × ٣ × ٥

٣٦٠ = $٢^{٣}$ × $٣^{٢}$ × ٥

إذن: ٧ × ٣٠ × ٣٦٠ = ٧ × ٢ × ٣ × ٥ × $٢^{٣}$ × $٣^{٢}$ × ٥

٧ × $٢^{٤}$ × $٣^{٣}$ × $٥^{٢}$ = ٧٥٦٠٠

فلا يوجد في حاصل الضرب الأخير $٢^{٦}$ أو $٢^{٣}$ × $٢^{٣}$ = ٨ × ٨

فلا يكون له ثمن الثمن (كما هو منطوق المسألة)

ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير ٩ × ٩ = $٣^{٢}$ × $٣^{٢}$ = $٣^{٤}$

إذن لا يكون له تسع التسع (كما في المنطوق) ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير ٤ × ٨ = ٢^٢ × ٢^٣ = ٢^٥ = ٢ ^٣ × ٢^٢ = ٢^٥

إذن لا يكون له ربع الثمن أو ثمن الربع (كما في المنطوق) ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير ٧ × ٧ = ٧^٢.

إذن لا يكون له سبع السبع. (كما في المنطوق).

فطريقة الحل: أن يؤخذ المضاعف المشترك البسيط للنتائج الأخيرة، (أ)، (ب)، (ج)، (د)، (هـ)، (و)، (ز)، (ح)، (ط)، فيكون هذا المضاعف = ٢^٦ × ٣^٤ × ٥^٢ × ٧^٢.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب سبع السبع، ١/٧ × ١/٧ = ١/٧^٢ إذن وجب أن يكون أس ٧ في المضاعف المشترك ا لبسيط واحداً أي لا يكون هناك العامل ٧^٢.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب تسع التسع أو ١/٩ × ١/٩ أو ١/٣^٢ × ١/٣^٢ = ١/٣^٤، إذن وجب أن يكون أ س ٣ في المضاعف المذكور ٣ أي يجب أن يكون العامل ٣^٣.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب ربع الثمن أو ١/٤ × ١/٨ أو ١/٢^٢ × ١/٢^٣ = ١/٢^٥ إذن وجب أن ينزل أ س ٢ إلى ٤ فيكون ٢^٤ في المضاعف المشترك البسيط. لأن العدد لا يقبل القسمة على ٢^٥ أو لا يكون له ربع الثمن ما لم يكن أحد عوامله ٢^٥ وكذا الحال في ثمن الربع = ١/٨ × ١/٤ = ١/٢^٣ × ١/٢^٢ = ١/٢^٥.

وبصورة طبيعية لا يكون للعدد المذكور: أي (٧٥٦٠٠) ثمن الثمن، ذلك لأنا نزلنا أس ٢ إلى ٤ أي جعلناه ٢^٤، والعدد لا يكون له ثمن الثمن = ١/٨ × ١/٨ = ١/٢^٣ × ١/٢^٣ = ١/٢^٦ ما لم يكن فيه العامل ٢^٦ وقد حذفناه بجعل الأس ٢، ٤ (أربعة).

فتكون العوامل للعدد المطلوب إيجاده كما يلي:

٧ × ٢^٤ × ٣^٣ × ٥^٢ = ٧ × ٥ × ٣ × ٢ × ٢^٣ × ٣^٢ × ٥ = ٧ × ٥ × ٣ × ٢ × ٨ × ٩ × ٥ = ٧ × ٣٠ × ٣٦٠ = ٧٥٦٠٠.

وهو حاصل ضرب أيام الأسبوع في أيام الشهر ثم في أيام السنة. كما قال به الامام عليه أفضل الصلاة والسلام.



ميلاد الزهراء عليها السلام[1]

ما أبهجها من ليلة، أنها ليلة يُحتفى فيها بذكرى ميلاد سيدة النساء فاطمة الزهراء سلام الله عليها. فإنها كانت قد بلغت من الكمال أوجاً قاصياً. كان يحبها رسول الله (ص) حباً جماً. فـإذا دخلت عليه قام لها وأجلسها في مجلسه، وإذا قصد سفراً كان آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا قدم من سفر أتى المسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنّى بفاطمة (ع) ثم يأتي أزواجه. وهكذا كانت فاطمة عليها السلام موضع حفاوة رسول الله (ص). فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) أنه قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد».

ذلك لأن النساء من حيث الطاقات أقل من الرجال كما يقول ذلك العالم الاجتماعي (بردون). إنه يقول: «إن الحياة الاجتماعية تتألف من طاقات ثلاث: العلم والعمل والعدالة. وإن نسبة طاقات الرجل إلى طاقات المرأة كنسبة ٣ إلى ٢ أي ٣/٢، فللعلم ٣/٢، وللعمل ٣/٢، وللعدالة ٣/٢. إذن ٣/٢ × ٣/٢ × ٣/٢ = ٢٧/٨ فيُعلم من ها هنا أن نسبة طاقات الرجل إلى المرأة كنسبة ٢٧ إلى ٨ أي: ٢٧/٨.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ وفي آية أخرى: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾.

ومما لا مراء فيه ان التكامل العلمي إنما كان من قبل الرجال، وإن عقول الرجال هي التي جاءت بهذه الكتلة من المكتشفات والمخترعات والنظريات

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في حفلة اقيمت من قبل الطلاب الجامعيين احياء لذكرى ميلاد سيدة النساء (ع) في ٢٠ ج ١٣٨٢/٢ في الكاظمية.

فلم تنبغ امرأة في العلوم العقلية وفي المكتشفات الرياضية والفلكية والفيزيائية إلى ما هنالك إلا (مادام كوري): أستاذة الفيزياء في جامعة (صوربون). فقد جاءت بنظرية الاشعاع حين أخفت في جيبها قطعة من الراديوم كانت قد علمت وزنها قبلاً. وقد أكمل الفيزياويون هذه النظرية حتى بلغوا إلى تحطيم الذرة ودستور اكتشفه (آينشتاين) ط = ك ع^{2}.

أي أن الطاقة التي أدخرها الله تعالى في بطن الذرة تعادل مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة. وما أعظم هذه الطاقة. فليتق الانسان ربه عندما يشاهد ما أودع الله في هذا الكون من طاقات هائلة تحيِّر الألباب.

سادتي، إن العالم بأجمعه عالم كمال في الحياة المادية. فلو أبصرتم ما في بطن الذرة من كمال وما أودع الله من كمال فائق في كل جزء من أجزاء هذا الكون الرحيب، لعلمتم أن ما من شيء في هذا العالم المادي إلا وقد بلغ أقصى مراتب الكمال. وان هذا الانسان بغروره وخيلائه لهو شيء ضئيل وضئيل جداً في هذا الكون اللانهائي.

وقد يكون الانسان مغروراً بمركزه في هذا الكون. ولكن شمسنا هذه التي هي أكبر من أرضنا هذه ۱۳۰۰۰۰۰ مرة تقريباً ما هي إلا نجم متوسط الحجم من نجوم مجرَّة (درب التبانة) التي يبلغ عددها مئة ألف مليون نجم تقريباً. وليست شمسنا هذه ومع الأسف واقعة في منتصف هذه المجرة الكبيرة جداً ولكنها واقعة قرب الطرف على الحافة تقريباً في موقع مدحور، ليس من العظمة في شيء.

وأعظم من هذا فقد علم الفلكيون أن هناك من (المجرات) في الكون بعدد النجوم الموجودة في مجرتنا هذه: (درب التبانـة). إذن ما قيمـة هذا الانسان المغرور بنفسه في هذا الكون الرحيب الذي لا يمكن الوصول إلى غوره وأعماقه. هذا الكون الذي كلما كملت آلات الرصد والعلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية عثروا فيه على شموس ومجرات وسُدم أخرى تدهش العقول والألباب.

والانسان وهو على سطح الأرض يتحرك بحركات شتى. أنه يتحرك مع

سطح الأرض حين تدور حول نفسها وسرعتها باتجاه دورانها تبلغ ربع الميل في الثانية أي (٩٠٠ ميل في الساعة) إذا كان على خط الاستواء وأقل من ذلك كلما قارب القطبين.

والانسان يتحرك مع الأرض نفسها في دورتها السنوية حول الشمس والأرض تسير في حركتها هذه بسرعة ١٨,٥ ميلاً في الثانية أي ثلاثين كيلو متراً في الثانية.

والشمس وكواكبها تسير في هذا الكون الرحيب بالنسبة إلى جاراتها النجوم، بسرعة هائلة (٧٢٠٠٠) كم/ساعة على شكل لولبي نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

وإن الشمس كما قلنا هي نجم من نجوم مجرَّة «درب التبانة» وهذه كالمجرات الأخرى تدور حول نفسها بسرعة هائلة وشمسنا تدور معها طبعاً ونحن ندور مع أرضنا أيضاً وسرعة مجرتنا هذه حين دورانها حول نفسها مائة وعشرون ميلاً في الثانية: أي ٤٣٢٠٠٠ ميل/ ساعة.

وإن المجرات تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة، بسرعة تتراوح بين (٦٠٠ - ٤٠٠٠٠) ميل/ثانية فيتسع هذا الكون يوماً بعد يوم ويتحقق قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾.

فما هي قيمة الانسان في هذا الكون الفسيح إن هو لم يعبد الله تبارك وتعالى ولم يخشع ولم يقم بأعمال صالحات تطهيراً لنفسه وإبلاغها مراتب الكمال. وهل يحق للانسان أن يغتر بنفسه لأن الله منَّ عليه فعرَّفه شيئاً ضئيلاً مما أودع من كمال في هذا الكون. وهل كان للانسان دخل في سير الشموس والمجرات وفي صنع الذرة!.

﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾[1].

---

(١) سورة الانفطار: ٦ - ١٢.

ليفكر الانسان في ما أودع الله من دساتير رياضية ومعادلات عميقة تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض بكمال فائق ما بعده كمال، وكيف أن هذا الكون إنما هو مجموعة قوى وطاقات كهربائية ومغناطيسية وجاذبية وأنه لا مجال للمادة (بالمعنى الذي يقوله الماديون) فيه وكيف ان الله تعالى يسيّر الألكترون في بطن الذرة (هذه التي لا يمكن أن ترى بأدق الآلات) بسرعة ٢٠٠٠ كم في الثانية حول النواة: البروتون، وأن قطر نواة الذرة = ٠,٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١ مم أي واحداً من ترليون جزء من المليمتر. وكيف أن الله تعالى جعل البروتونات وهي كهربائية موجبة متماسكة بعضها مع بعض بطاقات هائلة لو تحررت أهلكت كل ما حواليها إلى مسافات شاسعة، ليفكر الانسان في هذا الكمال الذي أودعه الله في كل ما خلق من عوالم شتى: عالم الجماد والنبات والحيوان، ليرى أن هنالك كمالين: كمالاً قسرياً نشاهده في الذرة وفي الشمس والقمر والكواكب والمجرات والنيازك والسدم والغاز الكوني: هيدروجين، وكمالاً تدريجياً اختيارياً لهذا الانسان الناقص، الذي لا بد له أن يتكامل وأن يقطع سيره التكاملي. ذلك لأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا (الكمال). فإما كمال قسري وهذا ما نشاهده في الذرة وغير الذرة وكمال تدريجي اختياري لهذا الانسان على لسان الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

فالأنبياء والأوصياء معصومون من الزلل وهم قدوة للكمال البشري. وقد جعل الله تعالى للنساء قدوة من النساء الصالحات، وان فاطمة الزهراء سيدة النساء الكاملات، بل هي قدوة للرجال وللبشر أجمع. كيف لا تكون كذلك وهي التي عبدت الله تبارك وتعالى حتى تورمت قدماها. يقول الحسن (ع) رأيت فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها ألا تدعين لنفسك؟ فقالت: يا بُني، الجار ثم الدار. وهي التي أوصت أن توضع في كفنها قارورة كانت قد جمعت فيها بعض ما ذرفت من الدموع خوفاً من الله تعالى.

ونراها تبذل ما لديها في سبيل الله تعالى لتحكيم دعائم الاسلام. فقد

روى أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) رأى ذات يوم مسحاً (وهو كساء معروف) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين قُلبين (أي سوارين) من فضة فرجع ولم يدخل عليها. فظنت أنه لأجل ما رأى. فهتكت الستر ونزعت القلبين عن الصبيين فقطعتهما، فبكى الصبيّان، فقسمته بينهما. فانطلقا إلى رسول الله (ص) وهما يبكيان، فأخذه رسول الله منهما وقال: «يا ثوبان، إذهب بهذا إلى بني فلان، واشتر لفاطمة قلادة من عصب (هو سن دابة بحرية) وسوارين من عاج. فإن هؤلاء أهل بيتي، ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وروى الصدوق في الأمالي قال: كان النبي (ص) إذا قدم من سفره بدأ بفاطمة، فدخل عليها، وأطال عندها المكث. فخرج مرة في سفره. فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب لقدوم أبيها وزوجها. فلما قدم رسول الله (ص) دخل عليها. فوقف أصحابه على الباب، فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه، حتى جلس عند المنبر. فظنت فاطمة أنه إنما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر. فنزعت ذلك وبعثت به إلى رسول الله (ص) وقالت للرسول، قل له: «تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول إجعل هذا في سبيل الله». فلما أتاه، قال: «فعلت فداها أبوها» ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، لو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء، ثم قام، فدخل عليها.

يأتي رجل من مهاجرة العرب إلى رسول الله وهو في المسجد، فيقول: إني جائع الكبد فأطعمني وفقير فأغنني وعاري الجسد فاكسني... فيقول له رسول الله (ص): «ما أجد لك شيئاً. ولكن الدال على الخير كفاعله انطلق إلى ابنتي فاطمة». وأمر بلالاً، فوقف به على منزل فاطمة (ع) فنادى بأعلى صوته: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة. يا بنت محمد إني عاري الجسد، جائع الكبد، فارحميني يرحمك الله». وكان علي وفاطمة ثلاثاً ما طعموا طعاماً.. فتعمد فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ كان ينام عليه الحسنان وتعطيه الشيخ قائلة: «عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه». فيقول الشيخ: «أنا

شكوت اليك الجوع فناولتني جلد كبش. فما أنا صانع به مع ما أجد ما السغب» فتعمد فاطمة (ع) إلى عقد في عنقها، أهدته اليها فاطمة بنت عمها حمزة. فتقطعه من عنقها وتنبذه إلى الاعرابي. وتقول: «خذ وبعه، فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه». فتُقضى حاجة الرجل ويرجع إلى أهله موفوراً.

كيف لا تكون فاطمة امرأة قد بلغت غاية الكمال، فان رسول الله قد دخل عليها ذات يوم فرأى عليها كساء من أجلال الابل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله (ص)، فقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة». فقالت: «يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه». فأنزل الله تعالى: ﴿ولَسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

أنظروا إلى هذا الكمال الرائع الذي نشاهده عند فاطمة الزهراء سلام الله عليها، ذلك أن رسول الله (ص) يسأل ذات يوم نساء المدينة: ما هو أفضل شيء للمرأة، فتأتي الأجوبة، وبينها من تقول: «أفضل شيء للمرأة أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل». فيعلم رسول الله أن هذا الجواب إنما هو من بنته فاطمة الزهراء (ع) فيقول (ص): «ذرية بعضها من بعض».

كل ذلك، لأن اختلاط الجنسين يؤدي إلى فساد في الأرض والفساد يزيح الايمان!. وهو قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾. ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾. وقد قال تعالى: ﴿وحقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾.

وهكذا يعمل الفسق في إزاحة الايمان، حتى جاء في الحديث: «النظرة سهم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله إيماناً يرى حلاوته في نفسه». لذلك يكره (كما جاء في الحديث) أن يجلس الرجل حيث جلست المرأة قبل أن يبرد محلها.

سادتي، إن أوروبا بمجونها وشهواتها ونزواتها ومجالس الرقص فيها ترجع القهقرى، إنها ترجع إلى جاهلية جهلاء. وإن هذه الحضارة كما قال بذلك كبار علمائها آئلة إلى انهيار عاجل.

فإذا رأينا أن امرأة امريكية تأتي إلى باريس وتقف في وسط شارع (شانزيليزه)، تنزع ما عليها من ثياب وتصبح عارية وتمشي في الشارع لترى الناس ما بلغت أمريكا من الحرية، أو إذا رأينا أن البنات يختطفن الشباب في السويد وإذا رأينا أن لا بأس بما يحدث في السيارة في إيطاليا في شارع عام بين الرجل والمرأة ما دام هناك ستار، وإذا رأينا أن الناس ينزوي بعضهم على بعض علانية على سواحل البحار وضفاف الأنهار وخلف الأشجار بل على قارعة الطريق! وإذا رأينا أن الفتاة لها أن تعمل ما تشاء قبل الزواج. فإنما نرى ما كان عليه البدائيون قبل بعثة الرسل، وما عليه الآن القبائل المتوحشة من تقديم الرجل زوجته إلى ضيفه ليلاً ومن أن البنت لها أن تتصل بمن تشاء إذا بلغت الخامسة من عمرها وأن تقدم البنت ليلة زفافها إلى المدعوين واحداً بعد آخر. أو إلى رئيس القبيلة أو الملك حتى يأتي بعد ذلك دور الزوج!!!...

فوظيفة الشاب المؤمن أن يقوم بجد بالغ لنشر الدعوة الاسلامية وإنقاذ البشرية مما ألمّ بها من جاهلية جهلاء. وحري بجميع المؤمنين الأثرياء أن يقوموا بتأسيس أندية للشباب في كل بلد إسلامي، لكي يجتمع الشباب المؤمن في هذه الأندية في أوقات الفراغ فيتعلم فيها مبادىء الدين الاسلامي، وتفسير القرآن وشيئاً من الفقه والحديث، ويجب أن تضم هذه الأندية قاعة كبيرة للصلاة وقاعة للمحاضرات ومكتبة اسلامية وساحة للألعاب المشروعة التي تقوي العضلات وتجعل الشاب المؤمن قوياً في جسده... فقد قال الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ وأهمها قوة الأبدان...

فكم من شبان كانوا سبباً لاسلام كثيرين. فهذه اليابان متعطشة إلى مبلغين ودعاة يدعونهم إلى الدين الحنيف وهكذا في أوساط أفريقيا وفي أمريكا وأوروبا.

ونحن نرى والحمد لله تقدماً محسوساً بين الشباب في التوجه إلى الاسلام والقيام بجهاد ملموس في خدمة الدين.

وهل سمعتم قبل هذا أن شباناً جامعيين وغير جامعيين يقيمون حفلة كبرى إحياء لذكرى سيدة النساء فاطمة الزهراء سلام الله عليها أو يقومون

بإقامة الصلاة في كليات جامعة بغداد. ككلية الهندسة والعلوم والآداب والتربية... وهل سمعتم شباناً أخذوا على عواتقهم أن يضحوا بالنفس والنفيس في سبيل نشر الدعوة الاسلامية في أصقاع الأرض ليرفعوا لواء الاسلام عالياً، فيعم الدين الاسلامي الأرض كلها فيكون الاسلام ديناً عالمياً كما تنبأ بذلك (برناردشو) قبل سنين.

فجزاكم الله أيها الشبان المجاهدون عن الاسلام خيراً. فأنتم القدوة الصالحة، يقتدى بكم في بقاع الأرض، في الجامعات وغيرها من المعاهد. فالاسلام لكم وإليكم، فهبوا مضحين... فلا شيء أثمن في هذا الكون من أن يأخذ شاب بيد شاب آخر يهديه إلى صراط الله القويم. ففي هذه الهداية حياة خالدة هنيئة تهديها أنت لأخيك الشاب. انه تعالى يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تُحشرون﴾.

* * *



كيف ننقذ الشباب

لاقيت في الليلة الماضية رجلاً فاضلاً، فقلت له: قد قمنا بتنظيم للشباب المؤمن الذي يحضر لسماع المحاضرات الدينية، ليالي الجمعة وليالي السبت، فشكلنا منهم لجنة باسم لجنة التنظيم، ولجنة باسم: لجنة الثقافة الدينية، ولجنة باسم: لجنة الارشاد والتبشير، وسوف نشكل لجاناً أخرى تعمل كل لجنة في حدود واجباتها بإخلاص، وتبذل طاقاتها وأوقات فراغها في صقع نافع أمين لخدمة هذا الدين، تقدم كل لجنة تقريراً شهرياً عن أعمالها وفعالياتها وتتقبل الاعتراضات والاقتراحات وتعمل على معالجتها وتحقيقها.

فأجاب قائلاً: ليس هذا بعمل مجدٍ، وإنما علينا أن لا نرسل أولادنا إلى المدارس الحديثة. كي لا ينحرفوا، وكان معنا رجل فاضل كان قد عرك الحياة إلى حدٍّ ما ووقف على الوضع الراهن، فقال له: هذا علاج سلبي، يُنجي بعض الأفراد من الانزلاق. ولكن هل تمكنت أنت أن تمنع ولدك من أن يذهب إلى المدارس الحديثة؟ قال: كلا، فقال: ففي أي صف هو الآن؟ أجاب: إنه في الخامس العلمي. قال: إن كنت أنت مع اهتمامك بالموضوع لا تقوى على ردع ولدك من الذهاب إلى المدارس الحديثة، فكيف بالآخرين؟!! ثم ما هي المعاهد التي نرسل اليها أولادنا لننقذهم من الجهل. هل هناك مدارس تُعنى بشؤون الطلاب الدينية والروحية والعلمية بصورة جدية وبأسلوب حديث كي نرسل أولادنا اليها؟ وكم مقدار الميزانية (الأموال) التي يجب أن تبذل لفتح عددٍ كافٍ من هذا النوع من المدارس؟ ثم من أين نجد المعلمين والمدرسين؟ ألسنا نستخدم نفس هؤلاء المدرسين الذين درسوا في المدارس الحديثة حتى أنك إذا قمت بتأسيس روضة للأطفال وأردت أن تربيهم مذ نعومة أظفارهم بأسلوب ديني صحيح تكاد لا تجد بالمقدار الكافي معلمات غير متبرجات، مصليات، متزنات، عاملات بالنصوص الدينية ومع ذلك

حاملات شهادة تخولهن ليكن معلمات في الروضة. ذلك لأن الأنظمة الحاضرة لا تسمح للمرأة ولا للرجل أن يقوم بمهمة التعليم في الروضة ما لم يكن حاملاً شهادة تؤهله للتعليم. فكل شيء أصبح تحت نظام وقانون من قبل الحكومات الحاضرة. ثم إن الانسان يجب أن لا يخرج عن واقع الحياة وأن يستفيد من التجارب الماضية خلال ٥٠ سنة خلت. أي منذ أن تأسست المدارس الحديثة في الأقضية.

ثم لو كان منع الطلاب من الدخول إلى المدارس أي لو كانت هذه المقاومة السلبية ناجعة لما بلغ عدد الطلاب هذا المبلغ الضخم، بحيث أن البناية الواحدة تشغل في اليوم ثلاث مرات من قبل ٣ مدارس مختلفة بشعبها الكثيرة. وان بعض المدرسين ليدرِّس في الأسبوع ٤٠ ساعة لعدم كفاية المدرسين.

فأنى لك أن تصد هذه الرغبة الملحة التي هي وليدة الحاجة وضرورة الانطباق مع مقتضيات العصر وتحصيل الخبز والراحة إلى ما هنالك.

فقال: ان هذه المدارس تذهب بالعقيدة وتولد الالحاد ولكن الابتعاد عنها قد يؤدي إلى عدم تطبيق النصوص الدينية برمتها ولكنه لا يؤدي أبداً إلى الالحاد.

فقلت له: إن التجارب قد برهنت أن بعض التيارات الجارفة جرف بعض العوام الذين لم يداوموا في المدارس وتخلوا عن كل ما لديهم من مقدسات وعقائد وتسافلوا إلى أسفل سافلين. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن التربية الدينية كانت تربية سطحية غير مستندة إلى الدليل والبرهان ولم تكن راسخة في النفوس إلى حد لا تزعزعها التيارات الالحادية الجارفة. فإن المنحرفين لهم فعالياتهم ومنظماتهم وجهودهم الجبارة. فما الواجب إذن تجاه الوضع الراهن.

فلم يحر جواباً...

وهذا مما حدا بي أن أتقدم بهذا المقال:

يدخل الطفل وعمره ثلاث أو أربع سنوات إلى روضة الأطفال، أو يدخل

وقد اكمل السنة السادسة من عمره إلى مدرسة ابتدائية، وكذلك البنات، فيتلقّون دروساً عملية ونظرية وتربية عصرية بعيدة عن روح الاسلام وقواعده، يحفظون بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مدرسة ابتدائية دون أن تتجاوز الحناجر، ذلك، لأن المعلم غير مؤمن بما يملي على الطلاب في موضوع دروس الدين إيماناً رصيناً لا شائبة فيه، إنما يقوم بأداء واجب ملقى على عاتقه، ولا أنكر أن هناك عدداً قليلاً جداً لا يعادل ١٪ (واحداً بالمائة) جديراً بأن يلقب بمعلم الدين، إلا أن تأثيره ضئيل وضئيل جداً في محيط لا يتجاوب مع بقية الأعضاء.

فإذا جاء دور المتوسطة تدخل بقية المدرسين: مدرس الاحياء، مدرس الاجتماعيات،مدرس الرياضيات. . . الخ. في الموضوع وأخذ كـل يشكك الطلاب في معتقداتهم ويعزو تكوين هذا الكون المعقد ودساتيره المتقنة الثابتة إلى الطبيعة العمياء. أو قال بعشوائية الكون دونما تحقيق!.

وأما مدرس الدين، (وهو على الأكثر جاهل بالعلوم الحديثة والنوازع المستحدثة وردودها)، فلا يدرس في الأسبوع إلا درساً واحداً، وهـو على الغالب ممن ضعفت عقيدته وتغير اتجاهه واختلف عمله عما يمليه على الطلاب في حقل الدين. فأنى لهذا الدرس الواحد على علاته (في موضوع الدين) خلال الأسبوع، أن يقاوم تزريقات سائر المدرسين المضلة، منها «أن الاسلام نظام كان مفيداً لأناس كانوا يعيشون قبل أربعة عشر قرناً أما الآن، فنحن بحاجة إلى نظام مدني جديد! فالظروف تبدلت! فيجب أن تتبدل النظم، فلا مجال لتطبيق نظم الاسلام!». ومنها: «أن الدين كان يقنع العقول البدائية، أما الآن وقد تقدم العلم، هذا العلم المحير للعقول، فلا مجال للدين أن يسيِّر البشر! والعلم هو وحده كفيل بأن يسير البشر نحو الكمال المنشود وضروريات الحياة فلنكن علمانيين»[1].

إن ضعف الدين في المدارس وفي أوساط أخرى أدى إلى انحلال خُلقي

---

(١) هذه الأفكار نتاج استعمار الغرب الفكري وفعاليات الكنيسة في أوروبا وأمريكا والمبدأ الماركسي.

وهذا بدوره آدى إلى انحلال فكري، ثم تبنى أفكار جديدة تتصادم مع حقيقة الاسلام.

ولا مراء أن للمجالس الحسينية أثرها المرموق في التوجيه لو حضرها الشباب، إلا أن الشباب في واد آخر، وهم يوجهون من قبل منظمات أخرى توجيهاً يؤكد لهم أن المجالس الحسينية تبث الخرافة والأفكار البالية. وهي بعيدة كل البعد عن واقع الحياة، ويؤكدون لهم، دليلاً على ذلك، أنه لا يرى في هذه المجالس إلا العجزة والشيوخ، يتسلون بالتدخين وشرب الشاي، وهم، أنفسهم، ينتقلون من مجلس إلى آخـر دون غيـرهم من الشبـاب والمثقفين، وكذا الحال في صلاة الجماعة وفي المساجد وغيرها.

على أن لنوع الالقاء وتطبيق العلوم الحديثة على الحقائق الاسلامية أثراً خاصاً في جلب الشباب إلى المجالس الحسينية. ولكن قلما ترى في الخطباء من يجمع بين دراسـات مختلفة موضوعيـة، فيتكلم بـأسلوب علمي رصـين، وباصطلاحات حديثة مستعملاً الدساتير الرياضية وما وصل إليه العلم الحديث من قوانين في الفيزياء والكيمياء والاحياء والفلك والطب إلى ما هنالك. ثم التعرف إلى المنازع الفلسفية الحديثة والقيام بردها على ضوء العلم الحديث.

فما الذي يجب أن نقوم به لسد هذا التيار اللاديني الجارف الذي دب في الشرق منذ أكثر من ٥٠ سنة والانحلال الخلقي المميت؟.

هنا طريقتان: طريقة غير عملية وبحاجة إلى تضحيات مرموقة من قبل الأثرياء من المؤمنين ولا أظنها تتحقق. وطريقة أخرى، قليلة النتائج، ولكن واجبة التطبيق، ويجوز أن تؤتي أكلها بالغة موفورة لو طبقت بمقياس واسع.

* * *

أما الأولى: فهي تأسيس جمعية باسم: جمعية التهذيب الديني، مهمتها جمع مبالغ طائلة من أثرياء المسلمين وبناء أبنية عصرية تتخذ مدارس أهلية للبنين والبنات وفتح دور (مدارس) لتهيئة معلمين ومعلمات بأسلوب علمي، وإيفاد قسم من الشباب المؤمن للتحصيل العالي إلى الغرب، وتأسيس مدارس أهلية للبنين والبنات اعتباراً من الروضة إلى التحصيل العالي بمقياس واسع

وتحت مناهج لم تتأثر بمناهج المستعمرين والمبشرين (بالكنيسة) أو بمناهج الالحاد والمادية.

ولا شك أن هذا العمل الجبار سيولد جواً مفعماً بروح الاسلام وشباباً عاملاً بدستور الاسلام. وتتأثر، دون ريب، بقية المدارس بهذا النهج القويم، فلا ترى إذ ذاك إلا مؤمناً يقدس الاسلام ويطبقه.

* * *

وأما الطريقة الثانية: فهي تنظيم نوادٍ للشباب في كل مدينة أو قرية أو ناحية، يداومون فيها أوقات فراغهم. تلقى فيها عليهم محاضرات دينية، يستمعون القرآن الكريم ويطبقون آياته على واقع حياتهم. فتشكل لجان مختلفة منهم، وتوزع أعمال وفعاليات على هذه اللجان. فيبذل قسم من طاقاتهم في العمل المنتج المفيد وهم مسؤولون عن تحقيق ما كلفوا به من أعمال. وان كل لجنة تقدم تقريراً عن فعالياتها. يصلون في هذه النوادي أوقات الصلاة في مصلى كبير ويتعلمون فيها بعض الفروع الفقهية الضرورية.

يتلقى الراغبون من الشبان في هذه النوادي الدينية دروساً في التفسير والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة الاسلامية بأسلوب حديث ويجاب على ما يختلج في صدورهم من شكوك وريب، وتلقى عليهم دروس أيضاً في الرد على المذاهب المادية والوجودية والنفعية إلى ما هناك من نزعات باطلة جاءت من وراء الشهوات النفسية. ثم هم يتصلون ببقية الشباب في البلد مبشرين، فيشوقونهم للانتماء إلى هذه النوادي الدينية.

وهكذا تنظم نوادٍ من قبل المؤمنات الصالحات من النساء المتعلمات للفتيات طالبات المدارس وغيرهن في كل حارة بنفس الأسلوب وبنفس التنظيم.

ولا شك أن هذه الفعاليات والتضحيات من قبل البنين والبنات لتؤثر في تلطيف الجو المكفهر بالاتجاهات المضللة بعد تفهم حقيقة الاسلام ودسائس الاستعمار وأذناب الاستعمار وما أعقبت الحروب الصليبية من دسائس لم تنتهِ لحد الآن.

وللشبان أوقات فراغ كثيرة يمكن أن نستفيد منها في توجيههم توجيهاً صحيحاً لو تمكنا من تحقيق راحة الشبان في هذه النوادي راحة تتفق والتربية الاسلامية الحقة، فيبذل قسم من طاقاتهم في صقع مفيد. فانه إن لم تستغل أوقات فراغ الشبان في أمور مفيدة موجّهة توجيهاً صحيحاً، فهي تُصرف لا محالة في تحطيم الشباب وتسافلهم إلى أسفل سافلين.

وينبغي أن يكون في هذه النوادي:

١ ـ محل خاص للصلاة والمواعظ الدينية وتلاوة القرآن.

٢ ـ مكتبة اسلامية للمطالعة وإعارة كتب اسلامية مبسطة، ومجلات اسلامية فيها مقالات واضحة دونما تعقيد ونشرات إسلامية بلغة مفهومة.

٣ ـ صفوف خاصة لدراسات اسلامية من تفسير القرآن الكريم والفقه وأصول الفقه، وعلم الدراية والحديث، وعلم الكلام، ومقارنة بين حقائق الاسلام والفلسفات المعاصرة والنوازع الحديثة مع تطبيق آخر ما توصل إليه العلم الحديث وما أودع الله تعالى من عصارات العلوم في القرآن الكريم ضمن آيات بينات.

٤ ـ ساحة خاصة لبعض الرياضات البدنية المفيدة التي تنمي الجسم: «إن لبدنك عليك حقاً»[1] وعملاً بمنطوق هذه الآية الشريفة: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾، مع العلم أن (السبق والرماية) وتعلمها باب من أبواب الفقه الاسلامي.

* * *

لا شك أنه لو نُظمت هذه النوادي وأصبحت تدار من قبل هيأة عليا من كبار علماء الدين وكبار الموجهين المؤمنين وجب إذن فتح دورات (تدريسية وتدريبية) خاصة لموجهي هذه النوادي والقائمين بادارتها في النجف الأشرف وفي غيرها من بعض المدن الكبيرة، يتعلمون فيها طرق التنظيم والتوجيه

---

(١) حديث نبوي.

والعلوم التي تؤهلهم للاشراف على هذه النوادي الموجّهة توجيهاً دينياً يتفق مع حقيقة الاسلام وواقعه.

* * *

قد نرى أن بعض الأثرياء من المؤمنين يشيدون حسينية كبيرة ونعم ما يصنعون. فلو أسسوا بجنب هذه الحسينية نادياً دينياً للشبان لقاموا بخدمة جديرة بكل تقدير وعالجوا هذا الفراغ العقائدي.

فلا بد من توجيه الأخيار من الأثرياء وتفهيمهم الوضع الراهن وأساليب الدعوة حسب مقتضيات العصر الحاضر والأخذ بيد الشبان إلى ساحات التقوى والهداية وتنويرهم بنور الاسلام الوضاء. فانهم مؤمنو المستقبل وحافظو بيضة الاسلام وحاملو لوائه الرفيع.

وقد لاحظت أن بعض هؤلاء المؤمنين المخلصين (مع تقديري لهم ولإيمانهم العميق) بعيدون كل البعد عما يحتمه الوضع الراهن من طرق التوجيه الديني وأساليب الدعوة ولعل البعض منهم يرى التقرب إلى الشباب بغية تهذيبهم تهذيباً دينياً مروقاً عن الدين وخروجاً عما قرره الاسلام وانحرافاً عن الصراط السوي. إما لأنهم لم يتدرجوا في دراسات حديثة ولم يحتكوا بالشباب ليعلموا مواطن الضعف فيهم وما أصيبوا من أمراض نفسية من جراء دعايات الحادية عنيفة أو لأنهم قليلو التضحية في هذا المضمار لا يهمهم مستقبل الاسلام والمسلمين. فكنت ألاحظ أن بعض هؤلاء المتدينين الأثرياء (مع تقديسي لهم)، لا يروق له أن يجهز حسينية أسسها بالكراسي و(التخوت)، كمن يستشكل أن يُسمع كلامه بالمكبرات إلى كثير من الناس.

* * *

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما أسلوبها الخاص في كل زمان حسب الظروف والعوامل المحيطة بالناس.

فإن الاستمرار على أسلوب خاص في الدعوة لا يأتي بالنتيجة المطلوبة وترك أساليب أخرى للدعوة لا تتنافى مع روح الشرع ثم ترك ملايين من الشبان المسلمين دون موجه، تغزوهم الدعايات المضلة. فتخلق منهم أعداء

للاسلام، إنما هو عمل لا يتفق مع منطوق هذا الحديث: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» عدا أنه يخالف أمر الله تعالى حين يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون﴾[1].

فإن الغرب يعمل منذ أكثر من ١٠٠ سنة بجدٍ متواصل لأجل غزو الشباب المسلم وانتزاع عقيدته وجعله عدواً لدينه ومقدساته: فقد سمعت قبل ٢٨ سنة ممن كان قد أكمل دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت، سمعته يقول: «إن بلاء الشرق دينه، وان هذا الدين (ويقصد به الاسلام) حجر عثرة دون تقدم الشرق! ولا سبيل إلى التقدم إلا بنبذ هذا الدين! . . .».

فيا أيها المسلمون، ان الوضع الراهن ومعالجته يستدعي شيئاً من التضحية. فهل من مجيب؟.

فقد قال رسول الله (ص): «ويل لقوم لا يدينون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وقال (ص) أيضاً: «إذا ظهرت البدع، فليظهر العالم علمه، وإلا فعليه لعنة الله». وقال أيضاً: «الساكت عن الحق شيطان أخرس».

* * *

(١) سورة التحريم: ٦.

غذاء الروح في شهر شعبان

إن الانسان روحٌ وبدن، فكما أن للبدن غذاءاً كذلك للروح غذاء أيضاً. فمن تمكن أن يغذيهما معاً فقد فاز بسعادة الدارين.

إن الانسان كثير الهفوات والزلات، فهو يعصي الله في حركاته وسكناته معاصي كثيرة لا يلتفت إليها، ولا يحاسب نفسه عليها. كل ذلك، لأن نفسه لم تبلغ مرتبة من الكمال كي تقدر أعمالها وتشخص السيء منها من الحسن تشخيصاً دقيقاً وذلك لتلويثها بذنوب سابقة. فهذه المعاصي صغائرها وكبائرها تتراكم على النفس الانسانية، فتشكل حجاباً كثيفاً يمنع الانسان عن رؤية الحق، فتتوارد عليه الشكوك والأوهام، فيستهزىء بالمقدسات ويرى الباطل حقاً والحق باطلاً والرذيلة فضيلة، والفضيلة رذيلة!.

فالله تبارك وتعالى قرر أعمالاً (تفضلاً منه)، تمحى بها الذنوب قبل أن تتراكم، كي لا يكون الإنسان مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

فالصلوات الخمس والنوافل والأعمال الصالحة والمستحبات كلها تمحى الذنوب وتقرِّب العبد إلى الله تعالى بعد الابتعاد. ومن جملة تلك الأعمال: الأعمال التي وردت في شهر شعبان.

فقد جاء في ثواب الأعمال بسنده عن النبي (ص)، وقد تذاكر أصحابه عنده فضائل شعبان. فقال (ص): شهر شريف وهو شهري، وحملة العرش تعظمه وتعرف حقه، وهو شهر تزداد فيه أرزاق المؤمنين لشهر رمضان وتزين فيه الجنان، وإنما سمي شعبان: لأنه يتشعب فيه أرزاق المؤمنين لشهر رمضان وهو شهر العمل، فيه تضاعف الحسنة سبعين والسيئة محطوطة والذنب مغفور والحسنة مقبولة والجبار جل جلاله يباهي فيه بعباده، ينظر من فوق عرشه إلى صوَّامه وقوامه، فيباهي بهم حملة عرشه.

وبسنده عن الصادق عليه السلام، كان أبي عليه السلام يفصل بين شعبان وشهر رمضان بيوم، وكان علي بن الحسين عليهما السلام، يصل ما بينهما ويقول: «صوم شهرين متتابعين توبة من الله».

وعن الرضا (ع): «مَن صام ثلاثة أيام من آخر شعبان ووصلها بشهر رمضان، كتب الله تعالى له صوم شهرين متتابعين».

وقد قال رسول الله (ص) كما في كتاب الاقبال: «شعبان شهري ورمضان شهر الله عز وجل. فمن صام يوماً من شهري كنت شفيعه يوم القيامة. ومن صام يومين غفر الله له ما تقدم من ذنبه ومن صام ثلاثة أيام قيل له: استأنف العمل».

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «تتزين السماوات في كل خميس من شعبان، فتقول الملائكة: إلهنا، اغفر لصائميه، وأجب دعاءهم. فمن صلى فيه ركعتين: يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وقل هو الله أحد، مائة مرة، فإذا سلم صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائة مرة، قضى الله له كل حاجة من أمر دينه ودنياه. ومن صام فيه يوماً واحداً حرّم الله جسده على النار».

وفي كتاب الاقبال بسنده عن الصادق عليه السلام: في حديث، أنه سئل: «ما أفضل ما يفعل في شعبان. قال: الصدقة والاستغفار، ومن تصدق بصدقة في شعبان رباها الله تعالى كما يربي أحدكم فضيلة حتى يوافيها يوم القيامة وقد صارت مثل أحد».

ويستحب له أن يقول في كل يوم من هذا الشهر سبعين مرة: «استغفر الله وأسأله التوبة»... وأن يقول في كل يوم سبعين مرة: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الحي القيوم وأتوب اليه».

وعن النبي (ص): مَن قال في شعبان ألف مرة: «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون» كتب الله له عبادة ألف سنة ويخرج من قبره يوم القيامة ووجهه يتلألأ مثل القمر ليلة البدر وكتب عند الله صدّيقاً».

ويستحب أن يصلي على النبي وآله في هذا الشهر كثيراً، فإن الصلاة على النبي وآله تزيد في وزن الأعمال وثقلها: «فأما مَن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ماهيه، نار حامية﴾[1].

هذه وصفات روحية يُدلي بها النبي (ص) لمعالجة أرواح البشر المريضة وتسييرها نحو الكمال المنشود. فان النفس الانسانية إن لم تتصل بالملكوت الأعلى وتستقي من الافاضات الالهية وتستنير بالأنوار القدسية تتقهقر شيئاً فشيئاً فتكون من «الذين خسروا أنفسهم» فتتسافل إلى أسفل السافلين.

فليجرب هذه الوصفات الروحية من كان يشك في تأثيرها، ليرى كيف يتنور يوماً بعد يوم، فيصبح انساناً لا كسائر الأناسي، انساناً يشعر بآلام الآخرين ويقدر نعم الله عليه، تلطف نفسه، وتزداد إحساساً وشعوراً، فلا تتصدى لايذاء الناس وارتكاب المنكرات.

إن الانسان إذا قام يعبد ربه باخلاص عميق دونما رياء يشعر عقيب ذلك بفرح يفوق جميع الأفراح، بفرح داخلي لا كدر فيه، وسرور ما بعده حزن إلا على ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، وهو دليل التكامل النفسي وأمارة التقدم الروحي. نعم: إن العبد إذا دأب على الاستغفار شعر بخفة في روحه وطمأنينة في نفسه وانجذاب لاهوتي.

إن الانسان لم يخلق ليلهو ويلعب، بل خلق ليتكامل فيكون انساناً قد اجتمعت فيه المعاني الانسانية السامية، كي يفوز بالحياة الخالدة السعيدة، حياة لا مشاكل فيها ولا أحزان جزاءاً لما قام به في دنياه من عبادة وطاعة وأعمال صالحات. ان الله تعالى يقول: ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون﴾.

ما أحلى المناجاة في هذا الشهر والاعتراف بالذنوب بين يدي الغفور الرحيم. فقد علمنا الأئمة الأطهار وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي عليه السلام مناجاة تقشعر لها الجلود.

---

(١) سورة القارعة: ٧ ـ ١٠

يقول علي عليه السلام في مناجاة له في شهر شعبان: «إلهي إن كنت غير مستأهل لرحمتك فأنت أهل أن تجود عليَّ بفضل سعتك. إلهي، كأني بنفسي واقفة بين يديك، وقد أظلها حسن تـوكلي عليـك. ففعلتَ ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك، إلهي إن عفوتَ فمنٍ أولى منك بذلك. وإن كان قد دنا أجلي ولم يُدنني منك عملي، فقد جعلتُ الاقرار بالذنب اليك وسيلتي. إلهي قد جُرت على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها».

وقد بين النبي (ص) صلاة مستحبة خاصة لكل ليلة من ليالي شعبان يحتاج القيامُ بها إلى توفيق رباني وصفاء في النفس. وقـد يقضي الانسان ساعات في المقهى تتخللها الغيبة والنميمة. فلو صـرف زمناً يسيراً منها في عبادة ربه لسار في مدارج الكمـال ونحى عن نفسه وسـاوسها الشيـطانية وتقشعت عنها غياهب الشكوك.

وقد وردت عن علي بن الحسين (ع) : صلوات خاصة وقت الزوال من كل يوم من شهر شعبان نذكر شطراً منها: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالـة ومختلف الملائكـة ومعدن العلم وأهـل بيت الوحي. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الفلك الجارية في اللجج الغامرة،يأمن مَن ركبها ويغرق من تركها، المتقدم لهم مارق، والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق»... إلى أن يقول: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين الأبرار الأخيار الذين أوجبتَ حقوقهم ومودتهم وفرضت طاعتهم وولايتهم...».

وإن ليلة النصف من شهر شعبان من الليالي الشريفة العظيمة. وعن النبي (ص): « إذا كان نصف شعبان، فقم ليله وصم نهاره، فانه يجيء نداء من قبل الله تعالى من أول هذه الليلة إلى آخرها: «هل من مستغفر فأغفر له، هل من مسترزق فأرزقه».

وقد سئل الباقر عليه السلام، عن فضل ليلة النصف من شعبان، فقال: «هي أفضل ليلة بعد ليلة القدر، فيها يمنح الله العباد فضله، ويغفر لهم بمنه، فاجتهدوا في القربة إلى الله فيها فإنها ليلة آلى الله عز وجل على نفسه أن لا

يرد سائلاً فيها ما لم يسأل معصية. وانها الليلة التي جعلها الله لنا أهل البيت بإزاء ما جعل ليلة القدر لنبينا».

فيستحب ليلة النصف من شعبان: الغسل، فأنه يخفف من الذنوب ويوجب الرحمة. ويستحب فيها: زيارة الحسين عليه السلام تخليداً لذكرى محيي الشريعة بعد الاندثار وتقديراً لأعماله الخالدة. وعن الصادق (ع) قال: «إذا كان النصف من شعبان نادى منادٍ من الأفق الأعلى: زائري الحسين، إرجعوا مغفوراً لكم، ثوابكم على ربكم ومحمد نبيكم».

وروى ابن قولويه في (كامل الزيارة)، بأسانيد عديدة معتبرة عن علي بن الحسين وعن الصادق عليهما السلام، قالا: «من أراد أن يصافحه مائة الف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي فليزر قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام في النصف من شعبان، فإن أرواح النبيين يستأذنون الله في زيارته، فيؤذن لهم، منهم خمسة أولو العزم من الرسل، قلنا من هم. قال: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص). قلنا: ما معنى أولو العزم؟ قال: بعثوا إلى شرق الأرض وغربها جنها وإنسها... الحديث».

وقد وردت أعمال وصلوات خاصة بليلة النصف من شعبان، مسطورة في الكتب المفصلة. نسأله تعالى التوفيق للقيام بتطبيقها، باخلاص دونما رياء كي تطهر هذه النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ. فـ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

* * *

ميلاد الحسين عليه السلام[1]

يولد في صبيحة هذه الليلة المثلُ الكامل ريحانة رسول الله، سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي عليه أفضل الصلاة والسلام. ويجدر بالعالم الاسلامي أن يحتفل بمولده الكريم احتفالاً رائعاً لأنه هو الذي أنقذ العالم من الجاهلية الجهلاء والمادية العمياء ولولا تلك التضحية الغالية التي لا مثيل لها في عالم الوجود لاندرست معالم الدين ولما بقي للاسلام الحقيقي من أثر.

أنى للناقص أن يصف الكمال وإن الامامة لمرتبةٌ رفيعة لا يمكن لأحد أن يتعرف حقيقتها وإنما نتعرف اليها بالآثار. وهل لطالب في الدراسة المتوسطة أن يعرف ما حقيقة الرياضيات العالية. كيف أصف من يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى الحسين». كيف لا يكون كذلك وهو المثل الكامل في العبادة والشجاعة والتضحية والايثار والسخاء. فقد وجد على ظهره يوم الطف أثر، فسُئل زين العابدين (ع) عن ذلك، فقال: مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين.

لقد مر الحسين عليه السلام بمساكين يأكلون في الصُفَّة، فقالوا الغذاء، فنزل وقال: إن الله لا يحب المتكبرين. فتغذى ثم قال لهم: «قد أجبتكم، فأجيبوني». قالوا: نعم، فمضى بهم إلى منزله. هذه صفة مثالية ليس للبشر العادي أن يصل اليها. وقد حج سلام الله عليه خمساً وعشرين حجةً ملبياً ماشياً.

جاءه رجل من الأنصار يسأله حاجة، فقال: يا أخا الأنصار، صُن وجهك عن بذلة المسألة وارفع حاجتك في رقعة، فكتب: «إن لفلان علي خمسمائة

---

(١) كلمة أُلقيت في ليلة الثالث من شعبان ١٣٧٨ في الروضة الحسينية بكربلاء.

دينار، وقد الح َبي، فكلمه أن ينظرني إلى ميسرة». فلما قرأ الحسين الرقعة أعطاه ألف دينار. وقال له: «أما خمسمائة دينار، فاقض بها دينك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك ولا ترفع حاجتك إلا إلى ذي دين أو مروءة أو حسب». أنظروا إلى هذا الأدب الرفيع فإنه درس أخلاقي عظيم، لو أخذ به المسلمون.

ففي الاسلام من النظم الاجتماعية والتعاليم الأخلاقية المثالية والقواعد الاقتصادية، ما يُريح البشر في الدنيا ويسعده في الآخرة. وأنى لهذا البشر أن يسن نظاماً كاملاً يؤدي إلى سعادة النشأتين.

فإن ما يترشح من الانسان من أفكار يتناسب مع طهارة نفسه، فرشحات النفس الزكية رشحات طاهرة، تزكي النفوس وتقربها إلى الله تعالى وتعمل في سعادة الانسان في دنياه وعقباه. لذلك جاء في الحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة». وإن رشحات النفس الخبيثة الملوثة بالذنوب والآثام مظلمة حالكة، تبعد الفرد عن الله تعالى. لأن هذا الفرد المذنب وإن عدَّ نفسه فيلسوفاً فقد فقد عقله الفطري الطبيعي: ذلك العقل الذي يوحد الله ويقدسه بالفطرة. ﴿فالعقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان﴾ كما في الحديث. وقد قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

وما أكثر الذنوب والفسوق والفجور في الغرب. وما وجود أبيقور (Epicure) المادي في اليونان قبل ميلاد المسيح (ع) بثلاثمائة سنة وظهور أمثال: بوخنر، فورباخ، نيتشه، في أوروبا إلا لنفوس تلوثت بأنواع الاجرام وضروب العصيان، فجاءت بهذه الفلسفة المادية في القرن التاسع عشر الميلادي!. إن الله تعالى يقول: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. وقال الباقر عليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما زال به حتى يغلب عليه، فصيرّ أعلاه أسفله».

ولذلك فإن المستعمر أول ما يقوم به من أعمال لافساد العقائد وتلويث

النفوس، هو: فتح دور للخمور والفجور وإشاعة الفاحشة بطرق شتى، في الصحف ودور السينما والملاهي والراديو والتلفزيون.

ومن المصادفات العجيبة أن يكون (فرويد) صاحب نظرية الجنسية يهودياً. وإن الحركة اليهودية قد استغلت نظرياته لمصالحها الخاصة، فقد جاء في كتاب: «بروتوكولات حكماء صهيون» الذي يرسم السياسة اليهودية العالمية ما يأتي: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد، منا. وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس. ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه». كما جاء في الكتاب إشارة مماثلة عن وجوب استغلال مبادىء الفلاسفة الماديين! لتحطيم العقائد الدينية ونشر المبادىء المادية التي تسهل لليهود السيطرة على العالم. ويقول الكتاب: «لقد رتبنا نجاح دارون ونيتشه بالترويج لآرائهم. وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد».

لقد بلغ بالفيلسوف المادي: «ومن بؤس الفلسفة أن يسمى الهُراء فلسفة!». الابتعاد عن المقدسات مرتبة جعله يعتقد أن الحقيقة الواحدة الأزلية هي الاقتصاد!... ولا شيء وراء ذلك، فإذا تغيرت علاقات الانتاج تغيرت معها القيم الأخلاقية. والدين أفيون الشعوب، ومخدر الأمم. ابتدعه البشر لاستغلال الضعفاء وليس أمراً سماوياً.

حين أن الدين ركن من أركان الحياة. بل هو الحياة بعينها، إذ لا حياة إلا نفس ولا نفس بلا تكامل ولا تكامل إلا بالدين.

لقد طبق بعض البلدان بعض النظم الاقتصادية الحديثة التي لا تتفق مع النظم الاقتصادية الاسلامية في شيء! فمنعوا البيع والشراء والملكية الخاصة وساووا بين أجور العمال مع اختلاف الكفاءات، ثم سرعان ما عدلوا عن كل ذلك.

ليس هناك نظام اقتصادي كالنظام الاقتصادي الذي أمر به القرآن ولكن قلَّ من يعمل به. فلو اتبعنا جميعاً القرآن وعملنا بما فيه وبما جاء في السنة، فلا فقر ولا مرض ولا جهل.

فبيت المال مُعد لاعطاء الفقير ما يغنيه. ذلك لأن، دين الاسلام دين الحياة، وليس بأعمال عبادية فحسب لتطهير النفس الانسانية مما علق بها من أدران وتقريبها إلى ربها. مع العلم: أن فلسفة الاسلام لا ترمي إلى اشباع البطون فحسب، وإنما ترمي في الوقت نفسه إلى فلسفة أبعد، ألا وهي تزكية النفوس وتطهيرها وتزويدها بما يسعدها في الآخرة في حياة حقيقية تستمر ملايين السنين.

إن الاسلام ليعظم أمر الانفاق تعظيماً لا مزيد عليه، حتى ورد ما مؤداه يستحب للعبد أن يقبِّل يده حينما يتصدق بشيء، فكأنه يصافح الله. كل ذلك على سبيل المجاز وإفهام العبد أنه يقترب بتصدقه هذا إلى ربه. وليس الله بمن يصافَح. ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

هذا دين يقول: «من أتاه أخوه المؤمن فأكرمه فإنما أكرم الله عز وجل والله هو الغني».

ولكن قد يكون المال الكثير وبالاً يؤدي بالفرد إلى التسافل والولوج في الموبقات. يقول الله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق للناس لبغوا في الأرض ولكن ينزِّل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾. وفي آية أخرى: ﴿ولا تتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله، ان الله كان بكل شيء عليماً﴾.

إن الاسلام في الوقت الذي يهتم في رفع حاجة الفقراء إلى أبعد حدٍّ بقوله: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ وقوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾. وبقوله كما جاء في الحديث: «إذا أملقتم فتصدقوا»[1]، «صدقة السر تطفىء غضب الرب»، «من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب»، يُملي على الفقير دستوره الاصلاحي، لعدم إمكان التساوي بين العباد في الرزق لحكمة هناك، بقوله: كما جاء في حديث قدسي: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك».

---

(١) وهو قول علي عليه السلام.

إن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء، فهو يعطي المؤمن والكافر على السواء. ولكنه قد يضيق على المؤمن في رزقه في هذه الدنيا ليوجهه إليه تعالى: ﴿إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾. ذلك لأن الغِنى كثيراً ما يؤدي إلى الطغيان. فما على المؤمن المضيق عليه في رزقه إلا أن يصبر ويشكر ربه على تهذيبه إياه، وعدم جعله نسياً منسياً، ومصداقاً لهذه الآية: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾. وأن لا يتقاعس عن العمل في حدود طاقته، إنه تعالى يقول: ﴿مَن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً[١]، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً[٢] أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض في الرزق وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾.

فحسب الآيات المذكورة: من قصر جميع همه على الدنيا فإنه يُعجل له في ما يشاء، ثم يدفع به إلى جهنم. ولكن من عمل لآخرته مشكور سعيه ثم ان الله تعالى لا يبخل لا على مريدي الآخرة ولا على مريدي الدنيا فحسب، فأنه تعالى يعطي هؤلاء وهؤلاء ولا يمنعهم رزقه مع تفضيل بعضهم على الآخر لحكمة هناك. ولكن درجات الآخرة ونعيمها لا تقاس بما في الدنيا من درجات ونعيم زائل...

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾. ، أي أن الله إنما يبسط الرزق ويقدره لحكمة ومصلحة تعود على العبد بنفع قد لا يقف عليه في الدنيا. وهو (أي العبد) كمريض يشرب الدواء المر مع كراهية. ولكن عاقبته الشفاء.

ان الله تعالى هو الذي قسم بين العباد رحمته، فخص بالنبوة المخلصين من عباده، الشاكرين له. كما أنه تعالى خص كلاً من عباده بنوع من المعيشة يصلح بها حالهم. على حد قوله تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك، نحن

(١) مطروداً عن رحمة الله.

(٢) ممنوعاً.

قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾. ومعنى ذلك: أن رحمة الله تعالى خير مما يُجمع من الأموال ويدخر من حطام الدنيا.

ثم لا ينبغي للمؤمن أن يتمنى ما للبعض من أموال وأولاد وجاه، فالله تعالى يقول: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾.

فليست للدنيا قيمة عند الله تعالى. لأنها للمؤمن دار عمل واختبار واجتياز. ﴿الدنيا مزرعة الآخرة﴾. وقد جاء في الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء».

وفي حديث آخر: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يعمل من لا عقل له». وفي حديث آخر: «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة».

لذلك، لا يهم الله كما في الآية الآتية: ﴿كفر الكافرين فيعطيهم في هذه الدنيا الفانية من الأموال الطائلة ويجعل لبيوتهم سقفاً من فضة... الخ. ولكن قد حدد نعمته ولطفه على هؤلاء الكفار في الدنيا لئلا يرغب المؤمن في الكفر إذا ما رأى: أن كل كافر في سعة ودعة ورغد من العيش. وكل مؤمن في ضيق، فمنَّ على بعض المؤمنين المطيعين بشيء من حطام الدنيا ونعيمها انه تعالى يقول: ﴿ولولا أن يكون الناس أمةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون. وزخرفاً، وإن كل ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾[1].

إن الاسلام يريد أن ينمي في الفرد قابلية العطاء لوجه الله وتقرباً إلى الله. ولذلك يفضل العطاء السري: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾. ويحرض الاسلام المسلمين على الانفاق غاية التحريض ولا يريد بالانفاق أن يكون حكومياً فحسب، يؤخذ كل ما يؤخذ بصورة جبرية.

---

(١) سورة الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥.

لأن هذا النوع من العطاء لا ينمي في الفرد سجية السخاء والعطاء لوجه الله تعالى ولا يجعل صلة متينة بين العبد والمعبود لذلك جعل الاسلام الانفاق على ضربين من إلزامي وإختياري.

وبديهي أن لا سلام للعالم أجمع ولا اطمئنان إلا بتزكية النفوس. ولا تزكو النفوس إلا باتباع أوامر الاسلام: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1].

فحري بالمسلم أن يفهم الاسلام وأن يعمل في نشر الاسلام وتطبيق نظمه الاقتصادية في أصقاع العالم وأن لا ينخدع بكلمات هؤلاء الذين أسموا أنفسهم فلاسفة وعزوا نظرياتهم زوراً إلى العلم والعلم من كل ذلك براء.

فلنتخذ من الحسين عليه السلام دروساً في التضحية ونكران الذات لخدمة هذا الدين. فان دين الاسلام دين المستقبل كما صرح بذلك كبار الفلاسفة اللاهوتيين. انه تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[2].

ولا حياة لهذه البشرية الضالة، بالمعنى الصحيح، حياة تجعله يشعر بمركزه في هذا الكون، حياة توصله إلى معرفة الخالق جل وعلا والقيام بواجب الشكر والتطهّر والتكامل إلا بالعمل بهذه الآية الشريفة: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنكم إليه ترجعون﴾[3].

* * *

(١) سورة الرعد: ٣٠

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩

(٣) سورة الأنفال: ٢٤.

الامام أمير المؤمنين (ع) ومسألة رياضية

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقضاكم عليٍ» وقال أيضاً: «ليهنئك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً».

في كتاب (مشكلات العلوم) للتراقي أن: ١٧ جملاً كانت مشتركة بين ثلاثة أشخاص، فجاؤوا علياً عليه السلام وقالوا: إن نصف هذه الجمال لأحدنا وثلثها لآخر وتسعها لثالثنا، ونريد أن تقسمها بيننا على أن لا يبقى باقٍ.

فدعا علي (ع) بجمل له وأضافه إلى الجمال، فكانت ١٨ جملاً، فأعطى نصف الجمال: (أي ١٨ جملاً) إلى من له النصف، أي أعطاه (٩) جمال. وأعطى ثلث الـ(١٨) إلى من كان له الثلث، أي أعطاه (٦) جمال. وأعطى تسع الـ(١٨) إلى من كان له التسع، أي أعطاه جملين.

٩ + ٦ + ٢ = ١٧ ثم أرجع الجمل الذي أضافه إلى بيته.

* * *

قد يستغرب الشخص لأول وهلة عندما يلاحظ هذا الحل. ذلك لأن من كان له النصف يستحق ٨١/٢ من الجمال. ومن كان له الثلث يستحق ٥٢/٣ من الجمال. ومن كان له التسع يستحق ١٨/٩ من الجمال. وان:

٨ ١/٢ + ٥ ٢/٣ + ١ ٨/٩ = ١٦ ١/١٨.

فالمجموع ١٦ جملاً وجزء من ثمانية عشر جزءاً من جمل. فبقي إذن ١٧/١٨ من جمل واحد لم يوزع بعد بين الشركاء. ولا يخفى أن الباقي وهو ١٧/١٨ من جمل واحد يجب أن يوزع بين الشركاء أيضاً: على أن يأخذ الأول نصف هذا المقدار وأن يأخذ الثاني ثلث هذا المقدار وان يأخذ الثالث تسع هذا المقدار. مع العلم أنه لا يراد نحر جمل أو تعويض بالقيمة في هذا

التقسيم. فالتقسيم السابق على علاته غير مطلوب، لما يؤدي إلى تجزئة الجمل الواحد إلى كسورا.

فلنأت بمثل حسابي بسيط بُغية التوضيح:

مثال: لو أن رجلين أرادا أن نقسم بينهما مبلغاً بنسبة: ٢/١، ٦/١.

فنحن نقسم المبلغ بينهما بنسبة ٢/١، ٦/١ أي بنسبة ٦/٣، ٦/١ أي بنسبة ٣، ١ (بنسبة البسوط أو الصور). فالمبلغ يقسم إلى أربعة أقسام: ٣ منها تكون للشخص الأول، وقسم واحد أو حصة واحدة تكون للشخص الثاني. ذلك لأن نسبة ٢/١ إلى ٦/١ أي:

$$\frac{\frac{١}{٢}}{\frac{٦}{١}} = ٢/٦ = ٣، \text{و} \frac{٣ \text{ حصص}}{١ \text{ حصة}} = ٣$$

فإذن: قسم المبلغ بين الشخصين بنفس النسبة المطلوبة. فإذا كان المبلغ ٤٠ ديناراً فللشخص الأول ٣٠ ديناراً وللشخص الثاني ١٠ دنانير.

ولكن لو اقترح علينا الشخصان: أن نقسم بينهما المبلغ على أن يكـون نصيب أحدهما النصف ونصيب الآخر السدس دون أن يبقى شيء يعطى لغيرهما. أي أنهما قالا هكذا.

(١) قسِّم بيننا المبلغ ٤٠ ديناراً على أن يكون لأحدنا النصف وللآخر السدس. فعلينا أن نقسم المبلغ بشكل لا يؤدي إلى بقاء شيء من المبلغ لأن المبلغ كله لهما.

فإذا قمنا بحل هذه المسألة حسب منطوق المسألة رقم (١)... يكون الجواب هكذا:

٢/١ + ٦/١ = ٦/٣ + ٦/١ = ٦/٤ = ٣/٢

فيبقى ٣/١ المبلغ دون مالك، حين أنه لهما.

فيجب إذن: أخذ نصف الثلث (الباقي) وإعطاؤه للأول وأخذ سدس الثلث (الباقي) وإعطاؤه للثاني.

أي ٢/١ × ٣/١ = ٦/١ يكون للأول.

و ٦/١ × ٣/١ = ١٨/١ يكون للثاني... أو

(١/٢ + ١/٦) × ١/٣ = ٢/٣ × ١/٣ = ٢/٩.

أي يجب إعطاء ٢/٩ المبلغ لهما. فيبقى أيضاً:
١/٣ × ١/٣ = ١/٩ دون مالك. ومعنى ذلك: أن في كل تقسيم يبقى ١/٣ الموجود دون مالك. حينئذ يبقى في التقسيم الثالث أيضاً ثلث الباقي قبلًا، أي ١/٣ × ١/٩ = ١/٢٧.

وفي التقسيم الرابع يبقى: ١/٣ × ١/٢٧ = ١/٨١ وهكذا دواليك.

إذن يكون نصيب الأول: المبلغ الأصلي × ١/٢ (١ + ١/٣ + ١/٩ + ١/٢٧ + ١/٨١ + ...)

أو نصيب الأول = المبلغ الأصلي × ١/٢ (١ + ١/٣ + ١/٣٢ + ١/٣٣ + ١/٣٤ + ١/٣٥

نرى داخل القوس متوالية هندسية تنازلية أساسها: ١/٣.
ومعلوم أن مجموع حدود متوالية هندسية أساسها أقل من الواحد:

حـ = ١ / (١ - ر) (فيما إذا كانت الحدود لا تتناهى أي ؟ =).

ويراد بـ حـ = المجموع
أ = الحد الأول
ر = الأساس

وبعد التطبيق: حـ = ١ / (١ - ١/٣) = ١ / ٢/٣ = ٣/٢

∴ نصيب الأول = المبلغ الأصلي × ١/٢ × ٣/٢ = ٣/٤ من المبلغ الأصلي
ونصيب الثاني = المبلغ الأصلي × ١/٦ × ٣/٢ = ١/٤ من المبلغ الأصلي.
وهذه النتيجة تطابق تماماً ما نحصل عليه فيما إذا قسمنا المبالغ بنسبة ١/٢، ١/٦ كما بينا آنفاً.
توضيح: لا يخفى أن مجموع حدود متوالية هندسية:

$$حـ = \frac{1 - ر^ن}{ر - 1} = \frac{ر^ن}{ر - 1}$$، (ن) = عدد الحدود

لنضرب صورة الكسر ومخرجه في (ـ ١) فتكون النتيجة:

$$حـ = \frac{(1 - ر)^ن}{1 - ر} = \frac{1 - ر^ن}{1 - ر}$$

ولما كانت ر = ١/٣ ∴ ٣ ن/١ = ٠ (إذا كانت ن = ∞).

∴ ١ ر ن = ٠

$$∴ حـ = \frac{1}{1 - ر} \qquad \frac{1}{1 - 1/3}$$

لنعمم الموضوع ولنؤسس (نظرية حسابية). فنقول: لو أُريد إعطاء ١/١ من مبلغ ما إلى شخص. و ب/١ من نفس المبلغ إلى شخص آخر وكان أ/١ + ب/١ د ١ (أي مجموع أ/١ وب/١، أقل من الواحد)، فإن تقسيم الباقي بصورة متسلسلة على نفس النسق يؤدي بالنتيجة إلى تقسيم المبلغ المذكور بنسبة الكسرين أ/١، ب/١ دون أي فرق.

البرهان: بديهي أنه في التقسيم الأول كان نصيب الشخص الأول: أ/١، ونصيب الشخص الثاني: ب/١ وما سيبقى هو كسر من المبلغ الأصلي أي يساوي:

$$1 - (أ/1 + ب/1) = \frac{1 ب - 1 - ب}{أ ب}$$

وقد فرضنا المبلغ الأصلي = ١

ولنفرض: $\frac{أب - 1 - ب}{أب} = ك$

وحسب توضيحنا السابق، سيكون مجموع سهام الشخص الأول بعد تقسيمات لا تتناهى مساوياً إلى كسر من المبلغ الأصلي يعادل:

نصيب الشخص الأول = ١/١ (+ ك + ك٢ + ك٣ + ٠٠٠ + ك؟

ويكون مجموع سهام الشخص الثاني كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

= ب/١ (١ + ك + ك٢ + ك٣ + ٠٠٠ + ك؟)

وإن ما في القوس من متوالية هندسية عدد حدودها ؟ = ∞ وأساسها ك، مجموعها يساوي:

$$\text{حـ} = \frac{\text{١}}{\text{١ ـ ك}} = \frac{\text{١}}{\text{أب ـ ١ ـ ب}} = \frac{\text{أب}}{\text{١ + ب}}$$

$$\text{١ ـ} \frac{\text{}}{\text{أب}}$$

∴ يكون نصيب الشخص الأول كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

$$\text{١/١} \times \frac{\text{أب}}{\text{١ + ب}} = \frac{\text{ب}}{\text{١ + ب}}$$

ونصيب الشخص الثاني كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

$$\text{ب/١} \times \frac{\text{أب}}{\text{١ + ب}} = \frac{\text{أ}}{\text{١ + ب}}$$

وإذا فرضنا المبلغ: م، سيكون

$$\text{نصيب الشخص الأول} = \frac{\text{م ب}}{\text{١ + ب}}$$

$$\text{ونصيب الشخص الثاني} = \frac{\text{م أ}}{\text{١ + ب}}$$

ومن المعلوم أنه إذا أردنا تقسيم المبلغ م بين شخصين بنسبة أ/١، ب/١ يجب أن نقسمه حسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور كما يلي:

نـصيـب الـشـخص الأول = $\frac{\text{م} \times \text{أ}/1}{\text{أ}/1 + \text{ب}/1} = \frac{\text{م ب}}{\text{أ} + \text{ب}}$

ونـصيـب الـشـخص الـثـاني = $\frac{\text{م} \times \text{ب}/1}{\text{أ}/1 \times \text{ب}/1} = \frac{\text{م أ}}{\text{أ} + \text{ب}}$

ويلاحظ أن العمليتين أي تقسيم المبلغ حسبما قسمه علي عليه السلام وحسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور تعطيان نفس النتيجة.

وهكذا يمكن أن نبرهن على صحة التقسيم فيما لو كان عدد الأشخاص أكثر من اثنين:

فإذا كان عدد الأشخاص ٣ وكسر الشخص الثالث حـ/١ فان أ/١ من المبلغ (في التقسيم الأول) يكون للشخص الأول وب/١ من المبلغ يكون للثاني وحـ/١ من المبلغ للثالث. ويبقى من المبلغ الأصلي كسر يعادل:

$$1 - (\text{أ}/1 + \text{ب}/1 + \text{حـ}/1) = \frac{\text{أب حـ} - \text{ب حـ} - \text{أحـ} - \text{أب}}{\text{أ ب حـ}} = \text{ك}$$

وبعد القيام بتقسيمات متوالية بمقدار لا يتناهى يكون نصيب الشخص الأول = ١/١ (١ + ك + ك^{2} + ك^{3} + ... + $\text{ك}^{\text{ن}}$)، ونصيب الشخص الثاني = ب/١ (١ + ك + ك^{2} + ك^{3} + ... + $\text{ك}^{\text{ن}}$)، ونصيب الشخص الثالث = حـ/١ (١ + ك + ك^{2} + ك^{3} + ... + $\text{ك}^{\text{ن}}$).

وأما مجموع المتوالية الهندسية داخل القوس عندما تكون ن =∞ يساوي:

$$\frac{1}{1 - \text{ك}} = \frac{1}{1 - \frac{\text{أب حـ} - \text{ب حـ} - \text{أ حـ} - \text{أب}}{\text{أ ب حـ}}}$$

$$= \frac{\text{أ ب حـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

وإذا عوضنا عما في الأقواس: (للأول وللثاني وللثالث)، نحصل على ما يلي: (مع العلم أن المبلغ الأصلي = م).

$$\therefore \text{نصيب الشخص الأول} = \frac{\text{م ب حـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + د ب}}$$

$$\text{نصيب الشخص الثاني} = \frac{\text{م أ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

$$\text{نصيب الشخص الثالث} = \frac{\text{م أ ب}}{\text{ب حـ + أ حـ + م ب}}$$

وهكذا إذا أردنا أن نقسم المبلغ: م بين ثلاثة أشخاص بنسبة أ/١، ب/١، حـ/١ (أي تقسيماً متناسباً بنسبة الكسور) يكون:

$$\text{نصيب الأول} = \frac{\text{م × ١/١}}{\text{١/١ + ب/١ + حـ/١}} = \frac{\text{م ب حـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

$$\text{نصيب الثاني} = \frac{\text{م × ب/١}}{\text{١/١ + ب/١ + حـ/١}} = \frac{\text{م أ جـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

$$\text{نصيب الثالث} = \frac{\text{م} \times \text{ح}/١}{١/١ + \text{ب}/١ + \text{حـ}/١} = \frac{\text{م أ ب}}{\text{ب حـ} + \text{أ حـ} + \text{أ ب}}$$

* * *

والآن نأتي لحل المسألة حسبما وضعناه من نظرية برهنا على صحتها: والمسألة هي: ثلاثة أشخاص طلبوا أن نقسم بينهم ١٧ جملاً، على أن يكون سهم الشخص الأول ١/٢ ونصيب الشخص الثاني ١/٣ وحصة الثالث ١/٩ ولا يبقى شيء.

ولما كان ١/٢ + ١/٣ + ١/٩ = ١٧/١٨ إذن يبقى من الجمال ١/١٨ منها. وهذا يوجب أن نقسم الباقي وأعني به: (١/١٨) بصورة متسلسلة حسب منطوق المسألة حتى لا يبقى شيء. وقد برهنا على أن نتيجة هذه التقسيمات المتسلسلة التي لا تتناهى من حيث العمل الحسابي تطابق تقسيم ١٧ جملاً بنسبة الكسور:

١/٢، ١/٣، ١/٩ فعليه يكون:

$$\text{نصيب الشخص الأول} = \frac{١٧ \times ١/٢}{١٧/١٨} = ١٨ \times ١/٢ = ٩$$

$$\text{نصيب الشخص الثاني} = \frac{١٧ \times ١/٣}{١٧/١٨} = ١٨ \times ١/٣ = ٦$$

$$\text{نصيب الشخص الثالث} = \frac{١٧ \times ١/٩}{١٧/١٨} = ١٨ \times ١/٩ = ٢$$

ويرى أن العمل حسب التقسيم المتناسب في إيجاد نصيب الشخص الأول

أي : $\frac{١٧ \times ١/٢}{١٧/١٨}$ يطابق العمل حسبما أمر به علي عليه السلام وهو ضرب ١٨ في

١/٢ أو: (١٧ + ١) × ١/٢ = ٩.

أي يضاف على ١٧ جملاً، جمل واحد. فيضرب المجموع في ١/٢ فيكون نصيب الشخص الأول، (أو يؤخذ نصفه). وهكذا بالنسبة إلى الثاني والثالث:

∴ ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ جملاً (يطابق الأصل).

إن قيام علي عليه أفضل الصلاة والسلام بهذا النوع من التقسيم أي إضافة ١ على ١٧ وأخذ نصف المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الأول، وأخذ ثلث المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الثاني وأخذ تسع المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الثالث أقرب إلى أذهان العوام الذين لا يمكنهم أن يتوصلوا إلى حقيقة تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية: على أن يكون نسبة ما للأول إلى الثاني كنسبة النصف إلى الثلث:

$$\frac{\text{الأول}}{\text{الثاني}} = \frac{١/٢}{١/٣} = ٣/٢$$

ونسبة ما للثاني إلى الثالث كنسبة الثلث إلى التسع. أي:

$$\frac{\text{الثاني}}{\text{الثالث}} = \frac{١/٣}{١/٩} = ٩/٣ = ٣ \text{ وهو عدد مجرد}$$

ونسبة ما للأول إلى الثالث كنسبة النصف إلى التسع. أي:

$$\frac{\text{الأول}}{\text{الثالث}} = \frac{١/٢}{١/٩} = ٩/٢ = ٤ ١/٢$$

وهكذا نرى أن بعد تقسيم المبلغ حسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور (أو تقسيم المبلغ بنسبة الصور بعد توحيد المخارج)، تتحقق نفس النسب:

$$\frac{\text{نصيب الأول}}{\text{نصيب الثاني}} = ٦/٩ = ٢/٣$$

$$\frac{\text{نصيب الثاني}}{\text{نصيب الثالث}} = ٢/٦ = ٣$$

$$\frac{\text{نصيب الأول}}{\text{نصيب الثالث}} = ٢/٩ = ٢/١ ٤$$

وهكذا نرى أن علم الامام علي عليه السلام يتجلى في حل المسألة المذكورة بشكل مفهوم لدى العوام في ذلك الوقت، حيث لم تكن العلوم الرياضية معروفة في الجزيرة العربية، حلاً يطابق ما نص عليه علم الحساب الاستدلالي وقد علمنا أن لا فرق بين المنطوقين: (١) تقسيم المبلغ بين ثلاثة أشخاص على أن يأخذ الأول ٢/١ والثاني ٣/١ والثالث ٩/١ ولا يبقى شيء وبين: (٢) تقسيم المبلغ بين ثلاثة بنسبة الكسور الاعتيادية ٢/١، ٣/١، ٩/١ من حيث المآل. وفي السؤال حالة خاصة، أي أن المضاعف المشترك البسيط للمقامات = عدد الجمال + ١ = ١٧ + ١ = ١٨. فاستفاد علي عليه السلام من هذه الحالة الخاصة وحل المسألة بإضافة جمل على عدد الجمال فكان المضاعف المشترك البسيط: ١٨، ولو ضربت الكسور في ١٨ (المضاعف) لما تغيرت النسب، ولكن كحالة خاصة يكون المجموع: ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ مساوياً لعدد الجمال.

* * *

وقد رُويت هذه المسألة بشكل آخر ولعلها هي مسألة أخرى، ذلك: أن ثلاثة أشخاص أتوا علياً عليه أفضل الصلاة والسلام ومعهم ١٩ جملاً وأرادوا أن تقسم كلها بينهم على أن يكون للأول ٢/١ وللثاني ٤/١ وللثالث ٥/١ ولا يبقى شيء. فقال عليٌ عليه السلام: أضيفوا على ١٩ جملاً، جملاً

واحداً. . . فيكون (٢٠). خذوا النصف وأعطوه الشخص الأول. وخذوا الربع وأعطوه الشخص الثاني وخذوا الخمس وأعطوه الشخص الثالث.

١٠ + ٥ + ٤ = ١٩.

فالحل حسبما أمر به علي (ع): ١٩ + ١ = ٢٠ المضاعف المشترك البسيط (كحالة خاصة).

نصيب الشخص الأول = ٢٠ × ١/٢ = ١٠ [لا تتبدل النسب أو
نصيب الشخص الثاني = ٢٠ × ١/٤ = ٥ ضربت كلها في نفس
نصيب الشخص الثالث = ٢٠ × ١/٥ = ٤ المقدار]

١٠ + ٥ + ٤ = ١٩ (عدد الجمال، كحالة خاصة أيضاً)

فالحل حسب قواعد التقسيم المتناسب:

نصيب الشخص الأول = $\frac{١٩ \times ١/٢}{٢٠/١٩}$ = ١٠

نصيب الشخص الثاني = $\frac{١٩ \times ١/٤}{٢٠/١٩}$ = ٥

نصيب الشخص الثالث = $\frac{١٩ \times ١/٥}{٢٠/١٩}$ = ٤

فلا فرق بين النتيجتين، لأن المنطوقين يؤديان إلى نفس النتيجة.

فسلام الله عليك يا علي، من إمام مطاع للمتقين وقاض قدير ورياضي عظيم، وعالم بطرق السماء أكثر منه بطرق الأرض، ومخبر عن حركة الشمس قبل اكتشاف علم الميكانيك السماوي والتلسكوبات والمراقب الجسام. وعالم بطول قطر الشمس قبل تقدم علم الفيزياء والفلك العالي.

وسلام الله عليك يا أمير المؤمنين، يا ميزان الأعمال وسيف ذي الجلال وساقي السلسبيل الزلال، وحجة الله البالغة ونعمته السابغة والصراط الواضح والنجم اللائح ورحمة الله وبركاته.

* * *

المثل الكامل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرعان مهمان من فروع الدين وواجب على كل مسلم أن يقوم بهما وجوب الصلاة، وهما ركنان مهمان، بهما تسعد الأمم وتبلغ أعلى مرتبة من الرقي والكمال. وقد قام على دعامتيهما الاسلام، فبلغ حيث بلغ.

إن الله تعالى يقول: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾. (سورة آل عمران: ١٠٠) وقد قال رسول الله (ص): «إذا ظهرت البدع في أمتي فليُظهر العالم علمَه. فمن لم يفعل فعليه لعنة الله». وقال أيضاً: «لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزعت منهم البركات وسلِّط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء».

وقال أيضاً: «أن الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر». وجاء في حديث: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ولا شك أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى تفسخ الأخلاق وهو علة العلل في تدهور الأمم وسقوطها عدا ما هنالك من عذاب أخروي أليم. فعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم». و«إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر» كما جاء في الحديث.

هذا حسين عليه السلام قد أنكر على معاوية استخلاف يزيد ونهى عن المنكر لأن يزيد، لاستحلاله ما حرّم الله وهتكه حرمات الله، ما كان أهلاً ليتصدّى خلافة العالم الاسلامي، وهو في عنفوان نهوضه وإزدهاره يخاطب حسين (ع) معاوية في كتاب له: «إن لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وليس الله بناسٍ لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك للناس بيعة ابنك غلام حدث يشرب الشراب ويلعب بالكلاب. ما أراك إلا قد خسرت نفسك وبترت دينك وغششت رعيتك وأخزيت أمتك. . . ألخ».

وإن معاوية ليعترف بفضل الحسين (ع)، فهو يقول لابنه يزيد: «وما عسيت أن أعيب حسيناً، فوالله ما أرى للعيب فيه موضعاً». وقد نصح حسين عليه السلام معاوية أيضاً حين كان يريد أخذ البيعة ليزيد بقوله: «تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد مما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت فيه».

كيف لا يقوم حسين (ع) بهذه النهضة الخالدة. وقد سمع رسول الله (ص) يقول: «من أرضى سلطاناً جائراً بسخط الله خرج عن دين الله» فأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». كيف لا يضحي سلام الله عليه بنفسه ونفيسه وقد حفظ عن رسول الله (ص): «لا تحل لعين مؤمنة ترى الله يعصى وتطرف حتى تغيره».

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: أوحى الله إلى شعيب النبي: أني معذّب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم فقال (ع): «يا ربِّ، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟» فأوحى الله عز وجل إليه: «داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي».

فالمؤمن حقاً هو ذلك المؤمن الذي يغضب عند انتهاك حرمات الله ويضحي بما لديه إعلاءاً لكلمة الله العليا، ففي حديث: «إن موسى بن

عمران قال: يا ربِّ من أهلُك الذين تظلُّهم في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك؟ فأوحى الله إليه: الطاهرة قلوبهم والبريئة أيديهم، الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم إلى أن قال: والذين يغضبون لمحارمي إذا استحلت».

وإن الصحابة الموجودين في عصر الحسين (ع) كانوا يعلمون فسق يزيد وظلمه فمنهم من رأى الخروج عليه كابن الزبير ومنهم من امتنع عن مبايعته كعبد الله بن عمرو بن العاص حتى دعا نائب أمير مصر بالنار ليحرق عليه بابه.

ولولا خروج الحسين عليه السلام لاندرست معالم الدين وتمركزت البدع وضاعت السنن. كيف لا يكون ذلك ويزيد يقول متمثلاً بقول ابن الزبعري:

«لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل»

إن للحسين (ع) وذويه وأصحاب آياتٍ باهرات من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ خروجه من مكة حتى رجوع الأسرة النبوية بعد التضحية الغالية إلى مدينة جدهم ثانياً. وقد خطب الحسين عليه السلام حين عزم على الخروج من مكة إلى العراق فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله، خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله (ص) لحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقر بهم عينه وينجز بهم وعده، ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فاني راحل مصبحاً إن شاء الله».

وقد حمل معه النسوة والأطفال كي يظهر للناس مبلغ الجور ومدى الظلم لئلا يركنوا إلى الظالم ولا يعرضوا عليه دينهم ولا يتابعوه في معالم دينهم.

يصل الحسين عليه السلام إلى كربلا مع أفلاذ كبده وأرحامه الأقربين، فيقول: «ما اسم هذه الأرض، فيقال كربلاء. فيقول سلام الله عليه: «أللهم

أني أعوذ بك من الكرب والبلاء» ثم أقبل على أصحابه، فقال كلمته الخالدة التي يجب أن تكتب بأحرف من نور:

«الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلَّ الديانون». ما أعظم هذه الكلمة أنها تفسر الطابع الذي طبع عليه الجنس البشري في كل زمان ومكان، ولا يشذ عن ذلك إلا الفذ الأوحدي. «وقليل ما هم». فطالما كان الدين سلعة تجارية تشترى بها الراحة والسلامة والمنافع الخسيسة الدنيوية. وطالما كان الدين وسيلة للبلوغ إلى مناصب زائلة فحرِّف وغُير تبعاً للسياسة المستحكمة.

أنظروا كيف يخاطب الحسين (ع) جيش ابن سعد حين ركب فرس رسول الله (ص) يوم عاشوراء انه يقول:

«تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً. أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفاً لنا في إيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم. بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم. فهلاً لكم الويلات، تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كتهافت الفراش. فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب. ونبذة الكتاب ومحرِّفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان ومطفيء السنن. هؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون، أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليكم أصولكم وتأزرت عليه فروعكم فكنتم أخبث ثمر، شجى للناظر وأكلة للغاصب، ألا وإن الدعيَّ ابن الدعيِّ قد ركز بين اثنتين، بين السلَّة والذلة وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، حجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا ترون أن الحق لا يُعمل به والباطلَ لا يُتناهى عنه فلا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا بَرماً، ألا وأني زاحف بهذه الأسرة وقلة العدد وخذلان الناصر».

ففي هذه الخطبة المنيفة عبر لا تتناهى ودروس محكمة لا تُستقصى، تتفهمها نفوس زكية وأرواح نقية.

فقد تمّ نهي الحسين عن المنكر بتقديم نفسه الزكية ونفوس أبنائه الأبرياء حتى ولده الرضيع واخوته وأبناء أخيه وأبناء عمه للقتل وأمواله للنهب وخبائه للحرق وعياله للأسر ليفدي بكل ذلك دين جده ويستنقذه من أن يقضى عليه الخمور والفجور.

لا يمكن أن نستقصي مراحل هذا النهي عن المنكر في هذه العاجلة ونختم ذلك بنبذة يسيرة عن خطاب من تولت هذه المهمة بعد قتل الحسين عليه السلام ألا وهي شقيقته الكبرى زينب عليها السلام في مجلس يزيد:

«الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين صدق الله كذلك حيث يقول: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

«أظننتَ يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تساق الإماء، أنَّ بنا هواناً على الله ولك عليه كرامة وأن ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب أليم﴾.

«أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله (ص) سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن...» إلى آخر ما قالت سلام الله عليها.

فليتخذ المسلمون من هذه التضحية الغالية دروساً بليغة لخدمة هذا الدين وقمع البدع وما جاءنا من وحشية وجاهلية في الأخلاق وتدنيس النفوس من جراء إتباع نوازع الغرب الأثيمة، التي هي خلاصة الشهوات الحيوانية المميتة.

وينبغي أن لا يبهرنا هذا التقدم الصناعي في عالم المادة، فالانسان ليس بمادة فحسب، الانسان انسان بروحه ونفسه وملكاته المعنوية. وان اتباع الغرب في حضارته الشهوانية مما يؤدي إلى إماتة النفس الانسانية وتسافلها إلى أسفل السافلين. والاسلام إذ يأمر بالعمل في شتى الحقول من زراعية وصناعية

وتجارية وعمرانية لا يهمل النفس الانسانية تتردى في دياجير الشهوات والآثام بل يجعل رائده الأسمى تكامل هذه النفس الانسانية وإخراجها من حضيض البهيمية إلى أوج الملكوت. يعترف بذلك كبار فلاسفة الغرب المنصفون الذين لم يتابعوا الغرب في هذيانه وطيشه ومجونه وماديته الساحقة، وكثيراً ما كتبوا أن هذه المدنية المادية الطائشة، مآلها الزوال والانقراض.

فطوبى لنفوس إتعظت بكلمات أهل بيت العصمة (ع) فاتخذت منها مناراً للعروج إلى حيث الطمأنينة والخلود والكمال المنشود.



حسين مني وأنا من حسين

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن يعلى العامري وصححه: أنه خرج مع رسول الله (ص) إلى طعام دعوا له. فاستقبل رسول الله (ص) أمام القوم وحسين مع الغلمان يلعب، فأراد رسول الله (ص) أن يأخذه فطفق الصبي يفر ها هنا مرة وها هنا مرة، فجعل رسول الله (ص) يضاحكه حتى أخذه، قال فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه يقبله، فقال: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط».

وروى الحاكم في المستدرك أيضاً بسنده عن أبي هريرة، قال: رأيت رسول الله (ص) وهو حامل الحسين بن علي، وهو يقول: «أللهم إني أحبه، فأحبه». وقال رسول الله (ص): «من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى الحسين». وعن صحيح الترمذي عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله (ص) أي أهل بيتك أحب اليك قال: الحسن والحسين، وكان يقول لفاطمة: أدعي لي ابني فيشمهما ويضمهما اليه.

وفي الاصابة عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله (ص) ومعه الحسن والحسين، هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة، حتى انتهى الينا، فقال: من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني. وكان النبي (ص) يصلي فإذا سجد وثب الحسنان عليهما السلام على ظهره. فإذا أرادوا أن يمنعوهما، أشار اليهم أن دعوهما، فلما قضى الصلاة وضعهمافي حجره وقال: من أحبني فليحب هذين.

وكان (ص) يجثو للحسنين عليهما السلام فيركبان على ظهره، ويقول نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما.

وحملهما (ص) مرة على عاتقه، فقال رجل: نعم الفرس لكما، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ونعم الفارسان هما.

وعن صحيحي الترمذي والنسائي كان رسول الله (ص) يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله (ص) من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه وقال: صدق الله، (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.

وخرج رسول الله (ص) في ليلة في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً، فوضعه ثم كبر للصلاة. فأطال سجدة الصلاة. قال راوي الحديث فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله (ص) وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي فلما قضى الصلاة، قيل يا رسول الله: إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك. قال (ص): كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله.

ومر (ص) على بيت فاطمة، فسمع الحسين يبكي، فقال: «ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني».

وهناك حوادث وأحاديث أخرى تدل على شدة حب النبي للحسين (ع) لا مجال لذكرها مما يدل على عظمة منزلته عند الله وعند رسوله. وبديهي أن رسول الله (ص) وهو سيد المرسلين لا يحب إلا عن دليل وهو أجل من أن تؤثر فيه العواطف.

وإن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وهما إمامان قاما أو قعدا، كما جاء في حديث صحيح.

وقد قال (ص) مرات عدة وبعبارات متنوعة كما روته كافة كتب الحديث «إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي: الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي فلا تتقدموهم فتهلكوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم، وان اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». وقد قال (ص) أيضاً: «مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة من دخله كان آمناً». وقال أيضاً: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح».

كيف لا يحب رسول الله (ص) حسيناً وهو الذي سماه حسيناً وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وحنكه بريقه وعق عنه بكبش وأمر أمه أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة. وهو الذي قام بتغذيته أربعين يوماً وليلة، لأن لبن فاطمة سلام الله عليها قد جف بعد أن ولدت حسيناً. فطلب رسول الله (ص) مرضعة، فلم يجد، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه، فيمصه ويجعل الله في إبهام رسول الله (ص) رزقاً يغذيه. فأنبت الله لحمه من لحم رسول الله (ص). وهذا ليس بشيء ينكره العقل السليم، إذا صدق معاجز رسول الله (ص) تلك المعاجز التي تفوق هذه المعجزة بدرجات. فكيف لا يقوم الحسين (ع) بعد الاطلاع على ما قدمناه بهذه النهضة المباركة وكيف لا نشارك أهل البيت في الحزن والأسى في هذه الأيام المحزنة، فان أهل البيت كانوا إذا أهلّ شهر محرم الحرام إغتموا وحزنوا وأقاموا المآتم تخليداً لذكرى محي الشريعة بعد الاندثار، أعني حسيناً عليه الصلاة والسلام.

نعم، إن رسول الله (ص) لحزين في هذه الأيام، باك على ولده، كيف وقد بكى وحزن لهذه الفاجعة الأليمة قبل وقوعها وأقام المآتم لأجلها في مجمع أصحابه فأخبرهم بها وبكى وبكوا لبكائه، فكان هو الذاكر وأصحابه المستمعين وقد روى الشيخ أبو الحسين علي بن محمد الماوردي الشافعي في كتابه أعلام النبوة. فقال ما لفظه:

ومن انذاره (ص) ما رواه عروة عن عائشة (رض) قالت: دخل الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما على رسول الله (ص) وهو يوحى اليه فبرك على ظهره وهو منكب ولعب على ظهره، فقال جبرئيل (ع): يا محمد إن أمتك ستفتن بعدك ويقتل ابنك هذا من بعدك ومد يده فأتاه بتربة بيضاء وقال في هذه الأرض يقتل ابنك، اسمها، الطف. فلما ذهب جبرئيل خرج رسول الله (ص) والتربة في يده وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحذيفة وعمار وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أخبرني جبرئيل إن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة فأخبرني أن فيها مضجعه.

وفي العقد الفريد، قال ومن حديث أم سلمة زوج النبي (ص)، قالت: كان عندي النبي (ص) ومعي الحسين. فدنا من النبي (ص)، فأخذته، فبكى، فتركته، فدنا منه، فأخذته فبكى، فتركته. فقال له جبرئيل: أتحبه يا محمد؟ قال: نعم. قال: اما إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، فبسط جناحه فأراه منها، فبكى النبي (ص).

وفي الصواعق المحرقة، أن علياً مر بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى نينوى قرية على الفرات. فوقف وسأل عن اسم الأرض، فقيل كربلاء. فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه ثم قال: دخلت على رسول الله (ص) وهو يبكي فقلت ما يبكيك؟ قال: كان عندي جبرئيل آنفاً وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطىء الفرات بموضع يقال له كربلاء، ثم قبض جبرئيل قبضة من تراب أشمني إياه، فلم أملك عيني أن فاضتا.

وقد قال الحسين (ع): أنا قتيل العبرة، لا يذكرني مؤمن إلا استعبر.

فالحسين عبرة كل مؤمن كما جاء في حديث صحيح. وكيف لا تفيض عينا المؤمن عندما يسمع أن حسيناً يتناول طفله الرضيع بعد أن جفت المراضع، فيشرف على الأعداء قائلاً: «إن كنا في زعمكم مذنبين، فما ذنب هذا الرضيع، وقد ترونه يتلظى عطشاً، وهو طفل لا يعرف الغاية ولم يأت بجناية ويلكم أسقوه شربة ماء، فقد جفت محالب أمه وإن كنتم غير مصدقين خذوه مني وأسقوه أنتم». فاختلف القوم فيما بينهم، منهم من قال: أسقوا الرضيع ومنهم من قال: إن الحسين قد بلغ الغاية من الظمأ لو صبرتم قليلاً اسلم أمره اليكم. فخشى ابن سعد العاقبة وأشار إلى حرملة قائلاً: إقطع نزاع القوم، فرمى الرضيع بسهم له في نحره، فذبحه من الوريد إلى الوريد، وصار الطفل يرفرف على يدي والده كالطير المذبوح، فأخذه إلى المخيم استقبلته أخته، قائلة: «يا ابه، لعلك سقيت أخي ماء» فأجابها: «هاك أخاك مذبوحاً». ثم حفر الأرض بسيفه ودفن الرضيع وآماله . . .

الحسين (ع) يعلم الناس الصلاة في أحرج ساعة

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾. وفي موضع آخر: ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين﴾. وفي مكان آخر: ﴿ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾. فلم يهتم الدين الاسلامي بشيء اهتمامه بالصلاة وقد جعلها أساساً لقبول بقية الأعمال بقوله: ﴿الصلاة عمود الدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها﴾. ﴿الصلاة قربان كل تقي﴾. ﴿أول ما يحاسب عليه الصلاة﴾. ﴿وإن أول ما فرض الله تعالى الصلاة وآخر ما يبقى عند الموت الصلاة. وآخر ما يحاسب به يوم القيامة الصلاة، فمن أجاب فقد سهل عليه ما بعده، ومن لم يجب فقد اشتد عليه ما بعده﴾. وقال: ﴿بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة﴾. وفي هذه الأحاديث كفاية لبيان أهمية الصلاة.

إن النبي (ص) كان كثير الصلاة حتى تورمت قدماه. وأما علي (ع) فكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وقد قال فيه ابن أبي الحديد: «كان علي أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً ومنه تعلم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير فيصلي عليه والسهام تقع بين يديه وتمر على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته». وأما الحسين (ع) فكما روى ابن عبد البر في الاستيعاب حج خمساً وعشرين حجة ماشياً ونجائبه تقاد معه وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.

وقد صلى الحسين (ع) صلوات عدة مشهورات منذ خروجه من مكة فاراً، بغية الاستشهاد في موضع آخر، صيانة لحرمة بيت الله الحرام.

الأولى: أنه عليه السلام بعد أن سار من بطن العقبة ونزل شراف، أمر عند السحر فتيانه فاستقوا الماء واكثروا ثم سار منها حتى انتصف النهار فلاقاهم الحر ومعه ألف فارس وكان قد أثر فيهم العطش فأمر الحسين (ع) فتيانه أن أسقوا القوم وأرووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً، ففعلوا وقد حضر وقت صلاة الظهر. فأمر الحسين عليه السلام الحجاج بن مسروق أن يؤذن. فلما حضرت الاقامة، خرج الحسين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت علي رسائلكم: أن أقدم علينا، فانه ليس لنا إمام، لعل الله أن يجمعنا وإياكم على الهدى والحق. فان كنتم على ذلك فقد جئتكم فاعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه اليكم». ثم قال للمؤذن: أقم الصلاة، فأقام الصلاة. فقال للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟ فقال: لا. بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك، فصلى بهم الحسين عليه السلام وكل دخل خيمته. فلما كان وقت العصر أمر الحسين عليه السلام أن يتهيؤا للرحيل. ثم أمر مناديه، فنادى بالعصر، وأقام، واستقدم الحسين عليه السلام فصلى بالقوم. ثم سلم وانصرف اليهم بوجهه. فحمد الله وأثنى عليه. وقال: «أما بعد أيها الناس، إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى لله عنكم. ونحن أهل بيت محمد، أولى بولاية هذا الأمر عليكم، من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان. فإن أبيتم إلا الكراهة لنا والجهل بحقنا وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت علي به رسلكم انصرفت عنكم». فامتنع الحر وأصحابه وجعجعوا به حتى أوردوه كربلاء.

وإن ائتمام الحر بأبي عبد الله الحسين عليه السلام في صلاته يعرفنا قبلاً ان نفسه كانت قمينة لقبول الحق والفوز بالشهادة وحسن السمعة. لذلك يأتي حسيناً يوم العاشر نادماً تائباً فاراً من ابن سعد وأصحابه، قائلاً: «هل لي من توبة». فيتوب على يد الامام عليه السلام، ويستشهد بين يديه ويفوز بالخلود الأبدي في نعيم أبدي. وقد أتمّ الحر بهذا الرشاد الحجة على ابن سعد ومن والاه.

ونادى عمر بن سعد عشية يوم الخميس لتسع مضين من المحرم قائلاً: «يا خيل الله اركبي وبالجنة ابشري» فركب الناس وزحفوا بعد العصر، والحسين عليه السلام جالس أمام بيته محتب بسيفه فجاءه العباس عليه السلام قائلاً: يا أخي أتاك القوم. فقال: يا عباس، «إركب بنفسك أنت حتى تلقاهم، وتقول لهم: ما بالكم وما بدا لكم، وتسألهم عما جاء بهم». فأتاهم العباس (ع) في نحو عشرين فارساً، فسألهم فقالوا: «قد جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم». قال: «لا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه». فلما أخبره العباس بقولهم، قال له: «إرجع اليهم. فان استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار». فرجع العباس عليه السلام وسألهم ذلك. فتوقف ابن سعد فقال له عمر بن الحجاج الزبيدي: سبحان الله. والله لو أنهم من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك، لأجبناهم. فكيف وهم آل محمد. فجمع الحسين عليه السلام أصحابه قرب المساء فقال: «أثني على الله أحسن الثناء واحمده على السراء والضراء، أللهم إني أحمدك على ان أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا اسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين». ثم طلب إلى أصحابه أن يتفرقوا عنه جوف الليل، وقال لهم: أنتم في حل مني، فلم يقبلوا وقابلوه بكلمات تدل على عظمة الايمان فيهم فقام الحسين (ع) وأصحابه الليل كله، يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون. باتوا ولهم دوي كدوي النحل ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد.

لله ان ضمـتـهـم الأسـحـار	سمة العبيد من الخشوع عليهم
بيض القواضب أنهم أحرار	فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم

ولم يشغلهم ما هم فيه من الشدائد وانتظار القتل عن ذكر ربهم فعبر اليهم في تلك الليلة من عسكر ابن سعد اثنان وثلاثون رجلاً. ولا أعلم كيف أصف هذا التهجد. فانهم كانوا يرون الحق علانية وقد رفعت عنهم الحواجب وكشف لهم الغطاء. لذلك تراهم مأنوسين فرحين مستبشرين. فهذا برير،

يداعب عبد الرحمن الأنصاري ويضاحكه. فيقول له عبد الرحمن، يا برير، ما هذه ساعة باطل. فيجيب برير: «لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، وإنما أفعل ذلك استبشاراً بما نصير اليه، فوالله ما هو إلا أن نلقى هؤلاء القوم بأسيافنا ونعالجهم بها ساعة ثم نعانق الحور العين».

وأعظم صلاة يصليها الحسين عليه السلام هي صلاة ظهر العاشوراء. ففي بحبوحة الوغى يأتي أبو ثمامة الصيداوي حسيناً قائلاً: «يا أبا عبد الله، نفسي لنفسك الفداء، هؤلاء قد اقتربوا منك. لا والله، لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن القى الله ربي وقد صليت هذه الصلاة». فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء، وقال: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين. نعم هذا أول وقتها». فالحسين عليه السلام يدعو لأبي ثمامة ان يجعله الله من المصلين. كل ذلك، لأنه لا فضيلة ولا مقام أعلى من أن يعد الانسان من المصلين. وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿إن الانسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾. فاستثنى الله تعالى المصلين الذاكرين فهؤلاء بصلواتهم المقبولات تطهر نفوسهم فتأخذ بالكمال ويكونون إذ ذاك فوق البشر العادي، فلا يجزعون عند الشر ولا يمنعون إذا مسهم الخير.

ثم قال الحسين عليه السلام سلوهم أن يكفوا عنا. ففعلوا. . فقال لهم الحصين بن تميم أنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت لا تقبل الصلاة من آل رسول الله (ص) وتقبل منكم يا حمار. فحمل عليه الحصين وحمل عليه حبيب رضوان الله عليه فقتل بديل بن صريم ثم قتل. فقال الحسين عليه السلام: «عند الله أحتسب نفسي وحماة أصحابي. لله درك يا حبيب، لقد كنت فاضلاً، تختم القرآن في ليلة واحدة». وقال الحسين عليه السلام لزهير بن القين وسعيد بن عبد الله: تقدما أمامي حتى أصلي الظهر فتقدما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتى صلى بهم صلاة الخوف. فوصل إلى الحسين عليه السلام سهم، فتقدم سعيد بن عبد الله ووقف يقيه النبال بنفسه، ما زال ولا تخطى، فما زال يُرمى بالنبل حتى سقط إلى الأرض وهو يقول: «أللهم العنهم لعن عاد وثمود. اللهم، أبلغ نبيك عني السلام وأبلغه

ما لقيت من ألم الجراح. فأني أردت ثوابك في نصرة ذرية نبيك». ثم قضى نحبه رضوان الله عليه، فوجد فيه ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح، وقد خطب الحسين في أصحابه بعد الصلاة، فقال: «يا أصحابي، إن هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها وتؤلفت ولدانها وحورها وهذا رسول الله (ص) والشهداء الذين قتلوا معه، أبي وأمي يتوقعون قدومكم ويتباشرون بكم وهم مشتاقون اليكم، فحاموا عن دين الله وذبوا عن حرم رسول الله».

هذه صلاة يصليها الحسين (ع) في أحرج ساعة بين السيوف والرماح فيعلم الناس عظمة الواجب وأنه لا يترك بحال. وان أمر الله فوق جميع الاعتبارات. وان الحرب والنضال إنما هما لتقويم دين الله وإحياء شعائر الله. يعلم الناس أن مبدأ الفضائل إنما هو في صلاة يؤديها الانسان شكراً لخالقه وأن لا فضيلة دون صلاة وخشوع لله تبارك وتعالى. يقدم درساً عملياً: ان الشواغل الدنيوية من تجارة ومرض ولعب وسباق وجهاد وغيرها محكومة تجاه عظمة الصلاة، ولا عمل لمن لا صلاة له مهما عظم العمل في نظره أو في نظر الناس. وهو صلوات الله عليه يختم هذه الصلاة التي لا تشبهها أية صلاة بمناجاة يناجي بها ربه حين بقي وحيداً فريداً قائلاً:

تركت الخلق طراً في هواكا   وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطعتني في الحب إرباً   لما مال الفؤاد إلى سواكا

فإلى الاستفاضة من الدروس الحسينية والاستفادة من عظمته وآثاره الخالدة أدعو إخواني المسلمين.

* * *

لماذا أبكى حسينا (ع)[1]

ما هذا الحزن الذي يحيط بالعالم الاسلامي عند هلال محرم الحرام؟ ما هذا الأسى الذي يتداخل كل مسلم في هذه الأيام؟ ما هذا الوجوم الذي يعم الآفاق؟ لماذا هذه المآتم وهذه المجالس المتعددات في شرق العالم وغربه لماذا تغلق المجوس حوانيتها ثلاثة أيام في هذا الشهر؟ لماذا أتباع براهما بوترا في الهند يقيمون المآتم ويبذلون وينفقون؟ لماذا تصرف آلاف الدنانير لاطعام الفقراء والمساكين في هذه الأيام؟ ذلك لأن حادثاً عظيماً يهز العالم هزاً، ذلك لأن الفضيلة تصطدم بالرذيلة فيكون من نصيبها الخفوق أولاً ثم الفتح والانتصار. ذلك لأن الضلال يريد أن يعود فيأتيه الحسين عليه السلام بنفسه ونفيسه فيقعمه قمعاً. ذلك لأن الجاهلية الجهلاء تريد أن تبرز من جديد فيقابلها السبط بما عز لديه: بطفله وولده وسبي رحله وذراريه ذلك لأن الشرك يريد أن يخرج من قرن الشيطان فتتداركه رحمة الله الواسعة حسين عليه السلام فيمحقه محقاً بأخبية تحرق وستور تهتك وثغور تقرع. كيف لا يهتز العالم لهذا الحادث العظيم وإن حياته فيه: ألا وهي الخلود في نعيم أبدي بتطهير النفس من الدنس والرجس وبعبادة الرحمن: ذلك الذي خُلق الانسان لأجله. كيف لا يضطرب العالم شكراً وتقديراً، فأنه لولا هذا الحادث الجلل لكان مستغرقاً في عبادة الشمس واللات والعزى. فلو بذل العالم كل ما فيه من مال وذاب حزناً وأسى وكآبة وسال دموعاً لما وفى حقاً من حقوق محيي الشريعة ومجددها أعني حسيناً عليه الصلاة والسلام.

ما هذا البكاء؟ إنما هو زفرات يزفرها الانسان مصحوبة بالدموع بصورة غير اختيارية اعترافاً بعظمة الحسين عليه السلام وتقديراً لأعماله الجبارة الخالدة. إنما هو مظهر من مظاهر الحب والولاء. إنما هو إمارة من امارات العشق والوداد. وقد جاء في الحديث: «هل الدين إلا الحب والبغض؟»...

---

(١) كلمة ألقيت في العشرة الأولى من شهر محرم الحرام.

نسمع كثيراً أن كبار الرجال من سياسيين عظام الذين لم يسمع أنهم بكوا لحادثة، يذكرون في تاريخ حياتهم أنهم بكوا مرتين أو ثلاثة طيلة حياتهم أما على أم لهم توفيت أو أب خطفه ريب المنون. كل ذلك لحب يتجلى فيسيل دموعاً ساخنات. وحسين والله قد خدم البشرية أضعاف ما يخدم الوالد ولده والوالدة ولدها. لأنه احيا نفوس العالم الضالة وأخرجها من الحيرة إلى نور الهداية وهداهم سواء السبيل.

لقد حضرت في إحدى العواصم حفلة رائعة لتخليد ذكرى الكيمياوي الشهير: برثلو(Berthelot) وأن أكثر مدن العالم قد إحتفلت في نفس اليوم بذكرى هذا الكيمياوي الذي خدم العالم خدمات مادية تفيد البدن خاصة وما هي نسبة إحياء النفس الانسانية بصورة أبدية إلى خدمة بدنية يقدمها الكيمياوي مع تقديرنا لخدمته.

إن الشرع الاسلامي قد نهى عن البكاء لأمور تافهة دنيوية وأمر بالصبر وجعل البكاء مبطلاً للصلاة واستثنى البكاء أثناء الصلاة خوفاً من الله تعالى أو حباً للحسين السبط، ولذلك يقول صلوات الله عليه: «أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا استعبر». فالبكاء على الحسين عليه السلام من علامات الايمان الواقعي الحقيقي. كان الصادق عليه السلام يقول: «الحسين عبرة كل مؤمن».

ليس البكاء على إمحاء الفضيلة يبعث على الذل والمسكنة كما يظنه البعض. فان النفوس لتصدأ كما يصدأ النحاس، ولا يزيل هذا الصدأ إلا البكاء من خشية الخالق والبكاء على ملتقى الفضائل ومجمع التضحيات الحسين عليه الصلاة والسلام.

كان صديق لي من الأفاضل في النجف الأشرف يقول لي: «اني أشعرأن نفسي تصدأ إن لم أحضر مجلس الحسين عليه السلام في كل أسبوع مرة فأبكي، فإذا بكيت أشعر بعد البكاء بارتياح وفرح وسرور واطمئنان وترفع عن العالم المادي». فالميزة الفارقة بين البكاء الباعث على الذل والهوان هو ذلك البكاء الذي يتعقبه حزن وكآبة وظلمات، ولكن البكاء من عقاب الخالق أو

البكاء للندم الحاصل للانسان من جراء ما اقترفت يداه من الذنوب يريح النفس ويبعث على السرور والفرح وكل من جرب ذلك يصدقني فيما أقول.

ولقد شاهدت أناساً كثيرين يبكون حسيناً باخلاص لا تأخذهم في الله لومة لائم جربتهم وسبرتهم فرأيتهم من خيار الناس وأبرارهم. فكأن هذا البكاء الخالص لو كان من معرفة يؤثر في النفس فيهديها سواء السبيل، فتبدو آثار هذه الهداية في الأفعال والمعاملات. أليست التجربة مدار البحث في علم النفس الحديث أو بالأحرى في علم مظاهر النفس. أليس أكثر مقتبسات علم النفس الحديث تتم بطريقة آنكت(Enquete) أي السؤال والتتبع والفحص عن نفسيات ثلة من الناس. وقد وجدت الذين لا يرتضون البكاء على الحسين عليه السلام أقل عطفاً وحناناً من الطبقة الأولى المارة الذكر. فأني أرى أن من علائم الانسان الكامل أن يحزن ويبكي لهذا الحادث العظيم الذي به تجلى الدين وبه عرف الله وبه عبد. كيف لا ويزيد يقول متمثلاً بقول ابن الزبعري:

«لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل»

فهذا البكاء بكاء للدين ولله تعالى وهذه الدموع يتجلى فيها التقدير والشكر والثناء، ومن تتبع أدوار هذا البكاء الحسيني علم كيف يأخذ بالانسان فيجعله في واد كله صفاء وكله نور... ولا يسع المجال أن أنقل مقالاً ضافياً طالعته في مجلة الكلية التي تصدر ببيروت عن فوائد البكاء المادية وكيف يفيد العين وكيف يكون سبباً لقتل كثير من الجراثيم التي تصاب بها العين. ذلك لأن كل ما جاء في الشرع المحمدي من أعمال لها فوائد روحية تؤدي إلى كمال النفس الانسانية وفوائد مادية تفيد الحياة المادية والاجتماعية.

ثم أليس عظماء الدين كانوا غزيري الدمعة مع بسالتهم وشجاعتهم وقيامهم بأعمال خارقة. هذا علي عليه السلام، يصفه ضرار بن ضمرة قائلاً: «كان والله غزير الدمعة... إلى أن قال: لقد رأيته في بعض مواقفه وقد

أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، قابضاً على لحيته الشريفة يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين. . . الخ».

ليس البكاء على الفقيد ببدعة والأدلة على ذلك كثيرة: منها الأصل العملي يقتضي إباحة البكاء على الفقيد ورثاءه بالقريض وتلاوة مناقبه ومصائبه والجلوس حزناً عليه والانفاق عنه في وجوه البر.

ويستفاد من الأدلة اللفظية والسيرة القطعية والأصل العملي استحباب البكاء، إذا كان الفقيد مستجمعاً لصفات الفضل أو مضحياً نفسه في سبيل إحياء الفضيلة، كي يتأسى به الآخرون ويقتدي به الباقون فتنمو الفضيلة وتستأصل الرذيلة. ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بكى يوم أحد على عمه حمزة حتى قال ابن عبد البر في ترجمته: «لما رأى النبي (ص) حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق» (وذكر الواقدي أن النبي (ص) كان يومئذ إذا بكت صفية يبكي، وإذا نشجت ينشج قال: وجعلت فاطمة تبكي فلما بكت بكى رسول الله (ص).

وقد أخرج البخاري أن النبي (ص) بكى على جعفر وزيد وقال: «اخواي مؤنساي ومحدثاي». . . وقد بكى رسول الله (ص) يوم مات ولده إبراهيم كما في الجزء الأول من صحيح البخاري صفحة: ١٤٨. فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ قال: «يا بن عوف، أنها رحمة». ثم اتبعها (يعني عبرته) بأخرى. فقال: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وأنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون».

ومنها يوم ماتت إحدى بناته (ص) فجلس على قبرها كما في صحيح البخاري وعيناه تدمعان. ومنها يوم مات صبي لاحدى بناته إذ فاضت عيناه يومئذ ـ كما في صحيح البخاري وصحيح مسلم ـ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وقد ذكر ابن عبد البر في استيعابه ما لفظه: دخلت فاطمة وهي تبكي وتقول واعماه. فقال رسول الله (ص): «على مثل جعفر فلتبك البواكي».

وإن أهل المدينة الطيبة لا يزالون إلى الآن إذا ناحوا على ميت بدأوا بالنياحة على حمزة. وما ذاك إلا مواساة لرسول الله (ص) بمصيبته في عمه، وأداء لحق تلك الكلمة التي قالها في البعث على البكاء عليه وهو قوله (ص): «لكن حمزة لا بواكي له».

وأخرج ابن سعد كما في الفصل الثالث من الباب الحادي عشر من الصواعق المحرقة لابن حجر عن الشعبي قال: مر علي (عليه السلام) بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى نينوى فوقف وسأل عن اسم الأرض فقيل كربلاء. فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه. ثم قال عليه السلام: «دخلت على رسول الله (ص) وهو يبكي فقلت ما يبكيك (بأبي أنت وأمي)؟ قال: «كان عندي جبرائيل آنفاً، وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطىء الفرات بموضع يقال له كربلاء».

وأخرج الملا (كما في الصواعق أيضاً) أن علياً عليه السلام مر بموضع قبر الحسين (عليه السلام)، فقال: «ها هنا مناخ ركابهم وها هنا موضع رحالهم وها هنا مهراق دمائهم. فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض».

ومن حديث أم سلمة كما نص عليه ابن عبد ربه المالكي حيث ذكر مقتل الحسين عليه السلام في الجزء الثاني من العقد الفريد. قالت: «كان عندي النبي (ص) ومعي الحسين، فدنا من النبي (ص)، فأخذته، فبكى، فتركته فدنا منه، فأخذته فبكى، فتركته. فقال له جبرائيل أتحبه يا محمد؟ قال: نعم. قال: إن أمتك ستقتله وإن شئت أريتك الأرض التي يقتل بها فبكى النبي صلى الله عليه وآله وسلم».

فإلى تعظيم الشعائر وإلى إحياء وتقوية الدين بتخليد اسم من خلد الدين وأحياه وأعني به حسين الفضيلة وحسين الأباء أدعو اخواني المسلمين.

كيف نجلب الشباب إلى حظيرة الاسلام

كل منا يعلم أن الأكثرية الساحقة من شبابنا اليوم بعيدون عن الاسلام كل البعد، فهم بين مؤمن بمبادىء الاسلام غير مؤدٍ للفرائض ومنفلت عن الأخلاق الاسلامية إلا القليل وبين مستهزىء بالمقدسات والتعاليم الاسلامية وناظر إلى ما أوجبه الله من واجبات نظرة سخرية وازدراء وبين عدو للاسلام ومبادئه. كل ذلك، لأن الصهيونية والمسيحية والاستعمار قامت منذ مائتي سنة بأساليب شتى عن طريق التعليم وتأسيس نوادٍ للشباب وغيرها بانتزاع العقيدة الاسلامية عن الشباب وعرض الاسلام كمبدء بالٍ خرافي لا يماشي الترقي والتقدم، كمبدأ معارض لمفاهيم العصر والحضارة الغربية التي يجب أن تعتنق لمواكبة السير التقدمي بين الأمم وإلا فالموت والفناء!.

فقد خسرنا نتيجة جهود بذلها الغرب ٨٠٪ من شبابنا. وان العدد ليتفاقم يوماً بعد يوم. مع العلم أن الشباب طاقة لا يستهان بها بل هو الثقل الوزين الذي يجب أن يتحمل مسؤولية الاحتفاظ بالرسالة المحمدية ونشرها بين الأصقاع.

فما الذي يجب أن نقوم به لارجاع الشباب المخدوع إلى حظيرة الاسلام وإلى تفهم الاسلام كمبدأ يفي بجميع ما يحتاجه الانسان من دساتير لتكامله في جميع الحقول من اجتماعي واقتصادي وقضائي وعسكري وسياسي وعلمي وما يحتاجه من تعاليم لتحقيق آخرة سعيدة.

هذا ما يجب أن يفكر فيه المفكرون وأن يكون شغلهم الشاغل. لا شك أن النشرات الدينية تؤثر إلى حدٍّ ما في ردع الشباب عن غوايتهم وتحبيبهم الاسلام. ولكن قلّ من يحمله حب الاطلاع على اقتناء نشرات دينية ومطالعتها وان المجلات الخلاعية لا تدع مجالاً للتفكير في نواح أخرى تهذيبية.

ومن الواضح أن التدريس في المدارس من ابتدائية وثانوية وعالية لا يبتني على توحيد الله تبارك وتعالى وعزو كل نظام وقانون في هذا الكون إلى الله

المبدع الحكيم... بل تدور على الألسنة: أن الطبيعة هي التي صنعت كذا وجهزت بكذا وان الطبيعة عالجت وتداركت!... إلى ما هنالك. فينشأ الطالب بعيداً عن توحيد الله تبارك وتعالى في أرضه وسمائه، بعيداً عن تقديسه وعزو كل كمال إليه[1]... وقد يؤول أمره إلى الالحاد! لا سمح الله.

هذا هو الواقع المرير الذي نلمسه اليوم في شبابنا. فهل تكفي المواعظ فحسب ومن يرى الشباب حتى يَعظهم؟ وفي أي محل يعظهم؟ فهل هناك من مشوقات لاجتماعهم في محل خاص؟!.

فأساليب الدعوة إلى حظيرة الاسلام يجب أن تتطور حسب مقتضيات العصر. شريطة أن لا تتنافى مع ما قرره الشرع الشريف.

فلا بد أن ينبري الأثرياء من المسلمين مقدرين الوضع المبكي باذلين من نفوسهم ونفائسهم لتأسيس نوادٍ للشباب يرأسها من يعتمد عليه في دينه وتقواه وعلمه، فيطبق لتربية الشباب في أوقات فراغهم مناهج اسلامية رصينة.

إن هذه النوادي هي مدارس إسلامية تجذب الشباب اليها بأسلوب شيق، ففيها قاعة لالقاء المحاضرات، وفيها مصلى كبير لاقامة الفرائض، وفيها مكتبة اسلامية وفيها ساحات لرياضات بدنية وما يقوي الأجساد وهناك صفوف لإلقاء دروس في الدين والأخلاق وعلم التجويد والتفسير وتاريخ الاسلام. وهناك امتحانات تعين مقدار أهلية الشاب للقيام بالدعوة الاسلامية فهذه النوادي أو المدارس الاسلامية لها مناهجها وساعات للعمل وفعاليات شتى، وتعلّم في الوقت نفسه بعض الصنايع ليستعين بها المبشر بالدين الاسلامي: (الداعية) في بعض الأحيان وعند الضرورة.

إن في الشباب طاقات وقوى لا بد وأن تتوجه بصورة طبيعية لتبذل في ناحية من النواحي بشكل سلبي أو إيجابي، فعلينا أن نستغل هذه الطاقات وأن نستفيد منها لتربية الشاب تربية سليمة، تربية اسلامية رصينة، تربية فيها

---

(١) قد يصرف أحدهم عشرين سنة من العمر للوقوف على حياة النملة بالتفصيل. أفلا يجدر به أن يصرف شيئاً من العمر لمعرفة خالق النملة!.

مرغبات مشروعة ومشوقات يقرها الدين الاسلامي: جمال المحل، النظافة المتناهية، تلاوة القرآن بصوت رخيم، أخلاق فاضلة وتحابب وتواد أمر بهما الاسلام.

الشاب يريد أن يعمل، يريد أن ينتج، يريد الحركة والفعالية، فهذه النوادي تحقق رغبات الشباب وذلك بتقسيم واجبات وفعاليات شتى على الشباب المنتمين إلى هذه النوادي: من إدارة مكتبة أو تطبيق منهج أو إلقاء كلمة أو هداية شاب أو المساهمة فيما يقوي الجسم من رياضة بدنية وألعاب رياضية مشروعة أو القيام بأعمال تجارية لترتيب قاعة المحاضرات إلى ما هنالك من فعاليات لا تدع مجالاً لأن تصرف أوقات فراغ الشاب في ما يفسد دينه ودنياه.

وقد شاهدت في أستانبول قبل حوالي أربعين عاماً نادياً هاماً أسسه قس أمريكي يرتدي الألبسة العادية، إن هذا النادي كان ينتمي إلى جمعية الشبان المسيحيين(Y. M.C.A) . كنت ترى في هذا النادي ما يحقق راحة الشاب من مناضد وكراسي ووسائل للمطالعة وساحات للعب، وقد لاحظت أنه قد وضعت في القاعة الكبرى قطعة مكتوب عليها سورة الفاتحة من القرآن الكريم وبجنبها قطعة أخرى مكتوب عليها عبارات من الانجيل المتداول!.

وكانت تلقى محاضرات على الطلاب في كل أسبوع في أوقات معينة لتوجيههم إلى هدف معين، وكانت تقوم الجمعية في الصيف بأخذ الشبان إلى سواحل البحر ونصب الخيم لتدريبهم تحت مناهج معينة واستمالتهم نحو الهدف المنشود!.

يقول الأستاذ محمد مهدي الآصفي في كتابه: (من حديث الدعوة والدعاة):

دُعيت في طهران إلى الكنيسة الانجيلية من قبل الدكتور (جان آلدر) زعيم الحركة المسيحية في إيران لنتحدث عن شؤون الاسلام والمسيحية فأدهشني نشاط الحركة وتوسعها وقوتها وإيمان أصحابها بها واهتمام المسيحيين بتجهيزها وتمويلها. وأشجاني أكثر من أي شيء آخر: أنني رأيت ثلة من

الشباب المسلم المتنصر يعملون في تسيير هذه الحركة وتجهيزها. فكان ينادي أحدهم الآخر: مصطفى، محمد، حسن، علي، فسألت عن حالهم. فقالوا: «نحن من المسلمين المتنصرين، راقتنا الدعوة فاستجبنا لها». فسألتهم عما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن الاسلام، فكان الجواب بالنفي. وكانوا لا يحسنون قراءة شيء من القرآن. مع العلم أنهم كانوا يحفظون جملاً طويلة من العهد الجديد والعهد القديم من الكتاب المدعو بـ (المقدس).

يقول الأستاذ الأصفي: «تعتمد المسيحية في التبشير على الأساليب العاطفية أكثر من أي جانب آخر وتستغل العاطفة قبل أن تستغل العقل أو من غير أن تستغل العقل. فطقوس العبادة تجري في جو متكهرب بموسيقى عذبة وألحان شجية مثيرة والنشيد الديني يسبح على فضاء الكنيسة ممتزجاً بالأنغام الموسيقية في جو ممغطس ساحر. والنشيد حقل من حقول الشعر العاطفي الرقيق، يلعب بأفكار الحاضرين وعواطفهم، فتستتر عليهم منافذ العقل والتفكير. ثم هناك ضروب الاغراء والوعد الكاذب. فالمؤمن الخاطىء إذا اغتسل بماء التعميد واعترف للقسيس بكل شيء فقد وهب الله له ما تقدم من ذنبه، وما أدراك ما لمشهد التعميد من روعة وسحر».

مما لا شك فيه أن الغزو التبشيري كان يعتمد منذ أمد بعيد على فتح مدارس ابتدائية وثانوية وسلسلة من النشرات بورق جيد وطباعة أنيقة لمختلف الطبقات: للأطفال والشبان وغيرهم.

وأما التبشير المسيحي في أفريقيا فحدث عنه ولا حرج، فأنه يجري بمقياس واسع جداً، فهناك مبشرون يوفدون مع تعليمات خاصة للمستعمرات، وتفتح للأهلين معاهد للتدريس ثم يؤتى بمطبعة وتطبع فيها النشرات المسيحية، فإذا حاولت هذه المستعمرة أن تتحرر، رجع هؤلاء المبشرون وحل محلهم مبشرون آخرون من طراز آخر وتعليمات خاصة، فإذا تحرر البلد نهائياً واستقل استقلالاً تاماً حل محل هؤلاء القسيسين قسيسون آخرون وهكذا... ولكن الافريقيين يميلون مع كل ذلك إلى الاسلام أكثر من أي دين آخر ويدخل منهم في دين الاسلام أفواج وأفواج، لعلمهم أن الاسلام يأمر بالتحرر والاستقلال ويأبى الذل والاستعمار.

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1].

وقد قرأت في إحدى المجلات أن عدداً كبيراً من الشبان المسلمين في (وينه) عاصمة أطريش قد تقدموا بطلب إلى المراجع الدينية يرجون فيه أن يرسل اليهم عالم ديني يعلمهم مبادىء الدين القويم.

وقد تأسس مركز اسلامي في جنيف (Geneve) في سويسرا باسم (Islamic center) لنشر تعاليم الاسلام والاتصال بالجمعيات الاسلامية في أرجاء العالم.

وهناك جمعيات اسلامية مهمة تأسست في الهند تعمل لأجل نشر الاسلام في أنحاء العالم ولها نشرات بلغات شتى، وهناك نداءات تأتي من اليابان يطلبون بالحاح أن يرسل لهم دعاة يدعون الناس إلى الاسلام. وأما أفريقيا فخير بقعة لنشر الاسلام في الوقت الراهن فان عدد المسلمين يزداد في أفريقيا (٥٠٠ ٠٠٠) نسمة في كل سنة، وقد كان في بداية القرن العشرين (٤٠٠٠٠) مسلم في الكونغو واليوم عددهم (٢٣٦٠٠٠٠) وان (لومومبا) كان يميل إلى الاسلام، وكان يقول: «أني أتعجب أن المسيحيين كانوا يعلموننا في المدارس أن نحترم الأسس المسيحية وكانوا يقولون يجب أن يسود الحب والوئام بين أفراد البشر، ولكن المسيحيين أنفسهم كانوا يخالفون ما يقولون وكانوا يسحقون أسس المدنية والانسانية تحت أقدامهم وان التعليمات المدرسية تخالف مخالفة صريحة مع معاملتهم السود: الملونين». كما أن في أمريكا مجالاً واسعاً لتثبيت دعائم الاسلام.

فالاسلام دين الفطرة، دين العقل والمنطق، تتقبله النفوس بكل ارتياح، لذلك نراه ينتشر في استراليا من قبل جمالين، وذلك أن القاطنين في استراليا احتاجوا إلى وسائل النقل لبعد المدن بعضها عن بعض بمسافات شاسعة، وأرسل لهم من الأفغان عدد من الجمال مع أصحابها المسلمين، فنشر هؤلاء الجمالون الدين الاسلامي مع كونهم من عوام الناس في تلك الأصقاع، وبنى المسلمون هناك مساجد فخمة يتلى فيها كتاب الله وتقام فيها الصلوات فليعلم

---

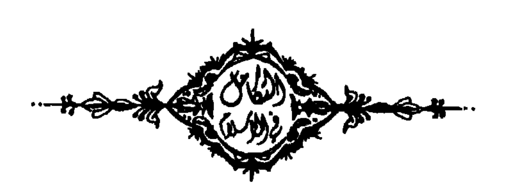
(١) سورة المنافقين: ٨.

شبابنا أن الغرب لا يزال متمسكاً بدينه، وهو يحارب الاسلام بشتى الوسائل، ففي أمريكا (٢١٢٠٠٠) داعية للتبشير بدين المسيح (ع)، وعشرات الألوف من الكنائس والأديرة والمؤسسات التبشيرية وما إلى ذلك من المعاهد والمستشفيات. والحكومة الأمريكية تبذل الدولارات في هذا السبيل، وللكنيسة سلطتها في أمريكا. ولقد ترجم الكتاب المقدس: (الانجيل) المتداول إلى ٦٣٠ لغة، وفي بعض الجامعات توضع صورة المسيح (ع) على شهادة التخرج.

فجدير بشبابنا أن لا تأخذهم في الله لومة لائم وأن يعملوا مجدين لنشر الاسلام في أصقاع الأرض، أينما حلوا، بعد دراسة الاسلام دراسة متقنة ودراسة القرآن الكريم دراسة وافية وعلم الحديث وشيء من الفقه. ففي ذلك نجاتهم ونجاة العالم مما تنتابه من ويلات ولهم بذلك عند الله أجر عظيم.

﴿ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين﴾[1].

* * *



(١) حم السجدة: ٣٣.

شهر الغفران

إن الله تبارك وتعالى لعلمه بما ستجنيه هذه النفس الأمارة بالسوء من الموبقات والمدنسات والخبائث، هيأ لها شتى الوسائل لتتوب إلى ربها وتكفّر عن سيئاتها وتحظى بغفران الله وجليل رحمته. ومن أهم تلك الوسائل المطهِّرة للنفس الانسانية من الدنس والرجس هو شهر رمضان المبارك بما فيه من امساك وتسبيح وتهليل وتحميد ومناجاة وتلاوة قرآن وصدقة وإطعام وكفّ النفس والجوارح عن الأذى وكل ما يؤدي إلى التسافل والتدنس. فالصوم نعم المربي وإن شهر رمضان المبارك شهر تربية وتزكية، شهر تهذيب وتثقيف دينيين. فكما أن بعض الأمم تخصص أسبوعاً لشؤون التربية فتسمي هذا الأسبوع أسبوع التربية أو أسبوع المعارف، كذلك فان الله تبارك وتعالى رحمة بعباده قد خصص شهراً للانابة والاستغفار وكفّ النفس عن مشتهياتها كي تكمل بالصبر والعزم على اقتحام الأذى. فان النفوس تقاس بدرجة تحملها النوائب وصبرها على المكاره. لذلك قد جاء في الحديث القدسي أن الله يقول: ﴿الصوم لي وأنا أجزي عليه﴾. وفي حديث آخر: «عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به». نعم ان الله يمتحن عباده بالصبر على البلاء والمكاره لأمرين، أولهما: أن البلايا والمكاره مهذِّبة للنفس آخذة إياها إلى أرفع مراتب الكمال، ثانيهما: ليكون الجزاء عن جدارة ولياقة. وهو القائل: ﴿وإن ليس للانسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾. ولا شيء أعلى مرتبة عند الله من الصبر. والصوم تمرين ورياضة على الصبر. فقد قال الله تعالى كما جاء في الحديث: «كل أعمال ابن آدم بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فانه لي وأنا أجزي به» فثواب الصبر مخزون عند الله والصبر هو الصوم وقد روي في قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر» أي بالصيام. ولما كان الصوم في الحر أشد لذلك جاء عن الصادق عليه السلام: «مَن صام يوماً في الحر فأصابه ظمأ وكل الله عز وجل به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشرونه حتى يفطر وقال الله عز وجل: ما أطيب ريحك وروحك، ملائكتي اشهدوا أني قد غفرت له».

ومن كلام رسول الله (ص): الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر. وإنما سمي هذا الشهر بشهر رمضان، لأنه يرمض الذنوب (أي يحرقها) كما جاء في الحديث. وفي الاقبال عن كتاب الجعفريات عن الكاظم عن الصادق عن زين العابدين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: لا تقولوا رمضان، فانكم لا تدرون ما رمضان، فمن قاله فليتصدق وليصم كفارة لقوله، ولكن قولوا كما قال الله تعالى: شهر رمضان. كل ذلك تنويهاً بعظمة هذا الشهر حتى سماه الله تعالى باسمه. ولكن قد ورد في بعض الأخبار لفظ رمضان مجرداً عن لفظ الشهر ولذلك حمل على الكراهة.

الصوم زكاة الأبدان ومطهر إياها من الخبائث. فقد جاء في الحديث: ان لكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام. وما أعظم الخطاب الذي خطب به رسول الله (ص) الناس قبيل شهر رمضان المبارك، فإنه مستجمع لجميع الخصال التي يكون بها الانسان انساناً كاملاً، انه خلاصة جميع الفضائل ودستور جامع لجميع الكمالات. فأين هذا البشر المادي المسكين من التمسك بهذه الفضائل وتتبع هذه المكرمات، ليست الوسائط المادية من النفس الانسانية وكمالها في شيء. ولا أعلم ماذا ينتظر البشر بعد هذا الدستور الالهي. فلا دستور بعد دستور محمد (ص) وهل يجدون معشار ما في هذا الحديث النبوي من دساتير تكامل البشر في نظريات: دكارت أو اسبينوزا أو مالبرانش أو بركسون(Bergson) أو اسبنسر أو روسو.

فقد روى الصدوق في الأمالي بسنده عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي عليهم السلام عن النبي (ص) أنه خطب الناس ذات يوم فقال: «أيها الناس، إنه قد أقبل اليكم شهر الله تعالى بالبركة والرحمة والمغفرة. شهر هو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات. وهو شهر قد دعيتم فيه إلى ضيافة الله وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب. فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة ان يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فان الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم. واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه. وتصدقوا على فقرائكم

ومساكينكم، ووقروا كبـاركم وارحموا صغـاركم وصلوا أرحامكم واحفـظوا ألسنتكم وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم وعما لا يحل إليه الاستماع أسماعكم وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه ايديكم بالدعـاء في أوقات صلواتكم، فـانها أفضل الساعات، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده ويجيبهم إذا ناجوه ويلبيهم إذا نادوه. ويستجيب لهم إذا دعوه».

«أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم، فخففوا عنها بطول سجودكم، واعلموا أن الله جل ذكره أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين».

أيها الناس من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه، فقيل يا رسول الله وليس كلنا يقدر على ذلك؟ فقال (ص): اتقوا النار ولو بشق تمرة. اتقوا النار ولو بشربة من ماء».

أيها الناس، من حسن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جواز على الصراط يوم تزل فيه الأقدام. ومن خفف فيه منكم عما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه ومن كفَّ فيه شره كف الله غضبه عنه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه. ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه. ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار، ومن أدى فيه فرضاً كان له ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور. ومن أكثر فيه من الصلاة عليَّ ثقل الله ميزانه يوم تخف الموازين. ومن تلا فيه آية من القرآن كان له أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور».

«أيها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة، فاسألوا الله ربكم أن لا يُغلقها عنكم، وأبواب النيران مغلقة، فاسألوا الله ربكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة، فاسألوا الله ربكم أن لا يسلطها عليكم».

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت وقلت يا رسول الله، ما أفضل

الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر. الورع عن محارم الله عز وجل. ثم بكى. فقلت يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال: يا علي، لما يُستحل منك في هذا الشهر. كأني بك، أنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود، فيضربك ضربة على قرنك تخضب بها لحيتك، قال أمير المؤمنين عليه السلام، فقلت: يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني؟ فقال (ص): في سلامة من دينك. ثم قال: يا علي، من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني، لأنك مني كنفسي وطينتك من طينتي... إلى آخر الحديث.



ساعات هذا الشهر المبارك

قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أول خطبته المشهورة: «أيها الناس، إنه قد أقبل إليكم شهر الله تعالى بالبركة والرحمة والمغفرة». حقاً، إن هذا الشهر شهر الرحمة وشهر المغفرة. فقد جاء في الاقبال بسنده عن أبي عبد الله (ع)، قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان غفر الله لمن شاء من الخلق، فإذا كانت الليلة التي تليها ضاعفهم، فإذا كانت الليلة التي تليها ضاعف كلما اعتق إلى آخر ليلة في شهر رمضان يضاعف مثل ما اعتق في كل ليلة». وبسنده عن سعيد بن جبير، سألت ابن عباس: ما لمن صام شهر رمضان وعرف حقَّه؟ قال: تهيأ يا ابن جبير حتى أحدثك بما لم تسمع أذناك ولم يمر على قلبك. . . (إلى أن قال) سمعت رسول الله (ص) يقول: «لو علمتم ما لكم في شهر رمضان لزدتم لله شكراً. إذا كان أول ليلة منه غفر الله لأمتي الذنوب كلها سرها وعلانيتها. ورفع لكم ألفي درجة وبنى لكم خمسين مدينة، ثم ذكر لكل يوم من أيامه فضلاً عظيماً، (إلى أن قال): فإذا تمّ ثلاثون يوماً كتب الله عز وجل لكم بكل يوم مر عليكم ثواب ألف شهيد وألف صديق وكتب الله عز وجل لكم عبادة خمسين سنة وكتب الله لكم بكل يوم صوم ألفي يوم ورفع لكم بعدد ما أنبت النيل درجات وكتب الله عز وجل لكم براءة من النار وجوازاً على الصراط وأماناً من العذاب. وللجنة باب يقال له الريَّان، لا يفتح إلى يوم القيامة. ثم يفتح للصائمين والصائمات من أمة محمد (ص). ثم ينادي رضوان خازن الجنة: يا أمة محمد، هلموا إلى الريان. فتدخل أمتي من ذلك الباب. فمن لم يغفر له في شهر رمضان ففي أي شهر يُغفر له». وفي حديث آخر: «إن لله ملائكة موكلين بالصائمين يستغفرون لهم في كل يوم من شهر رمضان إلى آخره وينادون الصائمين كل ليلة عند إفطارهم: ابشروا عباد الله، فقد جعتم قليلاً وستشبعون كثيراً. بوركتم

وبورك فيكم. حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان: ناداهم أبشروا عباد الله، فقد غفر الله لكم ذنوبكم وقبل توبتكم، فانظروا كيف تكونون فيما تستأنفون».

كيف لا يكون كذلك، وإن الصائم يعتزم ترك النميمة والغيبة والفحش والسباب وأكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله ورسوله والنظر إلى ما حرم الله والجدل والمراء والخمر والميسر والربا وكل ما حرم الله ورسوله صلى الله عليه وآله. فانه بتركه هذه الموبقات يوشك أن تحصل له طبيعة ثانية طاهرة وأن يصبح انساناً كاملاً سوياً مقرباً إلى الله وموضعاً لرحمته وجزيل سيبه.

كم رأينا أناساً قد توغلوا في الشهوات والمدنسات، فتطهروا عنها بفضل شهر رمضان المبارك، فأنه كما قال رسول الله (ص) في خطبته المشهورة «أيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات». وذلك لأن الانسان يشعر وهو صائم أنه يتقرب إلى ربه في كل لحظة وهو يذكر الله في كل آن، فكلما عطش أو جاع تذكر أنه يطيع الله ويمتثل أوامره بتحمله هذا العطش وذلك الجوع، فيتوجه بكلّه إلى خالقه وتقوى هذه الرابطة بين العبد والمعبود. وإن النفس الانسانية لتتطهر بدرجة قوة هذه الرابطة.

ما أحلى الصوم، فانه ذكر عملي لله تعالى، ويلي هذا التذكر ما يقوم به الصائم من أعمال خيرية مؤكدة في هذا الشهر: أدعية خاصة بالنهار دعاء عند الافطار وغسل في ليالي الافراد وأدعية بعد الافطار وصلوات مستحبة في كل ليلة وتلاوة القرآن وحضور مجالس الوعظ والارشاد والقيام بصلاة الليل عند السحر ومناجاة الله تعالى في الأسحار وقراءة أدعية السحر.

حقاً، إن هذه الأعمال توصل الانسان إلى يقين كامل وإلى اطمئنان نفسي يكون العبد فيه كأنه يرى الله تعالى ويناجيه.

ما احلى الاستغفار والبكاء من خوف الباري عند السحر. وهو القائل: ﴿وبالاسحار هم يستغفرون﴾.

أتذكر تلك الساعات الثمينة التي كنت أقضيها في حرم مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. فقد كنت أرى بجنبي رجالاً مؤمنين غمرهم

حب إلهي، يقرؤون دعاء أبي حمزة الثمالي المروي عن زين العابدين علي بن الحسين (ع)، وهم يبكون بكاء الثكلى. تنهمل دموعهم على خدودهم خوفاً من الله تعالى وشوقاً إليه. وقد تمنعهم هذه الدموع المملوءة بفرح عظيم الاستمرار في القراءة. قد علاهم من الخشوع والخضوع والخلوّ بالله تعالى حالة لا يشعر بها إلا ذو حظ عظيم.

وها إني أذكر من هذا الدعاء بعض فقراته، ليعلم هذا الانسان المادي أنه لم يُخلق للدنيا فحسب، وإنما خلق لحياة خالدة، لـ (جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين). فـ «الدنيا مزرعة الآخرة».

يقول زين العابدين (ع) في دعائه: «إلهي لا تؤدبني بعقوبتك، ولا تمكر بي في حيلتك، من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تُستطاع إلا بك... (إلى أن يقول): الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسري، بغير شفيع فيقضي لي حاجتي... (إلى أن يقول): معرفتي يا مولاي دلتني عليك، وحبي لك شفيعي اليك، وإني واثق من دليلي بدلالتك، وساكن من شفيعي إلى شفاعتك، أدعوك يا سيدي بلسان قد أخرسه ذنبه، ربِّ، أناجيك بقلب قد أوبقه جُرمه... (إلى أن يقول): وما أنا يا رب وما خاطري، هبني بفضلك وتصدق علي بعفوك، أي ربِّ جللني بسترك واعف عن توبيخي بكرم وجهك... (إلى أن يقول): فوعزتك يا سيدي، لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملقك لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك... (إلى أن يقول): سيدي لعلك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيتني أو لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني، أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني من الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني... (إلى أن يقول): وأعني بالبكاء على نفسي، فقد أفنيت بالتسويف والآمال عُمري. وقد نزلت منزلة الآيسين من خيري، فمن يكون أسوأ حالاً مني إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبرٍ لم أمهده لرقدتي ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي. وما لي

لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري. وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلني وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت. فما لي لا أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكر ونكير إياي، أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري: أنظر مرة عن يميني وأخرى عن شمالي، إذ الخلائق في شأنٍ غير شأني... (إلى أن يقول) إلهي، إن عفوت فمن أولى منك بالعفو، وإن عذبت فمن أعدل منك في الحكم. إرحم في هذه الدنيا غربتي، وفي اللحد وحشتي، وإذا نُشرت للحساب بين يديك ذلّ موقفي، واغفر لي ما خفي على الآدميين من عملي، وأدم لي ما به سترتني. وارحمني صريعاً على الفراش تقلبني أيدي أحبتي وتفضّل عليَّ ممدوداً على المغتسل يُغسلني صالح جيرتي وتحنّن عليّ محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي وجُد عليّ منقولاً قد نزلت بك وحيداً في حفرتي، وارحم في ذلك البيت الجديد غربتي، حتى لا أستأنس بغيرك يا سيدي».



شهادة المثل الكامل علي (ع)

يفارق علي عليه السلام الدنيا الفانية في مثل هذا اليوم[1] بعد أن ألقى على الأمة الاسلامية دروسا خالدة ما بعدها دروس: دروساً فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة، فيها راحة الفرد وراحة المجتمع، فيها طمأنينة النفس وراحة الضمير، فيها الوصول إلى الحق والزلفى إلى الله تعالى، فيها غنى الفقير وفلاح الغنيّ، فيها العدل الاجتماعي المطلق وكل ما يؤدي بالفرد والمجتمع إلى ذروة الكمال.

ولكن البشر لسوء سريرته وفساد باطنه وتغلب الهوى والأطماع لم يكن جديراً ليستفيد من هذه الدروس. بل أراد البعض في كل فرصة إخماد قبسات هذا النور اللامع حتى ضرب عليه السلام بسيف ابن ملجم المرادي فجر اليوم التاسع عشر من هذا الشهر المبارك وهو في محرابه يناجي ربه.

وقد أخبر بذلك رسول الله (ص) في آخر خطبته المشهورة التي خطب بها الناس قبيل شهر رمضان المبارك، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت وقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر: الورع عن محارم الله عز وجل. ثم بكى. فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال: يا علي، أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك، فخضب منها لحيتك. قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت يا رسول الله، وذلك في سلامة من ديني؟ فقال: في سلامة من دينك. ثم قال: يا علي، من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن سبك فقد سبني. لأنك مني كنفسي وروحك من روحي وطينتك من طينتي. . . » إلى آخر الحديث.

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الـ (٢١) من شهر رمضان المبارك.

وقد روى النسائي في الخصائص بسنده عن عمار بن ياسر في حديث: قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة، إلى أن قال: قال رسول الله (ص): ألا أحدثكما بأشقى الناس: رجلين، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى يُبل منها هذه وأخذ بلحيته.

وقد قدم على علي وفد من أهل البصرة، فيهم رجل من الخوارج. يقال له الجعد بن نعجة، فقال اتق الله يا علي، فأنك ميت. فقال علي: «ولكني مقتول بضربة على هذا تخضب هذه ـ وأشار إلى رأسه ولحيته بيده ـ قضاء مقضي وعهد معهود وقد خاب من افترى». ثم عاب علياً في لباسه. فقال: «لو لبست لباساً خيراً من هذا؟» فقال: «إن لباسي هذا أبعد لي من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلمون».

وكان علي (ع) في الشهر الذي استشهد فيه يفطر ليلة عند الحسن (ع) وليلة عند الحسين (ع) وليلة عند ابن جعفر، لا يزيد على ثلاث لقم ويقول: «أحبُ أن يأتيني أمر الله وأنا خميص». كيف لا يكون كذلك وهو القائل: «هيهات هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأقنع، من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر وجشوبة العيش؟ وأيم الله يميناً، استثنى فيها بمشيئة الله لأروضنّ نفسي رياضة تهش معها إلى القرص مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً».

نعم، إنه صلوات الله عليه كان أزهد الناس، لم يشبع من طعام قط، وكان يلبس الخشن ويأكل جريش الشعير. فإذا ائتدم فبالملح، فإن ترقى فبنبات الأرض.

روى عن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي عليه السلام، فوجدته جالساً وبين يديه إناء فيه لبن، أجد ريح حموضته وفي يده رغيف، أرى قشار الشعير في وجهه وهو يكسره بيده ويطرحه فيه. فقال: «أدنُ فأصب من طعامنا». فقلت: إني صائم. فقال (ع): «سمعت رسول الله صلى الله عليه

وآله يقول: من منعه الصيام من طعام يشتهيه، كان حقاً على الله تعالى أن يطعمه من طعام الجنة ويسقيه من شرابها». قال: فقلت لفضة ـ وهي تقرب منه قائمة ـ ويحكِ يا فضة، ألا تتقين الله في هذا الشيخ، ألا تنخلين هذا الطعام من النخالة التي فيه؟ قالت: تقدم الينا أن لا ننخل له طعاماً.

وكان عليه السلام يجعل جريش الشعير في وعاء ويختم عليه. فقيل له في ذلك. فقال (ع): «أخاف هذين الولدين أن يجعلا فيه شيئاً من زيت أو سمن».

وإن علياً (ع) قد سهر تلك الليلة التي ضُرب فيها واكثر الخروج والنظر إلى السماء، وهو يقول: والله، ما كَذبت ولا كُذبت، وإنها الليلة التي وعِدت فيها، ثم يعاود مضجعه. فلما طلع الفجر، شد إزاره وخرج وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

ذلك لأن أولياء الله مع علمهم بما سيكون لا يعلمون إلا حسب الأمور العادية. «ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيٍّ عن بينة».

يخرج علي (ع)، فجر اليوم التاسع عشر من هذا الشهر المبارك إلى المسجد لصلاة الفجر وينادي الصلاة الصلاة، فيضربه ابن ملجم على رأسه وهو ساجد فلما أحس (ع) بالضربة، لم يتأوه وصبر واحتسب ووقع على وجهه، قائلاً: «بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله. هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله، ثم صاح وقال: قتلني ابن ملجم، قتلني اللعين ابن اليهودية، فزت ورب الكعبة».

وإنما قال: فزت ورب الكعبة، لأن رسول الله (ص) قد أخبره: أنه سيضرب هذه الضربة وهو في سلامة من دينه، فكانت هذه الضربة علامة ختام أعماله الجبارة في سلامة من دينه صلوات الله عليه، وهذا درس عملي للناس أجمعين في أن يبذلوا أقصى جهودهم لتنتهي أعمالهم مع حسن العاقبة وفي سلامة من دينهم. فقد يزعم الانسان أنه صالح فتنتهي أعماله مع سوء العاقبة، وقد يتهم نفسه أنه غير صالح، فتنتهي أعماله مع حسن العاقبة،

ونستعيذ بالله من الاغترار بأعمالنا والركون اليها ونرجو منه التوفيق وحسن العاقبة.

نعم، إن هذا الانسان يقول حين يرى ما يرى من آثار الموت وهول المطلع وعذاب البرزخ والحساب الدقيق والعقاب الشديد: ﴿ربِّ أرجعونِ لعّلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾[1]. ﴿إذ تبرّأ للذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرةً فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار﴾[2]. وفي مكان آخر: ﴿وما أضلنا إلا المجرمون، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾[3]. وفي مكان آخر: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب وأنتم لا تشعرون، أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرَّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾[4] وفي مكان آخر: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾[5].

وروى الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في أماليه بسنده إلى الأصبغ بن نباتة، قال: لما ضرب ابن ملجم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). غدونا عليه نفرٌ من أصحابنا: أنا والحارث وسويد بن غفلة وجماعة معنا، فقعدنا على الباب، فسمعنا البكاء من الدار. فبكينا. فخرج الينا الحسن بن علي عليهما السلام، فقال: يقول لكم أمير المؤمنين انصرفوا إلى منازلكم. فانصرف القوم غيري واشتد البكاء في منزله، فبكيت. فخرج الحسن. فقال: ألم أقل لكم انصرفوا؟ فقلت: لا والله، يا بن رسول الله، ما

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠٠

(٢) سورة البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) سورة الشعراء: ٩٩ ـ ١٠٢

(٤) سورة الزمر: ٥٥ ـ ٥٩.

(٥) سورة الشورى: ٤٤.

تتابعني نفسي ولا تحملني رجلاي أن أنصرف حتى أرى أمير المؤمنين. وبكيت. فدخل الدار ولم يلبث أن خرج فقال لي: ادخل. فدخلت على أمير المؤمنين عليه السلام. فإذا هو مستند، معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمه واصفر وجهه، فما أدري وجهه أشد صفرة أم العمامة، فأكببت عليه، فقبلته وبكيت. فقال لي: «لا تبك يا أصبغ، فانها، والله، الجنة». فقلت له: جعلت فداك. أني أعلم والله أنك تصير إلى الجنة، وإنما أبكي لفقداني إياك، يا أمير المؤمنين.

نعم، يقول علي لأم كلثوم وهي تبكي: «أسكتي، فلو ترين ما أرى لما بكيت، هذه الملائكة وفود والنبيون، وهذا محمد (ص) يقول: يا علي، أبشر، فما تصير إليه خير مما أنت فيه».

ثم إنه صلوات الله عليه يوصي لابن ملجم، فيقول: «أبصروا ضاربي أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، النفس بالنفس، إن هلكت، فاقتلوه كما قتلني. وإن بقيت رأيت فيه رأيي».

ثم تزايد ولوج السم في جسده الشريف حتى احمرت قدماه وامتنع عن الأكل والشرب وشفتاه تختلجان بذكر الله وجبينه يرشح عرقاً وهو يمسحه فقال له ابن الحنفية: أراك تمسح جبينك؟ فقال: «يا بني» اني سمعت رسول الله (ص) يقول: «إن المؤمن إذا نزل به الموت عرق جبينه وسكن أنينه». ثم نادى أولاده كلهم بأسمائهم صغيراً وكبيراً وجعل يودعهم ويقول: «الله خليفتي عليكم، أستودعكم الله».

وهكذا يفارق الدنيا هذا الامام العظيم الذي لن يأتي الدهر بمثله أبداً، وهكذا تنتهي حياته الشريفة التي ملؤها الفضائل ومكرمات وكرامات ومعجزات وبطولات وبلاغة وزهد وورع وتقوى إلى حد بعيد لن يصل إليها البشر العادي.

إن أكرمكم عند الله اتقاكم

إن الله تبارك وتعالى وهو الكامل على الاطلاق لا يريد بالناس بل بما خلق- إلا الكمال. ذلك لأن الكامل لا يترشح منه إلا الكمال. ألا نرى ما أودع الله تعالى من سنن الكمال في الجماد والنبات والحشرات والهوام والحيوان في تشكيلاتها الداخلية وفي وسائل الدفاع لتحقيق وسائل العيش والحياة.

فهذه المعادلات الفيزيائية والخواص الكيميائية ودساتير الفلك والميكانيك السماوي والأرضي وما أودع الله من خواص وقابليات ومعادلات ودساتير في الذرة: كلها تشير إلى الكمال الذي أودعه الله هذا الكون الرحيب، وكذلك ارتباط بعضها ببعض، وذلك بقوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم أرجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1].

فجميع العوالم من مادية ونباتية وحيوانية تنادي بهذا الكمال الذي أودعه الله فيها. فكيف يسوغ للانسان وهو، على ما يزعم أشرف المخلوقات، أن يستثنى من ذلك، وأن يخالف سنة الله تعالى في مخلوقاته: أن يفجر ويفسق، أن يبطش ويزني، أن يرابي ويغتاب، أن يقطع الرحم ويأكل الحرام، أن ينكر نعم الله تعالى عليه وهي التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار﴾[2]. . . فلا يصلي لاداء واجب الشكر، ولا يصوم كذلك، ولا يزكي ولا يخمس ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، فيرجع إلى جاهلية جهلاء، يعيش كالبهائم والأنعام بل أضل سبيلاً، فيكون راجعاً أو (رجعياً) نحو البهيمية والجاهلية بكل ما في الرجعية من معنى صحيح. وهذا ما يتنافى وسنة الكمال الآلهية التي نشاهد مظاهرها وآثارها في العالم أجمع.

---

(١) سورة الملك: ٣ - ٤.

(٢) سورة ابراهيم (ع): ٣٤.

إذن، يحكم العقل الفطري الذي لم يلوث بفسق وفجور ورقص وخمور، أن المقياس الذي يجب أن يفاضل به بين انسان وإنسان، إنما هو الشيء الذي يؤدي إلى كماله وإلى تحقيق سنة الله في أرضه: ألا وهو التقوى. ذلك لأن التقوى هي تلك الحالة التي بها تزكو النفس من أدرانها وأوساخها، فتسير بدرجة تطهرها نحو الكمال المنشود. لذلك سنّ الله تعالى قانوناً للمفاضلة وجعل التقوى الأساس الذي تُبتنى عليه المفاضلة بين خلقه، ولم يقل: إن أكرمكم عند الله أعلمكم أو أثراكم أو أكثركم جسامة أو أعلاكم نفوذاً أو أحسنكم وجهاً. ذلك لأن من العلماء الماديين من هم في الدرجات الواطئة من التكامل النفسي كما نرى ذلك في الغرب. وإن من الفلاسفة والرياضيين والكيمياويين والاجتماعيين من هم ملاحدة وفي الدرجة السفلى من المراتب الأخلاقية. ومنهم إباحيون يستسيغون كل محرم ولا يتناهون عن منكر فعلوه، مدّلهمة نفوسهم، مظلمة أرواحهم، متحجرة قلوبهم. سلبوا العاطفة وعدموا الفضيلة. فليس هؤلاء الذين خالفوا التقوى بقادة، بل هم في الدرك الأسفل من مراتب التسافل. ولذلك كله لم يختر الله تعالى أنبياءه وأوصياء أنبيائه إلا من عباده الذين اتخذوا التقوى شعاراً والفضيلة دثاراً. وإن أعلاهم شأناً في مراتب التقوى إنما هو خاتم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. إذ يقول فيه ربنا تبارك وتعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

ثم إن الله تبارك وتعالى يصف أهل التقوى بقوله: ﴿إن المتقين في جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق، للسائل والمحروم. وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

فعرَّف الله تعالى التقوى: أنها ملازمة ذكر الله تعالى ليلاً ونهاراً ومراقبة هذه النفس الأمارة بالسوء وإطعام الفقراء والمساكين.

وكان رسول الله (ص) والأئمة من بعده سلام الله عليهم أجمعين ملازمين

---

(١) سورة الذاريات: ١٥ ـ ٢١.

العبادة والإيثار والخشـوع والخضوع والقيـام بحوائـج الناس[1] مـلازمة لا يضاهيهم فيها أحد، ممحضين في عبادته تعالى بجميع ما في العبادة من معنى سامٍ رفيع. فهم حقاً قادة البشر أجمع. إذ هم بكمالهم النفسي يوجهون النفوس البشرية نحو الكمال المنشود. ومن سواهم لا يقوى على ذلك، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

لنستمع إلى كلام علي عليه السلام في هذا المقام:

«إعلموا عباد الله، أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه. ألا وبالتقوى تقطع حمة[2] الخطايا وباليقين تدرك الغاية القصوى».

«عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم، وأحبها اليكم» إلى أن يقول: «عباد الله، أنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا فيما نهى عنه من الشر من مرغب. عباد الله، احذروا يوماً تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال وتشيب فيه الأطفال».

أنظروا كيف يؤدب الامام محمد الباقر عليه السـلام شيعته ويـأمرهم بالتقوى ويحذّرهم مخالفة أمر الله تعالى:

فقد جاء في أصول الكافي عن جابر بن يزيد الجعفي عن الباقر عليه السلام أنه قال:

«يا جابر، أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بمحبتنا أهل البيت. فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون، يا جابر، إلا بالتواضع والتخشع والأمانة والإنابة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالـدين

---

(١) قال الامام الكاظم (ع): «ان لله عرشاً لا يسكن تحت ظله إلا من أسدى لأخيه معروفاً، أو نفس عنه كربه، أو قضى له حاجة، أو أدخل إلى قلبه سروراً» وقال الامام زين العابدين (ع): «من قضى لأخيه حاجة فبحاجة الله بدأ».

(٢) الحمة، بضم ففتح: في الأصل: إبرة الزنبور والعقرب ونحوها تلسع بها والمراد هنا: سطوة الخطايا على النفس.

والتعاهد للجيران -من الفقراء وأهل المسكنة والغـارمين[1] وصـدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلا من خير وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء».

فقال جابر: قلت يا ابن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الأوصاف.

فقال عليه السلام: «يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب»: حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه. فوالله، لو قال أني أحب رسول الله (ص) فرسول الله خير من علي صلى الله عليهما وآلهما ولا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه شيئاً. ليس بين الله وبين أحد قرابة إلا بالتقوى!».

هذا دستور الكمال الانساني، دستور ما بعده دستور. دستور لا يقوى على عرضه من تربّى في أحضان المادية الهوجاء، دستور يتحقق بتطبيقه ما يريده الله لمخلوقاته في أرضه من كمال. دستور يتجلى في تطبيقه كمال لهذا الانسان يضاهي ما شاهد من كمال في بطن الذرة وفي السماوات العلى، في المجرات والسُّدم وفي مسافات تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، في مسافات شاسعة جداً محيرة للألباب.

حاش لله، أن يخلق كل ما خلق في غاية الكمال ويدع الانسان ليفسد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾[2] فلا بد لهذا الانسان من كمال على لسان أنبيائه وأوصياء أنبيائه عليهم السلام: كمال النفس ليس من المادة في شيء، كمال تتجلى فيه راحة الضمير ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[3] وارتياح، نفسي إلى أبعد الحدود، وتقرب إلى الحق المتعال، ومراقبة لأعمال النفس مراقبة شديدة. فيكون هذا المتكامل مصداق قول علي عليه أفضل الصلاة والسلام:

«فمن علامة أحدهم: أنك ترى له قوة في دين، وجزماً في لين، وإيماناً

---

(١) الغارمين: أهل الدين: المدينون.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٣) سورة الرعد: ٣٠.

في يقين. وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى[1]، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة[2] وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع[3]. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يبيت حذراً، ويصبح فرحاً. حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يُعطيها سؤالها فيما تحب»... (إلى أن يقول...): «يمزج الحلم بالعلم، والقول بالفعل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون»... (إلى أن يقول): «يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه. بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره. في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور». (إلى أن يقول: «نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه».

أنظروا إلى ما يقوله علي عليه السلام عن صفات المؤمن الحقيقية، ذلك الذي يجمع بين الجهاد والدعوة إلى الاسلام وبين العباد والخضوع لله المتعال.

أنه (ع) يقول:

«أين القوم الذين دعوا إلى الاسلام فقبلوه[4]، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا للقتال فولهوا وله اللقاح[5] إلى أولادها وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً. بعض هلك وبعض نجا. لا

---

(١) قصداً أي: اقتصاداً.

(٢) التجمل: التظاهر باليسر عند الفاقة: أي الفقر.

(٣) أي تباعداً عن طمع.

(٤) من نهج البلاغة. الجزء الأول ص: ٢٣٤.

(٥) اللقاح: جمع لقوح، وهي الناقة. و«ولهها إلى أولادها» فزعها اليها إذا فارقتها.

يبشرون بالأحياء[1] ولا يعزون بالموتى، مره[2] العيون من البكاء خمص البطون من الصيام[3]، ذبل الشفاه من الدعاء[4]، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون، فحقّ لنا أن نظمأ اليهم، ونعض الأيدي على فراقهم».

فهؤلاء الذين وصفهم علي عليه السلام، قد جسموا التقوى خير تجسيم وهم الكرماء على الله وهم أتقى الناس ومصداق هذه الآية المباركة: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[5].

فطوبى لمن طبق هذه الدساتير التي تتلألأ نوراً وبهاءاً، كي يتلألأ نوراً وكمالاً. وطوبى لمن فكر في عقابه كما يفكر لدنياه ولم يكن من الغافلين. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

«طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها[6] وعركت بجنبها بؤسها[7] وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى[8] عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿أولئك حزب الله، ألا ان حزب الله هم المفلحون﴾ .

---

(١) إذا قيل لهم: نجا فلان فبقى حياً لا يفرحون. لأن أفضل الحياة عندهم الموت في سبيل الحق. ولا يحزنون إذا قيل لهم: مات فلان، فان الموت عندهم حياة السعادة الأبدية.

(٢) مره ـ بضم فسكون ـ جمع أمره، من «مرهت عينه» إذا فسدت، أو ابيضت حماليقها.

(٣) خمص البطون: ضوامرها.

(٤) ذبلت شفته: جفت ويبست لذهاب الريق.

(٥) سورة الحجرات: ١٣.

(٦) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٧) عركه بالجنب: أي صبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه.

(٨) الكرى: النوم.

وأختم هذا الجزء بآية هي: دستور الكمال الانساني وغاية وجوده في هذا الكون:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾[1].

إنتهى الجزء الرابع من هذا الكتاب، والحمد لله، ويليه الجزءالخامس، إن شاء الله تعالى...

* * *



(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

فهرس الجزء الرابع

الموضوع	الصفحة

التكامل في الإسلام

بقلم
أحمد أمين
خريج كلية التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيات العامة والفيزياء الرياضية العالية

الجزء الخامس

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام يصف فيه المتقين والكمال الانساني:

«فالمتقون فيها هم أهل الفضائل. منطقهم الصواب وملبَسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع، غضُّوا أبصارهم عما حرَّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نُزِّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعَّمون. وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذَّبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قليلة، أعقبتهم راحةً طويلة. تجارة مُربحة يسَّرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففَدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافُّون أقَدامهم، تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلا (إلى أن يقول): وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء. قد براهم الخوف بري القِداح، (إلى أن يقول) فمن علامة أحدهم: أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين، وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمُّلاً في فاقة وصبراً في شدة وطلباً في حلال ونشاطاً في هدى وتحرجاً عن طمع. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل. يُمسي وهمه الشكر ويُصبح وهمه الذكر. (إلى أن يقول) تراه قريباً أمله قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعةً نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه. الخير منه مأمول والشر منه مأمون».

من حقائق القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

«والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»[1]

في القرآن الكريم سبعمائة وخمسون آية كونية، تدل على عصارة ما توصل إليه العلم الحديث وما سيصل إليه في المستقبل. فقد قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - : «إن في القرآن معانٍ سيكشفها الزمن». ومن جملة تلك الآيات الباهرات، الآية الثامنة والثلاثون من سورة يس: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

فقد اختلف العلماء قبل ميلاد المسيح (ع) بقرون، إلى قبل حوالي ٥٠ عاماً، في أن: هل للشمس حركة أم لا؟.

فقد ذهب العلماء في اليونان قبل الميلاد إلى أن الأرض مركز العالم، وبما أن أكمل الأشكال حسب زعمهم هو الكرة، إذن يجب أن يكون شكل الأرض كروياً، وان الشمس تدور حول الأرض على شكل دائرة، ذلك لأن الدائرة في نظرهم أكمل الأشكال الهندسية.

لم يكن العلم قبل الميلاد وبعده إلى القرون الوسطى مستنداً على التجربة والاستقراء والاستنتاج، وإنما حجتهم فيما يدعون: نظرية الكمال، دون تحقيق تجريبي، مستندين في ذلك إلى قول العالم الكبير عندهم، أي

(١) سورة ياسين: ٣٨.

كانت حجتهم قول عالمهم المسمى بـ (ماجستير)، حين أن علياً عليه السلام كان يقول: «في التجارب علم مستأنف».

بقيت هذه النظرية اليونانية بالنسبة إلى حركة الشمس والأرض حاكمة عدة قرون، حتى جاء دور التجربة والمشاهدة، أي دور (بيكن: Bacon) المكتشف للطريقة التجريبية، كما يزعم الغربيون - فاكتشف (غاليليو) أو (كاليله) التلسكوب. وقال عند ذلك، مستنداً إلى التجربة والعلوم الرياضية كل من (كوبرنيك) و (كيلر) الفلكيين بحركة الأرض مع بقية الكواكب حول الشمس على شكل اهليليجي، أي على شكل القطع الناقص، الذي معادلته كما جاء في الهندسة التحليلية:

$$\frac{\text{س}^{٢}}{\text{ب}^{٢}} + \frac{\text{ص}^{٢}}{\text{ح}^{٢}} = ١$$

ب = نصف القطر الكبير.

حـ = نصف القطر الصغير.

ومعنى ذلك: ان الله تعالى قد حرَّك الكواكب حسب قربها من الشمس: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، بلوتو، حول الشمس على شكل اهليليجي.

والجدول الآتي يبيِّن بعد كل من الكواكب عن الشمس

البعد	عطارد	الزهرة	الأرض	المريخ	المشتري	زحل	أورانوس	نبتون	بلوتو
بملايين الأميال عن الشمس	٣٦	٦٧	٩٢	١٤٢	٤٨٣	٨٨٦	١٧٨٣	٢٧٩٤	٣٦٧٠

ومعلوم ان رسم الشكل الأهليليجي من الصعوبة بمكان، ولا يقوى على رسمه إلا من درس المخروطات.

وكان القرآن ينادي، قبل اكتشاف الطريقة التجريبية في أوروبا بقرون،

باستعمال السمع والبصر والعقل، وذلك بقوله: «إن السمع والبصر والفؤاد[1] كل ذلك كان عنه مسؤولاً».

وإن علياً عليه السلام قد حلّ مسائل جمة، مستنداً إلى الطريقة التجريبية: قانون أرخميدس، قانون الطوفان...

إن ما اكتشفه (كوبرنيك) و (كيلر) في القرن السابع عشر من ثبوت الشمس في محلها، كان يخالف ما جاء في القرآن الكريم: من أن للشمس حركةً خاصة بها. حتى إذا تقدمت العلوم الرياضية العالية، بما فيها الميكانيك الرياضي، واخترعت مراقب كبيرة جداً، علم قبل حوالي ٥٠ عاماً، أن الشمس مع كواكبها تسير في الفضاء على شكل لولبي أو حلزوني، متجهة نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع، بسرعة قدرها في الساعة حوالي (٧٠) ألف كيلو متر. وقد ثبت علمياً قول الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً، حين يقول: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

الأمطار في القرآن:

﴿ ألم ترَ ان الله يزجي[2] سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً. فترى الودق[3] يخرج من خلاله. وينزل من السماء من جبال فيها من برد[4] فيصيب به مَن يشاء، ويصرفه عمن يشاء. يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار﴾ (سورة النور: ٤٣).

إن قوله تعالى: ﴿يؤلف بينه﴾ أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب. وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية، فان التأليف بين السحاب ما هو إلا اشارة واضحة للتقريب بين السحاب

---

(١) يراد بالفؤاد ها هنا: العقل. والله العالم.

(٢) يزجي: يسوق السحاب أو البخار.

(٣) الودق: المطر.

(٤) البرد قد تنخفض درجة حرارة الجو الأعلى تحت الصفر، وتحمل اليه قطرات المطر بطريقة ما، فتنزل على الأرض متجمدة، ويسمى برداً.

المختلف الكهربائية، حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله، فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبَرَد.

وإن عملية الركام أو التكاثف تأتي بعد عملية التأليف. ويؤيد ذلك قوله تعالى:

﴿وارسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماءاً، فأسقيناكموه، وما أنتم له بخازنين﴾ (سورة الحجر: ٢٢).

إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثراً فعالاً في نزول الماء من السماء وإسقائه الناس. فهذه الآية لا تريد أن تشير إلى أن الرياح لواقح للزرع، بل تقول أن الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين. أي أن الرياح تعمل في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة، فتقع الملاقحة بين سحابتين.

فهذه الآية معجزة خالدة، لأنها تخبر قبل أربعة عشر قرناً تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث. وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم الحقيقي والدين في الاسلام، وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية.

وأما تنزيل جبال من السماء فيها من بردَ، فمنها الثلوج التي نشاهدها في شمال (نوروج) في المنطقة المتجمدة الشمالية. تتحرك هذه الجبال الثلجية أو الثلاجات(Iceberg) مع التيار (كولف استريم) في المحيط الاطلانتيكي متجهة نحو خليج (مكزيك) بين أمريكا الشمالية والجنوبية، فتلطف الجو هناك ببرودتها.

* * *

وقد تحقق قوله تعالى: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد، فيصيب به مَن يشاء ويصرفه عمَّن يشاء﴾. وذلك عندما تحركت سفينة كبيرة جداً، صنعتها أمريكا قبل حوالي أربعين عاماً، فيها مكائن عدة وساحات للألعاب، متجهة نحو لندن.

ففي حوار جرى بين القائد الأعلى للسفينة ومعاونه، قال المعاون مخاطباً القائد: «انا سنصل إلى لندن بعد عشرين يوماً إن شاء الله». فامتعض القائد، وقال لمعاونه: «أوَ تقول إن شاء الله، مع ما ترى لهذه السفينة من مكائن متعددة وقوة فائقة. انا سنصل إلى لندن بعد عشرين يوماً حتماً ودون ريب».

حتى إذا تحركت السفينة وصارت في وسط المحيط الاطلانتيكي، وإذا بسفينة أخرى تخابر هذه السفينة الكبيرة قائلة: «إن أمامكم ثلاجة كبيرة، اجتنبوها، فانها إن اصطدمت بسفينتكم، فستحطمها تحطيماً».

فصار القائد الأعلى يسير بالسفينة يمنة ويسرة، فلم تفد محاولاته، حتى اصطدمت الثلاجة بالسفينة فحطمتها تحطيماً. وقد تحقق قوله تعالى: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء﴾ وهو السفينة الثانية الكبيرة، ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ وهو السفينة الأولى.

وقد أمرنا الله تعالى أن نعلق الأمور إلى مشيئته ورحمته، وأن نقول كلما اعتزمنا أمراً: «إن شاء الله». وذلك بقوله جل من قائل: ﴿ولا تقولنَّ لشيء أني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله، وأذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾[1].

على أن الله جل جلاله لا يريد بذكر هذه الآية وغيرها من الآيات الكونية تعليم الناس العلوم الكونية، لأن كلمات الله تعالى وما أودع في المادة والأجسام من خواص وقوانين رياضية تكاد لا تتناهى، وهو القائل: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، ما نفدت كلمات الله﴾[2] ولكن الله تعالى يريد أن يُري عباده جليل قدرته وعظيم صنعته، إتماماً للحجة. وهو القائل: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وأن أنتم الا تخرصون﴾. وفي آية أخرى: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾. وهو القائل أيضاً: ﴿ليهلكَ من هلك عن بينة ويحيىَ من حيَّ عن بيِّنة﴾.

---

(١) سورة الكهف.

(٢) سورة لقمان: ٢٧ .

«وكل شيء عنده بمقدار
عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال»[1]

إن ما نشاهد في علم الكيمياء، من شتى المعادلات وأنواع التفاعلات، تحت مقادير معينة وشروط محددة، وما نرى من ضروب الدساتير في الفيزياء والفلك والمكانيك السماوي والأرضي، خير دليل على أن العدد (أو المقدار) يحكم العالم عن تدبُّر وحكمة فائقة، وتحت قوانين ثابتة. لذلك: كان يقول فيثاغورث، قبل الميلاد بقرون: «العدد يحكم العالم. وكان يقول (لورد كلوين) الفيزاوي المعروف، قبل أقل من قرن: «كل حادثة فيزياوية لا يمكن التعبير عنها بدستور أو معادلة رياضية، ليست بحادثة معروفة، مفهومة».

وأبرز مثال لمفهوم الآية المتقدمة: ان جعل الله تعالى الكثافة العظمى للماء في الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية، رأفةً بالحيوانات البحرية، لتبقى حية.

من المعلوم أن الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة، أي عند تقليل درجة الحرارة، إلا الماء ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى. فإذا قللنا درجة الحرارة عن (٤° م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه، فيكون ١ سم^{3} (سانتيمتر مكعب) من الماء في درجة الصفر المئوي أقل وزناً عن ١ سم^{3} (سانتيمتر مكعب) من الماء في ٣° م، أي في الدرجة الثالثة من الحرارة المئوية، بخلاف بقية الأجسام. لذلك: يكون الجليد أخف من الماء، مع اتحاد الحجم، فيطفو على سطح الماء.

---

(١) سورة الرعد: ٩.

وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المئوي = ١,٠٩١ سم٣. فإذا ساح إلى الماء في درجة الصفر أيضاً، أصبح حجمه = ١,٠٠٠١٢ سم٣. فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر. ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى فى تغير الكثافة، أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر على المعتاد لا في الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية (٤° م) كبقية السوائل، لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب في القعر، وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء إلى الأعلى... وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى إلى الأسفل، ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة في أعماق البحار والبحيرات. ولانقلب البحر برمته إلى ثلاجة ما كان يكفي لذوبانها حرارات الفصول، ولا سيما، في المناطق الباردة، ولا تنفى بعد ذلك انتفاع الانسان بالبحر.

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى في (٤° م)، فإذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+ ٤° م)، نزل هذا الماء إلى القعر لثقله بالنظر إلى وزن الماء في الطبقات السفلى... وهكذا، حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+ ٤° م). ثم إذا نقصت درجة الحرارة انجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة، ولما أمكن نزول هذه القشرة لخفته، وبقي القسم الأسفل من البحيرة سالماً من الانجماد، تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور.

فيرى لو اطّرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أي لولا هذا الشذوذ رأفةً بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله إلى جليد في فصل الشتاء، ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده، ولامتنعت التجارة البحرية، ولانقلب الجو بارداً بتأثير الثلوج البحرية، وتعسرت الحياة البشرية.... فيستنتج من ذلك كله أن ليس للعلة العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية، فتجعل كثافة الماء في (+ ٤° م) في النهاية العظمى، خلافاً لبقية الأجسام.

وكمثال آخر، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾، نقول:

من الواضح المعلوم أن الأرض تدور حول محورها في كل ٢٤ ساعة مرة واحدة. وسرعة حركتها في هذه الحالة (١٠٠٠) ميل في الساعة. فلو كانت الأرض تدور حول محورها بسرعة ١٠٠ ميل في الساعة، لكان طول الليل عشرة أمثال ما عليه الآن، وكذا طول النهار. وكانت الشمس المحرقة في الصيف تحرق في تلك الأيام الطوال جميع النباتات وما ينمو على الأرض. وفي الليالي الباردة الطوال كان ينجمد كل ما على الأرض من مياه ونبات وحيوان. فيرى أن كل تغيير فيما قدره الله تعالى من (قدر) يؤدي إلى انتفاء الحياة على وجه البسيطة.

وإن درجة الحرارة على سطح الشمس التي هي مصدر الحياة لهذه الكرة الأرضية هي: ١٢٠٠٠° فاهرانهايت. ويصل الينا من هذه الحرارة ما يؤدي إلى استقرار الحياة على الأرض منذ ملايين السنين. وإذا تغيرت درجة الحرارة على سطح الأرض خلال السنة بمعدل: (٥٠°) لانعدمت الحياة كلها وهلك الناس اما من شدة الحرارة أو من شدة البرودة.

إن الأرض تسير في مدارها حول الشمس بسرعة ١٨ ميلاً في الثانية. فلو كانت هذه السرعة ٦ أميال في الثانية أو ٤٠ ميلاً في الثانية، لكان بعدنا أو قربنا من الشمس مقداراً يستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

ومعلوم أن ميلان محور الأرض عن دائرة الخسوف: ٢٣/٢٧° يؤدي إلى حدوث الفصول الأربعة. فلو لم يكن محور الأرض مائلاً هذا الميلان لبقي القطبان في الشمال والجنوب في ضياء ضئيل كضياء الشفق بصورة دائمة ولكانت أبخرة مياه المحيطات متوجهة من الشمال إلى الجنوب وأدت إلى إيجاد قارات من الثلج، وكانت هذه القارات الثلجية تؤثر على القطبين وتؤدي إلى تحطيمها وتحطيم القشرة الأرضية وجفاف المحيطات إلى ما هنالك من حوادث جمة تعدم الحياة على وجه البسيطة.

فلو كانت الأرض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الآن لما كانت قوة الجذب عليها (أي سطح الأرض) تكفي لجذب المياه والهواء، ولما استقر الماء على سطحها، لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الأرض اليوم. ولارتفعت درجة الحرارة إلى حد يؤدي إلى إبادة الحياة عليها.

ولو كان قطر الأرض ضعف ما عليه الآن لكان سطح الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن. ذلك لأن سطح الكرة = ٤ ط نق^{٢}، وهو يتناسب طردياً مع مربع نصف القطر. ونتيجة لذلك، كانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الأرض الحالية، ولقل ارتفاع الجو إلى حد مخطر ولارتفع الضغط الجوي من كيلوغرام واحد على كل سانتيمتر مربع إلى كيلوغرامين ولاشكلت الحياة على وجه الأرض.

ولو كانت الأرض من حيث الكبر بقدر الشمس، لأمست قوة الجذب عليها (١٥٠) مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون (نيوتن):

$$ق = ى \times \frac{ك\ كَ}{م^{٢}}$$

ولنقص ارتفاع الجو حوالي ١٠ كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوي على كل سانتيمتر مربع = ١٥٠ كيلوغراماً، أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلوغراماً واحداً = ١٥٠ كيلوغراماً، ولكان طول الانسان بطول السنجاب في الوقت الحاضر ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات.

نعم، إن تنظيم الأحوال الطبيعية يتم على نظام عددي متقن من جانب الله تعالى، والأنظمة الكونية مبنية على حسابات رياضية دقيقة، لا يبقى معها مجال لاحتمال تأثير الصدفة في تنظيم هذا الكون كما ثبت في حساب الاحتمالات من مواضيع الرياضيات العالية.

وقد وجد (مانداليف) منذ مائة سنة قانوناً في ترتب العناصر، وذلك ان العناصر الكيميائية كالايدروجين والحديد والراديوم... الخ. قد رتبها الله تعالى تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً. وان العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة وتكون لها خواص متشابهة. ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد علم بها قبلاً. حتى ان العلم الحديث قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماماً للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه.

فالعلوم جميعها تبرهن على أن المقادير متحكمة في الكون من جانب الله تعالى، وان هذه العلوم يرتبط بعضها ببعض في تفسير هذه الآية: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾. فأمواج الراديو التي وضعها (مسكويل) في معادلات رياضية وأثبت (هرتز) وجودها وانتفع بها (لـودج وبرانلي ومـاركوني) في المخاطبات اللاسلكية تعين علماء الفلك اليوم على دراسة أجرام فلكية، لا نستطيع أن ننفذ اليها بمرقب أو بمصورة ضوئية.

والنظائر المشعة التي كشفت في الكيمياء والفيزياء أولاً، تعيننا اليوم على فهم التركيب الضوئي ومحاكاته وقد تعيننا غداً على التحكم بأفعال الوراثة في النبات والحيوان.

فليس في وسع العلماء أن ينفذوا إلى فهم أسرار الكون والحياة دون دراسة الذرات والنجوم. فجميعهم يطوفون على أجنحة فكر يجنحه الشوق والخيال وتضبطه مقتضيات المنهج العلمي. وكل ما وجدوه وسيجدونه في المستقبل من معادلات ودساتير تفسر هذه الآية الكريمة: ﴿وان من شيء الا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ . وتفسير لقوله تعالى: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾.[1] وقوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[2] . وقوله تعالى: ﴿والذي قدّر فهدى﴾[3]. وقوله جل من قائل: ﴿وأنزلنا من السماء ماءاً بقدر، فأسكناه في الأرض وانا على ذهاب به لقادرون﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾[5].

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٨.
(٢) سورة الفرقان: ٢.
(٣) سورة الأعلى: ٣.
(٤) سورة المؤمنون: ١٨.
(٥) سورة القمر: ٤٩.

من حقائق القرآن:

فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم[1]

إن الله تعالى يقسم بمواقع النجوم، لما لهذه المواقع من حيث التوازن والجاذبية المتعادلة من أهمية كبرى. ويعدُّ هذا القسم لما هنالك من خطورة قسماً عظيماً.

حقاً، لو تغيرت مواقع النجوم عما عليه الآن اختل التوازن وانعدمت الحياة على وجه الأرض.

فلو كان بُعد الأرض عن الشمس ضعف ما عليه الآن، لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس إلى (ربع) ما عليه الآن، ذلك لأن شدة الحرارة على سطح ما تتناسب عكسياً مع مربع المسافة من مصدر الحرارة.

كذلك لو بعدت الأرض عن الشمس ضعف البعد الحالي لقلَّت سرعة حركة الأرض إلى النصف، ذلك لأن محيط الدائرة يتناسب تناسباً طردياً مع نصف القطر.

م = ٢ نق ط

ولطال فصل الشتاء إلى ضعف ما عليه الآن ولانجمد نتيجةً لذلك جميع ما على الأرض من كائنات حية، ولاستحالت الحياة عليها.

ولو كان بُعد الأرض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة

---

(١) سورة الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦.

ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الأربعة: (الربيع والصيف والخريف والشتاء) إلى النصف[1] ولتبخر ما على الأرض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدة الحرارة.

فقانون الجذب العام يَحكم العالم بأمر من الله تعالى، ذلك القانون الذي اكتشفه (إسحاق نيوتون):

$$\text{ق} = \text{ي}\ \frac{\text{ك كَ}}{\text{م}^{٢}}$$

ى = النسبة الثابتة ومقدارها: $\frac{١}{١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من ثقل الغرام أي: ـ ٨

ى = $٦,٦٧ \times ١٠^{-٨}$ من ثقل الغرام = $\frac{١}{١٥٠٠٠٠٠٠٠}$ من الدا ين(dyne)

وإن الله تعالى يشير إلى هذه القوة الجاذبية الهائلة بقوله جل من قائل: ﴿إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، أنه كان حليماً غفوراً﴾[2]. وبقوله عز وجل: ﴿ألم تَرَ أن الله سخَّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه، ان الله بالناس لرؤوف رحيم﴾[3].

وبقوله: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش وسخَّر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبِّر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[4]

فإن الكواكب تسير في مداراتها وتتباعد بعضها عن بعض بمسافات معينة حسب قواعد الجاذبية وهي مسخرة في حركاتها وجذبها وانجذابها بأمره تعالى حسب قانون الجذب العام، وتجري في مداراتها ومنحنياتها التي هي

---

(١) ذلك لأن حاصل ضرب السرعة الزاويوية في المسافة عن المركز مقدار ثابت: لا × نق = ث.

(٢) سورة فاطر: ٤١.

(٣) سورة الحج: ٦٥.

(٤) سورة الرعد: ٢.

على الأكثر اهليليجية: (القطع الناقص) إلى يوم البعث حيث ﴿تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار﴾ (سورة إبراهيم عليه السلام: ٤٨)، حيث ينال المجرم جزاءه بقوله: ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرَّنين في الأصفاد[١]. سرابيلهم[٢] من قطران[٣] وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت، ان الله سريع الحساب، هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا، انما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب﴾[٤].

وقد أكد تعالى وجود هذه الجاذبية التي لا ترى بالعين وهي كالعمَد في قوله: ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي ان تميد بكم وبثّ فيها من كل دابة، وأنزلنا من السماء ماءاً، فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾. (سورة لقمان: ١٠).

فالكواكب والأنجم تسبح في الفضاء في مداراتها وكذلك الشمس والقمر بقوله تعالى:

﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون﴾ (سورة الأنبياء: ٣٢).

وبقوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾. (سورة يس: ٤٠).

فإذا اعتبرنا السماء اسماً لما علانا أو ارتفع فوق رؤوسنا، فأنه يعني ولا شك: هذا الكون بأسره الذي من حولنا، يبدأ بجوِّ الأرض، فسائر الكواكب ومن بعدها الشمس، النجوم الضاربة في أعماق الفضاء في مجرَّتنا[٥] وما

---

(١) الأصفاد: القيود والأغلال.

(٢) جمع سربال: القميص أو كل ما يلبس.

(٣) قطران: سيال دهني يؤخذ من بعض الأشجار كالصنوبر.

(٤) سورة إبراهيم (ع): ٤٩ ـ ٥٢.

(٥) المجرة: على سطح السماء نطاق عريض منير يمتد من فوقنا وينتهي بالأفق من طرفيه، أنها ملايين النجوم بعضها جنب بعض وبينهما مسافات شاسعة إن هذاالقوس العظيم =

يليها من مجرات، وتجري كل هذه الأجرام السماوية في مساراتها أو تدور في مداراتها، هذه هي السماء وقد بناها الله ورفعها وجعل كل جرم فيها بمنزلة لبنة من بناء شامخ ورفع هذه الاجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى من نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالمية، والجاذبية والقوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة هما بمثابة الأعمدة القائمة فعلاً.

* * *

وإستناداً على هذا القانون تمكنوا من كشف كوكبين هما، نبتون، وبلوتو، يدوران حول الشمس بعد (أورانوس).

فقد اكتشف ليفرييه(Leverier) استناداً إلى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ(نبتون(Neptune وعين موضعه قبل أن يراه، فحرر الراصدون تلسكوباتهم إلى هذا الموضع المزعوم فرأوه رأي العين بعد أن كان (ليفرييه) رآه رأي الفكر ورأي العلم والحساب.

ثم رأى الفلكيون أن هناك أيضاً اختلافاً يسيراً في مدار الكوكب (أورانوس). زعموا من أجله أن كوكباً أبعد من (نبتون) ما زال مختبئاً في السماء، فاكتشفوه وأسموه (بلوتو) سنة ١٩٣٠ ميلادية، وهكذا يتنبأ العلم والدساتير والمعادلات عن أشياء لا ترى بالعين، فتكشف، لتبرهن مرة أخرى على أن ما أودع الله من نظام رياضي رصين في سير الكواكب والأنجم ومداراتها وحركاتها قد بلغت من الدقة والضبط ما يدهش الألباب.

* * *

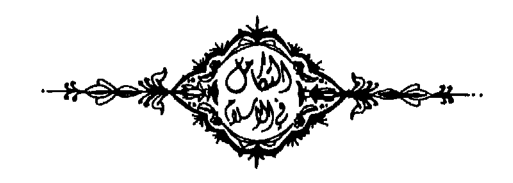
ثم أن بعد القمر عن الأرض ٢٤٠٠٠٠ ميل والقمر هو العامل الأهم لحدوث الجزر والمد على سطح الكرة الأرضية في كل يوم مرتين. وإن ارتفاع المدّ في بعض النقاط على الأرض يبلغ ٦٠ قدماً، حتى أن القشرة الأرضية

= فوق رؤوسنا ليس إلا جزءاً من (المجرة) التي تطوق السماء كالحلقة، وكأنها نهر من لبن.

لتنجذب نتيجة جذب القمر لها عدة اينجات، ونحن لا نشعر بحدوث هذا الانجذاب من قبل القمر للقشرة الأرضية ولمياه البحار والأنهار. . . يحدث كل ذلك بنظام وهدوء.

ولو كان بعد القمر عنا ٦٠٠٠ ميل فحسب عوضاً عن ٢٤٠٠٠٠ ميل لبلغ ارتفاع المدّ والجزر للبحار بمقدار يؤدي معه إلى انغمار جميع السهول والوديان تحت المياه نتيجة هذا المد الشديد. ولكان ضغط الماء في كل مرة شديداً جداً إلى درجة يؤدي إلى إبادة الجبال وما كان لأية قارة من القارات أن تبرز من تحت المياه ليسكن عليها البشر. ذلك لأن عمق الماء، إذ ذاك، كان يبلغ ميلاً ونصف ميل، فما كان عند ذلك لأي انسان أن يبقى حياً. وان الحيوانات البحرية أيضاً كانت تتغذى بعضها بالبعض الآخر وتفنى عن بكرة أبيها وينقرض نسلها.

فعلم من كل ذلك، أن لموقع القمر ومقدار بعده عن الأرض أهمية عظمى لادامة الحياة على وجه الأرض. . . وهكذا يتحقق قوله تعالى: (وهو الواقع الحقيقي الذي لا ريب فيه) ان مواقع النجوم ومنها القمر من الأهمية بحيث لولاها لاختل نظام الكون الرحيب.



وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون[1]

لولا أن الله تعالى قد أحاط أرضنا بغلاف غازيٍّ ثخنه ٨٠٠ كيلو متر لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية: (٢٠٠٠٠٠٠٠) حجارة في كل ثانية بسرعة ٥٠ كيلومتراً في الثانية، لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة[2].

على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثراً هاماً في إيصال حرارة الشمس إلى الأرض بدرجة من الاعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والانسان، وكذلك لهذا الغلاف أثر هام في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات (البحر المحيط) إلى القارات فلولا وجود هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات كلها إلى أراضٍ قاحلة.

ومن المعلوم أن أجرام السماء متنوعة الحجوم والصفات، منها الشموس والنجوم والكواكب، كما أن منها الشهب والنيازك. وكلها تجري في مساراتها في اتزان مع بعضها البعض وقد شدت برباط الجاذبية. حسب دستور اكتشفه نيوتن، وعدَّله أينشتاين.

وقد يختل هذا التوازن أحياناً لسبب من الأسباب، أو قد تدخل الأرض في مجرى من مجاري الشهب في الفضاء وهي تسبح من حول الشمس، وقد تصل سرعة حركة بعضها في الفضاء ٤٥ ميلاً في الثانية الواحدة تقريباً. ولهذا يقدَّر بأن شهاباً واحداً وزنه جزء من ألف جزء من الغرام الواحد عندما يسبح

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٢.

(٢) وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الأقمار والصواريخ على أن حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الأرض كل يوم.

بمثل هذه السرعة يكون مدفوعا بقوة تضاهي تلك القوة التي تصحب رصاص البنادق. ورغم أن حجم مثل هذا الشهاب قد لا يزيد على حجم حبة من الرمال فإن خطر المباشر إذا ما أصاب جسم الانسان لا يقل عن خطر الاصابة بقذيفة نارية.

وتهوي آلاف الملايين، كما قلنا، من مثل هذه الشهب بلا هوادة إلى جو الأرض العلوي كل يوم عندما تخترق الأرض مساراتها، إلا أنها سرعان ما تتبخر أو تحترق. ويتم ذلك على أبعاد تصل من ٨٠ إلى ١٠٠ كيلو متر من سطح الأرض. وذلك بسبب الحرارات العالية التي تتولد أثر احتكاكها بالغلاف الجوي العلوي.

فمن المعروف أن الاحتكاك السريع يولِّد الحرارات العالية، وهذه بدورها تعمل على تبخير وإشعال الشهب، ولهذا لا تصل هذه الأجرام السماوية إلى سطح الأرض، ويحمينا الغلاف الجوي من أخطارها، وهذا أيضاً ما يحدث للنيازك، إلا أنها كثيراً ما تصل إلى سطح الأرض بسبب حجومها الكبيرة. ومن أشهر النيازك التي وصلت إلى سطح الأرض نيزك سيبيريا العظيم الذي سقط عام ١٩٠٨ وهزّ سطح الأرض وجوها، وسبب تلفاً عظيماً في دائرة زاد قطرها على ٤٠ من الكيلومترات.

ونيزك آخر هو نيزك (الأريزونا) بأمريكا، وقد أحدث هوة عميقة في سطح الأرض زاد قطرها على ميل وربا عمقها على ٢٠٠ متر. وقد نجم عن تصادم ذلك النيزك بسطح الأرض أن انفجر النيزك وتطايرت أجزاؤه المختلفة في صورة شهب تناثرت من حول الحافة على مساحة واسعة جداً.

وبطبيعة الحال تكون النيازك والشهب مصدراً من أكبر مصادر الأخطار والأهواء على المسافر عبر الفضاء الكوني خارج نطاق جو الأرض. وما حديث الشهب التي تتعقب الشياطين عندما تحاول الصعود في السماء بجديد. ويقص لنا القرآن في سورة الجن وينقل لنا من أنباء عالم الغيب هذه الآية:

﴿وإنا لمسنا السماءَ فوجدناها مُلئَت حرساً شديداً وشهباً، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾.

* * *

أنه تعالى يقول: ﴿يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض، فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان، فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان، يُرسل عليكما شواظ من نار ونحاس، فلا تنتصران﴾[1].

تكشف لنا هذه الآية الكريمة الشيء الكثير عن أسرار الفضاء، وتنبئنا أن الفراغ الكوني (الفضاء الكوني) ليس فراغاً بالمعنى المعروف... وقد ثبت علمياً أنه تنتشر فيه الكثير من الجسيمات المشحونة ونوى العناصر والكهارب التي لا تستقيم معها الحياة بحال. ولم يعرف البشر هذه الحقائق عن الفراغ الكوني إلا في عصر الفضاء عندما أطلق أقماره الصناعية وكواكبه الصناعية لتسبح في أعماق فراغ الكون. وظهر أن هنالك من حول الأرض أحزمة برمتها هي مجموعات عظيمة من الكهارب المحتجزة في الفراغ بفعل مجال الأرض المغناطيسي. وهي أقرب شيء ما شواظ النار[2]. إذ أنها تنطلق من الشمس وكأنها لفظتها لهبها المستعرة. ولا يمكن لأي كائن حي أن يتعرض لهذه الأحزمة أو يخترقها دون وقاية تامة، ولا يعرف حتى الآن مدى هذه الوقاية ومدى النجاح المقدر لها. ويُطلق العلماء على أغلب مكونات هذه الأحزمة الفراغية اسم: (الأشعة الكونية)، ولعل ذلك، لأن جانباً منها يُقبل من أعماق الكون، ومرةً أخرى يحول غلاف الأرض الجوي بأمره تعالى دون وصولها الينا.

* * *

إن الله قادر على أن يهلك هذا الانسان، لولا رحمته، التي وسعت كل شيء بذنوبه التي لا تعد ولا تحصى في طرفة عين، لو رفع وسائل وقاية الانسان عن الأخطار المتوجهة إليه من السماء، فلا ينبغي أن يركبه الغرور فيفسد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾. (سورة البقرة: ٢٠٥)، وعليه أن لا يأمن مكر الله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾[3].
أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً، فستعلمون كيف نذير»[4].

---

(١) سورة الرحمن: ٣٢ ـ ٣٥.
(٢) الشواظ: لهب لا دخان فيه. واللهب: لسان النار.
(٣) سورة الأعراف: ٩٩.
(٤) سورة الملك: ١٧. حاصباً: الريح الشديدة تحمل الحصباء.

فهذه المصابيح هي الشهب التي تنقضّ في سماء الأرض بلا هوادة ومن كل اتجاه وتكون أكبر أخطار السفر عبر الفضاء الكوني. أنه تعالى يقول: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين، وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾(1).

ثم أنه تعالى يشير في الآية الآتية إلى فعل الزلازل المدمرة وما قد ينجم عنها من اختفاء معالم بعض أجزاء سطح الأرض: ﴿أأمنتم مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض، فإذا هي تمور﴾(2).

فما على هذا الانسان إلا أن يزداد خشوعاً لله تبارك وتعالى وخشيةً، في حركاته وسكناته، ثم يرجو رحمة ربه، فـ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾(3).

فليس الانسان كل شيء في هذا الكون التي لا تتناهى جوانبه، إنما جيء به إلى هذه الدنيا الفانية ليتكامل في هذه الحقبة من الزمن، في مدة لا تتجاوز، على الأكثر ١٠٠ سنة، المتقبلة أحوالها. «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة» كما جاء في متن الحديث، و«الدنيا مزرعة الآخرة» كما جاء في حديث آخر. وما قيمة مائة سنة من العمر تجاه الزمان الذي يمتد بأمر الله تعالى إلى ما لا حدَّ له. فنسبة ١٠٠ إلى اللانهاية صفر: $\frac{١٠٠}{\infty} = ٠$ انه تعالى يقول:

﴿مَن كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾(4)

فطوبى لنفوس توجهت إلى الحق المتعال، بخشوعها وخضوعها، سجودها وركوعها، ومثولها بين يدي الله العلي الكبير، جوف الليل، حيث

---

(١) سورة الملك: ٢٥. الرجم: ما يرجم به، جمعه: رجوم.
(٢) سورة الملك: ١٦.
تمور: مار البحر، يمور: ماج واضطرب، تحرك كثيراً وبسرعة من جهة إلى أخرى.
(٣) سورة الاعراف: ٥٥.
(٤) سورة الشورى: ٢٠.

لا يراه أحد إلا الله تعالى، فذابت ببكائها واعترافها بذنوبها وانغمارها في حب الله حتى بلغت مرتبة اليقين.

ما أعظم هذه المرتبة، حقاً، أنها غاية الغايات، أنها لتعادل آلاف الشهادات من (دكتوراه) وغيرها، وما فائدة شهادة الدكتوراه إن كان حاملها لم يخط في عوالم تكامل النفس أي في تكميل نفسه، وهي أعز الأنفس إليه، خطوة واحدة.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد﴾(١).

وعن علي بن ابراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الايمان والاسلام. فقال أبو جعفر: إنما هو الاسلام والايمان فوقه بدرجة، والتقوى فوق الايمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسَّم بين الناس شيء أقل من اليقين. قال: قلت: فأي شيء اليقين؟ قال: التوكل على الله والتسليم لله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى الله. قلت: فما تفسير ذلك؟ قال: هكذا قال أبو جعفر (ع).

وإن باب التقوى هو التوبة عن الذنوب ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها ولنتعلم حقيقة التوبة من مولانا وإمامنا سيد الساجدين الامام الرابع علي بن الحسين عليه الصلاة والسلام. انه يقول:

«أللهم إني أتوب اليك من كبائر ذنوبي وصغائرها، وبواطن سيئاتي وظواهرها، وسوالف زلاتي وحوادثها، توبة من لا يحدث نفسه بمعصية، ولا يضمر أن يعود في خطيئة، ولك، يا رب شرطي أن لا أعود في مكروهك، وضماني أن لا أرجع في مذمومك، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك».

اسمعوا إلى كلام السجاد عليه السلام كيف يعظم الذنب الصغير تجاه

---

(١) سورة الحج: ١ ـ ٢.

العلي الكبير. كل ذلك لينبه من خالف أوامر الله من سباته، فيبادر إلى التوبة بانكسار لا مزيد عليه وندم عميق وحزن شديد.

إنه عليه السلام يقول:

«يا إلهي لو بكيت اليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك، حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياءً منك، ما استوجبتُ بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي وان كنتُ تغفر لي حين استوجبت مغفرتك، وتعفو عني حين استحق عفوك، فان ذلك غير واجب لي، ولا أنا أهل له باستيجاب».

إذا كان إمامنا المعصوم يخاطب ربه بهذا الخطاب، فكيف بنا وقد ملئنا معاصي وآثاماً، ألا يجدر بنا أن نخاف الله من شديد عذابه وأليم عقابه وأن نعمل مجاهدين في أيام الفرصة: في هذه الأيام القليلة لئلا نكون من ﴿الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. لهم من فوقهم ظُلل من النار ومن تحتهم ظلل، ذلك يخوِّف الله به عباده، يا عبادِ فاتقون﴾[1].

---

(١) سورة الزمر: ١٥ ـ ١٦.
ظلل: أطباق من النار.

من حقائق القرآن:

وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر[1]

إن هذه الآية تبيِّن لنا في إعجاز علمي رائع كيف أن النجوم ـ دون الكواكب السيارة التي هي في منظومتنا الشمسية ـ يمكن أن تستخدم في تعيين الاتجاهات على كرتنا الأرضية وكيف يمكن أن يهتدي بها رواد الصحارى والبحار.

لقد عرف القدماء من الفراعنة والاغريق والعرب وغيرهم الكثير عن النجوم وتجمعاتها. وأطلقوا على بعض النجوم كما تبدو في كبد السماء أسماءً مختلفة المصدر مثل: السماك الرامح، والسماك الأعزل، والشعرى اليمانية.

كما أطلقوا على تجمعاتها أسماء أخرى مثل: مجموعة الدب الأكبر، ومجموعة العقرب، ومجموعة المرأة المسلسلة ومجموعة الجاثي على ركبتيه، ومجموعة الحمل ومجموعة الأسد. الخ وعددها ٩٠ مجموعة هي البروج.

ويبدو لنا أن هذه النجوم تتحرك عبر السماء من الشرق إلى الغرب بسبب دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق مرة كل يوم. فيشرق بعضها من جميع اتجاهات الأفق الشرقي، ثم ترتفع في السماء حتى تصل أقصى درجات ارتفاع لها لحظة عبورها خط الزوال. ثم تبدأ بالانخفاض حتى تصل إلى الأفق الغربي وتختفي وراءه. وهناك نجوم

---

(١) سورة الانعام: ٩٧.

تتحرك دون أن تشرق أو تغرب، ولكنها ترسم في مساراتها اليومية دوائر مركزها النجم القطبي الذي هو في اتجاه الشمال على امتداد محور دوران الأرض، يستخدمه الملاحون ورواد الصحارى في تعيين الشمال.

وقد أوضح الله تعالى الاهتداء بالنجوم في آية أخرى بقوله:

﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾. (سورة النحل: ١٦).

ثم ان الله تعالى لا يريد منا أن نهتدي في أسفارنا بالنجوم فحسب، بل يريد منا ما هو أهم من كل ذلك، ما يجعل هذه النفوس تعرج في عوالم القدس وتقترب من الساحة القدسية الالهية بتسبيحها، خشوعها وخنوعها، وذلك بقوله جل من قائل: ﴿ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم﴾[1]. وهو تسبيح الله تعالى بعد منتصف الليل أو بين الطلوعين. كان يقول سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام: في مناجاته: «إلهي، غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين».

وقد جاء في الحديث: تتجلى العبادة في خمسة أشياء: (١) خلاء البطن (٢) تلاوة القرآن، (٣) صلاة الليل، (٤) التضرع عند الصباح، [٥] البكاء من خشية الله تعالى.

* * *

أنظروا كيف يصف الله تعالى في الآية المباركة الآتية في دقة عملية وملاءمة لفظية عواصف البحر وأنواءه مما لم يشاهده الرسول (ص) ولم يعرف عن حقيقته شيئاً لولا تعليم الله تعالى إياه:

﴿أو كظلمات في بحر لجي[2] يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. (سورة النور: ٤٠).

---

(١) سورة الطور: ٤٩. والآية المتقدمة نذكرها لعظيم فائدتها وهي: ﴿واصبر لحكم ربك، فانك بأعيننا، وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾. (سورة الطور: ٤٨).

(٢) لجي: عميق.

وإن هذه الآية كانت سبباً لاسلام ملاح غربي، ذلك، أنه كان يقود سفينته في الجنوب الشرقي من آسيا، وإذا بعاصفة عظيمة تغيِّر حالة الجو فتتعالى الأمواج بعضها فوق بعض ومن فوقها سحاب، ويسود ظلام وأي ظلام، بل ظلمات بعضها فوق بعض لا يكاد المرء إذا أخرج يده يراها.

يحار الملاح في أمر السفينة، ماذا يصنع؟ وكيف ينجو؟ فصار يجول في السفينة، ويصعد وينزل، وإذا به يرى رجلًا باكستانياً قد انكب على كتاب يتلوه، فسأله قائلاً، وما الذي تقرأ؟

قال: انه كتاب الله، انه القرآن، فقال: ترجم لي الآية التي تقرأها، فكانت الآية المتقدمة: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج...﴾.

فتحيَّر الرجل عندما رأى ان ما جاء في القرآن الكريم وصف رائع لما فيه الآن من حالة عصيبة، وصف لا يقوى عليه إلا من جاب البحار وشاهد حالة العواصف الشديدة المظلمة، وقال: إن محمداً لم يكن قد خرج من الجزيرة العربية إلى مثل هذه البحار ولم يشاهد هذه الحالات الغريبة الاستثنائية، إذن، «إن هو إلا وحي يوحى، علمَّه شديد القوى». فآمن من ساعته. وأصبح منوراً بنور الاسلام الوهاج، وتحقق قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

* * *

إن الله تعالى يذكر في آيات جمة أن الجبال أوتاد لهذه الأرض عن الميدان والميلان. وان الأرض مهاد. وذلك بقوله:

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾ ومعلوم أن الأرض كالمهاد أو الفراش لهذا الانسان فهي موطن البشر ومأواهم في الحياة الدنيا. وأما تشبيه الجبال بالأوتاد التي تحفظ توازن الخيمة عندما تشد اليها فهو تشبيه علمي معجز لا يصل إلى كنهه وسره إلا الراسخون في علم طبقات الأرض. وقد علم أخيراً بعد تقدم (الجيولوجيا Géologie) أي علم طبقات الأرض أنه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض الصلبة في جملتها دائبة الاضطراب بسبب دوام

اختلال التوازن القائم بين جوف الأرض المنصهر وما يعاني من ضغوط عالية وقشرتها الصلبة وما تتعرض له من عوامل التعرية. وأهم عوامل التعرية هي الأمطار والسيول والأنهار والرياح واختلافات الحرارة ما بين الليل والنهار والشتاء والصيف وكلها تفتت القشرة الصلبة.

إن قشرة الأرض الصلبة هي ميزان دقيق حساس إلا أنه ميزان من النوع المركب. فكل مكان من القشرة هو بمثابة كفة متوازنة تماماً مع أي مكان مجاور. والميزان الدقيق تكون كلتا كفتيه متوازيتين تماماً. وهما يظلان كذلك ما دامت الأثقال التي توضع على احداهما مساوية للتي توضع على الأخرى. فإذا ما تغير الثقل على احدى الكفتين لسبب من الأسباب اضطربت هذه الكفة وتأثرت الكفة المقابلة لها حتماً. ويظل هذا الاضطراب قائماً حتى تتساوى الأثقال مرة أخرى ويعود التوازن إلى حالته الأولى. وجميع أجزاء القشرة الأرضية متزنة تماماً مع ما يجاورها من أجزاء لحفظ هذا التوازن تحمل أجزاء منها أعلى الجبال، بينما تكون الأجزاء المجاورة قيعانا. فالجبال إنما سببت مجرد حفظ هذا التوازن كما تشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿والجبال أرساها﴾(١).

﴿وهو الذي مَد الأرض وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً﴾(٢). ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾(٣) ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً﴾(٤) ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾(٥).

إلا أن المشاهد أنه: لا الحالة الداخلية لباطن الأرض ولا الظروف الخارجية التي تتعرض لها الجبال والهضاب تترك هذا الميزان في حالة هدوء واستقرار. فباطن الأرض المنصهر تجتاحه تيارات تؤدي إلى إلتواء القشرة الصلبة مهما كانت هذه التيارات بطيئة، وتجري المياه إلى المنخفضات التي

---

(١) سورة النازعات:
(٢) سورة الرعد:
(٣) سورة الحجر:
(٤) سورة النحل:
(٥) سورة الأنبياء:

تتكون بالتواء القشرة. وهي التي نسميها البحار. وبمرور الزمن تصير معها هذه البحار مأوى لأحمال ثقيلة كثيفة جداً من الرسوبيات التي تأتي بها عوامل التعرية من المناطق المرتفعة في القشرة كالجبال والهضاب وترسب بقايا الكائنات البحرية، وكلما ثقلت هذه الأحمال هبطت تحت ثقلها قيعان البحار. وتظل هذه الرسوبيات تتراكم حتى تكون جذوراً لجبال مستقلة نتيجة للضغط الشديد الذي يقع على حافتي الجزء الهابط من القشرة عليها، فتلتوي القشرة وتنثني وترتفع رويداً رويداً لحفظ التوازن.

هذه القصة تصور لنا باختصار الثورات الجيولوجية أو حركات بناء الجبال. ولما قامت أول ثورة جيولوجية نتيجة للاضطرابات التي اجتاحت باطن الأرض في أول أمرها، جاء رد الفعل في القشرة الأرضية بظهور القارات وما رسا على سطحها من الجبال الأولى. ثم اختل التوازن تحت تأثير عوامل التعرية التي تنحت الجبال وتفتتها وتحمل أنقاضها لترسبها في أعماق البحار والمحيطات، وعند ذلك، بدأت القشرة الأرضية تستعيد توازنها المختل، وعلا سطح المحيط تدريجياً حتى فاض الماء وظهرت بحار جديدة على أطراف القارات تركت آثارها بما أعطت من رواسب نراها اليوم.

وهكذا نجد الجبال هي من الوجهة العلمية بمثابة الأثقال التي تحفظ توازن القشرة الأرضية وتبقى على ثبوتها وعدم انهيارها خلال أحقاب طويلة يظل خلالها التوازن قائماً رغم ما يعانيه باطن الأرض من ضغوط عالية وما يجتاحه من تيارات حمل بطيئة، وهذا المعنى الرائع هو عين ما أشارت إليه الآيات المتقدمة والآيات الآتية:

﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءاً فراتاً...﴾ (سورة المرسلات).

﴿والأرض مددناها وألقينافيها رواسي﴾.. (سورة: ق).

﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾. (سورة حم ـ سجدة).

﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبثّ فيها من كل دابة﴾. (سورة لقمان..).

﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي﴾... (سورة النمل).

لم يدوِّن الله تعالى الآيات الكونية المتقدمة وغيرها التي تربو على (٧٥٠) آية في كتابه المجيد لتعليمنا علمَ طبقات الأرض أو الفلك أو غيرهما من العلوم. ذلك لأن ما أودع الله تعالى من قوانين وخواص في حقل طبقات الأرض أو في حقل علم الفلك وغيرهما من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها أو عدها. ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[1]. ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[2].

وإنما أراد ابداء عظمته وجليل قدرته كي يعتبر الانسان ويعلم أن الابداع لا يأتي جزافاً ولا يتكوَّن بصدفة في مراحل لا تعد ولا تُحصى، أراد أن يفهم العالم أن الدين الصحيح الذي لا شائبة فيه، الدين الذي لم تمسه يد البشر المحرِّفة هو ذلك الدين الذي يقوم على أساس تعاون وثيق وانسجام كامل بين النظرة العلمية أو الفكرية التي يُستعان بها في كشف حقائق الكون بالحس والتجربة والاستقراء والاستنتاج والنظرية الدينية التي تربط الكون والانسان بالاله الخالق المبدع. فتتولد من جهة علوم وضعية نظرية وعملية وتجريبية، وتتطور وتتقدم وتتآخى في الوقت نفسه مع الروح الدينية الصافية التي تستشعر وجود الخالق وعظمته وتحاول الرقي الخلقي والروحي منسجمة ومتآلفة مع الروح العلمية والتقدم الفكري.

هذه ظاهرة واضحة في الحضارة الاسلامية، بخلاف ما كان في القرون الوسطى في أوروبا من اضطهاد وإعدام العلماء الكونيين. فقد حررت النظرة الاسلامية الفكر العلمي من الشوائب المعوِّقة باسم الدين وصفت الروح الديني وارتقت بها وأكملت بها الرقي المادي.

هذه الظاهرة هي التي دعا اليها القرآن بقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾[3]. إنها نظرة جديدة إلى الكون والانسان والحياة حيث

---

(١) سورة الكهف: ١١٠

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

(٣) سورة يونس: ١٠١.

لا تنافي ولا منافاة بين العلم المادي والتوجه نحو الخالق المتعال. وقد قال علي عليه السلام: «بالعلم يُعرف الله ويوحد».

إنها ظاهرة واضحة كل الوضوح في الحضارة الاسلامية منذ بدايتها. فقد كان ارتقاء العلوم المادية وارتقاء العلوم المعنوية يسيران في اتجاه واحد في هذه الحضارة، من غير أن يكون بينهما هوة فاصلة أو تنافٍ أو مخالفة، خلافاً للحضارات السابقة واللاحقة.

فيجدر بالعالم أجمع أن يتخذ الدين الاسلامي ديناً عالمياً لينعم به البشر في دنياه ويسعد في الآخرة. ويترك ما أملته اليد البشرية من خرافات لا يسندها العقل والعلم.



ـ حركة الأرض في القرآن الكريم ـ

كان قد أجمع علماء اليونان قبل الميلاد على أن الأرض ثابتة لا حراك لها وأن الشمس والأنجم تدور حولها، حتى كان القرن السابع عشر الميلادي وجاء (غاليليو) بمرقبه وثبت لدى العلماء الكونيين: أن الأرض تتحرك حول الشمس وأن الشمس ثابتة لا حراك لها. وحصل من جراء هذه العقيدة شجار عنيف بين الكنيسة التي كانت تقول بسكون الأرض والعلماء الكونيين الذين قالوا بحركتها، فأعدم نتيجة هذا التصادم في الرأي كثير منهم.

إلا أن القرآن الكريم كان ينادي قبل ذلك بقرون: أن الأرض أو الجبال التي عليها تتحرك كما يتحرك السحاب وتمر كما يمر. وذلك بقوله جل من قائل:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مر السحاب، صنع الله الذي اتقن كل شيء، أنه خبير بما تفعلون﴾[1].

وحركة الجبال ومرورها أو حركة الأرض هذه: هي في الحقيقة حركتان: حركة في دورانها حول الشمس على شكل اهليليجي أو قطع ناقص، وحركة أخرى أو مرور آخر مع الشمس وبقية كواكب المجموعة الشمسية بسرعة، ٧٠٠٠٠ كيلو متر تقريباً في الساعة الواحدة على شكل لولبي في هذا الفضاء اللانهائي متجهة نحو النجمة المسماة بالنسر الواقع كي تبلغ مستقرهـا كما أخبرنا الله تعالى في محكم كتابه بقوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[2]. ويعتبر اكتشاف حـركة الأرض بـدورانها حول نفسهـا

(١) سورة النمل: ٨٨

(٢) سورة يس: ٢٨.

وحركتها أو دورانها حول الشمس من أروع ما اكتشفه العلم الحديث، وقد سبق القرآن هذا الاكتشاف ما يزيد على ألف سنة تقريباً.

ولا يراد بمرور الجبال في الآية المتقدمة: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ ما يحدث يوم القيامة، ذلك لأنه لا تبقى جبال إذا كان يوم القيامة حتى يراها الانسان في ذلك اليوم فيحسبها جامدة. وهو القائل: ﴿ويسألونك عن الجبال، فقل ينسفها ربي نسفاً[1]﴾، وبقوله: ﴿وإذا الجبال نُسفت﴾[2]، وبقوله: ﴿وبُست الجبالُ بساً، فكانت هباءً منبثاً﴾[3].

ويقول حجة علماء الفلك (سيمون) بشأن حركة الأرض ضمن المجموعة الشمسية: «ان من أعظم الحقائق التي اكتشفها العقل البشري في كافة العصور هي: ان الشمس والكواكب السيارة التي هي في المجموعة الشمسية (مجموعتنا هذه) وأقمارها تجري في الفضاء متجهة نحو برج النسر، بسرعة غير معهودة لنا على الأرض، يكفي لتصورها أننا لو سرنا بسرعة مليون ميل يومياً، فلن تصل مجموعتنا الشمسية إلى هذا البرج إلا بعد مليون ونصف مليون سنة من وقتنا الحاضر، وهذه دون مراء إحدى معجزات القرآن العلمية».

* * *

ودليل آخر على حركة الأرض قوله تعالى:

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها»[4].

ومعلوم أن مشارق متعددة ومغارب عديدة لا تحدث إلا بحركة الأرض حول محورها حتى تكون كل نقطة منها تارة مشرقاً وأخرى مغرباً حسب حركة

---

(١) سورة طه: ١٠٥

(٢) سورة المرسلات: ١٠

(٣) سورة الواقعة: ٥ ـ ٦.

(٤) سورة الأعراف: ١٣٦.

الأرض ودورانها بالنسبة إلى الشمس التي تُرى لبعدها ثابتة على وجه التقريب.

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿ربِّ السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾[1].

وفي آية أخرى أيضاً:

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾[2]. مما يدل على أن كل ما في هذا الكون من أجرام ومجرات وغيرها في حركة دائمة حول محاورها ولها مشارق ومغارب وهذا عين ما اكتشفه علم الفلك الحديث وعلم الفلك اللاسلكي بالنسبة إلى الأنجم النائية في أغوار الفضاء والمجرات كذلك.

* * *

وإن الآيتين الآتيتين تدلان دلالة واضحة على حركة الأرض لئلا يبقى قسم منها في ظلام دائم والقسم الآخر في ضياء دائم.

﴿قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياءأفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون﴾[3]

وبما أن الله ،تعالى أخبرنا في الآية القائلة: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[4] أن الشمس تسير في الفضاء إلى حيث تستقر وهذا لا يتلائم مع دورانها حول الأرض حيث يخالف الجري الذي مآله الاستقرار في محل يعلمه الله تعالى، إذن وجب أن نقول إن الشمس بحكم الآية المتقدمة لا تدور حول الأرض، وبما أن خروج الأرض من ظلام دائم أو خروج الأرض من ضياء دائم يتوقف على حركتها حول محورها، إذن يعلم من الآيات المتقدمة بعد الجمع بينها أن الأرض متحركة حول نفسها، أو حول محورها.

---

(١) سورة الصافات: ٥

(٢) سورة المعارج: ٤٠

(٣) سورة القصص: ٧١ ـ ٧٢، سرمداً: أي بصورة دائمة.

(٤) سورة يس: ٢٨.

ويقول الله جل جلالـه في الآية الآتية: أنه لو كان في جهة من الأرض ليل لكان في الجهة الأخرى نهار بصورة حتمية، وهذا لا يتم إلا بدوران الأرض حول محورها أو بدوران الشمس حول الأرض. وبما أن الله أخبرنا أن الشمس تجري في الفضاء لمستقر لها، أي: ليس لها دوران حول الأرض إذن وجب أن نقول: إن الأرض هي التي تدور حول نفسها ليتمَّ الليل والنهار في كل ٢٤ ساعة.

والآية هي:

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[١].

فقوله تعالى: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ يشير إلى حركة الأرض حول نفسها ودورانها حول محورها، ذلك لأن الليل والنهار يكونـان على الكـرة الأرضية في وقت واحد في موضعين مختلفين. والله تعالى لا يتردد في تعيين وقت يريد فيه إفناء الأرض وإبادتها: هل يكون ذلك في الليل أم في النهار، وهو خالق كل شيء والعالم بكل شيء، عالم بما هو كائن وبما سيكون، إذن، يشير قوله تعالى: ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ إلى أن قسماً من الأرض يتلقى أمر الفناء ـ من جانب الله تعالى ـ ليلاً، والقسم الآخر في نفس اللحظة يتلقى هذا الأمـر نهاراً. وهذا لا يتم إلا بحركة الأرض أو دورانها حول محورها لحدوث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران... وقد نفينا دوران الشمس حول الأرض بالآية المتقدمة.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ ومعنى ذلك: ان الليل لا يسبق النهار وكلاهما يحدثان في وقت واحد. حقاً، عندما انفصلت الكرة الأرضية بحالة نارية ملتهبة عن الشمس[٢]، كان الطرف الذي يلي

---

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) انه تعالى يقول: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً، ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون﴾. (سورة الأنبياء: ٣٠).

الشمس نهاراً والطرف الآخر ليلاً، وعندما بدأت تدور حول نفسها وحول الشمس أيضاً بحكم الجاذبية على ما ثبت في علم (الميكانيك كان الطرف المتوجه إلى الشمس نهاراً والطرف الآخر ليلاً. فالليل والنهار كلاهما يحدثان في آن واحد دون أن يسبق أحدهما الآخر. ثم إذا أضفنا إلى هذه الآية قوله تعالى في سورة يس: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾، هذه الآية: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾[1]. نعلم أن الليل يتلو النهار، فهما متعاقبان. وهذا لا يتم إلا بدوران الشمس حول الأرض، أو بدوران الأرض حول محورها. وبما أن الآية:

﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾[2]. تنفي دوران الشمس حول الأرض ذلك لأن الشمس تجري لمستقر لها، ولا استقرار مع الدوران في نفس المدار، إذن: يُعلم أن لا بد لتعاقب الليل والنهار من حركة الأرض حول محورها ليكون بصورة دائمة الطرف المتوجه نحو الشمس نهاراً والطرف الآخر غير المتوجه نحو الشمس ليلاً.

ومما لا مراء فيه: أن ليس للأجسام الصامتة، الصماء أن ترتب لنفسها حركات مترتبةً منتظمة تحصل بسببها، أي بسبب دوران الأرض حول محورها، حياة على الكرة الأرضية، فتعيش النباتات والحيوانات عليها، إذن: يحكم العقل بصورة فطرية: أن الله تبارك وتعالى هو الذي أعطى هذه الحركات المنتظمة للكواكب والشموس كي تحصل بسببها حياة. ذلك، لأن الأرض لو كانت ثابتة، لبقي طرف منها متوجهاً نحو الشمس ولاحترق كل ما على الأرض من نبات وحيوان ولتبخرت المياه، وانعدمت نتيجة لذلك الحياة عليها وكذلك الطرف الآخر: الطرف غير المتوجه نحو الشمس لبقي في ظلام دائم وبرودة قارصة، وانجمد بسببها كل ما على الأرض من نبات وحيوان ومياه وانعدمت الحياة عليها أيضاً.

فالله تعالى جعل هذه الدقة المتناهية في الخلق: من تعاقب الليل والنهار

---

(١) سورة الفرقان: ٦٢.

سورة ياسين: ٢٨.

إلى ما هنالك من ملايين الأنظمة والقوانين والخواص تذكرة لمن أراد أن يذكّر وعبرة لمن أراد أن يعتبر: لمن أراد أن يقوم بواجب الشكر تجاه نعمه التي لا تعد ولا تحصى[1] فيشكر الله تعالى بصلاة يصليها وصوم يطهر به نفسه وزكاة يطهر بها ماله وخمس يؤدي به ما فرض الله عليه، وحج يتقرب به إلى الله، وانفاق وبذل وقيام بحوائج الناس وأعمال صالحات، وبر الوالدين وصلة الرحم، وتسبيح الله تعالى وتقديسه.

فلا يعتبر بآيات الله تبارك وتعالى وما أودع في الكون من حركات وقوانين إلا مَن آمَن ولا يؤمن حقاً إلا من اتقى الله، ولا تتم التقوى إلا بالقيام بواجب الشكر. ولكل عضو من أعضاء الانسان شكر يناسب ذلك العضو، ولكل جارحة من الجوارح شكر يناسبها، ولكل ما مَنَّ الله على الانسان من منصب وجاه وعلم وكمال شكر يناسبها، كما أن لكل ما منَّ الله على الانسان من مال ومنال وأرض وعقار شكراً عملياً يناسبها. ولا يكفي قولك: الحمد لله، إذا منَّ الله عليك بدور متعددة حتى تسكن في احداها بعض المعوزين من أيتام وأرامل وغيرهم. فقد جاء في الحديث: «مَن كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها، فمنعه إياها، قال الله عز وجل: ملائكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، وعزتي، فلا يسكن جناني أبداً».

---

(١) وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها. (سورة ابراهيم (ع): ٣٤).

اللطف وسنة الكمال

كثيراً ما نقرأ في الكتب الكلامية أن الله تبارك وتعالى قد أرسل أنبياء مبشرين ومنذرين عملاً بقاعدة (اللطف) وأن الله تعالى أراد أن يلطف بالبشر ويرفق بهم، فجعل منهم أنبياء ومرسلين، منَّ عليهم بصفة العصمة لقابلية هناك ليهدوا الناس سواء السبيل.

يستنتج من ذلك أنه لولا (قاعدة اللطف) لبقي البشر في دياجير الجهل لا يعرف ربه ولا يعرف كيف ينال سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ولبقي كالبهائم أو أتعس حظاً من البهائم أبد الآبدين.-

ولكني أرى: أن الله تبارك وتعالى منَّ على البشر بتعاليم السماء وأرسل أنبياء ومرسلين ومن بعدهم أوصياء سلام الله عليهم أجمعين عملاً بسنة الكمال هذا الكمال الذي نشاهد آثاره وآياته في كل جزء من أجزاء العالم من الأميبا (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) إلى أكبر ما خلق الله من مجرات وشموس تعادل شمسنا هذه آلاف المرات.

كمال نشاهد آثاره في الذرة، ذلك لأن الذرة عالم مستقل في ذاته، لها قوانينها ودساتيرها، وأي كمال أعظم من أن نرى حركة (الألكترون) بسرعة ألفي كيلومتر في الثانية حول النواة: (المركز)، أي حول البروتون على شكل أهليليجي: قطع ناقص، وأي كمال أعظم من رسم منحن اهليليجي يكون المحيط فيه محلاً هندسياً لنقاط تبعد بمقدار القطر الكبير عن نقطتين معينتين: (البؤرتين)، ومتى علم البشر أن معادلة القطع الناقص هي:

$$\frac{\text{س}^{٢}}{\text{ب}^{٢}} + \frac{\text{ص}^{٢}}{\text{حـ}^{٢}} = ١$$

لم يتعرف البشر على هذه المعادلة إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، بعد قطع الرياضيات مراحل متعددة استغرقت آلاف السنين.

وهل للالكترون وهي شحنة كهربائية سالبة، أن تسلك هذا الطريق الاهليليجي وأن يرسم من تلقاء نفسه هذا المنحنى المعقد الذي لم يقو البشر على تفهمه إلا بعد آلاف السنين.

انه كمال مُحير للعقول في بطن الذرة.

وقل مثل ذلك بالنسبة إلى حركة الكواكب حول الشمس وبالنسبة إلى هذه الأبعاد التي نشاهدها بين الأنجم السابحة في الفضاء بنظام محيِّر للألباب.

فلو كان البعد بين الأرض والقمر عشر ما عليه الآن لكان المد الحاصل لمياه البحار والأنهار نتيجة جذب القمر لما على الأرض من مياه أضعاف ما عليه الآن ولانغمرت الأراضي والبقاع كلها تحت المياه، ولما وجد مكان جاف للسكنى، وهو قوله تعالى:

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾.

وهكذا القول بالنسبة إلى بعد الشمس عن الأرض. فان الشمس تبعد عن الأرض: ٨ دقائق و ٢٠ ثانية بحساب السنة الضوئية أي أن الطائرة لو كانت سرعتها في الساعة ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٨٠ كيلو متر لوصلت إلى الشمس خلال هذه المدة: (٨ دقائق و٢٠ ثانية). فلو كان هذا البعد نصف ما عليه الآن، لكانت درجة الحرارة على وجه الأرض أربعة أضعاف ما عليه الآن ولاحترق كل شيء وتبخرت المياه واستحالت الحياة على وجه البسيطة. وقد قال تعالى:

﴿وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾.

فلا ترى في كل ما خلق الله شيئاً عبثاً يناقض سنة الكمال.

إن الماديين كانوا يتذرعون بأشياء تافهة لاثبات نظريتهم العشوائية، وقد تقدم العلم وفند آراءهم الالحادية.

أنهم كانوا يقولون: إن بعض الأعضاء في البدن الانساني لا فائدة منها وهذا يخالف سنة الكمال. حين أن الحكمة متأصلة من جانب الله في كل شيء. وقولهم هذا كان منبعثاً عن جهل ونقص في العلم، انهم كانوا يقولون: إن (الزائدة الدودية) شيء زائد لا فائدة منها وقد علم بعد تقدم العلم أن لهذه الزائدة(Apendis) حساسية فائقة ازاء التعفنات الداخلية وهي بمثابة صافرة خطر.

وأما اللوزتان فكان يقال عنهما: أنهما زائدتان أيضاً، يجب اجتثاثهما في الصغر لئلا تكونا في المستقبل غدداً نتنة، ثم علم أخيراً أن لهاتين اللوزتين أثراً هاماً في سلامة البدن الانساني...

كان يقول علي عليه السلام: «لو شئت لجعلت من هذا الماء نوراً» والنور أو الضوء طاقة، كما أن الأشعاع طاقة. وقد علم أخيراً معنى قول علي عليه السلام بعد اكتشاف شيء عما في بطن الذرة وتحطيمها. فالماء مصدر عظيم للطاقة. وان الهيدروجين الثقيل الذي نحصل عليه من الماء العادي مصدر عظيم للطاقة. وان مفاعلات الاندماج سوف لا تختلف في حجمها عن المفاعلات الذرية (مفاعلات الانشطار) عند فلق الذرة وتحطيمها.

فالعلماء كما استخلصوا الطاقة من انشطار ذرات العناصر الثقيلة كاليورانيوم، بذلوا الجهود للحصول على الطاقة أيضاً من الماء العادي، وذلك بعملية الاندماج النووي لذرات العناصر الخفيفة كالديوتيريوم والتزتيوم كما في القنبلة الهيدروجينية، ولكن تحت وسائل التحكم.

ويحتوي الهيدروجين العادي على قدر من الهيدروجين الثقيل الثنائي، وهو إحدى مركبات الماء الذي يشغل خمسة أسباع مساحة الكرة الأرضية.

وقد بلغ اهتمام علماء الذرة لظاهرة الاندماج النووي مبلغاً كبيراً. لاعتقادهم الراسخ أنه في الامكان استخلاص كميات هائلة من الطاقة بهذه الطريقة بتكاليف زهيدة ودون التعرض لاخطار الاشعاعات الذرية وغيرها التي تنتج في عمليات الانشطار.

فالطاقة التي نحصل عليها من اندماج الهيدروجين الثقيل الموجود في ليتر

من الماء العادي، تعادل الطاقة الحرارية الناتجة من ثلاثمائة ليتر من الكازولين.

ولو أمكن التحكم في طاقة التفاعلات الاندماجية، واستخدمت لخير البشرية لتوفر للعالم قدر من الطاقة يكفيه حقبة من الزمن، تبلغ عشرة آلاف مليون سنة، دون اعتماد على مصدر آخر للطاقة، وقد أمكن الوصول إلى هذه النتيجة باعتبار أن: مساحة الكرة الأرضية تساوي ٢٠٠ مليون ميل مربع، والماء يشغل من هذا السطح خمسة أسباعه، بمتوسط عمق قدره ميلان، والهيدروجين العادي يكوّن تسع ماء البحار والمحيطات، وواحد من خمسة آلاف من هذا الهيدروجين من الهيدروجين الثقيل والعالم يستهلك الفحم بمعدل ستة آلاف مليون طن سنوياً.

ومما هو جدير بالذكر، أن الاندماج الهيدروجيني هو التفاعل الذي تنتج به الشمس طاقتها الحرارية العظيمة، وهو التفاعل الذي بنيت عليه التفجيرات الهيدروجينية المروعة التي تثبت امكان الحصول على الطاقة بعملية الاندماج ولكن دون تحكّم.

وقد تنبأ العالم الهندي «هومي بابا» بأن إطلاق طاقة الاندماج بطريقة تمكننا من التحكم فيها سيتم خلال العشرين سنة القادمة، وهو يعتقد أن العصر التاريخي الذي نقتحمه قد يعتبر يوماً ما فترة بدائية للعصر الذري.

كل ذلك يدل على أن الكمال المودع من جانب الله تعالى في العالم المادي قد بلغ أقصاه، فلا بد من شمول هذا التكامل أو الكمال عوالم الأنفس والأرواح، أي لا يستثنى من هذا الكمال الانسان، فلا بد من فطرة توجه الفرد الانساني إلى معرفة ربه والقيام بالأعمال الصالحات.

وكمثال آخر على الكمال المودع في العالم المادي وارتباطه بعوالم النفوس أقول: أن العلماء المحدثين قد حسبوا أنهم لو أرادوا أن يخترعوا جهازاً يقوم بما يقوم به العقل الانساني من أعمال خارقة لاحتاجوا إلى جهاز بسعة كرتنا الأرضية. وعلموا أيضاً أن الفكرة أو الحكمة المبذولة في تركيب مفصل من المفاصل في البدن الانساني هي أعظم من الفكر المبذول في صنع القنبلة الذرية، مع وجود أجزائها من جانب الله تعالى في هذه الأرض قبلاً.

كما أن ظاهرة الطيران في الطيور بمراحلها الثلاث[1] هي من أعجب الظواهر الطبيعية، بسبب صعوبة القيام بها وتفسيرها تفسيراً قاطعاً علمياً مانعاً بل هي من المسائل التي لم يستطع علماء الطير حلها. فما أعظم ما أودع الله فيه من كمال!.

إن الكمال الذي أودعه الله تعالى في كل جزء أو جزيء من هذا العالم الرحيب يتجلى بوضوح لا مزيد عليه بحيث يوحي الينا أن ليس في الكون المادي شيء إلا وقد بلغ أقصى مرتبة من مراتب الكمال أو هو متكامل، يتابع ما منّ له من مراتب كمالية متسلسلة حتى يبلغ الغاية القصوى من الكمال المحدد له، مع العلم أن في كل مرحلة من مراحل الكمال من الدقة والتفكير ما يحير الألباب.

هذا ما نشاهده في العالم المادي. وان العالم المادي مخلوق الله الكامل على الاطلاق. وبما أنه لا يترشح من الكامل على الاطلاق إلا الكمال، وجب أن يتجلى الكمال في كل زاوية من زوايا هذا الكون مع ارتباط بين الزوايا والأجزاء، ارتباط يحتم هذا التكامل ويشير أن الصانع له واحد متفرد في الوحدانية لا يشاركه في خلقه إياه أحد: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور؟﴾[2].

إذن يجب أن لا تشذ عن سنة الكمال النفوس: هذه النفوس البشرية التي خلقها الله بارادته وركب فيها توحيده وتقديسه بمشيئته وهو قوله تعالى. ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾.

فقضية توحيد الله، تبارك وتعالى، أمر فطري داخل في ناموس الكمال العالمي، دون أن نحتاج إلى التمسك بـ(قاعدة اللطف). كل ذلك لأن

---

(١) الأولى وتعرف بالانزلاق: يبسط الطير فيها جناحيه دون أن يحركهما. والثانية وهي الدفيف: يضرب فيها بجناحيه رفعاً وخفضاً ضربات متتابعة، والثالثة: طيران الصف ويأتيه الطير بجناحين منبسطين فلا يحركهما.

(٢) سورة الملك: ٣

الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر عنه إلا الكمال. ومن أهم نقاط الكمال لهذا الانسان: توحيد الله تعالى وتقديسه وتسبيحه.

﴿ألَمْ ترَ أن الله يسبح له مَن في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريقي الخير والشر. فقد ألهمنا الله تعالى طريق الخير وطريق الشر. فالانسان محكوم لما تمليه عليه فطرته أو عقله الباطني قبل بعثة الرسل، وهكذا أولئك الذين لم تصل اليهم الدعوة الاسلامية. إنما أقول: الدعوة الاسلامية، ذلك لأن الاسلام، دين الله في أرضه منذ أن خلق آدم أول الأنبياء ﴿ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[2].

انه تعالى يقول: ﴿ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾.
لذلك، يرى الفرد في عنفوان حياته، وان لم تبلغه تعاليم السماء، أنه ينكمش عند ارتكابه أول معصية ويتردد ويرتبك، كأن قوة خفية تدفعه عن اقتراف الذنب. كل ذلك، لأن الله أودع في النفس الانسانية بالفطرة هذا الرادع النفسي. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله «العقل نور القلب، يفرق بين الحق والباطل».

فالنفس الانسانية تنكمش عند أول معصية والعقل الطبيعي: غير الملوث بالموبقات يمنعها ويردعها. فقد جاء في الحديث: (العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان).

ولكن هذه النفس لو تمادت في غيها وضلالها ولم ترتدع بنداء الفطرة تكون محكومة لشيطانها. فينسحب العقل.

يقول علي عليه السلام: «لو قارف عبد ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

وقد قال رسول الله (ص) ذات يوم لأصحابه: ألا أخبركم داءكم عن

(١) سورة النور: ٤١.

(٢) سورة آل عمران: ٦٧

دوائكم، قالوا بلى، يا رسول الله. قال: داؤكم الذنوب، ودواؤكم الاستغفار.

انه تعالى يقول: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم، قالوا بلى. شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[1].

فالله تعالى قد غرس أسس التوحيد في النفس الانسانية، عملاً بسنة الكمال، فالذي ينحرف، إنما ينحرف لظلمات في نفسه، جاءته من ناحية الذنوب وعدم القيام بمعطيات الفطرة: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون، حتى إذا جاءنا قال: يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾[2].

فالله الذي لا يصدر عنه إلا الكمال، قد أكمل الانسان من النواحي الروحية: بأن غرس فيه أصول المعارف الالهية، وقد جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فإنما أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه» لذلك، يقول أحد علماء الآثار: لا يمكن أن ترى منذ أن وجد البشر على وجه البسيطة، جماعة، أو قرية أو ناحية مهما كانت صغيرة إلا ولها معبد يتعبد الناس فيه.

والفرق بين القوانين الكونية كقوانين الجاذبية العامة، قوانين الضوء الهندسي أو الحكمي أو قوانين تفاعل العناصر إلى ما هنالك، ـ وفطرة النفس الانسانية: أن هذه الفطرة (أو الاسلام والتوجه إلى الحق المتعال) قابلة للتحول، وليست كالمادة مسلوبة الاختيار والارادة. . . فقد منَّ الله تعالى على هذا الانسان بالارادة بعد أن جهزه بعقل وأراه النجدين[3]: ﴿ليهلِك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧١.

(٢) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨.

(٣) طريقي الخير والشر.

فلا عذر لمن انحرف عن الصراط السوي وتبع هواه: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زيِّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾[1].

وان الله تعالى قد عرف الانسان منذ أن خلقه الشيطان ودسائسه: ﴿ان الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدواً﴾[2].

فعلى الانسان أن لا يطيع الشيطان وأن لا يذعن لمكائده ودسائسه. مع العلم أنه ليس للشيطان أية سلطة على الانسان: ﴿وقال الشيطان لما قضيَ الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم، فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ، أني كفرت بما اشركتموني من قبل، إن الظالمين لهم عذاب اليم﴾[3].

يظهر مما أسلفنا أن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في الجماد والنبات والحيوان والانسان. وبما أن التكامل الانساني بما هو انسان ينحصر في المعارف الالهية والأخلاق الفاضلة، لذلك، غرس الله تعالى أصول المعارف وأعني بها: التوحيد، وتقديس الله تعالى، الميل إلى العبادة والخشوع، ذكر الله تعالى في الشدائد والتوجه إليه... إلى ما هنالك في النفوس البشرية تثبيتاً لسنة الكمال: هذه السنة التي لا بد وان تتحقق في كل ما خلق الله تعالى بصورة ضرورية، وقد أكمل الله ذلك بإرسال الرسل ليهدوا الناس سواء السبيل ويعرفوهم طرق السعادة المقربة اليه تعالى ويعلموهم الحلال والحرام على حد قول علي عليه السلام، إذ يقول: «وأرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم ويهدوهم إلى معايش تحييهم».

فبعث الأنبياء أمر طبيعي، لا بد من تحققه عملاً بسنة الكمال من جانب الله تعالى في هذا الكون أو الوجود، وتحقيقاً للكمال العالمي في الجماد والنبات والحيوان والانسان والجن والملائكة.

---

(١) سورة محمد (ص): ١٤.

(٢) سورة الفاطر: ٦.

(٣) سورة ابراهيم عليه السلام: ٢٢.

ولما كانت تزكية النفوس من أهم عناصر الكمال لذلك جعل الله سبب بعث الأنبياء: التزكية. بقوله جل من قائل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

وأما الرحمة فهي من صفات الله تبارك وتعالى وكذا اللطف، وهو القائل: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سواءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾. ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً، فتصبح الأرض مخضرة، ان الله لطيف خبير﴾[1]. ﴿الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾[2].

فلطف الله تبارك وتعالى يأتي بعد هذا الدور التكاملي، ليمن على من يشاء من عباده بالتوبة ومزيد النعمة: ﴿ان الله كان لطيفاً خبيراً﴾[3].



(١) سورة الحج: ٦٣.

(٢) سورة الشورى: ١٩.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٤.

سنة الكمال في الكون الرحيب

إن نظرة واحدة إلى هذا الكون الواسع الأرجاء وما فيه من نظم وقوانين وعلاقات تكاد لا تتناهى توصل الانسان إلى هذا الحكم القطعي: أن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا الكون المادي الرحيب إلى أبعد الحدود.

فتكوُّن الشمس والأرض والقمر والكواكب وملايين النجوم في ملايين من المجرات وملايين الشموس التي هي على الأكثر اكبر من شمسنا هذه، قد جرى تحت قوانين رياضية وطبيعية ثابتة أودعها الله هذا الكون. وهو مما يدل على أن الخالق لهذا الكون قد بلغ من القدرة والتدبير إلى حد لا يتناهى وإن ما وصل إليه هذا الانسان من معلومات ودساتير لا يعادل شيئاً مما هو كائن أو يكون.

إن نسبة علم الله تعالى إلى علم الانسان المحدود هي نسبة المحدود إلى غير المحدود أو نسبة المتناهي إلى غير المتناهي أي كنسبة $\frac{ب}{\infty}$، ومآل هذه النسبة لا محالة هو: الصفر.

والقرآن الكريم هو أول كتاب علَّم الناس العلاقة بين الرياح وهبوبها وتكاثف بخار الماء باثارة السحب ونزول المطر وذلك بقوله جل من قائل:

﴿الله الذي يُرسل الرياح فتثير سحاباً، فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسفاً، فترى الودق يخرج من خلاله﴾[١].

فمن سنة الكمال هذه الدورة المائية التي نشاهدها ما بين البحار والمحيطات وجو الأرض. فان أشعة الشمس تعمل على تبخير المياه من سطوح المحيطات، وعندما يحمل الهواء هذه الأبخرة إلى أعلى وتبرد،

---

(١) سورة الروم: ٤٨.

تتحول إلى نقط من الماء أو بلورات من الثلج أو هما معاً داخل السحب، ثم لا تلبث أن تنهمر هذه المكونات إلى سطح الأرض وتعود إلى المحيط من جديد اما مباشرة أو عن طريق الأنهر أو المياه الجوفية... الخ. ولا سبيل إلى إيقاف هذه الدورة.

هذه دورة واحدة من دورات الحياة ومثلها توجد دورات تعد بالعشرات في شتى حقول الحياة من عضوية وغير عضوية يعزى اليها استمرارية الحياة في هذا الكون بأمر من الله تعالى. وهناك أيضاً دورات أخرى لا تعد ولا تحصى خارج منظومتنا الشمسية لا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءاً، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين[1] وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الانسان لظلوم كفار﴾[2].

وقد جعل الله تعالى غاز الاوكسيجين أساس الحياة على الأرض، إذ تستنشقه الكائنات الحية، فيجدد نقاء الدم فيها ويكسبها القدرة على العمل وهو يخرج مع هواء الزفير في صورة غاز (ثاني أوكسيد الكاربون)، ويذوب الأوكسيجين في الماء (٤,٠ سانتيمتر مكعب منه يمكن أن تذوب في غرام واحد من الماء في الأحوال العادية). ولذوبانه هذا في الماء أهمية عظمى، إذ تستمد الحيوانات والنباتات المائية ما يلزمها للتنفس من الأوكسيجين المذاب في الماء.

والغلاف الهوائي فوق الأرض طبقات مرصوصة من الهواء بعضها فوق بعض. ونجد أن أكثر الطبقات كثافة وتضاغطاً هي الطبقات القريبة من سطح الأرض، حيث يتركز نحو نصف كتلة هواء الأرض بأسره في الستة

---

(١) دائبين: جاريين في فلكهما لا يفتران.

(٢) سورة ابراهيم عليه السلام: ٣٢ ـ ٣٤.

الكيلومترات الأولى، بينما ينتشر النصف الآخر في الطبقات التي تعلو ذلك وتمتد إلى مشارف الفضاء الكوني.

وكلما نقص الهواء في المرتفعات (أي مع الارتفاع) نقص كميات الأوكسيجين كذلك، بحيث أننا إذا بلغنا ارتفاعاً معيناً لا يكفي الأوكسيجين الجوي للتنفس، ويشعر المرء إذ ذاك بضيق الصدر والاختناق.

وإن القرآن الكريم قد أوضح ذلك قبل كشف هذه الحقيقة من قبل علماء الطبيعة، بقرون. وذلك بقوله جل من قائل:

﴿ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾[1].

* * *

رغم محاولة الانسان مدة مديدة لمعرفة كيفية تكوُّن العالم، فأنه لا يزال في دور التخمين والحدس. ولذلك قلما نجد علماء العصر الحاضر يتصدون إلى وضع نظرية مبنية على أسس علمية من شأنها أن توضح كيفية تكون العالم بأجمعه. وان ما وضع من نظريات لحد اليوم تجرح وتعدَّل من حين إلى حين وهي بعيدة عن الواقع كل البعد. انه تعالى يقول:

﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾[2].

غير أن النظام الشمسي بمفرده ليس مجهولاً تمام الجهل، والحقائق الكثيرة التي نعرفها عنه حدت بعدد غير قليل من العلماء إلى وضع بعض الآراء والنظريات عن كيفية حدوثه وتكونه.

منها: أن النظام الشمسي لم يتألف ولم يكتسب شكله الحالي بطريق الصدفة، فأجزاء المادة التي تتصل كيفما اتفق بالشمس (كالمذنبات وما شابهها) لا يعقل أن تجتمع كلها في مستوٍ واحد على وجه التقريب وأن

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) سورة الكهف: ٥٢.

تكون مداراتها وأفلاكها قليلة التفلطح (على شكل قطع ناقص) وقريبة من الدائرة.

فلو كانت السيارات قد التحقت بالشمس عن طريق الصدفة لاقتضى أن تكون أفلاكها ومداراتها مختلفة التفلطح والميل بشتى الأشكال. غير أنا نرى أن النظام الشمسي مرتبط بعلائق كثيرة منظمة منها:

١ - أن مدارات الكواكب أو السيارات حول الشمس بأجمعها على شكل اهليليجي (القطع الناقص) تقرب من الدائرة.

٢ - تقع هذه الأفلاك أو المدارات بأجمعها في مستوٍ واحد تقريباً (ما عدا أفلاك النجيمات).

٣ - إن الكواكب (أو السيارات) تدور بأجمعها حول الشمس باتجاه واحد.

٤ - تبعد الكواكب (أو السيارات) عن الشمس بعداً منتظم الاطراد.

٥ - إن المستويات التي تدور فيها الكواكب أو السيارات على محورها تنطبق تقريباً على المستويات التي تدور فيها حول الشمس.

٦ - إن اتجاه دوران السيارات (الكواكب) على محورها هو نفس اتجاه دورانها حول الشمس.

٧ - تدور أقمار السيارات والكواكب حولها في مستوٍ ينطبق تقريباً على مستوى دوران الكوكب (السيارة) حول الشمس.

٨ - إن أقمار الكواكب (السيارات) تدور على الغالب في نفس الاتجاه الذي تدور فيه السيارات والكواكب حول الشمس.

٩ - إن السيارات أو الكواكب الضخمة هي أسرع السيارات في الدوران على محورها.

فهذه العلاقات المنظمة توحي الينا أن يداً قديرة قد أنشأت هذه الأفلاك والكواكب بحكمة فائقة ونظام بديع إلى أبعد الحدود. ﴿الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾[1].

---

(١) سورة الروم: ٥٤.

وكمثال على أن النظريات التي توضع من قبل العلماء ولا تؤيدها التجارب والحوادث المتأخرة نذكر نظرية (بوفون).

قال (بوفون): ان الأرض وما يدور حولها من كواكب كانت في بداية الأمر كتلة غازية نارية مندمجة في الشمس، وانها انفصلت عن الشمس على أثر تصادمها مع مذنب أو مذنبات كبيرة. فكل مصادمة من هذا النوع كانت تؤدي إلى انشطار كتلة عظيمة من الشمس وتشكل إحدى السيارات (الكواكب).

ولقد فُنِّدت هذه النظرية لعلمنا أخيراً عن تركيب المذنبات وقواعد الميكانيكا. ذلك لأنه:

١ - لم يشاهد لحد اليوم مذنب ذو كتلة كبيرة تصطدم بالشمس، فتقذف على أثر هذه المصادمة كتلاً كبيرة كالكواكب.

٢ - لو كانت السيارات قد انفصلت عن الشمس على أثر تصادم جسم غريب لوجب أن تكون مدارات السيارات (الكواكب) مفلطحة تفلطحاً كبيراً طولانياً بمقتضى قواعد الميكانيكا... أي وجب أن تكون نسبة نصف القطر القصير إلى نصف القطر الطويل كسراً بعيداً عن الواحد.

إن أشهر النظريات اليوم في تكون المنظومة الشمسية هي نظرية وضعها الفيلسوف الألماني (عمانوئيل كنت) وأصلحها العالم الفرنسي الرياضي الشهير (لابلاس) في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وقد حاول لابلاس أن يطبقها على القواعد الرياضية، فجاءت كما يلي:

١ - إن المادة التي تتألف منها الشمس والكواكب كانت فيما مضى مبعثرة بشكل (سديم) كبير.

٢ - وإن هذا السديم الغازي كان شديد الحرارة منتشراً كالسحاب.

٣ - فلما برد قليلاً تجاذبت دقائقه نحو مركزها المشترك فدار على نفسه في الجهة التي تدور فيها السيارات حول الشمس وكان دورانه مدأً عن

اختلافات عرضية في كثافات أجزاء السديم الأصلي وسرعها، ثم استمرت الحرارة على الانتشار، فازداد بذلك تكاثفاً وانقباضاً وازدادت سرعته الدورانية على أثر انقباضه لأسباب ميكانيكية.

٤ ـ فكان من جراء هذه الحركة الدورانية أن تفلطحت تلك الكتلة الكروية عند القطبين واستمر هذا التفلطح حتى أتى يوم أصبحت فيه قواعد التباعد عن المركز في الأجزاء الاستوائية مكافئة لقوة الجذب نحو المركز، فانفصلت على أثر ذلك حلقات سديمية تماثل حلقات زحل من تلك الأجزاء الاستوائية.

٥ ـ وكانت الحلقة المنفصلة حين انفكاكها تدور بأجمعها حول السديم الأصلي مدة مديدة من الزمن، ثم تنفرط فتتجمع دقائقها بشكل كرة غازية وتأخذ هذه الكرة بالدوران حول الكتلة الأساسية، فتتشكل بهذه الصورة إحدى السيارات (أو الكواكب).

٦ ـ والسيارة بدورها كانت تتعرض لنفس الحالة التي تعرَّض لها السديم الأصلي. فتنفصل عنها حلقات سديمية يؤول بها الأمر إلى تشكيل أقمار لتلك السيارة. أما حلقات زحل فأنها احتفظت بشكلها حتى الآن؟.

* * *

إن النظريات التي تؤسس لحل مشكلة النظام الشمسي أو تكوُّن العوالم التي خلقها الله تعالى بقدرته وقدَّر فيها أقواتها في هذا العالم الرحيب من مجرات لا تعدُّ: مجرات في كل منها ملايين النجوم وملايين الشموس التي تبعد عنا مسافات لا تقدر بملايين الأميال على ما ثبت أخيراً، هي نظريات مضطربة، قلقة، تعدَّل من حين لآخر كلما عثروا على ظاهرة لا يمكن أن تفسر على النظرية الموضوعة. ذلك، لأن الانسان لم يقف بعد على جميع ما أودع الله من قوانين في علم الميكانيك السماوي، وما وضع من خواص تكاد لا تتناهى في العناصر والأجسام. وهذه النظريات محاولات علمية

تكشف عن بعض ما أودع الله من قوانين ميكانيكية وخواص طبيعية في هذا الكون الرحيب.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أو لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[١].

فالله تعالى يخبرنا في الآية المتقدمة، أن كل ما في هذا الكون المادي من أجرام ونجوم وشموس وأقمار ومجرات ونيازك وسدم وغازات: كل ذلك كان في باديء الأمر، بأمره تعالى، ملتصقة بعضها بالبعض الآخر، وانها انفصلت وتناثرت بقوله جل من قائل: كُن، حسب ما يريد وتباعدت وصارت تدور في مدارات اهليليجية أو شبه دائرية حسبما سنَّ الله من قوانين ميكانيكية وخواص معينة فيما خلق من عناصر: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾. (سورة يس).

لذلك يعتقد علماء العصر الحاضر أن السديم هو الحالة الابتدائية للنجوم أو المجموعات النجمية، وأنها في الوقت الحاضر في حالة التكاثف والتقلص، ولذلك، لا بد وان تنتج آجلاً أو عاجلا مجموعة من الكواكب أو عدداً من الشموس المماثلة لشمسنا.

إن السُدم[٢] تختلف اختلافاً تاماً عن الكواكب المجتمعة وان شابهتها في ظاهرها. فانها لا تنحل إلى كواكب مستقلة لا بالمرقب ولا بالتصوير الشمسي، كما أنه يتبين من التحليل الطيفي[٣] أنها تتألف من مواد غازية محتوية على عنصر يجهله علماء الكيمياء على الأرض، ويدعونه (الغاز السديمي) نسبة إلى السديم.

وقد قال الله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٢) السدم: جمع سديم.

(٣) إن أطياف النجوم وتحليل ضوءها الأبيض وما يظهر من خطوط عند التحليل تعرفنا على ما في النجوم من عناصر وذلك بعد قياس طول موجات تلك الخطوط الطيفية.

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين﴾[1]

وقوله في سورة: الدخان:

﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾.

إن أشكال السدم تختلف اختلافاً كلياً. فبعضها تظهر بشكل منظم كروي أو لولبي أو عدسي أو حلقي وأما البعض الآخر فيظهر في أشكال غير منتظمة لا يمكن حصر أنواعها.

وإن الرصد قد أظهر أن منظر السديم يتغير كلما ازدادت قوة تكبير المرقب (تلسكوب) حيث تبدو عندئذ بعض أقسام وفروع لم تكن مرئية في المراقب الضعيفة أو المتوسطة، وهكذا نرى أنه كلما اتسع أفق العلم في اختراع مراقب كبيرة والوقوف على خواص الذرة ومعادلاتها المعقدة وفي الميكانيك السماوي والتحليل الرياضي كلما شاهدنا عوالم أخرى فأخرى إلى حيث لا يتناهى في هذا الكون الرحيب.

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[2].

* * *

لنتكلم قليلاً عن المجرة. لو نظرنا إلى السماء في ليلة ظلماء لا قمر فيها ولا نور لرأينا منطقة طويلة تمتد فوق رؤوسنا كالقوس، يمتد من أفق إلى أفق وقد تركزت فيها النجوم بمقدار كثير، وتكثفت فيها إلى حد بعيد، بعضها فوق بعض. وبما أن هذا المنظر يكاد يشبه بياض ماء النهر في سواد الأرض، لذلك سمي بالمجرة أي النهر الجاري.

وقد سميت المجرة من قبل العامة بسكة التبانة، أو درب التبانة، كأن

---

(١) سورة حم ـ سجدة: ١١.

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

هنالك تبناً منثوراً سقط من تبان عند سلوكه طريقاً من الطرق. وقد سماها اليونانيون (طريق اللبن).

فالمجرة مجموعة نجوم كثيرة جداً عدد الرمل، وفي المجرة من السدم ما يحول بيننا وبين ما ورائها من نجوم.

يمكن تشبيه المجرة إلى قرص مفرطح كالرغيف ولو أننا جعلنا للرغيف قطراً وجعلنا له ارتفاعاً لكان قطر القرص أو المجرة عشرة أمثال ارتفاعه.

إن مجرة الدرب التبانة التي تضم كوكبنا يبلغ قطرها حوالي ١٠٠ ألف سنة ضوئية. وبما أن الضوء يقطع في سنة واحدة مسافة قدرها ٩,٥ مليون مليون كيلومتر إذن قطر مجرتنا هذه يساوي مائة ألف مضروباً في تسع ونصف مليون مليون كيلومتر.

ولما كانت شمسنا هذه نجماً لا يعتد به، يقع على مسافة حوالي ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركز المجرة ويدور في مدار خاص به كل ٢٠٠ مليون سنة أثناء دوران المجرة. وبهذا ندرك مدى صعوبة تصوُّر المقياس الهائل للكون الذي يقع وراء المجموعة الشمسية.

إن الفضاء الذي يقع بين النجوم في مجرتنا ليس نهاية هذا الكون، فوراءه، ملايين من المجرات الأخرى، تندفع جميعاً، كما يبدو، مبتعدة عن بعضها البعض بسرعات خيالية، قد تبلغ نصف سرعة الضوء في الثانية أي حوالي ١٥٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية، وتمتد حدود الكون الذي يمكن رؤيته بالمجهر مسافة ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية على الأقل في كل اتجاه. وهو قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون﴾[١].

إن ما ذكرناه من مسافات ومجرات يعرفنا ضخامة هذا الكون الرحيب، وهكذا نرى أن أصغر شيء مادي أو أصغر جسيم عرف لحد الآن أي الذرة تشبه في تركيبها المجموعة الشمسية غاية الشبه، ذلك لأن الذرة مكونة من الكترونات تدور بسرعة هائلة حول النواة (المركز) أي حول البروتون.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

هذا ويرى الانسان أن أصغر شيء في هذا الكون وأعني به الذرة إلى أضخم شيء يمكن تصوره وهو المجرات الضخام التي تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية كلها تسير في مدارات مرسومة محددة في علاقة كل منهما بالآخر.

قد بلغ رائدو الفضاء إلى حوالي سرعة قدرها (٢٩) ألف كيلومتر في الساعة في الدوران حول الأرض أي حوالي ٨ كيلومترات في الثانية، وهي سرعة كبيرة تماماً بالنسبة إلى مقاييسنا الأرضية، وهذا الرائد يكون إذ ذاك على ارتفاع ١٦٠ كيلومتراً عن سطح الأرض.

فكوننا هذا يضم الوف الملايين من المجرات وكل مجرة منها تحوي الوف الملايين من النجوم، وعند الحافة الخارجية لاحدى هذه المجرات وهي مجرة طريق التبانة أو (درب التبانة) نجم متوسط الحجم معتدل الحرارة إزداد لونه اصفراراً بسبب الشيخوخة... هو شمسنا.

والأرض واحدة من أجزاء مختلفة بدأت بأمر من الله في يوم ما بطريقة لم تعرف (ولن تُعرف) تدور حول الشمس. ولا يزيد سمك قشرة الأرض على بضعة كيلومترات. تحتها صخور منصهرة ومعادن تغلي وسط حرارة شديدة. لا يمنعها من أن تتحول إلى لهيب إلا الغلاف الذي يحولها من (الغرانيت والبازلت). وبين هذين النارين حيث الجمرات المكدسة لهذا الجزء الذي نعيش فوقه من هذا النجم البارد والنجم المتوهج الذي نرتبط به، يقف الانسان في الحياة مع الطيور والحيوانات ولكن ما أضعفهم جميعاً: ﴿وخلق الانسان ضعيفاً﴾[1].

فهذه الشركة من الحياة يمكن أن تفنى إذا حدث أي تغيير دائم لنسبة ضئيلة من طاقة الشمس سواء بالزيادة أو النقصان.

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده﴾[2]... (أن أمسكهما: أي: ما أمسكهما).

---

(١) سورة النساء: ٢٧

(٢) سورة فاطر: ٤١

فأرضنا هذه إنما هي هباءة في موضع مدحور، قرب الطرف من مجرة (درب التبانة) التي فيها مئات الملايين من النجوم. على أن هنالك مئات الملايين من المجرات وفي كل مجرة مئآت الملايين من الأنجم. إذن، ما قيمة هذا الانسان بالنسبة إلى ما خلق الله تعالى مما لا يتناهى من عوالم، هي من حيث الكبر أضعاف أضعاف أرضنا هذه، فليدع الانسان من نفسه الغرور: ﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك﴾. وليعبد ربه: ﴿وما خلقت الجنَّ والأنس إلا ليعبدون﴾[1]. وليعلم أنه لم يُخلق عبثاً: ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾[2]، ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[3]. ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا، إن كنا فاعلين﴾[4].

على الانسان أن يعبد ربه بجميع ما في العبادة من معنىً سامٍ رفيع، يعبد ربه بخشوع وخضوع في صلاة يؤديها لوجه الله، يعبد ربه بقيامه بأداء حقوق الوالدين والأرحام والأصدقاء، وبقضاء حوائج الناس ودفع الكُرب عنهم. فقد جاء في الحديث: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم»، يعبد ربه بنشره حقائق الاسلام بين الناس ولا سيما بين المثقفين بثقافة العصر، فما أحوجهم إلى تفهم الاسلام تفهماً صحيحاً لا شائبة فيه، وبتضحيته بنفسه ونفيسه في سبيل نشر الاسلام في أرجاء الأرض، فلا أجر أعظم من أجر من قام ببث حقائق الاسلام في العالم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله حين أوفد علياً عليه السلام إلى اليمن: «يا علي، لئن يهد الله بك رجلاً واحداً كان خيراً لك مما طلعت عليه الشمس».

---

(١) سورة الذاريات: ٤٦.

(٢) سورة المؤمنون: ١٤٦

(٣) سورة الدخان: ٣٨.

(٤) سورة الأنبياء: ١٦ ـ ١٧.

ولنعدْ إلى هذا الكون الرحيب وما أودع الله فيه من سنن الكمال.

نحن لا نزال ضمن نطاق مجرتنا (درب التبانة)، فإذا انتقلنا إلى المجرات الأخرى وجدنا أرقاماً لا تكاد يصدقها العقل. فالتلسكوبات الحديثة اكتشفت مجرات على بعد ألف مليون سنة ضوئية وأكثر. ويقدر (شارليهCharlier) أن قطر الكون (حسبما توصل اليه علم البشر أخيراً) عشرة آلاف مليون سنة ضوئية. أي أن الحادث الذي يحدث في مجرة واقعة طرف الكون لا تعلم (أو يستحيل أن تعلم به) مجرة في الطرف الآخر قبل مرور عشرة آلاف مليون سنة من سنواتنا.

فالكون واسع جداً، مترامي الأطراف، كل شيء فيه في حركة مستمرة منتظمة، ولا يوجد رابط زمني يربط ما بين أجزائه حسب نظرية (آينشتين) فكلمة: (آلان) لا معنى لها إلا في هذه الأرض!.

* * *

إن علماء الطبيعة الفلكية يعلنون أن ليس هناك نجوم ثابتة. خذ مثلاً: النجمين الشهيرين (نيِّر التوأمين) و(رأس هرقل) الذين عرفا دائماً بأنهما: (زوج واحد)، وقد بلغ من تقاربهما في السماء، وتقارب نفس الدرجة من البريق بينهما وعدم التغير في ملازمة كل منهما للآخر، أن العلماء كانوا يسمونهما بالتوأمين. إلا أن التلسكوب والمرقب الطيفي واللوحات الفوتوغرافية تقول: أن لا صلة بين هذين النجمين في أية ناحية من النواحي. فهما يسيران في طريقين مختلفين، والأول يبعد عن الأرض أكثر من مرة ونصف مرة من المسافة التي يبعدها عنها النجم الثاني. والواضح أن هذين النجمين غريبان عن بعضهما البعض. تصادف فقط ظهورهما مقتربين إلى حد ما عندما ننظر اليهما من موقعنا الحالي على ظهر الأرض. أما بالنسبة للكون المترامي الأطراف الذي فيه ما لا يعد من نجوم، فأنه لا يظهر فيهما أي تغيير محسوس، وهما دقيقان نسبياً في حركتيهما عبر السماء بالمقارنة مع أعماق الفضاء. ولا تستطيع العين البشرية أن تدرك الفروق بينهما من مثل هذا الفضاء الفسيح.

ولكن الكثير يختفي من عيوننا. فنحن إذا ركزنا اهتمامنا من خلال التلسكوب على (نير التوأمين) وحده، وجدنا أنه ليس نجماً واحداً، بل نجمان، يفصل بين كل منهما والآخر مسافة تزيد مائة ضعف على المسافة بين الأرض والشمس. وأننا عندما نستخدم اكثر الأجهزة دقة في المراصد نكتشف ان ما يبدو للعين نجماً واحداً ثابتاً هو في الواقع مجموعة تضم ستة نجوم معاً، في ثلاثة أزواج. يدور كل نجم منها في فلك خاص وبسرعة خاصة.

ولما كان رجال البحر يعرفون الحالة الداخلية الحقيقية للنجم (نيِّر التوأمين) والدوامات التي تدور في داخله ودوراته السريعة في مكانه القديم المعتاد في خريطة النجوم، فان ذلك يجعله علامة ثابتة تصلح للاسترشاد بها في قيادة السفن.

وقد أثبت علم الفلك الحديث أن السماء الهادئة مكان لا تناسق فيه، يحوي شموساً لا حصر لها، تندفع في كل اتجاه تقريباً بمفردها أو في اعداد كثيرة، كأنها جزيئات متحركة لغاز من الغازات.

فالنجم (النسر الواقع) يقترب بسرعة تبلغ ١٣ كيلومتراً في الثانية، بينما يتراجع النجم (الدبران) بسرعة ٥٣ كيلومتراً في الثانية. و(حارس السماء) يعبرها بسرعة ١٣٥ كيلومتراً في الثانية... أما نجما الطرفين من (الغطاس الكبير) فيتحركان في اتجاه واحد، في حين أن نجوم هذه المجرة الأخرى تتجاذب بسرعة عظيمة في الاتجاه المضاد.

* * *

ونجمنا الذي نعيش فيه ليس مستثنى من ذلك، فان الشمس تدور في طريق شاهق نحو الحافة الخارجية بطريق التبانة بسرعة ١٩ كيلومتراً في الثانية وهي تجر الأرض في أذيالها ومعها كل الكواكب الأخرى، وقد تحقق قوله تعالى (وهو الحق الأزلي): ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1].

(١) سورة يس: ٣٨.

وفي نفس الوقت تدور المجموعة الشمسية في قوس هائل بسرعة ٢٤٠ كيلومتراً في الثانية، بينما تدور المجرة نفسها كعجلة ضخمة من النجوم.

إن كل شيء في هذا الكون إنما يشاهد كما كان، لا كما يكون. فنحن نرى الشمس كما كانت منذ ثمان دقائق وعشرين ثانية مضت، ونرى النجم الشعرى كما كان منذ تسع سنوات ونرى (برج الثريا) كما كان منذ ٥٠٠ عام. ذلك لأن وصول شعاع (برج الثريا) الينا يستغرق ٥٠٠ عام. وقد تميز العين في ليلة صافية لا قمر فيها سحابة من الضوء الباهت لا تزيد على القمر، تدور في برج (المرأة المسلسلة)، وهذه سحابة واحدة من المجرات الخارجية، وهي تبدو لنا كما كانت منذ مليوني عام. أما ما حدث لنجومها التي لا تحصى بعد ذلك، فشيء لا يمكننا معرفته.

وبرج (المرأة المسلسلة) يقع عند الحد الخارجي للرؤية بالعين المجردة ولكنا قد نصل بالتلسكوب إلى ملايين السنين من ماضي هذا الكون. وعندما نستخدم لوحة فوتوغرافية حساسة في أقوى تلسكوب، فقد تصل بنا إلى ألوف الملايين من السنين. وقد أطلق على أشعة هذه الأجسام البعيدة اسم (الضوء الحفري)، وهي تسبق في تاريخها، حقاً، أكثر الحفريات التي وجدت على سطح الأرض. وان الانسان ليعجب كيف يمكن وقف ضوء بمثل هذا الضعف بواسطة طبقة غازية رقيقة أو ذرة من الغبار وهو قادر على أن ينطلق بأقصى سرعته المستمرة وقدرها ٢٩٩٨٦٠ كيلومتراً في الثانية أو ٣٠٠٠٠٠ كم/ثانية تقريباً طيلة ملايين السنين. وهذه الاشعاعات تظهر الفراغ النسبي للفضاء بالمقياس الرحب لهندستها المعمارية: ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[1]. ﴿صنع الله الذي اتقن كلّ شيء﴾[2]. ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً وقدره منازل، لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصِّل

---

(١) سورة الرعد: ٨ ـ ٩

(٢) سورة النمل: ٨٨

الآيات لقوم يعلمون﴾[1]. ﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى﴾[2]. ﴿ربنا الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى﴾[3].

* * *

وإذا صورنا قطاعات معينة من السماء استطعنا إجراء إحصاء للنجوم. ففي مرصد جامعة (هارفارد) صورة فوتوغرافية تحوي صور أكثر من ٢٠٠٠ مجرة خارجية وألفي طريق للتبانة ويقدر العلماء عدد المجرات التي يحويها الكون ٥٠٠ مليون مجرة وقد علم بطرق علمية أن مجرة درب التبانة تحوي حوالي (١٠٠) ألف مليون نجم.

نعلم من كل ما تقدم أن الكون واسع جداً، لم يبلغ البشر مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادة إلا إلى جزء ضئيل منه، وسيقف على شيء من عظمة هذا الكون كلما اتسع أفق العلم، لا سيما علم الذرة والرياضيات العالية والميكانيك السماوي وسيعلم حتماً أن ليس هنالك: (عَبثية أو عشوائية) في هذا الكون: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عَبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[4].

نعم، جاء (أينشتين) بقوانينه لنفي العبثية عن الكون وليثبت أن الظواهر الكونية كلها تخضع لقوانين رياضية ثابتة، هي أشبه بالنواميس الإلهية، تتحكم في الكون الذي غدا وجوداً هندسياً بديعاً. وقد حلَّت القوانين الرياضية والنظام محل العبثية والفوضى في نظر المتطرفين.

* * *

وكمثال لما أودع الله من نظام ودقة في الكائنات الدقيقة نذكر ميكروب (كوكات البكتريا) الدقيقة الحجم. فان طول كل من هذا الميكروب (ميكرون) واحد. والميكرون يساوي جزءاً من ألف جزء من الميليمتر،

---

(١) سورة يونس: ٥

(٢) سورة الأعلى: ١ ـ ٢

(٣) سورة طه: ٥

(٤) سورة المؤمنون: ١١٦.

نعم، أي أنا إذا صففنا ألفاً من هذه الكائنات التي يبلغ طول كل منها ميكروناً واحداً لوجدنا أن طول هذا الصف عبارة عن ميليمتر واحد. فإذا أخذنا سطحاً مربعاً طول ضلع من أضلاعه ميليمتر، فاننا نستطيع أن نضع على تلك المساحة الصغيرة مليوناً من تلك الميكروبات: (١٠٠٠ × ١٠٠٠). أما الميليمتر المكعب فانه يستوعب ألف مليون من مثل هذه الميكروبات: (١٠٠٠ × ١٠٠٠ × ١٠٠٠) فإذا عرفنا أن مجموع سكان الكرة الأرضية في مختلف الممالك والأقطار يصل إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف مليون نسمة فاننا ندرك بسهولة أن مثل هذا العدد من الميكروبات يمكن حشده فيما يعادل ٣ ميليمتر مكعب فقط.

ولتوضيح هذه الدقة في الحجم نأخذ مثلاً ميكروب الملاريا. «والميكروب في هذه الحالة عبارة عن حيوان أولي دقيق». فإذا لسعت البعوضة الناقلة للملاريا انساناً سليماً فأنها تنقل إليه أعداداً كبيرة من الميكروبات الموجودة في لعابها. وتصل هذه الميكروبات الدقيقة إلى الدم حيث تبدأ في مهاجمة الكرات الحمراء إذ يقتحم كل واحد منها إحدى هذه الكرات حيث يثقب غشاءها الخارجي دافعاً نفسه إلى الداخل، وعند استقراره داخل الكرة الحمراء يتخذ من محتوياتها غذاءاً له فيلتهمها تدريجياً حيث ينمو ويزداد حجمه ثم يأخذ بعد ذلك في الانقسام إلى ميكروبات جديدة، ويتم كل هذا داخل الكرة الحمراء ولكن ما هو حجم هذه الكرة التي يتخذ منها الميكروب مسكناً له يتسع لاستقراره ونموه وتكاثره؟... الواقع أن الكرة الحمراء نفسها دقيقة الحجم جداً. ولا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. إذ يبلغ قطرها حوالي ٨ ميكرون، ويوجد فيها ما يقرب من ٥ ملايين كرة في الميليمتر الواحد من الدم العادي. فإذا كان هذا هو حجم الكرة الحمراء فأننا نستنتج بلا جدال أن الميكروب الذي يستوطنها أصغر منها بكثير.

فإذا اتخذت الكرة الحمراء ـ وهي معروفة لدينا جيداً لأنها تسبح في

دمائنا بأعداد لا حصر لها - كوسيلة للمقارنة فانها تحتل مركزاً متوسطاً في عالم الأحجام الدقيقة[1].

وقد ثبت أن جميع الميكروبات تشترك في صفة واحدة هامة وهي استمرار حياتها بصفة لا نهائية. فبينما تموت النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها بعد فترة زمنية - تطول أو تقصر تبعاً للنوع - نرى أن الميكروبات لها حياة مستمرة، فان الميكروبات، لا تموت إلا في الظروف الخارجية الطارئة كتعريضها للحرارة الشديدة أو معالجتها بالمركبات الكيميائية القوية التي تقتلها. واما في الظروف العادية فحياتها مستمرة.

وتتضح هذه الحقيقة من طريقة تكاثرها. فالخلية الميكروبية، وهي كما ذكرنا دقيقة الحجم، تتغذى وتنمو ثم تنقسم إلى نصفين، يكون كل منهما ميكروباً جديداً، ويعيد كل من هذين النصفين القصة من جديد. فينقسم كل منهما إلى نصفين آخرين وهكذا في متوالية هندسية لا نهائية أساسها: ٢.

(١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، . . .، ٢ ن - ١).

ويتم تكاثر الميكروبات بسرعة مذهلة عند وجود الظروف الملائمة. إذ تنقسم الخلية الميكروبية في بعض أنواع البكتريا بعد نصف ساعة فقط من وجودها. ومعنى ذلك أن الجيل الجديد - وهو الذي يستغرق ظهوره في حالة الانسان عدة سنوات - لا يحتاج إلا إلى نصف ساعة فقط، ومعناه أيضاً أن هناك ثمانية وأربعين جيلاً متتابعاً في اليوم الواحد. فما بالك بعدد الأجيال التي تتكون في سنة واحدة أو في عدة سنوات. لا شك أن العدد يتضاعف إلى درجة يصعب على العقل ادراكها أو تصورها من ضخامته[2].

* * *

فلنعد إلى النجوم ولننظر إلى ما تقوم به من حركات معينة وفق دساتير رياضية متقنة حسبما حدده الله تعالى، فهذه النجوم تسبِّح الله تعالى في

(١) صراع مع الميكروب ص: ٤. للدكتور: محمد رشاد الطوبي.

(٢) نفس المصدر من ص: ١١

حركاتها ومداراتها: ﴿ألم ترَ أن الله يسبِّح له مَن في السماوات والأرض، والطير صافاتٍ كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾[1]. ﴿سبَّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2]. ﴿وان من شيء إلا يسبِّح بحمده﴾[3].

فكل شيء في هذا الكون خاضع لله، يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح سواء أكان هذا الشيء مادياً أو غير مادي، ذلك لأن مآل المادة: الذرات، وهي القوى الكهربائية من موجبة وسالبة، هي الطاقات. والطاقات تسبح الله تعالى كما يسبح الانسان والحيوان، ولكنا لا نفقه تسبيحها ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[4].

فالجبال تسبح الله تعالى مع داود عليه السلام: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾[5].

قال تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾[6]. ﴿أنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان، انه كان ظلوماً جهولاً﴾[7].

نعم، كل ما في السماوات والأرض خشوع لله وخضوع... لا يستثنى شيء أبداً. وهو القائل:

﴿إن كل مَن في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن، عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[8].

---

(١) سورة النور: ٤١

(٢) سورة الحديد: ١٠١

(٣) سورة الاسراء: ٤٤

(٤) سورة الاسراء: ٤٤

(٥) سورة سبأ: ١٠

(٦) سورة الحشر: ٢١

(٧) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٨) سورة مريم: ٩٦.

فأنى لهذا الانسان أن يشذ عن تسبيحه تعالى ويتبجح باكتشافه القمر الصناعي وذهابه إلى بعض الأنجم القريبة بسرعة لا تتجاوز ١٠ كيلومترات في الثانية. فما باله يلفظ المقدسات التي فيها الكمال النفسي، فيعود ليصبح خشبة عارية عن كل فضيلة، وروحاً جامداً أشبه شيء بالصخرة الصماء. ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾(١).

إن الله يأمرنا بتسبيحه كل يوم قبل طلوع الشمس وقبل الغروب بقوله جل من قائل: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار﴾(٢).

وبقوله: ﴿وأوحى اليهم أن سبحوا بكرةً وعشياً﴾(٣).

وبقوله: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار﴾(٤).

وبقوله: ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾(٥).

وبقوله: ﴿فاصبر إن وعد الله حق، واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار﴾(٦).

وبقوله: ﴿فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة: ٧٤

(٢) سورة طه: ١٣٠

(٣) سورة مريم: ١٠

(٤) سورة آل عمران: ٤١

(٥) سورة الحجر: ٩٨ ـ ٩٩

(٦) سورة المؤمن: ٥٥.

(٧) سورة ق: ٣٩ ـ ٤٠.

فما ألذ التسبيح لو كان خالياً عن كل شائبة فهو انغمار في الحب الإلهي، وذوبان في العشق اللاهوتي، ان في هذا التسبيح الخالص لذة تفوق كل لذة مادية، لذة لا تضاهيها أية لذة، لذة لا يريد الانسان أن يفارقها طرفة عين، لذة تأخذ بمجامع القلب إلى حيث الطمأنينة والارتياح النفسي. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]. لذلك نرى أن ابراهيم عليه السلام يقدم ما عنده من الغنم وكان يملي ما بين الجبلين، يقدمها إلى من نادى من بعيد بصوت رخيم: «سبوح قدوس، ربنا ورب الملائكة والروح».

ما أحلى التسبيحات في أيام شهر رمضان المبارك ومنها: «سبحان الله خالق ما يرى وما لا يرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين، سبحان الله الذي ينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته وينزل الماء من السماء بكلمته، وينبت النبات بقدرته ويسقط الورق بعلمه، سبحان الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾.

* * *

ولنستمع إلى ما يقوله علي عليه أفضل الصلاة والسلام حين تلا هذه الآية المباركة:

﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾.

﴿إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء القلوب، تسمع به بعد الوقرة[2]، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة».

«وما برح لله ـ عزت آلاؤه ـ في البُرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات[3]

(١) سورة الرعد: ٣٠.

(٢) الذكر: استحضار الصفات الالهية. والوقرة: ثقل في السمع. والعشوة: ـ مثلثة العين ـ ضعف البصر.

(٣) الفترة بين العملين: زمان بينهما، يخلو منهما، والمراد: أزمنة الخلو من الأنبياء مطلقاً. وناجاهم: خاطبهم بالالهام.

عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والاسماع والأفئدة. يذكرون بأيام الله، ويخوِّفون مقامه. بمنزلة الأدلة في الفلوات. من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه وبشروه بالنجاة. ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا اليه الطريق وحذروه من الهلكة. وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات.

وإن للذكر أهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة. ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين. ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه. فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك. فكأنما اطلعوا غياب أهل البرزخ في طول الاقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها[1] فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس. ويسمعون ما لا يسمعون.

فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم[2] المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصَّروا عنها، أو نُهوا عنها ففرطوا فيها، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال[3] بها. فنشجوا نشيجاً[4]، وتجاوبوا نحيباً، يعجون إلى ربهم في مقام ندم[5] واعتراف؛ لرأيت أعلام هدىً، ومصابيح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدَّت لهم مقاعد الكرامات، في مقام أطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم

---

(١) العدت: جمع عدة. أي: كأنما القيامة كشفت لهم عن الوعود التي وعد بها الأخيار والأشرار.

(٢) مقاومهم: جمع مقام، مقاماتهم في خطاب الوعظ.

(٣) ضعفوا عن الاستقلال بها: أي القيام بحملها.

(٤) نشج الباكي، ينشج، نشيجاً: غص بالبكاء في حلقه. والنحيب أشد البكاء. وتجاوبوا به: أجاب بعضهم بعضاً يتناحبون.

(٥) عج، يعج: صاح ورفع صوته، فهم يصيحون من مواقف الندم والاعتراف بالخطأ.

وحمد مقامهم، يتنسمون بدعائه روح التجاوز[1]. رهائن فاقة فضله، وأسارى ذلة لعظمته، جرح طول الأسى قلوبهم[2]، وطول البكاء عيونهم. لكل باب رغبةٍ إلى الله منهم يد قارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح[3] ، ولا يخيب عليه الراغبون. فحاسب نفسك لنفسك، فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرُك. (نهج البلاغة. الجزء الثاني. ص ٢٣٧).

فطوبى لأولئك الذين طال سجودهم وزاد خشوعهم وخنوعهم. فصفت نفوسهم وتزكت أرواحهم فخلت من أدرانها وآثامها، ثم عرجت إلى معالم القدس، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿وعهدنا لي إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾[4].

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[5].

﴿ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾[6].

﴿وإذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيًّاً﴾[7].

﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكَّر أولو الألباب﴾[8].

---

(١) تنسم النسيم: تشممه، والروح ـ بالفتح ـ النسيم. أي يتوقعون التجاوز بدعائهم له.

(٢) الأسى: الحزن.

(٣) المنادح: جمع مندوحة وهي كالندحة ـ بالضم والفتح ـ والمنتدح ـ بفتح الدال ـ المتسع من الأرض.

(٤) سورة البقرة: ١٢٥.

(٥) سورة المؤمنون: ١ ـ ٢.

(٦) سورة الاسراء: ١٠٩

(٧) سورة مريم: ٥٨

(٨) سورة الزمر: ٩.

هل للعلم الحديث أن يمد يداً

إلى ما وراء الطبيعة؟

من الواضح المعلوم أن العلم الحديث إنما يعمل في استخراج خواص المادة والقوانين التي محكوم لها (المادة) وتابعة لها والدساتير الرياضية التي تحكم المادة وتسيطر عليها، فلا تحيد المادة عنها قيد شعرة.

العلم الحديث يعمل في المختبرات لاجراء تجارب متعددة تحت شروط معينة وشروط مختلفة ثم يربط المشاهدات بعضها ببعض حسب قوانين رياضية عقلية بحتة دون أن يكون للتجربة دخل في المحاكمات المجردة الرياضية، ثم يستخرج العلم الحديث قانوناً رياضياً أو خاصية تحكم المادة ما دامت الظروف قائمة والشروط هي هي. لذلك كان يقول الفيزياوي المشهور: (لورد كلوين): «كل حادثة فيزياوية لا يمكن أن يعبر عنها بدستور رياضي، ليست بحادثة معروفة».

فالعلم المادي يبرهن: «على سبيل المثال» في الفيزياء الرياضية العالية: أن الجسمين يتجاذبان بنسبة: حاصل ضرب كتلتيهما، ك، كَ مضروباً في النسبة الثابتة: ي[1] مقسوماً على مربع المسافة بينهما:

$$ق = ى \frac{ك\ كَ}{م^{2}}$$

فالكتلة تقاس بـ(غرام ـ كتلة) والمسافة تقاس بالسانتيمتر = سم، فتستخرج قوة الجذب بالنسبة إلى أصغر وحدة من وحدات قوة الجذب فيما إذا كانت:

---

(١) النسبة الثابتة في دستور الجذب العام يساوي ١ على ١٥ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ من ثقل الغرام.

ك = ١ غم، كتلة   كَ = ١ غم، كتلة

م = ١ سم

أما حقيقة هذه القوة، أي حقيقة الجاذبية، فمسكوت عنها في العلم الحديث. ذلك، لأن القوة وكل شيء قواني[1] ليست من المادة في شيء: أي ليست القوة من الغرام أو السانتيمتر أو الزمن في شيء. (كما سترى أيضاً).

وهكذا دستور الرقاص:

$$ن = ٢ ط \sqrt{\frac{ل}{حـ}}$$

فمدة الذبذبة الواحدة للرقاص تتناسب مع جذر طول الرقاص تناسباً طردياً وتتناسب عكسياً مع جذر التعجيل الأرضي في محل يتحرك فيه الرقاص.

فمدة الذبذبة الواحدة تختلف باختلاف مقدار الجذب. والمقاييس ها هنا هي: الثانية والسانتيمتر. وليس واحد منهما من حقيقة القوة الجاذبية في شيء.

فلا سبيل إلى استعمال هذه المقاييس: الثانية، سانتيمتر، غرام ـ هذه التي تستعمل في استخراج القوانين التي تتحكم في العالم المادي ـ لتفهم حقيقة الجاذبية أو النفس أو الروح أو العقل إلى ما هنالك من عوالم غير مادية. ولذلك بقيت حقيقة القوة الجاذبية مجهولة لدى الفيزياويين.

وهكذا حقيقة القوة الكهربائية أو المغناطيسية وحقيقة الطاقة، سواء أكانت طاقة حرارية أم كهربائية، أم حركية أم ذريَّة، إلى ما هنالك. والفيزياويون يعترفون بعجزهم عن تفهم حقيقة كل ما ليس بمادي بحت. حتى أنهم ليعترفون بعدم تفهمهم حقيقة المادة. ذلك لأن المادة يؤول أمرها إلى الجزيء، فالذرة(atome) . والذرة مجموعة قوى كهربائية موجبة:

---

(١) اسم منسوب إلى القوة.

«بروتون» وقوى كهربائية سالبة: «ألكترون» وقوى أخرى لا يزال يعمل العلم الحديث للتعرف على آثارها.

ولسائل أن يسأل: هل يمكن تعريف «الفكر» وتحديد معالمه بمقاييس مادية أي بمقياس الطول: سانتيمتر، والوزن: غرام، والزمن: ثانية. وهكذا لا يمكن تعريف النفس أو العقل بهذه المقاييس المادية لأنهما ليسا من صقع المادة في شيء.

فقد اشتبه المادي حين أراد أن يرى الله تعالى في مخبره: (أنبوب التجربةtube) ذلك لأن المخبر محل محدود، أنه محل مادي تحلُّ فيه المادة وليس الله تعالى بمادة أو بشيء يقاس بالسانتيمتر والغرام والثانية. كي يحل في المخبر: «أنبوب التجارب»، أو المختبر(Laboratoire) فيراه المادي بعينه أنه لا يشبه المادة ولا يشبه بقية الأشياء في شيء ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

ولكن ما يكتشف في المختبر من قوانين ثابتة ودساتير رياضية رصينة ومعادلات دقيقة تلك التي تحكم هذا الكون المادي يرشدنا إلى واضع هذه المعادلات التي بلغت من الدقة ما يحير الألباب. ذلك لأنا كلما اكتشفنا قانوناً لخواص المادة، فتحت لنا أبواب من المجاهيل يجب أن يعمل العالم المادي[1] في مختبره مئات السنين كي يتمكن من حل البعض عنها. وقد لا تساعده العلوم الرياضية الحاضرة لكشف معضلات تلك القوانين التي أودعها الله تعالى بين جزيئات المادة وذراتها. فكم من معادلات تفاضلية غير محلولة وكم من قوانين رياضية يجب أن تكتشف لحل ما لا يتناهى من مجاهيل تتراءى لنا في عالم الرياضيات.

فلا تزال الرياضيات ناقصة وهي في دور الألفباء، وسيبقى هكذا آلاف

(١) لا أظن أن المادي القائم بتجارب دقيقة في المختبر يبقى مادياً، فهو لا محالة يعترف بواضع هذه القوانين الكثيرة الدقيقة التي لا يمكن أن تأتي وتتحكم في المادة وتنظمها بطريقة عشوائية.

السنين بل أبد الآبدين: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[1].

فالله الذي لا يحده شيء، فالله الذي لا تتناهى عظمته، فالله الذي لا يخلو منه مكان (هذا المكان اللانهائي الذي خلقه الله بقدرته الأزلية التي لا نفاد لها ولا انتهاء) لا يمكن أن يكون محدوداً بحدود الأنبوب: tube أو بحدود المختبر كي يراه المادي في مخبره أو مختبره.

ليس الله تعالى من صقع المقادير المحدودة ولا من المادة في شيء، وهو خالق المادة.

فنحن نعرف الله تبارك وتعالى بما خلق من عوالم: عوالم شتى، لا تتناهى، نعرف الله بما أودع من كمال في بطن الذرة: هذه التي لا يمكن أن ترى بأدق الآلات، حتى بالتلسكوب الألكتروني.

نعرف الله تعالى بما أودع من كمال خارق وتركيبات معقدة، مترتبة بعضها اثر بعض في البدن الانساني إلى حد لا يتناهى، إلى حد لا يدع (حسب قوانين حساب الاحتمالات) للصدفة مجالاً ولا قيمة. كل ذلك إذا طهرت النفس الانسانية من مجونها وطيشها، فجورها وفسوقها. أي أصبحت النفس الانسانية قمينة لتحلَّ فيها معرفة الله جل جلاله، لذلك، يقول علي عليه السلام: (لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان).

إنه تعالى لا نهائي في قدرته وهيمنته وعظمته وحكمته وعزته وعلمه وكماله ورحمته ونعمه وملكه وجبروته: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبِّر، سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى، يسبِّح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2].

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

(٢) سورة الحشر: ٢٣ ـ ٢٤.

إن الرياضي ليرى بصورة واضحة أن الأعمال الحسابية: (هذه التي نستعملها في الكميات المحدودة لا تجري على اللانهائيات.

نحن نعلم أن: ٥ × ٤ = ٢٠.

ولكن ماذا يساوي: $\infty \times \infty$ (اللانهاية مضروبة في اللانهاية).

ونعلم أن: ٢٠ ÷ ٥ = ٤.

ولكن ماذا يساوي[1]: $\infty \div \infty$

اللانهاية ÷ اللانهاية.

نحن نعلم أن: $٢^٣$ = ٢ × ٢ × ٢ = ٨ مثلاً.

ولكن ماذا يساوي: ∞^∞ (لا نهاية مرفوعة إلى اللانهاية).

ونحن نعلم أن: $\sqrt{٢٥}$ = ± ٥

ولكن ماذا يساوي: $\sqrt{\infty}$ (جـذر اللانهاية).

ثم ما معنى: $\infty + \infty$

مع العلم أنا نعرف معنى: ٤ + ٥ = ٩

وهكذا عندالطرح: $\infty - \infty$ = . . . ؟.

فنرى أن العمليات الحسابية التي تجري على الكميات المحدودة لا يمكن تطبيقها على اللانهائيات.

ولذلك ليس من المعقول أن نستعمل مقاييسنا المحدودة للتعرف إلى الله الذي لا تتناهى عظمته وإن بعد التشبيه.

* * *

هناك نوعان من الكميات: منها ما هي مبهمة: (تخيلية) ومنها ما هي معلومة. فالكميات المبهة هي التي لا يمكن أن نعلم مقدارها بالضبط ولا

---

(١) ان قانون (أوبيتال) في الجبر العالي لا يجري هنا لأن ذلك القانون

يعلم ما هي؟ وهي التي معاملها $\sqrt{-1}$، فـ($5\sqrt{-1}$) لا تعلم حقيقته.

فلو أدخلنا في معاملات معادلـة الخط المستقيم $\sqrt{-1}$: أي لو كانت هذه المعاملات، أ، ب، حـ من معادلة: أ س + ب ص + حـ = ٠ كميات مبهمة فان النتائج التي نلمسها في المقادير المحدودة تضطرب ها هنا وترينا نتائج غريبة جداً فيتقاطع المستقيمان المتوازيان وينطبق المستقيمان المتقاطعان.

فليلتفت المادي أنه حين محاولته معرفة الله تعالى إنما يستعمل مقاييس مقتضبة مادية، ليست من صقع اللانهاية في شيء، وعليه أن يستعمل مقياساً واحداً هو مقياس نفسي تشعر به النفس الانسانية كلما نمت وتكاملت في مضمار التقوى والورع وتطهرت بالتزكية من أدرانها وأرجاسها.

يقول علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى». فهوى النفس يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق ودون الاعتراف بـالله المتعال ولذلك لا بد من تزكية لهذه النفس كي ترجع إلى رشدها وصفائها، حتى تحلَّ فيها معرفة الله تعالى. وهو القائل: ﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾[1]

نعم ان معرفة الخالق تتوقف على طهارة النفس وخلوها من الأدران لذلك بعث الله الأنبياء عليهم السلام ليطهروا الانسان من الدنس ويزكوه. وقد قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويـزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمـة، وإن كانـوا من قبـل لفي ضـلال مبين﴾[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب

---

(١) سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة الجمعة: ٢.

سليم﴾[1]. أي أن النجاة يوم القيامة: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[2] إنما تكون بسلامة القلب وسلامة النفس. وكل ما جاء في الدين الاسلامي من نواهٍ وأوامر ترمي إلى سلامة القلب وتزكية النفس.

فالحدود التي شرعها الشارع المقدس على مرتكبي الكبائر من شرب الخمر والزنا والربا والقذف والقيادة... إلى ما هنالك، كلها ترمي إلى قلع الكبائر والموبقات عن وجه البسيطة، كي لا تظلم النفس الانسانية بارتكابها إياها. فتجحد بارئها لقوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين، ما لكم كيف تحكمون﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين، لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾[4] ولنفس السبب شرع الشارع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهكذا سائر ما ندب إليه الشرع وأمر به من مستحبات وواجبات: إطعام الطعام، مساعدة الجار، صلة الأرحام، البرِّ بالوالدين، قضاء حاجة المؤمن، الإيثار، الصلاة، الصوم، الزكاة، الخمس إلى ما هنالك كلها ترمي إلى تعمير القلب، فالنفس ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[5]. وعند ذلك، أي بعد القيام بما أمر به الشرع من واجبات وترك المحرمات وما ندب إليه من بعض المستحبات يتفتح القلب، فيحلٌ فيه حب الله تعالى ومعرفته ويقذف فيه نور يرى القلب من خلاله عظمة الله وقدرته التي لا تتناهى ويعزو القلب بصورة طبيعية كل ما يرى من هذا الابداع في الخلق إلى العلي القدير. فقد جاء في الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

عند ذلك يرى الفرد علانية أن ما يقوم به المادي من استعمال مقياس محدود مقتضب لمعرفة الخالق وأعني به المقاييس المادية أو استعمال

---

(١) سورة الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩

(٢) سورة المطففين: ٦

(٣) سورة القلم: ٣٥ ـ ٣٦

(٤) سورة الشعراء: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٥) سورة التوبة: ١٠٤

الحواس الخمس التي قد حُددت من جانب الله قابلياتهـا وطاقـاتها هي مقاييس تفيد في المجالات المادية المحدودة فقط، أما لمعرفة الله الذي لا تتناهى عظمته، فلا بد من مقياس غير مادي، وهو هذا النور الذي نوهنا عنه، هذا النور الذي يقذف في قلب العبد، إذا أطاع الله وكفَّر عن ذنوبه. وهو قوله تعالى: ﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾(١).

وليس هذا النور من نور الشمس المادي في شيء. فالضوء أو النور إنما هو شيء مادي حسبما اكتشفه (اينشتاين)، وليس بشيء معنوي. وقد حصل اختلاف شديد في مادة الضوء. ولكن (آينشتـاين) برهن على أن الضوء شيء مادي، وذلك بعد أن راقب الضوء أو النور الآتي من أحد النجوم في يوم كان قد كسفت فيه الشمس. شاهد مسار هذا الضوء فرآه منحنياً وليس بمستقيم، رآه ينحني حيث الجاذبية أكثر من قبل نجوم أخرى. فعلم أن الضوء إنما هو جرم مادي فيه قابلية الانجذاب كبقية الأجسـام المادية حسب قانون نيوتون للجاذبية العامة.

إذن ما كان من صقـع المادة يمكن التعـرف اليه بمقـاييس ماديـة: سانتيمتر، غرام، ثانية. وما لم يكن كذلك، كالنفس والعقل، لا يمكن التعرف اليه، وإنما نحكم بوجوده بما نشاهد من آثار في أنفسنا. لذلك اعترف (دكارت): Descartes الفيلسوف بوجود الخالق بعد أن شك في كل شيء: إلا أنه لم ينكر شعـوره، فقال: «أنـا موجـود، ذلك لأني أحس وأشعر». ثم تدرج بمقاييس غير مادية إلى معرفة الخالق جل جلاله. فقال: «إني أحمل فكرة الكمال، فكان الأحرى أن أكمل نفسي من النواقص إن كنت أنا خالقاً نفسي، وأن أجعل عيني تبصر إلى مسافات شاسعة وأذني تسمع من أماكن بعيدة وهكذا بقية الأعضاء. ولمـا كانت هـذه الحواس محدودة القابلية وليس لي أن أعدل فيها وأن أكملها كيفما أريد. إذن خالقها غيري. كما أنه ليس خالقي إنساناً آخر يشبهني، لأنه ناقص مثلي. فلا بد أن هناك كاملاً وهو الله تعالى قد خلق كل ما نشاهده تحت قوانين ثابتة ونظم دقيقة يحار فيها الألباب».

---

(١) سورة النور: ٣٥.

وأني أختم هذا المقال بقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام، ففيه فلسفة المعارف الإلهية والطريقة التي لو اتبعها الانسان بلغ مرتبة اليقين

«إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه».



علي عليه السلام والعلم الحديث

كان علي عليه السلام رياضياً ملهماً وفلكياً بارعاً وفيزياوياً عظيماً وكيمياوياً كاملاً وهكذا في بقية الفروع العلمية من نبات وفسلجة وطبقات الأرض. . . إلى ما هنالك.

ولقد بلغ الدرجة القصوى من الاتقان والكمال. وما كان ليتردد، عليه أفضل الصلاة والسلام، عند الاجابة على سؤال، وقد سئل عن مسائل شتى في شتى المواضيع فأجاب بالبديهة وبصورة ارتجالية، دونما تفكير وبشكل موجز مفهوم.

سأله ذات يوم (ابن الكوا) قائلاً: يا علي، كم المسافة بين السماء والأرض؟ فأجاب عليه السلام قائلاً: دعوة مستجابة. . .

حقاً، إن هذا الجواب لهو عين الواقع، لعدم تناهي الأبعاد بصورة ظاهرية بين السماء والأرض. فهذا الكون الأحدب ـ على حد تعبير ـ (أينشتاين) لا يمكن أن يستقصى غوره، وأنه ليتوسع يوماً بعد يوم. وكلما تقدمت آلات الرصد وعلم الفلك اللاسلكي وعلوم الذرة والاشعاع عثروا على شموس أخرى وكواكب ومجرات وسدم تدهش الألباب، ويتحقق قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[1].

يقول (بليفن): «إن الكون أوسع وأرحب وأعظم مما كنا نتخيله. وإن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة خيالية».

فلا يمكن أن يعبر عن المسافة بين السماء والأرض بعدد رياضي معلوم المقدار لعدم تناهي الأبعاد.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

ثم إن الله تبارك وتعالى لا يخلو منه مكان: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾[1].

وإن هذا الدعاء أو الدعوة في جواب علي عليه السلام: «دعوة مستجابة» ليسري في هذه الأجواء التي لا تتناهى إذا استجيب ورفع ولم يحجب عن الصعود في العوالم اللانهائية.

وما أقام الأقدمون من أدلة على محدودية الكون إنما يجري على الكميات المحدودة، ولا يجوز تطبيق القواعد الرياضية في الكميات المحدودة على اللانهائيات: (∞).

كان يقول قسم من الفلاسفة و العلماء أن الكون محدد.

ودليلهم على ذلك: «أنا لو أخذنا نقطة على سطح الأرض ومددنا من تلك النقطة خطين مستقيمين حصلت بينهما (في تلك النقطة) زاوية. وإذا قطعنا ضلعي تلك الزاوية بمستقيم آخر (مستقيم ثالث) حصل هنالك مثلث من ضلعيّ الزاوية والمستقيم القاطع لهما. يقولون: إن المستقيم القاطع أي الثالث يبقى محصوراً بين ضلعي الزاوية مهما مددنا ضلعي الزاوية إلى اللانهاية. إذن: الكون محدودا؟.

إن هذا الدليل يمكن تطبيقه على المسافات المحدودة ولا يجري على اللانهائيات، ذلك: لأنا إذا فرضنا النقطة المفروضة، (تلك التي مددنا منها ضلعين وشكلنا الزاوية المعلومة)، مركزاً للكرة الأرضية وجعلنا نصف القطر (ضلع الزاوية) مستقيماً يمتد إلى ما لا يحد من المسافات، أي الى اللانهاية: (∞) لأصبح سطح الكرة مستوياً وخرج عن كونه كروياً أو شيئاً ذا انحناء ذلك لأن درجة الانحناء لمنحنٍ ما = $\frac{1}{ر}$ (ر = نصف قطر الانحناء): كما هو معلوم في الهندسة التحليلية

فكلما كان نصف قطر الانحناء أصغر كان الانحناء أكبر وكلما كان

---

(١) سورة المجادلة: ٨.

نصف قطر الانحناء أكبر كان الانحناء أقل. فإذا أصبح نق = ∞ (أصبح نصف قطر الانحناء لا نهائياً)، يكون:

$$\frac{١}{ر} = \frac{١}{\infty} = ٠$$

أي لا انحناء هنالك.

ألا ترى أن الشاقولين على سطح الكرة يكونان متوازيين إذا كانت المسافة بينهما عدة أمتار. حين أن الشاقولين يلتقيان في مركز الأرض وبينهما زاوية ضئيلة جداً لا يمكن قياسها بأدق الآلات.

إذن ليس من المعقول أن نقول: إن الضلع الثالث يبقى محصوراً بين الضلعين الأخرين إذا بلغت الفاصلة بينهما لا نهائياً. فان اللانهائي يجل عن الحصر والحدود وإلا فليس بلا نهائي.

لنستعن بعلم المثلثات زيادة في التوضيح:

لنفرض النقطة على وجه الأرض أو بالأحرى في مركز الأرض م وقد مدَّ منها نصف القطر: م حـ ونصف القطر: م د.

فيكون الضلع الثالث المحصور: حـ د.
فلنكتب قيمة حـ د حسب قواعد المثلثات:

$(حـ\ د)^٢ = (د\ م)^٢ + [حـ\ م]^٢ - ٢ \times دم \times حـ\ م \times جتام$[١].

فإذا فرضنا: م حـ = ∞ ، م د = ∞ [٢].
وعوضنا:

$(حـ\ د)^{(٢)} = \infty + \infty^٢ - ٢ \times \infty \times \infty \times جتام$

---

(١) جتام = أي الجيب اتمام لزاوية م: Cosinus ، يراد بزاوية م، زاوية د م حـ.

(٢) يراد بـ ∞ اللانهاية.

ولما كان (٢ جتام) مقداراً محدوداً، فلا أثر له تجاه اللانهاية عند التضعيف أو التقسيم:

∴ (حـ د)^{٢} = ∞ + ∞ ^{٢} − ∞ × ∞

أو (حـ د)^{٢} = ∞ + ∞ − ∞ ^{٢}

(حـ د)^{٢} = ∞ ^{٢}.

فيكون المستقيم المحصور بين ضلعي الزاوية لا نهائياً.

مع العلم أنه لا يصح إجراء الأعمال الأربعة والجذر والرفع في اللانهائيات كما في المقادير المحدودة... فلا يعلم ماذا ستكون هذه المستقيمات في اللانهاية.

* * *

ثم نحن باستطاعتنا أن نمد مستقيمات متعددة من مركز الأرض على أن تكون الزوايا المركزية صغيرة جداً.

ثم نمدُّ (أنصاف الأقطار) أو هذه المستقيمات إلى ما لا نهاية، فماذا تكون المستقيمات المحصورة بين أضلاع الزوايا المركزية التي هي كثيرة جداً.

ستكون، ولا شك، هذه المستقيمات المحصورة مثل حـ د، دهـ، هـ ط، محيطاً لدائرة مركزها الكرة الأرضية. وتحصل عند ذلك دوائر متحدة المركز تحيط بعضها ببعض وتتباعد كالدوائر التي نشاهدها عندما نلقي حجراً في حوض ماء راكد. وتتباعد هذه الدوائر إلى ما لا نهاية، حيث لا يعلم مداها.

فيصبح سطح الكرة التي نصف قطرها ∞ = لا نهاية، مستوياً.

ويصبح محيط الدائرة التي نصف قطرها ∞ = لا نهاية، خطاً مستقيماً.

فيخرج عما نشاهده في الكميات المحدودة على سطح الأرض أو ما هو قريب من الأرض بحدود معينة.

فنحن نتصور اللانهائية ولكن لسنا محيطين بها تمام الاحاطة كي نتمكن من تقديرها وتطبيق القواعد التي تجري في صقع محدود، عليها.

وقد اشتبه كثير من الفلاسفة، قديماً وحديثاً، عندما فسروا نظرياتهم وفق مقاييس محدودة مقتضبة، فإذا سئل أحدهم عن الله تعالى طبق الكونيات المحدودة أو القوانين الفيزيائية الأرضية على «الله» الذي لا تنتهي عظمته ولا تحد قدرته، فهو الذي ﴿لا ينعت بتمثيل ولا يمثل بنظير؛ ولا يغلب بظهير. قد حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الأوهام، وانحسرت دون ادراك عظمته خطائف أبصار الأنام»[1].

وقد جاء في دعاء يقرأ ليلة القدر:

«يا موصوفاً لا يبلغ بكينونيته موصوف. ولا حد محدود، يا غائباً غير مفقود ويا شاهداً غير مشهود، يطلب فيصاب، ولم تخل منه السماوات والأرض وما بينهما طرفة عين، لا يدرك بكيف ولا يؤيّن بأين ولا بحيث. أنت نور النور».

يلاحظ أن تفسيرات بعض الفلاسفة للكون والوجود ونظرياتهم عن خالق السماوات والأرضين مشوبة بمقاييس مادية حالكة وتطبيقات مادية سخيفة، من تطبيق العوالم اللانهائية على العالم المحدود بمقاييسه وحدوده لذلك قالوا نتيجة تطبيق مادي سخيف:

١ ـ الواحد لا يصدر منه إلا الواحد. . . «يراد به الله».

٢ ـ العقول عشرة.

٣ ـ ان الله غير عالم بالجزئيات.

وقالوا مثل ذلك أشياء كثيرة وبنوا على أسسهم المغلوطة أبنية واهية، هي أوهن من بيت العنكبوت. فأدى بهم إلى وحدة الوجود! بل وحدة الموجود!!؟. . .

---

(١) من دعاء يقرأ في كل يوم من أيام شهر رجب.

انه تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[1].

ويقول بالنسبة إلى كيفية خلقه الخلق:

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾[2].

وقد قرأت مقالاً لأستاذ الفيزياء الرياضية العالية في جامعة الاستانة قبل حوالي ثلاثين عاماً يخطىء فيه بعض علماء الغرب في نظرياتهم عن اللانهاية، فكثيراً ما نجد أنه يعامل مع اللانهاية في الأعمال الحسابية عين ما يعامل مع الكميات المحدودة. ويقاس اللانهائيات بنفس المقياس الذي يقاس به المتناهيات. وهذا بعينه يشاهد في ما يقوم به الماديون من سرد براهين وأدلة لتثبيت دعائم كفرهم وجحودهم وهذيانهم!.

* * *

فما قيمة هذا الانسان تجاه عظمة الله التي ليس لعدد ولا مقدار أن يحدها، تلك العظمة التي هي فوق متناول العقول وحدود الأفكار. والغريب أن يريد الانسان المادي المحدود في طاقاته وقابلياته (مهما حاول واجتهد واستفاد بأمره تعالى وإلهامه وتوفيقه مما أودع الله تعالى من نظم وقابليات في هذا الكون الرحيب) أن يحيط بالله وأن يرى الله بعينه التي يبصر بها، هذه العين المادية التي لا تزال ولن تزال حقيقتها وجميع خواصها وقوانينها مجهولة. ذلك لأنه ليس للبشر أن يستقصي جميع ما أودع الله من خواص وقوانين في العين. مع العلم أن العين محدودة في قابلياتها وطاقاتها.

فقد قال (لنكولن بارنت): «إن ما يدركه الانسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود، بسبب عجز جهاز الابصار عنده. ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية(X Rays) لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

---

(١) سورة الكهف: ٥٢.

(٢) سورة يس: ٢٨.

كما ينفي (الدكتور ألكسيس كارل) في كتابه: «الانسان ذلك الكائن المجهول»! إمكان التعرف إلى الانسان معرفة تامة...

فإذا كان الانسان لا يقوى على معرفة نفسه، فأنى له أن يحيط بخالقه وهو اللانهائي الذي لا يحده شيء؟! ﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربك الكريم، الذي خلقك فسوَّاك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، كلا، بل تكذبون بالدين، وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون﴾[1].

حقاً: ﴿قتل الانسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره؛ ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره، كلا. لما يقضِ ما أمره﴾...![2].

* * *

إن أينشتاين بما وجد من قوانين رياضية رصينة نفي العبثية والعشوائية في الكون. وبرهن على أن الظواهر الكونية كلها تخضع لقوانين رياضية ثابتة، وهي النواميس الالهية التي تتحكم في الكون. هذا الكون الذي غدا وجوداً هندسياً بديعاً يدهش الألباب.

لقدأراد أينشتاين أن يحسب مقدار كتلة النجوم التي يمكن مشاهدتها في السماء. ولكنه عدل عن هذا الرأي عندما رأى أن أنجماً جديدة تتشكل في كبد السماء من حين لآخر.

فالتلسكوبات الحديثة اكتشفت مجرات على بعد ألف مليون سنة ضوئية. ويقدر (شارليه) أن قطر الكون عشرة آلاف مليون سنة ضوئية!. وإن الحادث الذي يحدث في مجرة في طرف الكون لا تعلم به (أو يستحيل أن تعلم به) مجرة في الطرف الآخر قبل مرور عشرة آلاف مليون سنة من سنواتنا.

---

(١) سورة الانفطار: ٦ - ١٢.

(٢) سورة عبس: ١٧ - ٢٣.

هذا ما اكتشف حديثاً. ولكن لا يبقى الاكتشاف موقوفاً على هذا الحد، فكلما تقدمت العلوم رأوا عوالم أخرى لا تحدُّ.

والسنة الضوئية تقدر بمسافة قدرها ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠ كيلومتر تقريباً. أي أن الضوء يقطع في السنة الواحدة بسرعته المعلومة (٠٠٠ ٣٠٠) كيلومتر في الثانية مسافة قدرها عشر مليون مليون كيلومتر تقريباً.

لذلك يقال أن بعد القمر عنا ١'/٣ من الثانية (ثانية وثلث الثانية). فإذا أردنا تعيين بعد القمر عنا علينا أن نضرب ١'/٣ من الثانية في سرعة الضوء. أي ٤/٣ × ٠٠٠ ٣٠٠ = ٠٠٠ ٤٠٠ كيلومتر.

وإن الشمس تبعد عنا ٨ دقائق و ٢٠ ثانية أي أنا لو ضربنا ٨ × ٦٠ + ٢٠ = ٥٠٠ ثانية في سرعة الضوء أي في ٠٠٠ ٣٠٠ كيلو متر لوجدنا بعد الشمس عنا: وهو ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥٠ كيلومتر. (أو: ٠٠٠ ٠٠٠ ٩٣) ميل.

فإذا حدث انفجار في نجم (الألفا السنتوري) سنة ١٣٨٣ هجرية، فنحن لا نشعر به إلا في سنة ١٣٨٧ هـ أي بعد ٤ سنوات، ذلك لأن نجم (الألفا السنتوري) تبعد عنا أربع سنوات ضوئية. فإذا نظرنا إلى السماء في ليلة غار فيها القمر، لا نرى إلا الضوء الذي صدر عن هذه النجوم قبل سنوات. فإذا كنت تنظر إلى نجم (الألفا سنتوري) فأنك ترى ما صدر عنه من ضوء قبل ٤ سنوات، حتى وإن كانت نجمة (الألفا سنتوري) قد اختفت عن الوجود بأمر الله تعالى منذ سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات... وهكذا بالنسبة إلى النجمة التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية. نحن إنما ننظر إلى الشعاع الذي صدر منها قبل مليون سنة. وإن هذا الشعاع يحدثنا عن حالة تلك النجمة في الوقت الذي بدأ فيه ظهور الانسان على الأرض بأمره تعالى، أما النجوم التي تبعد عنا ألف مليون سنةضوئية، فاننا نرى الآن شكلها وحالتها عندما كانت الحياة على الأرض بادئة في التكوين بأمره تعالى، وعندما لم تكن قد نشأت اللبونات والزواحف والطيور ولم يكن قد ظهر أي من الفقريات. ولا يدري أحد، غير الله تعالى، ماذا حدث لهذه النجوم في هذه السنين الطويلة، قد تكون قد انطفأت أو انفجرت منذ

ملايين السنين، ونحن لا نزال نراها حتى الآن!.. ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1].

والكون واسع جداً، مترامي الأطراف، كل شيء فيه في حركة مستمرة منتظمة وليس الكون بدرجة من الضيق حتى يبرهن على محدوديته بمدٍّ ضلعين من نقطة على الأرض وتصور ان القاطع لهما محصور بين الضلعين، فيستدل بذلك على تناهي الأبعاد.

فسلام الله على أمير المؤمنين حين يقول «دعوة مستجابة» جواباً على سؤال من سأل: كم بين السماء والأرض؟...

* * *

يقول علي عليه السلام: «في التجارب علمٌ مستأنف» وهو حقاً واضع الطريقة التجريبية في العلوم الطبيعية. وقد سبق عليه السلام في قوله هذا «بيكون: Bacon) قروناً.

إن علماء الغرب ينسبون اكتشاف الطريقة التجريبية في العلوم الطبيعية إلى «بيكون» وقد فاتهم أن الاسلام يشجع الطرق التجريبية بقوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[2].

سُئل علي عليه السلام عن وزن فيل، فطبق قانون الطوفان في الفيزياء. وسئل عن ثقلٍ قيد في رجل أحدهم، فعين ثقله دون إخراج القيد من رجل الرجل معتمداً على قانون ارخميدس في الفيزياء ولم تكن إذ ذاك دراسة للعلوم اليونانية في الجزيرة العربية. وسئل عن مسائل رياضية صعبة فأجاب عنها بالبديهة، وقد ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من كتاب التكامل في الاسلام وفي الجزء الرابع من نفس الكتاب. وسئل عن قطر الشمس فأجاب مرتجلاً، وهو عين ما نقرأه في كتب الفلك اليوم. وسئل عن مسائل معقدة في الفرائض (الارث) فأجاب دون تفكير أو تأمل.

---

(١) سورة الملك: ١٤.

(٢) سورة الاسراء: ٣٤.

وقد أملى الشيء الكثير في موازين الصناعة على بعض أصحابه.

وللمسلمين أيادٍ بيضاء في حقل الرياضيات ومكتشفات هامة، وقد شرح ما أضافه المسلمون من قوانين ودساتير واكتشافات في الرياضيات أستاذ الفيزياء الرياضية في جامعة استانبول: صالح زكي في أربعة مجلدات أسماها: «الآثار الباقية» وهو كتاب ممتع، يطلع الانسان عند مطالعته على مدى عمق التفكير والتتبع الرياضي لدى المسلمين. وهذا نصير الدين الطوسي له مكتشفات في تسطيح الأرض وتربيع الدائرة ومساحة الأشكال الكروية والمنحنيات وكتابه: «كتاب الشكل القطاع» كتاب وحيد من نوعه. ترجمه الغربيون إلى اللاتينية والفرنسية والانكليزية وبقي قروناً عديدة مصدراً لعلماء أوربا، يستقون منه معلوماتهم في المثلثات المستوية والكروية[١]. والطوسي أول من استعمل الحالات الست للمثلث الكروي القائم الزاوية.

ولأبي جعفر المصري وأبي سعيد السجستاني وعلي بن أحمد الموصلي وأبي يوسف الكندي ومحمد بن ميسر البغدادي آثار هامة في الرياضيات ومكتشفات جديرة بالذكر والتقدير.

وأما أبو العلاء البيهقي فقد ألف في الميكانيك والأثقال كتاباً قيماً وكذلك في دقائق المخروطات.

كما أن لأبي الريحان البيروتي مكتشفات رياضية جديرة بكل تقدير.

وهكذا نرى أن المسلمين يعدون آباء العلم الحديث على حد تعبير «نهرو».

إن علياً عليه أفضل الصلاة والسلام كان له اليد الطولى في وضع أسس العلم الحديث ولكنه عاش في وقت الجدب العلمي في العلوم الكونية في الجزيرة العربية، فلم تستفد الناس من مواهبه وكمالاته.

فيحق لأحد المفكرين أن يقول: «الاسلام هو الدين الوحيد الذي يماشي العلم المادي والفلسفة الحقة».

---

(١) كتاب: فلاسفة الشيعة، ص: ٩٤.

ويحق لـ (وولتر) أن يقول : «إن (مارتن لوثر) لا يقوى على حلِّ عقد خيوط حذاء محمد». كل ذلك عندما يرى عظمة الاسلام في حقول شتى، في حقل الفلسفة الحقة والأخلاق المثالية والعدالة الاجتماعية وإدارة البلاد والسياسة الدولية والعلوم المادية بفروعها المتنوعة. مع أنه لم تكن لدى (وولتر) مصادر كافية عن الدين الاسلامي.

فحقيق بشبابنا الجامعي أن يقدر الاسلام حق قدره، وأن يضحي لأجل تحكيم دعائمه ونشره في أرجاء المعمورة. فانه تعالى يقول:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[1].



(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

الصادق عليه السلام والعلم الحديث

قد يتساءل الناس: هل أن الامام عليه السلام كان مستوعباً العلم الحديث، أو كان يعلم الفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم؟.

إن ما تقرأه عن أحوال الأئمة عليهم السلام - يشير إلى ذلك، وأنهم كانوا يجيبون بصورة ارتجالية دونما تفكير على أسئلة صعبة في حقول العلم الحديث، مسائل يحتاج حلها إلى تفكير ووقت لا يستهان به، مسائل ما كان ليقوى على حلها العلماء من جميع الأمم في ذلك العهد. ولم نجد في ما نقرأه عن أحوال الأئمة - عليهم السلام . . . أنهم استمهلوا للاجابة على مسألة، أو عينوا موعداً للجواب، عدا ما صدر عن جميعهم - عليهم السلام - إخبار بالغيب طابق الواقع تماماً. فقد قال الرضا عليه السلام: «سوف لا يحجُّ من ملوك بني العباس أحد بعد هارون». وكان كما أخبر به الرضا (ع). وقال عليه السلام: «هارون وأنا كهاتين. وضم أصبعيه». قال الراوي: ما عرفنا معنى حديثه حتى دفناه معه.

وإن هذا العلم - وأعني به علم الامام عليه السلام - على ضربين:

١ - علم مستقى من رسول الله صلى الله عليه وآله على حد قول علي عليه السلام: «علمني رسول الله ألف باب من العلم، ينفتح لي من كل باب ألف باب»، وقوله: «سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله زقاً»، وقوله: «سلوني، فان عندي علم الأولين والأخرين. . إلى ما هنالك من روايات كثيرة، كلها تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو المعلم الأول لعلي عليه السلام في شتى العلوم، وعلي (ع) معلم الأئمة - عليهم السلام - .

٢ - وعلم يأتي من طريق الالهام، وهو علم لدني (إن صح التعبير).

فـإن المكتشفات الحـديثة تعتمـد ـ في الدرجـة الأولى ـ على الالهام والحدس(Intuition) وما يراه المكتشف في حلمه (في عالم الرؤيا).

يرى المكتشف في عالم الرؤيا أنه يُلهم مراحل حل مسألة رياضية صعبة لم يقوَ على حلها مدة مديدة. ويلهم صنع آلة، أو تـركيب مواد وعناصر لصنع دواءٍ ناجع لمرض تعسر شفاؤه... إلى ما هنالك.

وقد جاء في الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

هذا العلم ليس بالعلم المادي فحسب، وإنما هو المعارف الالهية أو الفلسفة الالهية الحقة، تأتي كرشحاتٍ للنفس الزكية، برياضاتها وقيـامها بأعمال صالحات، أنه علم بحقيقة الكون والحياة والوجود، أنه علم يفسر هذه الآية الشريفة: وهي قوله تعالى:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

انه علم جاء من مراقبة النفس وجعلها مطيعة لأوامر الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة... انه علم يورث الخشية، علم يمن الله تعالى به على عبد هو مصداق هذا الحديث: «ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه». أنه علم يتأتى من الاخلاص عند الصباح، على حد ما جاء في هذا الحديث.

«من أخلص لله أربعين صباحاً، جـرت من قلبه على لسـانه ينـابيع الحكمة».

هذا النوع من العلم ـ العلم بما وراء الطبيعـة والوقـوف على فلسفة الكون الحقة ـ لا يتأتى إلا من ناحية التقوى وتزكية النفس: ومن مثل الامام المعصوم في مراتب التقوى وتزكية النفس، فنفوسهم ـ عليهم السلام معصومة من الزلل، بالغة أسمى مراتب الزلفى، نتيجة التقوى، تقوى لا يقوى عليها غيرهم ـ صلوات الله عليهم، فهم منهج الايمان، ومعادن الحقائق، وشفعاء الخلائق، ومفاتيح رحمة الله، ومقاليد مغفرته، وسحائب رضوانه، ومصابيح جنانه، وحملة فرقانه، وخزنة علمه، وحفظة سره. ولهم القلوب التي تولى

الله رياضتها بالخوف والرجاء[1] وجعلها أوعية للشكر والثناء وآمنها من عوارض الغفلة وصفاها من سوء شواغل الفترة.

فهم، على ما جاء في زيارة الجامعة: «خُزان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم وقادة الأمم وأولياء النعم، وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار وساسة العباد وأركان البلاد وأمناء الرحمن وسلاسة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة ربِّ العالمين».

* * *

نعم، ان الالهام الرباني كان حليف المكتشفين وهم لم يقطعوا شوطاً في عالم التزكية. وانهم ليعترفون بالالهام الرباني في مكتشفاتهم ومخترعاتهم، ويقولون: تُملى علينا الحقائق والمعادلات والقوانين كأن شخصية مجهولة تلقننا وتملي علينا مراراً ومراراً، ونحن ندوِّن ما يملى علينا من خارج أنفسنا دون أن تكون لنا تجارب سابقة توصلنا إلى ذلك.

لقد سئل (فراداي) عن سر نجاحه الكبير فيما اكتشفه في العلوم الطبيعية والكيميائية والكهرباء ووضعه بعض الدساتير دون أن يكون بارعاً في الرياضيات التي تعتبر أساساً لما اكتشفه فقال:

«انه ينظر إلى طبيعة الأشياء، فيرى ريشة سحرية تخط على صفحات عقله الآراء المبتكرة، فيمتحنها في مخبره ومختبره، فإذا بها هي الحقيقة «المنشودة!».

أما (ألبرت أينشتاين)، الذي يعدُّ من أعلم علماء العلم الحديث في القرن العشرين، فقد كان بطيء النمو والنطق، ضعيف العقل في صغره، حتى صار والده يقدم له أنواع الهدايا واللعب كي يتلافى ما عليه من نقص. وكان غير مختلط بالأطفال منعزلاً عنهم. وفجأة نظم أينشتاين أناشيد في مدح العزة الالهية والدعاء والاستغفار. ويلج بعد ذلك ميادين الطبيعة

---

(١) من زيارة خاصة جامعة لأئمة المؤمنين.

والرياضيات العالية. ويقول هو عن ذلك: «كأن عاصفة قد انطلقت في رأسي تُلهمني المكتشفات».

والطبيب العالمي «باتنينك» مكتشف (الأنسولين) الذي يعالج مرض البول السكري، قد يئس من كشف دواءٍ ناجع بعد دراسات طويلة على الكلاب دامت مدة مديدة. وفي ليلة أجهد فيها نفسه في البحث. فلما ذهب إلى فراشه نام نوماً قلقاً، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل هب من سريره، وهو يستمع إلى قول يتردد في أذنه، ودونه في مذكرته وهو يغالب النوم: «اربط قناة البنكرياس في الكلب، ثم انتظر ستة أسابيع إلى ثمانية حتى تضمر، ثم استأصل بقيتها واصنع منها خلاصة».

وبعد أن دونها نام إلى الصباح. فذهب إلى (مكلود): رئيس قسم الفسلجة في كلية الطب بجامعة (تورنتو) الذي استمع اليه وهو يضحك مما يعتقد أنه أضغاث أحلام، أو أحلام متعب مكدود. فلما علم أن (بانتينك) يريد أن يبيع عيادته ليجري هذه التجارب وافق (مكلود) بدون اقتناع بصحة ما سمع وسافر في إجازة وترك (بانتينك) ليجري تجاربه على عشرة كلاب. وقدنجحت تجاربه في ٢٧ يوليو ١٩٢١ وكان كما سمعها تتردد في أذنه وهو في منامه.

ويقول (جونسون) في كتابه: (المسألة الكبرى)، إن [دي ليفد] الموسيقي الشهير، إنما اشتهر في اختراعه: (لحن السماء) و(أغنية العميان) لأنه سمع هذين اللحنين وهو نائم، فلقن حالة النوم، ويقول: ليس هذان اللحنان من اختراعه!.

وأما العلامة الرياضي الشهير: (هانري بوانكاره) حاول غير مرة أن يستكشف قانوناً عاماً لحل مجموعة معادلات جبرية، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن رأى الحل مكتوباً تفصيلاً في نومه وهو القائل كلمته المشهورة: «نحن الرياضيين، إنما نعمل لأجل الفيزياء والفلسفة!». علماً منه: أن الفلسفة الحقيقية يجب أن تبتني على العلم الصحيح الذي لا غبار عليه وقد خرج من مرحلةالظن والاحتمال ولا يقبل الشك والترديد وهو الرياضيات البحتة.

عندما كنت أدرس في المتوسطة، عصت مسألة هندسية على مدرس الهندسة، فلم يقوَ على حلها وطلب إلي أن أحلها. فحاولت أن أحلها وأنا في الترام في طريقي من بغداد إلى الكاظمية فلم أستطع، واشتغلت فيها ليلاً، فلم أستطع، حتى إذا كان الصبح، فصليت صلاة الصبح، ثم قلت في نفسي لأصلِّ ركعتين وأسأل الله بعدهما أن يمن علي بالحل. فبينما أنا في التشهد إذ تتراءى لي خطوط أوصلتها فحلت المسألة بصورة بسيطة وأنا في حال التشهُّد.

كان المسلمون الأوائل: عندما كان الغربيون يؤمون جامعات الشرق، المستنصرية، جامعة القاهرة، جامعات الأندلس، يسألون الله تبارك وتعالى في حل مشاكلهم العلمية ويقال عن كثير منهم: إذا تعسرت على أحدهم مسألة، صلى ركعات وسأل الله تعالى حل مسألته وإذا بها تحل بأمر الله والهام ٍ منه تعالى.

والمعروف أن الدكتور: جيمس كريكوري الفلكي الرياضي الاسكتلندي إنما حصل على أبرع آرائه العلمية خلال أحلامه.

فالله تبارك وتعالى هو الملهم للنحل لصنع بيوتها الهندسية على شكل مسدسات منتظمة، ذلك لأن من لم يدرس في المدارس المتوسطة لا يقوى على رسم مسدس منتظم. ولا يعلم أن ضلع المسدس المنتظم يساوي نصف قطر الدائرة المحيطة به إلا مَن درس الهندسة ونظرياتها. وفي أية مدرسة متوسطة درس النحل البراهين الهندسية ونظرياتها حتى يبني بيته العجيب على شكل مسدسات منتظمة تنعدم المسافة بينها: مسافات لا فائدة منها؟.

ولا يوجد إلا ثلاثة أشكال تبنى منها غرف متصلة تنعدم الفاصلة بينها. وهذه الأشكال هي: المثلث المتساوي الأضلاع والمربع والمسدس المنتظم وهو أصعبها في التنفيذ. وهو ما يقوم به النحل. لذلك يقول العالم «مترلينك»: «لو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع الذي يبنيه النحل».

وإن النظام المعماري العجيب الذي نجده في أعشاش النمل مما يدل دلالة واضحة أن الله هو الذي يُلهم النمل في صنع عشه، صنعاً كان يعجز عنه الانسان القديم مع ما أوتي من عقل وفكر. فالنمل يصنع بناءاً ذا عشرين طابقاً، قد حقق في كل طابق ما يحتاجه النمل من حرارة مناسبة ورطوبة وتهوية وقاعات للاجتماع وغرف لتربية الصغار... إلى ما هنالك.

على أن النمل يملك جيوشاً منظمة، يمارس من أنواع الحروب التي يمارسها الانسان. كالحرب المكشوفة، والهجوم الشامل والتعبئة العامة وحرب الخنادق والمفاجآت وخطط التسلل وحرب الابادة الشاملة والحصار والاقتحام والهجوم والتقهقر والانسحاب الاستراتيجي. إلا أنها تتميز بميزتين أساسيتين، عجيبتين: الأولى: احترام ملكية الغير احتراماً كاملاً والثانية: تقديم الطعام للنمل الجائع.

ولننظر إلى أخلاق النمل عندما تقدم طعاماً لغيرها من النمل من داخل معدتها، إذ أنه حين تخرج الطعام لغيرها من معدتها تصبح واضحة السعادة فرحة. حتى أن النملة لا تستطيع مقاومة تضرعات العدو الجائع، فتقدم له حاجاته من الطعام قبل احتدام القتال.

فليتعلم ا لانسان من النمل هذه الأخلاق الرفيعة!.

وهكذا نرى أن الالهام من جانب الله تعالى ضارب بأطنابه في أرجاء الكون. وإن حصة الانسان من هذا الالهام الرباني أكبر من غيره من المخلوقات وكيف لا يكون الامام عليه السلام مع ما أوتي من نفس زكية طاهرة مُلهماً علوماً شتى ومعارف جمة يعجز عن الوصول إليها البشر العادي.

* * *

يروي لنا الجنابذي في معالم العترة الطاهرة عن صالح بن الأسود: سمعت جعفراً الصادق يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فانه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. فكان يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي

حديث جدي، وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب، وحديث علي حديث رسول الله».

نعم، قد أملى الصادق عليه السلام خمسمائة رسالة في علم الكيمياء على جابر بن حيان.

يقول (هولميارد): «إن جابراً هو تلميذ جعفر الصادق أو صديقه، وقد وجد إمامه الفذ سنداً ومُعيناً وراشداً أميناً وموجهاً لا يستغنى عنه. وسعى جابر بن حيان أن يحرر الكيمياء بارشاد أستاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الاسكندرية[1] فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد، ومن أجل ذلك يجب أن يقرن اسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم مثل: بويله، بريستله، لاووازيه وغيرهم من الأعلام».

وقد يستغرب بعض الكيميائيين من علم الامام عليه السلام في الكيمياء مع كونه في المدينة!.

لذلك، يقول (روسكا): «انه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيميائياً، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان نظرياً أم عملياً وهو في المدينة.

ذلك، لأن روسكا وأمثال روسكا لم يصلوا إلى حقيقة الامامة. وكيف أن الله تعالى يُجري على يدي الامام الخوارق والمعاجز إظهاراً لامامته، كما يجري ذلك على أيدي الأنبياء عليهم السلام، وهو على كل شيء قدير.

فجابر بن حيان الذي يُعد من أساطين علم الكيمياء يذكر في رسائله: ان جعفر بن محمد هو الذي قال له، أو علمه، أو ألقى عليه، أو حدثه بكذا، ويقول في رسائله الموسومة بـ(المنفعة) أخذت هذا العلم عن جعفر بن محمد عليه السلام.

كان يقول علي عليه السلام: «في التجارب علم مستأنف». وها هو جابر

---

(١) الامام الصادق: ملهم الكيمياء. ص: ٣٧.

بن حيان تلميذ الصادق عليه السلام، يقول[1]: ملاك هذه الصنعة العمل. فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً، ويقول جابر بن حيان في مقام آخر:

«إن الأصل كان من الطبائع لا من غيرها. فالوصول إلى معرفتها ميزانها. فمن عرف ميزانها عرف كل ما فيها، وكيف تركبت. والدربة مخرج ذلك. فمن كان درباً، كان عالماً حقاً، ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً. وحسبك في الدربة في جميع الصنائع، إذ الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل».

نعم، ان جابراً قد تعلم من أستاذه الصادق عليه السلام علماً سماه: علم الموازين، في الكيمياء وهي المعادلات الكيمياوية التي نجدها في الكتب الحديثة، مثال ذلك: [2]

$$2H_2SO_4 + Cu = CuSO_4 + SO_2 + 2H_2O$$

$$S + Cu + O_4 = CuSo_4$$

وقد علمه الصادق عليه السلام كيفية استحضار الحامض الكبريتيك[3]، والحامض النيتريك، وهو أول من اكتشف (الصودا الكاوية)، وأول من استحضر ماء الذهب وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض، ولا تزال هذه[4] الطريقة تستخدم إلى الآن في تقدير عيارات الذهب في السبائك وغيرها، وهو كذلك أول من لاحظ ما يحدث من راسب (كلورور الفضة) عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة.

ويُنسب إلى جابر أيضاً، وهو ما تعلمه من إمامه الصادق عليه السلام، استحضار مركبات أخرى غير التي مرت، كـ(كاربونات البوتاسيوم،

---

(١) فلاسفة الشيعة: ص ٢١٢.

(٢) يراد بـ(S) : الكبريت وبـ(Cu) : النحاس وبـ(O) الأوكسيجين.

(٣) يراد بـ(H_2SO_4) : حامض الكبريتيك وبـ(H_2O) : الماء وبـ($CuSO_4$) : كبريتات النحاس وبـ SO_2 ثاني أوكسيد الكبريت.

(٤) فسلاسفة الشيعة: ص: ١٨٨.

و (كاربونات الصوديوم)، واستعمل (ثاني اوكسيد المنغنيز) في صنع الزجاج، وتعلم جابر خصائص ومركبات الزئبق واستحضرها. وقد استعمل بعضها فيما بعد في تحضير (الأوكسيجين). ولا يخفى أن جميع هذه المركبات ذات أهمية كبرى في عالم الصناعة، فبعضها يستعمل في صنع المفرقعات والأصبغة، وبعضها الآخر في السماد الصناعي والصابون والحرير الصناعي.

وقد تعلّم جابر من أستاذه الامام الصادق عليه السلام الطرق التجريبية والعمل في المختبر، ثم المشاهدة والاستنتاج. وكان يقول: «إن واجب المشتغل بالكيمياء ,هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها».

* * *

كان الصادق سلام الله عليه، عدا علمه بموازين الكيمياء يعلم منطق الطير. وان العلم الحديث ليعترف بمنطق الطير وحركات خاصة، لها معانٍ يتفهمها الطير المخاطب.

فقد قال جابر بن حيان: «كنت عند مولاي الصادق عليه السلام، إذ سقطت بين يديه حمامتان، فهدر الذكر على الأنثى، ثم جاء اليها وأحكم برأسها منقاره، وبعد قليل طارا. فقلت يا مولاي، ما كان من أمرهما؟ فقال: الذكر اتهم الأنثى بفرية، فأنكرت، وما زال بها حتى حلفت بالبراءة من المولى، عندئذ صدقها».

* * *

قد وضع جابر بن حيان ١٣٠٠ مؤلف في الحيل (الميكانيك) و ٥٠٠ مؤلف في الطب، ولا شك أن جابراً، ما كان ليقوى على أن يأتي بهذه المؤلفات لا سيما، في الميكانيك، إلا إذا استقاها من منبع فياض نمير الا وهو امامه الصادق عليه السلام، ذلك لأن ما هو مدوّن الآن في علم الميكانيك بصورة موضوعية دون تكرار نفس الموضوع، مثل ما يدون (في دائرة المعارف للعلوم) لا يمكن أن يتجاوز ٣٠٠٠ صفحة بما في ذلك: الميكانيك العادي والميكانيك الرياضي: Mécanique rationnelle ولو كانت مؤلفات جابر بن حيان في الميكانيك موجودة لحد الآن لخطا العلم في حقل القوى والحركات

خطوات ناجحة، سريعة، ولكانت ثـروة عظيمـة في حقل العلم المـادي، للمخترعين والمكتشفين.

* * *

إن جابر بن حيان كان يعظم إمامه الصادق عليه السلام أيما تعظيم ويقسم به كثيراً في المعضلات، من جملة ذلك قوله:

«وهذا، وحق سيدي، كلام جوهري، نقي، ما فيه شوب ولا رمز».
ومن جملة كلامه:

«أتعلم ما قد كشفت للناس فيه، فإن لم تصل إليه فاطلبه، فأنه يخرج لك جميع غوامض كتبي وجميع علم الميزان، وجميع فوائد الحكمة، وتصير به، وحق سيدي عليه السلام، من أهل الصنعة، وتعلم الصالح من الفاسـد والسلام[1]».

* * *

ويقول في مقام آخر: «وحق سيدي، ما وقعت كتبي إلى انسان، فضيعه الله، بل يكون له رزق، ولو اجتهد الناس كلهم على حرمانه ما أمكنهم».

* * *

وقد سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام: كما جاء في الوسائل في باب الاجارة: عن رجل قبَّل رجلاً حفر بئرٍ عشر قامات بعشرة دراهم. فحفر قامة، ثم عجز. فقال: «له جزء من خمسة وخمسين جزءاً من العشرة دراهم».

من الواضح المعلوم أن التعب الذي يصيب الرجل في حمل مقدار من التراب إلى مسافة مترين ضد الجاذبية الأرضية هو ضعف ما يصيبه لنقل مثل ذلك المقدار من التراب إلى مسافة متر واحد فقط ضد الجاذبية الأرضية. فان القوة التي تصرف ضد الجاذبية الأرضية لرفع كيلوغرام واحد إلى مسافة متر واحد يطلق عليها في الفيزيـاء (كيلوغرام ـ مـتر) = كغـم/متر. فـإذا رفعنا

(١) الامام الصادق: ملهم الكيمياء، ص: ١١٣.

الكيلوغـرام الواحـد إلى مسافـة مترين كـانت القـوة المصـروفـة تعـادل ٢ كيلوغرام ـ متر : ٢ كغم/م. وإذا رفع ٣ كيلوغرامات إلى أعلى كانت القوة المصروفة ٣ كغم/م. وهكذا.

فالطاقة التي صرفت لرفع مقدار معين من التراب ضد الجاذبية الأرضية إلى ارتفاع قامتين هي ضعف ما يصرف إلى ارتفاع قامة واحـدة وهكذا. فلنحسب وحدات الطاقات المصروفة لحفر البئر كلها بهذا الاعتبار:

١ + ٢ + ٣ + ٤ + ٥ + ٦ +٧ + ٨ + ٩ +١٠ = ٥٥ وحدة أو حصة. فيجب أن يقسم ١٠ دراهم على ٥٥ حصة: $\frac{١٠}{٥٥}$ من الدرهم وهذا ما يستحقه المستأجر من المبلغ كله ازاء حفره قامة واحدة.

فيهـا: ١ + ٢ + ٣ + ٤٠٠٠٠ + ٠٠٠ + ١٠ متـواليـة عـدديـة أساسها = ١

والحد الأول = ١ وعدد الحدود = ١٠ والحد الأخير = ١٠

أي د = ١، أ = ١، ن = ١٠، ل = ١٠

فمجموع الحدود حسبما معروف في الجبر:

$$حـ = \frac{ن}{٢} (أ + ل) \text{ وبالتعويض}$$

$$حـ = \frac{١٠}{٢} (١ + ١٠) = ٥ \times ١١ = ٥٥$$

أو باستعمال الأساس:

$$حـ = \frac{ن}{٢} [٢ أ + (ن - ١) د]، \text{ وبالتعويض}$$

$$حـ = \frac{١٠}{٢} (٢ + ٩) = ٥ \times ١١ = ٥٥.$$

وإن الصادق سلام الله عليه كان عالماً بالطب إلى حد بعيد. وإن ما دوَّنه جابر بن حيان في الطب في مؤلفات جمة إنما هو مستقى من علم الصادق (ع) وما جاء في توحيد المفضل من طبائع الأشياء وفوائد الأدوية وما جاء فيه من معرفة الجوارح التي تكفل بها علم التشريح ومناظراته مع الطبيب الهندي، كل ذلك دلائل واضحة على ما كان للصادق من علم واسع في حقل الطب وطبائع الأشياء. وهو القائل: «ان لكل ثمرة سماً. فإذا أتيتم بها، فأمسوها الماء واغمسوها في الماء».

وبقوله: «أنا أهل بيت لا نتداوى إلا بافاضة الماء البارد، يصب علينا».

وقد نطقت الأخبار ودلت الآثار أن الصادق عليه السلام قد كلم الفرس بلسانهم وأهل اللغات المختلفة بلغاتهم وناظر أهل كل علم وفن فخصمهم مثل علماء النجوم والفلك، والطبيعيات والطب وما عداها.

* * *

والاسلام دين يحث على العلم والتعقل والتفكر والنظر إلى حد بعيد وذلك بقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سُطحت﴾[1] وبقوله:

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثَّ فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون﴾[2].

وبقوله: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة إتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

وبقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾.

وبقوله: ﴿قل، هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾.

وبقوله: ﴿قل أنظروا ماذا في السماوات والأرض. . .﴾.

وبقوله: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها وما لها من فروج﴾.

وبقوله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس

---

(١) سورة الغاشية.

(٢) سورة البقرة.

والدواب والأنعام مختلف ألوانه، كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء، ان الله عزيز غفور﴾.

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يدعوه بهذا الدعاء: «ربِّ زدني علماً».

فكان للمسلمين مكتشفات هامَّة استجابة للآيات القرآنية المتقدمة وأحاديث نبوية، منها: «تعلموا العلم من المهد إلى اللحد». «تعلموا العلم ولو بالصين».

* * *

واضح أن الامام الصادق عليه السلام لم يجد بيئة صالحة لبث علومه الجمة، إذ أن الوسط الاجتماعي لم يكن وسطاً علمياً مركزاً كما نراه اليوم. لذلك، لم يكن للمسلمين حظ وافر للاستفادة من علومه في حقول شتى. على أن ما أودع الله من خواص ومعادلات وقوانين في أجزاء هذا الكون تكاد لا تتناهى، فكلما عثرنا على قانون أو خاصية جاءت وراءها قوانين وخواص تدهش الألباب... فالكيمياء الذرية الحديثة علم حديث يحاول الوقوف على سر الخلق! وهيهات!!! نعم، صاروا يقولون: الحياة: تفاعلات كيمياوية، ولكنها ليست كتلك التي تجري في الأواني والأوعية في المختبرات، فللأوعية والمخابر كيمياؤها وللحياة كيمياؤها: أنهم بحثوا عن المادة الكيمياوية التي يختبىء وراءها سر الحياة، فوجدوها في حمض، سموه: الحمض النووي! وأشاروا إليه بأحرف: DNA ثم صاروا يقولون: ان سر الحياة يختبىء وراء هذا الحمض، حتى قالوا أن الحياة هي هذا الحمض نفسه لا غير؟![1].

ولقد أخذ علماء الكيمياء الحيوية يبحثون في الحموض النووية، فألفوها متصفة بصفات خاصة لا عهد لهم بأمثالها في الحوامض المعروفة. وكان أعظم هذه الصفات شأناً قدرة الحوامض المذكورة على التكاثر العفوي وتمكنها من التمثل، ولقد أمكن بطرق كيمياوية معقدة وأساليب دقيقة استخلاصها، فتبين أنها تتألف من ثلاثة عناصر رئيسية تؤلف وحدة صغيرة تتسلسل وتتكرر بشكل

(١) مجلة حضارة الاسلام: السنة الرابعة، العدد السادس.

شريط أو سلسلة طويلة تقابلها سلسلة أخرى مثلها، تصطف أمامها وتلتف احداهما حول الأخرى بشكل حلزوني ويربط بين السلسلتين، بمسافات متساوية الأبعاد، روابط هيدروجينية تجعل شكلها النهائي كشكل سلم لولبي أو درج مأذنة مستديرة. ولقد تبيَّن أن ما يميز حمضاً نووياً من آخر هو طريقة ترتيب المواد الواحدة الداخلة في كل منها، كما أن غياب أحدها واستبداله بنوع آخر يؤدي إلى تغير في طبيعة الحمض النووي، وقد شبهوا ذلك بكلمات من حروف محدودة يتبدل معناها ويتباعد باختلاف ترتيبها، فان حرف: ح، س، ب إذا تتابعت فيها الحروف ح، س، ب كان معناها: حسب، من الحساب، وإذا تعاقبت بالترتيب الآتي: س، ح، ب كان معناها سحب من السحب. لقد صاغوا الحمض النووي وبلوروه، فكان من ذلك: حمض: ظنوه سر الأسرار! ولكنه بدا عاجزاً عن التكاثر بصورة عفوية، كما يتكاثر الحمض النووي الذي وجد في الحمات. كانت صبغات الحمضين واحدة ولكن الفرق بينهما عظيم جداً: هو الفرق بين الحياة والموت، هو الفرق بين الصم العديم الروح، والجسد الحي الآهل بالروح. لقد كان عنصراً طبقوا عليه تعبير سرّ الأسرار!... ولكن ينقصه الواجب الوجود الأزلي وهو قدرة الباري جل جلاله الخلاقة واهبة الحياة ونافخة الروح.

فما هي الروح كيف تدب في الأجسام الكيمياوية سؤال شغل العلماء والفلاسفة منذ قديم الزمان. ولا يزالون في أول المرحلة، وهو الاعتراف بواجب الوجود وهو الله تعالى وسيبقون كذلك أبد الآبدين. وهو قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

لذلك يقول عدد من علماء الفضاء والذرة الأمريكيين والروس: «وكلما ازددنا علماً بالفضاء وأسباب الحياة زاد جهلنا».

ويقول: (لنكولن بارنت): «إن ما يدركه الانسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود، بسبب عجز جهاز الابصار عنده، ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

حقاً، ان الانسان لا يزال ناقصاً في ملكاته وقابلياته سواء منها الحواس وقابلية التفكير، وسيبقى ناقصاً ويظل يتتبع ويجد فيفتح له باب من العلم بهذا الكون الرحيب وإذا به أمام أبـواب لا تتناهى من المجـاهيل وهكـذا أبد الآبدين. ذلك: لأن ما أودع الله تعالى من خواص وتركيبات معقدة في كل جزء أو جزيء أو ذرة من هذا الكون المعقد تكاد لا تتناهى وهو قوله تعالى:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرةٍ أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

نعم، كل هذه المكتشفات وما أملاه الامام من علوم تساعد على معرفة الله، لو طهرت النفوس من أدرانها وأرجاسها ولم تحجب عن التقرب إلى الله بالمدنسات. ذلك لأن: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب»[1]. وإن معرفة الله تعالى غاية الغايات والعلوم المادية تبرهن على عظمة الله تعالى وسعة علم الله الذي لا يتناهى. ولا شيء ألذ من معرفـة الله تعالى وتسبيحـه وتقديسه. ولنستمع إلى ما يقوله الامام (جعفر بن محمد) عليهما السلام في معرفة الله تعالى:

انه عليه السلام يقول: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عز وجل ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة هذه الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطأونه بأرجلهم ولنعموا بمعرفة الله عز وجل وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله. ان معرفة الله عز وجل آنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم».

استمعوا إلى ما يقوله الشهرستاني في إمامنا جعفر الصادق عليه السلام: «هوذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للامامة قط، ولا نازع أحداً في الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط،

(١) من كلام لعلي عليه السلام.

ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط. وقيل: من أنس بالله استوحش من الناس، ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس». ومن كلماته سلام الله عليه: «من طلب الرياسة هلك».

يُروى: أن سفيان الثوري، الذي كان محدث العراق وواعظ الكوفة حضر مجلس الصادق عليه السلام والامام صامت لا يتكلم، فقال الثوري: «لا أقوم حتى تحدثني». فقال الصادق عليه السلام: «أنا أحدثك، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان... إذا أنعم الله بنعمة، فأحببت بقاءها ودوامها، فأكثر من الحمد والشكر عليها، فان الله عز وجل قال في كتابه: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فان الله عز وجل قال في كتابه: ﴿استغفروا ربكم أنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموالٍ وبنين، ويجعل لكم جناتٍ، ويجعل لكم أنهاراً﴾.. يا سفيان، إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فاكثر من ﴿لا حول ولا قوة إلا بالله﴾ فأنها مفتاح الفرج. وكنز من كنوز الجنة، فعقد سفيان بيده وقال: «ثلاث وأي ثلاث».

وكان أبو حنيفة يروي عن الصادق عليه السلام، ومع أنه كان في مثل سن الصادق عليه السلام لم يتأبَّ عن الأخذ عنه، فقد صحب الصادق (ع) سنتين وكان يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان».

وان الصادق سلام الله عليه كان إذا التقى بأبي جعفر المنصور يقول الحق تصريحاً وتلميحاً، ويروى أن ذباباً حام حول وجه المنصور حتى أضجره، وأبو عبد الله عليه السلام في المجلس، فقال: «يا أبا عبد الله، لِمَ خلق الله الذباب؟» فقال الصادق عليه السلام: «ليذلَّ به الجبابرة».

وقد كتب إليه المنصور قائلاً: «لِمَ لا تغشانا كما يغشانا الناس؟» فأجابه الصادق عليه السلام: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا نراها نقمة فنعزيك» فكتب اليه المنصور: «تصحبنا لتنصحنا»، فأجابه: «من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك».

انظروا إلى ما يقوله (مالك) عن الصادق عليه السلام، انه يقول: «لقد كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وآله وسلم، اخضر واصفر، ولقد اختلفت اليه زماناً، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا على الطهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله. وما رأيته إلا يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي». وجعل يعدد فضائله.

ولقد سئل سلام الله عليه: لماذا حرم الله الربا؟ فأجاب: «لئلا يتمانع الناس»، وهو الحق، ذلك لأن الناس إذا كانوا لا يقرضون إلا بالربا ما وجد تعاون بينهم وعند عدم وجود التعاون حصل التمانع بينهم وإذا حصل التمانع أحضرت الأنفس الشح.

وقد بلغ الامام مرتبة قاصية من السخاء، فكان يعطي حتى لا يبقى لعياله شيئاً، وكان يقول: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره».

وكان الصادق عليه السلام حليماً، سمحاً إلى أبعد حد، ويقابل الاساءة بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾. وكان يقول: «إذا بلغك عن اخيك شيء يسوؤك فلا تغتم، فانه إن كان كما يقول فيه القائل كانت عقوبة قد عجلت، وإن كان على غير ما يقول، كانت حسنة لم يعملها».

وكان عليه السلام رفيقاً مع كل من يعامله من عشراء وخدم. يروى في ذلك: أنه بعث غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج يبحث عنه، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه، وأخذ يروّح له حتى انتبه، فقال له: «ما ذلك لك، تنام الليل والنهار! لك الليل، ولنا النهار».

وكان عليه السلام يدعو الله أن يغفر لمن أساء اليه. فقد كان إذا بلغه نيل منه أو شتم له في غيبته، يقوم ويتهيأ للصلاة، ويصلي طويلاً، ثم يدعو ربه: ألا يؤاخذ الجاني، لأن الحق حقه، وقد وهبه الجاني غافراً له ظلمه. وكان يعتبر: من ينتقم من عدوه ـ وهو قادر على الانتقام ـ ذليلاً. وقد نقل عن

رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما نقص عَفو من عز، وما نقص مال من صدقة!».

وكان الصادق سلام الله عليه صبوراً إلى حد بعيد. فقد مات بين يديه ولد صغير له، فبكى وقال: «لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت» ثم حمله إلى النساء، فصرخن حين رأينه، فأقسم عليهن أن لا يصرخن، ثم أخرجه إلى الدفن وهو يقول: «سبحان من يقبض أولادنا، ولا نزداد له إلا حباً». ويقول بعد أن واراه التراب: «أنا قوم نسأل الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا، فإذا أحبَّ ما نكره فيمن نحبُّ رضينا».

وهكذا كان الصادق عليه السلام مثالاً رائعاً في كل فضيلة، وكان رجلاً مثالياً في كل صفة من صفات الكمال. فهو الامام حقاً بعلمه، وعبادته وسمو صفاته وجهاده المبين. فيجدر بفلاسفة العالَم أن يستقوا من علمه ويقتدوا بسيرته ويصححوا فلسفتهم على ضوء معارفه فيخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. فقد قال الله تعالى: ﴿ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور!﴾[1].



(١) سورة النور: ٤٠.

هل ينقذنا العلم فحسب

كانت أوروبا في القرون الوسطى تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط المرير نتيجة الرهبانية التي كان يتعاطاها القساوسة ورجال الدين، وانتشرت حياة العزوبة التي كانت الرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها، مما أدى إلى قلة النفوس وانتشار الأوبئة والأمراض في طول القارة الأوربية وعرضها، وقد دس هؤلاء الرهبان في كتبهم المقدسة معلوماتٍ بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بمقدار ما كان موجوداً في ذلك العصر، وعدوا ذلك مقررات دينية لا يمكن أن تتبدل أو تتغير، حين أن العلوم الطبيعية رهينة التجربة والبحث. ولم تكن الطريقة التجريبية متأصلة في ذلك الوقت. فجاء دور التجربة والمشاهدة والبحث على ضوء التجارب المتكررة، بالآلات والأدوات وأجهزة خاصة، فثبت إذ ذاك عدم صحة ما دوَّنه الرهبان في كتبهم الدينية عن الفلك والأمطار والزوابع والرعد والبرق... إلى ما هنالك فحصل شجار وتضارب بين المكتشفات المستندة إلى التجربة والاستقراء وبين ما دوِّن من الخرافات في الكتب الدينية من قبل الرهبان. أي حصل كفاح مشؤوم بين الدين والعقل، والعلم الذي انهزم فيه الدين، ذلك الدين المختلط بعلم البشر المتغير من وقت إلى وقت، ذلك العلم الذي فيه الحق والباطل والخالص والزائف هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين في أوروبا سقوطاً لم ينهضوا بعده، وكانت نتيجة ذلك: أن أمست أوروبا لا دينية على وجه التقريب.

ولم يكتف الرهبان بما أدخلوه من معلومات بشرية زائفة في كتبهم الدينية، بل صبغوا هذه المعلومات الطبيعية أو الجغرافية الناقصة أو الزائفة صبغة دينية يجب الاعتقاد بها، ووصموا غير المؤمن بها بالكفر، حتى أنهم ألفوا كتاباً أسموه: «الجغرافية المسيحية!»: Christian geography فيه من الخرافات ما أنزل الله بها من سلطان وقالوا بكفر مَن لا يدين بها.

إلا أن علماء الطبيعة حطموا سلاسل التقليد الديني، فرفضوا هذه النظريات، الجغرافية المغلوطة وغيرها من معلومات زائفة المدوَّنة باسم الدين في كتب الدين. وأعلنوا اكتشافاتهم ونتائج اختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون في زمام الأمور في أوروبا، وكفروا كل من لا يؤمن بما جاء من الخرافات المدسوسة في كتب الدين، (والدين منه براء)، واستحلوا دماءهم وأموالهم وأنشأوا محاكم التفتيش التي كانت تعاقب وتُعدم أولئك الملحدين والزنادقة! أي الذين لا يؤمنوْن بمعلومات مشوشة مغلوطة جغرافية دسَّت في كتب الدين باسم الدين.

وقد عاقبت هذه المحاكم (٣٠٠٠٠٠) عالم وأحرقت منهم (٣٢٠٠٠) أحياءاً، كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة أراءاً من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل واقترحت بأن لا تُراق قطرة من دمه. ومعنى ذلك أنه يجب أن يُحرق حياً.

كما أنه حكم على (كاليله Galilio) بالقتل لقوله بحركة الأرض حول الشمس، ولكنه كان صديقاً للبابا وحلف بالأناجيل كلها أمام محكمة التفتيش أن لا حركة للأرض! فسجن مدة من الزمن. ونجا من الاعدام.

ونتيجة لهذا الصراع بين العلم والكنيسة قرر الثائرون من علماء الطبيعة الذين كان علمهم مستنداً إلى الطريقة التجريبية: أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان[1]، وان العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بأحدهما، فقد كفر بالآخر.

وإذا جاء ذكر الدين، تذكروا تلك الدماء البريئة التي أريقت في سبيل التحقيق العلمي على أساس التجربة والمشاهدة والبحث العلمي الصحيح وتلك القوة التي أظهرها رجال الكنيسة ضد العلم والعلماء. تذكروا تلك الوجوه الكالحة والعابسة التي قست على رجال البحث وأعدمتهم دون مبرر عقلي أو ديني، (لا الدين الذي تقول به الكنيسة!؟).

---

(١) وقد أسهبنا الموضوع في الجزء الأول من كتاب التكامل في الاسلام في أن لا تنافي بين الدين والعلم التجريبي.

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من حسن التفكير أن يميزوا بين الدين الصحيح والزائف وأن يبحثوا عن الاسلام دين الحق والعقل والتفكير الصحيح.

فلم يرسلوا مَن يبحث لهم عن هذا الدين وأعني به الدين الاسلامي، ليعلموا كيف أن الاسلام يؤيد العلم ويشجع البحث العلمي الحر، وهو قوله تعالى: ﴿ولا تقف[1] ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[2]. ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوبٍ أقفالها﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار. والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[4].

وبقوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾[5].

وبقوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[6].

وبقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[7].

وبقوله: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ (سورة: ق).

---

(١) ولا تقف: ولا تتبع.
(٢) سورة الاسراء: ٣٦.
(٣) سورة محمد (ص): ٢٤.
(٤) سورة البقرة: ١٦٤.
(٥) سورة يونس: ١٠١
(٦) سورة العنكبوت: ٢٠.
(٧) سورة الروم: ٢١.

وبقـوله تعـالى: ﴿أفلا ينـظرون إلى الابل كيف خلقت﴾. (سـورة الغاشية).

وبقوله: ﴿أوَ لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾. (سورة الروم).

وبقوله: ﴿يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كـل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾. (سورة النحل).

وبقوله: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم[1] ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾. (سورة آل عمران: ١٩١).

وقوله تعالى: ﴿وكذلك يبيِّنُ الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾. (سورة البقرة).

وقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾. (سورة المائدة)...

وقوله تعالى: ﴿وما يذكّر إلا أولو الألباب﴾. (سورة البقرة).
وقوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون، قل العفو[2]، كذلك يبيِّنُ الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾. (سورة البقرة: ٢١٩).

وقوله تعالى: ﴿قل، هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ (سورة الأنعام).

وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز[3]، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، أفلا يبصرون﴾. (سورة السجدة: ٢٧).

---

(١) على جنوبهم: مضطجعين.
(٢) العفو: الفاضل عن الحاجة.
(٣) الجرز: اليابسة التي لا نبات فيها.

وقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه اليك مبارك، ليدبروا آياته﴾ (سورة: ص).

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾. (سورة الأنعام...).

وقوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (سورة المجادلة).

حتى آل أمر العلماء المحدثين إلى معاداة الدين، أي دين، والكفر بما وراء الطبيعة والتمسك بالمبدء المادي والالحاد والزندقة، وانكار كل ما لا يُرى بالعين أو بالميكروسكوب، أو التلسكوب، وعدم الايمان بالغيب.

حتى قال: هكسلي صراحة في كتابه: (الانسان في العالم الحديث): «إن الجهل والعجز فقط هما اللذان يخضعان الانسان لله! فإذا ازدادت معرفته وقوته، فلا موجب إذن لفكرة الله وما يرتبط بها من عبادات... وليكن الانسان هو الله!».

ولو كان لدى المسلمين في تلك الحقبة من الزمن عددٌ وافٍ من المبشرين بالدين الاسلامي العظيم فذهبوا إلى أوروبا، وقرأوا على الناس الآيات القرآنية التي تؤيد اكتشافات العلماء المحدثين:

﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾[2]، ﴿كلٌ يجري إلى أجلٍ مسمى﴾[3]... ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يدبِّر الأمر يفصِّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[4].

---

(١) سورة يس: ٣٨.

(٢) سورة يس: ٤٠.

(٣) سورة الرعد: ٢.

(٤) سورة الرعد: ٢.

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة، وهي تمرُّ مرَّ السحاب، صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾[1].

﴿ألم تروا أن الله يزجي[2] سحاباً ثم يؤلف بينه[3]، ثم يجعله ركاماً فترى الودق[4] يخرج من خلاله، وننزل من السماء من جبال فيها من برَد نصيب به من عبادنا من نشاء ونصرفه عمن نشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾[5].

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[6].

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. (سورة الذاريات: ٤٩).

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾. (سورة المعارج: ٤٠).

﴿يخلقلكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾. (سورة الزمر: ٦). إلىٰ آيات كونية أخرى تبلغ ٧٥٠ آية، هي عصارة المكتشفات الحديثة وما سيكتشف في مستقبل قريب أو بعيد، لأسلمت برمتها ولآمنت بالدين الاسلامي: دين العلم والعقل والعلم الصحيح. هذا الدُين الذي ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلُّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم[7] والاغلال التي كانت عليهم﴾. (سورة الأعراف: ١٥٧).

فاتجه الغرب، نتيجة تصرفات الكنيسة الخاطئة وتقاعس المسلمين عن التبشير بالاسلام، إلى المادية بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة

---

(١) سورة النمل: ٨٨.

(٢) يزجي: يسوقه برفق.

(٣) أي يتكاثف البخار، فتقترب أجزاؤه بعضها من بعض نتيجة البرودة وتأين الهواء (الكهربائية).

(٤) الودق: المطر...

(٥) سورة النور: ٤٣.

(٦) سورة الحاقة: ٣٩.

(٧) القيد والتكاليف الشاقة.

نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم بصورة تدريجية، فأنكر العلماء المحدثون كل شيء وراء المادة، وقالوا ان المادة هي الخلاقة والمفكرة والمدبِّرة والمحيط (أو البيئة) هو المؤثر الوحيد العالي التفكير والمديراللبيب والمهندس البارع المبدع دونما نظير، فصاروا يستهزؤون بكل نظرية تبرهن على وجود الباري جل جلاله وأسموها الطريقة التقليدية البالية الخرافية التي لا تجدي نفعاً ولا تكشف شيئاً. جحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة، وأبوا الايمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار ولا يدخل تحت الوزن والمساحة والزمان أو لا يقاس بالغرام والسانتيمتر والثانية، فأصبح عندهم الايمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبل المفروضات أو المواضيع التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم.

نعم، قد بقي ثلة من الناس في أوروبا يؤمنون بالغيب ولكن منهج التفكير كان ينكر ذلك ولا يؤدي بالايمان بالله والوحي والنبوات والحياة الأخروية، ذلك لأنه لا شيء من المذكورات يدخل تحت منهجهم الفكري الذي لا يؤمن إلا بالحس والاختبار، وما يصدقه القياس الزمني: الثانية.. والقياس البعدي: السانتيمتر... والقياس الوزني: الغرام... فصاروا يزدادون كل يوم شكاً في العقائد الدينية!!...

ونتيجة لهذا التفكير المنهجي نهض الكتّاب والمؤلفون يؤيدون وجهة نظر المادية ويكتبون كتباً اجتماعية تؤيد النواحي المادية في الحياة، وان لا شيء وراء المادة أو الطبيعة العمياء! ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً وينشرون الفلسفة النفعية وفلسفة اللذة الأبيقورية(Epicure) ويقولون: ان الفكر من نتائج المادة[١].

وقد جعل هؤلاء الحواس الخمسة أساساً للمعلومات والعلم أي علم حين

---

(١) قد علم أخيراً أن لا تناسب بين حجم المخ وقوة التفكير. فمخ الاسكيمي أضخم لو قيس بحجم بدن صاحبه، ويأتي بعده مخ اليابانيين. وقد وجد ان أصغر مخ هو مخ العبقري الايطالي: (دانتي). وعلم كلما ابتعد الشيء عن حالته المادية وآل أمرها إلى الاشعاع والقوى والطاقات كان أكثر فعالية وانتاجاً وتأثراً.

أنه يقول (لنكولن بارنت): «ان ما يدركه الانسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود بسبب عجز جهاز الابصار عنده. ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية(Rayons X) لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

ثم ان السياسيين دعوا إلى فصل الدين عن السياسة، وقالوا: ان الدين إذا كان لا بد منه، فإنما هو قضية شخصية، لا ينبغي أن يتدخل في أمور السياسة، ولا معنى لتشكيل دولة على أسس دينية(1)!؟ وان النصرانية إنما موضوعها الحياة الأخروية، والمتدينون لا يفيدون الدولة في شيء وان كان وجودهم يفيد الكنيسة لتقيدهم بأحكام دينهم، والملوك والأمراء لهم أن يكذبوا ويخونوا وينقضوا العهود والمواثيق إذا اقتضت الحالة ودعت سياسة الوقت إلى ذلك.

فالكذب والخيانة والغش والنفاق دعائم لكل دولة تريد أن تعيش، وهكذا أولدت الفكرة المادية فصل الدين عن الدولة وأوجدت سياسة الغش والكذب.

وثار المؤلِّفون على الأخلاق القديمة والنظم الاجتماعية السابقة وزيَّنوا للناس الإثم والفحشاء والمنكر والشهوات والنزوات ودعوا الناس إلى التهام الحياة البهيمية وإرضاء الشهوات وانتهاب المسرات، فكانت المراقص ودور الخمور والفجور. وصار الغرب يؤمن بكل ما يحمل «خاتم» التجريب ويأخذونه قضية مسلمة لا تحتمل الشك أو التأويل، أما ما لا يخضع للمعمل فهو خرافة أو هو على الأقل شيء ساقط عن الحساب، ولما كان الله سبحانه وتعالى لا يدخل إلى المعمل! ولا يخضع للتجريب العلمي! فقد استغنوا عنه وأعلنوا أنه غير موجود!.

نعم، قد فعلت هذه الموجة الالحادية العاتية الغاشمة فعلها وانتشرت

(1) كما كان في صدر الاسلام والناس في دعة واطمئنان، قد نالوا سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

كالنار في الهشيم وأدى ذلك إلى تقسم الدين وانهيار الأخلاق والتقاليد وتلوث كل تراث بشري في حقل النبل والأخلاق والفضائل.

* * *

ثم إن هؤلاء العلماء الماديين قد فسروا نظرية (داروِن) تفسيراً خاطئاً يحقق ميولهم المادية، وقالوا بالتولد الذاتي، حين أن (داروِن) نفسه كان يعزو نظريته التكاملية إلى خالق مدبِّر عظيم، نظم هذه الخطوات التكاملية التي لا تعدُّ ولا تحصى اعتباراً من آميبا: (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) إلى ما هنالك من نباتات وحيوانات تكاد لا تتناهى. إذن هذه الخطوات من الدقة والتعقيد ما يحيِّر الألباب. وهي من التنوُّع وتعدد المراحل ما ينفي الصدفة ويجعلها في مرتبة الصفر على ما ثبت في حساب الاحتمالات من أبحاث الرياضيات العالية، حقاً ﴿إن الانسان لربه لكنود، وأنه على ذلك لشهيد﴾[1]. ﴿أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[2]، إن هذا الانسان يمر كل يوم على آيات وشواهد على عظمة الله تعالى، تكاد لا تتناهى، يمر عليها معرضاً عنها، غير معتبر بها لغشاوة على عينيه من جراء ما تلوثت به يداه من أجرام وآثام وفسوق وفجور، نعم، ﴿وكم من آيةٍ في السماوات والأرض يمرون عليها وهم مُعرضون﴾[3]. ولكن الله تعالى يمنُّ على هذا البشر بأنواع الآيات كل يوم لعل هذا الانسان يرتدع عن غوايته: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبينَّ لهم أنه الحق، أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾. (سورة حم: سجدة: ٥٣).

* * *

وجاء فرويد، بعد (داروِن) بنصف قرن، فزاد في الطين بلة وصوَّر

---

(١) سورة العاديات: ٦ ـ ٨.
٢ سورة الرعد: ١٩.
(٣) سورة يوسف: ١٠٥.

(الانسان حيواناً عرياناً لا حياء له[1]، حيواناً عرياناً من كل خُلق ومن كل دين ومن كل شعور نظيف، وقال: ليس هنالك حقيقة في العالم إلا الشهوة والشعور بالجنس، فالجنس هو كل شيء، وكل شيء نابع عن الجنس! الطفل يرضع ثدي أمه بلذة جنسية! ويتبوَّل ويتبرز بلذة جنسية، ويحرك عضلاته بلذة جنسية، ويرتبط بأمه بشعور جنسي، كما ترتبط الطفلة الأنثى بأبيها بشعور جنسي. وهكذا ينمو هذا الشعور الجنسي مع نمو الطفل، فلا معنى للكبت، وليعمل كل من الجنسين لتحقيق اللذة الجنسية كيفما كان، دون قيد وشرط!!...

لقد تلقف الشباب بصورة خاصة تعاليم فرويد وتشبثوا بها تشبثاً وراحوا يوسعون رقعتها في كل اتجاه.

نعم، دعا (فرويد) إلى العلنية في ممارسة الجنس من دون خجل، وأضفى الصيغة الشرعية على سلوكه البهيمي، وتخصص قسم من الأدباء في تحبيب ممارسة الجنس إلى الشبان بطريق غير مشروع أمثال: (و. هـ. لورنس)، ونظموا موسيقى كاملة في إثارة الجنس والتعبير عنه بشتى صنوف التعبير مع مصحوبة بالرقص وحركاتٍ شهوانية، وكانت نتيجة ذلك أن اسودت القلوب وادلهمت النفوس، فاتجه العلماء المحدثون، هؤلاء الذين تشبعت أفكارهم بعبادة الطبيعة العمياء وتلوثت نفوسهم بأنواع الموبقات إلى الطريقة العلمانية في الدولة والشؤون الاجتماعية والاعتقاد بأن العلم البشري والقوانين الوضعية كافيان للكمال البشري، وان ليس وراء المادة شيء، ولم ينزل الله تعالى من السماء كتاباً يهدي الناس سواء السبيل، كل ذلك لاتباعهم هوى نفوسهم، فكان أمرهم فرطاً: على حد قوله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطاً﴾[2]

---

(١) جاء في الحديث عن النبي (ص): الاسلام عريان ولباسه الحياء. وفي حديث آخر: «لا إيمان لمن لا حياء له».

(٢) فرطاً: اسرافاً.

(٣) سورة الكهف: ٢٨.

ثم أن الثورة الصناعية الكبرى التي قضت على المعامل الصغرى في القرى والأرياف أدت إلى نزوح القرويين إلى المدن ابتغاءاً للرزق، وانطلق هؤلاء العمال إلى الفسق والفجور وأوغلوا في البغاء، وبعد أن اطمأنوا إلى حياتهم الجديدة أرسلوا إلى أسرهم لتلحق بهم في المدن، إلا أن هذا لم يقض على الضرورة التي كانت من قبل، بل ظلت قائمة للأجيال الجديدة التي رأت فيها طريقة سهلة للتخلص من وطأة الجنس بغير تبعات. وأصبح البغاء بصوره المختلفة من أول الصداقة الفردية إلى بيع الجسد لكل راغب هو المتعارف في الأوساط. وسمي هذا تطوراً يتفق ومفاهيم العصر الحديث... وما عداه خرافة وتقاليد بالية يجب على المثقف أن يتركها ليعدَّ من المثقفين!.

ثم ان النساء بحكم الضرورة التحقن بالمعامل أيضاً، ذلك لأن رواتب الرجال كانت قليلة، والبغاء كان منتشراً إلى حد بعيد مما منع الشاب من التزوج إلى مدة مديدة، فزاد التحاق النساء بالمعامل مع الرجال جنباً إلى جنب في الفحشاء والمنكرات مما لوَّث النفوس وأبعدها عن عالم التكامل النفسي أيما إبعاد.

فماتت النفوس من جراء تلوثها بأنواع الموبقات على الشواطىء والطرقات والترام وفي كل مناسبة، فصارت، لادلهمامها، لا تؤمن إلا بالمادة وهذا العلم المادي، وزعمت أن العلم المادي هو الكمال المطلق وأنه موصل هذا الانسان إلى الكمال المنشود، أنه هو المعبود الذي يجب أن يعبد وهو حلال المشكلات.

فالعلم المادي هو الأخلاق الفاضلة وهو غذاء الروح وموصل هذا الانسان إلى غاية الغايات.

فالأنبياء والوحي والجنة والنار والبعث والحساب والاعتراف بالذنب والغفران ومفاهيم خرافية أولدتها جهالة القرون الوسطى والأولى، قضى عليها العلم المادي حيث لا رجعة ولا عَود.

وهكذا تحجرت النفوس، فنشأت المذاهب المادية وعلى رأسها مذهب ذوي العاهات على حد تعبير الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد، حين أنه لا رابطة بين العلم المادي والتكامل النفسي بوجه من الوجوه، ولكن شهوة

التجريب لم تقف بالتجريبيين عند المادة، ميدانهم الأصيل، بل راحوا يجربون في كل شيء وكل ميدان حتى عَنَّ لهم في مبادىء هذا العصر أن يجعلوا النفس مادة للتجريب يخضعونها لتجارب العمل والمختبرات، ويستنتجون من هذه التجارب قوانين يحكمون بها النشاط النفسي ويفسرون بمقتضاها الانسان والانسانية! وصاروا يخضعون حتى المعنويات لتجارب المعمل للوصول إلى حقائق موضوعية ثابتة!.

* * *

التكامل النفسي إنما هو نتيجة تعاليم روحية تؤدي إلى كمال النفس الانسانية وهي ليست من العلم المادي أي من السانتيمتر والغرام والثانية في شيء... إنما هو دساتير روحية تكاملية قررها الله تعالى على لسان أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ذلك، لأن العلم المادي إنما هو نتيجة التجربة والاختبار والمشاهدة والمقارنة والاستقراء والاستنتاج والتجريد والتعميم إلى ما هنالك من فعاليات ذهنية لا تتصل بالنفس من حيث السمو والضعة أو التكامل والتسافل في شيء فان عملية:

$$\frac{\text{ن}+١}{٣} \times \frac{\text{ن}-١}{٣}$$

أو رسم المنحني: القطع الزائد : $\frac{\text{س}^{٢}}{\text{ب}^{٢}} - \frac{\text{ع}^{٢}}{\text{حـ}^{٢}} = ١$

أو رسم القطع الزائد المجسم: $\frac{\text{س}^{٢}}{\text{ب}^{٢}} + \frac{\text{ع}^{٢}}{\text{حـ}^{٢}} - \frac{\text{ص}^{٢}}{\text{د}^{٢}} = ١$

أو حل معادلة تفاضلية: (Equation différentielle) أو مسألة فيزيائية أو كيميائية، كل ذلك يجري من قبل النفوس بأجمعها دون تفريق بين المتعالية منها أو المتسافلة، المتألهة منها أو الملحدة، المتصفة منها بأخلاق ملكوتية أو المتردية باغواءات شيطانية، فلا تؤثر تجربة كيميائية أو عملية حسابية أو معادلة

تفاضلية: Equations différentielle أو دستور كسوف الشمس أو دساتير ليبنيتز في التحليل الرياضيAnalyse Mathématique في سمو النفس أو تسافلها، إنما يتأتى سمو النفس بالقيام بأعمال صالحة من مساعدة الغير وخدمة الأبوين والأرحام والقيام بحوائج الناس بصورة سرية ولوجه الله تعالى ونكران الذات في سبيل الخير والتضحية لانقاذ الآخرين والمثول بين يدي رب العالمين بخشوع وخضوع وصلوات مقبولة والتهجد جوف الليل ببكاء وخنوع، وبتزكية النفس من أدرانها وأوساخها على ما قرره الشرع[1] وإعطاء فضول الأموال إلى الفقراء والمعوزين، لا سيما الأرحام إلى ما هنالك من واجبات ومستحبات يطول ذكرها.

فالعلم مجرد عملية ذهنية وفكرية لا تمت إلى صناعة تهذيب النفس وتكاملها بصلة.

يقول (ماريت ستانلي كونجدن) وهو عالم أمريكي معاصر ـ في مقال له بعنوان: (درس من شجيرة الورد): «إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الانسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ. وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك... وليس باليقين... ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء في القياس والمقارنات، ونتائجها اجتهادية، وقابلة للتعديل بالاضافة والحذف... وليست نهائية».

ويقول سير (جيمس جينز) عالم الطبيعيات والرياضيات:

«لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق أن الطبيعية لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً: وهو الطريق الذي رسم من قبل لنسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته. وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول. وانه لا مناص من أن الحالة: (أ) تتبعها الحالة (ب). أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن هو: أن الحالة (أ) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (حـ) أو (د) أو

---

(١) قال علي عليه السلام: «ليس الدين بالرأي، إنما هو اتباع».

غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر. نعم، إن في استطاعته أن يقول: أن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالاً من حدوث الحالة (حـ) وان الحالة (حـ) اكثر احتمالاً من الحالة (د)... وهكذا. بل ان في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات ب() و(حـ) و(د) بعضها بالنسبة إلى بعض. ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين: أي الحالات تتبع الأخرى. لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل. أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار».

وقد يكون العلم مع نفس متردية آلة تخريب وفساد: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[1]. وقد قال علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

فالعلم يكون وسيلة تخريب وهدم ان لم تتحلَّ النفوس بمكارم الأخلاق وفضائل الخصال على ما قرره الشرع ووفق ما يريده الله تعالى وهو العارف بطرق تكامل النفوس.

وكم من عصابات في أمريكا وغير أمريكا تقوم بأعمال منكرة من اختطاف البنات أو البنين وسرقات خطيرة، فيسرق ما في المصارف والبنوك التجارية بشتى الوسائل من قبل عصابات هم من خريجي المدارس العالية!!.

والجيل الناشىء في أوروبا يعاني أقصى درجات التحلل والانحدار!. فعصابات للخطف والسلب والنهب والاغتصاب، عصابات من الأطفال لمهاجمة القطارات وقذف نوافذها بالأحجار، عصابات ـ من الأطفال ـ تضع الأحجار على القضبان لتخرج من عليها القطارات! عصابات الحشيش والأفيون وبقية المخدرات. «التزويغ» من دفع أجرة الركوب.. كل الرذائل التي يمكن أن يتصورها الانسان!...

ولقد علمت أن أستاذاً في الفيزياء العالية نال مكافأة ثمينة على مؤلف خطير، فأنفد المكافأة في شهواته ونزواته وابتلى بمرض السيفيليس ومات وهو مجنون، وآخر مع كونه دكتوراً في التربية وعلم النفس كان يشرب الخمر

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

ويستمر في العربدة حتى يُمسي مهزلة للآخرين وآخر دكتوراً في مواضيع ثلاثة كان يفتحر بارتياده دور البغاء ويقول متبجحاً. . . :

ليس لهذا العلم المادي تأثير في توجيه الشباب نحو الكمال والأخلاق الفاضلة وضبط النفس عن الولوج في الشهوات والموبقات. كان يقول كندي: «إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات، وانه من بين سبعة شباب يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم في الشهوات، وانذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا، وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج».

يقول (ول ديوارنت): «إن اختراع موانع الحمل وذيوعها هـو السبب المباشر في تغيير أخلاقنا. فقد كان القانون قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج، أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغيير نتيجة هذا العامل، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة».

حتى أن في بعض الدور التي أعدت للعبادة والصلاة، فبعد أن ينتهي الأب من الموعظة في الكنيسة الأمريكيـة، يطفيء الأنـوار الكبرى ويضيء المصابيح الخافتة المغرية بالخلسة ويدير اسطوانات الرقص للشباب والفتيات بنفسه. وهكذا تعمـل النظريـة القائلة: دعـه يعمل: (Laissez faire) بـلا حواجز. فأدت إلى تفسخ مرير في الأخلاق والأنفس.

وهكذا نرى أن ليست هنالك أية صلة بين الكمال النفسي، وما يتعلمه الانسان من دساتير في الفيزياء والكيمياء وما يكتشفه من قوانين في الفلك أو الرياضيات أو دساتير تتعلق بعلم الاجتماع أو علم آثار النفس أو ما يضعه من قوانين لتنظيم شؤون الناس. انهما: أي الكمال النفسي والانتاج العلمي وأعني به العلم المادي أو القوانين البشرية الموضوعة، من واديين مختلفين.

فالكمال النفسي يتأتى من تطبيق دساتير السماء ومراقبة النفس في خلواتها والخشوع امام عظمة الله التي لا تتناهى والاستغفار بشتى أنواعه، والآخر، وأعني به العلم المادي أو الثقافة العصرية صيغاً ذكائية وفكرية يقوم بها العالم المادي، بغية الكشف أو نيل درجة في الأوساط الاجتماعية أو الشهرة بين الناس.

ولا مراء أن الانسان مهما سما وتعالى لا يأتي بمنن أخلاقية رصينة ودساتير تكاملية ناصعة لنقائص في نفسه، فوجب أن يتبع العالم المادي سنن الأنبياء (ع) لو أراد التكامل الناصع الذي لا شائبة فيه، لأن الله تعالى هو الذي وضع سنن تكامل النفس الانسانية وأوحاها إلى أنبيائه (ع) ليهدوا الناس سواء السبيل.

فالعلم المادي والتعرف إلى ما أودع الله تعالى من دساتير في عالم الفيزياء والكيمياء وفي الميكانيك السماوي والأرضي ومن قابليات النمو والتكاثر والتنوع في حياة النبات والحيوان يزيد في إيمان الشخص ويعطيه من الاطمئنان ما ترتاح له النفوس، فالعلوم الطبيعية منافذ ينفذ منها التفكير الانساني ليرى ما أودع الله تعالى من دقيق الصنع في هذا الكون الرحيب.

فالمعارف الالهية وتعاليم الأنبياء (ع) تفتح القلوب وتجعلها مندرجة نحو الكمال المنشود.

فقد قال علي عليه أفضل الصلاة والسلام، بالنسبة إلى المعارف الالهية ومعرفة الله تعالى، إلى كميل:

«يا كميل، ان هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للعلم، أحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة، عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع[1]، أتباع كل ناعق عاوٍ يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

---

(١) همج رعاع: الهمج ذباب صغير كالبعوض، تقع على وجوه الغنم، والرعاع: الاحداث الطغام أي أوغاد الناس.

هؤلاء الذين يميلون مع كل ريح هم أولئك الماديون المثقفون بثقافة العصر، من طب وكيمياء وفيزياء ونبات وعلم طبقات الأرض... إلى ما هنالك فلم يتعرفوا إلى المعارف الالهية وعوالم ما بعد الطبيعة ولم يعملوا لأجل التدرج في عوالم تكامل النفس، فصاروا أشبه شيء بدابة همها علفها، لم يستضيئوا بنور العلم الالهي ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، فصاروا لا يخشون الله تبارك وتعالى مع كونهم من العلماء في عوالم المادة، فلا ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1]، ذلك لأن المراد في هذه الآية من كلمة «العلماء» أولئك الذين يذكرهم علي عليه السلام بقوله: «فخيرها أوعاها للعلم».

نعم، ان هؤلاء قد قست قلوبهم وصار عليها غشاوة حجبت عنهم مشاهدة أنوار القدس من جراء أنواع الفسوق والآثام. وقد جاء في الحديث: «ما ضُرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب» وان القلب ليقسو من:

١ ـ ترك ذكر الله تعالى.
٢ ـ كثرة الأكل والشرب، ففي الحديث: لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فان القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء.

٣ ـ لقمة الشبهة، أي من مال مشكوك حليته أو من مال غير مزكى أو غير مخمّس، الخ، ففي الحديث: «في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي الشبهات عتاب».

٤ ـ كثرة أكل اللحم، ففي الحديث: «لا تجعلوا بطونكم قبور الحيوانات».

٥ ـ التعجيل في الأكل.

٦ ـ كبر اللقمة.
٧ ـ تأخير الصلاة عن وقت الفضيلة، ﴿ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾[2].

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.
(٢) سورة الماعون: ٤ ـ ٥

٨ ـ كثرة الكلام، لقوله تعالى: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾[١].
٩ ـ الأكل بالشمال، أي: باليد اليسرى.
١٠ ـ كثرة النوم، لقوله تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾[٢].

١١ ـ كثرة الضحك، ففي الحديث: «لا يكمل إيمان أحدكم حتى يترك المزاح جدَّه وهزله».

١٢ ـ الهمُّ بالدنيا للدنيا، لقوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾[٣].

١٣ ـ طول الأمل. ففي الحديث عن رسول الله (ص): «إن أخوف ما أخافه عليكم اثنان، اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة».

١٤ ـ كثرة المال، لقوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾[٤]، ولقوله تعالى بالنسبة إلى قارون: ﴿فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، أنه لذو حظ عظيم، وقال الذين أوتوا العلم[٥] ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون، فخسفنا به وبداره الأرض. فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين﴾[٦].

١٥ ـ مجالسة الأنذال، فقد جاء في الحديث: «عاشروا مَن يذكِّركم الله».

١٦ ـ الخلوة بالنساء. فان الشيطان هو الثالث لهما كما جاء في مضمون حديث.

---

(١) سورة المؤمنون: ٣.
(٢) سورة الذاريات: ١٧.
(٣) سورة آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٤) سورة الكهف: ٤٦.
(٥) يراد بهذا العلم: المعارف الالهية.
(٦) سورة القصص: ٧٩ ـ ٨١.

١٧ ـ مجالسة الأغنياء.

١٨ ـ مجالسة الضال والجائر في الحكم. ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا، فتمسّكم النار﴾[١].

١٩ـ ترك مجالسة العلماء، فقد جاء في الحديث: «النظر إلى وجه العالم عبادة».

نعم، إذا ماتت النفوس بشهواتها ومراقصها واستهتارها، شقيت، وللشقي علامات وأمارات، فعن رسول الله (ص): «علامات الشقاء أربعة: نسيان الذنوب السابقة، وذكر الحسنات الماضية لا يدري، قبلت أم رُدَّت والنظر إلى مَن فوقه في الدنيا، والنظر إلى مَن دونه في الدين».

* * *

يقول (روبرت هتشنس) بالنسبة إلى العلم المادي: «لقد بلغ العلم في آن واحد إلى الأوج في المعرفة والتكنولوجيا[٢] والتحكم في الطبيعة، وإلى الحضيض في حياته الأخلاقية والسياسية».

فهذا القول إن دل على شيء، فإنما يدل أن ليس للعلم المادي، ومختلف الدساتير في الرياضيات أي أثر في توجيه الانسان نحو الكمال وإيجاد سياسة عالمية ترتاح لها النفوس ويرتضيها الله تبارك وتعالى.

ويؤيِّد ما أقول: قول أحد أعضاء مجلس الوزراء الأمريكي «أندرسن» (وهو رجل في مقتبل عمره، متمالك لقواه العقلية وقد كان أستاذاً للقانون): «إذا كان للانسان أن يحكم على نفسه بشكل موثوق، فان المقاييس التي يستخدمها للحكم على سلوكه يجب أن تكون، بالضرورة، من الطراز الذي يتعدى قدرته على تحويرها أو تحديدها، إذ لو أعطي القدرة على تحديد هذه المقاييس لأضحت حتماً ما يريدها أن تكون، وعليه، فان ما لدي الآن من

---

(١) سورة هود: ١١٤.

(٢) التكنولوجيا: Technologie العلم الذي يبحث عن تاريخ وأصول الفنون والصنايع على اختلاف أنواعها.

قدرة غير محدودة على تبرير الأمور قد يجعل الأكاذيب تبدو عند ذاك وكأنها حقائق، والخديعة وكأنها تتجلبب ثوب الشرف، والاضطهاد وكأنه يستخدم مكان العدالة، هذه بالنسبة إليَّ، هي الخطيئة الكبرى للفلسفات المادية والانسانية ولكل منهج فلسفي آخر لا يقر بوجود مستقل لقيم أخلاقية وروحية مطلقة... هذه القيم هي روحية مطلقة لا مادية نسبية، وهي أعلى وأبعد من أن يصل إليها الانسان في تطوره. وعلى الانسان أن يدرك أنها قيم ثابتة أزلية من صنع الله. وعليه أن لا يتصور أنها ملك خاص لعقله يكيفها لتنطبق على كل حالة عارضة. وعلى هذا فإننا نؤكد اعتقادنا بوجود مصدر إلهي للقيم الروحية المطلقة، ونرى أنه لا يجوز للانسان أن يعمل فيها يد الهدم والتخريب»[1].

ولو كان قد تشرف (أندرسن) بالدين الاسلامي العظيم لوجد في الاسلام من التعاليم ما يجعله أن يقول: ان حياة الانسان في النشأتين تتوقف على اعتناقه دين الاسلام. فهو حقاً، حياة القلوب: ﴿يا أيها الذين آمنوا، استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[2]. ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾[3].

* * *

العلم المادي لا يرتقي بالنفوس إلى معالم القدس ولا يعترف بالغيب، والاعتراف بالغيب إنما هو رشحات النفوس الزكية، تلك التي اتصفت بالتقوى: ﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب﴾[4].

كيف يؤمن بالغيب من أظلمَّت نفسه بالمادية الصماء، كيف يؤمن بالغيب

1 — R. B. Anderson., Time, October 26. 1953. P. 27.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

(٣) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٤) سورة البقرة: ١ ـ ٣.

من اتخذ الفحشاء شعاراً والخمرة دثاراً. لا يؤمن بالغيب إلا الأتقياء الخاشعون فلا بد للمؤمن بالغيب من خشيةٍ في خلواته: فيما بينه وبين ربه، فان لم يكن هناك خوف وخشية فلا قبول للمعارف الالهية، بل يقوم مقامه الجحود والاستهزاء. وقد جاء في الحديث: «رأس الحكمة مخافة الله». ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياءاً وذكراً للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون[1]﴾[2].

* * *

فالفرق بالنسبة إلى الأخلاق والعقيدة في القديم والجديد أنه قد وجدت مذاهب ونظريات في القديم كانت تبرر الانحراف والتحلل دون أن تلبَّس ثوباً علمياً. ولكن اليوم تلبس هذه النظريات والمذاهب الهدامة للنفوس والمميتة للأرواح ثوباً علمياً ويبرهن على صحتها بما يترشح (من عنديات) من نفوس أظلمت بفجورها ومجونها، فأصبحت مدلهمة لا ينفذ اليها بصيص من نور الحق والواقع.

وقد يُغري الشاب مجاملة بعض الغربيين لا سيما أهل فرنسا. فيقول: أنهم ظرفاء، مهذبون. نعم، أنهم ظرفاء للمنفعة. فحين يستقبلك أهل باريس بالأدب والظرف و(الأتيكت) ويمنحونك عواطفهم إنما يريدون أن تنفق في فرنسا أكثر ما تستطيع إنفاقه من النقود!.

* * *

إن الله تعالى يفتح على هذا الانسان أبواب رحمته كي يقربه من الاعتراف بالغيب ولكي يزيد في إيمانه بشتى الطرق، ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[3] ﴿سأريكم آياتي، فلا تستعجلون﴾[4]

---

(١) مشفقون: خائفون.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) حم ـ سجدة: ٥٣.

(٤) سورة الأنبياء: ٣٧.

ومنها: الرؤيا. فكم من رؤيا تشير أن هناك عالماً آخر وراء المادية الحالكة وأن المدبِّر للأمور هو الله تعالى. . .

فقد ذكر لي أحدهم أنه رأى والده في عالم الطيف يقول له: ولدي، إن لصديقي: (الروحاني) مشكلة، عليك أن تحلها وتدفعها عنه.

يقول: فذهبت عند الصباح إلى بيته ورأيته قد حمل بساطاً له في سيارة يريد الذهاب به إلى السوق ليبيعه، فيقضي دينه الذي طولب به حثيثاً فسألته عن مقدار الدين، فقال لي (١٠٠) دينار. فدفعت إليه المبلغ امتثالاً لأمر والدي. وأرجعت بساطه إلى بيته.

كيف يفسر لنا المادي هذا الطيف مع أن الرجل يدعي أنه لم يـلاق (الروحاني) منذ أكثر من ستة أشهر.

ذكر لي أستاذي في الأصول أنه ضايقه صاحب الدار ببدل الايجار مضايقة شديدة، وهو لا يملك ما يدفع به بدل الايجار، فأمسى في قلق شديد. وصار يتوسل إلى الله تعالى في أن يمنَّ عليه بحلٍّ مشكلته، فإذا بالباب تطرق، يفتح الباب، فيرى صاحب الدار قد جاء معتذراً قائلًا: «إبقَ في الدار ما شئت، ولا أطالبك بعد هذا بشيء، ذلك لأني رأيت في عالم الرؤيا مَن يُهـددني بالقضاء عليَّ والهلاك إن أنا طالبتك بشيء من بدل الايجار».

أنى للصدفة أن تلعب دوراً في هذه الرؤيا مع تنوع المراتب والمراحل، وإن حساب الاحتمالات كما أسلفنا، يجعل الصدفة في مرتبة الصفر لو تعددت المراحل، وقد جُرِّب أن الشخص لو فكَّر في موضوع فأنه لا يراه كما يريد في طيفه، خلافاً لما يظنه البعض.

فالايمان بالغيب لا يرتضيه المادي ولا يعترف به ويراه خرافةً ورجعية وتقهقراً إلى ما هنالك من تعابير. وأن اختلاف التعابير وتعددها لا ينفي ما هو واقع مشاهـد كالملمـوس. كيف يؤمن بالغيب من أظلمت نفسـه وتلوثت جوارحه ولم يفكر في توبة أو تكفير، فان الذنوب إذا تراكمت أصبحت حجاباً

حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، فيصدأ القلب فلا يبقى فيه نور يبصر به عوالم الغيب: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[1].

نعم، إن استعمال الـ(هروئين) من قبل بعض الشباب المثقف والتفسخ الخلقي الفظيع بين الشباب والشابات وسهولة الحصول على المرأة زميلة في العمل وفي الشارع وفي دور التعليم وفنون الاغراء التي زوّدت المرأة بها عن طريق الصحافة والاذاعة والسينما ثم التلفزيون والبغاء المتاح في جميع صوره وألوانه من بيوت للدعارة رسمية وغير رسمية ومسارح وملاه تصطاد الزبائن وتقدم لهم البضاعة الدنسة والتوجيه الفكري بأن الحياة خُلقت للاستمتاع، ثم فقدان أولاد تتراوح أعمارهم بين (١٥ ـ ٢٠) سنة بعدد لا يستهان به كل يوم واضطراب أهليهم وذويهم لأجلهم، وما يجري بواسطة التلفونات من تواصل غير مشروع وما نلمسه من فراغ عقائدي نتيجة هذا التفسخ المرير، كل ذلك يدل على أن الطريقة العلمانية في الحكم أو إصلاح المجتمع من حيث الصفات الكريمة والفضائل دون خشية الله ومراقبة الله أي دون التمسك بتعاليم السماء وسنة أهل البيت عليهم السلام تؤدي إلى انهيار النفوس ومن ثم إلى الهلاك والثبور. تؤدي إلى قلق نفسي وأنواع الانتحار وأمراض عصبية وشذوذ ومرض وجنون! كما نشاهد اليوم.

انه تعالى يقول: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾[2].

فلله شريعته الغرّاء ولا نجاة لهذا البشر إلا باتباعها: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر. فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[3].

فلا علاج لاصلاح هذا البشر إلا بأن يتمسك بتعاليم السماء وان لا يقتصر على ما أنتجته التجارب البشرية في حقول العلوم المادية أو الاجتماعية فان العلوم المادية لا تمت إلى الكمال النفسي بأية صلة، وليست منه في شيء وأما

---

(١) سورة المطففين: ١٤.

(٢) سورة المؤمنون: ٧١.

(٣) سورة الجاثية: ١٧.

العلوم الاجتماعية، فهي علوم بشرية حالكة، مضطربة، متغيرة، ان أصلحت جانباً، فإنها تُفسد جوانب أخرى كثيرة، ولا تهيِّيء الفرد لآخرة سعيدة ولا توجهه نحو الكمال النفسي، ذلك الكمال الذي يرتضيه الله تعالى لعباده الصالحين.

فلا بد لهذا الانسان إن أراد السير في مدارج الكمال أن يتمسك بكتاب الله والعترة الطاهرة على حد قول علي عليه السلام حيث يقول:

«إن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، خلف فيكم كتاب الله وأهل بيته، فعندهم علم ما تأتون وما تتقون، وهم الطريق الواضح والنور اللائح وأركان الأرض القوامون بالقسط[١]. بنورهم يستضاء، وبهديهم يُقتدى من شجرة كرم منبتُها، فثبت أصلها وبسق[٢] فرعها وطاب جناها[٣]. نبتت في مستقر الحَرَم وسقيت ماء الكرَم. وصفّت من الأقذاء[٤] والأدناس وتخيِّرت مِن أطيب مواليد الناس. فلا تزولوا عنهم فتفرقوا[٥]، ولا تنحرفوا عنهم فتمزّقوا[٦]. والزموهم تهتدوا وترشُدوا، واخلفوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم بأحسن الخلافة، فقد أخبركم أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، أعني كتاب الله وذريته»[٧].

فقد جاءنا من جانب الله تعالى: ﴿نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[٨].

---

(١) العدل.
(٢) طال فرعها وارتفع إلى السماء.
(٣) طاب ثمرها.
(٤) الاقذاء: جمع قذى، وهو ما يسقط في العين والشراب.
(٥) أي تفترقوا، فتذهب قوتكم.
(٦) أي تصيروا متمزقين في كل وادٍ لا يهديكم هاد ولا يجمعكم جامع.
(٧) من كتاب: دستور معالم الحكم. للقضاعي.
(٨) سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦.

﴿يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾[1].



(١) سورة الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧

الاسلام هو الدين العالمي في مستقبل قريب

مما لا مراء فيه أن الله تبارك وتعالى قد أودع في النفس الانسانية غريزة التوجه إليه تعالى والاعتراف بربوبيته وهو القائل: ﴿هو الذي يسيِّركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجَرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم احيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، متاع الحياة الدنيا، ثم الينا مرجعكم، فننبئكم بما كنتم تعملون﴾. (سورة يونس: ٢٢ ـ ٢٣).

﴿وإذا مسَّكم الضرُّ في البحر ضلَّ مَن تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الانسان كفوراً﴾[١]. ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذ هم يشركون﴾[٢]. ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد[٣]، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختّار كفور﴾[٤]. فان هذه الغريزة: التوجه إلى الحق المتعال عند الشدائد والمحن متأصلة في نفس الانسان يشعر به من بقي على فطرته السليمة إلى حد ما: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[٥]. فان الطفل حسبما أودع الله فيه من غريزة التوجه إليه يشعر بعد أن يبلغ الخامسة أو السادسة من عمره بقوة خارقة مهيمنة عليه، يستعين بها

---

(١) سورة الاسراء: ٦٧.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٥.

(٣) مقتصد: متوسط بين الكفر والايمان، ختار: غدار.

(٤) سورة لقمان: ٣١.

(٥) سورة الروم: ٣٠.

ويتوجه اليها في الشدائد وهذا المهيمن اللانهائي في صفاته وكمالاته هو الله تعالى. وهكذا كل مَن في السماوات والأرض مضطر بأن يتوجه إلى الحق المتعال بصورة فطرية وهو القائل:

﴿وله أسلم مَن في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾. (سورة آل عمران: ٨٣).

حتى أن الجمادات أسلمت لله تعالى في حركاتها وقوانينها التي أودعها الله فيها، فهي مطيعة منقادة مُسيرة. ليس لها أن تنحرف عما رسم لها قيد شعرة: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾. ألا ترى أن الألكترون يدور حول البروتون في باطن الذرة بسرعة ٢٠٠٠ كيلومتر في الثانية بشكل اهليليجي، فهذا نوع تسليم إلى مشيئة الله تعالى ونوع انقياد وإسلام يتناسب مع حياة الذرة، كذلك تتجاذب الأجسام والكرات مستسلمة إلى أمر الله حسبما أودع فيها من قانون:

$$ق = ى \frac{ك\ كَ}{م^{٢}}$$

(قوة الجذب بين كتلتين، ك، كَ) تتناسب طردياً مع حاصل ضربهما وعكسياً مع مربع المسافة بينهما، و(ى) هي النسبة الثابتة ومقدارها: $\frac{١}{١٥\ ٠٠٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠}$ من ثقل الغرام.

ويقول الله تعالى في هذا المقام:

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده﴾[1].

وكذلك الرقاص يطيع الله تعالى في تذبذبه وحركاته التابعة لقانون وضعه الله تعالى:

$$ن = ٢\ ط \sqrt{\frac{ل}{ج}}$$

فإن مدة الذبذبة الواحدة لهذا الرقاص يتناسب طردياً مع جذر طول

---

(١) سورة فاطر: ٤١.

الرقاص وعكسياً مع التعجيل الأرضي و(ط) هي النسبة الثابتة وتساوي ٣,١٤١٦ أو $\frac{٢٢}{٧}$ تقريباً.

وإن حدوث الماء من امتزاج حجمين من الايدروجين(H2) مع حجم من الأوكسيجين(O) بعد إفراز تيار كهربائي نوع تسبيح لله تعالى.

وإن التيار الكهربائي يسبح الله تعالى باتباعه قانوناً منَّ الله على (جورج سيمون أوم) الفيزيائي الألماني الشهير باكتشافه: ت = $\frac{ف}{م}$ أي شدة التيار تتناسب طردياً مع الجهد الكهربائي وعكسياً مع مقاومة السلك.

ومئات القوانين في الفيزياء العالية كلها أدلة واضحة على تسبيح كل شيء في أرضنا هذه لله تبارك وتعالى وكم من قوانين فيزيائية في كواكب أخرى ومجرات لا تعد لا تشبه ما على الأرض من قوانين لاختلاف الشروط والأحوال لا يعلمها إلا الله تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾[١].

وما أعظم قول الله تعالى حين يقول:

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا أتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدَّهم عداً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[٢].

فحين يعمل جهاز الرادار الذي وضعه الله تعالى بفضله في جسم الوطواط دون حاجة من الحيوان إلى انتباه أو إصلاح إنما يسبح الله تعالى أيما تسبيح وأن عمليات الهضم والامتصاص في الجسم الانساني والتفاعلات الكيموية التي تنطوي عليها والخميرة التي تقوم بكل تفاعل والخرائط التي تبين التفاعلات الدائرية العديدة وما يدور بين كل منها والآخر من تفاعلات أخرى والجذور حين تمتص المواد الكيمياوية من التراب ويوصلها إلى الأغصان فالأوراق وعملية التنفس والتغذي بالهواء المحيط كل أولئك استسلام لأمر الله تعالى

---

(١) سورة لقمان: ٢٧.

(٢) سورة مريم: ٩٣ ـ ٩٥.

دون زيغ أو حيد. وفي الوقت نفسه يوحي أن وراء كل ذلك النظام خالقاً أعلى نظم الكون أبدع تنظيم ولم يكن الانسان في جميع هذه المعلومات إلا مستكشفاً عما أودع الله من قوانين وخصائص، بلطف منه تعالى.

فكل شيء في هذا الكون حتى الطير يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح، وله صلاته الخاصة به وقد أسلم وجهه إلى الله: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾[1].

وهكذا الرعد يسبح لله تعالى بتسبيح لا نفهمه على حد قوله تعالى: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾[2].

﴿وله من في السماوات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾. (سورة الأنبياء: ١٩ - ٢٠).

فالتسبيح إنما هو تقديس الله تعالى وتنزيهه عن كل نقص وهو توجه إلى الله تعالى واستسلام وإسلام.

والاسلام دين الله في أرضه منذ أن خلق السدم والكواكب والشموس والمجرات والنبات والحيوان والانسان، والاسلام دين الله منذ أن بعث آدم (ع) نبياً، ودين الأنبياء جميعاً، وقد قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾[3]. ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، ان اتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين﴾[4].

وإن دين إبراهيم عليه السلام هو «الاسلام» وكان حنيفاً مسلماً على حد

---

(١) سورة النور: ٤١.

(٢) سورة الرعد: ١٣.

(٣) سورة حم ـ سجدة: ٤٣.

(٤) سورة الاحقاف: ٩.

قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[1].

﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج. ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على الناس. فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير﴾[2].

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني ان الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[3].

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا، انك أنت السميع العليم. ربنا وجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكناً وتب علينا أنـك أنت التواب الـرحيم﴾. (سورة البقـرة: ١٢٧ - ١٢٨).

كانت التوراة تدعو إلى الاسلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾[4].

وإن حواريَّ عيسى كانوا مسلمين: ﴿وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾[5].

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفـر. قال: من أنصـاري إلى الله. قـال الحواريون نحن أنصار الله، وأشهد بأنا مسلمون﴾[6] .

---

(١) سورة آل عمران: ٦٧.
(٢) سورة الحج: ٧٧ - ٧٨.
(٣) سورة البقرة: ١٣١ - ١٣٢.
(٤) سورة المائدة: ٤٤.
(٥) سورة المائدة: ١١١.
(٦) سورة البقرة:

وإن سحرة فرعون قد أسلموا أيضاً، وذلك بقوله تعالى: ﴿وما تنقم منا، إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾[1] .

إن يوسف (ع) كان من المسلمين: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾[2] .

وبقول الله تعالى في قصة لوط (ع): ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾[3] .

فكل شيء أسلم وجهه لله من جماد ونبات وحيوان ولا بد لهذا الانسان الذي منَّ الله عليه بعظيم النعم وسخَّر له الشمس والقمر ورزقه من الطيبات أن يسلم وجهه لله تعالى وأن لا يحيد عن سنة الله في أرضه وسمائه، وهو القائل: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن، فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور﴾[4] . ولذلك ما من شيء يقرب العبد إلى الله تعالى كجلب الناس ولا سيما الشباب إلى حظيرة الاسلام في أرجاء الأرض: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾[5] . ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، ان الله لغني عن العالمين﴾[6] .

وقد انبرى في السنوات الأخيرة ثلة من المسلمين للدعوة إلى الاسلام ونشر حقائق الاسلام. دين الله الخالد في الكون الرحيب، فتأسس مركز إسلامي باسمIslamic Center. 333 في جنيف (سويسرا) ويصدر هذا المركز مجلة «المسلمون».

---

(١) سورة الاعراف: ١٢٥.
(٢) سورة يوسف: ١٠١.
(٣) سورة الذاريات: ٣٦.
(٤) سورة لقمان: ٢٢.
(٥) سورة التوبة: ٢٠.
(٦) سورة العنكبوت: ٦

ويزداد عدد المسلمين في أفريقيا في كل سنة مئات الآلاف، والأفريقيون يرحبون بالاسلام أيما ترحيب، ذلك لأن الاسلام في نظرهم يأبى الاستعباد والاستعمار، وهو دين الحرية والانطلاق. لذلك يوفد ثلة من المبشرين بالدين الاسلامي والدعاة من قبل ا لجامع الأزهر في مصر وكلية الشريعة في دمشق إلى أفريقيا وغيرها من البلاد. وأما في الأيام الأخيرة فقد تأسست جمعيات اسلامية متعددة في أنحاء العالم. وهم يوجهون نداءاتهم إلى العالم الاسلامي لارسال دعاة مجاهدين يقومون بدعوة إسلامية شاملة، فاليابان أرض خصبة للدعوة إلى الاسلام. وفي الهند فعاليات مشكورة لنشر حقائق الاسلام بشتى اللغات. وقد شيد مسجد فخم في هانبورك: (هانبورغ) بألمانيا الغربية ويسلم كل يوم نفر من الألمان، ويعملون بما نص عليه الدين الاسلامي.

* * *

ومن الطريف جداً أن أنقل هنا باختصار من مجلة حضارة الاسلام(١) إسلام امرأة فرنسية من مواليد بلجيكا اسمها (بوليت كيو). كانت تسكن في شقة بناء في حي فخم بجوار بحيرتي (اكسل) على مقربة من جامعة بروكسل عاصمة بلجيكا. وكان نزيلا الدور الثاني من هذا البناء (محمد وعدنان) من الطلاب السوريين.

وكان مألوفاً أن يتلاقى محمد وعدنان وهذه الجارة الفرنسية (بوليت كيو) معظم الأيام على مدخل الدار السفلي، أو أثناء الدرج، فلا يكون بينهم أكثر من تحية طائرة تفرضها المجاملة، دون أن تجر وراءها كلمة واحدة.

وإن هذه الامرأة الفرنسية (بوليت كيو) كانت تعتني عناية صارخة بزينتها اليومية إلى حد الافراط، فكانت أنموذجاً من الاستهتار الذي لا يقيم وزناً لأي مقياس أو تقدير. ومع ذلك فهي تمر بالطالبين السوريين وزائريهما كما تمر بالآخرين من الناس في الشارع والترام والسيارة والشركة التي كانت تعمل فيها كسكرتيرة لمديرها. أنها ما كانت تثبت نظرها في أي وجه، إلا بمقدار ما

---

(١) مجلة حضارة الاسلام، العدد السادس والسابع من السنة الرابعة.

يتطلب الموقف. فكان غرضها الوحيد من ذلك الإستهتار هو فقط اجتذاب الأبصار وإثارة الفضول دون أي شيء آخر...!.

- ٢ -

وحدث ذات يوم أن محمداً، وهو أكبر الطالبين، قد عاد من إجازته الصيفية، ليستأنف دراسته بقسم الدكتوراه في الكيمياء الصيدلية، وكدأبهما في مثل هذه المناسبة كان عليه أن يخص جيرانه ببعض الهدايا الشرقية، فملأ لصاحبي البناء طبقاً من الحلوى، ثم مضى بمثله إلى الجارة المجهولة هذه الفرنسية (بوليت كيو) ولما أطلت الجارة الفرنسية تتعرف الطارق، فوجئت بما لم تتوقع، وجمدت قليلاً قبل أن ترد تحيته، ثم سألت في لهجة لم تخل من الاستغراب: ماذا؟.

ومد محمد يده بالطبق الشهي، وهو يقول: أنها هدية صغيرة من حلويات دمشق، قدمت مثلها إلى جيراننا الآخرين، فهل تتكرمين بقبولها؟ تناولت (بوليت) الهدية شاكرة. ودعته إلى الدخول، وألحت بذلك، فلم يسعه إلا الاستجابة، واتخذ مجلسه في الغرفة، ودخلت (بوليت) بالهدية إلى غرفة الطعام، ثم عادت ومعها صحفة فضية يعلوها قدح صغير مذهّب وانحنت وهي تقدمه إليه، ولكن محمداً وضع يده على صدره وهو يعتذر: سأكون شاكراً إذا أعفيتني.

- ولكنها خمرة جيدة، من أحسن أنواع الكونياك.
- لا أشك في حسن ذوقك، ولكن لا أشرب الخمر...
- لماذا؟...
- لأني مسلم.
- مسلم!!!

وانزلقت الكلمة في عفوية ممزوجة بالدهشة وجمدت عيناها لحظة على وجه ضيفها، كأنها تريد أن تبين خصائص هذه الكلمة الغريبة من خلال ملامحه وقسماته.

ولم تشأ أن تحرج الفتى بالالحاح، فوضعت الكأس في الصحفة الفضية

عَلى النَضد النصفي، ثم أخذت مجلسها في مقعد مجاور، وجعلت تنظر إليه، وهي تقول: الاسلام! هذا شيء أذكر أني قرأت عنه في بعض الكتب، وقد أعجبني منه دعوته إلى النظافة.

فقال محمد: إن النظافة في الاسلام من الصفات الأساسية، ولكني أرجو مع ذلك أن يكون الكتاب الذي قرأتِه عنه من الكتب النظيفة، التي لا تتعمد تشويه الحق.

فقالت: الحق أنني لم أقرأ الكثير عن هذا الدين الشرقي، ولم أتعمد البحث عن مضمونه.

فقال محمد: فهل ترغبين في قراءة شيء عن الاسلام؟. . . لدي كتاب بالفرنسية، ذو أسلوب أدبي معجب، وفيه كثير من الحقائق الموضوعية عن هذا الدين الإلهي.

فقالت (بوليت): سأكون شاكرة إذا أعرتني هذا الكتاب ما دمت واثقاً من موضوعيته.

ولم يشأ أن يؤخر الأمر، فاستأذن ليأتيها به، وما هي إلا دقيقتان حتى أقبل عليها، وهو يقول: إنه مقدمة لكتاب ضخم ألفه مصري اسمه (عبد الله دراز) بعنوان (أخلاق القرآن)، لينال به إجازته الدكتوراه من باريس.

- ٣ -

كانت شقة محمد وأخيه عدنان أشبه بمكتبة الجامعة، يرتادها العديد من طلاب العرب في مختلف أوقات النهار. وقد تطور أمرها أخيراً، حتى أصبح بين روادها الأفريقي الأسود، والهندي الأحمر والأسباني الأبيض. وبذلك لم يقف دور الشقة عند حدود المذاكرات الجامعية، بل تجاوزها إلى المدارسات الاسلامية، والعبادات وإقامة الفرائض، وطبيعي أن هؤلاء الرواد لم يكونوا من طبقة الطلاب وحدها، بل تعددت مستوياتهم كما تعددت جنسياتهم ففيهم الطالب والعامل والتاجر، والفقير والثري، يفدون إلى الدار من أنحاء العاصمة، ليتعاونوا على فهم دينهم، وتجديد عقيدتهم، والبحث في شؤون

شعوبهم، وأوطانهم. وقد رأوا أخيراً أن يخصصوا يوماً في الأسبوع يتلاقون فيه على حصص منظمة من الدراسة والعبادة، فحصص للقرآن، وأخرى للحديث، ومثلها للفقه، ووقت خاص لبعض المؤلفات الاسلامية الحديثة وفترات خاصة للاستجمام والعبادة، وهكذا كان يوم الاثنين من كل أسبوع هو اليوم الجامع لهؤلاء الرفاق. يتزودون منه ما يعوزهم لبقية الأيام، ويتهيئون له بالأفكار الجديدة والأسئلة العديدة.

وفي جو هذه الاجتماعات يتعذر على من يحضرها لأول مرة أن يعرف مؤسسيها ودعاتها. لأن روح الأخوة لا يدع مجالاً لأي تمييز بين الواحد والآخر من روادها. ولكن القدامى منهم يعلمون أن الأخوين الدمشقيين محمداً وعدنان؛ هما نقطة الانطلاق والارتكاز في هذا التجمع. وقلما تمضي عليهما ليلة دون أن يحاسبا نفسيهما على ما صنعا في نهارهما. وكانا قد شقَّ لنفسيهما طريقاً آخر إلى عمل مثمر، ينسجم مع أخلاقهما التي لم تألف الانحراف عن سبيل الحق. وهكذا انتهيا إلى الاتفاق على مخطط مدروس، ذي شعبتين: أولاهما ذاتية تتركز في تعهد نفسيهما بالجهاد المتصل سواء في حقل الدراسة، أو التهذيب الروحي، حتى يحصناها من تلك المفاسد التي تكتسح الكثرة من مواطنيهم في مختلف أقطار أوربة. وأما ثانيتهما، فموضوعية وبالأصح إنسانية، تستهدف تنظيم الطاقات الاسلامية في نفوس الشباب المؤمن، ليس فقط في بروكسل، بل في أي مكان يمكن أن يتاح لهما الاتصال به في بلجيكا وخارجها.

ومنذ ذلك اليوم بدأ نشاطهما في نفسيهما والأقربين من رفاقهما، ثم قضوا جميعاً متعاونين في توسيع مجالات هذا النشاط. حتى استطاعوا أن ينقلوا خطواتهم الأولى في سبيل إنشاء المركز الاسلامي الذي يحلمون به. وكان ذلك حين أحرزوا موافقة الحكومة البلجيكية على إعطائهم البناء الخاص بالحكومة التركية في معرض (بروكسل). وهو البناء الذي أنشىء على صورة المسجد بقبته ومنارته. ثم أصبح فارغاً معطلاً بعد ارفضاض العرض. وها هم أولاء يعدون عدتهم منذ اليوم ليقيموا فيه صلاة عيد الفطر الذي بات موعده وشيكاً. ثم ليجعلوه فيما بعد مسرح نشاطهم الذي لم يعد يتسع له البيت.

وقد أصبح لديهم مكتبة متنقلة تحتوي على طائفة من أنفس الكتب الاسلامية بالعربية وغيرها، وتقدم بطريق العارية للرجال والنساء على سواء. ولقيت حركتهم عطفاً مشجعاً لدى بعض السفارات الاسلامية، وبخاصة سفارة (السنغال) التي يقوم على رأسها رجل يهمه أمر الاسلام وانتشاره في أصقاع الأرض ويحيط به قلة من الموظفين لا يقلون عنه حباً للاسلام واهتماماً بشؤون المسلمين. ولم تعد حركتهم محصورة في حدود المسلمين وحدهم، بل بدأت الاتصالات بعناصر مثقفة من البلجيكيين والأوروبيين أنفسهم. وها هو ذا عدد منهم نساء ورجالاً يحضرون اجتماعاتهم الأسبوعية، ليستمعوا إلى معاني القرآن والحديث، وليشاركوا في مناقشة الأفكار المختلفة التي تقرأ في بعض هذه الاجتماعات عن الاسلام والمسلمين.

علم محمد أن المرأة الفرنسية تريد أن تترك شقتها الكبيرة في هذا البناء إلى شقة صغيرة في بناية أخرى فاقترح على صاحبة البناء أن يقدم شقة كان يسكن فيها هو وأخوه عدنان إلى المرأة الفرنسية وهما ينتقلان إلى الشقة الكبيرة، فحصلت الموافقة.

- ٤ -

وعاد الأخوان مساء ليجدا كل شيء قد تم على ما يرام، بل فوق المرام لقد بُدلت الدار بالدار، ورتبت أشياؤهما من كتب وثياب وحقائب وما إلى ذلك مما يملك المسافر في أمكنتها المناسبة من المنزل الجديد، وكانت الدار بأثاثها الأصلي الفاخر غاية في الأناقة التي يحلم بها طالب في منزل أجرة (بانسيون). فاستشعرا روح الهناءة، ووقفا هنيئة يخططان للاجتماعات المقبلة، ولم ينسيا أن يخصصا قاعة مناسبة لصلاة الجماعة وقيام الليل المشترك في أوقاته الأسبوعية. وشدَّ ما أدهشهم منظر بياضهم مغسولاً مطوياً، وثيابهم منظفة مكوية، وقد نسقت على مشاجبها في الخزائن! فقدروا فضل الجيران الذين نهضوا بهذا العبء متبرعين، وفي هذه الآونة فوجئا بالجرس يدق، ولما فتح الباب أطلت منه المرأة الفرنسية تحييهما وتسألهما إذا كانت ثمة من خدمة أخرى تستطيع تقديمها لهما...!.

واستجابت المرأة لدعوتهما، فجلست لترشف قدح الشاي الذي صبَّ لها، وقالت رداً على الثناء الذي وجهاه اليها. . : لم أفعل شيئاً كبيراً، لقد وجدت نفسي في فراغ الأحد، وكان لا بد من نقل أمتعتي إلى داركما الأولى كما اتفقنا، فبدلاً من أن أعود فارغة إلى فوق، في كل مرة، كنت أحمل بعض أمتعتكما بطريقي، بمساعدة الجارة الكريمة صاحبة البناء، ثم وجدت لدي بقية من فراغ فسليت نفسي بانجاز بعض الأشياء التي قد يضيق وقتكما عن انجازها في الوقت المناسب.

قال عدنان: ولكن هذا كثير، أيتها الجارة المحترمة!.

وقال محمد: لقد وضعتنا بذلك تحت عبء من الفضل قد نعجز عن مكافأته، وهنا أثبتت قليلاً نظرها في وجه الفتى الذي صبغه الحياء، وبرق ببوادر الشعور بالجميل. . . ثم قالت: «بل لعل الأمر على العكس، ولو علمت ما أحدثت عاريتك في نفسي لأدركت أنك أنت المتفضل. . .».

وفجأة وثب إلى خيال محمد صورة تلك الليلة التي طواها. وراء ستة أشهر، وتذكر الكتاب الذي أعارها إياه. . فقال: أرجو أن يكون وقتك قد اتسع لقراءة الكتاب. . ؟.

ـ لقد اعدت قراءته خمس مرات . . .

ـ وبالطبع كتبت ملاحظاتك عليه .

ـ الملاحظات كثيرة . . ولكني لم أكتب واحدة منها خارج قلبي . . أجل. . لقد نقشت انطباعاتي بالكتاب هنا ، على صفحة قلبي التي لا تقبل المحو . . .

وسكتت ، وسكت الفتيان بما يسمعان . وينظر كل منهما الى الآخر دون كلام . . . حتى عادت المرأة تقول : كنت أحسب أن تجاربي الماضية كانت كافية لصرفي نهائياً عن أي تفكير ديني . ولكن هذا الكتاب قد كشف لي بشكل مباغت أنني على أتم الجهل بجوهر الدين . وإنني لأول مرة أجد نفسي في مواجهة الحقائق الإلهية ،التي قضيت شطراً كبيراً من عمري في البحث عنها بغير طائل .

قال عدنان : ذلك حال طبيعي ، فالقلب الانساني كالقفل الدقيق ، لا يستجيب الا الى مفتاحه ، وليست الحقائق الإلهية الا ذلك المفتاح .

ـ تمثيل رائع ، وأستطيع القول بنتيجة خبراتي الشخصية أن هذه الحقائق هي وحدها التي تروي عطش القلب الضائع في صحراء المجهول. وكل تفكير ديني مجرد عنها هو كالماء الملح لا يزيد النفس الظامئة الا تلهُّباً واحتراقاً.

وفي غير تعمد انسرب بصر محمد يجول في مظهر هذه المرأة ، كأنه يفتش عن الدليل الذي يؤكد أنها جادة في الذي تقوله . فإذا هو يصطدم بالواقع ، الواقع البعيد عن كل صلة بهذه الحقائق . . !

ان الأحمر الذي يغرق شفتيها . . والركبتين تشدان النظر الى ما وراءهما في إغراء وقح . والضغط الصارخ الذي يلصق الثوب القزم بكل جزء من أنحاء هذا الجسم المصنَّع ، والذي لا يزال محتفظاً بالكثير من مغريات الفتوة كل اولئك من شأنه أن يفرغ كلامها المحكم من كل معنى جادٍّ . وبخاصة في مقياسه هو الذي لا يستطيع التفريق بين الفضائل الروحية وسلوك مدعيها ولـذلك لم يستطع منع وجهـه من ابتسامـة خفيفة لا يفـوت الـذكي مـا وراءها !! . .

وعادت الفرنسية الى الكلام : « لقد اطمأن عقلي وقلبي الى هذا الدين وأريد أن أسألكما عن السبيل الى اعتناقه . . . ».

قال محمد : ان مجـرد الاقتناع بـه هو اعتنـاقه . ويبقى اعـلان ذلك بالشهادتين : أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله . .

ـ فأنا أشهد أن لا اله الا الله ، لأني مقتنعة من قديم بهذه الحقيقة ، واما رسالة محمد ، فلا ينكرها الا كافر بعقله ، أو كاره للحق . فهل أنا إذن مسلمة الآن ؟!

ـ بالتأكيد. . . ولكن هناك مشكلة . . .

ـ مشكلة ! . . . وما هي ؟.

ـ هي : أن الاسلام نظام كامل . . يؤخذ جملةً لا تفاريق . . . وهـو

يفرض على معتنقه سلوكاً معيناً ، ومظهراً خاصاً ، وخلقاً مميزاً . . . بحيث يمثل في شخصه المتميز ، الخطوط العملية الكبرى لحقيقته الإلهية .

ـ أدركت هذا من سلوككم . . الذي أعطاني في الواقع كثيراً من التفسيرات التي لم يتسع لها الكتاب . لقد سئمت الأديان التي تفصل بين السلوك الشخصي والمعبد ، وتتساهل حتى في الفضائل الرئيسية . فلا تتورع عن استخدام المسابح المختلطة ، والملاهي العابثة ، والمراقص المنكرة ، كوسيلة لاستبقاء الرباط بينها وبين الشباب الطائش ، وكرهت من رجال هذه الأديان بوجه خاص وقوفهم في نطاق الطقوس الرمزية داخل حدود المعبد ، فيفصلون بذلك بين المعبد والشارع . إذ يفصلون بين لحظات العبادة وبقية الحياة . فيكتفون من المتديِّن أن يظلَّ على صلة بمعبدهم ولو ساعة في الاسبوع ثم لا عليه بعد ذلك أن ينطلق وراء غرائزه في سباق محموم لا يعترف بأية رقابة لعين الله . ولا أية مسؤولية تجاهه . وذلك بخلاف الاسلام الذي تبينَّ لي انه من الشمول بحيث يعتبر الارض كلها معبداً . وكل عمل صالح ما دام المؤمن يأتيه وهو مستهدف رضوان ربه . ومن هنا كان المسلم الحق صورة صحيحة للاسلام . . . وهو لا شك سعيد بذلك . لأنه لا يستشعر أي تناقض بينه وبين قوانين الطبيعة من حوله وفي داخله . بل ، انه ليشعر بديل ذلك بأتم الانسجام بينه وبين الحياة . وأن كل شذوذ عن موجبات هذا الدين مؤدٍ إلى شفائه لأنه تصادم مع مبادىء الحياة نفسها.

وأمسكت قليلاً تحدق ما بين يديها دون تركيز على شيء بعينه، وقد غرق البهو كله في صمت عميق . وأطرق كل من الفتيين مثلها يسبح في غمرة هذه المعاني ، التي فتحت أمام نفسيهما آفاقاً ماتعة، يخيل اليهما أنهما يستشرفانها لأول مرة.

وقطعت الصمت كرة أخرى لتقول: « من أجل ذلك استجابت نفسي كلها لهذا الاسلام . اذ وجدت فيه دعوة الله المتجاوبة مع أعماق الفطرة الانسانية . . . وقد صممت على أن أخضع جميع تصرفاتي الى أحكامه . . . »

ولم يشأ محمد ان يؤخر ملاحظاته أو يجمجم بها فقال : « ولو قضت هذه الأحكام بتغيير نظام حياتك كله ؟ . . . »

في تصميم قاطع أجابت، وما فائدتي من الاسلام اذا هو لم يغير طريقتي في الحياة ! . . . وهل تظن انني كنت راضية عن نفسي ونظام حياتي . . وعن أي شيء مما حولي ! . . .

ثق أيها الجار الكريم أنني كنت انسانةً ضائعة ، بل غريقة ، يتلاعب بها تيار المجتمع على كره منها . ولم تكن تصرفاتي الشخصية جميعها الا محاولة للهروب من الواقع الحائر ، الذي تفرضه عليَّ حضارة لا أؤمن بها لأنها حضارة عوراء، لا ترى من الانسان إلا جانبه الجسدي ، ولا تقيم وزناً لأي ظمأ داخلي خارج نطاق المادة ، ولقد كان لقائي بك ليلة الهدية أول صدمة شدتني الى الاتجاه الآخر ، ثم جاء كتاب الدكتور (دراز) فدفعني شوطاً بعيداً في هذا الطريق. وكان لطريقة حياتكم في هذا الجوار الطيب أثرها العملي في صيرورتي الى هذا التقرير المطمئن . . . وأنا اليوم بما أدركته من هذا الدين أشعر بأنني عثرت على نفسي ووجدت حقيقتي ، ووضعت قدميَّ في الطريق السويِّ ، فكيف لا أخضع وجودي كله لحقائق الاسلام . وهو الذي أنقذني من ذلك التمزق ، وهداني السبيل بعد ذلك الضياع الوبيل . . . !

وعقب عدنان على ذلك قائلاً : ولكن عناءاً جديداً ينتظر القابض على هذا الدين . . لعل أهون منه قبض الجمر . . إنه يفرض تطهير الجسد كما يفرض تطهير داخله سواء بسواء. ويتطلب من المسلمة بوجه خاص التخلص نهائياً من مثل هذه الثياب الى أشكال اخرى تتم بها الحشمة ، دون تضييق ولا تقصير ولا خلاعة ، حتى الشعر ، لا يأذن بظهوره لأجنبي . . . وهناك صلوات خمس في كل يوم وليلة لا مندوحة من أدائها . . ثم صيام شهر رمضان الذي نحن فيه هذه الايام . ثم كف النفس عن كل شهوة حرمها الله كالخمر والرقص المختلط، والخلوة بالأجنبي . . . وأقل ما يجره هذا الاتجاه هو أن تصبحي هزأة لدى الذين سيرون منك كل هذا التغيير دون مسوِّغ مقنع في أنظارهم .

وكفَّ عن الكلام ليرى أثره في نفسها ، فاذا هي تقول : اما هذه الثياب فستتغير في أسرع وقت . . وفي الصلوات الخمس فرص سعيدة يتاح لي فيها ان أروي ظمأ قلبي مناجاة الله . وسأجد في الصيام دون ريب متعة رائعة ،

إذ تعرفني حاجة الانسان الى نعم الله التي ألف أن لا يعيرها تفكيراً . . ولقد مجت نفسي تلك الشهوات التي لم تزدني الا استشعاراً للفراغ الروحي الذي طالما عانيته . . . أما هزء الناس فقد توقعته ، ووطنت نفسي على احتمال كل شيء . . .

ولم يبق لدى الفتيين ما يقولانه بازاء هذا الاصرار الحاسم . . فاكتفيا بأن قدما اليها الأوراق التي كتب فيها بالفرنسية صيغ الوضوء والصلاة . . . وما لا مندوحة عن معرفته للمسلم المبتديء . ثم قال محمد : سنكون جميعاً مسرورين باستقبالك اصيل كل اثنين . اذا شئت أن تحضري معنا بعض الدراسات والعبادات . . وسترحب بك أخوات من السنغال وألبانيا وأندونيسيا وأنحاء أخرى من العالم . .

وقد اختارت (بوليت كيو) الفرنسية لنفسها اسماً جديداً (هدى) بعد اعتناقها دين الاسلام ودخلت في صباح اليوم التالي على مدير الشركة البلجيكي فقالت له : لدي خبر ، أرى من واجبي اطلاعك عليه لكي لا يفاجئك .

وابتسم المدير لسكرتيرته في لطف أبوي وقال اعرضي ما تريدين . .

ـ ابتداءاً من الغد سترون تغير بل أنقلاباً في حياتي كلها ، وأول ما تلمحونه من ذلك في ثيابي التي ستكون أدنى الى أردية الرواهب . . . !

ـ لعلك راغبة في اللجوء الى الدير !؟ . . .

ـ كلا . . لا شيء من ذلك . . انما قررت أن أكون مسلمة . . .

ـ مسلمة ! . . وهل يعني ذلك أن تتركي الكاثوليكية . . ؟

ـ هو ذاك ، لأن الاسلام شيء غير المسيحية المعروفة كلها . . وسأعرفك به عندما تريد . . .

ـ ولكن الاسلام كما قرأت وكما أخبرنا بعض القسس يحتقر المرأة . . . ويجعلها قعيدة بيتها لا تصلح لأي عمل . . !

ـ ذلك من دسائس أعداء الاسلام الذي لا تعرفه مع الأسف الا عن طريقهم . أما الواقع فهو أن المرأة لم تسترد اعتبارها الانساني الا في ظل الاسلام . . وقد لبثت أحقاباً لا تعدو منزلة الشياطين في حكم رجال الكنيسة حتى هبت على أوربة نفحات الحضارة الاسلامية عن طريق الأندلس والحروب الصليبية ، فإذا رجال الكنيسة يعدلون رأيهم في المرأة ، ثم لا يزالون يعدلونه حتى انتهوا الى الاعتراف ببعض حقوقها التي قررها الاسلام منذ أربعة عشر قرناً . . . ومهما يكن فذلك بحث نرجئه الى وقته المناسب . ولكن هذا لن يؤثر في اخلاصي في عملي بل سيزيدني رغبةً فيه وإتقاناً له ، لأنني بذلك أحقق أحد تعاليم ديني الجديد . . .

ولم يرَ المدير في أمر سكرتيرته أي أمر ذي بال . ما دام اسلامها لن يحول دون استمرارها على عملها بالنشاط المعتاد نفسه . . وقلبَّ شفتيه ويديه وهو يقول لها : ذلك أمر يخصك ولا يهمني.

ثم مضت هدى الى زملائها من مستخدمي الشركة ، تنقل اليهم النبأ في لهجة مثقلة بالجد . وأكدت لهم جميعاً أنهم ينكرون غداً مظهرها الجديد ، لأنه مخالف لمألوفهم ، ولكنها ترجو منهم أن يدعوها وشأنها ، وأن يكونوا على أتم الثقة بأن عقلها لم يتغير ، وأنها لن تسبب شيئاً من الأزعاج .

وجاء اليوم الثاني . . . وغادرت هدى الشقة الى عملها اليومي في زيها الاسلامي الجديد . الذي أعدته لها اختها فاطمة الاندنوسية : ثوب سابغ أبيض يمتد من أعلى النحر الى أسفل الساق . وقد اتسع حتى لا يمثل أي عضو تحته . وخمار زبدي اللون أدير على الرأس وحول العنق ، بصورة لا أناقة فيها الا سذاجة . وفي القدمين المجوربتين حذاء قليل الإرتفاع لا يوحي بأي اغراء أو تبذل . . . وقد تعمدت أن تكون نظارتاها من اللون الأسود . . لتستطيع حجب تأثرها من الأشياء المزعجة التي تتوقع أن تراها أثناء اليوم . وربما كان أغرب ظواهرها هو هذا الوجه الذي تقابل به الناس لأول مرة منذ ثلاثين سنة ونيف خالياً من كل أثر للزينة أو الطلاء . . . فلا أبيض ، ولا دهان ، ولا أحمر ، اللهم الا حمرة الخجل الذي غشي وجهها جميعاً .

وفي سيارة الشركة ، التي اعتادت أن تمر بها كل صباح ، تلقت أول صدمة ، وذلك حين انصبَّت عليها أحداق العمال والمستخدمين فاغري الافواه من الدهشة . لا تكاد أعينهم تصدق أن هذه هي سكرتيرة المدير ! وحتى الرجال والفتيات الذين أنبأتهم خبرها بالأمس لم يتمكنوا من كتمان دهشتهم ، فراحوا يتغامزون ويتهامسون وهم يسارقونها النظر. وهي في هذه الغمرة من المفاجآت لم تلحظ هدى أن أحداً رد عليها تحيتها ، كأنهم لم يسمعوها ، أو كأنهم شغلوا عن الرد بهذا المنظر ، حتى جعلت تراجع نفسها فلا تدري : أألقت تحيتها أم صرفها انشغال فكرها عن ذلك ! . .

ولم تتمالك رعشة سرت في جسدها وهي تستقبل هذه المفاجأة ، ثم غلبها الضعف ، فإذا دمعتان كبيرتان تتدحرجان على خديها[1]، فتسرع الى مسحهما بمنديل صغير كانت تشغل أصابعها بلمسه وتقليبه !

وودت لو تطير بها السيارة لتتخلص من هذا الجو ، وقد قررت أن تلوذ بغرفتها فلا تغادرها الا لضرورة قاهرة ، وان تتجنب هذه الأنظار ، فلا تخالط أصحابها الا بعد أن يألفوا منظرها الغريب .

ولكن سرعان ما خاب فأل المسكينة ، اذ ما كادت تهبط من السيارة الى داخل مكتبها حتى فوجئت بالمدير . يطل عليها من الباب الخاص ، ليقلب نظره طويلا في هذا الزي الذي لمحه عن بعد ، والذي سمع المستخدمين يتهامسون بشأنه . . !

وانتبه المدير الى موقفه ، فلم يسعه الا ان يتكلم ؛ أسعدتِ صباحاً أيتها الآنسة ، أرجو ان لا تجدي ما يزعجك طوال اليوم ! . .

وأدركت ما يريد ، وتذكرت كلمات عدنان . . وتصميمها السابق فردت

---

(١) ما أعظم فضيلة الصبر، فانه تعالى يقول: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾. (سورة الزمر: ١٠). وقال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون﴾. (سورة القصص: ٨٠). ويقول علي عليه السلام: «في البلاء تحاز فضيلة الصبر.

تحيته بكل ما استطاعت من لطف ، ثم قالت : ليثق حضرة المدير أن لا شيء يزعجني . . . لأنني مطمئنة الى أن مسلكي هو الأفضل . . وكل استغراب له إنما يرجع الى بعد المستغربين عن فهم الحقائق الالهية . . .

ولم يجب المدير بشيء . . وترك لشفتيه أن تتمتما ببعض الكلمات الغامضة . . ثم انسحب الى مكتبه . . .

وانتضت (هدى) بتصميمها . وتذكرت أيضا أن الاسلام يستحق منها أكثر من هذه المزعجات . انه غريب في (بروكسل) كغربته من قبل في مكة ، ولقد تلقى أتباعه الأولون ، بين اخوتهم الكافرين له ، ألوان العذاب في سبيله قبل أن يحتل مكانته الطبيعية في وطنه الأول ، فلمَ لا تحتمل هي اليوم بعض ذلك العذاب في سبيل تعريفه الى الناس في هذا البلد البعيد عن روحه وحقائقه . واستمرت حياة هدى على هذا المنوال أياماً طوالا . . . لقيت أثناءها الأمرين من فضول الناس . . . فلم تجتز شارعاً ولم تطأ حانوتا ، ولم تركب حافلة ، ولم تدخل مركز الشركة الا سمعت الهمس ورأت الغمز واللمز . . . وقابلت ذلك كله بجلد هائل . . ولكنها ما تكاد تخلو الى نفسها في بيتها حتى تستسلم الى بكاء طويل ونشيج محرق . . . ![1].

---

(١) قال رسول الله (ص): «إذا أحب الله عبداً نصبت في قلبه نائحة من الحزن، فان الله تعالى يحب كل قلب حزين، وإذا أبغض الله عبداً نصب له في قلبه مزماراً من الضحك. وما يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع، ولم يجتمع غبار في سبيل الله ودخان من جهنم في منخري مؤمن أبداً».

وقال رسول الله (ص): «يا علي، عليك بالبكاء من خشية الله، يبني لك بكل قطرة ألف بيت في الجنة».

وقال رسول الله (ص): البكاء من خشية الله يطفيء بحاراً من غضب الله وقد وبخ الله تعالى أناساً على ترك البكاء عند استماع القرآن عند قوله: ﴿أفمن هـذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون﴾. ومدح الذين يبكون عند استماعه بقوله: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. وقال بعض العرفاء: إذا أراد الله أن يتوب على عبد جعله يبكي على ذنوبه! . . .

وجاءت صاحبة البناء ذات يوم الى دار الطلاب ، لتخبرهم أن جارتهم التي من حقها أن تكون سعيدة في عيد ميلادها اليوم ، قد أغلقت عليها بابها لتنخرط في بكاء حزين . . .

وهبطوا : عدنان ومحمد والبلجيكية لاستطلاع خبرها ، وبعد أكثر من دقيقة استجابت لدعوة الجرس وفتحت لهم الباب . فدخل الفتيان الى الردهة ليأخذا مكانهما بانتظارها . . ولما عادت نحوهما في رداء الاستقبال ، كان أثر الدمع لا يزال بارزاً من تحت نظارتيها السوداوين . . . ورحبت بهم في صوت لم تستطع إخلاءه من أثر البكاء . . .

وتكلم محمد في كثير من التحفظ ، لقد كثرت أحزانك في هذه الايام . . . ولا بد لأنها نتيجة لوضعك الجديد . ولما يواجهك بسببه من مزعجات . وكان الأولى أن تقابلي ذلك بالصبر الذي وراءه الأجر . . .

وكأنها أحست في تلك العبارة ما حرك أشجانها من جديد ، فلم تستطع منه عينيها من الدمع . . وترددت ملياً تغالب نفسها ، وتسترد أنفاسها ، حتى استطاعت أن تستأنف : « . . حقاً ، انها لاحداث مزعجة تلك التي اصادفها في كل مكان . . ولكنها لا تزيدني الا شعوراً بالرضى واشفاقاً على هؤلاء المساكين الذين لا يعلمون ما يعملون . . ولعل كثيراً من دموعي وأحزاني لا تعدو أن تكون تعبيراً عن الغبطة الروحية التي تستغرقني ، عندما أشعر بأنني أتحمل بعض التضحية في سبيل الله . . . غير أن أخوف ما يخيفني هو ان يكون البعض الآخر من هذه الدموع والاحزان نتيجة لضعف خفي في قوتي الروحية ! . . .

وتهدج[1] صوتها ، ثم عاقها النشيج عن متابعة الكلام . . فأمسكت لتمسح دموعها وتهدىء أعصابها .

ورأى محمد ان يساعدها على هواجسها ، فقال : ان مثل هذه الظاهرة تبدو جليةً في جميع الذين هدوا الى الاسلام من اخوتنا الأوروبيين . وهذا

---

(١) تهدج الصوت : تقطع في ارتعاش.

اسماعيل الذي كان اسمه روجيه ، كثير ما تهيج مشاعره حتى لا يجد راحة لقلبه في غير البكاء وهذا كما يبدو لي نتيجة رهافة بالغة في العواطف ولدتها الاشواق الروحية والتأمل المستديم في معاني القرآن الحكيم [1] . . وهنا رفعت هدى بصرها الى محدثها وقد شاع في وجهها بشر خفي ، ثم قالت وفي صوتها رنة السعادة : « لكم يسرني أن يكون استنتاجك مصيباً أيها الاخ . . . الحق ، انني أحسن في قلبي رقة لم أعهدها قبل اسلامي . . . وكثيراً ما يطغى عليَّ هذا الشعور حتى أغيب في فيضه عن كل شيء . . . الا تلك الاشارات السماوية التي اكتشفها كل يوم في الآيات القرآنية . أو الاحاديث النبوية . . . » .

وتوقفت قليلا ، كأنما اعترضها خاطر مفاجيء . . . ثم قالت : لقد عرضت علي أختي بنت سفير السنغال أن أترك الشركة الى سفارتهم ، أجد الجو الاسلامي الذي يريحني من مضايقات المخالفين . فترددت أولا ، ثم رأيت أن أقبل هذا العرض وان كان دخله دون مرتبي الأول . لأنه سيوفر لي من الراحة النفسية ما أنا في مسيس الحاجة اليه . وفي هذه المناسبة أقول لكما أنني قررت الاكتفاء بالضروري من دخلي ، لأجعل ما يزيد عن حاجتي في خدمة الدعوة ، ولمساعدة الفقراء من لا جئي الألبان المسلمين . وسوف أفتح منزلي لاستقبال أطفال هؤلاء الذين تضطر أمهاتهم الى تركهم للعمل أثناء النهار . وعندي اقتراح آخر هو أن نتخذ من هذا المنزل مركزاً خاصا لاجتماعات نسوية اسبوعية تضم المسلمات وغير المسلمات ، من المثقفات الأوربيات اللواتي نأنس فيهن رغبة في الحق ، وقدرةً على فهمه .

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء. فتذكر الاخوان موعدهما مع بعض زملائهما الجامعيين من البلجيك والهولنديين ، فاستأذنا بالخروج لاستقبالهم ،

---

(١) ﴿وممن هدينا واجتبينا، إذ تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا﴾. (سورة مريم: ٥٨). ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾. (سورة الاسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩).

بعد ان اتفقا مع هدى على جميع النقاط التي أثارتها . ووضعوا لكل منها الترتيب المناسب . . .

* * *

فالمرجو من الشباب المؤمن أن يتأسى بتضحية هذين الشابين وطريقتهما في اعلان الاسلام ونشره بين رجالات الغرب ونسائهم ، وان يتعلم منهما الصبر والأناة والعفة والعفاف ، والثبات على المبدأ .

فللشاب أوقات فراغ يستطيع فيها أن يخدم دينه ، ويخدم الانسانية جمعاء ، بل ينقذها من هوتها السحيقة وويلاتها الفادحة ، وغيها وضلالها الفظيع ، فليست المناصب العلمية : (ما جستير ودكتوراه. . .) كل ما يزيّن الانسان ويجعله في مصاف الآدميين ، وانما النفس هي الميزان في كمال الشخص ، لا ما أملته الحافظة أو أنتجته الذاكرة بمساعدة الذكاء ، فالانسان انسان بنفسه : بكمالها وفضائلها وجهادها ، لا باختراعاته وابتكاراته فحسب فرب رقاع أعلى نفساً وأرفع كمالاً وأقرب الى الله ممن بلغ مرتبة «أينشتاين » في عالم الكشف والاختراع وقد قال الله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ولم يقل أكثركم ذكاءاً أو اختراعاً . وقد قيل :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

وكم رأينا من شبان حازوا على شهادتين عاليتين أو أكثر ، أو نالوا درجة الدكتوراه ، الا انهم لم يتقدموا في الكمال النفسي شبراً واحداً . فهم يتقلبون في دور الخمور والفجور وهم من أسوأ الناس أخلاقاً وأقلهم وفاء وأشدهم بخلاً وأكثرهم تكبراً وأبعدهم عن الفضيلة ، حتى أنهم يتكبرون على الآباء ولا يقومون بأداء حقوق الامهات ، كأنهم وجدوا دون أن يقطعوا مراحل الطفولة ودون تحمل الآباء والامهات في سبيل نشوئهم أنواع الأتعاب والتضحيات . فبئس العلم المادي الذي لا يرافقه رقة ولطف وأخلاق وفضيلة . وبئس العلم المادي الذي يجعل النفس الانسانية من الغلظة والخشونة والقسوة كالحجارة أو أشد قسوة ، «وان من الحجارة لما يتفجر منه

الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون[1]».

فلا بد من انقلاب جذري في حياتنا التعليمية في معاهد التدريس ، ومن رياض الأطفال الى التحصيل الجامعي ، انقلاب اخلاقي على ضوء تعاليم الاسلام ، فلم يترك الاسلام كلٍ ما يؤدي الى كمال هذا الانسان مذ نعومة أظفاره الى ان يترعرع الا وقد بيَّن فيه حكمه بوضوح وجلاء ، فنحن بحاجة الى ايجاد جيل يمثل الانسانية والكمال الانساني خير تمثيل . وهذا لا يتحقق مع تقليد رجال التربية في الغرب في حقول الاخلاق والكمال النفسي ، بل يتحقق باتباع تعاليم القرآن ، ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم﴾[2] وقد قال علي عليه السلام : « ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب ».

فلا أخلاق فوق أخلاق نبينا محمد (ص) ولا كمال فوق كماله ، وقد خاطبه الله تعالى قائلاً : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[3].

وقد صرح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان الله تعالى هو الذي أدبه بقوله : « أدبني ربي ، فأحسن تأديبي ». فعلى حملة لواء العلم والاخلاق في مدارسنا على اختلاف مراتبها ودرجاتها أن يتأدَّبوا بأخلاق الرسول (ص) وأهل البيت عليهم السلام كي يتأدب من يربونهم بآداب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته (ع) : بآداب الاسلام المثالية ، ليمثلوا الكمال الانساني قبل أن يكونوا علماء في مختلف الفروع من العلم المادي . فقد قال علي عليه السلام : « كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب ». وقال أيضاً : « ان الناس الى صالح الأدب أحوج منهم الى الفضة والذهب» وقال أيضاً : « ان الحازم من شغل نفسه بجهاد نفسه ، فأصلحها وحبسها عن أهويتها ولذَّاتها فملكها . وان للعاقل بنفسه عن الدنيا وما فيها وأهلها شغلاً ». وقال أيضاً :

---

(١) سورة البقرة: ٧٤.

(٢) سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦.

(٣) سورة القلم: ٤.

« ان العاقل من نظر في يومه لغده ، وسعى في فكاك نفسه ، وعمل لما لا بد له ولا محيص عنه ». وقال أيضاً : « ان الحازم من قيَّد نفسه بالمحاسبة وملكها بالمبالغة وقتلها بالمجاهدة ».

وقال عليه السلام أيضاً : « ان من أحب العباد الى الله سبحانه عبداً أعانه على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه وأعد القرى ليومه النازل فيه».

وقال أيضاً : « ان أفضل الناس عند الله من أحيا عقله وأمات شهوته وأتعب نفسه لصلاح آخرته ».

وقال أيضاً : « ان الكيس من كان لشهوته مانعاً ولثروته عند الحفيظة واقماً قامعاً»[1].

فطوبى للمجاهدين في سبيل نشر حقائق الاسلام في البلاد الاسلامية وخارجها وهو القائل : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين»[2].

وقد قال علي عليه السلام : « ان من بذل نفسه في طاعة الله سبحانه ورسوله كانت نفسه ناجية سالمة ، وصفقته رابحة غانمة ».

* * *

ويجدر بنا ان نذكر هاهنا بايجاز آراء بعض الشخصيات الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في الغرب نتيجة بحث وتنقيب وتتبع عميق دليلاً على أن الاسلام هو الدين العالمي في مستقبل قريب وانـه هو دين الله في أرضـه وسمائه : « إن الدين عند الله الاسلام »[3] [4].

---

(١) واقماً: وقم الدابة: جذب عنانها لتقف. والحفيظة: الغضب والحمية في الشيء الذي ينبغي أن يحفظ.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) سورة آل عمران: ١٩.

(٤) اقتبسنا هذا الفصل بكل ايجاز من كتاب: «لماذا اخترنا الدين الاسلامي» الذي صدر حديثاً لمؤلفه الأستاذ السيد محمد الرضي الرضوي.

١ ـ اللورد هيدلي رئيس الجمعية الاسلامية البريطانية : يحدثنا بقوله :

« ينظر الأوروبيون دائماً الى الاسلام كأنه وحشية وهمجية . فلو علموا كل ما فعله محمد لإزالة التوحش والهمجية التي لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالاً. إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعاً في تحريف الديانة الاسلامية ، وان هذا لأعظم الكذب الذي يخزيهم وان كانوا ليظنون أن ما يفعلونه حسن ، فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدي للحقيقة وبين الحالة التي يسير عليها المبشر المسلم في عمله . روح الاسلام تحلق فوق أشياء أرقى وأرفع من تلك الاطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية في الشرق والغرب ».

« روح الشكر هي خلاصة الدين الاسلامي، والابتهال أصل في طلب القيادة والارشاد من الله . وان كان شكري لله على كرمه وعنايته كان متأصلا فيَّ من صغري وأيام حداثتي ، الا أنني لا استطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التي قرع فيها الدين الاسلامي لبي حقاً وتملك رشدي صدقاً وأقنعني نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي اذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل ونجوت من العقائد الغربية المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة واستنشقت تلك النجاة كما استنشق هواء البحر الخالص النقي . وبتحقيقي من سلاسة وضياء وعظمة الاسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم الى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار».

« حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخاء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكوِّن الانسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة».

« لم يشهر السلاح محمد الا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية وربما ادُّعي بأن الاسلام استعمل السيف في نشر الدين ولكن ألدُّ أعداء الاسلام القادحين فيه عجزوا عن ان يأتوا ولو بأقل دليل أو مثل من الامثلة التي أثر فيها الحرب في هداية أية قبيلة أو شخص الى الاسلام ».

« والحق اننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات ، أن محمداً

هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها وعلى بلاغة القرآن الإلهية وان في استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الاطلاق ».

« ومن مميزات الاسلام الأصلية ملائمته لجميع الأجناس البشرية . فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الاسلام . فدين الرسول محمد عليه السلام قد أكد من الساعة الأولى لظهوره ، وفي حياة النبي عليه السلام انه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف في انسان عن آخر ، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة ».

٢ ـ المستر آرثر : يقول:

« يريد كل منا أن يختار لنفسه الأحسن ـ أحسن الأطعمة ، أحسن المساكن ، أحسن المراكز ، أحسن الاخوان ، ولكن ، كم منا فكر في أن يختار أحسن الديانات ، ان معظمنا راضٍ بالدين الذي وجد عليه آباءه ، وفراراً من التعب نترك البحث ونكون مصداق هذه الآية المباركة ﴿وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾. (سورة المائدة : ١٧).

إني لأتجاسر على أن أقول : اذا عينت لجنة من الانكليز الأكفاء حقيقة ممن هم على شاكلة المأسوف عليه : اللورد سالسبري والمأسوف عليه اللورد : بيكو نسفيلد والمستر بلفور واللورد هالدين والسير روفس اسحاق . . الخ لفحص الدين الذي يجب أن يتدين به العالم كله لأجمعوا أمرهم على أن يختاروا الدين الاسلامي الذي يشهد له العقل ، والذي يجيب رغبة الفؤاد والروح الشديدة من الاتصال بالخالق سبحانه وتعالى. . .

٣ ـ و. ب . فارمر : w B. Farmer يقول :

أولاً : ان الدين الاسلامي دين عملي ، دين منزه من المخبثات والخرافات دين يسهل فهم مغزاه ، دين مبرأ من كل ما يخالف العقل ، ولم تتراكم فيه عقد الفلسفة الألوهية .

ثانياً : انه دين يتعرض للأمور الأساسية الأصلية ، وانه دين يزاول القوانين الأولية للطبيعة والفطرة ، وانه لا يعرف فصلاً بين الدين والعلم ضمن ترجيحه لعلم الديانة على سائر العلوم . لأنه علم المكرمات وعلم الحياة السعيدة الموفقة .

ثالثاً : للاسلام أحكام تامة وقوانين كاملة في جميع مراحل الحياة البشرية على هذه البسيطة في كل ناحية من النواحي الاجتماعية والادارية والعسكرية والتجارية .

يشتمل الاسلام على دساتير توضح السبل وترشد الى الطريق ، الاسلام ينظم كل عمل تحتاج البشرية الى مزاولته .

الاسلام له المام بالظروف الراهنة في الحياة وهو دين جاء لهذا البشر العائش في عالم الدنيا .

٤ ـ الدكتور جرموناس الاستاذ بجامعة بودابست : يقول :

« خالجني منذ طفولتي حنين الى أرض الاسلام وكأنها أرض الميعاد الخيالية . فإن الاندفاع نحو الأهداف المادية والرغبة الملحة في السرعة وهما طابع الحضارة الاوربية أبديا لي الشرق الاسلامي دنيا سحرية تفيض بالشعر وتزدان بالمثل الانسانية . واني أنا الرجل الأوروبي الذي لم يجد في بيئته الا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية ، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الاسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه ».

« وبينما التمس الاوربيون أسباب سعادتهم في الاستزادة من نعيم البدن كفل الاسلام للانسان راحة نفسه ، اذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون في عرض زائل كسيارة أو طيارة ، بل في رضا الضمير ، وسبيله أن يقوم الانسان بواجبه نحو ربه ونحو الناس ، فيحس الأفراد بعد الوفاء بهذه الواجبات اطمئناناً قلبياً أطول عمراً من السعادة العابرة التي تصدر عن طريق الأسلحة وتنبعث عن الرغبة في التدمير ».

« ولقد وهم السطحيون من الناس ـ حين قارنوا حال الدولة الاسلامية بتزايد نفوذ الدول المسيحية ـ ان الدين الاسلامي هو علة سقوط دولة

المسلمين . ولكني أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة الاسلام بأنه لا يوجد في تعاليم الاسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلمين أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة ».

« ان محمداً رسول الله لأعظم مصلح ثوريٍّ عرفه التاريخ مؤيَّد بوحي من عند الله . . ونحن مأمورون أن نفهم تعاليمه ونطبقها على شؤون حياتنا الدنيوية مع الايمان بأن ما أوحي به اليه انما هو أساس لا يهتز ولا يتعثر لكونه إلهياً ».

« ولقد أخطأ المسيحيون اذ لم يفهموا الاسلام على حقيقته وبالتالي لم يتشبعوا بروحه ».

« ان أوروبا لم تعرف الاخاء بين الناس الا بعد الثورة الفرنسية ، بينما دعا الاسلام اليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام ».

« وأني لأجرؤ على القول : بأن الاسلام منح المرأة حقوقاً قانونية أكثر مما كان لها في ظل المسيحية ، ولقد اعترف بإباحة تعدد الزوجات في حدود معقولة : بالأمر الواقع أي بما تقتضيه غريزة الرجل ، فحال بهذا دون تعدد الزوجات غير المشروع الذي يسود الجماعة الأوروبية في هذه الأيام ».

« لقد كانت المادية الصارخة والتشيع للأجداد أي الايمان باللحم والدم هي الدوافع المحركة قبل الاسلام ، وكان العنف هو الحكم الأسمى ، وهنا جاء وحي القرآن وهبطت كلمة الله معلنة بأن التفاخر بالانساب والاعتزاز بصلة الدم والتشيع للجنس لن تؤدي الى صيانة الحياة الانسانية ولا الى تحقيق الهدوء والنجاح ، وان الطريق الى ذلك هو تقوى الله والصلاح واتباع قوانين السماء».

لقد وضع الاسلام حداً للنظرية التي كانت تعتبر الانسان وحدة في قبيلة أو وحدة في شعب أو ابناً للغة من اللغات ، وسمى بالأفراد من وهدة الحيوانية الى افق انسانية فسيحة .

واني لأؤمل بل أتوقع أن يكون الاسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه

المعجزة في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمة كثيفة ، واني لأمد يدي لاخواني المسلمين وأنخرط في صفوفهم مجاهداً في سبيل الاسلام باذلاً ما أستطيع من اخلاص وحسن طوية كاشفاً عن الجروح باحثاً عما يطهرها ويشفيها متحملاً في سبيل ذلك ما يتحمله المجاهدون من نصب مؤملاً في النجاة التي كتبت للمتقين ».

٥ ـ الدكتور بنوه (علي سلمان) : الكاثوليكي الفرنسي يعتنق الدين الاسلامي ، فيقول :

« كان شعوري بوحدانية الله يمنع عليَّ قبول مبدأ : « ثالث ثلاثة » كما انه كان بطريق التبعية يحول بيني وبين الاقرار بألوهية المسيح . وبهذا كنت على اتفاق تام من حيث لا أشعر مع ما يتضمنه الشطر الاول من شهادتنا (لا إله إلا الله) ومع روح سورة الاخلاص : « قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ». وعليه يتبينّ ان اعتناقي الاسلام كان راجعاً أول مرة الى أسباب روحية ، الا ان أسباباً اخرى حملتني على دخول هذا الدين ومن بينها عدم الرضى بالرهبانية التي يجترىء أصحابها على نيل سلطة يعتقدون من ورائها انه يمكنهم محو السيئات البشرية ، وما كانت ترضيني كذلك الطريقة المتبعة عند الكاثوليكيين : (التعميد) وهي زعم ادماج روح المسيح في الأطفال بواسطة تناول القربان المتمثل فيه بدن المسيح .

« ثم ان نصوص بعض آي الكتاب الموحى به على نبينا منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً تتناسب وأحدث مبادىء العلوم العصرية ، وكان من جرّاء هذه الملاحظات ان آمنت نهائياً ، فأصبحت بهذا على وفق الشطر الثاني من شهادتنا : (محمد رسول الله) . . .

٦ ـ الدكتور حميد ماركوس الالماني يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ويقول :

« زاد الاسلام في أفكاري وتصوراتي كثيراً مما يرجع الى الشؤون البشرية والوداد الانساني مما لم أجدها في مجالات اخرى ولم أسمع بها من سواها ، ان التوحيد الاسلامي عقيدة قدسية منزهة عن الخرافات التي لا تتلاءم والعلوم

الحديثة ، ولذلك لا مضادة بين العقيدة والعلم في الدين الاسلامي ، فهذا امتياز خاص عظيم في الدين الاسلامي يهتدي به رجل صرف جلّ مقدرته واستعداداته في سبيل العلوم ».

« والامتياز الثاني لهذا الدين : أنه ليس جملة من تعاليم فارغة ، وأماني خلابة تأخذ في طريقها العمياء في الحياة ، بل هي قواعد وأحكام نافذة في حياة البشرية مباشرة ».

«ان القوانين الاسلامية لا تسلب الاختيار والحرية الفردية ، بل هي ارشادات تهدف الى تأسيس حرية جماعية عامة . ان الاسلام واسطة ذهبية لربط الحياة الفردية بالحياة الاجتماعية ».

٧ ـ الاستاذ دونالد ركيول الامريكي يعتنق الدين الاسلامي ، فيقول :

« لفت نظري بساطة العقيدة الاسلامية وسهولتها ،فليست هناك أسرار ولا ألغاز نؤمن بها ولا نناقشها ، بل مرد الايمان الى العقل والنظر في ملكوت الله ، وما في الكون من نظام بديع ، يهدي ، بالضرورة ، الى وجود آله متصرف له الخلق والأمر ».

فإذا عرفت الله وآمنت به ، فالاسلام يقول لك ان الله أقرب الى الانسان (من حبل الوريد) والله يخبرك عن نفسه فيقول : ﴿وإذا سألك عبادي عني فاني قريب ، أجيب دعوة الداعِ اذا دعان﴾[1]، فلا ضرورة من ثم للوسيط بينك وبين خالقك ، ولا حاجة بك الى كاهن تعترف له فيقبل التوبة منك[2] ، ؛ أو هيكل لا تتم العبادة الا فيه ، « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ». (سورة البقرة : ١١٥).

« وراعني تلك السماحة التي يعامل بها الاسلام مخالفيه: سماحة في السلم وسماحة في الحرب ولين مع أهل الكتاب من نصارى ويهود ».

« والجانب الانساني في الاسلام واضح ملموس في كل وصية من وصاياه

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦ .

(٢) ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾. (سورة آل عمران: ١٣٥).

وفي كل تشريع جاء به ، فالناس وان اختلفوا في حظوظ الدنيا ومتاعها فهم متساوون أمام الله ، لا فضل لأحد على آخر بسبب غنى أو جنس أو لون وانما يتفاضلون بالتقوى »[1] .

« وللفقير والعاجز والمحتاج (حقه المعلوم) على القادرين ، يؤدونه زكاةً واجبة . والاسلام لا يقعد بمتبعيه عن ركب التقدم والعمران ، بل يأمر الناس أن يأخذوا بالاسباب ، فقد قال النبي الكريم : (اعقلها وتوكل). « وهو لا يحرم الانسان الطيب من متاع الدنيا » .[2] .

٨ ـ كونراد (خالد) الانكليزي يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ، وهو من الأسرة الملكية ، وقد أذاع في أواخر العام الماضي رسالة باللغة الانكليزية عنوانها : (الاسلام دين البشر)، جاء فيها قوله: اني لسعيد ومغتبط أن أجدني قادرا على القول بأني مسلم ، وان الاسلام وحده هو الدين الحق وان رسالته بسطت للبشر رواق الأمل في الحياة على حين أن غيره من الأديان ينهار اليوم ويتداعى للسقوط.

٩ ـ كنود هلميو (علي أحمد كنود هلميو) كاتب صحفي دانمركي كبير يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ، وهو مؤمن من أعماق قلبه ان مستقبل العالم

---

(١) ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

(٢) ولا بأس بذكر صك الغفران بالمناسبة ها هنا. فقد ذكر الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه: «إظهار الحق»: «اخترع البابا: (لاون العاشر) للمغفرة تذاكر تعطى منه أو من وكيله للمشتري بمغفرة خطاياه الماضية والمستقبلة أيضاً، وكان مكتوباً فيه: «ربنا يسوع المسيح يرحمك ويعفو عنك باستحقاقات آلامه المقدسة. وبعد، فقد وهب لي بقدرة سلطان رسله بطرس وبولس والبابا الجليل في هذه النواحي أن أغفر لك: أولاً: عيوبك الاكليروسية مهما كانت، ثم خطاياك ونقائصك، ولو كانت تفوت الاحصاء، بل أيضاً الخطايا المحفوظ حلها للبابا وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة الرومانية أغفر لك كل العذابات التي سوف تستحقها في المطهر، وأردك إلى أسرار الكنيسة المقدسة وإلى اتحادها وإلى ما كنت حاصلاً عليه عند عمادك من العفة والطهارة. حتى أنك متى مت تغلق في وجهك أبواب العذابات وتفتح لك أبواب الفردوس، وان لم تمت الآن فهي باقية لك بفاعلية تامة إلى آخر ساعة موتك باسم الأب والابن والروح القدس. آمين».

للاسلام . وان النصرانية قد فشلت ، وان الاسلام هو الحياة بذاتها وسيبقى الى الأبد . ويقول : قد منيت الكتب السماوية قبل القرآن بالتحريف فليس الا القرآن هادياً للانسانية .

١٠ ـ The Reverend R. G. Flowers (رج فلورز) قسيس بريطاني يعتنق الدين الاسلامي . انه يقول : « العلة التي دعتني لمتاركة فرقتي الغربية (الفرقة الارتودكسية) واعتناق الدين الاسلامي ذات أهمية ، تمس صميم الحياة ، فليست هي من الطفيليات الآنية وليدة العواطف والأحاسيس الطارئة ، بل هي نتيجة المراجعات الكثيرة التفصيلية الضرورية ، ووليدة التفكير العميق واستجابة للأدعية والطلبات من الباري جل شأنه ».

ويقول أيضاً في كتاب أرسله الى رئيس جمعية الشيعة الامامية في لندن : « ان قلوبنا وأرواحنا لتتلهف على أشد الاشتياق الممكن لنكون دعاةً فعالة الى الدين الاسلامي في العالم . ونسأل الله العظيم ان يمنحنا حياة سليمة مقرونة بالصحة كي نوفق الى هذا الهدف المقدس .

١١ ـ Count Edward gioja (الكونت ادوارد كيوجا) الايطالي يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ويقول: «قمت في تحقيق ومطالعات حول الأديان كلها: قديمها وحديثها، وقايست بين واحد واحد منها، ونظرت اليها بمنظار النقد والتمحيص، فكانت النتيجة أن جهودي في ذلك حفزتني شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن الايمان والعقيدة الاسلامية هو الدين الثابت الحقيقي. وان القرآن ليتضمن بين دفتيه كلما تحتاج إليه الروح الانسانية في ارتقائها وكمالها المعنوي.

١٢ ـ J. W. Lovegrove (ج. و. لاف كروف) يعتنق الدين الاسلامي ، فيقول : « لا يعتقد انسان بدين خرافة[1] ما لم يسحق نداء عقله

---

(١) ومن الخرافات التي أشار اليها ما جاء في الباب التاسع عشر من سفر التكوين: أن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه بعد أن شرب الخمرة، فحملتا منه بالزنا، (٣٠ ـ ٣٨).
وفي الباب الثامن والثلاثين من السفر المذكور: ان يهوذا بن يعقوب عليه السلام زنى بثامار كنته فحملت بالزنا منه وولدت توأمين: فارص: (جد سيدنا عيسى عند المسيحيين) وزارح وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام كلهم أولاد فارص المذكور كما=

بقدميه . فوظيفة الانسان تجاه ربه ومع جاره تجب ان تكون أساساً وهدفاً لكل دعوة دينية ، اما الاسلام فقد جعل من هذا القانون الخلقي دستوراً عملياً نافذاً عاماً» .

١٣ ـ محمد رايموند لويس ـ يعتنق الدين الاسلامي . ويصم السعادة في أوربا ، انه يقول : « السعادة ، يا لها من خيال ملؤه الأوهام ، أي سعادة ؟ فالبعد بينهم وبين السعادة شاسع جداً. وان جميع مزايا المدنية الغربية وتلكم الأماني المتفشية في دنيا الغرب لم تؤثر في نيل السعادة الحقيقية ولا يوجد لها أي أثر بتاتاً ». ويقول : الاسلام : الحجر الاساسي لكل صرح قويم تبتني عليه الأخوة البشرية .

١٤ ـ Ibrahim Voo (ابراهيم فو) المسيحي ، يعتنق الدين الاسلامي . فيقول : « اني قبل اعتناقي الاسلام كنت كاثوليكيا رومانياً ، بصورة لم أكن لأعتقد بمراسيم التثليث ، والعشاء الرباني ومعجزات المضيف . . فكنت مخالفاً للأسرار والمخبئات الدينية في حال لم أوع الايمان بالله تعالى، فلم يساعدني أي قسيس كاثوليكي في توضيح هذه المسائل بصورة مقنعة أبداً . والجواب الوحيد الذي كنت أتلقاه على استمرار هو : ينبغي للأسرار أن تبقى أسراراً ، ان المسيح آخر الأنبياء ، ومحمد مبطل في دعواه (هداهم الله الى الصواب)[1] . . .

= هو مصرح به في الباب الأول من انجيل متي). وجاء في الباب الحادي عشر (٢ ـ ١٦) من سفر صموئيل الثاني: أن داود عليه السلام زنى بامرأة أوربا الحثي وحملت منه، فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له. وفي الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول (٤ ـ ١٣) ان سليمان عليه السلام ارتد في آخر عمره، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد وبنى المعابد لها ولم يحفظ ما أوصاه به الرب.

(١) يقول مؤلف كتاب «على حافة العالم الأثيري» فندلاي: يحدثنا مذهب القديس: أثنا سيوس: أننا إذا لم نصدق غير المعقول فأننا لن ننجو بل نهلك دون شك إلى الأبد، فكيف يستطيع عاقل أو عاقلة أن يقرأ هذا المذهب، ثم يقول في نزاهة: ان من خليط هذه الكلمات عديمة المعنى يتألف دينه الذي يعتنقه. وغير خاف أن أسقف كانتربري يؤيد الاعتقاد القائل: «بأن القسيس بتدشينه القربان يمكنه أن يجعل المسيح يجيء ويحل في خبز العشاء الرباني وخمره».

فعلمت بعد ان صادفت جماعةً من المسلمين في (مالايا): أن الاسلام دين العقل وان هذا الدين هو الدين الذي كنت أتطلبه باسم الحقيقة الواقعية فلا أحد ولا شيء يعبد سوى الله تعالى، ولا توجد في معبد اسلامي صورة وتمثال أو نقوش . ان الصلاة في المسجد نحرت قلبي الى الأبد...

١٥ ـ الاستاذ ويرنر الفريد المسيحي الكاثوليكي يعتنق الدين الاسلامي ويعمل في نشره ، وهو الآن رئيس الجمعية الاسلامية في هامبورك واسمه الجديد : الشيخ عمر شوبرت[1].

١٦ ـ لوماكس (محمد عز الدين) المسيحي الامريكي يعتنق الدين الاسلامي وهو يقول : ان المسيحيين لا يزالوان يعلمون الناس : ان المسلمين عبدة أوثان ، ولكن والحمد لله في عام ١٩١٧ م اعترتني مشاعر نفسانية دخيلة حركت قلبي ودفعت ارادتي الى اجتياز ٥٥٠ ميل لاقتات من فضلات موائد المسلمين ولآخذ من أدبيات روح الدين الاسلامي نصيباً .

١٧ ـ Oscar . J . Pfaus اوسكار . ج بفوس (جعفر حسن علي) المسيحي الالماني الطالب حالياً في المدرسة الصناعية العالية في ثاكسو والمؤسس للجمعية الإسلامية في المدينة نفسها (فاكسو ـ السويد) انه يقضي أكثر أوقاته في سبيل بث الدعوة الاسلامية هناك ، في شتى الأساليب ، في قطر يرى عدم رغبة أهله في أن يسمعوا عن الاسلام شيئاً . لأن دعاة السوء ملؤوا اسماعهم بأراجيف اختلقوها وأحاديث مشوهة للاسلام ابتدعوها ، ومع هذا فلم يفتر في عمله ولم يتوان في سيره ، وتأتي البشائر انه ناجح في ايجاد تاريخ اسلامي جديد.

---

(١) انه يوالي أهل البيت واختار مذهب أهل البيت من بين المذاهب الاسلامية، وعندما سئل، أجاب بقوله: من ذا الذي يترك عترة آل النبي مصطفى (ص) ومن ذا الذي هو في غنى عن شفاعتهم يوم الحساب. حيث روي عن الامام علي (ع) عن النبي (ص) أنه قال: «ألم تسمع قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب، تدعون غراً محجلين... وأضاف قائلاً: فانني أطمع في أن أكون أحد الذين ينالون شربة من يد الامام الكريمة.

١٨ ـ ليوبولد فايس (محمد أسد) النمساوي ـ يعتنق الدين الاسلامي وهو من كبار الصحفيين ـ أخذ يجاهد مجاهدة الابطال بعد اعتناقه الدين الاسلامي لبث الدعوة الاسلامية وتفهيم حقائق الاسلام . انه يتأسف للاسلام فيقول : ان الحياة الاسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيدة جداً عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الاسلام . من ذلك مثلاً : أن كل ما كان في الاسلام تقدماً وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخياً وركوداً ، وكل ما كان في الاسلام من قبل كرماً وايثاراً أصبح اليوم بين المسلمين ضيقاً في النظر و(أنانية) وحباً للحياة الهنيئة .

لقد تحققت ان ثمة سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين ، ذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية ، فنتج من ذلك ، ان الاسلام ظل بعد ذلك موجوداً ، ولكنه كان جسداً بلا روح . واعتقد ان الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين أعظم قوة ناهضة بالهمم عرفها البشر . وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد.

١٩ ـ المستر هاري أ . هنيكل يعتنق الدين الاسلامي بعد بحث وتحليل عميقين . انه يقول : « من المفروض في كل مسيحي أن يعتقد بأن الكتاب المقدس ليس ككتاب ديني تجب قراءته ، بل قطعة نفيسة يزين بها بيته ، ولا ابالغ اذا قلت انه قد تنقضي السنون دون أن يخطر ببال أحد أن يلقي نظرة على الكتاب المقدس ، بل يظل كما صدر من المطبعة .

قال الاستاذ : شارلس فرانسيز في كتابه (قصة الدين) : الانجيل كتاب لا يعرفه أحد في أمريكا ، اما القرآن فهو كتاب يعرفه كل مسلم . وهذه عين الحقيقة ، ومن حسن حظ الديانة المسيحية أن الانجيل كتاب لا يعرفه أحد.

ويقول المستر هاري : الاسلام دين العقل والتسامح وهو خالٍ من كل شائبة . وجدت الاسلام يشجع على متابعة الحقيقة ، وأن صحائف التاريخ مملوءة بالحقائق التي تثبت عرقلة الاديان الاخرى للمدنية والعمران وذكر الكاتب أحاديث نبوية كثيرة عن العلم والسعي للمعرفة.

وقال يوسف مكاب ، أحد الملحدين : ومن الصعب جداً وجود علم غير مدين بفضله للاسلام .

ويقول المستر هاري المسلم : « ولا أتردد لحظة في القول ثانية : لو كان الاسلام منتشراً في الغرب أكثر من انتشاره اليوم لأدهش العالم المتمدن بكثرة أنصاره ومشايعيه ويرجع السبب في عدم انتشاره الى تشويه الحقائق التي يتعمدها البعض ممن يتصدون لترجمة الكتب الاسلامية الى اللغات الاخرى . ومع هذا فالزمان وحده كفيل بازالة هذه الصعوبة .

٢٠ ـ الاستاذ فؤاد غريب يعتنق الدين الاسلامي الحنيف معجباً بالعدالة الاسلامية وبالسيرة النبوية وبالديانة الاسلامية الغراء . . ويقول :

قد بلغت قسطاً من الثقافة يدلني على المحجة ويومىء لي الفوز. ووقفت يوماً أتأمل هذه الروح المتأججة في صدري والثائرة بين جوانحي والتي تحاول أن تتنفس بشيء لم أكن لاستطيع التعبير عنه انذاك ، وأفقت من حيرتي واضطرابي ، ودلفت مستهدياً الى أخي : (الأديب)، أسأله ان يدلني على (روح الاسلام) التي قصرت عنها حتى ذلك الحين بكل صراحة فلا يتبع معي مجاملة أو غيرها ، وكنت من الاندفاع بحيث قلت متمثلاً : (فان لم تفعل ما تؤمر فما بلّغت). فانفجر بين يديَّ باكياً يضمني الى صدره ويقول : « لتجدنَّ أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك : بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا ، آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ».

وغرقت في دموعه وغرق في دموعي ، فما كنت أناجيه ، أخي : نعمان ، الا كأني أحس بصوت إلهي يتردد في كياني ويهزني بعنف وقوة ، حيث كان يسمع صوت محمد (ص) يتردد في حديثه لأصحابه : أخي عيسى ، وانتبهت بعد غفوة لأجد هدية صاحبي بضعة كتب تصور الاسلام بأجلى صورة وتنافح عن الروحانية الحقة وتفتح في النفس آفاقاً من الحرية والانسانية . وعلمت ان الاسلام التحرير الأعظم للانسانية .

ثم يقول : « وقد يكفي للتدليل : موقفه يوم حنين وكيف كان يسند صحابته المنهزمين من الانهيار ، فينال الأذى الكبير ، ولكن لم ينس واحداً منهم ، فقد كان يتفقدهم واحداً واحداً ، ويناجي ربه داعياً : « ربِّ ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد في هذه أبداً ».

وبمثل هذا الايثار وهذه التضحية لم يكن النبي محمد (ص) ليفرق نفسه عن أصحابه ولا الكتاب . فقد جاء في سورة البقرة : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير».

« فأي عدالة سماوية واجتماعية هذه التي لا تفرق بين الكتب المنزلة ، ولا بين الرسل ، انها رسالة محمد، وانه القرآن العظيم ، أللهم فاشهد: أني آمنت بمحمد».

٢١ ـ الاستاذ يني يماني (زايد يحيى يماني). يعتنق الدين الاسلامي الحنيف بعد دراسات وبحوث في الأديان ، انه يقول :

« عندما يسألني سائل لماذا أسلمت ؟ أكاد أجيب ولماذا لا أسلم ؟ ولماذا لا يسلم كل باحث عن الحقيقة التي لا تخفى كثيراً وراء الحجب ولكنها مستعدة أن تتجلى له اذا هو رغب حقاً فيها ، وخطب ودها وسعى لها سعيها ».

« ان هذا السؤال لماذا أسلمت ؟ يوازي السؤال لماذا اهتديت ؟ وهذا يدخل في نطاق الغيبيات والاجابة عليه اجابة صحيحة كاملة من الخوارق ، لأن الله وحده هو علام الغيوب . هو الذي شاء لي الهدى فهداني : « من يهد الله فهو المهتدي»[١] .

يقول : كان أبي مسيحياً متديناً وكانت أمنيته ان أسير على نهجه في تدينه ، فلم يدخر جهداً لهذا . فبعث بي الى مدارس (الفريرFrerer) لكني بدل أن أؤمن بما كانوا يلقنونني اياه أصبحت أشك فيه ، حتى اذا بلغت أربعة عشر ربيعاً كنت زنديقاً لا أؤمن بشيء ، وضاعف من زندقتي خرافات دينية

---

(١) سورة الاعراف: ١٧٨ .

لا يصدقها العقل المجرَّد ، فصرت أدرس العقائد والديانات جميعاً واقارن بينها ، فعرفت ان الله هو الحقيقة العظمى وان كل شيء سواه باطل . عرفت ان الله كما يقول (ابن سينا) الوجود المحض ، والحق المحض ، والخير المحض ، والعلم المحض ، والقدرة المحضة ، والحياة المحضة .

ولما كان الذي جاء بالاسلام هو محمد رسول الله (ص) فقد كان طبيعياً أن أؤمن به وأشهد بصدق رسالته ، وبالقرآن الذي أنزل معه وبالتعاليم الانسانية التي جاء بها .

٢٢ ـ ارنست تشريري البرازيلي (محمد عبد الرحمن) يعتنق الدين الاسلامي فيقول : «الاسلام ليس دين تفرقة عنصرية ولا يدعي أبناؤه انهم الشعب المميَّز أو الجنس المختار وأكثر من ذلك فهو دين عالمي للناس جميعاً .

٢٣ ـ Feysal W. Wagener (فيصل و. واكنر) الهولندي أحد أعضاء الكنيسة الكاثوليكية يعتنق الدين الاسلامي ، في كانون الثاني لسنة ١٩٥٢م ، فيقول :

« علائق متعددة الجوانب وفحص دائم عن الدين الحق حفزتني نحو الكتب والمنشورات الاسلامية » .

ويقول : « ان قولة الرسول (ص) : اطلبوا العلم ولو بالصين عرفتني شدة الأواصر الوثيقة بين الاسلام والعلم ، وهذه ميزة لهذا الدين لا تجدها في تاريخ الكنائس المسيحية بتاتاً » .

« وان دراسة أعمق حول الاسلام أبدت لي أن الاسلام مجموعة من قوانين وأحكام كافلة لنواحٍ شتى ، دينية وأخلاقية ، اجتماعية واقتصادية ، سياسية وقضائية » .

٢٤ ـ اشميتس دور مولين المهندس (محمد عادل بك) المهندس الالماني يعتنق الدين الاسلامي ويعمل لأجل نشر الاسلام بين أهل وطنه والدفاع عنه وعن المسلمين فألَّف كتباً عدة أشهرها : (الاسلام)، (في الحرام)، (استانة)، (بلدة الاسلام)، وقد أثبت عادل بك في مؤلفاته ان الاسلام قريب جداً من النصرانية الحقيقية ، وان ما عليه العالم المسيحي الآن من

التقاليد والعادات مفسدة كبيرة ومدعاة الى الشهوات البهيمية والفقر المدقع وغير ذلك من المصائب والأمراض الاجتماعية .

٢٥ ـ الفونس اتيين دينه (ناصر الدين) الفنان الفرنسي يعتنق الدين الاسلامي بعد دراسة طويلة ، فيقول : « ان العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفي الوقت نفسه حر التفكير ، وكما ان الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع المدنيات ».

ويقول : « ان الاسلام يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو ببساطته المتناهية . . . يهدي علماء أوروبا وآسيا الى الطريق المستقيم ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير ان يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم ، كما انه تعزية وهدى لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية . . ويرقى في بروج ذلك التاجر الانكليزي رجل العمل الذي يعتبر الوقت من ذهب ، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ويسمو بنفس الغربي الشغوف بالفن والشعر ، بل هو يسحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم وبما في الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معاً ».

ومن جملة مؤلفاته في الاسلام: (السيرة النبوية) في مجلد كبير وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتنوعة من ريشته الخاصة، يمثل فيها المناظر الاسلامية ومشاهد الدين ومعالمه، ونشره كذلك باللغة الانكليزية بنفس الحجم الكبير والاتقان التام.

٢٦ ـ وارتون كرباسين (حسين اثنا عشري) الشاب الباريسي، يعتنق الدين الاسلامي الحنيف، فيقول: «وكانت الليالي فرصة معتنمة للمطالعة حول الدين الاسلامي، وقرأت القرآن عدة مرات، ولكني أصبت مدة اقامتي بالمحمرة (خرم شهر) بمرض (سينوزيت) بصورة شديدة جداً فكان يؤلمني ليل نهار. وانتهت نظريات الأطباء إلى العمل الجراحي ولم تطاوعني نفسي.

وصادفت تلك الأيام وهي السنة الماضية شهر المحرم (شهر الامام حسين

عليه السلام) وفي جواري دار واسعة، مغطاة بخباء كبير أعدَّت للتعزية بمناسبة الوقت، وكانت المآتم تقام في الليالي وتلقى فيها ذكريات المصائب وكلمات الوعظ والارشاد، فاعتدت الجلوس وراء الشباك، والاستماع إلى المصائب والكلمات.

فاتفق ذات ليلة أن قدَّم إلي أحد خدمة المأتم طبق شاي وقال: أيها السيد تشتهي أن تشرب شاي الامام الحسين عليه السلام؟ فقبلت منه على اشتياق ورغبة تامة، وعندما لمست شفتاي ذلك الشاي أحسست أن نوراً خاطفاً في فكري، فناجيت ربي: (إلهي بحرمة الامام الحسيْن ومنزلته أرني معجزة خارقة لأستريح من هذا الألم ومن شدة مرض (السينوزيت) المهولة، وفي اليوم التالي وعند نهوضي من فراش النوم رأيت عجباً، أن المعجزة وقعت وشفيت رأساً.

فكانت مطالعاتي السابقة حول الاسلام وهذه الواقعة العجيبة التي شاهدتها عيناي أثرت أثرها في نفسي، فصممت على اعتناق الدين الاسلامي وبعد أشهر عدت إلى طهران ومنها إلى (قم) وحضرت مجلس آية الله (شريعتمداري)، وأجريت مراسيم الشهادتين واعتنقت الاسلام وسُميت باسم: (حسين اثنا عشري).

وقد ذكرت مجلة (نور دانش) الزاهرة أن عمر هذا الشاب ٣٢ سنة ويعرف ست لغات.

٢٧ ـ (فرانسيسكو بايللي) الايطالي يعتنق الدين الاسلامي ويقول: «إن الفطرة الاسلامية مبثوثة بطبيعة الحال في نفوس كثيرين من الأوروبيين على غير علم منهم بأن ما يشعرون به هو عين المبادىء التي قررها الاسلام. فلو جاءهم الدعاة ووضعوا بين أيديهم الحقائق الاسلامية باللغات الأوروبية وبالأساليب التي يأنس الأوروبيون بها لتحوَّل هؤلاء جميعاً لهذه الدعوة يجاهدون في سبيلها ويفتحون الفتوح لهدايتها.

٢٨ ـ فيتورادي الميدا (عبد الله الاسلامي)) الشاب البرتغالي يعتنق الدين الاسلامي بعد دراسة وافية.

يقول الصحفي جبرائيل بقطر في مقال كتبه عن الشاب البرتغالي المسلم:

«وبعد عام ونصف عام ورد إليّ خطاب مكتوب بلغة عربية... من هذا الشاب البرتغالي المسلم... انه يذكرني بالمقابلة التي تمت بيننا في (لشبونة) ويروي لي قصة حياته بعد أن افترقنا، فيقول: أنه ترك لشبونة إلى طنجة بعد أن تزوَّج من سيدة برتغالية أسلمت بعد أن عرفت منه حقيقة الاسلام، وانه أنجب طفلة سماها (زهرة الورد). أما هو فقد أعلن اسلامه باسم (عبد الله الاسلامي)، وأنه أخذ في دراسة اللغة العربية ليستطيع قراءة القرآن الكريم وفهم معانيه... وأنه ما زال يتمنى أن يحج ويزور مكة المكرمة حيث بيت الله الحرام وكعبة المسلمين.

٢٩ ـ الأستاذ نشكنتا بادهيايا (محمد عز الدين) رئيس جامعة حيدر آباد سابقاً وأستاذ التاريخ في جامعة مهراجا في ميسوري يعتنق الدين الاسلامي بعد بحث عميق. واسمه بعد اسلامه: (محمد عز الدين).

كان في أول أمره شديد الاعجاب بمذهب العقليين ولكنه لم يلبث أن تحول عنه لأنه لم يُروِ له غليلاً. وأخذ بعد ذلك في درس الدين البوذي وأعجب بظاهر رفعته الأخلاقية، لكنه وجده أخيراً على عكس طبيعة البشر، فمله. ثم صار يقارن بين اليهودية والزردشتية والبرهمية والبوذية والنصرانية والاسلام. وفرغ نفسه مدة لدرس التصوف وعاد منه أيضاً غير مقتنع. ثم عاد إلى دراسة الاسلام بصورة مفصلة فاستماله وشعر بصحته وأسلم. وهو يبني رضاءه بالاسلام على أبواب ثلاثة:

١ ـ صحة أخبار الاسلام وأنه الدين التاريخي الوحيد.
٢ ـ موافقته للعقل.
٣ ـ أنه عملي (لا خيالي).

٣٠ ـ كروب الشاب المسيحي الأرمني يعتنق الدين الاسلامي رغبة في الحجاب الذي يأمر به الدين الاسلامي وتحريمه التبرج والسفور ويدعى بـ(علي اسلامي)، وهو مسلم جعفري يتابع مذهب أهل البيت (ع).

٣١ ـ (عبد الله وايسر) أحد علماء اللاهوت يعتنق الدين الاسلامي الحنيف وذلك أن: في روما كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعدت (عبد الله

وايسر) للتبشير في الهند وزودته بالدراهم الكافية، وأدخلته أحد المستشفيات الكاثوليكية ليتعلم صناعة التمريض لتساعده للتأثير في الهنود.

وقدم المستشفى مسلم هندي واحتكَّ بعبد الله فتعرف عبد الله على مبادىء الاسلام وكان قد درس أيضاً شيئاً عن الاسلام، فعبد الله، قبل أن يسافر إلى الهند للقيام بمهمة التبشير، عدل عما أنيط به ونطق بالشهادتين، وصار يحاضر عن الدين الاسلامي وندد بالكنيسة واستعبادها للعقول وسيطرتها على حرية التفكير.

٣٢ ـ عليجاه محمد البطل المتحرر والملون الأمريكي يعتنق الدين الاسلامي ويتبعه في ذلك (٢٥٠٠٠٠) من الملونين الأمريكيين في أمريكا حالياً. وقد بنيت نتيجة جهوده المشكورة مساجد جميلة على أساليب حديثة في حارات الملونين يجتمعون فيها كل يوم لأداء فريضة الظهر جماعة، وان أصوات المؤذنين بكلمة التكبير والتوحيد من مآذن تلك المساجد كل صباح ومساء لتدوي في أرجاء مدينة نيويورك. وتوسعت دائرة نشاط (عليجاه محمد) إلى ٢٥ بلدة أمريكية منها: ديترويت، شيكاغو، بوستون، فيلادلفيا، سان فرانسيسكو، لوس أنجلس، كليولند، رايتون، اتلانتا، نيويورك.

٣٣ ـ بقيا الشاب المسيحي الأرمني يعتنق الدين الاسلامي عام ١٣٨٠ هجرية. أنه يقول قد قرأت في انجيل يوحنا المطبوع في لغتنا الأرمنية قولاً عن عيسى أن نبياً يأتي من بعدي هو خاتم الأنبياء.

ويقول: أن الأرامنة بعد أن يموت الميت منهم يزين بملابس عرسه وبالحلي والحلل ويوضع في صندوق ويدفن في الأرض وبعد الفراغ من الدفن يشربون الخمر على قبره ويطربون، ثم يتوجهون إلى الكنيسة للمغازلة ولأعمال تخل بالشرف. وكان لهذه الأعمال أثر سيىء في نفسي، فاتفق أني حضرت تشييع جنازة أحد المسلمين وشاهدت صنع المسلمين عند دفن موتاهم وما يقومون به من أعمال بعد الدفن، فرأيت الحقيقة في الاسلام، فذهبت إلى العلامة الشيخ مصطفى الآملي في (دزفول) وأسلمت على يديه وسماني (محمداً) ولقبني بـ (إسلامي).

وبعد أن أسلم محمد تبرع جماعة من المسلمين بمال ليتجر به ولكنه أبى وعاش بكد يمينه وقال: لم يكن اسلامي طمعاً في المال.

وقد أراد أحد العلماء اختباره قبل أن يعلن اسلامه، فقال له: إن في الاسلام فقراً وعسراً وضيقاً، فما بالك تسلم، فأجاب: أني أسلم لأني وجدت الحقيقة، غير مبالٍ لما يصيبني من ضيق وعسر.

٣٤ ـ صاحبة السمو الأميرة الانكليزية (ديانخ مود) أميرة سرواك تعتنق الدين الاسلامي وتقول: لقد دهشت عندما رأيت ما في الدين الاسلامي من طهارة وحكمة ويُسر. وقد شعرت بأن قلبي كله وروحي جميعاً مغموران بهذه الهداية التي هي في غاية الملائمة للبشر والعقول. وقد قالت بعد إسلامها: إني عازمة على إصدار مجلة باسم (الأخبار الاسلامية) في باريس. وذاهبة إلى ألمانيا وغيرها للعمل على نشر الاسلام.

٣٥ ـ (لدي أولين كابولد) إحدى المثقفات البريطانيات تعتنق الدين الاسلامي وتقول: أني لست أتذكر اللحظة الخطيرة التي هبطت على حقيقة الاسلام فيها، بل وليس في وسعي تعيينها، فكل ما أدري هو أني لم أزل مسلمة ولا أزال. وليس يثير العجب هذا الأمر عندما يتذكر الانسان أن الاسلام هو دين الفطرة الموافق للطبيعة البشرية ولحياتها الاجتماعية، فإذا ترك الطفل ونفسه ينشأ على هذا الدين الفطري ألبتة، كما يقول أحد علماء أوروبا: (الاسلام دين الحس المشترك البشري): يعني الفطرة البشرية.

وتقول: «فكلما قرأت وكلما توصلت إليه في تحصيلاتي العلمية واختبرت بها الأمور ثبت لدي أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي يمكن للبشرية العمل وفق منهاجه القويم. وهو الدين الوحيد الذي يحل عقد المسائل الاجتماعية ويذهب بكل مشكلة أبهم على العالم طريق حلها وهو الذي يجلب للانسانية السلام العام والسعادة الأبدية.

٣٦ ـ فاطمة ج. ب. كاترجي الهولندية تعتنق الدين الاسلامي سنة ١٩٥٥ م وتقول: يتجلى الاسلام حلاً لعقد الحياة المعنوية والمشاكل الاجتماعية

في عالمنا المتقطع الأشلاء: لا يقتصر الاسلام على النواحي الروحية والمعنوية فحسب، بل يعالج الجوانب المادية والطرق العلمية أيضاً.

وتقول: الاسلام يراود الروح البشرية مباشرة وله مقدرة ليوفر لنفوسنا المضطربة ذلك الاطمئنان والراحة اللائقة.

٣٧ ـ Mrs. Cecilia Connolly سيسليا (محمودة كونلي الاسترالية تعتنق الدين الاسلامي بعد دراسة وتحقيق وتقول: قبلت الاسلام لما وجدت نفسي مسلمة بطبعي حتى وقبل أن أعرف ذلك، فقد تخليت عن المسيحية أبان شبابي لعدة أسباب، منها:

أني كلما واجهت أحد الروحانيين المسيحيين وسألته عن مشكلة دينية سلبت راحتي وأخذت بأفكاري كلها أو عن تعاليم الكنيسة الثقيلة كانت الاجابة على أسئلتي من طراز واحد، وعلى نسق مطرد في الجميع وهي لا ينبغي لكم السؤال والتجسس حول تعاليم الكنيسة، بل الواجب عليكم هو الايمان الخالص.

٣٨ ـ وقد اهتدت إلى الاسلام في هذه الأيام: عزيزة روشه لرون الفرنسية وهي عضوة جمعية الأخوة الاسلامية في فرنسا وهي تخدم في هذه الجمعية من غير تعب ولا ضجر. وقد أنشأت مجلة أسمتها: (النظر إلى الشرق) الغاية منها تفهيم الفرنسيين الاسلام.

٣٩ ـ البروفسور: القسيس داود بنيامين (عبد الأحد داود)، يعتنق الدين الاسلامي، وهو يقول: لست أعلل اسلامي بسبب سوى العناية الإلهية وأراه لا يرتبط بشيء غير الهداية من الذات الأحدية فقط. فلولا العناية الالهية لكانت المساعي والجهود وجميع المعارف والعلوم للوصول إلى الحق والحقيقة أقرب إلى الضلالة والعمى.

٤٠ ـ الدكتور دي كابريو الايطالي يعتنق الدين الاسلامي وهو اليوم رئيس مجلس ادارة المركز الثقافي الاسلامي في (سان فرانسيسكو) وقد سئل عن سبب اعتناقه الاسلام، فأجاب: أنه التقى بزوجته في مدينة (سان فرانسيسكو) فأعجب بمسلكها في الحياة والأسلوب التي تنتهجه في حياتها، فلما سألها عن

سبب ذلك، قالت: أنها مسلمة ومن أبوين روسيين، وقد ولدت في اليابان ثم هاجرت مع أهلها إلى أمريكا وشرحت له التعاليم الاسلامية فوجدها ـ على حد قوله ـ هي التعـاليم التي كان يتصـور أنها يجب أن تكون عليـه المعتقدات البسيطة المعقولة لكل البشر، وعلى ذلك اعتنق الاسلام. ولم يجد شريكة لحياته أفضل من تلك السيدة المسلمة التي يمكن أن تعينه على أن يحيا حياة اسلامية صحيحة.

٤١ ـ الدكتور خالد شيلدريك أسلم عام ١٩٠٣م ومنذ اعتناقه الدين الاسلامي قام بواجبه في بث الدعاية الاسلامية في انكلترة وفرنسا وكندا.

وهو يقول: إن المبشرين في الصين بذلوا أموالهم وأنفسهم ونساءهم لتبليغ المسيحية في الأيام الماضية، ولكن لم يتبعهم سوى عدد قليل جداً أزاء الجماهير التي تعتنق الاسلام. وأما اتباع المسيحية فلرغبة في المال، أو الوظائف أو النساء اللاتي يردن على المبشرين من حين لآخر.

والدكتور خالد منهمك اليوم بتصنيف الكتب والمقالات الاسلامية على طريقة مذهب أهل البيت عليهم السلام في جرائد الهند الانكليزية وهو أول مسلم انكليزي استجاب إلى العقائد الشيعية الامامية الأثنى عشرية. وهو خطيب بارع يصلي بالانكليز وغيرهم كل الأوقات المفروضة.

٤٢ ـ الدكتور توماس بالنتين أيبزتنك الأمريكي يعتنق الدين الاسلامي وقد أعجبه ما في الاسلام وتعاليمه السمحة من عدل واخاء ومساواة وقد أصدر عدة مجلات في باكستان وجنوب أفريقيا.

٤٣ ـ المحامي: زكي عريبي رئيس الجالية اليهودية في مصر يعتنق الدين الاسلامي الحنيف وهو من أشهر المحامين في مصر.

يقول: اني نظرت في رسالة هذا الرجل العظيم (محمد بن عبد الله ص) الذي لم تؤهله للرسالة ثقافة ولا علم ولا دين، نشأ كما ينشأ الناس، وعاش عيشتهم وحيا حياتهم، ثم إذا به قد أوحي اليه بهذا الكتاب الخالد الآتي من وراء الحجب، وهو مليء بأخبار الأولين.

«وأعجبني من هذا الدين أنه جاء مصدقاً لما قبله، فالمؤمن به من أهل

الكتاب لا يقتلع مع دينه اقتلاعاً ولا ينخلع عنه انخلاعاً. فان كان يهودياً وجد في القرآن تمجيد موسى ودين موسى الحقيقي، بل وتمجيد أبناء اسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين في وقت من الأوقات. وان كان مسيحياً وجد في القرآن تمجيد المسيح بن مريم وتمجيد أمه. بل وتمجيد آل عمران جميعاً بل واعترف بهم الاسلام كأخوة مكرمين حيث يستأمنون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وأني لأحب أن يدلني الناس على دين آخر فيه هذا التسامح وفيه هذا البعد عن النصب».

«ووجدته دين سياسة رشيدة، لا يعلو فيها الحاكم ولا يذل المحكوم».

٤٤ ـ المهندس: البرهمي الروحي الهندي: كل ماني مسرا: (كل محمد) يعتنق الدين الاسلامي الحنيف بعد مناقشات طويلة وقد حسن اسلامه بالتزامه بالعبادات كلها وكتب كتباً مهمة في الاسلام.

٤٥ ـ (يوسف. م. بينيوا ليونارد تشيروا) يعتنق الدين الاسلامي فيقول: قلما يوجد كتاب أو نصادف مقالاً على صحيفة يبحث عن الاسلام وعن القرآن المقدس. إلى أن سافرت إلى بايراBeira وفي إحدى الليالي جاء مدير الفندق وأصحبني وسائر المسلمين إلى مسجد حديث البنيان لأداء فريضة الصلاة، والتمست منهم قرآناً. وفي الغد أعطوني قرآناً مترجماً بالانكليزية بقلم (مارما دوك بيكتال) وشعرت بعد ذلك أني بحاجة إلى من يكلمني حول الدين الاسلامي، إلى أن ذهبت إلى (لندن) وحضرت ساحة (هايد) عند دكة الجمعية الاسلامية البريطانية لاستمع إلى محاضراتهم، وهناك تعرفت حقاً إلى كثير من حقائق الاسلام. فاعتنقت الاسلام وعلمت أن الدين الاسلامي هي الرابطة الكبرى العالمية لجميع أبناء البشر وباستطاعة كل أحد أن يفهمه عملياً وهو أنفع دين عرفته البشرية حتى اليوم.

٤٦ ـ ذو الفقار مسيح (ذو الفقار علي) المسيحي يعتنق الدين الاسلامي فيقول: اعتنقت الدين الاسلامي لما وجدته ديناً كاملاً حافلاً بجميع ما يحتاج اليه البشر في حياته الدنيوية والدينية، وليس هو يختص بعصر دون عصر أو جيل دون جيل، وان النجاة في الدارين لا تحصل إلا بالتمسك بدين الاسلام.

٤٧ ـ رابرت والديا (حسين اسلام دوست) يعتنق الدين الاسلامي وهو يقول: كنت من سكنة (رضائية) فاتفق بيني وبين جماعة من أهلها مشاجرة في اليوم الثامن عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٨١هـ .

وكان سبب ذلك أنهم أساؤا الأدب إلى نبينا عيسى (ع)[١]. وكنت أقابلهم متحاملاً عليهم، وأوشكت أن أسيء إلى مقدسات الاسلام، غير أني أحجمت، إلى أن جن الليل وأردت المنام، فعمدت إلى إطفاء المصباح، وإذا بالغرفة أضاءت من جديد، فهرعت إلى مصدر الضوء، وإذا بإنسان على زي عربي، واضعاً يده على قائم سيفه وسط الغرفة، وتوجه إلي وقال: نِعم ما صنعت اليوم، أمسكت عن النزاع وعن الاهانة بمقدسات المسلمين. وها أني أعرض عليك ثلاثة أمور، لا بد لك من امتثالها. قلت: سمعاً وطاعة. قال: ليس هكذا ولا بد أن تحلف بموت أمِّك، فحلفت له بذلك. قال:

عليك أولا أن تتشرف بالذهاب إلى قم وتُسلم هناك، وتمكث عشرة أيام، ثم تزور قبر الامام الرضا عليه السلام. وتمكث أيضاً هناك عشرة أيام وبعدها تذهب إلى الأعتاب المقدسة، كربلاء والنجف وسائر الأئمة (ع) وسأكون معك في حرم الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام وكان هذا آخر كلامه وغاب عني[٢].

وقد قام هذا الشاب بما أمر به وأسلم وحسن إسلامه.

٤٨ ـ ١٢٠٠ ـ من الهندوسيين يعتنقون الدين الاسلامي، وقد ألف أحد الأساتذة البلجيكيين كتاباً عن الديانة الاسلامية جاء فيه: أن انتشار هذه الديانة في ازدياد، خصوصاً في جهات آسيا، وان الاسلام الذي كان الأوربيون يتوهمونه خطراً كبيراً ينتشر انتشاراً سريعاً في الشرق الأقصى

---

(١) عيسى عليه السلام من أنبياء أولي العزم، على كل مسلم تقديسه وتبجيله ومن اعتقد سوء فيه (ع) ونال من كرامته فقد خرج من زمرة المسلمين.

(٢) صار كثير من رجالات الغرب يؤمنون بالغيب بتجسد الأرواح وبعوالم ما بعد الموت وقد ألفت في ذلك مئات الكتب، ومنها: على حافة العالم الأثيري، لمؤلفه: J. Arthur Findlay وكتاب «الانسان روح لا جسد»، وكتاب: العالم غير المنظور.

وخصوصاً في الصين. ففي الصين الآن عشرون مليوناً من المسلمين وفي الهند والسند يزداد عدد الداخلين في الاسلام ازدياداً مرموقاً.

وذكرت جريدة النهضة الغراء نقلاً عن جريدة (البلاغ السماوي) التي تصدر بالانكليزية في بومباي ما يأتي:

لقد اتسع نطاق الاسلام في البلاد الأمريكية اتساعاً عظيماً وانتشر المبشرون الاسلاميون في طول البلاد وعرضها، فكانوا يتلقون من أهل البلاد اقبالاً عظيماً وتشجيعاً منقطع النظير.

وقد تأسست في (ريودوجانيرو) عاصمة البرازيل جمعية اسلامية كبرى همها إلقاء المحاضرات وبث الدعوة الاسلامية، ولا يمضي أسبوع إلا ويعتنق فيه أفاضل القوم هناك الدين الاسلامي، وقد بلغ عدد المسلمين في شمال البرازيل خمسين ألفاً كلهم من ذوي المقامات العالية.

٤٩ ـ علي أكبر (عباسي) البهائي يعتنق الدين الاسلامي ويقول: «كان السبب الأساسي لنزوعي إلى الاسلام هو أن البهائية لا تراعي جانب العفاف رأساً، وليس لاحترام الأعراض والنواميس وحفظها مفهوم ولا معنى في لغة هذا المبدأ. فكنت أتحرج وأتألم على أثر ذلك كثيراً. ولم يكن ضميري ليقبل حسب الفطرة الانسانية التغاضي عن تلكم التجاوزات العرضية في منتدياتنا البهائية. فكان التطاول على عرضي أو عرض غيري من زملائي البهائيين أمراً لم أكن لأتحمله بتاتاً. وكنت أفكر دائماً: (لو كنت انساناً فمن واجبي التحفظ على عرضي وناموسي). فلأجل هذا وغيره من الأمور الروحية اندفعت نحو التحقيق حول الدين الاسلامي النزيه. فرأيت العفاف والتقوى ونزاهة الجانب والطهارة، وبكلمة جامعة، رأيت الفضيلة الانسانية بجميع معنى الكلمة وبواقعها الحقيقي متوفرة في الاسلام.

٥٠ ـ حبيب الله (إغماضي) البهائي[1] يعتنق الدين الاسلامي، ويقول:

---

(١) ومن جملة ما جاء من صفات الله تعالى في كتاب (البيان) لزعيم البابية: «بسم الله السلط ذي السلطيات! بسم الله السلط ذي المستلطهات! بسم الله السلط ذي

«على أثر جهلي قضيت ثلاثين عاماً مغفلاً ملتزماً للفرقة الكاذبة ذات المبدأ المزيَّف الذي يعتنقه أناس غير مقيدين بشيء ولا ثابتين على عقيدة. شعارهم التزوير والتدليس. أناس تعمل فيهم أيادي الأجانب منذ مائة عام في بلادنا الايرانية».

«كلنا يعلم أن منطقة (عشق آباد) في البلاد الروسية غرست شجرة خبيثة، كانت من ثمرتها تلك الجناية الفادحة التي كونت أمثال (الباب و البهاء) عملاء المستعمر الغاشم. فاستطاعوا على أيدي جماعة استهوتهم اللذائذ الوقتية لا يعرفون للضمير معنى، ولا يراقبون الله في شيء، أن يخدعوا شرذمة من الجهال».

«كان من سوء الحظ ان كنت أحد هؤلاء المغترين لمدة ٣٠ عاماً كما ذكرت، شاهدت خلالها فجائع وفضائح بعيدة عن الشرف والناموس. ولكن جهلي المطبق، وعدم اتصالي بالطبقات المثقفة جعلاني لا أشعر بفضاعة الأمر. ولم أكن أعرف عن الاسلام سوى مجموعة مشوهة، كان زملائي البهائيين وأقطابهم يعرفونها الينا كما يريدون».

* * *

وهكذا نرى أن كل من تشرف بدين الاسلام علم أنه الدين الحق، أنزله الله رحمة للعالمين، وهو آخر الأديان، لم تتسرب إليه يد البشرية بتحريف أو تغيير، وأن محمداً (ص) خاتم النبيين وسيد الرسل أجمعين، وأن إصلاح هذا العالم لا يتم إلا بجعل الاسلام ديناً عالمياً خالداً، ﴿وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[1]. ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾[2].

= التسالطيات! بسم الله السلط ذي المسلوطيات!؟... وأيضاً في مكان آخر: بسم الله الأقدم القدام القادم القدمان المتقدم القيدوم المقادم ذي المقدامين ذي القدمات ذي الأقدام ذي القدومين، ذي المقاديم المستقدم، المستقدمان ذو القداديم... الخ!!؟.

(١) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٢) سورة سبأ: ٢٨.

فعلى المسلمين في أنحاء العالم أن يقوموا بتضحيات غالية لنشر الاسلام وتفهيمه وتطبيقه، فانه دين الفطرة، والفطرة السليمة هي التي تجلب الناس إلى قبوله وتطبيقه. فقد برز في أمريكا، التي ترصد أكبر قواها لمحاربة الاسلام في آسيا وأفريقيا، حركة اسلامية شابة تدعو إلى إقامة حكم اسلامي، على الرغم مما يسلطونه عليها من الدعاية للتشويه والتنفير. كل ذلك لأن الاسلام دين الفطرة ودين الله في أرضه في مستقبل قريب. ولذلك نقرأ في كتاب La Conquete du monde musulman [1]: «ينبغي للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة. إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء، وان المرأة المسلمة المتعلمة هي أبعد أفراد المجتمع عن تعاليم الدين، وأقدر أفراد المجتمع على جرِّ المجتمع كله بعيداً عن الدين[2].

إلا أن بالرغم من كل هذه المحاولات، إن الفطرة هي الغالبة وهي القوة القاهرة المسيطرة على النفوس، وإن قليلاً من التضحيات في أوساط أفريقيا وأمريكا واليابان سوف يجعل الدين الاسلامي ديناً عالمياً شاملاً، فلا ترى في أية بقعة من بقاع الأرض إلا من يقول: لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله.

﴿ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[3].
﴿أن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[4].

---

(١) تسخير العالم الاسلامي.
(٢) جاهلية القرن العشرين: ٣٣٣. محمد قطب.
(٣) سورة محمد: ٧.
(٤) سورة آل عمران: ١٦٠.

أثر الحاجات في تكامل النفس

إن الله تبارك وتعالى قد أودع الكمال في كل بقعة من بقاع الأرض وفي كل جزء وجزيء وذرة، فما من شيء مادي إلا وترى فيه النظم والقوانين المحيرة للألباب وخواص مدهشة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾(١). ودساتير رياضية تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض، قد عثر على جزء ضئيل منها هذا الانسان بلطف منه تعالى. ولكن الانسان(٢) لظلمات في نفسه (بما اجترحت يداه) لم يؤدِّ ما عليه من واجب الشكر تجاه نعمه تعالى، فصار يتخبط تخبط عشواء في دياجير الظلم والفساد: ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

وإن الانسان كموجود خلقه الله تعالى لا بد له أن يتبع ما سنَّ له من مراحل تكاملية، كي يحقق الكمال الانساني، هذا الكمال الذي سنه الله تعالى على لسان أنبيائه عليهم السلام. كل ذلك، لئلا يشذ هذا الانسان عن بقية الموجودات في البلوغ إلى أقصى مراتب الكمال كل بحسبه ومرتبته.

وواضح أن الله تعالى وهو الكامل على الاطلاق لا يصدر منه (لا يخلق) إلا الكمال. فـ (الكمال) شعار هذا الوجود بأمر منه تعالى.

ومن جملة أسباب الكمال الانساني: حاجاته المتنوعة وعرض هذه الحاجات على الله المتعال إذ كلما زادت العلاقة بين العبد والمعبود كلما تكامل الفرد وتقرب إليه تعالى. ولا يراد بهذه العلاقة إلا الزلفى إذ لا سنخية بين

---

(١) سورة الملك: ٣.

(٢) ﴿إن الانسان لربه لكنود، وأنه على ذلك لشهيد، وأنه لحب الخير لشديد﴾: (سورة العاديات: ٦ - ٨).

الخالق والمخلوق خلافاً لما ذهب إليه بعض الحكماء! . ولا بد للانسان في حياته الدنيوية من أمراض وشدائد وغايات مشروعة وآمال طيبة يريد تحقيقها.

فإلى من يذهب لتحقيق آماله المشرعة أو لدفع مرضه العضال يقول زين العابدين عليه السلام[1]: «من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك ولا الذي أساء واجترأ عليك ولم يرضك خرج عن قدرتك».

فلا بد لهذا الانسان أن يتوسل إلى الله المتعال الذي بيده مفاتيح الأمور كلها وذلك بعد قطعه المراحل التي أمرنا الله تعالى بها.

فالمريض يراجع الطبيب. ولكن الطبيب قد لا ينجح في معالجته ويطول به المرض أو يشتبه في تشخيص المرض. فالله هو الذي يهيىء لهذا الانسان أسباب الشفاء من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب. وقد يبرأ الشخص من مرض عضال مستعصٍ بمجرد الدعاء إذا كان من المقربين المخلصين[2].

كما أن الانسان قد يقوم بفعاليات خطيرة في سبيل تحقيق غاية مشروعة، ولكنه يخفق في جميعها فلا ينجح فلا بد له من التوسل إلى الله والخشوع

---

(١) من دعاء يرويه أبو حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام.

(٢) ننقل هذه الحادثة تأييداً لما قلنا ومثلها حوادث جمة من كتاب: «بين الله والانسان» (ص: ١٠٢) من مؤلفات العلامة الشيخ محمد جواد مغنية:
تقع بلدة حبوش في جنوب لبنان ـ جبل عامل ـ قرب النبطية، ويوجد فيها الآن رجل اسمه حسن طالب نعمة، تشاجر مع آخر، فطعنه هذا بسكين غاصت بكاملها في أمعائه، ومزقها تمزيقاً، وخرج ما فيها، وأشرف حسن على الهلاك، فعرضه أهله على عدد من الأطباء، منهم الجراح المعروف نبيه الشاب الموجود حالياً في صيدا، فأجمع الأطباء كلمة واحدة على أنه ميت بعد لحظات لا محالة، وأن التطبيب لا يجدي شيئاً، وقبل أن يلفظ النفس الأخير أصابته غفوة رأى فيها الحسين بن علي سيد الشهداء (ع)، فاستغاث به، فوضع الحسين (ع) يده الشريفة على مكان الجرح فعاد كل شيء صحيحاً كما كان، وقام الرجل من ساعته معافى كأن لم يكن شيء وهو الآن حي يرزق، ويعرف ذلك جميع أهل حبوش، البالغ عددهم أكثر من ٣٠٠٠ نسمة.

والخضوع بين يديه والتضرع والبكاء والدعاء والقيام بصلوات مستحبة كي يمنّ الله عليه بقضاء حاجته المشروعة.

فالحاجات عامل قوي في التوجه إلى الحق المتعال، إذا كان الفرد ممن يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ويؤمن أن التوفيق منحصر به تعالى، مع العلم أن على الانسان أن يطرق الأبواب المشروعة التي بها يمكن أن يتحقق ما يريد على شرط المشروعية.

* * *

ولا مراء أن الله تبارك وتعالى موجود في كل مكان وفي كل آن وحين ولا يخلو منه مكان. فللعبد أن يسأل حاجته من الله تعالى في أي مكان شاء وفي أي وقت أراد. فالله تعالى يستجيب دعاءه ويقضي حاجته عاجلاً أو آجلاً حسب حكمته تعالى إن كان منقطعاً إليه تعالى غاية الانقطاع، متوسلاً إليه توسلاً ملؤه الاخلاص.

وللأوقات أثر في استجابة الدعاء، فأبواب السماء مفتحة ليالي الجمعة من أول الليل إلى طلوع الفجر الصادق، ويستجاب الدعاء فيها من أول الليل إلى طلوع الفجر وأما في بقية الليالي ففي الثلث الأخير منها يستجاب الدعاء، لأن أبواب السماء مفتحة بلطفٍ منه تعالى في الثلث الأخير ويستجاب الدعاء عند الزوال على ما جاء في بعض الروايات. وهناك أوقات أخرى لا حاجة لذكرها فالأوقات كلها صالحة لاستجابة الدعاء، إذا أخلص العبد في دعائه واستجمع شروط الاستجابة وكان موضوع الدعاء موضوعاً مشروعاً يرتضيه الله تعالى ولا يخالف أوامر الشرع ولا يؤدي إلى سوء العاقبة والضلال. ﴿ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[1].

كما أن الله تعالى لا يتوقف عن عمل ما يريد ولا يتردد. فمشيئته تتحقق

---

(١) سورة سبأ: ٣، لا يعزب: لا يغيب ولا يخفى.

في كل آن: ﴿يسأله من في السماوات والأرض، كل يوم هو في شأن﴾[1] ولا يشغله شأن عن شأن.

كذلك يستجاب الدعاء في كل بقعة من بقاع الأرض والسماء، إلا أن لبعض الأماكن أثرها في استجابة الدعاء. منها المساجد، والعتبات المقدسة: ﴿في بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[2].

* * *

وها أني أذكر هنا بايجاز بعض الأعمال والأدعية التي لها أثرها الفعال في قضاء الحاجة باذنه تعالى.

١ ـ المواظبة على صلاة جعفر الطيار (رض)، ولا بأس بذكرها ها هنا مع كونها مسطورة في الجزء الثالث من هذا الكتاب:

هي أربع ركعات كل ركعتين بسلام. يقول في كل ركعة بعد قراءة السورة ١٥ مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر. ويقولها ١٠ مرات حال الركوع و١٠ مرات بعد الركوع حال القيام و١٠ مرات في السجدة الأولى و١٠ مرات بين السجدتين و١٠ مرات في السجدة الثانية و١٠ مرات بعد السجدة الثانية قبل القيام، فيكون مجموع التسبيحات في كل ركعة ٧٥ مرة وفي الركعات الأربع ٣٠٠ مرة.

والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة «إذا زلزلت» وفي الركعة الثانية بعد الحمد سورة: «والعاديات» وفي الركعة الثالثة بعد الحمد سورة النصر: «إذا جاء نصر الله». وفي الركعة الرابعة بعد الحمد سورة الاخلاص: «قل هو الله أحد».

---

(١) سروة الرحمان: ٢٩.

(٢) سورة النور: ٣٦ ـ ٣٨.

وأن يقول في السجدة الأخيرة بعد التسبيحات: «سبحان مَن لبس العز والوقار، سبحان من تعطَّف بالمجد وتكرم به، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان من أحصى كل شيء علمه، سبحان ذي المن والنعم، سبحان ذي القدرة والكرم، اللهم أني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة التي تمت صدقاً وعدلاً صلِّ على محمد وأهل بيته وافعل بي كذا وكذا، ويذكر حاجته.

وروى الشيخ في المصباح والسيد في جمال الأسبوع عن المفضل بن عمر قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام صلى صلاة جعفر بن أبي طالب (رض) ورفع يديه ودعا بهذا الدعاء: يا ربِّ، يا رب، حتى انقطع النفس. يا رباه يا رباه حتى انقطع النفس ربِّ ربِّ، حتى انقطع النفس، يا الله يا الله، حتى انقطع النفس، يا حي يا حي، حتى انقطع النفس،يا رحيم يا رحيم، حتى انقطع النفس، يا رحمن يا رحمن سبع مرات، يا أرحم الراحمين: سبع مرات. ثم قال:

«أللهم أني أفتتح القول بحمدك، وأنطق بالثناء عليك، وأمجدك ولا غاية لمدحك، وأثني عليك ومن يبلغ غاية ثنائك وأمد مجدك، وأني لخليقتك كنهُ معرفة مجدك وأي زمنٍ لم تكن ممدوحاً بفضلك، موصوفاً بمجدك، عوَّاداً على المذنبين بحلمك، تخلَّف سكان أرضك عن طاعتك فكنت عليهم عطوفاً بجودك، جواداً بفضلك عواداً بكرمك، يا لا إله إلا أنت المنان، ذو الجلال والاكرام». وقال يا مفضل، إذا كانت لك حاجة مهمة، فصلِّ هذه الصلاة وادع بهذا الدعاء وسل حاجتك يقضيها الله إن شاء الله تعالى.

٢ ـ المواظبة على صلاة يوم الخميس وهي أربع ركعات بسلامين، في الركعة الأولى بعد الحمد ١١ مرة سورة الاخلاص: «قل هو الله أحد».

وفي الركعة الثانية بعد الحمد ٢١ مرة سورة الاخلاص وفي الركعة الثالثة بعد الحمد ٣١ مرة سورة الاخلاص وفي الركعة الرابعة بعد الحمد ٤١ مرة سورة الاخلاص.

وبعد السلام يقرأ سورة الاخلاص ٥١ مرة وبعدها يقول: أللهم صلِّ

على محمد وآل محمد ٥١ مرة ثم يسجد ويقول في سجوده: مائة مرة ربٌ.. ثم يسأل حاجته.

٣ ـ المواظبة على صلاة الليل والدعاء بعدها لقضاء الحاجة لا سيما إذا دمعت عيناك حال توسلك وتضرعك.

٤ ـ وهناك صلاة خاصة لرسول الله (ص)، وصلاة خاصة لعلي عليه السلام، وكذلك لكل من الأئمة عليهم السلام، لها آثارها في قضاء الحوائج مسطورة في كتب الأدعية.

٥ ـ وقد ذكر الكفعمي في (البلد الأمين) دعاءاً يرويه مقاتل عن الامام زين العابدين عليه السلام قائلاً: من قرأ هذا الدعاء مائة مرة ولم تقض حاجته فليلعني: (أي فليلعن الراوي).

«إلهي كيف أدعوك وأنا أنا، وكيف أقطع رجائي منك وأنت أنت. إلهي إذا لم أسألك فتعطيني فمن ذا الذي أسأله فيعطيني إلهي إذا لم أدعُك فتستجيب لي فمن ذا الذي أدعوه فيستجيب لي. إلهي إذا لم أتضرع اليك فترحمني فمن ذا الذي أتضرع اليه فيرحمني، إلهي، فكما فلقت البحر لموسى عليه السلام ونجيته أسألك أن تصلي على محمد وآله وأن تنجيني مما أنا فيه وتفرج عني فرجاً عاجلاً غير آجل بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين».

وهناك أدعية كثيرة وصلوات متنوعة مذكورة في كتب الأدعية، تفيد في قضاء الحوائج باذنه تعالى.

مع العلم أن بعض الحاجات قد لا تقضى فيؤجر الانسان أضعاف ذلك في الآخرة، ويتمنى عند ذاك: ليت حاجاته كلها لم تقضَ في الدنيا لينال مراتب عالية في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

فعن أبي عبد الله عليه السلام كما في الكافي[1]. قال: إن المؤمن ليدعو الله عز وجل في حاجته، فيقول الله عز وجل: أخروا إجابته شوقاً إلى صوته

---

(١) كتاب الدعاء، الجزء الثاني من أصول الكافي، ص: ٤٩٠، طبع دار الكتب الاسلامية.

ودعائه، فإذا كان يوم القيامة، قال الله عز وجل: عبدي، دعوتني، فأخرت إجابتك، وثوابك كذا وكذا، ودعوتني في كذا وكذا فأخرت إجابتك وثوابك كذا وكذا. قال: فيتمنى المؤمن أنه لم يستجب له دعوة في الدنيا مما يرى من حسن الثواب».

وفي خبر عن أبي عبد الله عليه السلام[1]. قال: لا يزال المؤمن بخير ورجاء رحمة من الله عز وجل ما لم يستعجل فيقنط ويترك الدعاء، قلت له: كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الاجابة».

ومعنى هذا الحديث: إن الله تعالى لمصلحة هناك قد يؤخر الاستجابة، أو لا يستجيب دعاء العبد ليعطيه أضعاف ذلك في الآخرة. وهو على التقديرين في خير لاشتغاله بالدعاء الذي هو من أعظم العبادات. فقد جاء في الحديث: «الدعاء مخ العبادة». فهو والحالة هذه في أشرف الحالات.

ومن المعلوم، كما جاء في منطوق حديث، كان بين قول الله عز وجل ﴿قد أجيب دعوتكما﴾[2] وبين أخذ فرعون أربعون سنة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إن العبد ليدعو، فيقول الله عز وجل للملكين: قد استجبت له، ولكن: أحبسوه بحاجته، فأني أحب أن أسمع صوته، وان العبد ليدعو، فيقول الله تبارك وتعالى: عجلوا له حاجته، فأني أبغض صوته!»[3].

* * *

لنستمع إلى كلام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام حين يدعو ربه؛ ففيه أدب الدعاء الرفيع:

«إلهي، يا منتهى مطلب الحاجات، ويا من عنده نيل الطلبات، ويا من لا يبيع نعمه بالأثمان، ويا من يستغني به ولا يستغنى عنه، ويا من يرغب اليه

---

(١) نفس المصدر: ص ٤٩٠.

(٢) سورة يونس: ٨٩.

(٣) أصول الكافي ج: ٢، ص: ٤٨٩.

ولا يرغب عنه، أنت أهل الغنى عن خلقك، وهم أهل الفقر اليك، فمن حاول سد خلته من عندك، ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظانها وأتى طلبته في وجهها، ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك، فقد تعرض للحرمان واستحق من عندك فوت الاحسان».

ويقول زين العابدين عليه السلام في مقام الحاجة في موضع آخر:

«أللهم ولي اليك حاجة، قد قصَّر عنها جهدي، وتقطعت دونها حيَلي، وسوَّلت نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجه اليك، ولا يستغني في طلباته عنك، وهي زلَّة من الخاطئين وعثرة من عثرات المذنبين، ثم انتبهت بتذكيرك لي من غفلتي، وقلت سبحان ربي، كيف يسأل محتاج محتاجاً، وأنى يرغب مُعدِم إلى معدم، فقصدتك يا الهي بالرغبة، وأوفدت عليك رجائي بالثقة بك، وعلمت أن كثير ما أسألك يسير في وُجدِك، وأن كرمك لا يضيق عن سؤال أحد، وأن يدك بالعطايا أعلى من كل يد».

فعلى الانسان أن ينغمر في حبه الله تعالى وأن يلتذ بالدعاء حين طلبه حاجة من الله تعالى ويزداد في الطلب والدعاء، فالله تعالى يحب من العبد أن يكون ملحاً كثير الدعاء متضرعاً خاشعاً، فقد جاء في حديث: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه».

وقد يبلغ الحال بالانسان عند الدعاء، لا سيما جوف الليل، إذا نامت العيون وهدأت الأصوات، أنه يريد من الله تعالى أن يكون دائماً هكذا متوسلاً مناجياً، داعياً ربه بفنون الدعوات، منقطعاً اليه غاية الانقطاع، لما يرى في تلك الحالة من السمو والعروج، والفرح والسرور فوق حد الوصف والتعريف فهو في حالة الدعاء والتضرع أقرب ما يكون من الله تعالى،و هذا التقرب غاية الغايات وخاتمة السعادات. فتراه ينسى حاجته ويراها شيئاً تافهاً ازاء هذا الانغمار اللاهوتي والتسبيح الملكوتي، فلا يريد قضاء حاجته، ويفوِّض أمره إلى الله تعالى، لا سيما إذا كان متعلق الحاجة أمراً من أمور الدنيا الزائلة، فانه بدعائه هذا قد وجد الله الذي بيده كل الأمور ومعرفة غاية السعادات.

فقد قال الحسين عليه السلام، مخاطباً ربه: «ماذا وَجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟».

ويقول عليه السلام في موضع آخر في مقام طلب الحاجة: «أللهم حاجتي التي إن أعطيتنيها لم يضرني ما منعتني وان منعتنيها، لم ينفعني ما أعطيتني، أسألك فكاك رقبتي من النار». وقال أيضاً: «إلهي أن اختلاف تدبيرك وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء».

نعم، إن العبد في حالة الدعاء وانقطاعه إلى الله المتعال، يصبح وكأنه يرى الله تعالى علانيةً وكأنه يخاطبه وهو قريب منه، فيبلغ درجة الخشية والزلفى في هذا العالم اللاهوتي، فيكون مصداق كلام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، حيث يقول: «أللهم اجعلني أخشاك كأني أراك وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وبارك لي في قدرك حتى لا أتعجَّل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت».

ثم ان الانسان عندما يقوم بأعمال من أدعية وصلوات مع إلحاح وإصرار لقضاء حاجته، يبلغ بعد مدة إلى درجة من التقرب إلى الله تعالى بحيث يشعر في قرارة نفسه أن حاجته قد قضيت، وإن دعاءه قد استجيب. فيلهم اليه قضاء حاجته فترتاح نفسه ويطمئن قلبه. وقد اعترت لي هذه الحالة مراتٍ في حياتي، فما أحلى الحاجات المشروعة وما أحلى الحالات التي تعتري الانسان عند قيامه بأعمال تؤدي إلى قضاء حاجته من دعاء وصلوات وأعمال صالحات.

* * *

ثم إياك أن ترفع حاجتك إلى أحد من البشر من سلطان أو غيره، فأنه نوع شرك بالله تعالى، فقد قال الامام الصادق عليه السلام:

«إتقوا الله وصونوا أنفسكم بالورع والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى صاحب سلطان. واعلموا أن من خضع لصاحب سلطان، أو لمن يخالفه على دينه طلباً لما في يده من دنياه أخمده الله ومقته ووكله إليه، فان هو غلب على

شيء من دنياه فصار اليه منه شيء نزع الله البركة منه ولم يؤجره على شيء ينفقه في حج ولا عتق ولا بر».

وجاء في الحديث الشريف عن الرسول الأعظم: «أللهم أرزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد الكفاف والعفاف».

* * *

ولا مراء أن دين الاسلام دين اجتماعي يضمن للمسلم سعادة الدنيا والآخرة، ويأمر المسلمين أن يكونوا متضامنين متعاونين فيما بينهم، يعمل كل منهم لاسعاد الآخر ورفع حاجاته، وإن قضاء حوائج الناس ودفع المكروه عنهم لفي الدرجة الأولى في قائمة الأعمال الصالحة، وكم من آيات في القرآن الكريم تحثنا على العمل الصالح بعد الايمان بالله تعالى مباشرة:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم: والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1].

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[2].

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ .

﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[3].

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في عدة مواضع ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾[4]. ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[5].

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: ٢٥.

(٢) سورة البقرة: ٨٢.

(٣) سورة آل عمران: ٥٧.

(٤) سورة المائدة: ١٠.

(٥) سورة الفتح: ٢٩.

(٦) سورة المائدة: ٩٦.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجناتّ، لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير. ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى. ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسناً، ان الله غفور شكور﴾[1].

﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾[2].

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾[3].

﴿وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم، تحيتهم فيها سلام﴾[4].

﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾[5].

﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾[6].

إلى كثير من آيات أخرى لم نرد تدوينها كلها، تشير إلى أن الدين الاسلامي قد بني على دعامتين، هما: الايمان والعمل الصالح.

ويتجلى العمل الصالح: في قضاء حاجات المسلمين حتى وغير المسلمين بغية جلبهم إلى حظيرة الاسلام كما كان يعامل مع المؤلفة قلوبهم في صدر الاسلام، وفي إدخال السرور إلى قلوب المؤمنين وصلة الرحم وعيادة المرضى والعمل لأجل دفع الأسقام عنهم بشتى الوسائل إلى ما هنالك، فقد قال الامام أبو جعفر عليه السلام[7]:

«إن في ما ناجى الله عز وجل به عبده موسى عليه السلام قال: ان عباداً لي أبيحهم جنتي وأحكمهم فيها، قال: يا رب، ومن هؤلاء الذين تبيحهم

---

(١) سورة الشورى: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) سورة يونس: ٤.

(٣) سورة الرعد: ٣١.

(٤) سورة ابراهيم: ٢١.

(٥) سورة الشورى: ٢٦.

(٦) سورة طه: ٧٥.

(٧) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٨٨.

جنتّك وتحكمهم فيها، قال: من أدخل على مؤمن سروراً، ثم قال: ان مؤمناً كان في مملكة جبار فولع به[1]، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك، فأظلَّه وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت أوصى الله عز وجل إليه: وعزّتي وجلالي، لو كان لك في جنتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات بي مشركاً، ولكن يا نار هيديه[2] ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار، قلت من الجنة؟ قال: من حيث شاء الله.

وكذلك عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة وصرف القذى عنه حسنة وما عُبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن».

وفي أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: من أحب الأعمال إلى الله عز وجل: إدخال السرور على المؤمن وإشباع جوعته.

وقال رسول الله (ص): «من حمى مؤمناً من ظالم بعث الله له ملكاً يوم القيامة يحمي لحمه من نار جهنم». وقال (ص): «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقيل: كيف ننصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم». وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفس كربته وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يجعل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله». وقال عليه السلام: «من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كرب الآخرة وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد». وقال رسول الله (ص):

«من سر مؤمناً فقد سرني، ومن سرّني فقد سر الله».

وقال (ص): «إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على المؤمنين».

---

(١) ولع به: استخف به.

(٢) هيديه: أي أزعجيه وأفزعيه وحركيه وأصلحيه.

ولا شك أن من أوضح مصاديق إدخال السرور على المؤمن: قضاء حاجته ودفع الكرب عنه، لذلك حث الدين الاسلامي المؤمنين على القيام بقضاء حوائج الناس بما لا مزيد عليه. فعن أبي عبد الله عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة وخير من حُملان ألف فرس في سبيل الله»[1].

وفي الكافي أيضاً، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: «إن من عبادي من يتقرب إليَّ بالحسنة، فأحكمه في الجنة، فقال موسى: يا ربِّ، وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أو لم تقض».

وقد قال أبو عبد الله الحسين عليه الصلاة والسلام: «اعلموا: ان حوائج الناس اليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا النعم، فتحوَّل نقماً».

وقال أيضاً: «أيها الناس من جاد ساد، ومن بخل رذل، وان أجود الناس من أعطى من لا يرجوه». وقال أيضاً: «من نفَّس كربة مؤمن فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة، ومن أحسن أحسن الله اليه والله يحب المحسنين».

ويحدثنا الحسين بن محمد عن معلًّى بن محمد عن أحمد بن محمد بن عبد الله عن علي بن جعفر[2]، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فان قبل ذلك فقد وصله بولايتنا وهو موصول بولاية الله، وان ردَّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلط الله عليه شجاعاً من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو معذباً، فان عذر الطالب كان أسوأ حالاً».

وقال الصادق عليه السلام: «أيما رجل من شيعتنا أتاه رجل من اخوانه فاستعان به في حاجته فلم يعنه وهو يقدر إلا ابتلاه الله تعالى بأن يقضي حوائج عدة من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة».

وهكذا نرى أن الاسلام فرض على المؤمنين أن يقوموا بقضاء حاجات

---

(1) أصول الكافي: ج ٢، ص: ١٩٥.

(2) أصول الكافي: ج ٢، ص: ١٩٦.

اخوانهم مع القدرة وإلا فهم معاقبون، في الدنيا والآخرة، فـ «أهل المعروف في الدنيا أهـل المعروف في الآخـرة» كما جـاء في متن الحديث. والعكس بالعكس وهذا تفسير للحديث القائل: «الدنيا مزرعة الآخرة»، فطوبى لأولئك الذين يهتمون بحوائج الناس أيما اهتمام سواء نجحوا أم أخفقوا فـ «مَن همَّ بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة ولم يفعلها لم يكتب عليه شيء». . . الحديث.

وإن قضاء الحاجة أكثر أجراً من التعبد في زاوية من الزوايا على ما جاء به في حديث رسول الله (ص): حيث يقول: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكأنما عبد الله دهره».

وفي حديث آخر عن الرسول (ص): «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين».

وقال أبو جعفر عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المسلم أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدماً إلا كتب الله له حسنة وحط عنه سيئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتمر»[1].

وقال عليه السلام: «إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهمه الجنة».

وقال عليه السلام: «من طاف بالبيت طوافاً واحداً كتب الله له ستة آلاف حسنة ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة ـ وفي رواية، وقضى له ستة آلاف حاجة، حتى إذا كان عند الملتزم فتح له سبعة أبواب من الجنة»، قلت له: جعلت فداك، هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: «نعم، وأخبرك بأفضل من ذلك: قضاء حاجة المؤمن أفضل من طواف وطواف وطواف حتى بلغ عشراً».

وقال عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لاخوانكم، وكونوا من أهله فان

---

(١) جامع السعادات: ج ٢، ص: ٢٢٦.

للجنة باباً، يقال له المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فان العبد، ليمشي في حاجة اخيه المؤمن فيوكل الله عز وجل به ملكين واحداً عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربه ويدعوان بقضاء حاجته» ثم قال: «والله لرسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة».

وقال أبو عبد الله عليه السلام[1]: «قال الله عز وجل: الخلق عيالي، فأحبهم إليّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم».

وقد روي أن عابد بني اسرائيل كان إذا بلغ الغاية في العبادة صار مشاءاً في حوائج الناس عانياً بما يصلحهم.

وهكذا نرى المفاضلة بين التعبد والقيام بحاجات الناس، وان الدين الاسلامي دين فيه من التساند الاجتماعي والتضامن والتكافل ما يؤدي إلى إسعاد البشر في الدارين. ولسنا بحاجة أن نستمع إلى كلمات فلاسفة الغرب في سنن التكامل والرقي. فقد جاء في الاسلام بالقول الفصل، كيف لا يكون كذلك وهو دستور السماء، دستور الله في أرضه، وأنى للبشر الناقص مهما سمّى نفسه حكيماً أو فيلسوفاً أن يأتي بمثله، ذلك لأن النفس المتسافلة أو البعيدة عن الحق، النفس المحكومة لشيطانها وشهواتها لا تأتي إلا بدساتير ناقصة، لا توصل الفرد إلى الدرجات العلى من التقرب إلى الله في عوالم القدس، ولا تؤدي إلى حياة سعيدة في الدنيا، وان حالة الغرب اليوم في عوالم تكامل النفس أكبر شاهد على ما أقول.

لنستمع إلى ما يقوله أبو عبد الله عليه السلام بالنسبة إلى التنفيس عن المؤمن، انه عليه السلام يقول: «أيما مؤمن نفّس عن مؤمن كربة وهو مُعسر يسر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة، قال: ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة، قال: والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في الخير»[2].

---

(١) أصول الكافي: ج ٢ ص ١٩٩

(٢) أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٠٠.

ولنذكر حديثاً واحداً في إطعام المؤمن وسقيه: «فقد قال علي بن الحسين عليه السلام مَن أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ومَن سقى مؤمناً من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»[1].

وحديثاً في إكساء المؤمن:

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من كسا أخاه كسوة شتاء أو صيف كان حقاً على الله أن يكسوه من ثياب الجنة وان يهوّن عليه سكرات الموت وأن يوسع عليه في قبره وأن يلقى الملائكة إذا خرج من قبره بالبشرى وهو قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وتتلقاهم الملائكة، هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾[2].

وحديثاً في إكرام المسلم:

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أتاه أخوه المسلم فأكرمه، فإنما أكرم الله عز وجل»[3].

وحديثاً في خدمة المسلمين:

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): أيما مسلم خدم قوماً من المسلمين الا أعطاه الله مثل عددهم خداماً في الجنة».

وهكذا نرى أن الحاجات طريق للاتصال بالله تعالى والانقطاع اليه وخير وسيلة لتكامل النفس الانسانية التي تنحصر كمالهافي اقترابها إلى الله المتعال وتذكرها خالقها في كل حين.

فما أحلى حالة المتعبِّد حين يقوم بعمل عبادي ليقضي الله حاجته وكم يزداد اعتقاداً بالله وحباً اليه بعد انقضاء حاجته المشروعة، ولقد كان القيام بقضاء حاجات الآخرين، لا سيما الأرحام، سبباً هاماً لهداية كثيرين.

---

(١) نفس المصدر: ٢٠١.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٠٤.

(٣) نفس المصدر: ص ٢٠٦.

وقد عرفت أشخاصاً كثيرين كانوا قد تركوا الصلاة وخاضوا فيها خاض فيه الطائشون، ولكنهم بعد أن قاموا بخدمة ملموسة تجاه أحد أرحامهم وقضوا بعض حاجاتهم، تفتحت قلوبهم لقبول معالم الهداية والكمال وزالت عنهم غياهب الشك والارتياب، وكادوا أن يبلغوا مرتبة اليقين، فراقبوا أعمالهم وأصلحوا أنفسهم على ضوء تعاليم الاسلام الحقة، وخرجوا باذن ربهم، من الظلمات إلى النور. فطوبى لهم وحسن مآب.



فهرس الجزء الخامس

الموضوع	الصفحة

التكامل في الإسلام

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل، باذن الله، ما يختلج في بعض الصدور من شكوك، ويريك أن الاسلام دين العقل والمنطق وأن لا تنافي بينه وبين العلم الصحيح، (لا الظنون والأهواء!)

بقلم

أحمد أمين

خرّيج كليّة التربية وجامعة إسطنبول

الرياضيّات العامّة والفيزياء الرياضيّة العالية

الجزء السادس

دار المعرفة

بيروت - لبنان

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي منع الأوهام أن تنال إلى وجوده وحجب العقول أن تتخيل ذاته لامتناعها من الشبه والتشاكل. بل هو الذي لا تتفاوت ذاته ولا تتبعض بتجزية العدد في كماله. إلى أن يقول:

أيها الناس، إنه لا شرف أعلى من الاسلام، ولا كرم أعز من التقوى، ولا معقل أحرز من الورع. ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجل من العافية ولا وقاية أمنع من السلامة، ولا مال أذهب بالفاقة من الرضى والقنوع، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، والرغبة مفتاح التعب، والاحتكار مطية النصب، والحسد آفة الدين، والحرص داع إلى التقحم في الذنوب وهو داع إلى الحرمان. والبغي سائق إلى الحين[1] والشره[2] جامع لمساوي العيوب.

إلى أن يقول: أيها الناس، أنه لا كنز أنفع من العلم ولا عز أنفع من الحلم، ولا حسب أبلغ من الأدب، ولا نصب أوجع من الغضب، ولا جمال أحسن من العقل ولا قرين شر من الجهل، ولا سوأة أسوء من الكذب، ولا حافظ أحفظ من الصمت. ولا غائب أقرب من الموت[3].

---

(١) الحين: بفتح المهملة: الهلاك والمحنة.

(٢) الشره: غلبة الحرص والغضب والطيش والحدة والنشاط وفي بعض النسخ (الشره): هو الحرص أيضاً.

(٣) من كلام لمولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام مقتبس من تحف العقول. طبع دار الكتب الاسلامية، ص: ٩٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الانقلاب الصناعي وما أعقب من ويلات الانحلال الخلقي والتفكك الاجتماعي وعدم الايمان بالمقدسات ومعاداة الكنيسة للعلماء الكونيين وإعدامها كثيراً منهم وكتابات الفلاسفة الماديين وتفنيدهم ما قررته الكنيسة أو المسيحية من أخلاق وعادات، والحرية المطلقة في الأعراض كل أولئك أولدت فلاسفة وجوديين ورجالاً ماديين صاروا يستهزئون بالدين والفضائل وما كان يسمى شرفاً ونبلاً وأخلاقاً وفضيلة، حتى صار أحدهم يفتخر أن يوم وفاة أمه قام بمعانقة بغية من البغايا وآخر يقول مخاطباً رب العباد: «أنت رب، إلا أني حر»[1]: كلام سوفسطائي من مستهتر لا يعلم معنى الحرية على الوجه الصحيح، ولا يقدر ضآلة نفسه أمام عظمة الله التي لا تحد.

إن شبابنا اليوم يقتبس فكرته الاجتماعية والخلقية بل الدينية مما يقرأ في كتب الغرب والروايات التمثيلية وغيرها. وهو يرى أن كل ذلك يترشح من مدنية راقية. تطلق الصواريخ وتسير بين الكواكب، فتصل إلى القمر وعطارد والزهرة إلى ما هنالك. فيلتبس عليه الأمر. فيظن بل يعتقد أن أفكار أوربا وفلسفتها الاجتماعية والدينية هي كعلومها المادية حقائق ناصعة لا غبار عليها وهي واجبة الاتباع لنيل مدارك الكمال وقد فاته أن النفس لأمارة بالسوء، فتميل نحو ما يحقق شهواتها ونزواتها على ضوء الفلسفة المادية، فيسخر نتيجة هذا الاتباع مما كان يعتقد قبلاً من مقدسات ويظنها خرافة. ويجزم أنه قد خرج من عالم كله قيود إلى عالم آخر كله إنطلاق وحرية وسرور.

---

(١) من كلمات (سارتر) الوجودي.

وهذه (سوئد) بلد الحرية والحضارة النموذجية، قد وجد فيها منذ زمن غير بعيد شباب متخنثون، يتشبهون بالبنات من حيث شعر الرأس واستعمال المساحيق ويرتدون ألبسة الفتيات من الداخل والفساد ضارب بأطنابه بينهم وبين الآخرين إلى أقصى حد.

وفي ألمانية الغربية من أصل مائة شارب في مصح المدمنين على الخمر يوجد ١٤ فتى أعمارهم دون الـ ٢٥ سنة. وكثير من هؤلاء اعترفوا بأنهم تناولوا الكأس الأولى على يد أحد الكبار، بل منهم من تناولها من أحد الأبوين! ودلت الاحصاءات أخيراً أن أكثر من نصف الـ ١٠ مليار ليتر خمراً التي تشرب في ألمانيا سنوياً تشرب داخل البيوت.

وجاء في تقرير رسمي: إن ثلث الشباب الأمريكيين الذين هم في الثامنة عشرة لا يصلحون للخدمة العسكرية ويؤكد أن السبب في ذلك يعود إلى كثرة ارتكاب الموبقات من الآباء مما يؤدي إلى إنجاب ذرية ضعيفة غبية ولكثرة إدمان الخمر والفواحش.

وفي تقرير آخر نشر في استوكهولم أن نسبة الاصابات بالأمراض التناسيلة تزداد في أوربا من جديد.

وفي تقرير آخر: إن الاصابات بالسيلان في بريطانية والسويد وبلغاريا قد ازدادت زيادة كبيرة في السنوات الأربع الماضية وان الاصابات بالزهري ازدادت في الدانمرك والسويد وفرنسا خلال السنوات الخمس الماضية.

وفي (نيويورك)، (١٥٠٠) عصابة محترفة، شأنها السرقة، كل عصابة تتألف من ١٠٠ شخص أو أكثر، وفيهم حملة الشهادات العالية!؟.

وإن أهالي شيكاغو في أمريكا يدفعون في كل سنة ١٦٥ مليون دولار إلى السراق المحترفين وقاية لأموالهم، وما يقدم في الولايات المتحدة كلها كهدية للسراق يبلغ ١٢ مليون دولار في السنة، وهناك في أمريكا فئة خاصة تصطنع الاسناد والأوراق الرسمية، ووارداها السنوي ٤٠٠ مليون دولار.

وإن (روبرت بورن) كان يسرق في السنة ٣٠٠ سيارة ويبيعها وإن بعض الموظفين كانت لهم حصة في الموضوع.

يقول الدكتور الكسيس كاريل في كتابه: «الانسان ذلك المجهول» في معرض انتقاده للحضارة الغربية ما نصه:

«إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا» ص: ٣٨.

ويقول في مكان آخر:

«وهؤلاء النظريون يبنون حضارات، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الانسان. إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للانسان. إن نظم الحكومات التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم عديمة القيمة فمبادىء الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين). فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة، فان علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية»... (ص: ٤٣).

ويقول في مكان آخر:

«يجب أن يكون الانسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، أنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته. ومن ثم، فان التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الانسانية. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا. اننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً ان الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها اليها، ولكنها لا تدرك ذلك. إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها. وحقيقة

الأمر أن مدنيتنا ـ الحضارة الغربية ـ مثل المدنيات التي سبقتها أوجدت أحوالاً معينة للحياة، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة، وذلك لأسباب لا تزال غامضة!»... ص: ٤٤.

ويقول الفيلسوف جود في كتابه: Philosophy: by Joad «إن العقل البشري لا يزال يافعاً، فلا يتوقع حالياً أن يستطيع فهم الكثير جداً عن العالم الذي وجد نفسه فيه. فنحن في الحقيقة نشعر أننا كلما ازدادت معرفتنا صرنا أكثر ادراكاً لمدى ما نحن فيه من جهل. أفرض: أن المعرفة الانسانية تمثل رقعة ضئيلة مضيئة في بحر يلفه الظلام الدامس من جميع نواحيه. فهذه المساحة اللانهائية من الظلام هي التي تمثل الجهل وكلما وسعنا مساحة الرقعة المضيئة (المعرفة) وسعنا كذلك مدى تماس محيط معرفتنا بظلام الجهل من حولنا».

ويظن كثير من شبابنا أنه لم يكن للاسلام قسط في حقل الحضارة الصناعية. ويردهم: كوستاولوبون في كتابه: النفسية السياسية، بقوله:

«قد يكون من الأوربيين مستعمرون ماهرون، ولكن منذ عهد رومية كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التي حملت علم التمدن حقيقة وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية من المدنية وأعني بها: الدين والمصانع والصناعة بين ظهري عناصر جديدة من غير عنصرهم».

ويقول في مكان آخر:

«هل من الواجب أن نذكر أن العرب، والعرب وحدهم، هم الذين هدونا إلى العالم اليوناني واللاتيني، وان الجامعات الأوربية ومنها جامعة باريز، عاشت مدة ستمائة سنة من مترجمات كتبهم وجرت على أساليبهم في البحث، وكانت المدنية العربية من أدهش ما عرف التاريخ».

ويقول في مكان آخر:

«كلما تعمق المرء في دراسة المدنية العربية، تجلت له أمور جديدة واتسعت الآفاق أمامه، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب، وان جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب

خاصة. وان العرب هم الذين مدنوا أوربا في المادة والعقل والخلق ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في علم يثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما أنتجوا. في هذه المدة القصيرة التي كتب لملكهم قضاؤها».

«وإذا نظر المرء في صناعاتهم وفنونهم. لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة. ولئن كان تأثير العرب في الغرب عظيماً، فان تأثيرهم في الشرق أعظم، وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط، فان الشعوب التي دانت الأرض لسلطانهم كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت الأيام آثارهم. ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة، بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم» ويقول:

«وقد اضمحل أمر العرب أيضاً، ولكن أهم عناصر مدنيتهم: وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية». وقال أيضاً: «إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

إن الشباب في أمريكا وأوربا قد تدهور إلى حد بعيد لا يرجى فيه الخير وقد تأسى بهم بعض شباب الشرق مع الأسف الشديد، وإن علماء النفس والاجتماع يعملون في إصلاح الحالة ولا يستطيعون ذلك لأن التسيب والانحراف قد بلغا (كما سنجد في بعض صفحات هذا الجزء) حداً قاصياً من جراء هذه الحرية المفسدة للنفوس والمضللة للعقول. وقد قال الفيلسوف الفرنسي، كوستاولوبون قبل عشرات السنين: «وقد وصلنا إلى طور من الحياة تجعل خطر الأخلاق أجل من خطر الذكاء فليس للذكاء قيمة إذا لم يعتمد على القوة والارادة وضبط النفس والتربية وحدها خليقة أن توجد هذه الأخلاق إذا لم تكفلها الوراثة»!؟.

ولكن من الواضح لأسس هذه التربية ومن المطبق لها؟!. فإذا كانت الأسس التربوية بشرية حالكة فلا أثر لها في إصلاح النفوس. لأن الناقص لا يترشح منه إلا شيء ناقص مبتور. وان حالة الغرب الراهنة بما فيها من مؤسسات تربوية ضخمة خير شاهد على صحة ما أقول.

فلا بد من الرجوع إلى دساتير تربوية جاءت من وراء هذه النفوس

الضالة، جاءت من وراء المادة الظلماء، جاءت من جانب الله تعالى على لسان أنبيائه عليهم السلام.

إذن: فلا نجاة إلا بالتمسك بدين لم تمسه يد البشريةالمحرفة: دين الاسلام القويم. وقد قال الله تعالى بشأنه:
﴿إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون﴾[1]

لا نجاة إلا بإيجاد الخشية في نفوس الشباب، حتى يخافوا الله، فلا يرتكبوا ما نهى الله عنه في خلواتهم ومحاضرهم فقد قال رسول الله (ص) «رأس الحكمة مخافة الله».

لا نجاة إلا باعتقاد رصين بيوم الجزاء، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[2].

فلو تذكر الشاب:﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾[3]. ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق، ذلك يوم الخروج﴾[4] ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً، ذلك حشر علينا يسير﴾[5]. ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة. وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون، فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين﴾[6]. وأثرت الخشية في جميع أجزاء بدنه فهو إذ ذاك يرتدع عما نهى الله تعالى، فلا يرتكب ما حرم الله وما يفسد النفس فيبعدها عن الصراط المستقيم.

---

(١) سورة الحجر: ٩.
(٢) سورة الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.
(٣) سورة طه: ١٠٢.
(٤) سورة ق: ٤٢.
(٥) سورة ق: ٤٤.
(٦) سورة القلم: ٤٢ ـ ٤٥.

ذلك لأن الخروج عما سنه الله على لسان أنبيائه: إسراف وهو بدوره يؤدي إلى الضلال والعمى والكبرياء والغرور. وقد قال تعالى:

﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ (المؤمن: ٣٤).

﴿والذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم. كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ (سورة المؤمن: ٣٥).

فعلى الشاب أن يراقب الله تعالى في جميع أموره ويتذكر قوله تعالى حيث يقول: ألم يعلم بأن الله يرى[1] وأن يعبد الله كأنه يراه. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه، فانه يراك».

وفي الحديث القدسي: ﴿إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني. والذين انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب﴾.

حكي أن زليخا لما خلت بيوسف، قامت وغطت وجه صنمها. فقال يوسف: «ما لك، أتستحين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار».

وقد ورد في الأخبار: ان العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه. وساعة يحاسب فيها نفسه. وساعة يفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب.

وقال الصادق عليه السلام: طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه. ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس

---

(١) سورة العلق: ١٤.

لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع والجوع والظمأ بالنهار والسهر بالليل، فان مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر. قال الله عز وجل: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، ان الله لمع المحسنين﴾.

فأنت أيها الشاب، بين يديك حقائق ناصعة عن الدين القويم دين الاسلام، خاتم الأديان بل أكملها، ترشدك إلى الصراط السوي وتنير لك الطريق، كي تسلك مسلكاً يؤدي بك إلى تكامل نفسك وإبلاغها أسمى مراتب الكمال، وهل هناك هدف أسمى من التكامل؟ ولأجله وجدنا في هذا العالم. فشمر عن ساعد الجد في تطبيق ما أمر به الاسلام كي ترى نفسك كيف تتجلى يوماً بعد يوم مشرقة، وضاءة منيرة، مطمئنة: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]

﴿يا بني آدم، قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾[2].

﴿يا بني آدم، لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[3].

---

(١) سورة الرعد: ٣٠.
(٢) الأعراف: ٢٦.
(٣) الأعراف: ٢٧.

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق

من حقائق القرآن العلمية

في القرآن الكريم آيات هي عصارة العلم الحديث وما ستنتجه المكتشفات العلمية في الكون الرحيب في مستقبل قريب أو بعيد. وليس لأحد مهما أوتي من علم غزير وكفاءة فائقة ونبوغ مرموق أن يفسر جميع الآيات الكونية في القرآن تفسيراً علمياً ناصعاً كاملاً غير ناقص. وهكذا كلما تكامل العلم المادي كلما ظفرنا بحقائق جديدة سبق كلام الله المجيد إلى ذكرها بإيجاز. وإن علوم القرآن التي كانت موضوع بحث المفسرين في القدم، كعلم القراءات وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم الرسم القرآني وعلم المحكم والمتشابه والتفسير التاريخي والحكمي واللغوي والأدبي لفي معزل عن التفسير الفيزياوي والفلكي والطبقاتي والجغرافيائي والطبيعي. حتى أن القدماء لم يتوسعوا في تفسير القرآن في النواحي الاجتماعية والادارية والسياسية والحربية التي يتناولها القرآن الكريم.

وهناك من لا يؤمن بالعلم المادي ويرى أن العلم المادي يضاد الدين فلا يهمه تفسير القرآن على ضوء العلم الحديث، ظناً منه أن العلم المادي في تغير مستمر، وقد فاته أن ما اكتشفه العلم الحديث وحققته التجارب مرات ثابت لا يتغير، بل تتغير النظريات التي توضع لتفسير الطاقات، كالطاقة الكهربائية أو الجاذبية أو الضوء. ذلك لأن الطاقة ليست من المادة في شيء. لذلك لم يعلم لحد الآن (ولن يعلم على ما أعتقد) حقيقة الطاقات على اختلاف أنواعها من حرارية وحركية وكهربائية وجاذبية وكيف تتبدل هذه الطاقات بعضها إلى بعض.

فنحن بقدر ما نعرف طرقاً شتى لاستخدام الكهرباء في التدفئة والعلاج والانارة وإدارة الآلات وتسيير القاطرات والسيارات ونحوها لا نعرف تماماً ما

هي الكهرباء وقس على ذلك الضوء والحرارة. فكلها نطلق عليها لفظاً مبهماً هو الطاقة التي أودعت بين ثنايا الكون ويمكن أن يتحول بعضها إلى بعض: إلا أنه لا يمكن خلقها أو استحداثها من العدم.

لذلك لم يتمكن المادي من معرفة حقيقة المادة بعد أن رآها تتحول إلى طاقات، لا سيما وقد تمت منذ سنوات معدودة كشوف جديدة في عالم الكونيات تناولت صميم تكوين الذرة وأثارت اهتمام العلماء وعلى رأسهم رجال الفلك وأهم نتائج هذه الكشوف العثور على البروتون السالب أو البروتون المضاد للبروتون الذي نعرفه ـ والكهرب الموجب ـ وهو الالكترون المضاد للألكترون الذي نعرفه ـ ومعنى ذلك أن في هذا الوجود نوعين مختلفين من المادة[1] تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي استخدمت في الأصل في ربط جسيمات أو نويات وذرات تلك المواد. فكيف يفسر لنا المادي عملية الإفناء الذري وانقلاب المادة إلى طاقات؟!.

فلا تنافي بين العلوم المادية والحقائق الدينية إذ هما من مصدر واحد. ولولا أهمية العلوم المادية في تثبيت عقيدة التوحيد لما دوّن الله تعالى (٧٥٠) آية كونية أو أكثر في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

وإني أرى أن هذا النوع من التفسير، أي تفسير القرآن الكريم على ضوء العلوم الحديثة من فلك وفيزياء وكيمياء ورياضيات، وعلم الحياة وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض والجغرافية على ما فيها من أقسام والطب الحديث والتاريخ والعلوم الاجتماعية والسياسية يزيد في إيمان الشاب الجامعي ويجعله يعتقد أن دين الاسلام هو دين العلم الصحيح ودين العصر الحديث ودين الأجيال القادمة مهما تقدم العلم وبلغ شأواً قاصياً. وذلك لأن

---

(١) ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ سورة ياسين.

العلم مهما تقدم في كشوفه تجلت حقائق القرآن أكثر فأكثر. ولا يصح الاعتماد على ما جاء في الكتب الفلسفية القديمة من علوم طبيعية مغلوطة تخالف الواقع وتفندها التجارب. وصارت تستند الكشوف الفيزيائية على الرياضيات العالية وأين الفلسفة القديمة من الرياضيات العالية. لذلك كان يقول (بوانكاره الفرنسي): «نحن الرياضيين إنما نعمل للفيزياء والفلسفة».

كانت الفلسفة القديمة تستند في كثير من استنتاجاتها على الظن، فكان يقول أحدهم: إن الأرض كروية. ذلك لأن الكرة أكمل الأشكال وأن حركة الشمس حول الأرض دائرية لأن الدائرة أكمل الأشكال وهكذا... والله تبارك وتعالى ينهانا عن إتباع الظن، وذلك بقوله عز من قائل:

﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً. إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾.

وبقوله تعالى:

﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن﴾.

فلا يجوز تفسير الآيات الكونية التي تقوي ناحية التوحيد في النفوس استناداً إلى الظن وما لا يؤيده التجارب والمعادلات والدساتير الرياضية والفيزيائية كتفسير (المد والجزر) مثلاً بملاك البحر الذي تصوروه عندما يضع أبهامه في البحر يفيض الماء وعندما يخرج ابهامه يغور الماء ويكون الجزر حين أن القضية قضية جاذبية القمر والشمس لمياه البحار والأنهار.

كما أنهم بدلاً من أن يفسروا العمد الذي لا يرى بالعين، بالجاذبية في الآية الآتية:

﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾.

إستندوا إلى خرافة يونانية القائلة: إن الأرض قائمة على قرن ثور والثور قائم على بطن حوت... (أما الحوت!؟).

وكم من نظريات سخيفة وظنون فاسدة دخلت من الفلسفة اليونانية البائدة في الاسلام ورآها الفلاسفة والمتفلسفون حقائق لا غبار عليها وصارو يدافعون عنها بحماس لا مزيد عليه.

والحق يقال: إن النهضة العلمية في الغرب ما قامت إلا على أسس من المشاهدة الصحيحة والتجارب السليمة. وما القوانين العلمية سوى تفسير لما يشاهد في عالم المادة. ورغم أننا لا ندعي إطلاق صحة هذه القوانين، إلا أننا نسلم بأنها تمثل جانباً كبيراً من الصحة والدقة وأنها تقترب من الكمال بتقدم العلوم والفنون فبمرور الوقت واتساع أفق المعرفة وازدياد الدقة في عمليات الرصد والملاحظة والمشاهدة يضيف العلماء من آن لآخر جانباً من التعديلات أو التحويرات إلى بعض القوانين العلمية لجعلها أقرب للحقيقة أو أعم للنفع.

فإن دساتير الجاذبية التي اكتشفها (نيوتون) لم تلغ من قبل (أينشتين) وإنما عدلت حتى يمكن تطبيقها في مسافات شاسعة بين الأنجم والكواكب النائية جداً وان دساتير نيوتون لا تزال تطبق وهي صحيحة في مسافات محدودة أي على الكرة الأرضية.

لذلك كله أرى من الضروري أن يلم العالم الديني بشيء من العلوم العصرية العامة قبل مرحلة الاختصاص، وأن يتخصص في بعض الفروع لا سيما الفيزياء إن وجد متسعاً من الوقت والكفاءة.

فليس من الصواب في شيء أن يبني الناس معتقداتهم الدينية أو صرح نظرياتهم العلمية على مجرد الخيال أو الاستنتاج دون برهان أو تجربة، فان مثلهم في ذلك كمثلنا عندما نجلس للتفكير في خواص المادة أو ظواهر الكون دون أن ندرس الأشياء ونرصدها! أو كمثل أولئك الذين يرثون عقائدهم دون اختبار موادها من حيث الخطأ والصواب وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ (سورة المائدة).

* * *

انه تعالى يأمرنا أن نسير في الأرض فننظر كيف بدأ الله الخلق حتى نزداد

إيماناً ويقيناً، ونخضع تجاه عظمته التي لا تتناهى. ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾.

لا يزال العلم الحديث يجهل كيف ابتدأ خلق العالم. والله تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ إذ نحن لم نكن حين خلق الله تعالى السماوات والأرض وكيف نشاهد خلق أنفسنا ونحن بعد لم نتكامل من حيث التكون والوجود ولا نعرف إلى الآن كيف دبت الحياة على وجه البسيطة وكيف كانت تتكون وتنمو الحشرات والحيوانات على اختلاف أنواعها. إنما هي نظريات تجرح وتعدل من حين لآخر. كما في تشكل المجموعة الشمسية. وعادة تبدأ كل نظرية علمية تحاول تفسير أصل الوجود من فروض خاصة لا سبيل للبرهنة عليها أو من نقطة خاصة لا سبيل للذهاب إلى أبعد منها. فالعلم الطبيعي لا يتعرض لمسألة الخلق من العدم وإنما ينصب على دراسة خصائص ما هو كائن فعلاً من مادة وطاقات وحياة ولا يريد الله تعالى في الآية المتقدمة:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ أكثر من ذلك. إن علينا أن نبحث مستندين على ما كشف في علم الجيولوجيGeologie والاحياء Biologie وعلم الذرة والاشعاع وعلوم أخرى تمس الموضوع عن مراحل الخليقة.

ولا ريب أن العالم الأكبر قد تكوَّن بـإذن الله تعالى وأمـره من العالم الأصغر، فلنتكلم شيئاً عن العالم الأصغر ممثلاً في أصغر لبنات أو دقائق بنيت منها المواد وهي الذرة.

* * *

وقوام الذرات أشياء متناهية الصغر غير عادية تتشابه في جميع ذرات العناصر المختلفة، ويتوقف على عددها وترتيبها داخل كل ذرة تحديد نوع المادة أو العنصر التي تتكون من هذه الذرات. وأبسط الذرات تركيباً على الاطلاق ذرة الايدروجين، وهو المعروف باسم الغاز الكوني أو الغاز الذي خلق منه الكون وتطورت عنه سائر المواد المعروفة. وتتركب ذرة الايدروجين من (نواة)

عبارة عن: بروتون موجب التكهرب يدور من حوله على كثب منه: الكترون وهو كهرب سالب كما في العالم الأكبر وهو الشمس وما حولها من كواكب تسعة، ويتحقق قوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1].

ويتعقد تركيب الذرة كلما صعدنا قدماً في سلم العناصر المادية.

وكان المعتقد إلى عهد ليس ببعيد (منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً) إن الذرات غير قابلة للتجزئة إلى جسيماتها الأولى، وكانت الطرق المستخدمة في محاولات تحطيمها طرقاً عقيمة غير مجدية، ولكن لما عرفت وسائل تحطيم الذرة في هذا العصر أمكن الجزم نهائياً بأن طاقات عظمى تدخر بين ثنايا الذرة أساسها الطاقة التي استخدمت أصلاً في ربط جسيماتها الأولية، خصوصاً فيما يختص بمكونات النواة التي نشأت أول ما نشأت داخل النجوم تحت درجات من الضغوط والحرارة تفوق حدود الوصف والخيال. وكل ما يلزم لتفتيت الذرة هو بذل نحو هذا القدر من الطاقة الرابطة بطريقة من الطرق.

وفي أغلب العناصر لاتقتصر النواة على البروتون الموجب، بل قد توجد أيضاً: النيوترونات وهي الجسيمات أو اللبنات التي ليس لها شحنة تميزها، والمعروف أن المحدد الأول لصفات الذرة هو نواتها، فنواة الهليوم مثلاً ـ وهو غاز ينجم عن تفجير الايدروجين ـ قوامها اثنان من النيوترونات وإثنان من البروتونات. وعندما نصعد في سلم النويات حتى نصل إلى العناصر الثقيلة ممثلة في عنصر اليورانيوم مثلاً نجد أن نواة هذا العنصر الأخير تتكون من ٩٢ من البروتونات مع ١٤٦ نيوتروناً. وفي العادة تكون الشحنات السالبة داخل أي ذرة مساوية للشحنات الموجبة، وبذا تكون الشحنة الكهربية للذرة في مجموعها صفراً.

فذرة الهليوم تتكون من نواة فيها بروتونان يدور حولها اثنان من الالكترونات أو الكهارب السالبة لاحداث التعادل الكهربائي.

أما ذرة اليورانيوم فيسبح حولها نواتها (٩٢) الكتروناً.

---

(١) سورة الملك: ٣.

وتدور الالكترونات حول النواة في أفلاك شبه دائرية تتعدد بازدياد عدد الالكترونات، إذ يتشبع كل فلك بعدد معين منها. ولا يتسع أقرب الأفلاك أو المدارات إلى النواة لأكثر من الكترونين اثنين ويشبع المدار الذي يليه ٨ الكترونات وهكذا، ويبقى الفائض عن تشبع الطبقات الداخلية في الطبقة الخارجية وهي التي يسهل فصلها وإعادة ترتيبها.

ومن الممكن أن يفصل الكترون واحد أو أكثر من الذرة، وبذلك تنفصل شحنتان احداهما موجبة والأخرى سالبة، وتسمى هذه العملية علمياً باسم (التأين). وأبسط الأجهزة التي يتم فيها تأين الغازات هي الأنابيب الكهربية المستخدمة في الاضاءة أو اللافتات والاعلانات، حيث يتوهج الغاز تحت ضغوط مخلخلة بسبب تصادم الالكترونات مع ذرات الغاز. وينجم عن هذا التصادم مع بعض الذرات إضافة طاقات اليها تنطلق في صورة ضوء هو مصدر الوهج المعروف بينما يتأين البعض الآخر من الذرات.

* * *

ومنذ سنوات معدودات تمت كشوف جديدة في عالم الكونيات تناولت صميم تكوين الذرة وأثارت اهتمام العلماء وعلى رأسهم رجال الفلك وأهم نتائج هذه الكشوف العثور على البروتون السالب ـ أو البروتون المضاد للبروتون الذي نعرفه ـ والكهرب الموجب ـ وهو الالكترون المضاد للالكترون الذي نعرفه ـ ومعنى ذلك أن في هذا الوجود نوعين مختلفين من المادة تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[1].

وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي استخدمت في الأصل في ربط (جسيمات) نويات وذرات تلك المواد. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

ونحن نستطيع أن نرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة بالحرف (م) مثلاً وهي التي تكون الكتروناتها سالبة التكهرب كما نستطيع أن نرمز للنوع الثاني من المادة المضادة ذات البروتونات السالبة والالكترونات الموجبة بالحرف (س).

واستفاد علماء الفلك من هذه الكشوف عن طريق تلك الامكانيات والتطبيقات الواسعة التي تكمن من ورائها وتفسر كثيراً من ظواهر الكون الغامضة، مثل ظهور أرجاء في المجرات برمتها مظلمة وخاصة في السدم الحلزونية، ومثل ظاهرة النجوم البراقة ونحوها.

وهناك بعض كهارب نووية أو (جسيمات) ذات شحنات كهربية في نويات الذرة الثقيلة تسمى الميسونات. وإذا تحول بروتون إلى نيوترون فانه يفقد شحنته الموجبة التي تنفصل بانفصال ميسون موجب أما إذا تحول نيوترون إلى بروتون فالميسون يحمل في هذه الحالة شحنة سالبة، وعندما يتصادم بروتون موجب مع آخر سالب، أو عندما يتصادم كهرب سالب مع آخر موجب، يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب معادلة اكتشفها (أينشتاين): تساوي ك في س^{٢}: ط = ك س^{٢}.

أي: الطاقة المنطلقة تساوي الكتلة المادية المختفية في مربع سرعة الضوء.

وهكذا نرى عندما تدخل ذرة من المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو العكس تفنى الكهارب أولاً ثم يعقب ذلك إفناء البروتونات، ومهما يكن من شيء فنحن لا نعرف ـ ولو على وجه التقريب ـ ما إذا كان عدد البروتونات الموجبة المودعة في الكون يساوي تماماً عدد البروتونات السالبة فيه أم لا؟ إلا أن هذه الحالة يرى فريق من العلماء ضرورتها ووجوبها في عالم نشأ من العدم الذي هو نفس النتيجة المتوقعة لو أتيحت الفرصة لتلاقي المجرات وتصادمها مع بعضها.

---

(١) سورة حم ـ سجدة: ٥٣.

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[1].

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن: فيكون﴾[2].

﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾[3].

وعلى أية حال، فان امكان زوال السماوات والأرض مسألة يقرها العلم ولا ينكرها ويفسرها تفسيراً طبيعياً على النحو الذي وصفناه، برسم اننا قد لا نستطيع أن نقرر أن البروتونات الموجبة والبروتونات السالبة نشأت أول ما نشأت كأكداس من الأزواج انفصلت إلى أفراد بحيث لم يزد مجموع شحناتها جميعاً على الصفر. لو أنها نشأت هكذا حسب أي احتمال (كجسيمات) فردية منفصلة، وكذلك برغم أنه لم يقل أحد بتوزيع البروتونات والالكترونات توزيعاً منتظماً في سائر أرجاء هذا الكون. أما احتمال التعادل الكهربي بين الشحنات السالبة والشحنات الموجبة في مكان معين بمضي الوقت فهو أمر تدعمه المشاهدة.

وما قلنا تفسير لهذه الآية الكريمة:

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، انه كان حليماً غفوراً﴾[4].

وعلى أية حال، فان الآية الكريمة تشير باعجاز رائع إلى إمكان إفناء ما في الكون من سدم ومجرات إذا هي تغير نظام توزيعها، بأن تداخلت مثلاً أو اعترض بعضها بعضاً أثناء سبحها في الفضاء، ثم هي بالاضافة إلى تقرير تلك الحقيقة تظهر ضعف الكائنات جميعاً وعجزها عن إمساك السماوات والأرض من الزوال إذا قدر الخالق لها تلك النهاية: كما يقول الله تعالى:

---

(١) سورة القمر: ٥٠

(٢) سورة ياسين: ٨٢.

(٣) سورة الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

سورة فاطر: ٤١.

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾[1].

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾[2].

﴿وإذا السماء كشطت﴾[3]. (أي: نزعت عن أماكنها)

﴿وإذا الشمس كورت﴾[4] (أي: رفعت).

﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ (أي: أظلمت).

﴿وإذا الجبال سيرت﴾. (أي: ذهبت).



---

(١) سورة إبراهيم: ٤٨.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤

(٣) سورة التكوير: ١١.

(٤) سورة التكوير: ١ - ٣.

ثم استوى إلى السماء وهي دخان[1]

والمقصود بالدخان هنا: الغاز. والمتفق عليه في العلوم الكونية ان أصل هذا الكون بدأ حين انتشر في الفراغ الكوني غاز (الايدروجين) وهو المعروف علمياً باسم الدخان أو الغاز الكوني. وأعقب ذلك بأمر من الله تعالى سلسلة من الخطوات أو التطورات التي صحبها ازدياد تركيز الغاز الكوني رويداً رويداً بفضل الجاذبية التي أودعها الله تعالى بين الأجسام، قبل أن يظهر في صورة السدم[2] والمجرات[3]، فالنجوم، ثم الكواكب، وتلخص هذه الخطوات كما يلي:

الغاز الكوني، المجرات، النجوم، الكواكب السيارة.

وبديهي أن نجد درجة تضاغط الغاز الكوني ليكوّن المجرات أقل بكثير من درجة تضاغطه داخل النجوم، وتبلغ كثافة أو درجة تركيز هذا الغاز الكوني من القلة أنه يوجد منه نحو ذرة واحدة في فراغ يبلغ حجمه علبة الكبريت العادية. وبالرغم من هذا فان كتلة هذا الغاز في الوجود تزيد ألف مرة في عصرنا هذا على كتلة المواد المكدسة في جميع المجرات رغم أنه قد مضى على عمليات التحور التي صحبت ظهور الكون آلاف ملايين السنين،

---

(١) سورة حم سجدة: ١١.

(٢) السدم: جمع سديم.

(٣) المجرة: منطقة طويلة تمتد فوق رؤوسنا كالقوس وقد تركزت فيها النجوم بمقدار كثير وتكثفت فيها إلى حد بعيد، بعضها فوق بعض، تشبه بياض ماء النهر في سواد الأرض.

ولعل السبب في ذلك أن المجرات رغم اتساعها وكبرها المتناهي لا تشغل من الفضاء الكوني المترامي الأطراف إلا جزءاً ضئيلاً جداً.

فان الآية: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ تنبئنا بأن أجرام السماء إنما بدأت بصورة دخان وهي عين ما افترضته كافة النظريات الفلكية مهما اختلفت تفاصيلها. وكلها تقول: ان الوجود بدأ في صورة الدخان الكوني أو الايدروجين، وعندما ينتهي دور الأرض والسماوات ترجع هذه الأجرام إلى حالتها الأولى إلى دخان وطاقات هائلة:

﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾[1].

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا أنا كنا فاعلين﴾[2].

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾[3].

ويعترف العلماء أن الغاز الكوني الذي هو أساس الخليقة يخلق في الفضاء خلقاً، أي يخلق من العدم وهكذا بقية العناصر التي يتكون منها الكون كله.

ثم أنه تعالى يقول: ﴿أو لم يَرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[4].

وهي إشارة رائعة ومعجزة خالدة تُعبِّر من الوجهة العلمية عن عملية انفصال أجرام السماء والأرض عن بعضها بعد أن كانت دخاناً يملأ الفضاء، ثم سُدُماً، فمجرات تكدست فيها النجوم والكواكب. كل ذلك، بفعل الدوامات التي انتابت الغاز الكوني والجاذبية، والقوى الطاردة المركزية ونحوها من سنن الطبيعة ومعاول الخلق التي لعبت دورها في تكوين أجرام

---

(١) سورة الدخان: ٤.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٣) سورة إبراهيم: ٤٨.

(٤) سورة الأنبياء: ٣٠.

السماء والأرض وانفصالهما عن بعضهما من الغاز الكوني.

ثم علم أخيراً أن الفضاء الكوني الذي يقع بين أجرام السماء ليس فراغاً خالياً من كل شي كالمادة ومعالمها وإنما تنتشر فيه أيضاً جسيمات غير مرئية على غرار ما كشف العلم في عصر الفضاء، وهو قوله تعالى:

﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء﴾[١].

﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾[٢].

وإن الغاز الكوني بين النجوم والمجرات هو بحالة تخلخل شديد جداً إذ قدرت كثافته بنحو ميليغرام واحد في كل مليون ميل مكعب في الفضاء. وهذا الغاز مكون كله تقريباً من غازي الايدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية.

والدخان الكوني هو مادة الكون الأولى وهو لا يفنى إلا بمشية الله تعالى ولا تقل كمياته في كوننا المرئي بشكل مستمر، ولهذا يتساءل العلماء من أين يقبل هذا الدخان أو الغاز؟.

أهو يقبل من الفضاء اللانهائي في تتابع مستمر ليعوض النقص في كمياته بسبب تولد المجرات الجديدة؟.

أم هو يأتي من مكان خفي؟

أم هو يخلق خلقاً؟.

ولكن القرائن والمشاهدات العلمية كلها تدل دلالة واضحة أن هذا الدخان الكوني لا يأتي من مكان معين، وإنما يخلق خلقاً، فأحياناً لا توجد ذرات هذه المادة وبعد ذلك تظهر، وإذن فان عملية خلق الايدروجين هي عملية مستمرة. وإلا نفد هذا الغاز من الوجود بسبب استمرار تكدسه، ومن ثم استنفاده داخل المجرات المتباعدة.

---

(١) سورة المائدة: ٢٠.

(٢) سورة المائدة ١٩.

ويتكدس الايدروجين كذلك داخل النجوم ويتضاغط بدرجات أكبر فأكبر بفعل الجاذبية. وينجم عن هذا التضاغط ارتفاع درجة الحرارة إلى حدود الملايين من الدرجات في مراكز تكون النجوم والشموس وعند ذلك تنشط العمليات الذرية. ويتحول هذا الدخان إلى رماد (غاز الهيليوم) وإلى عناصر أخرى بأمره تعالى تحت الضغوط المختلفة.

وهذه السلسلة كلها غير تراجعية، أي أنها لا يمكن أن تعود القهقرى إلى الوراء، لتنتهي بظهور الايدروجين من جديد وتحت أي ظرف آخر. وبديهي أن بقاء الغاز في الفراغ الكوني حتى الآن رغم تدخل هذه العوامل كلها لهو أكبر دليل على أنه في تجديد مستمر أو خلق مستمر، ولهذا السبب يبقى متوسط كثافة الغاز ثابتاً في الفضاء.

والحق يقال: أن معدل خلق مادة الكون الأولى هو معدل بطيء جداً. ولا يظهر هذا الدخان فجأة متكتلاً في مكان معين. ويمكن أن يقدر ظهوره بنحو خلق ذرة واحدة في العام داخل فراغ يعادل حجم قاعة كبيرة!! نعم. ان مثل هذا المعدل لا يمكن قياسه ولا مشاهدته عملياً. ولكن يمكن حسابه رياضياً. بحيث إذا طبقناه على فراغ الكون المرئي كله تمخضت قيمة المادة المخلوقة عن كميات تفوق حدود الوصف والخيال. فهي تربو على ١٠٠ مليون مليون مليون مليون طن في الثانية الواحدة!! وتسبب هذه المادة الجديدة من الضغط والحركة في الكون ما يدفعه على التمدد وما يجعل المجرات فيه تتباعد بسرعة هائلة. قد تبلغ نصف سرعة الضوء في الثانية: (١٥٠٠٠٠ كيلومتر/ثانية)، ويتحقق قوله تعالى: ﴿وهو الحق قبلاً وبعداً﴾ حيث يقول:

﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾(١).

والحديث العلمي عن السماء في هذه الآية إنما يتناول حدود الكون المرئي واتساع هذه الحدود أو تمددها بمضي الزمن. وهي ظاهرة أو نتيجة من أعجب ما توصل إليه العلم في السنين الأخيرة. ومعاني الآية في غاية

---

(١) سورة النظريات: ٤٧.

الوضوح والجلاء، لا تحتاج إلى شرح أو بيان الا أن اعجـازها العلمي أوضح وأروع.

فالمعروف علمياً أن وحدات الكون العظمى أو المجرات إنما تتباعد عن بعضها البعض بسرعة فائقة. ويزداد بذلك حجم الكون أو يتمدد، وكلما تباعدت المجرات ازدادت سرعة انطلاقها في الفضاء اللانهائي، فقد شوهد قبلاً ان المجرات القريبة من مجرتنا بالذات إنما تتباعد بسرعة تقدر في حدود بضعة ملايين الأميال في السـاعة الـواحدة، وتصـل سرعـة تباعـد المجرات الواقعة على أضعاف هذه المسافات من مجرتنا إلى حدود سرعة الضوء. أما فيما وراء ذلك من حدود فان سرعة انطلاق المجرات إلى أعماق الفضاء قد تزيد على سرعة الضوء نفسه! خلافاً لنظرية (أينشتين) في نظرياته النسبية بشأن السرعة والكتلة لجسم ما. فلا يمكن بذلك للأضواء المنبعثة منها أن تصل الينا. أي أنها في الكون غير المرئي، وعلى أية حال، فان الحد الفاصل بين ما يمكن أن نراه من الوجود المادي وما لا يمكن أن نراه هو المجرة التي تتباعد عنا بسرعة الضوء. وتبعد مثل هذه المجرة عن مجرتنا في هذا العصر بنحو ٤ آلاف مليون سنة ضوئية.

ومجمل القول أنه نظراً لازدياد حجم الكون الذي نحن فيه، أو نظراً لتباعد مجراته تباعداً كبيراً بمضي الوقت، فاننا نستطيع أن نعرف نهاية هذا الكون بأنه الحد أو السماء الذي لا تستطيع المناظير المكبرة أو التلسكوبات الكبيرة جداً أن ترى ما بعده.

ويحتوي هذا الكون على اكثر من (١٠٠) ألف مليون مجرة. كلها آخذة في التباعد، وبذلك، فأنه من الممكن أن تختفي كلها وراء حدود الكون المرئي رويداً رويداً بمضي الوقت وازدياد سرعة تباعدها عن مجرتنا فوق سرعة الضوء وعندها تتوحد في كون فارغ من المجرات الا مجرتنا! إلا أن الحقيقة ان هذا لن يحدث تماماً، ولن يصبح الوجود فارغاً على النحو الذي صورناه في يوم من الأيام. بل سيظل يعج بالمجرات كما نراه اليوم. على وجه التقريب. وعلة ذلك أنه تتولد فيه مجرات جديدة كلما اختفت المجرات البعيدة وراء الحدود المرئية. ويتم توليد هذه المجرات الجديدة

من الدخان الكوني على نفس النمط الذي تولدت به المجرات القديمة.

وقد وضعت في نشوء الكون نظريات كثيرة على ضوء علم طبقات الأرض والكيمياء والفيزياء وعلم الأنواء والرياضيات. قبل لابلاس العالم الرياضي وبعده. نظريات تفند وتجرح من حين إلى حين، ثم تأتي نظريات أخرى وتفند أيضاً وهكذا لحد اليوم. وقد يستنتج من النظريات السابقة ما يستفاد منها في وضع نظرية جديدة، ولكن العلم المادي لا يزال ناقصاً وسيبقى ناقصاً مهما كملت الآلات والأجهزة ومهما توغل العلم في استقصاء حقائق الذرة والاشعاع ومعادلاتها، وهكذا تكون النظريات التي توضع على ضوئها، ناقصة متزلزلة قابلة للجرح والتعديل.

ومن أراد استقصاء موضوع نشوء الكون بأسلوب علمي أي على ضوء الرياضيات وعلم الذرة والكيمياء العالية والفيزياء العالية فليراجع كتاب: (نشوء الكون) لمؤلفه (جورج كاموو)[١].

انه تعالى يقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[٢].

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[٣].

مع العلم أن النظرية: (theorème) ليست معادلة رياضية مجردة عن التطبيق على الكونيات حتى تكون حقيقة ناصعة لا تقبل النقاش والرد.

فالمعادلات المجردة عن حدود التطبيق أي تطبيق الأبعاد والكتل والزمان وما إلى ذلك هي معادلات صحيحة منطقية لا تقبل الشك والارتياب ولها جواب يحقق التعادل أو المساواة في تلك المعادلة أو المتطابقة إلى ما هنالك.

ولكن لو كانت المعادلة تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض أو تفسر

---

(١) The Creation of universe

(٢) سورة أسرى: ٨٥.

(٣) سورة الكهف: ١١٠.

الحوادث الكونية كدستور نيوتون في الجاذبية تظهر فيها مواضع النقص أو الضعف، فتأتي دساتير (أينشتين) مصححة لها. وقد يأتي بعد (أينشتين) من يصحح نظريات (أينشتين) ويجد فيها مواطن للطعن والنقد وهكذا.

فلا ينبغي لدارس هذه النظريات ان يراها حقائق ناصعة لا تقبل الشك والتعديل، لا سيما النظريات التي توضع عن بزوغ الحياة وخلق الأحياء على وجه البسيطة، فأنها، مهما حاول المتتبع الاستقصاء والتحقيق لا تتجاوز عن كونها نظرية قابلة للجرح والتعديل كما يعرفنا بذلك كبار علماء الطبيعة مثل (ألكسيس كارل) في كتابه «الانسان ذلك المجهول».

ولكن هنالك متطفلين على العلم الحديث، لم يبلغوا من العلم ولا سيما الرياضيات العالية والفيزياء العالية وهما دعامتا العلم الحديث شأواً يعتد به، يحكمون ويحتمون ويهوسون ويأخذهم الغرور إلى حد بعيد. فيرون النظرية حقيقة، فيسخرون من الذين يعارضونهم في الرأي. حين أن الموضوع لا يتجاوز مشاهدات معدودة لا يمكن الاستنتاج منها بالاستقراء إلا حكماً مبتوراً بعيداً عن الحق والحقيقة.

إنه تعالى يقول:

﴿إن يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾.[1]

﴿وإن تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾[2].

﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون﴾[3].

﴿ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ (سورة النجم ٢٣).

---

(١) سورة يونس: ٦٦.

(٢) و (٣) سورة الأنعام: ١١٦ و ١٤٨.

﴿وما لهم به من علم، ان يتبعون إلا الظن، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (سورة النجم: ٢٨).

* * *

يقول «جورج وايناس بيشوف» في كتابهما: الشمس والأرض والانسان: (ص: ٤٤).

ولقد مرّ على الأرض مئات الملايين من السنين منذ تكونت، ثم جاء أغرب حدث وأعجبه في تاريخ الكرة، وهذا الحدث هو بداية الحياة، أما كيف جاءت الحياة في بدايتها أو كيف كان مظهرها، فان العلم لعاجز عن معرفة ذلك، وكل ما يمكن أن يقال بشيء من التوكيد هو أن الحياة بدأت في المحيط الدافىء: الماء. وان أول كائن حي لم يكن لا بالنبات ولا بالحيوان بل كان أبا للاثنين، وربما كانت الحياة الأولى على هيأة بقع من مادة حية أو كتل من مادة هلامية تشبه الجيلاتين في الشكل.

ثم هما يقولان: «وكان أعجب العجائب بعد بداية الحياة هو نموها وتطورها إلى النباتات والحيوانات المختلفة التي عاشت على هذه الأرض يوماً ما. ويطلق على دراسة هذه الكائنات الحية وكيفية نشوئها وتطورها الواحد من الآخر أو الأصح تلو الآخر، اسم التطور».

ذلك لأن كل تغيير إنما يكون عن حكمة بالغة وهدف صحيح. ولا مجال للصدفة أن تلعب دوراً ولو بسيطاً في هذا المضمار. إذ توالى ما لا نهاية له من مراحل في عالم الخليقة وتشكلها بادىء ذي بدء من أجزاء شتى. ثم قطعها مراحل لا تعد ولا تحصى. مراحل مترتبة بعضها إثر بعض، مراحل متسقة ومتزنة. مراحل علمية ينحصر بها وجود هذا الكائن الجديد لا يمكن أن تحدث بالصدفة. وقد أثبت حساب الإحتمالات استحالة ذلك. إذ درجة الاحتمال تساوي $\frac{1}{\infty}$ وهي الصفر وقد برهنا على ذلك بطريق رياضي في أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب.

والطبيعة عمياء، لا تبصر المستقبل ولا تعلم إلى ماذا سيؤول الأمر وكيف يعيش الحي في ظروف مختلفة وتحت عوامل متعددة. لا سيما

الطفرات[1] التي يشاهدها المتتبعون في الكائن الحي، حتى يصبح شكلاً آخر ونمطاً آخر.

لذلك يقول العالم الطبيعي: (وهو قد لا يؤمن بالقدرة الالهية، والدور العلمي الذي يسير عليه الوجود المادي):

«قد نشأت الخلية الأولى قبل نحو سبعمائة مليون سنة أو اكثر حين شرعت الأرض تبرد. وتتخثر الغازات إلى سوائل. ثم تجمدت هذه إلى مواد صلبة. ومن العسير علينا أن نعرف تلك الحال الأولى حين نبض الطين بالحياة، إذ أين كان النتروجين والكاربون والأوكسيجين والهيدروجين، وكيف كانت الأشعة الشمسية وأثرها في الغيوم التي كانت تكسو الكرة الأرضية، مع العلم أن الكرة الأرضية كانت تدور أسرع ما تدور الآن حول نفسها وحول الشمس... كل هذا نجهله كما يجهل أحدنا ما يقوم به الكيماوي في معمله المقفل.

فترون أنه لا بد لنشوء الخلية الأولى من عوامل متعددة جداً. قد تُعد بالآلاف، لأن لكل عامل، أيضاً، عوامل أخرى. وهكذا دواليك! حتى ينتهي إلى واجب الوجود، وهو الله الذي لا بد من وجوده من الأزل، قبل كل شيء، حيث لا زمان ولا مكان، لا بد من وجوده كلما رجعنا إلى الماضي السحيق في حدود لا تتناهى.

وخير مثال لهذا، تركيب الصاروخ، إذ هو يتألف من ٣٠٠٠٠٠ قطعة على أقل تقدير. فهل يمكن أن تترتب هذه القطع بالصدفة. ثم لا بد من وجود هذه القطع أو الأجزاء قبل تركيب الصاروخ. مهندسة كل واحد منها هندسة صحيحة من حيث الأبعاد والتركيب بحساب هندسي دقيق كي ينشأ من تركيبها على أساس علمي ومنطقي هذا الصاروخ الذي نراه.

وهل يمكن أن يقال: إن القطعة الأولى من هذا الصاروخ تعلمت كيف تنشيء وتهيء القطعة الثانية وهكذا دواليك إلى ٣٠٠٠٠٠ قطعة فأكثر.

---

(١) motation

ولسائل أن يسأل: مم تعلمت القطعة الأولى، من كان المعلم لها؟ فإن قلنا بالتجربة، ففي أي مختبر أجريت التجارب حتى حصل بعد مشاهدات واستنتاج علم عن كيفية تهيئة القطعة الثانية بصورة هندسية صحيحة ومناسبة من قبل القطعة الأولى.

فإذا كان هذا القول بعيداً عن المنطق، فكذلك القول:

«كذلك تكون أجنحة لبعض الزواحف الأخرى وتعلمت الطيران»!.

من الذي كون هذه الأجنحة، ولم تكن هنالك مدرسة عالية تعلم هندسة الطائرات وصنعها. فالطبيعة عمياء، ليس لها أن تفكر في المستقبل والصدفة لا تهندس ولا تنشيء، إنما تأتي الصدفة في دور التركيب بعد الانشاء الهندسي.

ولو فكرنا في أنفسنا وتراكيب بدننا، علمنا أننا لم نتصرف فيها يوماً لتكون كذا ولا تكون كذا. لماذا لم نكون لأنفسنا أجنحة كالطيور ولَمَ لم نتعلم الطيران كما (تعلمت الزواحف) على ما جاء في التفكير المادي، حتى نغير في أجسادنا تغييراً يريحنا من عناء السفر المرير.

ويقول أيضاً مؤلفا كتاب: الشمس والأرض والانسان[1]:

وقد مضت ملايين السنين قبل أن تظهر أولى النباتات على اليابسة، وبظهورها تكونت لها جذور تعلقت بالتربة الحديثة وبالصخور كما أنها كانت تمتص الماء بواسطتها. كما تعلمت هذه النباتات بطريقة ما كيف تستخدم (الكربون) الموجود في الجو مع الماء في صناعة الغذاء»!..

أنظروا إلى هذه الفلسفة المبتورة والمنطق السقيم، فانه يقول: مضت ملايين السنين قبل أن تظهر أولى النباتات، ولكن المؤلف يسكت عن بيان كيفية الظهور ومراحل الظهور وتكون الجذور وتعلقها بالتربة وبالصخور وكيف امتصت الماء بواسطة الجذور. ومم تعلمت هذه النباتات بطريقة ما حتى تستخدم الكربون الموجود في الجو مع الماء في صناعة الغذاء. وكيف

(١) ص: ٤٦.

وجد الكربون في الجو وكذا الماء. أو ليس الغذاء يصنع من عدة أجزاء وبعوامل مختلفة، وقد أثبتنا أن الصدفة منتفية في جمع العوامل والأجزاء لصناعة الغذاء في الجزء الثالث من هذا الكتاب فلا بد من حكيم مدبر، دبر الأمور ورتبها أيما ترتيب حتى كان هذا الوجود بجماده ونباته وحيوانه وإنسانه.

﴿قل أرأيتم أن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، من اله غير الله يأتيكم به، أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾[1]... (يعرضون).

* * *

أما الصدفة التي تلعب دوراً هاماً في الاكتشاف والاختراع، فانها لطف رباني يتيحها لهذا الانسان كي يستفيد مما أودع الله تعالى في الطبيعة من خواص للشفاء والغذاء والصناعات المفيدة إلى ما هنالك.

فالصدفة التي لعبت دوراً هاماً في كشف الأشعة السينية(Rayon X) هي لطف رباني، كان قد منَّ الله بها على (كروكس) وكذلك الصدفة في ربط الأسلاك الكهربائية بطريقة التوازي، والصدفة التي أتاحت لباستور العالم الفرنسي في استعمال التطعيم للقضاء على مرض الجدري وأمراض أخرى.

فالصدفة التي يمنحها الله تعالى تفضلاً منه للعالم حين تتبعه وقيامه بالتجارب ليس إلا لجعله واقفاً على ما أودع الله من قوانين وأنظمة وخواص موجودة قبل حدوث الصدفة في هذا الكون من جانب الله تعالى والصدفة المتاحة نوع تعليم من جانب الله تعالى لهذا الانسان. فكأن الله يريد أن يكافىء هذا المخترع أو بلفظ أصح هذا المكتشف على تتبعه وجهوده، فيجعله يقوم بأعمال لا يعلم ماذا ينتج منها وإذا به يقف دونما انتظار سابق على خواص جديدة ومكتشفات حديثة.

لذلك، يرى كثير من المكتشفين أن يداً سحرية ترافقهم في مكتشفاتهم

---

(١) سورة الأنعام: ٤٦.

حتى المرحلة الأخيرة من ربط الآلات أو وضع المعادلات والدساتير!.

أما الملحد الذي لا يؤمن بالله الذي بيده ملكوت كل شيء، يرى التغيرات والتطورات تأتي تباعاً وبطريق منطقي وتدرج علمي، فكيف يفسر كل ذلك وهو لا يؤمن بالله الذي خلق المرحلة الأولى والأصل والأساس بما فيه من أجزاء وقوى وطاقات والمراحل التالية وما يحيط بها من عوامل ومؤثرات... و...

إن الملحد ليعترف بالقصور الذاتي(Inestie) في الفيزياء فإذا جاء دور عزو المراحل وحدوثها وانتظاماتها: هذه المراحل التي لا تعد ولا تحصى، هذه المراحل التي تكاد لا تتناهى... إلى خالقها وموجدها ومرتبها أحكم ترتيب، وهو الله تعالى، توقف الملحد وعزا كل ذلك إلى قوة يراها موجودة في ذلك الكائن الحي أو غير الحي، كالاكسيجين والنيتروجين، وقال بتطورات ذاتية في ذلك الموجود الحي أو غير الحي. تطورات متسلسلة على ضوء المنطق الصحيح. فكأنه يريد أن يقول: ان في ذلك الكائن الحي أو غير الحي عقلاً يدبر نمو وتكاثر هذا الكائن حين أن هذا الملحد مع ما أوجد الله فيه من عقل لا يقوى على أن يغير مما في نفسه أو بدنه شيئاً. ولا يعلم كيف وجدت عينه أو أذنه أو شامته... الخ...

* * *

وهكذا، ترون، يقول أحد هؤلاء الماديين: «ليس لأحد يمكنه الآن أن يجزم في شيء عن أصل المادة ونهايتها». وقد قرر (كوستاولوبون) بالتجربة أن المادة تفنى وتعود أثيراً غير محسوس.

ويقول المادي: لا نعلم شيئاً عن كيفية تطور المادة، والشك لا يزال قائماً عن هذا الكون، هل هو متناه أو غير متناه؟.

فترون، أن المادي، يبني فلسفته على أشياء يجهلها هو ولا يعلم حقيقتها وكيفية نشوئها وتطورها وقطعها المراحل ثم وجود هذا الكائن الحي بعد ذلك على وجه البسيطة.

كان يقول «بركسون: (Bergson) الفيلسوف الفرنسي:

إن الحياة مبدأ أو عنصر أو فكرة مستقلة عن المادة، وانها إنما تستخدم المادة فقط كي تبدو أو تتمثل في أجسام الأحياء. ويقول: أنه ليس بعيداً أن تتخلص الحياة من المادة في المستقبل وتحيى الأحياء بلا أجسام.

والمادي يعترف قائلاً: لسنا نعرف ماهية الحياة الأولى، فربما كانت أبسط من الخلية، وذلك لأن الخلية الأولى كانت من الصغر ولين المادة الهلامية بحيث إذا ماتت لم يبق لها أثر يشهد على وجودها كبقية المتحجراتFocils ، ثم يعرِّف المادة قائلاً: لا نعرف كيف دبّت الحياة في الخلية الأولى... ويقول المادي: «لقد مضى زمن كان يحسب فيه الناس أن هناك تشابهاً عظيماً بين تكون المبلورات كالبرَد والثلج والألماس وبين تكون الحياة. ولكن الفرق عظيم بين الاثنين، فالتبلور يحدث بالاضافة الخارجية، أما الحي فينمو بالتمثيل الداخلي، أي أنه يحتوي على مادة جامدة أو حية، ثم يهضمها ويجعلها مثله، وهو يقول: ان دبيب الحياة الأولى في الجماد لا يزال سراً، وإنما المقرر المعروف: أنه ليس في الحي عنصر أو مركب لا نجده خارجاً في الجماد.

فالجسم الحي مؤلف من الكاربون والنيتروجين والأوكسيجين والايدروجين والكبريت وجملة أملاح أخرى. وبعض المركبات التي يصنعها الجسم الحي مثل النشا والبول والكئول يمكن صنعها الآن في المعامل الكيميائية. إلا أننا لو جمعنا المواد المؤلف منها الحي لما أمكننا مع ذلك أن نصنع خلية حية[1].

وهذا اعتراف جميل: أن الحيوية شيء آخر. غير المواد. وان العلم الحديث يجهل تكون الخلية الأولى بما فيها من حيوية، ولقد بسطنا القول في هذا المقام في الجزء الأول من التكامل ص: ٤٤٥ وفي الجزء الثاني ص: ١٠٣.

* * *

وعندما كنت أكتب هذا المقال، شاهدت عصفوراً كان قد دخل من ثقب

---

(١) نظرية التطور وأصل الانسان. لسلامة موسى. ص: ٤٥.

في نافذة من نوافذ الغرفة، ولم يستطع العودة إلى الحديقة فصار يطير ساعات ها هنا وها هنا. ويصطدم بالنافذة والزجاج تارة بعد أخرى، وهو لا يهتدي إلى سبيل، مع أني قد فتحت له نافذة كان في إمكانه أن يفر منها، لأن الشبكة السلكية كانت ممزقة والطريق مفتوح أمامه. وهكذا بقي حائراً مضطرباً، حتى جاء ولدي محمد أخذه وأخرجه إلى الحديقة بيده!.

فلو كان لهذا العصور أدنى تصرف في صنع أجهزة بدنه الدقيقة التي قد بلغت من الدقة وإتقان الصنع ما يجب أن يكتب فيه آلاف الصفحات لوجد طريقه من تلك النافذة المفتوحة إلى الخارج ونجا فوراً.

كل ذلك يدلنا على أن الكائن الحي بأنواعه المتنوعة وتطوراته المختلفة وتكامله المادي البطيء أو السريع وطفراته ونموه العقلي أو الغريزي، ليس له أدنى تصرف من تلقاء نفسه، وكل ما يحدث في داخله وكيانه إنما هو بأمر من الله وإرادة الله ومشيئة الله وقدرة الله التي لا تتناهى.

فليست نظرية التطور إن صحت في بعض المجالات إلا بياناً لما ألهم الله هذا الكائن الحي من مراحل لا تعد وإرادة تحقيقها بمشيئته، إذ هو الذي هيأ له الظروف والكفاءات والقابليات إلى ما هنالك.

وخير دليل على ذلك بقاء كثير من الكائنات الحية في حدود معينة من التكامل المادي، مع أن جهاز الهضم مثلاً من حيث الدقة وحسن الصنع هو نفس الجهاز في كائن حي آخر أرقى في عالم التفكير والحياة الاجتماعية.

فالتفكر في الموجودات في معزل عن يد ربانية مسيرة بشكل لا نفهمه ولا نعلمه تفكير مبتور يؤدي إلى فلسفة ضالة، مضللة، تسوق الانسان إلى جهل مرير.

﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

* * *

---

(١) سورة الحج: ٤٦.

فالنفوس الضالة، أو بالأحرى: النفوس الشريرة التي تحجرت بآثامها وفسوقها وكبريائها، فجحودها، تكون فلسفتها فلسفة خيالية، مضلة فلا تتوجه إلى الحق المتعال، بل يكون استنتاجها الفكري الحاداً وزندقة لعمى القلب من جراء الفسوق، «وإن أعمى العمى عمى القلوب» كما جاء في الحديث.

﴿بل إدّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾[1].

﴿أفمن يعلم إنما أنزل اليك من ربك الحق، كمن هو أعمى، انما يتذكر أولو الألباب﴾[2].

﴿قل من رب السماوات والأرض، قل الله، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، قل الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار»[3].

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون﴾[4].

وفي الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب».

وإن الله لا يضل إلا من تردى وضل بسوء اختياره وكثرة آثامه ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ [5].

إنه تعالى يقول: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ [6] بسوء اختيارهم وذلك لذنوب كثيرة أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها.

---

(١) النمل: ٦٦.
(٢) الرعد: ١٩.
(٣) الرعد: ١٦.
(٤) الأنعام: ٥٠.
(٥) آل عمران: ١٠٨
(٦) الأنعام: ١٢٥.

فطريق الحق مغلق على النفوس المتحجرة ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾ فتكون فلسفتها إلحادية غير منطقية، مبتورة. مستندة على أساس أوهن من بيت العنكبوت، ذلك لأنك لو تدرجت مع هذا الفيلسوف! نحو المراحل الأولى من الخليقة، قال لك: «أني لا أعلم، ولا يزال العلم يجهل ذلك، أو، لم يحن الوقت ليكتشف العلم حقيقة هذا السر. ولكن الزمان كفيل بذلك»!!... كلام سوفسطائي يخدع النفوس المنحرفة، الأثيمة الحالكة التي لا تبصر نفسها وما لها من عوالم شتى ليس لها أدنى تصرف في تغييرها وتعديلها لذلك يقول تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾[2].

ولا يكون التكذيب إلا من جراء تلوث النفوس بالذنوب والظلم والفساد في الأرض.

هذه سنة الله في أرضه: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾[3].

والله تعالى قد أخبرنا في كتابه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عن هذا الانسان الجاحد العدو لله الذي مَنَّ عليه بأنواع النعم، نِعَمٌ لا تعد ولا تحصى، بقوله جل من قائل: ﴿أوَ لم يَرَ الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾[4].

* * *

كيف يفسر لنا المادي ما يصنعه النمل الأبيض في أفريقيا من مستعمرات ضخمة من الطين مخلوطاً بلعاب فمه، وكل منها برج شامخ في

(١) سورة الذاريات: ٢١.
(٢) سورة الأنعام: ٣٩.
(٣) سورة فاطر: ٤٣.
(٤) سورة يس: ٧٧.

الهواء ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ٦ أمتار ومحيط قاعدته قد تصل إلى ١٥ متراً ولا يمكن هدم هذا البرج إلا بالديناميت. ويصنع النمل بالقرب من هذا البرج في جهةٍ أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة إذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك أنه البوصلة. وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحارى والجبال. ذلك لأن لها سطحين عريضين. أحدهما يشير إلى الشرق والآخر يشير إلى الغرب وسطحين ضيقين متجهين إلى الجنوب وإلى الشمال ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل. ولهذا يثق الأهالي في ذكائه الغريب، ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام.

ففي أية مدرسة عالية تعلم النمل الأبيض صنع بروج شامخة لا يمكن هدمها لما فيها من صلابة إلا بالديناميت، وممّ تعلم صنع المزولة لتعيين الجهات الأربع؟ لماذا لا يستطيع الفرد صنع المزولة وجعل لعاب فمه من حيث التركيب الكيمياوي كما في النمل الأبيض، وهو على ما يقوله البعض أقرب إلى الانسان من حيث التشكيلات الجسدية فحسب؟.

إذن ليس التطور في الحيوانات والحشرات وغيرهما بتطور ذاتي، وإنما يد ربانية ومشيئة إلهية تتصرف في ما خلق عن حكمة بالغة كي يرى الناس آثار عظمته تعالى في الآفاق والأنفس: ﴿سنريهم آياتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أوَ لم يَكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

﴿هو الذي أنـزل من السماء مـاء لكم منه شـراب ومنه شجـر فيه تسيمـون[2] ينبت لكم به الـزرع والزيتـون والنخيل والأعنـاب ومن كـل الثمـرات، إن في ذلك لآيـة لقوم يتفكـرون. وسخر لكم الليـل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه أن في ذلك لآية لقوم يذّكرون. وهو

(١) حم سجدة: ٥٣.

(٢) تسيمون: ترعون دوابكم، ذرأ: خلق، مواخر: تشق الماء بجريها. رواسي: جبالاً ثوابت.

الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميدَ بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون، أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم﴾[1]



(١) سورة النحل: ١٠ ـ ١٨.

عوالم القدس

ليس الانسان هذا البدن فحسب، أي ليس الانسان مجموعة كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الفوسفور وكذا غراماً من الهايدروجين ومن الأوكسيجين، إلى ما هنالك من عناصر، كما يقوله المادي، إنما هو نفس حساسة وروح فياضة وعقل وشعور وإحساسات وأمان وعواطف وميول إلى ما هنالك.

فالانسان انسان بنفسه لا بعضلاته وعظامه ودمه ولحمه وبما يؤلف بدنه من عناصر.

إن الأعضاء المادية التي تشكل هذا البدن تساعد الانسان لبلوغ أمانيه ولبلوغ تلك الغاية التي خلقه الله تعالى لأجلها. إلا وهي معرفة الله جل وعلا. وقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[1] دليل واضح على أن العلة الغائية من وجودنا في هذه الدنيا إنما هي عبادة الله تعالى وتوحيده وتقديسه والتقرب إليه، ثم معرفته. ذلك، لأن العبادة بما فيها من تسبيح وتحميد وخشوع وخضوع وصلاة وصوم وحج وزكاة وخمس وصبر على النوائب وأخلاق فاضلة والقيام بأعمال صالحات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقدمة لمعرفة الله تعالى.

فلا يمكن الوصول إلى معرفة الله: معرفة تتناسب والاستعداد البشري إلا بعبادة مقبولة، بكل ما في العبادة من معنى واسع مع خشوع وخضوع. فكلما شعر الانسان أنه يذوب حباً لله ويزداد له خشوعاً وإنابة علم أنه يتقرب إلى الغاية التي خلق لأجلها، إلا وهي معرفة الله جلت قدرته.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

هل شعرت في صلاتك بانجذاب نحو المبدأ الأعلى وحبور وسرور من جراء هذا الانجذاب اللاهوتي؟

هل دمعت عيناك وأنت في صلاتك عند تلاوة بعض الآيات من كتاب الله المجيد؟. وهل عرجت نفسك أثناء القنوت وأنت رافـع يديـك نحو السماء إلى معالم قدسية تفوق حدود الوصف والتعريف؟.

وهل أحسست عند قراءتك دعاء كميل ليلة الجمعة وأنت تناجي ربك عن قريب، ذليلاً، خاشعاً، معترفاً بذنوبك، ودموعك تنهمل على خديك ندماً وتأسفاً بانجذاب روحي نحو الله الذي لا تتناهى عظمته، فزدت فرحاً لا يشبه أفراح الدنيا المشوبة الزائلة في شيء؟.

وهل شعرت بعد الانتهاء من دعاء كميل كأن حملاً قـد وضع عن كاهلك، وقد أصبحت في عالم آخر قد رفع عنك أوزار الذنوب والآثام ورفع عنك الحجاب على قدر معرفتك بالله المتعال. . أو بالأحرى على قدر طهارة نفسك؟.

وهل حضرت المآتم الحسينية، فصرت تذكر تلك التضحية الغالية التي عجز عنها الأنبياء (ع)، تذكر مناجاة أصحاب الحسين (ع) في ليلة العاشر من محرم ولهم دوّي كدوّي النحل بين راكع وساجد وقائم وقاعد؟ هل ذكرت كيف يستسقى عليه السلام لطفله الرضيع والقوم أبوا أن يـرحموه فقال (ع): «هوّن عليَّ ما نزل بي أنه بعين الله» وانهملت دون إرادة منك دموعك، فدخلت في ذلك العالم الروحاني الرقيق الذي كان قد دخل فيه أصحاب الحسين عليهم السلام ليلة العاشر من محرم ويومه؟.

وهل وُفقتَ أن تقوم جوف الليل وتصلي ركعات ثم تناجي ربك بقلب ملؤه الاخلاص وقد اغرورقت عيناك بالدموع حزناً على ما فرطت في جنب الله، وفرحاً بهذا المثول اللاهوتي، المثول بين يدي رب العالمين، وصرت تفكر في عوالم الآخرة وعظمة الله تعالى وموقفك الضئيل منه، وشعرت إذ ذاك أنك تدخل في عالم جديد، عالم بعيد عن عالم المادة الحالك كل البعد، عالم كله صفاء وعلو وارتفاع؟.

وهل وُفقتَ أن تخاطب الله تعالى في قنوتك قبيل الفجر قائلاً بكل خشوع واسترحام: «ألهي أسأت وظلمت نفسي وبئس ما صنعتُ وهذه يداي يا رب جزاءاً بما كسبت وهذه رقبتي خاضعة لما أتيت وها أنا ذا بين يديك، فخذ لنفسك من نفسي الرضا حتى ترضى، لك العتبى، لا أعود.. ثم تقول: وقد ملئت حزناً وبكاءاً وندامة هذا مقام العائذ بك من النار (٧ مرات).

وهل ناجيت الله تبارك وتعالى، بعد الانتهاء من صلاة الليل، صلاة المتهجدين، الخاشعين، صلاة المستغفرين بالأسحار[١] قائلاً: «الهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله في عرصات يوم القيامة. ثم تبكي وتقول ـ كما كان يفعل إمامنا زين العابدين عليه السلام ـ وعزتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى عليَّ فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني، فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط، ويلي، كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحيي من ربي، وتبكي وتقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح زرية وما في الورى شخص جنى كجنايتي

وهل خاطبت الله تعالى يوماً في معزل عن الناس وناجيته مناجاة التائبين، قائلاً: «الهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي ويا سؤلي ومُنيتي، فوعزتك ما أجد لذنوبي سواك غافراً، ولا أرى لكسري غيرك جابراً، وقد خضعت بالانابة اليك وعنوت بالاستكانة لديك، فان

---

(١) ﴿والذين يقولون: ربنا أننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾. (سورة آل عمران: ١٦ ـ ١٧).

طردتني من بابك فبمن ألوذ، وان رددتني عن جنابك فبمن أعوذ. . . الخ».

فدخلت في عالم جديد من عوالم القدس، قد رفع الحجاب إذ ذاك بينك وبين خالق السماوات والأرضين وبلغت مرتبة مرموقة من اليقين.

وهل تلوت القرآن قُبيلَ الفجر بصوت حزين، مفكراً في آياته، متدبراً معانيه، وقد ألهمت من جانب الله تعالى معاني جديدة لم تكن تتلقاها في وقت آخر أو بالتعلم، وقد عرجت بك هذه المعاني إلى عوالم سامية رفيعة يستحيل بيانها وشرحها باللسان والبنان؟.

وهل وقفت مع الحجاج يوم عرفة عند العصر عندما تأخذ الشمس بالأفول وقرأت دعاءاً كان يقرأه أبو عبد الله الحسين عليه السلام: بخضوع وخشوع ودموع. فترى كيف أن النفس تخرج من عوالم الناسوت صاعدة نحو عوالم الملكوت، وكيف تخرج من حضيض المادة العمياء إلى العالم العلوي إلى معالم القدس، فتسبح في عوالم قدسية ليس لهذه الألفاظ أن تعبِّر عنها، فقد بلغت من القدسية مرتبة تفوق تعبير المعبرين وبيان البلغاء المفوهين؟.

وهل وفقت إلى خدمة جارك المريض من أول الليل إلى السحر. تجلب له الطبيب وتقدم له الدواء وتسليه وتداريه وتقرأ له الأدعية المأثورة للشفاء وخالفت هواك في ميلها إلى الراحة والنوم. كل ذلك طلباً لمرضاة الله وشعرت إذ ذاك براحة الضمير وحبور ناصع لا يشبهه أي حبور، حبور يسمو على البيان والتعبير، فكنت مصداق هذا الحديث النبوي: «من سرته حسنته وأساءته سيئته فذلكم المؤمن» فبلغت إذ ذاك مرتبة مرموقة من الايمان تقارب مرتبة اليقين: إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين»[1].

وهل وفقت أن تذهب من تلقاء نفسك إلى قرية من القرى لوجه الله دون أن تُعلم أحداً بذلك، فتجتمع بالمؤمنين وتستعين بهم في هداية

---

(١) سورة هود: ١١٥.

الشباب إلى دين الله القويم، ودفع ما يختلج في صدورهم من شبهات جاءت من دسائس المستعمرين وكيد الكائدين. فتنور قلوبهم بمعالم الدين وسنة سيد المرسلين والأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين؟.

كل ذلك من عوالم القدس يقربك إلى سعادة حقيقية، سعادة فيها الزلفى والقربى من الساحة الملكوتية وفي غاية الغايات.

ليست السعادة في نيل أموال طائلة وقصور مشيدة وجاه ورئاسة إلى ما هنالك، فقد قال الله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ . وفي الحديث عن أبي الحسن (ع) أنه ذكر رجلاً فقال: أنه يحب الرئاسة فقال: ما ذئبان ضاريان[1] في غنم قد تفرّق رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من الرئاسة[2]

وعن أبي عبد الله (ع) قال: من طلب الرئاسة هلك.

وعن عبد الله بن مسكان، قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله، ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك.

وقد قال أبو عبد الله عليه السلام: معلون من ترأس، ملعون من همّ بها، ملعون من حدث بها نفسه[3].

وعن أبي حمزة الثمالي، قال: قال لي أبو عبد الله (ع): إياك والرئاسة وإياك أن تطأ أعقاب الرجال، قال: قلت: جُعلت فداك، أما الرئاسة فقد عرفتها، وأما أن أطأ أعقاب الرجال، فما ثلثا ما في يدي إلا مما وطئت أعقاب الرجال. فقال لي ليس حيث تذهب، إياك أن تنصب رجلاً دون الحجة، فتصدقه في كل ما قال.

عن أبي الربيع الشامي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ويحك يا أبا الربيع، لا تطلبن الرئاسة ولا تك ذنباً. ولا تأكل بنا الناس، فيفقرك الله، ولا

---

(١) الضاري: من الحيوانات كالأسد والنمر.

(٢) أصول الكافي: ج ٢/٢٩٧.

(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص/٢٩٨، ط: طهران.

تقل فينا ما لا نقول في أنفسنا، فأنك موقوف ومسؤول لا محالة، فان كنت صادقاً صدقناك، وإن كنت كاذباً كذبناك.

وعن إبن مياح عن أبيه قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: من أراد الرئاسة هلك.

وعن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أترى لا أعرف خياركم من شراركم. بلى والله وإن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه، أنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي.

إنما تتحقق السعادة في قطع مراحل في عوالم التقوى والتزكية، مراحل تقرب هذا الانسان إلى ربه المتعال، توصله إلى الغاية التي خلقه الله لأجلها.

﴿والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم﴾[1].

ليست السعادة على ما جاء في بعض كلمات فلاسفة الغرب: ان يتناول الانسان صبيحة يوم ممطر بارد أشد البرد كوباً من الحليب على فراش وثير في غرفة دافئة، أنها نظرة مادية حالكة سخيفة، توصل الفرد إلى الحضيض. ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون﴾[2].

* * *

فالسعادة أن تُصلح ما بك من صفات وقوى على وجه يريده الله، تصلحها جميعاً دون تبعيض وبصورة دائمة، حتى تتكون فيك عادة متأصلة لا تغيرها الأحوال والأزمان. ولا تزول مع الحوادث والمصائب. فيقينك إذ ذاك ثابت لا تؤثر فيه الشبهات، وشكرك دائم لا يزول مع المحن والنوائب. وصبرك حاكم لا يزول مع الفتن والأحداث، وإحسانك أبدي لا يزول بالاساءة، وصداقتك مستقرة لا تزول بالعداوة، فالسعيد من تطهر من جميع

---

(١) سورة الواقعة: ١٠ ـ ١٢.

(٢) سورة التين: ٤ ـ ٦.

الخبائث الجسمانية والأقذار الحيوانية، فلا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية[1]، انه ممتلىء من الأنوار الالهية والمعارف الحقيقية، فعلينا أن نتأسى برسول الله (ص) لنيل بعض هذه المراتب ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾. فمن بلغ هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الالهية واللذة الحقيقية، لذة تفوق اللذات بأسرها، وانتعاش نفسي لا يدنو منه أي انتعاش.

السعادة لحظات انخطاف تحلق بالنفس البشرية وراء حدود المكان والزمان. فتضع عنها آصار المادة وتحررها من أوضار الحقد والاثرة فلا ترى إلا الجمال ولا تستشعر سوى الحب.

فإذا هي واقع يعيشه المؤمن سلاماً لا قلق فيه، وغبطاً لا كدر معها وطهراً روحياً لا يتسلل اليه ضغن.

وأية غبطة يمكنها أن تضاهي تلك التي يستشعرها المؤمن هناك؟

وفي هذه الغمار النورانية يعيش الانسان آمن السرب، مطمئن القلب، خالي الذهن من كل شاغل يصرفه عن الاستغراق في ملكوت الله.

أو ليس في هذا السلام والطمأنينة والأخوة الضالة التي يفتش عنها المفكرون، ويتلهب اليها الحزانى والمعذبون.

فالانسان بأخذه المعارف الالهية واقتفاء الفضائل الخلقية يعرج إلى أفق الملائكة.

ولنصغ إلى موعظة أخلاقية للشيخ الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب إبن مسكويه الأستاذ في علم الأخلاق وأقدم المسلمين في تدوينه. أنه يقول:

«إني تنبهت من نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة، فتوجهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات وجاهدت جهاداً عظيماً حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها، فلا ييأسنَّ أحد من رحمة الله، فان النجاة لكل طالب مرجوة وأبواب الافاضة أبداً مفتوحة.

---

(١) جامع السعادات ج ١٤٧/١.

«فبادروا إخواني إلى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤوساً والعقل مقهوراً. فيفسد جوهركم وتمسخ حقيقتكم ويدرككم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن أفق الانسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين نعوذ بالله من ذلك ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له. وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء فرماها في نار مضطرمة فيحرقها، حتى تصير كلساً لا منفعة فيها»[1].

فطوبى لنفوس عاشت ما ذكرنا من عوالم قدسية، فبلغت في عوالم القدس مقامات رفيعة، وتخلصت من أدرانها وأوضارها، فشعرت حبوراً فوق حدود الوصف بهذا الاتصال اللاهوتي واطمأنت بأذكارها وأورادها ومثولها بين يدي رب العباد ليل نهار. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فأصبحت من النفوس المطمئنة، بعد أن كانت لوامة، فصار لها أنوار قدسية يمن بها الله على المطهرين من عباده الصلحاء: ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها. كذلك، زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾[2].

وطوبى لنفوس بلغت من الصفاء والجلاء حتى استفادت من الأنوار الالهية والالهامات الحقة الربانية. وحصلت على علم هو ﴿نور يقذفه الله في قلب من يشاء﴾. فكانت مصداق قول علي عليه أفضل الصلاة والسلام حيث يقول:

«إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتلجبب الخوف. فزهر مصباح الهدى في قلبه» إلى أن يقول: «قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً إنفرد به فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى. ومغاليق أبواب

---

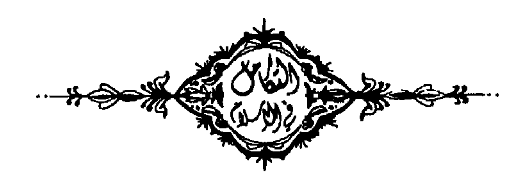
(١) جامع السعادات: ج ١/ ص: ٤٩. من كلام المولى محمد مهدي النراقي.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٢.

الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره، وقطع غماره[1]، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس».

ويقول عليه السلام في كلام آخر:

«قد أحيى قلبه وأمات نفسه حتى دق جليله ولطف غليظه. وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الاقامة، وتثبت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه».



(١) غمرة الشيء: شدته ومزدحمه، جمعه: غمرات وغمار ومنه غمرات الموت أي: مكارهه وشدائده.

العلوم الكونية في القرآن

سؤال:

دارت بيني وبين أحد الأخوان مناقشة حول الاختراعات الحديثة: الميكانيكية التي توصل اليها المخترعون على مختلف جنسياتهم، مما دعا أحدنا أن يقول: ان لهذه المخترعات علاقة وثيقة بالقرآن الكريم، وان هؤلاء المخترعين لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه لولا القرآن الكريم، وقال الآخر عكس ذلك. نرجو توضيح هذا. واليكم قسماً من الاختراعات التي دارت المناقشة حولها:

التلفزيون، الطائرة، الراديو، التلفون.

داود السعدون

بسم الله الرحمن الرحيم

الجواب:

ليس القرآن الكريم كتاباً يبحث عن علم الميكانيك العملي أو الرياضي والكيمياء الصناعية أو العضوية أو علم الفيزياء النظرية أو العملية أو علوم أخرى لها علاقتها بالمخترعات الحديثة، ذلك لأن هذه العلوم تستند إلى مقدمات مفصلة وكثيرة يحتاج شرحها وبيانها إلى آلاف الصفحات، وان تاريخ العلوم يشرح لنا جانباً منها، وما اكتشف في الميكانيك أو الفيزياء أو الكيمياء قليل جداً بالنسبة إلى ما أودع الله من قوانين كونية في هذا الكون الرحيب. وان العلماء الكونيين ليعترفون بذلك فهم كلما اكتشفوا شيئاً نادوا بأعلى أصواتهم: انهم أمسوا أمام أودية من المجاهيل! حتى أنهم ليشكوّن في بعض ما اكتشف من قوانين لحد الآن، ويرونها لا تنطبق إلا في مجال محدود، ولذلك عمد آينشتين إلى تصحيح دساتير (نيوتون) في الجاذبية.

فلو أراد الله تعالى تعليم البشر العلوم الكونية أو المادية لاحتيج في تدوينها إلى ما لا يتناهى من الصفحات، ذلك لأن ما أودع الله من خواص وصفات وكيفيات وقوانين ودساتير في ربط أجزاء هذا العالم المادية بعضها ببعض وانقلاب هذه المادة إلى طاقات أو الطاقات إلى مادة إلى ما هنالك من تفاعلات ومفاعلات تكاد لا تتناهى، حسب قوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾. (سورة الكهف: ١١٠).

ولكنه تعالى جهز العقل الانساني بقابليات وقوى من استنتاج واستقراء وتجريد وتعميم وتخيل وتصور وتداعي الأفكار إلى ما هنالك كي يتمكن

الانسان بمعونتها من كشف ما يجهله باذن الله تعالى. على أن الصدفة تلعب دوراً كبيراً في المخترعات، وليست الصدفة إلا يداً ربـانية تهيىء للمخترع مصادفات تتجلى له كثير من الحقائق والصفات والحالات بـل والدساتير.

وقد قال عز من قائل: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[1] وهذه الأسماء هي القـابليات المكنـونة في العقـل الانسـاني والتي بهـا يتمكن من الكشف والاكتشاف باذن الله تعالى.

وهذا (بوانكاره) من أعاظم رياضيي فرنسا كان يقول: ان ريشة سحرية كانت تملي عليّ المعادلات وطرق الحل والدساتير. وبمثل ذلك كان يقول أينشتين: أعلم علماء القرن العشرين.

إن القرآن ليس كتاب جبر أو هندسة أو الحساب التمامي والتفاضلي، وإنما هو مجموعة دساتير تهدي هذا البشر سواء السبيل: سبيل لا يقوى أعظم الفلاسفة أن يحدها أو يعينها، لأن نفس هذا الفيلسوف متأثرة بمحيطه وبيئته. فنفسه نفس غير متكاملة، وأنى لنفس غير متكاملة أن تأتي بدساتير كاملة لاسعاد البشر في النشأتين. ولذلك كان من لطف الله أن يرسل أنبياء مبشرين ومنذرين لهداية البشر وإسعادهم في النشأتين عملاً بسنة الكمال، ذلك لأن الكمال ضارب بأطنابه في عوالم المادة أي في كل ما خلق الله تعالى في هذا الكون المادي، ولا ينبغي أن يشذّ هذا الانسان عن هذا الكمال، ذلك لأن الله تعالى وهو الكامل على الاطلاق لا يصدر منه إلا الكمال. فأرسل الأنبياء وأنزل معهم الكتب المقدسة تحقيقاً لسنة الكمال وتعميماً لتحقق الكمال في كل ما خلق من نفوس وأرواح ومواد إلى ما هنالك.

وإن قوله تعالى: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[2] أي ما من شيء إلا وعلمه عند الله تعالى أو في اللوح المحفوظ ولا يراد في الآية

---

(١) سورة البقرة: ٣١.

(٢) سورة الأنعام: ٥٩.

من (كتاب مبين) القرآن حتى نقول: ما من علم إلا وهو في القرآن.

فالقرآن كتاب تهذيب وهداية، كتاب تزكية وتطهير لنفوس البشر الضالة. وهو القائل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(١).

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾(٢).

القرآن موصل هذا الانسان إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر. القرآن يوصل البشر ـ لو عمل به ـ الى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

في القرآن آيات جمة تبلغ ٧٥٠ آية تعطينا عصارات العلوم الحديثة وما توصلت إليه المكتشفات في شتى النواحي وما ستصل إليه في المستقبل فقد قال ابن عباس: «إن في القرآن معاني سيكشفها الزمن».

كان العلم الحديث يجهل إلى قبل ٥٠ عاماً أن للشمس حركة خاصة بها، ولكن القرآن كان ينادي منذ ١٤ قرناً: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. حتى إذا تقدمت العلوم الرياضية بما فيها الميكانيك الرياضي واخترعت تلسكوبات كبيرة جداً علموا أن الشمس تتحرك في الفضاء بحركة لولبية أي تسير في الفضاء بسرعة قدرها ٧٢٠٠٠ كيلومتر في الساعة على وجه التقريب نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع على شكل لولبي (المنحنى اللولبي). فالقرآن في علومه سابق للعلم الحديث ولكن بإعطاء النتيجة النهائية دون شرح المقدمات والدساتير والمعادلات كما في كتب الفلك العالي والميكانيك السماوي وغيرهما.

كان يقول القرآن بحركة الأرض قبل (كوبرنيك وكبلر) و (كاليلة) بقرون وذلك بقوله:
﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي

---

(١) سورة التوبة: ٣٤.

(٢) سورة الجمعة: ٢.

اتقن كل شيء﴾[1].

كذلك، ما كان البشر يعلم أن الزوجية متحكمة بأمر الله في كل شيء، حتى الجماد، حتى إذا اكتشف بطن الذرة وعلم أن ذرة كل عنصر من العناصر من هايدروجين وهليوم وكالسيوم وأورانيوم الخ تتألف من الكترون: كهربائية سالبة وبروتون: كهربائية موجبة ونيوترون: كهربائية متعادلة. وان الالكترون يدور بسرعة فائقة حول البروتون فالاكلترون بمثابة الأنثى والبروتون بمثابة الذكر. ولكن الله قد ذكر ذلك منذ قرون في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. بقوله جل من قائل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. وبقوله: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ فالذي ما كان يعلمه البشر ثم علمه بإذن الله هو هذه الزوجية في الجماد أو العناصر أي الذرات برمتها.

وكذلك بالنسبة إلى تشكل الأمطار في قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً﴾ والتأليف هو الكهربائية التي تلعب دوراً هاماً في هطول الأمطار على حد قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءاً وما أنتم له بخازنين﴾، فهذا التلقيح هو التلقيح الكهربائي بين سحابة وسحابة أو بين ذرات بخار الماء لقوله تعالى بعد أرسلنا الرياح: ﴿فأنزلنا من السماء ماءاً﴾ فنزول الماء من السماء متوقف على هذا التلقيح الكهربائي. وهذا من مكتشفات القرن العشرين.

وهناك آيات أخرى كثيرة لا مجال إلى ذكرها تنبيء عن آخر ما توصل إليه العلم الحديث. وآيات أخرى لا يزال المراد الحقيقي منها مجهولاً إلى أن يتقدم العلم المادي أشواطاً أخرى كي يعلم البشر حقيقتها والمراد منها. وكفى بالقرآن معجزة أنه قد سبق العلم الحديث بآيات بينات هي عصارة العلم الحديث وما سيكتشفه الانسان باذنه تعالى في مستقبل قريب أو بعيد.

---

(١) سورة النمل: ٨٨.

هل يجوز لنا أن نقول:

«رجل عظيم»

سؤال يسأله أحد المؤمنين قائلاً: هل من الجائز أن يقال (رجل عظيم) مع العلم أن العظمة خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها أحد.

الجواب: العظمة على نوعين: عظمة لا تتناهى وهي عظمة الله تعالى في كل شيء: في القدرة والعلم والهيمنة والسلطان والرحمة وهو القائل ﴿ورحمتي وسعت كل شي﴾[1] لذلك لا يقاس علم الانسان المحدود بعلم الله الذي لا يتناهى، وقد قال جل من قائل: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾[2].

فلو فرضنا علم الانسان = ب. فيكون علم الله تعالى = ∞ (لا نهاية) ونسبة علم الانسان إلى علم الله = $\frac{ب}{\infty}$ ومعلوم أن مآل هذا الكسر الذي مخرجه غير متناه هو الصفر. فلا قيمة لعلم الانسان تجاه علم الله غير المتناهي.

وكذلك القول بشأن قدرة الله تعالى وبقية صفاته التي هي عين ذاته. ذلك لأن صفات الله من علم وقدرة... غير مكتسبة. كصفات الانسان التي تكتسب بالتدريج أما بالتعلم، أو بالتمرين والممارسة. فالانسان عالم بالاكتساب وبالهام من جانب الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٥.

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

وأما قولنا: رجل عظيم، فهذه عظمة محدودة، مقتضبة، عظمة نسبية، بالنسبة إلى عظمة أناس آخرين. ومعنى ذلك: إن ملكات هذا الرجل وقابلياته واستعداده أعظم أو أكثر من أقرانه فيسمى عظيماً بالنسبة إلى أفراد آخرين محدودي العظمة. كما يقال: دار عظيمة بالنسبة إلى دور أخرى. أو شجرة عظيمة بالقياس إلى أشجار أخرى. وما دمنا نقصد المحدودية في قولنا: رجل عظيم، فليس هنالك اية حرمة في إيراد هذا الوصف النسبي، مع العلم أنه لا عظيم بصورة لا نهائية إلا الله تعالى.

وهكذا قولنا: الله اكبر. فلا نقصد من لفظ: أكبر، ما جاء في صيغة افعل التفضيل، إنما نقصد: أن لا شيء أكبر من الله دونما قياس وينتفي وينعدم مفهوم القياس في هذا المقام. ولا تتحقق اللانهائية بصورة حقيقية إلا في الله تعالى وكل ما في الكون من فضاء ومجرات ونجوم وطاقات محدود بالنسبة اليه تعالى. وهو الذي خلقها وأنشأها وربطها بدساتير ومعادلات رياضية رصينة تدهش الألباب. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1]. وجميع ما هنالك من قابليات وصفات، وطاقات ونظم وكفاءات في الجماد والنبات والحيوان والانسان وغيرها إنما هي من جانب الله تعالى وعظيم رفده وكمال لطفه.

لذلك يقول إمامنا ومولانا سيد الساجدين علي بن الحسين عليهما السلام في دعاء علمه أبا حمزة الثمالي مخاطباً رب العباد: «من أين لي الخير ولا يوجد إلا من عندك».

وبما أن الله تعالى لا نهائي، فليس لأي انسان مهما سما في عوالم القدس أن يعرف الله تعالى حق المعرفة. ذلك لأنه يستحيل على المحدود وهو الانسان: المحدود في جميع قابلياته وملكاته، أن يحيط بغير المحدود وهو الله تعالى.

لذلك يقول رسول الله (ص): «لا أحصي ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

---

(١) سورة الملك: ٣.

وقال علي (ع): «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبه له».

فعبثاً يحاول المادي أن يرى الله تعالى في مختبره أو مخبرهTube وهو محدود في مختبره ومخبره وعقله وكفاءاته. إنما يعرف الله بعقله: ذلك العقل الذي قد أودع الله فيه غريزة السؤال والعلية والسببية، بحيث يسأل عن سبب حدوث كل شيء وعن الخواص والقوانين المترتبة بعضها على بعض. وكذلك عن المعادلات والدساتير الرياضية والقوانين التي تربط أجزاء العالم من الذرة فصاعداً بعضها ببعض فيعزو كل ذلك إلى الله المتعال، لو كان هذا العقل باقياً على فطرته، لم تفسده أو تحرفه نفس جامحة شريرة بذنوبها وآثامها، وإلا انقاد إلى ما يمليه عليه شيطانه، من الشكوك والريب والجحود، إلى ما هنالك.

﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾[١].

﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[٢].

---

(١) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨.

(٢) سورة الأعراف: ٢٧.

علي عليه السلام والتقويم

جاء أحد علماء بني اسرائيل علياً عليه الصلاة والسلام وسأل ما مؤداه:

لماذا جاء في قرآنكم أن مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم: ثلاث مائة سنين وازدادو تسعاً. من سورة الكهف. وذلك في الآية: ٢٥ ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ ولم يقل: ثلاث مائة وتسع سنين، وفي كتبنا أن مدة لبث أصحاب الكهف في الكهف: ثلاث مائة سنة فقط.

فأجاب علي (ع) دونما تفكير: «سنوكم شمسية وسنونا قمرية».

ومعنى ذلك أن الله جمع في عبارة موجزة بين نوعين من السنين، سنين شمسية وهي ٣٠٠ سنة وسنين قمرية المعادلة للسنين الشمسية وهي ٣٠٩ سنين.

توضيح ذلك: أن اليهود كانوا يعتبرون السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وان السنة القمرية تعتبر ٣٥٤ يوماً و ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة.

وقد علم الأقدمون بعد تجارب عدة واختبارات شتى أن الفترة الزمنية بين هلالين متواليين هي ٢٩ يوماً و١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة. فعليه لو ضربنا هذه الفترة الزمنية بين هلالين في ١٢ أي:

١٢ × (٤٤ دقيقة/١٢ ساعة/ ٢٩ يوماً) = ٤٨ دقيقة/٨ ساعة /٤٥ يوماً وإن ٣٠٠ سنة على ما كان معتبراً عند اليهود لتعادل:

٣٠٠ × ٣٦٥ = ١٠٩٥٠٠ يوم.

و ٣٠٩ من السنين القمرية دون ملاحظة الكسر تساوي ٣٠٩× ٣٥٤ = ١٠٩٣٨٦ يوماً.

وبما أن ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة تعادل $\frac{١١}{٣٠}$ من اليوم الواحد.

فلنكرر $\frac{١١}{٣٠}$ ، ٣٠٠ مرة أيضاً.

$٣٠٠ \times \frac{١١}{٣٠} = ١١٠$ أيام.

وبما أن في السنوات القمرية تحسب السنة الثانية والخامسة والسابعة والعاشرة كبيسة أي عدد أيام سنتها ٣٥٥ يوماً، إذن في ٩ سنوات قمرية توجد ٤ سنين كبيسة، لأن السنة التاسعة أقرب إلى العاشرة إذن:

١٠٩٣٨٦ + ١١٠ + ٤ = ١٠٩٥٠٠ يوم.

وهكذا يكون عدد أيام ٣٠٠ سنة شمسية مساوياً لعدد أيام ٣٠٩ سنة قمرية دونما فرق[١].



(١) مترجمة عن مجلة (مكتب الاسلام) الصادرة في قم.

ليلة ميلاد الحسن عليه السلام

ما أبهجها من ليلة وما أسعدها. انها ليلة يولد فيها أول السبطين سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي رسول الله (ص) وأحد الخمسة أصحاب العباء.

فلما ولد عليه السلام قالت فاطمة (ع) لعلي (ع): سمه. فقال: ما كنت لأسبق رسول الله (ص) في تسميته، فجاء النبي (ص)، فأخرج إليه في خرقة صفراء، فرمى بها وقال: ألم أنهكم ان تلفوا المولود في خرقة صفراء، وأمر أن يلف في خرقة بيضاء، وسرَّه (قطع سرته) وألباه بريقه[1] كما يصب اللبا في فم الصبي وقال: أللهم أني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم، وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى.

وعقَّ رسول الله (ص) عن الحسن بيده، وقال: بسم الله، عقيقة عن الحسن. وقال: أللهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، أللهم اجعلها وقاءاً لمحمد وآل محمد، وتصدق بزنة شعره فضة.

وكان الحسن (على ما جاء في الارشاد للمفيد عليه الرحمة) أشبه الناس برسول الله (ص) خلقاً وهيأة وهدياً وسؤدداً.

وكان الحسن (ع) أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم ومن أوسع الناس صدراً وأسجحهم خلقاً.

وكان عليه السلام، إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً. وكان إذا ذكر الموت بكى وإذا ذكر القبر بكى وإذا ذكر البعث والنشور بكى وإذا ذكر العرض على الله تعالى شهق شهقة يغشى عليه منها، وإذا قام في صلاته ترتعد

---

(١) أي صبه في فمه.

فرائصه وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار.

وكان لا يقرأ من كتاب الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلا قال: لبيك، لبيك، أللهم لبيك.

وكان عليه السلام: إذا توضأ ارتعدت مفاصله واصفر لونه، فقيل له في ذلك، قال: حق على كل من وقف بين يدي رب العرش أن يصفر لونه وترتعد مفاصله وكان إذا بلغ باب المسجد، رفع رأسه وهو يقول: إلهي ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم... كل ذلك لأن النفس القدسية تخاف الله إلى حد بعيد، فتزداد علماً ومعرفة بالله تعالى وقد جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له».

وكان رسول الله (ص) يحب الحسن والحسين حباً جماً، وهو القائل: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة.

وروى الترمذي بسنده عن أسامة بن زيد في حديث: أن الحسنين كانا على وركي رسول الله (ص) فقال: هذان ابناي وابنا ابنتي، أللهم أني أحبهما، فأحبهما وأحب من يحبهما.

وكان رسول الله (ص) يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار اليهم أن دعوهما، فإذا قضى الصلاة وضعهما في حجره، فقال: من أحبني فليحب هذين.

وقد قال رسول الله (ص): ان الجنة تشتاق إلى أربعة: علي وفاطمة والحسن والحسين.

وإنَّ هذه الواقعة لتدل على ما للحسن والحسين من كرامة عند الله تعالى وذلك أن الحسن والحسين (ع) اصطرعا بين يَدَي رسول الله (ص) فقال رسول الله: أيها حسن خذ حسيناً، فقالت فاطمة: يا رسول الله أتستنهض الكبير على الصغير، فقال (ص): هذا جبرائيل يقول: إيها حسين، خذ حسناً.

وقال مدرك بن زياد لابن عباس وقد أمسك للحسن ثم للحسين بالركاب وسوى عليهما ثيابهما. أنت أسن منهما، تمسك لهما بالركاب، فقال: يا لكع وما تدري من هذان. هذان ابنا رسول الله (ص) أوَ ليس مما أنعم الله عليّ به أن أمسك لهما وأسوّي عليهما.

وإن هذه الحادثة تعلمنا آداب التعليم والجمال الأخلاقي وتوقير الكبير.

روي أن الحسن والحسين عليهما السلام مرّا على شيخ يتوضأ ولا يحسن الوضوء، فأظهرا تنازعاً، يقول كل منهما للآخر، أنت لا تحسن الوضوء. وقالا: أيها الشيخ كن حكماً بيننا، فتوضئا وقالا أينا يحسن الوضوء. فقال الشيخ: كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يحسن وقد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدكما.

ومن سخاء الحسن (ع) أنه قاسم الله ماله ثلاث مرات وخرج من ماله مرتين وقد روى ابن شهراشوب في المناقب: أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال إئت بحمال يحمل لك، فأتى بحمال، فأعطاه طيلسانه وقال: هذا كرى الحمال.

وقد خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً ففاتتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزاً في خباء فاستسقوها، فقالت: هذه الشويهة، أحلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا واستطعموها، فقالت: ليس إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم، فذبحها أحدهم وكشطها، ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا[1] عندها. فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا عدنا فألمّي بنا، فانا صانعون بك خيراً ثم رحلوا. فلما جاء زوجها أخبرته، فقال: ويحكِ، تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم. ثم تقولين نفر من قريش، ثم مضت الأيام، فأضرت بها الحال فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الحسن (ع) فعرفها، فقال لها: أتعرفينني؟ قالت: لا. قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا، فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث معها رسولاً إلى الحسين (ع) فأعطاها مثل ذلك، ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك.

---

(١) أي ناموا عند الظهيرة.

ومن تواضعه عليه السلام أنه مرّ على فقراء قد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها فقالوا له: هلمَّ يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء، فنزل وقال: فان الله لا يحب المتكبرين وجعل يأكل معهم، حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته، ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم.

وروى الصدوق في كتاب التوحيد: أنه جاء رجل إلى الحسن (ع) فقال له: يا بن رسول الله، صف لي ربك كأني أنظر اليه، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يكن له أول معلوم ولا آخر متناه ولا قبل مدرك ولا بعد محدود ولا أمد بحتي ولا شخص فيتجزى ولا اختلاف صفة فيتناهى. ولا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها ولا الألباب وأذهانها صفته. فنقول: متى، ولا بدىء مما ولا ظاهر على ما ولا باطن فيما ولا تارك فهلا. خلق الخلق فكان بدياً بديئاً، ابتدأ ما ابتدع وابتدع ما ابتدأ. وفعل ما أراد وأراد ما استزاد، ذلكم رب العالمين.

حقاً، إن ما جاء في كلام الامام هو غاية ما يقال في التوحيد فإذا كان ما خلق الله من عوالم لا يمكن استقصاؤها فكيف بخالقها ومبدعها.

وقد علم أخيراً أنه تعالى قد خلق من الأجرام والكواكب ما يبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، والسنة الضوئية عشر مليون مليون كيلومتر[1] فيجب أن تمضي آلاف الملايين من السنين حتى تصل الينا أشعة تلك الأنجم وأما أرضنا هذه مع شمسنا وما يدور حولها من أنجم تسعة لا تعد شيئاً بالنسبة إلى ما خلق الله من أنجم وكرات. فأرضنا كهباءة ملقاة في الفضاء وهي من أنجم المجرّة المسماة بدرب التبانة التي نشاهدها فوق رؤوسنا في ليلة صافية كالسحابة، أنها ليست بسحابة وإنما ملايين النجوم تكدست واجتمعت بعضها إلى جنب بعض وإن مجموعتنا الشمسية هذه واقعة في مكان مدحور لا يعبأ به من هذه المجرة وهي تبعد عن مركز المجرة ٣٠٠٠٠٠ سنة ضوئية، ومن بداية هذه المجرة إلى نهايتها (٢٠٠,٠٠٠) سنة ضوئية ويوجد مثل هذه المجرة في هذا الكون الرحيب ملايين من المجرات وهي تتباعد

(١) ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر تقريباً.

بعضها عن بعض بسرعات هائلة، كذلك الأنجم كلها تتباعد بعضها عن بعض بسرعة مدهشة، قد تبلغ السرعة إلى (١٥٠٠٠٠) كيلومتر في الثانية أي بقدر نصف سرعة الضوء. وهكذا تتسع السماء، حتى أصبحت عشرة أمثال ما كانت عليه سابقاً، ولا تزال آخذة بالاتساع بسرعة هائلة ويتحقق قوله تعالى: ﴿والسماءبنيناها بأيد وإنا لموسِعون﴾.

فينبغي أن لا يغتر هذا الانسان، ولا يتكبر فيسجد لله شكراً وتعظيماً وتقديساً، بعدما يرى هذه العظمة غير المتناهية في مخلوقات الله تعالى، انه تعالى يقول:

﴿يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك﴾.

نعم، حتى أن الطير في السماء تسبح الله تعالى وتقدسه، ولكنا لا نفهم هذا النوع من التسبيح، وهو القائل: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾. فللطير صلاة وتسبيح، فكيف بهذا الانسان ان لم يصلِّ ولم يسبح الله تعالى.

انه تعالى يقول: ﴿ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نكُ من المصلين ولم نكُ نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين﴾.

فأهل النار أول ما يعترفون به، أنهم لم يكونوا من المصلين، ولم يكونوا من المسبحين، لم يشاركوا حتى الجماد في تسبيحه، على حد قوله تعالى: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾. وبعد ذلك يعترفون بأنهم لم يطعموا المسكين ولم يقدموا فضول أموالهم إلى الفقراء والمساكين ذلك لأن الله قد جعل قوت هؤلاء في أموال الأغنياء. ثم يعترفون بأنهم ولجوا فيما ولج فيه الناس من انحراف عن الطريق السوي وانغماس في شهوات وفساد وإفساد باسم التطور ومواكبة مفاهيم القرن العشرين هذه المفاهيم التي صنعتها اليد البشرية الأثيمة؟ مفاهيم لا يقرها الدين ولا العقل السليم ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تُصرفون﴾. (سورة يونس: ٣٢).

لقد حدث انفجار في الشمس (شمسنا هذه) سنة ١٩٥٦ م كان قد أولد طاقة تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة، فأي قدرة أو طاقة قد أودع الله تعالى في شمسنا هذه، على أن الله تعالى قد خلق شموساً أخرى أعظم من شمسنا هذه آلاف المرات، تدهش الألباب. فما أعظم ما أودع الله من طاقات في هذا الكون الرحيب!.

أفلا يجدر بهذا البشر أن يسجد لله سجود خضوع، وتعظيم ﴿قتل الانسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدَّره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره، كلا، لما يقض ما أمره﴾. (سورة: عبس).

* * *

ومما قال الحسن (ع) في الحكمة:

سئل عليه السلام: ما الغنيمة؟ فقال: الرغبة في التقوى والزهاد في الدنيا.

وقد عرف الله تعالى التقوى والمتقين بقوله جل من قائل:

﴿إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم»[1].

فمن صفات المتقين: الاستغفار بالاسحار وجعل حق للسائل والمحروم في الأموال والتهجد في جوف الليل والاحسان إلى الناس أجمعين.

وفي الحديث: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك...

---

(١) سورة الذاريات: ١٥ ـ ١٩

ثم يقول الله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

ومن الآيات في الأرض: ان النمل الأبيض في أفريقيا يصنع بوصلة بالقرب من عمارته (بنيانه الرفيع) وهي سطحان متعامدان، أحدهما متجه نحو الشمال والجنوب ولا يحيد عن هذا الاتجاه قيد شعرة والسطح الآخر متجه نحو الشرق والغرب كذلك. وان المهندسين ليعتمدون على بوصلة يصنعها النمل الأبيض في أعمالهم الهندسية ويندهشون من هذه الهندسة العجيبة.

ويقول الله تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. حقاً ان الانسان في تشكيلاته العضوية (عدا الروح) لشيء محير للألباب فان في جسم الانسان أكثر من ٢٠٠ عظم، لكل واحد منها شكل خاص ولولا هذا الشكل الخاص لما تمكنا من الحركة. وفي جسم الانسان ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تديرها أعصاب كثيرة جداً. والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض في السنة (٣٠) مليون مرة. وللعين طبقات: القرنية والعدسيةوالمائية والزجاجية وتنتهي بالشبكية. وان الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة وتتألف من تسع طبقات أبعدها تتألف من ٣ ملايين مخروط ونحو من ٣ ملايين أسطوانة. وقد حسب أحد العلماء فعلم أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ فيها نحو ٦٠٠٠,٠٠٠ خلية وكل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر.

وقد علم أن في المخ (٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠) عصب، قد رتبت ترتيباً عجيباً ولكل فعاليته. فإذا جسّ أحد هذه الأعصاب حصلت حالة نفسية خاصة تختلف عن غيرها.

ومن حكمه عليه السلام أنه سئل: ما الغنى؟ فقال: رضى النفس بما قسم الله وإن قلَّ وإنما الغنى غنى النفس.

وسئل: فما الفقر؟ قال: شره النفس إلى كل شيء

---

(١) الذاريات: ٢٠ ـ ٢١.

فما المجد؟ ان تعطي في الغرم وتعفو عن الجرم.

فما السؤدد؟ إتيان الجميل وترك القبيح.

فما الحزم؟ طول الأناة والرفق بالولاة، (والاحتراس من جميع الناس).

ومن كلامه عليه السلام: يا بني، لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، القريب من قربته المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه.

ومن كلامه (ع): هلاك المرء في ثلاث: الكبر والحرص والحسد فالكبر هلاك الدين وبه لعن إبليس، والحرص عدو النفس وبه اخرج آدم من الجنة، والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل.

وقال: لا أدب لمن لا عقل له، ولا مروءة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له.

ومن قوله عليه السلام:

يا ابن آدم، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فخذ مما في يديك لما بين يديك، فان المؤمن يتزود والكافر يتمتع.

فهذه الليالي المتبركة، ليالي شهر رمضان المبارك هي ليال يتزود فيها المؤمن لآخرة سعيدة، فيصلي ما شاء ويبتهل إلى الله بخشوع وخضوع ويسأله تعالى المغفرة والرضوان، فيخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فيزداد إيماناً بالله وبعوالم الآخرة، فهذا الشهر شهر تطهير وتزكية، شهر تجلية وتصفية، فالنفوس بقدر خشوعها لله تتزكى وتتطهر. فلنحسن العبودية لله، فما من شيء في هذا الكون الرحيب إلا ويظهر العبودية لله تعالى والخشوع والخنوع.

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عداً، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾[1] [2].

(١) سورة مريم: ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) ألقيت هذه الكلمة في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك في حسينية الهاشمية: سنة ١٣٨٦ هـ.

لماذا هذه الزلازل

سؤال يتشدق به كثير من الماديين وهم يريدون بسؤالهم هذا ان يصموا العالم بالتبلبل وعدم الانتظام وعدم التدبير من قبل خالق عالم بعواقب الأمور وبكل ما يحـدث: منظم الكون إلى أقصى مرتبة من مراتب الانتظام.

إنهم يقولون: لماذا هذه الأوبئة التي لا تبقى ولا تذر، وهذه العواصف الهوجاء الهدامة للقـرى والأرياف، وهـذه الكوارث المميتـة، ولقد سمعت أحدهم وهو على فراش المرض، يعزو العالم، لمرض أصابه بعدم الانتظام والبلبلة.

وكثيراً ما سمعت من بعض المثقفين بثقافة العصر: لماذا هذه الصواعق والفيضانات المدمرة والموت جوعاً في بعض الأحيان، ثم لماذا يسلب العقل من بعض الناس فيعيشون بين العقلاء عيشة البهائم. ولماذا يتنعم بعض الناس القلائل على حساب آلاف من الناس يكدحون ليل نهار لسد ما تحتاج إليه بطونهم على الأقل.

فهل هناك مفاضلة قبل أن يولد الانسان؟.

ثم هم يقولون: لا شك أن عقلاً جباراً قد خلق هذه الكائنات من جماد ونبات وحيوان وإنسان بحكمة فائقة وتدبير عال دقيق، والعالم سائر حسب قوانين محكمة تدل على عظمـة خالقـه ومبدعـه. فلماذا هـذه المفاضـلات والفروق؟ ولماذا لم يحمِ الخالق هذا الانسان الضعيف من المفاجآت المهلكة الآنفة الذكر؟.

إن الاعتراف بحكمة المبدع: الباريء عز وجل لـدليلٌ جـلي على ان الحكمة المتجلية في كل ناحية من نواحي هذا الكون: في الذرة والتراكيب

الكيمياوية والتفاعلات بين العناصر وفي دساتير الفيزياء والفلك والميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي وفي عالم الميكروبات والنباتات والحيوانات والانسان. . . الخ: حكمة يعجز العقل البشري أن يحيط بها تمام الاحاطة وإنما يظفر ببعضها نتيجة جهد جهيد واختبارات متتالية وصدف متعاقبة بإلهام من الله، تفضلاً منه ورحمة.

فهذا الاعتراف بعظمة الخالق في العلم والقدرة والتدبير والحكمة البالغة المتجلية في أرجاء هذا الوجود لدليل ساطع على أن الحكمة متجلية أيضاً في حدوث الزلازل والنوائب والعواصف والفيضانات وهجوم الجراثيم المؤذية، المميتة، إلا أنه قد تخفى علينا الحكمة والسبب، وهذه الحكمة قد تنكشف للصلحاء من عباد الله من أنبياء وأوصياء ومؤمنين ابرار واخيار وتخفى على كثير من الناس، لأن نفوسهم لم تبلغ مرتبة من الكمال لتتجلى لهم الحقائق وتنكشف لهم الأسباب.

* * *

لو تتبعنا البلايا والنوائب لرأيناها على ضربين: منها ما هي مهذبة منبهة، مزكية لهذه النفوس، آخذة إياها إلى عوالم القدس. ذلك لأن البلايا والنوائب تصقل النفوس وتطهرها من أدناسها وأرجاسها.

فالدنيا أشبه شيء بمدرسة، فيها مواد امتحانية، وعلى طلابها اجتياز هذه الامتحانات، وموادها ليست بمواد مادية كالجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء إلى ما هنالك، وإنما هي مواضيع تمس النفس الانسانية مباشرة، وتعمل في تربيتها وتهذيبها وتزكيتها. مواضيعها: الصبر ومخالفة الهوى والنفس الأمارة بالسوء، وترك الشهوات والموبقات والجلد أمام الملذات التي نهى عنها الشرع. موادها، العفة والعفاف والتقوى واحترام الوالدين وصلة الأرحام، ومواساة المؤمنين ومساعدة الفقراء والمساكين والتضحية والايثار في سبيل الخير، موادها: ترك الحسد والبخل، والتواضع والرفق بالآخرين، موادها: تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه وحسن الظن بالله، والاعتراف بالتقصير، والشكر الكثير وحسن الخلق، والصدق وأداء الأمانة والحياء وكظم الغيظ والعفو والحلم والصمت وحفظ اللسان، والحب في الله والبغض في الله والقناعة والزهادة والانصاف

والعدل، والاهتمام بأمور المسلمين والتراحم والتعاطف وزيارة الأخوان في الله وقضاء حوائج المؤمنين لوجه الله وترك المكر والغدر والخديعة والغيبة والنميمة، وسوء الظن والنفاق، موادها: الاستغفار ومحاسبة النفس، والتكفير عن الذنوب. ففي الحديث: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات».

ومن النوائب ما هي مبيدة لهذه النفوس كالزلازل التي لا تبقي ولا تذر والعواصف التي تغرق السفن والأوبئة التي تزهق الأرواح.

أما النوع الأول فهي امتحانات بسيطة يجتازها هذا الانسان ليسير سيره التكاملي.

وهي لا تتجاوز المرض والفقر ومشاكل عائلية واجتماعية وأمثالها وكلها مفيدة، تصقل النفوس البشرية وتجعلها (إن كانت مؤمنة) تتقرب إلى الله وترجو النجاة، فقد قال الله تعالى:

﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[1] فالله تعالى يختبرنا ليعلم (وهو العالم قبلاً وبعداً) درجة مجاهدتنا مع نفوسنا الأمارة بالسوء ودرجة صبرنا، ولكي نعلم نحن درجتنا في الامتحان الآلهي العالمي، لننال عنده تعالى ما نستحق من المنازل الرفيعة: ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾[2]. ﴿ولكل درجات مما عملوا، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ألم، أحسب الناس، أن يتركوا، أن يقولوا: آمنا، وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[4].

فلا مناص حسب هذه الآية الكريمة من الاختبار والامتحان. فان

---

(١) سورة محمد (ص): ٣١.
(٢) سورة الأنعام: ١٣٢.
(٣) سورة الأحقاف: ١٩.
(٤) سورة العنكبوت: ٣.

الامتحان كان جارياً في الأمم الغابرة وهو جار في الأمم اللاحقة، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[1].

فيمتحن الفرد أو بالأحرى نفس هذا الفرد بأنواع البلايا والنوائب بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وهو القائل:

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[2].

فالله يبشر الصابرين على البلايا والنوائب من فقد الأولاد والأرحام والثمرات والأموال بالأجر الجزيل، شريطة أن يقولوا حينما يدهمهم البلاء: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويرجعوا أمرهم إلى الله المتعال ويعترفوا أن مآل أمرهم الآخرة، وحياة دائمة أخروية. فهؤلاء الذين يؤمنون بالآخرة ويرجعون مآل أمرهم إلى الله هم الذين اختصوا برحمة الله وعظيم رفده وهم السائرون نحو سبيل السلام.

ذلك لأنه ما من شيء من المواد الامتحانية التي يمتحن الله به عباده في هذه الدنيا هو كالصبر. وهو القائل: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وأن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور﴾[3].

وفي الحديث: الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد. ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له».

وفي حديث آخر، قال رسول الله (ص): «ما تجرع عبد قط جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دم أهريقت في سبيل الله،

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٢.
(٢) سورة البقرة: ١٥٧.
(٣) سورة آل عمران: ١٨٦.

وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد لا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم».

وروي أن المسيح (ع) قال للحواريين: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون». وقال رسول الله (ص): «الصبر نصف الايمان». وفي خبر آخر. الايمان نصفان: «نصف صبر ونصف شكر».

انه تعالى يقول: ﴿وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا﴾[1] ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[2]، ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾[3].

وقال رسول الله (ص): «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس» ولا مراء أن الصبر في الدرجة الأولى في هذا المقام.

وقال رسول الله (ص): «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة. وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش».

وقال (ص): «سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك إلا بالقتل والجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغيضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي». كل ذلك لأن النفس الانسانية تنصهر في

---

(١) سورة السجدة: ٢٤.

(٢) الأعراف: ١٣٧.

(٣) القصص: ٥٤.

تحمل المشاق والصبر عليها وتصقل في تحمل المكاره والنوائب. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1] فيجازى الصابر المحتسب جزاء موفوراً لا نهائياً خارجاً عن حدود الحساب والتقدير.

وقد قال رسول الله (ص): «إذا أراد الله بعبد خيراً، وأراد أن يصافيه، صبَّ عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجاً، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف، وإذا دعاه ثانياً، فقال: يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك، ألا تسألني شيئاً إلا أعطيتك[2] أو رفعت لك ما هو خير، وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال، فوزنوا أعمالهم بالميزان: أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صباً كما كان يصبُّ عليهم البلاء صباً، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض، لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فلذلك قوله تعالى: ﴿وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

وقد قال تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾. فقد أمرنا بالصبر في الفتن والبلايا والنوائب. لكي تظهر حقيقة النفس بهذا الجهاد المبين، فالجهاد مع النفس لهو الجهاد الأكبر على ما جاء على لسان سيد المرسلين (ص).

وقد قال الصادق (ع): «وإذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبر يطل عليه، ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه».

وقال (ع): «إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله.

---

(١) جامع السعادات: الجزء الثالث: ٢٨٨.

(٢) هكذا وجدناه في جامع السعادات. ج: ٣ ص: ٢٨٦، مطبعة النجف.

فيقول الله تعالى: صدقوا، ادخلوهم الجنة وهو قول الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1].

وقال عليه السلام: «من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد».

ومن علامات الصبر: أن يصلَ الانسان من قطعه، ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه، فقد قال رسول الله (ص): «صِل من قطعك وأعط من حرمك، وأعفُ عمن ظلمك».

وإن معيار الايمان الحقيقي هو الصبر على النوائب، فمن كان صبره اكثر كان إيمانه بعوالم الآخرة اكثر فأكثر.

* * *

يجدر بهذا الانسان أن يعمل في هذه الدنيا لينال درجات عالية ويذهب منها طاهراً مطهراً إلى آخرة سعيدة. ذلك لأن «الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل» ولا مجال هناك للتهيؤ لامتحان (الاكمال)، أي لا يكون الفرد مكملاً (كما في المدارس الحديثة) بعد الموت، فطوبى لمن هيأ نفسه لآخرة سعيدة قبل حلول الأجل.

فقد قال رسول الله (ص) في خطبة له عندما جمع الأقربين من قريش: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو: أني لرسول الله اليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالاحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وانها للجنة أبداً أو النار أبداً».

على أن هناك، كما في بعض الأخبار، نوع تطهير في عالم البرزخ من عذاب وتعذيب وتأديب، ليكون الفرد بذلك أهلاً لشفاعة الشافعين إذا أذن

---

(١) جامع السعادات، ج: ٣: ٢٨٩.

الله بذلك، وهو القائل: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾[1] ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾[2].

والعاقل هو الذي يخرج في دنياه مما تدنس به من حرام وموبقات: في عالم الفرصة والملافاة.

فقد قيل: إن حاكماً جائراً أراد أن يتوب، فخرج من جميع ماله من مال ومنال وبيوت وعقار، قدم جميع ذلك إلى عالم البلد (العالم الديني) لتوزيعها على الفقراء والمساكين (لكونها مجهولة المالك) واستقرض من العالم الديني إزاراً يستتر به، وصار يعمل كحمال ثم ارتقى، فصار يكتسب كسباً بسيطاً ويكفر عن سيئاته بأعمال صالحات وعبادات يتخللها خشوع وخضوع: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾[3].

* * *

فالانسان إنما خلق للامتحان والابتلاء، ولا مفر له من اجتياز هذه الامتحانات الهادفة إلى إصلاح النفس مباشرة، ذلك لأن كماله النفسي ينحصر في اجتيازه امتحانات تصقل النفس وتهذبها أيما تهذيب وهو القائل: ﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، فمنّ الله علينا بالسمع والبصر كي نستفيد منهما للنجاح في الامتحانات النفسية.

فالغني يختبر بالفقير، والفقير يمتحن بالصبر، والولد يمتحن بإطاعة والديه، وصاحب الجاه يمتحن في قضائه حوائج الناس، فكل انسان مُذ نهوضه من نومه إلى ساعة منامه يختبر بأنواع الاختبارات، فطوبى لمن راقب نفسه في هذه الامتحانات النفسية وقدر لنفسه درجات عليها ليعلم منزلته في سيره التكاملي، كمن يقيس ضغط الدم من حين لآخر.

انه تعالى يقول: ﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان

---

(١) سورة المدثر: ٤٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٨.

(٣) سورة هود: ١١٥.

عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فجعل الله علة خلقه هذه النفوس الابتلاء، أي أن الله إنما خلقنا ليبلونا ويختبرنا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وصبر وغيرها.

فـ «إن عظيم الأجر مع عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم»... الحديث.

وفي حديث آخر: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه». ذلك لأن هذا التضرع مطهر لهذه النفوس من أدرانها وأوضارها.

ان الله يحب أن يتضرع العبد ويبكي على ذنوبه، وان هذا التضرع أو البكاء موصل الفرد إلى مقامات رفيعة من التقرب إلى الحق المتعال. فقد جاء في حديث قدسي، حيث يقول الله تعالى: ﴿أنين المذنبين أحب إليّ من تسبيح المسبحين﴾.

وكثيراً ما يكون الغنى سبباً لتسافل الانسان وتجبره وتكبره وتعجرفه وتحقيره للآخرين وكسره الخواطر والقلوب، فيزداد بعداً من الله تعالى مع إنفاقه وبذله في بعض الأحيان. ولذلك يقول جل من قائل: ﴿إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى﴾، ويخاطب المترفين قبل غيرهم عند إرسال الرسل والأنبياء بقوله: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول، فدمرناها تدميرا﴾. ولذا كان الأنبياء والأولياء يكتفون بالكفاف، ويخشون الزيادة والترف فقد جاء في الحديث القدسي. حيث يقول الله تعالى: ﴿وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك﴾.

ذلك لأن هذه الدنيا، كما جاء في الحديث، مزرعة الآخرة، ومحل للتزود والتهيؤ لآخرة سعيدة وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

فمن أراد الله تعالى إنقاذه من نار جهنم وعذاب الآخرة، هيأ له أسباب هذا الفوز العظيم، بتعذيبه في دار الدنيا قبل الآخرة، لكي يطهر في دنياه ويذهب من هذه الدنيا نقي الثوب. وحاشا أن يبعض الله تعالى ويفرق بين عبد وعبد دونما سبب ويؤثر أحداً على آخر دون مرجح. ان الله تعالى أعلم بما قام به هذا العبد من أعمال، فإذا كانت أعماله السابقة أعمالاً تقربه إلى حد

ما إلى الله تعالى، هيأ الله تعالى له في دنياه الأسباب التي تطهره وتوصله إلى عاقبة محمودة بمرض وأقتار وأنواع البلايا حسب قابليته ومرتبته ودرجته. فقد جاء في حديث قدسي حيث يقول الله تعالى:

﴿ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته في جسده، فان كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا ضيقت عليه رزقه، فان كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا شددت عليه الموت، حتى يأتيني ولا ذنب له، ثم أدخله الجنة. وما من عبد أريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي وإلا أمنت له من سلطانه، فان كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هونت عليه الموت، حتى يأتيني ولا حسنة له ثم أدخله النار﴾.

وإن الله تعالى لا يدخل عبداً النار إلا بعد إتمام الحجة عليه مرات ومرات، إلا بعد تزويده بالوسائل الهادية المرشدة إلى الصراط السوي مرات ومرات. فإذا أمسى جرثومة فساد وغواية وضلال لا تفيد فيه النصائح والبلايا والنوائب والأمراض لم تكن له عاقبة إلا النار، فتطهره من أدرانه وتعقمه من جراثيمه وأوضاره، وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾. ﴿ولله على الناس الحجة البالغة﴾.

فلم يترك الله تعالى شيئاً فيه ارتقاء البشر في النواحي الروحية إلا وقد بينه على لسان أنبيائه ولم يترك ما فيه تسافل النفس الانسانية إلا وقد فصله أنبياؤه وأوصياء أنبيائه (ع). ومع ذلك فقد أودع النفس الانسانية أصول المساوي والمبرات بقوله جل من قائل: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾، كل ذلك، ﴿لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل﴾. (سورة النساء: ١٦٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله عز وجل إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب ابتلاه بالسقم، فان لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فان لم يفعل ذلك به شدد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب. وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فان لم يفعل ذلك به هون عليه الموت فيكافيه بتلك الحسنة».

وعن أبي عبد الله (ع) قال: إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها.

ولا مراء أن المقربين عند الله امتحاناتهم أشد وأصعب، فقد أوذي رسول الله (ص) كثيراً حتى قال: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

وإن الحسين (ع) بلغ الدرجة القصوى في تقبله الشهادة بشكل لم يسبق له مثيل ولن يرى الدهر مضحياً مثله في سبيل الدين أبد الآبدين.

وقد قال رسول الله (ص): إن أشد الناس بلاءاً النبيون، ثم الوصيون، ثم الأمثل فالأمثل وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة فمن صح دينه وحسن عمله اشتدَّ بلاؤه، ومن سخف دينه وضعف عمله قل بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض ذلك أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر، ولذلك يقول جل من قائل: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين﴾.

فالامتحان أو البلاء إما يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء والأوصياء (ع) ثم الأمثل فالأمثل. وإما أن يكون لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ، وذنوب وآثام فهو تكفير لما اجترحت الأيدي من ظلم وبغي ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة وكل ما نهى عنه الدين.

فعلى كل فرد أن يحاسب نفسه من حين لآخر ويعمل في إزالة ما علق بها من أدران. وفي الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوها قبل أن تُوزنوا» فعن أبي الحسن الماضي: (الامام موسى بن جعفر (ع): : «ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم. فان عمل حسنة استزاد الله عز وجل، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه».

فعلينا أن نعلمَ أنه كلما زدنا تقرباً إلى الله تعالى وكلما زيد في إيماننا ويقيننا

كلما زدنا بلاءاً ونوائب، وهجمت علينا هموم وغموم ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾. ولذلك يحدثنا الامام موسى بن جعفر (ع): «إن المؤمن بمنزلة كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عز وجل ولا خطيئة له».

يحدثنا أبو عبد الله (ع) فيما يبتلى به المؤمن انه يقول: «أخذ الله ميثاق المؤمن على أن لا تصدق مقالته ولا ينتصف من عدوه وما من مؤمن يشفى نفسه إلا بفضيحتها، لأن كل مؤمن ملجم».

وفي حديث آخر: قال، قال رسول الله (ص): إن الله أخذ ميثاق المؤمن على بلايا أربع. أيسرها عليه مؤمن يقول بقوله[1] يحسده، أو منافق يقفو أثره أو شيطان يغويه، أو كافر يرى جهاده فما بقاء المؤمن بعد هذا».

ويقول أبو عبد الله (ع) أيضاً: «ما أفلت المؤمن من واحدة من ثلاث ولربما اجتمعت الثلاثة عليه، أما بعض من يكون معه في الدار يغلق عليه بابه يؤذيه، أو جار يؤذيه أو من في طريقه إلى حوائجه يؤذيه ويجعل الله له من إيمانه أنساً لا يستوحش معه إلى أحد»[2].

فالمؤمن في هذه الدنيا لا يخلو من أذى الآخرين لو كان مؤمناً حقاً إما بحسد أو نفاق أو عداء أو إغواء الشيطان. فعن أبي عبد الله (ع): أربع لا يخلو منهن مؤمن أو واحدة منهن: مؤمن يحسده وهو أشدهن عليه ومنافق يقفو

---

(١) أي يدين بدينه.

(٢) أصول الكافي ج: ٢: ص: ٢٥٠.

نتقل هنا ما جاء في حاشية أصول الكافي: الجزء الثاني ص: ٢٥٠.

ذكروا لتسليط الشياطين والكفرة على المؤمنين وجوهاً من الحكمة. الأول: أنه كفارة لذنوبه، الثاني: لاختبار صبره وادراجه في الصابرين. الثالث: لتزهيده في الدنيا لئلا يفتتن بها ويطمئن اليها فيشق عليه الخروج منها. الرابع: توسله إلى الحق سبحانه في الضراء وسلوكه مسلك الدعاء لدفع ما يصيبه من البلايا فترتفع بذلك درجته. الخامس: وحشته عن المخلوقين وأنسه برب العالمين. (راجع مرآة العقول ج ٢ ص: ٢٢٢).

أثره أو عدو يجاهده أو شيطان يغويه. فـ (إن الله عز وجل جعل وليه في الدنيا غرضاً لعدوه) كما جاء في الحديث.

يقول محمد بن عجلان، كنت عند ابي عبد الله (ع): فشكا اليه رجل الحاجة فقال: اصبر، فان الله سيجعل لك فرجاً، قال: ثم سكت ساعة، ثم أقبل على الرجل فقال: اخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟ فقال ـ أصلحك الله ـ ضيق، منتن وأهله بأسوء حال. قال: فإنما أنت في السجن، فتريد أن تكون فيه في سعة، أما علمت أن الدنيا سجن المؤمن.

وعن أبي عبد الله (ع) أنه قال: «المؤمن مكفر». أي أن الناس لا يشكرون له معروفه وإحسانه.

وفي خبر آخر: «ما من مؤمن إلا وقد وكل الله به أربعة: شيطاناً يغويه، يريد أن يضله وكافراً يغتاله ومؤمناً يحسده وهو أشدهم عليه ومنافقاً يتبع عثراته».

فالمؤمن في هذه الدنيا مسلوب الراحة، ممتحن لا محالة بأنواع الأذى والنوائب، فعن أبي عبد الله (ع) ما كان ولا يكون وليس بكائن مؤمن إلا وله جار يؤذيه، ولو أن مؤمناً في جزيرة من جزائر البحر لابتعث الله له من يؤذيه.

فكلما كان العبد إلى الله أقرب كان بلاؤه أشد وأصعب، فعن أبي عبد الله (ع): إن أشد الناس بلاءاً[1] الأنبياء ثم الذين يلونهم. ثم الأمثل فالأمثل.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: سئل رسول الله (ص): مَن أشد الناس بلاءاً في الدنيا. فقال: النبيون، ثم الأمثل فالأمثل. ويبتلى المؤمن، بعد، على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد. بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه».

فنرى أن زيادة البلاء تتناسب طردياً مع قوة الايمان، حتى أن الله تعالى يدفع عن المؤمن الحقيقي بعض المتع الدنيوية. فعن أبي عبد الله (ع): «ان

---

(١) ما يختبر ويمتحن به من خير وشر. أصول الكافي: الجزء الثاني. ط: طهران.

لله عز وجل عباداً في الأرض من خالص عباده، ما ينزل من السماء تحفة إلى الأرض إلا صرفها عنهم إلى غيرهم، ولا بلية إلا صرفها اليهم». وفي خبر آخر عن أبي عبد الله (ع) أنه قال ـ وعنده سدير ـ «إن الله إذا أحب عبداً غته بالبلاء غتاً، وأنا وإياكم، يا سدير، لنصبح به ونمسي».

وعن أبي جعفر (ع) قال: «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه ـ أو قال ـ على حسب دينه».

فلا بد للمؤمن من أحزان وهموم يطهر بها نفسه، حتى لا تتراكم عليه ذنوبه فيسوّد القلب على ما جاء في بعض الأحاديث. لذلك يقول إمامنا أبي عبد الله (ع): «المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا عرض له أمر يحزنه، يذكر به».

يقول ناجيه، قلت لأبي عبد الله (ع) ان المغيرة[1] يقول: ان المؤمن لا يبتلى بالجذام ولا بالبرص ولا بكذا ولا بكذا؟. فقال: إن كان لغافلاً عن صاحب ياسين، أنه كان مكنعاً[2] ثم رد أصابعه[3] فقال: كأني أنظر إلى تكنيعه أتاهم فأنذرهم، ثم عاد إليهم من الغد فقتلوه، ثم قال: إن المؤمن يبتلى بكل بلية ويموت بكل ميتة إلا أنه لا يقتل نفسه[4].

---

(١) هو المغيرة بن سعيدالذي روى الكشي روايات كثيرة تدل على لعنه وروى أن أبا الحسن الرضا عليه السلام قال انه كان يكذب على أبي جعفر (ع) فأذاقه الله حر الحديد.

(٢) (إن كان لغافلاً): ان مخففة من المثقلة، وصاحب ياسين هو حبيب بن اسرائيل النجار رضي الله عنه، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وكان ممن آمن بنبينا (ص) وبينهما ٦٠٠ سنة وعن النبي (ص): «سباق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون». وفي رواية هم الصديقون وعلي أفضلهم. والمكنع (بتشديد النون المفتوحة): أشل اليد ومقطوعها. وهو من رجعت أصابعه إلى كفه وظهرت مفاصل أصول الأصابع.

(٣) «ثم رد أصابعه» من كلام الراوي، أي رد عليه السلام أصابعه إلى كفه إشارة إلى تكنيعه.

(٤) نقلنا الحديث مع الشرح من أصول الكافي ج ٢ ص: ٢٥٤.

وقد قال أبو عبد الله (ع): إن في الجنة منزلة لا يبلغها عبد إلا بالابتلاء في جسده.

ويقول عبد الله بن أبي يعفور: شكوت إلى أبي عبد الله (ع) ما ألقى من الأوجاع، وكان مسقاماً، فقال لي يا عبد الله، لو يعلم المؤمن ما له من الأجر في المصائب لتمنى أنه قرض بالمقاريض.

وقال عليه السلام: «إن أهل الحق لم يزالوا منذ كانوا في شدة أما أن ذلك إلى مدة قليلة وعافية طويلة. وعن أبي جعفر (ع): إن الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل بالهدية من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض (ويحميه الدنيا: أي يمنعه الدنيا). وعن أبي عبد الله (ع): لم يؤمن الله المؤمن من هزاهز الدنيا، لكنه آمنه من العمى فيها والشقاء في الآخرة. وقال (ع): «إن المؤمن من الله عز وجل لبأفضل مكان ـ ثلاثاً ـ إنه ليبتليه بالبلاء ثم ينزع نفسه عضواً عضوا من جسده وهو يحمد الله على ذلك.

وقال علي بن الحسين (ع): أني لأكره للرجل أن يعاف في الدنيا فلا يصيبه شيء من المصائب.

ذلك لأن من لا يبتلى بمصائب ونوائب بعيد عن رحمة الله، تركه الله تعالى ونفسه فتتراكم عليه ذنوبه ومآله النار ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة: ٦٨). لذلك يخرج النبي (ص) كما في الحديث الآتي من بيت رجل لم يرزأ قط. فقد قال أبو عبد الله (ع): دعي النبي (ص) إلى طعام. فلما دخل منزل الرجل نظر إلى دجاجة فوق حائط قد باضت، فتقع البيضة على وتد في حائط فثبتت عليه، ولم تسقط ولم تنكسر، فتعجب النبي (ص) منها فقال له الرجل: أعجبت من هذه البيضة، فوالذي بعثك بالحق ما رزئت شيئاً قط (قال): فنهض رسول الله (ص) ولم يأكل من طعامه شيئاً، وقال: من لم يرزأ فما لله فيه من حاجة[1].

* * *

---

(١) أصول الكافي، ج ٢: ص: ٢٥٦.

ونعوذ بالله من استدراجه وترك العبد يلهو ويلعب لا يفكر في مصيره وما سوف يعذب به في آخرته. ذلك العذاب الذي يصفه الله تعالى بقوله: ﴿إذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون﴾ (سورة المؤمن: ٧١ ـ ٧٢) وهو القائل: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين﴾ (سورة الأعراف: ١٨١) ﴿فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين﴾ (٦٨: ٤٤).

وقد قال رسول الله (ص) في مقام تحذير الناس من استدراج الله تعالى: ﴿إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ (الأنعام: ٤٤).

وروي أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه فقال: «يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك، تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يعطيك ويجتريء على معاصيك، تزوي عند البلاء وتبسط له الدنيا، فأوحى الله تعالى إليه: أن العباد إليّ والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي، فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له من الحسنات، فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته».

وقد سمعت نقداً كثيراً واعتراضات واهية بالنسبة إلى تنعم الكافر. والاقتار في الرزق بالنسبة إلى المؤمن، وأنا أدرس في جامعة استانبول، ولقد سمعت أخيراً أيضاً أن فلاناً كان في ضنك من العيش وهو يصلي ويصوم، فترك الصلاة والصوم فوسع عليه في رزقه، حتى أن البعض ينصح غيره بترك الدين وفرائضه ليعيش عيشة هنيئة ويبلغ مناصب دنيوية زائلة، وقد ذكرناه جواب للمعترض، ونستجير بالله من استدراجه.

وقال رسول الله (ص): لا حاجة لله في من ليس له في ماله وبدنه

نصيب. (ويراد بالنصيب هنا: النقص).

وعن أبي عبد الله (ع) قال: ان الله عز وجل يبتلي المؤمن بكل بلية ويميته بكل ميتة ولا يبتليه بذهاب عقله. أما ترى أيوب كيف سلط إبليس على ماله وعلى ولده وعلى أهله وعلى كل شيء منه ولم يسلط على عقله، ترك له ليوحد الله به.

وقال أيضاً: أنه ليكون للعبد منزلة عند الله، فما ينالها إلا باحدى خصلتين، أما بذهاب ماله أو ببلية في جسده.

وقال ايضاً: قال الله عز وجل: ﴿لولا أن يجد عبدي المؤمن في قلبه[1] لعصبتْ رأس الكافر بعصابة حديد لا يُصدع رأسه أبداً﴾.

وقال أيضاً: قال رسول الله (ص): مثل المؤمن كمثل خامة الزرع[2] تكفئها[3] الرياح كذا وكذا، وكذلك المؤمن تكفئه الأوجاع والأمراض ومثل المنافق كمثل الأرزبة المستقيمة التي لا يصيبها شيء حتى يأتيه الموت فيقصفه قصفاً[4].

وعن أبي عبد الله (ع)، قال: قال رسول الله (ص) يوماً لأصحابه: ملعون كل مال لا يزكى، ملعون كل جسد لا يزكى ولو في كل أربعين يوماً مرة فقيل: يا رسول الله أما زكاة المال فقد عرفنا، فما زكاة الأجساد؟ فقال لهم: أن تصاب بآفة، قال: فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم قال لهم: أتدرون ما عنيت بقولي؟ قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «بلى؟ الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويعثر العثرة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين«[5].

---

(١) شكا أو حزناً شديداً.

(٢) أول ما نبت على ساق.

(٣) (بالهمزة) أي تقلبها. الأرزية: عصبية من حديد.

(٤) قصف الشي: كسره.

(٥) الاختلاج: مرض من الأمراض وقد ذكره الأطباء وهو حركة سريعة متواترة غير عادية تعرض لجزء من البدن.

وقال أبو عبد الله (ع): إن المؤمن ليكرم على الله حتى لو سأله الجنة بما فيها أعطاه الله ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً وإن الكافر ليهوّن على الله، حتى لو سأله الدنيا بما فيها أعطاه ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً، وان الله ليعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الغائب أهله بالطرف[1]، وأنه ليحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض.

وعن يونس بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله (ع): إن هذا الذي ظهر بوجهي[2] يزعم الناس أن الله لم يبتل به عبداً له فيه حاجة، قال: فقال لي: لقد كان مؤمن آل فرعون مكنع الأصابع[3]، فكان يقول هكذا - ويمد يديه - ويقول: «يا قوم اتبعوا المرسلين» ثم قال لي: إذا كان الثلث الأخير من الليل في أوله فتوضأ وقم إلى صلاتك التي تصليها، فإذا كنت في السجدة الأخيرة من الركعتين الأولبين فقل وأنت ساجد: «يا عليّ يا عظيم، يا رحمن يا رحيم، يا سامع الدعوات يا معطي الخيرات، صلِ على محمد وآل محمد وأعطني من خير الدنيا والآخرة ما أنت أهله وأصرف عني من شر الدنيا والآخرة ما أنت أهله واذهب عني هذا الوجع - وتسميه - فأنه قد غاظني وأحزنني، والحّ في الدعاء قال: فما وصلت إلى الكوفة حتى أذهب الله به عني كله.

* * *

على كل فرد أن يعتبر بما يراه من نقص في الآخرين، فإذا رأى رجلاً أعمى عليه أن يشكر الله الذي عافاه من العمى، وان رأى رجلا ألكن عليه أن يشكر الله على ما وهبه من طلاقة في اللسان وإن رأى سائلاً محتاجاً عليه أن يقدم له مع الامتنان من فضول ماله وان يشكر الله على ما أنعم عليه من غنى وعدم الحاجة إلى آخرين.

---

(١) الطرف: جمع طرفة وهي ما يستطرف أي يستملح. ويحميه: يمنعه.
(٢) الآثار التي ظهرت بوجهه كانت برصاً ويحتمل الجذام.
(٣) هو الذي وقعت أصابعه.

فعن أبي جعفر (ع) قال: إذا رأيت الرجل مرَّ به البلاء فقل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى كثير من خلقه، ولا تُسمعه.

* * *

إن ما ذكرناه لحد الآن خاص بنوائب بسيطة لا تؤدي إلى الابادة والهلاك، لكن الزلازل تزهق النفوس وتبيد القرى، وكذلك العواصف الشديدة، والأوبئة وأمثالها، فان الله تبارك وتعالى يريد بهذا أن يعلم الناس أن الحياة والممات بيده ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كي ينتبه هذا الانسان عن غوايته وطيشه، فلا يعصي الله في السر والعلن[1] ويترك ما عليه من فساد وإفساد في الأرض. ﴿والله لا يحب الفساد﴾ وهو القائل:

﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون، أوَ أمِن أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا ضحىً وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، أو لم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾[2].

وفي استطاعته تعالى أن يبيد الأرض ومن عليها في طرفة عين وهو القائل: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ (سورة هود: ٨٢، ٨٣).

﴿واخذ الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، كأن لم يغنوا فيها، إلا أن ثمود كفروا ربهم، ألا بعداً لثمود﴾[3].

---

(١) انه تعالى يقول: ﴿وذروا ظاهر الاثم وباطنه، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ (سورة الأنعام: ١٢٠).

(٢) سورة الأعراف: ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) سورة هود: ٦٧ ـ ٦٨.

وحاشَ لله أن يريد ظلماً بأحد من الناس. وهو القائل: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[1]. ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾. (سورة الشورى: ٣٠).

فتارة تكون هـذه الزلازل للعقـاب أي أن الله يبيد قسمـاً من عباده العاصين لافسادهم في الأرض ولعدم تأثير النصح فيهم والامهال، بعد إتمام الحجج البالغة مع تنوعها وكثرتها.

وتارة تكون عبرة للآخرين ليعلموا: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ولكي ينتهوا عما هم فيه من معاصٍ وإفساد في الأرض، ويتوجهوا إلى الحق المتعال. فإذا كان في من أبيدوا رجال صالحون، فسينالون أجرهم أضعافاً مضاعفة في آخرة سعيدة تستمر ملايين السنين. وإن كان أحد هؤلاء الذين تنتابهم الزلازل أو يصيبهم الغرق من الصلحاء فقد فاز بدرجة الشهادة كما جاء في بعض الأخبار. وإن كان ممن «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» أي كانت له أعمال صالحة وأعمال سيئة، فهذا الغرق أو الحرق أو ابتلاع الأرض له يكون كفارة لذنوبه، فيكون بفضله تعالى من أصحاب الجنة فيصبح ما نعده نقمة، رحمة له.

فكم من أناس ينهدم عليهم سقف أو حائط فيموتون حالاً، ولكن هذا النوع من الموت رحمة، يجب على العبد أن يشكر الله عليه لأن مآله الجنة إن شاء الله، شريطة أن لا يكون هذا الشخص ممن كفر بأنعم الله أو جحد وجود الله!؟ فلا تطهره الحالات الخاصة من الكوارث والبلايا المهلكة!.

إذن، ليست الزلازل والعواصف على ما يظنه البعض، بلاءاً ونقمة، وإنما هي ألطاف ربانية ورحمة.

يحدثنا عبد الله بن سلام عن رسول الله (ص) قال: سألت رسول الله (ص) فقلت: أخبرني، أيعذب الله عز وجل خلقاً بلا حجة فقال: معاذ الله. قلت: فأولاد المشركين في الجنة أم في النار؟ فقال: الله تبارك وتعالى

---

(١) سورة النحل: ١١٨.

أولى بهم، أنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق لفصل القضايا. يأتي بأولاد المشركين فيقول: عبيدي وإمائي مَن ربكم وما دينكم وما أعمالكم قال فيقولون: أللهم أنت ربنا، أنت خلقتنا ولم يخلق شيئاً وأمتنا ولم نمت شيئاً، ولم تجعل لنا ألسنة ننطق بها ولا أسماعاً نسمع بها ولا كتاباً نقرؤه ولا رسولاً فنتبعه. ولا علم لنا إلا ما علمتنا، قال فيقول لهم عز وجل: عبيدي وامائي! إن أمرتكم بأمر تفعلوه، فيقولون: السمع والطاعة لك ربنا، قال: فيأمر الله عز وجل ناراً، يقال لها الغلق. أشد شيء في جهنم عذاباً، فيخرج من مكانها سوداء مظلمة بالسلاسل والاغلال،فيأمرها الله عز وجل أن تنفخ في وجوه الخلائق نفخة. فمن شدة نفختها تنقطع السماء وتنطمس النجوم وتجمد البحار وتزول الجبال وتظلم الأبصار وتضع الحوامل حملها وتشيب الولدان من هولها يوم القيامة. ثم يأمر الله تبارك وتعالى أطفال المشركين أن يلقوا أنفسهم في تلك النار. فمن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون سعيداً ألقى نفسه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم (ع)، ومن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون شقياً امتنع، فلم يلق نفسه في النار. فيأمر الله تبارك وتعالى النار فتلتقطه لتركه أمر الله وامتناعه من الدخول فيها، فيكون تبعاً لآبائه في جهنم، وذلك قوله عز وجل: ﴿فمنهم شقي وسعيد، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك، عطاء غير مجذوذ﴾[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة، احتج الله عز وجل على سبعة: على الطفل، والذي مات بين النبيين، والشيخ الكبير الذي أدرك النبي وهو لا يعقل، والأبله، والمجنون الذي لا يعقل، والأصم والأبكم. فكل واحد منهم يحتج على الله عز وجل، فيبعث الله عز وجل اليهم رسولاً، فيؤجج إليهم ناراً ويقول: إن ربكم يأمركم أن تثبوا فيها، فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً ومن عصى سيق إلى النار».

---

(١) سورة هود: ١٠٩. غير مجذوذ: غير منقطع.

وقد علمنا الله تبارك وتعالى على لسان أنبيائه وأوصياء أنبيائه كيف ندرأ عنا العذاب فان الصاعقة لا تصيب المؤمن إذا كان ذاكراً لله تعالى لا ينفك عن ذكره.

فعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عن ميتة المؤمن قال: «يموت المؤمن بكل ميتة: يموت غرقاً ويموت بالهدم، ويبتلى بالسبع ويموت بالصاعقة ولا تصيب ذاكراً لله عز وجل».

وقد يعترض البعض: لماذا يبكي الطفل؟ ولقد ثبت أن هذا البكاء رياضة مفيدة لجوارح الطفل، فبكاؤه يؤدي إلى حركات مختلفة نافعة في أعضائه، في القلب والدم والرئة والحنجرة والأعصاب والعضلات والأطراف والوجه والبطن إلى ما هنالك. وهو نداء في بعض الأوقات لبعض حاجات الطفل وكلما تقدم هذا العلم المادي علم أن ما من شيء في تركيب جسم الانسان وسائر الحيوانات إلا عن حكمة بالغة، لم يقف عليها البشر لقلة معلوماته وجهله غير المتناهي وعدم تقدم العلم إلى درجة مرموقة، وقد علموا أخيراً أن للزائدة الدودية واللوزتين آثارهما وفوائدهما.

إن الله قد يجعل الولد يولد أعمى، محروماً من البصر، وفي ذلك أسباب وحكم خفيت علينا، منها أن هذا الأعمى قد قبل في عالم الذر وارتضى أن يكون عديم البصر، حتى ينال في هذه الدنيا الموقتة مراتب تقربه إلى الله ومزيداً من المعارف الآلهية، ذلك لأن من أهم القربات تقبل الأذى والصبر على النوائب، وقد صبر هذا الأعمى طوال عمره على هذه المحرومية، ليكف عن نفسه تلك المعاصي الكثيرة التي يرتكبها بالباصرة. فأجره عظيم وثوابه جزيل، ولعله خير في عالم الذريين أن يكون مبصراً مع العصيان والكفر وسوء العاقبة، وبين أن يكون أعمى، متقرباً إلى الله مع حسن العاقبة، فاختار لصفاء في نفسه ولعقل أودعه الله فيه، الشق الأول، ففاز بحسن العاقبة وجنات عدن.

وأصبح بتقبله العمى عبرة للآخرين وموعظة للمبصرين، حتى يشكروا الله على ما منحهم من نعمة الابصار، وما أعظمها!...

فعلى المرء أن لا يغتر بأفكاره وما هو عليه من معلومات ضئيلة جداً بالنسبة لما أودع الله من قوانين وأنظمة مترابطة في هذا الكون الرحيب، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم أرجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1].

وهو القائل: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[2].

ذلك، لأن الأرض التي نعيش عليها كهباءة ضئيلة في شعاع الشمس إذا دخل من نافذة في غرفة مظلمة. فإذا نسبنا حجم محبرة موضوعة على منضدة إلى الغرفة بل إلى البيت، بل إلى المدينة التي نعيش فيها بل إلى القطر الذي نعيش فيه، إلى القارة (آسيا) التي نحن من ضمنها لكانت نسبة حجم أرضنا إلى هذا الكون الرحيب، أقل بكثير من تلك النسبة. فما أوسع هذا العالم!.

ومعلوم أن أرضنا هذه ليست إلا واحداً من الكواكب السيارة التسعة، وهي تدور مع رفيقاتها (وهي بالترتيب): عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشترى، زحل، أورانوس، نبتون، بلوتو حول الشمس في منحنيات اهليليجية (قطع ناقص). وما أصعب رسم القطع الناقص في الهندسة، ومعادلته:

$$\frac{س^{٢}}{ب^{٢}} + \frac{ص^{٢}}{جـ^{٢}} = ١$$

(ب = نصف القطر الكبير، جـ = نصف القطر الصغير)

وإن هذه المجموعة الشمسية تضم فضلاً عن ذلك حوالي ١٦٠٠ كويكب صغير يتراوح قطر الواحد منها ما بين كيلومترين إلى ٨٠٠ كيلومتر

---

(١) سورة الملك: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة لقمان: ٢٧ ما نفدت: ما انتهت.

تقريباً. وكل منها يدور في فلك خاص به، ولكنها جميعاً موجودة في الفضاء الواسع المحصور بين فلكي المريخ والمشترى.

وإن الأجرام السماوية التي نراها منتشرة بكثرة هائلة في السماوات ليست كلها نجوماً، كما نتحدث عنها في حياتنا العامة، بل أنها تضم أجراماً أخرى كثيرة من أهمها الكواكب وتوابعها من الأقمار، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نميز بسهولة بمجرد النظر إلى السماء بالعين المجردة بين الكواكب والنجوم لأنها جميعاً تبدو متشابهة إلى حد كبير. ولهذا السبب فان لنا كثيراً من العذر في أن نطلق عليها اسم: النجوم[1].

أما علماء الفلك فيمكنهم أن يميزوا النجوم عن الكواكب بواسطة المناظر المكبرة، وهم يقولون أن النجم(Star) يختلف عن الكوكب(Planet) من ناحيتين أساسيتين هما:

١ ـ إن النجم أعظم حجماً بكثير من الكواكب، فبينما نجد مثلاً أن قطر أكبر كوكب من كواكب المجموعة الشمسية وهو المشتري يبلغ حوالي (١٤٤) ألف كيلومتر، أو: (٩٠ ألف ميل) نجد أن قطر الشمس وهي النجم الذي تتبعه هذه الكواكب ١٣٨٤٠٠٠ كيلومتر (٨٦٥٠٠٠ ميل)، مع ملاحظة أن الشمس ليست هي أكبر النجوم بأي حال من الأحوال. فمن النجوم ما هو أكبر منها بكثير ومنها ما هو أصغر منها. ويطلق على الأولى اسم: النجوم العمالقة، بينما يطلق على الثانية اسم «النجوم الأقزام».

٢ ـ إن النجم يكون دائماً ملتهباً ومضيئاً إضاءة ذاتية، ويرجع ذلك إلى عظم حجمه لأن هذا العظم يترتب عليه ازدياد الضغط والحرارة في باطنه زيادة تؤدي إلى حدوث تفاعلات كثيرة تتولد عنها باستمرار طاقة هيدروجينية وذرية عظيمة جداً. أما الكوكب فان صغر حجمه نسبياً لا يساعد على تولد مثل هذه الطاقة، وذلك، فانه يكون دائماً معتماً وليس له ضوء خاص به. ولكن على الرغم من ذلك، فان الكواكب تبدو لنا مضيئة بسبب انعكاس ضوء النجوم على سطحها.

---

(١) أسرار غزو الفضاء: للدكتور عبد العزيز شرف.

وتوجد في الفضاء ملايين ملايين من النجوم والكواكب وعدد النجوم المعروفة لنا في الوقت الحاضر أكثر من ١٥٠ ألف مليون نجم بكثير وليست الشمس إلا واحداً منها. وتفصل النجوم بعضها عن بعض مسافات لا يمكن تصورها ولا يمكن تقديرها بوحدات القياس العادية، ولهذا السبب اتفق علماء الفلك على استخدام وحدة خاصة لقياس هذه المسافات[1]، وهذه الوحدة هي السنة الضوئية ويقصد بها المسافة التي يستطيع الضوء، وسرعته (٣٠٠,٠٠٠) كيلومتر في الثانية، أو (١٩٥٠٠٠) ميل أن يقطعها في سنة كاملة وهي تساوي على وجه التقريب (٩٤٦١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) كيلومتر أو (٥,٨٧٥,١٥٧,٠٠٠,٠٠٠ ميل).

أما البعد بين الكواكب السيارة بعضها عن بعض فتستخدم في قياسه وحدة أخرى أصغر من السنة الضوئية، ويطلق عليها اسم الوحدة الفلكية.

Astr onomical Unit ومقدارها هو متوسط البعد بين الأرض والشمس في الفصول المختلفة وهو ١٤٨ مليون كيلومتر: (٩٣ مليون ميل).

وإذا نظرنا إلى السماء في ليلة صافية لاحظنا أن بعض النجوم أكثر لمعاناً من بعضها الآخر، ولكن يجب أن لا نأخذ هذا اللمعان دائماً دليلاً على ضخامة النجم، لأن بعض النجوم قد تكون أكثر لمعاناً من نجوم أخرى أضخم منها، لا لشيء إلا لأن الأخيرة أبعد عن الأولى.

وربما يخيل إلى البعض منا أن النجوم مبعثرة في السماء دون أن يكون لها نظام ثابت، وفي هذا خطأ شديد. إذ الواقع أنها منظمة إلى أبعد الحدود، بحكمة الله جلت قدرته في مجموعات: هي التي تسمى بالمجرات. ومن أهمها بالنسبة لنا: المجرة التي نحن من أبنائها وهي تشتهر عندنا باسم (سكة التبانة)، بينما تشتهر عند الأوروبيين باسم: (السكة اللبنية Milky way) ويمكننا أن نميزها بسهولة إذا نظرنا إلى السماء حيث نجد أنها تمتد على شكل نطاق عظيم متصل لا نهاية له، وفي هذا النطاق تتزاحم النجوم بدرجة يجعل لونها يميل إلى البياض، وهذا هو السبب الذي أوحى

---

(١) قد شرحنا هذا الموضوع في بقية أجزاء التكامل شرحاً وافياً.

للعرب بأن يطلقوا عليه اسم: سكة التبانة، وفي هذه التسمية تشبيه بين النجوم الكثيرة المتناثرة وجزيئات التبن التي تتطاير على طول الطريق الذي يسير فيه بائعوه. وهو نفس السبب الذي أوحى للكتاب الغربيين أن يطلقوا عليه اسم: (طريق اللبن).

وليست شمسنا بكواكبها وأقمارها إلا جزءاً من هذه المجرة، ولكنه جزء ضئيل جداً لا يشغل منها إلا مساحة أشبه بالمساحة التي تشغلها حبة رمل واحدة من أراضي مصر كلها.

وبالاضافة إلى مجرتنا: سكة التبانة، خلق الله مجرات أخرى كثيرة جداً، بعضها أكبر من مجرتنا حجماً ويبلغ عدد المجرات المعروفة عندنا لحد اليوم مائة مليون مجرة تقريباً. ومن أقربها إلى مجرتنا مجرة: الأنروميدا، أو، المرأة المتسلسلة، وهي تبعد عنا بنحو ٧٥٠ ألف سنة ضوئية، ولهذا فليس من العجيب أن نراها ضئيلة في الفضاء، وهي تبدو على شكل سحابة صغيرة يبلغ طولها حوالي قطر قرص القمر عندما يكون بدراً، بينما يبلغ عرضها نصف ذلك تقريباً وهي ذات ذراعين بميزانها عن غيرها من المجرات.

وتفصل المجرات بعضها عن بعض مسافات شاسعة جداً من الفضاء يبلغ طولها في المتوسط حوالي مليونين من السنين الضوئية، وهي جميعاً تتبع نظاماً واحداً في حركاتها. فكل مجرة منها تدور حول نفسها كما يدور قرص الرحى، وكل نجم من نجومها يدور حول نفسه بنفس النظام وكل كوكب أو قمر من أقمارها يدور كذلك بنفس النظام وفي نفس الاتجاه ولكن بسرعات مختلفة، كما نشاهد ذلك في حركة الالكترونات حول البروتونات المتجمعة في بطن الذرة ولكن بسرعات مختلفة أيضاً. وهذا دليل على وحدة الخلق ووحدانية الخالق جلت عظمته ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[١] ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، ان الله سميع بصير﴾[٢].

---

(١) سورة الملك: ٣.

(٢) سورة لقمان: ٢٨.

ويبلغ قطر مجرتنا: (سكة التبانة) من أحد طرفيها حتى طرفها الآخر مائة ألف سنة ضوئية وتقع الشمس على بعد حوالي ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركزها. وتدور الشمس حول هذا المركز مرة كل ٢٥٠ مليون سنة تقريباً: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[1]

وحتى في المجرة الواحدة تجد أن الأبعاد التي تفصل النجوم بعضها عن بعض شاسعة جداً، فالبعد بين شمسنا وبين أقرب النجوم الأخرى الينا يزيد على ٤١ مليون مليون كيلومتر أو: (٢٦ مليون مليون ميل) أي حوالي ٤,٤ سنة ضوئية. فلو أننا مثلنا الشمس بنقطة وأردنا أن نمثل أقرب نجم لها لمثلناه بنقطة أخرى تبعد عن الأولى بنحو ٦ كيلومترات!.

وهكذا نجد أننا بأرضنا وشمسنا وقمرنا وأقربائنا من الكواكب وتوابعها في عزلة تامة عن سائر الأكوان، ويفصل بيننا وبينها فضاء تام لا نعرف حتى الآن صفاته على وجه التحديد.

وشمسنا عبارة عن كرة ضخمة ملتهبة قطرها ١,٢٢٤٠٠٠ كيلومتر أو: (٨٦٥٣٨٠ ميلاً)، أما الأرض فقطرها بين القطبين ١٢٧١٤ كيلومتراً = (٧٩٠٠ ميل) ويزيد قطرها الاستوائي بنحو ٤٣ كيلومتراً. أما حجمها فلا يزيد على $\frac{١}{٣٣٣٤٠٠}$ فقط من حجم الشمس.

وتقدر درجة الحرارة على سطح الشمس بنحو ٦٠٠ درجة مئوية، أما في باطنها فترتفع إلى اكثر من ٢٠ مليون درجة. ويمكننا أن نقدر مدى هذه الحرارة إذا عرفنا أن الحديد ينصهر في ١٥٠٠ درجة مئوية فقط.

وتتولد حرارة الشمس وغيرها من النجوم نتيجة للانفجارات الذرية والهيدروجينية التي تحدث فيها باستمرار بسبب الضغط والحرارة العظيمين في باطنها من ناحية ووجود عنصري الهيدروجين والهيليوم بكثرة هائلة فيها من ناحية أخرى. فمن المعروف أن هذين العنصرين هما العنصران الأساسيان في توليد الطاقة الهيدروجينية، وفضلاً عن ذلك فقد ثبت أيضاً:

---

(١) سورة الحج: ٤٧.

أن اليورانيوم هو العنصر اللازم لتوليد الطاقة الذرية موجود هو الآخر بكثرة هائلة في الشمس ولكنه أقل نسبياً من الايدروجين والهيليوم.

وتنبعث من الشمس باستمرار إشعاعات قوية جداً ولكن لا يصل إلى أرضنا منها إلا ما يعادل $\frac{١}{٢٢٠٠٠ \text{ مليون}}$ فقط. وهي ميزة لم يخص بها أي كوكب آخر، فلو أن الأرض اقتربت من الشمس اكثر مما عليه الآن لازدادت الأشعة التي تصل اليها بدرجة تؤدي إلى امتناع الحياة فوقها، كما هي الحال في عطارد والزهرة، ولو أنها ابتعدت عنها أكثر مما هي عليه الآن، لحدث العكس وقلت الأشعة وازدادت قسوة البرد بدرجة تؤدي كذلك إلى امتناع الحياة، كما هي الحال في المشترى وزحل وغيرهما من الكواكب التي تلي الأرض من الناحية البعيدة عن الشمس وهو القائل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[١].

فالله تعالى بعظيم حكمته وسريع حسابه اختص الأرض بهذا الموقع، وكذلك اختصها بميزة أخرى لم تكن الحياة لتقوم بدونها، وهذه الميزة هي أنها مغلفة تماماً بغلاف غازي كثيف يتكون من جميع العناصر الضرورية للحياة. وهذا بخلاف الحال بالنسبة لباقي الكواكب التي ليس لأي واحد منها غلاف هوائي كاف لظهور الحياة، وإن كان بعض علماء الفلك يعتقدون أن المريخ له غلاف غازي ولكنه رقيق جداً، وغير صالح للحياة لخلوه من الأوكسيجين، وان الزهرة لها كذلك غلاف غازي، ولكنه مكون في جملته من ثاني أوكسيد الكاربون مما يجعله هو الآخر غير صالح لظهور الحياة، وكذلك قمرنا المعروف له غلاف غازي ولكنه رقيق جداً وخال من العناصر الضرورية للحياة مثل الأوكسيجين.

وتدور الكواكب والكويكبات كلها حول الشمس في أفلاك إهليلجية (بيضاوية تقريباً) تقع كلها في مستوى واحد تقريباً، ولكنها تختلف في سرعة دورانها سواء حول الشمس أو حول نفسها. إلا أن سرعة دورانها تكون أكبر بصفة عامة كلما كانت أقرب إلى الشمس. فبينما يتحرك عطارد في فلكه

---

(١) سورة الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦.

حول الشمس بسرعة ٤ كيلومترات في الثانية نجد أن سرعة الزهرة هي ٣٥ كم والأرض ٢٩,٥ كم والمريخ ٢٤ كيلومتراً في الثانية.

ومن المعروف أن جاذبيةالشمس هي العامل الرئيسي الذي يتوقف عليه نظام حركة الكواكب في أفلاكها، وما ذلك إلا لعظم حجم الشمس التي تستحوذ بمفردها على ٩٨,٨٦٦٪ من حجم المجموعة الشمسية كلها. أما بقية المجموعة بكواكبها وكويكباتها وأقمارها فتكون ١,١٣٤٪.

وإن المشترى أكبر الكواكب حجماً ويعادل حجم الأرض وحدها ٣١٨ مرة. وأقرب الكواكب إلى الأرض هي الزهرة التي يبلغ حجمها ٥/٦ من حجم الأرض، ويلي الزهرة في ذلك: المريخ ثم عطارد ويبلغ حجمهما ١/٩ و ١/٢٧ من حجم الأرض على الترتيب.

ويعتبر المشترى أكثر الكواكب أقماراً، إذ أن له أحد عشر قمراً ويليه في ذلك زحل وله تسعة أقمار.

وتضم المجموعة الشمسية، بالاضافة إلى الكواكب والأقمار التي سبق ذكرها عدداً كبيراً من المذنبات Comets التي تدور حول الشمس في أفلاك مستقلة ليست لها علاقة واضحة بالأفلاك التي تدور فيها الكواكب السيارة. وأهم ما تتميز به المذنبات هو الغازات الملتهبة التي تنبعث منها وتظهر خلفها على شكل ذنب طويل قد يمتد لملايين الكيلومترات. وتخرج من رؤوس المذنبات كذلك أجسام مختلفة الأحجام من نوع الشهب، وتدور هذه الأجسام مع المذنب وكثيراً ما تحترق خصوصاً عندما يكون المذنب في أقرب وضع له من الشمس، فيساعد احتراقها هذا على زيادة حجم المذنب، وهناك عدد من المذنبات المعروفة التي من أشهرها المذنب هالي: Halley والمذنب مورهاوس Morehouse ويتميز هذا الأخير بأن له ذنبين.

ويجب أن نشير هنا أيضاً إلى تلك الأجسام الكونية التي تنتشر بكثرة هائلة في الفضاء وتشمل الشهب والنيازك والغبار الكوني، والشهب Moteors ليست إلا حريئات صغيرة جداً، قد لا يزيد حجمها على حجم حبات

الرمل. وهي تندفع باستمرار نحو الأرض بمعدل عدة آلاف يومياً. ولكنها لا ترى إلا عند اختراقها للغلاف الغازي المحيط بالأرض لأن احتكاكها الشديد بالهواء يؤدي إلى احتراقها وظهورها مضيئة.

ومنظر الشهب المحترقة في الجو منظر مألوف لنا جميعاً. ويمكننا أن نشاهده بكثرة في الليالي الصافية. ففي مثل هذه الليالي يستطيع المرء أن يحصي أكثر من عشرة من الشهب المتساقطة في الدقيقة الواحدة، وتكون سرعة هذه الشهب عند اختراقها للغلاف الغازي عظيمة جداً. بحيث تصل أحياناً إلى حوالي ٧٠ كيلومتراً في الثانية. ولهذا فان أغلبها لا يصل إلى الأرض بل يحترق ويتبخر في الفضاء. وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى، فلولا ذلك، لكانت لهذه الشهب أخطار شديدة جداً على كل مظاهر الحياة على وجه الأرض. بسبب قوة اندفاعها التي تزيد على قوة اندفاع أقوى المقذوفات النارية على الرغم من صغر حجمها. ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾(١).

أما النيازك Meteorites فلا تختلف في أصلها عن الشهب، وكل ما هنالك هو أنها لا تحترق ولا تتبخر تماماً في الجو بل تستطيع أن تصل إلى سطح الأرض. ويرجع ذلك غالباً إلى أنها تكون أكبر حجماً وأثقل وزناً من الشهب العادية، وليس هناك حجم أو وزن معين لهذه النيازك، فقد يبلغ وزن البعض منها عشرات الأطنان. وإذا ما سقطت مثل هذه النيازك على بقعة عامرة، فقد يترتب على سقوطها حدوث خسائر جسيمة، ولكن سقوطها نادر الحدوث جداً بفضله تعالى.

ومن أشهر النيازك التي سقطت على الأرض ذلك النيزك الذي سقط على سيبيريا سنة ١٩٠٨ واختفت بسببه الحياة النباتية اختفاءاً تاماً من منطقة قطرها حوالي ٧٥ ميلاً، ثم النيزك الذي سقط على اريزونا وتكونت بسببه حفرة أشبه بفوهة بركان ضخمة قطرها حوالي كيلومتر ونصف وعمقها حوالي ١٨٠ متراً. ولا يزال هذا النيزك ظاهراً في قاع تلك الحفرة حتى الآن على

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٢.

الرغم من تراكم الرمال فوقه.

أما الغبار الكوني Cosmic Dust فيتكون من جزيئات ميكروسكوبية تسبح بكثرة هائلة في الفضاء، وقد أجريت في روسيا والولايات المتحدة خلال السنوات الأخيرة عدة تجارب لدراسة أثر هذا الغبار على الأجسام الصلبة، حيث كانت تطلق في الفضاء إلى أقصى ارتفاع ممكن إطباق مصنوعة من معدن مصقول جداً (الأطباق الطائرة)، وقد تبين من اختبار هذه الأطباق بعد عودتها إلى الأرض أن بها آثاراً عديدة جداً لضربات الحبيبات الدقيقة للغبار الكوني، ولكنها عموماً آثار صغيرة جداً، لدرجة أن أغلبها لا يرى إلا بالميكروسكوب.

وقد تبين من بعض التجارب التي أجريت في الولايات المتحدة خلال سنة ١٩٥٣ والتي أطلقت فيها أطباق طائرة وصلت إلى ارتفاع يتراوح بين ٤٠ و ١٤٠ كيلومتراً في الفضاء، أن الضربات التي سجلت على هذه الأطباق من حبيبات الغاز الكوني كانت تحدث بمعدل ٤,٩ ضربة في الثانية على السطح الذي تبلغ مساحته متراً مربعاً واحداً.

وقد علم أخيراً أن هناك نوعاً آخر من الاشعاعات الخطرة في الفضاء على ارتفاع ٤٠٠ كيلومتر، وإن هذه الاشعاعات شديدة جداً لدرجة أنها كانت تؤدي إلى تعطيل عمل الأجهزة الخاصة بقياس الأشعة فوق البنفسجية.

* * *

على الانسان أن يتصاغر أمام عظمة الله تعالى، تلك العظمة التي تتجلى بعض مظاهرها في ما خلق من هذه العوالم اللانهائية وما فيها من أنظمة دقيقة ومعادلات رصينة ودساتير ثابتة، فإذا رأى حادثة لا يقوى على تفسيرها وكشف الحكمة فيها، فليصم نفسه بالجهل لقلة معلوماته عن هذا الكون الغامض. فمن شاهد لوحة تصوير في غاية الاتقان والبداعة ورأى في أسفلها بعض الخطوط والنقوش ولم يتمكن من تفسيرها وتعليلها فلا ينبغى أن يصم المصور الفنان بفقدان الذوق، بل عليه أن يتهم نفسه بعدم الفهم

بعد أن شاهد الروائع والكمال إلى أقصى حد ممكن في اللوحة بأسرها.

نعم، كان يقول (بوخنز) المادي: «بما أنا لا نعلم سبب وجود هذه النجوم بهذه الكثرة إذن ليس هناك هدف من خلق هذا العالم، وقد وجد هذا الكون بطريقة عشوائية!». حين أن الرجل لم يكن من المتضلعين في علم الهيئة والفلك والميكانيك السماوي، ولم يكن قد اكتشف في وقت قال فيه قولته الالحادية: علم الفلك اللاسلكي وخصائص الذرة ومعادلاتها الرصينة. نعم أن النفوس الحالكة لا يصدر منها إلا ما يناسبها. ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. (وكل إناء بالذي فيه ينضح).

يقول (ويليام كروكس) وهو أحد أساطين علم الذرة: «أن اعتقادي بجهلي هو الذي ساعدني في دراساتي الروحية وكشف كثير من أسرار الطبيعة: تلك التي ما كنت أتوقع أن تنكشف لي أبداً».

ويقول (أوليفر لودج): وكانت له يد في كشف اللاسلكي: «إن ما أعلمه صفر تجاه ما لا أعلمه»، وقد يعترف البعض بجهلهم لا عن عقيدة راسخة، إلا أني أقول ذلك واعترف بجهلي عن عقيدة رصينة وإيمان كامل».

وكان يقول (أينشتاين) شيخ علماء العصر الحديث، بعد أن رماه بعض أعدائه بالكفر والالحاد نتيجة لما نشره من نظريات في علوم الطبيعة والكون: «كيف يتهمني هؤلاء الناس بالكفر والالحاد، وأنا الذي يزداد إيماني في كل يوم بوجود الله وعظمته، فكلما تعمقت في العلم تبين لي بجلاء أن هذا الكون بنظامه الدقيق لا بد أن يكون له خالق عاقل، له القدرة على تنظيمه والمحافظة على هذا التنظيم»[1].

ويقول العالم الامريكي (فون براون): «إن العالم الحقيقي هو الذي يزداد إيمانه بالله كلما تبحر في العلم، لأنه كلما تعمق في دراسة علوم الطبيعة مثلاً تبين له أن بعض التعبيرات الرنانة التي يستخدمها في دراساته مثل: الطاقة والمادة ما زالت في الواقع غير مفهومة له. وفضلاً عن ذلك،

---

(١) أسرار غزو الفضاء: ص: ٣ للدكتور عبد العزيز شرف.

فان هناك مشاكل كثيرة ما زال الانسان وسيظل دائماً عاجزاً عن تفسيرها وحل ألغازها ومن أهمها مشاكل الوراثة، ويكفي أن يعرف الانسان أنه يولد من أبوين لا يمكن أن يكون له أي دخل في اختيارهما».

* * *

فلله في خلقه شؤون، وهو خير محض وما يصدر منه خير محض وعن حكمة تامة، ليس لهذا البشر أن يحيط بجميعها، فيعزو لغروره الكوارث والنوائب والزلازل إلى البلبلة وعدم الانتظام والهدف في هذا الكون المنظم بدساتير رياضية وبحكمة بالغة إلى أبعد الحدود.

وعلينا أن نعلم أنه لم يؤت بنا إلى هذه الدنيا الموقتة لنخلد فيها ولكي ننعم بأنواع النعم والملذات، وإنما جيء بنا ها هنا لكي نقطع هذا الدور الامتحاني ونذهب منها حسب الدرجة التكاملية التي نحصل عليها بعملنا وحسب جهدنا وجهادنا: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾[1] ﴿وإن ليس للانسان إلا ما سعى، وان سعيه سوف يرى﴾[2]، ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[3].

* * *

أما موضوع الموت، فليس بالشيء الذي يقلق البال، وقد يكون موت هؤلاء الأطفال لزلزلة أو عاصفة شديدة وهم غير مثقلين بالذنوب خيراً لهم من أن يموتوا بعد عمر طويل وهم مليئون بأنواع الآثام والاجرام. وأنهم بهذا الموت الفجائي أقرب من غيرهم إلى رحمة الله تعالى. فالدنيا دار ممر والآخرة دار مقر. ويقول علي (ع): «ماذا يصنع بالدنيا من خُلق للآخرة».

﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو

---

(١) سورة العنكبوت: ٦.
(٢) سورة النجم: ٣٩ ـ ٤٠.
(٣) سورة العنكبوت: ٦٩.

كانوا يعلمون﴾[1].

* * *

وخلاصة القول: على الانسان أن يعلم أن لا شر من جانب الله تعالى، وكل ما يرد من جانب الله فهو إما رحمة أو تأديب أو عقاب دنيوي لسعادة أخروية دائمة، وإما مطهر لهذه النفس من ذنوبها وأدرانها، وأن يعلم ان الله غني عن هذا الانسان وعن ظلمه وتعذيبه. ولكنه وهو الكامل على الاطلاق يريد به الكمال، شأنه في كل ما خلق، لأن الكامل لا يصدر منه إلا الكمال. وقد يتوقف كمال هذا الانسان بما يطهره ويؤدبه، ونعم الأدب، أدب الله تعالى. فقد قال رسول الله (ص): «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وهو القائل: ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾[2].

والانسان لحرصه الكثير على الراحة وحبه للخير وميله إلى المادة يظن الكوارث أو بعض البلايا أو الأسقام شراً من الله تعالى، ﴿إن الانسان لربه لكنود، وأنه على ذلك لشهيد، وانه لحب الخير لشديد﴾[3]. وهو القائل: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[4]. فكل خير منه تعالى والشر مما اجترحت أيدينا.

فالكارثة أو المصيبة إنما تأتي لتطهير النفس من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، فهي رحمة وأيما رحمة، وقد أتم الله الحجة علينا بشتى الوسائل والمناسبات، وقد تكون لمزيد الأجر ونيل درجات رفيعة، وقد تضم الحادثة الواحدة بين جوانبها شتى التأثيرات. فرحمة لقوم ونعمة وعقاب لآخرين ونقمة، وعبرة لقوم وموعظة للمتعظين، كالطوفان والرياح والعواصف إلى ما هنالك.

فليعمل الانسان لنيل الدرجات العالية في عوالم القدس وليحسن الظن

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.
(٢) سورة النحل: ٩٠.
(٣) سورة العاديات: ٦ ـ ٨.
(٤) سورة النساء: ٧٩.

بربه، ففي حديث قدسي عن الله تعالى: «أني عند حسن ظن عبدي».

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[1].

* * *

ولنذكر ها هنا بعض الأدعية التي لها أثرها الفعَّال في تسكين النفس وإزالة بعض الهموم.

فعن الصادق (ع): «إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فانها مفتاح الفرج. وكنز من كنوز الجنة.

وقد روي أن من صلى ركعتين بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة، يقرأ في كل ركعة بعد الحمد سبع مرات سورة الاخلاص (قل هو الله أحد) ويدعو بعدهما بهذا الدعاء:

«أللهم اجعلني من أهل الجنة التي حشوها البركة وعمارها الملائكة مع نبينا محمد صلى الله عليه وآله وأبينا إبراهيم عليه السلام» لم يَرَ بلاءاً أو فتنةً إلى الجمعة الآتية ويجمع الله بينه وبين محمد (ص) وإبراهيم (ع).

وعن أبي حمزة قال: قال محمد بن علي عليهما السلام: يا أبا حمزة، ما لك إذا أتى بك أمر تخافه أن لا تتوجه إلى بعض زوايا بيتك ـ يعني القبلة ـ فتصلي ركعتين، ثم تقول: «يا أبصر الناظرين ويا أسمع السامعين ويا أسرع الحاسبين ويا أرحم الراحمين» سبعين مرة، كلما دعوت بهذه الكلمات (مرة) سألتَ حاجة[2].

وعن إسماعيل بن جابر، عن أبي عبد الله (ع) في الهم، قال: تغتسل وتصلي ركعتين وتقول: يا فارج الهم، يا كاشف الغم، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، فرج همي واكشف غمي، يا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، اعصمني وطهرني واذهب

---

(١) سورة التوبة: ١٠٦.

(٢) أصول الكافي ج ٢ ص: ٥٥٦.

ببليتي. واقرأ آية الكرسي والمعوذتين. (سورة قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس).

كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: ما أبالي إذا قلت هذه الكلمات لو اجتمع عليّ الأنس والجن: بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله (ص)، أللهم اليك أسلمت نفسي واليك وجهت وجهي واليك الجأت ظهري واليك فوضت أمري. اللهم احفظني بحفظ الايمان من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ومن تحتي ومن قبلي[1] وادفع عني بحولك وقوتك، فأنه لا حول ولا قوة إلا بك[2].

وخاتمة المقال: علينا أن نعلم أن النوائب والكوارث بأنواعها المتعددة رحمات وألطاف ربانية تهدينا إلى الصراط السوي وتزيل عنا ما علق بنا من أدران، فتطهر نفوسنا وتجعلها قمينة لمعرفة الله المتعال، وهي غاية الغايات.

﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[3].

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[4].

﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾[5].

﴿ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾[6].

﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم، وان الله ليس بظلام للعبيد﴾[7]. ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب

---

(١) في بعض النسخ (وما قبلي).
(٢) نفس المصدر ص: ٥٥٩.
(٣) سورة المؤمن: ٣١.
(٤) سورة حم ـ سجدة: (٤٦).
(٥) سورة ق: ٢٩.
(٦) سورة آل عمران: ١٨٢.
(٧) سورة الأنفال: ٥٠ ـ ٥١.

منير، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله، له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق، ذلك بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد﴾[1].

﴿ووضع الكتاب، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً﴾[2].

﴿ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، انه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾[3].

ونسأل الله أن نكون ممن صبروا على النوائب والمحن وعملوا الصالحات. فنالوا أجراً ومغفرة من الله المتعال ولم يكونوا من الآئسين من رحمته تعالى إذا نزعت منهم رحمته لحكمة ربانية خفيت علينا، وان لا نكون فرحين فخورين، إذا مَنَّ الله علينا بنعماء بعد ضراء، فنكون ممن استثناهم الله في ما سبق من آيات بينات، بقول جل من قائل: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾.



(١) سورة الحج: ٨ ـ ١٠.
(٢) سورة الكهف: ٤٩ ـ ٥٠. مشفقين: خائفين.
(٣) سورة هود: ٩

إسلام روجيه في بروكسل[1]

بدأ والد روجيه حياته المبكرة عامل كهرباء عند أحد المتعهدين الذين يتولون تمديد الأسلاك، وتوقيع مرافقها المختلقة... ولكنه كان من الفطنة ونفاذ النظر بحيث لا يفوته أن ينتفع بكل لحظة وكل سانحة، لذلك لم يكد يستوثق من قدرته الذاتية وخبرته المكتسبة حتى عمد إلى الاستقلال بعمله، فأحدث لنفسه مركزاً صغيراً في أبرز شوارع انفرس... ثم لم يمض سوى القليل من الزمن حتى عرف لدى أصحاب الانشاءات بأنه من أبرع العاملين في هذه المهنة وأكثرهم إخلاصاً واتقاناً. ومن هنا شق الطريق إلى قمة النجاح، حتى أصبح اليوم من أكبر تجار الأدوات الكهربائية، ليس فقط في إنفرس بل في مختلف الأنحاء من بلجيكا وما يجاورها من المدن الهولندية والفرنسية.

ولعل من حسن حظ (روجيه) أن يلده هذا العصامي الناجح، وأن يتولى هو نفسه تربيته وتنشئته، بالدقة نفسها التي اعتاد أن يبذلها في ميدان العمل والتجارة، وكان من الأسس الأولى لهذه التربية أن يحرر مواهب ولده من كل ضروب التقييد، فيفسح له مجال البحث في كل شيء. ويمكنه من الاطلاع على كل ما من شأنه مساعدة هذه المواهب على الانطلاق. وقد تعمد بوجه خاص أن يقوي في ولده جانب الاعتماد على النفس، فلم يكرهه على اتجاه محدد. حتى في نطاق الدراسة ترك له أن يقف عند حدود الشهادة الاعدادية دون أن يضغط عليه لملازمة المدرسة... وربما كان غرضه من ذلك أن يجعله أقرب إلى عمله هو... الذي لا يتطلب منه انقطاعاً إلى الدراسة، التي قد تحيد به إلى أي اتجاه آخر.

على أن انقطاع (روجيه) عن المدرسة لم يصرفه عن مواصلة الدرس بطريقته الخاصة، فلقد أقبل على المطالعة الحرة يلتهم بها كل ما وصلت إليه

---

(١) للأستاذ محمد المجذوب، من مجلة حضارة الاسلام، للسنة الرابعة شوال: ١٣٨٣.

يده من الكتب، ولا سيما في موضوعات الأدب والتاريخ والآثار القديمة، وقد ركز ذهنه في هذا الطريق عناية والده بالسياحات الدورية، إذ كان شديد الحرص على هذه الهواية يخصص لها من كل عام شهراً كاملاً، فما أن تشرق شمس الربيع حتى يشحن سيارته الخاصة بضروري الأمتعة وطيب الزاد، ثم ينطلق مع ولده إلى الجهة المقررة. فلا يزالان يتنقلان بين آثارها حتى يأتيا على اجازتهما، فيعودا وقد ملآ أعينهما، واترعا صدرهما بالمتع التي لا تنسى. وحتى الآن لم يدعا جانباً هاماً من أوربا دون أن يأخذا بحظ من مشاهدته وتملي آثاره... وها هما ذان يتمان طوافهما بين آثار اليونان وقد انتهت بهما الرحلة إلى جزيرة (رودس) حيث مضى عليهما قرابة الأسبوع.

كان التقدير المبدئي أن لا تزيد إقامتهما في رودس عن اليومين، ولكن رغبة روجيه في تمديدها، واهتمام والده بتحقيق رغبته، فرضا على الوالد أن يعدل تخطيطه السابق، ليتيح لولده أن يستكمل مشاهدته في الجزيرة اليونانية.

وكان روجيه يقوم بجولة منفردة في بعض شوارع رودس حين وجد نفسه أمام مسجدهاالوحيد... ورأى هيكل المسجد شيئاً طريفاً تقع عليه عيناه لأول مرة خارج نطاق الرسوم السياحية... فلم يشأ أن يبارح ذلك الموقع قبل أن يطل على داخله، ويشهد حالة رواده أثناء بعض العبادات... واتفق ان حدث ذلك ظهر يوم الجمعة، إذ رأى أفواج المصلين يتجهون نحو المسجد فلم ينتبه لنفسه إلا وهو بينهم متجهاً إلى مدخله وهناك خلع نعليه بالطريقة التي رآها من الناس، ثم جلس كما جلسوا، وصمت كما صمتوا، ولما نهضوا الى الصلاة وجد نفسه يفعل فعلهم، ولكنه اكتفى بالوقوف ينظر اليهم دون أن يعلم ماذا ينبغي أن يفعل... ولما جلسوا يستمعون الى الخطيب شاركهم في الاصغاء دون أن يفهم حرفا مما يسمع.

وانتظر روجيه حتى غادر معظم المصلين المسجد... فتقدم صوب المحراب حيث كان الامام الخطيب لا يزال يستقبل الدعاء فما أن احس هذا باقترابه حتى أنهى دعاءه ونهض ليصافحه! وكان من حسن حظ روجيه أن الرجل يحسن الفرنسية إلى حد كان كافياً للتفاهم معه، وبهذه اللغة دارت بينهما المحاورة القصيرة التالية:

ـ أنا بلجيكي من آنفرس... أقوم بسياحة مع والدي وقد استهواني منظر هذا المعبد الشرقي فدخلته وشهدت صلاة الناس فيه.

ـ ألف مرحباً.. هل سرك ما رأيت؟

ـ بل استهواني.

ـ وبماذا؟.

ـ بهذه البساطة وذلك الخشوع الذي رأيته يغمر الناس.. وراح روجيه يجيل عينيه في جدران المسجد ثم تابع: ان خلو هذه الجدران من الرسوم مما يساعد النفس على الاستغراق في أعمق الخشوع، لأنها لا تجد حولها ما يصرفها عن الله.

ولقد رأيتك تتحدث من أعلى المنبر إلى الناس في هيئتك العادية دون مساعدة من المغنين، ودون استعانة بالبخور.. فتتجاوب معك نفوسهم حتى لتسيل دموع الكثيرين منهم دون تصنع... وهذا ما لا يكاد المصلون الآخرون يحسونه في معابدهم التي أحالتها أيدي الفنانين متاحف تشغل الناظر عن نفسه وما جاء من أجله... ثم أصارتها حركات الكهنة وجوقات المغنين شبه مسارح، لا يكاد المشاهد يفرق بينها وبين أي مسرح للتمثيل!!.

هو امتياز الاسلام... لأنه الدين الذي أنزله خالق العباد لاسعاد عباده، فطبيعي ألا يكون بينه وبين الفطرة البشرية أي تباين.

ـ يؤسفني أن لا أعرف شيئاً ذا بال عن هذا الاسلام.

ـ أكثر ما يعرف هذا الاسلام من خلال سلوك المسلمين... وهذا ما يتعذر على الأوربي أن يدركه، وهو الذي لا يعرف هذا الدين إلا من خلال أكاذيب أعدائه!.

ـ حقاً.. ان هناك أشياء سيئة قرأتها عنه في بعض كتب «لامانس» المبشر اليسوعي البلجيكي، وكم أود لو يتاح لي قضاء بعض الوقت في وسط اسلامي صحيح، لأتبين الحقيقة التي لا تتيسر معرفتها إلا من خلاله.

ـ كم يسرنا أن نستقبلك ضيفاً كريماً في ما بيننا. . . فلعلك بذلك واقف على بعض ما تشاء من هذا الأمر، مع العلم بأننا لا نعتبر أنفسنا أهلاً لتمثيل فضائل الاسلام على الوجه الذي يقتضيه.

وصحب روجيه امام المسجد إلى والده الذي كان ينتظره في حديقة الفندق وهناك قر الرأي على أن يكون الابن في ضيافة الشيخ أياماً ثلاثة، وبهذا قدر لروجيه أن يعيش أحب أيام حياته، في أوساط تلك الجالية التي تعرف من سلوكها وأخلاقها ومعاملاتها الكثير من حقائق الاسلام.

ـ ٢ ـ

لا يتذكر روجيه أنه عاد من رحلة ما خلال عشر سنوات مضت بمثل الشعور الذي يخالجه هذه الأيام التي أعقبت عودته من بلاد اليونان.

كان فيما مضى إذا رجعَ من رحلة أعاد النظر في مذكراته، يرتبها وينقح عبارتها، ويتحقق من صحتها، ثم يطويها فلا يعود اليها إلا في الأحيان المتباعدة، عندما يريد التحدث عن مشاهداته إلى أحد، أو عندما يقع في مسمعه خبر عن أحد هذه الأماكن التي ألم بها أثناء هذه الرحلات، وكلما أوغل الزمن في الكر على هذه الأحداث أسرع النسيان بدوره إلى آثارها في ذهنه، حتى تصبح أخيراً اشتاتاً من الذكريات، لا تستيقظ في صدره إلا تحت ضغط المناسبات المشابهة.

على أن رحلته الأخيرة كانت شيئاً جديداً في وجوده، أشبه بالبذرة الحية صادفت الجو المخصب، فإذا هي تربو وتنمو ثم تمد ساقها وتطلق أوراقها، ولا تزال تنتشر هنا وهناك، حتى تمسي دوحة ذات كيان وظل وجمال. . ولقد ضمرت في ذهنه آثار (الكروبول) وعبر (بومبي) وتماثيل الآلهة وروائع الطبيعة في البندقية وصقلية، حتى كادت تغيب أو تمحى. . . ولكنْ شيئاً واحداً من بقايا هذه الرحلة ظل، على بساطته، ثابتاً لا تزيده الأصباح والامساء إلا تعميقاً وامتداداً.

ذلك هو مشهد المسجد بقبته المستديرة البيضاء، وبمنارته القائمةفي الهواء

تشد أعين الناس لتذكرهم بما تحتها من خشوع لله لا يشوبه شاغل من زخارف الدنيا. . . ثم ذلك الانسان العجيب الذي ترك حديثه واطمئنانه وسمو روحه في أعماق روجيه ما لا يمكن زواله على مر الأيام، وتتابع الأحداث. انه ليتذكر هيكله الفارغ، ونظراته الرحيمة وعمامته الناصعة البياض كقلبه النقي فتتفاعل نفسه بالمعاني التي لا يسعه تحديدها، ولم يكن له بمثلها عهد من قبل. . . وتستتبع ذكريات الشيخ صور الأسر التي عاش في ظلها تلك الأيام الثلاثة، ينتقل من ضيافة كريمة إلى أخرى مثلها، وكأنه يعيش في جنة من غير هذا العالم. لا تقع منها العين على سوء، ولا يمس السمع ما يجرح أو يخجل. وإنما هي خلوات سعيدة يغمرها روح الايمان الذي يستولي على قلوب أفرادها فيصفيهم من الخطيئة حتى في الضمير، فإذا هم آية في نقاء الخاطر، وسلامة الفطرة وطهارة اليد، لا يأتون أمراً ولا يذرون شيئاً إلا على ضوء من روح إيمانهم، الذي نظم علاقتهم بما حولهم على أساس من تعاليم السماء، فما من شيء إلا وله في تعاليمهم هذه حكم الحلال والحرام. . . وقد بات انسجامهم مع هذه النظم شيئاً طبيعياً كالملكة الأصيلة لا سبيل إلى عصيانها، بل انه ليجدون أقل انحراف عن سبيلها باعثاً لأكبر الشقاء.

وشيء آخر لا يقل في الروعة عن كل أولئك: هو ذلك التفتح الروحي الذي يمدهم بالحل المرضي لكل معضلاتهم، فهم يقبلون على أعمال الدنيا بأحفل طاقات النشاط البشري، وأتم ما يملكون من وسائل الاتقان، فإذا ما انتهوا إلى ثمرات جهودهم تناولوها شاكرين راضين لا يحسد فقير منهم غنياً، ولا قروي مدنياً، بل اعتبروا ذلك غاية ما قدر لهم ربهم في عالم الغيب، ومع ذلك فليس ثمة موسر يضن بالمعونة على معسر، بل أنهم ليعتبرون ثرواتهم الخاصة حقاً للجميع، ينال منها كل متخلف ما يعوزه عند الحاجة. ويكاد لا يوجد بينهم فرد لا يحفظ حكمة نبيه العربي: «ليس منا من يبيت شبعان وجاره جائع وهو يعلم به. . .» ومن هنا كان مجتمعهم لوناً جديداً لا مثيل له بين المجتمعات التي يعرفها روجيه، أو يقرأ عنها، فلا حقد، ولا بغضاء، ولا تحاسد، بل اخوة سعيدة تنتظم الكل في تناغم عجيب، يجعل الجميع كالجسد الواحد، لكل فرد منه منزلة العضو الحي. ولا شك أن مثل هذه الجماعة أغنى الناس عن هاتيك النظريات الفلسفية والاقتصادية التي تتمخض بها أوربا

بأجمعها فتفكك الجماعات، وتضرب الأفراد، وتثير حرب الطبقـات، حتى لتجعل الحياة كلها أشبه بالكرة في كف عفريت فلا يستريح فيها الفرد إلى واقعه ولا يطمئن إلى مستقبله! لا بل أن روجيه ليتذكر ما أحسه من سعة الشقة بين واقع هذه الجماعة وواقع الطوائف الأخرى ممن يجاورها في رودس نفسها، إذ ما يكاد الانسان يخرج من نطاقها إلى غمار أولئك حتى يخيل اليه أنه انتقل من عالم إلى عالم. من عالم كل شيء فيه متجه إلى الله مرتبط بتعاليمه، إلى عالم لا يكاد يذكر الله إلا في أوقات العبادة المعينة، حتى إذا تفلت من طقوسها انطلق إلى أخرى من العبادات... مركزها المال والجسد وألوانُ الشهوات!.

ولقد بات قلب روجيه مرتعاً خصباً لموحيات تلك البيئة، فهو اليوم يعيش الكثير من احساساتها وكأنه زود من هنالك بطاقة من نوع غريب، فيها يطل على الحياة فيرى منها ما لم يكن يرى، ويسمع منها ما لم يكن يسمع... أنه اليوم ليقف أمام الزهرة من حديقته فيتفاعل صدره بألوان المشاعر، وينظر إلى أشعة الشمس تنسكب على الأفق وتشحن الوجود بعوامل النشاط... فإذا قشعريرة لاذة تنساب في كيانه، فيخطفه ذلك إلى ما فوق واقع التراب، حتى ليخيل إليه أنه يسمع من خلال صوت الله أو يشاهد في اليقظة وجهه!.

أجل... انها لعين ثالثة لا يعرف مكانها من جسده، ولكنه يحس فعلها في أعصابه وخياله... هي التي جعلته قادراً على تذوق الحياة وتلقي اشاراتها الخفية على هذا الوجه الذي لا يحسن له تحديداً ولا تفسيراً.

لقد أصبح على أتم اليقين أن الكون بما فيه من الناس شيء تافه يبعث السأم، ويهيج الغثيان حين ينفصل عَن نور الله، ولكنه بهذا النور وحده يتحول إلى سمفونية ساحرة. تنشيء الغبطة، وتنبت السعادة، وتفجر الالهام، وتنشر في أعماق البشر روح الأخوة والمحبة والسلام... وانه لادراك لا عهد له بمثله قبل أيام رودس، بل قبل الساعـة التي جمعه القـدر فيهـا بشيخ رودس!.

ولكم يؤسف روجيه أن لا يجد في يده أي كتاب عن الاسلام، يفصل له

المزيد من حقائقه، ويجيبه على الكثير من أسئلته!... لقد كانت أيامه في رودس محدودة لا تتسع لكل ما يجب معرفته... إذ كل ما حصل عليه من هناك هو كلمات ذلك الامام التي لا تزال تعمل في قلبه عملها... وتلك المشاهد السلوكية التي تبينها في حياة قومه فعلمته الكثير من فضائل ذلك الدين... لقد أيقظت هذه المؤثرات في كيان روجيه عطش التطلع إلى الحق... فلم يعد قادراً على الاكتفاء بما انتهى إليه، بل قد استحالت مبادىء المعرفة هذه عوالم دفع تحثه أبداً للمزيد من الاستكشاف.

إن شيخ رودس قد وصله بأسس الايمان القائمة على الاقرار بوجود الله واحداً لا شريك له ولا ولد، وبالكتب التي أنزلها على أنبيائه، وبالنشور لأداء الحساب على الأعمال، فلا يضيع سعي مهما يصغر، ولا تغفل ظلامة مهما تستر... ثم بسلطان الله على الكائنات جميعاً بحيث لا يقع في الكون كله شيء إلا وفق قوانينه التي هي صورة العدل المطلق.

وأنه ليستشعر الاطمئنان الكامل إلى هذه الأسس، لأن عقله لا يتصور الانكار لخالق العالم، إلا إذا أمكن العقل أن يتصور إنكار نفسه وما يحس به من حوله.. وهو لم يقتنع قط بأن هذا الخالق يمكن أن يكون له ند أو ولد، ما دام بحقيقته مخالفاً لأجناس الحوادث وما دام كل موجود غيره خاضعاً للعناصر نفسها التي يتألف منها كل مخلوق من سفليات الكون وعلوياته... وأما الايمان بالكتب والنبيين فإنما هو إيمان بوحدة الدين ووحدة الانسانية، ولا سبيل إلى الاسلام إلا عن طريق هاتين الوحدتين. ثم ليس في العقل حقيقة اكبر من النشور والحساب، لأنهما السبيل الوحيد إلى ضبط النفوس البشرية ضمن حدود الفضيلة العليا، ومن ثم إلى تحقيق العدل المطلق الذي كثيراً ما تنصرف النفوس البشرية عن جادته تحت ضغط الأهواء والمنافع الزائلة... وأخيراً أي جدوى من الدين كله لو رفعت سلطة الله عن مخلوقاته؟ أو ترك هذا الكون فوضى لا تضبطه سنة ولا قانون؟.

غير أن هذا كله ـ على جلالة قدره ـ لا يروي ظمأ روحه.. فهو يريد أن يعلم بتفصيل تام أوامر الله ونواهيه، لأنه مستيقن ان الانسان أعجز من أن يعرف طريق الحق الخالص، إذا لم يهتد إلى التعاليم الآلهية التي تحدد له

معالمه... ولا سيما بعد التعقيد الكثيف الذي طمس بـه الانسان دروب الحياة، وكاد يحجب مسالكها عن العقل المجرد.

- ٣ -

وقرأ روجيه ذات يوم نبأ حرك فضوله، نبأ يتحدث عن نشاط مسلم هندي اسمه بشير، يقيم في لاهاي، وقد جعل من داره مركزاً ثقافياً جامعاً، يرتاده أساتذة الجامعات، وطلاب المعرفة... وتدعوه بين الحين والحين بعض جامعات هولندة للمحاضرة في قضايا الاسلام والتعريف بعقائده.

وقد قرأ هذا في صحيفة بلجيكية معروفة بالتعصب، فهي إذن لم تنشر ذلك الخبر خدمة للعلم، أو تقديراً لعمل هذا الهندي، وإنما تريد بذلك إنذار من يهمهم الأمر من دعاة التبشير ورجال الاستشراق ليأخذوا حذرهم بأزاء هذه البادرة غير المأمونة!.

وساورته الرغبة في زيارة ذلك الهندي، وكانت رغبة قويـة لم يستطع مقاومتها، فلم يتردد إلا ريثما أعلن أباه الأمر، ثم قاد سيارته (البويك) عبر الحدود.

ولم يجد صعوبة في العثور على الرجل إذ ألفى بين عملاء أبيه في لاهاي من يعرفه ويشهد مجالسه، فأخذ هذا بيده إليه، وفي منزل الرجل شاهد روجيه كل مظاهر العلم والثقافة العالية، وحسب الزائر أن يلقي نظرة عابرة على تلك الكتب المذهبة، المالئة جدران قاعة الاستقبال، حتى يدرك أنه تلقاء رجل غير عادي، على أنه لم يلبث هناك إلا قليلاً حتى صدمته الخيبة. فعاد إلى أنفرس في اليوم نفسه، وفي صدره شعور موجع بمرارة الاخفاق!.

لقد عبر الحدود إلى لاهاي وفي نفسه لهفة إلى روح كريم، يتعهد مشاعره المتوهجة بمدد من الخير الذي قبس أضواءه لأول مرة في رودس... ولكن سرعان ما فقد ذلك الحلم لأنه وجد في لاهاي العلم ولم يجد الروح... وجد رجلاً يملك زمام البلاغة فيرد على كل سؤال، ويجول في كل ميدان، ولكنه يعجز عن ملامسة القلوب الظمأى إلى الاطمئنان والحب![1]

(١) كان الرجل قاديانياً من صنايع الاستعمار.

ويغلب على ظن روجيه أن موضع النقص في الرجل إنما يتجلى في غروره بوجه خاص، فهو شديد الثقة بنفسه، قوي الاعتزاز بمعرفته لمذاهب الفلاسفة وأصحاب النحل، يتحدث إلى زائريه في كبرياء الكهنة لا في تواضع الربانيين... وكان هذا وحده كافياً ليملأ نفس روجيه بالنفرة من هذا الانسان، الذي في وسعه أن يعثر بأمثاله في كل مكان من هذا العالم... المترع إلى حلقه بأساطين المنطق المادي ممن لا يستطيعون مجتمعين أن يمنحوه لحظة من الاشراق الروحي الذي هو بحاجة إلى المزيد منه!.

كان روجيه غارقاً في غمرة هذه التصورات، وهو يقود سيارته في شوارع انفوس تجاه متجر أبيه، عندما لمحت عينه ذلك البناء الشرقي الضخم الذي يحمل اسم (مطعم قرطاجنة)... وفي انسياق عفوي وجد نفسه يميل إلى ساحة المطعم ليقف سيارته. ثم يعرج إلى داخله ليأخذ كأساً من الشاي المبرد... وعندما همّ بمغادرة المطعم خالجته فكرة فاقترب من صاحبه التونسي ليجري معه ـ بعد تردد خجول ـ هذا الحوار:

ـ أنت مسلم...؟.

ـ طبعاً... والحمد لله!.

ـ ألا تعرف مركزاً أو جماعة يعملون لعرض الاسلام في هذه البلاد؟.

وأطرق التونسي ملياً قبل أن يجيب على سؤال روجيه هذا. ثم قال:

وهل لي أن أعلم الباعث لسؤالك؟.

ـ انها رغبة خالصة في تعرف هذا الدين.

ـ هل قرأت عنه شيئاً؟.

ـ قليلاً... ولكني اتصلت ببعض أتباعه من سكان رودس، فاستهواني ما رأيت لديهم من فضائله.

ـ إذن فسأرشدك إلى شابين من الشام يدرسان في جامعة بروكسل وأني لأرجو أن تجد لديهما ما ينقصك معرفته عن الاسلام.

وأخذ التونسي يحدد لروجيه الشارع والمنزل والاتجاه. وذكر له رقم الهاتف الذي يوصله بمسكن الشابين، وأشار عليه بكتابته. ولكن الغبطة أعجلت روجيه عن كتابة أي شيء، ومضى إلى سيارته وهو يردد إسم الشارع، ورقم الهاتف واسم الشاب الذي لقنه إياه.. واستمر على ذلك حتى دخل بروكسل، غير أنه ما كاد يغيب في زحامها حتى فقدت ذاكرته كل علامة ورقم واسم، وراح يدور كاللولب في دائرة مغلقة على غير هدى أو تعيين.. وكان مستحيلاً أن يستعين بأحد لمعرفة ما يريد، ما دام هو نفسه لا يملك أي اشارة تساعد على تعيين ما يريد!.

وبعد تجوال طويل وقف سيارته في زاوية أحد المفارق من شارع (١٠ فيلان ١٩)، وفي نيته أن يتصل بهاتف المطعم، ليستعيد من صاحبه التونسي صورة المكان ورقم الهاتف... وبينما هو متجه ناحية المكتبة المجاورة لاستعمال هاتفها إذا هو بفتى يغادرها، وفي سمرته الجذابة هويته العربية... فجمد قليلاً يتبين ملامحه، كأنه يستعيد بعض الصفات التي سمعها من صاحب المطعم... ورأى الفتى يبتسم له ثم يحييه، فلم يتمالك أن دنا منه، ثم صافحه كأنه صديق قديم، وقال في أدب بالغ:

«إنني أفتش عن فتيين من الشام يدرسان في جامعة بروكسل. وكنت أردد قبل قليل اسم أحدهما، غير أنني نسيته في زحام الشوارع ونسيت معه صورة المسكن الذي ينزلانه!!».

فابتسم الفتى مجدداً.. وقال: «... وأنا شامي... فلعلي أستطيع مساعدتك على الاجتماع بمن تقصد... ألا تذكر بعض حروف الاسم الذي أضعته؟».

ـ بلى... أنه أ... أ... «الحرف الذي ليس في لغة الأوربيين».

ـ حرف العين!. عدنان مثلاً؟..

وصاح روجيه بمثل فرحة الانسان الذي استرد مفقوداً عزيزاً:

ـ أدنان!... هو نفسه.

ـ وأنا أيضاً اسمي عدنان.

ومرة أخرى يحدق روجيه في وجه الفتى... وفي نشوة آسرة جعل يهز يده بكلتا راحتيه وهو يقول: «يجب أن تكونه.. أنك هو حتماً!».

وضحك عدنان مشاركة للفتى... وقال: أرجو أن أكونه... فلنمضِ إذن إلى المسكن... أنه قريب... في هذه البناية المقابلة.

- ٤ -

لم يراود روجيه أي شعور بالغربة وهو يلج مع عدنان مدخل الدور العلوي بل لقد صعد الدرج الحجري الأنيق يده في يده كأن بينهما وداً قديماً، يسقط معه كل تكليف، ولما صارا إلى قاعة الاستقبال راح يصافح الحضور بالروح نفسها التي دخل بها المنزل.

وقدم عدنان إليه كلا من هؤلاء باسمه وجنسيته: هذا أخي محمد يستعد لاجازة الدكتوراه في الكيمياء والصيدلة. وهذا السيد... عامل من لاجئي الالبان الهاربين بدينهم من الشيوعية، وهذه هدى أخت لنا في الله، فرنسية الأصل بلجيكية المولد. قد شرح الله صدرها للاسلام، وهذه الأخت فاطمة ابنة سفير السنغال، وهذه أخت لنا أخرى أندونيسية واسمها فاطمة أيضاً».

وأخذ روجيه محله في المقعد الذي أخلي له في صدر القاعة. وهنا قدم نفسه للجميع بهذه الكلمات البسيطة روجيه بن... تاجر الأدوات الكهربائية في شارع... من انفرس.. أساعد والدي في تجارته، ولكن مشغلتي الكبرى في هذه الأيام البحث عن الحق.

وجواباً على بعض الاستيضاحات قص روجيه على الجماعة حكايته في ايجاز بليغ ثم قال: أني في التاسعة عشرة من سني الزمن، ولكن حياتي الروحية والعقلية لم تبدأ إلا منذ ربيع العام الفائت منذ أيام رودس... التي قدحت في صدري جذوة القلق... فأصبحت ثائر الشوق مرهف الشعور إلى حد لا أجد معه قراراً.

ولم ينس أن يحدثهم عن سفره إلى لاهاي، والخيبة التي مني بها هناك حتى هداه القدر إلى سؤال التونسي صاحب مطعم قرطاجنة... وختم ذلك بقوله:

لقد بت على يقين أن يداً خفية تقود خطاي إلى مواطن الخير الذي أنا بحاجة اليه، ولعل عثوري ـ بعد يأس ـ بمقركم هذا من طلائع التوفيق إلى هذا الخير. . . «وتصاعدت أصوات الحضور في انسجام حنون: إن شاء الله»!

وكان كل ما في القاعة مساعداً على التركيز حول الهدف الروحي الأعلى: الكتب المرصوفة على النضد النصفي، والمصحف في غلافه الحريري الشرقي ذي الوشي المذهب معلقاً في صدر القاعة. . . وبجواره تلك القطعة الفنية الأنيقة مرسوماً على جانب منها بخط عربي ساحر آية من القرآن الكريم، وعلى جانب آخر ترجمتها الفرنسية التي تعني (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم).

وليست مظاهر الحضور دون ذلك كله إيحاء. . . ولا سيما أولئك النسوة الثلاث اللواتي أضفين على المجلس فيضاً من المعاني السامية ضاعف من روعته. . . ولقد وجد روجيه نفسه مدفوعاً إلى التفكير بهؤلاء النسوة ما يوحيه منظرهن. . . اكثر من أي شيء يتعلق بأولئك الحضور من الرجال.

إن أول ما لفت نظره منهن تلك الوجوه الملائكية التي خلت من كل أثر للصنعة، فبدت نسيج وحدها، في بلاد تحرم حضارتها على وجه الأنثى أن يواجه الناس بصورته الطبيعية. . ثم أرديتهن السابغة التي تشبه إلى حد بعيد أردية الرواهب الكاثوليكيات. . . لا تكشف منهن أي جزء خارج حدود الوجه والكفين. وهي ظاهرة قد تكون مألوفة بالنسبة للأندونوسية والسنغالية بوجه خاص، بما حملتاه من تقاليد.

ولكنها شيء لا يصدق بالنسبة إلى تلك الفرنسية التي سلخت الأربعين من السنين في مجتمع يعتبر التبرج، بل التعري، أول معالم الأنوثة الراقية!.

وطبيعي أن يعجب روجيه لهذه المظاهر الغريبة في محيطه، ولكن عجبه لم يكن ليحجب عن وعيه موطن العبرة. . . فقد تحقق لديه حتى الآن أن الاسلام نظام كامل متميز، لا يأتلف مع التلفيق والترقيع، يصفي النفس من كل انحراف عن الله، ويؤلف بينها وبين تعاليمه، حتى يصبحا معاً وحدة لا سبيل إلى تجزئتها. . وبذلك يكون اعتناق الاسلام نقطة البدء في هجرة تامة

من عالم إلى عالم... من عالم الظلام الذي تمحى فيه معالم الحقائق وينتهي السالك فيه إلى الضياع، إلى عالم النور الذي وضع فيه كل شيء وفق قوانين الفطرة، فكل سالك في ضوئه موقن أنه على بينة من ربه... وليس هذا التستر الذي يشهده الساعة في ثياب هذه الفرنسية، إلا توكيداً لهذه الحقيقة، حقيقة الهجرة إلى فضائل الاسلام وهي بذلك تقرر لكل ناظر فلسفة هذا الدين، من حيث نظره إلى المرأة ككيان انساني كامل، عليها من المسؤولية نحو المجتمع مثل الذي على أخيها الرجل، وذلك على النقيض من هذه الحضارة الأوربية التي زيفت طبيعة الانسان، حتى جعلت من المرأة أداة للتسلية الفاجرة، فشغلت الرجل عن مواهبها وفضائلها بماعرته لعينه من جسدها ومفاتنها!.

وشيء آخر لا يقل عن ذلك أثراً في قلب روجيه... أنه الانسجام الذي يطالعه بين هذه الأجناس التي يتألف منها مجتمع القاعة... ان هنا الأسود والأبيض، والأصفر، في وحدة أخوية لا يشوبها شيء مما يجيش به مجتمع البيض خارج هذا المكان... وهي صورة طالما غُذي بالنفور منها، بعد أن اقتنع بنظرية (مونتسكيو) التي تؤكد أن الله قد حمل الجنس الأبيض رسالته إلى الأرض، فهو وحده الجنس السيد، أما الآخرون فلا يعدون منزلة الحيوانات والحشرات كل مهمتهم خدمة البيض، وتوفير الوسائل المحققة لهناءتهم، حتى إذا ما فاضوا عن حاجتهم كان من حق السادة أن يتخذوا الوسائل الممكنة للتقليل من وجودهم إلى الحد الضروري كما صنع رجال الدين المسيحي في هنود أمريكا، إذ قتلوا الكثير منهم بواسطة الحصبة التي قدموا اليهم جراثيمها في الأعطية الموبوءة!.

أجل... انه لانسجام مدهش... ومخالف لكل ما قرأه روجيه وما لقنه، ولكنه ـ على غرابته ـ أصبح شيئاً مقبولاً في قلبه الذي بات فريسة للارتياب في كل ما جاءه عن طريق هؤلاء الأوربيين من فلاسفة أو رجال دين!.

ـ ٥ ـ

وتناول الدكتور محمد الحديث فقال موجهاً الكلام إلى الضيف:

اليوم الاثنين... وهو موعدنا الأسبوعي لقراءة بعض ما ينبغي معرفته عن الاسلام... وما يفتريه خصومه من المبشرين والمستشرقين وموضوعنا الآن حول النبوة في كتاب (الوحي المحمدي) المترجم إلى الفرنسية... ولكنه لا بأس أن نؤخر هذه الحصة إذا شئت لنجعل منها فرصة لما عندك من الاستيضاحات... فلعلنا واصلون بالتعاون إلى الخير الذي افتقدته عن ذلك (القادياني) في لاهاي!. وشكر روجيه للمتكلم اهتمامه واخوانه... وأعلن أن حاجته لا تنحصر في سؤال أو جواب، ولكنها واسعة تتطلب الالمام بكل ما أمكن الالمام به من حقائق هذا الدين. ولا شك أن موضوع الوحي من أوليات هذه الحقائق لأنه من الغوامض التي قلما يعيها العقل الأوربي المحبوس في نطاق المادة!. ولهذا فهو يؤثر الآن المشاركة في الاستماع إلى ذلك البحث.

ولقد كان البحث شائقاً وممتعاً تناول موضوع (الوحي) الآلهي بطريقة لا تدع مجالاً للريبة في حقيقته، إذ تعتمد بالدرجة الأولى على موازين الفطرة الانسانية بكل ما فيها من قوى الفكر والحدس والتخيل، حتى ليحس السامع والقارىء أنهما يتحدثان إلى نفسيهما من خلال البحث نفسه، فلا يلبثان أن يستروحا نفحات الاطمئنان، ثم يخرجا من الحديث وقد أيقنا أن الوحي الآلهي إلى محمد واخوانه من سابقي الأنبياء إنما يمثل ذروة الشرف بالنسبة إلى الجنس البشري، لأنه المظهر الأسمى لعناية الله به، ورعايته لمصالحه، واهتمامه بهدايته.

وعلى الرغم من قوة المؤلف في عرض الموضوع، لم يشأ القوم أن يتلقوا بالاستسلام بل كانت الخطة أن يقرأ أحدهم البحث، ثم يعمد آخر إلى تقسيم فقراته وفق الفكر الرئيسية، ثم يأخذون في مناقشتها جزءاً جزءاً.

وكان الباب مفتوحاً لكل مستوضح... فلم يحجمهم روجيه عن اقتحامه بما خالجه من تساؤلات لم تخل من الفائدة.

ولما آذنت حصة البحث بالانتهاء نهض الحضور ليؤدوا صلاة العصر في جماعة، وخيَّره الدكتور بين أن يستريح قليلاً بانتظارهم، أو ينتقل معهم إلى القاعة الأخرى ليشهد صلاتهم، ولكن روجيه لم يستطع إلا أن يعرب للدكتور عن شوقه الحار إلى مشاركتهم في تلك العبادة التي طالما شهدها في رودس

فاستهوت لبه، وأسرت قلبه.

وهنا أفتر ثغر الدكتور عن ابتسامة سعيدة وقال لروجيه: «... ذلك حق كل انسان عندما يقتنع بحقائق هذا الدين».

فقال روجيه في حماسة لم يطق كتمانها: «... انني مقتنع... فما السبيل إلى إعلان هذا الاقتناع؟».

ـ الشهادتان... ثم تغتسل وبذلك تتهيأ للدخول في الصلاة... التي لا تصلح إلا مع الطهارة.

وسرت رعشة بارزة في جسد روجيه... ثم نظر إلى محدثه بعينين تتوهجان بروعة الحزن، ومضى يقول: «أود لو أستطيع ذلك لفوري فأنني لأخشى أن يدركني الأجل وأنا على هذه الحال!».

وخرجت كلماته هذه في غصة مؤثرة، لم تلبث أن هزت أعصاب الحضور جميعاً، فإذا هي تلهب مشاعرهم، وتفجر في أعماقهم منابع الغبطة، حتى غلبت بعضهم دموعه، فراح يذرفها في صمت وخشوع.

ولم يجد محمد في لسانه القدرة على الكلام في هذا الجو المشحون بالانفعال، فاكتفى بأن تأبط ذراع روجيه، ثم مضى به نحو حمام المنزل وفي جهد استطاع أن يقول له وهو يمسح جفونه: «تستطيع أن تستحم، وسآتيك بثوبين داخليين طاهرين... ولسوف تجدنا بانتظارك للصلاة».

وفي تلك القاعة التي طالما ضمت صفوف المصلين، والمتهجدين... أعلن روجيه اسلامه على مسمع من شهود جمعتهم أخوة الاسلام، من مختلف أقطار الدنيا وأجناسها... واختار لنفسه اسم (إسماعيل) جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أخذ مكانه من الصف، في أول صلاة قام بها لله، على نحو من الخشوع لم يحلم بمثله قبل اليوم.

صلة الأرحام والكمال النفسي

إن الاسلام دين متكامل يعالج جميع النواحي الحياتية معالجة جذرية معالجة لا تشبه معالجات الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين في شيء، ذلك لأن ما يسنه هؤلاء، وما يقترحونه إنما هو بشري حالك، تنم عن نفس صاحب النظرية. ونفوس الفلاسفة وعلماء الاجتماع أو علماء النفس نفوس ناقصة وإن سموا أنفسهم فلاسفة وحملوا ألقاباً مختلفة ومنحوا لقب الدكتوراه لتلاميذهم خريجي الجامعات.

فالنفس الناقصة لا يترشح منها إلا شيء ناقص مبتور، كيف لا تكون هذه النفوس ناقصة، وهي تحلل حرمات الله في أرضه: بسكر أو فسق أو فجور أو أكل الربا أو الحرام أو إفساد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾[١]. كيف لا تكون هذه النفوس بعيدة عن الله وهي تتبع الهوى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[٢].

لذلك: كان من فضل الله على البشر أن لا يتركهم وشأنهم يملي عليهم دساتير الكمال! (هذا الكمال الناقص أو المفسد) من هم على شاكلتهم من حيث النقص، وإن دعوا على لسان البعض: فلاسفة وعلماء... الخ «فأرسل رسولاً ليزيل به علتهم»[٣]: يملي عليهم دساتير الكمال، تلك الدساتير التي لا شائبة فيها ولا نقص، لأنها جاءت من عين صافية وضاءة، جاءت من وراء الحجب، جاءت من جانب الله تعالى على لسان أنبيائه (ع).

يقول (هوكنج) أستاذ الفلسفة بجامعة (هارفرد) في كتابه: روح السياسة

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) سورة النجم: ٢٣.

(٣) من كلام لعلي عليه السلام.

العالمية: «إن سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس في إتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماوية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم».

وقد شبه غوته (كوته) شاعر ألمانيا الشهير الدين الاسلامي بالنبع الذي تدفق فشكل النهر الكبير وبعد ذلك صبَّ في البحر الواسع: الأوقيانوس.

وقد قال العلامة (سانتيلانا): «إن في الفقه الاسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل أن ما فيه يكفي الانسانية كلها».

ومن جملة تلك الدساتير أو سنن الكمال: صلة الأرحام، ذلك لأن الاسلام دين اجتماعي وليس بدين إنزواء ورهبنة، دين يريد من الناس أن يتقربوا بعضهم من بعض، بالمعونة والمساعدة والألفة والتحابب والتعاطف.

ولا مراء أن كل مجتمع مؤلف من عوائل، والعائلة مؤلفة من الأرحام والأقارب، فلو كانت العلاقات بين أفراد العائلة علاقات متينة على أساس الحب والولاء والمحبة سعدت هذه العائلة في الدنيا وبسعادتها تسعد الأمة إذ لا مفهوم للأمة عدا أنها مؤلفة من عوائل عدة وأسر متعددة، فبسعادة هذه الأسر تسعد الأمة وبشقائها تشقى.

لذلك حثّ الدين الاسلامي على صلة الأرحام وجعل ذلك من أفضل القربات، وذلك بقوله جل من قائل: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾. فذكر الله جل جلاله لفظ الأرحام بعد اسم الجلالة مباشرة لما هنالك من خطورة فائقة.

فالله تبارك وتعالى يأمرنا أن نتقي الله في قطيعة الأرحام. فالمراد بالتساؤل في قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ سؤالُ بعض الناس بعضاً بالله، يقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله أن تفعل كذا وكذا. فكما يجب أن نتقي الله تبارك وتعالى في أعمالنا كذلك يجب أن نتقي الله في قطيعة الرحم: بأن لا نقطعها وأن نصلها بأنواع المحبة والمودة والتزاور والتعاطف.

فقد قال رسول الله (ص): من ضمن لي واحدة ضمنت له أربعة يصل رحمه. فيحبه الله ويوسع عليه في رزقه ويزيد في عمره ويدخله الجنة التي وعده.

وقد قال رسول الله (ص): «صلوا أرحامكم ولو بالسلام عليهم».

وقال (ص): الرحم إذا وصلت ثم قطعت قطعها الله.

وقال (ص): بلوا أرحامكم ولو بالسلام.

وقال (ص): برّ الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب.

وقال (ص): حسنوا أخلاقكم والطفوا بجيرانكم وأكرموا نساءكم تدخلوا الجنة بغير حساب[1].

وقال (ص): صلة الأرحام وحسن الجوار زيادة في الأموال.

* * *

ثم أنه تعالى يقول: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾[2]. فجعل (الاحسان بالوالدين) في المرتبة الثانية، أي بعد عبادته تعالى وتقديسه وتوحيده.

فإذا كان للوالدين هذا المقام الرفيع فيجب أن يكون لمن يتصل بهما من اخوان واخوات وجدود وجدات وأعمام وعمات وأخوال وخالات وغيرهم من الأرحام مقام يناسبهم. فالعطف عليهم والقيام بخدمتهم خدمة للوالدين وموجب لادخال السرور عليهما. كل ذلك لما للوالدين من حق كبير على الأولاد. فلا يمكن أن يؤدى شكر هذا الحق إلا بخدمة الأرحام خدمة صادقة. لذلك جاء في خبر عن الرسول (ص): «نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة»، ذلك لأن هذا الحب الذي ملؤه الاخلاص والولاء مقرّب العبد إلى الله، وكل ما يقرب العبد إلى الله عمل عبادي.

* * *

---

(١) ذكرت هذا الحديث في غير محله لأهميته.

(٢) سورة الاسراء: ٢٣.

وفي حديث آخر: «ووالديك فبرّهما وأطعهما حيين وميتين. فان أمراك أن تخرج من أهلك ومالِك فافعلَ. فان ذلك من الايمان».

فعلى الانسان أن يبر والديه حيين كانا أم ميتين. وأن يطعهما كذلك، فالبر بهما حيين هو إطاعتهما والقيام بشؤونهما وتحقيق آمالهما المشروعة.

حتى ان الله تعالى أمرنا أن نصاحبهما في الدنيا بالمعروف وان امرانا بالشرك بالله تعالى، لا سمح الله. ﴿وإن جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إليّ﴾[1]. ومعلوم أنه لا ظلم أشد من الشرك بالله، وان الله قد يغفر لعباده ذنوباً عظاماً، ولكنه لا يغفر لمن يشرك به أبداً. وهو القائل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2]. ذلك لأن الشرك يضاد الفطرة ويخالفها لما جبل عليه الانسان من توحيد الله. فـ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[3] وما يشرك بالله إلا من أمسى جرثومة فساد وإفساد وعصارة الشرّ والبغي والظلم مع نفس متحجرة، مدلهمة، لا تصلحها إلا النار! وهيهات أن تصلح وإن خلد في السعير.

والبر بالوالدين ميتين، هو التصدق عنهما والاستغفار لهما وتلاوة القرآن على مرقديهما وسورة الفاتحة والاخلاص كذلك، وكذلك تلاوة القرآن في أوقات مختلفة وجعل ثوابها على روحيهما.

فقد قال رسول الله (ص): «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث، صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له».

يقال: قد مرّ عيسى (ع) بقبر، فرأى بنظر النبوة: أن من فيه يُعذب، ثم مرّ بعد سنة على ذلك القبر فرأى من فيه قد رفع عنه العذاب. فسأل الله تعالى عن السبب، فجاءه الوحي: أن ولد هذا الرجل قد سوى طريقاً وأكسى يتيماً، فرفع الله العذاب عن والده.

---

(١) سورة لقمان: ١٥.

(٢) سورة النساء: ٤٨.

(٣) سورة لقمان: ١٣.

وكم يرى الناس الآباء والأمهات في منامهم بعد وفاتهم وهم يطلبون إلى أبنائهم وبناتهم أن يتصدقوا عنهم أو يقوموا بعمل عبادي ليرفع عنهم العذاب.

ويقال عن مغنية كانت قد توفيت قبل أمها، تأتي في منام أمها تلتمس أن تشتري جميع الأسطوانات التي تخص صوتها وتحرقها جميعاً، لأنها تعذب، كلما خرج صوتها في آلة المكرامافون أو غيرها.

وإن كثيراً من الناس يحفظون كثيراً من هذه الاحلام واستغاثة الموتى بالأحياء لقيام الاحياء بعمل. لعل الله تعالى يرفع عنهم العذاب في عالم البرزخ، وقد ذكرت بعضها في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وأني أذكر هنا من تلك الأحلام حلماً واحداً:

كان لي صديق من الأخيار رحمه الله، وقد توفى صديق له، وان هذا الصديق الحي كان يقرأ كل يوم بالنيابة عن صديقه المتوفي (زيارة عاشوراء). ويجعل ثواب ذلك على روح صديقه. ثم أنه ترك هذا العمل أياماً، فجاءه صديقه المتوفي في منامه كئيباً حزيناً معاتباً، يلتمسه أن يثابر على عمله وان لا ينقطع عن زيارة عاشوراء بالنيابة عنه، لاحتياجه الشديد إلى هـذا العمل العبادي المكفر عن ذنوبه والرافع عنه العذاب.

وقد نقل لي أحد الأخيار: أنه كلما تعسرت أموره وقتر في رزقه جاء إلى قبر والده يقرأ الفاتحة وسوراً من القرآن، فيفرج الله عنه عاجلاً، ويوسع عليه في رزقه.

* * *

انه تعالى يقول: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى﴾[١].

فالاحسان بالوالدين من الأهمية بمكان. لذلك يذكرهما الله تعالى بعد توحيده وعدم الشرك به. لما لهما من حقوق عظيمة ومقام رفيع.

---

(١) سورة النساء: ٣٦.

وخص الله تعالى حال الشيخوخة بمـزيد من الحنـو والترفق والاكـرام والتوقير، فهي المرحلة التي يجني الوالدان فيها ثمار الكدح ويتوجان بتـاج الكفاح ويجزيان جزاء الجهاد والدأب، انه تعالى يقول:

﴿أما يبلغن عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيراً﴾[1].

وتلك مشـاعر الفـطرة نحو من لم يشب إحسانهما غرض، ولم يبغيـا بجهادهما أجراً، بل بذلا الرعاية الموصولة والحنان الغامر قربة وفطرة فلا أقل من التقدير والعرفان، حفظاً على الوفاء وصيانة للانسانية من آفات الجحود والنكران.

ثم انه تعالى يقول: ﴿وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى﴾[2].

فجعل الله تعالى للوالدين حق البر والعطف والرعاية والرحمة واكد هذا الحق بأن قرنه بحقه تعالى.

فإن عقوق الوالدين (أي الاسـاءة اليهما) وجحـد إحسانهما من كبـائر الذنوب، إذ هو قرين الشرك بالله تعالى، وإن رضا الوالدين طريق للجنة، فإذا حازه فقد بلغ الغاية وأدرك في الكمال النفسي النهاية.

* * *

ولا بأس بذكر هذا الحديث، لنتعلم منه دستوراً قيماً في خدمة الوالدين.

يقول زكريـا بن إبراهيم، قـال: كنت نصرانيـاً، فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله (ع) فقلت: اني كنت على النصرانية واني أسلمت فقال: وأي شيء رأيت في الاسلام؟ قلت: قول الله عز وجل، ﴿ما كنت

---

(١) سورة الاسراء: ٢٤.
(٢) سورة البقرة: ٨٣.

تدري ما الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من يشاء﴾. فقال: لقد هداك الله ثم قال: أللهم اهده - ثلاثاً - سل عما شئت يا بنى، فقلت: إن أبي وأمي على النصرانية وأهل بيتي، وأمي مكفوفة البصر، فأكون معهم وآكل في آنيتهم فقال يأكلون لحم الخنزير قلت: لا، ولا يمسونه. فقال: لا بأس. فانظر أمك فبرها. فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، كن أنت الذي تقوم بشأنها، ولا تخبرن أحداً أنك أتيتني حتى تأتيني بمنى إن شاء الله.

قال: فأتيته بمنى والناس حوله كأنه معلم صبيان. هذا يسأله وهذا يسأله فلما قدمت الكوفة ألطفت لأمي وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها فقالت لي: يا بني ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني، فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية، فقلت: رجل من ولد نبينا أمرني بهذا فقالت: هذا الرجل هو نبي؟ فقلت: لا، ولكنه ابن نبي. فقالت: يا بني، إن هذا نبي، إن هذه وصايا الأنبياء. فقلت: يا أمه، انه ليس يكون بعد نبينا نبي، ولكنه ابنه. فقالت: يا بني دينك خير دين، أعرضه علي، فعرضته عليها، فدخلت في الاسلام، وعلمتها فصلت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم عرض لها عارض في الليل فقالت: يا بني، أعد عليّ ما علمتني، فأعدته عليها. فأقرت به وماتت فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها وكنت أنا الذي صليت عليها ونزلت في قبرها[1].

* * *

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله (ع) قال: جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك.

وعن أبي ولاد الخياط قال:

سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: «وبالوالدين إحساناً». ما هذا الاحسان؟ فقال: الاحسان: أن تحسن صحبتهما وان لا تكلفهما ان

---

(١) أصول الكافي. ج: ٢ ص: ١٦٠.

يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين أليس يقول الله عز وجل: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال: ثم قال أبو عبد الله (ع): وأما قول الله عز وجل: ﴿أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾ قال: إن أضجراك فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما إن ضرباك. قال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: إن ضرباك. فقل لهما: غفر الله لكما. فذلك منك قول كريم. قال: ﴿وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾. قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تتقدم قدامهما[1].

وقد سئل رسول الله (ص) ما حق الوالد على ولده؟ قال: «لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه ولا يجلس قبله ولا يستسب له»[2]... (أصول الكافي. ج: ٢ ص: ١٥٩).

* * *

ذكر لي أستاذي في الفقه أني زرت الحسين (ع) يوم عرفة، فقلت في نفسي: أزور زيارة عرفة مرة أخرى بالنيابة عن جدي، حتى إذا رجعت إلى النجف الأشرف قال لي أبي: وما الذي قمت به بالأمس؟ قلت: زرت زيارة عرفة بالنيابة عن جدي. فقال: قد رأيت ليلة البارحة جدك في المنام وقد نزل من أعلى جواده وهو يقول: ها إني راجع من حج بيت الله الحرام. فعلمت: أن زيارة عرفة تعادل عند الله من الأجر بقدر حج بيت الله الحرام.

* * *

وعن معمر بن خلاد قال: قلت لأبي الحسن الرضا (ع): أدعو لوالديَّ إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: أدع لهما. وتصدق عنهما وان كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فان رسول الله (ص) قال: «إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»[3].

---

(١) أصول الكافي: ج: ٢. ص: ١٥٨.
(٢) أي لا يفعل ما يكون سبباً لسب الناس له ولوالديه.
(٣)أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٠.

وعن جابر عن أبي عبد الله (ع) قال: أتى رجل رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله انني راغب في الجهاد نشيط. قال: فقال له النبي (ص): فجاهد في سبيل الله، فأنك إن تقتل تكن حياً عند الله ترزق. وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما وُلدت، قال يا رسول الله: إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي. فقال رسول الله (ص): فقر مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة»[1].

عن عمار بن حيان، قال: خبرت أبا عبد الله ببر إسماعيل ابني بي فقال: لقد كنت أحبه وقد ازددت له حباً. ان رسول الله (ص) أتته أخت له من الرضاعة[2] فلما نظر اليها سرّ بها وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت وذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها. فقيل له: يا رسول الله صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل؟ فقال: «لأنها كانت أبرّ بوالديها»[3].

وفي أصول الكافي عن عنبسة بن مصعب عن أبي جعفر (ع) قال: ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة: أداء الامانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين»[4].

وقد قال أبو عبد الله (ع): من السنة والبر أن يكنى الرجل باسم أبيه»[5]

وعن أبي عبد الله (ع) قال: جاء رجل وسأل النبي (ص): من برّ الوالدين، فقال: إبرر أمك، إبرر أمك، إبرر أمك، إبرر أباك، إبرر أباك، إبرر أباك، وبدأ بالأم قبل الأب[6].

---

(١) أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٠.
(٢) أخته وأخوه صلى الله عليه وآله من الرضاعة هما ولدا حليمة السعدية.
(٣) أصول الكافي: ج: ٢ ص: ١٦١.
(٤) أصول الكافي: ج: ٢ ص: ١٦٢.
(٥) أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٢.
(٦) أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٢.

وقد قال رسول الله (ص): «كن باراً واقصر على الجنة، وإن كنت عاقاً فاقصر على النار»[1].

وقد قال أبو جعفر (ع) قال رسول الله (ص) في كلام له: «إياكم وعقوق الوالدين. فان ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زانٍ ولا جار أزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين» وقال أيضاً: «من أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار»[2].

وقد قال الصادق (ع): من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة[3].

وقال الصادق (ع): إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة، فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام إلا صنفاً واحداً، فقيل له: من هم؟ قال: العاق لوالديه.[4]

وقال (ع): لو علم الله شيئاً هو أدنى من أفّ، لنهى عنه وهو من أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما.

وفي حديث قدسي: «بعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لو أن العاق لوالديه يعمل بأعمال الأنبياء جميعاً لم أقبلها منه».

وروي أيضاً: «إن أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ أني أنا الله لا إله إلا أنا، من رضي عنه والداه فأنا منه راض، ومن سخط عليه والداه فأنا عليه ساخط»[5]

وقد ورد عن رسول الله (ص) أنه قال: «كل المسلمين يروني يوم القيامة إلا عاق الوالدين وشارب الخمر ومن سمع اسمي ولم يصلِّ عليّ».

---

(١) عق الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان إليه واستخف به فهو عق وعاق.
(٢) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٧.
(٣) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٧.
(٤) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٨.
(٥) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٨.

كما أنه ثبت من الأخبار والتجارب أن دعاء الوالد على ولده لا يرد ويستجاب البتة[1].

وفي الأخبار أن من لا ترضى عنه أمه تشتد عليه سكرات الموت وعذاب القبر، وقد يموت كافراً.

فقد ورد أن رجلاً قد حضرته الوفاة، فلقن الشهادتين، فأبى أن يقر بهما. فأخبر رسول الله (ص) بذلك. فقال (ص) أحضروا لي أمه فأحضرت بين يدي رسول الله (ص) فقال لها (ص) هل بينك وبين ولدك شيء؟ قالت: ان ولدي كان يداريني ويحسن إلي ويتفقدني حتى إذا تزوج تركني ولفظني ولم يسأل عني. فقال رسول الله (ص) يا بلال احضر الحطب واضرم فيه النار. فقالت الأم، لم يا رسول الله فقال (ص) حتى أريك كيف يحرق ولدك إذا مات وأنت غير راضية عنه. فقالت: أشهد الله ورسوله وملائكته أني قد رضيت عنه. فقال رسول الله (ص) يا بلال، إذهب ولقنه الشهادتين. فذهب بلال ولقنه الشهادتين، وإذا به يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[2].

وقال رسول الله (ص) رضا الله مع رضا الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين[3].

وقال (ص): ما من ولد بار ينظر إلى والديه نظر رحمة إلا كان له بكل نظرة حجة مبرورة، قالوا يا رسول الله، وإن نظر كل يوم مائة مرة؟ قال: نعم، الله أكبر وأطيب.

وقال رسول الله (ص): من بر والديه زاد الله في عمره.

وقال الصادق (ع): من أحب أن يخفف الله عنه سكرات الموت فليكن بقرابته وصولاً وبوالديه باراً، فإذا كان كذلك هون الله عليه سكرات الموت ولم يصبه في حياته فقر أبداً.

---

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٨.

(٢) من كتاب محمد المثل الكامل، بتصرف.

(٣) من كتاب مصابيح الهداية للسيد عبد الحسين الحائري ج ٢ ص ٦٨.

وعن الباقر (ع) قال: سئل رسول الله (ص) من أعظم حقاً على الرجل؟ قال: والداه.

* * *

وقد قال رسول الله (ص): بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله[1].

وقال (ص) من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة[2].

وقد ورد أن رجلاً أتى النبي (ص) فقال يا رسول الله أوصني فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالايمان ووالديك فأطعمهما وبرهما حيين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج من اهلك ومالك فافعل، فان ذلك من الايمان»[3].

* * *

انه تعالى يقول: ﴿ووصينا الانسان بوالديه، حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين، أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾... سورة لقمان: ١٤.

وفي آية أخرى: ﴿ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾... سورة الأحقاف: ١٥.

إن الولد جزء من الأم حملته في الأحشاء وغذته من الغذاء، فلما خرج إلى الدنيا حضنته وسهرت عليه وربطت حياتها به، تتحمل الأثقال وتنهض بالأحمال عن رضا وفرحة، فهل يسوغ أن يذهل الانسان عن تلك المضحية من أجله، المنهكة في سبيله. فقد جاء في الحديث: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

---

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ذكرنا هذا الحديث من جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٩ بشكل آخر لما فيه من زيادة.

إن إطاعة الوالدين واجبة وطلب رضاهم حتم، فيجب أن لا يرتكب الولد شيئاً من المباحات والمستحبات بدون اذنهما. حتى أن الفقهاء قد أفتوا أنه لا يجوز السفر لطلب العلم إلا باذن الوالدين، ويستثنى من ذلك سفر الولد لطلب علم الفرائض من الصلاة والصوم وأصول العقائد إذا لم يكن في بلده من يعلمه.

وروي أن رجلاً هاجر من اليمن إلى رسول الله (ص) وأراد الجهاد. فقال له رسول الله (ص): «إرجع إلى أبويك، فاستأذنهما، فإن أذنا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت فان ذلك خير مما كلف به بعد التوحيد». وجاء آخر اليه للجهاد فقال: ألك والدة؟ قال: نعم. قال: فألزمها، فان الجنة تحت قدمها[1]. وجاء آخر وطلب البيعة على الهجرة إلى الجهاد قال: ما جئتك حتى أبكيت والديَّ. قال (ص): إرجع اليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما».

ويجدر بمن أراد أن يبر والديه بعد موتهما:

١ ـ أن يصلي هذه الصلاة في أوقات فراغه وإن أمكن ففي كل يوم.

وهي ركعتان، يقول في الركعة الأولى بعد الحمد[2] عشر مرات «ربنا[3] اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».

ويقول في الركعة الثانية بعد الحمد عشر مرات: «رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات».

ويقول بعد التسليم (بعد الانتهاء من صلاته) عشر مرات: «رب ارحمهما كما ربياني صغيراً».

٢ ـ وأن يتصدق عنهما.

٣ ـ وان يقضي ما فاتهما من صلاة وصوم.

٤ ـ وان يقضي ما عليهما من ديون.

---

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٦٢.

(٢) سورة الفاتحة.

(٣) في القرآن: ربنا، وفي المفاتيح: رب.

٥ ـ وأن يحج عنهما.

٦ ـ وأن يزور المراقد المتبركة عنهما ويدعو لهما في تلك المشاهد المشرفة وفي صلاة الليل وليالي الجمعة.

فإن فعل ذلك فقد فتح على نفسه أبواب الرحمة والسعادة في النشأتين وختمت أعماله بحسن العاقبة وذلك غاية الغايات.

* * *

إن المدنية الحاضرة لتحجرها وغلبة النزعة المادية عليها باعدت بين الآباء والأبناء، فلا ترى كثير علقة بين الأبناء وآبائهم. وقد لا يجتمع الولد بوالده أو أمه إلا قليلاً، لـذلك عمـدت بعض الجمعيات الـدينية كجمعيـة الشبان المسيحيين إلى الجمع بين الآباء والأبناء في مجلس واحد وإيجاد التآلف والمحبة بينهم.

وقد رأيت أن مؤسس جمعية الشبان المسيحيين: .Y. M. C. A في أستانبول يفتخر لقيام الجمعية المذكورة بالجمع بين ٤٠٠ ولد ووالد في مجلس واحد. لتقوى أواصر المحبة بينهم.

إن الحياة الميكانيكية المجردة عن الروح والعواطف والمحبة ترجع بالفرد إلى جاهلية جهلاء، بل أشد من ذلك. فلا يشعر الفرد إلا بمنافعه الذاتية ولا يرى وراء المادة شيئاً، والحضارةالحقيقية هي التي تحقق رغبات الروح والجسم في وقت واحد فلا يضحى بالكمال النفسي على حساب عمارة الجسم وتطمين شهواته ونزواته، فـ «حضارة الاسلام» هي الحضارة الحقة لجمعها بين عمارة الروح والبدن في وقت واحد.

صلة الأرحام

إن الله تعالى قد أمر في آيات جمة بصلة الرحم وأكد ذلك رسول الله (ص) في مواضع عدة، ذلك لأن الأسرة أساس المجتمع، فان سعدت الأسرة سعد المجتمع، انه تعالى يقول:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى﴾[1]. وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن. . .﴾[2].

فالله أمرنا في الآية المتقدمة بصلة الرحم. فصلة الرحم واجبة وجوب الصلاة ولا يدخل قاطع الرحم الجنة.

وقال رسول الله (ص): «أوصي الشاهد من أمتي والغائب ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فان ذلك من الدين»[3].

وجاء في كتاب أنوار الهداية[4] قال النبي (ص): من مشى إلى ذي قرابة بنفسه في ماله ليصل رحمه أعطاه الله عز وجل أجر مائة شهيد وله بكل خطوة أربعون ألف حسنة ومحي عنه أربعون ألف سيئة. ورفع له من الدرجات مثل ذلك وكأنما عبد الله مائة سنة صابراً محتسباً.

---

(١) سورة النساء: ٣٦.

(٢) سورة الرعد: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٤.

(٤) نقلاً عن كتاب: مصابيح الهداية. للسيد عبد الحسين الحائري ج ٢ ص: ٦٩.

وعن الحسين بن علي (ع) أنه قال: من سره أن ينسأ في أجله ويزاد في رزقه فليصل رحمه.

وقال رسول الله (ص): بر الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب ثم تلا: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾.

وقال رسول الله (ص): عن جبرائيل عن الله عز وجل قال: «أنا الرحمن، شققت الرحم من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

وقال رسول الله (ص) إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم، وقال: «من سره النساء[1] في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه». وقال: «إن القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة. فيصلون أرحامهم فتنمى أعمالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبراراً بررة»[2].

وقال (ص): الصدقة بعشرة. والقرض بثمانية عشر وصلة الاخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين».

سُئل رسول الله (ص) أيّ الناس أفضل؟ فقال: «أتقاهم لله وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر».

وقال (ص): أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك[3].

وقال (ص): «من سرَّه أن يمد الله في عمره وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه، فان الرحم له لسان يوم القيامة ذلق، تقول: يا رب، صِل من وصلني، واقطع من قطعني. فالرجل ليرى بسبيل خير، إذا أتته الرحم التي قطعها فتهوى به إلى أسفل قعر في النار».

---

(١) النساء: طول العمر. نَسأ الله أجله: أخره.

(٢) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٤.

(٣) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٥.

وقال الباقر (ع): «إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش تقول: اللهم صِل من وصلني، واقطع من قطعني». وهذا تمثيل للمعقول بالمحسوس وإثبات لحق الرحم على أبلغ وجه، وتعلقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد الله[1].

وقال (ع): «صلة الأرحام تحسن الخلق وتسمح الكف وتطيب النفس وتزيد في الرزق، وتنسىء الأجل». وقال أيضاً: «صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسيء في الأجل».

وقال الصادق (ع): صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبروا بإخوانكم ولو بحسن السلام ورد الجواب.

وقال عليه السلام: «صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء» وقال أيضاً: «صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال أيضاً: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أن الرجل يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولاً للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثاً وثلاثين، سنة ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة... فيكون قاطعاً للرحم، فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة ويجعل أجله إلى ثلاث سنين»[2].

وفي أصول الكافي ج ٢ ص: ١٥٠: إن رجلاً أتى النبي (ص) فقال يا رسول الله أهل بيتي أبوا إلا توثباً علي وقطيعة لي وشتيمة، فأرفضهم؟ قال: إذن، يرفضكم الله جميعاً قال فكيف أصنع؟ قال: تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، فأنك إذا فعلت كان لك من الله عليهم ظهير.

وعن أبي الحسن الرضا (ع) قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما توصل به الرحم كفّ الأذى عنها،

---

(١) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٥.
(٢) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٦.

وصلة الرحم منسأة في الأجل ومحبة في الأهل».

قال أبو ذر رضي الله عنه، سمعت رسول الله (ص) يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مرّ الوصول المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مرّ الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معهما عمل وتكفأ به الصراط في النار»[1].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): وإن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم.

وعن عبد الله بن سنان، قال: قلت لأبي عبد الله (ع) إن لي ابن عم أصله فيقطعني وأصله فيقطعني، حتى لقد هممت لقطيعته إياي أن أقطعه قال: إنك إذا وصلته وقطعك وصلكما الله جميعاً. وإن قطعته وقطعك قطعكما الله»[2].

وعن داود بن فرقد قال: قال لي أبو عبد الله (ع): اني أحب أن يعلم الله أني قد أذللت رقبتي في رحمي وأني لأبادر أهل بيتي، أصلهم قبل أن يستغنوا عني.

عن عمر بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فقال: قرابتك.

عن الجهم بن حميد، قال: قلت لأبي عبد الله (ع) تكون لي القرابة على غير أمري. ألهم علي حق؟ قال: نعم، حق الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك لهم حقان: حق الرحم وحق الاسلام.

وقال أبو عبد الله (ع): صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء وصدقة الليل تطفيء غضب الرب».

* * *

---

(١) أي تقلب.

(٢) أصول الكافي ج ٢ ص ١٥٦.

ويراد بالرحم مطلق القريب المعروف بالنسب، وإن بعدت النسبة وجاز النكاح، فهذه الرحم يحرم قطعها وتجب صلتها ولو وهب لها شيء لا يجوز الرجوع عنه.

والمراد بقطع الرحم إيذاؤها بالقول والفعل أو منعها مما تحتاج إليه من مسكن وملبس ومأكل مع وجود زيادة عن قدر الحاجة أو عدم دفع ظلم الظالم عنها مع القدرة، أو هجرها غيظاً وحقداً.



قطيعة الرحم

ولنورد ها هنا بعض ما جاء في قطيعة الرحم، فان قطيعة الرحم كما يستفاد من الأخبار والآثار تؤدي إلى قصر العمر والضيق في الرزق وتفكك أواصر الأسرة والتحلل الاجتماعي وان الاسلام يحثه على صلة الرحم والتزاور والتعاطف والتراحم وعيادة المرضى وتشييع الجنائز دين اجتماعي بكل ما في الاجتماع من معنى سام رفيع.

انه تعالى يقول: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[1].

وقد قال رسول الله (ص): «أبغض الأعمال إلى الله: الشرك بالله ثم قطيعة الرحم، ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف».

وقال (ص): «لا تقطع رحمك وإن قطعتك».

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء، فقام إليه عبد الله بن الكوى اليشكري فقال: يا أمير المؤمنين، أوَ تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: نعم، ويلك: قطيعة الرحم، إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة، فيرزقهم الله وأن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم اتقياء»[2]. وقال (ع): «إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار».

---

(١) سورة الرعد: ٢٥.

(٢) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٣.

وقال الباقر (ع): في كتاب علي صلوات الله عليه، ثلاث خصال: لا يموت صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وإن أعجل الطاعات ثواباً لصلة الرحم، ان القوم ليكونون فجاراً، فيتواصلون، فتنمي أموالهم ويثرون. وان اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها، وتنقل الرحم، وان نقل الرحم انقطاع النسل[1].

وقال الصادق (ع): اتقوا الحالقة[2] فأنها تميت الرجال، قيل: وما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم.

«جاء رجل إليه (ع) فشكى أقاربه فقال له: «اكظم وافعل» فقال: انهم يفعلون ويفعلون. فقال: أتريد أن تكون مثلهم، فلا ينظر الله اليكم».



(١) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٣.

(٢) الحالقة: هي الخصلة التي من ؛ أنها أن تحلق أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر.

أثر صلة الأرحام في الايمان بالله

كان لي صديق شاهدته بعد مدة مديدة، فألفيته قد ترك صلاته وتسبيحه واندمج في العالم الجديد. وصرت أنصحه وأوجهه إلى عالم العبادة والتقوى، إلى عوالم القدس والصفاء. فرأيته ذات يوم في حرم الكاظمين عليهما السلام يصلي، وقال لي: انه يصلي في الأسبوع مرة واحدة يوم الجمعة عند زيارته مرقد الامامين (ع).

ثم زدت في النصيحة له وصرت أقرأ عليه بعض الأشعار العرفانية وشرحت له فلسفة الصلاة وكيف أنها تطهر النفوس وتزيل الأدران، وكيف أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق. وان الانسان لا يصلحه إلا الصلوات الخمس لطرد الشيطان ووساوسه في فترات متقاربة، ولئلا يستفحل أمره، فتتراكم الذنوب ويسوّد القلب، ذلك لأن الذنوب تسد على الانسان أبواب السماء.

دعاني صديقي هذا يوماً إلى طعام الظهر، ذهبت إلى بيته فاستقبلني أخوه قلت: أين أخوك؟ قال: ذهب إلى مسجد قريب، ليصلي صلاة الظهر. ثم أنه حضر بعد دقائق فقال: آليت على نفسي أن لا أتنعم بنعمة من نعم الله إلا وقد أديت واجب الشكر قبلاً.

وعلمت من حاله، أنه كان يأخذ أمه العرجاء كل مساء حاملاً إياها على ظهره إلى السطح العالي وينزلها على ظهره إلى قاعة الدار كل صباح، ويخدمها خدمة صادقة[1] فعلمت أن إيمان الرجل إنما هو نتيجة تلك الخدمة الصادقة نحو أمه العجوز.

---

(١) عن ابراهيم بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ان أبي قد كبر جداً وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة، قال: إن استطعت أن تلي ذلك منه، فافعل ولقمه بيدك «فأنه جنة لك غداً»... من أصول الكافي ج: ٢ ص: ١٦٢.

عرفت رجلاً كان قد استولت عليه أفكار غربية وكان متأثراً إلى حد بعيد بأخلاق الغرب وعاداته وحضارته المادية وحياته الاجتماعية ويقدرها أيما تقدير. ويرى أن إصلاح الشرق إنما يتم باتباع الغرب في حياته الاجتماعية، ومع ذلك ما كان لينقطع عن صلاته وتلاوة القرآن كل صباح وعن الصوم في شهر رمضان المبارك. فكان مسلماً متطرفاً بعيداً عن كثير من حقائق الاسلام، يجهل الآداب الاسلامية التي فيها حياة القلوب وسعادة الدارين.

ولكن الله تعالى أراد أن يمنّ عليه بتوفيق الهداية، فأتيح له أن قام بخدمة صادقة نحو خالته العجوز، التي كادت أن تصاب بالعمى من جراء رمد شديد. فاهتم اهتماماً بالغاً في شفائها وصرف مبالغ لا يستهان بها وشفيت خالته ونجت من العمى، فرأى الشاب بعد ذلك في نفسه توجهاً عجيباً نحو تفهم الدين الاسلامي من منابعه وتطبيق بعض المستحبات التي فيها جلاء القلوب وتزكية النفوس. وإذا به يقف على مواطن الضعف في الحضارة الغربية المادية ويزيفها بأدلة رصينة من نواح شتى ويتضح له أنها حضارة شهوات ونزوات في جميع المجالات حتى في الكنائس! إنها جاهلية جهلاء بكل ما في الجاهلية من تسافل مرير. أنها جاهلية القرن العشرين جاهلية أشد خطراً على البشر من الجاهلية الأولى من الدور الجاهلي قبل الاسلام.

وقد جاء في الحديث ما مؤداه: أن رجلاً أتى رسول الله (ص) قائلاً يا رسول الله، ما من ذنب إلا وقد ارتكبته فما هو خير عمل أقوم به لكي يغفر الله لي؟.

فقال رسول الله (ص): «هل لك أم، اخدمها يغفر الله لك. قال الرجل: كلا. إنها توفيت. فقال رسول الله: هل لك خالة؟ قال الرجل: نعم. فقال رسول الله: اخدمها، يغفر الله لك.

* * *

هذه دساتير اجتماعية جاءتنا من جانب الله تبارك وتعالى على لسان الرسول والأئمة من بعده عليهم أفضل الصلاة والسلام، لو عمل بها البشر

﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[1] ولنالوا سعادة النشأتين.

* * *

ولنختم هذا المقال بما جاء في رسالة لمولانا وإمامنا زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام بشأن حق الأم وحق الأب وحق الولد وحق الأخ من الأقارب والأرحام.

يقول عليه السلام: وأما حق أمك: أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً. وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً. ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك وتعرى وتكسوك وتضحي وتظلك وتهجر النوم لأجلك ووقتك الحر والبرد لتكون لها. وأنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك، فأن تعلم أنه أصلك فأنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه. فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله.

وأما حق ولدك: فان تعلم أنه منك ومضاف اليك في عاجل الدنيا بخيره وشره. وانك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة على طاعته. فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مُثاب على الاحسان اليه ومعاقب على الاساءة إليه.

وأما حق أخيك: فأن تعلم أنه يدك وعزك وقوتك، فلا تتخذه سلماً على معصية الله ولا عدة للظلم لخلق الله ولا تدع نصرته على عدوه والنصيحة له، فان أطاع الله، وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلا بالله.

* * *

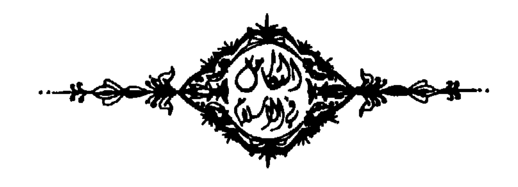
فحقوق الوالدين والأرحام ليست من قبيل التزين بالأدب الاجتماعي بل هي فروض وواجبات وعزائم، إذا أداها المرء فقد أبرأ ذمته من تبعة المسؤولية

---

(١) سورة المائدة: ٦٦.

بين يدي الله، وإذا لم يؤدها فلن تنفعه صلاة ولا صيام ولا غير ذلك من أعمال البر والطاعة. فالاسلام لا يحب أن يخرج للمجتمع إلا انساناً دقيق الحس، مرهف الوجدان، يفيض قلبه بالبر والمواساة والحب، ولا شك أن الوالدين هما أول من يجب أن يمسه نفح ذلك الود بما أسلفاه من جميل ومن بعدهما الأرحام.

هذه دساتير لها قيمتها الاجتماعية والتوجيهية، فبتطبيقها تعمر البلدان ويسعد الناس فيشد بعضهم أزر بعض بالتواصل والتعاطف والتراحم والحب والولاء، كما يؤدي تطبيقها إلى الايمان الرصين وإزالة الشكوك والأوهام، يؤدي إلى الايمان بالله وملائكته واليوم الآخر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخمس وبقية الحقوق، ويؤدي إلى سعادة أبدية، سعادة الأخرة، وهي التي تدوم ملايين السنين في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾[1].



(١) سورة آل عمران: ١٣٢.

سؤال عن حكم شرعي

يسأل أحد الأطباء: لماذا البول نجس والعرق طاهر؟ وهما شيء واحد. ذلك، لأن البول يخرج مع العرق في الصيف، فيقل البول، وفي الشتاء يكثر البول لعدم خروج العرق من البدن.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجواب:

أخي الدكتور، زاده الله تعالى توفيقاً،

بعد تقديم خالص التحية والتقدير لشخصيتكم المؤمنة، أبدي:

إن أحكام الشرع توقيفية، يجب اتباعها على ما جاء من الشارع سواء ظفرنا ببعض العلل الطبية أو الاجتماعية أو لم نظفر، وان العلم الحديث فتح علينا أبواباً لتفهم علل كثير من الأحكام الشرعية، على أن العلل قد لا تنحصر في ما اكتشفه العلم الحديث، ووراء هذا الكشف علل وعلل قد خفيت علينا وسوف نظفر بها مع تقدم العلم، غاية ما هنالك أن ما جاء من أحكام في الشريعة الاسلامية لا يمجها العقل إن جهل بعض الأسباب أو كلها. لذلك يقال: كل ما حكم به الشرع حكم به العقل، أي يراه العقل مستساغاً وإن جهل العلة، ولا عكس أي لا كل ما حكم به العقل البشري حكم به الشرع، لأن العقل البشري قد لا يستوعب الأحكام ويرى الأمور من ناحية أو ناحيتين وتبقى بقية النواحي خافية عليه، والله هو المحيط بالحكم والأسباب والنتائج.

أما الجواب على سؤالكم: من الواضح أن مقدار البول يقل في الصيف لخروج قسم من السائل بشكل عرق دون الشتاء، فيزداد مقدار البول. ولكن هل أن كل ما في البول لدى التحليل من عناصر وجراثيم وميكروبات و(كاست): Casts وبلورات يوجد في العرق. ذلك لأن رائحة البول تختلف كثيراً عن رائحة العرق وهذا دليل على الاختلاف والفرق في العناصر والكميات والجراثيم إلى ما هنالك وليس في العرق إلا الماء والملح ومواد دهنية.

فالبول، وهو الذي تفرزه الكليتان في المثانة ثم يخرجه الانسان بالارادة على الأغلب يشتمل على مواد وأملاح كثيرة منها مادة فوسفات وحامض الصوديوم وحامض اللاكنيك ومواد عطرية وعناصر جامدة واكسانتين وكرانتين وحامض الأيبوريك وحوامض دسمة ومواد ملونة وملح الطعام والفوسفات القلوية وفوسفات النورة وفوسفات المنيزي والسلفانات القلوية وحامض السليك والأمونياك وغيرها ومادة الأورة.

وتكون غالباً في البول بنسبة ثلاثين إلى ألف وأربعمائة من مجموع البول ومادة تسمى حامض الأوريك ونسبتها إلى مجموع البول أقل من نسبة الواحد إلى الألف إلا أنها سامة قوية التأثير جداً تقرح الجلد وتخدش ما اتصل به، والمواد البولية بتراكيبها سامة مضرة. وما دامت في بدن الانسان لا تضر، لأن تأثيرها ضعيف أو معدوم فإذا مسها الهواء بعد خروجها اشتد ضررها كماء الاستنجاء، ويزداد ضررها كلما طال زمن إتصالها في الهواء ولا تخلو من لزوجة.

وبول المرأة يختلف عن بول الرجل من حيث المواد، كما أن بول الصبي قبل أن يأكل شيئاً من الطعام كالخبز وغيره يختلف عن بوله بعد أن اعتاد الأكل، لذلك تختلف كيفية التطهير من البول في أبوال من ذكرنا، وإن الطب والفسلجة ليؤيدان ذلك.

وبما أن العرق يختلف عن البول من حيث التحليل والوزن النوعي والرائحة ومروره ببعض أعضاء الجسم الانساني لا يكون ضاراً كي يصب

عليه الماء بعد الخروج من الجلد، كما في البول.

وبالختام أتمنى لتلك النفس الطاهرة التي أخذت على عاتقها خدمة هذا الدين في النواحي العلمية سعادة أبدية، سعادة الدنيا ونعيم الآخرة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *



إسلام عائشة بردجت هني[1]

Aisha Bridget Honey

يعرف المسلمون في بريطانيا عائشة المسلمة بنشاطها المتوقد، وكتاباتها التي تدل على فهمها الاسلامي ووعيها حقيقة هذا الدين الحنيف، فهي عضو في لجنة تحرير «رسالة الأخبار» التي يصدرها شهرياً اتحاد الجمعيات الطلابية الاسلامية في المملكة المتحدة وإيرلندا... وهي عضو في الجمعية الاسلامية بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن... وهي كذلك أمينة سر جمعية النساء المسلمات في بريطانيا Moslem women Association وهي تساهم في جميع وجوه النشاط الاسلامي الذي تنظمه جمعيتها أو اتحاد الجمعيات الاسلامية. تعرض عائشة قصة اسلامها ووجهة تفكيرها، وهذه هي الاسئلة وإجابات عائشة عليها:

س ١ ـ متى أسلمت؟ وكم كان عمرك عندها؟.

ج ـ هداني الله للاسلام منذ ثلاث سنوات ونصف، وقد كنت عندها في الحادية والعشرين.

س ٢ ـ هل لك أن تروي لنا قصةَ اعتناقك الاسلام؟

ج ـ نشأت في أسرة هي في رأيي مثل للأسر البريطانية اليوم من حيث نظرتها للدين... فوالدتي نصرانية غير أنها لا تمارس أياً من العبادات النصرانية... ووالدي لا يؤمن بأي دين من الأديان. وقد سجلت في طفولتي باحدى مدارس الأحد «وهي مدارس دينية تشرف عليها الكنيسة» وتلقيت علوم

---

(١) من مجلة حضارة الاسلام للسنة السادسة (٣ ـ ٤) (جمادي الأول والآخرة عام ١٣٨٥).

مدارس الكنيسة الانكليزية[1] غير أن أحاديثنا في المنزل لم تكن تتعرض للدين من قريب أو بعيد. ولا أستطيع أن أتذكر يوماً واحداً من أيام طفولتي سمعت فيه اسم الله يذكر في منزلنا.

لم أستطع في خلال سنوات دراستي في مدرسة الكنيسة أن اقتنع ببعض الأفكار الجوهرية في النصرانية، وخصوصاً فكرة التثليث وفكرة الفداء... «وهي ان الله ـ أو المسيح ـ قد افتدى الناس وكفر عنهم سيئاتهم عندما صلب» ولكم نوقشت هاتان الفكرتان... ولكم دارت الأحاديث حولها... إلا أن كل ما سمعته عنها، كان في رأيي مجانباً للحقيقة التي حيرتني معرفتها... والتي طال شوقي اليها. لقد كانت مدرستي مدرسة نصرانية إلا أنني تخرجت منها ملحدة.

كنت محبة للفلسفة، مغرمة بها وكنت في شوق لمعرفة الحقيقة فقرأت وأنا في الخامسة عشرة كتاب تاوته تشنغ Taoteh Ching الذي يضم أوائل الكتابات في الفلسفة التاوية الصينية، وقد تأثرت بنظرة الكتاب تأثيراً عميقاً. وسمعت عن البوذية، وأخذت أقرأ بنهم عن هاتين العقيدتين الفلسفيتين وعزمت على تعلم اللغة الصينية والذهاب إلى الصين غير أن هذا لم يكن بالأمر السهل بالنسبة لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، لا مال لديها ولا مؤهلات لذا ذهبت عندما بلغت السابعة عشرة إلى كندا حيث عملت مدة سنتين وجمعت مبلغاً من المال يكفيني لمتابعة دراستي كي أحصل على الشهادة الثانوية وأدخل الجامعة لدراسة اللغة الصينية.

وفي كندا عرفت الفلسفة الهندية، وقرأت الكتب الهندوسية المقدسة ولقد وجدت في كتب العقائد الفلسفية الثلاث التي عرفتها ـ التاوية والبوذية والهندوسية ـ جمالاً وسموقاً وعمقاً... غير أنها جميعاً لم تكن لترضي تفكيري وإحساسي. فلقد أخطأت جميعها الوصول إلى توازن بين الكون الواسع العظيم من جهة، ومتطلبات الحياة اليومية الاجتماعية والعملية من جهة

---

(١) أوجدت الكنيسة الانكليزية بأمر ملكي. بعد أن برم القصر بالخلافات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت وغيرهم.. وهي بمثابة حل وسط يجمع بين المتناقضات.

أخرى.. بل مالت جميعها إلى إهمال الأخيرة أو نبذها. ويروى أن صاحب التاوية ومنشئها هام على وجهه في أرجاء الأرض كصوفي زاهد. كما هجر بوذا زوجته وأسرته كي يبحث عن الحقيقة أما الكتب الهندوسية فهي كتب أخلاقية في جوهرها فهل ترى كل الأواصر الانسانية والحياة الاجتماعية أوهام وخيالات لا معنى لها؟.

أزعجني هذا السؤال وأقض مضجعي طويلاً، ولم أستطع أن أؤمن بأي من هذه العقائد... وعشت في حيرة... بماذا أؤمن؟ ما هي غاية الحياة؟ أهي مجرد مصادفة كما يقول البعض؟ إن كانت كذلك فالموت أفضل منها ألف مرة! وزادت حيرتي، وزاد أرقي.

لذا كان نجاحي في امتحانات الثانوية العامة وقبولي في جامعة لندن لدراسة اللغة الصينية انتصاراً هزيلاً فارغاً لا معنى له... صحيح أنني حققت طموحي بدراسة الصينية إلا أن الحقيقة التي كنت أنشدها بدت أبعد مما كانت.

جاء تعرّفي بالمسلمين بعد التحاقي بالجامعة... ولم أكن قد سمعت أو قرأت شيئاً عن الاسلام من قبل، بل لقد كان لدي ما لدى كل الغربيين من أحقاد ومفاهيم خاطئة عن الاسلام. ولقد شرح لي الطلبة المسلمون مبادىء دينهم بصبر وأناة، وأجابوا على كل ما اعترضت عليه، وأعطوني بعض الكتب لاقرأها.. وقد كنت في البدء أتصفح هذه الكتب تصفحاً سريعاً إرضاء لبعض فضولي، وكنت أنظر اليها على أنها مدعاة للضحك والسخرية... إلا أن الشذرات التي قرأتها جعلت شكي في سمو الاسلام يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدأت أقرأ الكتب بعناية واهتمام... فأذهلني الوضوح الرائع في أسلوبها. وأخذت بقوة الحجة والمنطق التي تعتمد عليهما في نظرتها للخلق والخالق وتأكيدها حقيقة البعث بعد الموت.

ثم أعطاني الطلبة المسلمون القرآن مترجماً للانكليزية... ولست مستطيعة مهما حاولت أن أعبر عن مدى تأثير هذا الكتاب في نفسي فقبل أن أنتهي من قراءة السورة الثالثة سجدت لله تعالى وكانت هذه أول مرة في حياتي أصلي فيها لله... ومنذ تلك اللحظة أصبحت بحمد الله مسلمة.

اعتنقت الاسلام ولما تمض ثلاثة شهور على بدء معرفتي به، وطبيعي أنني لم أكن أعرف منه إلا الأفكار الأساسية. وبدأت بعدها سلسلة طويلة من الأسئلة أطرحها على اخوتي المسلمين وأناقشها معهم في جزئياتها وتفصيلاتها.

يسألني كثير من الناس عن الأسباب الرئيسية التي دعتني إلى اعتناق الاسلام، وهذا سؤال يصعب علي أن أجيب عليه إجابة مقتضبة إذ أن مثل الاسلام - كما يقول أحد المسلمين الأوربيين - كمثل عمل هندسي متكامل رائع كل جزء فيه يتمم الأجزاء الأخرى ويجملها. وهذه الظاهرة في الاسلام هي الشيء الذي يترك في النفوس أروع أثر عن الاسلام. فإذا ما نظرت اليه عن بعد أخذت بعمق نظرته للأشياء وسحرتك روعة تشريعاته بشمولها أهداف وأعمال وطبيعة الدولة المسلمة. ولئن بحثت في جزئياته فانك واجد الطريقة المثلى للحياة الاجتماعية المبنية على الخلق القويم. ورأيت أن كل عمل يقوم به المسلم يذكره بالله... وعندما يذكر الله يراجع نفسه ويحاول البلوغ بعمله ذاك مرتبة الكمال... وهكذا يزول ما كان بين متطلبات الحياة اليومية ومتطلبات الدين من صدع، ويصبح الطرفان متكاملين متناسقين.

س ٣ - ماذا كان رد الفعل عند أسرتك وأصدقائك عندما عرفوا باعتناقك الاسلام؟.

ج - تقبل والدي اعتناقي الاسلام دون كبير عناء، واعتقد أنهم أول الأمر ظنوا إسلامي مجرد «فكرة غريبة» أخرى من أفكاري التي تبدو شاذة لبعض الناس - كتعلمي الصينية - وأنها ستنطفىء بهجتها وتزول مع الأيام... إلا أنهم بعد ذلك بدأوا ينحون علي باللائمة خاصة بعد أن وجدوا أن ظنهم قد خاب وأن إيماني يزداد رسوخاً مع الأيام إلى حد أن تأثيره لم يقتصر على طريقة تفكيري بل امتد إلى عاداتي وطريقة حياتي فغيرها وقد كرهوا أن يروني امتنع عن شرب الخمور وأكل لحم الخنزير... كما كرهوا أن يروني ملتفعة بخماري، وأضعه على رأسي في كل مكان وأعتقد أن اهتمامهم ينصب على آراء الناس وماذا يقولون عني، دون أن يهتموا بالعقيدة والايمان.

أما أصدقائي الانكليز فأمرهم مختلف... إذ أنهم على استعداد للمناقشة

ومحاولة التفهم... فهم عاقلون متقبلون للمنطق وعندما أناقشهم في نظرة الاسلام ومبادئه في الحياة الاجتماعية مثلاً أرى لديهم استعداداً للاعتراف بحكمة النظرة الاسلامية وأصالتها. وأذكر مرة دار فيها نقاش بيني وبين بعض صديقاتي حول نظرية تعدد الزوجات وحدودها التي وضعها الاسلام... والحلول التي تقرها الحضارة الغربية... فاعترفن جميعاً - وبينهن فتاة مجازة في علم اللاهوت النصراني - بأن تعدد الزوجات المحدود بشروطه الاسلامية أفضل الحلول لمشكلات الزواج.

س ٤ - هل لاقيت أية مضايقة أو إيذاء نتيجة إسلامك؟.

ج - إن الذين لم يؤتوا درجة طيبة من العقل والفهم هم بصورة عامة متحاملين على الاسلام يكنون له في صدورهم الأحقاد والضغائن، وهم دواماً يسخرون من المسلمين ويهزؤون بهم، ولئن اخفوا سخريتهم في حضور أحد المسلمين فهم لا شك ساخرون منه في غيبته هازئون به غامزون منه ومن دينه. وهؤلاء لا يعبؤون بالملحدين بل يحترمونهم لتفكيرهم «الحر» كما يقولون، لكنهم متحاملون حاقدون على الاسلام والمسلمين. ومع أني شخصياً لم ألق أية مضايقة جدية نظراً لأنني طالبة في الجامعة في مدرسة الدراسات الافريقية والشرقية واختلاطي دواماً بأناس يعرفون شيئاً من الأديان والمعتقدات، إلا أنني أعلم ما يقاسي غيري من المسلمين.

س ٥ - ماذا قمت به من دراسات إسلامية منذ اعتناقك الاسلام؟ وكيف تتطور مشاعرك كلما ازدادت معلوماتك عن هذا الدين الحنيف؟.

ج - إنحصرت دراساتي عن الاسلام في قراءة ما وصل إلى يدي من كتب إسلامية، وفي أسئلة أوجهها إلى بعض المسلمين ذوي المعرفة الجيدة به، وفي مناقشات تدور حول بعض التعاليم والآراء الاسلامية، بيني وبين من أعرف من المسلمين الذين ينتسبون إلى مختلف الأمصار الاسلامية. ولقد سعدنا في العام الماضي بوجود طالب سوداني أوتي معرفة كبيرة بالفكرة الاسلامية والفلسفة الغربية على السواء، وقد دعا هذا الطالب إلى عقد اجتماع دوري أسبوعي كان ذا فائدة كبيرة... فقد حصر الحضور بعشرة أشخاص كي تتركز

الفائدة وتتسع. وقد كانت طريقتنا في هذه الندوة ان ندرس أهم ترجمات القرآن بالانكليزية ونقارنها بالأصل العربي لنصل إلى أقرب معنى للآية[1] ثم نناقش المعنى معتمدين على مختلف التفاسير بصورة عامة وتفسير الطبري بصورة خاصة. كما نناقشها من زاوية فهمنا ولكنه يؤسفني أن أقول أنه منذ رحيل هذا الأخ السوداني لم نستطع أن نجد في لندن شخصاً عنده مثل معرفته ورغبته في مواصلة هذا الجهد القيم والعمل النافع.

س ٦ ـ هل تعتقدين أن الاسلام يستطيع التأثير في الحضارة الحديثة؟ وبأية طريقة؟.

ج ـ لا شك ان الاسلام يستطيع كبح جماح الحضارة الحديثة وتوجيهها الوجهة الصحيحة. فالعالم الغربي يعيش اليوم في عماوة لا يكاد يرى فيها بصيص أمل ينير له الطريق لسعادة النفس والروح... وأن من يعرف حقيقة المجتمعات الأوربية ليرى الفراغ الهائل الذي يختفي تحت ستار براق خداع من الرقي والازدهار ان القلق النفسي قد عم الجميع... والناس اليوم يبحثون عن منفذ يخلصون منه من مشاكلهم ولكن بلا جدوى والطريقة الوحيدة التي تبدو أمامهم هي أن يزيدوا في سرعة سيرهم نحو الهاوية... فالتحلل الجنسي الواسع أدى إلى إقامة مستعمرات العراة، وإلى انتشار الشذوذ الجنسي والاسلام يستطيع بما يوفره من توازن رائع بين متطلبات الجسم ومتطلبات الروح أن يوجه الحضارة الحديثة في الوجهة التي تستطيع أن توفر للانسان سعادته وتجعله يحس الغاية من وجوده في هذه الحياة كما تجعله يسعى حثيثاً للفوز برضاء الله الكبير المتعال كي يسعد في حياته الأخرى اللهم اجعلنا جميعاً من سعداء الدارين.

س ٧ ـ ما هي في رأيك أفضل طريقة لنشر الاسلام؟.

ج ـ قبل أن نفكر في نشر الاسلام علينا أن نحاول أن نكون في حياتنا

---

(١) إن التراجم الانكليزية لمعاني القرآن ـ على كثرتها ـ تختلف اختلافات كبيرة في إعطاء المعنى المراد. ومن المؤسف أنه لا توجد بعد ترجمة واحدة يمكن أن يقال عنها: أنها وافية وجيدة. «المترجم»

وأعمالنا على المستوى الذي يطلبه منا هذا الدين الحنيف. ان الله تعالى يقول: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ فالمفروض فينا أن نكون دعاة للاسلام، لا نشرك فيه أية فكرة أخرى... إلا أن علينا أن نكون داعين له عالمين به بحيث نستطيع أن نجيب على سؤال من يسأل واعتراض من يعترض. ولا شك أن توفر بعض الكتب الجيدة عن الاسلام يفيد كثيراً في الدعوة إليه إذ عندما نعير كتاباً لشخص غير مسلم يقرؤه بتمعن أكثر من تمعنه في مناقشة شفهية. غير أن من المؤسف أن الكتب الاسلامية الجيدة المتوفرة باللغة الانكليزية قليلة.

ولكني أعود فأركز على أهمية المثل الحي إذ لا شيء يترك في النفوس انطباعاً أقوى من المثل الحي فعلينا أن نكون في حياتنا أمثلة للانسان المسلم كما يتطلب منا القرآن.

س ٨ ـ ماذا يحتاج المسلمون البريطانيون خاصة؟.

ج ـ يعتنق بعض البريطانيين الاسلام لدى زواجهم أو زواجهن بنساء مسلمات أو رجال مسلمين. وهؤلاء يجدون عادة الحياة العائلية الاسلامية ويسعدون بها... أما غير المتزوجين الذين يعتنقون الاسلام بالاقتناع الشخصي وحده سواء كانوا فتياناً أو فتيات.. نساء أو رجالاً فأنهم يواجهون بعض المشكلات. فهم إلى حد ما لا يشعرون بأن جو المجتمع البريطاني جوهم ولا هو مجتمعهم... وهم في نفس الوقت لا يعيشون في مجتمع إسلامي... وهم يجدون عنتاً في المحافظة على الصلاة والصيام في مواقيتهما... الخ لذا فان القضاء على الشعور بالعزلة عند المسلمين الجدد أمر متوقف على العائلات الاسلامية الموجودة هنا.. ويسعدني أن أقول أن معظم الأسر الاسلامية هنا تقوم بواجبها من هذه الناحية خير قيام.

كذلك فاننا نحتاج ـ كما ذكرت آنفاً ـ إلى مدرسين ذوي ثقافة إسلامية جيدة كي يساعدوا المسلمين الجدد في فهم القرآن. فكثير من المسلمين الجدد يتوقون إلى فهم القرآن فهماً جيداً إلا أنهم لا يستطيعون ذلك... ويؤسفني أن أقول أن المركز الثقافي الاسلامي في لندن لا يقوم بأي نشاط من هذا القبيل

وإنما ينحصر مثل هذا العمل بالطلاب الذين لا يستطيعون تكريس جزء كبير من وقتهم لهذا العمل نظراً لانشغالهم بدراساتهم.

س ٩ ـ هل زرت بعض الأقطار الاسلامية؟ وما هي انطباعاتك عنها؟

ج ـ لقد سعدت بزيارة لمصر قمت بها منذ عامين بدعوة من أسرة مصرية كريمة... وقد أعجبت إعجاباً كبيراً... وأخذت بكرم الشعب هناك... غير أني أعيب على الشعب المصري المسلم أن معاملته للخدم وللحيوانات ليست من الاسلام في شيء... فلئن كان ديننا قد أوصى بحسن معاملة الرقيق والحيوان فان علينا ـ نحن المسلمين ـ أن ننفذ أوامره ووصاياه... وفي هذا أذكر حديثين شريفين فقد قال رسول الله (ص): «إخوانكم خولكم. جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس». وقال: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته». فإذا كانت المعاملة الطيبة وإراحة الحيوان مطلوبة ساعة قتله فهي مطلوبة في حياته. وإذا كان من الواجب علينا معاملة العبيد كأخوان لنا، فأن معاملة الخدم كأخوة أمر مفروض أيضاً.

كذلك آخذ على الشباب انبهارهم ببعض المظاهر الزائفة في الحضارة الغربية فهم ينخدعون ببريقها الوهاج دون أن يعرفوا زيفها.

وأحب هنا أن أسطر اعجابي بقوة الأواصر العائلية وبالحياة الاجتماعية الكريمة التي إن قورنت بالحياة الاجتماعية في الغرب بدت في القمة فكيف بالحياة الاجتماعية الاسلامية الحقة؟ أللهم اجعلنا مسلمين حق الاسلام.

جاهلية الغرب

إن شبابنا المتعلم عندما يذهب إلى الغرب ويتصل بالعلم المادي وما فيه من دقة متناهية وحسابات دقيقة ومعادلات رصينة، ودساتير متنوعة وكتب أنيقة ومختبرات عديدة ومعامل تطبيقية مدهشة، يزعم بل يوقن أن الغرب قد بلغ مرتبة الكمال في كل شيء وأن لا سبيل لنجاة الشرق إلا باتباع أساليب الغرب الحضارية في كل شيء.

وقد فاته أن الموضوع ذو فرعين مستقلين: (١) عمارة الأوضاع المادية. (٢) عمارة النفس الانسانية. وان العلم المادي لا يؤثر في عمارة النفس وصناعتها. وهو يجتمع مع الموبقات وأنواع الفحشاء وما يؤدي إلى تحطيم النفس وإبعادها عن خالقها والازدراء بالمقدسات وعوالم الآخرة.

إذ لا علاقة بين حل المعادلات التفاضليةEquations différentielles والتخلق بالأخلاق الكريمة والتجنب عن الفحشاء والظلم والبغي والخشوع لله المتعال وتقديسه وتسبيحه بأنواع التسبيح. ولا رابطة بين تحضير واستحصال حامض الكبريتيك: (H2 SO4) والكمال النفسي كما لا علاقة بين تحطيم الذرة والحصول على طاقة ذرية تقدر بـ(MC2) مربع سرعة الصوت في الكتلة، وبين كف النفس عن هتك الحرمات وتجنب المحارم، هما من واديين مختلفين.

فالعلم المادي ينمو سواء أكان الفرد العامل في نموه فاسقاً أو مؤمناً والله تعالى يقول:

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾. (سورة: حم سجدة ١٨).

ولأجل هذا السبب نفسه لم يعن الأنبياء عليهم السلام بالعلوم المادية وحصروا همهم في تكميل النفوس وتطهيرها، إصلاحها وتزكيتها، ذلك لأن

العلم المادي ينمو نتيجة قابليات وملكات أودعها الله تعالى في العقل الانساني: من تجربة ومشاهدة واستقراء واستنتاج إلى ما هنالك.

إلا أن هذا العقل نفسه لا يصل، لكونه أسيراً بين أيدي الشهوات والنزوات والميول الحيوانية إلى جميع ما من شأنه تكميل النفس. فوجب إذن تعميماً لسنة الكمال في هذا الكون المتكامل في النواحي المادية ان يتعلم هذا العقل أصول تكامل النفس عما وراء الطبيعة: عن الرسل سلام الله عليهم أجمعين.

فعندما ترك الغرب اتباع أوامر الرسل (ع) لغرورهم العلمي وقولهم: العلم يغزو الفضاء! والعلم وحده يوصلنا إلى الكمال المنشود وتطبيقهم الطريقة العلمانية Laicisme في معزل عن الله تعالى، انطمس في جاهلية جهلاء ورجع القهقرى في حقل الكمال النفسي وهو، دون ريب أهم الحقول وغاية الغايات لتحقق انسانية هذا الانسان، وأهم من اختراع قنبلة ذرية أو هيدروجينية، سواء استخدمت للهدم والبطش أو في أمور عمرانية.

ونحن ها هنا نورد نماذج من جاهلية الغرب، لكي يعلم شبابنا ـ حفظهم الله من مضلات الفتن ـ ان الغرب أخذ يتردى يوماً بعد يوم. وإن هذه الحضارة المادية بجميع أساليبها آئلة إلى انهيار، ولا نجاة لهذا العالم إلا بالتمسك بروحيات صحيحة إلهية وبما يؤدي إلى خشوع النفوس تجاه خالقها وبارئها، فما من شيء في هذا الكون إلا ويسبح الله تبارك وتعالى، حتى الطير في السماء.

﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطيرُ صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾[١].

* * *

---

(١) سورة النور: ٤١.

(البروفو) الذين يريدون تحطيم كل شيء

برزت في هولندا في الآونة الأخيرة حركة تمرد غريبة يقوم بها الشباب الجانح المتمرد الذي يشتبك مع البوليس بمناسبة أو بدون مناسبة بحيث تطور الأمر إلى قذف قنابل الدخان على موكب الملكة مؤخراً. ويطلق هؤلاء على أنفسهم اسم (البروفو) أو الساخطين الذين ملوا كل الأوضاع القائمة!! والمقال التالي هو تحليل طريف لتصرفات هؤلاء الشبان الذين يغرقون في الانحلال والضياع والفوضى.

كان الأسبوع الماضي حافلاً بالنشاط المحموم للشباب الهولندي المتمرد وهم بدون شك من أكثر أحداث العالم المنحرفين إثارة ومتعة، وقد يتصور الناس أنهم يثيرون السخرية والضحك، غير أن هؤلاء الشبان يزعمون أنهم فنانون يتمتعون بقوة سياسية بحيث يتمكنون من تدبير مظاهرة سيرالية[1]

---

(١) السيريالية: هي حركة فنية أدبية نشطت في مطلع القرن العشرين. وقد أخذت وجهاً سياسياً في الفترة الأخيرة قوامها الثورة المطلقة، والعصيان التام والتخريب المنظم، وعبادة اللامعقول، انها دعوى ضد كل شيء، ورفض لكل الحدود والقيود بإصرار وتحدٍ. تنكر وتهدم كل قيمة وكل موروث في كل ما وصل إليه الانسان في كل الميادين. تنظر إلى الانسان على أنه رغبة، لذلك تسعى إلى تحرير هذه الرغبة تحريراً مطلقاً، تقدس التناقض وعدم المعنى، لهذا كان المذهب العقلي أعدى أعداء السيريالية.

تحاول السيريالية أن تدمر الأدب بالأدب والرسم بالرسم، فهي تحاول أن تحقق العدم عن طريق امتلاء الكينونة الطافح، بواسطة حذف (الأنا) حذفاً رمزياً بالتناوم والكتابة الآلية، وحذف المواضيع حذفاً رمزياً بإنتاج موضوعات تتلاشى تدريجياً، وحذف اللغة حذّفاً رمزياً بإنتاج معانٍ مضللة، ويعتبر كل أثر من آثارها بألوانه المتقلبة على سطحه عدم وليس هو إلا ذبذبة للمتناقضات لا نهاية لها. =

لتحطيم السيارات في الشوارع! ففي لاهاي ـ عاصمة هولندا ـ قاموا قبل أيام بمهاجمة موكب الملكة (جوليانا) أثناء شق طريقه إلى البرلمان لافتتاح دورته الجديدة رسمياً. فقذفوا قنابل الدخان على الموكب وكانت النتيجة أن ألقت سلطات البوليس القبض على (٨١) مشاغباً منهم! وفي يوم الأربعاء الماضي صرح أحد قادتهم بأنهم سيقومون برش مسحوق قابل للانفجار في كل نافورة للزينة بامستردام ولكن يبدو أن الخطة أحبطت قبل التنفيذ ولهذا لم يتدفق الزبد الأبيض في الشوارع!.

وفي يوم الخميس هتف (روبرت جاسبر غروتفليد) الزعيم البارز بين هؤلاء المنحرفين والذي كان هو مدبر معظم حوادث الشغب هتف بالمتمردين قائلاً: هيا وتدفقوا للتفرج على الحادث المثير في قارب البروفو. أما الحادث المثير الذي قصده فكان جلوس (٥٠) من هؤلاء الناقمين للتفرج على أفلام تلفزيونية سبق التقاطها أثناء ممارستهم الفوضى في الشوارع وأماكن تجمعاتهم، وتضمنت المشاهد هؤلاء الفتيان وهم يتصارعون فوق الوسائد في الصالة الخافتة الاضاءة بينما كانت المخدرات تنتقل من يد إلى يد!.

ويقول الزعيم الفوضوي غروتفليد:

«إننا مجتمع مُدمن على العقاقير وعبيد للظروف، وقد سببت المواصلات

= يتجسد أمل السيريالية البعيد في إدراك نقطة موهومة تكف فيها متناقضات الحياة والموت الواقعي والخيالي، الماضي والمستقبل، القابل الايصال وغير القابل الايصال. العالي والداني.

وقد أشادت السيريالية بالقتل والانتحار، واعتقد «كرفيل» ان هذا الحل: «صحيح ونهائي على أرجح احتمال»... وانتحر «كرفيل» مثل الشاعرين الفرنسيين السيرياليين: (ريفو، فاشيه) اللذين سبقاه إلى الانتحار وقد قال (أندريه بريتون) زعيم السيريالية: (إن أبسط عمل يقوم به السيريالي هو النزول إلى الشارع بمسدس في اليد. وإطلاق النار على الجماهير حيثما إتفق)[1].

(١) من مجلة حضارة الاسلام العدد العاشر السنة السادسة من مقال للأستاذ غازي التوبة بعنوان: الحضارة الغربية.

الحديثة تفسخنا، كما أن السجاير تسبب السرطان. ثم يأخذ بالقهقهة بشكل جنوني!.

وفي الساعات المبكرة من صباح السبت الماضي وتحت تأثير المخدرات وضع المستر (روب ستولك) وهو أحد قادة الساخطين، إجراء خطة لهؤلاء البروفو حتى الآن: وهي الاستيلاء على ميدان (دام) الذي هو الميدان الرئيسي في امستردام، استناداً إلى أن هذا الميدان كان قد بيع قبل عشرين عاماً إلى مواطني امستردام بثمن رمزي هو (غليدر) واحد لكل سانتيمتر مربع واحد. وذلك لجمع المال اللازم لاقامة نصب تذكاري لضحايا الحرب، وما زالت وثائق البيع موجودة لدى المواطنين الذين احتفظوا بها كأثر تذكاري. والآن ينوي البروفو الحصول على هذه الوثائق بواسطة الاستجداء والاستعارة أو حتى السرقة بحيث يتجمع لديهم منها ما يكفي للادعاء بأن ميدان دام أصبح ملكهم ومن ثم يبادرون إلى منع جميع مواطنيهم الآخرين والذين يكبرونهم سناً من دخول الساحة، ورغم غرابة الفكرة إلا أن خيال (البروفو) الخصب فيه متسع للعمل على تنفيذ مثل هذا المشروع الجنوني!!.

ومن الطبيعي أن كل هذا ما هو إلا سخف صادر عن احداث جانحين، ومع ذلك فانه يجسد ثورة من لدن الشباب، ذات مظهر سيريالي مضحك، ثم أنهم يزدادون قوة ونفوذاً!.

ففي امستردام تمّ انتخاب المستر (برناردي بيرز) مرشح (البروفو) لعضوية مجلس المدينة بأغلبية ١٣٠٠٠ صوت. ويزعم البروفو أنهم يتمتعون بمساندة ٤٠٠٠٠ شاب على الأقل في الجامعات والمدارس، ممن هم في السن التي تخولهم حق الانتخاب، وإذا علمنا أن عدد سكان امستردام لا يتجاوز المليون شخص فان رقم مساندي البروفو لا يستهان به[١].

---

(١) مجلة حضارة الاسلام، شعبان: ١٣٨٦.

شبان مخنثون يغرقون السويد ويزحفون إلى كل الغرب

استكهولم ـ موضة شاذة جديدة تزحف اليوم بسرعة لتغرق المجتمعات الغربية (الراقية). أنها موضة الشبان الذين يتخنثون فيطيلون شعر رؤوسهم ويستعملون أحمر الشفاه والبودرة ويزججون حواجبهم ويعمدون إلى تقليد الأساليب النسائية كلها، ويعرف هؤلاء باسم (البوب) أو الشبان أصحاب الشعر الطويل.

وتعتبر السويد ـ وعاصمتها استكهولم على الأخص ـ المركز الرئيسي لهؤلاء المخنثين!.

منذ سنوات كانت هذه الظاهرة أمراً شاذاً... أما اليوم فقد أصبح التخنث فلسفة وطريقة خاصة في الحياة كما يزعم المخنثون ويجاهرون بذلك بكل فخر انهم يتركون شعورهم تتدلى ويتزينون بالمجوهرات، ويتطيبون بالعطور النسائية ويرتدون أيضاً الألبسة النسائية الداخلية. وهم يفاخرون بتخنثهم ويقولون: إن تشبههم بالنساء يزيد من شعورهم برجوليتهم... أما كيف ذلك... فإن المخنثين يؤكدون أنها فلسفة خاصة أما علماء النفس فانهم يرفضون هذه الفلسفة ويحتارون كيف يصنفون هؤلاء الشبان المتأنثين، ولكن قد يكون تفسير فلسفتهم وزعمهم هو أن تخنثهم جعلهم صنفاً مرغوباً من قبل النساء كما ثبت ذلك في ليالي السويد الماجنة، بل حتى في الحدائق والمنتزهات وفي الشوارع أيضاً، وفي كل وقت، فهنا الحرية الاباحية!![1].

* * *

---

(١) مجلة حضارة الاسلام: ربيع الأول ١٣٨٦.

جاء في مقال نشر في مجلة Stern الصادرة في همبورغ في ألمانيا الغربية بتاريخ ١ أيلول ١٩٦٣ برقم: ٣٥.

«إن الأولاد الصغار بين ١٤ و١٦ سنة الذين يتأهلون للعمل يقولون حينما يبحث أمر الزواج أمامهم: أنا أتزوج؟! لماذا؟! أنني أستطيع الحصول من أي فتاة في العمل على كل ما أريد دون أن أتزوجها».

إن إتصال المرأة الدائم بالرجال أثناء العمل قد فل من حدة شعورها الحقيقي تجاه الرجل، فلم يعد عندها شوق اليه، وأصبح الرجل عندها شيئاً عادياً، وكذلك الرجل، فأنه لم يعد يتشوق للمرأة لأنها تحت نظره في كل لحظة وسهلة التناول، وكما أنه لم يعد يشعر بالاحترام نحوها، لأنها أصبحت رخيصة، إن شباب اليوم لم يعودوا يتحرجون من الخوض في مواضيع أو نكات جنسية عميقة بمحضر من زميلاتهم[1].

* * *

ويقول المتتبعون: أن بريطانيا تنغمس اليوم في الفجور إلى حدود مذهلة، حتى أن الدعوة إلى إباحة الشذوذ الجنسي بين الرجال استطاعت أن تظفر بالاباحة من مجلسي اللوردات والنواب، وبارك هذه الاباحة معظم الشعب الانكليزي وعلى رأسه أساتذة الجامعات والأطباء والمفكرون بل حتى رجال الكنيسة!!.

لقد انتشر الانهيار الخلقي في ربوع بريطانيا على نحو يفوق كل تصور. ويجعل من العاصمة البريطانية ـ بدون مبالغة ـ ماخوراً كبيراً للدعارة والموبقات! فقد أصبح الشذوذ الجنسي هو موضة اليوم التي يباركها المسؤولون الكبار، وأصبح من الصعب التمييز بين الشبان والفتيات. لأن الشبان أصبحوا يطيلون شعورهم ويرتدون الملابس النسائية ويطلون وجوههم بالأصباغ والمساحيق، كما أن البغاء في لندن قد انتشر ولم يعد محصوراً في المحترفات ببيع الفجور ولكن أصبحت تمارسه نساء وفتيات من مختلف الفئات والطبقات.

---

(١) حضارة الاسلام: العدد السابع، السنة الرابعة.

وقد جاء في تقرير اللجنة الذي رفعته إلى البرلمان: ان كثيراً من الزانيات في لندن لسن من المحترفات المتفرغات لهذه المهنة القذرة، وإنما هن من صغار الموظفات أو من طالبات الجامعات أو من المعاهد، اللواتي يمارسن البغاء إلى جانب أعمالهن ليحصلن على دخل إضافي يمكنهن من الانفاق عن سعة على الثياب المغرية وعلى مستحضرات التجميل.

ولذلك كله، فقد نشأ الجيل الجديد في بريطانيا وقد اهتزت جميع القيم وانهارت لديه ولم يؤمن بشيء إلا بالبحث عن المتعة وعن المال الذي ييسرها له، بأي ثمن وأي طريقة! ولذلك فقد انتشرت جرائم الأحداث في بريطانيا، وأصبح البغاء مهنة تمارسها الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة على أوسع نطاق[1].

* * *

وفي خبر: أن الدكتور رسلي باري أسقف (نوتنجها مشبر) دعا رجال التعليم ورؤساء اتحادات الطلبة والمسؤولين إلى حضور مؤتمر لمناقشة مشكلة ما سماه «انهيار مستوى الأخلاق» بين الأطفال والمراهقين من سن العاشرة إلى سن التاسعة عشرة.

وفي خبر آخر: وافق مجلس النواب الأمريكي على اعتماد ٢٢ ألف دولار لتزويد سفارات أمريكا في أفريقيا بالويسكي. وقال النائب الديموقراطي جون روني: ان الويسكي هو (عدة الشغل) في سفارات أمريكا!.

وفي تقرير أنه تتصدر التكساس قائمة أكثر الولايات الأمريكية من حيث الجرائم، ففي كل ٣ دقائق و ٤ أعشار الدقيقة ترتكب فيها جريمة جنائية وفي خلال السنوات الأربع التي سبقت ١٩٦١ فاق عدد جرائم القتل المرتكبة في التكساس ١٠٨٠ شخصاً أي ضعف عدد من قتلوا في نيويورك.

ومن بين مدن التكساس تبرز (دالاس) في عدد الجرائم والمجرمين.

---

(١) حضارة الأسلام، جمادي الأول: ١٣٨٦.

فجرائم القتل في (دالاس) يفوق عددها جرائم القتل في بريطانيا كلها.

وفي خبر أن عالماً نفسانياً أعلن: أن ربع عدد البالغين في بريطانيا يعانون من الشذوذ العقلي.

* * *

وجاء في تقرير لوزارة الداخلية البريطانية عام ١٩٦١ أن عصابات النساء والمراهقات زادت زيادة خطيرة مما يهدد الأمن العام. وقد ألقي القبض على ٧٤٢ ألف فتاة وسيدة خلال العام الماضي بتهمة السطو والسرقة و ١٠٠٠٠ فتاة تحت سن العشرين بتهمة الدعارة والتسكع والتحريض على الفسق.

أصدرت إدارة إحدى المؤسسات الأمريكية منشوراً تحرم فيه على الموظفات لبس الفساتين القصيرة. جاء فيه: «محظور أن تكون ركبتا العاملات بالمؤسسة عاريتين وهن جالسات إلى مكاتبهن» وقد ثارت ثائرة الجمعيات النسائية هناك لهذا القرار وبعثت احداها لادارة المؤسسة تقول: «إن هذا أمر تعسفي... وتقول أن جو العمل سوف تنقصه متعة كبيرة إذا لم تكن الركبتان مرئيتين».

جنيف ٨ آذار ١٩٦٤ ـ أعلنت منظمة الصحة العالمية المجتمعة الآن في جنيف بأن أهم مشكلة صحية تعانيها أوروبا هي انتشار الأمراض الجنسية ـ التناسلية بين الشباب الأوروبي بصورة مخيفة. ولقد وصلت نسبة الاصابات بمرض (السفلس) حداً قياسياً منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم. وتقول هذه المنظمة في تقريرها: بأن الأمراض الجنسية هذه تنتشر أيضاً فيما عدا بين الشباب، بين التجار والعمال الأجانب والعاهرات والغانيات والمصابين بالشذوذ الجنسي.

في إحصائية لمكافحة تهريب المخدرات في أمريكا جاء أن ٦٥٪ من الرجال والشباب يدمنون المخدرات وأن النسبة في فرنسا ٥٥٪ وان النساء والفتيات تشترك فيها وفي انكلترا تبلغ النسبة ٢٥٪ من الرجال و١٥٪ من النساء المدمنات أما في إيطاليا فلا تزيد على ٧٪ فقط.

جاء في تقرير لرجال التربية في أمريكا: أن الطفل الأمريكي أصبح كسولاً

مائعا وغير مطيع. وقد علق الرئيس الأمريكي المتوفى ـ كنيدي ـ على هذا التقرير: إن الطفل الأمريكي أصبح أيضاً: رخواً وناعماً ويعمل والداه على تسمينه.

وفي نبأ أنه يموت في فرنسا كل دقيقة شخص واحد بسبب إدمانه على الخمر ويبلغ متوسط ما يشربه الفرد في فرنسا كل عام ٧ غالونات من الكحول النقي. وتحاول الحكومة الفرنسية معالجة المدمنين ويبلغ ما تنفقه على علاج المدمنين ١٧٠ مليون دينار.

تعاني وزارة الداخلية في أمريكا مشكلة معقدة للغاية وهي العمل على منع رجل البوليس الأمريكي من التحول إلى لص أو مجرم بعد أن كثرت في الآونة الأخيرة حوادث سرقة وقتل، كان أبطالها من رجال البوليس أنفسهم، وآخر هذه الحوادث هو إقدام أحد الضباط الكبار في وزارة الداخلية الأمريكية على سرقة بضائع ومجوهرات قيمتها ثلاثون ألف دولار. وفي المحكمة العسكرية المختصة اعترف (وليام مارلو) الضابط السارق بجريمته. وقام بتمثيل الحادثة. إلا أنه اتهم في نهاية المحاكمة عدداً من زملائه الضباط ورجال البوليس العاديين بالاشتراك معه في هذه العملية، كما اعترف بأنه قام هو وزملاؤه بحوادث مماثلة في العام الماضي!!.

يقول الدكتور: ألكسيس كاريل في كتابه: الانسان ذلك المجهول:

«إن المادية البربرية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلي فحسب، بل أنها تسحق أيضاً الشخص العاطفي واللطيف والضعيف والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال (ص: ٣٧١)».

ويقول في مقام آخر:

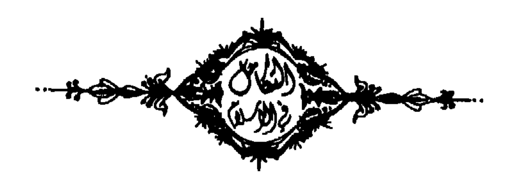
«يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الاحساس الأدبي اهمالاً تاماً، بل لقد كبتنا مظاهره فعلاً، فقد أشربنا جميعاً الرغبة في التخلص من المسؤولية. أما أولئك الذين يميزون الخير من الشر، والمرأة التي انجبت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم، بدلاً من الاهتمام الخاص بها تعتبر ضعيفة العقل، وإذا

ادخر رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده سرق منه هذا المبلغ بواسطة الماليين أصحاب المشروعات أو أخذته الحكومة». ص: ١٨٥.

ويقول:

«الانسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها المجتمع العصري، وقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها «التكنولوجيا»[١].

وإن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله. وإن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة. وإنما نحن المسؤولون لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى. الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً. ان مبادىء «الدين العلمي» والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأ غزو «الحقيقة البيولوجية»... فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تُستأذن في ارتياد الأرض المحرمة... هي أضعاف السائل... ولهذا فان الحضارة آخذة بالانهيار. لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا، فقبلناهداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر. ولقد أصبح الفرد ضعيفاً، متخصصاً، فاجراً، غبياً، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته».



---

(١) التكنولوجيا: Technologie مبحث الفنون والصنايع.

من خرافات الغرب

كل عقيدة أو عمل لا يستند إلى ركن وثيق: إلى نص سماوي صحيح أو تجارب علمية صحيحة، فهو خرافة يجب أن يلفظها الانسان، لو كان تابعاً للمنطق الصحيح، بعيداً عن الوساوس الشيطانية.

وإن الغرب يصم الشرق بأنه منبع الخرافات والأوهام كي يلفظ الشرقي معتقداته الدينية ويظنها خرافة يأباها العقل والمنطق. اما المستشرقون والقسيسون الذين قاموا بتأسيس مدارس تبشيرية في الشرق ليحققوا بذلك أغراضاً سياسية واقتصادية وتبشيرية. فهم إن لم يستطيعوا تنصير الشاب المسلم، فلا أقل يجعلونه عدواً للاسلام والمسلمين!.

ولقد سمعت منذ أربعين عاماً ممن كان قد رجع من دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت: ان الشرق منبع الخرافات، وبلاء الشرق دينه فلو لفظ الشرق هذا الدين فهناك التقدم وهناك الازدهار! فالصلاة خرافة والصوم خرافة والحج خرافة... إلى ما هنالك. والمدنية القائمة في الغرب هي التي يجب أن تُتبع، ففيها الحياة والنجاة من عقائد بالية وأفكار خرافية لا تلائم مفاهيم القرن العشرين: عصر النور والثقافة والتقدم المطرد.

وإن شبابنا بجهله معالم دينه وحقائق الاسلام وحكمه وتجرده من كل خرافة وكل ما لا يسنده المنطق غير المغلوب بشهوات النفس ونزواتها، يتقبل ما يملى عليه من قبل أعداء الاسلام، بل الانسانية، ظناً منه أنه قد خرج من الظلمات إلى النور، من عالم رجعي إلى آخر تقدمي، وهو يأسف على ما كان فيه من رجعية مريرة وخرافات وسخافات!.

ونحن ها هنا نورد بعض خرافات الغرب ولا نتطرق إلى ما في المسيحية

من خرافات أولدته اليد البشرية الأثيمة، فسمته ديناً سماوياً، مع العلم أن ما يأتينا من جانب الله تعالى مجرد عن كل خرافة، ومطابق للمنطق الصحيح إلى أبعد الحدود، شريطة أن لا تمسه يد التحريف والاهواء.

١ ـ كان (دويربويل) البريطاني فيزياوياً مشهوراً وكيمياثياً معروفاً، يحمل معه دائماً جمجمة إنسان ظناً منه أنه لا يبتلي بحمله هذه الجمجمة بنزيف دموي في أنفه.

٢ ـ باسكال(Blaise Pascal) الفرنسي من أشهر الفلاسفة الرياضيين، كان قد خاط في قسم من لباسه قطعة من جلد الغزال، ظناً منه أن هذا العمل ينجيه من كل ريب وخيبة.

٣ ـ كان السحر رائجاً في أوربا في القرون الوسطى إلى حد بعيد. فالعجائز كن يتعاطين السحر وكن يحتفظن في بيوتهن بسنور أسود وبومة. وقد تفاقم أمر السحرة في أوربا في ذلك الحين حتى أحرق منهم عدد كبير من قبل القسيسين.

٤ ـ إن القرويين في فرنسا لحد اليوم يخافون من حيوان موهوم لا يرى بالعين رأسه كرأس الذئب وبدنه كبدن الانسان. يدعى: بـ(لوكارو) وهم يضعون الطلاسم في بيوتهم للتخلص من شرور هذا الحيوان الخيالي!.

٥ ـ وفي القرون الوسطى كانوا يلقون المتهم في حوض ماء كبير، فإن طاف على سطح الماء، ولم يغرق فهو بريء وإلا فهو مجرم يستحق العقاب!.

٦ ـ ولا يزال في الغرب من يتفاءل إذا التقطت دجاجة بسرعة ما يلقى لها على الأرض من حبوب، وكذلك إذا صادف أحدهم طيراً يطير نحو اليمين أو صادف نحلة أو نملة أو سمع أحداً يعطس قبيل الظهر. أو إذا اضطرب جفن العين اليمنى.

وعلى العكس يتشاءم الغربي إذا رأى سنوراً أو قرداً أو ذئباً أو ثعلباً أو حية، أو دجاجة لا تلتقط ما يلقى لها على الأرض من حبوب. أو إذا تعلق ثوبه بمسمار الكرسي، فيصيب الغربي في كل هذه الحالات حزن وأسى.

٧ ـ إن الغربي ليعتقد أن العدد ١٣ عدد نحس وشؤم وتعس، ولذلك لا يجلسون حول منضدة الطعام إذا كانوا ١٣ شخصاً. حتى ان الشرقي صار يقلد الغربي، فلا يكتب على باب غرفته ١٣ وإنما يكتب ١٢ + ١. دفعاً لشرور العدد المنحوس وشؤمه!.

٨ والأوربيون لا يمرون من تحت السلم ويتشاءمون من ذلك. كما أنهم يحملون معهم نعل الفرس كطلسم السعادة! ويهابون السنور الأسود والبومة كذلك.

٩ ـ ولقد رأيت قبل حوالي أربعين عاماً مفتشاً للمعارف بريطانيا كان إذا نظر في أوائل الشهر إلى الهلال أغمض عينيه حتى يفتحهما على شيء أو رجل يتفاءل من النظر إليه، كي لا يرى في ذلك الشهر إلا خيراً.

ولكن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يخاطب علياً في هذا المقام قائلاً:

«يا علي إذا رأيت الهلال فكبر ثلاثاً. وقل: الحمد لله الذي خلقني وخلقك وقدرك منازل وجعلك آية للعالمين».

فنبينا محمد (ص): لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. والأدب الاسلامي يهدف دائماً إلى توحيد الله وتجليله وتقدير ما خلق كي يزداد الفرد إيماناً بالله فمعرفة، وهي غاية الغايات. فلا ترى عملاً في الدين الاسلامي يمجه العقل أو يأباه إلا إذا كان العقل قد انسحب نتيجة الاسراف والسفه والآثام، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً.

وقد نهى الاسلام عن كل خرافة بقوله: ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[1].

١٠ ـ في ضواحي باريس(Paris) محل يدعى: لورد. وان امرأة من أهالي لورد ادعت ذات يوم قبل حوالي تسعين عاماً أنها رأت في الغار بالقرب منها: مريم عليها السلام. وأعلمت الناس بذلك فهرع الناس أفواجاً إلى ذلك

(١) سورة الحشر. آية: ٧.

المحل يقدسونه ويتبركون به وهكذا في كل سنة، في يوم معين.

وإن قسماً من المسيحيين يعلقون مجسمات الحيوانات في رقابهم للحفظ!

* * *

وفي لندن توجد محلات خاصة بالفقراء: قذرة مملوءة بالأوساخ والذباب وأنواع الميكروبات والباعة ألبستهم قذرة وهم في فقر مدقع.

فانك لو ذهبت إلى حارة (كوي ليفربول) لشاهدت أزقة ضيقة، مملوءة بالأوساخ ومزدحمة بالسكان وهم بأشكال غريبة. وباعة السمك والمخضرات والفواكه جالسون بعضهم جنب بعض ينادون بأصوات مزعجة لجلب الناس إلى شراء بضائعهم وفيها النتنى، وهناك حمالون يحملون البضائع على رؤوسهم وظهورهم وعليها الذباب!.

وتجري في تلك الأزقة مياه نتنة[1] ملوثة بدم الخنزير والسمك وترى هناك أطفالاً مشردين متسكعين عراة، يجولون ها هنا وها هنا حرفتهم السرقة ونهب الجيوب.

وليس لأحد من الأجانب أن يصور هذا المنظر ويستعمل جهاز التصوير فان البوليس له بالمرصاد.

وهناك حارة أخرى في لندن تسمى (كونت كاردن) يباع فيها المخضرات والفواكه، فإذا دخلت فيها لشاهدت عدداً لا يستهان به من الحمالين بثياب رثة وسخة، كما أن هناك قرى أخرى أطراف لندن سكانها كسكان المغارات والحفر الجبلية.

ولقد قرأت قبل حوالي خمسة وعشرين عاماً مقالاً لعراقي كان قد ذهب إلى ألمانيا لينال درجة الدكتورا في الكيمياء. جاء فيه: انه اتفق أن قال لامرأة أنها ستلد ولداً بعد سنة، وشاء الله أن تلد هذه الامرأة ولداً فشاع الخبر وإذا بنساء كثيرات يراجعن هذا العراقي ليبشرهن بمولود، ويطلبن منه بعض الأدعية والطلاسم.

---

(١) مؤنث نتن: نتنى، وما تعارف عليه الناس نتنة.

فالمأمول من شبابنا أن لا ينظر إلى كل ما في الغرب نظرة تجليل وإكبار، فليس كل ما في الغرب كمالاً وجمالاً، أنهم ركزوا جهودهم نحو الحياة المادية وخـواص المادة واهملوا النـواحي النفسية ومـا يؤدي إلى سعادة النفس في النشأتين. وان المادية لتجتمع مع كل خرافة، والاسلام بعيد عن كل خرافة. لأنه آت من منبع صاف نمير. لا كدر فيه ولا انحراف. لذلك ينهي عن الظن ويأمر بالتدبر والتفكر: »أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها«[1].

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير. أفلا تتفكرون﴾[2].

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكـرون في خلق السمـاوات والأرض، ربنا مـا خلقت هذا بـاطلاً سبحـانك فقنـا عـذاب النار﴾[3].

﴿قل الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمـن لا يهدي إلا أن يُهدى. فما لكم كيف تحكمون. وما يتبع أكثرهم إلا ظناً، ان الظن لا يغني من الحق شيئاً، ان الله عليم بما يفعلون﴾[4].

﴿إن يتبعـون إلا الظن ومـا تهوى الأنفس، ولقـد جـاءهم من ربهم الهدى﴾[5].

فلا تكامل لهذا الانسان إلا بنبذ الـظنون البـاطلة والخرافـات المضلة وجاهلية القرن العشرين الملوثة بمادية عمياء وإتباع العقل المجرد عن الشهوات وتطبيق سنة سيد المرسلين وأولاده المعصومين عليه أفضل الصلاة والسلام.

إنتهى، والحمد لله، الجزء السادس، وسيليه، إن شاء الله تعالى، الجزء السابع.

---

(١) سورة محمد (ص): ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: ٥٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٩١.

(٤) سورة يونس: ٣٦.

(٥) سورة النجم: ٢٣.

فهرس الجزء السادس

الموضوع	الصفحة

التكامل في الإسلام

بقلم
أحمد أمين
خرّيج كليّة التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيّات العامّة والفيزياء الرياضيّة العالية

الجزء السابع

دار المعرفة
بيروت - لبنان

- بسم الله الرحمن الرحيم -

فبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق، ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته[1]، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه، ليعلم العبادُ ربهم إذ جهلوه، وليقرّوا به إذا جحدوه. وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته، وكيف محق من محق بالمثلات واحتصد من احتصد بالنقمات.

وأنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله!! وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق[2] منه إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤوٍ!! فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ومعهم. لأن الضلالة لا توافق الهدى وان اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه ولا يعرفون إلا خطه وزبره»[3]... الخ.

---

(١) من كلام لمولانا ومقتدانا علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام نهج البلاغة، الجزء الثاني، ص: ٤٠ - ٤١.

(٢) أنفق منه: أروج منه.

(٣) الزبر «بالفتح»: الكتب، مصدر كتب.

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا[1]

البروج تطلق على مجموعات النجوم وتكدساتها كما تبدو للناظرين من الأرض. أما السراج فهو الشمس التي نعيش في كنفها غير بعيد عنها نسبياً. وهي نجم هائل يزيد قطره على مليون وثلث مليون من الكيلومترات، أي أن قطر الشمس اكثر من قطر الأرض مائة مرة. والشمس كالسراج أو المصباح الذي يرسل نوراً وحرارة. ولكن يبلغ درجة حرارة جوها أو غازها الخارجي نحو ٦٠٠٠ درجة مئوية (سانتيكراد). وتزداد هذه الحرارة سريعاً بازدياد القرب من المركز حيث تصل إلى أكثر من ٢٠ مليون درجة مئوية. وذلك نظراً لما تعانيه مكوّنات المركز من ضغوط هائلة تفوق حدود الوصف والخيال وتتكرر معنى الشمس كسراج في قوله تعالى في سورة نوح: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾.

وتندلع من الشمس، لذلك، نافورات من غازات ملتهبة إلى ارتفاعات تقدّر بآلاف الكيلومترات، ومن هذه النافورات ما يعرف باسم البقع الشمسية، وهي أعاصير جبارة في جو الشمس، وقد يبلغ قطر الاعصار فيها نحو ٥٠ ألف كيلومتر. وفي العادة يتبع ظهورها انتشار أمواج من المغناطيسية والكهربائية في الفضاء لا تلبث أن يصحبها عواصف مغناطيسية على الأرض تفوق أعمال الراديو واللاسلكي عموماً.

---

(١) سورة الفرقان: ٦١

ويحتوي الاشعاع الشمسي قبل دخوله جو الأرض نسباً متباينة من الاشعاعات الأثيرية ذات الموجات المختلفة الأطوال أو الصفات إلا أنه يمكن حصر السواد الأعظم منها في حزمة تحدها موجتان هما نحو ٠,١٧ ميكرون ونحو ٤ ميكرون. والميكرون وحدة لقياس الأطوال الصغيرة وهي تساوي جزءاً من عشرة آلاف جزء من السانتيمتر الطولي المعروف أي $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$ من المتر.

وتقدر نسب الطاقة في طيف الشمس، أي مقدار ما يفد منها لكل ١٠٠ وحدة على النحو الآتي:

١ - حوالي ٩٪ أشعة فوق البنفسجية. وهي تكون حزمة تنحصر أطوال أمواجها ما بين ٠,١٧ ثم نحو ٠,٣٣ ميكرون. وهذه الأشعة التي لا تميزها الأعين لها تأثيرات عظمى على الخلايا الحية. ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[1].

٢ - حوالي ٥٠٪ أشعة مرئية (ضوء)... وهو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً. وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾[2].

والأشعة المرئية أو الضوء حزمة من الاشعاعات تكاد تنحصر أطوال أمواجها ما بين ٠,٣٤ ميكرون ونحو ٠,٨ ميكرون. هذه الحزمة التي تدركها الأعين هي مصدر النور في جو الأرض وعلى سطحها أثناء النهار. ولذلك فالشمس سراج ينير الأرض وجوَّها على حد تعبير الآية الكريمة. ويصل التنوير نهايته العظمى عند انتصاف النهار. وهو في فصل الصيف ضعف قيمته في فصل الشتاء. ولضوء الشمس اتصال وثيق جداً بنمو النباتات وترهيرها. إذ أن التزهير يتطلب قدراً معيناً من الاضاءة لا بد من توفره.

٣ - نحو ٤١٪ أشعة تحت الحمراء أو حرارية، وهي تكون حزمة طويلة تمتد أطوال أمواجها من نحو ٠,٨ ميكرون إلى أكثر من ٤ ميكرون.

---

(١) سورة الحاقة: ٣٨.

(٢) سورة يونس: ٥

وتبلغ كثافة الاشعاع الشمسي على السنتيمتر المربع الواحد خارج جو الأرض في المتوسط نحواً من سعرين حراريين في الدقيقة ويطلق على هذا المقدار من الحرارة اسم: (الثابت الشمسي)(١).

ويتناقص الاشعاع الشمسي بعض الشيء بدخوله جو الأرض لأسباب عديدة في جو الأرض نفسه، منها ظاهرة التشتت أو التناثر بجزيئات الهواء وما يعلق في الجو من جسيمات صغيرة. كما أن منها ظاهرة الامتصاص وخاصة بالأوكسيجين الذري في الطبقات العليا، ثم بواسطة غاز الأوزون على أبعاد تمتد من نحو ١٥ إلى ٤٥ كيلومتراً. ومن أهم ما يسبب تناقص الطاقة الشمسية في جو الأرض الانعكاس من السحب والرمال التي تثيرها البراكين والعواصف. فهي ترد إلى الفضاء جزءاً من الاشعاع الشمسي كل يوم.

وظاهرة التشتت أو التناثر كما قدمنا هي مصدر إنارة جو الأرض. أو ما نسميه ضوء النهار. ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، من آله غير الله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعون﴾(٢).

ولو أننا خرجنا من الجو إلى الفراغ أو الفضاء الكوني لوجدناه مظلماً رغم بزوغ الشمس وبروزها في أي ركن من أركان السماء! وكأنما سلخ النهار من الليل سلخاً وهكذا يخيم الأصيل وهو الظلام. أما النهار فهو طارىء، يتم حدوثه بتلك العملية، (أو تشتت ضوء الشمس) التي لا تجري إلا في جو الأرض وما على شاكلته من أجواء الكواكب، وهو قوله تعالى:

﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾(٣). ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور. ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾(٤).

---

(١) السعرة أو السعر الحراري هي: كمية من الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة غرام واحد من الماء درجة واحدة مئوية (سانتيكراد).

(٢) القصص: ٧١

(٣) سورة يس: ٣٧.

(٤) سورة الأنعام: ١.

فقدم سبحانه وتعالى: الظلمات، على النور. ويعلم من هنا أنه تعالى قد خلق النور بعد خلقه الظلمات.

* * *

قد استخرج (إسحق نيوتن) قبل أن نعرف المسافة إلى أي نجم بزمن بعيد، أن النجوم شموس بعيدة، ولكنها على مسافات سحيقة جداً بحيث ما كان يمكن رؤية سطوحها خاصة باستخدام تلسكوبات ذلك العصر. وحتى في عصرنا هذا لا يمكن رؤية سطوح النجوم، وان الشمس هي النجم الوحيد الذي يمكن أن نرى سطحه.

ويمكن الحصول على منظر الشمس أكثر قرباً بالنظر اليها خلال التلسكوب مع أخذ الاحتياطات الكافية لوقاية العينين، وإلا فمن الممكن فقد البصر كلية. وإن سطح الشمس بعيد كل البعد عن النعومة، بل انه مشقق إلى آلاف عديدة من الخلايا ويقول أغلب الفلكيين الآن ان تلك الخلايا المضيئة هي قمم لأعمدة غازية ساخنة تنتقل من الأعماق «الشمسية» إلى السطح بمعدل سريع، وتبدأ في الهبوط عندما تأخذ بالبرودة. ويكون تأثير البرودة هو أن تفقد لمعانها وتظهر مظلمة بالتباين مع الأعمدة الساخنة الصاعدة، ويبدو ان سطح الشمس على شكل مجموعة متناثرة من النافورات ذات البريق الآخذ بالابصار. تشغل كل منها مساحة قدرها ١٠٠ ألف ميل مربع. وتثير بعنف كل بضع دقائق.

وتحدث على سطح الشمس فورانات أعظم من السابقة وغالباً ما تغطى هذه الأوهاج أو البقع الساخنة عدة ملايين من الأميال المربعة من سطح الشمس.

والوهج شيء شبيه بما يمكن أن نظنه انفجاراً في خزان طاقة شمسية.

وما أشبه حالة الشمس وهي تتحول إلى طاقات هائلة مع انفجارات مدهشة إلى جهنم خلقها الله للعاصين من عباده حيث يقول: ﴿إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. إنطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغنى من

اللهب، إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر، ويل يومئذ للمكذبين﴾. (سورة المرسلات).

عندما يكون نشاط الشمس أكثر من المعتاد، ينهال على الأرض وابل من الجسيمات المشحونة البالغة الفتك بالحياة والتي يقينا الجو من خطرها[1]. ولكن خطورتها تصبح ذات أهمية خاصة بالنسبة للانسان المسافر خارج الأرض دون غطاء من الهواء يحميه.

ومعلوم أن الشمس تسطع وان توهجها يكافىء توهج ألف مليون مليون مليون مصباح كهربائي قدوته ١٠٠٠ وات. وتتدفق الطاقة من الشمس بمعدل يبلغ ٤ × ١٠^٣٣ ارك[2] في الثانية، ولقد ظلت تفيض بهذه الطاقة عدة ملايين وربما بلايين من السنين ويعتقد الفيزياويون ان الشمس سوف تواصل عملها هذا لفترة اخرى تساوي الفترة السابقة طولاً، إلا إذا شاء الله تبديل الشمس بشمس أخرى والسماوات بسماوات أخرى. على حد قوله تعالى:

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار﴾[3]. وهو القائل:

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[4].
﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن، فيكون﴾[5].

* * *

إن ضوء الشمس ضوء نجمي وتتدفق من بلايين النجوم الأخرى طاقة مماثلة بكميات قد تزيد أو تقل عن الطاقة الشمسية وفقاً لدرجات حرارة تلك النجوم وأحجامها. وتبعث تلك النجوم التي تحتل قمة سلم اللمعان طاقة بمعدل يفوق ما تبعث به الشمس آلاف المرات.

---

(١) ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ (سورة الأنبياء: ٣٢).
(٢) آرك: Erg= وحدة الطاقة.
(٣) سورة إبراهيم: ٤٨.
(٤) سورة القمر: ٥٠.
(٥) سورة يس: ٨٢.

لكن ما السبب في سطوع النجوم على الاطلاق وما مصدر طاقتها؟.

إننا نعلم من الفيزياء النووية ومن القنبلة الايدروجينية: أن تسخين الايدروجين إلى درجة حرارة عالية علواً كافياً تبلغ ١٥ مليون درجة حرارية مطلقة تحت ضغط متناه في العلو ينشأ عن تحول عنصري. إذ يتحول الايدروجين إلى الـ (هليوم). ولهذه العملية ناتج إضافي مهم جداً هو انطلاق كميات هائلة من الطاقة.

اننا إذا أردنا أن نحصل على كميات كبيرة من الطاقة بثمن بخس عن طريق تسخين الايدروجين، فعلينا أن نحصل على فرن وكمية كبيرة جداً من الايدروجين ثم نبدأ بالتشعيل، لكننا نجد أن الفرن يتبخر ويتلاشى قبل أن نصل إلى درجة الحرارة اللازمة التي تبلغ ١٠ أو ١٥ مليون درجة مطلقة، وتحل هذه المشكلة بصنع فرن كبير جداً وان نضع فيه كمية وفيرة جداً من الايدروجين بحيث إذا ذابت جدران الفرن فان الكتلة العظيمة من الايدروجين تبقى متماسكة مع بعضها بفعل جاذبيتها، وما النجم إلا فرن طاقة نووية ايدروجينية عظيم الكتلة بحيث أنه متماسك مع بعضه من تلقاء نفسه.

ومن المعلوم أن الطاقات متنوعة. طاقة كهربائية وطاقة ميكانيكية وطاقة حرارية، وقد توصل العلم قبل برهة من الزمن إلى تحويل الطاقة الكهربائية إلى طاقة ميكانيكية. وتحويل الطاقة الميكانيكية إلى طاقة حرارية وبالعكس بأي نسبة من النسب وإذا قمنا بإجراء عمليات حسابات مضبوطة لوجدنا أن كمية الطاقة التي بدأنا بها تظل ثابتة تماماً.

ثم جاء أينشتين وبرهن على أن قانون الكتلة والطاقة هما في الحقيقة قانون واحد. فالمادة والطاقة تتحولان إحداهما إلى الأخرى تحت ظروف فيزيائية ملائمة طبقاً لمعادلة اكتشفها أينشتين ($ط = ك س^٢$).

أي أن الطاقة المتحررة من تحطيم الذرة (ذرات الكتلة) تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة: ك.

س = سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية.

أو ٣٠٠٠٠٠ × ١٠٠٠ = ٣ × ١٠^٨ متر.

أو ٣ × ١٠^٨ × ١٠^٢ = ٣ × ١٠^١٠ سانتيمتر.

ومربع هذا المقدار = ٩ × ١٠^٢٠ سم/ثانية.

والضوء النجمي عبارة عن طاقة تتولد في بواطن النجوم بكميات هائلة جداً بحيث لا يمكن تفسيرها بالتفاعلات الكيميائية. إذ أن الضوء لو كان ناتجاً من انطلاق الطاقة في التفاعلات الكيميائية العادية لكانت النجوم قد أصبحت رماداً منذ زمن بعيد. وعلى ذلك فلا بد أن الطاقة النجمية ناتجة عن تحول كميات من مادة النجم ذاته إلى طاقة.

وإن الشمس تبعث في كل ثانية (كما قلنا) بطاقة قدرها ٤ × ١٠^٣٣ أرك: (Erg) ولكن كيف يتأتى أن نعرف ذلك. لقد عرف ذلك بقياس كمية الطاقة التي تتلقاها وحدة المساحات من سطح الأرض قياساً دقيقاً، ثم ضرب هذه القيمة في عدد وحدات المساحة التي تكون سطح كرة نصف قطرها وحدة فلكية واحدة[١].

وقد علم اعتماداً على دستور اكتشفه أينشتين: (الطاقة = مربع سرعة الضوء في الكتلة): أن أربعة ملايين ونصف مليون طن من كتلة الشمس تتحول إلى طاقة في الثانية الواحدة وتصل هذه القيمة إلى حوالي ١٥٠ مليون طن سنوياً. فلا بد أنها استهلكت ١٥٠ ألف مليون مليون مليون طن خلال فترة قدرها بليون سنة.

وبحساب قوة جذب الشمس للأرض نجد أن الشمس تمثل كتلة قدرها ٢ × ١٠^٣٣ غرام.

* * *

وزيادة في التوضيح نقول: إن استمرار وصول الطاقة الشمسية منذ ملايين السنين بدرجة معتدلة إلى الأرض يعزى إلى انحلال الذرة وانشقاق الذرة. ذلك: أن ذرة الراديوم تنحل. ومن بعض انتاجات انحلالها غاز

---

(١) الوحدة الفلكية هي متوسط بعد الأرض عن الشمس وتساوي ٩٣ مليون ميل تقريباً.

الهليوم. وهي تنحل فتشع فتخرج الطاقة، وقد استدلوا أنّ في الشمس مقداراً كبيراً من الراديوم. فاستدلوا على أن الشمس تتجدد طاقتها من انحلال الراديوم وحصول الهليوم نتيجة انحلاله.

ولانشقاق ذرة اليورنيوم وكذلك الايدروجين أثر فعال في حدوث طاقات هائلة.

فالشمس أتون من نار، يجري فيه مثل ما يجري في ملايين الملايين من قنابل ايدروجينية، يتحول فيها الايدروجين إلى هليوم وإلى عناصر أكثر تركيباً من الهليوم. فالايدروجين هي اللبنة التي بني منها الكون بأمر من الله تعالى جلت قدرته.

ولا شك أن الله جعل حياتنا متعلقة بحياة الشمس. فالحياة بحاجة إلى ماء والنبات بحاجة إلى ماء والحيوان بحاجة إلى الماء وكذلك الانسان، وماء البحر مالح والشمس هي التي تحيله باذن الله وعظيم تدبيره إلى ماء فرات فترشه على النبت مطراً أو تجريه في مسارب الأرض أنهاراً والدفؤ من الشمس، فاننا نحرق الخشب وما الخشب إلا خزائن الطاقة الشمسية، وحياة الدواب متوقفة على الشمس وكذلك النفط والبانزين فهي طاقات شمسية مدخرة بلطف من الله تعالى. كما أن الفحم طاقة شمسية مخزونة في أعماق الأرض.

فكل حيّ مصباح دافىء ينير، فإذا أطفِّئت الشمس انطفأت كل هذه المصابيح على الأرض ويسود الظلام ومن بعده البرد، برد فيه الهلاك والفناء لكل حي على وجه الأرض، وقد قال جل من قائل بالنسبة إلى أمارات يوم القيامة:

﴿إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سُيرت، وإذا العشار عطلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجرت[1]﴾.

---

(١) سورة التكوير: ١ ـ ٦. (كُورّت: ذهب نورها وانطفأت انكدرت: انقضت وتساقطت ـ العشار: النوق الحوامل ـ عطلت: تركت بلا راع ـ حشرت: جمعت بعد البعث ـ سجرت: أوقدت فصارت ناراً.

فالشمس، كما قلنا، كرة هائلة من غازات متقـدة متوهجـة إلى أبعد الحدود. قطرها (٨٦٥٣٨٠) ميلاً على وجه التقريب. ولو أننا صففنا على هذا القطر كرات أرضية، مثل كرتنا الأرضية، لبلغ عددها ١٠٩.

وقلنا أن درجة حرارة الشمس على سطحها ٦٠٠٠ درجة مئوية وأما درجة الحرارة في أوسط الكرة الشمسية تقدر بـ (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) درجة مئوية وان السانتيمتر المربع الواحد من سطح الشمس يشع فيعطي في الدقيقة الواحدة ٨٩٠٠٠ سعر حراري. وسطح الشمس كله يعمل في اشعاعه عمل (٥٨٠) ألف مليون مليون مليون حصان. ونصيب الأرض من هذا الاشعاع كله يبلغ نحواً من جزء من ٢٢٠٠ مليون جزء. ونصيب الميل المربع على سطح الأرض منه يعادل في المتوسط ٥ ملايين من الأحصنة: الأحصنة الميكانيكية: التي تتخذ وحدة للطاقة أو للقدرة.



وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً

قلنا سابقاً إن الله تعالى قد عبر عن الشمس بالسراج:

﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾(١).

﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾(٢).

﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾(٣).

ولا ريب أن نور الشمس أو بالأحرى ضياءه هو بعض إشعاعها وضوء الشمس أضوأ من القمر نصف مليون مرة، وان السانتيمتر المربع الواحد في سطح الشمس يعطي من الضوء ما يعادل (٥٠,٠٠٠) شمعة.

وضوء الشمس أبيض اللون، هكذا أثره في العين. ولكن لو أرسلنا شعاع الشمس إلى منشور ثلاثي من الزجاج انكسر الشعاع مرتين وتحلل إلى ألوان سبعة مختلفة، أي يدخل الشعاع إلى الزجاج من سطح ليخرج من سطح آخر من أسطحه الثلاثة. أنه لا يخرج أبيض كما دخل وإنما يخرج وقد تفرق إلى شعاعات كثيرة بألوان مختلفة: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر والأخضر والأزرق والنيليّ والبنفسجي. ولو أنك جمعت هذه الشعاعات السبعة الملونة مرة أخرى فخلطتها، لخرجت شعاعاً واحداً، وكان شعاعاً أبيض كالذي كان أول مرة.

وبهذا التحليل أمكن معرفة أمور كثيرة عن طبيعة منبع الضوء بدرس نوع

---

(١) سورة نوح: ١٦.

(٢) سورة الفرقان: ٦١.

(٣) سورة النبأ: ١٣.

الضوء الذي يشعه. وقد أدى ذلك إلى اختراع عناصر كيميائية جديدة ومعرفة معلومات قريبة عن الشمس وبقية الكواكب وأدى أيضاً إلى التحري عن الخواص المختلفة لأنواع الضوء المختلفة وتأثير بعض أنواع الضوء على صحتنا.

إن الضوء عندما يسير بين الشمس والأرض، أو بين أحد النجوم وبين أرضنا هذه، فأنه يسير بنفس السرعة. ولكن الضوء عندما يسير في وسط آخر، أي عندما يسير داخل الزجاج أو الماء أو المواد الشفافة الأخرى يسير بسرعات (سرع: سرعة) مختلفة مثلاً: ألضوء الأزرق يسير أبطأ من الضوء الأحمر.

وبما أن مقدار انكسار الضوء عند دخوله في المنشور الزجاجي أو خروجه منه يتوقف على مقدار التغيير في سرعة الضوء ينتج من ذلك أن الأنواع المختلفة للضوء تنكسر بمقادير مختلفة أيضاً في أية مادة شفافة. وعندما ينثني أو ينكسر الضوء مرتين في منشور ثلاثي فنشعر إذ ذاك بتفرق الأنواع المختلفة للضوء لاختلاف ألوانها. فيظهر لنا أن الانكسارات المختلفة للألوان السبعة من ضوء الشمس إنما هي لاختلاف سرعة كل من هذه الألوان الضوئية عند سيرها في وسط زجاجي أو وسط آخر.

فالشعاعات الحمراء تميل عن مجراها الأول، أي، عن مجرى الضوء الأبيض، قليلاً. والشعاعات البرتقالية التي تليها تميل عن ذلك المجرى الأول أكثر، لأن طول موجتها أصغر، والشعاعات الصفراء التي تليها تميل عن الشعاعات البرتقالية لأن موجتها أصغر منها، وتلي الشعاعات الصفراء: الخضراء. فالزرقاء فالنيلية فالبنفسجية.

سبعة ألوان تميزها العين فيما نرى من الطيف، تصغر موجاتها كلما ذهبنا من الطرف الأحمر من الطيف إلى الطرف البنفسجي منه.

وإن الأشعة التي يتركب منها شعاع الشمس ليست بسبعة، وإنما هي آلاف!! يندمج بعضها في بعض، ويتدرج بعضها إلى بعض في موجات تتراوح أطوالها ما بين ٧٠٠٠ إلى ٣٩٠٠ وحدة، لا سبيل إلى وصفها باللون.

وهذه الوحدة صغيرة جداً، إنها جزء من عشرة ملايين من أجزاء تقسم اليها المليمتر الواحد.

فأطول موجة تشعر بها العين هي موجة الضوء الأحمر، بينما أصغرها (من حيث رؤية العين) موجة الضوء البنفسجي.

ويظهر من الجدول الآتي الأطوال الموجية التقريبية والترددات لبعض الألوان (الأشعة) الطيفية.

	الموجة الطولية بالسانتيمترات	الترددات بمليون المليون من الأمواج في الثانية
الأحمر (أطول موجة تُرى)	٠,٠٠٠٠٧٦	٣٩٠
البرتقالي	٠,٠٠٠٠٦٢	٤٨٠
الأصفر	٠,٠٠٠٠٥٧	٥٣٠
الأزرق	٠,٠٠٠٠٤٧	٦٤٠
الأخضر	٠,٠٠٠٠٥٢	٥٨٠
البنفسجي (أقصر موجة ترى)	٠,٠٠٠٠٣٨	٧٩٠

ومعلوم أن السرعة (أو سرعة الموجة): تساوي طول الموجة في عدد الترددات في ثانية واحدة أي س = لا × ت.

والتردد عبارة عن عدد الهزات الكاملة التي يتمها جزء صغير من الوسط في الثانية الواحدة أو أنه عدد الموجات التي تمر في نقطة معينة في الثانية الواحدة.

* * *

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[1].

إن الله تبارك وتعالى يقسم بما خلق مما يمكن إبصاره وما لا يمكن إبصاره، وإن الانسان ما كان يعلم عن الأشياء المادية ما لا يمكن إبصاره، وهو موجود حقاً، فصار قسم من الشذاذ، ممن أظلمت نفوسهم بما اجترحت أيديهم من

(١) سورة الحاقة اية ٣٨ ـ ٣٩.

أنواع البغي والفسوق ينكر ما لا يمكن إبصاره بالعين المجردة ويـراه غير موجود. فترشحت من هذه النفوس الأثيمة بضلالها وغوايتها المسلك المادي الالحادي الزائف، الذي يفنده العلم الحديث.

ومن جملة ما لا يمكن إبصاره وهو موجود حقاً هي الأشعة التي تأتي في الطيف الشمسي بعد الأشعة البنفسجية، فهي مما لا تراه العين.

فهي شعاعات أصغر موجة، إنها الأشعة المعروفة بـ (فوق البنفسجية) = Ultra — Violet إنها الأشعة التي تؤثر في اللوح الفوتوغرافي العادي وتعطينا الصور الفوتوغرافية وبالفوتوغراف نحن نصورها.

وما وراء الأشعة فوق البنفسجية أشعة أخرى أصغر منها موجة. ومنها الأشعة السينية(R.X.) وهي التي تنفذ في الأجسام وتؤخذ بها صور من داخل أجسامنا. ونكشف بواسطتها العوارض والأمراض. وبعد الأشعة السينية تأتي أشعة كاما = جاما، تلك التي منها ما يبلغ جزءاً صغيراً من هذه الـوحدة المتناهية الصغر التي بها نقيس موجات الضوء، وهي الأشعة التي تخرج عند انفلاق الذرة فتضر بالناس ضرراً وأي ضرر. وقد تؤدي إلى الهلاك والبوار.

وهناك أيضاً أشعة هي وراء الأشعة الحمراء وأكبر منها موجة، وتعرف بأشعة ما تحت الأحمر. وليس من ذنبها أن العين لا تراها، فهي موجودة والعين محدودة القابلية والملكات. هي من القابليات بقدر ما أودع الله فيها، وبهذا استدل دكارتRené Descartes على وجود الباري جل جلاله. ذلك لأن الانسان لو كان صانعاً نفسه لما أودع فيها (في بدنه) من نقائص ولأعطاه قابلية فائقة، ذلك لأن الانسان يحمل فكرة الكمال والتكامل. فوجوده بهذا المقدار من القابليات، ووجوده مع هذه النقائص دليل على أن صانعه كامل، كامل على الاطلاق، وليس للانسان أي تصرف في صنع نفسه.

فهذه الأشعة: الأشعة ما تحت الأحمر هي الأشعة الحرارية (الحرارة) التي نحس بها أجمعين.

ومن بعد هذه الأشعة تأتي الأشعة اللاسلكية وطول موجتها قد يكون جزءاً من عشر من الميليمتر. وقد يبلغ أميالاً طوالاً.

فالطيف الشمسي يتألف من موجات مختلفة منها الأمواج الضوئية ومنها الأمواج الحرارية ومنها الأمواج السينية ومنها الأمواج الكاموية أو الجيمية ومنها الأمواج اللاسلكية وكلها شيء واحد في طبيعته. لا اختلاف فيما بينها إلا من حيث طول الموجة.

وكل هذه الأمواج مظهر من مظاهر الطاقة فالطاقة تتجلى بأشكال شتى ولكن في هذه الصور المختلفة من الطاقة تدرك الوحدة. هي بعض وحدة الكون: ـ فالضوء، والحرارة والأشعة السينية، واللاسلكية... الخ. كلها شيء واحد في طبيعته.

وهناك غاية أخرى من حديث الطيف الشمسي: هي أن نعلم ما في الشمس من عناصر... وان نعلم العناصر التي قد تكونت منها هذه النجوم. فما الكون إلا نجوم. ويفيدنا هذا البحث لايضاح الوحدة الكاملة الشاملة في هذا الكون: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1].

* * *

ويشاهد على سطح الشمس بقع سوداء ولكنها ليست سوداء، انها أقل توهجاً لأن درجة حرارتها أقل من أماكن أخرى على سطح الشمس، لهذا يظهر فيها إعتام بالنسبة لما حولها من إطار أنصع. ولعلها أعاصير تخرج بها الغازات من بطن الشمس فوارات.

وإن ظهور هذه البقع على وجه الشمس واختفاءها يؤثر على المجالات المغناطيسية في الأرض، وكذلك في اذاعاتها اللاسلكية وان هذه البقع تظهر دائماً على الشمس وتختفي دائماً، إنها تثور لتهدأ وتهدأ لتثور من جديد. وإن هذه البقع على وجه الشمس لدليل أن الشمس كرة غازية ملتهبة وهي في جيشان وثوران.

ويسمى سطح الشمس الخارجي بالغلاف الضوئي أو الطبقة المرئية، لأن من هذه الطبقة يخرج النور أو الضوء الينا. فنرى الشمس والطبقة المرئية طبقة

---

(١) سورة الملك: ٣.

رقيقة جداً، ذلك لأن قطر الشمس يساوي (٨٦٥٣٨٠) ميلاً[١] على وجه التقريب كما ذكرنا.

وبدراسة طيف الشمس نتعرف إلى العناصر التي أودعها الله تعالى في الشمس، وهكذا بدراسة طيف الأشعة الواردة الينا من بقية النجوم نتعرف إلى ما في سائر النجوم من عناصر. من معادن، وأشباه معادن، ولقد علم أن في جسم الشمس ٧٠ عنصراً تقريباً. ولعل هناك عناصر أخرى سوف يكشف لنا العلم الحديث. على أن عدد العناصر التي كشفت لحد الآن (١٠٢) عنصر[٢].

ففي الشمس توجد العناصر الآتية وهي التي موجودة في أرضنا هذه: الايدروجين، الهليوم، البورون: (على هيأة أوكسيد)، الكاربون، النتروجين: (الأزوت)، الأوكسجين، الفلور: (على هيأة فلوريد السيلسيوم)، الصوديوم، المغنسيوم، المنيوم، السيليسيوم، الفوسفور، الكبريت، البوتسيوم، الكلسيوم، الكروميوم، المانكانيز، الحديد، الكوبلت، النيكل، النحاس، الزنك، الرصاص، القصدير، الذهب، البلاتين، الفضة.

والكيماويون اليوم يستدلون في معاملهم بتحليل الطيف أو الأطياف على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر. فيتعرفون إلى نوعها ومقدارها وأكثر العناصر كثرة في الشمس: الايدروجين ومن بعده: الهليوم. وإلى الايدروجين تعزى حرارة الشمس العظيمة. وللايدروجين شأن عظيم في تفسير وحدة الكون.

ففي الشمس من العناصر ما نشاهده في الأرض، وفي النجوم من

---

(١) قد سئل علي عليه أفضل الصلاة والسلام عن قطر الشمس. فأجاب: ٩٠٠ في ٩٠٠ ميل. وبما أن الميل في صدر الاسلام كان يساوي ٤٠٠٠ ذراع من ذراع رجل متوسط القامة، فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالاينجات وحولنا الاينجات إلى أقدام، فياردات، فأميال، لكان الناتج ٨٦٥٣٨٠ ميلاً. وقد ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من التكامل.

(٢) ذكرنا ذلك في نهاية الجزء الثالث من كتاب (التكامل في الاسلام).

العناصر ما نراه في الأرض، وكل ذلك يدل على وحدة الكون وأن الصانع له واحد، عظيم، لا تتناهى عظمته، ولا تحد آفاق قدرته. والعناصر كلها ... من الكترون أو الكترونات تدور بسرعة فائقة حول البروتون أو البروتونات، فالكون كله، قوى كهربائية موجبة وسالبة، ذكر وأنثى. فالزوجية ضاربة بأطنابها في هذا الكون الرحيب مع وحدة الصنع لتنحصر الواحدانية في الله الذي جلت آلاؤه وتناهت ألطافه. وهو القائل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾(1).

﴿وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سماوات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر، هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾(2).

فبعظمة الكون، هذا الكون الذي لا يمكن أن يوصل إلى غوره بالفكر والخيال، هذا الكون الذي فيه من النجوم ما لا يصل شعاعها الينا إلا بعد عشرات الآلاف من الملايين من السنين الضوئية(3). هذا الكون اللانهائي الواسع الأرجاء، نتعرف إلى عظمة خالقنا، ونحن الأصغر غير المتناهي في الصغر بالنسبة إلى ما خلق الله من عوالم.

أفلا يستحي المادي الجاهل حين يتشدق ويقول أين الله؟ أنه مع اعترافه بضآلة نفسه بالنسبة إلى هذا العالم اللانهائي يريد أن يرى خالق اللانهائي وهو الله المتعال بعينه وهو لا يعلم من خواص العين ومعادلاتها إلا الشيء الضئيل، وذلك بعقل ليس من صنعه ولا تدبيره. وهو القائل:

﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾(4).

﴿ما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾(5).

---

(1) سورة الذاريات: ٤٩.

(2) سورة الملك: ٢ ـ ٤.

(3) السنة الضوئية = ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر تقريباً أي عشر مليون مليون كيلومتر.

(4) سورة العنكبوت: ٤٩.

(5) سورة لقمان: ٣١، ختار: غدار.

ـ الشكر ـ

الشكر صفة سامية رفيعة في النفس به تتجلى درجة صفائها وتقديرها لما يُملى عليها من لطف رباني وعطف صمداني.

الشكر معيار سمو النفس وعلوها، الشكر انجذاب من ناحية العبد إلى ساحة المعبود، وبالشكر ينال الانسان مزيداً من اللطف الآلهي وهو القائل:

﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

فمن لا شكر له لا سمو له وهو في أسفل السافلين، إنه بهيمة على شكل انسان، بهيمة تتقمص نفس الآدميين وهي ليست من الانسانية في شيء.

الشكر الحقيقي معيار كمال النفس وسموها ولا يقوى على الشكر الحقيقي إلا الأقلون. وهو القائل:

﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[1]. والايمان الحقيقي يتجلى في الشكر والصبر ولذلك جاء في الحديث: الايمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر».

ومن يقوى على أداء شكر نعم الله تعالى وهي التي لا تعد ولا تحصى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2] ذلك، لأن في البدن الانساني من حركات وتفاعلات لا تعد. وحياته مرتبطة بما لا يتناهى من حركات وتفاعلات ومفاعلات: في المنظومة الشمسية وفي عالم الجماد والنبات والحيوان، عدا ما في عالم النفس والعقل من قوى وطاقات وارتباط بعضها ببعض بدساتير وقوانين ومعادلات لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله.

---

(١) سورة النور: ١٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٤.

فإذا كانت النعم لا تُحصى، وهي غير متناهية. فكيف يؤدى حق غير المتناهي بالمتناهى وهو شكرنا. إلا أن الله لجليل لطفه وعظيم رحمته يتقبل منا هذا القليل من الشكر ويزيدنا تقرباً وكمالاً بمنه. وواضح أن نسبة المتناهي إلى غير المتناهي صفر: أي $\frac{ب}{\infty} = ٠$

فمهما بالغنا في الشكر فهو صفر بالنسبة إلى نعم الله غير المتناهية.

حقاً، ليس لأحد أن يبلغ مرتبة الشكر الحقيقي، ذلك، لأن نعم الله لا تعد ولا تحصى، وإن كلام مولانا زين العابدين عليه السلام، في هذا المقام، غاية الكلام. إنه يخاطب رب العباد فيقول: «فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلما قلت: لك الحمد، وَجَبَ عليّ، لذلك، أن أقول: لك الحمد». وهذا دليل على أن الشكر يتسلسل ولا حد له فلا يقوى الانسان على أدائه.

ويقول عليه السلام في مقام آخر: «آلهي وعزتك وجلالك وعظمتك، لو أني منذ بدعتَ فطرتي من أول الدهر عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين سرمدَ الأبد بحمد الخلائق وشكرهم أجمعين، لكنت مقصّراً في بلوغ شكر خفيَ نعمة من نعمك عليَّ، ولو أني كربت معادنَ حديد الدنيا بأنيابي وحرثت أرضها بأشفار عيني وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات والأرضين دماً وصديداً لكان ذلك قليلاً من كثير ما يجب من حقك عليّ، ولو أنك (إلهي) عَذبتني بعد ذلك بعذاب الخلائق أجمعين وعظمت للنار خلقي وجسمي وملأت طبقات جهنم مني حتى لا يكون في النار معذَّب غيري ولا يكون لجهنمَ حَطب سواي لكان ذلك بعدلك عليَّ قليلاً في كثير ما استوجبه من عقوبتك»...

* * *

وإن الحكمة الالهية تتجلى في شكر العبد لله تعالى، فكلما كان العبد أكثر شكراً لله تجلت له الحكمة الالهية في هذا الكون أكثر فأكثر.

﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله﴾[١].

---

(١) سورة لقمان: ١٢

فإن كانت المعارف الآلهية والحكمة الحقيقية تتجلى في شكر العبد، فكلما كان العبد أشكر لله تجلت لديه المعارف الآلهية والحكمة الحقيقية أكثر فأكثر.

وإن الفلسفة الحقيقية بالنسبة إلى الكون والحياة ووجود هذا الانسان لا تتجلى إلا بالشكر. وبالشكر تصفو النفس فتلهم من جانب الله الحقائق التي لا غبار عليها في فلسفة الوجود. وليس التعبد والتهجد والنوافل والأوراد والأذكار والأعمال الصالحة بجميع أنواعها إلا نوع شكرٍ لله تعالى، بها يكون العبد أعلى مرتبة من الملائكة.

ولقد جاء في الحديث: «عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء: كن، فيكون».

ويقول جلَ من قائل في حديث قدسي:

« ما يتقرب إليَّ عبدي بشيء أحبّ مما افترضته عليه. وإنه ليتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ أسمعه الذي يسمعُ به وبصره الذي يُبصر به ولسانه الذي ينطق به ويَده التي يبطش بها، وان دعاني أجبَته وإن سألني أعطيته».

وهكذا كانت تظهر الخوارق والمعاجز على يد الأنبياء ومن بعدهم الأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين. وكانت تظهر الكرامات عملاً بالحديث المتقدم على أيدي الأولياء والأبدال من عباد الله الصالحين.

فلا حكمة بلاّ شكر. وما يُبديه بعض فلاسفة الغرب، هؤلاء الذين جرّدوا من عوالم الشكر ومن أعمال صالحة يتحقق بها الشكر، من آراء وفلسفة، إنما هي فلسفة زائفة، مُضلِلَة، بشرية، حالكة، لا نور فيها ولا صفاء. إنها فلسفة ما أنزل الله بها من سلطان، إن هي إلا إملاء شيطاني يُمليه الشيطان على هذا الفرد من الناس باسم الفلسفة! لاغواء الناس.

فلا فلسفة بعد القرآن وأحاديث الرسول وأهل العصمة عليهم الصلاة والسلام. فلا بدَّ من نفس صافية، متفتحة، خاشعة لله، مصقولة بعبادات

وأعمال صالحات كي تميز بين الفلسفة الزائفة والفلسفة الحقة الناصعة أو الحكمة الآلهية التي نقرأها في هذه الآية الكريمة:

﴿ولقد أتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله﴾[1].

ثم إن الله تعالى يزيد في معرفة الانسان لهذا الكون وفلسفة الحياة كلما ازداد شكراً لله تعالى. وهو قوله جل من قائل: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾. فهذه الزيادة ليست في القسم المادي من الحياة فحسب، بل في المعارف الآلهية والوصول إلى حكمة الوجود.

فمن أراد الفلسفة الحقيقية، لا يجدها في مطالعة كتب الفلسفة من القرون الأولى إلى القرن المعاصر، بل يجدها في نفسه نتيجة عبادة خالصة، وتزكية للنفس وتحليتها بمكارم الأخلاق والقيام بصالح الأعمال لوجه الله المتعال.

نرى أن الفيلسوف في الغرب يظع نظرية مغلوطة فيبني عليها فلسفته ويُملي كتباً عدة تطبيقاً على تلك النظرية الخاطئة، فيتبعه كثير من الناس ممن هم على شاكلته من ظلمات في النفس وبُعد عن الله تعالى. انه يؤسس نظرية: «تأثير البيئة أو المحيط على التشكيلات الجسمية». . . وهي نظرية مغلوطة (ولا مؤثر إلا الله ولا مؤثر إلا بإذن الله». فيعمها على الأخلاق والدين والذكاء. . . الخ، فالأساس مغلوط والتعميم كذلك وهكذا.

* * *

ومن لم يتذوق معرفة الله بخشوع وخنوع وبكاء، جوفَ الليل وأطراف النهار، بكاء على ما سبق من ذنوب، بكاء فرح لهذا الاتصال اللاهوتي وهذا الحب الآلهي، لم يتذوق الحياة الحقيقية، ولم يعلم سر وجوده في هذه الفترة الزمنية من هذه الدنيا الموقتة، دار العمل والتهيؤ لآخرة سعيدة.

نعم، إن رجلاً كهذا قد جاء إلى هذه الدنيا وذهب كما تذهب البهائم.

---

(١) سورة لقمان: ١٢.

فالحياة الحقيقية تتجلى في هذا الخشوع والمثول بين يدي رب السماوات والأرض، لا سيما في وقت هدأت فيه الأصوات وهجعت العيون.

الانسان يعيش بقلبه، ومن لا قلب له لا حياة له، والقلب الذي لا يتوجه إلى خالقه هو كالحجارة لا نبض فيه ولا حياة، أنه قلب ميت، أنه قلب أعمى لا يبصر الحق ولا يراه.

﴿فانها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(١).

فالحياة الحقيقية تتجلى في تسبيحات هذا القلب الذي تعلق بخالقه واتصل بمعبوده اتصالاً وثيقاً جعله يذكر الله على الدوام، جعله يفرح بذكر الله تعالى إلى أبعد الحدود.

﴿يا أيها الذين آمنوا: أذكروا الله ذكراً كثيراً وسبِّحوه بكرة وأصيلا﴾(٢).

والميزة الفارقة بين الحياة في الغرب والحياة عند المسلمين، أن الغربيين لا يذكرون الله تعالى في تعارفاتهم ومكالماتهم، بينما المسلمون لا يفترون عن ذكر الله، في تحياتهم وسلامهم وتعارفاتهم وحوارهم، بقولهم: السلام عليكم ورحمة الله، عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يرحمكم الله، أثابكم الله، الحمد لله، الشكر لله، إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون... الخ.

من هنا يعلم أن الصفة الغالبة عند الغربيين هي الصفة المادية والتمسك بالمادة الصماء، العمياء إلى أبعد الحدود. وهذا اللجوء إلى المادة إنما جاء من جراء الفسوق والآثام، من جراء ترك ذكر الله في حياتهم العملية، فالتعلق بالمادة منذ القدم متأصل عند الغربيين. وهذه الفلسفة المادية كانت سبباً لأنواع الفحشاء والمنكرات وهذه بدورها أولدت فلسفات زائفة، باطلة،

---

(١) سورة الحج: ٤٦.
(٢) الأحزاب: ٤١.

كالفلسفة الحسية، والمادية، والماركسية، والوجودية، إلى ما هنالك. . . فكل إناء بالذي فيه ينضح!.

* * *

وكل عمل عبادي يقوم به المسلم إنما هو لأداء واجب الشكر تجاه بعض نِعم الخالق جلّ جلاله:

فالصلاة من أهم أنواع الشكر، لما فيها من حركات تدل على خشوع العبد نحو خالقه.

والصوم شكر لما تفضّل الله على هذا الانسان خلال السنة، من عظيم النِعم عدا ما فيه من فوائد بدنية وروحية.

والزكاة شكر لما تفضل الله به على هذا العبد من مال يربو على حاجته وكذلك الخمس.

والحج نوع شكر لما منّ الله به على هذا الانسان من استغنائه عما في أيدي الناس ومنحه الاستطاعة، ليقفَ تلك المواقف القدسية، لينال الزلفى من مقامات القدس ويتطهر من ذنوبه كلها أو بعضها بمقدار ما فيه من توجه وإقبال.

ولكل عضو من أعضاء هذا البدن شكر يتناسب مع ذلك العضو. فشكر العين أن تمنعها من النظر إلى ما حرَم الله، «فالأولى لك والثانية عليك» على ما جاء في الحديث. وشكرها: أن تتلو القرآن بإمعان وتناجي ربَّك بالأدعية الواردة عن الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم الصلاة والسلام بخشوع وخضوع وبكاء، بقلب متصل بمقامات القدس.

وشكر اليد أن تمسح بها على رأس اليتيم وتقوم بها بأعمال خيرية لوجه الله وأن تخدم الدين كتابة وتساعد الفقراء بها إلى أبعد الحدود.

وشكر الرجلين أن تذهب بهما إلى المشاهد المتبركة وإلى المساجد للتقرب إلى الله تعالى، تذهب بهما لقضاء حوائج الناس ودفع المكروه

عنهم. وقد أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام بهذه الوصية:

«سِرْ ميلاً عُدْ مريضاً، سِرْ ميلين شيع جنازة، سِر ثلاثة أميال أجب دعوة، سِر أربعة أميال زُرْ أخاً في الله. سِرْ خمسة أميال أجِب دعوة الملهوف، سِرْ ستة أميال أُنصر المظلوم وعليك بالاستغفار».

وشكر الأذن أن تسمع بها تلاوة القرآن الكريم، فيخشع قلبك فتتصل بسماع هذا الصوت اللاهوتي بمقامات القدس ويعرج بقلبك إلى الملكوت الأعلى حيث الصفاء المحض والطمأنينة التامة: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(1)، وشكرها أيضاً: أن تمنعها سماعَ ما حرَم الله من الأغاني التي تلوث النفس وتُبعدها عن عوالم القدس وترجع بها إلى جاهلية جهلاء، وتمنعها أيضاً من استماع الغيبة والنميمة.

وشكر اللسان أن تتلو القرآن والأدعية المقربة إلى الله، وتهدي الآخرين إلى الاسلام العظيم وترشدهم إلى الصراط المستقيم، شكر اللسان: أن تمنعه من الغيبة وهتك أعراض الناس، وفي الحديث: «إيّاكم والغيبة، فأنها أشد من الزنا، لأن الرجل يزني فيتوب. فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له إلا إذا غفرها صاحبها».

وقال (ص): مررتُ ليلة أسري بي إلى السماء على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فسألت جبرائيل عنهم، فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس.

والحاضر للغيبة ولم ينكرها شريك فيها، ومن أنكرها كان مغفوراً له، وقد قال رسول الله (ص): «من ردّ عن عرض أخيه كان حقاً على الله أن يعتقه من النار».

* * *

وأما طرق تحصيل الشكر فيتلخص فيما يلي:

---

(1) سورة الرعد: ٣٠.

١ ـ التفكر في عظيم نِعم الله التي لا تعد ولا تحصى، فكل ما خلق الله من كواكب لا تعد ومجرات لا تحصى من الـذرة إلى الكرات العظام لها أثرها في حياتنا وهي أجلّ من أن تحصى. فكتب الفيزياء والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الأرض والهيأة والمكـانيك السمـاوي والأرضي وعلم الفلك اللاسلكي وغيرها وما أودع الله فيهـا من معادلات ودسـاتير وقوانين وخواص كل أولئك لها تأثيرها في حياة هذا الانسان وفي الروح وفيما لا يرى من قوى وطاقات، وهو القائل: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾.

٢ ـ أن ينظر الانسان إلى مَن هو دونه في مُتع الدنيا من حيث المال والأثاث والمسكن والمأكل والمشرب. . . الخ. وان ينظر إلى مَن هو أعلى منه في الدين، وفي عوالم التقوى والورع والعبادة.

٣ ـ الذهاب إلى المقابر والتدبر في لسان حال الموتى، حيث يتحسرون للرجوع إلى الدنيا للعمل جلباً لمرضاة الله وملافاة لما قاموا به من تضييع أوامر الله وعدم إطاعته عندما كانوا أحياء، فيبادروا إلى مزيد الشكر فيما بقي من العمر.

٤ ـ أن يتذكر الانسان بعض ما أصيب من بلايا وأمراض مستعصية كادت أن تودي بحياته، فأنجاه الله تعالى منها، ويحسب أنه بُعث من جـديد وأعطي حياة جديدة، فيشكر الله تعالى على ذلك، فيبادر إلى العمل الصالح والشكر الكثير.

٥ ـ أن يشكر الله في كل بلية أو مصيبة أصيب بها في الدنيا، ذلك، لأن الله كان باستطاعته أن يبتليه بأشد منها وأنه لم تصبه مصيبة في الدين. فقد قال عيسى عليه السلام: «اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني»[1].

وقال رجل لبعض العرفاء: «دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي». فقال له: أشكر الله، لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك، ويفسد توحيدك ماذا كنت تصنع؟.

---

(١) جامع السعادات: ج: ٣، ص/٢٧٠.

ولا رَيبَ أن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب سابق، فإذا أصيب بهذه المصيبة أمِن من عذاب الآخرة، فقد قال رسول الله (ص): «إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكرم مِن أن يعذبه ثانياً». وبهذا المضمون أحاديث كثيرة عن الأئمة المعصومين عليهم الصلاة والسلام. فليشكر العبد على تعجيل العقوبة وعدم إرجائها إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولا شك أن من تواردت عليه النعم في الدنيا على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء أو مصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والركون اليها والأنس بها، فيعظم بلاؤه عند الموت ويصعب عليه مفارقة هذه الدنيا، ولكن لو تواردت عليه المصائب اشمئزت نفسه عن الدنيا ولم يركن اليها وسهل عليه مفارقة الدنيا وزينتها، فقد قال رسول الله (ص): الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

فمصائب الدنيا مطهرات لهذه النفوس وموجهة إياها إلى عالم الخلود، إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر. فعلينا أن نشكر الله تعالى على ما أصابنا من بلايا ومحن، تزكو بها النفس فتذهب إلى عالم سرمدي طاهرة مطهرة نقية زكية، كما أنه من الواجب علينا أن نصبر على ما ينتابنا من مصائب، فكل بلية بحاجة إلى صبر وشكر في نفس الوقت، صبر لنيل الأجر وشكر على التطهر من الذنوب والآثام، من الرجس والأدران.

ولا بأس بذكر هاتين الواقعتين لنعلم كيف أن الشيطان لهذا الانسان بالمرصاد إلى آخر لحظة من حياته، يغويه ويغريه.

يقال: إن رجلاً قد حضرته الوفاة، وكان معروفاً بالتقى والصلاح، فلقن الشهادتين وإذا به يبصق ولا يقوَى على أدائهما. ثم أن الله أراد به الرجوع إلى الدنيا، فصحا وعادت إليه نفسه، وسئل لِمَ أبيت التلفظ بالشهادتين؟ قال: قد بلغ بي العطش إلى حد لا يوصف، فتمثل لي رجل وبيده قدح فيه ماء بارد نمير، فقال: لا تقل بالشهادتين لأرْويك من هذا الماء البارد. فأني صرت أبصق في القدح لئلا أستسيغ الماء. وقد مَنّ الله عليّ أن أنجاني من الشيطان وكيده.

وإن رجلاً آخر قد حضرته الوفاة، لُقن الشهادتين فصار ينظر إلى زاوية من الغرفة بالقرب من السقف، ولا يكرر الشهادتين! فتعجب الحاضرون من أمره، ولكن الله تعالى أراد به أن لا يموت دون الاقرار بالشهادتين، فعادت اليه نفسه وسئل عن عدم إقراره بالشهادتين فقال: كان لي إناء مرصع في الرف بالقرب من السقف، ورأيت شخصاً رافعاً الاناء ويقول لو أقررت بالشهادتين لأكسرنَّ هذا الاناء. فاني حرصاً على سلامة الانـاء لم أقلْ بالشهادتين!.

* * *

ثم ان الله تعالى، لما للشكر من أهمية بالغة، قرن الشكر بالذكر في كتابه المجيد بقوله جل من قائل: ﴿فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون﴾[1]، فالله تعالى جلّ أن يعذبنا إن شكرنا وآمنا. وهو القائل: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾[2]. فطوبى للمؤمنين الشاكرين فهم إلى روح وريحان.

وفي الكافي[3] عن الصادق عليه السلام: «الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر لـه من الأجر كـأجر المبتلى الصابر، والمعطي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع».

وبهذا الاسناد قال رسول الله (ص): «ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة».

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مكتوب في التوراة: أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فأنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كُفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير».

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: كان رسول الله (ص) عند عائشة

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

(٢) النساء: ١٤٦.

(٣) أصول الكافي: ج ٢/٩٥.

ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لِمَ تتعب نفسك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً. قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله، يقوم على أطراف رجليه، فأنزل الله سبحانه وتعالى: طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.

وعن عبيد الله بن الوليد قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: ثلاث لا يضر معهن شيء، الدعاء عند الكرب والاستغفار عند الذنب والشكر عند النعمة.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتم كلامه حتى يأمر له بالمزيد.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: شكر النعم اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين.

عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله (ع): هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم. قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حق أدّاه ومنه قوله عز وجل: ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾[2]. وقوله: ﴿ربِّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[3].

وعن أبي الحسن صلوات الله عليه: من حمد الله على النعمة فقد شكره وكان الحمد أفضل من تلك النعمة[4].

وعن أبي عبد الله (ص) قال: من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه. فقد أدى شكرها.

---

(١) سورة الزخرف: ٣٣.

(٢) المؤمنون: ٢٩.

(٣) سورة أسرى: ٨٠.

(٤) فتوفيق الحمد من أكبر النعم.

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (ع): إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء، فيوجب الله له بها الجنة، ثم قال: أنه ليأخذ الاناء فيضعه على فيه، فيسمي ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله فيوجب الله عز وجل بها له الجنة».

عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله (ع): إني سألت الله عز وجل أن يرزقني مالاً فرزقني، وإني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ولداً وسألته أن يرزقني داراً فرزقني وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً[1]. فقال: أما والله، مع الحمد، فلا.

وعن مثنى الحناط، عن أبي عبد الله (ع) قال: كان رسول الله (ص) إذا ورد عليه أمر يسره. قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتم به، قال: الحمد لله على كل حال».

عن حماد بن عثمان قال: خرج أبو عبد الله (ع) من المسجد، وقد ضاعت دابته، فقال: لئن ردها الله عليّ لأشكرنَّ الله حق شكره. قال: فما لبث أن أُتي بها. فقال: الحمد لله، فقال له قائل: جعلت فداك، أليس قلت: لأشكرنَّ الله حقَّ شكره، فقال أبو عبد الله (ع): ألم تسمعني قلت الحمد لله.

وعن أبي بصير عن أبي جعفر (ع) قال: تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المبتلي من غير أن تسمعه: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ولو شاء فعل، قال: من قال ذلك، لم يصبه ذلك البلاء أبداً.

وعن أبي عبد الله (ع)، قال: ما مِن عبد يرى مبتلي فيقول: الحمد لله الذي عدل عني ما ابتلاك به وفضلني عليك بالعافية، اللهم عافِني مما ابتليته به، إلا لم يُبتَلَ بذلك البلاء.

---

(١) في القاموس: استدرجه: خدعه. واستدراجه تعالى العبد: أنه كلما جدّد خطيئة جدّد له نعمة وأنساه الاستغفار.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا رأيت الرجل وقد ابتلي وأنعم الله عليك، فقل: أللهم أني لا أسخر ولا أفخر، ولكن أحمدك على عظيم نعمائك علي.

وقال رسول الله (ص): إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم فان ذلك يحزنهم.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: إن رسول الله (ص) كان في سفر يسير على ناقة له، إذ نزل فسجد خمس سجدات فلما أن ركب قالوا يا رسول الله، إنا رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه، فقال: نعم، استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشرني ببشارات من الله عز وجل، فسجدت لله شكراً، لكل بشرى سجدة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: إذا ذكر أحدكم نعمة الله عز وجل فليضع خده على التراب، شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل فليضع خده على التراب وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة، فليضع خده على قربوسه وإن لم يقدر فليضع خده على كفه. ثم ليحمد الله على ما أنعم الله عليه.

عن هشام بن أحمر قال: كنت أسير مع أبي الحسن (ع) في بعض أطراف المدينة، إذ ثنى رجليه عن دابته، فخرَّ ساجداً، فأطال وأطال، ثم رفع رأسه وركب دابته، فقلت: جعلت فداك، قد أطلت السجود، فقال: أنني ذكرت نعمة أنعم الله بها علي، فأحببت أن أشكر ربي.

عن أبي عبد الله (ع) قال: فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى، أشكرني حقَّ شكري، فقال: يا ربِّ، وكيف أشكرك حق شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به عليّ، قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني.

عن إسماعيل بن الفضل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: أللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا فمنك وحدك، لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها عليّ يا رب حتى ترضى، وبعد الرضا، فأنك إذا قلت ذلك كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة، وعن أبي عبد الله عليه

السلام، قال: كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح، فسمِّي بذلك: عبداً شكوراً، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من صدق الله نجا.

وعن عمار الدهني، قال: سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إن الله يحب كل قلب حزين ويحب كل عبد شكور. يقول الله تبارك وتعالى، لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً. فيقول: بل شكرتُك يا ربِّ. فيقول: «لم تشكرني إذ لم تشكره». ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس.

وقد قال رسول الله (ص): «إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر». [الوبد: سوء الحال، المتوبد: الشديد الاصابة بالعين].

وقال (ص): ينادي منادٍ يوم القيامة: ليقوم الحمادون، فيقوم زمرة، فينصب لهم لواء، فيدخلون الجنة، فقيل: من الحمادون؟ فقال: الذين يشكرون الله على كل حال».

* * *

ولا مراء أن الشكر من أفضل الأعمال وهو ينتظم من علم وحال وعمل[1]. فالعلم هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العمل والعلم هو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بانعامه تعالى، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان.

وعلى من يريد الشكر أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى، والوسائط في إيصال النعمة اليه إنما هم مسخرون من جانب الله، فألقى الله تعالى في قلوبهم من الرأفة والرحم حتى صاروا مضطرين إلى إيصال النعمة إليه، وهذا شكر بالقلب.

وأما الفرح بالنعم مع هيأة الخضوع والتواضع فهو أيضاً في نفسه شكر على حدة. كما أن المعرفة شكر. فان كان فرحك من حيث أنك تقدر النعمة على التوصل إلى القرب من المنعم فهو المرتبة العليا من الشكر. وعلامة ذلك:

(١) الأخلاق: للعلامة الحجة: السيد عبد الله شبر. ص/٢٣٨.

أن لا تفرح بنعم الدنيا، إلا من حيث أنها مزرعة الآخرة ومعينة عليها وتفرح بهذا المقدار وتحزن بكل نعمة تلهيك عن ذكر الله، وهذا أيضاً شكر بالقلب.

وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. فهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح.

أما بالقلب: فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق.

وأما باللسان فبإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه، واما بالجوارح: فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن شكر العينين أن يستر كل عيب يراه بمسلم (كما قلنا)، وشكر الأذنين أن يستر كل عيب يسمعه لمسلم.

بَل قال أرباب المعرفة: ان من كفر نعمة العين، فقد كفر نعمة الشمس أيضاً، إذ الابصار إنما يتم بها، وإنما خُلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما، بل المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرورها، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأعضاء، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر بنعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية، ولذا كان الشاكر الحقيقي قليلاً. قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[1] كما ذكرنا سابقاً.

ولا شك أن فائدة الشكر تعود إلى الانسان نفسه والله هو الموفق للشكر، وهو المعطي من الملكات والجوارح لأداء هذا الشكر، فأنى لهذا الانسان أن يقوم بواجب الشكر، وأنى له أن يشكر نعمته بنعمته. فلا يمكن شكر الشكر

(١) الأخلاق: للعلامة الحجة: السيد عبد الله شبر. ص/٢٣٩.

إلا بنعمة أخرى وفي حديث آخر يخاطب الله موسى (ع): وشكري لك نعمة أخرى منك توجب الشكر لك، فقال تعالى: إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكراً».

وعن السجاد عليه السلام: أنه كان إذا قرأ هذه الآية: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، قال: سبحان مَن لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه اكثر من العلم بأنه لا يدركه.

فالشكر مركب من علم وعمل فأما العلم أن يعـرف الله ويتفكر في مصنوعاته وينظر إلى من هو أدنى منه في أمور الدنيا فيشكر الله على ما هو فيه وينظر إلى من هو أعلى منه في الدين فيجتهد للوصول إلى مرتبته. ويشكر الله تعالى في المصائب على أنه لم يصب بأكبر منها وان ما أصيب به لم تكن مصيبته دينية بل كانت مصيبته دنيوية وانه قد عجلت عقوبتها ولم تدخر للآخرة ويعلم أن ثواب هذه المصيبة الدنيوية خير له وأنها تنقص من قلبه حب الدنيا بل ربما بغضت الدنيا في نظره، ذلك لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فالمصائب هي نعم توجب الشكر ولا ريب أنه لا تخلو مصيبته عن تكفير خطيئته أو رياضة نفس أو رفع درجة.

وعلى الانسان أن يسأل الله تعالى العافية، فالعافية خير من البلاء. فكان النبي والأئمة عليهم السلام يستعيذون بالله من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكانوا يقولون: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء ومن سوء القضاء ومن حلول البلاء. قال رسول الله (ص): «سلوا الله العافية، فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقـين». وأشار باليقين إلى عافية القلب من مرض الجهل[1].

* * *

ويجدر بالانسان الشاكر أن يقرأ ما جاء في مناجاة الشاكرين من كلام لعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

---

(١) الأخلاق: للعلامة المرحوم السيد عبد الله شبر.

ـ مناجاة الشاكرين

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ

آلهي اليك اشكو نفساً بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الأمل، إن مسَّها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني بالتوبة. آلهي اشكو اليك عدواً يضلني وشيطاناً يغويني. قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، ويزين لي حب الدنيا، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى. آلهي اليك أشكو قلباً قاسياً مع الوسواس متقلباً وبالرين والطبع متلبساً وعيناً عن البكاء من خوفك جامدة، وإلى ما تسرها طامحة.

آلهي لا حول لي ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك، فأسألك ببلاغة حكمتك، ونفاذ مشيئتك أن لا تجعلني لغير جودك متعرضاً ولا تصيرني للفتن غرضاً، وكن لي على الأعداء ناصراً وعلى المخازي والعيوب ساتراً ومن البلاء واقياً، وعن المعاصي عاصماً، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

ـ الشكر عند الأكل والشرب ـ

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، إذا مددت يدك إلى الأكل فقلْ: «بسم الله والحمد لله رب العالمين» ويستحب أن تقول ذلك على كل إناء على المائدة وإن اتحدت أنواع الطعام ومن نسي التسمية على كل لون، فليقل:

«بسم الله على أوله وآخره»

ومما ينبغي أن يقال عند الشروع في الأكل[1]:

الحمد لله الذي يُطعم ولا يطعمَ ويجير ولا يُجار عليه، ويَستغني ويُفتقر اليه. (أللهم) لك الحمد على ما رزقتنا من طعام وأدام في يسر وعافية من غير كد منا ولا مشقة. بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء. وهو السميع العليم. (أللهم) أسعدني في مطعمي هذا بخيره وأعِذني من شرَه، وأمتعني بنفعه وسلمني من ضرَه.

وأن يقول بعد الفراغ من الأكل على ما روي عن الصادق عليه السلام:

«الحمد لله الذي أطعمنا في جائعين وسقانا في ظامئين، وكسانا في عارين وهدانا في ضالين وحملنا في راجلين، وآوانا في ضاحين وأخدمنا في عانين وفضَلنا على كثير من العالمين».

ويستحب أن يقول عند شرب الماء:

«الحمد لله منزل الماء من السماء، ومصرف الأمر كيف يشاء، بسم الله خير الأسماء».

ويقول بعد شربه:

«الحمد لله الذي سقاني ماءاً عذباً ولم يجعله مِلحاً إجاجاً بذنوبي. (الحمد لله) الذي سقاني فأرواني وأعطاني فأرضاني وكافأني وعافاني وكفاني. (أللهم) اجعلني ممن تسقيه في المعاد من حوض محمد صلى الله عليه وآله وتسعده بمرافقته برحمتك يا أرحم الراحمين».

ـ سجود الشكر ـ

يستحب السجود للشكر لتجدد كل نعمة أو دفع نقمة أو تذكّرهما مما

---

(١) مفتاح الفلاح: ص/١٣٣.

كان سابقاً أو للتوفيق لأداء فريضة أو نافلة، فيسجد عقيبهما، والأولى كونه آخر التعقيب، ويجوز فعله أثناء التعقيب، ويجوز القيام بسجدة الشكر بعد الصلاة بلا فصل.

ويستحب السجود للشكر لفعل خير ولو مثل الصلح بين اثنين.

ويكفي في سجود الشكر: مجرد وضع الجبهة مع النيّة، ويلزم إباحة المكان.

ولا يشترط في سجود الشكر: الذكر. لكنه يستحب أن يقول ثلاث مرات: «شكراً لله». ويستحب الزيادة بغير تحديد أو يقول: «شكراً شكراً» ١٠٠ مرة و«عفواً عفواً» ١٠٠ مرة.

يجوز الاقتصار على سجدة واحدة، ويستحب أن يسجد مرتين، ويتحقق التعدد بالفصل بين السجدتين بتعفير الخدين أو هما مع الجبينين مقدماً الخدَّ الأيمن على الأيسر ثم وضع الجبهة ثانياً.

والأحوط وضع الجبهة في سجدة الشكر على ما يصح السجود عليه ووضع سائر المساجد على الأرض ولا بأس بالتكبير قبلها وبعدها لا بقصد الخصوصية.

إذا حصل سبب لسجود الشكر وكان له مانع من السجود على الأرض فليوم برأسه ويضع خدّه على كفّه، وإن كان راكباً فليضع خدّه على قربوس السرج، فان لم يقدر فعلى كفه.

ويظهر من بعض الأخبار تحقق سجود الشكر بوضع الخد فقط بدون الجبهة.

ـ السجود تعظيماً وتذللاً لله ـ

يستحب السجود بقصد التذلل والتعظيم لله تعالى بل السجود لله راجح في نفسه وعبادة من أعظم العبادات وآكدها. وما من عمل أشد على إبليس

من أن يرى ابن آدم ساجداً. لأنه أمر بالسجود فعصى، وهذا أمر به فأطاع ونجا. وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد.

يستحب إطالة السجود، فإن إطالته من سنن الأوابين. ويحرم السجود لغير الله.

ـ صلاة الشكر ـ

ومن الصلوات المستحبة صلاة الشكر لله تعالى عند تجدد النعم ودفع النقم وبعد قضاء الحوائج وهي ركعتان والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة الاخلاص: (سورة قل هو الله أحد) وفي الركعة الثانية بعد الحمد سورة الجحد (سورة قل يا أيها الكافرون)، ويقول في ركوع الركعة الأولى وسجودها: «الحمد لله شكراً شكراً وحمداً حمداً» سبع مرات. وأن يقول في ركوع الركعة الثانية وسجودها: «الحمد لله الذي استجاب دعائي وأعطاني مسألتي».

ـ نموذج من نماذج الشكر ـ

وإذا أردت أن تعلم في أي مرتبة أنت من مراتب الشكر فاقرأ ما يلي:

سأل داود النبي الله تعالى عن قرينه في الجنة، فأوحى الله إليه أنه: متَى أبو يونس. فجاء مع سليمان لزيارته، فرأياه إذ أقبل، وعلى رأسه وقر من حطب. فباعه واشترى طعاماً، ثم طحنه وعجنه وخبزه، فأخذ لقمة وقال: بسم الله. فلما ازدردها قال: الحمد لله، ثم فعل ذلك بأخرى وأخرى. ثم، شرب الماء فذكر اسم الله. فلما وضعه، قال: الحمد لله: يا ربِّ، مَن ذا الذي أنعمتَ عليه وأولَيته مثلَ ما أوليتني، قد صحّحت بصري وسمعي وبدني وقوّيتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولم أهتم لحفظه، جعلته لي رزقاً وسُقتَ إليَّ مَن اشتراه مني، فاشتريتُ بثمنه طعاماً لم أزرعه وسخّرت لي النار فأنضجته وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك، فلك الحمد، ثم بكى.

قال داود، يا بنيَّ، قم، فانصرف بنا، فاني لم أرَ عبداً قط أشكر لله من هذا.

* * *

وختاماً يستشعر الانسان عندما يقرأ آداب الشكر في الاسلام ويعمل بها، كيف أن العبد يتقرّب بالشكر إلى الله المتعال، وكيف يتحبّب إليه تعالى وينغمر في حبه وكيف ترتفع نفسه بهذا الشكر إلى الملكوت الأعلى فتتجلّى له حقائق الكون والملكوت وكيف يبلغ مرتبة قاصيةً من التقرب اليه تعالى حتى يكون كأنه يرى الله علانية، وهو أجل من أن يرى[1]، ويرى نفسه إذ ذاك ذائبة في حبّ الله، منغمرة في عوالم القدس فرِحةً فرحاً لا تضاهيه أفراح هذه الدنيا الدنية، مسرورة سروراً لا يشبه المسرات المادية في شيء. بعيداً عن حدود الوصف والبيان، فيا لها من نعمة عظمى، لا تضاهيها أية نعمة!.

إن رجلاً هذه صفته وتلك ملكاته يعلم بل يوقن ـ بعد قطعه هذه المراحل القدسية ـ أن دين الاسلام هو دين الله في أرضه دين أنزله الله رحمةً للعالمين على لسان نبيه نبي الرحمة سيد الرسل وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وإن ما عداه من الأديان الباقية على وجه البسيطة زائف منحرف لا روح فيه ولا صفاء.

---

(١) يقول علي (ع): «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان».

[سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق]

«قرآن كريم»

الأسماء المباركة

التي توسل بها نوح (ع)

ترجم عن الأوردو

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

(القرآن الكريم)[1]

إن لمحمد (ص) ولأهل بيته (ع) مكانة عند الله تعالى لم يتوصل اليها أحد، ولم يعرف قدرها إلا الرسل والأنبياء المعصومون (عليهم السلام).

فلقد دلت الأخبار الواردة عن أهل البيت (ع) بأن الأنبياء توسلوا إلى الله تعالى بالخمسة أصحاب الكساء في ساعات المحن التي تعرضوا لها، فلقد توسل بهم آدم (ع) بعد خروجه من الجنة، ونوح (ع) عند الطوفان، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما ألقاه النمرود في النار وهكذا بقية الأنبياء (ع).

وقد أنجاهم الله تعالى من المحن التي تعرضوا لها بواسطة هؤلاء الخمسة المعصومين (ع).

وأخيراً ظهرت هذه الحقيقة نتيجة للبحث والتنقيب. حيث نشرت [البذرة] النجفية التي تصدرها ثانوية منتدى النشر الأهلية في عدديها الثاني والثالث بتاريخ شوال ـ ذي القعدة ١٣٨٥ هـ بحثاً مترجماً عن كتاب إليا والذي نشرته دار المعارف الاسلامية بلاهور ـ (باكستان)[2].

---

(١) سورة التوبة آية: ٣٢.

(٢) نقلاً عن ما نشرته الجمعية الخيرية الاسلامية بكربلاء.

أسماء مباركة

(توسل بها نوح (ع))

ـ مترجم عن الأوردية ـ

في تموز عام ١٩٥١م حينما كان جماعة من العلماء السوفيت المختصين بالآثار القديمة ينقبون في منطقة بوادي قاف عثروا على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة وبالية مما دعاهم إلى التنقيب والحفر أكثر وأعمق فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض!.

ومن بين تلك الأخشاب التي توصلوا إليها نتيجة التنقيب خشبة على شكل مستطيل طولها ١٤ عقداً وعرضها ١٠ عقود سببت دهشتهم واستغرابهم حيث لم تتغير فلم تتسوس ولم تتناثر كغيرها من الأخشاب الأخرى.

وفي أواخر سنة ١٩٥٢ أكمل التحقيق حول هذه الآثار فظهر أن اللوحة المشار اليها كانت ضمن سفينة النبي نوح (ع)، وأن الأخشاب الأخرى هي أخشاب جسم سفينة نوح.

ومما يذكره المؤرخون أن سفينة نوح (ع) استوت على قمة جبل قاف. وشوهد أن هذه اللوحة قد نقشت عليها بعض الحروف التي تعود إلى أقدم لغة.

وهنا ألفّت الحكومة السوفيتية لجنة بعد الانتهاء من الحفر عام ١٩٥٣ قوامها سبعة من علماء اللغات القديمة ومن أهم علماء الآثار هم: ـ

١ ـ سوله نوف أستاذ الألسن في جامعة موسكو.
٢ ـ إيفاهان خنيو عالم الألسن القديمة في كلية لولوهان بالصين.
٣ ـ ميشانن لو مدير الآثار القديمة.
٤ ـ تانمول كورف أستاذ اللغات في كلية كيفزو.
٥ ـ دي راكن أستاذ الآثار القديمة في معهد لينين.
٦ ـ أيم أحمد كولاد مدير التنقيب والاكتشافات العام.
٧ ـ ميجر كولتوف رئيس جامعة ستالين.

وبعد ثمانية أشهر من دراسة تلك اللوحة والحروف المنقوشة عليها:

إتفقوا على أن هذه اللوحة كانت مصنوعة من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح (ع) وان النبي نوح عليه السلام كان قد وضع هذه اللوحة في سفينته للتبرك والحفظ.

وكانت حروف هذه اللوحة باللغة السامانية وقد ترجمها إلى الانكليزية العالم البريطاني ايف ماكس أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانجستر وهذا نصها مع تعريبها:

يا إلهي ويا معيني	O my God my helper
	Keep my hands with
برحمتك وكرمك ساعدني	mercy
ولأجل هذه النفوس المقدسة	And with your holy
	bodies:
محمد	Mohamed
إيليا	Alia
شبر	Shabbar
شبير	Shabbir
فاطمة	Fatma
	Thay are all Biggest and
الذين هم جميعهم عظماء ومكرمون	Honourables.

The world established for them.	العالم قائم لأجلهم
Help me by their names.	ساعدني لأجل أسمائهم
you can reform to Right	أنت فقط تستطيع أن توجهني نحو الطريق المستقيم

وأخيراً بقي هؤلاء العلماء في دهشة كبرى أمام عظمة هذه الأسماء الخمسة ومنزلة أصحابها عند الله تعالى حيث توسل بها نوح (ع) إليه تعالى.

واللغز الأهم الذي لم يستطع تفسيره أي واحد منهم هو عدم تفسخ هذه اللوحة رغم مرور آلاف السنين عليها. وهذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

ورأيت بهذه المناسبة أن أنقل هنا بعض الأحاديث التي تناسب المقام بشأن أهل البيت الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام:

* * *

١ ـ أخرج أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن المغازلي الواسطي الشافعي في كتابه المناقب بسنده عن سلمان الفارسي، قال: سمعت حبيبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يقول: كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عز وجل يسبّح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق آدم، أودع ذلك النور في صلبه فلم نزل أنا وعلي شيئاً واحداً حتى افترقنا في صلب عبد المطلب، ففيَّ النبوة وفي عليّ الامامة[١].

٢ ـ وعن أبي ذر، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كنت أنا وعلي نوراً عن يمين العرش بين يدي الله عز وجل يسبح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلم نزل أنا وعلي شيئاً واحداً حتى افترقنا في صلب عبد المطلب فجزء أنا وجزء علي[٢].

---

(١) ينابيع المودة: ١٠ (الطبعة الأولى).

ـ (٢) ينابيع المودة: ص/١٠ (الطبعة الأولى).

٣ ـ وفي المناقب عن اسحاق بن اسماعيل النيشابوري عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال حدثنا عمي الحسن، قال: سمعت جدي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: خُلقت من نور الله عز وجل وخُلق أهل بيتي من نوري وخلق محبّوهم من نورهم وسائر الناس في النار[١].

٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٢].

٥ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أوشك أن أدعى فأجيب. وإنا تارك فيكم الثقلين، كتاب الله عز وجل وعترتي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٣].

وقد حديث آخر: «فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فأنهم أعلم منكم».

٦ ـ وقد قال (ص): «ألا أن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»[٤].

٧ ـ وقال (ص): «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة بني إسرائيل من دخله غفر له»[٥].

---

(١) ينابيع المودة: ص/١٠ (الطبعة الأولى).

(٢) أخرجه الحاكم في ص/١٤٨ من الجزء الثالث من المستدرك.

(٣) أخرجه الامام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه الحاكم بالاسناد إلى أبي ذر ص/١٥١ من الجزء الثالث من صحيحه المستدرك.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد.

٨ ـ وأخرج الطبراني في الكبير والرافعي في مسنده بالاسناد إلى ابن عباس. قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من سره أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوالِ علياً من بعدي، وليوالِ وليّه، وليقتدِ بأهل بيتي من بعدي، فانهم عِترتي، خُلقوا من طينتي ورُزِقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين لفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنا لهم الله شفاعتي».

٩ ـ وأخرج مطيرو البارودي وابن جرير وابن شاهين، وابن منده، من طريق إسحاق، عن زياد بن مطرف، قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أحبَّ أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربي، وهي الجنة الخلد، فليتولَّ علياً وذريته من بعده، فأنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم باب ضلالة»(١).

١٠ ـ وقال (ص): «واجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس. ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين»(٢).

١١ ـ وقال (ص): «إلزموا مودّتنا أهل البيت، فأنه من لقي الله وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عملُه إلا بمعرفة حقنا»(٣).

١٢ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «معرفة آل محمد براءة من النار، وحُبُّ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»(٤).

١٣ ـ وقال (ص): لا تزول قدما عبد ـ يوم القيامة ـ حتى يسأل عن

---

(١) المراجعات، ص/٥٦.
(٢) أخرجه جماعة من أصحاب السنن.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط.
(٤) أخرجه الطبراني.

أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وعن محبتنا أهل البيت[1].

١٤ ـ وقال (ص): «فلو أن رجلاً صفن ـ صفّ قدميه ـ بين الركن والمقام، فصلّى وصام، وهو مبغض لآل محمد دخل النار»[2].

١٥ ـ وقال (ص): «مَن مات على حُب آل محمد مات شهيداً، ألا وَمن مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مؤمناً مستكمل الايمان، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله. . .»[3].

١٦ ـ وقد قال أمير المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة والسلام: «فأين تذهبون وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يُتاه بكم، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش، أيها الناس خذوها من خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم. إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببالٍ[4]، فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو. ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر[5] وركزت فيكم راية الايمان. . .»[6].

---

(١) أخرجه الطبراني.

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم.

(٣) أخرجها الامام الثعلبي في تفسير آية المودّة.

(٤) لبقاء روحه ساطعة النور في عالم الظهور، هكذا قال الشيخ محمد عبده وغيره.

(٥) القرآن والعترة.

(٦) كما في صفحة ١٨٩ من النهج من الخطبة: ٩٣.

١٧ ـ وقال عليه السلام: «أنظروا أهـل بيت نبيكم، فالـزموا سمتهم واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى، فان لبدوا فالبدوا وإن نهضـوا فانهضـوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتـأخروا عنهم فتهلكوا». وذكرهم عليه السلام مرة فقال: «هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق في نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير ورعاته قليل»[١].

١٨ ـ وقال عليه السلام في خطبة أخرى[٢]: «عترته خير العِتر، وأسرته خير الأُسر، وشجرته خير الشجرة، نبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمرة لا تُنال».

١٩ ـ وقال (ع)[٣]: «نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سميّ سارقاً... (إلى أن قال): ﴿فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن. إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا﴾ فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله».

٢٠ ـ وقال عليه السلام[٤]: نحن شجرة النبوة ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم وينابيع الحكم، ناظرنا ومحبنا ينتظر الرحمة وعدّونا ومُبغضنا ينتظر السطوة».

٢١ ـ وقال (ع): «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى، إن الأئمة من قريش غرسوا في هـذا

---

(١) كما في صفحة ٢٥٩ من الجزء الثاني من النهج.
(٢) كما في صفحة ١٨٥ من الجزء الأول في النهج.
(٣) كما في صفحة ٥٨ من الجزء الثاني من النهج.
(٤) ص: ٣١٤ من الجزء الأول من النهج.

البطن من هاشم لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم». إلى أن قال عمن خالفهم: «آثروا عاجلاً وأخروا آجلاً وتركوا صافياً وشربوا آجناً...»[1].

٢٢ ـ وقال (ع)[2]: «فأنه من مات منكم على فراشه، وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته، مات شهيداً ووقع أجره على الله واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسيفه».

٢٣ ـ وقال عليه السلام: «نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء، وحزبنا حزب الله عز وجلّ، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوّى بيننا وبين عدوّنا فليس منا»[3].



(١) من كلام له (ع) صفحة ٣٦ من الجزء الثاني من النهج.
(٢) من كلام له (ع) صفحة ١٥٦ من الجزء الثاني من النهج.
(٣) في الصواعق ص: ١٤٢.

ما علة وجودنا في هذا الكون

سؤال يتبادر إلى ذهن كثير من الناس. وكل يجيب حسب ما بلغت نفسه من مراتب التكامل. فإذا كان متوغلاً في المادة الصماء: في الشهوات والنزوات والملذات غير المشروعة متبنياً المسلك المادي أو الفلسفة الحسية، يقول:

إنما خلقنا للعناء والتزود من الملاذ الدنيوية إلى أقصى حد ممكن وليس وراء ذلك شيء.

وإذا كان ممن صفت نفسه وصلحت سريرته وحسنت أعماله فيقول:

إنما خلقنا لنتكامل، فنزداد معرفة بالله تعالى لنذهب من هذه الدنيا الموقتة دار العمل والامتحان إلى حياة دائمة خالدة إلى روح وريحان إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ثم يقول: إن الذي خلق السماوات وهذه الكواكب التي لا تعد ولا تحصى بهذه الدقة التي لا يمكن استقصاؤها وبهذه المعادلات التي تتحكم في حركاتها، هذه المعادلات والدساتير التي لم يبلغ الفلكيون إلا إلى جزء ضئيل منها، لا يخلق شيئاً عبثاً، وإن الغاية لتتناسب مع عظم الموجد وهو الله تعالى، فالغاية من خلقنا غاية رفيعة، سامية، غاية يريد بها تكميل هذه النفوس وتقريبها إلى الله المتعال، غاية يريد بها اختبار هذا الانسان في هذه الفترة الزمنية من عالم الدنيا ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾[1].

وهو القائل: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: ٤٣.

(٢) سورة الملك: ٣.

إن الله تعالى قد وصف نفسه في آيات جمة (بالرحمن الرحيم)، وهو القائل: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾، فكل ما صدر عن الله تعالى، إنما هو لتكميل هذا البشر الناقص وإبلاغه أسمى مراتب الكمال البشري. وهو القائل: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾. (الأعراف: ١٥٥).

وبديهي أنه لا يصدر من الرحمن الرحيم إلا الرحمة.

فخلقه تعالى لكل شيء رحمة ولطف، وأما خلقه الانسان فرحمة ما بعدها رحمة، ولو علم الانسان ما يبلغ اليه من مراتب رفيعة وقدسية فائقة ومقامات تفوق مقام الملائكة المقربين نتيجة الطاعة والامتثال لعلم أن خلقه من جانب الله رحمة لا تتناهى ولا تحد.

وقد قال جل من قائل: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[1]، فقد خُلقنا حسب قوله تعالى لعبادة الله تعالى، ذلك، لأنه بالعبادة تخشع النفس الانسانية وتتطهر مما ألم بها من دنس ورجس فتكون قمينة بأن تحلّ فيها معرفة الله تعالى. ذلك لأن معرفة الله لا تكون من نصيب النفوس التي مُلئت جوراً ونفاقاً، ملئت رجساً ودنساً، معرفة الله تعالى بحاجة إلى صقع زكي نقي لا كدر فيه ولا فساد. فالعبادة تأخذ بهذه النفس فتصقلها وتذهب بما بها من أدران. عند ذلك تتجلى فيها المعارف الالهية.

وما إرسال الرسل إلا لتحقيق هذه المعرفة، معرفة الله تعالى وتركيز الحب الالهي في النفوس وهو القائل: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[2].

وإن المعرفة الحقيقية والعلم الحقيقي أي المعارف الالهية لا تحصل إلا نتيجة العبادة والتهجد والمثول بين يدي الله تعالى خاشعاً خاضعاً جوف الليل، وهو القائل: ﴿أمَن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة فاطر: ٢٤.

أولوا الألباب﴾[1]. فما هو هذا العلم الذي لا يستوي فيه العالم والجاهل؟.

هو علم يترشح من قنوت واستغفار جوف الليل، من قيام لوجه الله والناس نيام! فالعبادة بكل خشوع لها آثارها في النفوس وإبلاغها أسمى مراتب الكمال، وبدرجة هذا الكمال تتجلى المعارف الآلهية في النفوس وتتحقق سر الخلق وتظهر علة وجودنا في هذا العالم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن البيوت التي يصلى فيها بالليل ويتلى فيها القرآن، تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّي لأهل الأرض».

ولا مراء أنه ما يتقرب العبد المؤمن بقربان اعظم عند الله وأفضل من صلاة الليل والتسبيح والتهليل بعدها، ومناجاة ربه العزيز الحميد والاستغفار من الذنوب وقراءة الأدعية الواردة في صلاة الليل وبعدها ببكاء وخشوع، ثم تلاوة القرآن إلى طلوع الفجر وإيصال صلاة الليل بصلاة النهار: (صلاة الفجر).

فإن من آثار صلاة الليل سعة الرزق في الدنيا من غير كد ولا تعب ولا نصب وبعافية شاملة في جسده، وأما في الآخرة فله النعيم في قبره من الجنة ويضاء قبره بنور صلاته تلك إلى يوم حشره وان الله تعالى لا يحاسبه ويأمر الملائكة بادخاله الجنة في أعلى عليين في جوار محمد وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، فيا لها من فرصة سانحة، ما أحسن عاقبتها إذا خلت من الرياء والعجب.

ولا مراء أن المواظبة على صلاة الليل تؤدي بالفرد أن تكون أخلاقه سامية، حميدة، تؤدي به إلى مراقبة نفسه في كل أمر جزئي، لعلمه أن مخالفة بسيطة توجب حرمانه عن صلاة الليل ومناجاة ربه الجليل.

فقد روي: «أن الرجل يكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم بذلك الرزق».

---

(١) سورة الزمر: ٩.

فعلى الانسان أن يتقدم في معرفة الله تعالى وأن يعمل في تقوية هذه المعرفة والبلوغ إلى الغاية التي خلق لأجلها، فقد قال رسول الله (ص):

«مَن استوى يوماه فهو مغبون، ومَن كان غده شراً من يومه فهو ملعون، ومَن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله، ومن كان نقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته».

وليعلم هذا الانسان أن لله ملكاً ينادي: يا أبناء الخمسين: زرع قد دنا حصاده! ويا أبناء الستين ماذا قدمتم لأنفسكم من العمل الصالح وماذا أخرتم من أموالكم لمن لا يترحم عليكم! يا أبناء السبعين، عدوا أنفسكم من الموتى! ليت الخلائق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

فنحن خلقنا لمعرفة الله تعالى وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: ﴿كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف﴾. وان معرفة الله تعالى تجر بالفرد إلى جنة عرضها السماوات والأرض وهو القائل:

﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[1].

فهذه المعرفة التي نالها الانسان في هذه الدنيا نتيجة العمل الصالح والعبادة الخالصة (بجميع أنواعها) لوجهه الكريم: أكرم الوجوه وأعز الوجوه، تكون نوراً يهدي هذا الانسان إلى روح وريحان، إلى جنات عدن. وهو قوله تعالى:

﴿يوم ترى المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها، ذلك الفوز العظيم﴾[2].

فلا قيمة لهذه الدنيا، لأنها دار من لا دار له ولها يعمل من لا عقل

---

(١) سورة الحديد: ٢١.

(٢) سورة الحديد: ١٢.

له[1]، إلا إذا كان يريد بعمله هذا وجه الله تعالى وخدمة الآخرين لوجه الله والأخذ بيد المحتاجين والبائسين جلباً لمرضاة الله، وإنما هذه الفترة الدنيوية التي نحن فيها هي فترة عمل لنيل المعارف الالهية وحصول اليقين نتيجة تزكية النفس وعبادة خالصة وأخلاق كريمة والقيام بحوائج الناس وخدمة الوالدين وصلة الأرحام ومساعدة المعوزين ونشر معالم الدين، دين الاسلام الحنيف في أرجاء العالم والتضحية في هذا السبيل. فان لكل عمل صالح أثره الفعال في ازدياد معرفة الفرد بالله تعالى، لينال مرتبة اليقين بفضله. ومن يبلغ تلك المرتبة التي بلغها أمامنا علي عليه أفضل الصلاة والسلام حيث يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

فلنكن من أولئك المتفكرين الذين يجعلون هذه الآية المباركة دستوراً لعملهم في هذه الحياة الدنيا وهو قوله جل من قائل:

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[2].

ولا بأس بذكر ما قاله علي عليه السلام كدستور للزهد ليقتدي به مَن مَنَّ الله عليه فأبعده عن زينة الدنيا وزبرجها، وان هذا الابعاد والانصراف عن زخارف الدنيا رحمة من رحمات الله، انه عليه الصلاة والسلام يقول:

«والله لقد رقعت مدرعتي هذه، حتى استحييت من راقعها، وقال لي قائل: «ألا تنبذها» فقلت أعزب عني، عند الصباح، يحمد القوم السرى».

وقال (ع): الزاهدون في الدنيا ملوك الدنيا والآخرة والراغبون فيها فقراء الدنيا والآخرة.

* * *

---

(١) كما جاء في منطوق حديث.

(٢) سورة يونس: ٢٤.

وبعد أن علمنا أن علة وجودنا في هذه الدنيا في هذه الفترة الزمنية إنما هي معرفة الله تعالى: بدرجة ما تبلغ إليه النفس من مراتب الكمال والتكامل، يجدر بنا أن نذكر ما يؤدي إلى هذه المعرفة التي هي غاية الغايات:

١ ـ العبادة بجميع ما في العبادة من معانٍ مختلفة. ومنها الأعمال الصالحة وقضاء حوائج الناس.

٢ ـ إرشاد الناس وهدايتهم إلى الاسلام العظيم والمجاهدة في هذا السبيل والتضحية إلى أبعد الحدود.

٣ ـ الزهادة في هذه الدنيا.

٤ ـ الكون بين الخوف والرجاء.

٥ ـ الصمت إلا عما يفيد الناس من وعظ وإرشاد.

٦ ـ المبادرة إلى التوبة بجميع أنواع التوبة[1].

٧ ـ ذكر الله على كل حال والتوكل عليه والبكاءمن خشية الله لا سيما جوف الليل والتسليم والرضا بما أراد الله والقناعة والصبر على النوائب ومراقبةالنفس الأمارة بالسوء. فقد قال النبي (ص) لبعض أصحابه: «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك».

٨ ـ الاكثار من الشكر بأنواع الشكر وأن يقول كل يوم ٣٦٠ مرة: الحمد لله رب العالمين.

٩ ـ حسن الخلق والجود والسخاء فيما يحبه.

١٠ ـ الابتعاد عن الرياء والحسد والبخل والكبر، فأنها من أصول الكفر.

وأختم هذا المقال بهذه الموعظة التي لا تثمن لعظمتها وكثرة فوائدها ونسأل الله أن نتعظ ونعمل بمضمونها كي نزداد معرفة بالله تبارك وتعالى ونبلغ الغاية التي أوجدنا الله لأجلها، وذلك هو الفوز المبين.

(١) ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من كتاب التكامل في الاسلام.

أوصى رسول الله معاذ بن جبل[1]. فقال له: أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة وخفض الجناح والوفاء بالعهد وترك الخيانة وحسن الجوار وصلة الأرحام ورحمة الأيتام ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل وتوكيد الايمان والتفقه في الدين وتدبر القرآن وذكر الآخرة والجزع من الحساب وكثرة ذكر الموت، ولا تسب مسلماً ولا تطع آثماً، ولا تقطع رحماً، ولا ترضَ بقبيح تكن كفاعله، واذكر الله عند كل شجر ومدر وبالاسحار على كل حال يذكرك، فان الله تعالى ذاكر من ذكره وشاكر من شكره، وجدّد لكل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية».

«واعلم أن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى التقوى، وأشرف الذكر ذكر الله تعالى، وأحسن القصص القرآن، وشر الأمور محدثاتها وأحسن الهدى هدى الأنبياء (ع)، وأشرف الموت الشهادة، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير العلم ما نفع، وشر العمى عمى القلوب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة عند الموت وشر الندامة يوم القيامة، ومن أعظم خطايا اللسان الكذب، وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله تعالى في السر والعلانية، وخير ما ألقي في القلب: اليقين».

«وإن جماع الاثم الكذب والارتياب، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون وشر الكسب الربا، وشر المآثم أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، وليس لجسم نبت على الحرام إلا النار، ومن تغذى بالحرام فالنار أولى به، والسكينة مغنم وتركها مغرم. وعلى العاقل أن تكون له ساعة يناجي فيها ربه وساعة يتفكر فيها في صنع الله وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتخلى فيها لحاجته من حلال، وعلى العاقل أن لا يكون ساعياً إلا في ثلاث، تزود لمعاد ومرمة لمعاش ولذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه».

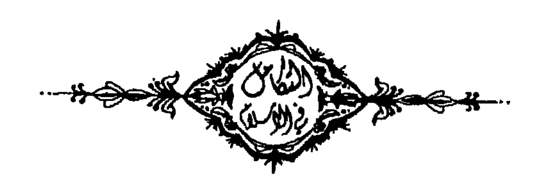
تلك هي أصول الكمالات التي يتحلى بها الانسان ليكون أعلى مرتبة

---

(١) من كتاب: إرشاد القلوب، للديلمي عليه الرحمة ص: ٨٩.

من الملائكة وليعلم بعد ذلك سر وجوده في هذه الدنيا، فيشكر الله تعالى على عظيم ما منَّ وجزيل ما أنعم، ولا موفق إلا الله، ولا راحم إلا هو.

﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم﴾[1].



---

(١) سورة يونس: ١٠٧.

أثر الآلام في تكامل النفس

سؤال: [1]

هل صحيح أن الآلام التي يعانيها الانسان ترجع إلى أن الحرية لم تتحقق بعد على الوجه الأكمل ولماذا؟.

الجواب:

لا علاقة بين ما يعاني الانسان من آلام وبين تحقق الحرية على الوجه الأكمل. الانسان حر في حدود معينة عينها الشرع، حر شريطة أن لا يتعدى على بني نوعه، والله هو القائل: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2]، وقد جاء الاسلام بشريعة سمحاء: ﴿وما جعل الله عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾[3].

وقد قال عز من قائل: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وإن الميول البشرية والشهوات الطاغية والأطماع غير المشروعة تؤدي إلى الضغط على حريات الآخرين وهذا الضغط بدوره يؤدي إلى آلام وأحزان، فيظن من لا يزن الأمور بميزان الشرع الشريف، أن هناك ضغطاً على الحرية، وأن الحرية لم تتحقق، بل بالعكس، إن الحرية كل الحرية في إعطاء الحق للآخرين كي يتمتعوا بحرياتهم في حدود مشروعة.

---

(١) السائل المحترم هو علي حسان الشوملي ـ بغداد ـ بياع رقم الدار: ١٤/٨٨.
(٢) سورة البقرة: ١٩٤.
(٣) سورة الحج: ٧٨.

أنـه تعالى يقـول: ﴿يا أيهـا الانسان إنـك كادح إلى ربـك كدحـاً فملاقيه﴾[1].

فالانسان متعب في هذه الدنيا لنيل سعادة الآخرة، وشيء من سعادة الدنيا. وقد وجد هذا الانسان كي يقطع هذه المراحل الـدنيويـة بنجاح ويذهب إلى عالم الخلود مع طهارة نفسية ونفس قدسية، وقد جـاء في الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة». «الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل» والعمل فيها لا يخلو من المشاق والمتاعب والآلام ولا بد لهذا الانسان أن يتحمل هذه المشـاق والآلام لينال سعـادة أبديـة. ففي الحديث حُفَّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

فإذا كان الخلو عن الآلام هو الحرية فهذا محال لانسان يريد أن يقطع المراحل الدنيوية التي تؤدي إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر، إلى ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

فالحرية المنطقية التي يرتضيها الله لعباده هي حرية محدودة بحدود الشرع، وإن هذه الحرية المحـدودة لا بد وأن يـرافقها كثيـر من الآلام والأحزان. إذ تصطدم هذه الحرية بحريات الآخرين فلا تتحقق ويؤدي عدم التحقق إلى آلام يظن أنها ترجع بالمآل إلى عدم تحقق الحرية بصورة كاملة على وجه الأرض.

فما نراه من شذوذ جنسي واستهتار علني وهتك للحرمات وإغراء وإفساد في عالم الغرب ليس من الحرية المشروعة في شيء... وإنما هو إفساد في الأرض: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[2]. ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[3].

فآراء بعض فلاسفة أوربا مستقاة من بيئة أوربا الموبوءة بأنواع الفسوق

---

(1) سورة السجدة: ١٨.
(2) سورة البقرة: ٢٠٥.
(3) سورة الحج: ١٨.

والعصيان، ولا قيمة لهذه الآراء في ميزان الشرع والفلسفة الاسلامية الحقة، ذلك لأن فلسفة الاسلام الحقة آتية من وراء المادة، من جانب الله تعالى، خالق هذا البشر والعالم بطبائعهم، وما يصلحهم ويفسدهم. فلسفة ناصعة حقة، لا شائبة فيها ولا اضطراب، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا من صفت نفسه، وتزكى باطنه. وأين الفيلسوف الغربي المربى في أحضان المادةالصماء من هذا الصفاء الباطني والتزكية النفسية.

﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

فالآلام رحمة من الله تعالى على عباده، يكفر العبد بها عن ذنوبه ويتزكى بها من أدرانه وأوساخه ليذهب من هذه الدنيا نقي الثوب، طاهر الضمير. وفي الحديث:

«إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه». وفي حديث قدسي عن الله تعالى حيث يقول: «أنين المذنبين أحبّ إليّ من تسبيح المسبحين».

وعن أبي عبد الله (ع) وعنده سدير، قال: «إن الله إذا أحب عبداً غته بالبلاء غتاً، وانا وإياكم يا سدير، لنصبح به ونمسي».

وعن أبي عبد الله (ع): «ما من مؤمن إلا وقد وكل الله به أربعة: شيطاناً يغويه، يريد أن يضله، وكافراً يغتاله، ومؤمناً يحسده وهو أشدهم عليه ومنافقاً يتبع عثراته».

فالمؤمن في هذه الدنيا مسلوب الراحة، ممتحن لا محالة وهو في اجتيازه الامتحانات يتطهر ويتزكى. وهو القائل: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها﴾[2].

وأختم هذا المقال بهذا الحديث العظيم فليعتبر المتعبرون:

قال رسول الله (ص): «ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من

---

(١) سورة الحج: ٤٦.

(٢) سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.

جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها. ولا قطرت قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله. وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم».



فلسفة الهدى والضلال

إن موضوع الهدى والضلال لمَن أهم المواضيع التي يجب أن يعنى به الانسان ويهتم به غاية الاهتمام. لأنه قضية حياة ومماة بالنسبة إلى هذا الانسان. ولا أظن أن هناك موضوعاً يُهِمُ هذا الانسان كهذا الموضوع. وهو القائل: ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذِرين﴾[1].

﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومَن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾[2].

﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾[3].

﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، إن الله لَغني عن العالمين﴾[4].

﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه، وإلى الله المصير﴾[5].

﴿فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها، وما أنت عليهم بوكيل﴾[6].

﴿مَن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد﴾[7].

---

(١) سورة النمل: ٩٢.

(٢) سورة يونس: ١٠٨.

(٣) سورة الاسراء: ١٥.

(٤) سورة العنكبوت: ٦.

(٥) سورة فاطر: ١٨.

(٦) سورة الزمر: ٤١.

(٧) سورة حم ـ سجدة: ٤٦.

وإن الله تعالى قد أتمّ على عباده الحجة بأن غرس فيهم أصول المعارف الآلهية والهمهم ما يدنس النفس الانسانية وما يزكيها، إتماماً للحجة على جميع الناس، من بلغته دعوة الأنبياء (ع) ومن لم تبلغه الدعوة. وقد أخذ الله على العباد اعترافهم بربوبيته ووحدانيته في عالم الذرّ وعالم الأرواح وذلك بقوله جل من قائل:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: (ألستُ بربكم)، قالوا بلى، شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة: انا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[1].

فكل نفس من النفوس البشرية قالت: بلى... في عالم الذر عندما سألهم ربنا المتعال: «ألستُ بربكم» وإنما فعل الله ذلك: لئلا يقول قائل: يا ربنا، لِمَ أدخلتنا نار جهنم وقد كنا غافلين عن هذا الأمر، أو يقول: لا ذَنب لنا، والذنب ذنب آبائنا الذين أشركوا قبلنا، وقد كنا ذرية ضعفاء من بعدهم، فلا ينبغي أن تهلكنا بذنوب غيرنا.

وقد غرس الله تعالى أيضاً أصول الهداية في النفس الانسانية، فالانسان لولا ذنوبه وآثامه يهتدي بصورة فطرية نحو الله المتعال والأعمال الصالحات، وهو القائل:

﴿وهديناه النجدين، فلا أقتحم العقبة؟﴾[2] أي أن الله هدانا في عالم الأرواح وبصورة فطرية إلى طريقي الخير والشر أي أنه أعلمنا طريقي الخير والشر، لنسلك طريق الخير ونجتنب طريق الشر، فلا عذر للمعتذر إن ضل عن الطريق السوي. إنما يسلك الطريق المعوج لسوء اختياره وإتباعه أمر الشيطان الغاوي وقد نهاه الله عن ذلك وحذره أيما تحذير: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) سورة البلد: ١٠ - ١١.

(٣) سورة فاطر: ٦.

فالانسان بصورة فطرية يتوجه إلى الله المتعال، حتى وإن نما وترعرع في محل ناء بعيد عن كل انسان، وهو القائل: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقد ألهم الله عباده ما يؤدي إلى سعادتهم وشقائهم، أي غرس فيهم أصول السعادة والشقاء فهو يقسم بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفس، ثم يقول بعد إقسام عدة: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾[1]، أي أن الله تعالى قد ألهم النفس الانسانية قبل أن تحل في هذا البدن ما به التقوى وما به الفجور. إتماماً للحجة: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾[2]. وقد فعل الله ذلك: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾[3].

وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة». فالفطرة تسوق الانسان إلى الاعتراف بالله تعالى وتوحيده وتقديسه، إلا أن ما اجترحته الأيدي من المظالم والموبقات تتجسم في نفسه وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق وهو القائل: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾[4]. وان يروا كل أية لا يؤمنوا بها. وهذه الأكنة أو الأغطية هي الذنوب والآثام، فهي تضاد الفطرة وتغطيها فلا تعمل الفطرة إذ ذاك عملها، فيؤدي إلى الشكوك والريب أولاً ثم إلى ظلمات بعضها فوق بعض ثم إلى الالحاد والشرك بالله!!...

وقد قال عزَّ من قائل: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[5].

﴿ولقد أنزلنا اليك آياتٍ بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[6].

(١) سورة الشمس: ٨.
(٢) الانعام: ١٤٩.
(٣) سورة النساء.
(٤) سورة الانعام: ٢٥.
(٥) سورة يونس: ٣٣.
(٦) سورة البقرة: ٩٩.

﴿ثم إن هؤلاء الفاسقين يعدون تعاليم السماء أساطير، تسلية لنفوسهم وتقوية لضلالهم. ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك، يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين. وهم ينهون عنه وينأون عنه، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[1].

وكم لهذه الآية المباركة من مصداق في يومنا هذا في عالم الاباء والأولاد: ﴿والذي قال لوالديه: أفٍّ لكما أتعدانِني أن أُخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله: ويلك آمن، ان وعد الله حق، فيقول: ما هذا إلا أساطير الأولين﴾[2].

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[3]. ﴿قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون، لقد وُعدنا نحن وآباؤنا من قبلُ، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[4].

فالتاريخ يعيد نفسه، فإن رأينا في زماننا هذا استهزاء بالمقدسات، فلقد استهزىء بها من ذي قبل، ذلك لأن الشيطان كان يرافق الانسان منذ أن خُلق والنفس الأمارة بالسوء كانت تعمل عملها. وهو القائل: ﴿ولقد استُهزىء برسل من قبلك، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾[5].

﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾[6].

---

(١) سورة الانعام: ٢٦.
(٢) سورة الأحقاف: ١٧.
(٣) سورة الانفال: ٣١.
(٤) سورة المؤمنون: ٨٣ - ٨٤.
(٥) سورة الأنعام: ١٠.
(٦) سورة الحجر: ١٠ - ١٣.

فالاجرام يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق ومانعاً عن الاعتراف بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض» ولكن الله تعالى منعنا عن اتباع إغواءات الشيطان وأضاليله وليس للشيطان سبيل على الصلحاء من عباده. وهوالقائل: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾(١). فمن تحققت فيه العبودية لله فلا سلطان للشيطان عليه. وهو القائل أيضاً: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾(٢). ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾(٣).

فمن توكل على الله فهو حسبه وهو من الناجين. فالدنيا دار غربلة وامتحان. فطوبى للفائزين في هذا الامتحان العالمي: الامتحان الآلهي، ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾(٤).

﴿لتُبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور﴾(٥).

فالعزم كل العزم أن يصبر الانسان في النوائب والمصائب والكوارث وأن يتقي الله في شهواته ونزواته. ويحق للتربية الحديثة أن توجه العزم نحو طاعة الله والصبر والتقوى. لينال الفرد سعادة النشأتين. إذ أن تربية العزم في

---

(١) سورة الحجر: ٤٢.

(٢) سورة الاسراء: ٦٥.

(٣) سورة النحل: ٩١ـ ١٠٠.

(٤) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٥) سورة آل عمران: ١٨٦.

الأمور المادية فحسب دون الالتفات إلى التقوى ونبذ الشهوات تربية فاشلة خاسرة. إنه تعالى يقول:

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[1].

إن الله تعالى لعظيم رفده وجليل رحمته قد نبهنا ما للشيطان من عداوة فاحشة مع عباده وقد عهد الينا أن لا نعبد الشيطان وأن لا نطيعه في إغواآته وتسويلاته وهو القائل: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان. إنه لكم عدو مبين﴾[2] وقد أرانا الله الطريقة التي بها نتمكن من التخلص من كيد الشيطان ومكره وهي أن لا نعمى ولا نغفل عن ذكر الله وإطاعة الله، فإذا ذكر الله فرّ الشيطان من وجهه ويئس من كيده ومكره وهو قوله تعالى:

﴿ومن يَعْش عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال: يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾[3] وكم نرى ممن تثقف بثقافة العصر يحسب نفسه قد بلغ مرتبة قاصية من الكمال، حين أنه ألعوبة بيد الشيطان لعنه الله وقد صدّه عن سبيل الهداية وما يوصله إلى عقبى محمودة وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

* * *

فالشيطان يلعب دوراً خطيراً في إغواء الانسان وجعله من أصحاب النار. وأول عمل يقوم به: هو إبعاده عن ذكر الله وقد يوحي إليه أن ذكر الله خرافة يتلهى به العاطلون والعاجزون! يوحي اليه أن الغربيين بلغوا ما بلغوا من هذا الرقي المادي دون اللجوء إلى ذكر الله، وهل لرجل العصر في يومنا هذا من الوقت مع تزاحم الأعمال ليذكر الله تعالى؟!.

---

(١) سورة الكهف: ١٠٤.

(٢) سورة يس: ٦٠.

(٣) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨، يعشو: يتعامى ويعرض لفرط اشتغاله بالدنيا.

وقد سمعت من أحدهم وهو يستهزىء بالذاكرين ربهم أوقات فراغهم، يقول: ما فائدة: (بس بس) ويريد بذلك قول المؤمن: «سبحان الله، سبحان الله. . .» أنه كان يريد أن يجاري المتحضرين بحضارة العصر ويماشي ما هم عليه من إغفال ذكر الله، ذلك لأنك ترى: أن في ضيافات كبيرة وموائد عامرة يجلس عليها رجال العصر الحاضر لا يذكرون الله ولا يشكرونه، ولعل من يريد ذكر الله، وقد بقي لديه صبابة من إيمان، يخجل ممن يتّهمه بالرجعية أو الخرافة! نعم، أصبحنا في عصر أمسى فيه شكر المنعم خرافة! وهو القائل:

﴿هل جزاء الاحسان إلا الاحسان﴾، ﴿وإن تطع اكثر مَن في الأرض يضلوك عن سبيل الله، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ (سورة الأنعام: ١٦).

وكم كنت أرى رجالاً من المؤمنين وأنا طفل صغير لا يفترون عن ذكر الله تعالى، كانوا: ذبل الشفاه من ذكر الخالق المتعال.

ففي الحديث: «ما من قوم قعدوا في مجلس ثم قاموا فلم يذكروا الله عز وجل فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة».

وقال رسول الله (ص): إتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما يقسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر من الضحك، فان كثرة الضحك يميت القلب»!.

فترك الذكر يؤدي إلى هجوم الشيطان وهجوم الشيطان يؤدي إلى الضلال وسوء العاقبة. ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً، فساء قريناً﴾. ولذلك حثنا الله تعالى على ذكره جل جلاله في آيات جمة، منها: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[1].

ولا شك أن ذكر المنعم وهو الله، وتسبيحه وتقديسه من كمال العقل، فالذاكرون ربهم جل جلاله في حالات شتى هم أولو الألباب.

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢.

انه تعالى يقول:

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب: الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾[1].

وهو القائل: ﴿واذكروه كما هداكم. وان كنتم من قبله لمن الضالّين﴾.

وإن في ذكر الله تعالى بإخلاص انجذاباً روحياً بين العبد والمعبود، يشعر به من اتخذ التقوى شعاراً واختلى بربه جوف الليل يريد وجهه بكل انقطاع وابتهال، وهو القائل:

﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾[2].

ما أعظم ما وعد الله عباده، بقوله:

﴿فأذكروني أذكركم﴾[3].

وقد جاء في بعض الكتب السماوية:

«أهل ذكرى في ضيافتي وأهل طاعتي في نعمتي، وأهل شكري في زيادتي، وأهل معصيتي لا أؤيّسهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وان مرضوا فأنا طبيبهم، أداويهم بالمحن والمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب»[4].

وفي الحديث: «من أكثر ذكر الله عز وجل أظله الله في جنته».

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) سورة الزمر: ٢٢.
(٣) سورة البقرة: ١٥٢.
(٤) إرشاد القلوب للديلمي: ص ١٠١.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: إن الله عز وجل يقول: من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي من سألني.

وقال (ع): إن العبد ليكون له الحاجة إلى الله عز وجل، فيبدأ بالثناء على الله والصلاة على محمد وآل محمد حتى ينسى حاجته فيقضيها الله له من غير أن يسأله إياها.

وفي حديث قدسي: «من ذكرني سراً ذكرته علانية».

وفي حديث آخر: قال الله عز وجل لعيسى (ع): «يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي. واذكرني في ملائي أذكرك في ملاء خير من ملاء الآدميين، يا عيسى، ألِن لي قلبك واكثر ذكري في الخلوات واعلم أن سروري أن تبصبص إليّ وكن في ذلك حياً ولا تكن ميتاً». (أصول الكافي. ج ٢، ص: ٥٠٢).

وعن أبي عبد الله (ع) قال: الذاكر لله عز وجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين.

وقد قال رسول الله (ص)، ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين والمقاتل عن الفارين له الجنة.

وكان رسول الله (ص) إذا أصبح قال: «الحمد لله رب العالمين كثيراً على كل حال، ٣٦٠ مرة، وإذا أمسى قال مثل ذلك».

وعن أبي عبد الله (ع) قال: من قال أربع مرات إذا أصبح: الحمد لله رب العالمين، فقد أدى شكر يومه، ومن قالها إذا أمسى، فقد أدى شكر ليلته[1].

وفي الحديث: «أكثروا من التهليل والتكبير فأنه ليس شيء أحب إلى الله عز وجل من التهليل والتكبير»[2].

---

(١) أصول الكافي ج ٢، ص ٥٠٣.
(٢) أصول الكافي ج ٢، ص ٥٠٦.

وعن أمير المؤمنين (ع): التسبيح نصف الميزان والحمد لله يملأ الميزان والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض[1].

وعن رسول الله (ص): «خير العبادة قول: لا آله إلا الله».

ومع ذكر الله يندحر الشيطان وييأس من إغواء المؤمن الذاكر.

ولهذا نهى الاسلام عن كل عائق عن ذكر الله كالغناء ومجالس اللهو والسهر في الباطل، إلى ما هنالك. ففي الحديث: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

فأساس الضلال هو اتباع هذا الشيطان، فقد قال الله تعالى:

﴿إنْ يدعون من دونه إلا أناثا، وانْ يدعون إلا شيطاناً مريداً، لعنه الله، وقال: لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً، ولأضلَّنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولآمرنَّهم، فليغيرنَّ خلق الله، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله، فقد خسر خسراناً مبيناً. يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾[2].

وفي آية أخرى: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[3].

فالناس فريقان: مهتدٍ وضال. والضلال إنما يأتي من اتباع اغواآت الشيطان لعنه الله، ولا سلطة له علينا، إنما مهمته الدعوة والاغواء، فلا جبر في المقام.

وقال الشيطان:

﴿ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾[4].

---

(١) أصول الكافي ج ٢، ص ٥٠٦.
(٢) سورة النساء: ١١٧ ـ ١٢١.
(٣) سورة النساء: ٥٩.
(٤) سورة إبراهيم: ٢٢.

والمهتدي من لم يطع الشيطان في اغواءاته وخشي الله تعالى في خلواته وجميع حالاته.

وهو القائل:

﴿فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلال أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾[1].

وإن الصلاة المقبولة نوع ذكر لله تعالى وأداء لواجب الشكر وهي التي تبعد عن هذا الانسان الشيطان ووساوسه: «إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله اكبر». وعن ابن عباس: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً». الا أن المواظبة على الصلاة تجر الفرد إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما. فقد روى أنه قيل لرسول الله (ص): إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه».

وإن الصلاة رأس الحسنات وهي ماحية للسيئات لقوله تعالى:

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، ان الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾ (سورة هود: ١١٤).

ولا سبيل لهذا الشيطان على المخلصين من عباد الله وهو القائل:

﴿ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[2] والمخلصون هم المؤمنون حقاً الذين أخلصوا لله ولم تتخلل عبادتهم أية شائبةٍ من رياء وعجب وطمع.

ولا شك أن الصلوات الخمس المفروضة تذكر هذا الانسان بعوالم الآخرة ومراتب التقوى، ففي الحديث: «الصلاة صابون الخطايا» أي أن الصلاة المقبولة تكون سبباً لمحو الذنوب وتصفية النفس من أدرانها وأوساخها فتكون قمينة لمعرفة الله تعالى.

---

(١) سورة الرعد: ٢٢.

(٢) سورة الأعراف: ٣٠.

وإن «ذكر الله عز وجل حسن على كل حال» كما جاء في الحديث.

وفي حديث آخر: «يا موسى، إن ذكري حسن على كل حال» وعن أبي عبد الله (ع): «ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر، فليس له حد ينتهي».

وقال (ع): «شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً».

وقال رسول الله (ص): «من أكثر ذكر الله عز وجل أحبه الله ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق».

وإن تسبيح فاطمة الزهراء (ع) من الذكر الكثير الذي قال الله عز وجل: «إذكروا الله ذكراً كثيراً».

وقد جاء في آداب التخلي، من المستحبات: أن يقال عند الدخول:

«أللهم اني أعوذ بك من الرجس والنجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم».

وأن يقول بعد التخلي: «أللهم أرزقني الحلال وجنبني الحرام».

وأن يقول عند رؤية الماء: «الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً».

وأن يقول عند الاستنجاء: «أللهم حصِّن فرجي وأعِفَّه واستر عورتي وحرّمني على النار ووفقني لما يقرّبني منك يا ذا الجلال والاكرام».

وأن يقول عند الفراغ من الاستنجاء:

«الحمد لله الذي عافاني من البلاء وأماط عني الأذى».

* * *

فإذا أراد هذا الانسان أن ينجو من مكائد الشيطان ويتخذ سبيل الرشد سبيلاً: أن يكثر من ذكر الله وأن يدعو الله للتخلص من كيد الشيطان ومكره في مواطن يستجاب فيها الدعاء.

فعن أبي عبد الله (ع): يستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر وبعد الفجر وبعد الظهر وبعد المغرب. وقد قال رسول الله (ص): «خير وقت دعوتم الله عز وجل فيه: الأسحار».

وعن علي بن إبراهيم: عن أبيه، عن أبي عمير، عن عمر بن أذينة قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «إن في الليل لساعة ما يوافقها عبد مسلم ثم يصلي ويدعو الله عز وجل فيها إلا استجاب له في كل ليلة، قلت: أصلحك الله، وأيّ ساعة هي من الليل؟ قال: إذا مضى نصف الليل وهي السدس الأول من أول النصف»(١).

وإن للبكاء والتضرع أثرهما في استجابة الدعاء والسير في سبيل الهدى والابتعاد عن طرق الضلال. ففي الحديث: «إن أقرب ما يكون العبد من الرب عز وجل، وهو ساجد باكٍ»(٢).

فعن أبي عبد الله (ع) قال: «ما من عين إلا وهي باكية يوم القيامة إلا عيناً بكت من خوف الله، وما اغرورقت عين بمائها من خشية الله عز وجل إلا حرّم الله عز وجلّ سائر جسده على النار ولا فاضت على خدِّه فرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلّة وما من شيء إلا وله كيل ووزن إلا الدمعة، فان الله عز وجل يطفىء باليسير منها البحار من النار، فلو أن عبداً بكى في أمة لرحم الله عز وجل تلك الأمة ببكاء ذلك العبد»(٣).

فطوبى للبكائين الفائزين إلى جنات عدن، وهي غاية الغايات من وجود هذا الانسان في هذه الدنيا الموقتة. وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾(٤).

﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع

---

(١) أصول الكافي، جـ ٢، كتاب الدعاء، ص ٤٧٨.
(٢) أصول الكافي، جـ ٢، كتاب الدعاء، ص ٤٨٣.
(٣) أصول الكافي، جـ ٢، كتاب الدعاء، ص ٤٨٢.
(٤) سورة الاسراء: ١٠٩.

نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾.

(سورة مريم: ٥٨)

* * *

ولا شك أن بذكر الله تعالى يتفتح القلب ويذهب عنه صدأ الذنوب والقساوة الناشئة من الظلم والآثام فيلين أكثر فأكثر إلى ذكر الله في جميع الحالات فيكون مصداق هذه الآية الكريمة:

﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي من يشاء. ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾. (سورة الزمر: ٢٣).

وإن المواظبة على الذكر يؤدي إلى انشراح القلب بنور الايمان وهو نور يمن الله به على الذاكرين من عباده الأبرار:

﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين﴾. (سورة الزمر: ٢٢).

ونستجير بالله من مرض القلب ومن قسوة القلب، فهما حجابان حاجزان عن رؤية الحق والواقع، وأساسهما الظلم والاثم.

انه تعالى يقول:

﴿ليجعل ما يُلقي الشيطان فِتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وان الظالمين لفي شقاق بعيد﴾. (الحج: ٥٣).

وقد يكون القلب بالمعاصي والآثام أقسى من الحجارة وهو قوله تعالى:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾

(البقرة: ٧٤).

اختلف الناس من حيث العقيدة في مسألة الهدى والضلال، كل حسب تكامله وصفاء نفسه.

فمن الناس من يقول: (١) لو شاء الله لاهتديت، ولكنت رجلاً صالحاً. (٢) وان الله هوالذي أراد بي ما أنا فيه من عصيان وغواية.

ويستدل لمقاله الأول بقوله تعالى: ﴿لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾[١]. ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾[٢]. و﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾[٣].

ويستدل لقوله الثاني: ﴿ولا تطع مَن أُغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾[٤].

﴿أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾[٥].

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾[٦].

(٣) ومن الناس من لا ينسب إلى الله تعالى إلا الخير. مستدلاً بهذه الآية المباركة: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[٧].

(٤) ومن الناس من ينسب إلى الله تعالى الخير والشر معاً، ويستدل

---

(١) سورة الرعد: ٣٣.
(٢) سورة النحل: ٩٣.
(٣) سورة ابراهيم (ع): ٤.
(٤) سورة الكهف: ٢٨.
(٥) سورة الجاثية: ٢٣.
(٦) سورة الاسراء: ٤٦.
(٧) سورة النساء: ٧٨.

بقوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾[1]. وبقوله: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[2].

(٥) ومن الناس من يحصر رحمة الله تعالى في إعطاء الأموال، فإذا حرم منها اتهم الله في سلطانه ونسب اليه تعالى عدم العدالة فيما وهب الناس واستدل بقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا. ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾[3]. ﴿واما إذا ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن﴾[4]. ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾[5].

(٦) ومن الناس من يقول بعدالة الله تعالى وأنه قسم ما قسم بحكمة ما بعدها حكمة ومنح كلا من عباده فوق ما يستحق وأعطاه بمقدار ما فيه صلاح نفسه وحسن عاقبته وسعادته الأخروية. ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزّل بقدر ما يشاء، أنه بعباده خبير بصير﴾[6].

﴿إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾[7].

ويستدل بالحديث القدسي: «وإنَّ من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو صرفته إلى غيره لهلك».

(٧) ومن الناس من يرى أن الله إنما يجزي عباده حسب أعمالهم ويستدل بالآية: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾[8]. ﴿ولتجزى كل نفس بما

---

(١) سورة النساء: ٧٧.
(٢) سورة الدهر: ٣٠.
(٣) سورة الزخرف: ٣٢.
(٤) سورة الفجر: ١٦.
(٥) سورة الرعد: ٢٦.
(٦) سورة الشورى: ٢٧.
(٧) سورة العلق: ٧.
(٨) سورة الطور: ١٦.

تسعى﴾[1]. ﴿كذلك نجزي من شكر﴾[2]. ﴿وكذلك نجزي كلَّ كفور﴾[3]. ﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾[4].

(٨) ومن الناس من يرى أن الله تعالى قد يعذب المحسن فيدخله جهنم! وقد يثيب العاصي فيدخله الجنة. ويستدل بقوله تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾[5].

(٩) ومن الناس من لا يرى ما يراه الفريق الثامن ويقول أن عدالة الله وحكمته الفائقة تأبيان ذلك ويستدل بقول الله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[6].

وبقوله: ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب﴾[7].

(١٠) ومنهم من يقول: قد كتب في اللوح المحفوظ ما سيقع إلى يوم القيامة وان علم الله أزلي لا يقبل التغيير وثابت لا يمحى والله عالم بما سيقع، فلا محيص من تحقق هذا العلم ووقوع ما سُطر في اللوح المحفوظ، فالانسان مضطر إلى ما يصدر منه ويستدل بقوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾[8].

(١١) ومنهم من يقول عكس ذلك: ان الله أجل وأعلى من أن ينهى عن الفسق ثم يحقق الفسق كرهاً وجبراً على يد عبد من عباده ثم يعاقبه

---

(١) سورة طه: ١٨.
(٢) سورة القمر: ٣٥.
(٣) سورة فاطر: ٣٦.
(٤) سورة طه: ١٢٧.
(٥) الأنبياء: ٢٣.
(٦) الأنبياء: ١٧.
(٧) سورة المؤمن: ٤٠.
(٨) سورة الحديد: ٢٢.

ويدخله الجحيم، فالانسان مختار في ما يختاره وحر فيما يعمل ويرتكب وأنه يعاقب ويثاب في حدود ما أعطي له من اختيار. ويستدل بقوله تعالى:

﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[1].

* *

وإنما جاءت هذه الاختلافات في العقيدة على ما أعتقد من تفاوت في صفاء النفوس ودرجة كمالها فان العقيدة مرآة النفس من حيث الصفاء والكدورة.

ثم إن النفس في أية درجة كانت تستدل على صحة ما ذهبت إليه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية مؤولةً إياها تأويلاً يؤدي إلى صحة ما تعتقد ظاهراً تاركة بعضها دون بعض أو دون عرض بعضها على البعض الآخر لتثبت ما ذهبت إليه من عقيدة. حين أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وكذلك الأحاديث النبوية وما أثر عن المعصومين عليهم السلام، فلا تصل التوبة إلى التأويل وترك جزء من آية والتمسك بجزء آخر منها بغية تقوية مذهب من المذاهب، أي لا حاجة إلى التأويل مع وجود نصوص كافية توضح لنا السبيل.

ولنَعُدْ لنقد المذاهب المذكورة واختيار المذهب الحق على ضوء ما جاء في القرآن كله دون اللجوء إلى التأويل، جاعلين العقل الانساني حكماً في صحة ما نذهب إليه:

(١) أما قول القائل: لو شاء الله لاهتديت، وان ما أنا فيه من ضلال إنما هو بارادة الله، ولولا إرادة الله لكنت من الهادين، فنقول رداً عليه:

إن الله وهو الكامل على الاطلاق قد خلق كل ما خلق من جماد ونبات وحيوان في غاية الكمال. وخلق الانسان وقد أودع فيه أسس الهداية

---

(١) سورة الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

والمعارف الآلهية. بقوله تعالى في عالم الذر: ﴿ألست بربكم. قالوا: بلى، أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك أباؤنا وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[1]. فكل منا قد اعترف بوحدانيته تعالى في عالم الذر، قبل أن تلج هذه الأرواح في الأبدان، ولا يجوز عند الانحراف (الناتج عن آثامنا) أن نتذرع بدين آبائنا وشركهم وأن نقول، قد انحرفنا كما انحرف آباؤنا من قبل. فليس لأحد أن يقول في هذا المقام: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون﴾[2] بل كل منا مسؤول يوم القيامة، بما أودع الله فيه من جذور الاعتراف به تعالى وبالمعارف الآلهية وبالنبوات والامامة على حد قوله جل من قائل: ﴿وهديناه النجدين﴾[3] أي طريقي الخير والشر وقوله: ﴿ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾[4].

فقول المشركين: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا﴾ قول عارٍ عن الصحة، لأن الله تعالى لا يحب الفساد، وهو القائل: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[5]. وبقوله: ﴿آم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار﴾[6] ولا خطيئة أعظم من خطيئة الشرك، فان خطيئة الشرك لا تغتفر أبداً وهو القائل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[7].

فكل من لم تبلغه الرسالة، كمن هو في (آلاسكا) مثلاً، فقد أودع في قرار نفسه جذور التوحيد وأسس الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة

---

(١) الأعراف: ١٧٢.
(٢) سورة الزخرف: ٢٣.
(٣) سورة البلد: ١٠.
(٤) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.
(٥) سورة البقرة: ٢٠٥.
(٦) سورة ص: ٢٨.
(٧) سورة النساء: ٤٨.

والأخلاق التي يرتضيها الله تعالى والتي لا يرتضيها، فهو مسؤول تجاه ربه، بعقله: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾[1].

كل ذلك، ليتكامل هذا الانسان: «اما بعقله، لو كان من الذين لم تبلغهم الدعوة، وأما، باتباع أوامر الأنبياء عليهم السلام إن كان من الذين بلغته الدعوة، ولذلك كله، قد جعل الله أول من خلق آدم (ع) نبياً، كي يسبق أمر الهداية (لأهميته) خلق من خلق من أناسي، من ذكر وأنثى. كي تكون لله تعالى على الناس الحجة البالغة، فلا لهو في عالم الخلق ولا اختلال. وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[2].

فالذي يزيغ عن الصراط إنما يزيغ من جراء ما تقوم به نفسه من معاصي وآثام وظلم وإجرام وعقوق[3] وأكل الحرام إلى ما هنالك.

انه تعالى يقول: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[4].

فهؤلاء الذين زاغوا، إنما زاغوا لفسقهم، وان أعمالهم السلبية كانت سبباً لزيغهم وانحرافهم.

ولقد قست قلوبهم من جراء بخلهم وعدم إعطائهم حقوق الأرحام والفقراء والمساكين فصارت لا تهتدي إلى الصراط المبين. فقسوة القلب تؤدي إلى العمى والعمى يؤدي إلى الضلال.

وحاشا، ان الله، وهو مُريد الكمال لهذا الانسان، أن يُزيع أحداً، ذلك لأن الكامل على الاطلاق وهو الله لا يصدر منه إلا الكمال، والزيغ يضادّ الكمال وهذا ما لا يصدر عن الكامل وهو الله تعالى. إذن الفرد هو الذي

---

(١) الانعام: ١٤٩.

(٢) سورة الأنبياء: ١٧.

(٣) عقّ الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان اليه واستخف به فهو عاق.

(٤) سورة الصف: ٤.

يقوم بتلويث نفسه بأنواع الفسوق، فتزيغ النفس بأمره تعالى، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾[1]. وإن الله تبارك وتعالى إنما يزيغ قلوب هؤلاء عن اتباع الصراط السوي لعلمه أنهم بلغوا مرتبة من التسافل لا تفيد معهم أية هداية، أنهم أصبحوا أمواتاً وجرثومة فساد. وهو القائل: ﴿وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾.

ذلك لأن الله تعالى، قبل أن يسد على هؤلاء أبواب الهداية قد هيأ لهم فرصاً كثيرة وأرسل اليهم مرشدين متعددين، هيأ لهم كل ما يمكن أن يعتبروا ويتعظوا به، إلا أنهم أبوا وخالفوا بدلاً من أن يستجيبوا وصاروا يستهزئون: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا﴾. (سورة البقرة: ٢١٢).

وحاشا ان الله يضل من يضل إلا لأنه أصبح في درجة من التسافل لا تفيد معه أية نصيحة وأي توجيه: ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾[2] ﴿والذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾[3] وفي آية أخرى: ﴿إن المسرفين هم أصحاب النار﴾[4] وفي آية أخرى: ﴿ولقد انزلنا آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[5].

فترون: إن هذه الآيات البينات كلها تجعل فعل الانسان الذي كان باختياره سبباً حقيقياً للضلال والزيغ والانحراف.

وأما قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فيشير إلى مدى قدرته تعالى ولكن الله لا يشذ عن سنة سنها، ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حي عن بينة﴾.

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٢) سورة المؤمن: ٣٤.

(٣) سورة المؤمن: ٣٥.

(٤) سورة المؤمن: ٤٣.

(٥) سورة البقرة: ٩٩.

وقوله جل من قائل: ﴿يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ يفسره قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾[1]. ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[2]. ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها مُنذرون ذكرى وما كنا ظالمين﴾ (الشعراء: ٢٠٩). ﴿من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساءَ فعليها، وما ربّك بظلام للعبيد﴾. (سورة حم ـ سجدة: ٤٦). فالله جلّ أن يلهو، فيشاء ما به فساد العالم، فيقرب العاصي ويبعد المطيع. وهو الذي نهى عن الفساد بقوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً، إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[3]. وقوله: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون﴾. فالله تعالى إنما يسدّ أبواب الهداية، على مَن أصبح جرثومة فساد لا يفيد معه الاصلاح. فمعنى قوله تعالى: يضلّ من يشاء، أي يسد على من أمسى مجموعة فسوق واجرام أبواب الهداية والرشاد، حتى يلقى جزاءه. وبديهي أن الله قد فتح له أبواب الهداية والرشاد مرات ومرات وأرسل إليه من يهديه ويرشده مرات ومرات ولكنه زاد تعنتاً وفساداً وإفساداً في الأرض. فلا يصلحه إلا النار!.

* * *

٢ ـ وأما قول القائل: إن الله هو الذي أراد بي الغواية والضلال، فهو في غاية الضلال، أنه تعالى يقول: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل أن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون[4]. قل أمر ربي بالقسط...﴾. ولا شك أن الضلال أساسه الفحشاء، والفحشاء يؤدّي إلى ظلمات في النفس والظلمات مؤدية إلى

---

(١) الكهف: ٤٩.
(٢) سورة آل عمران: ١٠٨.
(٣) الأعراف: ٥٥.
(٤) سورة البقرة: ١١.
(٥) الاعراف: ٢٨.

الضلال والعمى، وبما أن الله تعالى قد نهى عن الفحشاء فقد نهى بذلك عن الغواية والضلال.

وأما قوله تعالى: ﴿ولا تُطِع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾[1]. فالله تعالى جلّ أن يغفل قلب أحد عن ذكره إلا بعد إتمام الحجة عليه بأنواع متعددة وتماديه في غيه وفساده وإفساده وعصيانه، بحيث لا تفيد معه أي إصلاح وأية نصيحة حتى يكون مصداق هذه الآية: ﴿ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه﴾[2].

حاشا أن الله تعالى يسدّ على أحد أبواب الهداية حتى يكون الفرد هو الذي يسدّ على نفسه أبواب الرشاد بأنواع الفسوق والآثام وذلك لطغيانه وعدم انتهائه عن غلوائه مع تعدد مراتب الارشاد والنصيحة من ضمير يؤنبه ومحيط يرشده ومؤثراتٍ أخرى لا تعد ولا تحصى.

وأما قوله تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلّ الله﴾[3] دليل واضح على أن الظلم كان سبباً لاتباع الأهواء واتباع الأهواء كان سبباً للغواية والضلال، فهذه مراتب طبيعية رتبها الله وسنها، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[4]. فلا مفر منها. فان الله تعالى قد هداه بصورة فطرية إلى معالم التوحيد وما يقربه اليه، لكنه خالف وظلم وأفسد، فتراكمت عليه ذنوبه حتى كان مصداق هذه الآية: ﴿ثم كان عاقبةالذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[5] فصار لا يؤمن بالبعث وبنار جهنم حتى يكون في يوم هو المخاطب لهذه الآية: ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾[6].

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

(٢) الأنعام: ٢٨.

(٣) سورة الروم: ٢٩.

(٤) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٥) سورة الروم: ١٠.

(٦) سورة الطور: ١٥.

وإن قوله تعالى: ﴿وما يضلّ به إلا الفاسقين﴾. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون. دليل على أن الفسق هو سبب الضلال والانحراف عن الصراط السوي.

وإن غير الفاسق فسائر نحو مراتب التكامل قاطعاً مساره التكاملي، لأنه لم يهدم آثار الفطرة بفسوقه وفجوره. ولذلك، كل ما جاء من نظم ودساتير في الدين الاسلامي تعمل في سد طرق الفسق وزوايا الفجور حفظاً لسلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وكم رأينا آباءاً متدينين ابتلوا بأولاد منحرفين لم تفد فيهم نصائح الآباء وشفقتهم وعطفهم وازدادوا تعنتاً وجفاءاً، فلم يَرَ الآباء بداً إلا أن ينفصلوا عن أبنائهم ويتركوهم وشأنهم، فهل الأباء والحالة هذه مسؤولون عن انحراف الأبناء بعد إتمام الحجة عليهم مراتٍ ومرات، كذلك الحال دونما تشبيه بالنسبة إلى هداية الله العباد وإتمام الحجة عليهم بأن أودع في نفوسهم فطرة تسوقهم إلى العمل الصالح وتنفرهم عن العمل السيء، وتلهمهم الخير وما هو شر وإرساله الرسل مبشرين ومنذرين ثم ابتلائه إياهم مرات بما ينبههم على خطاياهم وتهيئته لهم ما يعتبرون به، ولكن كل ذلك لم يؤثر، بل ازداد هؤلاء طغياناً وظلماً وعُتواً، وأوجبوا على أنفسهم النار.

وأما قوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾[1] فقد جاء في صدر الآية: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه﴾[2] أي أن الله تعالى قد ذكر هذا المنحرف بآياته مراراً ومراراً ولكنه أبى وامتنع عن الطاعة لما قدمت يداه من إجرام وفسوق. فلا يجتمع الاجرام مع الاسلام على حد قوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين، ما لكم كيف تحكمون﴾[3] فالله تعالى يتمّ الحجة أولاً ثم إذا

---

(١) سورة الكهف: ٥٧.
(٢) الكهف: ٥٧.
(٣) سورة القلم: ٣٥.

لم ينته المجرم عن إجرامه يعذبه بما يستحق من العذاب ويخفض هذا العذاب تخفيضاً يتناسب مع رحمته. ذلك لأن عذاب الله أقل دائماً من المقدار الذي يستحقه المجرم بدرجات. وهو القائل: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً، وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً﴾[1]. فالله لا يعذب أحداً حتى يتم الحجة ببعث الرسل، ولا يهلك قرية ظالمة إلا بعد أن يرسل أنبياء ورسلاً مبشرين ومنذرين، فيأمرون المترفين منهم لأنهم أكثر الناس إفساداً في الأرض، يهدونهم ويعظونهم. أما من بلغ من الترف والفسق مرتبة قاصية حتى صار جرثومة فساد وإفساد، لا يؤثر فيه الوعظ ولا النصيحة ولا ينتهي عما هو فيه، يستحق العذاب بعد إتمام الحجة ويحق عليه القول، فيدمر باذن الله تعالى وجل الله أن يأمر المترفين بالفسق وهو ينهى عنه. وهو القائل:

﴿وما كان الله ليضلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، ان الله بكل شيء عليم﴾[2].

وهذه الآية صريحة في أن الله لا يظلم فرداً من الأفراد حتى يبيِّن لهم ما به التقوى والصلاح بأنواع البيان. وجل الله أن يظلم فرداً من الأفراد وهو غني عنهم والفرد هو الذي يُغوي نفسه ويرديها بسوء عمله ويبعدها عن ساحة القدس بسوء اختياره وإطاعته أوامر الشيطان الذي قد عرفه الله إياه بقوله: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾[3].

نعم، قلّ من ينسب النقص إلى نفسه إذا تردى وتسافل بسوء عمله، إلا المتقين التائبين الذين اتخذوا التقوى شعاراً والورع دثاراً وعملوا في تكميل نفوسهم وإرجاعها إلى الفطرة بعد الانحراف.

«إن الله تعالى يحب النفس الآخذة بالتكامل بعد الانحراف»: النفس اللوامة التي تلوم ذاتها لما أسلفت من معاص وآثام حتى أنه تعالى يقسم بها

---

(١) سورة الأسراء: ١٦.

(٢) سورة التوبة: ١١٥.

(٣) سورة فاطر: ٦.

إجلالاً لشأنها وذلك بقوله: ﴿ولا أقسم بالنَّفس اللوامة﴾[1] فتكـون هذه النفس: «النفس اللوامة» موضع عناية الله ورفده، وهو القائل: ﴿إنه غفور شكور﴾، ﴿إن الله غفور شكور﴾[2]، ﴿والله شكور حليم﴾[3].

* * *

٣ ـ قلنا إن قسماً من الناس لا ينسب إلى الله المتعال إلا الخير. وكل ما هو في صالح هذا الانسان ودليله على ذلك: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[4].

وهذا القول هو القول الصحيح من بين جميع الأقوال والمزاعم الباطلة. لأن الله تعالى غني عن خلقه غني عن ظلمهم وعن إغوائهم وهو الذي منع عن الظلم وأرسل هداة مهديين لهداية الناس أجمعين: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[5]. وإن لله على الناس (كما في الحديث) حجتين، حجة باطنة وهي العقل وحجة ظاهرة وهم الأنبياء والمرسلون، فعن الكاظم (ع): «إن لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالأنبياء والرسل وأما الباطنة فالعقول». كل ذلك ليهتدي هذا الانسان إلى الطريق الذي يؤدي به إلى جنـة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. فمن لم تبلغه الرسالة إنما يؤاخذ بما يمليه عليه عقله. فـ(العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان)... الحديث... فكل ما يصدر عن الله تعالى إنما هو خير محض، يدرك ذلك من صفت نفسه وتقرّب إلى الله المتعال بأعمال صالحات؛ ولكن النفس التي لم تنل قسطها من الكمال تظن أو تعتقد أن الشر (كذلك) من الله تعالى، حين أن الآلام والبلايا والنوائب وكل ما يكرهه هذا الانسان ليس بشر في واقع الأمر وإنما هو تطهير وتكفير وامتحان واختبار وزيادة في الدرجات.

(١) سورة القيامة: ٢.
(٢) الشورى: ٢٣.
(٣) سورة التغابن: ١٧.
(٤) سورة النساء: ٢٨.
(٥) سورة الروم: ٣٦.

وهو القائل: ﴿وان تصبهم سيئة بما كسبت أيديهم إذا هم يقطنون﴾[1].

فهناك أحاديث جمة تدل على أن البلايا والنوائب إنما هي رحمات من جانب الله لتطهير النفوس من أدرانها وأوساخها ولتقطع مراتب الكمال في هذا السير الدنيوي لتذهب إلى آخرة سعيدة ولا درن عليها. ذلك، لأن الدين الاسلامي بما فيه من تعليمات وأحكام وعقود وايقاعات مُزَكٍ لهذه النفوس مبلّغ إيّاها أعلى مراتب الكمال.

ومن الروايات المشهورة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فيتراءى لمن يجهل حكمة الوجود أن السجن معناه الشر، بل نعيم الآخرة أو الحياة السرمدية السعيدة متوقف على أن تكون الدنيا سجناً للمؤمن، يُطهر فيها نفسه، فتسير في مدارج الكمال: ﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[2].

وفي حديث آخر: «إن الله عز وجل إذا أحبَّ عبداً غته بالبلاء غتاً»[3].

وعن الصادق (ع): إنما المؤمن بمنزلة كفة الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه.

وعن الباقر عليه السلام: ان الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض.

وعن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): لا حاجة لله فيمن ليس له في ماله وبدنه نصيب.

وفي العلل عن علي بن الحسين عن أبيه عليه السلام: قال رسول الله (ص): «ولو كان المؤمن على جبل لقيض الله عز وجل له من يؤذيه ليأجره على ذلك». فهذا ليس بأذى وإنما زيادة في الدرجات.

---

(١) سورة الروم: ٣٦.

(٢) سورة الانشقاق: ٦.

(٣) غته: غمه، غت الشيء في الماء = غطّه، غمسه.

وفي كتاب التمحيص عن الصادق (ع) قال: لا تزال الهموم والغموم بالمؤمن حتى لا تدع له ذنباً.

وعنه عليه السلام قال: لا يمضي على المؤمن أربعون ليلة إلا عرض له أمر يحزنه يذكر به.

وقال علي (ع) في النهج: لو أحبني جبل لتهافت.

وقال عليه السلام: «من أحبنا أهل البيت فليستعد للبلاء جلباباً».

وقد جاء في شرح النهج مما قاله ابن أبي الحديد: قد ثبت أن النبي (ص) قال لعلي (ع): «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن البلوى أسرع إلى المؤمن من الماء إلى الحدور.

وتدلّ الأحاديث المذكورة أن المؤمن كلما كان أقرب إلى الله تعالى كانت بليته أعظم.

ففي الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام: البلاء وما يخص الله به المؤمن، فقال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: من أشد الناس بلاءاً في الدنيا؟ فقال: النبيون، ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه.

وفي تفسير العياشي عن صفوان بن يحيى عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال الله تعالى: يا ابن آدم، بمشيئتي كنت، أنت الذي تشاء وتقول، وبقوتي أديت إليّ فريضتي، وبنعمتي قويت على معصيتي، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذاك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذاك أني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون.

فقوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أي ما أصابك من الصحة والسلامة وسعة الرزق وجميع نعم الدين والدنيا فمن الله.

﴿وما أصابك من سيئة﴾ أي من المعاصي! (فمن نفسك) أي ما أصابك من المحن والشدائد والآلام والمصائب، فبسبب ما تكسبه من الذنوب وقد قال تعالى: ﴿ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ وقوله تعالى: (فمن نفسك) أي فبذنبك.

وقد فسر ذلك أبو القاسم البلخي بقوله: ما أصاب المكلف من مصيبة فهي كفارة ذنب صغير أو عقوبة ذنب كبير أو تأديب وقع لأجل تفريط.

وقد قال النبي (ص): «ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

وفسر أيضاً قول الله تعالى: ﴿فمن نفسك﴾ أي: من فعلك.

فكل ما يصدر من جانب الله تعالى رحمة وأية رحمة وكل ما يصدر من جانب العبد إما طاعة أو معصية بسوء اختياره، ثم يقول مسلياً نفسه: إن الله هو الذي أراد بي أن أعصيه وحاشا أن الله يريد بأحد سوءاً وهو الكامل على الاطلاق. وهو القائل: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]. وقوله جل من قائل: ﴿ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. (الأنفال: ٥٣).

فتحديد الرزق لا يكون إلا عن مصلحة لا يرتضيها العبد، وهو القائل: ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر: ٢١).

وقوله تعالى: ﴿ولو بَسَط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزل بقدر ما يشاء، انه بعباده خبير بصير﴾. (الشورى: ٢٧).

فالله أعلم بمصالح العباد وما يفيدهم وما يضرهم، ولكن العبد يظن أو يعتقد أن ما ينغص عيشه أو يؤلمه سيئة جاءته من جانب الله، حين أنها رحمة، كالدواء المر الذي لا يستسيغه المريض وفيه شفاؤه.

وهكذا بالنسبة إلى بقية النوائب والكوارث. وقد فصلنا ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب تحت عنوان: «لماذا هذه الزلازل؟».

---

(١) الرعد: ١١.

٤ ـ قلنا في المقدمة: إن من الناس من ينسب إلى الله تعالى الخير والشر معاً، ويستدل بقوله تعالى: ﴿قل كل مِن عند الله﴾. وبقوله: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾.

أما قوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾ فجواب لقولهم، حين قالوا: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وأن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ وهذا قول المنافقين. إن أصابهم خصب ومطر قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم قحط وجدب قالوا هذا من شؤم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿قل كل من عند الله﴾ أي جميع ما مضى ذكره من الموت والحياة والخصب والجدب من عند الله وبقضائه وقدره لا يقدر أحد على رده ودفعه ابتلى بذلك عباده ليعرضهم لثوابه بالشكر عند العطية والصبر عند البليّة. ولذلك قال تعالى: ﴿فمالِ هؤلاء القوم (أي المنافقين) لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

وأما استدلالهم بهذه الآية: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ لاسناد الشر إلى الله المتعال ففي غاية الوهن، ذلك لأن الله تعالى لا يريد بالناس إلا الخير والرحمة ولذلك أرسل أنبياء ومرسلين لهداية الناس وركز أصول الهداية في العقل الانساني. وأتمّ الحجة على العباد. فلا يكون الشر من جانب الله تعالى. وان ما يعترض الانسان من بلاء وفقر ومرض إنما هو لتهذيب هذا الانسان وإصلاحه وتوجيهه إلى معالم القدس، لتزكو نفسه، فيكون قميناً لما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر.

ومعنى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ أي أنك لو قصدت أمراً والله لا يريد تحقّق ذلك (لمصلحة خفيت عليك) فلا يقع ذلك الأمر. أي كل أمر منوط وقوعه بمشيئة الله تعالى. والله قادر أن يحول بينك وبين ما تريد: ﴿والله يحول بين المرء وقلبه﴾[1].

ولكن حاشا أن الله تعالى يريد بك الغواية والضلال، فليس لك أن تنسب ما تفعله من معاص وآثام إلى مشيئة الله تعالى وتستدل بالآية

(١) الأنفال: ٢٤.

المتقدمة. ذلك، لأن الله تعالى هو الذي نهى على لسان أنبيائه (ع) وبنفس ألهمها فجورها وتقواها عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب والظلم والبغي... الخ.

فمعنى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾: أن الأمور لا تتحقق إلا بمشيئته وإرادته وقدرته، فالقدرة والطاقة كلها من جانب الله، ولا تأتي القدرة والطاقة إلا بمشيئته: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليماً غفوراً﴾[1] فلو سلب الله تعالى الطاقات منا فلا أثر لمشيئتنا. فبالمال لا تتحقق الأمور إلا بمشيئة الله تعالى. ولكن الله جل أن يلهو وان يريد بالناس الغواية والضلال والانحراف، وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿أن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون، انه عليم بذات الصدور﴾.

فالله جعلك مختاراً في ما تعمل من عمل صالح أو سيِّء ويكافئك ويعاقبك في حدود هذا الاختيار ولكن لحكمة ما قد يحول بينك وبين ما تريد.

* * *

وفي تحف العقول للحسن بن علي بن شعبة، قال أبو حنيفة: حججت في أيام أبي عبد الله الصادق (ع) فلما أتيت المدينة، دخلت داره فجلست في الدهليز انتظر إذنه إذ خرج صبي، فقلت ما اسمك؟ فقال: أنا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقلت: يا غلام مِمَّن المعصية؟ فقال: إن السيئات لا تخلو من إحدى ثلاث: إما أن تكون من الله وليست منه: فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب، وإما أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القوي أن

---

(١) فاطر: ٤١.

(٢) الأنبياء: ١٧.

يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد، وهي منه، فإن عفا فكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته.

والشر سواء عبروا عنه (بأمر عدمي) على ما يقول بعض فلاسفة الشرق أو عبروا عنه بتعبير آخر هو حادث من الحوادث والله تعالى أمرنا أن نستعيذ به من شر الشيطان عند تلاوة القرآن بقوله جل من قائل: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.

وهناك سورتان تسميّان بالمعوّذتين: سورة الفلق وسورة الناس. فالله يعلمنا أن نتعوذ به: فنقول بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ بربّ الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العُقد ومن شر حاسد إذا حسد.

وأيضاً: بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الناس، ملك الناس آله الناس من شرّ الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. وهناك أدعية كثيرة للاستعاذة من كلّ شر: منها: بسم الله الرحمن الرحيم، لا آله إلا الله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أشهد أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، أللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، ان ربي على صراط مستقيم.

* * *

٥ ـ وأما قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾. إن الله تعالى قسم المعايش في الحياة الدنيا بين الناس حسب الحكمة والمصلحة، فهناك من يضره البذخ والوفور فيقتر عليه رزقه وهناك من يضره التقتير فيوسع عليه رزقه وهناك من يستحق لخصائص فيه وجهد واجتهاد درجاتٍ فوق من دأبه الخمول والكسل وديدنه الاهمال وعدم الاتكال على الله.

ففي الحديث القدسي: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر فلو

صرفته إلى غيره لهلك، وان من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو صرفته إلى غيره لهلك».

فالله أعلم بطبائع الناس وما يصلحهم وقد يقدر على أحد عباده رزقه ليختبره ويطهره، ولكن العبد يتجرأ على الله تعالى فيقول: ربي أهانن، على حد قوله جل من قائل: ﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول: «ربي أهانن» فالله تعالى: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ حسب المصلحة وتخفى هذه المصلحة على الناس إلا الأولياء منهم والصلحاء.

فقد يكون التقصير في الرزق رحمة والتوسعة نقمة، وهو قوله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم أن كيدي متين﴾ ونستجير بالله من هذه المرحلة.

فالانسان إذا لم يتعظ بأوامر الله تعالى تركه الله ونفسه وأغدق عليه وأخذه أخذ عزيز مقتدر، وهو القائل: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبلسون﴾. (الأنعام: ٤٤، مبلسون: آيسون من الرحمة أو مكتئبون).

فعلى الانسان أن يرضى بالوضع الذي هو فيه وان يشكر الله كثيراً، لأن الله تعالى قد أعطاه فوق ما يستحقه لو تدبر وتعمق: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. وأن يسأل الله تعالى المزيد بطرق مشروعة إن كان ممن يريد المزيد، (ورب زيادة وبال!)، وقد قال جلّ من قائل:

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله، ان الله كان بكل شيءٍ عليماً﴾[1].

وبما أن الناس مختلفون في مراتب الطاعة والشكر والسعي والتوكل على الله وتفويض الأمر إليه تعالى فما يصيبهم في هذه الدنيا من النعم والعطاء والتأديب والعقاب مختلف أيضاً، ولو أمعن النظر أي فرد من أفراد

---

(١) سورة النساء: ٣١.

البشر فيما هو فيه من نعم وقاس طاعته وما يقوم به من أعمال تجاه تلك النعم لعلم أن الله قد عامله بفضله ولم يعامله بعدله.

وإن من ضِعة النفس أن تصف الله جل جلاله بالعدل بل هو المتفضل المنان، عامل الناس جميعاً بفضله ولم يعاملهم بعدله.

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة!﴾[1].

* * *

٦ ـ وأما الطائفة السادسة فهي الطائفة المحقة التي ادركت عدالة الله وأنه مُعطٍ كل ذي حق حقه وزيادة، وأدركت تفسير الآية: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزِّل بقدر ما يشاء، انه بعباده خبير بصير﴾، فقد قرأنا في أحوال الماضين من الأمم ما يحقق منطوق الآية. وكل فساد آتٍ من الطغيان والبذخ والترف، وهو القائل: ﴿إن الانسان ليطغى، أن ر آه استغنى﴾... ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها أنا بما أرسلتم به كافرون﴾. (سورة السبأ).

٧ ـ وأما الطائفة السابعة وهي التي ترى أن الله إنما يجزي عباده حسب أعمالهم مستدلاً بهذه الآية المنيفة: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾، حقاً إن الانسان يجزى بمقدار سعيه، ولكن الله جلّت قدرته، رحمته لا تتناهى وعطفه لا يحد فلو قام الانسان قبل موته بتطهير نفسه وتزكيتها من أوساخها وأدرانها وأرجع إلى الناس حقوقهم وقام بأداء الفرائض وملافاة ما فاته منها بقدر المستطاع فالله يمحو بلطفه وعظيم رفده تلك السيئات على حد قوله جل من قائل: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾[2]. وهو القائل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً، أنه هو الغفور الرحيم، وأنيبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون[3]، واتبعوا أحسن ما

---

(١) سورة النحل: ٦١.

(٢) سورة هود: ١١٤.

(٣) سورة الزمر: ٥٣ ـ ٥٤.

أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين. أو تقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرةً فأكون من المحسنين، بلى، قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين. ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾[1].

فمن تدبر الآيات المذكورة علم فلسفة الهدى والضلال وأن الله قد أتمّ الحجة على عباده وكيف يتحسر الانسان الذي لم يتبع سبيل الهدى الناصعة (يوم القيامة) قائلاً: ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾، وكيف أن الله يغفر الذنوب إذا تاب العاصي وأناب.

وكم من أناس ينجون من نار جهنم بشفاعة الشافعين، مع العلم أن ليس لأحد أن يشفع إلا باذنه تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾. ﴿ومن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، ﴿ما من شفيع إلا من بعد اذنه﴾، ولكن الله لعظيم رحمته قد يأذن لأنبيائه وأوليائه وخيار خلقه بالشفاعة للمذنبين إن لم يبلغ الذنب أو الظلم مرتبة الشرك، ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، ولا يبلغ مرتبة الشرك إلا من أمسى جرثومة فساد وإفساد بعيداً عن الاصلاح بُعد السماء عن الأرض.

* * *

٨ ـ أما الطائفة الثامنة وهم الأشاعرة ترى أن الله تعالى أن يعذب المحسن فيدخله جهنم ويثيب المعاصي فيدخله الجنة، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾. ولكن لا يصدر عن الله وهو الكامل على الاطلاق ما يتنافى مع الحكمة وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، ﴿وما خلقنا السماوات

---

(١) سورة الزمر: ٥٣ ـ ٦٠.

والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[1]

وتستدل هذه الطائفة بهذه الآية: ﴿ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم﴾ ولكن الله تعالى لا يعذب إلا من يستحق العذاب وقد يعفو ان كان العاصي له من أعمال صالحات يستحق بها العفو. ويرحم من يشاء ولا يرحم من بَلَغ من الظلم والتسافل حتى آل أمره إلى الشرك، أو أفسد في الأرض من القتل والنهب والفساد والافساد حتى كان جرثومة فساد لا تصلحه إلا النار.

وتستدل هذه الطائفة أيضاً بهذه الآية: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ والله لا يعذب إلا العاصي ويرحم من يستحق الرحمة من العصاة الذين لهم من الأعمال الصالحة ما يستوجبون رحمة الله وكانوا مصداق هذه الآية: ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾. (سورة التوبة: ١٠٣).

وأما قوله تعالى: ﴿من يُصرف عنه يومئذ فقد رحمه﴾[2] ذلك لأن الناس عدا المعصومين لهم من الذنوب ما الله به أعلم. ﴿أحصاه الله ونسوه﴾[3] فلا يُصرف العذاب عن انسان عدا المعصومين إلا برحمة منه تعالى.

والمعتزلة نظروا في هذه المسألة لله من ناحية أنه عادل لا يظلم أحداً شيئاً مما عمل، ومن ناحية أن ما أخبر به يجب أن يتحقق ليكون جل جلاله صادقاً في خبره، وقد أخبر في القرآن بثواب المطيع وعقاب العاصي[4].

وقد فسر الزمخشري: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ بان الله يريد أن يقول: «لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظالماً مُفرطاً في الظلم».

---

(١) سورة الدخان: ٣٨ - ٣٩.

(٢) سورة الانعام: ١٦.

(٣) سورة المجادلة: ٦.

(٤) الاسلام وحاجة الانسانية اليه، للدكتور: محمد يوسف موسى.

والدليل على أن الله لا يعذب المحسن ولا يكافىء العاصي إلا بعد التوبة أو الشفاعة وأعمال أخرى صالحات: الآيات التالية:

١ ـ ﴿وأما الذين آمنوا فيوفيهم أجورهم، والله لا يحب الظالمين﴾.

٢ ـ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾.

٣ ـ ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل، إن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾.

٤ ـ ﴿وما كان لنبي أن يغلّ، ومن يغلّ يأت بما غلّ يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

٥ ـ ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾.

٦ ـ ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

٧ ـ ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾.

وهنا آيات تدل على وجوب العقاب وان شمول الرحمة والعفو لا يكون إلا لاستحقاق سابق. من عمل صالح كان يقوم به هذا العاصي فيخفف الله عليه العقاب وتشمله الرحمة.

١ ـ ﴿ومن يعصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾.
٢ ـ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾.
٣ ـ ﴿ومَن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.
٤ ـ ﴿ومن جاء بالسيئة فكُبّت وجوههم في النار﴾.
٥ ـ ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

وأما الخلود في النار فمحقق إن لم يتب الشخص من جريمته ولم يخلط عمل السيء بعمل صالح ولم تنله الشفاعة لبعض الأعمال الحسنة التي قام بها لوجهه تعالى. وهو القائل: ﴿يا بنيَّ أنها إن تك مثقال حبَّة من خردل فتكن في صخرة أو في السماء يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾ (سورة لقمان: ١٦).

فكل خصلة من الاساءة والاحسان إن تكن زنة حبة من خردل في أخفى موضع كجوف الصخرة أو أعلاها كـالسماوات أو أسفله كـالأرض يحضرها الله فيحاسب عليها فالله نافذ القدرة خبير بكل خفي.

وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب، فان لها من الله طالباً، وأنها لتجتمع على المرء فتهلكه». فالكمال أن يكون الانسان في هذا المقام بين الخوف والرجاء. وقد قال لقمان (ع) لابنه: «يا بني، خف الله خوفاً لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك».

* * *

٩ ـ أما الطائفة التاسعة فمعها كل الحق، إذ أنها تقول بعدالة الله وهي صفة الكامل على الاطلاق بحكم العقل. لأن الكمال لا يتم إلا بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه من الصلحاء والطيبين، وجل أن يلهو ربنا، لأن اللهو يتنافى مع صفة الكمال، وهو القائل: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا﴾[١].

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا ان الله حر مهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾[٢].

وقد حقّر ربنا الدنيا ووصفها باللهو واللعب، بقوله: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فكيف يلهو ويلعب وهاتان صفتان تنافيان الكمال ولا تليقان بحكيم عادي فكيف بالله المتعال.

* * *

---

(١) الانعام: ٧٠.

(٢) الأعراف: ٥٣.

١٠ ـ وأما الطائفة العاشرة التي تقول: بأنه سيقع حتماً ما سُطر في اللوح المحفوظ، فإذا سطر سعادة فرد فأنه سعيد لا محالة وان سطر شقاء فرد فانه شقي لا محالة، مستدلة بهذه الآية: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾، فإن كان يريد الجبر وسلب الاختيار من هذا الانسان في ما يعمل فهو في غاية الضلال والزيغ، وهذا معناه: نسبة الظلم إلى الله الرؤوف الرحيم. أي أن الله يجبر بعض الأفراد أن يظلموا أو يكفروا فيدخلهم النار ويجبر قسماً آخر أن يتقوا ويصلحوا فيدخلهم الجنة، والله وهو الغني عن عبادة من عبد وكفر من كفر خلق الانسان مختاراً، وهداه سواءالسبيل بالفطرة وإرساله الرسل مبشرين ومنذرين ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾[1]. فليس الانسان مضطراً إلى ما يصدر منه بعد اراءة الطريق وإعطاء الاختيار ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾[2]. إلا أن الله جل جلاله لكماله الـذي لا يضاهيه أي كمال ولعلمه الذي لا يتناهى ولا يحد يعلم ما سيقع من أول الخليقة إلى يوم القيامة وبعد يوم القيامة. يعلم أن هذا الفرد سيختار طريق الهدى والصلاح، فيكون من المتقين ويجتنب المحرمات ويعمل حسبما يُمليه عليه الفطرة والعقل السليم ويتبّع سبيل الأنبياء (ع)، فمآله الجنة، ويعلم أن الفرد الآخر يخالف ما يمليه عليه عقله يخالف مُعطيات الفطرة، يرفض ما أملاه عليه الأنبياء والصالحون من عباد الله، يبغي في الأرض فساداً، يظلم ويفجر، فتتحجر نفسه، وتتدنس روحه، فلا يصلحها إلا النار ومآله جهنم، وليس هذا العلم الذي هو من كمال الله تعالى، العلم بما سيقع بمجبر هذا الانسان ليختار هذا السبيل وأن لا يختار سبيلاً آخر، أي ليس علم الله تعالى بسالب اختيار هذا الانسان ومجبر إياه على اتباع طريق سبق في علم الله تحققه، وإنما الله تعالى لكماله يعلم ما سيقوم به هذا الفرد من أعمال صالحة أو غير صالحة. وهو القائل: ﴿وما الله يريد ظلماً

---

(١) سورة النساء: ١٦٤.

(٢) الأنفال: ٤٣.

للعباد﴾[1]، ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾.

﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، ان الله بكل شيء عليم﴾[2].

فالفرد بكبريائه وإسرافه وجبروته وطغيانه وطيشه وظلمه وبغيه يسد على نفسه طريق الهداية والاهتداء، فيتذرع تسلية لنفسه اللئيمة قائلاً: سبق في علم الله أن أكون من الضالين ولو شاء الله لاهتديت، ولا يلتفت إلى ما هو فيه من صفات ذميمة وفجور وفسوق وهتك الحرمات وأنواع البغي والظلم. وحاشا أن الله يجبر أحداً على هتك الأعراض وهو الذي نهى عن الزنا وحدّ له حدوداً من جلد وقتل ورجم إلى ما هنالك[3]. وهو القائل:

١ ـ ﴿كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب﴾. (المؤمن: ٣٤).

٢ ـ ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾. (المؤمن: ٣٥).

٣ ـ ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم قوماً مجرمين﴾ (سورة السبأ).

٤ ـ ﴿فان تولوا، فان الله عليم بالمفسدين﴾. (آل عمران).

٥ ـ ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (القصص: ٥٠).

٦ ـ ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. (المنافقون: ٦).

٧ ـ ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ (المؤمن: ٢٨).

٨ ـ ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. (سورة البقرة).

٩ ـ ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾. (العنكبوت: ٤٩).

١٠ ـ ﴿وإن المسرفين هم أصحاب النار﴾. (سورة المؤمن).

---

(١) المؤمن: ٣١.

(٢) سورة التوبة: ١١٥.

(٣) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب: الكبائر.

١١ - ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾. (سورة المؤمن).

وقد يستدل الغاوي بهذه الآية:

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[١].

إن عمل الانسان على أنواع، منها ما يقوم به من اختراعات واكتشافات، ولا شك لولا الصدف التي يهيئها الله لهذا الانسان والدماغ المفكر الذي وهبه اياه والالهام والحدس (كما جاء في تاريخ العلوم والمخترعات) لما تمكن هذا الانسان من صنع أية آلة واختراع أي جهاز.

فهذه الأجهزة والاختراعات على تنوعها هي من مخلوقات الله تعالى، ولم يشكر الانسان ربه تجاه هذه النعم بل ازداد تعنتاً وكفراً، ﴿إن الانسان لربه لكنود وأنه على ذلك لشهيد، وأنه لحبّ الخير لشديد﴾[٢].

ومنها ما يقوم به من عمل صالح وما يقوم به من أعمال سيئة، فكل ذلك بالمآل من مخلوقات الله تعالى. أما العمل الصالح، كإطعام الفقراء وإكساء الأيتام والبؤساء وإيوائهم فلا يتحقق إلا بطاقات أودعها الله في هذا الانسان، وهداية الله إياه بإرساله الرسل والفطرة الملهمة لصالح الأعمال. وأما العمل السيء أيضاً لا يتحقق إلا بطاقات أودعها الله في الانسان فبالمآل يظن الفرد أنه من مخلوقات الله وليس لمرتكبه حصة في الانجاز. ولكن الله أرشد هذا الانسان بعقل[٣] يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وبإرساله الأنبياء والمرسلين والوعاظ الصالحين، لكنه خالف العقل وسخر من وعظ الواعظين، وأوغل في الفساد والافساد، فلوث نفسه فعمي قلبه: ﴿فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾

---

(١) سورة الصافات: ٩٦.

(٢) سورة العادات: ٦ - ٨.

(٣) العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان.

فليس لأحد أن يقول: «ان الله هو الذي أراد بي هذا الطريق الغاوي لأنه خالق لكل ما نعمل، ذلك لأن الغاوي استعمل الطاقات التي أودعها الله تعالى فيه في ما لا يرضى الله، فيما يوجب سخط الله مع وخز الضمير الفطري وتنبيه العقل الفطري.

١١ ـ أما الطائفة الأخيرة فعلى حق صريح، حيث نفت الاغواء والاضلال عن الله، ونفت اللهو واللعب عن الحكيم الخبير، فالله الذي كتب على نفسه الرحمة حاشا أن ينهي عن الفسق ثم يُجري الفسق كرهاً على أيدي بعض العباد ثم يعاقبهم عليه.

ولو تتبع الانسان حياته وتذكر ما قام به من المعاصي والآثام (وما أكثرها!) لعلم أنه قد سد عليه كثيراً من أبواب الرحمة ونعماً لا تعدّ ولا تحصى ولولا تلك الذنوب لجمع بين سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، فتاريخ أكثر البشر تاريخ مظلم ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾[1].

﴿وان تُطِع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾[2] فلكل عامل في سبيل الخير والطاعة درجات ومقامات يضيِّعها الانسان بسوء اختياره بظلمه وجفائه، وهو القائل: ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾. (سورة الأنعام: ١٣٢)، فان رحمة الله مكتوبة للمتقين الذين يتفقدون المساكين والبؤساء، وهو القائل:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾. (الأعراف: ١٥٦).

حقاً إن الضلال إنما يتأتى من عمل الانسان نفسه، أي أن الضلال يترشح من سوء الأعمال والظلم والبغي. وهو القائل:

﴿قل إن ضللتُ فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي، أنه سميع قريب﴾. (سورة سبأ: ٥٠).

---

(١) سورة يوسف (ع): ١٠٣.
(٢) سورة الانعام: ١١٦.

فالتكذيب بآيات الله يترشح من نفس معتدية أثيمة:

﴿ويل يومئذ للمكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[1].

نعم إن التكذيب إنما هو نتيجة دعّ اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين. وهو القائل:

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين﴾[2].

فالاهتداء يتناسب تناسباً طردياً مع عدم الظلم، أي كلما كان الفرد أبعد عن الظلم (أي ظلم) كلما كان إلى الاهتداء أقرب. وهو القائل:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[3].

فهناك تنافٍ بين الظلم والهداية، كما أن هناك تضادّاً بين الاجرام والاسلام بالمعنى الصحيح:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾[4].

﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾. (سورة الشعراء: ٢٠٠).

فالظلم هو الذي يؤدّي إلى الطيش والضلال واتباع الهوى، وهو قوله تعالى:

---

(١) سورة المطففين: ١١ ـ ١٥.
(٢) الماعون: ٢ ـ ٤.
(٣) الانعام: ٨٢.
(٤) سورة القلم: ٣٦.

﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلّ الله، وما لهم من ناصرين﴾. (سورة الروم: ٢٩).

فالظلم يؤدي إلى اتباع الهوى وإتباع الهوى يؤدي إلى الضلال وبما أن هذا الضلال هو نتيجة سنّة سنّها الله تعالى فنسبه إلى نفسه، بقوله تعالى: ﴿فمن يَهدي مَن أضلّ الله﴾ والظلم نتيجة الظلمات، ففي الحديث: «اتقوا الظلم، فأنه ظلمات يوم القيامة».

* * *

عوامل الاهتداء أو الهدى

هناك عوامل تؤدي إلى الاهتداء وإتباع الطريق السوي وعدم الانحراف وليس هناك إلا صراط واحد وهو الصراط الوحيد المؤدّي إلى حسن العاقبة وجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك، أمرنا الله أن نقول في كل ركعة من الصلاة: «إهدنا الصراط المستقيم» لأن هذا الصراط لا يتعدّد، ولكن الطرق المعوجة والمنحرفة كثيرة ومتعددة، ونستجير بالله تعالى منها:

١ ـ التقوى والهداية: إن التقوى هي أساس الاهتداء وهي الوسيلة المؤدية إلى صراط مستقيم. والتقوى: أن لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك. فمن اجتنب المحرمات وأطاع الله تعالى في السر والعلن وقام بأداء الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وأعطى حقوق الفقراء والمساكين وكان دأبه الانصاف والترحّم على الضعفاء والبؤساء فهو واصل لا محالة إلى الطريق السويّ الذي ارتضاه الله لعباده.

أ ـ انه تعالى يقول:

ـ يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم[١].

---

(١) سورة الأنفال: ٢٩.

فبالتقوى يُلهمك الله ماتفرق به بين الحق والباطل ويكفر عنك ما قمت به من أعمال سيئة ثم يغفر لك ذنوبك، والله ذو الفضل العظيم، لأنه يبتدىء بالنعم قبل استحقاقها. وإن درجة الاهتداء لتتناسب مع درجة التقوى، فالايمان محصلة التقوى كما في تركيب القـوى (في علم الميكانيك). أي أن الايمان عصارة التقوى. فمن كان يعتقد اعتقاداً ينحرف عن الاعتقاد الصحيح الذي يسنده العقل الفطري والنصوص الصريحة الواضحة، ففي تقواه شيء من الضعف ولم يبلغ الدرجة الكافية من مراتب التقوى، وان هذا الضعف في التقوى جعله لا يميز بين الحق والباطل تمييزاً يؤدي به إلى المحجة البيضاء. فتفاوت الناس في العقائد والوصول إلى الواقع إنما هو بتفاوتهم في مراتب التقوى، وكلما كان الانحراف أكثر، فالبعد عن الصلاح والتقوى اكثر فأكثر. ولذلك قال جلّ من قائل: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ب ـ بسم الله الـرحمن الرحيم ـ الم، ذلـك الكتـاب لا ريب فيـه هـدىً للمتقين.

فحصر الله سبحانه الهدى بالمتقين، دون غيرهم، أي لا يهتدي بهدى القرآن إلا من كان تقياً، اتخذ التقوى ديدناً وشعاراً. ثم يصف الله تعالى المتقين بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾. ثم يؤكد الله تعالى قائلاً: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

جـ ـ وقال تعالى: ﴿وتزودوا، فان خير الزاد التقـوى﴾، ﴿واتقون يـا أولي الألباب﴾.

ذلك لأن التقوى طريق الهداية والنجاة، وبها يهدي الله الانسان إلى ما به النجاة والخلاص.

د ـ ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السمـاوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾[1].

فلا يعتبر بآيات الله تعالى ويقوي بها إيمانه ويقينه إلا المتقون، وكم في الغرب من تعمق في الفلك والمكانيك السماوي وما أودع الله في السماء من معادلات وقـوانين وتعمق في علم طبقات الأرض وعلم الأنواء ولكنه ومع الأسف ضعيف الايمان أو مسلوب الايمان لعدم كونه من المتقين، فالتقوى أساس الهداية. التقوى تنير القلب ويكون إذ ذاك محلاً للفيوضات الربانية فيبلغ مرتبة اليقين بلطفه تعالى.

٢ ـ الخشية طريق الهداية، ذلك لأن من يخشى الله تعالى: لا يعصيه ومن لا يعصى تتوجه نفسه بصورة طبيعية نحو الطريق المؤدي إلى الجنة. ولا يهتدي من لا يخشى الله تعالى. وهو القائل:

أ ـ ﴿وسواء عليهم، أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، فبشره بمغفـرة وأجر كـريم﴾[2] فلا يستفيد من إنذار الرسل إلا من كان يخاف الله في خلواته وحركاته. ولا يؤمن من كان لا يخشى الله تعالى ولا يتقيه.

ب ـ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾.

ذكر الله تعالى مقام من يخشاه وما ينال من الأجر وهم خير البرية، والخشية مقدمة التقوى، فالتقوى نور الايمان، وبها يصل الانسان إلى خير السبل، وانجع الطرق، وجنة عرضها السماوات والأرض أعِدّت للمتقين.

* * *

---

(١) سورة يونس: ٦.

(٢) سورة يس: ١٠ ـ ١١.

٣ ـ الانابة: هي الرجوع إلى الله تعالى بالقلب والانقياد والاطاعة لله المتعال.

فالله تعالى ﴿يهدي اليه من أناب﴾[١]، و﴿يهدي اليه من ينيب﴾[٢].

وقد حصر التذكر بآيات الله والاتعاظ بمن ينيب وذلك بقوله: ﴿ولا يتذكر إلا من ينيب﴾[٣].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾[٥].

﴿قل ان الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾. (الرعد: ٢٧) فالضلال خاص بغير المنيبين.

* * *

٤ ـ الضلال والشيطان. إن الله قد أمرنا أن لا نتبع الشيطان ولا نطيعه. بقوله: ﴿إن الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[٦].

﴿وقال الشيطان لما قُضي الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي، إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل. ان الظالمين لهم عذاب أليم﴾. (سورة الرعد: ٢٢).

---

(١) سورة الرعد: ٢٩.
(٢) الزخرف: ١٣.
(٣) الشورى: ١٣.
(٤) سورة ق: ٨.
(٥) سورة ق: ٣٣ (أوّاب: رجاع إلى الله بالتوبة).
(٦) فاطر: ٦.

ثم إن الشيطان لا يسيطر إلا على من يعمى عن ذكر الله تعالى، ولا يطيعه، وهو القائل:

﴿ومَن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين، وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين، فبئس القرين﴾ (سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨).

﴿هل أنبئكم علـى من تنزّل الشياطين، تنزل على كـل أفّاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾. (سورة الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢).

فمن لم يكن أفّاكاً (كثير الكذب) أثيماً لا يقترب منه الشيطان!.

ثم ان الشياطين هم أولياء الذين لا يؤمنون، أي للكافرين الذين لا يؤدّون واجب الشكر تجاه نعمه تعالى. وهو القائل:

﴿يا بني آدم لا يفتِننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[١]

﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[٢].

﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾[٣].

﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وربك على كل شيء حفيظ﴾. (سورة سبأ: ٢٠ ـ ٢١).

فالله تعالى يختبر عباده مع علمه بمصيرهم إتماماً للحّجة، فيقول: يوم

---

(١) الاعراف: ٢٧، السوأة: العورة.

(٢) سورة النساء: ٦٠.

(٣) الأعراف: ٣٠.

القيامة من عمي عن الحق: ﴿ربِّ لم حَشَرتَني أعمى وقد كنت بصيراً. قال: كذلك، أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى﴾[1].

وليس للشيطان أي سلطان على عباد الله إلا إذا كان من الضالين وهو قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبّعك من الغاوين﴾.

أما الذين أخلصوا لله جل جلاله في الطاعة فهم بعيدون عن إغواءِ الشيطان وتسويلاته: ﴿قال ربِّ بما أغويتني لأزينّن لهم في الأرض ولأُغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

ونستعيذ به تعالى من شر الشيطان وكيده ومكره ونسأله أن يجعلنا من عباده المخلصين بفضله ومنّه.

* * *

٥ ـ الضلال والظلم. إن الظلم أعظم عامل في صدّ الإنسان عن الطريق السويّ وأكبر حجاب حاجز دون رؤية الحق والواقع، ذلك لأن الظلم ظلمات. ولولا الظلم لكان الناس أمة واحدة، يعبدون الله تعالى ويوحدّونه وما كنت ترى للشرك سبيلاً.

وقد قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾[2].

﴿وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمى لقضي بينهم، وان الذين أورثوا الكتاب مِن بعدهم لفي شكٍ منه مريب﴾[3].

﴿ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله، والذين

---

(١) سورة طه: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) الشورى: ٨.

(٣) الشورى: ١٣.

آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعاً، وان الله شديد العذاب﴾[1].

ونتيجة الظلم الكفر:

﴿أوَ لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه، فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾. (سورة النمل: ٩٩).

ونتيجة الظلم الجحود:

﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾. ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾. (سورة العنكبوت: ٤٩).

وعاقبة الظلم الهلاك:

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم مَوعداً﴾. (الكهف: ٥٩).

الاعتداء (أو الظلم) نتيجة التكذيب بآيات الله البينات:

﴿ويلٌ يومئذ للمكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل مُعتدٍ أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾.

والاساءة نوع ظلم ونتيجتها التكذيب بآيات الله تعالى:

﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. (الروم: ١٠).

ومن الاساءة الكذب وهذا بدوره يؤدي إلى الضلال: ﴿إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾. (سورة الزمر: ٣).

﴿بل اتبع الذي ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدى من أضلّ الله وما لهم من ناصرين﴾. (الروم: ٢٩).

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾. (لقمان: ١١).

﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون﴾[١].

﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (البقرة: ٢٥٨).

﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين﴾[٢]. وكم لهذه الآية من مصاديق في عصرنا الحاضر!.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (المائدة: ٥١).

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلّ الناس بغير علم. إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (الأنعام: ١٤٤).

﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (سورة التوبة: ١٩).

﴿أفمن أسَّس بنيانَه على تقوى من الله ورضوان، خيرٌ أمْ من أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة التوبة: ١١٠).

﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله، ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة القصص: ٥٠).

﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون، فأنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. (سورة الانعام: ٣٣).

---

(١) سورة النور: ٥٠.

(٢) سورة آل عمران: ٨٦.

﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم بـه وشهد شـاهد من بني إسرائيل على مثله، فآمن واستكبرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (الأحقاف: ١٠).

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة الصف: ٧).

﴿مثل الذين حملوا التـوراة، ثم لم يحملوها كمثـل الحمار يحمـل أسفاراً، بئس مثل القوم الذين كذبوا بـآيات الله، والله لا يهـدي القوم الظالمين﴾. (سورة الجمعة: ٥).

﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم، والله أعلم بالظالمين﴾[١]. أي أن ظلمهم صَدَّهم عن اتباع الطريق السويّ.

إن الجحود من الآثار الطبيعية للظلم، لقوله تعالى: ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون، فأنّهم لا يكـذّبونـك، ولكنّ الظالمين بـآيات الله يجحدون﴾. (الأنعام: ٣٣).

﴿وإن كثيـراً ليُضلون بـأهـوائهم بغير علم، إن ربـك هـو أعلم بالمعتدين﴾. (سورة الانعام: ١١٩).

فالاعتداء كان سبباً للضلال والاضلال.

﴿وقد يكون الظلم سبباً للاشراك بالله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وان الله شديد العذاب﴾.

ومن شروط الايمان الصحيح أن لا يلبس بظلم وإلا فهو زائل. وهو قوله تعالى:

﴿الـذين آمنوا ولم يلبسـوا إيمـانهم بـظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾. (الانعام: ٨٢).

---

(١) الأنعام: ٥٨.

وللظالم أن يتوب بأنواع التوبة ويطهر نفسه، فتتفتح بصائر قلبه ويهتدي إلى السبيل القويم باذنه تعالى. وهو القائل:

﴿فمن تابَ من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم﴾. (المائدة: ٢٩).

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله، ولو أنهم إذ ظلموا أنْفسَهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله تـواباً رحيمـاً﴾. (سورة النساء: ٦٤).

الظلم نتيجته الضلال، لقوله تعالى:

﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾. (لقمان: ١١).

وإن نتيجة الظلم الكفر أيضاً. لقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون﴾. (سورة البقرة: ٢٥٤).

وقد يبلغ بالانسان التسافل مرتبةً وضيعةً لا تفيد معه أية رحمة أو عطف لاسوداد القلب بدرجة متناهية. مع العلم أن ﴿لو يشاء الله لهـدى الناس جميعاً﴾[1]، ولكن الله لا يخرق ما سنّه لانتظام هذا العالم وقد وسعت رحمته كلَّ شيء، وهو القائل:

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرّ للجّوا في طغيانهم يعمهون﴾. (سورة المؤمنون: ٧٦).

* * *

(٦) الضلال والفسق:

ومما يؤدي إلى الضلال والفسق وإدلهمام النفس: الفسق والفجور، فيسود بهما القلب ولا يرى الحق والواقع.

---

(١) سورة الرعد: ٣١.

وهناك آيات جمّة تدلّ دلالةً واضحة على أن .الانسان بفسقه وفجوره يسدّ على نفسه أبواب النفحات القدسية والفيوضات الآلهية، فتكون نفسه مُدلهمّة لا ترى إلى معالم القدس طريقاً، فلا تهتدي إلى سبيل الحق.

١ ـ ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرونَ ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾. (الأحقاف: ٣٥).

٢ ـ والآية الآتية تدل على أن من لا يهتدي فهو فاسق، وإن فسقه منعه من الاهتداء.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب، فمنهم مهتد، وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد: ٢٦).

٣ ـ وإن الزيغ والانحراف آتيان من الفسق:

﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. (سورة الصف: ٥).

٤ ـ قد سدّ الله تعالى طريق الهداية على الفاسقين وذلك بقوله جل من قائل:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا، يستغفر لكم رسول الله. لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم، ان الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة المنافقون: ٥ ـ ٦).

٥ ـ لا يضل إلا الفاسق، وهو قوله تعالى:

﴿وأما الذين كفروا فيقولون، ماذا أراد الله بهذا مثلاً، يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ ثم يصفهم الله تعالى بقوله:

﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون﴾. (سورة البقرة: ٢٦ ـ ٢٧).

٦ ـ وقد حصر الله تعالى الكفر بآياته بالفاسقين بقوله: ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. (البقرة: ٩٩).

٧ ـ ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (آل عمران: ٨٢). والفسق هو الخروج عن طريق الحق والصلاح نتيجة ارتكاب المعاصي والآثام.

٨ ـ إن الله تعالى قد أغلق على الفاسقين أبواب الايمان بقوله جل من قائل: ﴿فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ (سورة يونس: ٣٢ ـ ٣٣).

٩ ـ ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها. وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾.

(سورة السجدة: ٢٠).

١٠ ـ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار، أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾. (سورة الأحقاف: ٢٠). ونستجير بالله من الكبرياء والفسوق.

١١ ـ ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾. (البقرة: ٥٩). ففسقهم كان سبباً لنزول العذاب.

١٢ ـ ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾ (سورة الحشر: ١٩). فمآل الفسق أن لا يفكر الانسان في آخرته ومآل أمره أن ينسى إصلاح نفسه وتزكيتها من أدرانها، كل ذلك لأن الفاسقين نسوا الله وتمادوا في فسوقهم وفجورهم وغيهم.

١٣ ـ ﴿واتقوا الله واسمعوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة المائدة: ١٠٨).

١٤ ـ ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخـوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. (سورة التوبة: ٢٤).

١٥ ـ ﴿إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، ذلك بأنهم كفـروا بالله ورسـوله، والله لا يهـدي القوم الفاسقين﴾. (سورة التوبة: ٨٠)

فقد سد الفاسق بفسقه على نفسه أبواب الهداية وأبعد نفسه عن رحمة ربه بسوء اختياره.

١٦ ـ ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعـروف ويقبضون أيـديهم، نسـوا الله فنسيهم، إن المنـافقين هم الفاسقون﴾ (سورة التوبة: ٦٧).

١٧ ـ الفسق كان مانعاً عن إيمان فرعون وملأه. لقوله تعالى:

﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء، وأضمم اليـك جناحك من الرهب، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه، أنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ (سورة القصص : ٣٢).

١٨ ـ ﴿سواء عليهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم، ان الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[١] وقد يبلغ الفسق بفرد من الأفراد حتى يسد على نفسه باب الشفاعة واستغفار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونستجير بالله من سوء العاقبة. فالفسق الكثير المتواصل هو الذي سدّ على هذا الفرد سبيل الهداية والوصول. . .

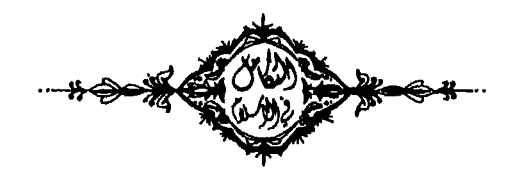
١٩ ـ ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد: ١٦).

---

(١) سورة المنافقون: ٦.

فالذين أوتوا الكتاب من قبل قد قست قلوبهم بسبب فسقهم، فالفسق يؤدي إلى قسوة القلب، فإذا قسا القلب فلا اهتداء ولا إيمان. وفي الحديث: «إن أعمى العمى عمى القلب». وفي حديث آخر: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب».

* * *



الضلال والأجرام

لاريب أن الأجرام ظلم وأي ظلم، وكل ظلم وإعتداء يسد على النفس الأنسانية أبواب الفيوضات الالهية فيعمى القلب فلا يهتدي الى سبيل الحق حتى يتوب توبة نصوحاً. والآن إقرأ معي الآيات التي تدل على أن الأجرام مؤد الى الضلال والعمى ونستجير بالله منهما.

١ ـ ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آنٍ ﴾. (سورة الرحمن: ٤٣ ـ ٤٤).

٢ ـ ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم: ربنا أبصرنا وسمعنا، فإرجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ (سورة السجدة: ١٢).

٣ ـ الأجرام يؤدي الى الاعراض عن آيات الله ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيـات ربه فأعرض عنها، إنا من المجرمين منتقمون ﴾ (سورة الم سجدة: ٢٢).

٤ ـ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم، فيأتيهم بغتة وهم يشعرون ﴾ (سورة الشعراء).

وهذه الآية صريحة في أن الله تعالى يسد على المجرم أبواب الايمان حتى يلقى العذاب الاليم، إن لم يعقب بتوبة نصوح.

٥ ـ ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾ (سورة الحجر ١٢ ـ ١٣).

٦ ـ يصرح الله تعالى في الآية التالية ان المجرم في ضلال بسبب إجرامه!

﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم،

ذوقوا مس سقر ﴾ (سورة القمر: ٤٧ ـ ٤٨). أي إن المجرمين في ضلال عن الحق في الدنيا وسعير جهنم في الآخرة. ونستجير بالله من ذلك.

٧ ـ إن المجرمين بعيدون عن الاسلام أيما بعد، لأن هناك تضاداً بين الاسلام والأجرام فلا يجتمعان. وهو قوله تعالى:

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين، مالكم كيف تحكمون ﴾. (سورة القلم ٣٥ ـ ٣٦).

٨ ـ المجرم لايؤمن بأمر من الله تعالى، جزاء لأجرامه.

﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون. وإذا جاءتهم آية، قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (سورة الانعام: ١٢٣ ـ ١٢٤).

٩ ـ المجرم ضال ومضل، إنه تعالى يقول:

﴿ وما أضلنا إلا المجرمون، فما لنا من شافعين ولاصديق حميم ﴾ ونستجير بالله من هذه المرحلة حيث لاشفيع ولاصديق.

١٠ ـ الاجرام يؤدي الى الكفر حتى بعد الايمان. وهو قوله تعالى:

﴿ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم، ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ (سورة التوبة: ٦٦).

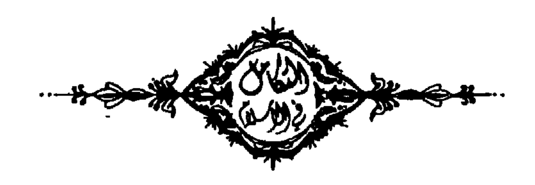
١١ ـ ومن رشحات قلب المجرم المظلم أن يستهزىء بالمؤمن وكم نرى في هذا الزمان من الذين عميت قلوبهم نتيجة إجرامهم يستهزئون بالمؤمنين متهمين إياهم بالرجعية والخرافة، وأعظم خرافة في هذا الكون هو العدول عن ذكر الله وتقديسه وتسبيحه، وهذه هي الرجعية أو الرجوع الى جاهلية جهلاء بالمعنى الصحيح. إنه تعالى يقول:

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا إنقلبوا الى أهلهم إنقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ (سورة المطففين: ٢٩ ـ ٣٢).

١٢ ـ ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾[١].

١٣ ـ ﴿ فمن أظلم ممن إفترى على الله كذباً أو كذب بآياته، إنه لايفلح المجرمون ﴾[٢].

فالضال عن الطريق بالمعنى الصحيح هو الذي لايؤمن بالله واليوم الآخر بسبب إجرامه وآثامه. فالجرم يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق لسنة ثابتة أودعها الله هذا الكون الرحيب.



(١) سورة يونس: ١٣.

(٢) سورة يونس: ١٧.

الكبر والضلال

ومن أهم الخصال التي تؤدي الى الضلال هي الكبر والخيلاء. ففي الحديث:

أصول الكفر ثلاثة ـ الحسد والبخل والكبر. فالله تبارك وتعالى يصد المتكبر عن الايمان به وهو القائل:

١ ـ ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (سورة الاعراف: ١٤٦).

٢ ـ إن الله يطبع على قلب المتكبر فلا يرى طريقاً للايمان جزاء لكبريائه وخيلائه بغير الحق. وهو القائل:

﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ (سورة المؤمن: ٣٥).

٣ ـ كما أن الكبر يؤدي إلى الضلال، فإن عدم الكبر كذلك يؤدي إلى الايمان. وهو قوله جل من قائل:

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (سورة ألم سجدة: ١٦).

٤ ـ ﴿ إن الكبر يؤدي الى الضلال والضلال يؤدي الى الكفر والكفر مؤد الى نزول العذاب، وهو قوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل

والضفادع والدم آيات مفصلات، فإستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ (سورة الاعراف: ١٣٣).

٥ ـ المتكبر لايؤمن بيوم الحساب.

﴿ وقال موسى إني عـذت بربي وربكم من كـل متكبر لايؤمن بيـوم الحساب ﴾. (المؤمن: ٢٧).

٦ ـ جزاء المتكبر النار، والكبر هو الذي أدى به الى جهنم وبئس المصير.
﴿ فأدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها. فلبئس مثوى المتكبرين ﴾. (سورة النحل: ٢٩).

٧ ـ الكبر مانع عن الايمان باليوم الآخر:

﴿ الهكم الـه واحد، فـالذين لايؤمنـون بالآخـرة قلوبهم منكـرة وهم مستكبرون ﴾ (سورة النمل: ٢٢).

٨ ـ الكبر مؤد الى التكذيب بآيات الله وإسوداد الوجه، وهو قوله تعالى:
﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ (سورة الزمر: ٦٠).

﴿ وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً، حتى اذا جاؤ وها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا: بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين. قيل أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (سورة الزمر: ٧١ ـ ٧٢).

٩ ـ ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (سورة المؤمن: ٧٦).

١٠ ـ ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الـذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1] (سورة المؤمن: ٦٠).

---

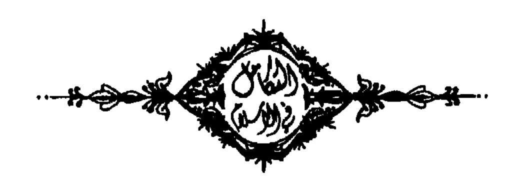
(١) داخرين: صاغرين أذلاء.

١١ ـ ﴿ وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً إستكباراً في الأرض ﴾ (سورة فاطر: ٤٢) [نزلت في كفار مكة].

١٢ ـ الكبر مانع عن إتباع أوامر الرسل عليهم السلام. قال نوح (ع): ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم وأستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا إستكباراً ﴾ (سورة نوح (ح): ٧).

١٣ ـ الكبرياء مانع عن إتباع آيات الله تبارك وتعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذاب أليم ﴾. (لقمان: ٧).

١٤ ـ ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ (المنافقون: ٥).



الافساد والضلال

الافساد كبقية الرذائل والموبقات والجرائم يؤدي الى الكفر وعدم إتباع الحق. وهو قوله تعالى:

١ ـ ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ (سورة النحل: ٨٨).

٢ ـ الفساد مانع عن التقوى وإتباع أوامر الله تعالى: ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالأثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ (البقرة: ٢٠٦).

٣ ـ ﴿ إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ (سورة آل عمران: ٦٢ ـ ٦٣).

٤ ـ إن الآيات التالية تدل على أن الافساد كان سبباً لعدم الايمان والضلال:

﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون، إلاّ أنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، إلا أنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ﴾ (سورة البقرة: ١١ ـ ١٣).

٥ ـ ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (الاعراف: ١٠٢).

٦ ـ عاقبة الافساد الجحود:

﴿ وجحدوا بها وإستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً. فأنظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (النمل: ١٤).

٧ ـ المفسد لايؤمن إلا إذا تاب:

﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به، وربك أعلم بالمفسدين ﴾ (يونس: ٤٠).

٨ ـ العصيان والافساد يؤديان الى عدم الايمان.

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً. حتى إذا أدركه الغرق، قال: آمنت أنه لااله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾. (سورة يونس: ٩٠ ـ ٩١).

١٠ ـ إن الله تعالى يسد باب الهداية على الظالم الفاسق الذي لايرجى فيه الخير وقد أصبح جرثومة فساد لاتصلحه إلا نار جهنم. وهو القائل:

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدي من يضل ومالهم من ناصرين ﴾[1].

﴿ ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ (الاسراء: ٩٧).

---

(١) النحل: ٣٦.

البخل والضلال

ومن جملة العوامل المانعة عن الاهتداء وتوجه الفرد الى الله المتعـال: البخل، وهو القائل:

١ ـ ﴿ ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامـة، ولله ميراث السماوات والأرض، والله بما تعملون خبير ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٠).

٢ ـ ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله، بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً الى يـوم يلقونـه بما أخلفـوا الله ما وعـدوه وبما كـانوا يكـذبون. ﴾ (٧٥ ـ ٧٧).

٣ ـ البخل نتيجته الكفر.

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتـاهم الله من فضله، واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ﴾ (النساء: ٣٧).

٤ ـ ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ومن يتول فأن الله هو الغني الحميد ﴾ (الحديد: ٢٤).

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم، ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ (محمد (ص): ٣٨).

* * *

ومن عوامل الضلال: الحسد، وهو قوله تعالى:

١ ـ ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً[1] أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباؤوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين ﴾ (البقرة: ٩٠).

٢ ـ ﴿ كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ (البقرة: ٢١٣).

٣ ـ ﴿ إن الدين عند الله الاسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله، فإن الله سريع الحساب ﴾. (سورة آل عمران: ١٩).

فالحسد حسب الآية المتقدمة مؤد الى الكفر.

٤ ـ ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر، فما اختلفوا الا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (سورة الجاثية: ١٧).

* * *

---

(١) بغياً: حسداً.

الضلال ودع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين

١ ـ إنه تعالى يقول: أرأيت الذي يكذب بالدين، أي أخبرني من الذي يكذب بالدين؟ أي من هو يجحد الجزاء لأنكاره البعث؟ فالله يجيب قائلاً: ذلك: هو الذي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً عنيفاً ولا يحث، على طعام المسكين ولا يهتم، إن شخصاً كهذا هو الضال الذي ينكر عوالم الآخرة لما اجترحت يداه من دعه لليتم وعدم اهتمامه بطعامه.

فإن الاسلام اهتم إهتماماً لامزيد عليه بأمر اليتيم.

٢ ـ فقد ذكر الله بعد الايمان به تعالى الحض على طعام المسكين، فعدم الحض على طعام المسكين يؤدي الى تكذيب آيات الله البينات وهو قوله تعالى:

﴿ إنه كان لايؤمن بالله العظيم ولايحض على طعام المسكين ﴾ (سورة الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤).

٣ ـ وهو القائل: ﴿ كلا، بل لاتكرمون اليتيم. ولاتحاضون على طعام المسكين ﴾ (الفجر: ١٨ ـ ١٨).

٤ ـ إلا أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون، عن المجرمين، ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ (سورة المدثر: ٣٩ ـ ٤٦).

فالأجرام يؤدي الى دخول جهنم وعدم إقامة الصلاة وعدم إطعام المسكين والخوض مع الخائضين المنحرفين والتكذيب بيوم الدين.

* * *

١٤ ـ الهداية من الله تعالى وبأذنه والله لايهدي الا التقي الصالح والمستغفر التائب.

١ ـ ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحي الي ربي، إنه سميع قريب ﴾[1].

٢ ـ ﴿ وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قال إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون، ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ (سورة الانعام: ١٠٩ ـ ١١١).

٣ ـ ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾. (الزمر: ٤١).

٤ ـ ﴿ الله يجتبى اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب ﴾ (سورة الشورى: ١٣).

٥ ـ ﴿ قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، مالهم بذلك من علم، إن هم إلا يخرصون ﴾ (سورة الزخرف: ٢).

٦ ـ ﴿ أفرأيت من إتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون ﴾ (الجاثية: ٢٣).

٧ ـ ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون. ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

٨ ـ ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، إن تحرص على هداهم، فإن الله لايهدي من يضل ومالهم من ناصرين ﴾ (سورة النحل: ٣٦ ـ ٣٧).

---

(١) سورة سبأ: ٥٠.

ولاتحق الضلالة إلا على المجرم الباغي الفاجر دون غيره.

٩ ـ ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصما، مأواهم جهنم، كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ (الأسراء: ٩٧).

١٠ ـ لاسلطان لابليس إلا على الضالين:

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وربك على كل شيء حفيظ ﴾. (سورة سبأ: ٢٠ ـ ٢١).

١١ ـ الايمان نور من الله تعالى:

﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين ﴾ (الزمر: ٢٢).

١٢ ـ ومن آثار الخشية الايمان الصحيح:

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ (الزمر: ٢٣).

١٣ ـ أما قوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (الأنعام: ١٠٧).

يثبت لنا ان الله قادر على أن يقلب القلوب ويوجهها اليه رغم ما عليها من رين ورجس، ولكن الله لايقرب الظالم الجاني المتناهي في البغي والفساد، ولايوجهه اليه أبداً.

١٤ ـ ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ـ قل فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (الأنعام: ١٤٨ ـ ١٤٩).

١٥ ـ ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، قل إن الله لايأمر بالفحشاء، أتقـولون عـلى الله مالاتعلمـون ﴾. (الاعراف: ٢٨).

الهداية تسبق الضلال:

﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم ﴾ (التوبة: ١١٥).

١٦ ـ ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة. فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ (سورة يونس: ١٩).

أي أن الناس من لدن آدم (ع) الى نوح (ع) كانوا على الاسلام وعلى الحق، ثم اختلفوا.

١٧ ـ الضلال إنما هو نتيجة العمل السيىء:

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ (سورة فاطر: ٨).

١٨ ـ الايمان بإذنه تعالى ولا يأذن الله بالايمان إلا للنفس الصالحة التائبة النادمة على ما اجترحت من سيئات.

﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس على الذين لايعقلون ﴾ (يونس (ع): ١٠٠).

* * *

للايمان درجات كما أن للهداية أيضاً درجات، ومعنى ذلك، أن الايمان بالله بالنسبة الى التقرب اليه تعالى ـ على درجات، ولكن الله لعظيم لطفه يزيد في هدى الفرد لو استمر على الطاعة وراقب نفسه، وهذا أيضاً لطف منه تعالى.

وهو القائل: ١ ـ ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾. (سورة محمد (ص): ١٧).

٢ ـ ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم، وزدناهم هدى ﴾ (الكهف: ١٣).

٣ ـ ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردا ﴾ (سورة مريم: ٧٦).

وفي الحديث: ﴿ والذين عملوا بما علموا لنهدينهم الى مالا يعلمون. . .

٤ ـ ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون: الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون: أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[1].

٥ ـ ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوابحمد ربهم وهم لايستكبرون. تتجافى[2] جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾[3].

وهكذا مرض القلب يؤدي الى تسافل متواصل ونستجير بالله من ذلك: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة: ٢١٤ ـ ١٢٥).

* * *

ومن المفسدين في الأرض الذين يظهرون الأيمان خداعاً. ويقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم. وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

---

(١) الأنفال: ٢ ـ ٤.

(٢) ترتفع وتتنحى للعبادة.

(٣) ألم ـ سجدة: ١٦.

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون. واذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون، إلا أنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون. واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، إلا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ﴾. (البقرة: ٨ ـ ١٣).

وهكذا نرى بالختام أن الهداية نور ولطف من الله سبحانه، مَنَّ الله بها على الصلحاء من عباده وعلى الذين هم في طريق الصلاح وإصلاح النفس، والضلال ظلمات تترشح من النفس الأثيمة، فتظلم بها النفس، فلا تبصر ولاتعي، ﴿ بل إتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم. فمن يهدي من أضل الله، وما لهم من ناصرين[١] ﴾، فأنه لايترشح من الأجرام إلا نكران الحق ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾[٢]، فيكون إذ ذاك إله المجرم هواه، ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾[٣] وما أعظم قوله تعالى حين يقول:

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾[٤].

وقد يبلغ بالأنسان الضلال حتى يكون مصداق الآية الآتية ونستجير بالله من هذه المرحلة:

﴿ فإنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[٥].

---

(١) سورة الروم: ٢٩.
(٢) الفرقان: ٢١.
(٣) الفرقان: ٤٣.
(٤) المؤمنون: ٧١.
(٥) النمل: ٨٠.

فطوبى لأولئك الذين يرحلون من بلد لاتتيسر فيها العبادة وإقامة شعائر الدين الحنيف الى بلد آخر يتيسر فيها المثول بين يدي الله جل جلاله وإطاعة أوامره وإجتناب نواهيه، عملاً بهذه الآيات البينات: ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة، فإياي فأعبدون ﴾[1].

﴿ قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[2].

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا ﴾[3].

فطوبى لمن فكر في آخرته، وضحى بكل مالديه لنيل سعادة أبدية سرمدية في مالاعين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشـر!، للوصول الى رضوان الله تعالى فإن رضوان الله لهذا الانسان غاية الغايات.

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (سورة الم سجدة: ١٧).

فما بعد القرآن من هدى وشفاء، فلنتمسك بالقرآن الكريم هدى وشفاءاً لأمراضنا الروحية ودستوراً خالداً للكون والحياة:

﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور. وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾.

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته، أأعجمي وعربي، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء. والذين لايؤمنون فـي آذانـهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ (سورة حم ـ سجدة: ٤١).

(١) العنكبوت: ٥٦.
(٢) سورة الزمر: ١٠.
(٣) النساء: ٩٧ ـ ٩٨.

رب المشرقين ورب المغربين[1]

لاشك أن الارض تدور حول نفسها مرة في كل ٢٤ ساعة تقريباً، وأن الأرض كروية وتدور حول محورها. فلو فرضنا أننا في الاعتدال الربيعي، فنحن نشعر بشروق الشمس في الساعة ١٢ (عربية) على مسافة من درجات الطول ٩٠، ثم نشعر بصورة خاطئة: أن الشمس تتحرك من الشرق إلى الغرب (حين أن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق) وبعد مضي ٦ ساعات تكون الشمس على خط نصف النهار وأمامنا تماماً، وبعد مضي ٦ساعات تدور الشمس أيضاً ٩٠ درجة (خطأ) ونشعر بغروب الشمس، ولكن في الوقت الذي نحن نشعر بشروق الشمس، فالنقطة المقابلة لنا في الطرف الآخر من الأرض تشعر بغروب الشمس (ظاهراً)، فالنقطة التي كانت بالنسبة الينا شرقاً، أصبحت في نفس الوقت غرباً بالنسبة الى النقطة المقابلة لنا من الطرف الآخر من الأرض (في أمريكامثلاً). والنقطة التي كانت بالنسبة الينا غرباً كانت بالنسبة للنقطة المقابلة في الجهة الآخرى من الأرض، شرقاً. والنقطة التي تقابل موقعنا نحن على الأرض في الجهة الثانية من الأرض تعين بأن يوصل بين موقعنا وبين مركز الأرض بمستقيم تخيلي ويمد هذا المستقيم التخيلي الى الجهة المقابلة من أرضنا هذه، كمن يأخذ ابرة طويلة ويثقب بها البرتقالة شريطة أن تمر هذه الابرة من مركز البرتقالة الى الجهة الأخرى.

فالنقطة التي تكون على سطح الأرض بالنسبة الينا شرقاً، تكون في الوقت نفسه بالنسبة الى النقطة المقابلة الينا في الجهة الأخرى، غرباً، والنقطة التي تكون بالنسبة الى موقعنا غرباً تكون في الوقت نفسه بالنسبة الى النقطة

---

(١) جواب على سؤال.

المقابلة في الجهة الاخرى شرقاً. فكل نقطة شرق وغرب في نفس الوقت، وعند الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي تكون المدة بين وقت مرور الشمس من دائرة نصف النهار وشروق الشمس أو غروبها متساوية. لعل الله تعالى يريد بقوله: ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ وقوع الشمس بالنسبة الى الشروق والغروب بمسافات متساوية.

وبما أن الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس لها دورانها حول محاويرها في مدد مختلفة، فلها أيضاً مشارق ومغارب، ولذلك يحلف الله تعالى بقوله: ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾.

وفي كل مجرة من مجرات هذا الكون الرحيب، شموس كثيرة جداً تعد بالملايين ولكل شمس توابعها وكواكبها ودورانها حول محاويرها، وشروقها وغروبها. والمجرة عبارة عن مجتمع من مجموعات شمسية تعد بالملايين، وللمجرة أيضاً حركتها الدورانية حول محورها ولابد لها بالنسبة الى مركز العالم (العالم الذي يضم ملايين ملايين من المجرات) من شروق وغروب.

فالمشارق والمغارب بعد الاطلاع على سعة العالم التي لاتتناهى ظاهراً ولاتحد بحدود لاتعد ولاتحصى بل لاتتناهى. فيحق لله جل وعلا أن يقول:

﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب، إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين[1]، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، يوم يخرجون من الأجداث[2] سراعاً كأنهم الى نصب[3] يوفضون[4]، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾[5].

---

(١) مسبوقين: مغلوبين

(٢) الأجداث: القبور.

(٣) علم نصب لهم.

(٤) يوفضون: يسرعون.

(٥) سورة المعارج: ٤٠ ـ ٤٤.

أسئلة وأجوبة

هل التشاؤم مصدره الطبيعة كما يدعي (مالتس) العالم الانكليزي؟[1]

التشاؤم: مصدره عدم الاعتماد على الله واليأس من رحمة الله تعالى. إنه تعالى يقول: ﴿ إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾. وإن الله تعالى ﴿ وسعت رحمته كل شيء ﴾. فلو أقبل الأنسان على الله تعالى بكل طاقاته وأطاع الله تعالى في جميع حالاته ذهب عنه التشاؤم وصار مؤملاً لرحمة الله المتعال. إنه تعالى يقول: ﴿ وإن ليس للانسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾.

أما بعض الغربيين الذين لاصلة لهم بالله تعالى والذين يفسرون الأمور إضطراراً على ضوء الطبيعة العمياء يعزون كل شيء الى الطبيعة، فإذا كان المصدر هي الطبيعة فمن أين جاء التفاؤل. فالتشاؤم والتفاؤل مصدرهما عمل الانسان. وكل خير بيده تعالى. وقد جاء جواباً لهذه الأسئلة في كلام إمامنا زين العابدين (ع): « من أين لي الخير ولايوجد إلا من عندك ».

هل الطبيعة تكرم وهي مصدر الخيرات والثروة

الطبيعة عميـاء، لاتكرم وهي قد تكون مصدر الخيرات بلطفه تعالى وقد تكون مصدر الشرور لأستحقاقنا العقاب، أو لمزيد الأجر أو لتطهير بعض النفوس. الطبيعة لاتعي ولاتشعر ولاتفكـر في مستقبل الأمـور. وإن هذه

---

(١) السائل لهذه الأسئلة هو: علي حسان الشويلي، بغداد ـ بياع: ١٤/٨٨.

النزعة: النزعة الطبيعية، نزعة مادية، يقول بها الماديون دونما دليل، وإذا نزل بأحدهم بلاء عنيف التجأ الى ماوراء الطبيعة، بحكم الفطرة[1].

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[2].

هل الطبيعة مصدر الآلام كما يقول: مالتس؟

هذه نزعة مادية كما قلت. إن الآلام لابد منها في الحياة، فالآلام قد تحفز الانسان على العمل المتواصل وقد تؤدي الى تكفير ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. وقد تسبب مزيد الأجر والدرجات، والطبيعة عمياء، ليس لها أن تؤلم من تلقاء نفسها أو تفرح وإنما الأمور بيد الله المتعال. والتوسل الى الله المتعال والانقطاع اليه والابتهال اليه تعالى تؤدي الى دفع الآلام بلطفه ورحمته، وهناك أدعية وصلاة خاصة في كتب الأدعية من واظب عليها ذهبت عنه آلامه بإذن الله تعالى. وقد لاتزول بسرعة ليمن الله تعالى على الداعي بدرجات لاينالها إلا الصابرون.

سؤال: هل صحيح أن ما تنتجه الأرض (الطبيعة) لايكفي لأعاشة جميع الأفراد، فتؤدي الى إثراء طبقة على حساب الطبقات الأخرى ولماذا؟

إن ما تنتجه الأرض وترسله السماء بإذن الله يكفي لأفراد البشر جميعاً، لاسيما وأن الله قد أودع في الكون من القوى والطاقات ما يحير الألباب. وأن العلم الحديث يكشف لنا ذلك بلطف من الله تعالى، فالطاقات الذرية، والطاقات الحرارية والأشعة الكونية وما الى ذلك، لم تكن معروفة قبلاً وعرفت بلطف من الله تعالى وتفيد الانسان في حضارته وإمرار معاشه. فالله أعلم بما خلق. إنه تعالى يقول: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما

---

(١) يرجى مراجعة الجزء الثاني من كتاب (التكامل في الاسلام).

(٢) سورة الانعام: ٦٣.

خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾[1]. فالعلم كفيل بإذن الله تعالى أن يهيء للبشر وسائل معايشهم. وفي مؤدى بعض الأحاديث ان الله تعالى ما خلق حياً إلا وخلق له ما يحقق حياته ومعيشته.

وأما إثراء البعض على حساب الآخرين فهذا: أما أن يكون من ظلم البعض لآخرين، وعدم إعطائهم ما أمر الله من حقوق، كالخمس والزكاة والأنفاق والزكاة المستحبة ورد المظالم، وأما هو لطف من الله تعالى. إنه تعالى يقول: ﴿ ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما إكتسبن، وإسألوا الله من فضله ﴾، وأما إستدراج وترك العبد وشأنه فلأنه أصبح جرثومة لاتصلح، ويقتر الله رزق بعض العباد لحكمة وقد يوسع عليهم لحكمة، وهو القائل: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[2]. إنه تعالى يؤكد أن رحمته تعالى، تلك الرحمة التي يوجه العبد الى الله المتعال ويمن عليه بمعرفته تعالى وبالمثول بين يديه خاشعاً، خاضعاً، مستغفراً منيباً، تائباً هي خير مما يجمعه هذا الانسان من متع الدنيا وزينتها وزبرجها الزائل. ذلك لأن هذا الانسان إنما خلق لمعرفة الله تعالى. ولاتنال المعرفة الا بعبادة الله، وهو القائل: ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾[3].

(هل البؤس ناشىء عن زيادة السكان)

هل صحيح أن البؤس ناشيء عن زيادة السكان ولماذا؟

هذه نعرة غربية من لايؤمن بأن الله وسعت رحمته كل شيء. فالله تعالى

---

(١) سورة الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) سورة الزخرف: ٣٤.

(٣) سورة الذاريات: ٥٦.

يقول: ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[1]. فالله تعالى ما يخلق خلقاً إلا وقد هيأ لهم قبل خلقهم رزقاً واسعاً طيبا، وإذا قتر عليهم فلعلة وحكمة. وإن أصاب قوماً مجاعة فلعلة: أما لعقوبة أو إختبار أو زيادة درجات، وهو القائل: ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾ فبالدعاء يدفع البلاء، شريطة أن لايكون الداعي مفسداً في الأرض غير مطيع لأوامر الله تعالى.

فلا بؤس من زيادة السكان، خلافاً لما يتكهنه بعضهم ممن لايعترف بعظمة الله تعالى وجليل رحمته، فالامساك والسعة بيده تعالى: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك، فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾[2].

ويقول جل من قائل: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته، قل حسبي الله، عليه يتوكل المتوكلون ﴾[3].

فالله برحمته الواسعة يوسع الرزق على عباده على كثرة عددهم من حيث لايحتسبون. فيلهم عباده العلماء باكتشاف طرق جديدة للاقتصاد ووفور المؤن والمواد الغذائية إلى ما هنالك. ﴿وهو خير الرازقين﴾[4]. ﴿لهو خير الرازقين﴾[5]. ﴿والله خير الرازقين﴾[6].

إن الله يخبرنا في كتابه أنه لطيف بعباده وهو القادر المتعال. فاذا كثرت النفوس فتح عليهم أبواب الرحمة وهو القائل: ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾[7] وقد يرى العالم المتتبع انه قد نفذ علمه للعثور

---

(١) سورة الذاريات: ٥٨.

(٢) سورة فاطر: ٢.

(٣) سورة زمر: ٣٨.

(٤) سورة المؤمنون: ٧٣.

(٥) سورة الحج: ٥٨.

(٦) سورة الجمعة: ١١.

(٧) سورة الشورى: ١٩.

على أبواب جديدة للرزق وما يحتاجه الناس من وسائل العيش، فيفتح عليه الله تعالى أبواباً جـديدة من العلم لم تكن بالحسبان ليرزق الناس من حيث لا يحتسبون. وهو القائل: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[1].

وهـو القـائـل: ﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشيـة إمـلاق، نحن نـرزقهم وإياكم ﴾[2].

وقد يقتر الله الرزق على بعض عباده لحكمة قد تخفى علينا، وقد يكون لاصلاح العبد والحد من طغيانه، كل بحسبه ﴿ إن الانسان ليطغى، إن رآه إستغنى ﴾ وهو القائل: ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾[3]. وفي الحديث القدسي: « وإن من عبادي من لايصلحه الا الفقر ولو صرفته الى غيره لهلك ».

فما على الانسان عند إشتداد الأمر إلا أن يبتغي عند الله الرزق.

﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له، اليه ترجعون ﴾[4].

وقد قال جل من قائل: ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾.

وأضيف لمزيد التأكيد مذكراً قوله تعالى في سورة الحجـر: ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾.

والبحار على ما اكتشف حديثاً مورد هام لتغذية الانسان بما فيها من جماد

---

(١) سورة الطلاق: ٣.

(٢) سورة الاسراء: ٣١. الاملاق: الفقر.

(٣) سورة الاسراء: ٣٠.

(٤) سورة العنكبوت: ١٧.

وأحياء وستكشف موارد جديدة أخرى بلطف من الله كما اكتشفت الطاقة الذرية بالهام منه تعالى.

هل المجاعة والأمراض عقاب؟

هل الموانع العقابية (الرادعة) كالبؤس والمجاعة والأمراض والحروب هي التي تعاقب الانسان على الجرم الذي يرتكبه ولماذا[1]؟

كل ما يصيب الانسان من بؤس وجوع ومرض وكوارث أخرى كحروب لا تبقي ولاتذر هو أما لتطهير هذا الانسان مما ألم به من أدران وأرجاس أو لابتلائه وامتحانه واختباره لنيل الدرجات العالية إن صبر وشكر أو لردعه عما هو فيه من ظلم وطيش إن انتبه من سكرته أو لعقابه في العاجل كي يرتدع الآخرون وينتهي هو عن غيه ويهتدي الى الطريق السوي إن كان من أهل الاهتداء[2].

إنه تعالى قال: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ (سورة الأسراء: ١٥).

فالله يتم الحجة على عباده فإن أبوا وتمادوا في غيهم وطيشهم وأفسدوا في الأرض ولم يتوبوا رغم الانذار عاقبهم ببؤس وجوع وإبتلاءات أخرى لعلهم يرجعون الى رشدهم.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء، ولايسلب رحمته عن عباده ولايدعهم في دياجير الضلال حتى يبين لهم ما يتقون على حد قوله جل من قائل: ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم ﴾[3].

---

(١) السائل، هو الأخ: علي بن حسان الشويلي، بغداد ـ بياع.
(٢) راجع الجزء السادس من كتاب التكامل في الاسلام: لماذا هذه الزلازل؟
(٣) سورة التوبة: ١١٦.

وهو القائل: ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله، لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[1].

فالله تعالى لايظلم أحداً ولايعاقب إنساناً إلا بعد إتمام الحجة مرات ومرات. وهو القائل: ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها[2] رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[3].



(١) سورة طه: ١٣٤.
(٢) في أمّها: في أصلها التي هي من توابعها.
(٣) سورة القصص: ٥٩.

القرآن والعلم الحديث

وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام

كلما تقدم العلم الحديث واكتشفت معالم الذرة وما أودع الله فيها من قوانين رياضية رصينة ومعادلات متقنة وخواص مدهشة وتقدم علم الفلك اللاسلكي كلما تقربنا بنفس المقدار لتفهم ما أودع الله تعالى في كتابه الذي ﴿ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ﴾، من عصارات العلوم وخلاصة المكتشفات ونتائج الابحاث العلمية الدقيقة. وإن الآيات الكونية الواردة في القرآن تدل على عظمته وإنه منزل من جانب الله العظيم وقد فسرنا البعض منها على ضوء العلم الحديث في أجزاء « التكامل في الاسلام » وها نحن نفسر الآية الآتية: ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾[١].

فنقول: لايعلم مدى طول هذه الأيام إلا الله تعالى. ذلك لأن هناك أياماً مختلفة الأطوال اختلافاً شاسعاً. تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فنحن نعرف يومنا الأرضي والآيات الكريمة تخبرنا عن نوعين آخرين أحدهما أطول من يومنا بمئات الألوف من المرات والآخر أطول بملايينها. هكذا يستفاد من الآية: ﴿ يدبر الأمر من السماء الى الأرض، ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾. فالسرعة التي يسير فيها أمر الله تعالى سرعة لاتقدر!!..

واليوم في الحقيقة بالنسبة لكوكب ما: هو المدة التي يقضيها هذا الكوكب في دورانه حول نفسه دورة واحدة، وهذه المدة تختلف من نجم الى آخر. فاليوم في الأرض أربع وعشرون ساعة، وهو في المريخ أطول من اليوم الأرضي بـ (٣٧) دقيقة، ويبلغ يوم القمر قريباً من تسعة وعشرين يوماً أرضياً، ويختلف يوم الشمس من منطقة الى أخرى، فهو في خط استوائها يبلغ حوالي خمسة

---

(١) سورة هود: ٧.

وعشرين يوماً أرضياً، بينما يتجاوز الثلاثين يوماً أرضياً بالقرب من قطبيها. وهذا بسبب عدم صلابتها. ويوم عطارد يساوي ٨٨ يوماً أرضياً أما الشموس الأخرى فمجهولة أيامها، كما يتعذر علينا معرفة أيام مجرتنا، إذ أننا نجهل الزمن اللازم لتدور حول نفسها دورة واحدة. وكل ما يقال عن ذلك، فهو من الظن الذي لايغنى عن الحق شيئاً. ولكنه قد يقاس بمئات الالوف من السنين الارضية. وقد يكون أكثر وقد يكون أقل. وكذلك بقية المجرات. ولاندري ما سيأتي به المستقبل. ويختلف يوم المجرة من منطقة الى أخرى بسبب عدم تماسك نجومها. وهكذا نرى أن لكل كوكب يومه، كما أن لكل تجمع نجمي صغر أم كبر يومه. ولاندري عن اليوم الذي مقداره ألف سنة مما تعدون واليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، هل هما بالنسبة لشّيء في كوننا أم بالنسبة لكون آخر؟.

* * *

لأنا نقدر طول اليوم بحركة الأرض حول نفسها ولم تكن قبل خلق الله العوالم المادية أرض أو شمس. وهو القائل: ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾(١).

تدل الآية المتقدمة (٢) ان بناء الكون قد استغرق وقتاً معيناً لايمكن تقديره بما لدينا من حسابات عادية.

ويثبت القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، أي أنه ابتدأ منذ لحظة بالذات، فهناك انتقال مستمر في الحرارة من الأجسام المادية الساخنة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن تعكس هذه العملية، أي لايمكن أن تعود الحرارة فتزيد من الأجسام الباردة الى الاجسام الساخنة. ومعنى ذلك أن الكون يتجه أو يسير نحو حالة تتساوى فيها درجات حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة. وعند ذلك تقف العمليات الكيميائية والطبيعية كعمليات الأشعاع وتبادل الطاقة

---

(١) سورة الحج: ٤٧.

(٢) ﴿خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾.

الحرارية بين الاجسام وتندثر مظاهر الحياة في هذا الكون. ﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾[1] ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار﴾[2].

ولكن لما كانت الحياة لاتزال قائمة، والعمليات الكيميائية والطبيعية لاتزال تسير في طريقها، فإن النتيجة المنطقية لذلك، إن هذا الكون لايمتد ابتداؤه الى مالانهاية خلافاً لما يقوله الماديون! وإلا لاستهلكت جميع الطاقات فيه بمضي الزمن الكافي وتوقف كل نشاط في هذا الوجود.

وهكذا نرى وجهة نظر الديناميكا الحرارية إن لهذا الكون بداية لاتمتد الى اللانهاية، وإنما هي بداية محدودة بلحظة بالذات قدرها العلماء من وجهات نظر أخرى عديدة بنحو ٤ الى ٥ آلاف مليون سنة، كما أثبتوا أن الكون لايزال يخضع لعملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته. وإن حدود السماء من حول هذا المركز تقع في وقتنا الحاضر على أشبه شيء بالسطح الكروي الذي يتمدد والذي يبلغ نصف قطره في وقتنا هذا بين

٤×$١٠^{٢٧}$ الى ٥×$١٠^{٢٧}$ سانتيمتر

أي ٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠, ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ سنتيمتر

أو ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠ سانتيمتر

ويمكن للضوء أن يقطع هذه المسافة في مدة قدرها ٤ أو ٥×$١٠^{٩}$ من السنين. ولقد حسبت كتلة هذا الكون بما تجمع فيه من مادة وطاقة بما يعادل نحو ٥×$١٠^{٥٦}$ غرام، [أي خمسة متبوعة بستة وخمسين من الأصفار!]. مع العلم أن: (البرت أيشنتاين) قد عدل عن حساب كتلة الكون، لما رأى أن هناك أنجماً وكواكب تتشكل من جديد وتخلق بأمر من الله تعالى وان الهايدروجين يخلق خلقاً لتتشكل منه نجوم جديدة ومجرات أخرى جديدة وهكذا: ﴿كل يوم هو في شأن﴾[3].

---

(١) سورة الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سورة ابراهيم عليه السلام: ٤٩.

(٣) سورة الرحمن: ٢٩.

فسبحان الذي لا تتناهى عظمته. سبحان الله خالق كل شــيء، سبحان الله خالق ما يرى وما لا يرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين، سبحان الله الذي ينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعـد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته...



(العلمانية)[1]

كانت القرون الوسطى في أوروبا قروناً مملوءة بالظلام والجهل وكانت الكنيسة تقوم بأنواع الظلم والتنكيل بشأن من لا يوافقها في معتقداتها ومزاعمها الباطلة، فتقتل وتحرق وتعذب وتسجن من لا يوافقها في الرأي بالنسبة إلى العلوم الكونية التي تستند على التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج، وقد ألفت الكنيسة كتاباً في علم الجغرافية كله أباطيل وخرافات أسمته الجغرافية المسيحية: Christian geography وفي هذا الكتاب: أن الأرض مركز العالم وهي ثابتة لا حراك لها، وتؤكد على ما دوَّنه (بطليموس) اليوناني في علم الهيأة والفلك ومن حالف فهو كافر بنظر الكنيسة. ولكن المنجم اللهستاني (كوبرنيك) قام برصد الكواكب ثلاثين سنة وعلم علم اليقين أن هيأة بطليموس هيأة باطلة وان الكواكب ومن جملتها الأرض تدور حول الشمس وليست الأرض بمركز للعالم وإنما هي كأحد الكواكب التي تدور حول الشمس. وبما أن الحقائق التي لمسها (كوبرنيك) في كشفياته كانت تخالف أباطيل الكنيسة دوَّن رسالته في الفلك باللغة اللاتينية مع شيء من الابهام والتورية، لا يطلع على مقصوده إلا من اشتغل بعلم الهيأة. ولكن (جردانو برونو)[2] العالم الايطالي الجريء صار يصرح بما قاله (كوبرنيك) فحكم عليه من قبل كنيسة روما: أن يحرق حياً وقد أحرق، ولكن بعد ٣٠٠ سنة نصبوا له في الساحة التي أعدم فيها تمثالاً تخليداً لذكراه.

حتى جاء كاليله[3] (غاليليو) بمرقبه الذي كان يقرب البعيد ويسهل للراصد مشاهدة مسافات بعيدة، فوجه تلسكوبه لأول مرة نحو السماء وإذا به

---

(١) السائل المحترم هو: محمد ملا ديوان الربيعي.

(٢) Jiordano Brune

(٣) Galilée

يشاهد لأول مرة أن للمشتري أربعة توابع: أقمار، وتدور كلها حوله. وشاهد جبالاً شاهقة في قمرنا هذا وتمكن من قياس ارتفاع تلك الجبال استناداً على ما لها من ظلال.

إن اكتشافات (كاليله) كانت ضربة قاضية على هيأة بطليموس الخاطئة وأيدت نظريات (كوبرنيك) الهيئي اللهستاني. ففندت نظريات بطليموس وأرسطوا.

فقامت قيامة الكنيسة والمخالفين ضد (كاليله) وقالوا: إن تلسكوبه إنما هو جهاز شيطاني وهو من قبيل السحر فانعقدت نتيجة هذه المخالفات محكمة تفتيش العقائد في روم بشأن (كاليله): (غاليليو) فاضطر كاليله أن يتنازل عن عقيدته التي تؤيدها الآلات والتجارب وأن يتوب من قولته الالحادية! بشأن الأرض والسماء أمام (الباب)، فخضع في توبته للباب وركع وانحنى بكل خضوع ومع ذلك أرسل إلى بيته ومنع من أن يلاقيه أحد وأن محاكم التفتيش صارت تراقبه مراقبة شديدة طوال حياته.

وقد أعدمت الكنيسة رجالاً كثيرين من علماء العلوم الطبيعية والكونية لأن تجاربهم العلمية كانت تعطي من النتائج ما يتنافى مع معتقدات الكنيسة الخرافية، فحصل شجار بين الكنيسة والعلم الحديث، فقال علماء أوروبا المحدثون: أن هناك تنافياً بين الدين والعلم، والعلم لا يوافق الدين: (الكنيسة) في شيء. وقد تفاقم هذا العداء بين الدين والعلم في أوروبا حتى قالوا: لا حاجة لنا إلى الدين في تسيير أمورنا الاجتماعية والاقتصادية والقضائية وإن علم البشر كاف لسن القوانين وتنظيم الأنظمة في شتى المجالات!!؟ ونبذ هؤلاء الكنيسة لظلمها الفاحش ومخالفتها للعلم المادي الصريح الذي تؤيده التجارب والمختبرات. وبنبذ الكنيسة نبذ الدين من أصله وظهر قوم يرون أن العلوم البشرية كافية لتسيير شؤون البشر في جميع الحقول وحدثت نظرية فلسفية جديدة سميت بـ(Laicisme) أي الطريقة المادية أو الجسمانية أو الطريقة الدنيوية البحتة وLaique باللغة الفرنسية أي ما هو غير منسوب إلى الرهبان والرهبنة وLaicité أي عدم الانتساب إلى طريقة الرهبنة أو الرهبان، وقد ترجمت هذه الطريقة البشرية التي تعتمد على العلم البشري

غير المستمد من السماء بالطريقة «العلمانية» أي تلك الطريقة التي تعتمد على ما يضعه البشر من نظم وقوانين في شتى الحقول، في حقل القضاء والعقوبات والقصاص والسياسة إلى ما هنالك دون استناد إلى ما جاء في الدين.

ولقد ترشحت هذه الفكرة: (العلمانية) من الغرب إلى الشرق نتيجة قياس مغلوط ومقايسة نظريات الكنيسة المغلوطة بحقائق الاسلام الناصعة التي فيها حياة البشر في الدنيا والآخرة، فصار يقول قسم من أبناء الطبقة المثقفة: ان الدين لا حق له في التدخل في شؤون الحياة السياسية.

وبما أن لفظ «العلمانية» يقترن في أذهان الناس بـ(التقدم)، فان كل اقتراح لتنظيم الشؤون السياسية وتخطيط المناهج الاقتصادية والاجتماعية على أساس الدين ينظر إليه على أنه حركة رجعية، أو على أحسن الفروض، نظرية مثالية بعيدة عن مجال التطبيق العملي.

إن هناك أسباباً خاصة بالغرب وحده جعلت أهله على غير وفاق مع الدين - دينهم هم - ومثل هذا الخلاف تنعكس آثاره على الاضطراب الأخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي يسود اليوم أجزاء واسعة من العالم. وبدلاً من أن يخضع الغربيون سلوكهم وأفعالهم لمعايير القانون الأخلاقي الذي هو - على أية حال - الغاية القصوى لجميع الأديان[1]، أصبحت «المصلحة» في اعتبار القوم هي القانون الوحيد المهيمن، الذي يجب أن تعالج على ضوئه كافة الشؤون العامة وحيث أن وجهات النظر فيما تنطبق عليه صفة «المصلحة» تختلف عادة من جماعة إلى جماعة ومن أمة لأخرى، فان النتيجة الطبيعية لذلك هي ما نراه اليوم من اصطدام مروع بين المصالح المختلفة في الحقل السياسي. وهذا أمر طبيعي، فان ما يبدو من الناحية العملية البحتة مقيداً لطائفة من الناس أو أمة من الأمم لا يجب أن يكون - وفي الأغلب لا يكون - مفيداً لطائفة أو أمة أخرى. وعلى هذا فانه ما لم يخضع البشر تصرفاتهم في هذه الحياة الدنيا لتوجيه غاية من الغايات الأدبية أو لاعتبار

---

(١) منهاج الاسلام في الحكم - لمحمد أسد النمساوي، الذي اعتنق الدين الاسلامي وأصبح من دعاته.

خلقي معين، فان مصالحهم الخاصة لا بد أن تتصادم في نقطة أو أخرى، وكلما احتدم النضال بينهم تباعدت مصالحهم أكثر فأكثر، واختلط عليهم الأمر في معرفة الخير والشر في معاملة بعضهم بعضاً[1].

وإذا كانت المصالح لا ترتبط إلى مبدء واحد، تصادمت، ونشأت مذاهب شتى: الاشتراكية والرأسمالية وغيرهما من الأنظمة، فلو رجع البشر كلهم إلى دستور أخلاقي وأحكام يعينها الله تعالى من فوق عرشه وهو أعلم بمصالح البشر وما يصلحهم في الدنيا ويسعدهم في الآخرة لم يحدث أي خلاف أو اختلاف ولعاش البشر بهناء.

وإن الدين الذي لم تمسه اليد البشرية المحرفة بسوء هو دين الاسلام: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾، فلا يسعد البشر في شرق الأرض وغربها إلا بالتمسك بدين الاسلام وتطبيق قواعده وقوانينه المنطقية التي لا تصطدم مع المكتشفات الحديثة في شيء، فلا يحدث في الدين الإسلامي ما حدث في الغرب من عداء بين الدين ومكتشفات العصر الحديث في حقول المادة، بل في القرآن الكريم والأحاديث النبوية كنوز هي عصارة العلم الحديث. ولم يبتعد الاسلام عن المنطق الصحيح بحال، منطق لم تلوثه الشهوات والنزوات.

فنجاة العالم إنما هي باعتناق الدين الاسلامي وجعله ديناً عالمياً ونبذ العصبية العمياء والانانية المهلكة وحب الرئاسة إلى ما هنالك من شهوات نفسانية لا تدع للعقل مجالاً للحكم الصحيح واختيار ما هو أصلح لدنيا موقتة وآخرة دائمية أبدية.

﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[2].

---

(١) منهاج الاسلام في الحكم: محمد أسد. ص: ٢٢.

(٢) سورة الزمر: ١٨.

﴿يا أيها الـذين آمنوا استجيبـوا لله وللرسول إذا دعـاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾[١].



(١) سورة الأنفال: ٢٤.

ـ الامتناع عن الزواج ـ

س ١: هل يعتبر خطأ إذا استمر الشاب في امتناعه عن الزواج مع العلم أنه يتمكن من جميع الجهات من أن يتزوج؟.

التوقيع: حسن شاكر

كركوك: ناحية تازه خورما

الجواب: إن الدين الاسلامي يحث الناس على الزواج إلى حد لا مزيد عليه. وهو القائل: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله. والله واسع عليم﴾.

وعن النبي (ص) على ما عليه الفريقان: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني!».

وعن الصادق (ع): «قال تزوجوا، فان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من أحب أن يتبع سنتي فان من سنتي التزويج.

وفي النبوي: «ما بنى بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج».

وعن النبي (ص): من تزوج أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر.

وفي بعض الأخبار أن الزواج موجب لسعة الرزق ففي خبر (إسحق بن عمار) قلت لأبي عبد الله (ع) الحديث الذي يرويه الناس حق؟

إن رجلاً أتى النبي (ص) فشكا إليه الحاجة، فأمره بالتزويج، حتى أمره ثلاث مرات. قال أبو عبد الله (ع): انه حق، ثلاث مرات، ثم قال (ع): الرزق مع النساء والعيال.

كما أنه: يستفاد من بعض الأخبار كراهة العزوبة فمن النبي (ص): رذال موتاكم العزاب.

فالنكاح واجب شرعاً لمن يقع في الضرر لو لم يتزوج أو يبتلي بالزنا.

فيستحب للرجـال والنساء استحبـاباً مؤكـداً. ويجب إذا خيف العنت والغرور والوقوع في المحرم.

وترك الزواج أما مكروه شرعاً أو حرام، إذ في تركه جناية على النسل، واضرار بالأبدان وحرمان من أكبر اللذات المشروعة واحتمال الوقوع في الزنا أو في ما حرّم الله وتعطيل الأعضاء التي خلقها الله تعالى في الانسان لغايات معينة مقصودة.

س ٢ : هل يمكن وضع رسوم في البيت وخاصة الأئمة(ع) مع العلم أني سمعت أن قسماً من الناس يقولون أنه حرام شرعاً؟.

الجواب: في هذه المسألة خلاف بين الفقهاء وعلى كل مقلد أن يراجع من يقلده مع العلم أن الاسلام حرم التصوير بقوله:

«إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورين... الحديث»

وقد حمل هذا الحديث: على التصوير بالقلم واليـد، أي التنقيش أو النقش، لا بآلة التصوير.

ومنع الاسلام عن نحت أو صنع الشكل الآدمي. ومنع صنع المجسمات على شكل إنسان. كل ذلك ابتعاداً عن عبادة الأوثان.

لذلك، تكره الصلاة مقابل تمثال ذي روح مجسماً كان أو غيره، وتزول الكراهة بالتغطية أو بنقصه نقصاً يخرجه عن صدق الصورة بل ورد أنه لا بأس إذا كان بعين واحدة. وتكره الصلاة في بيت فيه تمثال وان لم يقابله.

وتكره الصلاة مقابل النار ولو غير مضرمة ابتعاداً عن عبادة المجوس لأنهم كانوا يعبدون النار. وإذا كانت النار عالية كالقنديل فالكراهة أشد.

وتكره الصلاة أمام السراج كذلك، فالاسلام يسعى لابعاد الناس عن عبادة كل شيء سوى الله المتعال.

ـ من جاهلية الغرب[1] ـ

لندن ـ سانا ـ في نبأ لرويتر أنه عثر على رئيس شركة استثمار، رأسمالها ٨ ملايين جنيه استرليني كانت قد انهارت، عثر عليه مقتولاً بالرصاص مع زوجته وطفليه في منزلهم أمس.

وعثر البوليس على مسدس تحت جثة الرجل ويدعى هنري بوين ديفيس. وكان قد قال لدائنيه بعد انهيار شركته في وقت سابق من هذا العام ان جميع أملاكي رهن تصرف المسؤول عن التصفية.

ويقدر عدد المستثمرين في الشركة بنحو ٧٠٠٠ شخص.

فرنسيان ينتحران بإغراق سيارتهما في البحر

نيس ـ سانا ـ قالت صحف باريس أن فرنسيين انتحرا باغراق سيارتهما في ميناء (نيس) بعد أن أغلقا جميع الأبواب ولم يتمكن الغطاسون من كسر الأبواب لانقاذهما. فماتا على الفور.

ويقول شهود عيان: ان الرجلين كانا يجلسان داخل العربة في منتهى الهدوء، ويبلغ عمر الأول ٦٣ سنة والثاني ٥٣ سنة.

كل يوم جريمة في ألمانيا

بون ـ سانا ـ ذكرت مجلة (كوبك) التي تصدر في ميونيخ من ألمانيا الغربية

---

(١) من مجلة حضارة الاسلام، العدد: ٣, ٤ السنة الثامنة.

في تقرير لها عن الاجرام في ألمانيا الغربية: أنه لا يمر يوم في ألمانيا الغربية دون أن تقترف جريمة، أو ينتحر أحد المواطنين. ومضت اللجنة تقول: انه اغتيل بطريقة ما ٤٤٢ شخصاً في عـام ١٩٦٣ وارتفع الـرقم إلى ٥٣٥ في عام ١٩٦٦، ويبدو أن الرقم في ارتفاع مطرد هذا العام أيضاً.

واختتمت المجلة تقريرها بقولها: إن الأرقام التي لا نعرفها قد تكون أعلى بكثير من هذه الأرقام المعروفة.

التنانير القصيرة

باريس ـ سانا ـ قال بوليس باريس أمس أن سبب موجة حوادث الاغتصاب الحاضرة هو التنانير القصيرة.

وصرح ناطق باسم البوليس بأن الملابس «المثيرة» التي ترتديها الفتيات تجعلهن فريسة مختارة للغوغاء.

وقد تعرضت خمس فتيات بينهن سائحتان أمريكيتان عمر كل منهن ١٦ سنة للاعتداء في شوارع باريس خلال الأيام العشرة الماضية.

وقال الناطق أن هناك عاملاً آخر هو موجة الحر التي تجتاح فرنسا. فقد وصلت الحرارة إلى ٣٨ درجة مئوية في جنوب غرب فرنسا أمس.

والسحرة أيضاً لهم مؤتمرهم

نيويورك ـ سانا ـ ذكرت وكالة رويتر أن «مؤتمر السحرة الدولي» السنوي الأول سيعقد هنا في شهر آب.

وسيكون بين الـذين سيحضرون المؤتمـر في ١٩ آب و٢٠ منه هـواة ومبصرون وقارئو أفكار ومنجمون وقارئو بخت.

الأزواج التعساء يقطعون الطريق على القانون

نيويورك ـ سانا ـ يتوجه ألوف من سكان نيويورك ممن حطمت التعاسة

زواجهم بسرعة إلى المكسيك الآن للحصول على طلاق عاجل قبل أن يسرى مفعول قانون جديد للطلاب في ولاية نيويورك في أول أيلول القادم لاعتقادهم بأن القانون الجديد ربما أنهى الاعتراف بالطلاق الذي تقره المكسيك إلا أن الخلاف على تفسير القانون كما تقول وكالة رويتر ترك المحامين هنا غير متأكدين مما سيحدث عند تطبيق القانون.

ولذلك فان الكثير من أهالي نيويورك الذين يصرون على الطلاق يتوجهون الآن إلى مدينة خواريس المكسيكية التي تقع عبر ريوغراندي من الولايات المتحدة ويمكن الحصول على الطلاق في هذه المدينة خلال ٢٤ ساعة على أساس اتفاق الطرفين وعلى أساس تنافر شخصيتي المتزوجين.

مستعجل... للجحيم

شنق فلاح فرنسي نفسه في بلدة (اميان) على دعامة خشبية وترك رسالة قصيرة قال فيها: إن المطر المستمر وتأخر المحصول جعلا الحياة مستحيلة بالنسبة له.

ماذا فقدت

اهتز الرأي العام (الفرنسي) في شهر (آب) لعدة جرائم تقشعر لها الأبدان. ففي بداية هذا الشهر، وخلال أسبوع وقعت أربع جرائم مريعة راحت ضحيتها ثلاث فتيات وطفلة، وقد توفين كلهن أثر اعتداء أثيم عليهن.

ثم اجتاحت فرنسا موجة من الاعتداءات الجنسية على السائحات اللاتي ملأن شوارع باريس، وبلغت هذه الاعتداءات أقصاها هذا الأسبوع إذ بلغت ثمانية عشر اعتداء على الفتيات خلال ٤٨ ساعة فقط. وكان أبشعها ذاك الذي وقع على فتاة لا يزيد عمرها على ١٤ سنة. إذ اعتدى عليها، في يوم واحد، إثنا عشر شاباً... والغريب أنها توجهت إلى قسم الشرطة لتبلغه عن فقدانها.. لمحفظتها!! وبعد معرفة الحادث انتشر رجال الشرطة يبحثون عن الجناة المجرمين.

ما السبب

أعلن رئيس البوليس في باريس أن السبب في (ازدياد الجرائم الأخلاقية) لا يكمن في موجة الحر الشديد التي تجتاح فرنسا الآن. ولا في الفراغ الذي يتلو نهاية السنة الدراسية. ولا هو بتأثير الكميات الهائلة التي استهلكت من الخمور أثناء أعياد ١٤ تموز (سقوط الباستيل).

إنما المسؤول الأول هو هذا السيل الكبير من السائحات الفاتنات اللاتي يزحفن بلا انقطاع نحو العاصمة الفرنسية منذ بداية الشهر مرتديات (الميني جوب) أو (الميكرو جوب) التي تبدو وكأنها تتقلص مع حرارة الشمس.

إلى السائقين

في الطرقات والشوارع في باريس إعلانات إلى سائقي السيارات ان ينظروا أمامهم بدلاً من أن يحملقوا في السيقان العارية.

أخلاقية لندن(١)

تدل الاحصائيات لسنة ١٩٦٦، أن واحدة من كل خمس من الانجليزيات اللواتي تجاوزن سن الخامسة عشرة لا تزال عذراء، ويتوقع علماء الاجتماع في السنة ١٩٦٧ أن تفقد العذرية معناها في انكلترا كما تقول مجلة «بنتهاوس» وقد لا يزداد عدد الأطفال غير الشرعيين عما هو عليه الآن لأن حبوب منع الحمل والأغشية الواقية متوفرة بثمن زهيد، ليس فقط في الصيدليات بل وفي قسم كبير من علب الليل.

بدأوا يدركون إنحلالهم

وقعت في أميركا وفي بريطانيا عدة جرائم قتل جنسية، آخرها في بريطانيا

---

(١) نقلاً عن مجلة حضارة الاسلام، العدد السابع، للسنة الثامنة، سنة: ١٣٨٧ هـ.

جريمة كان ضحيتها شاباً عمره ١٧ سنة اسمه بيرنارد آوليفار، وقد بدا للشرطة من طريقة قتل الضحية وتوزيع الجثة أن القاتل من المختصين بتشريح الأجسام أو أنه ممن يتقنون الجراحة، وقد نشرت «الصنداي ميرور» بقلم نورمان لوكاس تقريراً عن هذه الجريمة جاء في آخره:

«جاءت هذه الجريمة ضمن سلسلة من الجرائم التي تعصف ببريطانيا الآن بسبب التدهور الأخلاقي الذي يعاني منه الغرب، ويعتقد علماء المجتمع المختصون أن تزايد الجريمة في بريطانيا يؤكد أن ثمة هبوطاً في المستوى الأخلاقي ولكن لماذا يحدث كل هذا؟ ومن هو المسؤول عن هذا التيار العارم»؟.

يؤكد البعض على أن تفسخ العائلة هو السبب في كل ذلك غير أن اندفاع المراهقين، وطيشهم هما أساس هذا الانهيار. وتؤكد سجلات البوليس أن الجرائم، وخاصة الاغتصاب والقتل ترتفع يوماً بعد يوم، وما من شك أن الشرطة البريطانية، وخاصة سكوتلنديارد تحاول بذل قصارى جهودها. غير أن ذلك لا يمكن أن يتم بدون تغيير للأسس التي تستند عليها اخلاقية الغرب الجديدة.

نادي تبال الزوجات الأمريكي

ضبط رجال البوليس في اتلانتا بولاية جورجيا الأميركية نادياً تنتشر فروعه في كبريات المدن الأمريكية، وهو يدير عمليات تعارف غير مشروع بين أعضائه من الرجال والنساء كما تتم عن طريقة عمليات تبادل مؤقت للزوجات، وقال رجال البوليس أن للأعضاء أرقاماً سرية ويجب على كل مشتركة فيه أن تعطي مقاييس جسمها للادارة.

جمعية هولندية تدعو لالغاء الزواج

كوبنهاغن ـ تمّ افتتاح جمعية هولندية تدعو إلى الحرية الجنسية، وقد قام بتأسيسها ٢٢ من الشباب وستقوم الجمعية بالدعوة إلى إلغاء الزواج وإباحة الاجهاض والعلاقات الجنسية الشاذة!!.

الأخلاق الانجليزية

جـريـدة نيـويـورك ديـلي نيـوز شنت هجـومـاً عنيفـاً عـلى الأخـلاق الانجليزية... الهجوم في رسالة كتبتها سيدة أمريكية عادت من جولة في أوربا. الرسالة تقول:

إن بريطانيا التي كانت ذات يوم دولة كبرى حولت اليوم كل إمكانياتها وجهودها للجنس والمقامرة. ان الانكليز أناس بدون أخلاق والمرأة الأجنبية التي تزور بريطانيا مع زوجها عليها أن تلازمه طوال الأربع والعشرين ساعة لتحميه من النساء البريطانيات.

إدمان المخدرات يزداد بين طلبة الانكليز

لندن ـ أثار مجلس اللوردات البريطاني في جلساته الأخيرة مشكلة انتشار إدمان المخدرات بين طلبة المدارس في بريطانيا وتبين من الاحصائيات التي ذكرت خلال هذه الجلسات أن عدد الطلبة المدمنين بلغ ٩٢٧ طالباً بزيادة قدرها ٢٣ في المائة.

الحلاق يقص شعره الطويل...

والفتى يشنق نفسه

سيدني ـ رويتر ـ سانا ـ عثر على فتى في الرابعة عشرة مشنوقاً في منزلـه بسيدني بعد أن هرع من دكان حلاق حيث كان من المقرر أن يقص شعر رأسه الذي كان يتدلى على كتفيه.

وكانت أمه قد ناشدت المدرسة أن تساعدها في معالجة مشكلة شعر ابنها.

جمعية الأزواج المضطهدين تكونت في أسبانيا

مـدريد ـ سـانا ـ تـأسست في أسبـانيـا جمعيـة اسمهـا ـ جمعيـة الأزواج

المضطهدين - مقرها مدريد، أعضاء هذه الجمعية هم الأزواج الذين يتولون مهام - ربة البيت - في بيوتهم أي الذين يؤدون الأعمال المنزلية من كنس وطهي وغسل الأطباق والملابس، كما يتولون أيضاً رعاية الأطفال، وقد قررت الجمعية أن تمنح كل شهر وساماً إلى - أتعس زوج - أول زوج حصل على هذا الوسام ضابط أمريكي كان يقضي شهر العسل مع عروسه في أسبانيا.

هوايتهما القتل ومصيرهما السجن

باريس - سانا - ذكرت وكالة رويتر أن البوليس الفرنسي اعتقل متسكعين هما رجل وامرأة يعتقد أنهما قتلا ١٠ أشخاص على الأقل خلال السنوات القليلة الماضية.

ويقول رجال البوليس أن الرجل والمرأة وهما في العقد الخامس كانا يدفعان بضحيتهما إلى نهر السين بعد أن يقدما لها الخمر ويستوليا على ما تحمله من مال.

المطالبة بإباحة تعاطي المخدر في بريطانيا

لندن - سانا - في نبأ لرويتر أن فريق المغنين البيتلز واثنين من أعضاء البرلمان والمؤلف غراهام غرين كانوا بين عدد من كبار الشخصيات دعت إلى سياسة جديدة إزاء الأشخاص الذين يتعاطون مخدر الماريجوانا في بريطانيا.

أكلة دجاج وسط جثث بشرية[١]

فيتوريا البرازيل - سانا - ذكر البوليس أن رجلاً وزوجته تناولا عشاء من الدجاج وهما محاطان بجثث أسرة قتل أفرادها بوحشية بسبب خلاف على دين تقل قيمته عن جنيه استرليني واحد.

وبدأت المتاعب منذ أيام عندما طالب ايفو سنترا وعمره ٣٥ عاماً صديقه

---

(١) من مجلة حضارة الاسلام. العدد: ١، ٢، السنة الثامنة.

فاليفينو لورنكو دي شوسا وعمره ٢٨ عاماً وهما يصطادان السمك معاً بإيفاء الدين.

وثار غضب فالديفينو فقتل صديقه بسكين كبيرة ثم قام بمساعدة زوجته التي تبلغ السادسة عشرة بقتل زوجة إيفو وأطفاله الثلاثة بالرصاص والضرب بالهراوات والمدي.

وقالت رويتر أن الزوجين ذبحا بعد ذلك أفضل دجاجات الأسرة وتناولا العشاء وهما محاطان بالجثث ثم دفنا القتلى بعد حلول الظلام.

وقال البوليس أن الزوجين اعترفا عندما' اعتقلا بأن أحد الأطفال وهو أنادير الذي يبلغ الثانية كان لا يزال حياً ويئن عندما دفناه.

حل مشكلة التسول بإلقاء المتسولين في النهر

ريو دي جانيرو - سانا - أعلن مسؤول في ريو دي جانيرو بأنه تمّ العثور على جثث ٦٥ متسولاً في نهر جوردا في البرازيل خلال الأشهر الثلاثة الماضية. وأعرب المسؤولون عن قلقهم من أن يكون رجال البوليس يساهمون في حل مشكلة التسول بإلقاء المتسولين في النهر وقدم أربعة من رجال البوليس للمحاكمة.

واعترف أحدهم بأنه أغرق وأطلق الرصاص علي ١٤ متسولاً.

أين تكون الجنة والنار؟

سألني أحد الناس سؤالاً مدهشاً ومثيراً بالنسبة لي. قال: هل تعرف أين تكون الجنة وأين تجمع أرواح البشر وأين توجد النار وعلاوة على ذلك فقد قال لي: هل تعتقد أن الجنة والنار في السماء أم في الأرض؟

التوقيع: السيد مهدي صالح الحسني

الجواب: إن علم الفلك الحديث، لا سيما علم الفلك اللاسلكي قد أثبت أن ما خلق الله من عوالم: من كواكب وشموس وأقمار ومجرات لا تعد ولا تحصى، وتأتينا اشارات لاسلكية من أنجم بعيدة عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، والسنة الضوئية، هي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعته المدهشة: (٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية) خلال سنة واحدة، وتقدر بعشر مليون مليون كيلومتر. وكلما تكاملت آلات الرصد كلما عثرنا على أنجم وكرات وراء ما عثرنا عليه الآن، وإن هذه الأنجم والمجرات التي تستوعب ملايين ملايين من الأنجم تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة، أي بسرعة ١٥٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية في بعض الأحيان وتتسع السماء بسرعة مدهشة ولا يمكن لفلكي أن يحدد سعة السماء، وهو قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[1].

لا نتمكن من تعيين موقع الجنة أو موقع جهنم بالضبط لعدم تناهي الأبعاد. إلا أنا بعد أن ثبت لدينا نبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمعاجز الكثيرة والبراهين الساطعة وبقرآن أنزل عليه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نصدق بكل ما جاء في الكتاب المنزل من جانب رب العالمين.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

فإن الجنة حسب هذه الآية المباركة كانت مخلوقة حيث هبط نبينا، آدم، أبو البشر عليه السلام.

على حد قوله تعالى:

﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى، فوسوس اليه الشيطان، قال: يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها، فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربَّه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدوّ، فاما يأتينكم مني هدى، فمن اتبع هداي، فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى، فان له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى، قال: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى﴾[1].

﴿وقلنا يا آدم اسكنْ أنت وزوجك الجنة﴾ (سورة البقرة: ٣٥).

فالجنَّة مخلوقة وكذلك جهنم لهذه الرواية: يقول الصادق عليه السلام: «بينما كان رسول الله (ص) ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرئيل كئيباً حزيناً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أخي جبرئيل، ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ جهنم اليوم. فقال: وما منافيخ جهنم؟ قال: ان الله أمر بالنار، فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الجبال لذابت من حرها. ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، فبكى رسول الله (ص) ويكى جبرئيل (ع)، فأوصى الله اليهما قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار. ولكن هكذا كونا».

---

(١) سورة طه: ١٧ - ١٢٦.

لذلك كان ابراهيم عليه السلام يسمع منه أزيز كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره وكذلك نبينا نبي الرحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

ومما أسلفنا يُعلم أن الجنة والنار هما في السماء. على أن في باطن الأرض من المعادن المذابة في درجات عالية من الحرارة جداً ولكنها ليست بجهنم التي ينذر الله بها عباده، قائلاً: ﴿يا عبادِ، فاتقونِ﴾[1].

وأما اجتماع أرواح البشر ففي السماء ولعلها السماء الرابعة أو غيرها. وان المشتغلين في عوالم الأرواح وإحضار الأرواح يخبروننا ان الأرواح في احدى السماوات السبع من العالم الأثيري، تختلف كل سماء عن غيرها حسب درجة اهتزاز الأثير وطول الموجة، يُرجى مراجعة كتاب على حافة العالم الأثيري: والله العالم بحقائق الأمور. فـ (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا).



(١) سورة الزمر: ١٦.

ماذا كان في الدنيا قبل خلق الأرض[1]؟

عندما انفصلت الأرض عن الشمس كانت قطعة ملتهبة في درجات عالية من الحرَارة. ما كان يعيش عليها أي كائن حي حتى إذا بردت بأمر الله تعالى وأمطرت السماء بأمره تجمد سطحها لوجود معادن مذابة في باطنها في درجات فائقة من الحرارة، لذلك أمسى سطح الأرض منخفضاً في مكان ومرتفعاً في مكان آخر بجنبه، فالمرتفعات أصبحت جبالاً والمنخفضات بحاراً ملئت بمياه الأمطار الغزيرة. وقد وجد أول ما وجد الكائن الحي في الماء على ما ثبت في علم الاحياء ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

وهكذا تعددت الكائنات الحية من نبات وحيوان. وهبط على الأرض الانسان من الجنة. على حد قوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2].

أي شيء يبقى على وجه الأرض

عندما تقوم الساعة؟

أنه تعالى يخبرنا في قرآنه الحكيم:

﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾[3]

فيفنى كل ما على الأرض ولا تبقى أرضنا هذه. بل تتبدل إلى أرض أخرى. تتحول بادىء ذي بدء إلى طاقات هائلة، ثم هذه الطاقات تتحول بأمره تعالى إلى أرض أخرى وهكذا شأن السماوات، وهو قوله تعالى:

---

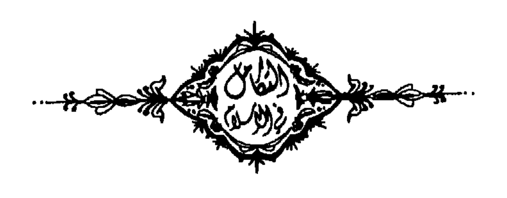
(١) السائل المحترم هو عبد القادر سليمان، تلعفر، محلة القلعة.

(٢) سورة البقرة: ٣٨.

(٣) سورة الرحمن: ٢٦، ٢٧.

﴿يـوم تبدل الأرض غـير الأرض والسمـاوات. وبـرزوا لله الـواحـد القهار﴾[1]

ويعرض الناس إذ ذاك على الله للحساب: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية. فأما من أوتي كتابه بيمينه، فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه. أني ظننت أني ملاقٍ حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية. واما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية. ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه. خذوه فغلوه. . .﴾[2].



(1) سورة ابراهيم (ع): ٤٨.

(2) سورة الحاقة: ١٨ ـ ٣٠.

الاعالة والزواج

س ١: هل صحيح هذا الرأي وهو رأي «مالتس»: ان الرجل يجب أن لا يقدم على الزواج إلا عندما يجد في نفسه المقدرة على إعالة أولاده ولماذا؟.

علي بن حسان الشويلي

بغداد بياع ٨٨ ـ ١٤

الجواب: إن الزواج أمر ضروري لشبابنا اليوم، لئلا يقعوا في المهاوي والمهالك وكبائر الذنوب والآثام: ذلك لأن المغريات في هذا العصر حتى في البلاد الاسلامية أضعاف ماكانت عليه في العصور الغابرة.

ففي الطريق والكتب والمجلات والجرائد والسينما والتلفزيون والراديو أنواع المغريات مما يجعل الشاب مضطرباً قلقاً إلى أبعد الحدود إلا من عَصم الله تعالى، إلا من كان مبتهلاً إلى الله جوف الليل وفي أطراف النهار، بتهجد وتبتل وتحميد وتسبيح، وهذا النوع من الشباب يكاد أن يكون معدوماً أو نادراً جداً في يومنا هذا.

وليس هناك شيء يورث الشكوك والريب ويبعد الانسان عن ساحة القدس الالهية ككبائر الذنوب ومن أخطرها الزنا واللواط. وهو قوله تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[١].

وفي آية أخرى: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[٢] ولقد أنزلنا اليك

---

(١) سورة الروم: ١٠.

(٢) سورة الصف: ٥.

آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[1]. فمآل الفسق: الكفر والجحود. والكافر لا محالة في النار.

وفي الحديث: «أما والله لولا النساء لعبد الله حقاً حقاً».

وفي خبر آخر رواه الاصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: تظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة ـ وهو شر الأزمنة ـ نسوة كاشفات عاريات متبرجات خارجات من الدين، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرمات في جهنم داخلات خالدات».

لذلك شدد الدين الاسلامي النكير على مرتكبي الكبائر دفعاً لسوء العاقبة وهو الكفر. شدد النكير بأن جعل عقاب الزاني غير المحصن[2] ١٠٠ جلدة وعقاب الزاني المحصن الرجم وعقاب كل من اللائط والملوط: القتل أو الحرق أو الرجم[3] سواء كان كل منهما محصناً أو غير محصن.

وجعل جزاء شارب الخمر ثمانين جلدة. كل ذلك: حفظاً لحسن العاقبة وابتعاداً عن الكفر أو الشرك، وفي الحديث: شارب الخمر كعابد وثن.

فحري بالشاب إن أراد المحافظة على عقيدته ودينه أن يبكر في الزواج وأن يتوكل على الله المتعال في رزقه ورزق عياله.

انه تعالى يقول: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[4].

ويقول جل من قائل: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون. فورب السماء والأرض أنه لحق، مثل ما أنكم تنطقون﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: ٩٩.

(٢) المحصن هو المتزوج والمحصنة هي المتزوجة.

(٣) يراجع الجزء الثاني من كتاب التكامل في الاسلام ص: ١٢٦.

(٤) سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.

(٥) سورة الذاريات: ص ٢٢ ـ ٢٣.

فليتوكل الشاب على الله تعالى وليثق بوعده ويبكر في الزواج كي يستريح من ويلات هذا العصر المدلهم ويرى أنوار الايمان الناصعة كيف تشرق في نفسه، فيلتذ بهذا الاتصال الروحي: بالمبدأ الأعلى والعروج إلى معالم القدس. حيث الغاية القصوى من وجودنا في هذه الحياة الدنيوية المؤقتة، حياة الاختبار والتهيؤ لآخرة سعيدة لجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

انه تعالى يقول: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم، ان يكونوا فقراء يغنِهم الله من فضله والله واسع عليم﴾.

فالله أمر الناس بالزواج ووعدهم بالغنى ورفع الفاقة عنهم «ومن أصدق من الله قيلاً». فليعتمد الشاب على قوله تعالى ووعده الذي لا خلاف فيه، وليتزوج بطريق اقتصادي، دونما تكلف من ناحيتي الزوج والزوجة.

وكم سمعنا من أناس أتيحت لهم الفرص لزواج مبكر ولكنهم رفضوا وأغواهم الشيطان وأغراهم بطول الأمل فولجوا في حضيض الشهوات ومزالق الفسق. فتدنست نفوسهم وضعفت نتيجة ذلك عقائدهم. واعترتهم الشكوك من حيث لا يحتسبون. فصاروا ينكرون بعض ضروريات الدين ويستهزئون ببعض المقدسات. ﴿ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

ثم أنه تعالى يقول: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً. حتى يغنيهم الله من فضله﴾[1] فعلى الشاب أن يأخذ التعفف والعفاف شعاراً ويسأل الله أن يمن عليه بمال يتمكن معه من الزواج.

وقد قال جل من قائل: ﴿أدعوني استجب لكم﴾ فكم من أعمال عبادية: من صلاة وذكر تؤدي إلى استجابة الدعاء»[2].

وإن الشاب الذي لم يرتكب الذنوب أقرب إلى الله من غيره. فيستجيب الله دعاءه عاجلاً بمنه ولطفه.

---

(١) سورة النور: آية ٣٣.

(٢) ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الخامس من كتاب التكامل في الاسلام.

وكم يشعر العبد بفرح لا مزيد عليه عندما يرى لطف الله يشمله ويستجيب الله دعاءه ويقضي حاجته نتيجة بعض الأعمال العبادية البسيطة. فهو فرح بأنه تعالى جعله موضع عنايته ولطفه وكرمه.

وقد يؤخر الله استجابة دعاء العبد لمصلحة هناك، خفيت علينا. فعلى العبد أن يزداد خشوعاً وتوسلاً. فالله أراد أن يقربه اليه اكثر فأكثر وعليه أن لا ييأس من روح الله ورحمته ويلح في الدعاء. فان الله يحب الملحين في المسألة والدعاء. والله تعالى يستجيب دعاءه ويمن عليه بزوجة صالحة بعد تهيئة أسباب الزواج بلطفه وكرمه.

وكم سمعنا ورأينا معاجز في استجابة الدعاء وتهيئة الله تعالى العوامل التي بها تقضى الحاجات. فنعم العبد عبد دعا الله فاستجاب دعاءه وقضى بمنه حاجته.

وفي النبوي: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وفي النبوي أيضاً: «ما بُنِيَ بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج».

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من تزوج أحرز نصف دينه. فليتق الله في النصف الآخر».

وفي حديث آخر: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج. فأنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فأنه له وجاء».

معنى الباءة هنا مؤنة النكاح ومعنى أحصن للفرج أي اشد منعاً للشاب من الوقوع في الفاحشة.

وتسمية الصوم في الحديث (وجاءاً) من باب الاستعارة لعلاقة المشابهة. لأن الصوم لما كان مؤثراً في ضعف شهوة النكاح شبه بالوجاء.

وفي بعض الأخبار أن النكاح موجب لمزيد الرزق.

ففي خبر اسحق بن عمار. قلت لأبي عبد الله عليه السلام، الحديث الذي يرويه الناس حق؟ أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشكا

إليه الحاجة. فأمره بالتزويج حتى أمره ثلاث مرات. قال أبو عبد الله (ع): نعم هو حق. ثم قال (ع): الرزق مع النساء والعيال.

* * *

إن الانسان إنما خلق لآخرة سعيدة إن كان من الصالحين. فليعمل للبلوغ إلى سعادة الآخرة وما قيمة عمر قضي في الشهوات والملاذ غير المشروعة إذا كانت العاقبة الخلود في نار: سجرها ربها لغضبه.

وقد قال علي عليه السلام: «ماذا يصنع بالدنيا من خلق للآخرة». وقال: «إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقركم». وقال: «أخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم. ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم».

لشاب أن يقول من أين أءتي بالمال للزواج فالشاب لو كان مخلصاً في نيته ومتوجهاً بكله إلى الحق المتعال يعرض قضية زواجه إلى بعض الاخيار والصلحاء فالله يهيىء له الوسائل حتماً.

وإن بيت مال المسلمين كان يعمل في تزويج العزاب فيما مضى. ويا حبذا لو تشكلت جمعية من خيار التجار وجعلوا مهمتهم تزويج العزاب وتهيئة عمل لهم فقد سمعت أن أحد خيار التجار كان قد تصدى إلى تزويج ٧٠ علوياً. وكان ممن حسنت عاقبته وذهب إلى روح وريحان قرير العين.

وقد يخشى الشاب من كثرة الأولاد والبنات وصعوبة تربيتهم وإعاشتهم. وله أن يمنع الولادة بطريق مشروع وأن يعزل برضاء زوجته. وان يحدد عدد الأولاد والبنات.

على أن الله تبارك وتعالى ما خلق خلقاً إلا وقد هيأ له رزقه ووسائل حياته قبل خلقه وبهذا المضمون أحاديث كثيرة.

وفي القرآن كما ذكرنا: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون[1] فلا ينبغي أن يخشى الإنسان من

---

(١) سورة الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣.

كثرة الأولاد والبنات فالله رازقهم وإذا تعسر الرزق أحياناً فلمصلحة واختبار وامتحان ومزيد أجر وتكفير للذنوب، وما على العبد إلا أن يتضرع إلى الله تعالى ويسعى السعي الحثيث لطلب الرزق، فهو الجهاد كما جاء في منطوق بعض الأحاديث.

قال رسول الله (ص): «تناكحوا تناسلوا فأني اباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط» وإن لكثرة النفوس أثرها المرموق في بسط نفوذ الاسلام في العالم.

قال الصادق عليه السلام: ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها العزب.

قال رسول الله (ص): رذال موتاكم العزاب.

وقال أيضاً: «لم يرسلني الله بالرهبانية وإنما بعثني بالحنيفية السمحة أصوم وأصلي وألمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح».

قال رسول الله (ص): من ترك التزويج مخافة العيلة فقد ساء ظنه بالله عز وجل ان الله عز وجل يقول: ﴿أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾.

وقال (ص): «تزوجوا للرزق، فان فيهن البركة».

وقال (ص): «من عمل في تزويج بين مؤمنين حتى يجمع بينهما زوجه الله ألف امرأة من حور العين».

وقال الصادق (ع): «إذا تزوج الرجل الامرأة لجمالها أو لمالها وكل إلى ذلك. وإذا تزوجها لدينها رزقه الله المال والجمال».

ويستحب عند إرادة التزويج (قبل تعيين المرأة وخطبتها) صلاة ركعتين والدعاء بعدهما بالمأثور، وهو «أللهم أني أريد أن أتزوج، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً واحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعهن رزقاً وأعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيباً تجعله خلفاً صالحاً في حياتي وبعد موتي».

وسدَّ الدين الاسلامي طرق تفريغ الشهوة بأشكال غير مشروعة على

الانسان تعمياً للزواج ولئلا تبقى نساء غير متزوجات فيؤدي ذلك إلى فساد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

فمن وطأ بهيمة عزر وإن عاد يقتل في المرة الرابعة والبهيمة إن كانت مأكولة اللحم حرم لحمها ولحم نسلها بعد الوطء بل تذبح وتحرق ويغرم الواطيء قيمتها لصاحبها وان لم تكن صالحة للأكل كالخيل وغيره بيعت في بلد آخر ويتصدق بثمنها والغرامة على الواطيء أيضاً.

وحد المساحقة هو حد الزنا لكل من الفاعلة والمفعولة أي مائة جلدة، وتقتلان في المرة الرابعة، وإن كانتا محصنتين «متزوجتين» فتقتلان في المرة الأولى.

والذي يقوم بالقيادة أي يجمع بين فاعلي الفاحشة كاللواط أو الزنا أو المساحقة يضرب خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر في البلد وينفى عنه إلى غيره من الأمصار ويعزر المستمني من ذكر وأنثى حسب نظر الامام أو نائبه.

ونكرر حد شارب الخمر مزيداً للفائدة. فمن شرب خمراً أو فقاعاً أو عصيراً[1] قبل ذهاب ثلثيه أو نحوها من أنواع المسكرات القديمة منها والحديثة، عالماً عامداً بالغاً: يضرب ثمانين جلدة عارياً على كتفه وظهره دون وجهه ومذاكيره ضرباً مؤلماً. ولو عاد إليه يقتل في المرة الرابعة ولو شربها مستحلاً فهو مرتد يجب قتله. وبايع المسكرات يستتاب فان تاب فهو، وإلا يقتل.

هذه هي سنن الله القويمة، الصالحة في الأرض تقلع بها جذور الفساد لو طبقت، وتصلح بها النفوس وتتوجه بكلها إلى بارئها فتأخذ في دورها التكاملي، لتفوز بسعادة النشأتين.

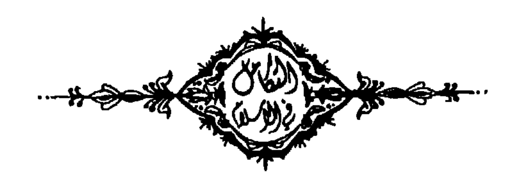
وهذا الفوز هو فلسفة الوجود والحياة، فلسفة يقرها العقل والمنطق الصحيح. لو بقي العقل على صفائه ولم يتلوث بالذنوب والآثام.

---

(١) عصير العنب.

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾[1].

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون. وامـا الذين فسقـوا فمأواهـم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾[2].



(١) سورة القلم: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) ألم سجدة: ١٨ ـ ٢٠.

حركة الشمس

السؤال الأول: ما تفسير هذه الآية[1]:

﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

الجواب: إن هذه الآية من الآيات التي تبرهن على إعجاز القرآن، فقد نزلت في وقت لم يكن علم الفلك إلا كألف باء بالنسبة إلى ما بلغ اليه علم الفلك في الوقت الحاضر، نزلت في وقت كان يقول فيه علماء اليونان: أن الأرض مركز العالم وكل الكواكب والأنجم تدور حولها. حتى إذا كان القرن السادس عشر الميلادي وجاء الفلكيان كوبرنيك وكبلر وجاء غاليله بمرقبه وتقدمت الرياضيات العالية والميكانيك الأرضي والسماوي، ثبت لدى الفلكيين أن الأرض تدور حول الشمس على شكل اهليليجي وان لا حركة للشمس وأن الكواكب تدور حولها، على شكل منحنٍ معادلته:

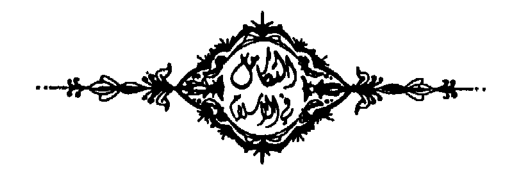
$$\frac{س^{٢}}{ب^{٢}} + \frac{ص^{٢}}{حـ^{٢}} = ١$$

حتى كان القرن العشرون الميلادي وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك السماوي، وصنعت مراقب Telescopes كبيرة جداً وعلم أن للشمس حركة خاصة بها، وهي تسير بسرعة ٢٠ كيلومتراً تقريباً في الثانية أي بسرعة (٧٠٠٠٠) كيلومتر على وجه التقريب في الساعة على شكل لولبي سائرة نحو نجمة تسمى بـ(النسر الواقع)، تُرى ثابتة لبعدها السحيق. وهي تستقر بعد

---

(١) السائل المحترم هو: مهدي نجل المرحوم الشيخ صالح الأسدي ـ جلولاء.

قطع هذه المراحل حيث شاء الله تعالى وأغلب الظن أن هذا الاستقرار سيكون قبل يوم القيامة، ﴿يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبـرزوا لله الواحد القهار﴾ .



أوقات الصلاة

السؤال الثاني: نرجو شرح أوقات الصلوات الخمس، الظهر ٤ ركعات، العصر ٤ ركعات، المغرب ٣ ركعات، العشاء ٤ ركعات، الصبح ٢ (ركعتان) ولماذا قسمت بهذا التقسيم؟ وهل هذا التقسيم يدل على شيء أراد الله سبحانه وتعالى إثباته للبشر؟.

ج: عزيزي السائل حفظه الله، ما من حكم من أحكام الله تعالى في الشريعة الاسلامية إلا وله حكمة وفوائد جمة قد يجلو لنا البعض منها ويخفى عنا الكثير منها. فالله تعالى إنما جعل عدد ركعات الظهر ٤، لأن الانسان له من النشاط قبيل الظهر ما يجعله أن يؤديها، على أن أداء ٤ ركعات لا يستغرق شيئاً من الوقت ولا يتعب هذا الانسان، ثم أنه تعالى يريد بالانسان أن يذكره بين فترة وفترة، لئلا يتغلب عليه الشيطان. ولئلا تتراكم عليه ذنوبه. فالله يريد بعبده أن يذكره في وسط النهار حيث تتراكم الأشغال كي لا تتغلب عليه دنياه فتبعده عن ساحة القدس. ولذلك يقول جل من قائل:

﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾.

وقد فسرت: الصلاة الوسطى، بصلاة الظهر. وأما صلاة العصر فللانسان نشاطه بعد شيء من الراحة، فيؤدي ٤ ركعات حتى أن نوافل الظهر ٨ ركعات جُعلت قبل أداء صلاة الظهر، وكذلك نوافل صلاة العصر ٨ ركعات قبل صلاة العصر. ذلك لأن الانسان في ضوء النهار له من النشاط ما يمكنه من أداء النوافل.

وأما صلاة المغرب، فقد جعلها الله تعالى ٣ ركعات كحد وسط بين تعب النهار وراحة الليل. ثم بعد شيء من الراحة تأتي صلاة العشاء: ٤ ركعات وقد جعلت صلاة الصبح ركعتين، لأن الانسان يشعر بشيء من الكسل عند نهوضه من النوم صباحاً.

أما الأوقات: فوقت الظهرين من الزوال إلى الغروب وتختص الظهر من أوله بمقدار أدائها بحسب حاله والعصر من آخره كذلك.

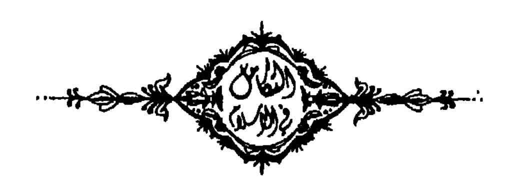
ولكن وقت فضيلة الظهر من الزوال إلى بلوغ الظل الحادث بعد الانعدام أو الانتهاء مثل الشاخص. ووقت فضيلة العصر من المثل إلى المثلين على المشهور. والأحوط في إحراز الفضيلة تأخير العصر إلى القدمين أي سبعي الشاخص.

ووقت العشائين (صلاة المغرب والعشاء) من الغروب إلى نصف الليل وتختص المغرب من أوله بمقدار أدائها والعشاء من آخره كذلك مع الاختيار أما للمضطر لنوم أو نسيان أو حيض أو نحو ذلك فيمتد وقتهما إلى طلوع الفجر وتختص العشاء من آخره بمقدار أدائها. (يرجى مراجعة المجتهد المقلَّد في ذلك).

ووقت فضيلة المغرب من الغروب إلى ذهاب الحمرة المغربيّة، ووقت فضيلة العشاء من ذهاب الشفق إلى ثلث الليل.

ووقت صلاة الصبح ما بين طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس.

ووقت فضيلة صلاة الصبح من طلوع الفجر الصادق إلى ظهور الحمرة المشرقية على المشهور.



المتعة

السؤال الثالث: إن المتعة في حكم القرآن حلال مما يدل عليه الآية: ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهنَّ أجورهن﴾. نرجو شرح الآية مع العلم أن بعض المذاهب الاسلامية تحرم المتعة. نرجو الدليل على ذلك وعلى تحليلها؟.

الجواب: إن الآية المذكورة على ما جاء في مسند ابن حنبل ـ امام الحنابلة ـ نزلت في متعة النساء:

إلا أن عمر قد حرم المتعة بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) وعلى عهد أبي بكر (رض) وأنا أنهى عنهما».

مع العلم أن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

وقد روى الجاحظ والقرطبي والفخر الرازي وغيرهم من أعلام السنة أن عمر قال في خطبته: «متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء».

وإنما شرعت متعة النساء لئلا يقع الشاب في مزالق الزنا ومهابط الفجور. فان الفسق مؤدٍّ إلى ذهاب الايمان. وهو القائل:

﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[1].

إن الاسلام دين الواقع، يعالج المشاكل الاجتماعية معالجة جذرية فيها من التقوى والطهارة ما لا يدع مجالاً لتلوث النفس الانسانية.

فقد يسافر الشاب إلى بلاد نائية وليس معه زوجته أو هو أعزب، ولا يقوى على كبح شهوته. فيفتش عن زوجة يتزوجها بزواج موقت. لا يختلف

---

(١) سورة البقرة: ٩٩.

عن الزواج الدائم إلا بتحديد الوقت وانقضاء مدة الزواج بانقضاء الوقت المؤجل. ولا توارث بين الزوج والزوجة إلا بشرط ضمن العقد (على قول) وأما صيغة العقد الشرعي: فتقول المرأة (بعد تعيين المهر والأجل) للرجل: «متعتك نفسي على المهر المعلوم في المدة المعلومة» أو تقول: زوجتك نفسي على المهر المعلوم في المدة المعلومة، أو تقول انكحتك نفسي على المهر المعلوم في المدة المعلومة. ويقول القابل وهو الرجل (للزوجة):

قبلت المتعة... أو

قبلت التزويج... أو

قبلت النكاح...

ويتم كل شيء ويخرج الشاب من دنس الحرام إلى طهارة الحلال[1]. ولا تبين الزوجة المتمتع بها بالطلاق حيث لا طلاق لها وإنما تبين بانقضاء مدتها أو أن يهب الرجل باقي المدة لها. فان لم يدخل بها فليس لها عدة وإن كان قد دخل بها فان كانت غير بالغة أو كانت يائسة فلا عدة عليها وإلا فعليها العدة وهي حيضتان وإن كانت لا تحيض وهي في سن من تحيض فعدتها خمسة وأربعون يوماً. وأما إذا كانت حاملاً فعدتها إلى أن تضع حملها على أشكال والأحوط مراعاة أبعد الأجلين من وضع الحمل ومن انقضاء خمسة وأربعين يوماً أو الحيضتين. وإن عدتها لوفاة زوجها فهي كالزوجة الدائمة أربعة أشهر وعشرة أيام إذا لم تكن حاملاً، وإن كانت حاملاً فبأبعد الأجلين.

---

(١) فان لم تتمكن الزوجة المتمتع بها من إجراء الصيغة باللغة العربية مع القصد وفهم المعنى فحسب رأي بعض المجتهدين لها أن تجري الصيغة بلغة أخرى أو بلغتها، كالفارسية أو الانكليزية أو الفرنسية مع القصد. وللرجل أن يقبل بلغة تفهمها المرأة المزمع زواجها بزواج موقت أو دائم فلا بد من القصد وفهم المعنى. وفي كل هذه المسائل يراجع المجتهد المقلد لأنها خلافية.

العلق في قوله تعالى
﴿خلق الانسان من علق﴾ . . . الخ[1]

جاء في كتب اللغة، ان العلق: دويبة سوداء تمتص الدم. وقد ثبت في عام ١٧٦٨ م: أن في المنيّ حوينات تشبه العلق. ولم تعرف قبل هذا العام الحيوانات المنوية بأنها خلايا متحركة بشرية. وهذه الخلايا تشبه العلق في حركتها المنوية بأنها خلايا متحركة بشرية. وهذه الخلايا تشبه العلق في حركتها ولها رأس مفرطح وعنق قصير وذيل طويل. وتتحرك بلولبية ذيلها. وقد قرر العلم أن الله قد أمد هذه الخلايا بقوة-من المقاومة تستطيع بها حفظ النوع البشري، إذ أنها في الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيها وتفقد مظاهر نشاطها، فإذا ما وجدت الوسط المناسب عادت لها حيويتها ونشاطها وتستمر في حياتها لعدة أيام متوالية في انتظار البويضة التي يفرزها مبيض الأنثى، وهو جهاز التناسل فيها، ليؤدي إخصابها، ويتم كل ذلك بالهام من الله تعالى. إذ لا دخل لأية قوة كائنة ما كانت، كيمياوية أو حيوية في توجيه الحيوان المنوي (أي العلق) إلى بويضة الأنثى.

يجتمع المني في محل معين فتصطدم الحيوانات المنوية بعضها ببعض، وبعد أن تتم عملية اللقاح في الرحم تتبدل النطفة إلى علقة.

ويتكون من العلق الغضروف، فيكسو الغضروف اللحم والأعصاب والعروق ويتكون الجنين بعد ذلك بصورة تدريجية. وهو قوله تعالى:

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فجعلنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

---

(١) السائل المحترم هو: أكرم موسى جعفر ـ طوزخورماتو.

هل الأكثرية في النار[1]؟

جاء في كتابكم: أن أكثر نفوس العالم غير مسلمين، فهل هذه الأكثرية في النار؟.

عزيزي، إن الله رؤوف بعباده رأفة لا تقاس بها أية رأفة. وقد جعل لهذا الانسان عقلاً وجعل هذا العقل نبياً باطنياً لمن لم تبلغه الرسالة. وقد قال إمامنا موسى بن جعفر عليه السلام:

«إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالأنبياء والرسل والأئمة وأما الباطنة فالعقول».

فمن كان مثلاً في الاسكا ولم تبلغه رسالة الاسلام، فهو مسؤول تجاه الحجة الباطنة أي تجاه عقله وقد ألهم الله تعالى البشر أصول الخير والشر قبل بعث الرسل. بقوله جل من قائل: ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها﴾. وبقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾: أي عرفنا الانسان طريق الخير وطريق الشر.

وقد غرس الله تعالى أساس التوحيد في العقل الانساني في عالم الذرّ: في عالم الأرواح قبل حلول الروح في الجسد الانساني: بقوله عز من قائل:

﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا، أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

فكل من يولد يعترف بحكم الفطرة، بعد سنين، بوحدانية الله تعالى.

---

(١) جواب على سؤال.

وهو، بالفطرة، (إن لم تبلغه رسالة الأنبياء أو رسالة الاسلام منذ ١٤ قرناً) يجتنب المحرمات الرئيسية ويقوم بالفطرة بالأعمال الخيرية: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فيتقرب إلى الله المتعال ويكون مصيره الجنة.

وهو القائل: ﴿ولله على الناس الحجة البالغة﴾. ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾. ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾. ﴿وسعت رحمته كل شيء﴾.

ولا يخلد في النار إلا من بلغ الدرجة القصوى من الظلم ولم يتب ومن خالف الفطرة وأشرك بالله، ولا يكون الفرد، لا سمح الله، مشركاً إلا إذا أمسى جرثومة فساد وإفساد، لا يصدر منه إلا الشر، ولا يفكر إلا في الشر لكثرة ذنوبه وآثامه السابقة التي ارتكبها مخالفاً للفطرة، وضارباً بايعازات الفطرة وأجراسها وتنبيهاتها عرض الجدار، وهو القائل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وقد فتح الله باب التوبة لعباده وما أوسعه! وللمذنب أن يتوب قبل موته بساعات. وفي الحديث: «التائب عن الذنب كمن لا ذنب له» وقال تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، ان الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

وقد أخبرنا الله تعالى بما نراه اليوم وحتى في الغد أن الأكثرية من الناس غير مؤمنين وذلك بقوله جل من قائل: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. وبقوله: ﴿وإن تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾. وقد نعت المسلمين بالقلة والكافرين بالكثرة بقوله: ﴿وقليل ما هم﴾. و﴿قليل من عبادي الشكور﴾. وبقوله: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾. وهذا لا يتنافى مع نجاة المعذّبين في النار وشملهم رحمة الله ودخولهم بعد العذاب والتطهير: جنات عدن، بفضل الله رحمته وجزيل رفده.

﴿هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾[1].

---

(١) سورة لقمان: ١١.

الدماغ!

جاء في مجلة ا(الأسبوع العربي) عدد ٤٤٦ سنة ١٩٦٧ على الرغم من تشعب أبحاث الدماغ وتعدد مراكز العلماء المتخصصين في هذا الموضوع فان المعلومات المتوفرة عن الدماغ تكـــاد لاتزيد كثيراً عن المعلومات الكلاسيكية المعروفة.

نعرف اليوم مثلاً، ان الدماغ الذي يزن أقل من اثنين بالمائة من الجسم، يحتاج إلى ٢٠ بالمئة من الدم الذي يضخه القلب و ٢٥٪ من الاكسجين الذي يجمعه الدم. وللدماغ نظام معقد للتغذية والحماية، وهو مؤلف من حوالي عشرة آلاف خلية عصبية وحوالي مائة مليـار خلية «غليـولي» وسواهـا من الخلايا. وهو أشبه بآلة بيو-كهربائية هائلة تنتج وتستهلك تياراً يقدر ببضعة جزيئات من واحد على ألف من الفولت لكل خلية، كما نعرف جيداً تشريحه وتركيبه الكيميائي، لكنا لا نعرف تماماً وظائفه ونعرف بدرجة أقل أمراضه وطرق معالجتها.

* * *

لكن الدماغ بالنسبة للعلم لا يزال تلك «العلبة السوداء» المقفلة التي لا يعرف محتواها. توصل العلم اليوم إلى تحديد مراكز الخيوط الدمـاغية التي تتحكم بالحركة والشعور. لكن العالم البريطاني-غراي ولتر-أثبت أنه من المستحيل إعادة بناء الدماغ الانساني بواسطة المعلومات التكتيكية الحالية.

ولو أراد الانسان « خلق » دماغ بشري لاحتاج الى حجم هائل وتكاليف باهظة خيالية. فهو يحتاج مثلاً الى ٢٧ ميلمتراً مكعباً للخلية الواحدة. أي حوالي نصف مليون متر مكعب لاستيعاب عشرة مليارات خلية.

وحاول والتر حساب تكاليف إنشاء مثل هذا الدماغ بالجنيه الاسترليني

(قبل تخفيض سعره). وتبين له أن سعر الخلية، إذا لم يزد على شلن واحد، فإن مجموع ثمن الخلايا يقدر بحوالي نصف مليار جنيه إسترليني (بالسعر القديم). أما تكاليف إنتاج الياف الاعصاب الدماغية فقد بلغت رقماً خيالياً هو واحد والى يمينه ١٨ صفراً. ومثل هذا الدماغ البشري الاصطناعي سيحتاج الى مليون كيلوات من الكهرباء لتسييره بينما لايحتاج الدماغ البشري العادي الى أكثر من ٢٥ وات فقط! وعلى هذا فإن نفقات إنشاء وإستهلاك الدماغ الاصطناعي كفيلة بإبتلاع ميزانيات كل دول العالم في سنة واحدة، وهو فضلاً عن ذلك لن يكون أكثر من دماغ بدائي ناقص.

ويجهل العلماء تماماً اليوم ثلثي وظائف الدماغ. والثلث الباقي يحيط به الكثير من الشكوك، منذ تعداد شخصيات أبيقراط الأربع (الانفعالي، البارد، السوداوي، اللمفاوي)، مروراً بإكتشافات بافلوف الى تجارب برغر حول النشاط الكهربائي للدماغ. ومنذ أبيقراط والى يومنا الحاضر، تعتبر المسافة التي قطعها العلم نحو إكتشاف الدماغ قصيرة جداً. وطرق تدخل العلم وتأثيره على الدماغ لاتزال محدودة وهي تقتصر على العامل السلبي أي منع الدماغ من العمل أو شل فعاليته. لكن الناحية الايجابية، لايزال العلم يقف أمامها حائراً. ونعرف مثلاً المراكز الدماغية التي تتحكم بالحركة والنطق، لكن تاريخ الطب مليء بالاستثناءات، ومنها حالة مريض استمر في القيام بوظيفة معينة رغم تدمير المركز الدماغي الذي يوجه تلك الوظيفة.

غراي والتر يؤكد أن الدماغ لايخضع للقوانين الحسابية التي يصعب تطبيقها على هذا الاوقيانوس الضخم من الخلايا العصبية. ولعل هذه هي الصعوبة الاساسية التي تواجه علم الالكترون الذي يأمل العلماء عن طريقه الوصول الى حقيقة الدماغ، بتقريب التشابه بين خطوط الأدمغة الالكترونية وخطوط الأدمغة الانسانية، إذا أمكن تحقيق التشابه في مجالات النشاط العادي كالمشي والركض. إلا أن ترجمة الخيال الخلاق بخطوط على الورق لاتزال ضرباً من الخيال إذ ما من عالم على استعداد لتناسي هذه الحقيقة الجوهرية الفارق بين الخلية الحية والتيار الكهربائي.

منذ قرن تقريباً، أي منذ أن أدخل ريتشارد كاتون في ليفربول لأول مرة

قطباً كهربائياً في دماغ فأر، والعلماء يستعملون تسجيل الموجات الدماغية على انها النظام الأكثر دقة لأكتشاف مجاهل الدماغ.

ويتناسى العلماء أحياناً انهم نقلوا مبدأ الآلات الحاسبة الالكترونية عن الدماغ الانساني، فيشبهون الدماغ نفسه بعقل الكتروني ضخم أقوى بعشرة آلاف مرة عن أي دماغ الكتروني بنوه حتى الآن، بوسعه تخزين أكثر من مليون مليار من المعلومات التي يتلقاها الانسان طوال سني عمره.

لكن هذا التشبيه في غير محله، ففي الحلم أو نوبات داء النقطة ومناسبات أخرى غيرها، نرى الموجات الدماغية واضحة للقراءة وإن تبدل خط سيرها. بل إن العلم يعرف اليوم الأوزان الدماغية: الفا، بيتاً، دلتا.. التي يمكن تغييرها بواسطة إثارة مفاجئة أو شعور عنيف.

وقبل ٣٠ سنة، أي في أيام برجيه، كان يأمل العلماء بكشف ميكانيكية عمل الدماغ نهائياً، لكنهم أدركوا اليوم أن الوصول الى مثل هذه النتيجة مستحيل، عن هذه الطريق على الأقل.

ويعتبر غراي والتر من جامعة بريستول الاميركية، من أشهر منقبي الدماغ الأحياء. فالى أين وصل في أبحاثه؟

لقد وصل الى هذه النتيجة: إن دراسة الموجات الدماغية، وحدها لا تفيد، ولا يمكن الاستفادة منها إلا بربطها بسائر الدراسات عن الدماغ. إذن؟ النتيجة واضحة: العمل الالكتروني حسن، لكن على الباحث الالكتروني عدم التخلي عن البيولوجيا. وأكثر الخيبات أتته من خلال حالات الاختلال العقلي، ودراسة الاحلام.

وفي مؤسسة مونريال العصبية توقف وايلدر بنفيلد عن العمل منذ وقت طويل، ويعود تاريخ آخر اكتشافاته الى ٣٠ سنة خلت. لكن لم يستطع أي عالم، منذ ذلك التاريخ، إكمال الشوط الذي بدأه وسار فيه بنفيلد.

كان هذا العالم الكندي يعالج داء النقطة بطريقة جريئة: كان يفتح القفص الدماغي، ويصدم الدماغ بشحنات كهربائية متقطعة. وكان المريض

يحتفظ بكامل وعيه لأن العملية غير مؤلمة. وذات يوم، وبينما كان القطب الكهربائي يقوم بعمله في الجهة المقابلة للصدغ من دماغ امرأة شابة، إذ بها تسأل فجأة: هل وضع أحد ما موسيقى في الصالة؟

وكانت المعزوفة التي تخيلت المرأة إنها تسمعها في الصالة، معزوفة شهيرة قبل ذلك بعشر سنوات. وكانت المرأة تعاود سماع النغم نفسه كلما كان القطب يمس النقطة ذاتها من الدماغ.

أعاد بنفيلد التجربة مراراً وخرج بنتائج مثيرة. كان المرضى يتذكرون فجأة أحداثاً وذكريات قديمة العهد. ومرة تذكر أحد المرضى حدثاً وقع له أثناء طفولته. وآخر كان يسمع صوت أمه وكأنها تناديه من مكان قريب.. كما لو أن تلك الأصوات التي كانت مدفونة لثوان خلت في خلايا الدماغ، قد عادت اليها الحياة بواسطة الصدمات الكهربائية. فهل تعنى هذه النتائج إن الذاكرة متمركزة في القسم الصدغي من الدماغ؟ هل يمكن إثارتها بواسطة الاقطاب الكهربائية؟ وهل تقيم الذكريات القديمة في تلافيف الدماغ، وفي مكان أعمق من الذكريات الحديثة العهد؟ ولماذا تعود الذكريات؟

شريط لا نهاية له...

يؤكد بنفيلد ان كل ما يلتقطه الدماغ، يختزن فيه طوال العمر، وكأنه شريط سينمائي لانهاية له. وتوقف بنفيلد عند هذه النقطة، ولم يعقبه أحد لأكمال تجاربه ونظرياته.

وخطا بعض العلماء خطوة صغيرة الى الامام عندما توصلوا الى إثبات الحقيقة التالية، وهي أن وقوع حدث ما يقترن بتيار كهربائي في الدماغ، ويتوزع الحدث الواحد على أماكن متعددة في الدماغ الانساني. والجانب الصدغي من الدماغ مخصص لحفظ «تيار الذكريات» الى الوقت الذي توضع فيه نهائياً في خزان الذكريات (أو إلى أن تزول اذا كان استنتاج بنفيلد خطأ).

لكن النظرية الأكثر انتشاراً اليوم لتفسير الذاكرة (التي أصبحت الحدود الجديدة لعلم الدماغ) هي النظرية البيوكيميائية. وقد انتشرت هذه النظرية

الى الحد الذي يسمح بقبولها كحقيقة واقعة، لكن الاثبات الذي لايقبل الجدل لايزال بعيداً.

تقول هذه النظرية إن الذاكرة تتركز في مادة أسيد (حامض) الخلايا الدماغية. نشأ هذا الاعتقاد بعد أن تبين أن زيادة أسيد الخلايا يجعل الذاكرة تزداد قوة. وقد أخذ العلماء هذا الأسيد من دماغ فأر حسن التدريب وإضافة الى دماغ فأر معدوم الخبرة. وكانت النتيجة الى الفأر الثاني إكتسب جميع خبرات الفأر الأول.

كما قام عالم آخر هو ماك دونيل بتجربة غدت شهيرة: قدم دونيل جثث ديدان مدربة، طعاماً لديدان غير مدربة، وكانت النتيجة أن الديدان المفترسة إكتسبت جزئياً تجارب الديدان الضحية.

فهل يعني هذا أن للذاكرة أساساً كيميائياً أم كهربائياً؟

أحد أكبر خصوم النظرية البيوكيمائية لتفسير الذاكرة، وهو العالم لدربرغ الحائز على جائزة نوبل للبيوكيمياء والمتخصص في الدماغ الانساني والالكتروني، يقر ويعترف بأن الاثباتات المقدمة للأصول الكيميائية للذاكرة هي إثباتات مقنعة، لكنه يستدرك قائلا إن استمرار الابحاث على هذه الطريق يعتبر خطأ، ويقول: «هناك علماء كثيرون على استعداد للتخصص في دراسة سيكولوجية الانسان، لكن القليلين منهم ينصرفون الى دراسة الدماغ، مع أنه ـ على نقيض السيكولوجي ـ مادة فيزيائية ملموسة ينتظر من يخضعه لتجارب فيزيائية وكيميائية».

ومنذ فترة وجيزة، تمكن العالم ستيفن زامنهوف من تكبير حجم دماغ فأر بواسطة هرمونات لاتزال سرية تنتجها الغدد البلغمية. فما هي نتيجة تكبير حجم الدماغ على الشخصية الانسانية؟

الأجوبة الأولى غير قاطعة. لنتائج الاختبارات الانكليزية والاميركية تقول أن زيادة حجم الدماغ تحدث زيادة مماثلة في الذكاء.

وها هو السؤال يطرح من جديد: ماهو الدماغ أهو آلة الكترونية أم مختبر كيميائي؟ كيف نتعلم، وكيف نتذكر؟

إن صلة التعلم بالذاكرة صلة وثيقة. ومن الثابت اليوم أن التعلم يمر بعدة مراحل، وبعدة طرق... فهناك تعلم بواسطة التكرار وآخر بواسطة التحليل وثالث بواسطة التجميع والتوارد. لكننا نعرف أيضاً أن الذاكرة هي الجهاز الوحيد الذي بوسعه ان يتعلم. ولانعرف أين يتم خزن المعلومات ولاكيفية ارتباط رسالة برسالة أخرى. كما نجهل كيف يتكون الكلام، وكذلك نجهل ماهو الذكاء الذي كان بعض العلماء يعتبرونه لوقت قريب مجرد موهبة وراثية.

في جامعة كاليفورنيا لجأ الدكتور ويتمان الى المخدر لهزم الادمان على الكحول، مغلقاً بذلك تياراً قديماً في الطب. وقد نجح بشفاء مرضاه من المدمنين على الكحول بإعطائهم كميات قليلة من مخدر الـ L S D تحت إشرافه. وكانت النتيجة أن بدأ مرضاه يعودون تدريجياً الى حالتهم الطبيعية.

ولائحة المخدرات الكلاسيكية تستضيف كل إسبوع أسماً جديداً. إن المخدرات اليوم أحدثت ثورة في المستشفيات وعيادات المعالجة النفسية، هي أشبه بثورة البنسلين قبل عشر سنوات.

إلا أن استعمال المخدر بقصد العلاج يجب أن يخضع للاشراف الطبي المباشر، ثم أن المخدر يعتبر محدود الفائدة في عمليات كشف أسرار الدماغ، وتأثيره على الدماغ طارىء، ومحدود ويصعب قياسه. وحتى الـ L S D الذي يعتبر من أقوى المخدرات تأثيراً يزول مفعوله بعد ساعات قليلة ويتراوح تأثيره على الدماغ بين حالتين محدودتين: الخوف والفرح.

وعلى كل حال، فإن معالجة الدماغ تسير على طريق قد تتيح كشف المزيد من أسراره. وقد ساعدت بعض المهيجات أمثال الستركنين والبيكروتوسين على جعل الدماغ أكثر فعالية وعمقاً كما سهلت أعمال الذاكرة.

لكن كلما فتح باب من أبواب أسرار الدماغ فتحت في وجوه العلماء سراديب طويلة فيها عشرات الأبواب المغلقة.

آثار الصلاة

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾، وفي الحديث: الصلاة عمود الدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها». «الصلاة قربان كل تقي»، «إن أول مافرض الله: الصلاة، وآخر ما يبقى عند الموت: الصلاة، وآخر ما يحاسب به يوم القيامة: الصلاة، فمن أجاب فقد سهل عليه ما بعده، ومن لم يجب فقد اشتد عليه ما بعده»، «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة».

وقد حذرنا الله تعالى بقوله: ﴿ ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾. وإن أول ما يعترف به من يلقى في نار جهنم من الخطايا والذنوب هو ترك الصلاة، بقوله تعالى: ﴿ ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين ﴾.

فالصلاة مناجاة الروح بين العبد وربه يبث اليه ما انتابه من آلام ونوائب، بخشوع وخضوع، وتذلل فيلهم من الصبر والارتياح النفسي ما يخفف عنه تلك الآلام أو يزيلها. فقد ثبت في الطب الحديث أن لعرض الآلام والكوارث وبثها أثراً هاماً في تخفيفها، على أن الله تعالى هو القادر المتعال على إزالة ما يصيب الانسان من مصائب وقضاء ما له من حوائج. وهو القائل: ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾.

وفي صلاة الجماعة من آثار اجتماعية وروحية عظيمة، فيتفقد المؤمنون حالات بعضهم البعض ويقوم المستطيع منهم بدفع حاجة الضعيف، وتتحقق الأخوة الاسلامية بين المؤمنين: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾.

الشعور بالمساواة:

يقول الكاتب: (هراس ليف): «ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي

دين من الأديان يدعو الى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها، وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لابد كذلك داخل المساجد الاسلامية، ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن. هنالك وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك ان تسميه بحق أخوياً، ولم أكن شاهدت مثل ذلك. ترى في المسجد نوبياً من بلاد (ممباسا) يصافح عظيماً من رجال الاعمال المصريين أو سياسياً من بلاد العرب. وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع، فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً. وأنك لاتجد أقل محاولة لتخطي الصفوف الى مكان ممتاز بالمسجد، لأنه ليس هنالك أي مكان ممتاز، فالكل عند الله سواء، وعندما صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل اليهم كدت لاأصدق أذني، وكان هذا جديداً إستفدته عن الاسلام، لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عاماً.

ويقول الاستاذ (عبد الله كوليم) المسلم: « إنه حينما كان مسافراً على ظهر باخرة الى طنجة في بلاد المغرب، إذ بعاصفة قد هبت وأشرفت السفينة على الغرق وأخذ الركاب يحزمون أمتعتهم ويهرولون في كل اتجاه وقد اضطربوا ونزل بهم الهول، فلا يدرون ماذا يصنعون. . . وإذا بـه يرى جماعة من المسلمين قد استوت في صف واحد يكبرون ويهللون ويسبحون. . فسأل أحدهم: ماذا يفعلون؟ فقال: نصلي لله. . فسأل: ألم يلهكم أشراف السفينة على الغرق؟ قال: لا. . إننا نصلي لله الذي بيده وحده الأمر. إن شاء أحيا، وإن شاء أمات. . . ».

وقد كان هذا الحادث سبباً في بحثه عن الدين الاسلامي وهدايته للاسلام وأصبح من كبار دعاة الاسلام وقد أسلم على يديه الكثير.

ومعلوم أن الصلاة لو قبلت تدفع عن هذا الانسان الفحشاء والمنكر: ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وما أحوج الانسان الى عمل يبعده

عن الفحشاء ويطهره من الدنس والرجس ويدخله في عالم قدسي كله جمال وكمال. فلم يؤت بهذا الانسان الى عالم الوجود الا ليتكامل نفسياً، ولاشيء يؤدي الى هذا التكامل كالصلاة المقبولة، صلاة يتخللها خشوع وخضوع وبكاء من خوف الله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾[1].

فالانسان أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها المعدن الخسيس كالحديد والألمنيوم والنحاس الى ما هنالك وفيها الذهب الخالص، فبالصلاة تذوب وتزول الادران والأوساخ المعنوية وتظهر الحقيقة الانسانية وتتجلى الفطرة الواقعية، فتتعرف النفس الى ربها تعرفاً يؤدي بها الى اليقين بمنه تعالى، وهو غاية وجودنا في هذه الدنيا الموقتة في هذا الحقل العملي الامتحاني من حياتنا. فقد جاء في حديث قدسي عن الله تعالى وعن سر خلقنا ووجودنا حيث يقول جل من قائل: ﴿ كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف ﴾.

فالصلاة طريق لمعرفتنا ربنا، وتتفاوت هذه المعرفة بمقدار مافي هذه الصلاة من خشوع وإقبال وخضوع، وهو القائل: ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾.

- راحة الضمير -

وفي الصلاة اطمئنان للنفس وخروج عن هموم الدنيا والقلق النفسي، فإن هذا القلق يتفاقم يوماً بعد يوم في هذا العالم المزدحم بالكوارث والنوائب والآلام.

فلابد لهذا الانسان من متنفس يزيح به عنه همومه وآلامه. والصلاة خير وسيلة لأعادة النفس الى حالتها الطبيعية. وهو قوله تعالى: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون: ١.

يقول الطبيب النفساني: الدكتور هانرى لنك[1] في كتابه: العودة الى الايمان: ص ٢٦:

« من يعتنق ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لادين له، أولايزاول أية عبادة ».

ثم يقول: « الدين هو الايمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة. هذه القوة هي قوة الله: مدبر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخلقي الالهي الذي سنه الله في كتبه المتعاقبة[2]. واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية التي هي أسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة والقيم الخلقية التي هي أقوى في أساسها من نظرية العقل أو السببية».

ثم يقول: « الدين الذي أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء. ولكنه سلاح الأقوياء فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالانسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها لافريستها وعبدها الخانع »[3].

وهو يقول أيضاً (ص ٣٢): وقد صارحني عدد جم من الناس قائلين: لاتظننا نشك في وجود الخالق، بل نحن نؤمن به وبقدرته جل وعلا، لكنه إيمان من نوع جديد، لم يأت عن طريق ترديد الخلف قول السلف. فكلنا

---

(١) كان الدكتور: لنك، ملحداً، ثم رأى حوادث جمة ووقائع هامة أثبتت له وجود الله تبارك وتعالى، فصار يؤمن بالله ويعالج مرضاه على ضوء التعليمات الدينية وهو يقول في كتابه المذكور الذي قد طبع منه خمسون طبعة في مدة وجيزة: «ولما تخرجت في هذه الجامعة بعد أن نلت شهادة: (في بيتا كابا: Phi Beta Kapa) كنت ملحداً عنيفاً ومقتنعاً تمام الاقتناع بالحادي ومستعداً لاقناع غيري به. وهكذا في العشرين سنة التالية كنت أبالغ في احتقار التعاليم الكنسية وأومن بأن الدين هو ملجأ العقول الخاملة».

(٢) ليته أسلم حتى يعلم آخر ما أنزل من السماء. وهو القرآن الكريم، فيه الكمال النفسي وإبلاغ الفرد إلى أسمى مراتب السمو الانساني.

(٣) نفس المصدر: ص/٢٩ ـ إن ما يريده الدكتور لا يتحقق إلا في الدين الاسلامي الحنيف الذي به تتم سعادة الدارين.

يمقت الكنيسة ويتجنبها لما تثيره فينا نظرياتها ومبادئها بل ورجالها من النفور والأشمئزاز، فكنت أومي برأسي علامة الموافقة على هذه الاعترافات، لأنها تؤيد مبادئي تأييداً مطلقاً ».

ويقول الدكتور: ص ٨١: « فلن نهتدي الى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها، فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبط، ومالم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها، فلن تؤدي هذه العلوم الى تحرير العقول التي إبتدعتها وإبتكرتها. بل ستقود حتماً الى إنهيار هذه العقول وتعفنها، كما أن هذا التوحيد لابد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم: وأعني به طريق الايمان. الايمن ببعض قيم الحياة الجوهرية التي لايستطيع المنطق إزاحتها أو زعزعتها ».

ويقول أيضاً: ص ٨٤: « فالواقع: أن عبادة العقل[1] والاحتقار الفكري للديانات قد جعلا الانسان فريسة سهلة بين يدي تلك النظريات شبه العلمية التي لاتقوم اليوم الا لتموت في الغد. ولقمة سائغة بين براثن أدعياء الطب، وتلك المذاهب السياسية التي أصبحت اليوم تحير عقله وتبلبل فكره.

القلق والانتحار

وهذا القلق النفسي المسيطر على العالم الغربي اليوم أدى الى مزيد الانتحارات لضعف الايمان وعدم الثقة بالله المتعال في حل المشكلات. فإن عدد الانتحارات في الثلاثين سنة الأخيرة يزيد على ٤٠ مليون منتحر، ولقد تسرب ضعف الايمان من الغرب الى الشرق فكانت نتيجة ذلك أن قد حدث خلال ٦ أشهر في بلد إسلامي في الشرق ٢٠٠٠ حادثة انتحار!

ومعلوم أن الدين يحرم الانتحار ويعده من أعظم المعاصي والكبائر وان المنتحر مخلد في النار. فقد قال الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) ويراد به العلوم الحديثة.

«من قتل نفسه متعمداً، فهو في نار جهنم خالداً فيها» ولقد ثبت أن المنتحر أما، لاايمان له أو هو ضعيف الايمان جداً.

إن الدين الاسلامي قد حرم إيذاء البدن وإيجاد نقص فيه فكيف بالانتحار!

فضعف الايمان بالله واليأس من رحمة الله هما الباعثان القويان للانتحار. ولذلك لاتجد في بلاد الشرق في وقت كان الايمان فيه قوياً والناس متعبدون أثراً للانتحار.

يقول: الدكتور بريل: «إن المتدين لايصاب بأمراض نفسية، وجميع الأمراض الجسمية (فضلاً عن النفسية) كقرحة المعدة، واختلال الجهاز الهضمي، وضربات القلب وغيرها ناتجة عن القلق النفسي والاضطرابات الروحية واليأس من رحمة الله تعالى: وهو القائل: ﴿ولا تيأسوا من روح الله، إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1].

وإن عدم التوجه في المشاكل الى الخالق المتعال، وعدم المثول بين يدي رب العباد بتضرع وابتهال عند طروء المشاكل والنوائب أديا الى إنتحار فظيع في أمريكا. ففي أحد الاحصائيات، أن في أمريكا ينتحر في كل ٣٥ دقيقة شخص واحد، ويبتلى بالجنون في كل دقيقتين شخص واحد.

أثر الصلاة في قضاء الحاجات

وهناك صلوات خاصة لقضاء الحاجات ودفع القلق والاضطراب وما قد يؤدي الى الانتحار ذكرناها في الجزء الخامس من هذا الكتاب ص ١٨٣، فإن العبد لو توجه بكله الى الله المتعال بانقطاع يعلوه خشوع وخضوع، لاستجاب الله دعاءه وقضى حاجته، بلطفه الذي لايحدو رفده الذي لانهاية له، فليجرب المجربون.

---

(١) سورة يوسف: ٨٢.

وكمثال لعدم اليأس من رحمة الله نذكر هذه القصة الحقيقية[1]، وذلك أن فتاة غربية، أسمها: «ماي باولز»، خلقت كسيحة لاتستطيع المشي، وقد أحبها إبن الجيران، ، وتقدم لخطبتها، وأسرعت الفتاة لأمها تزف البشرى. ولكن الأم أغرقت في البكاء، لأن الاطباء قالوا لها: أن ابنتها اذا تزوجت فلن ترزق بأولاد، وأنها ستعيش طوال عمرها عاقراً، فقالت الأم لابنتها: يجب أن تصارحي الشاب بهذه الحقيقة.

وقالت الفتاة: ولكني سأصلي كل ليلة، وأطلب من الله أن يمنحني أولاداً.

قالت لها الأم: لاتتعلقي بآمال كاذبة، لقد أكد أكبر الأخصائيين انك ستعيشين عاقراً، ومن السذاجة أن تتشبثين بالسماء، يجب أن يعرف خطيبك الحقيقة كاملة.

وصارحت الفتاة الشاب، برأي كبار الاخصائيين. فأصر على الزواج.

وبعد أن تم كانت الكسيحة تدعو ربها في كل ليلة، وتقول «الهي حرمتني نعمة المشي، فهل يرضيك، أن تحرمني نعمة الامومة التي تتمتع بها ملايين الامهات اللائي يمشين على أقدامهن؟ أتعطي غيري النعمتين، ولاتعطيني واحدة منهما.

واستمرت تدعو هذا الدعاء من أعماق قلبها مدة أربعة عشر عاماً لاتكل ولاتمل، ولاتفتر ولاتقنط ولاتيأس، وبعد هذه السنوات الطوال وضعت ثلاثة أولاد في حمل واحد. وعاشوا جميعاً بكامل الصحة.

الغضب

وقد يكون الانتحار نتيجة غضب شديد وتهيج عصبي مرير ولكن الله تعالى قد أمرنا بكظم الغيظ، (ولاموفق الا الله) وهو القائل: ﴿ والكاظمين

---

(١) بين الله والانسان: تأليف العلامة: الشيخ محمد جواد مغنية نقلاً: عن جريدة الأخبار المصرية عدد ٢٤ أيار سنة ١٩٦٤.

الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٨).
﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾.

ومن كلام لعلي عليه أفضل الصلاة والسلام: « أحمل نفسك من أخيك عند ضره على الصلة، وعند صدوده على اللطف، وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين ».

وإن الله تعالى قد عظم أمر « الصبر » في النوائب: حتى قال: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1].

* * *

وإقرأ معي هذه المناجاة لمولانا وامامنا زين العابدين عليه السلام، لتقف على الصلاة الكاملة:

« اللهم صل على محمد وآل محمد، وقفنا فيه على مواقيت الصلوات الخمس بحدودها التي حددت، وفروضها التي فرضت ووظائفها التي وظفت، وأوقاتها التي وقتت، وأنزلنا فيها منزلة المصيبين لمنازلها الحافظين لأركانها، المؤدين لها في أوقاتها على سنة عبدك ورسولك صلوات الله عليه وآله في ركوعها وسجودها، وجميع فواضلها على أتم الطهور وأسبغه وأبين الخشوع وأبلغه ».

ثم أنظر كيف يخاطب الله، إمامنا علي بن الحسين سيد الساجدين عليه السلام قائلاً:

« يا الهي، لو بكيت اليك، حتى تسقط أشفار عيني، وأنتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتثر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت إليك، حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك، حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي الى آفاق السماء إستحياء منك ما أستوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي، وإن كنت تغفر لي حين

(١) سورة الزمر: ١٠.

إستوجبت مغفرتك وتعفو عني حين أستحق عفوك، فأن ذلك غير واجب لي، ولا أنا أهل له باستيجاب».

وإن آل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يفعلون ما يقولون، ولايقولون مالا يفعلون، فقد تواتر عند أهل السير والتاريخ أن الامام زين العابدين عليه السلام كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، تماماً كجده أمير المؤمنين عليه السلام. وكان يصلي صلاة مودع، أي كما لو علم أنه لايبقى بعدها. وكان اذا حضرت الصلاة اقشعر جلده واصفرّ لونه، وارتعد كالسعفة خشية من الله، وقد انخرم أنفه من كثرة السجود وثفنت جبهته وركبتاه. ومع هذا كان يكرر في مناجاته، ويقول: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[1].

أنوار قدسية

ثم أن الصلاة لو كانت مستجمعة للشروط الباطنة من حضور وخشوع وتعظيم وهيبة وحياء، بعيدة عن كل عجب، مجردة عن كل رياء وحب الظهور وآفات أخرى، فهي تضفي على قلب صاحبها أنواراً قدسية، يقف المصلي بسببها على علوم باطنه وحقائق فلسفية، «فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

وكم من أناس كانت صلاتهم صلاة عادية ميكانيكية، فلا يلتذون بها ولايتصلون بسببها الى عوالم الملكوت، ولاينالون ذلك الفرح الناصع الذي لايشبه افراح الدنيا الملوثة في شيء، فرح الاتصال بمعالم القدس، فرح تتجلى فيه علة وجود الانسان في هذا الكون الرحيب، حتى اذا من الله عليهم بلطفه الأبدي، فتوجهوا اليه تعالى في صلاتهم بكلهم وتعلقت قلوبهم بخالقهم وانجذبوا نحو المبدء الاعلى أيما انجذاب، تفتحت امام أعينهم حقائق جمة عن معالم الدين ووقفوا على فلسفة الكون والحياة وعلة الوجود، فعاشوا بهذا العلم الناصع والنور الالهي الساطع حياة روحية سامية، بعيدة عن براثن المادية

---

(١) بين الله والانسان. ص/٩٥، للعلامة الشيخ محمد جواد مغنية.

الهوجاء، وصاروا ينظرون الى عظمة الله بعين ملئت من أنوار القدس، وجمال الخالق المتعال منغمرين في معرفة صفات الله و وحبه وكمالـه. وانه ليفيض على قلب كل مؤمن من أنوار القدس بمقد 'في صلاته من توجه وخشوع واخلاص.

فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: « إن العبد اذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وإن المصلى لينشر عليه البر من أعنان السماء الى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي ما التفت، وأن أبواب السماء تفتح للمصلين، وان الله يباهي ملائكته بصدق المصلي ».

وورد في التوراة: يا إبن آدم لاتعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا، فأنا الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري »[1].

* * *

وللايمان آثار وموازين كما للاشياء المادية موازين ومقاييس ومن موازين الايمان أنك تحب الصلحاء من عباد الله وتود مجالستهم، فاذا أردت ان تعلم ما أنت عليه من الايمان، فأنظر الى قلبك واقرأ ما يقوله الامام الباقر بن الامام السجاد عليه السلام[2]:

إنه يقول: « اذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً، فأنظر الى قلبك، فإنْ كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فلا خير فيك، والله يبغضك، والمرء مع من أحب».

وإني أذكر هنا دعاءاً لعلي عليه السلام لأهميته:

«أللهم أني أعتذر اليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره، ومن

(١) جامع السعادات. ج: ٣ ص/٣٥٥.
(٢) المصدر السابق.

معروف أسدي إليّ فلم أشكره، ومن مسيىء اعتذر إليّ فلم أعذره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوثره، ومن حق ذي حق لزمني فلم أوفره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره، ومن كل أثم عرض لي فلم أهجره».

فللصلاة اهمية عظمى، وان المستخف بها يحرم من شفاعة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام يوم ﴿يفر المرء من اخيه وامه وأبيه، وصاحبته وبنيه﴾. فلقد قال الامام موسى بن جعفر عليه السلام: «لما حضرت أبي الوفاة، قال لي يابني: أنه لاينال شفاعتنا من استخف بالصلاة»[1].

فالصلاة مفتاح لمزيد الدرجات والتقلب في أطوار الكمالات والبلوغ الى أسمى المقامات، فطوبى للخاشعين الذين يرثون الفردوس وهم فيها خالدون:

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فأنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[2].

فطوبى لأولئك الذين خشعوا في صلاتهم وبكوا على ذنوبهم شوقاً الى لقاء الله[3]، بكاءاً يتخلله حب الهي واعتراف بعظيم نعمه وهدايته وتوفيقه، فساروا في عوالم القدس، فشملهم راحة الضمير وحبور لايشبه مسرات الدنيا الدنية في شيء. طوبى لهم وحسن مآب.

* * *

انتهى الجزء السابع والحمد لله

(١) جامع السعادات. ج: ٣ ص/٣٥٤.

(٢) سورة المؤمنون: ١ ـ ١١.

(٣) هو اللقاء المعنوي والتقرب إلى ساحة القدس.

فهرس الجزء السابع

الموضوع	الصفحة